مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد السادس والثلاثون

سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلاغِيِّ

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المجلّد السّادس والثّلاثون

سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38

نخبة من علماء مجمع القرآن الكريم بالشارقة

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والثلاثون،
سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م

الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 36 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 2-79-732-9948-978
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 36 : المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 5-78-732-9948-978
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8956803 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الثَّامِنَ عَشَرَ

سُورَةُ المُؤْمِنُونَ

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ٦٤ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ٦٥ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ٦٦ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ٦٧﴾ [المؤمنون: 64 - 67]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبلَها:

الانتقالُ من ضلالِ الدُّنيا إلى نتيجتِهِ في الآخرةِ

بعد أنْ ذكرت الآيةُ السّابقةُ حال المشركين بربِّهم في الدُّنيا، المُعرضين عن الإيمان به، المُغالين في الانغماس في الباطل في الدُّنيا؛ ناسب بيانَ حالهم يوم القيامة عندما يواجَهون بعذاب جهنَّم، نتيجةَ إعراضهم واستكبارهم، فيرفعونَ أصواتَهم مُستغيثين من عذابها، لكنْ مَنْ ذا الّذي يُغيثهم من عذاب اللّه إذْ جاءهم؟ فما لهم منه من عاصم، وقد فاتَ وقتُ النَّدمِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُتۡرَفِيهِم﴾: (ترف) كلمةٌ واحِدَةٌ، وهي التُّرْفَةُ(1): بمعنى التَّوسُّع في النِّعمة، يُقال: أُتْرِفَ فلانٌ فهو مُتْرَف(2)، فالتَّرَفُ: التَّنَعُّمُ، والتَّتْريفُ حُسْنُ الغِذاء، وصبيٌّ مُتْرَفٌ إذا كانَ مُنَعَّمَ البدنِ مُدَلَّلًا، والمُتْرَفُ: الّذي قَدْ أبْطَرَتْه النِّعمةُ وسَعَةُ العيْشِ، وأتْرَفَتْهُ النّعمةُ؛ أيْ: أطْغَتْه(3)، والمقصود بالمُتْرَفينَ في الآية: المُعطَوْنَ تَرَفًا، وهو الرَّفاهيةُ؛ أي: المُنَعَّمونَ(4).

2) ﴿يَجۡـَٔرُونَ﴾: (جأر) أصلٌ يدلُّ على رفع الصَّوت، جَأرَ يَجْأرُ جَأْرًا وجُؤارًا: رَفَعَ صَوْتَهُ مع تَضَرُّعٍ واسْتِغاثَةٍ(5)، وجَأرَ القومُ إلى اللّه

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ترف).
(2) الرّاغب، المُفردات: (ترف).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ترف).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 82.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (جأر).

جؤارًا، وهو أنْ يرفَعوا أصواتَهم إلى اللّه مُتضرِّعين[1]، والجُؤارُ مِثْلُ الخوار، جأر الثَّوْرُ والبقرةُ يَجأرُ جُؤارًا: صاحا، وخارَ يَخور بمَعْنًى واحدٍ: رَفَعا صَوْتَهُما، وغَيْثٌ جُؤَرٌ مِثْل نُغَر؛ أيْ: مُصَوّتٌ[2]، والمقصود بـ﴿يَجۡـَٔرُونَ﴾ في الآية: يَصرخونَ بالتَّضَرُّعِ، وهو كناية عن شِدَّة ألَمِ العذابِ[3].

3) ﴿أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾: (عقب) أصْلٌ يَدُلُّ على تَأْخيرِ شَيءٍ وإتيانهِ بعدَ غيرهِ، وكُلُّ شَيْءٍ يَعْقُبُ شيئًا فهو عَقيبُهُ[4]، والعَقِبُ: مُؤخَّر الرِّجْل، وقيل: عَقْبٌ، ورجع على عَقِبِه: إذا انْثنى راجعًا[5]، وأعْقَبَ عَنِ الشّيءِ: رَجَعَ[6]، والأعقابُ جَمْعُ عَقِبٍ، وعَقِبُ كُلِّ شَيْءٍ طَرَفُهُ وآخِرُهُ، ويُقال: رَجَعَ على عَقِبِهِ وعلى عَقِبَيْه، ونَكَصَ على عَقِبَيْهِ بِمَعْنَى رَجَعَ إلَى المكانِ الّذي جاءَ منه؛ لأنَّهُ كانَ جاعلًا إيّاهُ وراءهُ فرَجَعَ، وهو في الآيةِ كنايةٌ عنِ الإعراض عن آيات اللّه تعالى[7].

4) ﴿تَنكِصُونَ﴾: (نكص) أصلٌ يدلُّ على الإحجام، يُقال: نَكَصَ على عقبيهِ، إذا أحْجَمَ عن الشَّيءِ خَوفًا وجُبْنًا[8]، والنَّكيصةُ: التَّأَخُّر عن الشَّيء[9]، قالَ ابنُ دُريد: نَكَصَ على عقبيْهِ: رَجَعَ عَمّا كانَ عليه من خيرٍ؛ لا يُقالُ ذلكَ إلّا في الرُّجوعِ عن الخَيرِ[10]، والمقصود به في الآية: الرُّجوعُ من حيثُ أتَى، وهو الفرارُ، وهو هنا تَمثيلٌ للإعراضِ[11].

5) ﴿سَٰمِرٗا﴾: (سمر) أَصْلٌ يدُلُّ على خِلافِ البَياضِ في اللَّونِ[12]، والسَّمَرُ: الحديثُ باللَّيْلِ، مأخوذٌ مِنَ السَّمَرِ، وهو ظِلُّ القمرِ، ومنه؛ سُمْرَةُ اللَّونِ[13]، والسّامِرُ: الموضِعُ الّذي

(1) الخليل، العين، والرّاغب، المُفردات: (جأر).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (جأر).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 84.
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عقب).
(5) الرّاغب، المُفردات: (عقب).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (عقب).
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/ 300، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 47.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نكص).
(9) الخليل، العين: (نكص).
(10) ابن دُرَيْد، جمهرة اللُّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (نكص).
(11) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 85.
(12) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سمر).
(13) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سمر).

يجتمعون فيه للسَّمَر[1]، والسّامرُ أيضًا: القَوْمُ يتحدَّثون بِاللَّيْلِ، أُخرج مُخرج باقِر وجامِل، والجمع: سُمّار وسامرٌ[2]، والمقصود بالسّامِرِ في الآية: اسمٌ لجمعِ السّامِرينَ؛ أي المُتحدِّثينَ في سَمَرِ اللَّيلِ؛ وهو ظُلمتُهُ[3].

6) ﴿تَهْجُرُونَ﴾: (هجر) أصلٌ يدُلُّ على قَطيعَةٍ وقَطْعٍ، يُقال: هَجَرَ فُلانٌ هَجْرًا بِالفتْحِ، وهِجْرانًا بِالكَسْرِ: إذا تَباعَدَ، وهَجَرَ الشَّيْءَ أوِ الشَّخْصَ؛ أيْ: تَرَكَهُ وأعْرَضَ عنه، وضِدُّه: الوَصْلُ[4]، ويأتي بمعنى ما يُسْتَفْحَشُ مِن الكلامِ والقَبيحِ مِن القَوْلِ، يُقال: هَجَرَ المَريضُ في كَلامِهِ هَجْرًا؛ أيْ: خَلَطَ وهَذَى[5]، والمُراد به هنا: التَّرْكُ والإعراضُ، أوِ الهَذَيانُ[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

جُــؤارُ الكـافـرِ المُترفِ عند نزولِ العـذابِ كخوارِ البَقَرِ عندَ نزولِ الذّابحِ

تُبيِّن الآياتُ حالَ المشركين، فإذا عاقَبَ اللّهُ هؤلاء المُترَفينَ المُنَعَّمينَ؛ أخَذوا يَصرُخونَ ويَستَغيثونَ مِن شِدَّةِ عَذابِهم، طالِبينَ الخَلاصَ ممّا أصابَهم، فيُقالُ لهم: لا تَصرُخوا وتَستَغيثوا؛ فلا شَيءَ يُخلِّصُكم مِن عذابي، ولا يَنفَعُكم صُراخُكم؛ قد كانَتِ الآياتُ تُتلَى عليكم، فكُنتُم تُعرِضونَ عنها، حالَ كونِكم مُستكبِرينَ بسببِ البيتِ الحرامِ، - تقولونَ: لا يَظهَرُ علينا أحدٌ؛ لأنّا أهلُ الحَرَمِ - متحدِّثينَ ليلًا تَهْذونَ في شأنِ القرآنِ، وتقولونَ فيه الباطلَ[7].

(1) الخليل، العين: (سمر).
(2) ابن دُرَيْد، جمهرة اللُّغة: (سمر).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 86.
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (هجر).
(5) ابن سِيدَه، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (هجر)، والمُناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 342.
(6) السّمين، عُمدة الحُفّاظ: (هجر).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 78، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 135، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 482.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ودلالتُها:

(حـتـى) هنا ابتدائيّةٌ وغايةٌ لما قبلها، وما بعدها كلامٌ مُبتدأٌ غرضُه التَّهديدُ والوعيدُ

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم﴾ ابتدائيَّةٌ، يُبتدَأ بها الجُمَل ولا عملَ لها، وما بعدها هو ابتداء كلام، وهي مع ذلك غايةٌ لما قبلها من حيث المعنى؛ أيْ: هي حرفُ انتهاء في المعنى وحرفُ ابتداء في اللَّفظ؛ لأنَّ ما بعدها جملةٌ مُستأنَفَة[1]؛ كأنّه قيل: لا يزالونَ يعملون أعمالَهم إلى وقتِ أخْذِ مُترفيهم بالعذاب، والأكثرُ أنْ تكون في معنى التّفريع، وبهذه الغاية صار الكلامُ تهديدًا لهم بعذاب سيحِلُّ بهم، يجأرون منه ولا ملجأ لهم منه[2].

دلالةُ استعمالِ ظرفِ الزّمانِ المستقبلِ:

تعليقُ جزاءِ أعمالِ المشركين بوقتِ الأخذِ

﴿إِذَآ﴾ ظرفٌ لما يُستقبلُ من الزّمان، مُضمَّنٌ معنى الشَّرط، وجملة: ﴿أَخَذۡنَا﴾ جملةٌ شرطيّة، والمعنى: فليعمَلوا ما شاءوا من الأعمالِ حتّى وقتِ أخذِهم بالعذابِ الموعودِ، فسيكون لهم من العذاب ما يُدهشهم، وما لا ينالون من ورائه إلّا كلَّ ندمٍ وحَسْرةٍ، ولمّا كانوا كالبهائم لا يخافون من المَهلكة إلّا عند المشاهدة غيَّى عملَهم للخبائث بالأخذ، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا﴾[3].

بلاغةُ الاستعارةِ باستعمالِ مُفرَدَةِ ﴿أَخَذۡنَا﴾:

الأخذُ يدلُّ على قوّةِ العذابِ وشدَّةِ سطوتِهِ

الأخذ هو: حَوْزُ الشّيء في الأثناء بغِلَظٍ؛ أيْ: قَبْضٌ بقوّةٍ، وقد جاء أكثرُ فعلِ (أخذ) بمعنى القبض الحقيقيّ أوِ المجازيِّ[4]، وهو هنا مُستعملٌ في معناه المجازيّ بمعنى (انتقمنا)؛ ففي مُفرَدَة (الأخذ) استعارةٌ تصريحيَّة تبعيَّة، بتشبيه الانتقام من الظّالمين

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 265، 266.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 193، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 248، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 81.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 162.
(4) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (أخذ).

بالأخذ، والتَّعبير بالأخذ يدلُّ على قوَّة الانتقام المذكور لوجود التّمسُّكِ بالمُعذَّب والمنتقم منه وعدم الإفلات له؛ إذ الأخذُ حوزٌ للشَّيء وتمسُّكٌ به، كما يشيرُ إليه قوله سبحانه: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٤٢﴾ [القمر: 42] ويكثُر ورودُه في وقوع العذاب فجأةً في الدُّنيا، كما في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝٤٤﴾ [الأنعام: 44]، وقوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩٥﴾ [الأعراف: 95].

نكتةُ إسنادِ فعلِ (أخذ) إلى ضميرِ العَظَمَةِ:

تعظيمُ الفاعلِ يستلزمُ عَظَمَةَ الفعلِ وعَظَمَةَ الجُرْمِ

في إسنادِ فعل (أخَذَ) إلى ضمير العَظَمَة: ﴿أَخَذْنَا﴾ إشعارٌ بقوَّة العذاب وشدَّته؛ فهو من الشدَّة بحيث لا يقدِر على إنشائِهِ وبعثِهِ إلّا مَنْ بيده مقاليدُ السّماواتِ والأرضِ، وعظمة الآخذِ تُشعِر بعظَمَةِ الأخذِ والانتقامِ، ممّا يدلُّ على عَظَمَةِ الجُرم الّذي اقترفوه.

دلالةُ استعمالِ مُفرَدَةِ التَّرَفِ:

ذِكْرُ التَّرفِ تنبيهٌ على سببِ الكُفرانِ وتنبيهٌ وتحذيرٌ لأهلِ الشُّكرانِ

المُترَفون هم المُنعَّمون، والتّنعُّم عند العقلاء سببٌ لجَلْبِ الشُّكر، وليس للإغراق في الكفر، لكنّ الإنسانَ ظلومٌ لنفسه كفّارٌ لنعم ربِّه، يُقابلُ النّعمة بالكفران لا بالشُّكران، قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾ [إبراهيم: 34]، ففي ذِكْرِ (التَّرفِ) في معرضِ التَّعذيبِ والانتقام نعيٌ عليهم؛ لأنَّهم قلَبوا موازينَ العدلِ، فـ ﴿بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝٢٨﴾ [إبراهيم: 28]، وفي ذِكْرِ التَّرَفِ إيماءٌ إلى سببِ التَّعذيبِ والانتقامِ، وأنَّه أصلُ البلاءِ للقلبِ الجَحودِ، وكذلك تنبيهٌ لأهلِ النِّعم أنْ لا يَغرقوا في نِعَمهم، فيُصيبهم بلاءُ الكُفران، كما أنَّ تعليقَ الانتقام بالمشتقِّ ﴿مُتْرَفِيهِم﴾ يدلُّ على علَّة الانتقام؛ وهو التّنعُّم الواصلُ إلى درجة الطُّغيانِ وإنكارِ لقاءِ اللّهِ تعالى.

دلالةُ إضافةِ (مترفين) إلى ضميرِ الغيبةِ:

المُترفون الجاحدونَ أصلُ كلِّ بلاءٍ وعذابٍ في الدُّنيا والآخرة

في إضافة (مُترفين) إلى ضمير الغيبة ﴿مُتۡرَفِيهِم﴾ تنبيهٌ على أنَّ الكافرين طبقاتٌ في المعيشة الدنيويَّة، فمنهم مَن يعيش مُترفًا بالغًا أعلى مراتب الجحود والكفران، ومنهم مَن يعيش خادمًا لأولئك يَعيث في الأرض فسادًا لخدمة أسياده المُترفين، لعلَّه ينال من وسخ ترفِهم وقذارة بذَخِهم، ثمَّ يناله ما نالهم في الآخرة، وفي الإضافة تنبيهٌ على أنَّ لكلِّ قومٍ مُترفين، إذا فسَدوا وجحدوا أفسدوا العباد والبلاد، ونشروا شرورَهم وكانوا سببًا لنشر الطُّغيان والآثام، ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ [الإسراء: 16]، وأنَّ الواجبَ على العقلاء أن يأخذوا على أيدي المترفين الجاحدينَ ليُنقذوا أنفسَهم من النّار، وأنْ لا يكونوا تبعًا لهم في نقلِ إفسادِهم وشُرورهم.

توجيهُ تخصيصِ المُترفين بالذِّكرِ:

ترفُ الجاحدينَ علَّةُ العذابِ وسببُ العقابِ ومنبعُ كلِّ شرٍّ وبلاءٍ

إنَّما خصَّصَ المُترفين بالتّعذيب مع أنَّ شأن العذاب أنْ يعمَّ الكافرينَ كلَّهم؛ لأنَّهم أشدُّ إحساسًا بالعذاب؛ فهم لم يعتادوا مسَّ الضَّرّاء والآلام[1]، ولأنَّهم - في الأغلب - هم سببُ نزول العذاب بالعامّة والتّابعينَ لهم، لأنَّهم هم الذين يُغوونهم ويُحرِّضونهم على الكفر وهم يَمتثلون لكلامهم، ثمَّ إنَّهم يتبرؤون منهم يومَ القيامة، كما يُشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 82.

﴿ٱلْعَذَابَۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٣٣﴾ [سبأ: 31 - 33]، كما يحملُ التَّخصيص دلالةً تحذيريّةً لكلِّ مُتنعِّمٍ أنْ يُسخِّر ظرفَه المعيشيَّ المُترف نحوَ الإنفاقِ وعملِ الخيرات.

تعيينُ مرجعِ الضَّمير في ﴿مُتۡرَفِيهِم﴾:

الضَّمير يرجع إلى كفّار مكّةَ ويَعُمُّ بدلالته السُّننيَّة

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿مُتۡرَفِيهِم﴾ يعودُ إلى الكفّار الذين مرَّ ذكرُهم فيما مضى، وهم كفّار مكة[1]، فهو رجوعٌ إلى وصف الكفّار، وهو أوْلى؛ لأنَّه إذا أمكنَ ردُّ الكلام إلى ما اتّصلَ به كان أوْلى من ردِّه إلى ما بعدَه[2]، ويجوز أنْ يكون المُراد بالمُترفين جميعَ المشركين، فتكون الإضافة بيانيّةً، ويكون ذِكْرُ المترفين تهويلًا في التّهديد، وتذكيرًا لهم بأنَّ العذابَ يُزيل عنهم ترفَهم، والمعنى: (حتى إذا أخذناهم) وهم في ترفهم[3]، وهي وإن كانت خاصَّة بالمذكورين في السّياق، إلّا أنَّ حملَها على العموم أوْلى؛ لأنَّ هذا سنَّةُ جميع المُترفين الجاحدين.

نوعُ الباءِ ودلالتُها ﴿بِٱلۡعَذَابِ﴾:

باءُ الملاصَقة دليلٌ على توغُّلهم في أنواعِ العذابِ

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡعَذَابِ﴾ على معناها الأصلي وهو (الإلصاق)، وهو دالٌّ على شدَّة تعذيبهم لكونهم مُلتصقين بالعذاب متلبِّسين به، فتدلُّ ملابستهم للعذاب على بيان نوع الأخذ والانتقام أنّه أخذُ تعذيبٍ وإهلاكٍ وتدمير، وأنْ ليس بينهم وبين العذاب حاجزٌ حتّى إنّهم توغَّلوا فيه وخاضوا في غمراته.

معنى التّعريفِ في لفظِ العذابِ:

العذابُ عامٌّ يدخلُ فيه كلُّ ما أصابَ المُترفين

(أل) في كلمة ﴿بِٱلۡعَذَابِ﴾ للجنس المُستلزم للاستغراق بمعونة المقام، فيشمل كلَّ ما أصابهم من أفراده في المستقبل؛ كالقتل والأسر يومَ بدر، وكالجوع الّذي أصابهم حينَ دعا عليهم رسول

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 249.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 571.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 83.

اللّه ﷺ بقوله: «... اللهُمَّ اشْدُدْ وطْأتَكَ علَى مُضَرَ، اللهُمَّ اجْعَلْها عليهم سِنِينَ كَسِني يوسُفَ»[1]، فقُحطوا حتّى أكلوا الكلاب والجيف والعظام المحرَّقة والأولاد، وكذلك أيضًا العذاب الأخروي[2].

بلاغةُ اختيارِ مُفرَدَة العذابِ:

العذاب أعمُّ دلالــة من العقاب، والعقاب أخصُّ

عبَّر بـ (العذاب) دون (العقاب)؛ لأنَّ (العذاب) هو اللَّفظ الأوسعُ معنًى، فيشملُ ما دلَّ عليه العقابُ وزيادة، فالعقاب يُنبئ عَن اسْتِحْقاق، وسمّي بذلك لِأن الفاعِل يسْتَحقّهُ عقيبَ فعله، أمّا العذاب فيجوز أن يكون مُسْتَحقًّا وغير مستحق[3]، ومعنى هذا أنَّ بين (العقاب والعذاب) عمومًا وخصوصًا مطلقًا، فكلُّ عقابٍ عذابٌ، وليس كلُّ عذاب عقابًا، كما أنَّ العقوبة قد تكون مخفّفةً بخلاف العذاب المستلزم للشدِّة، وهذا في الدُّنيا، أما في الآخرة، فلا فرق بين العذاب والعقاب؛ لأن اللّه تعالى لا يعذِّب إلّا عن استحقاق، ولا ننسى أنَّ العذاب أنسبُ للأخذ؛ لأنَّ الانتقام يكون بالعذاب أوجعَ من العقاب الّذي يختلف شدَّةً وقوّةً.

نوع ﴿إِذَا﴾ الثانية ودلالتها:

المترفُ إذا وقع به العذاب فاجأك بجؤاره واستغاثته

اختُلف في ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ﴾؛ فقيل: هي الظَّرفيّة[4]؛ أيْ: وقتَ جؤارهم[5]، وقيل: هي الفُجائية، والمعنى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ﴾ فاجأك جؤارهم بالصّراخ والاستغاثة باللّه ﷻ من عذابِه، و﴿إِذَا﴾ الثانيةُ في موضعِ جوابِ ﴿إِذَآ﴾ الأولى[6]، وكونُ الجواب مُفاجئًا يدلُّ على شدَّة العذاب النّازل بهم، حتّى إنَّهم

(1) صحيح البخاريّ، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (6393).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 142.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 239.
(4) الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 4/ 612.
(5) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 337.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 142، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 248.

بمجرَّد أخذهم به صرخوا واستغاثوا، وما تلك السُّرعة الّتي تُنبئ عنها المفاجأة إلّا دليلَ كون العذاب غيرَ مُحتمَل.

بلاغةُ جملةِ ﴿هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ﴾:

شِدَّةُ العذابِ تستدعي جؤارًا لم يُسمَع

قُدِّم المُسنَد إليه - وهو ضميرُ الفصل - على المُسنَد الفعليّ في قوله تعالى: ﴿هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ﴾ لتقويةِ الحكم، وتأكيدِ حصول جؤارهم وصُراخهم واستغاثتهم معَ ما فيه من التَّخصيص، فهم يجأرونَ دونَ غيرهم؛ بسببِ ما أصابَهم من شدَّة العذاب، وهول المصاب، ولأنّهم كانوا السّببَ في إغواءِ غيرهم، فيتحمَّلون أوزارهم وأوزارَ مَن يُضلّونهم بقسوة العذاب وشدَّته.

دلالةُ التَّعبيرِ بمُفرَدَة ﴿يَجۡـَٔرُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

جُؤارُ المُشركِ أشدُّ من خوارِ البقرِ

أوثر التَّعبير بمُفرَدَة ﴿يَجۡـَٔرُونَ﴾ دون غيرها، لما تحملُه من معنيَي رفعِ الصَّوت مع الاستغاثة والتضرُّع، يُقال: جَأَرَ يَجْأَرُ جَأْرًا وجُؤارًا: رَفَعَ صَوْتَهُ مع تَضرُّعٍ واسْتِغاثَةٍ[1]، وفيه إيماءٌ إلى تشبيههم بالبقر عندما يخورُ تهكُّمًا بهم واستخفافًا، فما أشبه الجؤار بالخوار؛ بل الخوار ألطفُ على الأُذن من الجُؤار؛ لأنَّهم أضلُّ من الأنعام، ودلَّ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَجۡـَٔرُونَ﴾ على تكرُّر جُؤارهم وصُراخهم وتجدُّده كلَّما اشتدَّ عليهم العذاب، وازدادَ عليهم لفحُ جهنَّم.

نكتةُ حذفِ مُتعلّقِ الفعلِ:

الجؤارُ سلوكُ المعذَّبين وصوتُ المُعاقَبين

حُذف مُتعلّق ﴿يَجۡـَٔرُونَ﴾ فلم يَقُلْ: (يجأرون من العذاب) لمعرفة المحذوف من السّياق، ولإفادةِ العموم؛ أيْ: يجأرون من العذاب كلِّه بجميع ألوانِه، أوْ لتنزيله منزلةَ اللّازم، فهم يجأرون جؤارًا ثابتًا فيهم، بحيث يصبحُ مسلكَهم ومنهجَهم في العويل والنَّحيب مع ما في الحذف من مراعاة الفاصلة.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (جأر).

نوع ﴿لَا﴾ ودلالتها:

توبيخُ المشركين علـى جُـؤارِهـم وتقريعُهم على استغاثتِهم

﴿لَا﴾ في قوله: ﴿لَا تَجۡـَٔرُواْ﴾ ناهية، والغرضُ من النَّهي تحسيرُهم وإقناطُهم بقطع آمالهم في الإغاثة من هذا العذاب الّذي حلَّ بهم؛ فمعنى: ﴿لَا تَجۡـَٔرُواْ﴾: اخرَسوا واصمُتوا فلن يُفيدَكم ذلك مهما بالغتُم فيه، مع ما فيه من التّقريع والتّوبيخ والتّهديد، وقيل: النّهي هنا مُستعملٌ في معنى التّسوية، وورودُ النّهي في معنى التّسوية مقيسٌ على ورود الأمر فيها، وقد اجتمعا معًا في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [الطّور: 16][1]؛ أيْ: جأرتم أوْ لم تجأروا؛ فالأمرُ سيّان.

نكتةُ التَّعبيرِ بالنَّهيِ دونَ الأمرِ:

الـجُـؤارُ مستمرٌّ ما دام العذابُ قائمًا

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالنَّهي دون الأمر؛ فقال تعالى: ﴿لَا تَجۡـَٔرُواْ﴾ ولم يَقُلْ: (اخسؤوا أو انتهوا أو اصمتوا ونحوه)، لكونه أزجرَ وأنسبَ بالمقام، من جهة كونه ناشئًا عن حالهم وواقعِهم المفهوم من قوله تعالى: ﴿إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ﴾، فإنَّ قوله تعالى: ﴿يَجۡـَٔرُونَ﴾ وصفٌ لم يسمعْه أولئك؛ بل حُكي عن حالهم، فكان إسماعُهم ﴿لَا تَجۡـَٔرُواْ﴾ هو موضعَ التّقريع والتّوبيخ، بخلاف أنْ يأتي أمرٌ بالصّمت، فإنَّه يُلزِمُهم السُّكوت، وليس إسكاتُهم مطلوبًا؛ بل المطلوب تقريعُهم وتوبيخُهم، فإنَّ الجؤار مستمرٌّ ما دام العذاب واقعًا.

بلاغةُ ذِكْرِ الظَّرفِ:

النّهيُ ثابتٌ في يومِ الجؤارِ؛ فما أطولَه من يومٍ!

من المعلوم أنَّ النّهي يكون في زمنٍ، وقد آثر النّظمُ ذِكْرَ ﴿ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ مع كونه لا يحتاجُ إلى ذكرٍ؛ لأنَّه مُتعيّنٌ ومعلومٌ؛ وذلك "لتهويله والإيذانِ بتفويتِهم وقتَ الجُؤار"[2]، وللإيماءِ إلى أنَّ النَّهي عن الجُؤار سيكون اليومَ، فما دام هناك جؤارٌ سيكون نهيٌ عنه في ذلك اليوم.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 85.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 142.

بلاغةُ التّعليلِ ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾:

حالةُ الجؤارِ حالةُ اليائسِ الغريقِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ جملةُ تعليلٍ، فموقع (إنَّ) هنا إفادةُ التّعليل؛ لأنَّها تُغني غَناء فاء التفريع[1]، والتّعليل للنَّهي عن الجؤار ببيان عدم إفادته ونفعه؛ أيْ: لا يلحقُكم من جهتنا نصرةٌ تُنجيكم ممّا دهمَكم[2]، وغرضُها التّيئيس من حالهم الّتي وصلوا إليها، فإنَّ حالة الجؤار هي حالة اليائس الغريق، ولا مَنْجى لهم إلّا بيد مَن قال: ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾، ولا يعني هذا التّحديد أنّهم يُنصرون من غيره تعالى؛ لأنّهم لمّا صرخوا كان جُؤارُهم مُتوجِّهًا له دونَ غيره، وعندما يُعلِمُهم بأنَّه لا يلحقهم نصرٌ من جهته فمعناه أنّه لا ناصرَ لهم غيرُه تعالى.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ (من):

تضمينُ النَّصرِ معنى النجاةِ من العذابِ

(من) في قوله: ﴿مِّنَّا﴾ ابتدائيةٌ، والمعنى: إذا لم يلحق نصرٌ ابتداءً من جهته تَعالَى؛ فلا نصرةَ لهم أصلًا إذ لا ناصرَ سواه، وجوَّزوا أن تكون ﴿مِّنَّا﴾ للتّعدية على تضمين النّصر معنى المنع[3]؛ أيْ: لا يمنعكم أحدٌ من عذابنا، أوْ تضمين معنى النّجاة؛ أيْ: لا تنجون من عذابنا، فثمَّ مُضافٌ محذوفٌ بعد (من) - وهو العذاب - وحذفُ المُضاف في مثل هذا المقام شائعٌ في الاستعمال[4]، ويترجّحُ الابتداء على غيره الّذي يستلزم التّضمينَ أوْ تقديرَ المحذوف؛ لأنّ نفي النّصرة من جهة اللّه تيئيسٌ له بعدم وجود أيِّ ناصر لهم، ويكون فقدانُ الناصر كنايةً عن مكوثهم في العذاب لترك اللّه تعالى نصرتَهم وإغاثتَهم.

نكتةُ إيثارِ الإضمارِ على الإظهارِ:

التّهديدُ بالخطابِ أوقعُ من التّهديدِ بالغيبةِ

جاء التَّعبير بالضَّمير في قوله تعالى: ﴿مِّنَّا﴾ ولم يَقُلْ: (إنكم من

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 85.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 142.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 198.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 85.

اللّه لا تنصرون)، لأنَّه أدلُّ وأوقعُ على المُراد، لأنّه لا مُنازِعَ له سبحانه حتّى يتميَّز بالإظهار، ولما فيه من التَّهديد بعبارات الخطاب، فإنَّ خطابَ المُعذَّب أشدُّ من الغَيبةِ إذا كان نتاجه اليأس وانعدام الأمل، كما أنَّهم لمّا جأروا وصرخوا من العذاب لم يُحدِّد النّظمُ المجؤور له؛ للدّلالة على أنّه اللّه وحدَه ولا أحدَ غيره، ومن ثَمَّ فإنَّ المقامَ مقامُ إضمار تشخيصًا لما تمَّ السّكوت عنه سابقًا، فيكون التّقدير: (إذا هم يجأرون - إلى اللّه - لا تجأروا اليوم إنّكم منّا لا تُنصرون)، فكان تركُهم للفظ الجلالة للعلم بأنَّهم لا يجأرون لغيره، فكانت معلوميّتُه سرًّا وراء الإضمار في مقام الإظهار، وفي التَّعبير بضمير الجمع للتّعظيم دلالةٌ على عظمة ذلك النّاصر والمُعين لو بذلَ نُصرتَه لهم.

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرورِ:

قُدِّم الجارُّ والمجرور: ﴿مِّنَّا﴾ على النَّفي ﴿لَا تُنصَرُونَ﴾؛ للاهتمام بجانب اللّه تعالى فهو المقدَّم، فإن كانت النُّصرة من أحدٍ في ذلك اليوم العصيبِ فهي من اللّه تعالى، مع ما فيه من رعاية الفاصلة، ونُلمح هنا إلى أنَّ تقديم مبدأ النُّصْرة المَنفيّة يُفيد اختصاص النُّصرة به في ذلك اليوم بأسلوب المجاراة؛ إذ لا يحصل الإقناط بسلب النُّصرة من جهته ووجود جهاتٍ أخرى تنصرُهم من عذاب اللّه، فيكون المُراد: ابحثوا عن ناصرٍ لكم ينصرُكم من دون اللّه، فإن لم تجدوا فإنّنا لن ننصركم، وهذا أبلغ في نفي النّصرة وإثبات أنّه النّاصر وحده تعالى.

الإقناطُ الكاملُ يتحقّقُ عن طريقِ مُجاراةِ الخَصْمِ

غرضُ النَّفي ﴿لَا تُنصَرُونَ﴾ ودلالتُه:

جاء نفيُ النّصرة في قوله تعالى: ﴿لَا تُنصَرُونَ﴾ بغرضِ التَّيئيسِ وقطع أيِّ أملٍ لهم في النَّجاة من هذا العذاب الّذي هم ملابِسوه، فإنَّ نفي النّصرة بهذا العموم والإطلاق، يقضي على أدنى أملٍ قد يعنُّ لبعضهم؛ لأنَّ جملة النَّفي وقعت خبرًا عنهم فتفيد تقوية الحُكم وتأكيده.

بلاغةُ فعل ﴿تُنصَرُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

نفيُ النُّصرة متّجهٌ لكلِّ ما يتوهّمُه الذِّهنُ

جاء فعل ﴿تُنصَرُونَ﴾ مضارعًا منفيًّا، للدلالة على استمرار النَّفي قطعًا لأطماعهم في النَّجاة حالاً واستقبالاً، وبُني للمفعول للتهويل، ولتيئيسهم من أدنى أملٍ، وكأنّه فُقد العلْمُ بمَن ينصرهم ويمنع عذاب اللّه عنهم؛ وإذا جُهل النّاصرُ والمُعينُ ثبتَ اليأسُ لهم وانقطعَ سبيلُ النّجاة عنهم.

دلالةُ فصلِ صدرِ الآيةِ:

لا ينصر الله من أعرض وكذّب بآياته

قوله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ مفصولٌ عن جملة ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ لقصد إفادة معنى التّنديم والتّلهيف، وعلى هذا فالجملة استئناف[1]، أوْ لبيانِ علَّة عدم نصرهم[2]؛ أيْ: لا تُنصرون في هذا اليوم لأنَّه كانت آياتي تُتلى عليكم، وعلى هذا، فسبب الفصل هو كون الآية تعليلًا لما قبلها، وهو المُسمَّى بالفصل لشِبْه كمال الاتّصال، ووجاهةُ هذا الرّأي في الجمع بين عِلَّتيْن؛ هي أنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ تعليلٌ لنهيهم عن الجؤار، وقوله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي﴾ تعليلٌ لعدم نصرهم، فهما علّتانِ لمعلولَيْن مختلفيْن، وتوالي المعلول مع علّته طريقةٌ إقناعيّةٌ وبرهانيّةٌ لتفنيد حُجَجهم وبيان منشأ غلطهم وأنّهم المُتسببون في هذا المصير السَّيِّئ والعذاب المهين من دون ظلمٍ وقعَ عليهم، أوْ غَبْنٍ تحقَّق فيهم.

دلالةُ استعمالِ أداةِ ﴿قَدۡ﴾:

التّحقيقُ مُسجَّلٌ لفداحةِ ظُلمِهِم لأنفسِهِم

﴿قَدۡ﴾ حرف تحقيق، والمُراد تحقيقُ وقوعِ ما دخلَتْ عليه، وهو تلاوةُ آيات القرآن عليهم من النبيِّ ﷺ ومن المؤمنين في كلِّ عصر، فلا مجال للشَّكِّ في ذلك أو الإنكار له، وهذا التّحقيقُ للحدث يُنبئُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 85.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 142، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 163.

عن مدى فداحة ظُلمهم لأنفسهم في عدم الانتفاع بما يُتلى عليهم من البراهين والأدلَّة الدّامغة.

فائدةُ ذِكْرِ فعلِ الكونِ الماضي:

إقامةُ الحُجَّةِ وإرغامُ الخَصْمِ علَّةُ عدمِ النّصرة

آثرَ النَّظمُ الكريم ذِكْرَ الفعل الماضي ﴿كَانَتۡ﴾ لبيانِ أنَّ تلاوة آيات القرآن الكريم كانت في كلِّ وقتٍ وحينٍ، فلم يَقُلْ: (قد تُليت آياتي)، بالإضافة إلى تأكيد تلاوة آيات القرآن عليهم واستمرار التلاوة[1] عليهم، وفي ذلك إقامةُ الحجَّة عليهم، حيث إنَّه لم يكن هناك تقصيرٌ في تبليغ الدَّعوة، وإقامة البرهان، وهو ما يُرشِّح أنَّها علَّةٌ للجملةِ المُتقدِّمة.

دلالةُ إضافةِ الآياتِ إلى ضميرِ المُتكلِّم:

تشريفُ الآياتِ دليلٌ على أنَّها الحقُّ الواجبُ اتّباعُه

في إضافةِ الآياتِ إلى ضميرِ المُتكلِّم ﴿ءَايَٰتِي﴾، والمُتكلِّمُ هنا هو ربُّ العالمين، تشريفٌ وتعظيمٌ للآيات المتلوَّة، وهي آياتُ القرآن الكريم وبراهينه القطعية الدالّة، فلا مجالَ لحمل الآيات هنا على غير آيات القرآن الكريم بقرينةِ قوله: ﴿تُتۡلَىٰ﴾، وتشريف الآيات يدلُّ على صدقها وحقّيَّتِها وحقيَّةِ الرَّسول المبلِّغ لها وصدقِه.

دلالةُ بناءِ فعلِ التّلاوةِ للمفعول:

تكريمُ التّالي (قارئ القرآن) بعد تشريفِ المتْلوِّ (الآيات)

في بناء الفعل ﴿تُتۡلَىٰ﴾ للمفعول إفادةٌ للعموم؛ أيَ: عموم التّالينَ للآيات دون تعيين، وتكريمٌ لَمن يتلون الآيات المشرَّفة، وذلك بعد أن شرّفت الآيات المَتلوَّة نفسها بالإضافة إلى ضمير المُتكلّم العائد إلى المنزِّل سبحانه؛ فلمّا كانت عظمةُ الآيات الّتي استحقَّت بها الإضافة إليه سبحانه تكفي في الحثِّ على الإيمان بمُجرَّد سماعها، بُني للمفعول قوله تعالى: ﴿تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أيَ: وهي أجلُّ الأشياء من أوليائي وهم الهُداة النُّصحاء[2].

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5092.

(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 3/ 193.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تُتۡلَىٰ﴾:

استحضارُ التّلاوةِ زمنَ العتابِ تذكيرٌ لهم بظُلْمِهم

عبَّر النَّظم بالفعل المضارع ﴿تُتۡلَىٰ﴾ استحضارًا للحالة الماضية وتصويرًا لها، حتّى تكون ماثلةً أمامهم وقتَ العتاب والتأنيب، وللدِّلالة على أنَّ الآيات تُليت عليهم مرارًا وتكرارًا، ومع ذلك لم يعتبروا.

دلالةُ استعمالِ مُفرَدَةِ التّلاوةِ:

التّلاوةُ تحقيقُ الإسماعِ وإلزامُ الحُجَّةِ

في استعمال مُفرَدَة التّلاوة مُمثَّلةً في الفعل ﴿تُتۡلَىٰ﴾ دلالتانِ، الأولى: أنّ القراءة قد تتابعَتْ عليهم، بمعنى أنَّ الدُّعاة من الأنبياء والمُصلحين قاموا بتبليغهم مرارًا وتكرارًا ولم يُقصِّروا في تبليغهم الآيات، الثّانية: أنّ مُقتضى التّلاوة الالتزامُ باتّباع ما يُقرأ ويُتلى، فالقرآن إنّما يُتلى ليُعمل به، ولذلك خُصّت قراءة القرآن دون غيره باسم (التّلاوة)، وعلى هذا؛ فالتّلاوةُ أخصُّ من القراءة، وذلك أنَّ كلَّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءة تلاوةً، لا يُقال: تلوتُ رقعتك؛ وإنّما يُقال في القرآن؛ لأنّه إذا قرأتَه وجبَ عليك اتّباعه، بتلوِّ العملِ للقراءة[1]، فالتّلاوةُ تُفيد المتابعة مِن (التّتالي) و(التّلوّ)، سواء كان ذلك بتتالي الآيات المقروءة أوْ بتلوِّ العمل للمقروء.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ:

القرآنُ الكريمُ نعمةٌ على العبادِ ترفعُ من مُتَّبِعيه وتحطُّ من مُخالِفيه

من بلاغة القول في استعمال حرف الاستعلاء ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ الدّلالة على أنّ الآيات القرآنيّة نعمةٌ من اللّه على مَن يتلوها ومَن تُتلى عليه، لتمكُّنها من أدوات الهداية وأسبابها، فالقرآن يهدي لأقوم الطُّرق كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: 9] وما تكون منه الهدايةُ يكون مُشرفًا ومُستعليًا على مَن يتلقّاها.

نوعُ الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَكُنتُمۡ﴾:

(الفاء) عاطفةٌ ودالّةٌ على التّرتيب والتّعقيب؛ أيْ: كنتم بمجرَّد

(1) الرّاغب، المُفردات: (تلو).

سماع الآيات تنكِصونَ على أعقابكم رفضًا لها وانصرافًا عنها؛ فالفاء تُشعِرُ بسرعة الرَّدِّ والرَّفض، وأنَّهم كانوا قاطعينَ ومُتسرِّعين في الإنكار.

براعةُ مجيءِ ﴿فَكُنتُمۡ﴾ بعدَ ﴿كَانَتۡ﴾:

مقابلةُ ديمومةِ التّلاوةِ بديمومةِ الإعراض

مضى أنَّ فائدة ﴿كَانَتۡ﴾ الأولى تأكيدُ الوقوع واستمرارُ التّلاوة، وأمّا ﴿فَكُنتُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ﴾ فللدِّلالة على أنَّ نكوصهم على أعقابهم، هو كالطّبع فيهم والسَّجيَّة لهم، بحيث لا يتخلَّف، فالآيات تُليت عليهم على الدّوام، وهم قابلوها بالنُّكوص على الدَّوام، وبهذا التّقابل بين الفعليْنِ المُتضادَّيْن، الأوّل منهما الدّعوةُ إلى الخير، والثّاني: الإعراضُ عنه والرّدُّ له يتجلّى مقدارُ الذّنب الّذي أحرزوه والجرم الّذي اقترفوه، إذ كانوا يُقابلون دعواتِ الآيات بالإعراض والنُّفور، فلا حُجَّة لهم اليوم، ولا نصيرَ يُعينهم الآن.

بلاغةُ مجيءِ حرفِ الاستعلاءِ:

سماعُ القرآنِ سببُ فرارِ مَنْ شابهَ الحُمُرَ المُستنفِرَةَ

آثرَ النّظمُ استعمالَ حرف الاستعلاء في قوله: ﴿فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ﴾ دون أن يقول: (فكنتم تنكصون)، وذلك للدِّلالة على عَجَلَتِهم وسُرعتِهم وفرارِهم من سماع الذِّكرِ، كما قال سبحانه عنهم بعد ذلك: ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ﴾ وقوله في موضع آخر: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٩٣﴾ [الأنعام: 93] وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ٣١﴾ [الجاثية: 31]، كما تمَّ التّقابل بين حرفَي الاستعلاء أيضًا؛ إذ كانت الآياتُ تُتلى عليهم وكانوا يَنكِصون على أعقابهم بدلًا من الانتفاعِ بها والعملِ بمضمونها.

بلاغةُ التَّعبيرِ بمُفرَدَةِ: ﴿أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾:

تصويرُ مشهدِ الإعراضِ بالفرارِ عن الحقِّ

الأعقابُ: مُؤَخَّرُ الأرجُلِ، وفي التَّعبير بها دلالةٌ على إدبارِهم

وإعراضِهم عن القرآن بطريق الكناية؛ لأنَّ المرءَ إذا مشى باتّجاه عقِب رِجْلِه، فإنَّه يسيرُ إلى الوراء والخَلْف، وفيه تصويرُهم بأبشع صور الفرار، وفي جمع ﴿أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ دلالةٌ على كثرتهم واحتشادهم، وأنَّ المُعرضين عن القرآن ليسوا قلّةً، كما أنَّها أُضيفت إلى ضمير المُخاطَبين، للتّنديد بهم وتشديدِ النَّكير عليهم.

بلاغةُ الاستعارةِ التمثيلية:

المُعرِضون عن الحقِّ جمعوا بين خَوَرهم وصدودهم

في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ﴾ استعارةٌ تمثيليَّةٌ؛ فهو تشبيهُ حالٍ بحالٍ، حيث شُبِّهت حالهم عند سماع القرآن بآذانهم دون أنْ تَعيَه قلوبهم فيُعرِضون عنه ويُدبِرون بحالِ مَن يسيرُ القهقرى إلى الوراء، لبيان شدَّة غفلتهم وإعراضهم وفرارهم من سماع الحقِّ، الّذي يبدو ظاهرًا مُنكشفًا سافرًا، فهو تمثيلُ حالِهم بحال الخائف من الوقوع فريسةً لقَسْوَرةٍ يريدُ الانقضاض عليه، فمعَ ما فيه من ذمِّهم بسبب إعراضهم، ففيه كذلك تقبيحٌ لصورتهم الّتي تدلُّ على خورهم وجبنهم، وبذلك يتمُّ التّقابل بين صورةِ الآيات الّتي تتابعُ عليهم قادمةً إليهم تريدُ النّفع لهم، وصورة الرّجوع إلى الخلف هاربينَ من السَّماع والانتفاع.

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على الفعلِ:

غرابةُ الحالِ تقتضي تقديمَ أبرزِ ما فيها

قدَّم النّظمُ الكريم الجارَّ والمجرور ﴿عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ على فعل ﴿تَنكِصُونَ﴾؛ لتصويرِ إعراضهم وإدبارِهم، وإبرازه للقارئ في صورة المشاهد المحسوس، ولأنَّ غرابة النُّكوص على الأعقاب مُقدّمةٌ في الذِّكر لبيان حالهم الغريبة العجيبة، كما فيها مراعاة للفواصل.

بلاغةُ التّمثيلِ باستعمالِ مُفرَدَةِ ﴿تَنكِصُونَ﴾:

غرابةُ الإعراضِ يُناسبُها غرابةُ النّكوصِ

النُّكوصُ هو الرُّجوعُ من حيث أتى الإنسان، ولا يُقال: (نكص) إلّا في الرّجوع عن الخير[1]، ويُقالُ مجازًا للفرار والإدبار، كما في

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نكص).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: 48]؛ أيْ: ولَّى مُدبرًا، والنّكوص هنا "تمثيلٌ للإعراض"[1]، فالمشركون نكَصوا على أعقابهم في حين أنَّ أسباب الهداية والرِّفعة والعزَّة والنَّجاة في الدّاريْن حاضرةٌ، لكنَّهم أتَوا بفعلٍ غريبٍ مُخالفٍ للفطرةِ فقلبوا الموازين، ونكَصوا على أعقابهم كِبْرًا وجُحودًا وإعراضًا.

مَنْ أصرَّ على الاستكبارِ فلا ينتظرُ العفوَ من الجبّارِ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَنكِصُونَ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ ﴿تَنكِصُونَ﴾ على تكرُّر النّكْصِ منهم كترجمةٍ لما أفادته (كان) من دلالةٍ على أنَّ النَّكصَ والإعراضَ هو فيهم أصبح طبعًا وجبلّةً، وفيه لومٌ وتوبيخٌ شديدٌ؛ أيْ: كنتم تنكصون المَرّةَ تلو الأخرى بعدد سماعِ آياتِ القرآنِ الكريم، فما لانتْ قلوبكم، ولا استجابتْ عقولكم، ففيه تهديدٌ شديدٌ بأنْ ينالوا عقابَ إعراضهم إعراضًا عن إنجائِهم وإنقاذهم من عذابٍ شديدٍ.

رسوخُ الاستكبارِ وتدٌ للمجرمين في النّارِ

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ بالنَّصب حالٌ من فاعل ﴿تَنكِصُونَ﴾؛ أيْ: ﴿تَنكِصُونَ﴾ حالَ كونكم ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ عن سماعِ آياتِ القرآن الّتي تُتلى عليكم، وفي استعمال اسمِ الفاعل الجمْعيِّ ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ دونَ التَّعبير عنه بفعل (تستكبرون) دلالةٌ على كثرتهم، وعلى أنّ استكبارَهم طبعٌ ثابتٌ مُؤصَّلٌ فيهم، ولو عبَّر بالفعل بدله لأفادَ الحدوث والتجدُّد دون الثّبوت والرُّسوخ، كما أنَّ السّين والتّاء في ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ للتّقويةِ، وقد تُحملان على الطَّلب بتنزيلهم منزلةَ مَن يطلب الاستكبار، فيدلُّ على شدّة حرصهم عليه، وأفادتِ الحالُ أنَّ نكوصَهم ورجوعهم إلى الخلف كان بهيئة المُستكبرينَ عن سماع الآيات، وبذلك جمعوا بين حالة الخوف من خلال الإدبار والتّولّي عن المواجهة وحالة الصُّدود من خلال الاستكبار، فكانوا يجمعون

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 85.

بين الخَوَر النّفسيّ والصّدود الفعليّ عندما كانوا يتراجعون إلى الخلف وهم مُستكبرونَ عن سَماع الآيات الّتي تُتلى عليهم.

نوع (الباء) وتعيينُ مرجعِ الضَّمير، وأثرهما في التنوّعِ الدّلاليّ:

الضَّميرُ للآياتِ بمعنى القرآنِ، وللباءِ احتمالاتٌ متعدّدةٌ

الأظهر أنَّ الضَّمير المجرور في قوله تعالى: ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ﴾ يعود إلى (الآيات) في قوله: ﴿قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي﴾ وتذكيرُه؛ لأنّها "في تأويل القرآن، فيكون ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ بمعنى مُعرضين استكبارًا، وتكونُ الباءُ بمعنى (عن)، أوْ ضُمِّن ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ معنى ساخرين، فعُدّي بالباء للإشارة إلى تضمينه"[1]، ويجوز أنْ تكون (الباء) للمصاحبة أوْ للسّببيَّة على معنى: ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ استكبارًا مُصاحبًا لسماعه؛ أيْ: مُتعالين على القرآن نفسِه، أوْ مُتعالين بسببه لأنَّهم لم يُذعنوا لحقائقِه[2]، والأرجحُ أنَّ ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ قد تضمَّن معنى السُّخرية الّتي تتعدّى بـ(الباء)، فيكون في استكبارِهم سُخريةٌ به في آنٍ واحدٍ، وبذلك جمعوا بين الاستكبار والسُّخرية معًا، وهذا شأنُ المُستكبرين أنْ يَمزجوا غرورهم بالسُّخرية والاستخفاف، وقيل: الضَّمير للتّكذيب المفهوم من قوله: ﴿تَنكِصُونَ﴾[3] فتكونُ الباء للسّببية كذلك؛ أيْ: ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ بسبب التّكذيب، أوْ على تضمين الاستكبار معنى التّكذيب[4].؛ أيْ: مُكذِّبين به.

دلالةُ استعمالِ مُفرَدَةِ ﴿سَٰمِرٗا﴾ مادّةً وصيغةً:

من أماراتِ خفّةِ العقلِ وضعْفِ الرَّأي استبدالُ الرّخيص بالغالي والغثِّ بالسَّمين

التَّعبير بـ(السّمر) يدلُّ على الانشغال باللّهْو عن القرآن، فإنَّهم قد استبدلوا العبثَ واللّهو بالقرآن، لخفَّة عقولهم، ويجوزُ أنْ يكون التَّعبير بها إخبارًا عن الواقع، وأنّهم كانوا كلَّما استمعوا للقرآن خلصوا إلى مجلس السَّمَر حتّى ينشغلوا به فينصرفوا عن التأثُّر بالقرآن، وقد

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 85.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5093.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 198.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 143.

حكى القرآن عنهم في هذا قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فُصّلت: 26].

و﴿سَٰمِرٗا﴾ منصوبٌ على الحال، كما نُصب ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ عليها؛ فهي حالٌ ثانيةٌ من ضمير المخاطَبين؛ أيۡ: حال كونكم مُستكبرين وحالَ كونكم سامرين، والسّامر: اسمُ جمع وإنۡ كانت صيغته صيغةَ الإفراد، وهو اسمٌ لجمعِ السّامرين؛ أيۡ: المُتحدِّثين في سمَر اللَّيل وهو ظُلمته، أوۡ ضوءُ قمره، فالسّامر كـ (الحاجِّ والحاضر والجامل)؛ بمعنى: (الحُجّاج والحاضرين وجماعة الجمال).

توجيهُ القراءاتِ القرآنيّةِ في ﴿تَهۡجُرُونَ﴾ وبلاغتها:

المشركون كانوا يهجُرون بالهذَيانِ عند سَماعِ القرآن فيهجُرون سماعَه

قرأ نافعٌ وحدَه: ﴿تُهۡجِرُونَ﴾ بضم التّاء وكسر الجيم، وقرأ الباقون: ﴿تَهۡجُرُونَ﴾ بفتح التّاء وضمّ الجيم[1]، والحجَّةُ لقراءة فتح التّاء وهي قراءة الجمهور: أنَّ المُراد هُجرانُ المصادمة، لتركهم سماعَ القرآن والإيمانِ به، والحجَّة لقراءة ضمِّها وهي قراءة نافع: ﴿تُهۡجِرُونَ﴾؛ أيۡ: تأتون بالهُجۡر، وهو الهذيانُ وما لا خيرَ فيه من الكلام، ومنه الحديث «كنتُ نَهَيتُكم عن زيارَةِ القبورِ ألا فزوروها، فإنَّها تُرِقُّ القلبَ، وتُدۡمِعُ العينَ، وتُذَكِّرُ الآخرةَ، ولا تقولوا هُجۡرًا»[2]، والهُجر مأخوذٌ من قولهم: أهجرَ المريض إذا أتى بما لا يُفهَم عنه، ولا تحتَهُ معنىً يُحصَّل، لأنّهم كانوا إذا سمِعوا القرآن لَغَوا فيه، وتكلّموا بالفُحش، وهَذوا، وسَبّوا؛ فقال اللّه ﷻ: ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ﴾[3]، ومن بلاغة القراءات هنا أن إحداهما قيّدت إطلاق الأخرى، فقراءة فتح التاء تحتمل: (تَهجرون ذِكۡرَ اللّه والحقَّ، وتَهجرون كتاب اللّه تعالى ونبيّه ﷺ، وتَهجرون البيت؛ تقولون هُجۡراً من القول، وهو

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 329.

(2) الحاكم، المُستدرَك، كتاب الجنائز، حديث رقم: (1393).

(3) ابن خالَوَيۡه، الحُجّة، ص: 258، والفارسيّ، الحجّة للقرّاء السّبعة: 5/ 298.

اللغو والهَذَيان)، فأتت قراءة الضم لتؤكد المعنى الأخير؛ وهو السَّبُّ والإفحاش من المنطق.

نكتةُ التَّعبير بالمضارع ﴿تَهۡجُرُونَ﴾ مع حذفِ المتُعلِّق:

العِنادُ على الباطِلِ ثمرةُ المودَّةِ في الباطِلِ

دلَّ استعمالُ صيغةِ المضارعِ ﴿تَهۡجُرُونَ﴾ على استمرارِهم في هَجْرِ القرآنِ، والهُجْرِ أثناءَ سماعِه عندما يُتلى عليهم، وتجدُّدِ ذلك كلِّه عند تجدُّد دواعيه، وقد حُذف مُتعلّق ﴿تَهۡجُرُونَ﴾ فلم يَقُلْ: (تهجُرونه) أو (تهجُرون القرآن) للعلْم به، فالسّياق دالٌّ عليه، أوْ لتنزيله منزلةَ اللازم، فهم يَهجُرون القرآن هجرَ تركٍ، وهُجْرَ فُحْش، ولمراعاة الفواصل.

بلاغةُ توالي الأحوالِ:

أحوالُ المشركين مع القرآنِ منهجٌ مسنونٌ لكلِّ مُعرضٍ ومُدْبرٍ

توالت الأحوالُ في السّياق من مثل ﴿عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ و﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ و﴿سَٰمِرٗا﴾ و﴿تَهۡجُرُونَ﴾؛ فيدلُّ ذِكْر هذه الأحوالِ جميعها متتاليةً، وكلُّها في السّوء أرفعُ من بعضٍ، على كونهم قد جمعوا كلَّ المعاني الذّميمة والأحوال السيِّئة في تعاملهم مع القرآن الكريم صدًّا وإعراضًا، ولَهْوًا عنه، ولَغْوًا فيه وهذيانًا، وهذه كلُّها معانٍ وأحوالٌ قد تلبَّس بها المشركون في تعاملهم مع القرآن الكريم، وممّا يلفت الأذهانَ أنَّ هذه الأحوال جاءت لبيان اجتماعهم في مثل قوله تعالى: ﴿فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ﴾، و﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ﴾، إذْ هو يدعو إلى التّعجيبِ من حال هؤلاء المُعرِضين عن القرآن والاستغراب "من أن يجتمع جمعٌ على مثل ذلك؛ لأنَّ الجمع جديرٌ بأنْ يوجدَ فيه من يُبصرُ الحقَّ فيأمرُ به"(1).

بلاغةُ الفواصلِ المتواليةِ:

ائتلافُ اللَّفظِ واتِّساقِ المعاني سمةُ الفواصلِ القرآنيَّةِ

بُنيت فواصلُ الآياتِ الماضية على بناء أكثرِ فواصل سورة (المؤمنون)، وهو ختمُها بالواو والنّون، فهي من حيث التّناغمُ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 164.

الصّوتيُّ مُتناغمة، وملحوظٌ فيها مراعاة الفواصل، مع اكتنازها لأسرارٍ بلاغيّة ودلالات تركيبية، بيَّنت التّقديم والتّأخير، وحذف المُتعلّقات في كلٍّ من: ﴿أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾، و﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾، و﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾، و﴿هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾، و﴿إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ﴾، و﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾، و﴿فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ﴾، و﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ﴾ كما سبق بيانه في مواضعه، والشأن من حيث المعنى، هو شأنُ الفاصلة القرآنية عمومًا الّتي بُنيت على الائتلافِ والتّناسُب بينها وبين آياتها، لفظًا ومعنًى، ممّا هو ساطعٌ في الفواصل القرآنيّة سطوعَ النّجم في سماء اللّيل البهيم.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّرف والغِنى:

التّرفُ هو التّوسُّع في النّعمة، يُقال: أُتْرِفَ فلانٌ فهو مُتْرَف[1]، وقد دأب القرآن الكريم على استعماله في محلِّ الذّمِّ، تنبيهًا على أنَّ المُترف لم يعرف لنعمة اللّه قدرَها، فاستعملها في غير محلِّها فآلت به إلى الكُفران بدلَ الشُّكران، تأمَّل هذا المعنى في هذه الآيات: قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [المؤمنون: 33]، وقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ١١٦﴾ [هود: 116]، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ﴾، والغِنى هو ما يُنافي الحاجَة، ويبلغ حَدَّ الكفاية ويكون بالمالِ وغَيره من القوَّة والمعونة، وقد قيل: قد يكثرُ المال والإنسانُ مُفتقِر[2]، وبذلك يكون الفرق بين التّرف والغنى ظاهرًا في أنَّ التّرف يكون في بسْط النّعمة والمال حتّى تجاوز المُترف في تصرفّاته الاستعماليّة لتلك النّعمة الّتي لم يُدرك واجباتِها

التّرفُ بسْطُ النِّعمة والإفراطُ فيه بشكلٍ مذموم، والغِنى يكون بالمالِ وغيره

(1) الرّاغب، المُفردات: (ترف).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 175، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والراغب، المُفردات: (غني).

حدودَ المعقول والمقبول شرعًا وعُرفًا، والغِنى يكون بالمال وبغيره ممّا يسدُّ الحاجة ويُغني عن السُّؤال، والتّرفُ مذمومٌ في القرآن؛ لأنّه مُصاحِبٌ لكُفرانِ النِّعم، والغنى يكون مذمومًا وغير مذمومٍ، بحسبِ أداء الحقِّ فيه والشُّكر عليه أوْ عدمِه.

الجُؤار والصُّراخ:

الصُّراخُ: الصَّوتُ الرَّفيعُ، تقول: صَرَخَ صَرْخَةً واصْطَرَخَ، بمعنًى، والتَصَرُّخُ، والمُسْتَصْرِخُ: المُسْتغيث[1]، وأمّا الجُؤار فهو رفعُ الصَّوت مع الاستغاثة والتّضرُّع، يُقال: جَأرَ يَجْأرُ جَأْراً وجُؤاراً: رَفَعَ صَوْتَهُ مع تَضَرُّعٍ واسْتِغاثَةٍ[2]، وبهذا يكون في الجؤار معنًى زائدٌ هو التّضرُّع، وأمّا الاستغاثة فقد تكون مع الصُّراخ أيضًا، كما أنَّ الجؤار فيه تهكُّم بالصّارخ؛ لأنّه في أصله صوتُ البقر والثّور بخلاف الصُّراخ.

الـجـؤارُ رفـعُ الـصّـوتِ مع اسـتـغـاثـةٍ وتـضـرُّعٍ، والصُّراخُ رفعُهُ باسـتـغـاثـةٍ وبغيرها

العَقِبُ والدُّبرُ:

العَقِبُ: مُؤَخَّر الرِّجل، وقيل: عَقْبٌ، وجمعُه: أعقاب[3]، ويُطلق مجازًا على الإعراض والصُّدود والفرار؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾ [آل عمران: 144]، وقوله: ﴿وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ [آل عمران: 144] وقوله: ﴿فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ﴾، والدُّبُرُ: خِلافُ القُبُلِ، ودُبُرُ الأمرِ ودُبْرُهُ: آخره، والدُّبُرُ: الظَهْرُ، قال اللّه تعالى: ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ [القمر: 45][4]، ويُطلق الدُّبُر مجازًا على ما يُطلَقُ عليه العقِب مجازًا؛ أيْ: يُطلَقُ على الإعراض والصُّدود والفرار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ﴾ [الأنفال: 16]، وقوله: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ۝١٥﴾ [الأنفال: 15]، وبذلك يظهر أنَّ هنالك اشتراكًا بينهما في الدّلالة المجازيَّة مع الاختلاف في المعنى الحقيقيِّ لكلٍّ منهما.

العـقِـبُ مُـؤخّـرُ الرِّجلِ، والدُّبُرُ: خِـلافُ القُبُـلِ، ويـشـتـركـانِ في الدّلالةِ المجازيّةِ، ويـخـتـلـفـان في أصل المعنى

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صرخ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (جأر).
(3) الرّاغب، المُفردات: (عقب).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (دبر).

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾
أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ
بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المؤمنون: 68 - 70]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

بعد أن بيَّنتِ الآياتُ السّابقةُ أحوالَ المُشركين في أنَّهم كانوا ينكِصون على أعقابهم عندما تُتلى عليهم آيات اللّٰه، ويستكبرونَ عنها، ويهذونَ بفُحش القول، ويُبالغون في الإعراض عنها، ناسب أنْ يذكر بعد ذلك هذه الآيات الّتي تُنكر عليهم موقفَهم تجاه القرآن الكريم، فأتتْ لتوقظهم من غفلتهم، بطريق الاستفهام الإنكاري، وبالإعراض عن مخاطبتهم، فهم ليسوا أهلًا له، إيذانًا وإعلامًا لهم بغضَب اللّٰه سبحانه عليهم.

بعدَ التّرهيبِ والتّهديدِ يأتي التّرغيبُ لإفهامِ الذَّكيِّ والبليدِ

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُنكِرُونَ﴾: (نكر) أصلٌ يَدُلُّ على خِلافِ المَعْرِفَةِ الّتي يَسْكُنُ إليها القَلْبُ، ونَكِرَ الشَّيءَ وأنكَرَهُ: لَمْ يَقْبَلْهُ قَلْبُهُ ولَمْ يَعتَرِفْ به لِسانُهُ[1]، وأصلُ الإنكار أن يَرِدَ على القَلْبِ ما لا يتصوَّره، وذلك ضَرْبٌ من الجَهْلِ، وقد يُستعمَلُ ذلك فيما يُنْكَرُ باللّسانِ، وسَبَبُ الإنْكارِ باللّسانِ هو الإنْكارُ بالقلبِ، لكن ربّما يُنْكِرُ اللّسانُ الشّيءَ وصورتُه في القلب حاصلةٌ، ويكون في ذلك كاذبًا، وتَنْكيرُ الشَّيْءِ من حيثُ المعنى جعْلُه بحيث لا يُعْرَفُ، وتعريفُه جعْلُه بحيث يُعْرَفُ[2]، والمقصودُ بالإنكار في الآية: نَفْيُ الشَّيْءِ ورَدُّه؛ أيْ: إنْكارُهُمْ صِفاتِ الرَّسول الكامِلة[3].

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نكر).
(2) الخليل، العين، والرّاغب، المُفردات: (نكر).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 69.

2) ﴿جِنَّةُۢ﴾: (جنن): السَّتْرُ والتَّسَتُّر، فالجَنَّةُ ما يَصيرُ إليه المُسلمونَ في الآخرةِ، وهو ثَوابٌ مَستورٌ عنهم اليومَ[1]، والجِنُّ نوعٌ من العالم، سمّوا بذلك لاجتنانهم عَنِ الأبْصار[2]، والجِنَّةُ: الجُنونُ؛ وسُمّي الجُنونُ بذلك؛ لأنَّه يَستُرُ العقلَ ويُغطّيه، وهوَ الخَلَلُ العَقْليُّ الّذي يُصيبُ الإنسانَ[3]، وهو المُرادُ في الآية.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تَدبُّرُ الكلامِ يوصِل إلى فقهِ المقصودِ والنَّجاةِ عند المعبودِ

تُنكِر الآياتُ على المشركين عدمَ تدبّرهم القرآن؛ فيَعقِلون مَعانيَه ويَعلَمونَ ما فيه، ويَعمَلون به ويتَّبِعونه، أَمْ جاءَهم فيه ما لم يأتِ آباءَهم الَّذين مِن قَبْلِهم، فأنكَروه وأعرَضوا عنه؟! أَمْ لم يَعرِفِ المُشركونَ رَسولَهم مُحمَّدًا ﷺ، وأنَّه من أهلِ الصِّدقِ والأمانة، فيُنْكِروا قَولَه؟! أَمْ يَحتجّونَ في تَركِ الإيمانِ بدَعوى أنَّ بمُحَمَّدٍ ﷺ جُنونًا؟! ليس سَبَبُ رَفْضِهمُ الإيمانَ وتَوحيدَ الرَّحمنِ شيئًا ممّا تقدَّمَ ذِكْرُه؛ بل السَّبَبُ الّذي دعاهم للتَّمسُّكِ بشِرْكِهم وكُفرِهم هو أنَّ مُحمَّدًا ﷺ قد جاءَهم بالحَقِّ، وأكثَرُهم يَكرَهونَ القَبولَ والإذعانَ لهذا الحَقِّ المُخالِفِ لأهوائِهم[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

غرضُ الاستفهامِ وبلاغتُهُ:

الإنكارُ على المُعرضين وسيلةٌ للهدايةِ وإنقاذٌ من الغوايةِ

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، غرضُه إنكارُ الواقعِ الّذي هم فيه من عدم التّدبُّر في تعاملهم مع آيات الله واستقباحُه[5]، وفيه دعوةٌ إلى التَّدبُّر وترك

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جن).
(2) ابن سِيدَه، المُحكَم: (جنن).
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 141، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 89.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 88، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 166، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 555.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 143.

الغفلة والإعراض، فإنَّ من شأنِ القرآن إقامةَ قيم الهداية واللُّطف مع المدعوّين، في أثناءِ التّقريع والتّعنيف، وهذه المُزاوجة بين المعاني لا تجد لها شبيهًا في كلام النّاس؛ لأنَّ مقصودَها قائمٌ على تحريك القلوب والعقول، للوصول إلى الحقِّ، ولا يستقيمُ ذلك إلّا بتقريعٍ مشوبٍ بالرّحمة، ورحمةٍ يلحقُها تأنيبٌ.

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ﴾ إمّا أن تكون عاطفةً، والمعطوفُ عليه محذوف مقدَّر بعد الهمزة، والتّقدير: (أعموا فلم يدَّبّروا القول)، أوْ (أفعلوا ما فعلوا فلم يدَّبَّروا القول)؛ أيِ: القرآنَ وما فيه من تراكيبَ معجزة، ومعانٍ باهرة، وحِكَم بليغة، ونحو هذا من الجمل الّتي يُمكن تقديرها في هذا المقام، وإما أنْ تكون (الفاء) مُتفرِّعةً على الكلام السّابق وهو قوله تعالى: ﴿بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ إلى قوله: ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ﴾[1]، وهذا مذهبان مشهورانِ في تعيين المعطوفِ عليه.

الـفـاءُ عاطفةٌ علـى مـحـذوفٍ بعد الهمزةِ أوْ مـتـفـرِّعـةٌ على كلامٍ سابقٍ

نكتةُ استعمالِ (لم) دون (لا):

استعمَلَ النَّظمُ الكريم (لم) في النَّفي في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ﴾، ولم يستعمل (لا) فلم يَقُلْ: (أفلا يتدبَّرون)؛ وذلك لأنَّ المقصود إنكارُ ما حصل منهم في الماضي، وهو عدم تدبُّرهم القرآن، وهو ما يفتح لهم الأملَ في تغيير موقفهم من الإيمان باللهِ وتدبُّر القرآن والانتفاع بما فيه، ولو استعمل (لا) لما تحقَّق هذا الغرض، وهو حثُّهم على مراجعة النَّفس، والإقلاعِ عمّا هم فيه من صدودٍ ونكوصٍ؛ فالمُراد وصفُ واقع المُشركين مع الدَّعوة للاعتبار ممّا هم فيه.

رغم كُفر المشركين وصدودِهم فإنَّ بابَ الأمل مفتوحٌ لِمَن أراد الانتهاءَ عن غيِّه

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدَةِ التّدبُّر:

استُعملت مُفرَدَةُ (التّدبُّر) في الإنكار على المشركين؛ لأنَّ المعانيَ

الوصولُ إلى معاني القرآنِ الهاديةِ طريقُه التّدبُّر وترك الإدبارِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 87.

العميقة الهاديةَ إنَّما تظهر للمُتدبِّرين الّذين ينظرونَ ويتأمَّلون بعقولٍ صافيةٍ ونوايا مُتجرِّدة، ويكرِّرون النَّظر مرّةً بعدَ مرّةٍ، وقد سُمّي التّدبُّر تدبُّرًا؛ لأنَّه نظرٌ في أدبار الأمور وهي أواخرُها وعواقبُها، وتدبُّرُ الكلام أنْ ينظرَ في أوَّله وآخره، ثمَّ يعيدَ نظره مرَّةً بعد مرَّةٍ؛ ولهذا جاء على بناء (التّفعُّل)، كالتّجرُّع والتّفهُّم والتّبيُّن[1] الّذي يدلُّ على التّكلُّف وحصولِ الشّيء بكُلفةٍ ومشقّةٍ، وفي إيثار التَّعبيرِ بلفظة (التّدبُّر) تعريضٌ بعدم تدبُّر المُعرضين القرآنَ، ودعوتُهم إلى النَّظر في آياتِ الكتاب نظرةً مُتأنّيةً متأمّلةً، يحصلُ بها التّدبُّر الّذي تتبعُه الهداية والتّوفيق، وكان اختيارها دقيقًا للغاية، إذ هي مقابلةٌ لنكوصهم على أعقابهم وهو الإدبار عن سماع الآيات، فكان الإنكار دعوةً للتّدبُّر وحُسنُ التّفهُّم وليس للإدبار والرّفض والإنكار.

نكتة التَّعبيرِ بالمضارعِ المنْفيِّ ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ﴾:

تذكيرُ المُعاندين بـأنّ عـدمَ إعراضِهم عن القرآنِ قد يُنقذُ قلوبًا ضائعةً

عبَّر النَّظْمُ الكريم بصيغة المضارع ﴿يَدَّبَّرُواْ﴾ وهو منفيٌّ بـ(لم)؛ فانقلب ماضيًا في المعنى؛ ليَنتبهوا إلى تقصيرهم في عدم تدبُّر القرآن، وليعلموا أنّهم بعدم حصول التّدبُّر استمرّوا على كفرهم وعنادهم، فالاستفهامُ بيانٌ لمنشأ غلطِهم، وكشفٌ لسرّ جحودِهم، ولو أنهم تدبّروه لوقفوا على دلائل صدقه، فهي فيه غير خافيةٍ لا من جهة ألفاظه وتراكيبه، ولا من جهة معانيه ودلالاته.

سرُّ استعمال مُفرَدَة ﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾ دون (الآيات):

من أساليبِ الجدلِ القرآنيِّ التنزُّل مع الخصمِ ومجاراتُه لبلوغِ المطلوبِ

آثر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مُفرَدَة ﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾، فلم يَقُلْ: (أفلم يدّبّروا آياتي، أو يدّبّروها)، مع تقدُّم ذِكْرِها في قوله سبحانه: ﴿قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ وذلك تنزُّلٌ معهم ومجاراةٌ لهم فيما زعموه وافتروه من تكذيب النبيّ ﷺ، وزعمهم أنَّه قولٌ كباقي الأقوال، مثلُ قوله تعالى: ﴿لَوۡ

(1) ابن القيّم، مفتاح دار السّعادة: 1/ 525.

نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ [الأنفال: 31]، وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر: 24 - 25]؛ ففيه تعريضٌ بوصفِهم القرآن بأنَّه مجرَّد قول، لا يعدو أن يكون شِعرًا أوۡ حديثًا أوۡ أساطيرَ الأوّلين، فكان المقصود من اختيار مُفرَدَة ﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾ هو دعوتهم للتّفكُّر: هل هذا قولٌ كباقي الأقوال؟.

معنى التّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾:

عـهديّةُ القـولِ توجِبُ التأمُّلَ في الآياتِ لأنّها من جنسِ الكلامِ

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾ للعهد، والمعهود هو القرآن الكريم والآياتُ البيّنات، فهو الحاضر في الذّهن وفي الذِّكر؛ أيۡ: في قوله: ﴿قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، وبذلك العهد ندركُ أنَّ آيات اللّٰه الّتي تُتلى عليهم من جنس القول والكلام، والكلامُ بطبيعتِه لا يُفهم إلّا بعدَ تدبرِّه والنّفاذ إلى أعماقه والوقوف على مقاصده؛ لأنّه كلامٌ محبوكٌ ومسبوكٌ ومُنسجمٌ وذو مقاصدَ عميقةٍ، فيستدعي التّدبُّر وحُسنَ النّظر لإدراك الغايات.

نوعُ ﴿أَمۡ﴾ ودلالتُها:

الانـتـقـالُ من تـوبـيـخٍ لآخـر مناسبٌ للصّلدِ المُعانِد

﴿أَمۡ﴾ منقطعةٌ بمعنى (بل)؛ أيۡ: هي للإضراب الانتقاليِّ، والانتقالُ بوساطتها هو انتقال من التّوبيخ بما ذُكر - وهو عدمُ تدبُّر القرآن - إلى التّوبيخ بأمرٍ آخر، وهو عدم الاعتبارِ بأحوال أسلافهم، والهمزة لإنكار الوقوع لا لإنكار الواقع؛ أيۡ: بل أجاءَهم من الكتاب ما لم يأتِ آباءهم الأوَّلين حتّى استبدعوه واستبعدوه، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضَّلال[1]، وتوالي الاستفهام الإنكاريِّ تلطُّفٌ بالقول معهم لبيان سرِّ ما وصلوا إليه من عنادٍ واستكبارٍ قاداهم إلى ذلك المصير السَّيئ الّذي لا ناصر لهم فيه ولا مُعين، أهو ناجمٌ عن عدم التّدبُّر أوۡ نتجَ من كون الكتاب الّذي جاءهم كان بِدۡعًا لم ينزل

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 143، والمطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 12.

مثلُه على آبائِهم الأوَّلين؟ فالقرآنُ يُعدّدُ لهم أسبابَ الضَّلال بين تقصيرِهم في عدم حُسْنِ التَّفهُّم للآيات، أوْ في ظنِّهم المغلوط من كونه بدعةً لم يرَوا مثلها، ولم يسمعوا أخبارها عند آبائهم السّابقين نافيًا لكونه بدعةً وحدثًا غريبًا.

غرضُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي ﴿أَمۡ جَآءَهُم﴾:

الإنــكــارُ على المـشـركـين في استغرابِهم أمرًا مشهورًا ذائعًا بين الأممِ

جاء التَّعبير بصيغة الماضي المُسنَد إلى ضمير المُشركين ﴿جَآءَهُم﴾ لزيادة الإنكار عليهم، على معنى: هل تأكَّد لديهم وتحقَّق أنَّ مجيءَ هذا الرَّسول إليهم مُرسلًا من ربِّه بهذا الدّين، أمرٌ غريبٌ لم يحدُث من قبل، وأنَّه لم يُبعث رسلٌ إلى آبائهم الأوَّلين، ولذلك اتَّخذوا هذا الموقف؟! والجواب: لا، لأنَّهم يعلمون علمًا أكيدًا بأنَّه قد سبقَ إرسالُ رسلٍ لآبائهم السّابقين وللأمم السّابقة، فلماذا يُنكرون أمرًا هم يعلمونَ أنَّه من سنَّة الأوَّلين؟ وكان اختيارُ مادّة (المجيء) مناسبًا لتحقيق ذلك الحدث، وأنّه قدومٌ مُؤكَّد ومقصودٌ.

غرضُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ في ﴿جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ﴾:

التـهـكُّـمُ بـالمـشـركـين، وإغـلاظُ القول لهم فيما صدر عـنـهـم مـمّـا يُخالف المعقول

﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ﴾ موصولةٌ مُبهمة، والمُراد بها الدّين والرّسالة والآيات والقول، والمعنى: أجاءَهم دينٌ وكلامٌ وقولٌ لم يأت آباءهم الأوَّلين، وهو الدّين الدّاعي إلى توحيد الإله وإثبات البعث، مع أنّهم كانوا يعرفون أخبار الأنبياء السّابقين من إبراهيمَ وإسماعيل وصالح وهود، وأنّهم يملكون أقوالاً جاءوا بها إلى أقوامهم، ثم إنَّه إنْ كان المُراد ظاهرَ معنى الصّلة، وهي ﴿مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ من أنَّ الدّين والقول الّذي جاءهم لا عهدَ لهم به سابقًا، تعيَّن أن يكون في الكلام تهكُّمٌ بهم، إذ قد أنكروا دينًا جاءَهم، ولم يسبق مجيئُه لآبائهم، ووجه التّهكُّم أنَّ شأنَ كلِّ رسول جاءَ بدينٍ أن يكون دينُه أُنُفًا، ولو كان للقوم دينٌ مثلُه كان مجيئه تحصيلَ حاصلٍ لا يفعله الحكيمُ، وإنْ كان المُراد من الصَّلة

أنّه مخالفٌ لما كان عليه آباؤهم من الاعتقاد؛ لأنّ ذلك من معنى: ﴿لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ﴾ كان الكلام مجرّدَ تغليطٍ؛ أيْ: لا اتّجاه لكفرهم به؛ لأنه مخالفٌ لما كان عليه آباؤهم، إذ لا يكون الدّين إلّا مُخالفًا للضَّلالة، ويكون في معنى قوله تعالى: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ ٢١ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢﴾ [الزُّخرف: 21 - 22][1].

بلاغةُ النَّفي في ﴿لَمۡ يَأۡتِ﴾:

تكذيبُ ظنونهم الباطلة كشفٌ عن مآلاتهم الخاسرة

النَّفي بـ ﴿لَمۡ﴾ يُحيل معنى المضارع إلى الماضي؛ أيْ: هل استندوا إلى شيءٍ من ماضي أسلافهم يدلُّهم على أنَّ بعث الرُّسل بالرّسالات وإرسالَهم بالأقوال والآيات لم يكنْ من سنّة الأوَّلين، فيركنوا إليه في إنكارهم رسالةَ محمد ﷺ؟ مع أنَّ الواقعَ يُكذِّبهم والأدلّةَ تُفنِّدُ رأيَهم.

نكتةُ اجتماعِ لفظِ المجيءِ والإتيانِ:

المجيءُ لتشخيصِ ما يُعاصره المشركون من أحداثٍ، والإتيانُ لما وقع في الزّمنِ الماضي

من الفروق الدّلاليّة بين (جاء)، و(أتى) أن (جاء) يُقال في الجواهر والأعيان كما في قوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ٧٢﴾ [يوسف: 72]، و(أتى) يُقال في المعاني والأزمان، ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النَّحل: 1][2]، وهنا قد استُعمل المجيءُ لتشخيص ما يُعاصرونه من أحداثٍ، بخلاف الإتيان فهو للحديث عن أمر وقع في الماضي، وعليه فالتَّعبير بالإتيان في قوله تعالى: ﴿مَّا لَمۡ يَأۡتِ﴾ أنسبُ؛ لأنَّ المقصود الاحتجاجُ عليهم بما كان في الأزمان الماضية من إرسال الرُّسُل إلى آبائهم الأوَّلين، كما أنَّ الفعل (جاء) يفيد تحقُّقَ المجيء بصعوبةٍ وشدَّة، بخلاف الفعل (أتى) الّذي يدلُّ على القدوم السّهل اللَّيِّن، فكيف يستصعبونَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 88.
(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 2/ 365.

مجيئه رسولًا إليهم مع أنَّهم مُقِرّون بوجود أنبياء سابقين عليه، فناسبَ استعمالُ فعل الشدَّة مع استصعابهم وفعل السّهولة واللُّطف مع ما يُقرّونه ولا يُنكرونه، وهنالك سببٌ آخر يعود إلى استثقال المضارع من (جاء)؛ فلم يأت في القرآن أبدًا (يَجِئُ) ولذلك عُدل إلى ﴿يَأۡتِ﴾ لكونه أخفَّ في النُّطق[1].

توجيهُ تخصيصِ الآباءِ بالذِّكْرِ دونَ الأقوامِ والأسلافِ:

لَصاقة الانتساب بأصالة التعنّت

خصَّ النَّظم الكريم (الآباء) بالذِّكر دون أن يقول: (ما لم يأت أقوامَهم أو أسلافَهم)؛ وذلك لأنَّ الآباء أصلُهم الذين يفتخرون بالانتساب إليهم، ويحتجّون بأفعالهم، ويفتخرون بتقليدهم، وهي عادةٌ فيهم وفي غيرهم ممَّن عاندوا الرُّسُل وعارضوهم، وأبَوا أن يؤمنوا بهم وبرسالاتهم، فجاءتِ الآية باللَّفظ الأنسب لمقام المخاطَبين المُتعلِّلين عند الإنكار بالتّمسُّك والاقتداء بآبائهم الضّالّين.

نكتةُ إضافةِ الآباءِ إلى الضَّميرِ:

التّعريضُ بالمشركين ومدحُ الآباءِ الأوّلين الذين كانوا على التّوحيد

أُضيف لفظ (الآباء) إلى الضَّمير العائد على المشركين حيث قال تعالى: ﴿ءَابَآءَهُمُ﴾؛ وذلك للتّخصيص؛ أيّ: (نحن إنّما نُحاكمكم إلى سُنّة آبائكم وعهدهم، فأبوكم إسماعيل كان نبيًّا، ونسلُه كانوا مؤمنين إلى أنْ أفسد بعض آبائكم الأقربين هذه المسيرة الإيمانيَّة بعبادة الأصنام، فإذا أردتم الآباء فعليكم الاقتداء بخيارهم وأصولهم المعتبرة)؛ ففيه تعريضٌ بهم، ومدحٌ لآبائهم الأوَّلين الذين كانوا على دين التّوحيد.

بلاغة الاحتراس في تخصيص الآباء بوصف ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

الآباء الأوّلون كانوا على التَّوحيدِ وطاعة الرّحمن

آثر النّظم الكريم ذِكر ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ دون (السّابقين) ونحو ذلك؛ لأنَّ المُراد بالآباء الأوّلين أجدادُهم الأبعدون؛ كإسماعيل عليه السلام وأعقابه

(1) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 14.

من: (عدنان وقحطان ومضر وربيعة وقيس) فآمنوا به تعالى وبكتبه ورسله وأطاعوه[1] ولم يحدث التّبديل إلى عبادة الأصنام إلّا عندما دسَّها عليهم (عمرو بن لُحَيّ)، فالتَّوحيد وعبادة الله تعالى هي طريقة آبائهم الأوَّلين، فإنْ صدقوا الانتساب فعليهم صدقُ العمل والاقتداء بهم، وعلى هذا فالتّقييد بوصف ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ احتراسٌ، دفعًا لتوهُّم أنَّهم الآباء الأقربون منهم، فإنّه لم يُبعث فيهم رسولٌ قبله ﷺ، كما أنَّهم لم يكونوا مؤمنين؛ بل كانوا على عبادة الأوثان، إلّا قلَّةً معروفةً منهم تنكَّرت لها فأبَت السُّجود لها، وكان على دربهم (قسّ بن ساعدة)، وأيضًا (زيد بن عمرو بن نفيل) الّذي تحنَّف، و(ورقة بن نوفل) الّذي تنصَّر، وغيرهم.

نوع ﴿أَمۡ﴾ ودلالتها:

الانتقالُ من توبيخهم على إنكارِ الآياتِ إلى التّوبيخ على إنكارِ الرّسولِ نفسه

﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ﴾ للإضراب الانتقاليِّ من توبيخهم على إنكار الرّسالة إلى توبيخهم على إنكار الرّسول ﷺ، فلماذا يتنكَّرون له ويُنكرون نبوَّته وهو الّذي لم يَكذِبْهم أبدًا، ولم تتغيَّر مطلقًا سجيَّتُه المطبوعة على مكارم الأخلاق، فإذا ما أخبرهم بأنّه رسولٌ من الله قد بعثه إليهم ليدلَّهم على الدّين الحقّ، كذَّبوه وكأنّه شخصٌ آخر غيرَ الّذي كانوا ينعتونه بالصّادق الأمين؟ وتوجيه الإضراب كالتّالي: (بل ألم يعرفوا مُحمّدًا ﷺ مُتصفًا بالأمانة والصِّدق ومُنزَّهًا عن الأغراض والطَّمع فيما يُطمَع فيه من زعامةٍ أوْ مالٍ أوْ مصاهرةٍ وغير ذلك ممّا تتغيَّر نفوسُ النّاس لأجله؟) والاستفهام الكائن في همزة ﴿أَمۡ﴾ هو كسابقِه لإنكارِ الوقوع[2].

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدَةِ المعرفةِ:

قليلُ نظرٍ يَعلمُ صفاتِ خيرِ البَشَرِ

إيثار التَّعبير بالمعرفة دون العلم في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 143.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 251.

﴿رَسُولَهُمْ﴾؛ لأنَّ المعرفة هي درجةٌ دونَ العلم، فلمّا كان المقام مقامَ إنكار صفاته ﷺ الحميدة، وفي سياق النَّفي، ناسب ذِكْرُ المعرفة للتَّنبيه على أنَّه ﷺ يُعرف بصفاته وآثاره وسلوكياته وأقواله العظيمة، فأمره لا يحتاجُ إلى علم دقيق؛ بل إلى معرفةٍ يسيرةٍ، كما أنَّ المعرفة هي النَّظرُ في الجزئيات والأحوال الخاصَّة للمعلوم بخلاف (العلْم) الّذي يكون مُختصًّا بالأمور العامَّة والكُلّيَّة، وهؤلاء المخاطبون ممّن خالطوا النّبيّ ﷺ قبل بعثته، وتعرّفوا على أخصِّ خصوصياته، فهم أدركوا جميعَ صفاته وأحواله من الخلالِ الحسنة والصِّفات الحميدة؛ فناسب ذِكْرُ المعرفة طبيعةَ العلاقة به ﷺ.

نكتة ذِكْرِ الرِّسالةِ دون النّبوّة:

وظيفةُ التّبليغ والإنذار بالآياتِ ألصقُ بالرِّسالةِ منها بالنُّبوَّةِ

آثر النَّظم الكريم استعمالَ نعت الرِّسالة دون النُّبوّة في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ﴾، وذلك أنَّ السّياق هو سياق تبليغ بالآيات وتدبُّرٍ للأقوال، والتّبليغ هو في وظيفة الرّسول أوضحُ منه في وظيفة النّبيِّ، والإنكار إنّما كان بسبب ما احتوته الرّسالة من أوامرَ ونواهٍ وإرشاداتٍ رفضوا الانصياع وراءها.

دلالةُ إضافةِ لفظِ الرّسولِ إلى الضَّميرِ:

السَّعيدُ مَنْ خُصَّ بمحمدٍ سيِّدًا ورسولًا

أُضيف لفظُ الرّسول إلى ضمير المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿رَسُولَهُمْ﴾، وهي إضافة تخصيصٍ، لكونه منهم وهم قومه، وهو من أنسبهم وأشرفهم؛ فهو حريصٌ عليهم، ولن يأتي الدّنيَّة ولن يَدعوَهم إليها، فلا بدَّ أنه دعاهم إلى أمرٍ شريف يناسبُه ويناسب ما يُعرفون به من صفات وأخلاقٍ كريمة، فدلّت الإضافةُ على توبيخهم من كلِّ وجهٍ، لكونهم يعرفونه حقَّ المعرفة ذاتًا ووصفًا، ومع ذلك كذَّبوه ولم يؤمنوا به، وكان من حقِّه عليهم أنْ يَشكروه لا أنْ يُنكروه.

نوعُ الفاءِ ومعناها:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ للتّرتيب، ولتأكيد

أفادتِ الفاءُ التّرتيبَ أوِ السَّببيَّةَ

الدّاخلة عليه لما قبله؛ "فجحودُهم به مُترتّبٌ على عدمِ معرفتهم بشأنه عليه السلام، ومن ضرورة انتفاء المَبنيِّ بطلانُ ما بُني عليه؛ أيّ: فهم غير عارفين له عليه السلام فهو تأكيدٌ لما قبله"[1]، وقيل: هي فاء السّببيّة؛ "لتسبُّب الإنكار عن عدم المعرفة؛ فهو داخلٌ في حيِّز الإنكار، ومآل المعنى: هم عرفوه بما ذُكِر فكيف يُنكرونه؟!"[2]، وهذا الحِجاجُ بتوالي الاستفهام والإنكار وقوفٌ على سرِّ جهلهم؛ إذ جميع الدّعاوى الّتي كانوا يتعلَّلون بها للتّكذيب مُفنّدةٌ وباطلة، لأنّها إنكارٌ للحِسّيّات وجَحْدٌ للضّروريّات.

بلاغة جملة ﴿فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾:

لم تعرف البشريَّةُ جحودًا كجحود قريش مُحمَّدًا ﷺ

قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ دالٌّ على مدى الجحود الّذي توفَّر في المشركين، إذ جحدوا ما يثقون ويوقنون أنَّه الحقُّ، وقد اكتست هذه الجملة بنكاتٍ بيانيَّةٍ من مثل كونها أُكِّدت باسميّة الجملة المكونة من المُسنَد إليه ﴿فَهُمۡ﴾، والمُسنَد ﴿مُنكِرُونَ﴾، وتقديم الجارِّ والمجرور على الخبر ﴿مُنكِرُونَ﴾ حتّى لكأنَّهم يعرفون كلَّ شيءٍ إلّا رسولَهم فيَجهلونه ويجهلون عنه كلَّ شيءٍ، ومجيءُ الخبر بصيغة اسم الفاعل ﴿مُنكِرُونَ﴾ الدّالّ على ثباتهم واستمرارهم في هذا الإنكار وهو قمّة الجحود.

نكتةُ استعمالِ مُفرَدَةِ ﴿مُنكِرُونَ﴾:

بلاغةُ المقابلةِ بين نفي المعرفةِ وإثباتِ الإنكارِ

آثرَ النَّظْم الكريم استعمال مُفرَدَة ﴿مُنكِرُونَ﴾ دون رديفاتها، وذلك أنَّ الإنكار ضدُّ المعرفة، فإذا كانوا يعرفونه ﷺ حقَّ المعرفة، إذ عرفوا تفاصيل حياته منذ نشأته حتّى ساعة بعثته، وهم على تمام المعرفة بأخلاقه وسجاياه، ومع ذلك ادَّعوا خلافه؛ فإنَّ الإنكار الّذي هو مقابلٌ لها يدلُّ على كمال الجحود، بحيث لا يبلغ لفظ آخر

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 143.

(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 339.

ما بلغَه من تصوير الجحود والنُّكران الّذي كانوا عليه، فحسُنت المقابلة بين نفي المعرفة ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ﴾ وإثبات النُّكران ﴿فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾، إذ بلغت بهذيْن الأمريْن مبلغًا عاليًا من الجحود العجيب حتّى اجتمع الإثباتُ والنَّفي والمُؤدّى واحدٌ؛ لأنَّ عدم المعرفة بالشّخص لا تستلزمُ الإنكار له، لكنْ عندما يجتمعان يدلُّ على أنَّهم جحدوا معرفته أصلاً ولم يكتفوا بعدم المعرفة فقط.

نوع ﴿أَمۡ﴾ ومعناها:

الإضرابُ للانتقالِ من توبيخٍ لآخر، والاستفهامُ لإنكارِ الواقعِ

﴿أَمۡ﴾ كسابقاتها للإضرابِ الانتقاليّ، فقد انتقل بها إلى توبيخٍ جديد هو أشدُّ من كل ما سبقه؛ لأنّهم قد بلغوا قمةَ الافتراء في قولهم الّذي وُبِّخوا عليه، وهو قولُهم الآثم الّذي حكاه القرآن عنهم بقوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾، والهمزةُ هنا لإنكار الواقع واستقباحِه، فقد وقع منهم بالفعل اتّهامُه ﷺ بالجنون، وبأنَّ به مسًّا من الجنِّ، والمعنى: بل؛ أيقولونَ به جِنّةٌ؟ أيْ: جنون، وهو أرجحُ النّاس عقلًا، وأثقبهم ذهنًا، وأتقنهم رأيًا، وأوفرهم رزانة[1]، وفي هذا التّوالي بالاستفهام الإنكاريّ وتعدد الانتقالات التّوبيخيّة بيانٌ لسوءِ مصيرهم الّذي استحقّوه؛ إذ مارسوا جميعَ صورِ الإنكار والتّكذيب؛ إذ أعرضوا عن الآيات أوّلاً فلم يتدبّروها، وادّعوا أن رسولهم المُرسَل بالآيات بدعةٌ لم يسمعوا بها من قبل ثانيًا، وأنكروا معرفتهم بنبيهم إلى درجة الإنكار لأحواله وصفاته الكريمة ثالثًا حتّى ذهبوا إلى الافتراء عليه والادّعاء لجنونه، وأنّ ما يخبرهم به من القول ما هو إلّا مرضٌ عقليٌّ وخللٌ ذهنيٌّ وعاهةٌ قلبيّةٌ رابعًا، وكلُّ تلك الدّعاوى إنكارٌ للواقع المحسوس وردٌّ للقطعيّات ورفضٌ للبدهيّات الّتي يُقرّون خلافَها، لكن منعَهم الغرورُ والاستكبارُ عن رؤية الحقِّ والاعتراف به.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 144.

قد يكثرُ الباطلُ والمُبطلُ مفتونٌ

نكتةُ ذِكْرِ فعلِ القولِ بصيغةِ المضارعِ:

جاء التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَقُولُونَ﴾ مُثبَتًا بخلافِ الأفعال السّابقة المَنفيّة بما يُحيلها ماضيةَ المعنى استحضارًا للحالةِ الماضية؛ لتكون قبيحتُهم هذه ماثلةً أمامهم، وللدّلالة على أنَّ هذا القول كان يتكرّرُ منهم كثيرًا في أنديتهم ومجالسِ سَمَرِهم؛ فقد لجأوا إلى هذه التّهمة الشّنيعة لمّا أُسقط في أيديهم ولم يقفوا على سببٍ حقيقيٍّ يَطعنونه به ﷺ، وفي ذلك تطوّرٌ في موقف صدودهم من الدَّعوة؛ فلم يكتفوا بالإنكار لخلاله الطيِّبة الأصيلة؛ بل أقدموا على الطَّعن والافتراء بما يُناقض الحسَّ والواقع.

الإلــصــاقُ والتّقديم تصويرٌ لكمال الجحود

معنى الباءِ، ونكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

(الباء) في قوله تعالى: ﴿بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ للإلصاق والمصاحبة، وقُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على المبتدأ ﴿جِنَّةُۢ﴾؛ لإفادة الاختصاص؛ أيْ: به مسٌّ من الجنِّ، قد أحدث به جنونًا ليس له نظير، وكلٌّ من الإلصاق الحِسّيّ والتَّخصيص الشّخصيّ تصويرٌ لأعلى حالات الجحود والافتراء، وفي هذا التّسجيل لقولهم الآثم تعليلٌ لما تقدَّم من قوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾.

الجمعُ بين تهمةِ الجنونِ وسببِها

بلاغة اختيار مُفرَدَة ﴿جِنَّةُۢ﴾ وتنكيرها:

اختيرت مُفرَدَة ﴿جِنَّةُۢ﴾ تعبيرًا عن الجنون؛ لأنّهم كانوا يعتقدون أنَّ ما يُصيب المرءَ من خللٍ عقليٍّ هو بسبب مسِّ الجنِّ؛ فلفظ (الجِنَّة) يُطلقُ على الجنِّ، وهي المخلوقات المُستَتِرة عن أبصارنا[1]، ومن التَّعبير بالجِنَّة مُرادًا به الجنّ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ١٥٨﴾ [الصّافّات: 158] وقوله: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١١٩﴾ [هود: 119]، فجمعت اللَّفظة بين الجنون وسببه، ونُكِّر لفظ ﴿جِنَّةُۢ﴾ للتّفخيم

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 89.

والتّهويل؛ أيّ: به ﷺ مسٌّ قويٌّ من الجنِّ أحدثَ به خللًا قويًّا في العقل، ولو نظرنا في كلِّ تلك الدّعاوى الّتي صدرت منهم رأيناها تصبُّ جامَّ غضبها على الآيات والقول المبين؛ فهم لم يتدبَّروها وادّعوا أنَّ الرَّسول في ذاته بدعةٌ لم تعرف سابقًا، وأنَّهم لم يعرفوه بالصّادق الأمين، وأنكروا ذلك وصولًا للتّكذيب بالآيات، وأنّه مجنونٌ وبها عصابٌ ذِهنيٌّ يجعلُه ينطق بهذا الكلمات الغريبة عن حياتهم وثقافتهم ووعيهم ومألوف حياتهم؛ إذ المجنون الّذي مسَّتْه الجنُّ ينطق بألفاظ خارجة عن مستوى الإدراك والفهم البشريّ المُعتاد.

نوعُ الإضرابِ بالأداة ﴿بَلۡ﴾ ودلالتُه:

استعمال (بل) أقوى في إبطال الباطل ودحضه

الإضراب بـ ﴿بَلۡ﴾ في قوله سبحانه: ﴿بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ هو إضرابٌ إبطاليٌّ؛ لإبطال قولهم وبيان كذبهم في اتهامه ﷺ بأنّ به مسًّا من الجنّ، واستعمل هنا في الإضراب حرفَه الحقيقيّ وهو ﴿بَلۡ﴾؛ لأنَّه يقصد إبطالَ أقوالهم السّابقة الّتي صبّت كلَّ إنكارها على الآيات البيّنات والرّسولِ المرسَل بها، وأمّا ﴿أَمۡ﴾ فإنها استعملت بمعنى (بل) في الإضراب الانتقاليّ عند تعداد التُّهم وسردِها، كالذي مضى في المواضع السّابقة، لكن الرّدَّ المُزلزِل اختير له إضرابٌ إبطاليٌّ يُفيد قوّةً في التّفنيد ودعمًا للحقِّ والحقيقة.

بلاغةُ تكرارِ الإضرابِ:

كثرةُ التَّوبيخ دليلُ بلادةِ الموبَّخِ

تضمَّن الإضراب الانتقاليُّ في السّياق السّابق كلِّه أربعةَ توبيخاتٍ، وهذه التوبيخات الأربعةُ كان يكفي كلَّ واحدٍ منها ممّا وُبِّخوا به، أن يكون سببًا لانقيادهم إلى الحقِّ؛ لأنَّ التَّدبُّر لما جاء به، والنَّظرَ في سيَرِ الماضين، وإرسالَ الرُّسُل إليهم، ومعرفة الرَّسول ذاتًا وأوصافًا وبراءته من الجنون، هادٍ لِمَن وفَّقه اللّه للهداية[1].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 574.

بلاغة التَّعبير بمُفرَدَة المجيء مادةً وصيغةً:

المـــادة تـعـيُّن الحصول وثقل المحمول معه، والصّيغة تُحقِّق الوقوع

جاء التَّعبير بمُفرَدَة المجيء ﴿جَآءَهُم﴾ لتعيُّن حصوله؛ فالمجيء إنّما يُقال باعتبار الحصول[1]، كما يفترق عن (أتاهم) بأنَّ المجيء انبعاثٌ فيه شدّةٌ وصعوبة وقوّة، تناسب حملَ الحقّ والحقيقة، ولذا عدّاه إلى ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، بخلاف الإتيان الدّالِّ على القدوم بلينٍ وسهولةٍ، وأوثر أن يكون بصيغة الماضي ﴿بَلۡ جَآءَهُم﴾ لزيادة الإنكار عليهم، على معنى: بل تأكَّد وتحقَّقَ لديهم أنَّ مجيءَ هذا الرّسول إليهم مُرسَلًا من ربِّه لم يكن إلّا بالحقِّ، وأنَّهم يعلمون ذلك لكنَّهم غلبتْ عليهم شِقوتُهم، فجحدوا نبوَّته، وخالفوا ما استيقَنَتْهُ أنفسُهم كما قال سبحانه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النَّمل: 14].

تعيينُ مرجعِ الضَّميرِ:

الـــردُّ المـطـابـقُ للإنكارِ أبلغُ في مقامِ الحجاجِ

الضَّمير المُتّصل في قوله تعالى: ﴿جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ﴾ وقوله تعالى: ﴿جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ معنيٌّ به كفار مكّة؛ فهم الذين وُبِّخوا في الموضعيْن وأُنكِر عليهم جحودهم وافتراءاتهم على القرآن وعلى النّبيّ مُحمّد ﷺ، وفي الجمع بين المجيئيْن تناسبٌ واضح؛ إذ الأول وردَ على أنّه مجيءٌ مُنكرٌ؛ إذ اعتقدوا أنّ بعث الرُّسُل بدعةٌ لم يسمعوا بها؛ فناسبَ أنْ يكون الرّدُّ عليهم بأنّه مجيءُ حقٍّ وصدقٍ أمرٌ معتاد لا سبيل لإنكاره.

نوعُ الباءِ ومعناها في ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

اصـــطـــحـــابُ الرّسولِ للحقِّ دليلُ الاستئثارِ به

(الباء) في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ للملابسة؛ أيْ: ﴿جَآءَهُم﴾ متلبّسًا ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ عقيدةً وشريعةً، ومُصاحبًا له، والحقُّ لا يغيب عنه في تفاصيل دعوته وأفعاله وأقواله، فكأنَّه اصطحبَ الحقَّ معه وأخذه بيده، ومن ثَمَّ كان قدومُه ملغيًا لكلِّ صور الباطل، ومَن اصطحبَ الحقَّ وسار معه مُؤيّدٌ من الحقّ تعالى.

(1) الرّاغب، المُفردات: (جاء).

بلاغةُ اختيارِ مُفرَدَةِ (الحقّ) دون (الصّدق):

جاء التَّعبير ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، والتّعريف في لفظ (الحقّ) للعهد، والمعهود رسالته ﷺ، المتضمّنة للقرآن الكريم، وما دعا إليه من عقائد وشرائع؛ لأنَّه أنسب في كونه أعمَّ، إذ يشملُ الأقوال والأفعال والمُعتقدات، أمّا الصّدق فيغلب أن يكون في الأخبار والأقوال والكلام، والحقّ هو الثّابت في الواقع ونفس الأمر، بحيث لا يزولُ ولا يحول ولا يدخلُه الباطل أبدًا؛ والتَّعبير به أعمُّ، فهو "يكون في الذّوات وأوصافها، وفي الأجناس، وفي المعاني، وفي الأخبار، فهو ضدُّ الكذب وضدُّ السِّحر وضدُّ الشِّعر، فما جاءهم به النّبيّ ﷺ من الأخبار والأوامر والنّواهي كلّه مُلابسٌ للحقّ"[1]، كما أنَّ الحق يُطلقُ ويُراد به مطابقةُ الواقع للخبر، بخلاف الصِّدق الّذي يُطلق عند مطابقة الخبرِ للواقع، فيكون الحقُّ أبلغَ من الصّدق وأعمقَ دلالةً منه، ولا ننسى أنَّ هذا ردٌّ على اتّهامه ﷺ بالجنون، بمعنى أنّ الكلام والآيات الّتي جاء بها هذيانٌ ولغوٌ باطلٌ، فكان الرَّدُّ المناسب أنْ يكونَ ما جاء به موصوفًا بلفظ الحقّ دون الصّدق؛ إذ هو المقابلُ للباطل الصّادر عندَ الجنون.

الحقُّ أعمُّ من الصّدق لشموله الفعل والمعتقد والقول بخلاف الصّدق

نوعُ الواو ومعناها في ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ﴾:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ﴾ هي واوُ الحال[2]، والجملة حاليَّةٌ في محلِّ نصبٍ؛ أيْ: والحال أنَّ أكثرَهم للحقِّ كارهون، وفائدةُ الحال بيانُ أنَّ تكذيبَهم ونسبتَهم صاحبَ الحقِّ ﷺ إلى الجنون معلّلٌ بكراهتهم للحقّ وعدم إذعانِهم للحقيقة، وهذا دليلُ غرورهم واستكبارهم.

الحالُ مُعلّلٌ ادعاءَهم وكاشفٌ كذِبَهم

علَّةُ التَّعبيرِ بالأكثريّة:

اختارَ النّظمُ الكريم صيغةَ الأكثريّة في قوله تعالى: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 90.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 527.

﴿لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾، ولم يَقُلْ: (وهم للحقِّ كارهونَ) كما قال: ﴿فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾، وظاهرُ النّظم يقتضي أنَّ أقلَّهم لم يكونوا يكرهونَ الحقّ، ولكنّهم لم يُظهروا الإيمان خوفًا من الكارهينَ له، أَوْ عصبيّةً لما وجدوا عليه آباءهم، و"أَنَفَةَ واستِنكافًا من توبيخ قومه، وأن يقولوا: صبأ وترك دينَ آبائه، لا كراهةً للحقِّ، كما يُحكى عن أبي طالب[1]؛ أيْ: إنّه لم يُؤمن به ﷺ خوفًا من هذه القولة، وقد نقلَ مقاتلٌ شعرًا عن أبي طالب فيه تصريحٌ بهذا السّبب، وهو قوله:

وَعَرضْتَ دينًا لاَ مَحالَةَ أنَّه *** مِنْ خَيْرِ أدْيانِ البريَّةِ دينا

لَولا المَلاَمَةُ أو حَذاري سُبَّة *** لَوَجَدْتَني سَمْحًا بذاكَ مُبيِّنا[2]

يـا بـؤسَ مَـن باعَ الحقَّ بثمنٍ بـخـسٍ، ورضي بالباطلِ بمكرٍ ورِجْسِ

نوعُ (اللّام) ومعناها:

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿لِلۡحَقِّ﴾ لامُ التّقوية كالّتي مرّت في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ ويحتملُ أنْ تكون لامَ الأجَل؛ أيْ: كارهونه لكونه حقًّا، وعلى كلٍّ من المَعنييْن دلّت (اللّام) على عُمق كراهيتهم للحقّ، وأنّ إنكارَهم لصوتِ الحقيقة والآيات البيّنات لم يكن مبنيًّا على رُشدٍ ورأيٍ معقولٍ؛ بل لمجرَّد الهوى والغُرور والاستكبار.

التّـقـويـةُ والتّعليلُ كاشفان عـن الـغـرورِ والاستكبارِ في نفوسِ الكافرين

بلاغةُ الجِناسِ أو التّعطُّف بتكرار لفظٍ بمعنييْن:

التّعريف في لفظ ﴿لِلۡحَقِّ﴾ لاستغراق الجنس، والمُراد الحقُّ من حيث هو حقّ أيَّ حقٍّ كان، لا لهذا الحقِّ المذكور أوّلًا فقط؛ كما يُنبئُ عنه الإظهارُ في موقع الإضمار[3]، وقيل: أظهرهَ في محلِّ الإضمار لكونه أظهرَ في الذمِّ، وأبعدَ لتوهُّم أن يكون الضَّمير عائدًا للرَّسول ﷺ[4]، وهذا مبنيّ على تفسير أنَّ الحقَّ الثّاني مُغايرٌ للأول؛ فالأوّل

الـحـقُّ الأوّل هـو الآيـات فهو المعهود، والثّاني هو جنس الحقّ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 195.

(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/ 19، ومقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان، ص: 556.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 144، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 339.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 252.

مُرادٌ به المعهود من الآيات والقول الحق والقرآن، والثّاني مُرادٌ به جنس الحقِّ المقابل لمُطلَق الباطل، ومَن يرى أنَّ الحقَّ الأوّل هو نفسُه الحقُّ الثّاني، على قاعدة أنَّ المعرفة عندما تتكرَّر يكونُ الثّاني هو الأوّل، يكون إظهار الحقّ في موضع الإضمار، ونكتتُه كمال التّقرُّر، أوْ للتّعظيم وإظهار شرفه[1]؛ أيْ: شرف الحقّ، ويترجّحُ الأوّل وهو مغايرةُ الحقِّ الأوَّل للحقِّ الثّاني؛ إذ الأوّل خاصٌّ بالقرآن والآيات، والثّاني عامٌّ ينطلقُ من كراهيتهم لكلِّ حقٍّ، ولا ننسى أنَّ جملة الحال ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ بيّنت موقفهم وعلَّلت اتهامَهم لكلامِه بالبُطلان لكونه صادرًا ممّن به جِنّة، فيكون ذلك التكذيب قائمًا على أمرٍ مُتقرِّر في نفوسهم، وهي كراهيَتُهم للحقِّ وجنسه الّذي لا يتّفقُ مع أهوائهم وأباطيلهم.

نكتة تقديم ﴿لِلۡحَقِّ﴾ على المُسنَد:

الاهتمامُ بمركزِ القضيةِ يستدعي التّقديمَ

قُدِّم ذِكر الجارِّ والمجرور ﴿لِلۡحَقِّ﴾ المُتعلِّق بالمُسنَد وهو ﴿كَٰرِهُونَ﴾ اهتمامًا بذِكْره، "حتى يستوعبَ السّامعُ ما بعده، فيقع من نفسِه حُسْنُ سَماعه موقعَ العجَب من كارهيه"[2]؛ لأنَّ الحقّ غالبًا لا يتّفق مع رغبات الإنسان وتطلُّعاته، فيكون مكروهًا كراهةً قويّةً استدعَتْ إبرازه وإظهارَه بتقديمه على عامله وكأنّه مدار الكلام ومركزُه، ولمراعاة الفواصل.

بلاغةُ اختيارِ مُفرَدَةِ الكُرْه باسمِ الفاعلِ:

العلَّةُ الحقيقيَّةُ لرفضِ الآياتِ الكرهُ للحقِّ لا بسببِ القناعةِ ببطلانِها عقلًا

في اختيارِ مُفرَدَة (الكُرْه) في قوله تعالى: ﴿كَٰرِهُونَ﴾ دون سواها، إعلامٌ بتحكُّم طبعهم في هذا الكُره، فهم مطبوعون على كُره الحقِّ وبغضِه؛ لأنَّ الحقَّ كما أنّه يُصادم طباعَهم الجامحةَ للرّغبات غير الصَّحيحة، فإنّه كذلك يُصادم مصالحَهم وأهواءهم، فرفضُهم

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 203.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 91.

للآيات الحقِّ لا لأنَّهم غير مقتنعين بها، أو غير بائنةٍ لهم حقيقتها؛ بل لأنَّهم يكرهون الحقَّ المُخالف لأهوائهم وغرورهم واستكبارهم، وجاء التَّعبير باسم الفاعل ﴿كَٰرِهُونَ﴾ للإشعار بأنَّ كراهيتَهم للحقِّ سجيَّةٌ فيهم، وطبعٌ نابعٌ عن انحرافهم الدّائم عن جادَّة الصّواب، ولذا فهم دائمون عليها على سبيل الحدوثِ والاستمرار.

بلاغةُ الفواصلِ بين لفظي ﴿مُنكِرُونَ﴾ و﴿كَٰرِهُونَ﴾:

في قوله: ﴿مُنكِرُونَ﴾ و﴿كَٰرِهُونَ﴾ من فاصلتي قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٦٩ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّ سيِّئَ الأخلاق طبعٌ فيهم وسجيَّة، فهم ما أنكروه ﷺ وأنكروا رسالته وكتابَه، ولا أنهم كرهوا ما جاءَ به من الآيات البيِّنات، إلّا لكونهم مطبوعين على هذا الإنكار، وذاك الكُره للحقِّ وأهله، فهم جمعوا بين خُلُقَيْن ذميمَيْن، هما: الإنكار والكراهية؛ أحدُهما في الرّسول الّذي بهتوه حقيقتَه حتَّى إنَّهم أنكروه ولم يعرّفوه بصفاته الخيرة، وثانيهما في الرّسالة والمبادئ والقيم الإنسانيّة الفاضلةِ الّتي جحدوها حقَّها لكراهيتهم الحقّ الّذي لا يتّفق مع نزواتهم وشرورهم، وهذا من بليغ التَّشنيع عليهم، وبيان أنَّهم قومٌ بُهتٌ.

اجتمعَ في أهلِ الباطلِ إنكارُ الرّسولِ وكراهيةُ الحقِّ، وليس بعد ذلك ذنبٌ

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

القول والكلام:

القول هو كلُّ ما يلفظُ به قليلًا كان أوْ كثيرًا، مُفيدًا كانَ أوْ غيرَ مُفيدٍ، فهو يشملُ كلَّ ما يُنطَق به ويُلفَظ، وهو أعمُّ من الكلام؛ لأنَّ الكلام يُطلقُ على المُفيد الّذي يتمُّ به معنى، و"تركيب القَوْل يدلُّ على الخِفَّة والسُّهولة في جَميع تقاليبه، فوَجَبَ أن يتَناوَل الكَلِمَةَ الواحِدَة، والتّأثيرُ الّذي أفادَهُ تركيب الكَلام لا يحصل إلّا من الجُمْلَة التّامَّة"[1].

القولُ أعمُّ من الكلامِ، فكلُّ كلامٍ قولٌ، وليس كلُّ قولٍ كلامًا

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 710.

العلمُ أعمُّ من المعرفةِ، فكلُّ معرفةٍ علمٌ، وليس كلُّ علمٍ معرفةً

المعرفة والعلم:

المعرفة والعرفان: إدراك الشّيء بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ لأثره، وهو أخصُّ من العلْم، ويضادُّه الإنكار، ويُقال: فلان يعرفُ اللّه، ولا يُقال: يعلمُ اللّه، مُتعدّيًا إلى مفعولٍ واحدٍ، لما كان معرفةُ البشر للّه هي بتدبُّر آثاره دون إدراك ذاته، ويُقال: اللّه يعلم كذا، ولا يُقال: يعرفُ كذا، لما كانت المعرفةُ تستعمل في العلم القاصر المتوصَّل به بتفكُّر واكتساب، وأصله مِن: عَرَفت؛ أيَ: أصبتُ عُرفه[1]؛ فالمعرفة أخصُّ من العلْم؛ لأنَّها علمٌ بعين الشّيء مُفصَّلًا عمّا سواه، والعلمُ يكون مُجملًا ومُفصَّلًا[2].

(1) الرّاغب، المُفردات: (عرف).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 80.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ٧١﴾ [المؤمنون: 71]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من بيانِ ظاهرةِ كراهيةِ الحقِّ إلى بيانِ علَّةِ ذلك

بعد أن أخبر اللّه سبحانه في الآية السّابقة أنَّ أكثرَ المشركين يكرهونَ الحقَّ، وما ذلك إلّا لأنّه يُخالف أهواءَهم ويُصادم سلوكَهم المُنحرف؛ ناسبَ أنْ يذكرَ بعدَ ذلك علّةَ عدمِ موافقة الحقِّ لأهوائِهم، جوابًا عمّا قد تثيرُه نفسُ إنسانٍ سيِّئَ مُغرقٍ في هواه قائلًا: (وماذا لو جاءَهم محمّدٌ ﷺ بما يوافق أهواءَهم؟)، فعلَّل القرآن ذلك بأنَّ الحقَّ وداعية الهوى المغرضِ لا يجتمعان، وأنَّ الحقَّ لو سايرَ هواهم وخالفَ قانونه أدَّى ذلك إلى الفساد والاختلال في النّظام الكونيِّ، وفي السُّلوك الاجتماعيِّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِذِكۡرِهِمۡ﴾: (ذكر) أصلُ الذِّكرِ: الحِفْظُ الّذي تَذْكُرُه، وهو خِلافُ النِّسيان[1]، وهو أيضًا: جَرْيُ الشَّيْءِ على لِسانِكَ[2]، والذِّكْر: الكتابُ الّذي فيهِ تَفْصيل الدّين، وكلُّ كتابٍ من كُتبِ الأنبياء عليهم السلام ذِكْرٌ[3]، فالذِّكْرُ الكَلامُ الموحَى بِهِ لِيُتْلَى ويُكَرَّرَ، فهو للتِّلاوَةِ لأنَّهُ يُذْكَرُ ويُعادُ، إمّا لأنَّ فيه التَّذْكيرَ باللّهِ واليَوم الآخِرِ، وإمّا بمعْنَى أنَّ به ذِكْرَهُم في الآخِرينَ[4]، والذِّكْرُ: الصَّلاةُ، وقِراءَة القُرآن، والتَّسبيحُ، والدُّعاء، والشُّكْرُ، والطّاعَة[5]، وحقيقةُ الذِّكر في الآية:

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ذكر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن عبّاد، المُحيط في اللُّغة: (ذكر).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن عبّاد، المُحيط في اللُّغة: (ذكر).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 16.
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (ذكر).

يجوزُ أنْ يكونَ مصدرًا بمعنى التَّذكيرِ، ويجوزُ أنْ يكونَ اسمًا للكلامِ الّذي يُذكِّر سامعَه بما غَفَلَ عنه وهو شأْنُ الكتبِ الرَّبّانيَّة[1]، ويحتمل أنَّ المُراد أتيناهم بما فيه سببُ ذِكْرهم في الآخِرين وهي رفعتُهم ومجدُهم، لكنَّهم معرضون عمّا يرفعهم ويرفعُ ذكرَهم بين العالَمين.

2) ﴿مُّعْرِضُونَ﴾: (عرض) أَصْلُ كَلِمَةِ الإِعْراضِ مِنَ العَرْضِ وهوَ الظُّهورُ والبُروزُ، يُقال: عَرَضَ الشَّيْءُ وعَرِضَ يَعْرِضُ ويَعْرَضُ عَرْضًا؛ أيْ: ظَهَرَ وبَرَزَ[2]، وقيلَ أَصْلُها مِنَ العَرْضِ وهوَ: خِلافُ الطّولِ، يُقال: اعْتَرَضَ الطَّريقَ إذا سارَ عَرْضًا، وسُمّيَ الرَّفْضُ إعْراضًا؛ لأنَّ الرّافِضَ أظْهَرَ خِلافَ الشَّيْءِ، أوْ لأنَّهُ كالواقِفِ عَرْضًا في وجْهِ الشَّيْءِ[3]، والإعراض أيضًا: الصَّدُّ والتَّوَلّي والرَّفْضُ، تَقولُ: أعْرَضَ عَنْهُ؛ أيْ: صَدَّ وتَوَلَّى عنهُ، والـمُعْرِضُ: المُتَولّي، ويُطْلَقُ الإعْراضُ بِمَعْنَى: الانْصِرافِ عَنِ الشَّيْءِ بِالقَلْبِ، وضِدُّ الإعْراضِ: الإقْبالُ والانْقيادُ والطّاعَةُ[4]، والمقصود بالإعراضِ في الآية: الصَّدُّ والتَّوَلّي والرَّفْضُ، وضِدُّ الإقْبالِ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الحقُّ أعلى من الشَّهواتِ والشُّبهاتِ

تُبيِّنُ الآيةُ افتراضًا وهو أنَّ اللّه تعالى لو أجابَ هؤلاءِ المشركينَ إلى ما يَهوونه ويَشتهونه من باطلٍ وقبيحٍ، لفَسَدتِ السّماواتُ والأرضُ ومَن فيهنَّ مِنَ المَخلوقاتِ، واختلَّ نِظامُ العالَمِ، ولذلك أعرضَ عن أهوائهم، وما تُمليه رغباتُهم الفاسدة الضّيقة وعقولُهم المحدودةُ المُنحرفة، وأتى أولئكَ المُشركينَ بالقُرآنِ المُبَيِّنِ للحَقِّ، الّذي فيه شَرَفُهم وعِزُّهم في دُنياهم وأُخراهم؛ فهُمْ عن القُرآنِ مُعرِضونَ لا يَتَّبعونَه![5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 95.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عرض).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (عرض).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 89، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 141، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 555، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 52.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتُها:

الاستئنافُ أوِ العطفُ مفيدٌ تعليلَ كراهتِهم الحقَّ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ يحتملُ أنْ تكون للاستئنافِ، أوْ تكونَ للعطف، حيث عطفت جملة: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ﴾ على جملة: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ زيادةً في التّشنيع على أهوائهم، فإنّها مُفضيةٌ إلى فساد العالم ومَنْ فيه، وكفى بذلك فظاعةً وشناعةً[1]، ودلّت الجملةُ المعطوفة أوِ المُستأنفة على أنَّ كراهيتهم للآيات نابعةٌ من كونها مخالفةً لأهوائهم ورغباتهم الخاطئة، ولو كانت الآياتُ مُتفقةً مع ميولهم اتّبعوها وساروا في ظِلّها، وحينئذٍ تقعُ الكارثة، وتخرُبُ القيمُ الأخلاقيّة الحقّة، وتسودُ شريعةُ الغاب ويحلّ الظّلم ويشيعُ الانحلال، وهي عوامل خرابِ العالم وشيوعِ فساده وزوالِ انتظامه.

دلالةُ (لو) الشَّرطيّة:

يستحيلُ اتّباعُ الحقِّ أهواءَ الذين يُشركون

(لو) حرف شرطٍ غير جازم يدلُّ على امتناع وقوع الجزاء لامتناع وقوع الشّرط، فهو حرف امتناعٍ لامتناع، وامتناع اتِّباع الحقِّ لأهواء المشركين، منعَ من وقوع فسادٍ في الكون؛ فالعلاقةُ بينهما علاقةٌ سببيّة يترتّبُ فيها الجواب على الشَّرط؛ كقولنا: (لو جاءني أكرمته) فإنَّ المجيء علّةٌ للإكرام وسببٌ له، لكنّه لم يجئ أصلاً فلم أكرمْه، وفي استعمال هذه الأداة دليلُ استحالةِ وقوعِ مثل هذا الأمر إلّا إنْ اراد الله تعالى إفسادَه نظامَ العالم بالقيامة على أشرار الخلْق، فإنَّ الحقَّ لن يتبعَ أهواءهم، وفيه طمأنةٌ للمؤمنين، وإياسٌ لأصحاب الشَّهوات والأهواء.

بلاغةُ الاستعارة التّصريحيّة أوِ المكنيَّة:

اتّباعُ الحقّ الأهواءَ بالموافقةِ تشخيصٌ له بالعقلاءِ

الاتِّباع هو من قولهم: اتَّبعهُ بِالتَّشْديد بمَعْنى: سارَ خَلفَه[2]، والمعنى

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 91.

(2) الجُرجانيّ، التّعريفات، ص: 35.

على ذلك: ولو سارَ الحقُّ خلفَ أهوائهم فكان مُنقادًا لها اختلّ الميزان؛ لأنَّ من شأن الحقِّ أن يكونَ قائدًا لا تابعًا، وقوله تعالى: ﴿ٱتَّبَعَ﴾ مُستعارٌ للدّلالة على معنى الموافقة، والاستعارة قائمة على تشبيه الموافقة بالاتّباع على سبيل الاستعارة التّصريحيَّة التبعيَّة؛ أيْ: لو وافقَ الأمرُ المطابقُ للواقع أهواءَهم بأنْ كان الشِّرك حقًّا ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾[1]، ومثلُه قولُ النّبيِّ ﷺ: «لَنْ يَسْتَكْمِلَ مُؤْمِنٌ إيمانَهُ حتّى يَكونَ هَواهُ تَبَعًا لِما جِئْتُكُمْ بِهِ»[2]، ويحتمل المجاز الاستعاريّ أن يكون الحقُّ في قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ على معنى الحقّ المُتقدّم في قوله تعالى: ﴿بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾، وهو الشّيءُ الموافقُ للوجود الواقعيّ وحقائقِ الأشياء[3]، والمعنى: ولو وافق هذا الحقُّ الثّابت أهواءهم ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾؛ فيكون قد شبَّه الحقَّ بإنسانٍ يُمكنُه اتّباعُ غيره ومشيُه خلفَه، وذَكَرَ لازمًا من لوازمه وهو الاتِّباع على سبيل الاستعارة المَكنيَّة، أوْ أنْ يُحملَ الكلامِ على المجاز الحذفيّ؛ أيْ: ولو اتّبع صاحبُ الحقِّ وهو النّبيُّ ﷺ[4]، ويترجّحُ كلٌّ من الاستعارتيْن على المجاز الحذفيِّ لما فيهما من معنى التّشبيهِ المُستلزم للمبالغة والتّشخيص.

نوع أل في لفظ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾:

العــهــد أو الجنس دالٌّ على انحصار الحقِّ في الآياتِ البيّنات

(أل) في كلمة ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ قد تُحمل على الجنس لو أُريد بالحقِّ الأمرُ المُطابق للواقع، وتُحمل على العهد، لو أُريد به معهود معيَّن على ما مرَّ في الاحتمالات المجازية لكلمة ﴿ٱلۡحَقُّ﴾، وفي تسمية الآيات حقًّا على العهد أو الجنس إشارةٌ إلى أنَّ الحقَّ مُنحصرٌ في اتّباع تلك الآيات البيِّنات والبراهينِ السّاطعات.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 252.
(2) أخرجه البيهقيّ في المدخل إلى السُّنن الكبرى، باب ما يُذكر من ذمِّ الرأي، ص: 188.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 92.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 204، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 340، وفيود، التَّفسير البلاغيّ لسورة "المؤمنون"، ص: 107.

سرُّ الجمعِ والإضافةِ إلى الجمعِ:

يستحيلُ أن يتّبعَ الحقُّ الواحدُ الباطلَ المتعدِّد

جمع ﴿أَهْوَآءَهُمْ﴾ للإشعار بأنّهم مُتعدّدو الهوى، فليس لهم هوًى واحدٌ بل أهواءٌ كثيرة، فطُرقُ الباطل كثيرةٌ ومتنوّعةٌ، وطريق الحقّ واحدٌ، كما أنَّه جمعَ الضَّمير المُضاف إليه للإشعار بكثرة أصحاب الهوى، فهم كُثُرٌ وأهواؤهم أيضًا كثيرةٌ، وهذا يدلُّ على أنّ الحقَّ مُحالٌ أنْ يتّبعَ أهواءَهم لعدم إمكانيَّة ذلك، لا في الواقع ولا في الوهم، فكيف لواحدٍ أنْ يتّبعَ مُتعدّدًا بحيثُ يُلبّي رغباتِ أصحاب الهوى المُتكثِّر؟!

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدَةِ الفسادِ:

إذا نزلَ الفسادُ ارتفعَ الصَّلاحُ وعمَّتِ الخيبة

جاءتِ (اللّام) رابطةً لجواب الشّرطِ، وجملة: ﴿لَفَسَدَتِ﴾ لا محلَّ لها من الإعراب، جوابُ شرطٍ غيرِ جازم، ودلَّت كلمة الفساد في قوله تعالى: ﴿لَفَسَدَتِ﴾ على معنى: خروجِ الشَّيءِ عن حدّ الاعتدال، وهي مضادّةٌ لكلمة (الصّلاح) في عموم استعمالاتها، وهي تستعملُ في النّفس، والبدن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة[1]، ومعنى ذلك: أنَّ الحقَّ لو اتّبع أهواءهم لفسد كلُّ شيء من كلِّ جهة، ولما بقي فيه وجهٌ للصَّلاح، وعبَّر بالماضي في قوله: ﴿لَفَسَدَتِ﴾ للدّلالة على تحقُّق وقوع الفساد لو وقعَ الشّرطُ، ولكنَّ الشّرط غيرُ واقع؛ فالفسادُ غيرُ حاصلٍ، وهذا قياسٌ استثنائيٌّ مفيدٌ لامتناع وقوع الفساد بامتناع وقوع الشَّرط على طريقة اللُّغويّين.

نوعُ الواو ودلالتها:

العطف يفيدُ شمولَ الفسادِ للمكان ومَن فيه

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ للعطفِ، ودلالتُها بيانُ عِظَم هذا الفساد، وشموله للمكان؛ وهو السَّماوات والأرضُ، ومَن يسكُن فيهنَّ، فالفساد الّذي ينشأ عن اتّباع الحقِّ للهوى يعمُّ كلَّ شيءٍ؛ لأنّ الأهواء متعدّدةٌ؛ فأحدهم يريدُ ما يناقضُ الآخر، فلو نزلَ

(1) الرّاغب، المُفردات: (فسد).

الحق الّذي يُنظّم أمر العالَم على مقتضى أهوائهم أدَّى إلى زوال السَّماوات والأرض، واختلالِ النّظام الّذي يُنظّم أحوالَ مَن فيهنّ من الخلائق والكائنات، وهذا يدلُّ على أنّ الموجودات كلَّها قائمةٌ على نظام متين ونواميسَ كونيَّةٍ ضابطة، فلو استجابَ الحقُّ لتلك الأهواء تبدّل النِّظام وزالتِ الأمكنةُ ومَن فيها.

نوع (من) ومعناها:

فسادُ العقلاءِ يعمُّ غيرَهم ويُصيبُ شرُّه عمومَ الخلقِ

(مَنْ) اسمٌ موصولٌ دالٌّ على العاقل، ليُعلم أنَّ العقلاء من سُكّان السَّماوات والأرض، كالملائكة في السَّماء، والإنس والجنّ في الأرض، كلُّهم مُنذَرون بالفساد، لو اتَّبعَ الحقُّ أهواءَ المشركين أعداءِ الحق، وإذا خصَّ العُقلاء بالذِّكر من خلال (مَنْ) الموصولة؛ فإنَّ غيرَ العُقلاء أدخلُ في باب الفساد من باب أوْلى؛ لأنَّ لهم حُكم التَّبع في هذا، ويحتمل أن تكون (من) هنا للتّغليبِ فتشملَ العاقلَ وغيرَه.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفية:

دلَّت الظَّرفيَّةُ على استقرارِ أهلِ السّماواتِ والأرضِ؛ فإذا كثُرَ الفسادُ أفَلَ الصَّلاحُ

(في) حرفٌ دالٌّ على الظَّرفيَّة، وسرُّ التَّعبير به في قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّۚ﴾ الدّلالة على أنَّ جميع مَن تحويهم السّماواتُ والأرض مِن العقلاء، وغيرهم من باب أوْلى غيرُ ناجين من الوقوع في الفساد ما لو اتّبع الحقُّ أهواءهم، ولبيان استقرارِ سُكّان السَّماوات والأرض فيهنَّ، فلا يكون هذا الاستقرار إلّا بالصَّلاح واتِّباع الحقِّ الثابت، فإذا زال الصَّلاح وقعَ الفساد وذهب الاستقرار، وحينئذٍ لن يكون هناك استقرارٌ فيهنَّ، ففي الآية تنبيهٌ لأهل الباطل والإلحاد أنْ لا يَعبثوا في شأن السَّماوات والأرض، فإنَّ النتيجةَ فسادٌ عامٌّ وشرٌّ طامٌّ.

نوع ﴿بَلۡ﴾ ومعناها:

(بل) للإضرابِ الانتقاليّ أو الإبطاليّ

﴿بَلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ﴾ يحتملُ أن تكون للإضراب الانتقاليِّ، بأنْ يكونَ قد انتقل من تشنيعهم بكراهة الحقِّ الّذي به يقومُ العالم إلى تشنيعِهم بالإعراض عمّا جُبلت عليه

كلِّ نفس من الرَّغبة فيما فيه خيرُها[1]، ويحتملُ أنْ تكون ﴿بَلۡ﴾ للإضراب الإبطاليِّ أيضًا بأنْ يكونَ قد أبطلَ توهُّمَهم أنَّ الحقَّ يُساير أهواءهم، وأثبتَ أنَّه قد أتاهم بما يُذكِّرُهم الحقَّ، ويُبعِدُهم عن أهوائهم[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالإتيانِ دونَ المجيءِ:

القرآنُ حياةٌ للقلوبِ ونجاةٌ لأصحابِها

استعمل النَّظمُ الكريمُ لفظَ الإتيانِ دونَ المجيء في قوله تعالى: ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ﴾ لما أنَّ "جاء" يُقال في الجواهر والأعيان، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ٧٢﴾ [يوسف: 72]، و(أتى) يُقال في المعاني والأزمان، ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: 1][3]، كما أنّ المجيء يكون للانتقال الّذي فيه صعوبةٌ، بخلاف الإتيان الدّالِّ على الانتقال والحركة السَّهلة اليسيرة، وفي هذا التَّعبير ما يدلُّ على سهولة الإتيان بالحقِّ والتّذكير، والمُراد بالذّكر هنا القرآنُ على الأظهر في معناه؛ لأنّه يقوم بتذكيرهم بما يُنجيهم وينفعُهم، كما قال فيه ربُّنا جل وعلا: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزُّخرف: 44].

نكتةُ إسنادِ الفعلِ الماضي إلى ضميرِ العَظَمَةِ:

القرآنُ عظيمٌ بعَظَمَةِ مُنزِله

أُسند فعل الإتيان إلى ضمير العَظَمَة ﴿أَتَيۡنَٰهُم﴾ للدّلالة على عَظَمَة المأتيِّ وهو القرآنُ الكريم وتفخيم شأنه، وعبّر بالماضي ﴿أَتَيۡنَٰهُم﴾ لتحقُّقه ووقوعه، فقد آتاهم اللّٰه تعالى القرآن وفيه منهاجُ حياتهم، ومعه الرّسول ﷺ يُذكّرُهم به ويدعوهم إليه.

نوع الباء في ﴿بِذِكۡرِهِمۡ﴾ ومعناها:

السّببيّةُ تدلُّ على أنّ القرآن مُذكِّرٌ لهم أوْ رافعٌ لمكانتهم

(الباء) في قوله تعالى: ﴿بِذِكۡرِهِمۡ﴾ للسببيَّة؛ أيْ: أتيناهم بسبب تذكيرهم ونجاتهم وهو القرآنُ الكريم، أو أنَّ المُراد ﴿بِذِكۡرِهِمۡ﴾

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 144، والصّاوي، حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين: 3/ 114.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5096.
(3) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 2/ 365.

ارتفاعُ شأنهم وعُلوُّ أمرهم، فيكون المُراد: أتيناهم بالقرآن الّذي هو سببُ عِزِّهم ومجدِهم في قابل الأيّام إنْ هم آمنوا به، وعمِلوا بأحكامه وطبَّقوا إرشاداته.

بلاغةُ اختيارِ مُفرَدَةِ الذِّكْر:

جمعُ لفظِ الذِّكْر بين المعنى الرّوحيّ والحضاريّ

المُراد بالذِّكْر في قوله ﴿بِذِكۡرِهِمۡ﴾ هو القرآن الكريم، وفي تسميته بذلك دلالةٌ على شرفِه، فالشّرف ذِكْرٌ كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزّخرف: 44]؛ أيْ: شرفٌ لك ولهم؛ لأنَّه نزل بلغتهم[1] كما أنّه ذِكْرٌ لما فيه من أسباب التّذكير بما فيه صلاحُ الحال والمآل؛ فجمعتِ المُفرَدَة بين المعنى الرّوحيِّ الذّاتيِّ، الّذي فيه صلاحُ العباد والبلاد؛ والمعنى الحضاريِّ العامِّ الّذي فيه صلاحُ الأمّة والبشريَّة وعزُّها.

دلالةُ إضافةِ الذِّكْر إلى الضَّميرِ:

ما أغفلَ من ضلَّ عن واعِظِه الّذي بينَ يديه

أُضيفَ الذِّكْرُ إلى ضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿بِذِكۡرِهِمۡ﴾، وهو من إضافة المصدر إلى مفعوله؛ أيْ: جئناهم بما يُذكِّرُهم، ويُنبِّههم إلى خللِ تفكيرهم وبُعدهم عن الحقّ وسيطرةِ أهوائهم[2]، وقيل: إضافة الذِّكْر إلى ضمير (هم) من إضافة المصدر إلى فاعله؛ أيْ: الذّكر الّذي سألوه حينَ كانوا يقولون: ﴿لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٩﴾ [الصّافّات: 168 - 169]؛ أيْ: ما يتذكّرون به[3].

نوعُ الفاءِ ومعناها:

مُنتكسُ الفِطرة يرى الحقَّ باطِلًا

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ﴾ للتّفريع؛ أيْ: لتفريعِ إعراضِهم على الإتيان بالذِّكْر إليهم؛ أيْ: فتفرَّع على الإرسال إليهم بالذِّكْر إعراضُهم عنه[4]، وفي ذلك توبيخٌ لهم، حيث جعل إتيانَ الذِّكْر سببًا

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 1/ 183.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5096.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 95.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 95.

للإعراض مع أنّه عندَ العقلاء سببٌ لقبوله والتّوجُّه إليه[1]، وفي الفاء التّفريعيّة نلمحُ معنى المسارعة إلى الإعراض حتّى إنَّهم لم يَمنحوا أنفسهم فرصةَ سماعِ الذّكْر أوِ التّدبُّر في فوائد الإنصات له كعلوِّ أمرهم وقيام مجدهم.

بلاغةُ استعمالِ الضَّميرِ دون الأكثريّة:

عدمُ كراهيةِ الحقِّ مع اتّباعِ الباطلِ إعراضٌ يُحاسَبُ عليه فاعلُهُ

جاء التَّعبير في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ بالجملة الاسميّة، ولم يذكر الأكثريَّة كما ذَكَرها في الآية السّابقة ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾، فلم يَقُلْ: (فأكثرُهم عن ذِكْرهم مُعرضون) كما احترسَ في السّابقة، وذلك للدّلالة على أنَّ الإعراض عن القرآن كان من جميعهم، بينما لم يكونوا جميعًا كارهين للحقِّ، ففيه بيانُ أنَّ الإنسان يوصفُ بالإعراض ولو لم يكن مُحبًّا له لم يفعله، فبعضُ المشركين لم يكرهِ الحقَّ، لكنَّه اتّبع الباطل، فوُصِف بالإعراض، فالعبرةُ بالفعل لا ما تُكِنُّه القلوب دون أثرٍ يُذكَر.

معنى حرف ﴿عَن﴾:

﴿عَن﴾ في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم﴾ دالٌّ على المجاوزة؛ أيْ: تجاوزوا ما فيه ذِكْرُهم وأعرضوا عنه، أوْ: أعرضوا عنه مُتجاوزين إيّاه.

بلاغةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

في العدولِ كمالُ التّشنيعِ والتّقريعِ لسلوكهم وإعراضِهم

آثرَ النظمُ الكريم وضعَ المُظهَر ﴿ذِكۡرِهِم﴾ موضعَ المُضمَر، فقد كان مقتضى الظّاهر أنْ يُعبَّر عنه بالضَّمير لقُرب ذِكْره؛ فلم يَقُلْ: (فهم عنهُ معرضون)؛ بل أظهره لمزيد التّشنيع عليهم والتّقريع لهم[2]، إذ تصوَّروا واهمين أنَّ إعراضهم عن الآيات صوابٌ وتحقيق للذّات وترفُّعٌ ومَجدٌ مع أنّه إعراضٌ في الحقيقة عمّا هو نافعٌ لهم رافعٌ لمقامهم ذاكرٌ لهم بكلِّ خيرٍ إنِ اتَّبعوه وآمنوا به.

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 205.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 144.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المُسنَدِ:

التّقديمُ للاهتمامِ أوِ الاختصاصِ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَن ذِكۡرِهِم﴾ على المُسنَد ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾ لإفادة الاختصاص والقصر، فهم قد أعرضوا عن القرآن لا عن غيره، وكان أوّلى بهم أن يُعرضوا عن شركهم ويَؤوبوا إليه، أوَ أنَّه للاهتمام بـ ﴿ذِكۡرِهِم﴾ ليكونَ إعراضُهم عنه محلَّ عجَبٍ[1].

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدَةِ الإعراضِ:

المُكذِّب بالحقِّ شبيهٌ بالمُعرِض عن الشَّيءِ بحيث لا يلتفت إليه

حقيقةُ الإعراض: عدمُ الالتفات إلى الشّيءِ بقصد التباعُد عنه مشتقٌّ من العُرض - بضمّ العين - وهو الجانبُ، ثم استُعمل استعمالًا شائعًا في التّركِ والإمساك عن المخالطة والمحادثة؛ لأنّه يتضمّنُ الإعراض غالبًا، يُقال: أعرضَ عنه كما يُقال: صدَّ عنه[2]، والإعراض في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ كنايةٌ عن تكذيبهم القرآن والإيمان، رغمَ ما فيهما من نفعٍ لهم، أو هو مجازٌ عنه، حيث شبَّه المُكذِّبَ بالحقّ بالمُعرِض عن الشّيء فلا يلتفتُ إليه؛ بجامع النّفور من الشّيء، ويمكنُ حملُه على المجاز المرسَل بعلاقة اللُّزوم، حيث أطلقَ الإعراض وأرادَ التّكذيب، وهي توجيهاتٌ بيانيّةٌ تلتقي في المقصود من المعنى.

نكتة التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾:

المشركون ثابتونَ على الباطلِ مستمرّون في الإعراضِ

عبَّر النَّظمُ الكريم عن إعراضهم باسم الفاعل ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾ دون الفعل المضارع، فلم يَقُلْ (يعرضون) للدّلالة على تأصُّل الإعراض فيهم، وأنّهم لثباتهم عليه صارَ فيهم كالطّبع والسّجيَّة، بحيث لا يتخلَّف عنهم، ولا يتخلَّون عنه، فهم ما بين الثّبات عليه، والاستمرار في ضلالِه.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الهوى والشَّهوة:

فُرِّق ما بين الهوى والشّهوة مع اجتماعهما في العلَّة والمعلول،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 95.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/ 108.

يغلب الهوى في المعنويات، والشّهوة في اللّذّات الحسّيّة

واتفاقهما في الدّلالة والمدلول، هو أنَّ الهوى مختصٌ بالآراء والاعتقادات، والشّهوةَ مختصّةٌ بنيل اللّذّة، فصارت الشّهوة من نتائج الهوى ولوازمه، وهو أعمّ، والهوى أصلٌ هو أخصّ[1]، فكلُّ هوًى شهوةٌ، وليس كلُّ شهوةٍ هوىً، فمثلًا قد يَشْتَهي الإنْسان الطَّعام ولا يهواه[2]، أو يشتهي امرأةً ولا يهواها، فالشّهوة من آثار الحِسِّ، فلا يُشتهى إلّا ما يُدرَك بالحسّ، ومنه قيل: شهْوتا البطن والفَرْج، وأمّا الهوى، فهو ميلٌ نفسيٌّ أوِ اعتقادٌ قلبيٌّ وزيغٌ عقليٌّ يُردي صاحبه ويهوي به، قال الرّاغب: سُمّي - الهوى - بذلك؛ لأنّه يَهْوي بصاحبه في الدُّنيا إلى كلِّ داهيةٍ، وفي الآخرةِ إلى الهاويَةِ[3].

(1) الماورديّ، أدب الدِّين والدُّنيا، ص: 33.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 124.
(3) الرّاغب، المُفردات: (هوى).

﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٧٢﴾

[المؤمنون: 72]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من بيانِ صلاحِ الكونِ بالحقِّ إلى بيانِ صلاحِ الرَّسولِ بالحقِّ

بعدَ بيان فساد معتقداتِ المشركين، وأنَّ معتقداتهم لو كان لها حضورٌ ووجودٌ لفسَدتِ السّماواتُ والأرضُ، ناسب الانتقالُ إلى توبيخٍ جديدٍ مفادُه نفيُ أن يكون النّبيُّ ﷺ قد طلب منهم أجرًا على دعوته، لا مالًا ولا غيره، وهذا الانتقال كان الغرض منه نفيَ أن يكون موجِب إعراضهم عن دعوة الرسول جائيًا من قبله وسببه بعد أن كانت الاستفهامات السّابقة الثّلاثة متعلّقةً بموجِبات الإعراضِ الجائيةِ من قبلِهم(1).

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تَسۡـَٔلُهُمۡ﴾: (سأل) الاسْتِدْعاءُ والطَّلَبُ، يُقال: سَأَلَ يَسْأَلُ سُؤالًا ومَسْأَلَةً، ورَجُلٌ سُؤَلَةٌ: كَثيرُ السُّؤالِ(2)، ويُقال: سَأَلْتُهُ عَنْ عِلْمٍ سُؤالًا ومَسْأَلَةً؛ أيْ: طَلَبْتُ مَعْرِفَتَهُ، وسَأَلْتُهُ الصَّدَقَةَ؛ أيْ: طَلَبْتُ منهُ أنْ يَتَصَدَّقَ عَلَيَّ، والسُّؤالُ: طَلَبُ أحَدٍ مِنْ آخَرَ بَذْلَ شَيْءٍ أوْ إخْبارًا بِخَبَرٍ، فإذا كانَ طَلَبَ بَذْلٍ عُدّيَ فِعْلُ السُّؤالِ بِنَفْسِه، وإذا كانَ طَلَبَ إخْبارٍ عُدّيَ الفِعْلُ بِحَرْفِ (عَنْ) أوْ ما يَنوبُ مَنابَهُ(3)، ومن مَعانيهِ: الِاسْتِفْهامُ، والِاسْتِخْبارُ، والِاسْتِعْلامُ، والِاسْتِفْسارُ، وحقيقةُ السُّؤالِ في الآية هو: الطَّلَب.

2) ﴿خَرۡجٗا﴾: (خرج) أصلٌ يدلُّ على النَّفاذِ عَنِ الشَّيءِ، خَرَجَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 96.

(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، ولسان العرب: (سأل).

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/ 194.

يَخْرُجُ خُروجًا، والخُراجُ بالجَسَدِ[1]، الخَرْجُ والخَراجُ واحدٌ؛ أيْ: الأجرُ والجُعلُ والرِّزْقُ، والخَرْجُ والخَراجُ: الإتاوةُ؛ لأنَّه مالٌ يُخرِجُه المُعطي، وقيل: بيْنَهما فرْقٌ؛ فالخَراجُ: ما لَزِمَك، والخَرجُ: ما تَبَرَّعْتَ به، وقيل غيرُ ذلك[2]، وعليه فالمُراد بالخَرْجِ في الآية: العَطاءُ المُعَيَّنُ على الذَّواتِ أوْ على الأرضينَ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أجــرُ تبليغ الرِّسالاتِ على خالقِ السّماواتِ لا على أتباعِ الشّهواتِ

تُبيِّنُ الآيةُ توبيخًا آخرَ يوبِّخ به سبحانه الكافرين على عدم إيمانِهم بما جاءَهم به الرسولُ ﷺ من الحقِّ دونَ أنْ يسألهم عليه أجرًا، والمعنى: أمْ تَسألُ يا مُحمَّدُ ﷺ مُشركي قَومِك أجْرًا على ما جِئتَهم به مِنَ الحَقِّ، فيَمنَعُهم ذلك مِن اتِّباعِه؟! كلَّا! ليس الأمرُ كذلك؛ فثَوابُ اللهِ الّذي يُعْطيك على تَبليغِ رِسالتِه خَيرٌ لك مِن ذلك؛ فما الّذي يَمنَعُهم إذنْ من اتِّباعِ الحقِّ؟! واللهُ خيرُ مَن يُعطي عِبادَه ويَرزُقُهم مِن فضلِه[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ ﴿أَمْ﴾ ودلالتُها:

الظنُّ برسُلِ اللهِ شرًّا ديدنُ أهلِ الشَّرِّ ودربُ أهلِ المُكرِ

﴿أَمْ﴾ كسابقاتها للإضراب الانتقاليّ، فقد نقَلَهم النّصُّ الكريم من توبيخهم بسبب كونهم يتّبعون أهواءهم إلى توبيخٍ جديدٍ هدفُه تبيينُ خطئهم في عدم اتّباعه ﷺ، لأنّه لم يطلب منهم مالًا، ولا سلطانًا، ولا مصاهرةً، ولا غيرَ ذلك من أعراض الدُّنيا، أفلا يكفي ذلك دليلًا على نزاهته وإخلاصه، فيكون أدعى إلى اتّباعه؟ كما قال

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خرج).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 299، وابن جرير، جامع البيان: 17/ 90، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 208، 209.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 18/ 96.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 91، والواحدي، البسيط: 16/ 36، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 141، ومجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 6/ 1314.

سبحانه على لسان مؤمن سورة (يس): ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾ [يس: 20 - 21].

نوعُ الاستفهامُ ودلالتُه:

من أعظم المُنكرات الظَّنُّ بالرحيم الحريصِ نُكْرًا

الاستفهامُ في قوله: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ﴾ هو استفهامٌ إنكاريٌّ مُتضمّنٌ معنى النَّفي لإنكار الوقوع؛ أيْ: أنت لا تسألُهم أجرًا على دعوتك، فيعتذروا بالإعراض عنك لأجله شُحًّا بأموالهم، إذ لا يجوز أن يصدرَ عن الرَّسول ما يوجبُ إعراضَ المخاطبين عن دعوته، فانحصرت تبِعة الإعراض فيهم، وهذا في معنى قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ [سبأ: 47] على سبيل الفرض، والتّقدير: (إنْ كنتُ سألتُكم أجرًا فقد ردَدْتُه عليكم؛ فماذا يمنعُكم من اتّباعي)، وقولُه تعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٤٦﴾ [القلم: 46] كلُّ ذلك على معنى التّهكُّم، وأصرحُ منهما قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشّورى: 23][1].

بلاغة تكرار ﴿أَمۡ﴾ في السّياق:

إذا تعاظمت المنكرات قويت حُجج ردِّها وترسّخت أدلة دَحْضِها

جاء تكرار ﴿أَمۡ﴾ في سياق الآيات السّابقة لغرض الانتقال بها في كلِّ مرةٍ من توبيخٍ إلى توبيخٍ آخرَ أشدَّ من سابقه، وغرضُ ذلك تحريكُ الأذهان لفهم رسالةِ الإسلام، فإنَّ توبيخَ المُخاطبين على سوءِ فهمهم، وقلّةِ إدراكِهم، وشدَّةِ حرصِهم على التّمسُّك بالشّهوات والأهواء بحُجَّة التمسُّك بتراثِ الآباء، لهو من المنكَر الّذي يحتاج إلى تقريعٍ وتوبيخ بالحُجَّة والبيان.

نكتة اختيار مُفرَدَة ﴿تَسۡـَٔلُهُمۡ﴾ بالمضارع:

للتّهكُّم الخفيِّ قوَّةٌ في نفس الكافر الرّدي

آثر النَّظم الكريم استعمالَ مُفرَدَة ﴿تَسۡـَٔلُهُمۡ﴾ لزيادة توبيخ المشركين والتّهكُّم بعقولهم، فإنَّ السُّؤال هو سؤال المالِ على سبيل

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 96.

الصّدقة، وطلبُ الأجر لا يكون، فكيف بطلبه صدقةً؟! وجاء مضارعًا لتصوير المشهد المفتَرَض، يعني: بل أكنتَ تسألُهم وتُلحُّ عليهم طلبًا للأجر منهم، فمن أجل ذلك اتَّخذوا هذا الموقف منك، وهذا في غاية التّهكُّم بهم، بتنزيلهم منزلة المُمتنعين عن قبول الخير العميم، بسببِ البُخل بالأجر اليسير.

بلاغة استعمال مُفرَدَة ﴿خَرۡجٗا﴾ وتنكيره:

الخَرْج أجرٌ ثابتٌ يُعطى من المال

الخرجُ هو الجُعْل الّذي يُستخرج من الأموال، وهو كلُّ ما يُستخرج من ضريبةٍ وجِزية وغَلَّة، فإنه يُقال له: خراج وخَرْج[1]، ويكون على سبيل الدّوام والاستمرار، فاختير هذا اللَّفظ لما فيه من دلالةٍ على أنه أوفى وأدوم، فكونه أوفى لأنَّه يعتمدُ على نسبةٍ من جميع أموالهم، وكونه أدوم لأنَّه يكون أجرًا ثابتًا، ونُكِّر ﴿خَرۡجٗا﴾ للتّفخيم والتّكثير؛ أيِّ: جُعْلًا كثيرًا فيما يظنّون، أوْ للتّقليل باعتبار المقابلة؛ فإنَّ ما عند اللّه خيرٌ ممّا عندهم.

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

الـــرَّدُّ على المُبطلين ممزوجٌ بالأدلَّة والبراهين

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ للسببيَّة، وذلك أنه لمّا كان الإنكار المفهومُ من الاستفهام ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ﴾ معناه النَّفي، حسُن موقعُ (فاء) السَّبب في قوله: ﴿فَخَرَاجُ﴾؛ أيِّ: أم تسألهم ذلك ليكونَ سؤالك سببًا لاتّهامك، وعدمُ سؤالك بسبب أنّ خراج ﴿رَبِّكَ﴾ الّذي لم تقصِدْ غيرَه قطّ، ولم تتخلّ عن بابه وقتًا ما ﴿خَيۡرٞ﴾ من خراجِهم؛ لأنَّ خراجَه غيرُ مقطوعٍ ولا ممنوعٍ عن أحدٍ من عباده المُسيئين فكيف بالمُحسنين[2]، فهو تعليلٌ لنفيِ السُّؤالِ المُستفادِ من الإنكارِ؛ أيِّ: لا تسألهم ذلك؛ فإنَّ ما رزقك اللّهُ تعالَى في الدُّنيا، والعُقْبى خيرٌ لك من ذلكَ[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 575.

(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 169.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 145.

التّكامل بين القراءاتِ يُخرجُ براعةَ النِّكاتِ

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في لفظتي ﴿خَرۡجًا﴾ و﴿فَخَرَاجُ﴾ وبلاغتها:

قرأ الجمهور: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ﴾، وقرأ ابن عامر: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجًا فَخَرۡجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ﴾[1]، وقرأ حمزة والكسائيّ وخلف: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرَاجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ﴾[2]، والفرق بين الخَرْج والخراج أنّ الخَرْجَ أقلُّ من الخراج؛ كقولِك: خراجُ القرية، وخَرْج الكُرْدَة[3]، وهي الأرض ذاتُ الزّرع، فعلى قراءة الجمهور يكون هناك نفيُ طلبِ الأجر اليسير، والنّظر إلى الأجر العظيم من اللّه تعالى؛ يعني: أم تسألهم على هدايتك لهم قليلًا من عطاءِ الخَلْق، فالكثير من عطاء الخالق خيرٌ[4]، ففيها مُحسِّنُ المبالغة[5]، وأمّا قراءةُ ابن عامر وحمزةَ والكسائيّ وخلَف بتوحيد اللَّفظ في القراءتَيْن؛ فتوجيهُها على طريقة التّرادف، أنَّهما وردتا على اختيار المُتكلِّم في الاستعمال مع مُحسِّن المزاوجة بتماثل اللَّفظيْن[6]، ووجهُ الجمع بين القراءتَيْن هو بيان أنَّ الكثير والقليل من اللّه تعالى خيرٌ من أجرهم؛ فكيف إذا كان عطاءُ اللّه لا يكون إلّا كثيرًا، فتحصل لنا ثلاث قراءات: ﴿خَرَاجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾، ﴿خَرۡجًا فَخَرۡجُ﴾، ﴿خَرۡجًا فَخَرَاجُ﴾، وفيه من المحسنات البديعية: الجناس الناقص، الذي يعطي جَرْسًا بديعًا في توازن الكلمات.

ثوابُ اللهِ تعالى خيرٌ من الدُّنيا بما فيها

دلالةُ إضافةِ ﴿فَخَرَاجُ﴾ إلى لفظِ الرّبوبيَّة:

إضافةُ الخَرْج إلى اسم الرّبِّ ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ هي إضافة تخصيصٍ، لتُفيد أنّ الخراج الموصوف بكونه خيرًا هو (خراج

(1) هكذا ضبطُها بألف عليها صفر مستدير؛ للدلالة على زيادتها رسمًا وعدم نطقها، وهو قول الشيخين: الداني وأبي داود، وذكر السخاوي أنه رآه في المصحف الشامي العتيق بغير ألف: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجًا فَخَرۡجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ﴾، يُنظر: السخاوي، الوسيلة، ص: 178.

(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 315.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 196.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 196.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 96.

(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 96.

ربك﴾، وهو شاملٌ لثواب اللّه تعالى في الدُّنيا وفي الآخرة[1]، فيكون سرُّ التَّخصيص بالإضافة أظهرَ وأبرزَ، وفي تسميته خراجًا ثمّ إضافتِه إلى الرّبِّ كذلك إشارةٌ إلى أنَّه أوجبَ رزقَ كلِّ أحدٍ على نفسه بوعدٍ لا خُلفَ فيه[2].

علَّةُ إيثارِ لفظِ الرّبوبيّة:

انتقاءُ الألفاظِ قائمٌ على ترابطِ السّياقِ

آثر النَّظم الكريم استعمالَ لفظ الرّبوبيّة دون اسم الأُلوهيّة في هذا السّياق باعتبار أنَّه حديثٌ عن الأجر والرّزق والثّواب، وهذه من مُقتضيات توحيد الرّبوبيَّة؛ فالخراجُ هو الرّزق الدُّنيويُّ والثَّواب الأخرويُّ، والحديثُ عن الأرزاق والنّعَم هو من عطاءات الرّبوبيّة.

نكتةُ إضافةِ لفظ الرّبوبيَّة إلى ضمير المُخاطَب:

عنوان الرُّبوبيَّة تشريفٌ عظيمٌ وتفخيمٌ جليلٌ

أُضيفَ لفظُ الرّبوبيَّة إلى ضميره ﷺ ما يُفسِّر التَّخصيص في هذه الإضافة، وهو أنَّه ﷺ لا يرجو إلّا خراجَ ربِّه، ولا يرجو من النّاس شيئًا، وفي هذه "الإضافة إلى ضميره ﷺ من تعليلِ الحُكم، وتشريفه ﷺ ما لا يَخفى"[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ باسمِ التّفضيلِ ﴿خَيۡرٌ﴾:

الأجرُ من الله تعالى هو الخير المُطلَقُ الّذي لا يعتريه نقصٌ أوْ يلحقُه خللٌ

﴿خَيۡرٌ﴾ اسمُ تفضيل، وأصله: أخيَر، حُذفتْ همزتُه تخفيفًا لكثرةِ الاستعمال[4]، والمُراد أنَّه سبحانه خيرُ مَن يُعطي ويمنح، وليس المُراد بالتّفضيل هاهنا الموازنةَ بين خراجَيْن وتفضيلَ أحدهما على الآخر؛ بل المُراد الإضرابُ عن خَرْج المخلوقين جملةً وتفصيلاً، وإثبات الخيريَّة المُطلقة لأجر اللّه تعالى؛ فهي كلمةٌ مُستمرّةٌ استمرارًا مُطلقًا، فمهما خطر في ذهنِ المخلوقين من أجرٍ يكتسبُه من النّاس؛ فخراجُ اللّه تعالى خيرٌ من ذلك كلِّه؛ فعلى التّحقيق

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 145.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 169.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 145.
(4) ابن مالك، شرح الكافية: 2/ 1121، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/ 251.

ليس المقصودُ من التّفضيل المفاضلةَ؛ بل إثبات الخير المُطلَقِ للّه تعالى وحدَه.

نوعُ الواوِ ومعناها:

الـواوُ تحتملُ الاعـتراضَ أوِ العطفَ

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ إمّا أن تكون اعتراضيّةً؛ فالجملة معترضةٌ، تكميلًا للغرض بالثّناء على اللّه والتّعريفِ بسَعَةِ فضلِه، وتفيدُ تأكيدًا لمعنى ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌۖ﴾، أوْ للعطف، وفائدةُ العطف تأكيدُ ما جاء في الآية من أنَّ خراج اللّه تعالى خيرٌ.

بلاغةُ التّذييل ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾:

خيرَ الرّازقين يكون رزقُه أوسعَ وخيرًا من غيره

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ جملةٌ اسميّة فيها معنى التّأكيد، وهي تذييليَّةٌ مقرِّرةٌ لَمَنْطوق ما قبلَها؛ ومكمِّلةٌ للغرض بالثّناء على اللّه تعالى، والتّعريفِ بسَعة فضله؛ لأنَّ خيرَ الرّازقين يكون رزقُه أوسعَ وخيرًا من غيره[1].

فن التّرديد في لفظ ﴿خَيْرٌ﴾:

ظاهرةُ التَّرديد تردُّ على القول بالتَّفنُّن اللّفظيّ المَحضِ

المُراد بالتّرديد أنَّ اللَّفظة الواحدة رُدِّدتْ في سياقٍ واحدٍ، وهو أنْ تأتيَ لفظةٌ متعلّقةٌ بمعنًى ثُمَّ تأتي اللَّفظة نفسُها مُتعلّقةً بمعنًى آخر، وفي هذه الآية تكرّر ذِكْرُ كلمة ﴿خَيْرٌ﴾ في الآية مرّتيْن، في قوله تعالى: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾؛ فالأولى جاءتْ بيانًا لكون خراج اللّه - يعني: رزقه وعطاءه - خيرٌ من خراج غيره، وقد مضى تعليلُه، وأمّا الثّانية؛ فقد جاءت في معرض المُفاضَلَة بين رازقيّة اللّه وغيره من الرّازقين، فاختلف موضوع الكلام في كلّ واحدةٍ عن الأخرى، وفي التّرديد ردٌّ على القول بالتّفنُّن اللَّفظيِّ المُجرَّد عن قصد المعنى.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 206، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 98.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخَرْجُ والأَجْر:

الأجرُ يكون جزاءً على عملٍ، والخَرْجُ لا يُشترط فيه ذلك

الأجرُ: الجَزاء على العَمَل؛ أيْ: ما يعودُ من ثواب العمل دنيويًّا كان أوْ أُخرويًّا؛ نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ [يونس: 72]، وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [العنكبوت: 27]، وقالَ بَعضهم: الأجر والأُجْرَة يُقال فيما كانَ عقدًا وما يجْري مَجْرى العقد، ولا يُقال إلّا في النَّفْع[1]، والخرجُ يُقال بإزاء الدّخل والجُعل يُجعَل لشخصٍ ما، يُقال لكلّ ما تُخرجه إلى غيرِك، وهو أعمّ من الخراج، قال تعالى: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ [الكهف: 94]، والخراجُ مُختصٌّ في الغالب بالضّريبة على الأرض؛ ففيه إشعارٌ بالكثرة واللّزوم، فيكون أبلغَ، ولذلك عبَّر به عن عطاء اللّه تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌۖ﴾، واللّزوم بالنسبة إليه تعالى إنَّما هو لفضلِ وعدِه ﷻ[2]؛ ومن هنا يظهر أنَّ الفرق بين الأجر والخَرْج يتمثَّل في أنَّ التَّعبير بالخَرْج ألزمُ من التَّعبير بالأجر، كما أنّ الأجرَ يكون جزاءً على عمَلٍ، والخرجَ قد لا يكونُ كذلك.

(1) الرّاغب، المُفردات: (أجر)، والكفوّي، الكُلّيّات، ص: 48.
(2) الرّاغب، المُفردات: (خرج)، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 254.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٧٣ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ۝٧٤﴾ [المؤمنون: 73 - 74]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

من الأدلّة على أنَّ الإسلامِ دينُ ربِّ العالمين اختيارُ مُحمَّدٍ سيدَ المرسلين

لمّا بيَّن الله تعالى زيفَ طريقةِ المشركين في الصَّدِّ وعدم الإيمان، أتبعَه ببيان صحَّة ما جاءَ به الرّسول ﷺ، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ لأنَّ ما دلَّ الدليلُ على صحّته، فهو في باب الاستقامة أبلغُ من الطَّريق المستقيم؛ فألزمَهم الحُجَّة في هذه الآيات، وقطعَ معاذيرَهم وعلَّلهم بأنّ الّذي أُرسل إليهم رجلٌ معروفٌ أمرُه وحالُه، مخبورٌ سرُّه وعلنُه، خليقٌ بأن يُجتبى مثلُه للرِّسالة من بين ظهرانيهم(1).

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾: (نكب) أصلٌ يَدُلُّ على مَيْلٍ أوْ مَيَلٍ في الشَّيْءِ، ونَكَبَ عن الشَّيْءِ يَنْكُبُ(2)، والنَّكْبُ: اجتنابُك الشَّيء، تَنْتَكِبُ عنه وتَنَكَّبُ عنه(3)، وكل شَيْءٍ مِلْتَ عَنهُ فقد تنكّبْتَه، والأصْل فيه أنْ تولّيه مَنْكِبَك(4)، وتَنَكَّبه؛ أيْ: تجنَّبه، وتنكَّبَ القوسَ؛ أيْ: ألقاها على مَنكِبِه، والمُراد بالنّاكِبِ في الآية: العادلُ عن شَيءٍ، المُعْرِضُ عنه(5).

المَعْنى الإجماليُّ:

مَن خالفَ الحقّ في الدّين حادَ عن النَّجاةِ يومَ الدّين

يُخاطِبُ اللّهُ تعالى نَبيَّه ﷺ قائلًا: (وإنَّك - يا محمَّدُ - لَتَدْعو مُشركي قومِك إلى طَريقٍ مُستقيمٍ لا اعوِجاجَ فيه، وهو دينُ الإسلامِ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 287، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 196.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نكب).
(3) الخليل، العين: (نكب).
(4) ابن دُرَيْد، جمهرة اللّغة: (نكب).
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 99.

وإنَّ الّذين لا يُصدِّقون بالبعث بعد الموت، وبقيام السّاعة ومُجازاة اللّه عبادَه في الآخرة عادلونَ عن مَحَجَّة الحقِّ، وعن قصد السَّبيل، وهو دينُ اللّه الّذي ارتضاه لعباده، ونصبَ الأدلّةَ عليه)(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتها:

رسولُ الرّحمة يُريد بالنّاس خيرًا وهم يظنّون فيه شرًّا

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ﴾ عاطفةٌ، عطفَتْ جملة (إنّك لتدعوهم) على ما قبلها: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، فالآية السّابقة فيها نفيُ سُؤال النّبيّ ﷺ قومَه أجرًا على الدَّعوة والتّبليغ، وهذه الآية فيها إثباتُ دعوتِه لهم إلى صراطٍ مستقيم، فدلَّ العطفُ على مدحِ النّبيِّ ﷺ، وعلى التّعريض بالمشركين من حيث إنَّهم يتَّهمون مَن لا يريد لهم إلّا كلَّ خير، ويحتملُ أنَّ عطفه عليه لتنزيه دعوة الإسلامِ من الالتواء والغموض بعدَ أنْ نزّه النّبيَّ ﷺ عن الدّعوة لهم مقابلَ أجرٍ دنيويٍّ فانٍ، وبين كلٍّ من التّنزيهيْن ردٌّ لما صدر منهم من تُهَم شنيعةٍ سابقة إزاءَ الإسلام الكريم ونبيِّه العظيم ﷺ، فيكون بين الجملتَيْن تقارنٌ واجتماعٌ في الغرض؛ فجازَ العطفُ للجامع الخياليّ.

غرضُ توكيدِ الخطابِ:

الخطابُ مقصودٌ به التّعريض بالكافرين لإنكارِهم الحقَّ الأبلجَ

التّأكيد بـ (إنّ) واللّام الدّاخلةِ على الخبر وهي (المزحلقة) لتأكيد أنَّه ﷺ على طريق مستقيم في دعوتِه وأنّ ما يدعوهم إليه هو الحقُّ الّذي لا ريب فيه، والخطابُ موجَّهٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، والمقصودُ به التّعريضُ بالكافرين الذين صدّوا عن دعوته، لأنَّهم أنكروا ما هو واضحُ الحُجَّة بيِّنُ الدّلالة، بعد أن أزاح عنه كلَّ اشتباهٍ لهم عليه، وخلَّصه من كلِّ تهمةٍ وجَّهوها إليه.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 91، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 142، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 43.

دعوة النّبيّ ﷺ حرصٌ واجتهادٌ على الدّوام

نكتةُ اختيار مُفرَدَةِ الدّعوة صيغةً ومادّةً:

جاء استعمالُ مُفرَدَة الدّعوة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ﴾ كنايةً عن المجهود الّذي بذلَه النّبيُّ ﷺ في سبيل دعوتهم إلى الإيمان باللّه وحدَه، فالدُّعاء فيه معنى النِّداء[1]، ولذا آثرَ صيغةَ المُضارع؛ لأنّه ظلَّ يُناديهم ويبذلُ لهم ما يستطيعُ في سبيل إقناعِهم، ويُكرر دعوتَهم ونداءَهم مرّاتٍ ومرّات، حتّى عوتب في هذا لأنّه كاد أنْ يُهلك نفسه وجْدًا وحُزنًا على عدم إيمانهم، فقال له ربُّه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف: 6]، كما يوحي الدّعاء والنّداء إلى غفلةٍ في المدعوِّ المُنادَى، فالمشركونَ المستكبرونَ وإنْ كانوا قريبينَ منه حسًّا إلّا أنَّه كان يناديهم لبُعدهم المعنويِّ عن الهداية وطريقها، فكان إعراضُهم وإنكارُهم يُبعدهم عن السَّماع، فآثر استعمال الدعاء تصويرًا لذلك الإعراض والابتعاد وشدَّة الإنكار، وكانتِ الدّعوة لهم جميعًا بلا استثناءٍ كما يدلُّ عليه ضمير (هم) ليكونَ أقطعَ لحُجَجهم وأمنعَ لمعاذيرهم.

تمسيكُ النّاسِ بطريقِ الإسلام مهمّةٌ شاقّةٌ لدعاةِ الخير

بلاغةُ استعمالِ حرفِ انتهاءِ الغايةِ:

حرف ﴿إِلَىٰ﴾ يدلُّ على انتهاء الغاية وبلوغ المقصد، دلالةً على أنَّه ﷺ كان يبذلُ لهم كلَّ جهد، ليصلَ بهم إلى مقصدِه من الدَّعوة وهو الإيمان باللّه ﷻ، وفي اجتباء هذا الحرف دون (اللّام)، إيماءٌ إلى أنَّ المطلوب منه ﷺ هو دعوتُهم ليبلغوا الغايةَ وهي الصّراطُ المستقيم، وليس أنْ يكون الصّراطُ المستقيم غرضًا للدّعوة، فإنّه لا يتناسب مع سياق الاتّهام له بدعوتهم إلى طريق باطلٍ فيه التواءٌ لا يتناسبُ مع ما تمسّكوا به من دين الآباء والأسلاف، فالغايةُ هي إيصالُهم إلى دين الإسلام، بحيث يدخلونَه ابتداءً، ويحافظونَ عليه انتهاءً، كما أفاد حرف الانتهاء أنّ طريقَ الدّعوة يحتاجُ إلى صبرٍ؛ لأنّه رحلةٌ طويلةٌ

(1) الرّاغب، المُفردات: (دعا).

وتربيةٌ روحيّةٌ وعمليّةٌ مستمرّة تبغي إيصالَ المدعوِّ إلى النّور والضّياء والطَّريق الواضح في التّعامل مع اللّه تعالى والإنسان والحياة.

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدَة الصّراط وتنكيرها:

(الصّراط) هو الطّريق غير المُعوَجّ والنّهج الواضح الّذي لا التواءَ ولا غموضَ فيه، وفي التّعبير به في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ دلالةٌ على أنَّ طريق الدّعوة منه ﷺ، هو طريقٌ واضحُ المَعالم أبلجُ، لا يختلف عليه مَن أسلمَ فِطرته للّه تعالى، وأعطى عقلَه حريّةَ الاختيار، وأصلُ (الصّراط) مأخوذٌ من: سَرَطَ؛ أيِ: ابتلعَ، فإنَّ العرب كانت تقول: سَرِطَتْهُ الطّريقَ؛ أي: ابتلعتْهُ، إذا مشى المسافرُ فيها فلم يَستطيعوا رؤيته، وهذا يدلُّ على الانكشاف والوضوح، ونُكِّرت كلمةُ ﴿صِرَٰطٖ﴾ تفخيمًا وتعظيمًا، فطريقُ الإسلام طريقٌ عظيم يختلفُ عن سائر الطُّرق باستقامتِه المُلازمة لعقائده وسلوكه وقيمِه المُثلى، كما أن فيه تعريضًا بالمشركين الذين اتَّهموا الإسلام بأنّه مُخالفٌ لما عليه طريقُهم وطريقُ آبائهم، فنتج من ذلك أنَّ طريقة آبائكم الأوّلين ليستْ صِراطًا واضحًا ولا منهجًا حقيقيًّا دعا إليه أحدُ الدُّعاة والمرسلين.

إذا تخلَّص العقلُ من قيودِه والقلبُ من شهواته فلن يُبصرا إلّا طريقَ الإسلام

بلاغة وصف (الصّراط) بالاستقامة:

وُصِف الصِّراط بـ(المستقيم) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ تأكيدًا لوضوحِه وعدم اعوجاجه، فكلمة (الصّراط) تدلُّ على الاستقامة؛ فالصِّراطُ: الطّريقُ المستقيمُ[1]، فلا يُراد من الوصفِ التَّخصيص؛ بل التّأكيد، وفائدةُ التّأكيد التّنبيهُ على قِصَر الطَّريق، فإنَّ الاستقامة هي أقصرُ خطٍّ بين نقطتَيْن، فلا يتخلّلهُ الخطأ أوِ القصورُ أوِ الاضطرابُ أوِ التّناقضُ والتّعارض، كما هو الحال في طرق الضَّلالة والبهتان.

أفاد الوصف التأكيدَ للتّنبيه على قِصَر الطّريق وخُلوّه من المخاطر

(1) الرّاغب، المُفردات: (صرط).

بلاغةُ الاستعارةِ في وصفِ الإسلامِ بالصّراطِ المستقيمِ:

الإسلامُ منهجٌ لا غموضَ فيه ولا التواءَ

في جعلِ دعوة النَّبيّ ﷺ النّاس إلى الصَّراط المستقيم استعارةٌ تصريحيّة مشهورةٌ، إذ شأنُ الأنبياء الدّعوة إلى الدّين الحقِّ والمُعتقدِ الصَّواب والأعمالِ الرَّشيدة والأقوالِ النّافعة، وليست الدّعوةُ إلى الطُّرق المستقيمة؛ لكنَّه شبّه (الدين) وهو أمرٌ معنويٌّ بأمرٍ حسّيٍّ بـ (الطريق) تشخيصًا للدّين ومعتقداته، وإبرازًا له بثياب الحسيّات كما هو وظيفةُ الاستعارة، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ أيَ: إلى دين الإسلام الّذي هو كالصِّراط المستقيم، وبذلك يكون أبلغَ ردٍّ لهم في اتّهام الإسلام بالانحرافِ عن ديانة الآباء، وأقوى تعريضٍ بما كان عليه آباؤهم في معتقداتهم من انحرافِ طريقهم الّذي لا يوصِّلُهم إلى رضا اللّه تعالى ورحمته؛ لما فيه من التواءٍ وانحرافٍ وميلٍ عن دين إبراهيم عليه السلام.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

بيانُ التّقابلِ بين حرصِ الدّاعي وتفريطِ المدعوّ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ عاطفةٌ، حيث عطفَتْ هذه الجملةَ على السّابقة لبيان موقفِ المخذولين من دعوة رسول اللّه ﷺ، ففي العطف معنى التّقابل بيَنْ مَن يدعو النّاس إلى المنهج الواضح حرصًا على نجاتهم، ومَن يرفضُ هذه الدعوة حرصًا على الأهواء.

غرضُ التّوكيدِ:

مواجهةُ الاتهاماتِ السّابقةِ بالتّأكيدِ مُطابقٌ لمُقتضى الحالِ

التأكيدُ بـ (إن) و(اللّام المزحلقة) باعتبار أنّه مسوقٌ للتّعريضِ بالمُنكرين على ما دعاهم إليه النّبيّ ﷺ[1]، ولا ننسى أنَّ الخطاب في مقام الحِجاج والجِدال إزاءَ تلك الاتّهامات السّابقة للإسلام والنّبيّ ﷺ، وأنّهم كانوا مُتردِّدينَ ومُنكرين لصدقهما؛ فكان الرّدُّ عليهم يتطلّبُ توكيدَ خسارتهم، وتحقيقَ ابتعادهم عن الحقِّ والحقيقة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 98.

علّةُ العدولِ عن الإضمارِ إلى إظهارِ الاسمِ الموصولِ:

عـدمُ الإيـمانِ بالبعثِ يُعمي البصائرَ ويختمُ على القلوبِ

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ عدولانِ، حيثُ عدلَ أوّلًا عن المُضمَر إلى المُظهَر، فلم يَقُلْ: (وإنَّهم عنِ الصِّراط لناكبون)، ثمّ عدلَ ثانيًا عن التَّعبير بالاسم الظّاهر (الكافرين) إلى التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ وذلك لما تُنبئُ به الصِّلة من سبب تنكُّبهم عن الصِّراط المستقيم، وذلك أنَّ سببَهُ عدمُ إيمانهم بالآخرة[1]، ولو آمنوا بالآخرة لاستقاموا على الطَّريقة ولما تنكَّبوا عنها، فالكفرُ باليوم الآخر علَّة الانحراف والضّياع؛ لأنَّ مَن لا يؤمنُ بالبعث والنُّشور والحساب على الأعمال أفسدَ في الأرض، وأشاعَ فيها الخراب، واعتدى على العباد، وأعملَ فيهم القتل والظُّلم والهتك، وهذا هو المُراد بفساد السّماوات والأرض ومَن فيهنَّ، وفي هذا تأشيرٌ على أهميّة عقيدةِ البعث بعد الموتِ، وأنَّها العقيدةُ العاصمةُ عن الفساد والإفساد بالنِّسبة لنظام العالم كلِّه، كما أفاد العدولُ عن الضَّمير سريان هذا الحُكم في المخاطَبين وغيرهم على مرِّ العصور والدُّهور.

فائدة إيثار نَفي الإيمان على إثبات الكفر:

إظـهـارُ خبـيءِ الضَّلالات وعللِ الانـحـرافـات وخُبثِ الوثنيّات

آثر النّظم نفيَ الإيمان في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دون إثبات الكفر، فلم يَقُلْ: (وإنَّ الذين يكفرون بالآخرة)؛ وذلك لأنَّ المقصود هو النصُّ على عدم إيمانهم بالآخرة دونَ الكفر بها والجحودِ لها، فكانَ عدمُ إيمانهم هذا سببًا لتنكُّبهم عن طريق الحقّ، ثم إنَّ أثرَ الإعلان عن غير المؤمنين بالآخرة بأنّهم يكفرون بها فيه عنفٌ في الخطاب والحجاج، والقرآن الكريم حريصٌ على أنْ تكون لغتُه الحجاجيّةُ صالحةً لكلِّ زمان ومكان، والخطابُ موجّهٌ لكلِّ مَن لا يعتقد بعقيدة البعث، فلم يُسمِّهم كفارًا بالآخرة؛ بل عدمُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 98.

مؤمنين بها ليكونَ ألطفَ وقْعًا وأدعى للإجابة إلى تلك العقيدة الحقَّة، وفي ذِكْر قيد عدم الإيمان بالآخرة إشعارٌ بعلَّة الحكم؛ فإنّ الإيمان بالآخرة، وخوفَ ما فيها من الدّواهي من أقوى الدَّواعي إلى طلب الحقِّ وسلوك سبيله[1].

نوعُ الباءِ ودلالتُها:

إرغامُ العقلِ على هوى النَّفسِ يُفقِدُ صاحبَه بلوغَ أدنى درجاتِ الحسِّ

(الباء) في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ للتّعدية؛ أيِّ: لا يؤمنون بها ولا يعترفون بوجودها، حيث لم يقبلوا وجودَ حياة أخرى، وأفادت هذه التّعديةُ تشخيصَ الأمر الّذي لم يقعِ التّصديقُ فيه، وهو وجودُ الحياة الآخرة الّتي تكونُ بالبعث بعد الموت، والنّهوض مجدَّدًا للحساب والجزاء يومَ الدّين، وهؤلاءِ الكفّار على مرِّ الأزمان كانوا يرفضون هذا المبدأ الدّينيَّ العظيم، الّذي تنتظم به الحياة ولا تسودُ فيها شريعةُ الغاب، كما تنبئُ عنه آياتٌ كثيرةٌ في القرآن الكريم، ممّا ذكره القرآن من تلك المحاورات حول البعث، من مثل قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾ [يس: 77 - 79].

سرُّ اختيار لفظ (الآخرة) دون مرادفاتها:

إثباتُ الآخرةِ نفيٌ ضمنيٌّ لأنْ تكونَ الدُّنيا هي الآخرةَ كما هو معتقد المشركين

في إيثار اسم (الآخرة) دون غيره؛ كـ(القيامة والبعث) تعريضٌ بأنهم غارقون في (الأولى)، بحيث لم تترك لهم مجالًا لمجرَّد التفكير في شأن الآخرة، فرفضوها وأبَوها بالكليَّة، وفي لفظ (الآخرة) إشارةٌ هدائيَّة بديعة، حيث إنَّ الحقَّ ﷻ يُخاطبُ نفوسَهم بأنْ تتدارك ما هي فيه، وتُقبلَ على الآخرة قبلَ فوات الأوان، كما أنَّ فيه رفضًا لأنْ تكون الدُّنيا هي الآخرة كما يزعمون ضِمْنًا، فالمشركُ حين ينفي البعث فهو يُثبت أنَّ الدُّنيا هي الحياة الآخرة؛ بل هي

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 145.

الأولى والآخرة عنده ولا حياةَ بعد الموت، ومن ثمَّ يُقبل عليها بنَهَم دونَ رادعٍ أوْ زاجرٍ، فيُفسد ما شاء له أنْ يُفسد في الحَرْث والنَّسل، ففي ذِكْر الآخرةِ نفيٌ لهذا المعنى الضّمنيِّ مع إثبات الحياة الآخرة ابتداءً، وأفاد تعريفُ (الآخرة) بعهديّتِها ومعلوميّتها وتعيُّنها عند أهل الحقّ؛ لأنَّ مَن خلق الإنسان في الحياة الأولى قادرٌ على أن يُعيدهم بتخليقٍ آخر في الحياة الآخرة، ويُحاسبهم على ما قدَّموا في حياتهم الأولى.

دلالةُ استعمالِ حرف ﴿عَنِ﴾:

حرف ﴿عَنِ﴾ موضوع لمعنى المجاوزة؛ فقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾؛ أيْ: متجاوزيه كلَّ التجاوز إلى غيره، وهو الطّريق المُعوجَّ طريق الهوى.

بلاغة الإطناب في ذِكرِ لفظِ الصِّراط:

ليس المقصود بيان صفة الكافرين بأنَّهم ناكبون؛ بل بيان عن أيِّ شيءٍ هم ناكبون

آثر النَّظم ذِكْر الصِّراط في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ مع تقدُّم ذِكْره في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، فلم يَقُلْ: (وإنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة عنه لناكبون)؛ فدلَّ ذِكْرُه بلفظه المُظْهَر على أهميَّته، وللتّنويه بضرورة شأنه، وللتّنبيه على أهميَّة الوسائل في بلوغ المقاصد، وللتّأكيد على المرء أنّه لن يبلغ مقصده ما لم يكن معتدلَ المنهج، وأنَّه ما تنكَّب أحدٌ طريقَ الحقِّ إلّا لانشغاله بوسيلةٍ شاغلةٍ من الهوى والضّلال، وأنَّ هذا الصِّراط واحدٌ لا متعدِّد ولا متشعّبٌ، ولو لم يذكره لظُنَّ أنَّ المقصود بيانُ صفة الكافرين في كونهم ناكبينَ عن الإسلام، والمقصودُ بيانُ عن أيِّ شيءٍ هم ناكبون، كما أنَّ في حمْل الصِّراط على معنى الجنس ما يُؤكِّد فائدةَ ذِكْره كما سيأتي في النُّكتة اللّاحقة.

نوعُ التّعريف في لفظ ﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾ ودلالتُهُ:

الصّراطُ الّذي تنكّبوه ابتداءً هو جنس الصّراط، وأمّا الإسلامُ فتحصيلُ حاصلٍ

(أل) في لفظ ﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾ معرّفةٌ، والتّعريف للعهد، والمعهود هو الصّراط المستقيم المذكور، أوْ للجنس، على معنى: إنّهم عن جنس الصّراط لناكبون، ومن باب أوْلى هم عن الصّراط المستقيم الّذي تدعوهم إليه لناكبون، وقد رُجِّح هذا الوجه؛ لأنَّه أدلُّ على كمال ضلالهم وغاية غوايتهم، لما أنَّه يُنبئَ عن كون ما ذهبوا إليه ممّا لا يُطلق عليه اسمُ الصراط أصلًا؛ فكان تعريفُ الجنس أتمَّ في نسبتهم إلى الضَّلال بقرينة أنّهم لا يُؤمنون بالآخرة الّتي هي غاية العامل من عمله، فهم إذن ناكبونَ عن كلِّ صراطٍ موصِل، إذ لا همّةَ لهم في الوصول[1].

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدَةِ ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾:

(ناكبون) كنايةٌ عن صفةِ الإعراضِ والتّولّي

النّاكبُ هو العادلُ عن شيءٍ، المُعرض عنه، المُجتنب إيّاه، وكأنّه مُشتقٌّ من المَنكِب وهو جانبُ الكَتِف؛ لأنَّ العادل عن شيءٍ يولّي وجهه عنه بجانبه[2]، فالتَّعبير بالنَّكْب على هذا كنايةٌ عن الإعراضِ والاجتناب والمجافاة والتَّكذيب بالإسلام، ودخلت (اللّام المزحلقة) على اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾ لتدلَّ على الخبر لتأكيد معناه، وأفاد التّعبير باسم الفاعل دلالةَ الرّسوخ والاستمرار على التّكذيب والإنكار.

فائدةُ تقديم ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ على المُسنَد ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾:

لا يحيد عن الصّراط إلا منكر كاره للحق معرض عن طريق الله

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ على المُسنَد ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾ للاهتمام والاختصاص، فهم تنكّبوا عن الطَّريق الّذي لا طريقَ غيره، يعبُر به النّاس إلى الحق وإلى النَّجاة، ومن فوائد هذا التّقديم مراعاةُ الفواصل، وقد اجتمعت في هؤلاء المدعوّين أنّهم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 254، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 99.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 99، والخليل، العين: (نكب).

﴿مُنكِرُونَ﴾، ﴿كَٰرِهُونَ﴾، ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾، ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾، ومن ثمَّ فإنّهم لا ناصر لهم من عذاب الله تعالى.

بلاغةُ الاتساقِ في أسماءِ الفاعلِ في الفواصلِ:

التّعبيرُ بالفاعليّة في الفواصل القرآنيةِ دالٌّ على أنَّ الأوصافَ المذكورةَ هي سجيّةُ الباطلِ

يُلحظ في هذه الفواصل الّتي صيغت على وزن اسم الفاعل من مثل: ﴿مُنكِرُونَ﴾، و﴿كَٰرِهُونَ﴾، و﴿مُّعۡرِضُونَ﴾، و﴿لَنَٰكِبُونَ﴾ أنّها صيغت على الفاعليَّة، سواءٌ من الرُّباعي كما في فاصلتَي ﴿مُنكِرُونَ﴾، و﴿مُّعۡرِضُونَ﴾ أَوْ من الثلاثيِّ، كما في فاصلتي ﴿كَٰرِهُونَ﴾، و﴿لَنَٰكِبُونَ﴾، وبناءُ هذه الفواصل على الفاعليّة دالٌّ على أنَّ معانيَها وأوصافها هي من سجاياهم وطبائعهم المُعوجّة الّتي جُبِلوا عليها، فقادَتْهم إلى استساغة الإنكار والكراهة والإعراض والتّنكُّب للحقِّ وأهله.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصِّراط والسَّبيل والطَّريق:

الصّراط المنهجُ القويم، والسّبيل ما فيه معنى الخير، والطّريق لا يُستعمل في الخير إلّا بقرينة

(الصّراط) هو الطّريق المستقيم[1] الّذي لا اعوجاج فيه، ويُطلق مجازًا استعاريًّا على المنهج الحقّ وهو دين الله لكونه مستقيمًا، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 153] وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٣٦﴾ [مريم: 36] وقال عزَّ شأنه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الشّورى: 52 - 53]، فالصّراط في هذه الآيات هو المنهجُ الحقُّ وهو دين الله، وسُمّي بذلك لكونه الطّريق المستقيم الموصِل إلى مرضاته بيُسْرٍ وسُهولةٍ وسرعةٍ مع تجنُّب العقَبات، و(السبيل) كثر استعماله في القرآن في الخير، حتّى إنّه وقع في الرُّبع الأوّل منه

---

(1) الرّاغب، المُفردات: (صرط).

في بضعٍ وخمسين موضعًا، أوّلُها قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 273]، ولم يَقعْ ذِكْر الطَّريق مُرادًا به الخير إلّا مقترنًا بوصفٍ أوْ بإضافة، ممّا يُخلصه لذلك كقوله تعالى: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠﴾ [الأحقاف: 30][1]، والسّبيلُ طريقٌ فيها سهولة[2]، وعلى ذلك فهو أخصُّ من الطَّريق؛ فكلُّ سبيلٍ طريقٌ؛ وليس كلُّ طريقٍ سبيلًا، وبهذا يتفرّدُ لفظُ الصّراط في الوصف بالاستقامة المُطلقةِ الّتي تفيد مجازًا كمالَ اعتدال المنهج الإلهيّ، وأنّه أقصرُ الطّرق الموصِلة إلى المَقصد الأساس مع السُّرعة، وهو رضا اللّه تعالى.

(1) الزّركشيّ، البرهان: 4/ 80، والسُّيوطيّ، الإتقان: 2/ 264.

(2) الرّاغب، المُفردات، ص: 395.

﴿۞وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ٧٥﴾ [المؤمنون: 75]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الخوف من العقاب ورجاء الثّواب سببٌ إلى سلوك الحقّ

لمّا وُصِفوا بالميلِ، وكانَ ربما قال قائل: إنَّ جؤارَهم المذكور في قوله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ٦٤﴾ [المؤمنون: 64] سلوكٌ في الصِّراطِ ورجوعٌ إلى الصّوابِ، بيَّنَ أنَّه لا اعتدادَ به لأنَّه أمرٌ عارضٌ، فقال تعالى ﴿۞وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1].

وأيضًا لمّا أخبر اللّه تعالى أنَّ من أنكر المعادَ ناكبٌ عن الصّراطِ لأنَّه لا يسلك الصّراط إلّا من كان خائفًا من العقاب راجيًا الثَّوابَ؛ بيَّن أنَّهم مصرّون على الكفرِ لا يرجعون عنه بحالٍ فلا ينتفعون بدعوتِك إلى الصّراط المستقيم[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَكَشَفْنَا﴾ (كشف) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على سَرْوِ الشَّيء عن الشَّيء، كالثَّوبِ يُسْرَى عنِ البَدَنِ[3]، ويقالُ: كَشَفْتُ الثَّوبَ عنِ الوَجْهِ وغيرِه، أكْشِفُه، ويُقالُ: كشفَ غمَّه، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 17][4]، وقولُه تعالى: ﴿وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ أي: أزَحْنا[5].

2) ﴿لَّلَجُّواْ﴾: لجَّ فُلان، يَلِجُّ ويَلَجُّ لغتان، ويقالُ: لَجَجْتُ - بالفَتحِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 170.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 584.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كشف).
(4) الرّاغب، المفردات: (كشف).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 44، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 237.

والكَسْر - لَجاجَةً ولَجَجًا[1]، ولجَّ: تمادَى، واللَّجاجُ: التَّمادي والعِنادُ في تعاطي الفعلِ المَزْجورِ عنه، ومنه: لَجَّةُ الصَّوْت - بفتحِ اللّام - أي: تردُّدُه، ولُجَّةُ البحر - بالضَّمِّ - تردُّدُ أمواجِه، قال تعالى: ﴿فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾ [النور: 40][2]، وقولُه: ﴿لَّلَجُّواْ﴾، أي: تَمادوا[3].

3) ﴿طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾: (طغى) أَصْلٌ صَحيحٌ مُنْقاسٌ، وهوَ مُجاوَزَةُ الحَدِّ في العِصْيانِ، طَغَى، يَطْغَى، ويَطْغو، أي: جاوزَ الحدَّ في العِصيان، يُقالُ: هو طاغٍ، وطَغَى السَّيْلُ: إذا جاءَ بماءٍ كثير، قالَ تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ [الحاقَّة: 11][4]، و﴿طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ أي: كفرهم وعصيانهم واستكبارهم[5].

4) ﴿يَعۡمَهُونَ﴾: (عمه) أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدُلُّ على حَيْرَةٍ وقِلَّةِ اهْتداء[6]، وعَمِهَ الرَّجُلُ يَعْمَهُ عَمَهًا: إذا تردَّدَ لا يَدْري أين يتوجَّه[7]، يقال: عَمَهَ فهو عَمِهٌ وعامِهٌ، وجمعُه: عُمَّهٌ، قال تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤﴾ [النّمل: 4][8].

وقولُه تعالى: ﴿يَعۡمَهُونَ﴾: يتردَّدونَ ويَتَذَبْذَبونَ ويَتخبَّطون[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّمادي في الكِبْر يُعْمي عنِ الحقّ

يُخبرُ اللّهُ تعالى عن غِلَظِ الكافرينَ في كُفرِهم بأنَّه لو أزاحَ عنهمُ الضُّرَّ وأفْهَمَهُمُ القرآنَ لما انْقادوا له ولاسْتمرّوا في كُفرِهم وعنادِهم وطُغيانِهم، كما قالَ تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ [الأنفال: 23][10].

(1) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (لج).
(2) الرّاغب، المفردات: (لج).
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 38.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّازي، مختار الصِّحاح: (طغى).
(5) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 38.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عمه).
(7) الخليل، العَيْن: (عمه).
(8) الرّاغب، المفردات: (عمه)، والسّرقسطي، الأفعال: 293/ 1.
(9) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 672.
(10) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 327.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الوصل بالواو في الآية:

المنهمك في الكفر والمتمادي في الطّغيان بعيد عن رحمة الله

جاءت الآية في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ﴾ بالوصلِ بالواو معطوفةً على قوله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ٦٤﴾ [المؤمنون: 64][1]، لاشتراكهما في الجهة الجامعة، فإنّه تعالى لمّا أخبر أنَّه إذا أخذ مترفيهم بالعذاب إذا هم يستغيثون ناسب أن يبيّن أنَّه لا نفع من رحمتِه بهم وكشف الضّرِّ عنهم لانهماكِهم في الغفلة وثباتِهم على الكفرِ وتماديهم في الطّغيانِ، كما أنَّ الجملتين شرطيّتان فناسب مجيء الكلامِ بطريق الوصلِ بالواو.

بلاغة التعبير بأداة الشّرط (لَو):

الكافرون بسبب كفرهم لايستحقّون رحمة الله ولا كشف الضّرِ عنهم

تفيد (لَو) في أصل ورودها امتناع حصول الجزاء لامتناعِ الشّرط، بمعنى أنَّ انتفاء حصول الجزاء في الواقعِ إنّما هو بسببِ انتفاء الشَّرطِ[2]، ومجيءُ (لَو) هنا ليس للدلالة على أنَّ انتفاء حصول التّمادي في طغيانِهم بسبب انتفاء رحمة اللّه تعالى بهم وانتفاء كشف مابهم من ضرٍّ، وإن كان هذا هو الأصل في مجيء (لَو)، لأنَّ المرادَ من التّعبير بأداة الشّرط (لَو) لازم ما تفيده، فتفيد (لَو) هنا أنَّهم لا يستحقّون رحمة اللّه ولا كشفَ الضُّرِّ عنهم، وقد أوفى المعنى حقَّه بطريق الاستدلالِ، وسبب هذا التّوجيه في هذا الأسلوب الشّرطي هو أنَّ المقامَ مقامُ إنذارٍ وتيئيسٍ من الإغاثة عند نزول العذاب الموعود به، وليس مقامَ اعتذارٍ من اللّه عن عدم استجابتِه لهم أو عن إمساكِ رحمتِه عنهم، لظهور أنَّ ذلك لا يناسب مقام الوعيد والتّهديد الذي ورد فيه الكلامُ[3]، فجيءَ بأداة الشّرط (لَو) للإيذانِ بأمرين؛ أحدهما: أنَّ الشّرط ممّا يمتنع حصولُه ولا

---

(1) النسفي، التيسير في التفسير: 11/ 54، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 99.
(2) التفتازاني، المطول، ص: 334.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 99.

يكون بل لا ينبغي أن يكون أبدًا، والثاني: أنَّ الكلامَ من باب علمِهِ تَعالَى بِما لا يكونُ، لَو كانَ كيفَ يكونُ، أي أخبر عن صادق علمه تعالى بهم[1]، ليفيد تهديد الكافرين وزيادةً في إقناعِ المؤمنين بأنَّ الكافرين لا يستحقّون رحمته ولا كشف الضّرِ عنهم.

دلالة التعبير بالماضي ﴿رَحِمۡنَٰهُمۡ﴾:

تعنت الكافرين وعنادهم وإن تحقق مرادهم

عُبِّرَ بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا﴾ للإيذانِ بالقطعِ في انتفاء رجوعهم وتوبتهم وإن تحقق حصول الشرط وهو رحمة اللّه لهم وكشف الضرِّ عنهم، وإلّا فإنَّ معنى الفعلين يراد منهما الاستقبال بقرينة أنَّ الجملة تهديد وإنذارٌ للكافرين[2].

مناسبة التّعبير بالرّحمة في قولِه ﴿رَحِمۡنَٰهُمۡ﴾:

رفع المحن من البلايا والشَّدائد رحمة من الله

فيه إشارةٌ إلى أنَّ رفع المحن من البلايا والشدائد إنما يكون برحمة من اللّه تعالى وفضل منه، لا بالاستحقاق؛ حيث ذكر رحمته بكشف ذلك عنهم[3]، كما أنَّه لم يقل (ولو مسّتهم رحمةٌ منّا) للإشعار بأنَّ الرحمةَ تغمرُهم، والمعنى ولو غمرناهم برحمتنا.

فائدة الإسناد إلى ضمير العظمة:

إنـزال الرّحمة وكشف الضّر لا يكونان إلّا من الله تعالى

عبر بضمير العظمة (نا) في قولِه ﴿رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا﴾ للإشعار بأنَّ مثل هذه الرّحمة وكشف الضّر لا يكونان إلّا من الملك الواحد الأحد، ولا يقدر عليهما إلّا اللّه تعالى، فهما مختصّان به تعالى بما له من العظمة.

مناسبة العطف بالواو:

كشف الضّرِّ ودفع البلاء من رحمة الله

الواو في قوله ﴿رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا﴾ من عطف الخاص على العام، لأنَّه أراد بالرحمة الرّحمةَ المطلقة، فيكون كشف الضّر نوعًا من

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 486.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 99.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 485.

الرّحمة على جهة البيان لها، ليفيد العطف اجتماع الرّحمة بمعنى التمتّع بنعم الدّنيا مع كشف الضّرِّ عنهم، وهو تمام المطلوب، ولمّا كان كشفُ الضُّرِّ نوعًا من رحمتِه تعالى بهم كان التّصريحُ به للاهتمامِ والعنايةِ به، للإيذانِ بأنَّ اجتماعَ الأمرين تمام المطلوب، والمعنى: ولو منَّ اللّه عليهم بأنواعِ الرّحمة ومنها الخصبُ وكشف عنهم القحطَ والجدبَ وأنواعَ الضّرِّ لبقوا على كفرِهم[1].

بلاغة الاستعارة:

فرح الكافرين بكشف الضّر عنهم تمادٍ في الطّغيان واستدراجٌ لهم

عبَّر بلفظ الكشف في قولِه ﴿وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ﴾ على طريق الاستعارة التَّصريحية التّبعية، فشبَّه إزاحة الضّرِّ عنهم وتنحيتَهُ بكشف الغطاء عن الشيء، فالكشف هو رفعُ الشَّيءِ عَمّا يواريه ويُغطّيه، ثمَّ حذف المشبَّه وذكر المشبَّه به، ومثله في المجاز بالاستعارة قولهم كشف اللّه غمّه[2]، وفائدة الاستعارة تهديدهم بأنَّ الضُّرَّ إذا أصابَهم فإنَّه يغطّيهم إيذانًا بشدَّتِه عليهم، كما أنَّ التَّعبير بلفظ الكشف يفيد أنَّهم سيظهرون على حقيقتِهم وسيفرحون بتنحية الضّرِّ عنهم ويسرّون به، ليتمادوا في طغيانِهم.

بلاغة التّعبير بالاسم الموصول:

عبِّرَ بالاسم الموصول المبهم ﴿مَا﴾ في قولِه ﴿وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ﴾ لإفادة التّهويل والتّفخيم.

فائدة الباء في قولِه ﴿بِهِم﴾:

الباء للملابسة، للإشعار بأنَّ الضَّر لابسهم، واستقرَّ عندهم لأنَّه غطّاهم، أي لو رحمناهم وكشفنا ما لابسهم، واستقرَّ عندهم من ضُرٍّ.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 152.
(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (كشف).

تهويل الضّرّ الذي يقع على سبيل البلاء وتعظيمه

دلالة ﴿مِّن﴾:

﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى ﴿مِّن ضُرّٖ﴾ بيانيَّة، أي لبيان ما أُبهم في الاسم الموصول، وفائدة مجيء البيان بعد الإبهام تَهْويلُ ذَلِكَ الضُّرِّ، ولمّا كان الاسم الموصول على معنى العموم أفادَ كثرةَ أنواعِ الضُّرِّ أو أنَّ الضّرَّ الذي يصيبهم اللّه به كأنَّه قد جمعَ كلَّ أنواعِ الضُّرِّ، كما أنَّ مجيء البيان بعد الإبهام يفيد تقوّي الحكم، فإنه إذا سمع السامع ﴿وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم﴾ تعلَّقت نفسه بشيء أبهم عليه، لا يدرى ما هو، فلمّا جاءَ البيان كان الخبرُ أكثرَ تقريرًا وتمكينًا وأوقعَ في نفوس المخاطبين، ولاسيّما أنَّ الكلامَ جاء على طريق الاستدلال لبيان انتفاء استحقاقِهم رحمة اللّه وكشف ما بهم من ضرٍّ.

عناد الكافرين ولو كشف عنهم كلُّ ضرٍّ

دلالة قوله ﴿ضُرّٖ﴾:

الظّاهر في جملة ﴿وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ﴾ أنَّ المرادَ من الضّر كلُّ ما يطلق عليه ضرٌّ، أي سواء أكان من مضارِّ الحياة الدُّنيا كالقحط والجدب[1]، أو كان بالعذاب؛ لأنَّ القرآن لم يذكر نوعَ الضّرِّ، فيشمل أيَّ ضرٍّ أصاب المشركين، ومنه العذاب الذي توعّدهم اللّه به في قوله﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ٦٤﴾ [المؤمنون: 64].

تنوّع الضّر والبلاء دليل على الانهماك في الغفلة والطّغيان

فائدة تنكير لفظ ﴿ضُرّٖ﴾:

يفيد التّنكير تعظيم الضّرِّ وتكثيرَه ولا سيّما أنَّ المراد به عموم الضّر لمجيئِه في مقام بيان الاسم الموصول الذي يفيد العموم، فيكون بيانه على وفق دلالتِه، فيدخل فيه القحط وغيرُه من أنواعِ الضّرِ الذي أصاب المشركين في وقت نزول القرآن دخولًا أوّليًّا، وإفادة التّنكير تعظيمَ الضّرِّ وتكثيره، هو المناسب لبيان شدّةِ انهماكِهم في الغفلة والطّغيان[2].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 92، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 288، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 92، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 576.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 207.

دلالة اللام في قولِه ﴿لَّلَجُّواْ﴾:

اللام هنا واقعة في جواب الشّرط، لتفيد تأكيدَ علمِ اللّه تعالى بما سيحصل لو رحمهم وكشف ما بهم من ضرٍّ ليفيد بلازمِه تقريرَ التّهديد والوعيد.

نكتة التّعبير بلفظ اللَّجاج:

الإقامة على الكفر نوع من التّمادي في الطّغيان

لمّا كان اللَّجاجُ هو التّمادي والعناد في تعاطي الفعل المزجور عنه، ومنه لجَّة البحر لتردُّد أمواجه، ولَجَّةُ الليل لتردّد ظلامه ففيه معنى التّكرير[1]؛ عُبِّرَ بـ﴿لَّلَجُّواْ﴾ للإشعار باقترانِ تماديهم بالعناد الذي يلزم منه ثباتُهم في كفرِهم الذي أفرطوا فيه لِارتكابِهم ما زُجروا عنه من الكفر والطغيان، وأفادَ التّعبير بلفظ اللجِّ أيضًا أنَّه تعالى لو رحمهم وكشف ما بهم من ضرٍّ لتردّدوا في طغيانِهم، كالتردّد في الذهاب والمجيء في المكانِ الواحد، ولأقاموا على كفرِهم ولم ينزعوا عنه، وازدادوا طغيانًا ولم يستجيبوا للقرآن ولا لرسول اللّه ﷺ، ومآل المعنى أنّهم لا يستحقّون رحمتَه تعالى ولا كشف الضّرِّ عنهم.

دلالة ﴿فِي﴾:

انغماس الكافرين في طغيانهم وعنادهم

في قوله تعالى: ﴿لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ جاء حرف الجر ﴿فِي﴾ للظّرفية المجازيَّة، بمعنى أنَّ لجاجَهم منغمس في طغيانِهم قد احتواه، وصار مثل المظروف داخلَ الظّرف بحيث لا يفارقونه ولا ينتقلون عنه مهما رأوا من صدق الآيات والدَّلالات.

دلالة الإضافة في قولِه ﴿طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾:

الكافر معروف بطغيانِه لإفراطِه في منابذة الحقِّ

الإضافة في قوله تعالى: ﴿لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ على معنى اللام أي للاختصاص، ليفيد ملابسة الطغيان بهم واستقرارَه عندهم حتَّى صار مختصًّا بهم وصاروا معروفين به، ليشعرَ بأنَّهم مستمرّون

(1) الراغب، المفردات: (لجج).

على هذا الطغيان منذ زمنٍ، أي لَجّوا في طغيانِهم الذي كانوا عليه والذي يعرفون به لإفراطهم في منابذة الحقّ[1].

دلالة تعلّق قوله ﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾:

تنوّع تعلّق الجار والمجرور لتوسيع المعنى وتكثيره

يحتمل الجار والمجرور ﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ الذي هو حالٌ أن يكون متعلّقًا بالفعل ﴿لَّلَجُّواْ﴾، وهو الظّاهر، ليفيد أنّ التّمادي حال كونِه في طغيانِهم، بمعنى أنَّهم يتردّدون فيه كما تقدَّم، ويحتمل أن يكون متعلّقًا بالفعل ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ فيكون المعنى: لَلَجّوا في حالِ عمههم، وهذا العمه في حالِ طغيانِهم، وقُدِّمَ الجار والمجرور على الفعل ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ للاهتمام بذكرِه ولرعايةِ الفاصلة[2].

مناسبة مجيء الحال في قولِه ﴿يَعۡمَهُونَ﴾:

أفادت جملة الحال ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ بأنَّه تعالى لو رحمهم وكشف ما بهم من ضرٍّ لكان لجاجهم في طغيانهم في وقت تحيّرهم وتردّدهم ولكان تحيّرهم مقترنًا بلجاجِهم، فلجاجُهم في وقت عَمهِهِم.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿يَعۡمَهُونَ﴾:

الكافر متردّد متحيّر بسبب عناده

﴿يَعۡمَهُونَ﴾ بمعنى يتردَّدون، ويلزم من تردّدهم أنَّهم يتحيَّرون ويتذبذبون ويتخبطون، فجمع في لفظ واحد أربعة معانٍ متقاربة متلازمة، وعبِّرَ بـ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ للإشعارِ بأنَّهم يفعلون بسبب التحير والتردّد فعل من لا بصيرة له في السير المنحرف عن القصد، والجائر عن الاستقامة[3].

دلالة التعبير بالمضارع في قوله ﴿يَعۡمَهُونَ﴾:

تقبيح صورة العمه لتكريه المؤمنين الكفرَ والطّغيان

أفاد مجيء الحال بصيغة الفعل المضارع تجدُّدَ العمه منهم واستمرارَه، كما تفيد صيغة المضارع تصوير حالة عمههم تقبيحًا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 171.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 100.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 171.

لهذه الحالة، فإذا تصوّرها المؤمنون زاد كرههم للكفر والطّغيان وازدادوا إيمانًا مع إيمانِهم.

بلاغة حذف متعلِّق الفعل ﴿يَعۡمَهُونَ﴾:

حذف متعلِّق الفعل للدلالة على لزوم المعنى وعمومِه

على القول بأنَّ ﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ متعلّق بالفعل ﴿لَّلَجُّواْ﴾ يكون معمول الفعل ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ محذوفًا، فيحتمل أن يكون حذف المتعلق لإفادة ثبات الوصف، بمعنى أنَّ العمه صارَ وصفًا ثابتًا لهم، أي لايكون منهم إلّا العمه، ويحتمل أن يكون الحذف لإفادة العموم، أي يعمهون عن الهدى وعن الحقِّ وعن القرآن وعن الرّسول ﷺ[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكشف والرفع:

الكشف زوال لما كان يغطّي الشّيء والرّفع دفع الشّيء إلى أعلى وفيه معنى التّشريف

الفرق بينهما هو أنَّ الكشف مضمّن معنى الزّوال لما كان يغطّي الشّيءَ ويواريه، لأنَّ الكشفَ هو تنحّي ما شأنه أن يغطّى من ظاهر الشيء فيَظهر مِنْ تحته ويبرز، وأمّا الرّفع فهو ضدُّ الخفض، وهو دفع الشّيءِ إلى أعلى، وليس فيه معنى الزّوال، كما أنَّ في الرّفع معنى التّشريف والتّكريم[2]، فناسبَ ذكر الكشف في الآية لمناسبة لفظ الضّر، فلكلِّ كلمةٍ مع صاحبتِها مقامٌ.

اللّجاجِ والتّمادي:

اللّجاجُ أشدُّ من التّمادي وأبلغ في تعاطي الفعل المزجور عنه

الفرق بينهما أنَّ اللَّجاج هو العناد في تعاطي الفعل المزجور عنه حتَّى يصل إلى أصلِه وقعرِه مبالغةً في وصف الأمر، وهو بحيث يتردّد في تعاطي الفعلِ لا يخرج منه، ليدلَّ على ثباتِه عليه وعدم انصرافِه عنه، فيفيد ملازمة الطغيانِ الشيء والمواظبة عليه، وأمّا التّمادي فهو الاستمرار في الشّيء والمضيُّ فيه والمداومة عليه حتَّى يبلغَ الغايةَ فيه[3]، فاللّجاجُ أشدُّ من التّمادي.

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 92.

(2) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (كشف، رفع).

(3) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والفيومي، المصباح المنير، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (لجج، مدى).

﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ٧٦﴾

[المؤمنون: 76]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

سابق الإصرار والتّمادي في الطّغيان سبب في وقوع البلاء

لمّا أخبر الله تعالى في الآية السابقة أنَّ رحمته وكشف ما بهم من ضرٍّ لا ينفعهم، لأنَّهم ليسوا تاركين ما هم عليه من الشّرك والطّغيان؛ استدلَّ عليه بهذه الآية، فاستشهد على مضمون الآية السابقة بسابق إصرارِهم على الشّرك والإعراض عن الالتجاء إلى الله والتَّضَرُّع إليه وعدم الاتِّعاظ بأنَّ ما حلَّ بهم من الضرِّ هو جزاء شركِهم[1].

وأيضًا قد تكون هذه الآية استدلالًا آخر أعقب الدّليل في الآية السابقة التي أفادت أنَّ جؤارَهم المذكور آنفًا لا اعتدادَ به، فجاءت هذه الآية تأييدًا له، لتدلَّ على أنَّهم لا يسلكون الصِّراط إلّا اضطرارًا[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَكَانُواْ﴾: أكانَهُ يُكِينُهُ إكانةً، إذا أَخْضَعَهُ حتَّى اسْتكان، وأدْخَلَ عليه من الذُّلِّ ما أكانَه[3]، يقال: اسْتكانَ فُلان: تضرَّعَ وكأنَّه سَكَنَ، وترك الدَّعَةَ لضَراعته، قال تعالى: ﴿وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾ [آل عمران: 146]، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ﴾[4]، أي: فما اسْتَسْلموا، وما خَضَعوا[5]، وما تذلَّلوا[6].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 146.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 171.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كان).
(4) الرّاغب، المفردات: (كان).
(5) تفسير مقاتل: 2/ 32.
(6) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 672.

2) ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾: (ضرع) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى لينٍ في الشَّيْءِ[1]، ضَرَعَ الرَّجلُ ضَراعةً: ضَعُفَ وذَلّ، فهو ضارِعٌ، وضَرِعٌ، وتضرَّعَ: أظْهرَ الضَّراعة، قالَ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢﴾ [الأنعام: 42]، والمضارعةُ أصلُها: التَّشارُكُ في الضَّراعة، ثمَّ جُرِّدَ للمُشاركة، ومنه اسْتعارَ النَّحْويونَ لفظَ الفعلِ المضارع[2].

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾، أي: وما يَرغبونَ إلى اللّهِ في الدُّعاء[3]، وما يَخشَعونَ للّهِ في الشَّدائدِ عندَ إصابتِها لهم[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إصرارُ الكفّارِ على كِبْرِهم مع ابْتلائهم بما يُعيدُهم إلى رُشْدِهم

يُخبرُ اللّهُ تعالى فيقول: ولقدِ ابْتَلَيناهم بالمصائبِ والشَّدائد، فما ردَّهم ذلك عمّا كانوا فيه من الكفرِ والمخالفة، بلِ اسْتمرّوا على غيِّهم وضلالِهم، فما خَشَعوا وما دَعَوُا اللّهَ وما رَغِبوا إليه[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الواو:

دلالة واو الاستئناف على وصل الجملة بما قبلها وتضمينها معنى مستقلًّا

الواو في قولِه ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ استئناف[6]، سيقت في مقام الاستدلال على عدم انتفاعِهم من رحمة اللّه لو رحمهم وكشف ما بهم من ضرٍّ كما تقدَّم في مناسبة الآية، وللاستشهاد على ارتدادِهم إلى ما كانوا عليه من الاستكبار وعداوة رسول اللّه ﷺ والمؤمنين وإفراطهم فيها[7]، وأنّهم لا ينتفعون بالآيات البيّنات مكابرةً وجحودًا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضرع).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللّسان: (ضرع).
(3) تفسير مقاتل: 2/ 32.
(4) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 672.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 238.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 100.
(7) الزمخشري، الكشاف: 3/ 197.

مناسبة الاستدلال في الآية:

الاستدلال بشواهد الأحوال لإقامة الحجّة وقطع الأعذار

في هذه الآية اسْتِدْلالٌ عَلَى مَضْمونِ قَوْلِهِ ﴿۞وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ بِسابِقِ إصْرارِهِمْ عَلَى الشِّرْكِ والإعْراضِ عَنِ الالتِجاءِ إلَى اللهِ وعَدَمِ الاتِّعاظِ بِأنَّ ما حَلَّ بِهِمْ مِنَ العَذابِ هوَ جَزاءُ شِرْكِهِمْ، ولمّا كان الخطاب متعلّقًا بالمُشْرِكينَ وكانَ بِحَيْثُ يَبْلُغُ أسْماعَهُمْ وهُمْ لا يُؤْمِنونَ بِأنَّهُ كَلامُ مَنْ لا شَكَّ في صِدْقِهِ؛ كانَ المَقامُ مَحْفوفًا بما يَقْتَضي الاسْتِدْلالَ عليهِمْ بِشَواهِدِ أحْوالِهِمْ فيما مَضَى ولِذَلِكَ وقَعَ قَبْلَهُ ﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤﴾ [المؤمنون: 54]، ووَقَعَ بَعْدَهُ ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[1].

فائدة تتابع التأكيد في قوله ﴿وَلَقَدۡ﴾:

من لم يتّعظ بالبلاء كان في مقام المنكر له

ورد تأكيدان في الجملة أحدهما اللام الواقعة في جواب قسم محذوف، والتّقدير: (باللّه لقد أخذناهم بالعذاب)، والآخر (قَدْ)، ومناسبة مجيء تأكيدين هو أنَّه لمّا لم ينتفع الكافرون بالامتحان بما أصابهم من فنون العذاب كالقتل والقحط والجوع وغيرها كان حالُهم حالَ المنكر وقوع العذاب عليه، لعدم تدبّره في العذاب وإنابته إلى ربه، كما أنَّ في تتابع التأكيد تقريرَ تحقّق الأخذ بالعذاب وتقوّيه.

فائدة الباء في قوله ﴿بِٱلۡعَذَابِ﴾:

التّحذير من الغفلة بسبب كشف العذاب مع الاستمرار على الكفر

الباء للملابسة بمعنى أخذناهم متلبّسين بالعذاب، أي إنه سبحانه أخذهم، وهم في حال العذاب وأنقذهم، ومع ذلك استمرّوا على كفرهم، ليفيد أنَّهم يستمرّون في غيّهم حتّى يجيئهم العذاب الذي لا يزول.

فائدة (أل) في قوله ﴿بِٱلۡعَذَابِ﴾:

(أل) هنا عهدية، فيكون المرادُ من العذاب هو المذكورَ آنِفًا في قولِه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ﴾ [المؤمنون: 64][2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 100.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 100.

نكتة تقييد الأخذِ بلفظ ﴿بِٱلۡعَذَابِ﴾:

التّفريق بين الأخذ بالعذاب والأخذ بالذّنوب

ذَكَر اللّه هنا أنَّه أخَذَهم بالعذاب، ولم يقُلْ: أخذناهم بالذُّنوب؛ لأنَّ المقصود من مجيء العذاب هنا تحذيرهم وامتحانُهم أي أخذناهم بِالمَصائِبِ والشَّدائِدِ[1]؛ لينيبوا إلى ربِّهم، فكأنَّه ضمَّنَ ذلك معنَى: جذَبْناهم إلينا ليَتوبوا، ويَسْتَكينوا ويَتضرَّعوا، وإذا قال: فأخَذَهم اللّهُ بذنوبِهم، يكونُ قد أهلَكَهم، فأخَذَهم إليه بالإهلاكِ، وليس المقصود الإهلاك بقرينة قوله ﴿فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾[2].

دلالة الفاء في قوله ﴿فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ﴾:

الأخذ بالعذاب اختبار فمن لم يتب فهو معاند مستكبر

الفاء هنا عاطفة للتّرتيب والتّعقيب، أي لمّا كان الظّاهر أن يكون الأخذ بالعذاب سببًا لخضوعِهم لربِّهم وذلَّتهم له سبحانه شعورًا بالنّدم والذلَّة له ترتب عليه العكس وأعقبه إقامتُهم على كفرِهم وطغيانِهم إشعارًا بعنادِهم واستكبارِهم، لأنَّ الأخذَ بالعذاب الذي هو اختبارٌ وامتحانٌ لهم كان يقتضي الاستكانةَ إلى ربِّ العالمين والذلَّة والخضوع له، فلمّا لم يستكينوا ولم يخضعوا دلَّ على أنّهم معاندون مستكبرون.

دلالة (ما) في قوله ﴿فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ﴾:

استمرار الكافرين في جحودهم وعنادهم

أفاد النّفي بـ(ما) تأكيد نفي استكانتِهم ومثله تأكيد نفي دوامِ تضرُّعهم، لأنَّ (ما فعل) نفي لـ (قد فعل)، كما أنَّ فيها إيماءً إلى نفي أصل وجود الفعل، بمعنى ما وُجِدَتْ بعدَ أخذِهم بالعذاب استكانةٌ ولا وُجِدَ منهم دوامٌ على التضرُّعِ[3].

نكتة التعبير بلفظ ﴿ٱسۡتَكَانُواْ﴾:

الاستكانة إلى اللّه خضوعٌ وانقيادٌ واستسلامٌ

لفظ ﴿ٱسۡتَكَانُواْ﴾ يحتمل أن يكون مشتقًّا من الكون، ويكون اللفظ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 487.
(2) ابن تيمية، جامع الرسائل: 1/ 135.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 6/ 98.

على وزن استفعل، لتكون الاستكانة على معنى الانتقال من كون إلى كون، وحال إلى حال، فيكون التّعبير بهذا اللفظ إيذانًا بأنَّهم كانوا متمرّدين على ربِّهم وأنَّهم لم يغيّروا حالَهم بحيث يخضعون لربِّهم، والمعنى فما انتقلوا من الكَوْن الذي هم فيه وهو الكفر إلى الكون الذي يدعوهم رسولهم إليه، وهو الإيمان باللّه ورسوله، ويحتمل أن يكون مشتقًّا مِنَ السُّكونِ؛ فيكون استكان على وزن افتعل، والمعنى أنَّهم لم يسكنوا لربِّهم ويخضعوا خضوعَ المستسلم أمامَ ربِّهم، فعبَّرَ ﴿ٱسۡتَكَانُواْ﴾ للدلالة على أنَّ المطلوبَ هو تَمَكُّنُ السُّكونِ من المخاطبين أمامَ ربِّهم ولكنّهم لم ينقادوا له سبحانه، فعلى الاحتمالين المراد من نفي الاستكانة نفي الخضوع(1).

بلاغة الكناية:

عدم الخضوع إلى الله والتذلّل لـه سبحانه دليل الاستكبار والعتوّ

لمّا كان المعنى في قوله ﴿فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أنَّهم لم يتذلَّلوا لربِّهم ولم يخضعوا له أفادَ الكلام بلازمِه أنَّهم أقاموا على استكبارِهم وعتوّهم واجترائهم على ربِّهم بالإشراك وبالطّغيانِ، فالمراد من النّفي ظاهره ولازمه، أي الجمع بين الملزوم ولازمِه تكثيرًا للمعنى وإيجازًا في اللفظ(2).

فائدة اللام في قولِه ﴿لِرَبِّهِمۡ﴾:

اللّام للاختصاص، بمعنى أنَّ الاستكانة لا تكون ولا تُستَحَقُّ إلّا لربِّ العالمين، وهو الذي أنعم عليهم بالنّعم وأمهلهم مع شدّة كفرهم وطغيانهم وجحودهم.

---

(1) أبو الحسن المجاشعي، النكت في القرآن الكريم، ص: 353، والبغوي، معالم التنزيل: 5/ 425، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 152، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 288، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 209، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 101، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 10103.

(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 11/ 54، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 93، والشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 597.

مناسبة التّعبير بالربوبيّة في قولِه ﴿لِرَبِّهِمۡ﴾:

لمّا كان لفظ الرّب بمعنى المحسن المنعم أفاد أنَّ أخذهم بالعذاب ومحنتَهم به إحسانٌ منه تعالى، ليكون الأخذ بالعذاب على وجه الامتحانِ لينيبوا إليه، كما أفادَ التّعبير أنَّ الاستكانةَ إنعامٌ من اللّه تعالى على عبادِه، فالمستكين يستشعر نعمةَ اللّه عليه.

الابتلاء محنةٌ في الظّاهر منحةٌ في الباطن

فائدة الإضافة في قولِه ﴿لِرَبِّهِمۡ﴾:

أفادت الإضافة في قولِه ﴿لِرَبِّهِمۡ﴾ التّخصيص، وتفيد التّعجيب من انتفاء استكانتِهم، أي لم يستكينوا إليه تعالى عند الابتلاء مع أنَّه هو الملك المنعم عليهم القائم برعايتِهم والعناية بهم في كلِّ سكناتِهم وحركاتِهم.

التّعجيب ممّن لم يرجعْ إلى ربِّه وينِبْ إليه عند الابتلاء

نكتة عطف نفي التَّضرُّع على نفي الاستكانة:

في العطف إشعارٌ بالانتقال من الأهمِّ إلى المهمِّ، فكأنَّ العطف جاء على سبيل التنزّل في الكلام، أي ما استكانوا لربِّهم فأقاموا على الكفر، فنفى الأهمَّ ثمَّ نفى ما ينبغي أن يُفعلَ وإن كانوا كافرين وهو التضرّع، فقال ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾، أي لمّا لم يستكينوا لربِّهم كان على الأقل أن يتضرَّعوا لربِّهم، لكنَّهم ما تضرَّعوا كما أنَّهم ما استكانوا له ﷻ.

من علامات الانتفاع من الابتلاء الاستكانة لله والتضرُّع له سبحانه

نكتة تكرار حرف النّفي (ما):

أفاد تكرار حرف النّفي (ما) في قولِه ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أنَّهم لم يجمعوا بين الاستكانة إلى ربِّهم والتضرُّع له، كما أنَّهم لم يعملوا بأيٍّ واحدٍ منهما ولو كان على الانفراد والاستقلال، أي كان الأجدر فعل الأمرين ولكنَّهم لم يفعلوا أيَّ واحدٍ منهما ولو كان على حدةٍ، مبالغةً في ذمِّهم وتوبيخِهم.

الاستمرار في التضرّع في عموم الأوقاتِ مرغوب محبوب

نكتة العدول عن مقتضى الظّاهر:

لمّا كان الأصلُ في العطف على الفعل الماضي أن يكون بنفسِ

صيغتِه كان العطفُ بصيغة المضارع في قوله ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ عدولًا عن مقتضى الظّاهر، وفائدته الإشعار بأنَّه ما مِنْ عادَةِ هَؤُلاءِ أنْ يَتَضَرَّعوا، وأنَّ المطلوب هو الاستمرارُ في التضرُّعِ في عمومِ الأوقات، كما أنَّ فيه رعايةَ الفاصلة، وقد يقال: ولِمَ لم يأتِ الفعل ﴿ٱسۡتَكَانُواْ﴾ بصيغة المضارع؟، فيقال: (فما يستكينون لربِهم وما يتضرَّعون) ويجاب بأنّ ﴿ٱسۡتَكَانُواْ﴾ على ظاهره في نفي الوقوع في الماضي وعلى وفق المقصود لإفادتِه نفي وقوع أصل وجودِ الاستكانةِ وانتفاء تحقّق ولو جزءٍ منها؛ أي أصلًا لم تقع منهم الاستكانة، كما أنَّ الفعل ﴿ٱسۡتَكَانُواْ﴾ مرتَّبٌ بالفاء على الفعل الماضي في قوله ﴿أَخَذۡنَٰهُم﴾[1].

نكتة التّعبير بلفظ التضرُّع:

التـضـرُّعُ في بعض الأوقات دونَ بعضٍ كلا تضرُّع

لمّا كان التضرّع إلى اللّه تعالى بمعنى شدَّة الفقر إلى اللّه والحاجة إليه تذلُّلًا وضعفًا وانقيادًا لأمره تعالى وأمرِ رسولِه ﷺ؛ كان معنى التضرّع في قوله ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ على معنى الخضوع لهما في القلب والظّاهر، لأنَّ (تضرَّع) بمعنى أظهر الضّراعة[2]، فلمّا نفى تضرُّعَ الكافرين عند الأخذِ بالعذاب كان المعنى على نفي دوامِ الانقيادِ والخضوع في ظاهرِهم وباطنِهم، فإنَّ التضرُّع في بعض الأوقات دونَ بعضٍ كلا تضرُّع، ويحتمل أن يقال المراد دوام نفي التضرّع، أي عادتهم هي انتفاء تضرّعهم إليه تعالى في ظاهرِهم وباطنِهم[3].

نكتة حذف معمول ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾:

الكافرون المعاندون عادتهم وطبعهم أنَّهم لا يتضرَّعون لربِّهم

كان الظّاهر أن يقال (وما يتضرّعون إلى ربِّهم)، ليناسبَ الفعل

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 288، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 93، والطيبي، حاشية على الكشاف: 10/ 616، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 209.
(2) الراغب، المفردات: (ضرع).
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 209، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 256.

الذي سبقه، وسبب حذف المعمول ضعف التأليف بتكرارِ اللفظ لغيرِ فائدةٍ، بل في الحذف تكمن الفائدة، فإنَّ فيه إيذانًا بأنَّ هذا هو طبعُهم وعادتُهم، وأنَّه صارَ وصفًا لازمًا لهم، فلا يأتي منهم إلّا انتفاء التّضرّع إلى ربِّهم، فهم على ما جبلوا عليه من الاستكبار والعتوِّ، كما أنَّ في حذف المعمول رعايةً للفاصلةِ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ٧٧﴾ [المؤمنون: 77]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

استمرار الكافرين على عتوّهم يفتح عليهم بابًا ذا عذابٍ شديد

لمّا كان الأخذ بالعذاب في صدر الأمر فتح باب العذاب عليهم عند تناهيه حيث أبلسوا، ليفيد استمرارَهم على عتوِّهم وكفرِهم.

وأيضًا لمّا أخبر اللّه تعالى أنَّه أخذهم بالعذاب فما خضعوا لربِّهم المحسن إليهم وما يتضرّعون بيَّن أنَّهم استمرّوا على ما جبلوا عليه من الاستكبار والعتوِّ فقال تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم﴾ الآيَةَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُبۡلِسُونَ﴾: (بلس) أصلٌ واحدٌ، فالأصلُ اليَأْسُ، يقالُ: أبْلَسَ إذا يَئِسَ، قالوا: ومن ذلك اشْتُقَّ اسْمُ إبليس - لعنَه اللّهُ- كأنّه يئِسَ من رحمةِ اللّه[2]، والإبْلاسُ: الحُزنُ المعترِضُ من شدَّةِ البَأْس، واليَأسُ من النَّجاةِ عندَ وُرودِ الهَلَكَة، قالَ ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢﴾ [الروم: 12][3]، والمُبلِسُ: اليائسُ المنقطعُ رجاؤه، ولذلك قيل للَّذي يسكتُ عند انْقطاعِ حُجَّتِه، أوْ لا يكونُ عندَه جواب: قد أبْلَس[4]، والإبلاسُ يكونُ بمعنَى الحَيْرةِ بما يَرِدُ على النَّفسِ من البَليَّة[5]، والمُبلِسُ: الشَّديدُ الحَسْرة، اليائسُ الحزين[6]، قال العجّاج:

يا صاحِ هل تعرفُ رَسْمًا مُكْرَسًا *** قال نعم أعرفُه وأبْلَسا[7]

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 172.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلس).
(3) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (بلس).
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 1/ 330.
(5) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/ 192، واليزيدي، غريب القرآن، ص: 136.
(6) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/ 249.
(7) العجّاج، ديوان العجّاج: 1/ 185.

أي: لم يُحِرْ إليَّ جوابًا[1].

وقولُه تعالى هنا: ﴿إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾، أي: مُتحيِّرونَ آيِسونَ من كلِّ خَيرٍ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الكافرونَ المتكبِّرون آيِسونَ من رحمةِ الله

يُخبرُ اللهُ ﷻ عن أولئكَ المتكبِّرينَ عنِ الإيمانِ به ﷻ، فيقول: حتَّى إذا جاءهم أمرُ اللهِ وجاءتهمُ السّاعةُ بَغْتة، فأخَذَهم من عذابِ اللهِ ما لم يكونوا يَحْتَسِبون، فعند ذلك أُبْلِسوا من كلِّ خَيْر، وأيِسوا من كلِّ راحة، وانْقطعتْ آمالُهم ورجاؤهم من رحمةِ اللهِ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة مجيء ﴿حَتَّىٰٓ﴾:

الاستمرار على الإقامة على الكفر وعدم التضرّع سبب في فتح باب العذاب

﴿حَتَّىٰٓ﴾ هنا ابتدائية لمجيء ﴿إِذَا﴾ بعدها[4]، وتفيد التّفريع على ما قبلها للإيذانِ بتقضّيه واستمرارِه شيئًا فشيئًا، أي استمروا على عتوهم إلى حصول الغاية المذكورة، وفيه تصوير لحالِهم بأنَّه ينزل بهم العذاب وتحلُّ بهم الشّدائد شيئًا فشيئًا ويرجون النّجاة في كلِّ حالةٍ، وهم مستمرّون على كفرِهم وعنادِهم، فيتفرَّع على استمرارِهم على عدم الاستكانة إلى ربِّهم وانتفاء تضرّعهم عند نزول الشّدائد بهم أن يفتحَ بابٌ عليهم ذو عذابٍ شديد، ففيه تخويف وترهيب ممّا سيقع عليهم في المستقبل، ويشعر التّعبير بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ أنَّ استمرارَهم على عدم الاستكانةِ إلى ربِّهم وانتفاء تضرّعهم سببٌ في فتح باب العذاب عليهم، لما تفيده ﴿حَتَّىٰٓ﴾ من معنى التّفريعِ وتقضّي الفعل شيئًا فشيئًا.

---

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/ 330.

(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 299، والنَّحّاس، معاني القرآن: 480/ 4، ومكّي، تفسير المشكل من غريب القرآن، ص: 164.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 238.

(4) الرضي، شرح الكافية: 3/ 274، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 256، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 102، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5102.

فائدة التعبير بأداة الشّرط ﴿إِذَا﴾:

الجزاء على الكفر وعدم التضرّع واقع لا محالةَ

عبّرَ بأداة الشَّرطِ ﴿إِذَا﴾ للإيذانِ بالقطعِ بوقوع فتح باب العذاب عليهم بسبب استمرارِهم على عدم استكانتِهم لربِّهم وانقيادِهم له سبحانه وانتفاء تضرّعهم، ولمّا كان الشّرط كالسّبب لوقوع الجزاء وكان الشّرط مقطوعًا به لتصديرِ الشّرط بـ﴿إِذَا﴾ أفاد أنَّ الجزاء واقعٌ لا محالةَ.

بلاغة التّعبير بأسلوب الشّرط:

سبب كلّ الشّرور عدم الانقياد لأوامر الله تعالى

لمّا كان الشّرط على معنى تعليق وقوع الجزاء بوقوع الشّرط أفاد أنَّ إبلاسَهم متعلِّقٌ بفتح بابِ العذاب عليهم، ولمّا كان فتح هذا الباب عليهم منوطًا بعدم استكانتِهم لربهم وعدم تضرّعهم عند أخذِهم بالعذاب واختبارِهم به رجع الأمر إلى أنَّ سببَ ما سيلاقونه من الإبلاسِ هو عدم إنابتِهم إلى ربِّهم والانقياد له سبحانه.

نكتة التّعبير بالفعل الماضي ﴿فَتَحۡنَا﴾:

إذا حضر سبب العذاب الشّديد وقع

لمّا كان المرادُ من الشّرط القطع بوقوع الشّرط كان التّعبير بالفعل الماضي أنسبَ لكونِ الفعل الماضي أقربَ إلى القطعِ من المستقبل نظرًا إلى اللفظ، وإن كان المعنى على المستقبل بسبب دلالة الشّرط، فأفاد التَّعبير بصيغة الماضي القطع بوقوع فتح باب العذاب كما أفاد كثرة وقوعه لمن هو مثلهم إذا حضر السّبب.

فائدة إسناد الفعل إلى ضمير العظمة:

إذا فتح الله تعالى باب عذابه فلايسدُّه إلّا هو

أسند الفعل إلى ضمير العظمة في قوله ﴿فَتَحۡنَا﴾ للإشعار بأنَّ فتح باب ذي عذاب شديد عليهم لا يقدر عليه إلّا الملك الواحد الأحد، وأنَّ فتح باب العذاب أمرٌ مهول، لأنَّ الذي فتحه هو اللّه الذي لا إله إلّا هو.

بلاغة الاستعارة في لفظ ﴿فَتَحۡنَا﴾:

لمّا كان الفتح يستعمل لما يزال به الهمُّ والغمُّ، ولِما يكون به إقبال

التَّهكُّمُ بالكافرين بتسمية وقوع العذاب فتحًا

الخيرات، ومنه تَسْمِيَةَ النَّصر فتحًا لِأنَّهُ إزالَةُ غَمِّ القَهْرِ، كان التّعبيرُ بلفظ الفتح هنا عن مجيء العذاب على طريق الاستعارة التّهكّمية، للتّنبيه إلى شدّة غضب الله تعالى عليهم وإلى قبح فعلِهم وللسّخريَّة بهم، فكأنَّهم كانوا يتوقّعون أن يفتح لهم الخير فجاءهم العذاب وسمّاه فتحًا تهكُّمًا بهم.

بلاغة تقديم ﴿عَلَيۡهِم﴾:

قُدِّمَ الجار والمجرور ﴿عَلَيۡهِم﴾ على المفعول وصفتِه في قوله على ﴿بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ للاهتمام به، ترهيبًا لهم لبيانِ أنّهم هم المقصودون بفتح باب العذاب الشّديد عليهم.

دلالة حرف الجر (عَلَى):

لا رادَّ لأمر الله العلي العظيم

لمّا كان حرف الجرّ (عَلَى) للاستعلاء أفاد تمكّن البابِ وما يكون وراءه منهم بحيث إنَّ العذاب يستوعبُهم فلا يتمكّنون من الخروجِ منه، ولا يستطيعون دفعه، ويفيد أيضًا أنَّ الذي أصابهم بالعذاب - وهو الله تعالى - مستعلٍ عليهم بعظمته وقدرته وسلطانه، فلا يقدر أحد على ردِّ العذاب الذي أرسله عليهم الكبير المتعالي سبحانه.

دلالة تعلُّق ﴿فَتَحۡنَا﴾ بقوله ﴿بَابٗا﴾:

الباب ذو العذاب الشّديد هو عذاب الآخرة

لمّا ذكر الفتح أتبعه بذكر الباب، لأنَّ الفتح إنّما يكون لما يكون مغلقًا، فلم يحسن أن يقال (فتحنا عليهم العذاب الشديد) فلكلِّ كلمةٍ مع صاحبتها مقام، فلمّا تعلَّق الفعل ﴿فَتَحۡنَا﴾ بـ﴿بَابٗا﴾ أفاد أنَّ الباب كان مقفلًا، فيكون العذاب المذكور في قولِه: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ غير العذاب في هذه الآية؛ لأنَّ الأوّل إنّما كان لينيبوا ويتضرّعوا، وأمّا هنا فلمّا ذكر أنَّه فتح عليهم بابًا ذا عذاب شديد دلَّ على أنّه كان مسدودًا وأنَّه إذا فتح فلا يسدُّ أبدًا، وهو العذاب الذي يكون في المنتهى، أي عذاب الآخرة الذي يُبتدأ بالبعثِ والنشور.

بلاغة الاستعارة التّمثيليَّة:

المفاجأة بالعذاب عذاب

جاء الكلام في قولِه ﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا﴾ على طريق الاستعارة التّمثيليَّة بتمثيل فتْح البابِ لِمُفاجَأتِهِمْ بِالعَذابِ بَعْدَ أنْ كانَ مَحْجوزًا عَنْهُم، فشُبِّهَتْ هَيْئَةُ وقوعِ العَذابِ عليهم بَعْدَ أنْ كانوا في سَلامَةٍ وعافيَةٍ بِهَيْئَةِ ناسٍ في بَيْتٍ مُغْلَقٍ عليهِمْ ففُتِحَ عليهِمْ بابُ البَيْتِ مِنْ عَدوٍّ مَكْروهٍ، أوْ يقال: شُبِّهَتْ هَيْئَةُ تَسْليطِ العَذابِ عليهِمْ بِهَيْئَةِ فتْحِ بابٍ اخْتُزِنَ فيهِ العَذابُ فلَمّا فُتِحَ البابُ انْهالَ العَذابُ عليهِمْ، وهَذا كَما مُثِّلَ بِقَوْلِهِمْ: طَفَحَتِ الكَأْسُ بِأعْمالِ فُلانٍ، ومِنْهُ قَوْلُ الكُتّابِ: فُتِحَ بابُ كَذا عَلَى مِصْراعَيْهِ[1].

فائدة التّنكير والإفراد في ﴿بَابٗا﴾:

عـــذاب الـلـه للكافرين عظيم أليم

يفيد التّنكير تعظيم هذا الباب وتفخيمه؛ أي باب عظيم بما فيه من ألوان العذاب، كما أفاد إفراده أنَّ هذا باب واحدٌ، وهكذا وصفه، فكيف إذا فتَحَ عليهم أبوابًا أخرى من عذابه ومقته، ففي التّعبير إشعارٌ بعظمة قدرة اللّه وقوّة قهره ﷻ.

نكتة التّنكير في قولِه ﴿عَذَابٖ﴾:

عـذاب الـلـه إذا أصاب الكافرين فلا مفرَّ منه

عبَّرَ بالاسم النّكرة ليفيد أنَّه تعالى توعدهم بعذاب غير معيَّن فيدخل فيه عذاب القتل في الدُّنيا وعذاب الآخرة، بمعنى محنّاهم بكلِّ محنة من القتل والجوع فما رؤي فيهم لين مَقادةٍ، وهم كذلك حتى إذا عذِّبوا بنارِ جهنَّم فحينئذ يُبلسون[2]، أو حَتَّى إذا جاءَهُمْ أمْرُ اللّهِ وجاءَتْهُمُ السّاعَةُ بَغْتَةً وأخَذَهُمْ مِنْ عِقابِ اللّهِ ما لَمْ يَكونوا يَحْتَسِبونَ، فعِنْدَ ذَلِكَ أبْلَسوا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، وأيِسوا مِنْ كُلِّ راحَةٍ، وانْقَطَعَتْ آمالُهُمْ ورَجاؤُهُمْ[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 102.

(2) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 4/ 152، والنَّسفي، مدارك التنزيل: 2/ 477.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 487.

فائدة التَّقييد بالصّفة في قوله ﴿عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾:

العذاب الشديد ليس هو عذاب الابتلاء والامتحان

وصف العذاب بأنَّه شديد يفيد أنّه ليس مثل العذاب الذي يكون للامتحان والاختبار، كما أنّه لمّا ترتّب عليه حيرتُهم ويأسُهم أفادَ أنّه أشدُّ من القتلِ والأسرِ، فيفيد عمومَه واستمرارَه، فتكون شدّته وصفًا لنفسِ العذاب، وممّا يزيد من أشدّيّتِه ترتّب الإبلاسِ عليه[1].

سرّ التعبير بـ ﴿إِذَا﴾ الفجائية جزاءً للشّرط:

جهل الكافرين بأنَّه كلّما مرّت بهم شدّة انكشف دليل غفلتِهم

لمّا كان التعبير بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ مفيدًا أنَّه كلَّما نزلت بهم الشّدائد كانوا يرجون النّجاة بعدها وأنَّهم كانوا مستمرّين على إقامتِهم على الكفرِ لاهين غافلين عبّر بـ﴿إِذَا﴾ الفجائية جزاءً للشّرط فقال: ﴿إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾؛ للإيذانِ باقتران مضمون الشّرط وهو فتح باب العذاب الشّديد عليهم باتّصافِهم بكونِهم مبلسين مفاجأةً، بحيث يقع عند وقت وقوعِ الشّرط بلا تراخ، فيكون آكد في معنى اللزوم، ليفيد أنَّ الجزاءَ يكون مفاجئًا لهم غيرَ متوقِّعين مجيئَهُ؛ لتوهّمهم أنَّه كلّما مرّت عليهم الشّدائد انكشفت، ففي تصدير الجزاء بـ﴿إِذَا﴾ تهويلٌ وترهيبٌ له.

سبب مجيء الجملة الاسمية بعد إذا التي للمفاجأة:

الإبلاس لا ينفكُّ عن الكافرين بعد وقوع العذاب الشّديد

لمّا كانت الجملة الاسميَّة دالَّةً على الثّبوت كان التّعبير بها أقضى لحقِّ البلاغة، لأنَّ المفاجأة لا يناسبها الاقتران بالفعل الدّالِّ على تقضّي الحدثِ في الزّمن، إذ يَبْطُل معنى المفاجأة حينئذٍ، فلمّا جاءت الجملة الاسمية في قوله ﴿هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ أفادت وقوعَ إبلاسِهم وثباته عند فتح باب العذاب الشّديد من غيرِ تراخٍ في الزّمن، فلا ينفكُّ عنهم وصف الإبلاسِ بعد فتح العذاب.

بلاغة تقديم ﴿فِيهِ﴾ على ﴿مُبۡلِسُونَ﴾:

اليأس تأخذ بهم كل مأخذ فلا نجاة ولا مفرّ

تقديم الجار والمجرور - الذي هو معمول ﴿مُبۡلِسُونَ﴾ - يفيد أنَّهم

(1) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 598، و13/ 210.

مبلسون في العذاب لا في غيرِه، فيكون التّقديم مفيدًا لاختصاص إبلاسهم في داخلِ العذاب، ليدلَّ على تأكيد دوامِ إبلاسِهم وحيرتهم وشدّة يأسهم.

تعذّر الخلاص عند الوقوع في العذاب الشّديد

فائدة الجار والمجرور ﴿فِيهِ﴾:

لمّا كان حرف الجرِّ (في) دالًّا على الظّرفيَّة وكان الضّمير في قولِه ﴿فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ عائدًا إلى ﴿عَذَابٍ﴾ بما اتّصف به أي ﴿شَدِيدٍ﴾، أفاد الكلامُ أنَّهم بإبلاسِهم منغمسون في العذاب الشّديد، وأنَّه قد احتواهم كما يحتوي الظّرفُ المظروفَ، فلا يقدرون على الخلاصِ منه، ويحتمل أن يعود الضّمير إلى ﴿بَابًا﴾، ويقصد ما وراءه مما يدخلون فيه، ونقل الآلوسي قولًا في جوازِ أن تكون (في) مضمّنَةً معنى السّببيَّة لتفيد الظّرفية والسّببيَّة معًا، والمعنى وهم بسببِ فتحِ باب العذاب مبلسون(1).

الاتّصاف بالإبلاس لشدّة اليأس

سبب إيثار الجزاء بالإبلاس:

لمّا كان الأخذ بالعذاب بتنوع مصائب الدّنيا اختبارًا للكافرين لعلَّهم ينيبون ويؤمنون وكان من رحمتِه تعالى أن يكشف عنهم العذاب، فكانوا لغفلتِهم معتادين على هذا الأمر، كان فتح باب العذاب الشديد غيرَ متوقَّعٍ عندهم مفاجئًا لهم، فكان فيه تبكيتٌ لهم، ولهذا كان الجزاء بوصفِهم بالإبلاس في قوله ﴿إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ هو المناسب للسّياق، للإيذان بأنَّهم اتّصفوا بوصفِ المتحير السّاكت لشدّة يأسِه ممّا وقع فيه.

المبلس هو السّاكت المتحيّر الذي لا يحير جوابًا لسوء حالِه

نكتة التّعبير بلفظ ﴿مُبۡلِسُونَ﴾:

لمّا كان المبلس هو الذي قد نزل به شرٌّ، ويَئِسَ من زوالِه ونسخِه بخيرٍ؛ أشعرَ اللّفظُ أنَّهم قد يئسوا من زوالِ العذاب الذي فُتِحَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 172، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 256، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5103.

عليهم بابٌ منه، وأنَّهم لشدّته ساكنون حزينون يائسون من الرّحمةِ ساكتون متحيّرون، قد همدوا وخفتوا لا يحيرون جوابًا لشدَّة مانزل بهم ولسوء الحال الذي هم عليه[1].

هول العذاب يصدم الكافرين فيجعلهم متحيِّرين آيسين من الخير

دلالة التَّعبير باسم الفاعل ﴿مُبۡلِسُونَ﴾:

أفاد التّعبير باسم الفاعل المشتقِّ ﴿مُبۡلِسُونَ﴾ أنَّهم قد اتّصفوا بالإبلاس في حالِ فتح العذاب الشّديد عليهم وأنَّه مستمرٌّ فيهم، بمعنى أنَّ الإبلاس يخالطُهم ويلازمهم فيما يستقبل، ولمّا جاء اسم الفاعل مقطوعا عن معمولِه دلَّ على إبرازِ جانب حدثِ الإبلاسِ وإظهارِه، تهويلًا لما يصيبُهم وقت فتح باب العذاب الشّديد عليهم.

حذف المعمول بين الدلالة على الوصف اللازم وإفادة عموم التّعلّق

فائدة حذف متعلَّق ﴿مُبۡلِسُونَ﴾:

لمّا حذف متعلَّق ﴿مُبۡلِسُونَ﴾ دلَّ على أنَّ الإبلاس صارَ وصفًا لازمًا لهم، فلا يكون منهم وصفٌ في وقت فتح باب العذاب الشديد عليهم إلّا التحيّر واليأس، ويحتمل أن يكون الحذف لإفادة العموم، أي هم فيه مبلسون من رحمة اللّه ومن تبدّل حالِهم، فهم آيسون من كلِّ خيرٍ، فيتناول الوصفُ كلَّ متناول[2]، كما أنَّ في حذف المعمول رعايةً للفاصلةِ.

(1) الزمخشري، الكشاف، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 152، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/ 426.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 93، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 13/ 210.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [المؤمنون: 78]

من لم يستعمل أعـضـاءه فيما خـلـقـت لـه هو بمنزلة عادمِها

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا بَيَّنَ اللّه تعالى مُبالَغَةَ أولَئِكَ الكُفّارِ في الإِعْراضِ عَنْ سَماعِ الأدِلَّةِ ورُؤْيَةِ العِبَرِ والتَّأمُّلِ في الحَقائِقِ؛ قالَ لِلْمُؤْمِنينَ أو للعالم بأسرِه، وهوَ الَّذي أعْطاكُمْ هَذِهِ الأشْياءَ ووَقَفَكُمْ عليها، تَنْبيهًا عَلَى أنَّ مَنْ لَمْ يَسْتَعْمِلْ هَذِهِ الأعْضاءَ فيما خُلِقَتْ لَهُ ولم ينتفع منها في إفرادِ اللّه تعالى بالعبادةِ وتَدَبَّرَ ما أوْدَعَهُ فيها مِنَ الدَّلائِلِ عَلَى وحْدانيَّتِه وباهِرِ قُدْرَتِه فهوَ بِمَنْزِلَةِ عادِمِها، وأنَّ حِرْمانَ أولَئِكَ الكُفّارِ ووِجْدانَ هَؤُلاءِ المُؤْمنينَ لَيْسَ إلّا مِنَ اللّه[1].

وأيضًا في هذه الآية رُجوعٌ إلَى غَرَضِ الاسْتِدْلالِ عَلَى انْفرادِ اللّهِ تَعالَى بِصِفاتِ الإلَهيَّةِ والامْتِنانِ بِما مَنَحَ النّاسَ مِنْ نِعْمَةٍ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرونَه بِتَخْصيصِه بِالعِبادَةِ[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾: (فأد) أصلٌ يدُلُّ على حُمًّى وشدَّةِ حرارة[3]، من ذلك قولهم: فأدَ اللَّحمَ في النّار: شواه، ولحمٌ فئيدٌ: مشويٌّ، كافْتأَدَ، والتَّفؤُّدُ: التَّحرُّقُ والتَّوقُّدُ، ومنه الفؤاد: للقلب، يقالُ له: فؤاد، إذا اعتُبِرَ فيه معنَى التَّفؤُّد، أي: التَّوقُّد، وجمعُ الفؤاد: أفئدة، قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾ [النَّجم: 11]، وقالَ سبحانه: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [إبراهيم: 37][4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 289، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 579.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 103.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فأد).
(4) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس: (فأد).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

يقابلُ المعاندونَ نِعَمَ اللهِ بالكُفْرِ والجُحودِ

امْتَنَّ اللّهُ على أولئك المعاندينَ للحقِّ ببعضِ النِّعَمِ الَّتي أعطاهم إيّاها؛ وهي نعمةُ السَّمعِ والبَصرِ والأفئدَة، فصارتْ هذه الأمورُ معهم ليَسمَعوا المواعِظ، ويَنظُروا العِبَر، ويتفكَّروا بالأفئدَة، فلم يَنتفِعوا بشيءٍ من ذلك؛ لإصرارِهم على الكفرِ وبُعدِهم عن الحقّ، ولم يشكروه تعالى على ذلك أيَّ شُكرٍ ولو كانَ قليلًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الواو بين الوصلِ والاستئناف:

شكر النّعم بإفرادِ الله بالعبادة

تحتمل الواو أن تكون عاطفة لتكون الجملة معطوفةً على جُمْلَةِ ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ﴾ [المؤمنون: 21]، وسوّغ الوصلَ وجودُ الجهة الجامعة بينهما، وهي التّذكير بالنّعم العظيمة للاستدلالِ على تفرّد اللّه تعالى بالألوهيّة والتَّحضيضِ على محبّته تعالى بما يغذي النّاس من هذه النّعم، كما أنَّ الجملتين اسميّتان، فعُطفَتْ إحداهما على الأخرى، وما بَيْنَهُما من الجمل انْتِقالاتٌ اقتضاها السّياق لتتميم المعنى، كما تحتمل الواو أن تكون مستأنفةً، لتكون الجملة كالمستقلَّة في المعنى مع صلتِها بما قبلها، ففيها رُجوعٌ إِلَى غَرَضِ الِاسْتِدْلالِ والِامْتِنانِ، بالتذكيرِ بنعم اللّه التي تقتضي إفرادَه بالعبادة[2].

بلاغة الالتفات في الآية:

الامتنان بطريق الخطاب أكثر تأثيرًا واستعطافًا في المخاطبين

في الآية التفات بالانْتِقالِ مِنْ أُسْلوب التكلُّم إِلَى أُسْلوب الغيبة بالنّسبةِ للّه تعالى ومن أسلوب الغائب إلى أسلوبِ الخطاب بالنّسبة للمخاطبين، ففي الآيات السابقة عبِّر بـ﴿رَحِمۡنَٰهُمۡ﴾، ﴿أَخَذۡنَٰهُم﴾ وفي هذه الآية قال ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ﴾، فأفادَ الالتفاتُ الإشعارَ بالانتقال إلى ما كان عليه من غرضِ الاستدلال على انفرادِ اللّه

(1) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 672.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 103.

تعالى بالألوهيَّة بما امتنَّ عليهم بعظيم النِّعم التي لا يقدر عليها إلّا الإله الواحدُ الأحدُ، ولمّا كان الامتنان بطريق الخطاب أكثرَ تأثيرًا واستعطافًا بالعتابِ كان الانتقال إلى أسلوب الخطاب معهم لأجلِ تذكيرِهم أقربَ إلى إيابِهم وإنابتِهم، كما أنَّ في الانتقال من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ تَجْديدًا لِنَشاطِ الذِّهْنِ وتَحْريكًا لِلْإِصْغاءِ إِلَى الكَلامِ وهوَ مِنْ أساليبِ كَلامِ العرب(1).

تنوّع التّقدير في طرفي الإسناد:

من لم ينتفع بالنّعم ولم يقدّرها كان بمنزلة الجاهل لها

يحتمل الإسناد في قولِه تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ﴾ أن يكون (هوَ) مسندًا إليه والاسم الموصول مسندًا، ليفيد الإخبار عن الضّمير العائد إلى الله تعالى بأنَّه الذي أنشا لكم السمع والأبصار، فهو معروف عندهم وإنّما كان الاسم الموصول وصلته في موضع الخبر المجهول مع ظهورِه؛ لأنَّهم لمّا لم ينتفعوا من هذه النّعم ولم يقدّروها ويتدبّروا فيها كانت بمنزلة المجهول الذي ينبغي العلمُ به، ويحتمل أن يكون (هوَ) مسندًا تقدَّم على المسند إليه، وهُمْ لمّا عَبَدوا غَيْرَهُ نُزِّلوا مَنْزِلَةَ مَنْ جَهِلَ أنَّهُ الَّذي أَنْشَأَ لَهُمُ السَّمْعَ، والفرق بين التّوجيهين دقيق فتنبَّه له(2).

بلاغة القصر في الآية:

المنعِم على النّاس جميعًا هو المعبود الذي يستحقُّ الشّكرَ بإفرادِه بالعبادة

لمّا جاء المسند والمسند إليه معرفتين كان الكلام على طريق القصر، وفيه قصر الإفرادِ لأنَّهم لمّا أشركوا بالله تعالى كان كأنَّهم اعتقدوا أنَّ للشركاء نصيبًا في إنشاء هذه النّعم لهم، إشعارًا بأنَّ المنعم هو المعبود، فجاء القصر لإفراد الله تعالى بالعبودية، أي هو وحده أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة، ويحتمل أن يكون من قصر القلب والمعنى هو لا غيره أنشأ لكم السَّمع والأبصار والأفئدة.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 172.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 104.

سبب إيثار مجيء المسند اسمًا موصولًا:

نعم الله ظاهرةٌ وواضحةٌ لا يمكن إنكارُها

أوثر التّعبير في المسند بالاسم الموصول في قولِه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾ للإشعار بأنَّ الصّلة معلومة الانتساب إلى اللّه تعالى عند المخاطبين، وأنَّ الأمرَ بحيث لا يمكن إنكارُه، كما أنَّ الصّلة هي موطن العظة والاعتبار، فجاءت الصّلة بصيغة الفعل لإظهار الامتنان بنعم اللّه تعالى على الخلق والتّنبيه على أثر نعمِه تعالى في الخلقِ، وأنَّها بحيث لا يمكن إنكارُها لظهورِها ووضوحِها عند جميع المخاطبين، فيقتضي التّعجيب من إشراكِهم باللّه تعالى مع ظهور وحدانيَّته ويقتضي كذلك توبيخَهم عليه.

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿أَنشَأَ﴾:

التّعبير بالإنشاء لمناسبة مقام التّذكير بنعم الله الباهرة

عبِّرَ بلفظ ﴿أَنشَأَ﴾ دون (خلق)، لأنَّ النَّشْأ يدلُّ على إحداثِ الشَّيء وتربيته شيئًا فشيئًا، فيشمل الإيجاد وما بعدَه، أي مرحلة النمو إلى قرب تمام القوَى[1]، ففيه تقريرٌ لإثبات أنَّ اللّه تعالى هو وحده الذي أنشأ لكم هذه النّعم العظيمة، كما أنَّ فيه تنبيهًا على رعاية اللّه تعالى بهم والاعتناء بما يكون سبب دوام حياتِهم، فالتّعبير بهذا اللفظ هو المناسب لمقام التَّذكير بنعم اللّه الباهرة.

سبب إيثار تقديم ﴿لَكُمُ﴾ على المفعول:

تقديم الجار والمجرور لتقرير النّعم وتأكيدِها وللتنبُّه إلى وجوب شكرِها

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿لَكُمُ﴾ على المفعول وما عطف عليه في قوله ﴿ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾ لتقرير هذه النّعم وتحقيقِها ليتذكّروا وينتبهوا إلى وجوب شكرِها والقيامِ بحقِّها في توحيد المنعِم وإفرادِه بالعبادة، وليس في التّقديم معنى التّخصيص.

سبب إيثار ذكر ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾ و﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ و﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾:

ذكر هنا أمهات النعم، ولم يذكر غيرها، وهي السَّمع والبصر

(1) الراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نشأ).

أمّهات النّعم هي السّمع والبصر والأفئدة

والفؤاد، لأنَّ المقام مقام استدلال على وحدانيَّة اللّه وإفراده بالعبادة، والاِسْتِدْلالُ على هذا مَوْقوفٌ عليها، كما أنَّه بهذه الأعضاء تتعلَّق منافع الدُّنيا والآخرة، فبها يوصَلُ إلى معرفة النّافع من الضارِّ، والطَّيِّبِ من الخبيثِ، وما به يميّزون الحقَّ من الباطلِ، ويختارون ما هو المختار عندهم من غيره، وما ينفعهم ممّا يضرُّهم[1].

مناسبة التّرتيب في ذكر ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾ و﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ و﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾:

ترتّب الألفاظ تنبيه على ترتّب الانتفاع بها

لمّا كان السّمع هو أوّل ما يقع عند الإنسان وكان بحيث يستطيع أن يسمع الشّيء ولا يراه بدأ به، ولمّا كانت الآيات المنصوبة الظّاهرة لا بدَّ لها من أبصار لتحسَّ بها أعقب الأبصار بذكر السّمع، ثم ذكرَ الأفْئِدَةَ، لأنَّه بها يكون التَّفكّر فيما سمع وأبصر، فيقع الاستدلال ويحصل الإيمان والتّصديق.

سبب إيثار إفراد ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾ وجمع ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ و﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾:

الإفراد والجمع باعتبار المتعلّقات

السَّمْعُ مصدر فلذلك وُحِّدَ، أو يكون المراد من اللفظ الجنسَ، أي جنسَ السّمع، وجَمَعَ الأبصار والأفئدة لأنَّ التَّفاوت فيهما باعتبار المتعلّقات أكثر من التَّفاوت في السَّمع، وبيانه أنَّه لَمّا كان البَصَرُ يَتَعَلَّقُ بِأنواع كَثيرَة مِنَ المَوْجوداتِ وكانَتِ الأفئدةُ تعقل أجْناسًا وأنْواعًا جُمِعا بِهَذا الاعْتِبار، وأُفرِدَ السَّمْعُ لِأنَّهُ لا يَتَعَلَّقُ إلّا بِنَوْعٍ واحِدٍ وهوَ الأصْواتُ، ويحتمل أن يكون جَمَعَ الأبْصارَ والأفْئِدَةَ بِاعْتِبارِ تَعَدُّدِ أصْحابِها[2].

نكتة التّعبير بـ﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾ دون العقول:

لفظ الفؤاد فيه معنى التوقّد والتّأثّر فيناسب سياق الاتّعاظ والاعتبار

لمّا كانت الأفئدة جمع فؤاد وكان الفؤاد فيه معنى التّوقّد والإنضاج أي إنضاج الرّأي والتأثُّر الذي يكون فيها مع صفةِ اللين الذي توصف

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 486، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 289، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 580.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 153، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 104.

به[1]؛ عبَّر به هنا لأنَّ السّياق للاتّعاظ والاعتبار[2]، فكان الأنسب ذكر الأفئدة دون العقول.

فائدة (أل) في الألفاظ ﴿ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾:

(أل) في السّمع جنسيَّة، والمراد جنس السّمع كما تقدَّم، ويلزم منها استغراق كلِّ سمعٍ موجود، وأمّا في ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾ فـ(أل) فيهما للاستغراق لدخولِها على الجمع، فتفيد استغراق جميع الأبصار والأفئدة، ليفيد الاستغراق النّظر إلى جميع أفراد البصر والفؤاد، فما من سمع ولا بصرٍ ولا فؤادٍ إلّا واللّه تعالى هو الذي أنشأه نعمةً منه وفضلًا.

التّوجيه النّحوي للفظ ﴿قَلِيلٗا﴾:

نعم اللّه في السّمع والأبصار والأفئدة لا يناسبها إلّا كثرة الشّكر ودوامه

يحتمل أن يكون لفظ ﴿قَلِيلٗا﴾ صفةً قد حذف موصوفها، وهو المصدر وأقيمت الصفة ﴿قَلِيلٗا﴾ مقامه، والتقدير: (فشُكْرًا قليلًا ما تشكرون)، والغرض من الحذف تعجيل الإخبار بقلَّة شكرِهم على هذه النّعم العظيمة، ويحتمل أن يكون ﴿قَلِيلٗا﴾ حالًا من ضمير ﴿لَكُمُ﴾، و﴿مَّا﴾ مصدرية، والتقدير: (في حال كونكم قليلًا شكركم)[3]، لتفيد بيان هيئتِهم الثابتة، فتكون الحال لازمةً بقرينة مجيء الفعل المضارع ﴿تَشۡكُرُونَ﴾، وعلى الوجهين فالمراد توبيخُهم على قلَّة شكرِهم.

فائدة تقديم ﴿قَلِيلٗا﴾:

على الوجهين في توجيه لفظ ﴿قَلِيلٗا﴾ يكون تقديم ﴿قَلِيلٗا﴾ للتَّخصيص، بمعنى تخصيص شكرِهم بالقلَّة، أي لا يكون شكرُهم إلّا قليلًا، فيكون التقديم للتشنيع على قلة شكرهم في مقابل عظيم النعم المنعمة عليهم.

(1) الراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (فأد).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 173.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 153، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 104.

دلالة القلة بين الحقيقة والمجاز:

الجاحد لنعم الله لا يشكرها لا قليلا ولا كثيرًا

يحتمل أن يكون المراد من لفظ ﴿قَلِيلًا﴾ في قوله ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ما هو ظاهره، فيكون الكلام على الحقيقة، والمعنى تشكرون شكرًا قليلًا غيرَ معتدٍّ به في مقابل تلك النّعم الجليلة، ويحتمل أن يكون المرادُ من لفظ القلَّة العدم على طريق المجاز، والمراد نفي شكرِهم، فليسَ المُرادُ أنَّ لهم شُكرًا وإنَّ قَلَّ، لكنَّهُ كما يُقالُ لِلكفورِ الجاحِدِ للنِّعمةِ ما أقلَّ شكرَ فلانٍ، والمعنى لا تشكرون لا قليلًا ولا كثيرًا[1].

مناسبة مجيء قوله ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾:

العمدة في شكر النعم استعمالها في ما خُلِقَت لأجلِه

لمّا ذكّرهم اللّه تعالى بالنّعم التي أعطاها لهم وكانوا مع هذه النّعم قد أقاموا على كفرِهم وإشراكِهم أخبر عن قلَّة شكرِهم لها أو عدمِه؛ لأنَّ العمدة في شكرها استعمالُ تلك القوى التي هي في أنفسِها نعمٌ ظاهرةٌ باهرةٌ وصرفُها فيما خلقت لأجله، والإذعانُ لمانحها من غير إشراك به سبحانه، والحال أنَّكم تخلّون بهذه النّعم إخلالًا عظيمًا[2].

بلاغة الكناية في تعلّق الشكر بالنّعم:

شكر المنعِم ملتبس بالمحبَّة والرّضا

لمّا قال ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ في مقابل ذكر النّعم كان التقدير: (قليلًا ما تشكرونها)، ونكتة تعليق الشّكر بالنّعم دون أن يقال (قليلا ما تشكرون اللّه) أنّه لمّا كان ظهور آثارِها ممّا لا ينكره أيُّ إنسانٍ كان القيام بشكرِها أمرًا محتومًا، فينتقل إلى لازمِه وهو شكر المنعِم بها، ليكون شكرُه على ما يغذوهم به من نعمِه، فيكون الشّكر على مقتضى المحبَّة والرّضا، و"مِنْ شُكْرِ النِّعْمَةِ الإقْرارُ بِالْمُنْعِمِ بِها ونَفْيُ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 62، والواحدي، التفسير البسيط: 3/ 269، والبغوي، معالم التنزيل: 3/ 372، والزمخشري، الكشاف: 3/ 199، وابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 269، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 289، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 144.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 93، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 146.

النِّدِّ والشَّرِيكِ لَهُ"[1]، فيكون الغرض تبكيت المشركين على كفرِهم بالمنعِم عليهم بها.

فائدة ﴿مَّا﴾ في قولِه ﴿قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾:

الشكر مطلوب من الكافرين بتحقيق الإيمان

﴿مَّا﴾ في قولِه ﴿قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ مصدرية، والتقدير: (في حال كونكم قليلا شكركم)، فإن كان الخطاب للمشركين فالشكر مراد به التوحيد، أي فالشكر الصادر منكم قليل بالنسبة إلى تشريككم غيره معه في العبادة، وإن كان الخطاب لجميع الناس فالشكر عام في كل شكر نعمة وهو قليل بالنسبة لقلة عدد الشاكرين، لأن أكثر الناس مشركون كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾ [الأعراف: 17]، وإن كان الخطاب للمسلمين والمقصود التعريض بالمشركين فالشكر عام وتقليله تحريض على الاستزادة منه ونبذ الشرك[2].

ويحتمل أن تكون ﴿مَّا﴾ زائدة لتوكيد قلَّة الشكر، بمعنى أنهم يشكرون شكرا لا يذكر لقلته، أو لتوكيد انتفاء الشّكر، كما تقدَّم في توجيه معنى القلَّة في الآية أي عدمه.

دلالة التّعبير بالمضارع في قولِه ﴿تَشۡكُرُونَ﴾:

أفاد التّعبير بصيغة المضارع في قولِه ﴿تَشۡكُرُونَ﴾ استمرار قلَّة شكرِهم أو عدمه، وتجدّد الأمر حالًا فحالًا ووقتًا فوقتًا، للإشعار بالحالة الدائمة التي هم عليها.

فائدة حذف مفعول ﴿تَشۡكُرُونَ﴾:

إيذان الكافرين بأنَّهم لا يقومون بحقِّ نعم الله ولا يصرفونها فيما خلقت له

أفادَ حذف مفعول الفعل ﴿تَشۡكُرُونَ﴾ أنَّ قلَّة شكرِهم أو عدمه هو وصف لازمٌ لهم، وأنَّهم لا يأتي منهم إلّا قلَّة الشّكر أو عدمه، ويحتمل أن يكون الحذف لإفادة العموم، بمعنى أنَّكم قليلًا ما تشكرون أيَّ نعمةٍ ينعمها الله تعالى عليكم سواء أكانت صغيرةً

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 580.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 104.

أو كبيرةً، أو كانت قليلةً أو كثيرة، والمعنى على الوجهين هو أنَّكم لاتقومون بحقِّ هذه النّعم.

بلاغة المعنى في الآية:

أثر القرآن في القلوب بما تضمّنه من معانٍ عظيمة

في الآية خمسة معان كلّيَّة أحدها: إظهار نعمة اللّه على العبادِ، وثانيها: أنَّ نعمة السّمع والأبصار والأفئدة بها تدرك الحجّة وتقطع المعذرة ويميَّزُ الحقُّ من الباطل، وثالثها: مطالبة العباد بالشكر عليها، ورابعها: الإخبار بأنَّ عمدةَ الشّكر تكون بهذه الأركان الثلاثة، وخامسها: الإخبار بأنَّ الشّاكر قليل[1]، وهذا مع وجازة الألفاظ المحمّلة بهذه المعاني العظيمة.

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 130.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٧٩﴾ [المؤمنون: 79]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا ذكَّرهم بهذه النِّعَم التي هي دالَّةٌ على خلقِهم، صرَّح به في هذه الآية فقال ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[1].

خلق النّاس وتناسلهم في الأرضِ دليل على البعثِ يوم القيامة

وأيضًا هَذا اسْتِدْلالٌ آخَرُ عَلَى انْفِرادِ اللَّهِ تَعالَى بِالإلَهِيَّةِ إذْ قَدْ عَلِموا أنَّهُ لا شَريكَ لَهُ في الخَلْقِ فكَيْفَ يُشْرِكونَ مَعَهُ في الإلَهِيَّةِ أصْنافًا هُمْ يَعْلَمونَ أنَّها لا تَخْلُقُ شَيْئًا، وهوَ أيْضًا اسْتِدْلالٌ عَلَى البَعْثِ لِأنَّ الَّذي أحْيا النّاسَ عَنْ عَدَمٍ قادِرٌ عَلَى إعادَةِ إحْيائِهِمْ بَعْدَ تَقَطُّعِ أوْصالِهِمْ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذَرَأَكُمْ﴾: (ذرأ) أصْلانِ؛ أحَدُهُما لَوْنٌ إلَى البَياضِ، والآخَرُ كالشَّيْءِ يُبْذَرُ ويُزْرَعُ[3]، ذَرَأَ يَذْرَأُ ذَرْءًا، يقال: ذَرَأَ اللّهُ الخَلْقَ يَذرَؤهم، أي: أوجدَ أشخاصَهم، قال اللّهُ تعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشّورى: 11]، والذَّرْءُ: إظهارُ اللّهِ تعالى ما أبْداه، قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: 179][4]، وقولُه تعالى: ﴿ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بَثَّكم فيها كما تُبَثُّ الحبوبُ لتنبت[5].

المَعْنى الإجْماليّ:

أخبرَ اللّهُ تعالى عن قدرته العظيمةِ وسُلطانه القاهرِ في بَرْئه الخَليقة، وذَرْئه لهم في سائرِ أقطارِ الأرض على اخْتلافِ أجناسِهم

اللهُ الَّذي بَثَّ الخلقَ في الدُّنيا، وهو الَّذي يجمعُهم في الآخِرة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 173.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 105.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذرأ).
(4) الرّاغب، المفردات: (ذرأ).
(5) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 672.

ولُغاتِهم وصفاتِهم، ثمَّ يوم القيامةِ يجمعُ الأوَّلينَ منهم والآخِرينَ لميقاتِ يومٍ معلوم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الوصل بالواو في الآية:

في قوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عبّر بالعطف على طريق الوصل للاشتراك في الجهة الجامعة بين الجملتين، فالآية السابقة ذكرت نعمة الإنشاء في الأرضِ وهذه الآية ذكرت نعمة الإيجادِ والحَياةِ وتَيْسيرِ التَّمَكُّنِ مِنَ الأَرْضِ وإكْثارِ النَّوْعِ[2]، وكلُّ واحدةٍ منهما دليل على توحيد اللّه تعالى وانفرادِه بالعبوديّة، كما أنَّ الجملتين خبريَّتان، فجاء الكلام من عطف الخبر على الخبر.

كُلُّ نعمة من نعم الله تعالى دالّة على وحدانيّته

فائدة التّعبير بالضّمير (هوَ):

لمّا كان الضّمير عائدًا على اللّه تعالى بما اتّصف به في الآية السّابقة في قوله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾؛ أفاد في هذه الآية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ المنعم عليكم بالسَّمع والبصر والأفئدة هو ذاتُه الذي ذرأكم فيها، ليفيد تعدّد النّعم التي أنعم اللّه بها على النّاس.

التّذكير بنعم الله وآلائه المتعدّدة عظةٌ للمؤمنين وتنبيه للكافرين

بلاغة القصر في قولِه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

لمّا جاء المسند والمسند إليه معرفتين أفاد التّركيب قصر الذّرء في الأرضِ على اللّه تعالى، وفيه قصر الإفراد كسابقِه، فإنَّ مَنْ يشركُ باللّه تعالى كان كمن يعتقد قيام الشّريك بخلقِ الخلق وبثِّهم، إشعارًا بأنَّ الذي ذرأ الخلقَ هو المعبودُ، والمعنى هو وحده الذي خلقكُم وكثَّركُم في الأرضِ، ويحتمل أن يكون من قصر القلب والمعنى هو الذي خلقكم وكثَّركم في الأرضِ لا غيره.

الذي ذرأ الخلق وبثَّهم هو المعبود الحقُّ

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 238.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 105.

التّعجيب من الإشراك بالله تعالى مع ظهور أنّه هو الذي ذرأ الخلق في الأرض

سبب إيثار مجيء المسند اسما موصولا:

عبّرَ بالاسم الموصول وصلتِه في قولِه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ﴾ للإشعار بأنَّ الصّلة معلومة الانتساب عند المخاطبين وأنَّها من الظّهور بحيث لا يمكن إنكار أنَّه تعالى هو وحده الذي ذرأكم في الأرض، بمعنى تفرّدِه بالذّرءِ ﷻ، كما أنَّ الصّلة هي موطن العظة والعبرة، ففي التّعبير بالموصول وصلتِه تعجيبٌ من إشراكِهم باللّه تعالى مع ظهور وحدانيّته وتوبيخهم عليه.

الــذّرء يفيد معنى الخلق والبثّ في الأرض وتيسير القرار فيها بعد الخلق والتّناسل

نكتة التّعبير بلفظ ﴿ذَرَأَكُمْ﴾:

عبّر بلفظ ﴿ذَرَأَكُمْ﴾ لإفادة ثلاثة معانٍ: أحدها أنَّه تعالى خَلَقَكُمْ في الأرضِ، والثاني أنَّه تعالى بثَّكم وبَسَطَكُمْ فيها ذُرّيَّةً بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ حَتَّى كَثُرْتُمْ وانتشرتم، والثالث تيسير التّمكّن في الأرضِ والقرارِ فيها، أي هو الذي خلقَكم وجعلكم متناسلين منتشرين قارّين في الأرضِ متمكّنين فيها[1]، ففي التّعبير بهذا اللفظ تذكير بنعمٍ كثيرةٍ.

الذّرء في الأرضِ يفيد بلازمه عموم النّعم فيها

فائدة ذكر ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

ذكر الجارّ والمجرور الدّال على تعلّق ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بـ﴿ذَرَأَكُمْ﴾ ليكونَ إشارةً إلى أنَّ الانتشار وتيسير الحياةِ في عموم الأرض كلِّها، وأنَّه تعالى بثّنا فيها، وأنَّه إليها نعود[2]، وفيه كذلك التّنبيه على أنَّ هذه النعم هي من المعلوم الذي لا ينكره إلّا جاحد؛ لأنها منتشرة في الأرض التي يعيش عليها الخلق ويعرفون ما فيها من نعم اللّه تعالى والدلائل على توحيده.

الذّرء في الأرض يفيد بلازمه عموم النّعم فيها

بلاغة الكناية في قوله ﴿ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

لمّا كان الذرء في الأرضِ يفيد معنى الخلقِ والتّناسل والانتشار فيها

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 153، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 289.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5140.

أفاد بلازمِه عمومَ النِّعَمِ في الأرضِ؛ لأنَّ الذّرْء في الأرض يقتضي بلازمِه انتشار النّعم فيها التي تغذّي السّمع والأبصار والأفئدة التي بها قوام النّاس ومعيشتُهم وديمومة حياتِهم في الأرضِ.

الذي ذَرَأَ الخلقَ في الأرض هو القادر على حشرهم وحسابهم

فائدة العطف في قوله ﴿وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾:

لَمّا كانَتِ القُدْرَةُ عَلَى الخَلْقِ ابْتِداءً توجِبُ القُدْرَةَ عَلَى الإعادَةِ، وكان السياق في بيان نعم الله تعالى والاستدلال بها على توحيده كان لابدَّ من تخويفِهم بالتّصريح بما تضمّنه ذرأ الخلقِ، فذكر الحشر المستلزم للحساب؛ ليجزيَ كلًّا بعملِه، لتجمع الآية بين التّرغيب والتّرهيب، فكانت الجهة الجامعة بين الجملتين ظاهرةً كما أنَّ الجملتين خبريّتان، فجاءت الجملة معطوفةً فقال ﴿وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾.

الحشر إلى الله إيذانٌ بأنَّ الجزاء عنده سبحانه

دلالة قوله ﴿وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾:

لَمّا كان المقصود من الحشر هو حصول الجزاء من الله تعالى على أعمالِهم وحسابِهم عليها عبِّر هنا بالغاية من الحشرِ، فجعل حشرَهم إلى ذلك الموضع حشرًا إليه ﷻ باعتبار أنَّ الجزاء عند الله تعالى، وهذا هو الظّاهر، وفيه تخويف وترهيب من عدم الشّكر على النّعم، وقد يكون الكلام على تقدير مضاف، أي إلى حكمه وقضائه تحشرون[1].

مناسبة ختام الآية لأوّلها

مناسبة التّعبير بقوله ﴿وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾:

التّعبير بـ﴿وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ مناسبٌ لذكر صدر الكلام في قوله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، والمعنى منه بدأ خلقكم وإليه مرجعكم، ولو قيل (وإلى أرضِ المحشر تحشرون) لما كان مناسبًا لسياق الكلام ولا سباقِه، وبهذا يكون ختام الآية قد ارتبط بأوّلها مع وجازة اللفظ.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 153، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 289، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 580.

فائدة تقديم ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ على ﴿تُحۡشَرُونَ﴾:

لا ينفع المشركين أحد يوم الحشر إلى الله

يفيد تقديم الجار والمجرور التّخصيص، بمعنى إليه وحده تحشرون لا إلى غيره، فلا يكون معكم شيء مما تدعون من دونه[1]، فكما أنَّه هو الذي ذرأكم في الأرض لا غيره، فإنّكم إليه وحده تحشرون لا إلى غيره، ففي التقديم إبطالٌ للإشراكِ كذلك، مع ما في تأخير ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ من رعاية للفاصلة.

بلاغة التّعريض في قولِه ﴿وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾:

التّعجيب من إشراكِ المشركين مع أنَّهم يحشرون إلى الله وحده

في قولِه ﴿وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ تَعْريضٌ بِتهديد المشركين بِأنَّهُمْ مَحْشورونَ إلَى اللّهِ فهوَ يجازيهم، فكيف يتخذون من دونه شركاء لن ينفعوهم في ذلك اليوم بشيء، بل سيتبرؤون منهم ويكونون عليهم ضدًّا، وفيه كذلك تعجيب من حالِهم فما لكُم لا تُؤمنون به ولا تَشكرونَهُ[2].

بديع الطباق بين ﴿ذَرَأَكُمۡ﴾ و﴿تُحۡشَرُونَ﴾:

مناسبة الذّرء الذي هو بمعنى البثِّ والتّفريق للحشرِ الذي هو بمعنى الجمع

لمّا ذكر الذرءَ الذي هو بمعنى البثِّ والتفريق ومنه ذرأ الزّرع في الأرضِ ناسبَ مقابلته بِضدِّهِ وهوَ الحَشْر الذي هو بمعنى الجَمْعِ بعد التّفريق[3]، فإنَّ الحَشْرَ يَجْمَعُ كُلَّ مَنْ كانَ عَلَى الأرْضِ مِنَ البَشَرِ غير متفرّقين، كما أنَّه لمّا كان الذّرءُ يفيد الكثرةَ والدقَّة ناسب مقابلته بالحشرِ الذي يفيد جمع ما دقَّ وما عظمَ، ففي الكلام مُحَسِّنُ الطِّباقِ، والمَقْصودُ مِنْ هَذِهِ المُقابَلَةِ الرَّدُّ عَلَى مُنْكِري البَعْثِ بأنَّهم إليه تعالى يحشرون يوم القيامة[4].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخلق والذّرء:

الفرق بينهما هو أنَّ الخلق هو الإيجاد من العدم وأمّا الذرء فهو

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5140.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 147، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 105.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 93، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 211.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 105.

الخـلـق هو الإيـجـاد من العدم والـذّرء هـو الإظـهـار والبثُّ والتّكثير

الإظهار والبثُّ والتّكثير، وفيه معنى الانتشار، فالتّعبير بالذّرءِ يدلُّ على أنَّه تعالى خلقهم وبثَّهم في الأرضِ ليتناسلوا وينتشروا فيها ويسّر لهم القرارَ والتّمكين فيها[1].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب (ذرأ)، وأبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 138.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٨٠﴾ [المؤمنون: 80]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا تضمّنت الآية السابقة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ ذِكرَ إحيائهم وإماتتهم، صرَّح به في هذه الآية على وجه عام فقال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، ثمَّ عطف عليه قدرته على المخالفة بين الليل والنَّهار، فمَنْ يوجِدُهما بعد أن يُعْدِمَهما هو القادر على إيجاد الخلق مرَّةً أخرى وإحيائه بعد إفنائه[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإحياءُ والإماتةُ وتعاقُبُ اللَّيلِ والنَّهارِ آياتٌ للتَّدبُّرِ والنَّظَر

يخبرُ اللّٰهُ تعالى أنَّه ﷻ هو الَّذي يُحيي ويميتُ عبادَه على جهةِ الانْفرادِ والاسْتقلال، وفي هذا تذكيرٌ لنعمةِ الحياة، وبيان الانتقالِ منها إلى الدّارِ الآخرة، وهو تعالى الَّذي جعلَ اللَّيلَ والنَّهارَ مختلِفَيْن يتعاقبان ويختلفان في السَّوادِ والبياض، وفي نُقصانِ أحدِهما وزيادةِ الآخَر، وفي تكرُّرِهما يومًا بعد يومٍ وليلةً بعد ليلة، أفلا تعقلونَ أيُّها العبادُ بالنَّظَرِ والتَّأمُّل، وتتفكَّرون في ذلك ودلائلِه على وحدانيَّةِ اللّٰه، وعظيمِ قدرتِه وجَليلِ حكمتِه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الوصل بالواو في الآية:

تنوّع نعم الله التي تعمُّ الخلقَ جميعا والدّالة على قدرته العظيمة الباهرة

عبّر بالعطف على طريق الوصل للاشتراك في الجهة الجامعة بين الجملتين، فالآية السابقة ذكرت نعمة الذّرءِ في الأرضِ التي تدلُّ على قدرة اللّٰه العظيمة وهذه الآية ذكرت نعمة الإحياء والإماتة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 188، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 105.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 81، والشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 672.

واختلاف الليل والنّهار وتواليهما المتضمّنة آثار قدرتِه الباهرة، وفيه تنوّع في الاستدلال على توحيد اللّه تعالى وانفرادِه بالعبوديّة، كما أنَّ الجملتين خبريَّتان، فجاء الكلام من عطف الخبر على الخبر.

فائدة التّعبير بالضّمير (هوَ):

التنبيه إلى عظيم قدرة الله على الإنشاء والذرءِ والإعادة يوم البعثِ

لّما كان الضّمير عائدًا على اللّه تعالى بما اتّصف به في قوله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ﴾ وقوله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أفاد في قولِه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أنَّ المتّصف بإنشائِكم في الأرضِ وذرئِكم فيها هو ذاتُه الذي يحيي ويميت، ليفيد تعدّدَ النّعم التي أنعم اللّه بها على النّاس، والاستدلالَ على إمكان البعثِ والحشرِ يوم القيامة.

نكتة إعادة ذكر المسند إليه (هوَ):

مقام الاستدلال على التّوحيد مقام إطناب وبسط في الكلام

أعاد ذكر المسند إليه (هوَ) كما في الآية السابقة زيادةً في تقريرِ المعنى وإيضاحِه، وللتّنصيص على قصر المسند على المسندِ إليه، وللتّلذّذ بذكره، وللتّنبيه إلى أنَّ إصغاء السّامعِ مطلوبٌ، فجاء الكلامُ على الإطنابِ والبسطِ ولاسيَّما أنَّ المقام مقامُ إنذارٍ وتخويفٍ، وإنكارٍ للشِّرك، واستدلالٍ على توحيدِه وتفرّده بالعبادةِ.

بلاغة القصر:

الذي يحيي ويميت هو الإله الحقُّ

لّما جاء المسند والمسند إليه معرفتين في قولِه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أفاد التّركيب قصر الإحياء والإماتة على اللّه تعالى، وفيه قصر الإفراد كسابقِه، فإنَّ من يشرك باللّه تعالى كان كمن يعتقد قيام الشّريك بالإحياء والإماتةِ، إشعارًا بأنَّ الذي يحيي ويميت هو الإله المعبود بحقٍّ، والمعنى هو وحده الذي يحيي ويميت، ويحتمل أن يكون من قصر القلب والمعنى هو الذي يحيي ويميت لا غيرُهُ.

بلاغة الإدماج في الآية:

لّما ذكر الحشرَ أعقبه بذكر الإحياء، فأدمج فيه الاستدلال على

إمكانِ البعثِ بالاستدلالِ على عمومِ التصرُّف في العالم بالإحياء والإماتة وتخالف أحوال الليل والنّهار وتعاقبهما[1].

سبب إيثار مجيء المسند اسمًا موصولًا:

إحياء الخلقِ وإماتتُهم من نعم الله تعالى

أوثر التّعبير بالاسم الموصول في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ للإشعار بأنَّ المخاطبين على علم بانتساب صلة الموصول إلى الله تعالى ولأنَّ الصّلة هي موطنُ العظةِ والاعتبار، كما أنَّ في مجيء الصلة تنبيهًا على تجدّد الإحياء والإماتة كما سيأتي، للإيذانِ بتعدّد نعمه تعالى والاستدلالِ على وحدانيَّته وتفرّده بالعبوديَّة.

سرُّ التعبير بالمضارع في قوله ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾:

الإحياء والإماتة عادة الله تعالى في خلقِه

صيغة المضارع لإفادة الاستمرار بتجدّد إحياء اللّه للنّاس بنفخ الرّوح فيهم وإماتتهم بعد إحيائِهم وقتًا فوقتًا، ففي صيغة المضارع في الفعلين إيذانٌ بتجدّد معنى الإحياء والإماتةِ وتعاقبهما منذ خلق اللّه الخلقَ إلى أن تقومَ السّاعةُ، فلم يقل: أحيا وأمات، كما قال ﴿أَنشَأَ لَكُمُ﴾ و﴿ذَرَأَكُمۡ﴾ بصيغة الماضي بل جاء على لفظ المضارع، ليدل على أنَّ الإحياء والإماتة عادتُه ﷻ في خلقِه[2].

توجيه المتشابه اللفظي:

مناسبة تقديم الإحياء على الإماتة أو عكسهما لما يقتضيه السياق والمقام

قُدِّمَ الإحياء على الإماتةِ هنا وفي جميع الآيات التي ورد فيها ذكر الحياة والموت إلّا في آيتين، إحداهما في قوله تعالى ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ٤٤﴾ [النجم: 44]، والثانية في قوله تعالى ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾ [الملك: 2]، وسبب تقديم الحياة على الموت هو سبقُ الحياةِ الموتَ، فلا يموتُ إلّا من سبقت له الحياةُ، ولأنَّ المنَّة بالحياةِ أظهر وأبينُ، وأمّا آية سورة النّجم فإنَّ المَقْصودَ هوَ العِبرَةُ بِالإماتَةِ لِأنَّها أوْضَحُ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 105.

(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 6/ 99.

عِبْرَةً ولِلرَّدِّ عليهِمْ في قَوْلِهِمْ: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: 24]، وأنَّ عَطْفَ ﴿وَأَحۡيَا ٤٤﴾ [النجم: 44] تَتْميمٌ واحْتِراسٌ كَما في قَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ [الملك: 2]، ولِذَلِكَ قَدَّمَ أماتَ عَلَى أحْيا مَعَ الرِّعايَةِ عَلَى الفاصِلَةِ[1]، وأمّا آية سورة تبارك فإنَّها تتكلَّم في الابتلاء والامتحان، ومعنى الابْتِلاءِ مُشْعِرٌ بِتَرَتُّبِ أثَرٍ لَهُ وهوَ الجَزاءُ عَلَى العَمَلِ فناسب ذكر الموتِ قبل الحياة لتنبيه الإنسانِ وتذكيره بالموتِ قبل استقبال الحياة، ليستقيم في حياته وينجح في ابتلائِه، ومن أسباب تقديم الموت على الحياة في آية سورة تبارك أنَّ الموتَ تَصَرُّفٌ في المَوْجودِ القادِرِ الَّذي مِنْ شَأْنِه أنْ يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِه ما يَكْرَهُهُ، والمَوْتُ مَكْروهٌ لِكُلِّ حَيّ، فكانَتِ الإماتَةُ مَظْهَرًا عَظيمًا مِنْ مَظاهِرِ القُدْرَةِ، لِأنَّ فيها تَجَلِّيَ وصْفِ القاهِرِ، فأمّا الإحْياءُ فهوَ مِنْ مَظاهِرِ وصْفِ القادِرِ ولَكِنْ مَعَ وصْفِهِ المُنْعِمِ، فمَعْنَى القُدْرَةِ في الإماتَةِ أظْهَرُ وأقْوَى لِأنَّ القَهْرَ ضَرْبٌ مِنَ القُدْرَةِ[2]، والآية في سياق بيان قدرة اللّٰه وعظيم سلطانه.

بديع المقابلة في قوله ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾:

في الإماتة دلالة على عظيم القدرة والقهر

لمّا ذكر الإحياء المناسب للحشرِ ناسبه ذكر الإماتة على سبيل طباق التَّضادِّ، للإيذانِ بكمال القدرة وتفرّده بالأمر، ولِأنَّ في الإماتةِ دَلالَةً عَلَى عَظيمِ القُدْرَةِ والقَهْرِ[3].

بلاغة حذف المفعول في قوله ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾:

الإحياء والإماتة بيد الله وحده

حُذِفَ المفعولُ لتنزيل الفعل منزلة اللازم وليس لإفادة العموم، فالقصدُ إثبات فعل الإحياء والإماتة للّٰه تعالى من غير تعرّضٍ لذكر المفعول وتخصيصهما به سبحانه، والمعنى من شأنه تعالى أن يحيي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 144.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 13.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 105.

ويميت أو لا يكون الإحياء والإماتة إلّا من اللّه تعالى، ومن أغراض الحذف الرّدُّ على من ينكر ذلك بوجهٍ من الوجوه[1].

مناسبة العطف بالواو:

اختلاف الليل والنّهار يومئ إلى سلطان الله تعالى الكامل

لَمّا كانَ مِنَ الإحْياءِ خَلْقُ الإيقاظِ ومِنَ الإماتَةِ خَلْقُ النَّوْمِ كَما قالَ تَعالَى﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزمر: 42] الآيَةَ عُطِفَ عَلَى ذَلِك أنَّ بِقُدْرَتِهِ اخْتِلافَ اللَّيْلِ والنَّهارِ فقال ﴿وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾، ففي تَصْرِيفِ اللَّيْلِ والنَّهارِ دَلالَةٌ عَلَى عَظيم قدرته سبحانه، وانفرادِه بالتَّصرُّف بالخلق، كما أنَّ في اختلاف الليل والنّهار نعمةً عظيمةً على الخلقِ، ووجه النّعمة بهما ظاهرٌ معلومٌ، وفي العطف كذلك انتقال من ذات الامتنان بالإحياء والإماتة إلى الاستدلال بأمر خارجيٍّ عنه، وهو العالم العلويُّ[2]، وفيه انتقال كذلك من بيان سلطانه سبحانه في الإحياء والإماتة إلى بيان سلطانه على كلِّ الوجودِ، لأنَّ اللَّيل والنّهار يجيئان من دوران الأرض حول الشَّمس أي من صلة الأرض بالسَّماء وطولهما وقصرهما يتبعان ذلك، فذكر اللَّيل والنَّهار يومئ إلى سلطان الله تعالى الكامل على السَّماء والأرض وما بينهما وعلى الوجود كله[3]، فناسب مجيء الجملة بالعطف لاشتراك الجملتين في الجهة الجامعة وفي مجيئهما خبريَّتين في اللَّفظ والمعنى.

دلالة اللام في قوله ﴿وَلَهُۥ﴾:

اللّام هنا للملك[4]، بمعنى أنّه تعالى هو المتصرّف في تدبير الخلقِ ومخالفة اللَّيل للنّهار وتعاقبهما، والقادر على ذلك قادر على غيره من الإحياء والإماتة والنَّشر والحساب.

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 154 - 155.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 213.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5105.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 106.

الاختلاف بمعنى الخلفة والمغايرة والتّفاوت، فيعم عموم معانيه

نكتة التّعبير بلفظ ﴿ٱخۡتِلَٰفُ﴾:

يحتمل أن يكون الاختلاف بمعنى الخِلفَةِ، أي مرور النّهار بعد الليل والليل بعد النّهار، بمعنى تعاقبهما بأن يجيء أحدهما عقب الآخر، كما يقال إذا أتى الرجل المكرام مرة بعد مرة هو يختلف إلى هذه الدّار[1]، ويحتمل أن يكون بمعنى المغايرة البيّنة، أي اختلافهما في الظلمة والنور، ويحتمل أن يكون بمعنى تخالفهما وتفاوتهما بالزيادة والنقصان، أي بانتقاص أحدهما وازدياد الآخر، ولا مانع من إرادة المعاني كلِّها، فيكون اللفظ على عموم معنى الاختلاف، أي هو تعالى الفاعل ذلك بهما لا غيرُه[2].

اختلاف الليل والنّهار مختصٌّ به تعالى، فله وحده التصرّفُ فيهما

بلاغة تقديم المسند على المسند إليه:

لمّا تقدَّم المسند على المسند إليه في قوله ﴿وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ أفاد ذلك الاختصاص، ولمّا كانت اللّام للملكِ كما تقدَّم أفاد أنَّ اختلاف الليل والنّهار مختصٌّ به تعالى وهو متولّيه، ولا يقدر على تصريفِهما غيرُه، فهو الملك الواحد الأحد في الخلق والتصرّف، كما قال تعالى ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: 54][3].

عطفُ النّهار على الليلِ دليلٌ على تلازمهما في الاختلاف

دلالة الإضافة والعطف:

الإضافة في قولِه ﴿ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ على معنى الملابسة، بمعنى ملابسة الاختلاف للّيل والنّهار، ولو كُرِّرَ المضاف، فقال: وله اختلاف الليل واختلاف النّهار، لما أفاد تخالفهما ولا تعاقبهما، ولكان اختلاف الليل ليس له علاقة بالنّهار، فلمّا عطف النّهار على الليل دلَّ على تلازمهما في الاختلاف على معنى التعاقب والتّباين

(1) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 1/ 90.

(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 11/ 56، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 153، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 144، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 93، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 477.

(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 199، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 93، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 211.

في الظلمة والنّور والتّفاوت في الزيادة والنّقصان، وكلُّ هذا بخلقِ اللّه تعالى وبأمرِه.

دلالة التّركيب بين الحقيقة والمجاز:

ليس شيءٌ من الكواكبِ له تأثير في اختلاف الليل والنّهار على الحقيقة

في قوله ﴿وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ يحتمل أن يكون الكلامُ على الحقيقة في التّعبير بلفظ الاختلاف، فيكون المراد اختصاص ما يظهر من اختلاف الليل والنّهار باللّه تعالى وحده، ويحتمل أن يكون على طريق المجاز المرسل بمعنى أنَّ له أسباب اختلاف الليل والنّهار من حركات الكواكب ودوران الأفلاكِ، فيكون من إطلاق المسبَّب وإرادِة السّبب[1]، ولا مانع من الجمع بين الحقيقة والمجاز، فيكون المعنى أعمَّ وأشملَ وهو الظّاهر من المقام الدّال على الامتنان والاستدلال على وحدانيَّة اللّه وأنَّه ليس من شيءٍ من الكواكبِ له تأثير في اختلاف الليل والنّهار على الحقيقة، وإن كانت النّسبة إلى الشّمس والكواكب في اختلافِهما على طريق المجاز صحيحةً[2].

بديع المقابلة في قوله ﴿ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾:

من بديع بلاغة القرآن مناسباتُ مقابلة الألفاظ في القرآن

جاء الطباق بين ﴿ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾، ومناسبته أنَّه لمّا ذكر الإحياء ناسبه ذكر النّهار، فالنَّهارُ يُناسِبُ الحَياةَ ولِذَلِكَ يُسَمَّى الهُبوبُ في النَّهارِ بَعۡثًا، ولمّا ذكر الإماتة ناسبه ذكر الليل، فاللَّيۡلُ يُناسِبُ المَوۡتَ، ولِذَلِكَ سَمَّى اللّهُ النَّوۡمَ وفاةً في قَوۡلِه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾ [الأنعام: 60][3].

سبب تقديم ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ على ﴿وَٱلنَّهَارِۚ﴾:

من عادة القرآن تقديم الليل على النّهار إذا اجتمعا بطريق العطف

قُدِّم ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ على ﴿وَٱلنَّهَارِۚ﴾ على ما هو عادة القرآن عند ذكر الليل والنّهار إذا اجتمعا بطريق عطف أحدهما على الآخر، والسّبب هو أنَّ الظّلمة أسبق وجودًا من الضّياء، إذ في الأزل لم يكن نهارٌ ولا

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 18.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 212.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 106.

ضياءٌ، فقُدِّم الأسبق في الوجودِ، ومنه كذلك تقديم الظّلمات على النّور، فهو على وزانِه.

دلالة أل في قولِه ﴿ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾:

(أل) في اللفظين جنسيَّة، بمعنى إرادة جنس الليل وجنس النّهار، وليس خصوص ليل معيّن أو نهارٍ معيَّن، فيجري فيهما معنى العموم، لشمل اللفظين كلَّ ليلٍ وكلَّ نهارٍ يجري في هذا الكونِ.

بلاغة الاستفهام المجازي:

الحـــثُّ على إعـمال العقل بالنّظر في نعم الـلـه ومظاهر الكون

الاستفهام في قوله ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ مجازيٌّ؛ لأنَّه على معنى الإنكار، لصدورِه عن اللّه تعالى ولدلالة المقامِ، والمعنى أنَّه تعالى ينكر عليهم عدم تفكّرهم في ما هو واقع تحت علمِهم وبصرِهم، ويلزم من الإنكار النّفي، والمعنى أنَّكم تعلمون أنَّ اللّه تعالى يحيي ويميت وأنَّ له اختلاف الليل والنّهار، فلا تتفكّرون تفكّر العقلاء، فتهتدوا وتستقيموا[1]، ويتولَّد عن الاستفهام الإنكاري معنى التّحذير والزّجرِ والتَّوبيخ والتّهديد من تركِ النّظر في نعم اللّه ومظاهر الكونِ[2]، كما يتولّد من الإنكارِ كذلك الحثُّ والتّرغيب في إعمال العقلِ، فإنَّ الإنكار على عدم إعمال العقل يفيد ضدَّه وهو التّرغيب في إعمالِه والإفادة منه.

فائدة الفاء في قولِه ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

مـن لـم ينتفع بـــالأدلَّـــة مع ظـــهـــورِهـــا ووضوحِها فهو بـمـنـزلـة غير العقلاء

الفاء للتّعقيب والتّرتيب، لتفيد تعقيب الإنكار على عدم تفكّرهم وتأمّلهم بعد ظهور نعم اللّه وآلائِه والدّلائل على وحدانيَّة اللّه تعالى، فيكون الاستفهام الإنكاري مفرّعًا على الأدلّة الأربعة التي تضمّنتها الآياتُ الثلاث، وهي إنشاء السّمع والأبصار والأفئدة والذّرء في الأرض والإحياء والإماتة واختلاف الليل والنّهار، للإيذانِ بأنَّ

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 17.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 289، والنيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 130.

المخاطبين لم يهتدوا بهذه الأدلَّة ولم ينتفعوا بها مع ظهورِها، فأنكر عليهم، وجُعلوا بمنزلة غير العقلاء[1].

نكتة التّعبير بلفظ ﴿تَعۡقِلُونَ﴾:

من لم ينتفع بعقلِه فلا عقلَ له

لّما كان أمر الإحياء والإماتة واختلاف الليل والنّهار في كونِها من نعم اللّه الظّاهرة، وكونها دليلًا على وحدانيَّته بيّنا واضحًا، وأنَّها لا تحتاج سوى النَّظر والتَّأمل، عبّر بلفظ ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ دون غيرِه إشعارًا بأنَّ ما ذُكِرَ من النّعم والآيات إنّما ينتفع بها من يتأمّل فيها ويعقلها، ولمّا نفى عنهم العقل أفادَ أنَّ العبرة في وجود العقل هو الانتفاع منه.

نكتة التّعبير بالمضارع ﴿تَعۡقِلُونَ﴾:

جحود الكافرين مع استمرار الأدلَّة والبراهين على توحيد الله تعالى

لّما كان الاستفهام على معنى الإنكار المفيد لنفي العقل عنهم وكان التّعبير بصيغة المضارع في قوله ﴿تَعۡقِلُونَ﴾؛ أفاد أنَّهم مستمرّون على عدم إعمالِ عقولهم وأنَّ الأمر يتجدّد حالًا فحالًا مع ظهور النّعم والأدلَّة واستمرارِها وتجدّدها وقتًا فوقتًا، فهم يرون هذه الأدلة والنِّعم ويشاهدونها في كلِّ وقت وفي كلِّ مكان بما يدل على وحدانيَّة اللّه تعالى، ومع ذلك كلّه لا ينتفعون ولا يتدبرون، فناسب التَّعبير بالمضارع لإفادة هذا المعنى.

دلالة حذف المفعول:

توبيخ الكافرين على عدم انتفاعِهم ممّا هو ظاهرٌ أمامَ أعينهم

حُذِفَ المفعولُ في قوله ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ لإفادة عموم المتعلَّق ممّا هو مناسب للسّياق والمقام، فلم ينزّل الفعل منزلة اللازم[2]، والتّقدير: (أفلا تعقلون أنَّ الكلَّ منّا، وأنَّ هذه النّعم دليلُ وحدانيَّة اللّه تعالى، وأنَّ اختلافَ الليل والنّهار دليل حدوثهما، وأنَّ لهما محدِثًا لا شريك له عالمًا قادرًا مريدًا، وأنَّهُ لا يَجوزُ أنْ يَكونَ لَهُ شَريكٌ مِنْ خَلْقِهِ، وأنَّهُ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 106.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 212.

قادِرٌ عَلَى البَعْثِ كما أنَّه قادرٌ على جميع الممكنات، والمراد أنَّكم لا تعقلون أيَّ شيءٍ ممّا هو ظاهرٌ أمامَ أعينكم ولا تتدبّرونه).

براعة التّذييل في جملة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾:

الإنكارُ على من لا يهتدي بالأدلَّة الظّاهرة بتنزيله منزلة المخاطب غير العاقل

هذه الجملة على معنى العموم، فتكون جملة تذييليَّةً للأدلَّة الأربعة المذكورة في الآياتِ الثلاث الأخيرة، فإنَّ حقَّ الخطاب أن يكون مع مخاطبٍ معيّن، لكنَّه قصد به هنا غير المعيَّن، ويدخل فيه المشركون المخاطبون وقت التّنزيل دخولًا أوّليًّا، وجاء بصيغة الخطاب مع أنَّه على معنى العموم قصدًا إلى دخولِ كلِّ مخاطبٍ لا ينتفع بالأدلَّة الظّاهرة ولاسيّما هذه الأدلَّة الأربعة، والمعنى: الإنكار على كلِّ إنسانٍ لا يهتدي بهذه الأدلّة بتنزيله منزلة المخاطب غير العاقل.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الموت والقتل:

القتل نَقْض للبِنْية الحيوانيَّة يتبعه إزهاق للروح، والموت فوت الحياة دون نقض للبنية

الفرق بينهما هو أنَّ القتل نَقْض للبِنْية الحيوانيَّة يتبعه إزهاق للروح، ولا يُقال لَهُ قتل في أكثر الحال إلّا إذا كانَ من فعل آدَميّ، وقال بعضهم القتل إماتة الحركة، ومنه يقال ناقةٌ مُقَتَّلَةٌ إذا كثر عليها الإتعاب حتى تموت حركتها، أمّا الموت فتخرج الروح أولاً دون نَقْض للبنية، فالمَوت ينافي الحياة مَعَ سَلامَة البنية ولا بُد في القَتْل من انْتِقاض البنية، والخلاصة أنَّه إذا اعْتبر بِفعل المُتَوَلي لذَلِك يُقال له قتل، وإذا اعْتبر بفوت الحَياة يُقال له موت[1].

---

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 104، والكفوي، الكليات، ص: 729.

﴿بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ٨١ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٨٢﴾ [المؤمنون: 81 - 82]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

لا شُبْهَةَ في إنْكارِ البَعْثِ إلّا التَّشَبُّثُ بعدم إعمال العقل

لمّا بيَّن اللّه تعالى أنَّهم منكرون للبعثِ وأنَّهم مقيمون على إنكارِهم مع ظهور الآيات والدّلائل بَيَّنَ سُبْحانَهُ أنَّهُ لا شُبْهَةَ لَهُمْ في إنْكارِ البَعْثِ إلّا التَّشَبُّثُ بِحَبْلِ التَّقْليدِ المَبْنيِّ عَلَى مُجَرَّدِ الاسْتِبْعادِ[1]. وأيضًا لَمّا أوْضَحَ اللّه ﷻ القولَ في دَلائِلِ التَّوْحيدِ عَقَّبَهُ بِذِكْرِ المَعادِ[2]، للإشعار بأنَّ الإيمان بالبعثِ من أصول الإيمان التي لا يجوز إنكارُها.

المَعْنى الإجْماليُّ:

السّابِقونَ واللّاحِقونَ مُنكِرونَ للبَعْث

يقولُ اللّهُ ﷻ: إنَّ الكُفّارَ يَستبعِدونَ وقوعَ البعثِ بعد صَيْرورتِهم إلى البِلَى، كما هو نَهْجُ مَنْ كانَ قبلَهم مِنَ المكذِّبين[3]، إذ كانوا يردِّدون هذه الشُّبهة الواهية وهي قولهم: كيف يُبْعَثُ الأموات بعد أن يصيروا عظامًا ورفاتًا وترابًا.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الفصل في الآية:

التّقليد والمتابعة من غير بصيرة سبب في اعتقاد الباطل

لمّا بيَّن اللّه تعالى أنَّ الكافرين لايعقلون وأنكر عليهم عدم إعمالِ عقولِهم في الآيات والأدلَّة الواضحة الباهرة جاءت الآية على طريق الفصل لتكون تأكيدًا للإنكار على عدم استعمال عقولِهم، وتقريرًا له بسبب تقليدِهم لمن سبقهم ومتابعتِهم لهم في إنكارِهم البعثَ، كما أنَّ مجيء ﴿بَلۡ﴾ في صدر الآية الدالَّة على الإضراب كما يأتي لا يناسبه سوى الفصل في الآية.

(1) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 585.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 289.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 238.

ظهور دلائل التّوحيد تستلزم الاعتبار والإنابة والخضوع لله رب العالمين

دلالة ﴿بَلۡ﴾:

بل للإضراب الإبطالي، إبْطالًا لِكَوْنِهِمْ يَعْقِلونَ وتقريرًا للاستفهام الإنكاري في قوله ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، ولمّا أبطل كونَهم يعقلون أفاد بلازمِه إثْباتَ إنكارِهم البعث، لأنَّه أنكرَ عليهم عدم إعمالِ عقولِهم لإنْكارِهِم البعثَ، أو يقال: إنَّه لمّا كان ذكر دلائل التّوحيد والنّعم الظّاهرة يقتضي الاعتبار والإنابة والخضوع، أضرب عن ذلك، ليفيد أنَّهم لم يفعلوا ذلك، والإضراب عنه يستلزم فعل نقيضه وهو إنكارهم البعث واستمرارهم على الكفرِ والشّرك باللّه تعالى[1].

حذف المعطوف عليه لاستغراق المعنى وعمومِه

دلالة الإضراب في ﴿بَلۡ﴾:

لمّا كان حرف الإضراب ﴿بَلۡ﴾ يقتضي مضربًا عنه كان الكلام من قبيل الإضراب على مضمرٍ يقتضيهِ المقامُ ويدلُّ عليه السّياق، ولمّا كانت ﴿بَلۡ﴾ تقتضي أن يكون المضرب عنه منفيًّا كان التّقدير: (فلم يعقلوا أو فلم يعتبروا أو فلم ينظروا في الآياتِ بل قالوا)[2]، فيكون حذف المضرب عنه لاستغراق المعاني المذكورة، ونكتة حذف المضرب عنه بيان أنَّ عادتَهم وحالَهم هو عدم الاعتبار وعدم النّظر في الآيات، فلا فائدة من التّصريح به مع العلم به من قرينة السّياق.

توبيخُ من يتّبع مـن سبقه من غير دليل سوى السّبق

مناسبة مجيء قوله ﴿قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾:

لمّا كانت ﴿بَلۡ﴾ التي للإبطال تفيد إبطال المعنى الذي قبلها والرَّدَّ عليه بما بعدها بيَّن السّببَ الذي بعثَهم على إنكار البعثِ وسبب نفي العقل عنهم، وهوَ تَقْليد الآباء ومتابعة الأوّلين من غيرِ هدىً، والمَعْنَى: أنَّهُمْ لا يَعْقِلونَ الأدِلَّةَ لَكِنَّهُمْ يَتَّبِعونَ أقْوالَ آبائِهِمْ[3]،

(1) ابن عجيبة، تفسير ابن عجيبة: 3/ 213.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 580، والعليمي، فتح الرحمن: 4/ 485، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 147.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 106.

وفيه توبيخٌ لمن يقول قولًا من غيرِ هدى، ولمن يتّبع من سبقه من غير دليل سوى السّبق.

بديع الإدماج في الآية:

ليس للكافرين حجة غير تقليد الأولين

لمّا كان السّياق في بيان إشراكِهم باللّه تعالى وذكر دلائل التّوحيد وتفرُّد اللّه تعالى بالعبودية أدمج في قولِه ﴿قَالُوٓاْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ أصلًا آخرَ من أصول الشّرك، وهو إنكارُ البعثِ بعدَ الموتِ وإحالته[1]، فأنكر عليهم في جملة واحدةٍ أمرين مع بيان سبب إنكارِهم البعث ونفي العقل عنهم كما تقدَّم.

بلاغة الكناية في الآية:

التّقليد في الباطل لا يكون عذرا عند الله تعالى

لمّا أخبر اللّه تعالى عن قولِهم الذي قالوه وعن تقليدِهم الأعمى لمن سبقهم مع وضوح الآيات والحجج أفاد بلازمه أنّهم لم يعتبروا بآياتِه ولم يتفكّروا فيها ولم يتدبّروا في الحجج الدّالَّةِ على قدرته على فعلِ كلِّ ما يشاء ولم يعقلوا الأدلّة مع وضوحِها ولم يشكروا النّعم الظّاهرة.

مناسبة الالتفات في الآية:

التّعجيب من تفاهة عقول الكافرين لإنكارِهم البعث وإحالته

لمّا كانت الآيات السّابقة على وجه خطاب الكافرين وجرت هذه الآية على وجه الغيبة في قولِه ﴿قَالُوٓاْ﴾ كان الكلام على طريق الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، ومناسبتُه هو أنّه في الخطاب كان على التّقريعِ والتّوبيخ والتّهديد، وهو المناسبُ لشدَّة التّخويف، فلمّا حكى ضلالاتِهم ناسبه مجيء الكلام على وجه الغيبة لما في الغيبة من معنى الإبعاد والغضب[2]، كما أنَّ في الالتفات تنبيهًا للسّامعين وليكونوا أكثرَ إيقاظًا وإصغاءً إلى بيان سببِ إشراكِهم باللّه وإنكارِهم البعثَ، ولمّا كان السّبب دالًّا على تفاهةِ عقولِهم اقتضى التّعجيب من قولِهم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 106.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 174، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 106.

دلالة الفعل ﴿قَالُواْ﴾:

القول هنا بمعنى اللفظ المطابق للاعتقاد

القَوْلُ هُنا يراد به اللَّفظ المطابق للاعتقاد، لِأَنَّ الأَصْلَ في الكَلام مُطابَقَةُ اعْتِقادِ قائِلِه، فالمَعْنَى: بَل اعتقدوا مِثْلَ ما اعتقدَ الأوَّلونَ[1]، أو يكون المراد أنَّهم لا يملكون شيئًا من الحجج في إنكار الدّلائل والبراهين غير الأقوال بأفواههم مع استيقان أنفسهم بالحقِّ المبين.

نكتة التّعبير بلفظ القول:

ترويج الباطل ونشره من رغبات الكافرين

نكتة التّعبير بالقول في ﴿قَالُواْ﴾ دون الظّنِّ أو الاعتقاد الإشعارُ بقبحِ فعلِهم وأنَّهم ماكانوا يكتفون باعتقادِهم الباطلِ بل كانوا يفصحون عنه ويتكلَّمون به، وأنَّهم كانوا يرغبون في ترويج باطلِهم ونشره من دون استحياء منهم، عنادًا وتكبُّرًا.

سبب إيثار التّعبير بالضّمير في قولِه ﴿قَالُواْ﴾:

عُبِّرَ بالضّمير دون الاسم الظّاهر للاستدلال به على بطلانِ قولِهم

جاء التّعبير بالضّمير دون الاسم الظّاهر ليكون الكلام على مقتضى الظّاهر، فيعود الضّمير في ﴿قَالُواْ﴾ إلى المخاطبين في الآيات السّابقة بما اتّصفوا به، أي بل قال الذين أشركوا ولم يشكروا وأنكروا البعث ولم يعقلوا، فيكون عود الضّمير دالًّا على سفاهةِ قولِهم وبطلانِه، أي إنَّ التّعبير بالضّمير تضمّن الدَّليل على بطلانِ قولِهم، وهذا من براعة التّعبير القرآنيِّ وبلاغتِه.

والضَّميرُ في ﴿قَالُواْ﴾ راجعٌ لِأهلِ مكَّةَ، ويدخل فيه مَنْ جَرَى مَجْراهُمْ في إنْكارِ البَعْثِ[2]، ليدلَّ على العمومِ، فيفيد الإنكار على كلِّ من يقول مثل هذا القول.

الكافرون سلكوا في التَّكذيب مسلكَ سلفهم، وأسرفوا في العناد مثل سرفِهم

نكتة التّعبير بالمثل:

عبّرَ بالمِثْلِ في قولِه ﴿قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾؛ لأنَّ الشّيءَ لا يكون

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 107.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 580.

مثل شيءٍ في الحَقيقَةِ إلّا إذا أشبهه من جَميع الوُجوه لذاته[1]، ليفيد أنَّ قولَهم مثلُ قولِ الأوّلين، فلم يخالفوه ولو في جزءٍ منه، إشعارًا بتشبّثِهم بقول الأوّلين بذاتِه وجميع أوصافِه أي في كيفيَّة القولِ وكميَّته وقدْرِه، ففيه تقريرٌ لإنكارِ إعمالِهم عقولَهم وتسفيهها حتَّى إنَّهم لم يغيّروا في قولهم أيَّ وصف من أوصاف قول الأوَّلين، والمعنى أنَّهم سلكوا في التَّكذيب مسلكَ سلفهم، وأسرفوا في العناد مثل سرفِهم[2].

بلاغة التّعبير بالموصول وصلته:

الـكـافـرون لم يأتوا بجديد في إنكار البعثِ

عبّر بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ المفيد للإبهام والعموم في قولِه ﴿مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّهم تابعوا أقوال الأوّلين كلَّها، ولمّا كانت صلة الموصول ﴿قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ معلومةَ الانتساب إلى مشارٍ إليه أفادَت أنَّ قولَ آبائِهم الأوّلين ومن دان بدينِهم من المشركين معلومٌ عند المخاطبين معروف بينهم، فلم يأتوا بأمرٍ جديد.

فائدة حذف العائد:

العائد في قوله ﴿مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ محذوف، والتقدير: (مثل ما قاله الأوَّلون)، ونكتة الحذف مناسبته للإبهام والعموم الذي في ﴿مَا﴾، مع ظهور معناه.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡأَوَّلُونَ﴾:

الإنكار على من لـم يستعمل عـقـلـه ويـقـلّـِد بغير بيِّنة

لم يقل: (مثل ما قال آباؤهم)، ليفيد اللفظُ العمومَ في الفاعل، بمعنى مثل ما قال آباؤهم ومن دان بدينِهم من الأوّلين، كما أنَّ في التّعبير بـ﴿ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ إشعارًا بأنَّهم كانوا يعتقدون امتناع مخالفتهم لكونِهم سابقين لهم على جهة أنَّهم الأوّلون، فهم لا يُخالَفون، كما أنَّ تعليق قولهم على قول الأولين يؤذن بتوبيخِهم على عدم استعمال عقولِهم ومصادرتِهم لها من أجل أن يقولوا مثل قولِ الأوّلين واعتقادِهم.

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 156.
(2) القشيري، لطائف الإشارات: 2/ 585.

مناسبة الفصل:

تواطؤ الكافرين وأسلافهم على إنكار البعث

جاءت هذه الآية ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا﴾ مفصولةً عن التي قبلها، وهي قوله تعالى ﴿قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ لأنَّ بين الجملتين كمالَ الاتّصال، فالجملة الثانية بدل بعضٍ أو بدل الكل من الكل أو عطف بيانٍ من الجملة الأولى لتفيد تفصيل الإجمال في المماثلةِ الوارد في الجملة الأولى، ومناسبة مجيء الجملة بدلًا هو أنَّه بالبدل والمبدل منه يحصل كمال الإيضاح والبيان للقولِ الذي قالوه مع بيان سبب قولِهم وتوبيخِهم على اتّباعِهم الأوّلين، كما أنَّه عبِّرَ بالبدل لأنَّ المقام يقتضي الاعتناء بشأنِ مضمون البدل وتفصيله، لنكتة تفظيع قولِهم وتعجيب المخاطب منه قصدًا لبيان غرابتِه وكونه أهلًا لأنْ ينكر إن ادُّعيَ نفيه، ويحتمل الفصل أن يكون على طريق الاستئناف البيانيِّ، فكأنَّ سائلًا سأل: وماذا قال الأوّلون فقال بيانًا له ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا﴾[(1)].

دلالة ضمير الجماعة في قوله ﴿قَالُوٓاْ﴾:

إن كان الضّمير في ﴿قَالُوٓاْ﴾ الثّاني عائِدًا إلَى ما عادَ إلَيْهِ ضَميرُ ﴿قَالُواْ﴾ الأوَّلُ كانت الجملة الثانية بدلًا من الجملة الأولى، وإن كان الضَّميرُ عائِدًا إلَى ﴿ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ كانت الجملة استئنافًا بيانيًّا، والمعنى واحد على الوجهين.

بلاغة الاستفهام المجازي:

الغرض من الاستفهام الإنكار المتولّد منه الاستبعاد

جاء الاستفهام في قولِه ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا﴾ على طريق المجاز، فالغرض منه إنكارُ البعث بعد الموتِ والكونِ ترابًا وعظامًا، ويتولَّد من الإنكار استبعاد البعثِ وإحالته، ولمّا كان الإضراب في ﴿بَلۡ﴾ متوجِّهًا إلى البدل والمبدل منه أفاد أنَّ من يقول هذا القول لا يعقل ولا يتدبَّر الآيات والحجج الباهرة.

---

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 267، والعصام الإسفراييني، الأطول: 2/ 20، والدُّسوقي، حاشية على شرح المختصر: 2/ 491، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 107.

من قلّة عقول الكافرين إيقانهم بالموت وإنكارُهم البعث بعده

فائدة التّعبير بالشّرط في قوله ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾:

عبّرَ بأداة الشّرط (إذا) للإيذانِ بأنَّ موتهم وكونهم ترابا وعظاما مقطوع به عندهم، فجاء على طريق الجزم بالوقوع كما هو الظّاهر، لأنّه ممّا لا ينكر ولا يشكُّ فيه، وأسلوب الشرط في قول الكافرين يدلُّ على إنكارهم للبعث مرةً أخرى؛ إذ أحالوا البعث في جواب الشرط مستدلّين على زعمهم الباطل بما ذكروه في جملة الشرط من فنائهم وصيرورتهم ترابا وعظاما.

دلالة صيغة الماضي في قوله ﴿مِتْنَا﴾ و﴿وَكُنَّا﴾:

جاء الفعلان ﴿مِتْنَا﴾ و﴿وَكُنَّا﴾ بصيغة الماضي على ما هو مقتضى الظّاهر، لإفادة (إذا) القطع بوقوع الشّرط، فناسب إيراد الفعل الماضي في الموضعين لكونِه مقطوعًا به في اعتقادِهم وفي الواقع.

محاولات الكافرين بائسة في الطّعن في حقائق القرآن

فائدة الجمع بين الموت والتّراب والعظام:

الجَمْعُ بَيْنَ ذِكْرِ المَوْتِ والكَوْنِ تُرابًا وعِظامًا لِأمرين؛ أحدهما قَصْدُ تَقْوِيَةِ الإنْكارِ بِتَفْظِيعِ إخْبارِ القُرْآنِ بِوُقوعِ البَعْثِ، أي الإحياء بعد ذلك التّلاشي القويِّ الذي يكون بعد الموتِ، قصدًا للطّعن في القرآن وتكذيب الرَّسول ﷺ[1]، والثاني قصد تقوية استبعاد البعثِ والحياة الأخرى يوم القيامة، وموجبُ الاسْتِبْعادِ عندهم هوَ حُصولُ أحْوالٍ تُنافي أنَّهُمْ مَبْعوثونَ بالهيكل الإنسانيّ بِحَسَبِ قُصورِ عُقولِهِمْ، وهيَ حالُ المَوْتِ المُنافي لِلْحَياةِ، وحالُ الكَوْنِ تُرابًا وعِظامًا المُنافي لِإقامَةِ الهَيْكَلِ الإنْسانيِّ بَعْدَ ذَلِكَ[2].

لو تأمّل الكافرون أنَّ أصلَهم من تراب لَمَا أنكروا البعث بعد كونِهم ترابًا

سرُّ تقديم التّراب على العظام:

قُدِّمَ ذكرُ التّراب على العظامِ التي يقصد بها العظام البالية المجرَّدة من اللحوم والأعصاب مع أنَّ الكون ترابًا يكون بعد الكون

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 107.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 53.

عظامًا؛ لأنَّه أدخل في التّكذيب بالبعثِ والحياة الأخرى، ولعراقتِه في الاستبعادِ وانقلابِه من الأجزاءِ الباديةِ؛ لبعد التّراب عن صلتِه بالحياة الدنيا التي هم عليها، وأمّا العظام فإنَّها وإن نُخرَت وتفتَّت فإنَّ فيها آثارًا ممّا كانت عليه قبل الموت، فبدأ بالأبعد فالأبعد، فكونهم ترابا أبعد من أن يبعثوا من كونِهم عظاما، كما أنَّ في ذكرِ التّراب تعجيبًا لإنكارِهم واستبعادِهم، للإشعارِ بأنَّهم لم يتأمّلوا أنَّهم كانوا قبل ذلك أيضًا ترابًا فخلقوا[1].

دلالة التّنكير في ﴿تُرَابًا وَعِظَامًا﴾:

الخالق من عدم قادر على البعث من عدم

أفاد التّنكير في ﴿تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ التّحقير المبرّر عندهم لإنكار البعثِ واستبعادِه، فكيف يكون البعث والإحياء مرة أخرى من أشياء حقيرة منافية لحقيقة الإنسان، فبين حقيقة الإنسان الجسديَّة والهيكليَّة من اللَّحم والدَّم والتَّكوين وبين التُّراب والعظام بون واسع، فلا يكون هذا من ذاك في زعمهم الكاذب.

توجيه المتشابه اللفظي:

ذكر التّراب والعظام في سياق إنكار البعثِ وذكر العظام والرّفات في سياق ذكر الموت

قال الله تعالى ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ٤٩﴾ [الإسراء: 49]، وقال في سورة المؤمنون ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، وقال ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ٥٣﴾ [الصافات: 53]، فما هو سبب ذكر الرّفات في آية الإسراء، والتّرابِ في آيتي المؤمنون والصافات وغيرِهما؟ والجواب: أنَّ التُّراب والعظام أدلُّ على البِلَى من العظامِ والرُّفاتِ، فالرّفاتُ هو ما تكسَّر وتفرَّق من العظام، فهو حطام العظم المتكسّر، وهو الحالة التي يكون عليها العظم قبل التّراب، فإذا بلِيَ الرّفات صار ترابًا، فبعثُ التّراب والعظام أشدُّ إنكارًا واستبعادًا عند الكافرين

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 93، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 134، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 170، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 9.

من بعث العظام والرّفات، وأمّا في آية سورة الإسراء فلم يأت في سياقها التّصريح بإنكارِهم البعث، ولم يذكر من قولهم في الإنكار سوى تين الآيتين، فلم يقولوا بعدها ولا قبلها شيئًا يتعلّق بإنكار البعث واستبعادِه، وأمّا إذا ذكر التّراب والعظام كما في آية المؤمنون فإنَّه يذكر من إنكارِهم واستبعادِهم البعثَ ما لم يذكره في العظام والرّفات، كما في قوله تعالى﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: 35 - 37]، ومثله في سورة الصافات ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الصافات: 51 - 53]، ويدلُّك على هذا أيضاً أنَّه حيث ذكر التراب والعظام أضافوا إلى ذلك ذكر الموت فيقولون: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ [الصافات: 53] وذلك للزيادة في العجب والاستبعاد، فالميت لا يحيا وإن كان حديث الموت، فكيف إذا أصبح ترابًا وعظامًا؟! ولم يذكر مثل ذلك مع العظام والرفات، فذكر الموت مع التراب والعظام فيه جانبان: جانب الزيادة في العجب والاستبعاد، وجانب الإفاضة والتوسع في دواعي الاستبعاد والإنكار، مما يدعو إلى الإفاضة في ذكر الإنكار والعجب، بخلاف ذكر العظام والرفات وعدم ذكر الموت فإنه أوجز في الكلام، وأوجز في ذكر العجب والاستبعاد، والخلاصة أنَّه لمّا صرِّحَ بالإنكار ذكر ما يناسبه وهو التّراب ولمّا لم يصرَّح بالإنكار ذكر ما يناسبه وهو الرّفات[1].

بلاغة الاستفهام المجازي وتكريره:

جحود الكافرين ليس مثله جحود

الاستفهام في قوله ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ مجازيٌّ كذلك، على معنى إنكار وقوعِ البعث واستبعادِه، فيكون تأكيدًا للأوّل واستبعادًا بعد

(1) فاضل السامرائي، أسئلة بيانية في القرآن الكريم: 1/ 117 - 118.

استبعادٍ، ونكتة تكريرِه النّصَّ على موضعِ إنكارِهم، للإيذانِ بأنَّهم مغرقون في إنكارِ البعثِ واستبعادِه.

سبب إيثار تتابع التّأكيد بـ(إنَّ) واللّام:

استفظاع الكافرين مايحكيه رسول الله ﷺ إيغال في التّكذيب

عبَّرَ بحرف التّوكيد (إنَّ) واللّام في قوله ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ المؤكّدة لأنَّ المقصود حكايةُ الكافرين لدعوى البعثِ التي يدّعيها الرّسول ﷺ بتحقيقٍ وتوكيدٍ، مع كونِها شديدةَ الاستحالةِ، للإشعار بأنّهم يستفظعون ما يدّعيه الرّسول ﷺ باعتبار أنَّه لا يمكن أن يقع، ففي حِكايَةِ تَوْكِيدِ مُدَّعيها زِيادَةٌ في تَفْظِيعِ الدَّعْوَى في وهْمِهِمْ[1]، فهم لا يكتفون باستحالة البعث بل يزيدون على الأمر تفظيع تأكيد الرّسول ﷺ دعوى البعثِ والإعادة إلى الحياة يوم القيامة.

توجيه المتشابه اللفظي:

مجيء كلِّ لفظ مناسبًا لسياقِه وسباقِه

قال الله تعالى﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾، وقال فيما بعد: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ٥٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ٥٣﴾ [الصافات: 51 - 53]، للسائل أن يسأل عن قوله أولاً: ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ وثانياً: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ٥٣﴾ [الصافات: 53] لم اختلفا مع أنَّ مرادهم في الموضوعين إنكار البعث بعد الموت؟ والجواب: أنَّ آيةَ سورة المؤمنون جاءت على الأصل في إنكارِهم البعث، فلم يتقدمها شيء يوجب عدولهم عن التعبير عن معتقداتهم في إنكار الإحياء بعد الموت فورد اللفظ على ما يطابق معتقدهم، فهو حكاية كلام الكافرين المنكرين للبعثِ، وأما آية الصّافات، ففيها قَول أحد الفَريقَيْن لصاحبه عِنْد وُقوع الحساب والجَزاء، وقد تمهَّد قبلها ذكر الجزاء الأخروي وذكر السؤال، في قوله ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤﴾ [الصافات: 24] وقوله تعالى بعد ﴿وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٩﴾ [الصافات: 39]، وقوله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 107.

عند سؤالِهم في الآخرة: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٧﴾ [الصافات: 27]، وقول الكافر عند مباشرة العذاب: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ﴾ [الصافات: 51 - 52]، فأخبر عنه سبحانه أنه كان يقول لقرينِه في دنياه: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾ [الصافات: 52 - 53] وفي طيِّ قولهم: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾ [الصافات: 53] إنكار للبعث لإنكارهم ما ينبني عليه ويترتب بعده من الجزاء، وقد تقدم ذكر الجزاء فناسبه ذكر تعجبهم منكرين وقوعه، ولم يكن ليحسن وقوع ﴿لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾ [الصافات: 53] في آية المؤمنون لأنَّه سيكون غير مفصح عن إنكار الكافرين البعث ولا ورد قبله ما يستدعيه، فجاء كلٌّ على ما يجب ويناسبه(1).

توجيه القراءات القرآنية وبلاغتها:

قَرَأَ ابْنُ عامِرٍ وأبو جَعْفَرٍ ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ بِهَمْزَةٍ واحِدَةٍ عَلَى صورَةِ الخَبَرِ، أي بِالإِخْبارِ في الأَوَّلِ والاِسْتِفْهامِ في الثّاني في قوله ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ فيُكتفى بالاستفهام في الجواب عن الشّرط، ويكون دالًّا عليه، وقَرَأَ نافِعٌ والكِسائيُّ ويَعْقوبُ بِالاِسْتِفْهامِ في الأَوَّلِ، والإِخْبارِ في الثّاني، ووُجودُ هَمْزَةِ الاِسْتِفْهامِ داخِلَةً عَلَى الشَّرْطِ كافٍ في إِفادَةِ الاِسْتِفْهامِ عَنْ جَوابِهِ، وقرأ ابنُ كثير وعاصم وأبو عمرو وحمزةُ بالاستفهام في الموضعين، أي في قوله ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ وقوله ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، ليكون الاستفهام في الجوابِ تأكيدًا للاستفهام في الشّرط(2).

۞ الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المِثْل والشَّبيه والنِّدّ والمساوي والشّكل:

المثل أعمُّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة والشِّبهُ يقال فيما يشارك في الكيفيّة فقط

الفرق بينها أنَّ الشَّيْء يُشبَّهُ بالشَّيْء من وجه واحِد لا يكون مثلَه

(1) الكرماني، أسرار التكرار، ص: 212، والغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 410.
(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 1/ 373.

في الحَقيقَة إلّا إذا أشبهه من جَميع الوُجوه لذاته، ويعرف معنى المِثلِ بمعرفة معنى ما يقاربُه وما يضادُّه، فالمِثْلُ أعمُّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة، والنّدّ يقال فيما يشارك في الجوهر فقط، والشّبه يقال فيما يشارك في الكيفيّة فقط، والمساوي يقال فيما يشارك في الكمّيّة فقط، والشّكل يقال فيما يشاركه في القدر والمساحة فقط، والمِثْلُ عامٌّ في جميع ذلك، ولهذا لمّا أراد الله تعالى نفي التّشبيه من كلّ وجه خصّ المثلَ بالذّكر فقال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: 11][1]، فالمثل: شيء يسدُّ مسدَّ غيره في الإدراك؛ حتّى لو شوهد لم يفرَّقْ بينه وبينه، كما لا يفرَّقُ بين سوادين يسدُّ كلٌّ واحد منهما مسدَّ الآخر في الرؤية، فلمّا قال ﴿قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ أفادَ أنَّ قول كفّار مكّة: مثل قول الأولين؛ في إنكار البعث بعد الموت بحيث لو سُمِعَ قولُ الأوّلين لم يفرّق بينه وبين قول كفّار قريش[2].

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 156، والراغب، المفردات: (مثل).

(2) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 1/ 91.

﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨٣﴾ [المؤمنون: 83]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا أنكر الكفّارُ البعثَ في الآية السابقة علَّلوا هذا الإنكار مقوّين له فقال تعالى حاكيًا عنهم ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، فالآية تكملةٌ لقولِهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَسَٰطِيرُ﴾: (سطر) أصلٌ مُطَّرِدٌ يدُلُّ على اصْطفافِ الشَّيء، كالكتابِ والشَّجَر، وكلِّ شيءٍ اصْطفَّ، فأمّا الأساطيرُ فكأنَّها أشياءُ كُتِبَتْ من الباطل فصارَ ذلك اسْمًا لها مخصوصًا بها، يُقالُ: سطَّرَ فلانٌ علينا تسطيرًا، إذا جاءَ بالأباطيل، وواحدُ الأساطيرِ إسطارٌ وأُسْطورة، قالَ تعالى: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا﴾ [الفرقان: 5][1]، وقولُه تعالى: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: أباطيلُهم وتُرَّهاتُهم وكَذِبُهم[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

اقْتفاءُ الأبناءِ عقيدةَ الآباءِ في إنكارِ البَعْث

يُخبِرُ اللهُ ﷻ أنَّ إنكارَ الكُفّارِ للبعثِ بعد الموتِ إنكارٌ مُؤكَّد، فقد نَفَوْهُ نفيًا مُحتَّمًا بقولِهم: إنَّ ما وُعِدْنا به نحنُ وآباؤنا من قبلُ على ألْسنَةِ مَنْ آتاهُم من الرُّسُلِ من البعثِ كَذِبٌ لا حقيقةَ له، ووعدٌ مُحال[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

حرص الكافرين على تقديم أوهامِهم للاستدلال على تكذيبِهم وعنادِهم

مناسبة الفصل في الآية:

لمّا أنكرَ الكافرون البعثَ واستبعدوا على طريق الإحالة أن يبعثوا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (سطر).
(2) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 673.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 238، والبقاعي، نظم الدُّرر: 13/ 175.

بعد الموت والكون ترابًا وعظامًا استدلّوا على ما توهّموه بهذه الآية، فجاءت الآية على طريق الفصل تكملة لقولِهم على طريق التّعليل وتقوية الإنكار والاستبعاد، فجملة ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ﴾ توضّحُ ما قبلها على جهة البيانِ بالتّعليل، ففيه تقرير لقولِهم وتأكيدٌ له من حيث المعنى، فلمّا كان بين الجملتين كمال الاتّصال جاءت الآية بالفصل لا بالوصل.

فائدة تتابع التّوكيد في قوله ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا﴾:

الـكـافـرون يؤكّدون قولَهم على سبيل المعاندة وإيغالًا في التّكذيب

لمّا كان الكفّار يريدون إبطال دعوى الرّسول ﷺ في وقوع البعثِ، وكان مُسْتَنَدُ تَكْذيبِهِمْ بِالبَعْثِ أَنَّهُ تَكَرَّرَ الوَعْدُ بِهِ في أَزْمانٍ مُتَعَدِّدَةٍ فلَمْ يَقَعْ ولَمْ يُبْعَثْ واحِدٌ مِنْ آبائِهِمْ؛ جاء الكلام مؤكَّدًا بتوكيدين: اللّام الواقعة في جواب القسم المحذوف و(قد)، ليفيد الحرفان تحقيق قولِهم وتأكيدَه المقتضي تأكيد إنكار البعث واستحالة وقوعه، فالتّوكيد لتقوية مستندِهم وتحقيقِه.

نكتة التّعبير بالوعد في قوله ﴿وُعِدۡنَا﴾:

وعدُ الرّسلِ بالبعثِ تعلّق بزمانٍ بعد موت النّاس جميعًا، وليس بزمنٍ معيَّنٍ في الدّنيا

عبّرَ بالوعد للإيذانِ بأنَّ الرّسل قد وعدوهم بالموعود المذكور وهو البعث بعد الموتِ على أنَّه منجزٌ في وقتِه، والأصلُ في الوعد أن يكون صدقًا، فلمّا أراد الكفّار تكذيبَ الرّسل ﷺ كذّبوا فيما تعلَّق به الوعد، وهوَ المَوْعود الذي هو الإخبارُ عن وقوع البعثِ بعدَ الموت، بمعنى لقد وُعِدنا البعثَ وقد أُخلِفَ الوعدُ ولم يقعْ، فدلَّ على كذب ما وعدتُّم به، وقد خابوا فيما زعموا؛ إذ إنَّ وعدَ الرّسلِ بالبعثِ تعلّق بزمانٍ بعد موتِ النّاس جميعًا، ولم يذكروا أنَّه يقع في زمانِهم أو زمانِ ذرّيّاتِهم أي في دار الدّنيا، وقد توهّم الكفّارُ جهلًا وتكذيبًا أنَّه يكون في زمنٍ معيَّنٍ في الدّنيا.

دلالة بناء الفعل ﴿وُعِدۡنَا﴾ للمفعول:

حُذِفَ الفاعل وأقيم المفعول مقامه، للإشعار بأنَّهم أي الكافرين

غير ناظرين إلى من وعدهم ولا يصدّقونه ولا يهتمّون لأمره ولا يقيمون له وزنًا، كما يشير إلى تعدّد من وعد بالبعث وهم رسل اللّه تعالى الذين تعاقبوا على الدّعوة إلى الإيمان بالبعثِ إمعانًا من الكفّار في تكذيبِ جميع الرّسل والاستكبار عليهم، فحذف الفاعل من باب تحقيرِه عندهم - قبَّحهم اللّه - ومن باب طيِّ المجموع إشعارًا بكثرة من وعد بالبعثِ.

تنوّع المعاني والأغراض في حذف الفاعل

فائدة ﴿نَحۡنُ﴾:

الضّمير ﴿نَحۡنُ﴾ وإن كان ذكره واجبًا على قانون النّحو لعطف الاسم الظّاهر على الضّمير المتّصل (نا) في ﴿وُعِدۡنَا﴾ لكنَّه يفيد كذلك تأكيد الضّمير، للإشعار بتكبّرهم وأنَّهم هم الشاهدون على عدم تحقّق الوعد بالبعث بعد المماتِ كما كان آباؤهم شاهدين عليه.

تكبّر الكافرين على الإيمان بالبعثِ

مناسبة ذكر الآباء في قوله ﴿نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا﴾:

وَجْهُ ذِكْرِ الآباءِ دَفْعُ ما عَسَى أنْ يَقولَ لَهُمْ قائِلٌ: إنَّكُمْ تُبْعَثونَ قَبْلَ أنْ تَصيروا تُرابًا وعِظامًا، فأعَدّوا الجَوابَ بأنَّ الوَعْدَ بالبَعْثِ لَمْ يَكُنْ مُقْتَصِرًا عليهِمْ فيَقَعوا في شَكٍّ باحْتِمالِ وُقوعِهِ بِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ وقَبْلَ فناءِ أجْسامِهِمْ، بَلْ ذَلِكَ وعْدٌ قَديمٌ وُعِدَ بِهِ آباؤُهُمُ الأوَّلونَ وقَدْ مَضَتْ أزْمانٌ وشوهِدَتْ رفاتهم في أجدائهم وما بُعِثَ أحَدٌ مِنْهُمْ[1]، والمراد وعد آبائهم على ألسنة من أتاهم من الرُّسل، غير أنَّ الإخبار بشموله جعله وعداً للكل على حدٍّ سواء[2].

عناد الكافرين واستمرارهم على طريقة آبائهم الأقدمين

دلالة لفظ ﴿وَءَابَآؤُنَا﴾ بين الحقيقة والمجاز:

إنْ كانت هذه المقالة من كلامِ العربِ من كفّار قريش كما هو الظّاهر فمرادُهُم مَنْ سَلَفَ مِن عادٍ وثَمودَ ومَن يرجعونَ إليهم مِنَ الكفّارِ، جعلوهم آباءً من حيث النوعُ واحدٌ، وكونُهم سلفاً لهم،

تقديمُ أيِّ قولٍ على قول الرّسول ﷺ قبيحٌ مذمومٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 108.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 175.

ويكون اللَّفظ على المجاز في تسميتِهم آباء أو يكون من باب التّغليب، للإشعارِ بإمعانِهم في متابعتِهم حتَّى صاروا ينسبون إليهم، وإنْ حُكيَ الكلامُ ذلك عن الأوَّلينَ من الكفّار وقصدوا آباءَهم في النّسب، فالأمر مستقيم فيهم، ويكون اللفظ على الحقيقةِ[1]، وعلى الوجهين ففيه إشعارٌ باعتزازِهم بالكفرِ وتشبُّثِهم به وأنَّهم يقدِّمون قولَ الآباء على قولِ الرّسل، ولمّا جاء الكلام على طريق ذمِّ الكافرين في مقولتِهم هذه أفاد أنَّ تقديم أيِّ قولٍ على قولِ الرّسول ﷺ قبيح مذمومٌ وإن كان قولَ الآباء أو المقرَّبين.

دلالة اسم الإشارةِ في قوله ﴿هَٰذَا﴾:

الإشارة في قولِه ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾ إلى ما تقدَّمَ في قَوْلِهِم ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي هذا المذكور من الكلام، وكذلك اسم الإشارة الثّاني في قولِه ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[2].

توجيه التّعلُّق النّحوي لقولِه ﴿مِن قَبْلُ﴾:

المـكـذّب رسـول الله ﷺ مكذّب لجميع الرّسل عليهم السلام

الظّاهر أنَّ الجار والمجرور متعلق بالفعل﴿وُعِدْنَا﴾ من حيث إسناده إلى المعطوف عليه والمعطوف جميعًا، وصح ذلك بالنِّسبة إليهم؛ للإيذانِ بأنَّ ما وعدهم به رسول اللّٰه محمَّدٌ ﷺ هو عين ما وعد به الأنبياء من قبلُ، بمعنى أنَّ الأنبياء المخبرين بالبعث كانوا يخبرون به بالنسبة إلى جميع من يموت كما أخبر به رسول اللّٰه ﷺ، ففيه إشارة إلى أنَّهم مكذّبون رسول اللّٰه ﷺ والأنبياء من قبلُ، ويجوز أن يكون ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلقا بالفعلِ ﴿وُعِدْنَا﴾ من حيث إسناده إلى آبائهم لا إليهم، والتّقدير: (لقد وعدنا نحن ووعد آباؤنا من قبل)، كما يحتمل أن يكون الجار والمجرور متعلِّقًا بمحذوف وقع حالا

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 153، والثعالبي، الجواهر الحسان: 4/ 159.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 108.

من آبائنا، والتَّقدير: (لقد وعدنا نحن وآباؤنا كائنين من قبل)، أي حالَ كونِ آبائِنا كائنين من قبل[1]، وعلى جميع الوجوه في بيان تعلُّق الجارِّ والمجرور، فإنَّ مجيء ﴿مِن قَبۡلُ﴾ زيادةٌ في الاستبعاد، أي: إنَّه قد مرت الدهور على هذا الوعد، ولم يقع منه شيء، فذلك دليل على أنَّه لا حقيقة له ولاصدقَ في الوعدِ[2].

فائدة حذف المضاف في قوله ﴿قَبۡلُ﴾:

لمّا كان لفظ ﴿قَبۡلُ﴾ من الظّروف التي تُبنى على الضّمِّ إذا حذف المضاف إليه ونوي معناه دون لفظِه، كان حذف المضاف إليه هنا على معنى العموم، ليشمل كلَّ لفظ يدلُّ على معنى القبليَّة المقصودة، والمعنى من قبلِ مَجيءِ مُحَمَّدٍ ﷺ ومن قبل نزولِ القرآن ومن قبل وعد محمّد ﷺ بالبعثِ، وغيرِه ممّا يجري في هذا المعنى، ففيه إمعانٌ في تكذيبِهم.

إصرار الكافرين على الجحود ليس له حدود

بلاغة الاستئناف البياني:

جملة ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ تكملة لقولِهم ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ﴾، وهي مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا لبيان السّبب الخاصِّ، فجاءت هذه الجملة لجوابِ سؤالٍ يثيره قولهم ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ﴾ بأن يسأل سائلٌ: فكيف تمالأ عددٌ من الدّعاةِ على دعوى البعثِ بعدَ المماتِ في عصورٍ مختلفةٍ وأزمانٍ متباعدةٍ مع تحقّقهم عدم وقوعه؟، فأجابوا بأنَّ هذه الدّعوى تلقَّفوها عن بعض الأوّلين الذين يكتبون الأحاديث المكذوبة فتناقلوها[3]، وفيه بيان لأساليب المكذّبين المخادعين.

اتّهام الدعاة إلى الحقِّ بأنواع التّهم عنادًا وتكذيبًا لهم

بلاغة القصر بالنّفي وإلّا:

لمّا كان القصر بالنّفي والاستثناء يُسلَكُ مع مخاطبٍ يعتقد فيه

جميع الرُّسل كانوا يؤكّدون الوعدَ بالبعثِ ويكرّرونه لأهميَّتِه في الإيمانِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 147، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 257.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 206.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 106.

المتكلِّم أنَّه مخطئٌ وهو يصرُّ على خطئِه، أفاد القصر في قوله ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أنَّ الكافرين سلكوا هذا الطّريق في الكلام للإيذانِ بأنَّهم كانوا يعتقدون أنَّ الرّسل مرتكبون للخطإ حينَ وعدوا بالبعث بعد الممات، وفي القصر بالنّفي والاستثناء إيذانٌ بأنَّ الرّسول ﷺ والرّسل عليهم السلام من قبله كانوا يؤكّدون الوعدَ بالبعثِ ويكرّرونه لأهميَّتِه في الإيمانِ، فأقامهم الكفّار مقام المصرِّ على خطئه تقريرًا لإنكارِهم وتكذيبهم، والمعنى ما هذا الوعد الذي وعده الرّسول ﷺ والرُّسل من قبلِه إلّا أساطيرُ الأوائل من الأحاديث الأكاذيب التي تكتب ويتلهَّى بها، فلا صحَّة لها ولا حقيقة[1].

نوع القصر وفائدتُهُ:

استهزاء الكافرين بالبعثِ بعد الموت لتقريرِ كفرهم وتكذيبهم وعنادِهم

القصر في قوله ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ من القصر الإضافي، ليفيد المبالغة في وصف ما وعد به الرَّسول ﷺ والرّسل عليهم السلام بأنَّه أساطير الأوّلين، فكأنَّه ليس هناك أساطير سوى الوعد بالبعثِ استهزاءً بالوعدِ وتكذيبًا له ومبالغةً في إنكارِه وعنادًا منهم، أي لا يَعْدو كونُ الإخبار بالبعثِ مِنَ الأساطيرِ إلَى كَونِهِ واقِعًا كَما زَعَمَ المُدَّعونَ[2].

بلاغة الكناية في قولِه ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

لمّا ادّعى الكفّار أنَّ قولَ الرّسل ما هو إلّا أساطير الأوّلين أفادَ بلازمِه أنَّهم صادقون بإنكارِهم البعثَ، ففيه إشعارٌ بنفي التّكذيب عنهم وأنَّهم لا يقولون إلّا حقًّا، تمويهًا لباطلِهم وكفرِهم

بلاغة العدول عن مقتضى الظّاهر:

تنوّع أساليب الكافرين في إنكار البعث بين التّكذيب والاستهزاء وتحقير القول به

كان الظّاهر أنْ يقال إن هو إلّا أساطير الأوّلين بعود الضّمير على الاسم الظّاهر وهو اسم الإشارة ﴿هَٰذَآ﴾ في قوله ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 63.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 108.

﴿وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾، فلمّا أعاد اسم الإشارة في قوله ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ جاء الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر، ونكتته تمييز الإخبار عن البعثِ بأنَّه أساطير الأوّلين أكمل تمييز له وتعيين، إمعانًا في التّكذيب وتَشهيرًا بِخَطَئِهِ في زعمِهم[1]، كما أنَّ في التّعبير باسم الإشارة الذي للقريب تحقيرًا من الكافرين للوعدِ بالبعثِ واسترذالًا له، ولهذا أخبروا عنه بأنَّه أساطير الأوّلين، ويلزم منه تحقيرهم المؤمنين به واسترذالهم، ففيه بيان لشدّة كفر الكافرين وهول تكذيبِهم.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿أَسَٰطِيرُ﴾:

دفـع الكـافرين لحجـج الـرّسـل البالغة التي لا يمكن إنكارها

أساطير جمع أسطورة كأحدوثة وأعجوبة وإلى هذا ذهب كثير من اللغويين، وذهب بعضهم إلى أنَّه جمع أسطار جمع سطر كفرس وأفراس فيكون من جمع الجمعِ، والأول كما قال الزمخشري أوفق لأنَّ جمع المفرد أولى وأقيس من جمع الجمع، ولأنَّ بنية أفعولة تجيء لما فيه التلهّي، مثل أعجوبة وأضحوكة مفرد أعجايب وأضاحيك، ونكتةُ التّعبير بلفظ ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ هو أنَّه لمّا كان ما يقوله الرّسول ﷺ وما قاله الرّسل من قبل في الإخبار عن البعثِ بعد الموت مقترنًا بالحجّة البالغةِ التي لا يمكن إنكارها، فهو إخبارٌ عن أمرٍ واقعٍ لا محالةَ عبّر بالأساطير لأنَّ الأسطورةَ هي الخبرُ الكاذبُ الذي يُكسَى صفة الواقعِ مثل الخرافاتِ والرِّواياتِ الوهميَّة لقصدِ التَّلهّي بها، لدفعِ حجّة الرّسل، فكأنَّه قيل: إن هو إلّا أحاديثُ كاذبة لا طائلَ تحتها فهي ممّا يتلهَّى بها في المجالس من الأسمار والأقاصيص[2].

دلالة الإضافة في قوله ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾:

الإضافة هنا على معنى الاختصاص، بمعنى أنَّ الأساطير التي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 108.

(2) الزمخشري، الكشاف، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 93، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 147، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 108.

هي المكتوبات التي ليس فيها إلّا كذبٌ وافتراء والتي يقصد بها التّلهّي في المسامرات مختصَّةٌ بما كتبه الأوّلون.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

عبِّرَ بلفظ ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ في قوله ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ للإيذانِ بأنَّها كذب واختلاق وإن رغب السّامعون بسماعِها لنقلِها عن الأوّلين، الذين مضوا وماتوا وفنوا ولم يتحقّق شيء من هذا الوعد.

توجيه المتشابه اللفظي:

قَوْله هنا ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ﴾ وفي النَّمْل ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ﴾ [النّمل: 68] فقرن الضّمير المنفصل بالضّمير المتّصل وأخّر اسم الإشارة في سورة المؤمنون وقدَّم اسم الإشارة في سورة النّمل على الضّمير المنفصل؛ لِأَنَّ ما في هَذِه السّورَة على القياس فإن الضَّمير المَرْفوع المُتَّصِل لا يجوز العَطف عليهِ حَتَّى يُؤَكد بالمنفصل فأكّد ﴿وُعِدۡنَا نَحۡنُ﴾ ثمَّ عطف عليهِ ﴿وَءَابَآؤُنَا﴾ ثمَّ ذكر المَفْعول وهوَ ﴿هَٰذَا﴾ وقدم في النَّمْل المَفْعول موافقَة لقَوْله ﴿تُرَٰبًا﴾ [النمل: 67] لِأَن القياس فيهِ أَيْضا (كُنّا نَحن وآباؤنا تُرابا) فقدّم تُرابًا ليسدّ مسدّ نَحن فكانا لفقين[1].

وأيضا: لمّا كان محطُّ العناية في هذه السورة الخلق والإيجاد، والتّهديد لأهل العناد، حكى عنهم أنَّهم قالوا: ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا﴾ مقدماً قولهم: ﴿نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ على قولهم: ﴿هَٰذَا﴾ أي البعث ﴿مِن قَبۡلُ﴾ بخلاف النمل، فإنّ محطّ العناية فيها الإيمان بالآخرة فلذلك قدّم قوله ﴿هَٰذَا﴾[2].

وأيضًا لمّا تقدَّمَ التَّعريفُ في آية المؤمنون أنَّ آباءَهم قد جاءتهم الرُّسلُ، وأُنْذِروا كما أُنْذِرَ هؤلاء؛ قُدِّمَ لفظ الآباء على اسم الإشارةِ فقالوا ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، ولمّا لم يَتقدَّمْ في آيةِ النَّملِ ذِكْرُ إنذارِ آبائِهم، كان أهمُّ شَيءٍ ذِكْرَ الموعودِ به الَّذي هو ﴿هَٰذَا﴾ [النمل: 68]، فقالوا: ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا﴾ [النمل: 68][3]، والوجوه لا تتقاطع، ويقوّي بعضها بعضًا.

---

(1) الكرماني، أسرار التكرار، ص: 184.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 175.
(3) ملاك التأويل، الغرناطي: 2/ 369، 370.

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٨٥﴾ [المؤمنون: 84 - 85]

۞ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

من دلائل النّبوّة وأعلامِ الرّسالةِ الإخبار عن جواب الكافرين قبل جوابِهم

لمّا أنكر الكفّار البعث بعد الموتِ وجعلوا طول وقت البعثِ حجَّةً في شكِّهم وارتيابهم، فقالوا ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ احتجَّ اللّه تعالى عليهم في جواز البعثِ ووقوعِه بما أقرّوا به من ابتداء الخلق فجاء قوله تعالى ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ولمّا كانوا مقرّين بذلك لظهورِه ووضوحِه أخبرَ عن جوابِهم قبل جوابِهم ليكون من دلائل النّبوّة وأعلامِ الرّسالةِ بقولِه مستأنفًا ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

وأيضًا لمّا أنكروا البعثَ هذا الإنكار المؤكَّدَ، ونفَوه هذا النَّفيَ المحتَّم، أمره أنْ يقرِّرَهم بأشياءَ هم بها مقرِّون، ولها عارفون، يلزمُهم من تسليمِها الإقرارُ بالبعثِ قطعاً، فقال تعالى ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

اعْترافُهم بخلْقِ اللهِ لعجائبِ المخلوقات، مُلزِمٌ لعدمِ إنكارِهمُ البَعْث

جاءَ الجوابُ من اللهِ لإنكارِهمُ البَعْث: قلْ لهم يا محمَّدُ ﷺ مجيبًا لإنكارِهمُ البعثَ مُلْزِمًا لهم: لَمَن الأرضُ على سَعَتِها وكَثْرةِ عجائبِها، ومَنْ فيها من المخلوقاتِ على كثرَتِهم واخْتلافِهم، إنْ كنتُم بما هو كالجِبِلَّة لكم أهلاً للعلم؟!

فَسيُجيبونَ جوابَ المُقرّين بذلك: ذلك كلُّه للّهِ المختصّ بصفاتِ الكمال، فإذا كان ذلك جوابُكم؛ أفلا تذكَّرونَ بذلك المركوزِ في

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 2/ 585.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 175.

طباعِكم، المقطوعِ به عندكم، ما غَفَلتُم عنه من تمامِ قدرتِه تعالى وباهرِ عظمتِه، فتُصدِّقوا ما أخبرَ به سبحانه من البعثِ الَّذي هو دون ذلك، وتعلموا أنَّه لا يَصلُحُ شيءٌ منها - وهو ملكُه - أن يكونَ شريكًا له ﷻ؛ وتعلموا أنَّه لا يَصحُّ في الحكمةِ أصلًا أنْ يتركَ البعث؛ لأنَّ أقلَّكم لا يَرْضى بتركِ حسابِ عبيدِه والعدلِ بينَهم؟!(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

وجه الاستدلال في الآية على البعثِ بعد الممات:

من كـانَ مالكًا لــلأرضِ ولـمن فيها، وخالِقًا لـهم وجـبَ أن يكون قادرًا على بعثهم

وجهُ الاستِدلالِ بِهِ على الإعادَةِ أنَّهُ تَعالَى لَمّا كان مالكًا للأرضِ ولمن فيها، وخالِقًا لهم ولِحياتِهم وقدرتِهم وغيرِها وجبَ أن يكون قادرًا على أن يعيدهم بعدَ إفنائِهم، كما أنَّ في الآية استدلالًا على نفي عبادةِ غيرِ اللّه تعالى من حيثُ إنَّ عبادةَ من خلقَكم وخلقَ الأرضَ وكلَّ ما فيها من عجائبِ الخلقِ وما فيها من النّعم هي الواجبةُ دون عبادةِ من لايملك شيئًا ولايضرُّ ولا ينفعُ(2).

مناسبة الفصل في الآية:

كـلُّ حـجّـة من حـجـج الـقـرآن عــلى الـبـعـثِ تصلح أن تكون دليلًا على حدةٍ

لَمّا جاءت الآيةُ على طريقِ التّقاولِ لإثباتِ الحجَّة وقطع الأعذار كانت الجملة مستأنفةً كما تُحكى الجمل التي تكون على طريق المقاولة، فناسب أن تكون على طريق الفصل من غيرِ عطفٍ، والسِّرُّ في ذلك أنَّ العاطف ينتظم الجمل حتى يصيِّرَها كالجملة الواحدة، فاجْتُنِبَ لإرادة استقلال كلٍّ واحدة منها في معناها(3).

سبب مجيء هذه الآية والتي بعدها بطريق التّدريج في التّقرير والإذعان:

إنـكـار الأدلَّـــة الواضحة جهلٌ وعناد

لَمّا كان الكلام على بيانِ الأدلَّة على البعثِ بعد الممات ذكر الأدلَّة الواضحة البيّنة على ذلك ليقرّوا ويذعنوا، بحيث لايمكن

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 13/ 177.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 290.

(3) ابن المنير، الانتصاف (حاشية على الكشاف): 2/ 116.

إنكارها، ولو أنكروا ذلك لظهر جهلهم عند كلِّ الخلائق ولتبيَّن أنَّهم معاندون[1].

نكتة التّعبير بلفظ ﴿قُل﴾:

تقرير القرآن صحَّة محاجَّة الكافرين والطّاغين وإقامة الحجَّة عليهم

يفيد الطّلب بفعل الأمر ﴿قُل﴾ الامتثال بإظهار القولِ من غير تردُّدٍ إشعارًا بأنَّ المسؤول عنه واضحٌ جليٌّ والإقرارَ به ظاهرٌ، وفي هذه الآيات المبدوءَةِ بـ﴿قُل﴾ دلالة على صحَّةِ سلوكِ محاجَّة الكفار والمبطلين وإقامة الحجة عليهم، وإظهارِ الباطل من قولهم ومذهبهم، ووجوب النظر في الحجج على من خالف دين اللّه[2].

سبب حذف المقول له:

دعوة جميع النّاس للإقرار بأنَّ الأرض ومن فيها لله تعالى لأنَّه ممّا لا يمكن إنكارُه

حُذِفَ المقول له في قوله ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ﴾ ولم يعيَّن؛ لإفادة العموم، بمعنى قل لكلِّ من يصلح السُّؤالُ له إيذانًا بأنَّ الإقرار بأنَّ الأرض ومن فيها للّه تعالى ممّا لا يمكن إنكارُه، ويدخل في العموم المخاطبون من الكفّار دخولًا أوّليًّا لكونه معلوما من السياق، ولدلالة حال ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ عليه[3].

دلالة اللّام واسم الاستفهام في قوله ﴿لِّمَنِ﴾:

ملكوت السماوات والأرض لله لا ينكره منصف

اللام للملك، بمعنى لمن ملك الأرض ومن فيها من الخلق[4]، واسم الاستفهام (من) يفيد العموم، بمعنى أنَّ السؤال بـ (مَنْ) يفيد الاستغراقَ على البدل لجميع من له علمٌ، فلمّا جاء الجواب بقوله تعالى ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ أفاد أنَّ اسمَ الاستفهام منطبق في معناه على الاسم الجليل (اللّه)، بمعنى أنَّ السؤال بـ(مَنْ) وإن كان على معنى العموم لكنَّه لا يحتمل سوى أن يقصَدَ به اللّهُ الواحد الأحد من أوّل السّؤال، لأجل أنَّ الإقرارَ به واضح بيّن لا يحتاج إلى تفكير.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 488.
(2) مكي، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 7/ 4995.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 213.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 63.

بلاغة الاستفهام المجازي:

الـغـرض مـن الاسـتـفـهـام التّقرير بالمالك

المرادُ من الاستفهام في قوله ﴿لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ طلب الإجابة من المخاطبين على سبيل التّقرير، أي أجيبوني عما استعلمتكم عنه ممّا هو معلوم لا يمكن إنكارُه، فالتّقرير المطلوب هنا هو التّقرير بالمالك، بدلالةِ حرف الجرِّ الدّالِّ على الملكيَّة الدّاخل على اسم الاستفهام[1].

بلاغة القصر في قولِه ﴿لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ﴾:

مـن مقتضيات وحدانيَّة الله تعالى اختصاص ملك الأرض ومن فيها به سبحانه

لمّا تقدم المسند على المسند إليه كان الكلام على القصر في الاستفهام، فيكون الجواب مفيدًا معنى القصر كذلك، والمعنى للّه الأرضُ ومن فيها؛ ليفيد اختصاص ملك الأرض ومن فيها باللّه تعالى دونَ غيرِه.

فائدة (أل) في قولِه ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾:

آيـات الـلـه في خلقه ظاهرة لا ينكرها إلّا معاند

(أل) جنسيَّة، لتفيد اللّفظ لكلِّ ما يطلق عليه أرضٌ، فيشمل الأرضَ على سعتها وكثرة عجائبها[2]، أو تكون (أل) للعهد؛ أي الأرض المعهودة التي تعرفونها وتعيشون عليها، وترون فيها آيات اللّه ومخلوقاته، ليكون ذلك أبلغ في التَّقرير والإنكار.

فائدة العطف في قولِه ﴿وَمَن فِيهَآ﴾:

الخالق للشّيء مالك له

لمّا كان الكلام في سياق بيان الحجّة على البعث بعد الممات والاستدلالِ عليه، وكان البعث متعلّقًا بإحياء الخلقِ بعدَ مماتِهم في الأرضِ، بمعنى إحيائِهم وإخراجِهم من الأرضِ ناسب طلب إقرارِ الكافرين على أنَّ الأرضَ ومن فيها للّه تعالى، ولم يحسن طلبُ الإقرار بأحدهما فقط بأن يقال لمن الأرض إن كنتم تعلمون؟ أو لمن من في الأرضِ إن كنتم تعلمون؟، ولا يخفى ضعفُ تأليف الكلامِ إن جاء طلبُ الإقرارِ بأحدِهما كما هو ظاهرٌ، كما أنَّ في عطف ﴿وَمَن

(1) النسفي، التيسير في التفسير: 11/ 58، والزمخشري، الكشاف: 3/ 200.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 176.

﴿فِيهَآ﴾ على ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ إشعارًا بأنَّ سؤالَهم عن ملكية الأرض هو سؤال عن سبب الملكية أيضًا لا عنها وحدها، فأفاد أنَّه تعالى يملك الأرض عن طريق خلقِه للأرضِ ومن في الأرضِ[1].

دلالة الاسم الموصول في قوله ﴿وَمَن فِيهَآ﴾:

من له عقلٌ يؤمن بالبعثِ بعد المماتِ

عبَّر بالاسم الموصول (مَنْ) الذي يفيد العموم ليفيد الاستغراق لكلِّ من في الأرضِ، فيناسب الاستغراق الذي أفاده لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾، "والمراد بمن في الأرضِ الخلقُ جميعًا"[2]، وعبِّرَ بالاسم الموصول (مَنْ) الذي هو للعاقل لتغليب العقلاء على غيرِهم[3]، لأنَّ المرادَ ما يستغرقُ المخلوقاتِ كلَّها كما تقدَّم، فيكون من إطلاق اللفظ المختصِّ بالعقلاء على الجميع، لمناسبة المقام بذكر العلم، ولأنَّ فيه تنبيهًا على أنَّ من له عقلٌ يؤمن بالبعثِ بعد المماتِ.

فائدة التّعبير بـ (في) دون (على):

التّنبيه على قوّة ملك الله تعالى ونعمته على النّاس بتمكّنهم في الأرضِ وانتفاعهم فيها

عبّرَ بحرف الجر (في) في قوله ﴿فِيهَآ﴾ دون أن يقال (لمن الأرض ومن عليها) للإشعار بأمرين؛ أحدهما: قوّة ملك الله تعالى؛ لِما يفيده معنى الظّرفية من التّمكّن في الشّيء، والمعنى: لمن الأرض ومن فيها وعليها؟، والثاني: التّنبيه على نعمة الله تعالى بتمكّنهم في الأرضِ وانتفاعهم فيها.

سبب البدء بالسّؤال عن ملكيَّة الأرض ومن فيها:

تعليم المؤمنين طرائق الاستدلال والاحتجاج

بدأ بالسّؤال عن ملكيَّة الأرض ومن فيها في هذه الآيات لأنَّها أقربُ شيءٍ إلى المسؤولين المشركين، إذ يتّخذون منها فراشًا ومعاشًا وممشىً ونشاطًا لأعمالِهم وحياتِهم، فالعلم بها أبلغ من العلم بالسّماوات وبملكوت الله تعالى، ولهذا ناسب أن يقول عقبه ﴿إِن كُنتُمۡ

(1) المطعني، التفسير البلاغي: 3/ 21.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 586.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 6/ 100، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 215.

﴿تَعۡلَمُونَ﴾، كما أنَّه لمّا كانَ في بيان الحجج بدأ بالأكثر إذعانًا وإيقانًا عند المخاطبين لتوجيه المؤمنين إلى طرائق الاستدلال والمحاجة.

دلالة الشّرط في قولِه: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾:

تنبيه الكافرين على أنَّهم لمّا أنكروا البعثَ أنكروا ما لا ينكره من له أدنى علمٍ

أفاد الشَّرطُ تنبيهَ المخاطبين من الكافرين على أنَّهم لمّا أنكروا البعثَ بعدَ الممات أنكروا شيئًا لا ينكره من له علمٌ[1]، فكيف ينكر العبد ما هو مشاهد له يعيشه كلَّ يوم ويرى بديع خلق الله تعالى فيه؟!، وفي هذا الأسلوب من الشّرط كذلك الذي يأتي في ذيل الكلام تهييجٌ وإلهابٌ للحمل على النّطق بالحقِّ.

فائدة التّعبير بـ﴿إِن﴾:

من أساليب القرآن في الحجاج التّهييجُ والإلهابُ والحثُّ على الإقرارِ والإذعان

لمّا كانت أداة الشّرط ﴿إِن﴾ تفيد عدم القطع بوقوع الشّرط أو ندرة وقوعِه أفاد التّعبير بها هنا التّشكيك في علمِهم بالنّسبة لهم، وفائدته الاستهانة بهم وتوبيخهم لأنَّهم لم ينتفعوا بعقولِهم فيؤمنوا ويتّقوا، فجهلوا مثل هذا الأمرِ الظّاهرِ البيِّن[2]، وقد يقال مجيء الشّرط بـ ﴿إِن﴾ لاينفي عِلۡمَهُمۡ بِذَٰلِكَ، وهو أسلوب من أساليب الاحتجاج على وجهِ التّأكيدِ لعلمِهم ومن أساليب التّهييج والإلهاب والحثِّ على الإقرارِ والتّسليم والإذعان[3]، ولهذا أجاب عنهم في قولِه ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ لظهور الأمرِ ووضوحِه، ففي هذا الأسلوب من الشّرط الذي يحذف جوابُه توجيه لعقولِهم أن يتأمّلوا فيظهر لهم أنَّ الأرضَ لله وأنَّ من فيها لله، والحاجةُ إلى التّذكير ضرورةٌ؛ فإنَّ كونَ جميع ذلك ملكٌ لله تعالى قد يخفى، لأنَّ النّاس اعتادوا نسبةَ المسبّبات إلى أسبابِها المقارنة لها ونسبة التّصرُّفاتِ إلى مباشريها، فنبّهوا بقولِه ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ إلى التّأمّل أيۡ إنۡ كُنۡتُمۡ تَعۡلَمونَ عِلۡمَ اليَقينِ[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 176.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 200، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 93.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 580.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 109.

فائدة حذف المفعول في قوله ﴿تَعۡلَمُونَ﴾:

لَمّا كان الشّرط على معنى التّشكيك في علمِهم كان حذف المفعول على معنى تنزيلِه منزلة اللّازم بمعنى التّشكيك في حصول العلم عندهم، ليفيد أنَّ من له أدنى علم يؤمن باللّه وبالبعثِ بعد المماتِ، ويحتمل أن يكون المفعول معلومًا وحذفَ بدلالة السّياق عليه، والتّقدير: (إن كنتم تعلمون مَنْ مالكُها)؟ فيكون المعنى: (إن كنتم من العالِمين)[1].

مـن لــه أدنى علمٍ يؤمن بالله وبالبعثِ بعد المماتِ

دلالة حذف جواب الشّرط:

حُذِفَ جواب الشّرط لقولِه ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ لدلالة الاستفهام عليه، وتقدير الكلامِ: (إن كنتم تعلمون شيئًا فأجيبوني عن السّؤال)، فكأنَّ من لا يعلم الجواب عن هذا السّؤال لا علمَ له، أو التّقدير: (إن كنتم تعلمونَ ذلك فأجيبوني عن السّؤال)، ويكون التّخصيص بلفظ (ذلك) الراجع إلى المسؤول عنه بسببِ قرينة السّياق، وتقدَّم أنَّ هذا الأسلوب من حذف جواب الشّرط يقصد به الاحتجاج على المخاطب لظهور الأمر ووضوح العلم به، ففيه من المُبالغةِ في وضوحِ الجوابِ وفي تجهيلِهم ما لا يَخْفى، ويؤيّده الإخبار بجوابِهم قبل أن يجيبوا[2].

حــذف جــواب الشّرط احتجاج عـلى المخـاطب لـظـهـور الأمـر ووضوحه

مناسبة الفصل في قوله ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾:

الفصل على طريق الاستئناف البيانيِّ، وبيانُه أنَّه لمّا قال اللّه تعالى ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ اقتضى الكلامُ سؤالًا، وهو ماذا سيقولون؟، فقال: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾.

سرُّ الإجابة عن الكافرين في قوله ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾:

لمّا كان الظّاهر أن يكون الكافرون هم المجيبين عن السّؤال لتوجّه السّؤال إليهم كان الإخبار عن جوابِهم قبل أن يجيبوا على خلاف

في الإخـبـار عن جواب الكافرين قـبـل جـوابِـهـم نـكـت ولـطـائف متنوّعة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 63، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 93، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 214.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 147، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 109.

مقتضى الظّاهر، ونكتته ظهورُ الإقرارِ بالأمر وجلاؤه، وبيان أنَّ إنكارَ ماهو الحقُّ في جوابِ ذلك السّؤال ممّا لا يمكن لمن له أدنى علم، ففيه إشعارٌ بأنَّهم ليس لهم جوابٌ سواه، فلا بدَّ أن يجيبوا بذلك، لأنَّه معلومٌ ببديهة العقل، سواء نطقوا به أم كانوا صامتين، كما أنَّ الإجابةَ عنهم إلزامٌ لهم بما لايمكن لمن له مُسكة من العلم إنكارُه، كما أنَّ في الإجابة عنهم استهانةً بهم وتقريرًا لجهلِهم[1].

فائدة مجيء السين في قوله ﴿سَيَقُولُونَ﴾:

ملك الأرض ومن فيها متحقّق لله لا يُنْكَر

لَمّا عبّرَ بالسين التي تفيد وقوع الفعل في الزمن القريب دلَّ على أنَّ الكافرين لن يلبثوا أن يجيبوا بهذا القول، فلا يحتاج الأمر إلى تأمّل وتفكير طويل لظهور أنَّ الأرض ومن فيها للّه تعالى، كما أنَّ في التّعبير بالسين تأكيدًا لقولِهم وتقريرًا له[2].

نكتة التّعبير بضمير الجمع في قوله ﴿سَيَقُولُونَ﴾:

اجتماع أهل الباطل على بطلانهم

لَمّا كان الضّمير عائدًا على الكافرين المنكرين البعثَ أفاد استغراقَهم جميعًا وأنَّهم بمجموعِهم سيقولون للّه من غيرِ أن يتخلَّف أحدٌ منهم، وفيه إعجاز لنبوّة سيّدنا محمَّد ﷺ، فلو قال واحد منهم في وقت نزول الآية غير هذا القولِ لبطل إعجاز القرآن، ولم يصل إلينا أنَّ أحدًا منهم لم يقل غير هذا القول.

بلاغة الكناية في قوله ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾:

جحود الكافرين مع علمهم بالحقِّ المبين

لَمّا أقرّوا أنَّ الأرضَ ومن فيها ملك للّه تعالى أفاد بلازمِه على سبيل الكناية وجوبَ إقرارِهم أنَّه هو الذي أنشأها وأنَّه هو الذي خلقَ الخلقَ وأحياهم وأنَّه هو القادر على التّصرّف فيها وفيهم، وعلى إحيائِهم بعد مماتِهم مثل قدرتِه عليهم في المرة الأولى فإنَّهم كانوا أمواتًا ثمَّ أحياهم، فيفيد الكلام إرادة معنى الملزوم ولازمِه.

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 93، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 147.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 214، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 109.

محلُّ السُّؤال هو محطُّ الاهتمام

بلاغة الإيجاز بالحذف:

تقدير الكلام في قوله ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾: (سيقولون لله الأرضُ ومن فيها)، بتقديم المسند على المسند إليه ليطابق ما ورد في السُّؤال، ففيه إيجاز بحذف المسند إليه، ونكتة حذف المسند إليه الإشعار بأنَّ محطَّ النّظر هو معرفة المسند والإقرار به كما أنَّ قرينة السّياق دالَّةٌ على المحذوف ظاهرةٌ عليه.

الاستئناف البياني من مقامات الفصل

مناسبة الفصل في قوله ﴿قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾:

جاءت الجملة على طريق الاستئناف البياني، فكأنَّ سائلًا سأل: فماذا يكون جواب رسولِ الله ﷺ إذا قالوا ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ فأجاب ﴿قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، والمعنى فإذا قالوا ذلك وأقرّوا به ﴿قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

الإقرار بملكِ الله الأرض ومن فيها لا ينفع إن لم يتبعه الإيمان الكامل

بلاغة الاستفهام المجازي في قوله ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾:

الاستفهام هنا إنكاريٌّ، للإنكارِ عليهم في عدم تذكّرِهم ذلك الأمرَ، ويتولَّدُ من الاستفهام الإنكاريِّ بمعونةِ قرينةِ السّياق التّوبيخُ والتّقريعُ والتّبكيتُ؛ ليفيد أنَّ القول - وإن كان في نفسه صدقًا - فلم تكن فيه غنية إذ لم يصدر عن علم ويقين ولم يعملوا به، ولمّا عبَّر بالتّذكير أفادَ التَّرغيب في التدبُّر ووعظَهم فيه، ليتّبعوا الحقَّ ويعلموا بطلانَ ما هم عليه[2]، فجمع في هذا الاستفهام الإنكاريِّ التّوبيخَ والتّبكيتَ والوعظَ والإرشادَ، والمعنى فقل منكرًا عليهم موبّخًا لهم أفلا تتدبَّرون، فتعلموا أنَّ من قدر على خلق ذلك ابتداءً فهو قادر على إحيائهم بعد مماتهم، وإعادتهم خلقا جديدًا بعد فنائهم[3].

(1) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 3/ 208، والبغوي، معالم التنزيل: 3/ 207.
(2) القشيري، لطائف الإشارات: 2/ 586، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 290، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 14/ 248.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 18/ 48.

ملكية الأرض ومن فيها لله تعالى لا ينبغي أن ينازِعَ فيها منازِعٌ

إيثار التّعبير بالتّذكّر في قوله ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾:

أوثرَ التَّعبير بالتَّذكُّرِ هنا للإشعارِ بأنَّ العلمَ بكونِ الأرض ومن فيها ملك للّه تعالى ممّا لا يخفى في نفسِه؛ لوضوحِ الأمرِ، فالأمرُ لا يحتاج سوى إلى التّذكير بالتّنبيه عليه للإقرارِ به، أي إنَّ ملكية الأرض ومن فيها للّه تعالى لا ينبغي أن ينازِعَ فيها منازِعٌ، وإذا نُسيَتْ أو غُفِلَ عنها فيكفي أن يذكَّرَ النّاسي بها، ولمّا كان الامتثال للتّذكّر يفيد خروجَهم من الكفر ودخولَهم الإيمان دلَّ على أنَّ المرادَ من التذكّر هو الحاصلُ منه، وهو الإقرار بوحدانيَّة اللّه وبالبعثِ بعد الممات[1].

جحود الكافرين وإنكارهم الآيات البيّنات

دلالةُ حذفِ التّاء الأولى في قوله: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

أصل كلمة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ تتذكَّرون، فحذفت تاء المضارعة تخفيفًا في الكلامِ، وفيه إشعارٌ بأنَّ أقلَّ ما يطلق عليه تذكّرٌ يكفي للإقرارِ والإيمان، لظهور الدليل وقيام الحجّة.

وأفادَ مجيء الفعل بصيغة المضارع الدلالة على طلب استمرارِ التذكّر وتجدّده، وفيه تنبيه إلى أنَّ النّظر إلى الأرضِ ومن فيها يفيد تجدّد التّذكّر وقتًا فوقتًا، وفيه أيضًا الإنكار عليهم بعدم تذكّرهم، فلا يقع منهم ولو كان قليلًا.

الأدلَّة على وحدانيَّة الله والبعثِ بعد الممات كثيرة متنوّعة

بلاغة حذف مفعول ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

حذف المفعول لدلالة السّياق على معناه، ولإفادةِ العموم، والتقدير: (أفلا تذكّرون أنَّ من فطر الأرض ومن فيها ابتداءً قادر على إيجادها ثانياً فتؤمنون؟)، فإنَّ بدء الخلق ليس أهون من إعادته، بلِ الأمرُ بالعكس في قياس العقول[2]، أو يقال: (أفلا تذكرون أنَّ مالك الشَّيء يقدر على التَّصرُّف فيه، والأموات مملوكة للّه قادر على إحيائها بعد الموت مثل قدرته عليها في المرَّة الأولى

---

(1) النسفي، التيسير في التفسير: 11/ 58، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 23.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 93، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 148.

فإنها كانت أمواتاً فأحياها؟)[1]، ونكتة حذف المفعول توبيخهم على عدم تذكّرهم أيَّ نوعٍ من أنواعِ التَّذكّر، وفيه إشعارٌ بأنَّ الأدلَّة على وحدانيَّة اللّه والبعثِ بعد المات كثيرة متنوّعة، فكأنَّ المعنى: (فلا تذكّرون الأدلَّة الدّالَّة على الصّانع فتؤمنون؟)[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التذكّر والتفكّر والتنبُّه:

التـذكّـر بعد التفكّر، والتنبُّه قد لا يكون عن علمٍ سبقَ

التذكّر يفيد أنَّ الشّيء موجود في الذهن ولكنّه غائب عنه، بمعنى نسيانِه وعدم التنبّه عليه، والتفكّر طلب إيجاد، فلمّا كان المراد من التفكّر حصول الشّيء وإيجاده كان التذكّر بعد التفكّر، فلمّا طلب منهم التذكّر في الآية دلَّ على وجود العلم بالشّيء، بمعنى أنَّه لظهور الأمر فيه وجلائه لا يحتاج إلى تفكّر بل إلى تذكّر فقط، وذلك أنَّ ذكر الشّيء يقتضي أنَّه كان عالمًا به ثمَّ نسيه فردَّه إلى ذكره ببعض الأسباب الظّاهرة، وذلك أنَّ الذكر هو العلم الحادث بعد النسيان، ويكون في العلوم الواضحة الجليَّة، ولا يوصف اللّه بالذّكر، فلا يقال (ذاكر)؛ لأنَّه لا يوصف بالنّسيان، وأمّا الفرق بين التذكّر والتنبّه، فإنَّ التنبُّه قد لا يكون عن علم سبقَ، فيجوز أن ينبَّه الإنسانُ على شيءٍ لم يعرفه قطُّ، ألا ترى أنَّ اللّه ينبِّهُ على معرفته بالزلازل والصواعق وفيهم من لم يعرفه البتة فيكون ذلك تنبيها له كما يكون تنبيها لغيره، ولا يجوز أن يذكِّره بما لم يعلمه قطُّ[3].

---

(1) الكرماني، لباب النقول، ص: 1651.
(2) العليمي، فتح الرحمن: 4/ 487.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 93.

﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٨٧﴾ [المؤمنون: 86 - 87]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

العالم العلويُّ أعظم من العالم السّفليّ

لمّا ذكّرهم بالعالم السّفليّ لقربه تلاه بالعلويّ لأنَّه أعظم، فقال على ذلك المنوال مرقّيًا لهم إليه ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

الإقرارُ بربوبيَّة اللهِ للسَّماوات والعَرْش، ملزمٌ عقلًا بالعبوديَّة للهِ دونَ سواه

انتقلَ النَّظمُ القرآنيُّ الكريمُ من التَّذكيرِ بالعالَمِ السُّفليِّ إلى العالَمِ العلويِّ، فخاطبهم باسْتفهامٍ تقريريٍّ تعجُّبيّ: مَنْ خالقُ ومُدبِّرُ السَّماواتِ السَّبع، كما تشاهدون من حَركاتِها وسَيْرِ نجومِها، وربُّ العَرْشِ العظيمِ الَّذي أنتُم به مُعترِفون، فإذا أقررتم بأنَّ له كلَّ شيءٍ وهو ربُّ كلِّ شيء أفَلا تخافونَ عقابَه، وتحذرونَ عذابَه في عبادتِكم معه غيرَه وإشراكِكم به؟!(1).

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الفصل في الآية:

تتابع الحجج الواضحات على وحدانيّة ربّ الأرض والسّماوات

سبب الفصل هو عين ما ورد في بيان مناسبة الفصل في الآية السّابقة، فالجملة جاءت في سياق المقاولة، للاهتمام بالمقول، ولتكونَ كلُّ جملةٍ مستقلَّةً بنفسها في إثباتِ الحجَّة وإلزام المعاندين، وأيضًا لمّا وقعت الآية في سياق التّعداد للأدلَّة ناسب أن يعادَ القولُ بدون حرف العطف، والمقصود وقوع هذه الأسئلةِ متتابعةً دفعًا لهم بالحجَّة(2).

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 239، والبقاعي، نظم الدُّرر: 13/ 177.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 110.

سبب إيثار تعداد القول في الآية:

تكرير لفظ (قُلْ) للإشعار بأهميَّة المقول على حيالِه للإصغاء إليه وتلقّيه

كرّر لفظ ﴿قُلۡ﴾ للإشعار بأهميَّة المقول وللإصغاء إليه وتلقّيه، كما أنَّ الجملة جاءت في سياق تعداد الحُجَجِ وإقامة الأدلَّة، فناسب أن يعاد الأمرُ بالقول، ليفيد أنَّ الأمر بالقول يصلحُ أن يقال لكلِّ مقولٍ على حدةٍ وعلى المجموع معًا، ففيه تنبيه على استقلالِ كلِّ سؤالٍ في الاستدلالِ على إيجاد الخلق وعلى البعث بعدَ المماتِ، فالكلامُ في مقام القول المستقلِّ[1].

دلالة الضمير المخاطب في قولِه ﴿قُلۡ﴾:

تعليم المؤمنين اقتفاء أثر رسول الله ﷺ في المحاججة

يعود الضّمير إلى رسول اللّه ﷺ، كما تقدَّم في الآية السابقة، وتكرار الخطاب يفيد دوام حضور المخاطَبِ وهو سيدنا رسول اللّه ﷺ وزيادة القربِ من المخاطِب وهو اللّه تعالى، وفيه تعليم للمؤمنين من أتباعِه ﷺ أن يقتفوا أثرَه في طريقة المحاججةِ والاستدلال.

سبب حذف المقول له:

حجج القرآن صالحة لكلِّ معاند ومكابر

حَذْفُ المقول له وعدم تعيينه في قوله ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ﴾ لإفادة عموم المقول له، فيصلح القول لكلِّ منكِرٍ حملًا له على الإقرارِ، ويدخل في العموم المخاطبون من الكفّار دخولًا أوّليًّا لكونه معلومًا من السياق فهم المخاطبون ابتداءً، ولدلالة حال ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ عليه، كما تقدَّم.

دلالة اسم الاستفهام:

اسم الاستفهام في قولِه ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ﴾ يفيد العموم على البدل، بمعنى أنَّ السؤال بـ﴿مَن﴾ يفيد استغراقَه على البدل، فلمّا جاء الجواب بقوله ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ أفاد انطباقه على الاسم الجليل، بمعنى أنَّه لا يحتمل سوى أن يقصَدَ به اللّه تعالى.

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 215.

ما لا يمكن إنكارُه يأتي بأسلوب التّقرير

بلاغة الاستفهام المجازي:

الاستفهام في قوله ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ﴾ على معنى التّقرير، بمعنى طلبِ إقرارِ المخاطبين بأنَّ اللّه تعالى هو ربُّ السماواتِ السَّبع والعرش، أي أجيبوني عما استعلمتكم عنه ممّا هو معلوم لا يمكن إنكارُه، ففي مجيء الاستفهام على معنى التّقرير إيذانٌ بأنَّ هذا الأمر لايمكن إنكارُه.

البعث والإعادة من مقتضيات الرُّبوبيَّة

دلالة التّعبير بالرّبوبيّة في قوله ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ﴾:

لمّا كان السّياق في مقام الرّدِّ على منكري البعثِ والإعادةِ يومَ القيامةِ وإثباتِ وحدانيَّة اللّه تعالى وأنَّه هو وحده القادر على البعثِ، وكان قد ذكر في الآية السّابقة أنَّه تعالى لمّا كان خالقًا الأرضَ ومن فيها من الأحياء وجب أن يكون قادرًا على أن يعيدَهم بعدَ موتِهم، جاء في هذه الآية أنَّه تعالى لمّا كان خالقًا السّماواتِ السّبع ومالكَها والمتصرِّف فيها وكان مالكَ العرشِ العظيم وجب أن يكون هو وحده القادر على أن يعيدَهم بعدَ إفنائِهم.

اختلاف السّؤال لاختلاف المعنى والمقصد

سرُّ اختلاف السّؤال في الآيتين:

قد يقال ما سرُّ اختلاف السّؤال في الآيتين، فسُئِلَ عن ملكيَّة الأرض ومن فيها في الآية الأولى وسُئِلَ عن من هو ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ في هذه الآية، والجوابُ هو أنَّهم لمّا كانوا يعيشون في الأرضِ ويتصرّفون فيها في معاشِهم ونشاطِهم وكان ملك الأشياء ظاهرًا في الأرضِ في الصّورة وعلى التجوّز وهي أقرب شيءٍ إلى المسؤولين؛ سُئِلَ عن ملكيَّة الأرض ومن فيها في حقيقةِ الأمرِ، ليكون الإقرارُ على معنى الإذعانِ، وأمّا السَّماوات والعرشِ فلا يظهر فيهما أيُّ نوعٍ من أنواعِ الملكيَّة الفرديَّة أو الجماعيّة لا في حقيقةِ الأمرِ ولا في الظّاهر لعدم قدرةِ النّاس على تناولِهما أو أن يكونا في حكم متناولِهم، فلا يتصوَّر فيهما

سوى السّؤال عن ربِّهما؛ لظهور انتفاء قدرةِ النّاس على أيِّ نوعٍ من التصرّف فيهما، فسُئِلَ على سبيل التقرير والتّسليم عن ربِّ السَّماواتِ والعرشِ وليس عن مَنْ يملكهما، ولهذا لم يقل (قل لمن السماوات السّبع والعرشُ العظيم).

سبب إيثار ذكر وصف ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بـ ﴿ٱلسَّبۡعِ﴾:

مجيء العدد لبيان عظيم قدرة الله تعالى

لمّا كان الكلامُ في سياق الرّدِّ على منكري البعثِ وإثباتِ وحدانيَّةِ اللّه تعالى أوثر وصف ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بالسّبعِ، ولمّا كان لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ دالًّا على أنَّ المراد بها السّبع بدلالة (أل) التي للعهد كما تقدَّم دلَّ على أنَّ العدد جاء على سبيل توكيد المعدود، للمبالغة في المعنى دلالةً على عظيم قدرة اللّه تعالى، كما أنَّ في ذكر العدد إشعارًا بدقَّة الخلقِ وبديع الاختيار فيه بأن كانت سبع سماواتٍ وليست أقلَّ ولا أكثرَ، فناسب وصفُ السَّماوات بالسَّبعِ سياقَ الآياتِ.

مناسبة العطف في قوله ﴿وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾:

العطف على جهة الترقي بذكر السماوات ثم الأعظم وهو العرش

لمّا جاءت الآية في بيان ربوبيَّة اللّه تعالى للعالم العلويِّ ناسب عطف ﴿وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ على ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ﴾، ليكون العطف على جهةِ التّرقّي بذكر السَّماوات ثمَّ الأعظم وهو العرشُ.

سرُّ إعادة المسند في قوله ﴿وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾:

تنوّع المقاصد واللطائف في تكرار لفظ الرّبِّ في الآية

لم يقل (من ربُّ السماواتِ السبعِ والعرشِ العظيم) بعطف العرشِ على السَّماوات، فلمّا أعاد لفظ (رَبُّ) دلَّ على أنَّ الكلام بتقدير: (مَن ربُّ السماوات السَّبع ومَنْ ربُّ العرشِ العظيم)، وسرُّ إعادة ذكرِ (رَبُّ) تكثير الإسناد للإيذانِ باستقلالِ كلِّ معنى في الاستدلال والاحتجاج، كما أنَّ فيه تعظيمًا لشأنِ الخالق، وفيه كذلك زيادةٌ في تعظيم العرشِ الموصوف بالعظمة في ذاته، وتنويهًا بشأنه ورفعًا لمحلِّه من أن يكون تبعا للسَّماوات وجودًا وذكرًا، فهو عالمٌ آخر سوى عالم السَّماواتِ السّبع، كما أنَّ في التكرار تغايرًا في معنى

الربوبية، ففي الأولى السُّؤال عن الخالق والمالك، والقائم بالتَّدبير، والتَّسيير، والثّاني معنى الرُّبوبية والسُّلطان والحكم والتَّصرّف[1].

نكتة وصف العرش بقوله ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾:

لمّا كان العرش عظيما في خلقِه لأنَّه محيطٌ بالسَّماوت كان المراد بقوله ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ تأكيد عظمتِه وتقريرها، واستغراقَ هذا الوصف لكلِّ ما هو متعلّق به، كما أنَّه لمّا كان العرش عظيمًا في نفسِه كان أعظمَ بالنّسبةِ إلى غيرِه[2]، والمعنى من خالق السَّماوات السبع وخالق العرش العظيم ومن المالك والمدبّر؟، وخالق الشَّيء العظيم عظيم سبحانه.

لمّا كان العرش عظيمًا في نفسِه كان أعظمَ بالنّسبةِ إلى غيرِه

مناسبة عدم ذكرِ الشّرط مع الاستفهام:

لم يقترن الشّرط بالاستفهام في هذه الآية كما جاء في سابقِه عند قوله ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؛ لأَنَّ انفرادَ اللّٰه تعالى بالرّبوبيَّة في السَّماوات والعرشِ لايشكُّ فيه المشركون، ولم يزعموا إلهيَّة أصنامِهم في السَّماواتِ والعوالم العلويَّة، فناسب عدم ذكر الشّرط[3].

لا يشكّك في ملك اللّه لسماواته وعرشه إلّا معاند جاحدٌ

مناسبة الفصل في قوله ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾:

يجري في هذه المسألة ما ذُكر في الآية السابقة، مع خَصوصيَّة أنَّ الكلامَ على سبيلِ التّرقّي، فكأنَّ الكلامَ السابق اقتضى سؤالًا، هو ماذا يقولون، وهل يقرّون كما أقرّوا في السّؤال الأوّل، فجاء الجوابُ على وفق جوابِهم في السّؤال الأوّل، للإشعارِ بأنَّ الأمرَ على عظمتِه واضحٌ جليٌّ.

من سفه الكافرين إقرارهم بربوبيّة اللّه لمخلوقاته ثمَّ لا يؤمنون

مناسبة تكرارِ الإجابة عن الكافرين:

في قوله ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ جاء الإخبارُ عن جوابِهم قبل أن يجيبوا

إنكار الواضحات من عظيم الجهل

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 48، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 257، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5109.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 215.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 111.

على خلاف مقتضى الظّاهر كما تقدَّم، لظهور أنَّ الإقرارَ بأنَّ اللّه تعالى هو ربُّ السَّماوات السَّبعِ وهو ربُّ العرش العظيم ممّا لا يمكن إنكارُه كذلك، وأنَّ هذا السّؤال أيضًا ليس لهم جوابٌ سوى الإقرار به، كما أنَّ في الإجابة عنهم تقريرًا للاستهانةِ بهم وتأكيدًا لجهلِهم كما تقدَّم.

فائدة مجيء السين في قوله ﴿سَيَقُولُونَ﴾:

لمّا عبّرَ بالسين التي تفيد وقوع الفعل في الزمن القريب دلَّ على أنَّ الكافرين لن يلبثوا أن يجيبوا بهذا القول، فلا يحتاجون سوى إلى أدنى تأمّل لكي يجيبوا، كما أنَّ في التّعبير بالسَّين تأكيدًا لقولِهم وتقريرًا له كما تقدَّم.

الأدلَّـــة على وحدانيَّة الله متقرّرة في فطر النّاس جميعًا

نكتة التّعبير بضمير الجمع في قولِه ﴿سَيَقُولُونَ﴾:

يجري في هذه النّكتة ما تقدَّم في أسبابِ التّعبير بضمير الجمع في الآية السابقة، فهو تقريرٌ للأمرِ على سبيل التّرقّي، فجميع الكافرين المسؤولين عن هذا السّؤال مقرّون بأنَّ اللّه تعالى هو ربُّ السماواتِ وربُّ العرشِ العظيم.

بلاغة الكناية في قوله ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾:

تجري الكناية هنا كما جرت في الآية السابقة، لتكون على سبيل إقرارِ الحجّة والتّسليم لها أي إنَّ الذي خلقَ هذا الخلق العظيم هو القادر على التّصرّف فيه وفيهم، وهو القادرُ على إحيائِهم بعد مماتِهم، فالكناية على الجمع في إرادة معنى اللّازم والملزوم.

الذي خلقَ هذا الخلق هو القادر على التّصرّف فيه على الإحياء بعد الإماتة

بلاغة الإيجاز بالحذف:

تقدير الكلام في قوله ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ بقرينة السّياق: (سيقولون للّه ملك السَّماوات السَّبع وتدبيرها وملك العرش العظيم وتدبيره)، ونكتة حذف المسند إليه الإشعار بأنَّ محطَّ النّظر هو تقرير المخاطبين من الكافرين بالمسندِ بعد ذكر المسند إليه في السّؤال.

اللـه ربُّ كلِّ شيء، وله ملك كلِّ شيء

توجيه القراءات القرآنية وبلاغتها:

قرأ أبو عَمْرو ويعقوب ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ في الآية الأولى بلام الجرِّ، وفي الثّانية والثّالثة ﴿سَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾[1] بدون لام الجرِّ، وقَرَأ الباقونَ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ في الآياتِ الثلاث، فالآيةُ الأولى لم يختلف القرّاء فيها؛ لأنَّ جواب الاستفهام في ﴿لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ هو ﴿لِلَّهِۚ﴾ فرجعت في خبر المستفهم باللام أيضًا، وأما الآيتانِ الأخريان فتوجيههما على قراءة أبي عمرو ويعقوبَ أن يكون لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ خبرَ المستفهم عنه، لأنه لا لامَ في قوله ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وفي قوله ﴿مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، فجاء الجواب على مقتضى اللَّفظِ والمعنى، وأما مَنْ قَرَأَ الثّانية والثّالثة باللام فتوجيهه على أنَّ الجوابَ جاء على المعنى لا على اللَّفظ، كما لو قيل لرجل: من مَولاكَ؟، فقال: أنا لِفُلان، كفاه من أن يقول: مولاي فلان، فلمّا كان المعنيان واحدًا جرى ذلك في كلام العربِ[2]، ومن بلاغة القراءات هنا المحسِّن المعنوي المعروف بأسلوب الحكيم على قراءة الجمهور؛ فإن الله ﷻ أمره نبيه ﷺ أن يسألهم عن شيء معين، لكنهم أجابوا بأسلوب آخر.

الاستفهام إنكاريٌّ، يتولَّد منه توبيخ الكافرين

بلاغة الاستفهام المجازي:

الاستفهام في قولِه ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ إنكاريٌّ، يتولَّد منه التّوبيخ والتّبكيت، مع الحثِّ على التّقوى والإيذان بأنَّها مرغوبٌ فيها، والمعنى: قل لهم منكرًا وموبِّخًا: (أتعلمون ذلك ولا تتَّقون فتتكروا ما أخبر به من البعث)[3].

(1) هي مرسومة بألف الوصل في الموضعين في بعض المصاحف، يُنظر: الداني، المقنع، ص: 99.
(2) ابن مجاهد، السبعة، ص: 447، والأزهري، معاني القراءات: 2/ 194، وابن الجزري، النشر: 2/ 329، وابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 491.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 18/ 49.

فائدة الفاء في قولِه ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾:

تفيد الفاءِ التّرتُّب والتّعقيب، والمعنى: أتقولون ذلكَ فلا تتّقون؟، والمعنى أتقرّون بذلك وتعلمونه فلا يترتّب عليه ولا يعقبه أن تتّقوا؟، ففيه إشعارٌ بأنَّ من يقرُّ بأنَّ اللّه تعالى هو ربُّ السَّماوات السَّبعِ وهو ربُّ العرشِ العظيم فلا بدَّ أن يتّصِفَ بالتّقوى.

من يقرّ بأنَّ اللّه تعالى هو ربُّ السماوات والعرشِ فلا بدَّ أن يتّصِفَ بالتّقوى

فائدة حذف مفعول ﴿تَتَّقُونَ﴾:

حذف مفعول ﴿تَتَّقُونَ﴾ لتنزيل الفعل منزلة اللازم، بمعنى ألا يكون منكم تقوى، أو ألا تتّصفون بالتّقوى، ليفيد التّرغيب في الاتّصاف بهذا الوصف الدّال على عموم الامتثال للمأمورات واجتناب المنهيّاتِ، والمعنى من كان يقرُّ بأنَّ اللّه تعالى ربُّ السماواتِ السّبعِ وربُّ العرشِ العظيم لا يأتي منه إلّا التّقوى، فلمّا نفى عنهم التّقوى أفادَ أنَّ إقرارَهم لا فائدة منه.

التّقوى وصف يدلُّ على عموم الامتثال للمأمورات واجتناب المنهيّاتِ

مناسبة تذييل الآية بقوله ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾:

لمّا ترقّى في الإقرار وتأكّد الأمر وزاد وضوحًا ترقَّى في الإنكارِ، فجاء على معنى التّوبيخ المقترن بالتّهديد، وذهب ابن عاشور إلى أنَّ تخصيص تذييل الآية بالحثِّ على تقوى اللّه لنكتةٍ لطيفة، وهي أنّه لَمّا تَبَيَّنَ مِنَ الآيَةِ الَّتي قَبْلَها أنَّهُمْ لا يَسَعُهُمْ إلّا الاعْتِرافُ بأنَّ اللّهَ مالِكُ الأرْضِ ومَنْ فيها وعُقِّبَتْ تِلْكَ الآيَة بحثّهم عَلَى التَّذَكُّرِ لِيَظْهَرَ لَهُمْ أنَّهُمْ عِبادُ اللّهِ لا عِبادُ الأصْنام، وتَبَيَّنَ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ أنَّهُ رَبُّ السَّماواتِ وهيَ أعْظَمُ مِنَ الأرْضِ وأنَّهُمْ لا يَسَعُهُمْ إلّا الاعْتِرافُ بِذَلِكَ ناسَبَ حَثَّهُمْ عَلَى تَقْواهُ لِأنَّهُ يَسْتَحِقُّ الطّاعَةَ لَهُ وحْدَهُ وأنْ يُطيعوا رَسولَهُ، فإنَّ التَّقْوَى تَتَضَمَّنُ طاعَةَ ما جاءَ بِهِ الرَّسول ﷺ[1].

التّرقّي في الإقرار يقتضي التّرقّي في الإنكار والتّوبيخ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 111.

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ۝٨٩﴾ [المؤمنون: 88 - 89]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

لَمّا ذكَرَ اللّه تعالى الأرْضَ أوّلًا والسّماءَ ثانيًا عمَّمَ الحُكْمَ هاهُنا، فقالَ ﴿مَنْۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، فجاءت الآيات على التّدريج، فبعد أن تحقّقت في الآيتين السّابقتين الأدلّة على وحدانيَّة اللّه وأحقّيته بالعبادة والإيمان، جاءت هذه الآية لتختتم الكلام بأنَّ كلَّ شيء هو بيد اللّه وحده.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَلَكُوتُ﴾: (ملك) أصلٌ يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ وصِحَّة، يقالُ: أمْلَكَ عجينَه: قوّى عَجْنَهُ وشدَّه، وملّكْتُ الشّيءَ: قوّيتُه ومَلَكَ الإنسانُ الشَّيءَ يَمْلِكُهُ مَلْكًا، والاسْمُ المِلْكُ؛ لأنَّ يدَه فيه قويَّةٌ صحيحةٌ، فالمِلْكُ: مامُلِكَ من مال، والمملوكُ: العَبْدُ[1]، والمَلَكوتُ: عِظَمُ المُلك، وصيغةُ (فَعَلوت) من صفةِ المبالغة، نحو: جَبَروت، ورَحَموت، ورَهَبوت[2]، والمَلَكوتُ: مختَصٌ بملكِ اللّهِ تعالى، وهو مصدرُ مَلَكَ، أُدخلَتْ فيه التّاء، قالَ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 75][3]، وقولُه تعالى: ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: السَّماواتُ وما فوقَها وما بينَها، والأرَضون وما تحتَها وما بينَها، وما لا يعلمُه أحدٌ غيرُه ﷻ[4]، ويرادُ به كذلك: خزائنُ كُلِّ شيء[5].

2) ﴿يُجِيرُ﴾: و﴿يُجَارُ عَلَيْهِ﴾: (جور) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ المَيْلُ عَنِ الطَّريق، وأمّا الغَيْثُ الجِوَرُّ، وهوَ الغَزيرُ، فشاذٌّ عَنِ الأصْلِ الَّذي أصّلْناهُ، ويُمْكِنُ أنْ يَكونَ مِنْ بابٍ آخَرَ، وهوَ مِنَ الجيمِ والهَمْزَةِ والرّاءِ؛ فقَدْ ذَكَرَ ابْنُ السِّكّيتِ أنَّهُمْ يَقولونَ: (هوَ جُؤَّرٌ) عَلَى وزْنِ (فُعَلٍ)،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملك).
(2) الجوهري، الصّحاح، وابن منظور، اللّسان: (ملك).
(3) الرّاغب، المفردات: (ملك).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 145.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 49-48، والسّيوطي، الدُّرّ المنثور: 6/ 113.

فإنْ كانَ كَذا فهوَ مِنَ الجُؤارِ[1]، أجارَه يُجيرُه، واسْتجارَه من فلان، فأجارَه منه، وأجارَه اللهُ من العذاب: أنْقذَه، ويقالُ: أجَرْتَ فلانًا إذا اسْتغاثَ بكَ فحَميْتَه، وأجَرْتَ عليه، إذا حَمَيتَ عنه مَنْ يَرومُه[2].

وقولُه تعالى: ﴿يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: يمنعُ من السّوءِ مَنْ يشاء، ولا يمكنُ منعُ مَنْ أرادَه بسوءٍ منه[3].

ويمكنُ أن يكونَ المعنَى: يُؤَمِّنُ، ولا يُؤَمَّن عليه أحد[4].

ويمكنُ أن يكونَ المعنَى: يُجيرُ من عذابِه، ولا يُجيرُ عليه أحدٌ من عذابِه[5].

3) ﴿تُسْحَرُونَ﴾: (سحر) أُصولٌ ثَلاثَةٌ مُتَبايِنَةٌ: أحَدُها عُضْوٌ مِنَ الأعْضاءِ، والآخَرُ خَدْعٌ وشِبْهُهُ، والثّالِثُ وقْتٌ مِنَ الأوْقاتِ[6]، سَحَرَهُ يَسْحَرُهُ سِحْرًا، وسَحَرَهُ: خَدَعَه، والسِّحْرُ: الخِداعُ وتَخْييلاتٌ لا حقيقةَ لها، نحو ما يفعلُه المُشَعْبِذُ بصرفِ الأبصارِ عمّا يفعلُه لخفَّةِ يَد، وما يفعلُه النَّمّامُ بقولٍ مُزَخْرَفٍ عائقٍ للأسماع، وعلى ذلك قولُه تعالى: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: 116]، وقولُه تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ﴾ [طه: 66][7].

وقولُه تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أي: تُصرَفونَ عنِ الحقِّ وتُخدَعون[8]، أي: كيف يُخيَّلُ لكمُ الحقُّ باطلًا، والصَّحيحُ فاسدًا؟![9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخاطبُ اللهُ ﷻ نبيَّه ﷺ، فيقولُ له: قل يا محمَّدُ ﷺ للمتكبِّرينَ عنِ الإيمانِ برسالتِك؛ مَنْ بيدِهِ السَّماواتُ والأرَضونَ وما فيهما وما تحتَهما وما بينَهما، وخزائنُ كلِّ شيء، وهو ﷻ يغيثُ غيرَه إذا شاءَ ويمنعُه، ولا يمنعُ أحدٌ أحدًا من عذابِ الله، ولا يقدرُ على نَصرِه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جور).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، اللّسان: (جور)، وابن سيده، المحكم: 7/ 376- 377.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 490.
(4) مقاتل، تفسير مقاتل: 2/ 32.
(5) الزّجّاج، معاني القرآن: 4/ 20.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحر).
(7) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (سحر).
(8) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 241، والزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 20، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 229.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 49.

وإغاثتِه؟!، وقلْ يا محمَّدُ ﷺ لهم: فكيف بعد ذلك كلِّه تُصرَفون عنِ الحقِّ وتُخدَعون، فيُخيَّلُ لكمُ الحقُّ باطلًا والصَّحيحُ فاسدًا، والخادعُ لهم: هو الشَّيطانُ أوِ الهوَى أو كلاهما[1].

خزائنُ كلِّ شيءٍ بيد الله، يُغيثُ غيرَه ولا يغيثُ أحدٌ منه، فكيف تُصرفون عنِ الحقِّ وتُخدَعون؟!

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الاستفهام المجازي:

الاستفهام على معنى التّقرير

الاستفهام في قوله تعالى ﴿مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على معنى التقرير بقرينة أنَّ السّائل هو رسول اللّه ﷺ وهو أوّل المؤمنين، والمعنى تقرير الأمر على المخاطبين بإثبات المسند للمسند إليه في المعطوف والمعطوف عليه، أي إقرار أنَّ اللّه تعالى بيده ملكوت كلِّ شيءٍ وهو وحده يجير ولايجارُ عليه.

بلاغة القصر:

إثبات ملكوت كلِّ شيء لله وتخصيصه بيده وقدرته سبحانه

أفاد تقديم المسند على المسند إليه في قولِه: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ قصر ملكوت كلِّ شيءٍ على قدرة اللّه تعالى، فيكون الاستفهام الذي هو بمعنى التّقرير على أمرين؛ أحدهما تقرير أن يكون ملكوت كلِّ شيءٍ بيد اللّه تعالى، والثّاني تخصيص هذا الملكوت بيد اللّه وقدرته، ففي الاستفهام المجازي إيجاز بديع.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿مَلَكُوتُ﴾:

المَلَكوتُ وصف منبئٌ عن عظمِ المُلكِ وسعتِه وعمومِه

﴿مَلَكُوتُ﴾ صيغة مبالغة في المُلْك، فالواو والتاء للمبالغة مثل رحموت، وزيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، فالوصف منبئٌ عن عظم الملك وسعته وعمومه، والمَلَكوتُ هو غاية المُلْكِ أو ملكُ أقصى ما يمكن المُقْتَرِنُ بالتَّصَرُّفِ في مُخْتَلَفِ الأنْواعِ والعَوالِمِ، لِذَلِكَ جاءَ بَعْدَهُ ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

دلالة لفظ ﴿كُلِّ﴾:

(كلُّ) من ألفاظ العموم، فإذا أضيفت إلى (شيءٍ) الذي يعمُّ كل

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 48- 49، والشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 674- 675.

موجودٍ أفادت (كلّ) أعمَّ العامِّ، ليفيد تركيب ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ استغراق كلِّ المخلوقات.

مناسبة الإضافة في قوله ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾:

لفظ (شَيءٍ) يعمُّ كلَّ الموجوداتِ

لمّا أضاف الملكوت إلى ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ دلَّ على عمومِ الملكوتِ ليشمل كلَّ مخلوقٍ، وعُدلَ عن أن يقال (ملكوت كلِّ مخلوقٍ) للمبالغة في العموم المناسب للسّياق، ولبلاغة النّظم، وللإيذانِ بأنَّ كلَّ شيءٍ هو مخلوق وهو في قبضتِه تعالى وتحتَ سلطانِه، فإنَّ لفظ ﴿شَيۡءٖ﴾ يعمُّ كلَّ الموجوداتِ.

بديع الجمع والتقسيم في الآية:

تفصيل الأدلَّة ثمَّ إجمالها بما يستغرقها ليقعَ التّسليمُ والإذعانُ

لمّا ذكر اللّه تعالى العوالم الأرضيَّة في قوله ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ ثمَّ ذكر العوالم السّماويَّة في قوله ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ جمعها على طريق استغراق كل الملكوت فقال ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، فقسَّم أو فرّق ثم جمع، ونكتته تفصيل الأدلّة ثمَّ إجمالها بما يستغرقها فيقع التّسليم ويتمكّن الإذعان في نفوس المخاطبين.

دلالة الواو في قوله ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾:

تنوّع معنى الواو بين العطف والحاليَّة

تحتمل الواو أن تكون عاطفة، وهو الظّاهر لتفيد عطف ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ على ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، فيكون من عطف الجملة الاسمية على الجملة الاسميَّة، فيكون الاستفهام داخلًا على الجملتين، فالكلام بتقدير استفهامين؛ أي: (مَن بيده ملكوت كلِّ شيءٍ ومن هو يجير ولا يجار عليه)، ولمّا كان الجواب هو ﴿لِلَّهِۚ﴾ كان بتقدير: (للّه ملكوتُ كلِّ شيءٍ وهو الذي يُجيرُ ولا يُجارُ عليهِ)[1] فيفيد تعدّد الإقرار وتعدّد الأدلّة على وحدانيَّة اللّه تعالى وعلى قدرته على البعثِ بعد المماتِ، ويحتمل أن تكون الواو حاليَّةً بمعنى: (مَن بيَدِه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 148.

ملكوت كلِّ شيءٍ في حالِ هو يجير ولا يجار عليه)، ليفيد الحال إظهار سلطانِه وملكوتِه وإظهار قصر هذا الملكوت عليه سبحانه.

بلاغة الاستعارة:

من كان في جيرة الله فلا يقدر عليه أحد

ورد لفظا ﴿يُجِيرُ﴾ و﴿يُجَارُ﴾ في قوله ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ﴾ على طريق الاستعارة، فإنَّ المجاورة في الأصلِ هي المساكنة بأن يكون المسكن بجانب المسكن، فشبِّه الجار في السّكن بمن يُحمى ويمنع من أن يُمسَّ بسوء، فإنَّ حماية الجار من حقوق الجيرة عند العرب، فاستعملت الإجارة والمجاورة في الحماية والأمانِ وإن لم يكن المجارُ جارًا في السّكن بجامع حسنِ الرّعاية والاعتناء، فلمّا قال اللّه تعالى ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ﴾ أفاد أنَّه هو الذي يمنع ويعيذ ويغيث من يشاء ويحرسه فلا يعتدى على من يجيره، ولا أحدَ يُمنعُ منه ولا يغاث عليه سبحانه.

بديع الطباق في قوله ﴿يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ﴾:

كمال الوصف بإثبات أنَّه تعالى هو الذي يجير ونفي أن يجارَ عليه

في التّركيب طباق السّلب بذكر﴿يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ﴾ وهما فعلانِ لمصدر واحد، والغرضُ من مجيء طباق السَّلب بيان أنَّ المراد مجموع المعنيين، فلا يكون الوصف على معنى الكمال إلّا بإثبات أنَّه تعالى هو الذي يجير ونفي أن يجارَ عليه.

فائدة حذف المفعول في قوله ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾:

ربُّنا سبحانه يجير من يشاء ويمنع من يشاء

حُذفَ المفعول لتنزيل الفعل منزلة اللّازم، بمعنى إثبات معنى الإجارة للّه تعالى على الإطلاق من غير تعرّض لمفعول معيَّن ومن غيرِ نظر إلى أثر الإجارة، فيكون أبلغ في إثبات المعنى، والمعنى: من شأن الإجارة أن تكون منه، وهو المناسب للسّياق المنبئ عن أوصاف اللّه تعالى الدّالّة على وحدانيَّته وعظيم قدرته، ولمّا نُزّلَ الفعلُ منزلة اللازم وكان الكلامُ موجَّهًا إلى المشركين أفاد أنَّهم بإشراكِهم باللّه تعالى كانوا كمَن نَفَى أن يكونَ للّه تعالى إجارةٌ بوجهٍ من الوجوه[1].

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 155.

بلاغة القصر:

لمّا كانت جملة ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ﴾ معطوفةً على ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ كان الكلام بتقدير: (مَنْ هو يجير ولا يجار عليه)، ليفيد الكلام التّخصيص بسبب مجيء المسند والمسند إليه معرفتين، وأفاد الضّمير (هوَ) تأكيد الحكم أي: هو لا غيره الذي يجير ولا يجار عليه.

الله تعالى لا غيره الذي يُجيرُ ولا يُجارُ عليه

دلالة (لا) في قوله ﴿وَلَا يُجَارُ﴾:

تفيد (لا) النّفي، ولمّا دخلت على الفعل المضارع أفادت هنا معنى استمرار النفي، لتفيد أنّه لا يستطيع أحد أن يمنع أحدًا منه سبحانه، فهو صاحب العزَّة التّامة[1]، والقدرة المطلقة.

نكتة البناء للمفعول في ﴿يُجَارُ﴾:

جيء بالفعل على صيغة المبني للمفعول لقصد انتفاء الفعل عن كلِّ فاعل[2]، ولبيان أنَّ فاعل هذا الفعل معدوم لا وجود له، فأفادت هذه الصيغة العموم مع الاختصار في اللفظ.

سبب التعدية بحرف الجر (على):

تضمين الفعل معنى النّصرة والاستعلاء

لمّا كان الأصل في تعدية الفعل ﴿يُجَارُ﴾ أن يقال يجارُ أي يُجارُ هو، لأنّ الفعل متعدٍّ بنفسِه لا بواسطة حرف الجرِّ، فيقوم مفعوله مقام الفاعل، كانت تعدية الفعل بـ(على) في قوله ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ﴾ على خلاف مقتضى الظّاهر لقصد تضمين الفعل ﴿وَلَا يُجَارُ﴾ معنى النّصرة والاستعلاء، والمعنى لا ينصر عليه أحد، ولا يمكن لأحدٍ أبداً أن يجير جواراً يكون مستعلياً عليه[3]، فأفادت التّعدية تكثير المعنى مع وجاز اللفظ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 112.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 112.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 94، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 13/ 216، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/ 589، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 258.

من أساليب القرآن في الحجاج التّهييجُ والإلهاب والحثُّ على الإقرارِ والإذعان

أدنى العلم موصل إلى الإيمان بالله واليوم الآخر

حذف الجواب حملًا للمخاطب على الإذعان لظهور الجواب

دلالة التّعبير بـ﴿إن﴾:

تفيد ﴿إن﴾الشّرطية في قوله ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ التّشكيك في علمِهم بأنَّ ملكوت كلِّ شيءٍ بيد اللّه، بعد التّشكيك في علمهم للاستهانة بهم وتوبيخهم لعدم انتفاعِهم بعقولِهم، إذ جهلوا الأمر البيّن الواضح وهو أنَّ ملكوت كلِّ شيءٍ بيد اللّه وأنَّه يجير ولايُجار عليه، ويأتي في هذا الأسلوب كما في سابقه أنَّه من أساليب الاحتجاج والتّهييج والإلهاب والحثِّ على الإقرارِ والتّسليم والإذعان، ولهذا أجاب عنهم في قولِه ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ لظهور الأمرِ ووضوحِه، وفيه دعوة للتّأمّل في ملكوت السّماوات والأرضِ، وأنَّ كلَّ ما في الوجود بيد اللّه وحده.

دلالة حذف المفعول:

حذف مفعول ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ في هذه الآية كذلك، لتأكيد التّشكيك في حصول العلم عندهم، ليفيد أنَّ من له أدنى علمٍ يؤمن باللّه وبالبعثِ بعد المماتِ، ويحتمل أن يكون المفعول معلومًا وحذفَ بدلالة السّياق عليه، والتّقدير: (إن كنتم تعلمون مَنْ بيده ملكوت كلِّ شيءٍ ومن يجير ولا يجار عليه؟).

دلالة حذف جواب الشّرط:

حُذِفَ جواب الشّرط في قوله ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ كما في سابقه لدلالة الاستفهام عليه، وتقدير الكلامِ: (إن كنتم تعلمون شيئًا فأجيبوني عن السّؤال)، ليفد تقرير تجهيلِهم، وتقدَّم أنَّ حذف جواب الشّرط في مثل هذا الموضع يقصد به الاحتجاج على المخاطب لظهور الأمر ووضوح العلم به.

مناسبة الفصل:

الفصل في قوله ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ على طريق الاستئناف البيانيِّ، وبيانُه أنَّه لمّا قال اللّه تعالى ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ

﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ اقتضى الكلامُ سؤالًا، وهو ماذا سيقولون؟، فقال ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾.

سرُّ الإجابة عن الكافرين:

ظهور حقيقة أنَّ كلَّ شيء لله وحده

جاء الكلام في قوله ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ على خلاف مقتضى الظّاهر، إذ أجاب عن الكافرين؛ للإشعار بأنَّه لاجوابَ سوى أنَّ يقولوا للّه ملكوت كلِّ شيءٍ، للتّنبيه على أنَّ هذا الأمرَ ممّا هو معلوم ببديهة العقل كما أنَّ الإجابةَ عنهم إلزامٌ لهم بما لايمكن إنكارُه، وفي الإجابة عنهم استهانة بهم كذلك، فمن لا يُؤبَه له يجابُ عنه.

دلالة مجيء السين:

تفيد السّين في قوله ﴿سَيَقُولُونَ﴾ أنَّ فعل القول سيقع قريبا، فلا يلبث الكافرون أن يقرّوا بأنَّ كلّ شيء بيد اللّه وأنَّه يجير ولا يجار عليه، فالأمر لا يحتاج إلى تأمّل، كما تفيد السّين تأكيد وقوع القول وتقريره.

نكتة التّعبير بضمير الجمع:

علم الله تعالى بما يعلن النّاس وما يعلنون

التعبير بضمير الجمع في قولِه ﴿سَيَقُولُونَ﴾ العائد على جميع الكافرين إعجاز لنبوّة سيّدنا محمَّد ﷺ، للإيذان بإقرارِهم جميعًا، فلو قال واحد منهم في وقت نزول الآية غير هذا القولِ لبطل إعجاز القرآن كما تقدَّم في الآية السابقة.

بلاغة الكناية:

الإقرار بملك الله تعالى لكلِّ شيء يقتضي الإقرار بالبعث والحساب

لمّا كان الكافرون قد أقرّوا في قوله ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ أنَّ ملكوت كلِّ شيءٍ بيد اللّه، أفاد بلازمِه على سبيل الكناية وجوبَ إقرارِهم أنَّه هو الملك الواحد الأحد وأنَّ خلقَهم ومماتَهم وإحياءَهم بيده لأنَّها كلَّها في ملكوتِه، فيفيد الكلام إرادة معنى الملزوم ولازمِه.

فائدة الفاء في قوله ﴿فَأَنَّىٰ﴾:

الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي يترتب على علمهم

ترتّب السّؤال على أدلّة الإقرار أدعى للإذعان

بأن اللّه تعالى خالق الأرض، ومن فيها والسّماوات السّبع، وربوبيَّته للعرش ولها، وكونه صاحب السُّلطان الأعظم، يترتَّب على هذا كلِّه أن يسألوا كيف يُسحرون، أي ينخدعون ويميلون عن الحقِّ الراكز في نفوسهم إلى الباطل الذي هو أوهام مخيَّلة، وليس حقائق ثابتة معلومة لكلِّ ذي فكر وعقل وإدراك[1].

براعة التّعبير بالاستفهام المجازي:

دلالة (أنَّى) على معنى كيف ومن أين

معنى (أنَّى) كيف ومن أين، ففي هذا الاستفهام في قوله ﴿فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾ جمع بين السّؤال عن الهيئة وعن الطريقة التي سحروا بها، ولمّا كان الاستفهام على معنى الإنكار المتولِّد منه التّقرير والتّوبيخ والتّبكيت، والتّعجيب من إنكارِهم البعثَ وتكذيبهم الحقَّ كان المعنى: فكيف بعد إقراركم بهذا كله تخدعون وتصرفون عن الحقِّ وكيف يخيّل لكم أنَّه باطل، ومن أين لكم أن تُخدعوا وتصرفوا عن الرّشد مع ظهور الأمر وتظافر الأدلَّة على كلِّ حقٍّ ولاسيَّما إمكان البعثِ، وقد أقررتم بما يلزم منه شمول العلم وتمام القدرة؟ ومن أين تتخيَّلون الحقَّ باطلاً، فإنَّ مَن لا يكونُ مسحوراً مختلَّ العقل لا يكونُ كذلك[2]، وفي الاستفهام المجازي استهجان للمخاطبين في نسبتِهم إلى الانخداع وتخيّل الباطل حقًّا، فكأنَّما غابوا عن رشدِهم وعقولِهم.

بلاغة الاستعارة في قوله ﴿تُسۡحَرُونَ﴾:

المنخدع بالباطل بمثابة المسحور

جاءت الاستعارة على معنى تشبيه ترويج الباطل بالسّحر بجامع تخيّل ما ليس بواقعٍ واقعًا[3]، أو على تشبيه الخديعة بالسّحر بجامع التّخليط، فحذف المشبَّه وذكر المشبَّه به بصيغة الفعل على طريق الاستعارة التّصريحيَّة التّبعيَّة، وهو في الأصلِ تشبيه لما وقع

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5110.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 94، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 179، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/ 589، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 217.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 112.

منهم من التخليط ووضع الأفعال والأقوال غير مواضعها بما يقع من المسحور، فعُبِّرَ عنهم بذلك امتهانًا لهم وتوبيخًا وسخريَّةً من أفعالِهم واعتقادِهم[1].

سرُّ اختلاف جمل التّذييل في الآيات:

من بديع بلاغة القرآن مجيء كلِّ تذييل في موضعه اللّائق به لفظًا ومعنى

للسّائل أن يسأل عن سبب اختلاف جمل التّذييل في الآيات، فقال مرَّةً ﴿قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وقال بعدها ﴿قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وقال في الآية الأخرى ﴿قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾؟، وبيانه أنَّه لمّا جاءَ السّياق على طريق التّرقّي في عظم المخلوقات ترقّى في التّذييل فجاء التّذييل الثّاني أقوى ممّا قبله وجاء التذّييل بقولِه ﴿فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾ أشدَّ ممّا قبله، لأنَّ هذا أبلغ في الوعيد، وبيانه أنَّه جعل التَّوبيخ على سبيل التّدريج بحسب وضوح الحجَّة شيئًا فشيئًا، فوقف على الأرض ومن فيها وجعل بإزاء ذلك التَّذكُّر، فخصّت بالتَّذكّر، لأنَّهم إذا أثبتوا الخلق الأول لزمهم الخلق الثاني، ثمَّ وقف على السَّماواتِ السَّبۡعِ، والعَرۡشِ، وجعل بإزاء ذلك الحثَّ على التّقوى، فمن يملك هذه الأشياء من السّماوات السَّبع والأرض والعرش العظيم وأقررتم له بذلك، فلِمَ لا تجتنبون معصيته، ولا تتَّقون عقوبته، إذ كانت هذه الأجرام العظيمة لا تستغني عنه ساعة، فأنتم أحوج إلى أنۡ تقوموا بحقّ ربوبيَّته لكم، فتمتنعوا بطاعته من موجب عقابه، فهذه لائقة بمكانها، حالّة في موضعها، فجاء التّذييل لِلحثِّ على التّقوى والوعيدِ على عدمها، أي أفلا تتَّقونَ، فلا تُشۡرِكوا بِهِ بعض مخلوقاته ولاتنكروا قدرتَه على بعض مقدوراتِه، ثم وقف على ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ وفي الإقرار بهذا التزام بكلِّ ما تقع به الغلبة في الاحتجاج، فإذا أقرّوا بذلك قال لهم: ﴿فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾ أي فكيف تخدعون عن

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 154، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 217، والقاسمي، محاسن التأويل: 7/ 300.

عقولكم حتَّى تتَّخذوا الأوثان والأصنام آلهةً، وهي لا تسمع ولا تبصر مع القادر العليم الذي قد أقررتم له بأتمّ الملك، وبكلّ الخلق الذي يشهدكم، والذي يغيب عنكم، ومن أين يأتيكم ما يغلب على عقولكم فيخيِّل الباطلَ إليها حقًّا، والقبيح عندها حسنًا، فوقع التوبيخ بعد في غاية البلاغة، فكلٌّ جاء في مكانه اللائق به[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحفظ والحماية والجوار:

الإجــارة فيها معنى القوّة والمنعة والإغاثة والنّصرة وتتعلّق بالأشخاص

الحفظ يدلُّ على التَّعهّد والرّعاية وعدم الغفلة، فالحافظ للشّيء لا يضيع منه الشّيءُ ولا يتفلّت وهو مهيمن عليه، والحماية تكون لما لا يمكن إحرازه وحصره مثل الأرض والبلد تقول هو يحمي البلد والأرض وإليه حماية البلد، والحفظ يكون لما يحرز ويحصر، فيقال هو يحفظ دراهمه ومتاعه ولا يقال هو يحمي دراهمه ومتاعه ولا يحفظ الأرض والبلد، وأمّا الجوار فهو من المجاورة فيتعلَّق بالأشخاص، وفيه معنى الحفظِ بقوّة ومنعة من المجير وأنَّه ينصره إذا استغاث به، لقربِه منه، فالجوار أبلغ في قوّة المنعة والإغاثة من الحفظ والحماية، كما أنّه يتعلَّق بالأشخاص والذّوات لا بالأشياء[2].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 153، والإسكافي، درة التنزيل ص: 947 - 949، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 600.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (جور، حفظ، حمى)، وأبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 207.

﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٩٠﴾ [المؤمنون: 90]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ الحقِّ المبين بعد ذِكْر افتراء المُفترين

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة ادِّعاءَ الكافرين أنَّ القرآن ليس بحقٍّ، وكانوا بذلك كاذبين مُفترين في وصف القرآن بأنَّه باطلٌ؛ ناسبَ أن يُثبت عكسَ ما زعموه افتراءً وكذبًا فقال: ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ﴾؛ لأنَّه أتى بالحُجج الواضحات، والمُعجزات النّيِّرات، ولم يَبقَ لمُجادلٍ أن يزعم أنَّه باطل، ومَن افترى ونسبَ القرآنَ لغير الحقّ فيَصْدُق فيه قولُ الحقِّ سبحانه: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ فبان كذبُهم وافتراؤهم؛ فهو انتقالٌ من بيانِ وصف المُفترين إلى وصف القول المبين.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: الحَقُّ في الأصل: الثُّبوت والدّلالة على إحكام الشّيء، يُقال: حَقّ الأمرُ يَحِق حقًّا، فهو حَقٌّ؛ أيْ: ثبت واستقرَّ، وقيل: أصلُه المطابقةُ والموافقةُ، كمُطابقة رِجْلِ البابِ في حُقّه لدورانه فيه على استقامةٍ(1)، وورد لفظُ الحقِّ في القرآنِ الكريم مُرادًا به عددٌ من المعاني؛ من مثل: الله، والقرآن، والتّوحيد، والإسلام، والعدل، والصّدق، والحاجة، والبيان، والمُراد ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ في الآية الكريمة ما أَخْبَرَ به جلَّ شأنه من التَّوْحيدِ والبَعْثِ ممّا أنكره المشركون.

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الحقُّ قوّةٌ ظاهرةٌ والكذبُ وهمٌ ممحوقٌ

بعد أن جاء توبيخُ المشركين المُكذّبين في الآيات السّابقة على اتّباعهم خُطوات الشّيطان والهوى والانقياد للخديعة والتّقوّل على الله؛ أضربتِ الآية عن كلِّ ما ذكروه من عقائدَ فاسدةٍ، وما ادَّعوه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات: (حقق).

من أقاويلَ باطلةٍ؛ فقال: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾؛ أيِ: الصّدق الذي لا مِريةَ فيه؛ بأنَّ البعث حقٌّ والنُّشور حقٌّ؛ فأخبرهم بالحقِّ الثّابت والوعد الصّادق، ثمَّ قرَّر كَذِبَهم وإفكَهم وضلالَهم فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ أيّ: كاذبون في دعواهم أنَّ البعث غيرُ واقع، وأنّ مع اللّه تعالى آلهةً أخرى، وأنّ الرّسول ﷺ لم يَجئْهم بالحقّ الذي يُريدونه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوع ﴿بَلْ﴾ ودلالتُها:

إذا فلق الحقُّ بحُجَّته أضربَ عن الباطِل بوهمِه

أفادت ﴿بَلْ﴾ الإضرابَ الانتقاليَّ؛ وهو الانتقالُ مِنَ المجاوبةِ إلى تقريرِ الحقِّ مُبيِّنًا بُطلانَ ما يدَّعون عن طريقِ إثباتِ بطلانِه في ذاته وبيانِ صحّة نقيضِه؛ فانتقلتِ الآيةُ من المجاوبة التي تكون بين المشركين وبين النَّبيِّ ﷺ؛ فوجَّه أنظارَهم إلى ما يُنبِئُ عنِ الحقِّ - وهو الوحدانيّةُ - فقرّرها من أقوالهم؛ لإثباتِ زيفِ جدالهم ودعاويهم؛ فأعلمهم أنّ الكون كلّه مخلوقٌ للّه تعالى مُتضمِّنٌ وحدانيتَه تعالى في العبادة[2].

دلالة التّعبير بالماضي:

إتيانُ الحقِّ ثباتٌ أكيدٌ وبرهانٌ تليدٌ

استعمل النّظمُ الكريمُ صيغةَ الفعلِ الماضي ﴿أَتَيْنَٰهُم﴾ تأكيدًا لسُطوعِ براهينِ الحقِّ، وثباتِ معالمه، وقوّةِ أدلّته فيما مرّ في الآيات الكريمة التي عرضت جدالَ هؤلاء المُعاندين المُنكِرين مع النّبيّ ﷺ، كما جاء التّعبير بالفعل الماضي لتأكيد أنّ أمر الحقّ مُقَرّر ثابتٌ لا تغييرَ فيه ولا تبديل.

سِرُّ إسنادِ الفعل إلى الضَّمير:

القضايا العُظمى يَحسُن معها الإسنادُ إلى العظيم

أَسنَدَ النّظمُ الكريم الفعلَ ﴿أَتَيْنَٰهُم﴾ إلى نون الجمع، ولم يَقُلْ مثلًا: (بل أتاهم الحقّ)، مُجرّدًا من نسبته للّه ﷻ؛ وذلك للدّلالة

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5111، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 18/ 70.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5111.

على أهمّيّة الأفعالِ المُسنَدة في هذا الخِطاب الرّبّانيّ، فقضايا التّوحيد والبعث والنّشور ونفيِ الولدِ عنِ اللّه تباركت آلاؤه تقتضي إظهارَ نسبتِها إلى الفاعل الحقيقيِّ جلَّ في علاه؛ فجاء التّعبير بنون العَظَمة للإشارة إلى أنَّ هذه القضايا عظيمةُ النّسبةِ، وذلك لأنَّها لُبُّ عقائد الإيمان باللّه ﷻ، ومِن ثَمَّ أسهمت نون العَظَمة في لفت الانتباه وإثارة الأذهان.

الغرض من ذِكر المفعول به:

العناية بالمُعرِض تزيدُه تبكيتًا وتقريعًا

آثرَ النَّظمُ الكريم النَّصَّ على المفعولِ به في قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَٰهُم﴾ دونَ أن يقول: (أتينا بالحَقّ)؛ وذلك لبيانِ أنّهم كانوا مقصودين بهذا الحقِّ الذي أتى اللّهُ به سبحانه، وأنَّهم قابلوا تلك العنايةَ وهذه الرّعايةَ بالتّكذيب، ففَرْقٌ بين أن يكون الإتيانُ بالحقّ عامًّا لكلِّ أحدٍ، وبينَ أن يكون عامًّا خُصّ به قومٌ نوعَ خصوصٍ؛ ففيه تبكيتٌ لهم وتقريعٌ لإعراضهم.

معنى الباء ودلالتُها في: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

تجسيد معنى الحقِّ على سبيل الاستعارة المَكْنيّة

الباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ للتّعدية[1]، ولهذه الباء دلالةٌ؛ وهي تقوية فعلِ الإتيان وتجسيدِ معنى الحقّ، فكأنَّ الحقَّ شيءٌ يُؤتَى به، وهذا يُنبئُ عن قوّة الحقِّ وأثره في نفوسهم، فهم يرونه بأعينهم ويسمعونه بآذانهم، ويلمسون آثارَه في الحياة؛ ففيه تشبيهُ الحقِّ - وهو أمرٌ معقول - بمحسوسٍ يُؤتى به، ودلَّ عليه لازمُ فعلِ الإتيانِ على سبيل الاستعارة المَكنيَّة الأصليَّة.

براعة التَّقابلِ بين مُفرَدَتي الحقِّ والكذبِ:

اجتماعُ ثلاثة فنونٍ إيجاز القصر، والطِّباق الخفيّ، والاحتباك

بين قوله تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ وقوله: ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ طباقٌ خفيٌّ، حيثُ إنَّ الحقَّ يشتمل على الصِّدقِ، والكذبَ يشتمل على الباطل، فقابل بينَ المُتضادَّيْن؛ إذْ بينهما تقابلٌ خفيٌّ، ونُكتَتُه تكمن في جمعه معانيَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 112.

كثيرةً في ألفاظٍ قليلةٍ، وهو على هذا من إيجاز القصر، ونستطيع أن نَعُدَّه من الاحتباكِ، والتّقدير: (بل أتيناهم بالحَقّ وإنّا لصادقون، وأتَوْنا بالباطل وإنّهم لكاذبون)؛ فاكتفى بما ذَكَر؛ ففيه احتباكٌ بديعٌ، ففي هذا التَّقابل ثلاثة أنواعٍ من البلاغة؛ وهي: الطِّباق الخفيّ، وإيجازُ القَصْر، والاحتباك، ومثل هذا لا يكون إلّا في كلام العزيز الحميد.

نوع الواو ودلالتُها في ﴿وَإِنَّهُمۡ﴾:

يقوى في هذه الواو معنى الحال، وتحتمل العطف

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ﴾ إمّا أن تكون حالًا منَ المفعول به في قوله تعالى: ﴿أَتَيۡنَٰهُم﴾؛ أيْ: أتيناهم بالحقّ الصّادق الواضحِ حالَ كونِهم يُكذِّبون؛ فانظر إلى ذلك التَّباين والبُعد عن الاستجابة للحقِّ المُبين، وإمّا أن تكون عاطفةً لهذه الجملة ﴿وَإِنَّهُمۡ﴾ على الجملة السّابقة ﴿أَتَيۡنَٰهُم﴾، فتكون استئنافيَّةً لا محلَّ لها من الإعراب؛ أيْ: أتيناهم بالحقّ وهم كاذبون، وكون الواو للحال أنقى في البلاغة وأرقى في البيان.

بلاغةُ توالي التَّوكيدات:

إذا عظُم الجُرْمُ حَسُنَ التَّوكيدُ ورسخَ البيان

اشتمل قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ على ثلاثة مُؤكِّدات؛ وهي: (إنَّ)، واللّام، واسميَّة الجملة، وقد تعاضدت هذه المُؤكِّدات الثّلاثةُ على بيان عِظَم جُرْم هؤلاء المُكَذِّبين بالآيات والبعث؛ فجاءت المُؤكِّدات الثّلاثة متواليةً؛ لتقرعَ أسماعَهم دفعًا لإنكارهم، وتحريكًا لعقولهم التي تعامَتْ عن رؤية الحقّ الواضح، وأبَتْ إلّا العنادَ والمكابَرة[1].

دلالةُ التّعبير باسم الفاعل:

الجمعُ بين أصالتهم في الكذبِ وتجدُّد ذلك منهم

آثَر النَّظمُ الكريم اسمَ الفاعل على الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ وذلك لبيان أصالتهم في الكذبِ ورسوخهم فيه؛

(1) بسيوني فيود، من هدي القرآن، تفسير بلاغيّ لسورة المؤمنون، ص: 123.

فالجمعُ بين إشارة الاسميَّة ودلالةِ الفعليَّة في اسم الفاعل؛ يدلُّ على أنَّهم كاذبون أصالةً ويكذبون مُجدَّدًا، وهذا أَشَدُّ في توبيخهم، وأقوى في ردِّ مقالتِهم.

بلاغةُ التَّذييل في الآية:

التَّذييلُ مُبرهِنٌ على علَّة إعراضِهم وبيانِ أمراضِهم

قولُه تعالى: ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ تذييلٌ توكيديٌّ لما تقدَّم ذِكْرُه؛ وهو اعترافُهم بما هو كائنٌ للّه تعالى وهو الحَقُّ، ومفصِحٌ عن سبب إنكارهم البعثَ والتّوحيد - وهو كذبُهم - فإنكارُهم لا لأنَّ ما أتاهم باطلٌ وكذبٌ؛ بل لأنَّه حقٌّ وصدقٌ يُخالف أهواءَهم، فكَذَبوا حسدًا وحِقدًا وكراهيَةً، وتُمثِّل الآيةُ إيجازًا صريحًا في موقفهم منَ الرِّسالة والرّسول.

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ٩١﴾ [المؤمنون: 91]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانـتـقـالُ من إثـبـاتِ البعثِ إلى نفي الولدِ والشّريكِ

لَمّا بيَّنتِ الآيةُ السّابقةُ أنَّ القرآنَ الكريم هو الحقُّ المُبين، وبيّنت صدقَ ما أنزل اللّهُ تعالى فيه منَ التّوحيدِ والبعثِ والنّشورِ ونفي الشّريك، وأنّ ما سواه هو الكَذِبُ المُستبين فقرّرتْ بذلك كذبَ هؤلاء المُعاندين؛ ناسبَ بعدَها غايةَ المناسبةِ أن تشرعَ هذه الآيةُ في تأكيدِ معالمِ الوَحْدانيَّةِ للّه تَعالى؛ وذلك بِالاِسْتِدْلالِ على انْتِفاءِ الشُّرَكاءِ لَهُ في الأُلوهيَّةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱتَّخَذَ﴾: (اتّخَذَ) و(تَخِذَ) من أفعال التّحويل والتّصيير، وهما بمعنًى واحد، وقيل: هما في الأصل من مادّة واحدة؛ فذهب قسم منَ اللُّغويّين إلى أن (تَخِذَ) مبنيٌّ من (أخذ)، وذهب آخرون: إلى أنّهما من مادّتيْن مختلفتيْن، والرّأي الأوّل أرجح[2]، والأخذُ: حَوْزُ الشّيء، وذلك تارةً بالتّناولِ، وتارةً بالقهرِ، ويجري مجرى الجَعْلِ والاختيار والصُّنع والكسب، يُقال: "تَخِذْتُ مالًا"؛ أيْ: كَسبتُه، وأُلزمتِ التّاءُ الحرفَ كأنّها أصليّةٌ، وقيل: أصلُه منَ الأخذ، ثُمّ أُبدِلَت الهمزةُ تاءً، ومصدره: (الاتّخاذ)، (افتعال) منَ الأخذ، إلّا أنّه أُدْغِم بعد تسهيل الهمزة وإبدال التّاء، ثمّ لَمّا كَثُر الاستعمالُ على لفظ (الافتعال) توهَّموا أنّ التّاء أصليّةٌ؛

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 10/ 48.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/ 30.

فبَنَوا منه (فَعِل، يَفْعِل)، فقالوا: (تَخِذَ، يَتّخِذُ)، وهو فعل ينصِبُ مفعولَيْن من أفعال التّحويل والتّصيير[1].

2) ﴿لَّذَهَبَ﴾: ذَهَبَ يَذْهَبُ ذَهابًا بالفَتْحِ ويُكْسَرُ، فهو ذاهِبٌ وذَهوبٌ؛ أيْ: سارَ أو مَرَّ، وذَهَبَ به: أزالَهُ، كأَذْهَبَهُ غَيْرُهُ، ويقولونَ: ذهَبَ الشَّأْمَ فعَدّوْه بغير حَرْف، ومنَ المَجاز: المَذْهَبُ: المُتَوَضَّأُ؛ لأَنَّه يُذْهَبُ إليه، ومن المجاز: المَذْهَبُ: المُعْتَقَد الذي يُذهَب إليْهِ، ويأتي في القرآن بمعانٍ عدَّة؛ منها: مَرَّ، ومضى، وسار، ومات، وأزال، وأضاع، وانفرد، ومَعْنى ﴿لَّذَهَبَ﴾؛ أيْ: لانْفَرَدَ ﴿كُلُّ إِلَٰهِۭ﴾ بِخَلْقِهِ الَّذي خَلَقَ واسْتَبَدَّ به[2].

3) ﴿وَلَعَلَا﴾: علا، يَعلو، عُلوًّا، أصلٌ يَدُلُّ على السُّموِّ والارْتِفاع، لا يَشِذُّ عَنْهُ شَيْءٌ؛ فهو عالٍ وعَليّ، والمفعول معلوّ، وعلا الشّخصُ، وعلا الصَّوتُ: ارتفع، وعلا فوقَ الماء: طَفا، وعلا فوقَ السّحاب: ارتفع، وأَصْلُ هذا البناءِ العُلُوُّ، فأَمَّا العَلاءُ فالرِّفْعَةُ، وأَمَّا العُلُوُّ فالعَظَمَةُ والتَّجَبُّرُ، ومنه: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ٢٢﴾ [الحاقة: 22]؛ أيْ: مرتفعة المكانة، وعلا شأْنُه وذِكْرُه: نجح واشتهر، وعلا الشّجرةَ: صعدها، وعلا ظهرَ جواده: ركبَه، وعلا خصمَه بالسّيف ونحوه: ضربَه به، وعلا في الأرض: تكبَّر وظَلَم، ومعنى ﴿وَلَعَلَا﴾ في الآية: طَلَبَ بَعْضُهم مُغالَبَةَ بَعْضٍ[3].

4) ﴿سُبۡحَٰنَ﴾: مصدرُ (سَبَح، يُسَبّح)، مُضافٌ إلى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾؛ وهو مأخوذٌ من الجَذْر (سبح)، والتّسبيح: تنزيه اللّهِ عن كلّ ما لا يليق أن يوصَف به ﷻ، وسُبحانَ اللّه: تَنْزيهًا للّه من الصّاحِبَةِ والوَلَدِ، معرفةٌ، ونُصِبَ على المَصْدرِ؛ أي: أُبَرِّئُ اللّهَ من السّوءِ براءَةً، أو معناهُ: السُّرْعَةُ إليه، والخِفَّةُ في طاعَتِهِ، ومن معانيه أيضًا: تعظيمُ اللّه وتمجيدُه بالصّلاة والذِّكر والعبادات، والمُراد به في الآية مُطلقُ التّنزيه عن ادّعاء الولدِ أو الشّريك، تعالى اللّهُ عن ذلك عُلوًّا كبيرًا[4].

5) ﴿يَصِفُونَ﴾: الوَصْفُ: ذِكْرُ الشَّيءِ بحِليته ونَعْته، ووَصَفْتُ الشَّيءَ وصْفًا وصِفَةً، والهاء عِوَضٌ عن الواوِ، والصِّفَةُ: الحالة التي عليها الشّيء من حِليته ونَعْته، والصِّفةُ لزومُ الأَمارة

(1) الرّاغب، المُفردات، والزّبيديّ، تاج العروس، وأحمد مختار عمر، المعجم الموسوعيّ لألفاظ القرآن: (أخذ).
(2) الرّاغب، المُفردات، وأحمد مختار عمر، المعجم الموسوعيّ لألفاظ القرآن: (ذهب)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 15/ 478.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن: 4/ 20، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات: (علو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (سبح).

في الشّيء، وقد يكون الوَصْفُ حقًّا وباطلًا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾ [النّحل: 116]، ومنه قوله ﷻ: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠﴾ [الصّافات: 180]؛ أيْ: إنّه يتعالى عمّا يقوله الكفّار في وصفه؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [الرّوم: 27]، والمعنى المُراد بقوله تعالى: ﴿يَصِفُونَ﴾: يُهيِّئون ويُسَوّون ويُنسَبون إليه تعالى[1].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

تنـزيه اللّه تعالى عن الولدِ والشّريكِ بديهةٌ عقليّةٌ وحقيقةٌ جوهريّة

تُقَرِّرُ الآيةُ الكريمةُ أنّ اللّه ﷻ لم يتَّخذ ولدًا كما يزعم هؤلاء الجاهلون المُكَذِّبون المُعانِدون، كما تُقَرّر أنّه تعالى اسمه لم يكن معه في القديم، ولا حينَ ابتدع الأشياءَ مَن تصلح عبادتُه، ولو كان معه في القديم أو عند خلقه الأشياءَ مَن تصلح عبادتُه لاعتزلَ كلُّ إلَهٍ منهم بما خَلَقَ مِن شيءٍ؛ فانفرد به، ولَتَغالبوا ولَعَلا بعضُهم على بعضٍ، وغلب القويُّ منهم الضّعيفَ؛ لأنَّ القويّ لا يرضى أن يعلوَه ضعيفٌ، والضَّعيف لا يصلح أن يكون إلهًا، فسبحانَ اللّهِ ما أبلغَها من حُجّة وأوجزَها؛ لِمَن عَقَل وتَدَبّر[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة النّفي بأداةِ ﴿مَا﴾:

أعظمُ الجرائم يُناسبُها أبلغُ درجاتِ النّفي

افتَتَحتِ الآيةُ نظمَها البليغَ بـ﴿مَا﴾ الاستغراقيّةِ الدّالّة على النّفي القاطع دون غيرها؛ لأنّها من أقوى أدوات النّفي وأشدّها توكيدًا؛ فهي تدخل على الجُمل الاسميّة والجُمَل الفعليّة معًا، بخلاف غيرها من أدوات النّفي، ولمّا كانت هذه الآية من أهمّ المواضع التي تنفي الشّرك عن اللّه تعالى؛ فقد صُدّرت بـ﴿مَا﴾ لقوّة دلالتها على نفي اتّخاذِ اللّهِ للولد، ودحْضًا لمَزاعم الكفّار المُكَذّبين المُعانِدين[3]، وهي

(1) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (وصف).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 101 - 102، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 71.
(3) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 253، وما بعدها.

دالَّة على العموم؛ فهي تنفي كلَّ اتخاذٍ يتصوّره الوهمُ الباطل؛ وعليه فقد اندرج تحت فعل ﴿ٱتَّخَذَ﴾ كلُّ اتخاذٍ في الماضي والحاضر والمستقبل؛ أيْ: لم يتّخذ، ولن يتَّخذ.

الإيماءُ إلى خبرِ الغيبِ كما هو عنِ الماضي

دلالة التّعبير بالماضي:

استخدامُ النّظم الكريم الفعلَ الماضي ﴿ٱتَّخَذَ﴾؛ تأكيدًا لنفي اتخاذِ اللّهِ الولدَ في الزّمن الماضي؛ فشَملت دلالتُه الماضيَ والحاضرَ والمستقبل؛ وذلك لعدم دلالته على انقطاع طارئ[1]، فإذا كان سبحانه غنيًّا في الماضي عن اتّخاذ الولد؛ فهو جَلّت قُدْرَته من باب أَوْلى غنيٌّ عن اتّخاذ بعد ذلك، وأفاد التعبيرُ بالفعل الماضي مع أداة النّفي ﴿مَا﴾ تحقُّقَ نفيِ هذه الفِرْيَة في الماضي، والحاضر، والمستقبل.

تأكيد النّفي بالاسم الجليل أبلغُ وأرسخ من النّفي بالضّمير

سِرّ التّعبير بالمُسْنَد إليه الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾:

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالاسم الظّاهر ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾، ولم يَقُلْ: (ما اتخذ من ولد) بإسناد الفعل إلى ضمير الغائب مع إمكان ذلك لغةً ونظمًا؛ وذلك لتأكيد نفي فِرْيَة اتّخاذ الولد عن ﴿ٱللَّهُ﴾، ولأنّ النّطق بالاسم الجليل في هذا السّياق يُشْعِر بعِظَم جُرْم هؤلاءِ في هذه الدّعوى، كما عَدَلَ النّظم البليغُ عنِ التّعبير بضمير الغائب إلى التّصريح بالاسم الجليل؛ لتربية المهابة في نفوس المؤمنين؛ لأنّ الأصل في النّظم التّعبيرُ بالأسماء الظّاهرة، وإنّما الضّمائرُ عِوضٌ عنها، وكذلك لأنَّ الآية السّابقة قد آثَرتِ التّعبير بنون العَظَمة؛ فكان من المناسب في هذه الآية التّصريحُ بالاسم الجليل تذكيرًا للمُتلقّي بعَظَمته وتَفَرُّده[2].

توكيدُ نفي اتّخاذِ الولد واستغراقه وعمومه

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتُها في: ﴿مِن وَلَدٍ﴾:

استخدم النّظمُ البليغ حرفَ التّوكيد ﴿مِن﴾، وهو يُفيد

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 18/ 433.
(2) محمد بن سعد الدّبل، البلاغة القرآنيّة: 1/ 496.

الاستغراقَ، ويدلُّ على التَّنصيص على العموم المُرادِ منَ التّركيب، ونفي احتمالِ غيرِه، ومن هنا فقد أفاد استغراقَ نفي جنسِ الولد، وتوكيدَ هذا النّفي بما لا يدعُ مجالًا لهذه الفِرْية المُدّعاة(1).

الغرض من تنكير ﴿وَلَدٖ﴾:

كلُّ ما توهّمَهُ البشرُ داخلٌ في عموم النّفي

جاءت كلمةُ ﴿وَلَدٖ﴾ في النَّظْم الحكيم نكرةً في سياق النّفي؛ لتدلَّ دلالةً قاطعةً على نفي اتّخاذ الولد؛ سواءٌ أكانت هذه الفرية المُدّعاةُ باتّخاذ الملائكة بناتٍ للّه - تعالى اللّهُ عن ذلك عُلوًّا كبيرًا - أو كان ذلك بادّعاء النّصارى بُنوَّة عيسى ؛ فأفاد التّنكير في هذا السّياق عمومَ الولد؛ فهو صادقٌ على كلِّ ما يتوهَّمُه الخيالُ البشريُّ.

نُكْتَةُ تقديمِ نفي الولد على نفي الشّريك:

أعظمُ فِريةٍ عرفتْها البشريَّةُ دعوى اتِّخاذ الله ولدًا سبحانه

في سياق تفنيد شبهاتِ الكفّار ومزاعمِهم، عمَدَ النّظمُ البليغ في الآية إلى تقديم نفي اتّخاذ الولد، على نفي شُبهة الشّريك، فقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ﴾ مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ الْمُشْرِكِينَ عَبَدَةُ أَصْنام، لا عَبَدَةُ مَلائِكَة؛ وذلك لأنَّ أعظم فِرية افتراها البشرُ هي دعوى اتِّخاذ اللّه ولدًا سبحانه، ونَظَرًا إلى أنَّ شُبْهَةَ عَبَدَةِ المَلائِكَةِ أَقْوى مِن شُبْهَةِ عَبَدَةِ الأصْنامِ؛ لِأنَّ المَلائِكَةَ غَيْرُ مُشاهَدِينَ؛ فلَيْسَتْ دَلائِلُ الحُدُوثِ بادِيَةً عليهم كالأَصْنامِ، ولِأنَّ الَّذِينَ زَعَموهم بَناتِ اللّه أَقْرَبُ لِلتَّمويهِ من الَّذينَ زَعَموا الحِجارَةَ شُرَكاءَ للّه، كما آثَر النّظمُ الكريم التّدُّرج من الخاصّ إلى العامّ، ولمّا كان الولدُ أخصَّ من مُطلَق الشّريك؛ فقد قدَّمَه وأَخَّرَ الشّريكَ إلى الموضع التّالي(2).

عِلَّة التَّغاير بين فعلي ﴿ٱتَّخَذَ﴾ و﴿كَانَ﴾:

الاتّخاذ ذاتيٌّ صادرٌ عنِ الفاعلِ والكونُ عامٌّ؛ فناسبَ كلُّ فعل سياقَه في النَّظْم

غاير النّظمُ الحكيمُ في موضعي النّفي؛ فاستخدم الفعلَ ﴿ٱتَّخَذَ﴾ لنفي الولد، واستخدم الفعلَ ﴿كَانَ﴾ لنفي الشّريك في الأُلوهيّة،

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 5/ 326، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 267.

(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 180، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 113 - 114.

فأفادَ باستخدام الفعل ﴿ٱتَّخَذَ﴾ نفيَ الولدِ؛ لاحتياجه للاختيار والصّنع كما هي دلالة الفعل ﴿ٱتَّخَذَ﴾، وأفاد بِفِعْلِ الكَوْنِ نَفيَ الصِّحَّةِ لِيَنْتَفيَ الوُجودُ بِطَريقِ الأَوْلى؛ أيْ: إنَّ الاتّخاذ فعلٌ ذاتيٌّ للفاعل، وهذا منفيٌّ عنِ اللّه تعالى، إذ لا بُدَّ للولد من والد، فإذا نُفيَ اتِّخاذُ الوالدِ؛ فالمُتَّخَذُ - وهو الولد - منفيٌّ، أمّا نفيُ الكونِ فباعتبار أنَّ الشَّريك مُنفصلٌ وجودُه عن شَريكِه، فليس هو فِعلًا للشّريك الآخرِ، كما هو بالنّسبة للوالد والولد، فكان استعمالُ فِعْلِ الكَون هو الأدقُّ استعمالًا، والأبهى سياقًا.

غرضُ تقديم ﴿مَعَهُۥ﴾ على ﴿مِنۡ إِلَٰهٍۚ﴾:

نفيُ وجودِ الشّريك منذُ الأزل

قَدّم النّظمُ الحكيمُ شِبْهَ الجملة ﴿مَعَهُۥ﴾؛ لتأكيد نفي شُبهة وجودِ الشّريكِ منذ الأزل مع خالق الكون ﷻ؛ فأفاد هذا التّقديمُ تخصيصَ النّفي وتوكيدَه، وهو أبلغُ في نفي وجود الشّريك، فإذا كان الشّريك الذي زعمه المُعانِدون لم يوجد منذ الأزل، فلا حاجةَ إذًا لوجوده فيما تلا ذلك.

معنى ﴿مِنۡ﴾ ودلالتُها:

نفيُ اتّخاذِ الشّريكِ وعمومُه

استعمل النّظمُ البليغ في نفي الشّريك في الأُلوهيّة حرفَ التَّوكيد ﴿مِنۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِنۡ إِلَٰهٍۚ﴾؛ لأنّه يُفيد الاستغراقَ، ويدلُّ على التّنصيص على العموم المُراد منَ التّركيب ونفيِ احتمالِ غيرِه؛ ومن هنا فقد أفاد استغراقَ نفيِ جنسِ الشّريك عن اللّه ﷻ وتوكيدَ هذا النّفي بما لا يدع مجالًا لهذه الفِرية المُدّعاة[1].

غَرَضُ تنكير لفظ ﴿إِلَٰهٍۚ﴾:

عمومُ نفي الشّريك وما كان في معناه

جاءت كلمةُ ﴿إِلَٰهٍۚ﴾ في النَّظْم الحكيم نكرةً في سياق النّفي؛ لِتَدُلَّ دلالةً قاطعةً على نفي وجود الشّريك له تباركت آلاؤُه، وقد

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5112.

خُصِّصَ السّياقُ هاهنا لنفي وجودِ الشّريك في الخَلْق تحديدًا؛ ردًّا على مزاعم المُكَذّبين وافتراءاتِهم، وذلك لمناسبة السّياق؛ وهو ادّعاء الشّريكِ للّه في قضيّة الخَلْق، وجاء نفيُ ادّعاء الشّريك في العبادة في مواطنَ أُخْرى[1]، وليس المقصودُ نفيَ الإله الواحد؛ بل جميعِ الآلهةِ المزعومة.

معنى ﴿إِذٗا﴾ ودلالتُها على المحذوف:

فسـادُ الـكـون واضطرابُه نتيجةٌ حتميّةٌ لِتعدُّد الآلهة والشّركاء

﴿إِذٗا﴾ حرفُ جوابٍ وجزاء، وهي لا تدخل إلّا على كلام هو جزاءٌ وجوابٌ، ولمّا لم يتقدَّمها في قوله تعالى: ﴿إِذٗا لَّذَهَبَ﴾ شرطٌ ولا سؤالُ سائلٍ؛ ذهب العلماء إلى أنّ الشّرط محذوفٌ في هذا الموضع، وأنّ تقديره: (ولو كان معه آلهة)، وإنّما حُذِفَ لدلالة قوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ﴾، وهو جوابٌ لِمَن معه المُحاجَّةُ من المشركين، وقد بيّنت ﴿إِذٗا﴾ نتيجةً حتميَّةً لِتعدُّد الآلهة والشّركاء، وهي فسادُ الكونِ واضطرابُ أمرِه؛ وهو أمرٌ تُقِرُّ البَديهةُ العقليّة بعدم وقوعِه؛ لانتظام أمرِ الكون وتناسقِه، وإنَّما جيء بها من قَبيلِ مُجاراةِ الخَصْمِ[2].

نُكْتَةُ تقديمِ النّتيجة على الدّليل:

وضـوح انـتـفـاءِ الـشّـركـاء عن الله لا يفتقر إلى دليلٍ

قُدِّمَتِ النَّتيجَةُ في هذا الموضع على القياسِ لِتُجْعَلَ هي المَطْلوبَ؛ لأنَّ هَذا المَطْلوبَ واضِحُ النُّهوضِ لا يَفْتَقِرُ إلى دَليلٍ إلّا لِزيادَةِ الاِطْمِئْنانِ، فقَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ﴾ هو المَطْلوبُ، وقَوْلُهُ تعالى: ﴿إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ إلى آخِرِ الآيَةِ هو الدَّليلُ، وتَقْديمُ هذا المَطْلوبِ على الدَّليلِ أغْنى عن التَّصْريحِ بِالنَّتيجَةِ عَقِبَ الدَّليلِ[3].

بلاغةُ الإيجازِ بالحذف:

دِقّـةُ الإيـجـازِ تُنبِئُ عن بلاغة الـقـرآن في معالجة قضيّة نفي الشّركاء

أشار وجودُ التّنوين في ﴿إِذٗا﴾ إلى جملة أُضيفت إليها ﴿إِذٗا﴾، وهي

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5112.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 246.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 113.

في معنى الشّرط، وقد تَعَيَّنَ أنْ يُقَدَّرَ هذا الشَّرْط على وجْهِ الفَرْض والتَّقْدير، والحَرْفُ المُعَدُّ لِمثْلِ هذا الشَّرْطِ هو (لَوْ) الامتناعيَّةُ؛ فالتَّقْديرُ: (ولَوْ كانَ مَعَهُ إلَهٌ لَذَهَبَ كُلُّ إلَهٍ بِما خَلَقَ)، وبَقاءُ اللّام في صَدْرِ الكَلام الواقِع بَعْدَ ﴿إِذًا﴾ دَليلٌ على أنَّ المُقَدَّرَ شَرْطُ (لَوْ)؛ لأنَّ اللّامَ تَلْزَمُ جَوابَ (لَوْ)، ولِأنَّ غالِبَ مَواقِعِ (إذًا) أنْ تَكونَ جَوابَ (لَوْ)؛ فلِذَلِكَ جازَ حَذْفُ الشَّرْطِ هُنا لِظُهورِ تَقْديرِه، ولهذا الحذف أثرٌ بليغٌ في نَظْمِ الآية، إذ جاءت موجَزَةً مُعبِّرة في دِقّة تامَّة عن هذه القضيّة، وقد أفاض المُتكلّمون في الحديث عنها بما يُنبئُ عن بلاغتها ودِقّتها[1].

دلالةُ إضافة لفظِ العمومِ إلى المُفرد النَّكرة:

عمومُ نفي كلّ شريكٍ مزعومٍ لله تباركت آلاؤه

أضاف النّظمُ الكريم كلمةَ ﴿كُلُّ﴾ الدّالّة على العموم إلى كلمة ﴿إِلَٰهِۭ﴾ النّكرة، وكان من الجائز نظمًا ولغةً أن يُكتفى بكلمة (كُلٌّ) منونةً، وقد آثرَ النّظمُ الحكيم هذه الصّياغةَ لإفادة معنى العموم في حقّ كلّ إلهٍ مزعوم؛ كي تستقرَّ قضيةُ انتفاءِ الشّريك في الأذهان استقرارًا لا مزيدَ عليه؛ فكأنّ المُرادَ: (لَذَهب كلُّ إلهٍ مزعوم بما خَلَق)، كما أنّ منَ الجائز لغةً أن تُعبّر الآيةُ بكلمة (الآلهة) بأداة التّعريف وبصيغة الجمع؛ ولكنَّ النّظْمَ الحكيم آثرَ التّعبيرَ بصيغة ﴿كُلُّ إِلَٰهِۭ﴾؛ لدلالتها في هذا السّياق على تحقير هذه المزاعم والاستهانة بها؛ إذ لا دليلَ عليها من عقلٍ أو نَقلٍ.

معنى الباءِ ودلالتُها في ﴿بِمَا خَلَقَ﴾:

وجــودُ آلـهـةٍ مـزعـومـةٍ يـدلُّ عـلى المُـمانـعـةِ والمُغالبة

دلَّت الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِمَا خَلَقَ﴾ على معنى السّببيَّة، وهو أقربُ استعمالاتها للمعنى المُراد في هذا السّياق؛ فكأنَّ النَّظْم يُشير إلى أنَّه (لذهب كلُّ إلهٍ مزعوم بما كان سببًا في خَلْقه منَ المخلوقات)؛ مبالغةً في مُجاراة الخصم، وتحتملُ أن تكون الباءُ للملابسة؛ أيْ: لَذَهَبَ كلُّ إلهٍ مُلْتَبِسًا بخَلْقِه مُصاحِبًا لهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 114، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5112.

معنى (ما) ودلالتُها في ﴿بِمَا﴾:

من أساليب القرآن مجاراةُ الخصم في دعواه لنقضها

تعدَّدَت أقوالُ النُّحاة في معنى (ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا خَلَقَ﴾؛ فذهب أكثرهم إلى أنّها مَوْصولَةٌ وما بعدَها صلةٌ لها، وحُذِفَ عائدُ الموصول؛ أيْ: مفعول الفعل ﴿خَلَقَ﴾، وجَوَّزَ بعضُهم أنْ تَكونَ مَصدَريَّةً؛ أيْ: بخَلْقه؛ وهو رأيٌ يَحْتاجُ إلى نَوْعِ تَكَلُّفٍ لا يَخْفى[1]، وسواء أكانت موصولةً بمعنى (الذي)، أم كانت مصدريّةً بمعنى (الخَلْق)، فإنّها تُشير إلى مجاراة الخَصْم في دعواه بادّعاء الشَّريك في الخَلْق، وهو بابٌ من المُحاجَجة، سيتجلّى أثرُه في ختام الآية الكريمة.

دلالة التّعبير بالماضي ﴿خَلَقَ﴾:

ادّعاءُ معرفة الغيبِ الماضي دليلٌ على كَذِب المدّعي وبهتانِه

آثرَ النَّظمُ الحكيم استعمالَ صيغةِ الماضي ﴿خَلَقَ﴾ إشارةً إلى أمرين؛ الأوّل: أنّ الخَلْقَ قضيّةٌ ماضيَة تختصُّ باللّه ﷻ وحدَه، فلم يَشْهَدْها أحدٌ من الخَلْق، كما جاء في قوله تعالى: ﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ٥١﴾ [الكهف: 51]؛ وعليه فكلُّ ما ادُّعيَ فهو باطلٌ؛ لأنَّه قام على زعم كاذبٍ، والآخَرُ يُمثّل جانبًا من جوانب التّحدّي والإعجاز، فإذا صحَّت دعوى هؤلاء المُكَذِّبين المُعانِدين التي لم يشهدوها في الماضي، فلْيُجدِّدوا الدّعوى المَزعومةَ بمحاولة الخَلْق في الحال والاستقبال؛ ولمّا كانت كِلْتا الدّعْوَيَيْن باطلتَيْن، فقد أصاب نَظْمُ الآيةِ مناط الإعجاز في إظهار عجزهم وضعفِ عقولهم.

بديعُ المذهب الكلاميّ:

دليلُ التَّمانع من أدلَّة القرآنِ الكريم على توحيد الله تعالى

اشتمل قولُه تعالى: ﴿إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ على حِجاجٍ عقليٍّ بُرهانيٍّ يدحض دعوى تَعدُّد الآلهة، وبيان ذلك أنّه لَوْ كانَ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 18/ 134.

مَعَهُ آلِهَةٌ - كما يَزْعُمون - لَذَهَبَ كُلُّ واحِدٍ مِنهم بِما خَلَقَهُ واسْتَبَدَّ به، وامتازَ مُلْكُهُ عَنْ مُلْكِ الآخَرينَ، ووقَعَ بَيْنَهُمُ التَّغالُبُ والتَّحارُبُ، كَما هو الجاري فيما بَيْنَ المُلوكِ؛ لِأَنَّهُ إن كان ثَمَّ آلهةٌ كما يزعمون لوجب أن تتخالف بذواتها، وإلّا لَما تُصوِّرَ التّعدّد أصلًا، والمُتَخالِفانِ بِالذّاتِ يَجِبُ أَنْ يَتَخالَفا في الأَفْعالِ، فيَذْهَبَ كُلٌّ بِما خَلَقَهُ ويَسْتَبِدَّ به، ويَظْهَرَ بَيْنَهُمُ التَّحارُبُ والتَّغالُبُ، فيَفْسُدُ نِظامُ الكَوْنِ[1].

معنى الواوِ ودلالتُها في ﴿وَلَعَلَا﴾:

تعدُّدُ مظاهرِ فسادِ نظامِ الكونِ عند زعمِ تعدُّدِ الآلهةِ

بيّن قوله تعالى: ﴿إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ مآلَ دعوى وجودِ الشّريك للّه في الخَلْق وما يترتّب عليه من فساد نظام الكون، بانفراد كلِّ إلهٍ بما خلقَه منَ المخلوقات؛ وذلك لحتميّة التّفاوت فيما بين هذه الآلهةِ المزعومة، ثمّ أضاف قولُه تعالى: ﴿وَلَعَلَا﴾ مظهرًا آخرَ من مظاهر الفساد؛ وهو ظهور التّغالبِ والتّمانع بين هذه الآلهة المزعومة، فعطَفت الواوُ هذه الجملة على جملة الجواب؛ فأفادت في هذا السّياق إثباتَ معنًى جديدٍ؛ لذلك عدل النّظمُ الحكيم عن العطف بالفاء الذي يدلُّ على التّعقيب والسّببيّة إلى العطف بالواو الذي يدلُّ على معنًى مغايرٍ للمعنى الأوّل؛ فأثبت أنّ ذهاب كلّ إلهٍ بما خلق مَفسَدةٌ تامَّة، وأنّ العُلوّ والتّغالبَ والقَهْر مفسَدَةٌ أُخرى تُماثِل المَفْسدةَ الأولى في اضطراب نظام الكون بهذه المزاعم المكذوبة؛ فهما مفسدتان: مفسدةُ الانفراد، ومفسدةُ التّمانعِ والتّغالب، وكلتاهما غيرُ موجودَتيْن.

دلالة التّعبير بالماضي:

انتظامُ مسيرةِ الكونِ منذ الأزلِ دليلٌ على نفيِ الشّركاءِ وانفرادِ الخالقِ

آثَرَ النّظمُ الحكيمُ إيرادَ الفعلِ في صيغة الماضي (عَلا)؛ لبيانِ فسادِ عقولِ هؤلاء، وزيادةً في إبطالِ حُجَجِهم؛ فإذا كان الكونُ منذ أن خَلقَه اللّهُ - تباركت آلاؤه - يسير سيرًا مُنتظِمًا مُحكمًا لا أثرَ فيه

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 246، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 13/ 4415.

للفسادِ أوِ الاضطرابِ؛ فإنّ ذلك الانتظامَ بُرهانٌ على عدم وجود العُلوّ أو التّغالبِ الذي هو ضرورةٌ لدعواهم الباطلة؛ فأسهم مجيءُ الفعل (عَلا) في إلزامهم الحُجّة، فالمُشاهَدُ أَنَّ الوُجودَ مُنْتَظِمٌ مُتَّسِقٌ، كُلٌّ من العالَم العُلْويِّ والسُّفليِّ مُرْتَبِطٌ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ في غايَةِ الكَمالِ، ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾ [الملك: 3](1)، ولم نرَ لذلك التَّغالبِ وعُلوِّ بعضِ الآلهة على بعضٍ وجودًا، لا واقعًا ولا أثرًا سابقًا.

سِرُّ الإضافة في ﴿بَعۡضُهُمۡ﴾:

ادّعاءُ الشّركاءِ في الخَلْق يؤدّي إلى التّغالب والفساد

دلّت إضافةُ (بَعضُ) إلى الضّميرِ (هُم) على معنى (مِن) التّبعيضيّة؛ أي: لعلا بعضُ الآلهة على بعضٍ، وليس لهذه البَعضيَّة قانونٌ، فقد يغلب اليومَ إلهٌ وغدًا آخر، وهكذا دواليك حتَّى يَعمّ الفسادُ في الأرض، وهذا إن وُجِد لما استقامت حياةٌ، ولما استقرّ عيشٌ.

معنى حرف ﴿عَلَىٰ﴾ ودلالتُه:

لو ثبتَ عُلوُّ آلهةٍ؛ لكان عُلوًّا مُتمكِّنًا، وهذا لا يُتصوَّر في الآلهة

يأتي حرفُ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ ليُفيدَ الاستعلاءَ، سواءٌ أكان هذا الاستعلاءُ حقيقيًّا أم مجازيًّا، ولفظُها يدلُّ على ذلك؛ فهي مأخوذةٌ من العُلوِّ، وهذا هو الأصل في معانيها، كما أنّ من معانيها: المصاحبة والمُجاوزة والتّعليل والظّرفيّة والغاية(2)، وقد دلّ استعمالُ النّظمِ الحكيمِ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ على أنّ هذه الآلهةَ المزعومةَ لو كانت موجودةً لاستشرى الاستعلاءُ بينَها حقيقةً، فكان دأْبُهم أن يعلوَ بعضُهم على بعضٍ، وفيه إشارةٌ لاستحكام الفسادِ والعُلوّ في الكون حسبَ هذه المزاعم المُدَّعاة، كما أفاد استعمال حرفِ ﴿عَلَىٰ﴾ ضَعفَ هذه الآلهة وعدمَ صلاحيتها؛ لأنَّ العُلوَّ قد يقتضي المماسَّةَ والمُصاحبة، وهذا غيرُ مُتَصَوَّرٍ في الآلهة أن يُتحكَّم فيها ويُستعلى عليها.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 10/ 143.

(2) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 478، والسّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/ 47.

بلاغةُ التَّذييلِ:

تنزيهُ اللهِ - تباركت آلاؤُه - عن اتّخاذ الولد أو الاحتياج للشّريك

بعد أن ساقتِ الآيةُ الكريمةُ الأدلّةَ الدّامغةَ على انتفاءِ اتخاذِ الولدِ للّه ﷻ، ونفت كذلك الشّريكَ، واستعملتِ الدّليل البُرهانيَّ في تفنيد هذه الفِرية؛ جاء التّذييلُ[1] في الآية كي يُقَرّرَ تنزيهَ اللّه عن كلّ تلك المُفتريات التي نسبها المُكَذّبونَ المُعانِدونَ للّه تعالى، فلفظُ ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ منصوبٌ على المَصدريّة، ولا يكادُ يُستَعْمَلُ إلّا مُضافًا مَنصوبًا بإضْمارِ فِعْلِه، كَـ (مَعاذَ اللّه)، وقَدْ أُجْرِيَ عَلَمًا لِلتَّسْبيح إلّا في بعض الشّواهد الشّاذّة؛ أيّ: تنزّه اللّهُ ﷻ تنزيهًا يليق بذاته وكمالاته التي تنبغي له، فلا يَلْحَقُ به ضعفُ اتّخاذ الولدِ كما في بني البشر، ولا الحاجةُ للشّريك؛ بل هو سبحانَه له كلّ سماتِ الوَحدانيّةِ والفَردانيّة والصَّمديَّة.

نُكْتَةُ إظهارِ الاسم الجليل دونَ إضماره:

التّأكيد على قضيّة الأُلوهيّة بعد عرض مزاعم المُنكِرين المُكَذّبين

آثرَ النّظمُ الحكيمُ في هذا الموضع إظهارَ الاسم الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾ بدلًا من استعمال الضّمير (الهاء)، رغمَ ورودِ المصدر ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ مضافًا للضّمير (الهاء) في القرآن أربع عشرة مَرّةً، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ [البقرة: 116]، وقوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾ [الأنعام: 100].

وتوجيه ذلك أنّه في كلّ المواضع التي جاءت كلمة ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ مُضافةً إلى الضّمير كانت مسبوقةً بإظهارٍ قريبٍ للاسم الجليل، ومن ثَمّ كان عودُ الضّمير عليه مُؤكّدًا، وأمّا في هذا الموضع فقد كان إظهارُ لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ منَ الأهميّة بمكانٍ؛ لتأكيد قضيّةِ الأُلوهيّة الحَقّة في مقابل تلك المزاعم الواهية والأكاذيب البالية، خاصّةً بعدَ استعراضِ دعاوَى المُكَذّبين في الشّريك واتّخاذ الولدِ قبلَ لفظ ﴿سُبۡحَٰنَ﴾.

(1) الخطيب وآخرون، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 18/ 116.

دلالةُ حرفِ الجرّ (عَنْ):

تنزيهُ الله تعالى أرفعُ شأنًا وأعلى شأوًا ممّا يزعمُه الأفّاكون

دلَّ استعمالُ حرفِ (عَنْ) في قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ على معنى المُجاوزة؛ فأسهمت دلالة الحرف في تأكيد الابتعاد عن كلّ تلك المزاعم التي ذهب إليها المُكَذّبون، كما أسهمت مع سائر الأدوات النّحويّة واللّغويّة في تأكيد تنزّه الله ﷻ عنِ اتّخاذ الولد أو الشّريك، فتنزيهُ اللّهِ تعالى أعلى من أن يقترب من شبهات الأفّاكين.

نوعُ (ما) ودلالتُها في ﴿عَمَّا﴾:

شمولُ التّنزيه بـ (ما) كلَّ قولٍ أوِ اعتقاد تَحْرُم نسبتُه إلى الله ﷻ

تقع (ما) على ذوات ما لا يعقل، وعلى صفات مَن يعقل، ثمّ إنّ (ما) تحتمل المصدريَّة، والموصوليَّةَ الحرفيَّة والاسميّة، ويشتركُ فيها المُفردُ، والمُثنّى، والجمعُ، والمُذَكّر، والمُؤنّث؛ فهي أوسع استعمالًا مِنْ (مَنْ)، وأكثرُ إبهامًا منها[1]؛ ولذلك آثَرَ النّظمُ الحكيم استعمالَ (ما) في قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ لسعة دلالتِها، فهي إمّا اسم موصول، والمعنى: تنزّهَ اللّهُ وتباعدَ عنِ المعنى الذي وصفوا، وإمّا مصدريَّة، والمعنى: تنزَّه اللّهُ وتباعَدَ عن وصفهم[2]؛ فأفاد التّقديران نفيَ عموم كلّ ما لا يجوز وصفُ اللّهِ ﷻ به من قولٍ باللّسان، أو اعتقادٍ بالجَنان.

دلالةُ التّعبير بالمضارع ﴿يَصِفُونَ﴾:

استغراقُ نفيِ الولدِ والشَّريك عن الله في الأزمنةِ كلِّها

آثَرَ النّظمُ الحكيم صيغةَ المضارع ﴿يَصِفُونَ﴾؛ للدّلالة على تنزُّهه ﷻ عن هذه الفِريَة في الحال والاستقبال، كما هو مُنزَّهٌ عنها في الماضي؛ بدليل ما سبق في الآية الكريمة من دلائلَ عقليّةٍ بُرهانيّةٍ، كما جاء هذا الاستعمال الدّقيق للفعل المضارع إشارةً إلى أنّ هذه الافتراءاتِ والمزاعمَ لن تتوقّف عند زمنٍ بعينه طالما استمرّ الكفّار المُعانِدون في إفكهم وضلالهم، كما أنّ استخدام الفعلِ

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 13، والسّهيليّ، نتائج الفكر، ص: 140.
(2) الخطيب، التّفصيل: 18/ 116.

المضارعِ المرفوع بثبوت النّون كان أنسبَ لرعاية الفاصلةِ، وتأكيدِ وقْعِها في النّفوس بهذا النّظمِ البليغ، خاصّةً بعد هذا الحِجاج العقليّ البُرهانيّ؛ فكان من حُسن البيان القرآنيّ أن تُخْتَم الآيةُ بهذه الفاصلةِ التي تُريح النّفس بعد عناء التّفكّر العقليّ.

الغرضُ من حَذفِ المفعول:

إفـــادةُ عـمـومِ التّـنـزيـه لله تعالى بنفي كلّ ما لا يليق به

حُذف مفعولُ ﴿يَصِفُونَ﴾؛ لإرادة العموم لتنزيه اللّه - تبارك اسمه - عن وصفٍ لا يليق به، فلم تُحَدّدِ الآيةُ مناطًا مُعيَّنًا للتّنزيه، فشَمِلَت كلّ الأوصافِ التي جاءت في الآية الكريمة، وتتّسِعُ كذلك لتشملَ كلَّ ما لم يُذْكَر فيها، ممّا قد وقع ممّا لا يعرفُه المخاطَبون، أو ممّا سيقع من صور الافتراءات والمبالغات.

﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٩٢﴾ [المؤمنون: 92]

الانتقال من الدَّعوى إلى ذِكْر دليلِها وبُرهانِها

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا قرّرتِ الآيةُ السّابقةُ نفيَ اتّخاذِ اللّهِ ﷻ الولدَ، ونفت وجودَ الشّريك بالبُرهان العقليّ، ثمّ كان ختامُها تنزيهًا للّه عن كلّ وصفٍ لا يليق بذاته العَليّة، فأقامتِ الأدلّةَ على كماله وجَلاله؛ ناسبَ أن يأتيَ عقبَ ذلك قولُه تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾؛ ليُقيمَ دَليلًا آخَرَ على كَمالِه[1]؛ فهذه الآيةُ بمثابة الدَّليلِ على المُتقدِّم، والبُرهانِ على السّابق.

❁ شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾: (غيب) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على تَسَتُّرِ الشَّيْءِ عَنِ العُيونِ؛ مِنْ ذَلِكَ: الغَيْبُ: ما غابَ، مِمّا لا يَعْلَمُهُ إِلّا اللّه، ويُقال للشّيء: غَيْبٌ وغائِبٌ باعتباره بالنّاس لا باللّه تعالى، فإنَّه لا يغيب عنه شيءٌ، كما ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: 3]، وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أيِّ: يعلم ما يغيبُ عنكم وما تشهدونَه، فلا يَخْفى عليه شَيْءٌ من أَحْوالِكم؛ فاحْذَروا جَزاءَهُ يَوْمَ تَنْقَطِعُ الأَسْبابُ[2].

2) ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: (شهد) أَصْلٌ يَدُلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإِعْلام، لا يَخْرُجُ شَيْءٌ مِنْ فُروعِه، ومِنْ ذَلِكَ الشَّهادَةُ؛ فهي تجمع بيْنَ الحُضورِ، والعِلْمِ، والإِعْلامِ، وقوله: ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أيِّ: ما يشهده الخَلْقَ؛ فهو تعالى يعلمُ ما غابَ عن عبادِه، وما يُشاهدونه؛ فلا يغيب عن علمِه شيءٌ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 180.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (غيب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (شهد).

3) ﴿فَتَعَٰلَىٰ﴾: (علا) أصلٌ يَدُلُّ على السُّموِّ والارْتِفاع لا يَشِذُّ عَنْهُ شَيْءٌ، وعَلا، يَعلو، عُلوًّا، فهو عالٍ وعَليٌّ، والمفعول معْلوٌّ، وعلا الشَّخصُ، وعلا الصّوتُ: ارتفع، وعلا فوق الماء: طفا، وعلا فوقَ السّحاب: ارتفع، ومعنى العُلوّ ضدّ السُّفْلِ، وهو العَظَمةُ والتّجبّر، وهو للّه - جلَّت صفاتُه - رفعةٌ وتشريفٌ، ومن هذا الفعل صفةُ ﴿ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرّعد: 9]؛ أيَ: عُلوّ أمرِه وصفاته، وقولُه: ﴿فَتَعَٰلَىٰ﴾ من التّعالي؛ وهو الارتفاع، وفيه مبالغةٌ في العُلوّ، وتنزيهٌ عمّا لا يليق، فالعُلوُّ كمالٌ، وضدُّه نقصٌ[1].

4) ﴿يُشْرِكُونَ﴾: (شرك) أصلٌ يَدُلُّ على مُقارَنَةٍ، وخِلافِ انْفِرادٍ، وهو الشِّرْكَةُ؛ وهوَ أَنْ يَكونَ الشَّيْءُ بَيْنَ اثْنَيْن، لا يَنْفَرِدُ به أَحَدُهُما، وأَشْرَك بِاللّه: جَعَلَ لَهُ شَريكًا، والاِسْمُ الشِّركُ، والمعنى هاهنا: تعَظّم اللّهُ عَمّا يشركونَ، ومَعْناهُ: أنّه أعظم من أن يوصَف بِهَذا الوَصْف من اتّخاذ الولد، والحاجةِ إلى الشّريك[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عِلمُ الله يُحيطُ بكلِّ شيءٍ وعُلوّه على كلّ مظاهرِ الشّركِ

تُقَرِّرُ الآيةُ الكريمةُ أنّ اللّه تعالى عالمٌ بما غاب عن خَلْقِه منَ الأشياءِ، فلم يَرَوْه ولم يشاهدوه، وكذلك هو عالمٌ بما رأوه وشاهدوه؛ وذلك لإحاطته بكلِّ شيء عِلْمًا، فالآيةُ خبرٌ عن هؤلاء المشركين الذين قالوا: اتّخذَ اللّهُ ولدًا، وعبدوا من دونه آلهةً، فهي تُقرِّرُ خطأهم فيما يعتقدون ويقولون ويفعلون، فإنّهم يقولون عن جهلٍ منهم به، وإنّ العالمَ بقديمِ الأُمور وحديثِها، وشاهدِها وغائبِها؛ هو اللّهُ الذي لا يخفى عليه شيءٌ، فخبرُه هو الحَقّ دونَ خبرهم، ثمّ جاء ختامُ الآية بتقرير عُلوّ اللّهِ وارتفاعِه عن شِرْكِ هؤلاء المُشركين ووصفِهم إيّاهُ بما يصفون[3].

---

(1) الزّجّاج، معاني القرآن: 4/ 20، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات: (علو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (شرك).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 102.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

تَعدُّد القراءاتِ وثراءُ المعنى على كلّ قراءةٍ:

تنوعُ الدّلالةِ وزيادةُ الحُججِ لإثباتِ صفةِ العِلْمِ لله ﷻ

ورد في قول الله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ قراءتان؛ فقرأ ابنُ كثير، وأبو عمرو، وحفصٌ عن عاصم، وابنُ عامر ويعقوبُ: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ بالجرّ، وقرأ نافعٌ، وشعبة، وحمزةُ، والكسائيُّ، وأبو جعفرٍ، وخَلَفٌ: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾، بالرَّفع، واختُلِف عن رويس عن يعقوب عند الابتداء: فمرة يبدأ بالجرِّ، ومرّة يبدأ بالرفع[1]، فعلى الوجه الأوّل تكون ﴿عَٰلِمِ﴾ صفةً مجرورة للاسم الجليل، أو بدلًا منه، قال الطَّبرسيُّ: على الجَرِّ صفةٌ، والإضافةُ حقيقيّةٌ على معنى اللّام، ويجوز أن تكون بدلًا؛ فتكون الإضافةُ غيرَ حقيقيّةٍ، ورجّحَ الزّمخشريُّ والشّهابُ وجهَ الصّفة؛ لأنّه أُريد بهِ الثّباتُ والاستمرارُ، فيُعَرَّفُ بالإضافة، ولم يذكرِ ابنُ الأنباريِّ إلّا البدلَ، وأمّا على الوجهِ الآخرِ - وهو الرّفعُ على الاستئنافِ - فـ ﴿عَٰلِمُ﴾ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، والتّقديرُ: هو عالمُ الغيبِ، وهو الرّاجحُ عند أكثر الكوفيّين والبَصريّين كما قال النّحّاسُ، واستجادَ الأخفشُ الجرَّ؛ ليكونَ الكلامُ على وجهٍ واحدٍ[2]، ولكلِّ قراءةٍ منَ القراءتَيْن من بديعِ المعنى ما لا تُؤَدّيه القراءةُ الأخرى؛ فأمّا على قراءة الجرِّ ﴿عَٰلِمِ﴾ فالإضافةُ فيه حقيقيّة؛ وتُفيدُ معنى الثّباتِ والاستمرارِ في تدعيم الحُجج السّابقة في الآية قبلَها، وأمّا على قراءةِ الرّفع ﴿عَٰلِمُ﴾ فتصبحُ الجملةُ الكريمةُ دليلًا آخرَ مُستقلًّا على الوحدانيَّة، بواسطة مقدّمة أُخرى، كأنّه قيل: اللّهُ عالمُ الغيبِ والشّهادة، وغيرُه لا يعلمُهما؛ فغيرُه ليس بإلَهٍ[3]، وبلاغة الفصل في القراءتين بادية؛ فعلى قراءة الجرِّ بين الجملتين كمال الاتصال،

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/329، والآلوسيّ، روح المعاني: 18/ 134، والخطيب، معجم القراءات: 6/ 202. والآلوسيّ، روح المعاني: 18/ 134.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 102، والخطيب، التّفصيل: 18/ 116 - 117.

(3) الجمل، الفتوحات الإلهيّة على الجلالين: 4/ 255.

وعلى قراءة الرفع بين الجملتين شبه كمال الاتصال، ومن رفع ابتداءً وجرَّ وصلًا فإنما أراد تأكيد هذه العلاقة البلاغية بين الجملتين.

معنى التّعريف في ﴿ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

استغراقُ كلِّ غيبٍ وكلِّ شهادةٍ في عِلْمِ الله تعالى

التَّعريف في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ للجنس المُفيد معنى الاستغراق؛ وذلك لإرادة عُموم العِلْم وإحاطَته بكُلِّ شَيْءٍ؛ فأفاد التّعريف معنى الاِسْتِغْراقِ الحَقيقيِّ؛ أيْ: عالمُ كُلِّ مَغيبٍ وكُلِّ ظاهِرٍ لِدَفْعِ تَوَهُّم أنْ يُقالَ: إنَّ اسْتِقْلالَ كُلِّ إلَهٍ بِما خَلَقَ قَدْ لا يُفْضي إلى عُلُوِّ بَعْضِ الآلِهَةِ على بَعْضٍ؛ لِجَوازِ أنْ لا يَعْلَمَ أحَدٌ من الآلِهَةِ بِمِقْدارِ تَفاوُتِ مَلَكوتِه على مَلَكوتِ الآخَرِ، فلا يَحْصُلُ عُلُوُّ بَعْضِهِم على بَعْضٍ؛ لِاشْتِغالِ كُلِّ إلَهٍ بِمَلَكوتِه[1].

بلاغة الطّباق في ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

إحاطةُ عِلْمِ اللهِ بكلّ شيءٍ تأكيدٌ لألوهيّتِه وتعاليه

جاء الطّباقُ بينَ الغيبِ والشّهادةِ في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ ليَلْفِتَ الأذهانَ إلى عظيم قُدرةِ اللّه تعالى وعلمِه، وأنّه سبحانَه مُختَصٌّ بعِلْمِ الغيبِ والشّهادةِ، فغيرُه وإن عَلِمَ الشّهادةَ فإنَّه لم يعلم الغيبَ؛ لأنّ الشّهادة لا يتكاملُ بها النّفعُ إلّا مع العِلْم بالغيب، وذلك كالوعيد لهم[2]، وفائدةُ الجمعِ بينَ الغيبِ والشّهادةِ بيانُ الإحاطةِ والاستيعاب لكلِّ ما يدخل تحتَ لواءِ هَذَيْنِ اللّفظَيْنِ.

دلالةُ التّرتيب في ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

ما اختصَّ بالله تعالى قُدِّم لتأكيدِ أُلوهيّتِه وتعاليه عن الأندادِ

قُدِّم لفظُ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ على لفظِ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ لبيانِ أنَّ إحاطةَ عِلْمِ اللّه تعالى بكلّ ما في الوجود في السّرّ والعَلَن واحدٌ على أبلغ الوجوه وأشدّها تأكيدًا، فإذا كانت الآلهةُ المزعومةُ للّه تعالى قد تُحيط ببعض عالَمِ الشّهادة؛ فإنّ عِلْمَ ما في عالَم الغيب مقصورٌ على اللّهِ وحْدَه دونَ غيره، فعِلْمُه ﷻ أزليٌّ لا تفاوت فيه، وذلك على غير المعهود في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 115.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 14/ 251.

عالَم البَشَر؛ لذا فقدِ ابتدأ بِه النّظمُ الحكيم للتّدليل على فائق عِلْمه وقُدْرَته، كما أنّ النّفس قد تستشرف عِلْمَ الشّهادة، ولكنّ استشرافَها لعِلْم ما في الغيب أشَدّ؛ فنبَّهَ بالتَّقديمِ على ما فيه خصوصٌ به ﷻ.

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَتَعَٰلَىٰ﴾:

عُلوُّ اللهِ تعالى بتوحيدِه في ألوهيّته وصفاته

عطفَ النّظمُ الحكيمُ في هذا الموضع جملة ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ بالفاء، وقد تعدَّدت أنظارُ المُعرِبين في معنى الفاء على ثلاثة أقوال؛ **الأوّل**: أنّها عاطفة للجملة على معنى ما تقدّم، **والثّاني**: أنّها استئنافيّةٌ، **والثّالث**: أنّها تفريعيّة[1]، وهي على التّقديرات كلِّها تُؤكّد تنزيهَ اللّهِ ﷻ عمّا أحدثَه هؤلاء المُعانِدون منَ الأوصاف التي لا تليق بذاته، فكان مجيءُ الفاء إيذانًا بأهميّة التّعقيب السّريع على أقوالهم وادّعاءاتهم؛ فهو سبحانه مُتعالٍ عن إشراكهم، فلم يتّخذ ولدًا، ولم يكن له شريكٌ في خَلْقه أو مُلْكه، فعطفت الفاءُ معنى التّنزيه والتّعالي على ما تقدّم من الآيات والحُجج؛ فكانت تعقيبًا بليغًا، ونتيجةً مُترتِّبة عليها؛ فكأنّه قال: عَلِمَ الغيبَ فتعالى؛ كقولك: زيدٌ شجاعٌ فعَظُمت منزلتُه؛ أيْ: شَجُعَ فعَظُم، أو يكون على إضمار القول؛ أيْ: أقول فتعالى اللّه[2].

دلالة التّعبير بالماضي:

تفرُّدُ اللهِ بالتّعالي والعَظَمةِ منذُ الأَزَلِ

آثرَ النّظمُ الحكيمُ إيرادَ الفعلِ ﴿فَتَعَٰلَىٰ﴾ بصيغةِ الماضي لبيانِ اتّصاف اللّه ﷻ بتعاليه وعَظَمتِه منذ الأَزَل، فلم يكتسب سبحانه صفةً من صفاته عمومًا في زمنٍ لاحِقٍ؛ بل هو ﷻ على ما عليه كان قبلَ أن يخلُق الخَلْق، وقبلَ أن يُعانِدَ المُعانِدون، أو يُكذّبَ المُكذّبون، فأورد سبحانه الفعلَ بصيغة الماضي الدّالّة على الانقطاع المُطْلَق؛ لتأكيد تَفرُّده بالعُلوّ وحْدَه سبحانَه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 115، والخطيب، التّفصيل: 18/ 117.

(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 14/ 251.

معنى حرفِ الجرّ في: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾:

دلَّ استعمال حرف (عَنْ) في قوله تعالى: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ على معنى المُجاوزة، فأسهمَ في تأكيد الابتعاد عن كلّ مظاهر الشِّرك والتّكذيب التي ادّعاها المُكَذّبون.

نوع (ما) ودلالتُها في ﴿عَمَّا﴾:

شمولُ التّنزيهِ بـ (ما) كلَّ شِركٍ في حقّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ

آثَرَ النّظمُ الحكيم استعمالَ (ما) في قوله تعالى: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ لسعة دلالتِها؛ فهي إمّا اسم موصول؛ فيكون المعنى: (تنزّه اللّهُ وتباعد عن المعنى الذي أشركوا به)، وإمّا مصدريّةٌ؛ فيكون المعنى: (تنزّه اللّهُ وتباعد عن إشراكهم)[1]، فأفاد التّقديران نفيَ كلِّ إشراكٍ في حَقِّ البارئ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من قولٍ باللّسان أو اعتقادٍ بالقَلْب، ولعلّ التّقدير بالمصدريّة أبلغُ منَ التّقدير بالاسم الموصول؛ ليُفيدَ كلَّ مظاهرِ الإشراك التي سبق أن نقضَتْها الآيةُ السّابقة، أو مظاهرِ الإشراك الأُخرى التي لم تَرِد فيها.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يُشۡرِكُونَ﴾:

تعالى اللهُ عن كلّ مظاهر الإشراك في الزّمانِ كلّه

جاء النّظمُ البليغ في نهاية الآية بالفعل المضارع ﴿يُشۡرِكُونَ﴾، والإشراك: هو أن يجعل لله شَريكًا في رُبوبيّته، والمعنى هاهنا: أنّه أعظمُ من أن يوصَف بهَذا الوَصْف، من اتّخاذ الولد والحاجةِ إلى الشّريك[2]، وقد آثَرَ النّظمُ الحكيمُ صيغةَ المضارع؛ للدّلالة على تنزُّهِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن هذه الفِريَة في الحال والاستقبال، كما هو مُنَزَّهٌ عنها في الماضي؛ بدليل ما سبق في الآية الكريمة من دلائلَ عقليّةٍ بُرهانيّةٍ، كما جاء هذا الاستعمال الدّقيق ليُشيرَ إلى أنَّ إشراكَ الكفّار المُعانِدين لن يتوقَّف عند زمنٍ بعينه، طالما استمرَّ الكفّار المعاندون في إفكهم وضلالهم.

---

(1) الخطيب، التّفصيل: 18/ 117.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (شرك)، والسّمعانيّ، تفسير القرآن: 3/ 488.

غرض حذف مُتعلّق الفعل:

إفادةُ عمومِ تنزيه الله بنفي كلِّ إشراك مُتصَوَّر

جاء ختام الآية بالفعل ﴿يُشۡرِكُونَ﴾؛ فحُذِف المفعولُ به، إذِ الأصل: (يُشركونه)، أو (يُشركون به)، وقد حُذِف المفعولُ به لإرادة العموم لتنزيه اللّهِ تبارك اسمُه عن كلِّ إشراكٍ، فلم تُحَدّد الآيةُ مَناطًا مُعيّنًا للتّعالي، فشَمِلَت كلَّ مظاهر الإشراك التي جاءت في الآيات السّابقة، وتتّسِع كذلك لتشملَ كلَّ ما لم يُذْكَر فيها.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [المؤمنون: 93 - 94]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

عاقبة الإشراك بالله الهلاكُ، ونجاةُ المؤمنين من ذلك بالدّعاء

آذَنَتِ الآياتُ السّابِقَةُ بِأقْصى ضَلالِ المُشْرِكينَ، وانْتِفاءِ عُذْرِهِم فيما دانوا به اللّه تَعالى، وبِغَضَبِ اللّه عليهم لِذَلِكَ، وأنَّهم سَواءٌ في ذَلِكَ مع الأُمَمِ الَّتي عَجَّلَ اللّه لَها العَذابَ في الدُّنْيا، وادَّخَرَ لَها عَذابًا آخَرَ في الآخِرَةِ، فكانَ ذَلِكَ نِذارَةً لَهم بِمِثْلِهِ، وتَهْديدًا بما سَيَقولونَهُ، وكانَ مَثارًا لِخَشْيَةِ النَّبي ﷺ؛ فلَقَّنَ اللّه نَبيَّهُ أنْ يَسْألَ النَّجاةَ من ذلك العَذابِ[1]، فمناسبة الآيتَيْن هي: الانتقال من بيانِ شديدِ إفك المُفترين على اللّه تعالى إلى بيانِ شديدِ العذابِ الذي أوعدهم اللّهُ به.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُرِيَنِّي﴾: (رأي) أَصْلٌ يَدُلُّ على نَظَرٍ وإبْصارٍ بِعَيْنٍ أوْ بَصيرَةٍ؛ فالرَّأْيُ: ما يَراهُ الإنْسانُ في الأَمرِ، وجَمعُهُ: آراءُ، وقيل: هو وجهةٌ فِكريّة تكوّنت في القلب عن أمرٍ ما، والرُّؤْيَةُ: إدراكُ المَرْئيِّ[2]، والمُراد بالرُّؤية هاهنا: الحضور والمشاهدة والرُّؤية العينيّة أو العلميّة لعذاب الكافرين.

2) ﴿يُوعَدُونَ﴾: (وعد) أصلٌ صَحيحٌ يدُلُّ على تَرْجيَةٍ بِقَوْلٍ؛ يُقالُ: وعَدْتُه أَعِدُهُ وعْدًا، ومَوْعِدًا، وميعادًا، ويكونُ ذَلِكَ بِخَيْرٍ وشَرٍّ، وممّا يتضمّن الأمرَيْن قولُ اللّه ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [يونس: 55]، فهذا وعْدٌ بالقيامة، وجزاءِ العِباد إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 118.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (رأى).

والمَوْعِدُ والميعادُ يكونان مصدرًا واسمًا، فأَمّا الوَعيدُ فلا يَكونُ إلّا بِشَرٍّ، يَقولونَ: أَوْعَدْتُهُ بِكَذا، وكذلك الإيعادُ يكونُ في الشّرِّ وحدَه[1]، والمعنى هاهنا: ما توعّد اللّهُ بِهِ الكافرين من العذاب الأليم.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تلقينُ اللهِ لنبيّه ﷺ لأفضلِ سبلِ النّجاة في غمرةِ الوعيدِ بالهلاكِ

في هاتيْنِ الآيتيْنِ الكريمتيْنِ التفاتٌ إلى النّبيّ الكريم ﷺ، بعد العرض المبسوط لوجوه المشركين وما يدور في أفكارهم من سخافاتٍ، وما تنطق به ألسنتُهم من سفاهاتٍ، وما تنعقد عليه قلوبُهم من شركٍ وضلالٍ، وفي هذا الالتفات يدعو اللّهُ سبحانه نبيّه أن يطلب إلى ربّه ألّا يكون بمشهدٍ من هؤلاء المشركين حين يحلّ بهم بأسُ الله، ويقع عليهم عذابه؛ أيْ: إن نَزَلت بهمُ النِّقمة ياربِّ فاجعلني خارجًا عنهم[2]، وفي هذا إشارةٌ إلى شدّة هذا البلاء وقسوته، وأنّه ممّا لا تحتمل النّفسُ رؤيتَه بالعين، ومن جهةٍ أخرى هو تهديدٌ للمشركين بالعذاب الأليم والبلاء العظيم الذي يدعو اللّهُ أولياءَه إلى أن يتضرّعوا إليه، طالبين الفرارَ منه قبل أن يقع، حتّى لا يشهدوه بأعينهم[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة التّعبير بالأمر، والمُراد بالمُخاطَب به:

التّفرّد بالعبوديّة يقتضي التّفرّد بالأمر والنّهي

ابتدأ النّظمُ الحكيم الآية الأولى بفعل الأمر ﴿قُل﴾؛ لما فيه من دلالةٍ على بالغ الرّعاية وتمام الإرشاد، ومقام القُرْب من اللّه ﷻ، وفيه دلالةٌ كذلك على استحقاقه ﷻ للعبادة؛ لتعاليه وتصرُّفه في ملكه بالأمر والنّهي، كما يُستفاد من فعل الأمر ﴿قُل﴾ إعلانُ امتثالِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وعد).

(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 4/ 21.

(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 9/ 1173.

النّبيّ ﷺ لأمر ربّه بإيمانه بما أُرسِلَ به، والتّأكيد على صدق نبوّته، واستمراريّةِ عطاءِ اللّه له في كلّ حين، إذ أرشد اللّهُ نبيّه ﷺ لسبيل النّجاة ممّا قد يحيق بالكفّار من العذاب المحيط.

غرض التّعبير بالنّداء، ودلالةُ حذفِ حرف النّداء:

مقامُ الرّبوبيّةِ عظيمُ الشّأن عالي المقام

عبّر النّظمُ الحكيم بلَفْظ ﴿رَّبِّ﴾؛ وذلك لِما فيهِ من الإيذانِ بأنَّهُ سُبْحانَهُ المالِكُ النّاظِرُ في مَصالِحِ العَبْدِ، ففي هذا المقام كان من المناسب غايةَ المناسبةِ ذِكْرُ اللّه ﷻ بهذا الاسم الجليل؛ لما فيه من معاني الحماية والعطف والرّعاية والتّربية، وذلك صونًا لحبيبه المصطفى ﷺ من أن يُصيبَه ما أصاب هؤلاء المُكَذّبين المُعانِدين من العذاب العظيم، وقد حُذِفت أداةُ النّداء (يا) للدّلالة على قُرْبه ﷺ من الرّحمة الإلَهيّة، وذُكِرَ لَفْظُ ﴿رَّبِّ﴾ مُكَرَّرًا تَمهيدًا لِلْإجابَةِ؛ لِأَنَّ وصْفَ الرُّبوبيَّةِ يَقْتَضي الرَّأْفَةَ بالمَرْبوبِ[1]، كما تضمّن ذِكْرُ ﴿رَّبِّ﴾ إشعارًا بخالص عبوديّته ﷺ للّه ربّ العالَمين، وتقريعًا لأولئك المعانِدين المُكذّبين بهذه الرّبوبيّة ومقتضياتها من إخلاص العبوديّة.

دلالة التّعبير بأسلوب الشّرط:

بيانُ عظيمِ رعاية الله لنبيّه ﷺ

استعمل النّظمُ الحكيم في هذه الآية ﴿إِمَّا﴾ لما فيها منَ الدّلالة على شرط التّعليق، والدّلالة على زيادة العِلّم في المُعَلّق عليه، وهي مكونة من (إِنْ) الشّرطيّة الجازمة، و(ما) الزّائدة للتّوكيد، وقيل: هما شرطيّتان، اجتمعتا لمَزيد من التّوكيد[2]؛ فأفادت هنا توكيدَ عنايةِ اللّه ﷻ بنبيّه ﷺ وحفظه إيّاه، كما آثَرَ التّعبيرُ الحكيم أداةَ الشّرط (إن) دون أداة الشّرط (إذا)؛ لعدم تحقّق وقوعِ الشّرط بـ(إن)، وهو تعذيبُ الكفّار والنّبيُّ ﷺ بين أَظْهرهم[3]، وقد تضمّنت

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 18/ 135، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 118.
(2) قاضي زاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 4/ 215، والخطيب، التّفصيل: 18/ 118.
(3) فيود، تفسير بلاغيٌّ لسورة المؤمنون، ص: 124.

هذه الأداةُ لطيفةً من الخصائص المُصطفويّة؛ وهي الوعد الضّمنيُّ بنجاة غالب قومِه ﷺ وهدايتهم للصّراط المستقيم.

دلالة تأكيد فعل الشّرط ﴿تُرِيَنِّي﴾:

توكيد الشّرط مُبينٌ عن عناية الله برسوله ﷺ

جاء الفعل في هذه الآية مُؤكَّدًا بنون التَّوكيد الثّقيلة ﴿تُرِيَنِّي﴾ بعد ورود كلمة ﴿إِمَّا﴾، ونونُ التّوكيدِ لا تكاد تفارق الفعلَ بعدَها، وقد اقْتَرَنَ فِعْلُ الشَّرْطِ بنونِ التَّوْكيدِ هاهنا لِزيادَةِ تَحْقيقِ رَبْطِ الجَزاءِ بالشَّرْطِ؛ لئلّا تنحطَّ درجةُ فعلِ الشّرط عن حرفه، وليتعاضَدا في الدّلالة على إرادة التّأكيد؛ فأفاد التّوكيد بالنّون الثّقيلة أنّ الله ﷻ حافظٌ نبيَّه ﷺ ومُنجّيه ممّا ينتظر القومَ الظّالمين من العذاب المُهين؛ إكرامًا له ﷺ وتقديرًا لمقامه الرَّفيع.

معنى ﴿مَا﴾ ودلالتُها في ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾:

شِدّة الجُرْمِ يُناسبها عمومُ العذابِ وشمولُ كلِّ أوصافِه

آثَرَ النّظمُ الحكيم استعمالَ ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ لسعة دلالتها، ولم يُحدّد نوعَ العذاب ولا شكلَه ولا قوّته، فشملَت العذابَ في الدّنيا والآخرة؛ فهي إمّا اسم موصول؛ ومن ثَمّ فالمعنى: إمّا تُرينّي عذابهم، وإمّا أن تكون ﴿مَا﴾ مصدريَّة، ومن ثَمّ فالمعنى: موعودَهم[1]؛ فأفاد التّقديران شمولَ العذاب وعِظَمَه في الدّنيا والآخرة، وتساوى هؤلاء القومُ المُكَذِّبون مع الأُمَم الَّتي عَجَّلَ اللّه لَها العَذابَ في الدُّنيا، وادَّخَرَ لَها عَذابًا آخَرَ في الآخِرَةِ[2].

دلالة التّعبير بالمضارع مبنيًّا للمفعول:

تَجَدُّدُ الوعيدِ بالعذاب على الدّوام للمشركين المعاندين

آثَرَ النّظمُ البليغُ الفعلَ المضارعَ المبنيّ للمفعول ﴿يُوعَدُونَ﴾؛ للدّلالة على تَجدُّد الوعيد للمُكذّبين المعاندين في كلّ زمان ومكان، طالما استمرّ الكفّار المعاندون في إفكهم وضلالهم وغيّهم، وبُنِيَ الفعلُ للمفعول في هذا الموضع للدّلالة على هول ما ينتظر هؤلاء من

---

(1) الخطيب، التّفصيل: 18/ 118.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 118.

العذاب، وللدّلالة كذلك على حقارتهم وهوانهم على الله ﷻ، فلم يُسنَد الفعلُ في السّياق هاهنا لله ﷻ، وهو فاعله ومُدبِّره ومُقدِّره؛ إيحاشًا لهؤلاء، وقطعًا عن الأُنس بالقُرْب من اسم الجلالة ولو قُرْبًا لفظيًّا، وتنزيهًا لاسمه ﷻ أن يقترن بهؤلاء المُعانِدين.

غرض حذف مُتعلّق الفعل:

إفادةُ عمومِ الوعيد في التّنكيل بالمُعانِدين بالعذاب الشّديد

حُذِف المفعولُ في قوله تعالى: ﴿يُوعَدُونَ﴾؛ إذِ الأصلُ: (يوعدونه)؛ وذلك لإرادة العموم، فتذهبُ نفوسُهم كلَّ مذهبٍ في انتظار ذلك الوعيدِ الشّديد، فالآية لم تُحَدّد مناطًا مُعيّنًا، فشملت كلَّ ألوانِ الوعيد في الدُّنيا، أو في الدّنيا والآخرة عند مَن يرى أنّ العذاب هاهنا شاملٌ لهما معًا.

غرض التّعبير بأسلوب النّداء وتكرارِه:

تكرارُ النّداء إلهامٌ ببالغ الضّراعة

عبّر النّظم الحكيم في الآية الثّانية بتكرار النّداء في قوله: ﴿رَبِّ فَلَا﴾؛ وذلك لِما فيهِ من دلالات القُرْب والحَدَب والرّعاية؛ فكان من المناسب غايةَ المناسبةِ ذِكْر اللهِ ﷻ بهذا الاسم الجليل؛ لما فيه من معاني الحماية والعطف والرّعاية؛ وذلك صونًا لحبيبه المصطفى ﷺ من أن يُصيبه ما أصاب هؤلاء المُكذّبين المُعاندين من العذاب العظيم، كما أنّ في تكرار النّداء دليلًا على إلهام الله لنبيّه بالمبالغة في التّضرُّع.

دلالةُ حذفِ حرفِ النّداء:

قُربُ الرّحمة الإلَهيّة من النّبيّ ﷺ

حُذِفت أداةُ النّداء (يا) في قوله: ﴿رَبِّ فَلَا﴾؛ للدّلالة على قُرْبه ﷺ منَ الرّحمة الإلَهيّة، وذُكِرَ في هَذا الدُّعاءِ لَفْظُ ﴿رَبِّ﴾ مُكَرَّرًا تَمهيدًا لِلْإِجابَةِ؛ لِأنَّ وصْفَ الرُّبوبيَّةِ يَقْتَضي الرَّأْفَةَ بالمَرْبوب[1]، كما تضمّن ذِكْرُ ﴿رَبِّ﴾ إشعارًا بخالص عبوديّته ﷺ لله رَبِّ العالَمين،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 18/ 135، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 118.

وتقريعًا لأولئك المُعاندين المُكذّبين بهذه الرّبوبيّة ومقتضياتها من إخلاص العبوديّة، والامتثال لأمره ونهيه.

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿رَبِّ فَلَا﴾:

الوعدُ الإلهيّ ثابتٌ لا يتخلّف

ربطت الفاءُ هاهنا بين أسلوب الشّرط في الآية السّابقة، وجوابِه في هذه الآية؛ وذلك لأنّ مفهوم الشّرط قد تحقّق من مجموع الجُملتيْن، لا من كلّ واحدة منهما على الانفراد، ولا في واحدةٍ دونَ الأُخرى[1]، فالفاء هاهنا تحمل معنى السّببيّة، كما أنّها تُفيد تعيينَ الجزاءِ، وإيضاحَ المعنى المُراد وتوكيدَه[2]، وقد دخلت الفاء لأنّ جملة جوابِ الشّرط جملةٌ طلبيّة سُبِقت بـ (لا) النّاهية التي تُفيد معنى الدّعاء؛ فأفادت تحقُّقَ وعيدِ اللّه بالكافرين، وتوكيدَ حصولِه بسبب عصيانهم وفسادِهم وكُفرِهم.

غرضُ التّعبير بالنّهي ﴿فَلَا تَجۡعَلۡنِي﴾:

الرّجاءُ والتّضرّع من سُنن النّبيّين وعبادِ اللهِ الصّالحين

ورد النّظمُ الحكيم في الآية بـ (لا) النّاهية في قوله: ﴿فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، التي تُفيد معنى الدّعاء، فقد أرشد اللّهُ ﷻ نبيَّه ﷺ إلى الالتجاء إليه بشِدّةِ الضّراعة، وإخلاصِ الدُّعاءِ في أن يخرجه من بين ظهرانَي هؤلاءِ المُكذّبين المُعاندين إن أراد بهم عقابًا يستأصلهم؛ لكي لا يُصيبَ النّبيّ ﷺ شيءٌ من شُؤم معصيتهم، كقَوْلِه تَعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال: 25]، كما تضمّن هذا الدّعاءُ رَدَّ إنْكارِهمُ العَذابَ واسْتِعْجالَهم به عَلى طَريقَةِ الاسْتِهْزاءِ، وقيلَ: أُمِرَ ﷺ بذَلِكَ هَضْمًا لنَفْسه وإظْهارًا لِكَمالِ العُبوديَّةِ، وإنباءً بأنّ العبوديّة مهما سَمَت وعَلَت فإنّها تُؤْمَر وتُنْهَى، ورويَ عن الحَسَنِ أنَّ اللّه جَلَّ شَأْنُهُ أخْبَرَ نَبِيَّهُ ﷺ بأنَّ لهُ في أُمَّتِه نِقْمَةً، ولَم يُطْلِعْهُ عَلى وقْتِها أهْوَ في حَياتِهِ أم بَعْدَها، فأمَرَهُ بهَذا الدُّعاءِ[3].

(1) الجُرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 189.

(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 107.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 18/ 135، وفيود، تفسير بلاغي لسورة المؤمنون، ص: 124.

معنى حرفِ الجَرّ ودلالتُه:

الدُّعاء بالبراءة من مخالطة المُشركين الظّالمين أمرٌ مَكينٌ في نهج القرآن

حرفُ الجرّ (في) يُفيد الظّرفيّة: مكانيّةً أو زمانيّةً، وإنِ اتّسعت في الكلام فهي على هذا[1]، وقد جاءت ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على معنى الظَّرْفيَّة الحَقيقيَّة، وهو تلقينٌ منَ الله تعالى لنبيّه ﷺ أَنْ يَسْأَله الكَوْنَ في مَوْضِعٍ غَيْرِ مَوْضِعِ المُشْرِكينَ، وقَدْ تَحَقَّقَ ذَلِكَ بِالهِجْرَةِ إلى المَدينَةِ، فامتنَّ اللَّهُ على نبيّه بالهجرة، وعذّب الكافرين في بدرٍ، حتّى شهد النّبيّ ﷺ مصارعَ القومِ وهو بمَنجاةٍ منهم.

إيثار التّعبير بـ ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾:

شِدّة الوعيد للكفّار عامّةً، ولقادة قريشٍ وأصحابِ الرّأي فيها خاصّةً

آثَرَ النّظمُ الحكيم كلمة ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾؛ للدّلالة على انصباب العذاب على صناديد قريش في المقام الأوّل؛ فالقومُ في الأصل جماعةُ النّاس عامَّة، ثمّ خُصِّصَت بالرّجال باعتبار أنّهم كانوا هم الذين يُعْتَدّ بهم في الحروب وما إليها، ولأنّهم القادةُ والذّادَة؛ أي: القائمون بالأمر[2]؛ ومن هنا فقد أضافت كلمةُ ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾ مزيدًا من الوعيد والتّخويف لأولئك المُستكبرين المُعانِدين بوصفهم قادةً يقومون بصَدّ النّاس عن سبيل الله.

دلالة التّعبير بالظّاهر ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لا الضّمير:

الظُّلم والاستكبار مُؤْذِنٌ باستحقاق العذابِ الشّديد

أظهرتِ الآيةُ الكريمةُ صفةَ هؤلاء المُكذّبين المُعانِدين، وهي الصِّفة التي استحَقّوا بها مزيدًا من العذاب؛ وهي ظلمُهم وطغيانهم، فذَكَّرتْهُم بصفتهم؛ وهي: ﴿ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، إذ كان من الممكن أن يعود عليهم النَّظم بـ (فيهم)، ولكنّ النَّظْم الحكيم جاء بالإظهار تسجيلًا عليهم، وإشارةً إلى استحقاقهم العذابَ بما ارتكبوا من ظُلْمٍ وبَغْيٍ[3].

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 107.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (قوم).
(3) فيود، تفسير بلاغي لسورة المؤمنون، ص: 124.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ ٩٥﴾ [المؤمنون: 95]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الوعيدُ بالعذاب الدّنيويِّ من أَماراتِ القُدْرةِ المُطْلَقَةِ

كان هؤلاء المعاندون يُنْكِرونَ الوَعيدَ بِالعَذابِ ويَضْحَكونَ مِنهُ، فبيّنت هذه الآيةُ أنَّ اللّه قادرٌ على إنْجازِ ما وعَدَهم منَ العذاب الأليم في حياة النّبيّ ﷺ، بحيثُ يرى العذابَ وقد حَلّ بصناديدهم؛ فالآيةُ تتمّةٌ لما جاء في الآيتَيْن السّابقتَيْن من الوعيد والتّهديد؛ فهو سبحانه صاحبُ القُدرة المُطلَقَة؛ فلا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾: (قدر) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على مَبْلَغِ الشَّيْءِ وكُنْهِه ونِهايَتِه، فالقَدْرُ: مَبْلَغُ كُلِّ شَيْءٍ، يُقالُ: قَدْرُهُ كذا؛ أَيْ: مَبْلَغُهُ، وكَذَلكَ القَدَرُ، وقَدَرْتُ الشَّيْءَ أَقْدِرُهُ وأَقْدُرُهُ، مِنَ التَّقْدير، وقَدَّرْتُه أُقَدِّرُهُ، والقَدَرُ: قَضاءُ اللّه تعالَى الأَشْياءَ على مَبالِغِها ونِهاياتِها الَّتي أَرادَها لَها، والقُدْرَةُ إذا وُصِفَ بها الإنسانُ فاسمٌ لهيئةٍ له بها يتمكّن من فعل شيءٍ ما، والمعنى المحوريُّ للقُدْرَة: ضَبْطُ الشّيء القابلِ للتّسيُّبِ أو الانبساط، وحَكْمُه وامتساكُه على وضعٍ أو كَمٍّ أو مسافةٍ مُعيَّنة، فلا يتسيّبُ ولا يَسْتَرسِل[2]، والمعنى المُراد هاهنا: أنّ اللّه الذي بيده القدرة المُطلقة، قادرٌ على أن يوقع بهمُ العذابَ وقتما شاء، وكيفما شاء.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تلقينُ اللهِ لنبيِّه ﷺ أفضلُ سُبُلِ النّجاةِ في غمرة الوعيدِ بالهلاكِ

يؤكّد اللّه تعالى لنبيّه أنّه قادر على أن يُرِيَه ما وعد بِه الكفّارَ من عذابٍ في الدّنيا بالغَلَب والانتصار، في حياته قبل أن يمضيَ لربّه، ولَكِنَّهُ سبحانه يُؤَخِّرُهُ لِعِلْمِهِ بِأَنَّ بَعْضَهم سَيُؤْمِنُ، أَوْ لِكَوْنِ اللّه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 291، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 119.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قدر).

سُبْحانَهُ لا يُعَذِّبُهم والرَّسولُ فيهِم، وقيلَ: قَدْ أراهُ اللّه سُبْحانَهُ ذَلِكَ يَوْمَ بَدْرٍ، ويَوْمَ فتْحِ مَكَّةَ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَإِنَّا﴾:

تقرير طلاقةِ القدرة الإلهيّة على إنجاز الوعيد

الواو هاهنا ﴿وَإِنَّا﴾ للاستئناف؛ فهي استئنافٌ لما سبق بيانُه في الآيات السّابقة، وهي تُفيد تقريرَ طلاقةِ القُدرة الإلَهيّة على إنجاز الوعيد[2].

غرضُ التَّوكيد بثلاثة مُؤكِّداتٍ:

شِدّةُ الإنكار والاستهزاء تقتضي شدَّةَ التّوكيدِ

لَمّا كان هؤلاء المُكذِّبون المُعاندون من قريش ومَن حذا حذوَهم قد بالغوا في شَكّهم واستهزائِهم وعنادِهم بوعيد اللّه؛ ناسبَ عند ذلك غايةَ المناسبةِ أن يأتيَ نظمُ الآية الكريمة بثلاثةِ مؤكّدات؛ وهي: (إنّ)، و(اللّام)، و(اسميّة الجملة)؛ لتأكيد طلاقةِ القُدْرة الإلَهيّة أمامَ هذا العناد المُستحكم؛ فالغرضُ من هذه المُؤكّدات الثّلاثة إيجادُ الرَّجاءِ بِحُصولِ وعيدِ المُكَذِّبينَ في حَياةِ الرَّسولِ ﷺ، وإلّا فلا حاجَةَ إلى إعْلامِ الرَّسولِ بِقُدْرَةِ اللّه على ذَلِكَ[3]؛ فالخطابُ التّوكيديُّ في هذه المُؤكِّدات مقصودٌ به أصلًا أن يقرّ في نفوس هؤلاء المُكذّبين طلاقة القُدرة الإلَهيّة؛ فجاءت هذه المُؤكّداتُ الثّلاثة متواليةً لتَقرعَ أسماعَهم؛ وذلك دفعًا لإنكارهم، وتحريكًا لعقولهم التي تعامت عن رؤية الحقّ الواضح، وأبت إلّا العناد والمكابرة.

غرض تقديم شبه الجملة على خبر (إنّ):

طلاقةُ القُدرة الإلهيّة بيانٌ على صدق رسالته ﷺ

جاء النّظمُ الحكيم بتقديم قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ﴾ على خبر (إنّ)، وعِلّةُ هذا التّقديم تخصيصُ القُدرة الإلهيّة على

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 675، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5115.
(2) الخطيب، التّفصيل: 18/ 120.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 119.

إنزال العذاب برؤية النّبيّ ﷺ لها، ومشاهدتِه إيّاها؛ لتكون له آيةٌ بيّنةٌ على صدق رسالتِه أمامَ إنكار المُنكرين وعناد المُعانِدين؛ فالتّقديمُ هاهنا للعناية برؤية النّبيّ ﷺ، وإلّا فإنّه لا يَشكُّ في نزول العذاب بهم.

تأكيد قدرة الله وعُلوّها على خيال المشركين وأفهامهم

معنى حرف الجرّ ودلالتُه في ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ﴾:

يأتي حرفُ الجرِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ ليُفيدَ الاستعلاءَ، سواءٌ أكان هذا الاستعلاءُ حقيقيًّا أم مجازيًّا، ولفظُها يدلُّ على ذلك؛ فهي مأخوذة العُلُوِّ؛ وهذا هو الأصل في معانيها[1]، وقد دلّ استعمالُ النّظمِ الحكيمِ لحرف الجرّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ الذي يُفيد الاستعلاء في هذا الموضع على طلاقة قدرة اللّه تعالى على إنزال العذاب بهم في حياة النّبيّ ﷺ، وهو يرى ما ينزل بهم بعينيه، كما أنّ استعمالَه يُشعر بأنَّ عناد هؤلاء المُكذّبين قد حال بينهم وبين تصوّر قُدرتِه الباهرة؛ فاستَعْلَت على أفهامهم العليلة، وأبصارِهم الكَليلة.

تَحقُّقُ رؤيةِ الرّسولِ ﷺ لعذاب الكافرين وتكرُّرُها وتَجدُّدُها

دلالة التّعبير بالمضارع مسبوقًا بأن المصدريّة:

آثَرَ النّظمُ الحكيم استعمالَ الفعل المضارع ﴿نُّرِيَكَ﴾ مسبوقًا بـ﴿أَن﴾ المصدريّة؛ للدّلالة على تأكيد رؤيتِه ﷺ لعذاب الكافرين المُعاندين، وللدّلالة على أنها ستكون رؤيةً مُتجدِّدةً مُتكرِّرَة مستمِرّة، كما استعمل النّظمُ البليغُ (أَن) المصدريّة مع الفعل المضارع للدّلالة على التّجدُّد والحدوث، وهي من المعاني الّتي يدلُّ عليها المصدرُ المُؤوّل دونَ المصدرِ الصّريح، الذي لا يدلّ في صيغته مُنفردةً على مُضيٍّ ولا استقبالٍ[2].

تأكيدُ رؤيةِ الرّسول الكريم ﷺ لعذاب الكافرين في الدّنيا

نُكْتَةُ التّعبيرِ بفعل الرّؤية مادّةً وصيغةً:

عبّر النّظمُ الحكيمُ بالفعل ﴿نُرِيَكَ﴾؛ والمُراد به هاهنا: الرّؤيةُ

(1) المُراديّ، الجنى الدّاني، ص: 478، والسّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/ 47.
(2) السّهيليّ، نتائج الفكر، ص: 97.

البصريّة، والرّؤية أقوى من النّظر؛ لكون النّظرِ تقليبَ العين نحوَ مكانِ المَرئيّ طلبًا للرّؤية، بخلاف الرّؤية؛ فهي إدراكُ المَرئيّ[1]؛ فالتّعبير بفعل الرّؤيةِ هنا يُشير إلى أنّ الله ﷻ - سيُري رسولَه ﷺ أنواعًا من ذُلّ الكافرين وخِزيهم في الدّنيا رؤيةً عينيَّةً مُتحَقِّقَةً، وسيزيد عليها بعد وفاته، وقد رأى النّبيُّ ﷺ ما حاق بكفّار مكّة وصناديدِهم في بدرٍ وفتحِ مكّة، وغيرِها من الوقائع التي تعرَّضوا فيها للعذاب والذُّلّ.

سِرّ إسنادِ الفعل لضمير الخطاب في ﴿نُّرِيَكَ﴾:

عَظَمةُ القُدْرة الإلهيّة محيطةٌ بكلّ الوجود

أسند النّظمُ الحكيم فعلَ الرّؤية في قوله تعالى: ﴿نُّرِيَكَ﴾ إلى نون العَظَمة الدّالّة على الله ﷻ، وتُسَمّى نونُ الكبرياء؛ وفي ذلك إشارةٌ إلى طلاقة القُدْرة الإلهيّة وعَظَمتِها وجَبروتِها وعُلوّها، وأنّه لا يَقْدِر أحدٌ على أن يدفع عن نفسه ما قدّره الله تعالى عليه؛ فهو وحْدَه سبحانَه المُتصرّف في هذا الكون؛ فلا مَفرّ لأولئك الكفّار المعاندين من عذاب الله ووعيده إنِ استمرّوا في عنادهم واستكبارهم[2]، وقد عبّر بالمفعول به ضميرَ خطابٍ؛ لبيان مزيد العناية والاهتمام بالمُصطفى ﷺ، وزيادةِ تحذير مَنْ عاداه.

معنى ﴿مَا﴾ ودلالتُها في ﴿مَا نَعِدُهُمْ﴾:

شِدّةُ العذابِ الذي توعّد اللهُ به المُعاندين المُكذّبين وتنوّعُ صفاتِه وأشكالِه

آثَرَ النَّظمُ الحكيم استعمالَ ﴿مَا﴾ لسعة دلالتِها، ولم يُحدِّد نوعَ العذابِ ولا شكلَه ولا قوَّته، فشملَت العذابَ في الدّنيا وفي الآخرة عند بعض المُفسِّرين؛ فهي إمّا اسم موصول؛ والمعنى: إمّا تُرينّي عذابَهم، أو مصدريّةٌ؛ والمعنى: موعودَهم[3]؛ فأفاد التّقديران شمولَ العذاب وعِظَمَه في الدّنيا والآخرة؛ فتساوى هؤلاء القومُ المُكذّبون مع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 118، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 76.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 118.

(3) الخطيب، التّفصيل: 18/ 118.

الأُمَم الَّتي عَجَّلَ اللّه لَها العَذابَ في الدُّنْيا، وادَّخَرَ لَها عَذابًا آخَرَ في الآخِرَةِ[1].

دلالة التّعبير بالفعلِ المُضارع:

تَجَدُّدُ صورة العذاب واستمراريّتُه جزاءُ المُكذّبين المُعاندين

عبّر النّظمُ الحكيم بالفعل المضارع ﴿نَعِدُهُمۡ﴾، ولم يَقُلْ: (وإنّا على أن نُرينّك ما وعدناهم)؛ لاستحضار الصّورة، وللإشعار بالتّجدُّد والاستمرار، وليكونَ هؤلاء الكافرون على توقُّعٍ دائم، وتَخوّفٍ مُستمِرٍّ من حلول العذاب بهم.

بلاغة التّعبير بالاستعارة العِناديّة التّهكُّميّة:

جزاءُ المُكذّبين المُعاندين الاستهزاءُ والسّخريةُ والتّهكّم

في قوله تعالى: ﴿نَعِدُهُمۡ﴾ استعارةٌ عناديّةٌ تهكّميّةٌ، إذِ استُعيرَ الوعدُ للوعيد، وذلك على سبيل السُّخرية والتّهكّم، واشتق منه (نعد) بمعنى (نوعد) على سبيل الاستعارة التّبعيّة العِناديّة، وفي هذه الصّورة مزيدٌ مِنَ العذاب لهؤلاء الكافرين؛ عقوبةً لهم على سُخريتِهم من وعيد اللّه، واستهزائهم بما أُرسلَ به النّبيَّ ﷺ؛ فهم لم يكتفوا بالكُفْر والإشراك؛ بل أضافوا إلى ذلك السّخرية والاستهزاء؛ فجاء نَظمُ الآية مُشيرًا إلى السُّخرية منهم والاستهزاء بهم "لِإِنْكارِهِمُ المَوْعودَ، واسْتِعْجالِهِم لَهُ اسْتِهْزاءً به، وقيلَ: قَدْ أراهُ، وهو قَتْلُ بَدْرٍ أوْ فتْحُ مَكَّةَ"[2].

دلالةُ التّعبير بخبر ﴿وَإِنَّا﴾ اسمَ فاعلٍ جمعًا:

إضافةُ مزيدِ تأكيدٍ لتستيقنَ القلوبُ والعقولُ من عَظَمتِه وقُدْرتِه ﷻ

لمّا صُدِّرت الآيةُ الكريمةُ بضمير العَظَمة ونونِ الكبرياء ﴿وَإِنَّا﴾؛ كان من المناسب غاية المناسبة أن تُخْتَمَ الآيةُ بصيغة الجمع ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾؛ وذلك إشارةً إلى عَظَمة القُدرةِ الإلَهيّة وقُدرتها وكبريائها، وقد آثَرَ النَّظم الكريم اسمَ الفاعل على الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾؛ لبيان طلاقة القُدْرة الإلهيّة وثباتها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 118.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 94.

منذ الأزل على ما كانت عليه، فهو جمع بين إشارة الاسميَّة ودلالة الفعليَّة في اسم الفاعل؛ فهو سبحانَه قادرٌ في كلّ وقت وحين، وجاء الجمعُ بنون العَظَمة ليُضيفَ مزيدًا من التّأكيد؛ لتستيقنَ القلوبُ والعقولُ مدى عَظَمتِه وقُدْرتِه سبحانَه جلّ في علاه.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النّظر والرّؤية:

النّظرُ تقليبُ العينِ حيالَ مَكانِ المَرئيّ طلبًا لرُؤْيَتِه، والرُّؤية إدْراكُ المَرئيّ

النّظر طلب الهُدى؛ والشّاهِد قَوْلهم: نظرتُ فلم أرَ شَيْئًا، والنّظر طلبُ ظُهور الشَّيْء، والنّاظرُ: الطَّالِبُ لظُهور الشَّيْء، واللّه ناظرٌ لِعِبادِهِ بِظُهور رَحمتِه إيَّاهُم، ويكون النَّاظِرُ الطَّالِبُ لظُهور الشَّيْء بإدراكه من جِهَة حاسّةِ بصرِه أو غَيرِها من حواسه، والنَّظَر بِالقَلْبِ ومن جِهَة التّفكّر، والانتظار: التَّوَقُّف لطلب وقت الشَّيْء الَّذي يصلُح فيهِ، والنَّظَر أَيْضًا هوَ الفِكْرُ والتّأمُّلُ لأحوال الأَشْياء؛ فالنّظرُ: تقليبُ العين حيالَ مَكانِ المَرئيّ طلبًا لرُؤْيَته، والرّؤية: إِدْراك المَرئيّ، ولمّا كانَ اللّهُ تعالى يرى الأَشْياء من حَيْثُ لا يَطْلُب رؤيتَها؛ صَحَّ أَنّه لا يوصَف بِالنّظرِ[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 76.

﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦﴾

[المؤمنون: 96]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الوعيد بالعذاب الدّنيويّ من الأمارات المؤكّدة لطلاقة القُدْرة

لمّا أشارت الآياتُ السّابقة إلى قدرة اللّه تباركت آلاؤه على إنْجازِ ما توعَّدَ به الكافرين من العذاب الأليم في حياة النّبيّ ﷺ؛ لاحَ من هذا أنَّ أخْذَهم وتأْخيرَهم في الإمكانِ على حَدٍّ سَواءٍ؛ ولكنّ هؤلاء المُكذّبين المُعاندين كانوا يَقولونَ ويَفْعَلونَ ما لا صَبْرَ للنّبيّ ﷺ عليه إلّا بِمَعونَةٍ مِنَ اللّه؛ فكَأنَّهُ ﷺ قالَ: فماذا أفْعَلُ فيما تَعْلَمُ من أمرِهم؟ فأرشدَه ربُّه جلَّ اسمُه أن يُقابِل السّيّئةَ من الأفعال والأقوال بالصَّفح والمُداراة[1]، وقيل: إنّ الآيات السّابقة لمّا أشارت إلى ضمان النَّصر على الكافرين، أعْقَبَتْ ذلِكَ بإرشاد النّبيّ ﷺ بأنْ يَدْفَعَ مُكَذِّبيه بالَّتي هي أحْسَنُ، وألّا يَضيقَ بتَكْذيبهم صَدْرُهُ؛ فلِذَلِكَ دَفَعَ السَّيِّئَةَ بِالحَسَنَةِ كما هو أدَبُ الإسْلام[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱدۡفَعۡ﴾: (دفع) أَصْلٌ واحِدٌ مَشْهورٌ يَدُلُّ على تَنْحيَةِ الشَّيْءِ، يُقالُ: دَفَعْتُ الشَّيْءَ أَدْفَعُهُ دَفْعًا، ودافَعَ اللّه عَنْهُ السّوءَ دِفاعًا، والدَّفْع: الإزالة بِقوَّةٍ، وتدافَعوا الشّيءَ: دَفَعَه كُلُّ واحِدٍ منهم عن صاحبه، وتدافَع القومُ؛ أَيْ: دفَع بعضُهم بَعْضًا، والدَّفْعُ إذا عُدّي بـ(إلى) اقتضى معنى الإنالة؛ نحو قوله تعالى: ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النّساء: 6]، وإذا عدّي بـ(عن)؛ اقتضى معنى الحماية؛ نحو قوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحجّ: 38]، ودَفَعَ السّيّئَةَ: رَدَّها، وقوله: ﴿ٱدۡفَعۡ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 13/ 183.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 119.

﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾ [المؤمنون: 96] صورةٌ معنويَّةٌ من الصَّدِّ والرَّدِّ؛ فإنّ الكلام الحَسَنَ، والتّصرّف الحَسَنَ في مواجهة الإساءة إذا كانت من نوع الشَّتم غالبًا ما تكسر شِرّة الشّاتم، فيراجع نفسَه وينكشِفُ له عيبُ نفسِه(1).

2) ﴿ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾: من ساءَهُ يَسوءُه سَوْءًا وسوءًا: فعَلَ به ما يَكْرَهُ، نَقيضُ سَرَّه، والِاسْمُ: السّوءُ بالضّمّ؛ وهو كلّ ما يَغمّ الإنسان من الأمور الدّنيويّة والأُخرويّة، ومنَ الأحوال النّفسيّة والبدنيّة والخارجة؛ من فوات مالٍ وجاهٍ وفَقْدِ حميم، وأَساءَ الرَّجلُ إساءَةً: خِلافُ أَحسَن، وأَساءَ إِلَيْه: نَقيضُ أَحْسَنَ إِلَيْه، والسَّيِّئَةُ: الخَطيئَةُ، والسَّيِّئُ والسَّيِّئَةُ: عَمَلانِ قَبيحانِ، يَصيرُ السَيِّئُ نَعْتًا لِلذَّكَرِ من الأَعمالِ، والسَّيِّئَةُ الأُنثى، والحسنة والسّيّئة ضربان؛ أحدهما: بحسب اعتبار العقل والشّرع؛ نحو قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ [الأنعام: 160]، وثانيهما: بحسب اعتبار الطّبع، وذلك ما يستخفّه الطّبعُ وما يستثقله؛ نحو قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ [الأعراف: 131]، والمعنى المحوريُّ لمادة (سوأ): عيبٌ أو نقص (قبح أو فساد أو مرض) يخالط ظاهر الشّيء أو باطنَه، ثمّ ينتقل السّوءُ إلى القبح المعنويّ كالسّيّئة، وهي الذّنب والخطيئة(2)، والمُراد بها هاهنا: ما يقوم به أولئك المُكذّبون المُعاندون من أفعالٍ قبيحةٍ وأقوالٍ مردودةٍ في حقّ النّبيّ ﷺ والمؤمنين.

المَعْنى الإجْماليُّ:

دفعُ السّيّئةِ بالحسنة من هدي الإسلام الرّشيد وأدبِه البليغ

بيّن اللّه تعالى لنبيّه أنّه في سبيل تبليغ دعوته عليه ألّا يدفع

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دفع).
(2) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دفع).

السَّيّئة بسيّئة مثلِها؛ بل يأخذُهم بالصّفح والتّجاوز عن الإساءة في سبيل دعوة الحقّ والإيمان، وأحسنُ الرُّدودِ ما كان رَدًّا مُدْنيًا مُقَرِّبًا، وليس جافيًا مُبْعِدًا؛ وذلك بأن يَتَخيّرَ خيرَ ما يدفع به سَفَهَ القولِ وحُمقَ الفِعال من سخريةٍ واستهزاءٍ وتَهَكُّمٍ بدعوته وبالذين معه؛ مِن ذِكْرِهم بالسّوء وإيذائِهم وتعذيبهم، إذ إنّ رَدّ الإساءة بالأمر الحَسَن فضيلةُ ذوي السّلامة من الرّجال الصّابرين، وإنّا نحن نعلم عِلْمًا ليس فوقَه عِلْمٌ بالأوصاف التي يصفونك بها أنتَ وأصحابك؛ فلا تحملكَ هذه الأوصافُ على أن تُعامِلَهم بمثلها، فإنّك جئتَ هاديًا داعيًا إلى الحَقّ ومُرشدًا، وما جئتَ مُجافيًا ولا مُعاديًا، وبالرّفق تُدْنيهم، وبالجَفْوة والغِلْظَة تُقْصيهم؛ فألِّفْهُم، ولا تخاصمهم، وأحمقُ الدّعاة مَن يوجِدُ خصومةً بينَه وبينَ مَن يدعوهم؛ فتثور أعصابُهم لتُقاوِمَ دعوتَه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

غرضُ التّعبير بفعل الأمر ﴿ٱدۡفَعۡ﴾:

الإرشادُ لكمال الخُلُقِ القويمِ من تمام عناية الله برسوله ﷺ وأُمّته

دلَّ استخدامُ فعلِ الأمر ﴿ٱدۡفَعۡ﴾ على الإرشاد والتّوجيه والنّصح؛ ففيه إشارةٌ إلى كمال رعاية الله لنبيّه ﷺ، ورحمته به وبأُمّته؛ فقد عَلّمه كيف يُبلّغ رسالةَ ربّه على أحسن وجهٍ دونَ أن يُعَرقلَه عن أدائها سوءُ أخلاقِ المَدعوّين إليها، وسُخفُ افتراءاتِهم وتُرّهاتِهم.

غرض تقديم المجرور على ﴿ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾:

العنايةُ الرّبانيّة بسُبُل الدّعوة من آكَدِ معالمِ الإسلام

جاء النّظمُ الحكيم بتقديم الجارّ والمجرور وجملةِ الصّلة ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ على المفعول به ﴿ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾، وكان مقتضى الظّاهر أن يُقال: (ادفع السّيئةَ بالتي هي أحسن)، والغرضُ من هذا التّقديم والتّأخير: الاهتمامُ بالمُتَقدِّم وهو ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ على المتأخِّر وهو ﴿ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾، وفي ذلك إرشادٌ للنّبيّ ﷺ ولأُمّته أن تكون الحُسنى

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 675، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5116.

هي مَحَطّ أنظارِهم ومِحْور تصرفاتِهم، فمهما بالغ السّفهاءُ والكفّارُ والمعاندون في أكاذيبهم وافتراءاتهم؛ فإنّه ينبغي للمؤمن الذي تحَلّى بصفات الكمال الأخلاقيّ أن يكون دَيْدَنَهُ الصّبرُ الجميلُ وردُّ الإساءةِ بالإحسان، بشرط ألّا يُؤدّي إلى وهنٍ في الدّين[1].

غرض التّعبير بالموصول:

من معالم آداب النّبوّة تمامُ المعرفةِ بأحوال المَدعوّين

آثرَ النّظمُ الجليلُ التّعبيرَ بالاسم الموصول وجملة الصّلة ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾؛ وذلك لتفخيم فعلِ الأمر بالاسم الموصول، لما فيه من الإيهام المُشوِّق للبيان؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: 9][2]؛ ففي إبهام الموصول ما يُتيح الفُرصة للتّشوُّف والتّرقُّب لما سيأتي بعده، وفي استخدام الموصول حذفٌ تقديره: (الخصلة)[3]، أو غيرُها من المُفردات المُلائمة للسّياق، كالسِّمة والوصف والسّجيّة وغيرِها، وفي هذا الحذف دلالةٌ على العموم، كما حمل التّعبيرُ بالاسم الموصول هاهنا دلالةَ الثّناء والمدح لهذا الخُلق القويم وترسيخه في نفس النّبيّ ﷺ.

وكذلك من أسرار التّعبير بالموصول أنّه جاءَ في صِلَةِ (الّتي)؛ ليَدُلَّ عَلى مَعْرِفَةِ السّامعِ بِالحالَةِ الّتي هي أحْسَنُ[4]، وفيه إرشادٌ لمقام النّبيّ ﷺ، وما تولّاه اللّهُ به من الرّعاية والإحسان حتّى بلغ الدّرجاتِ العظيمة مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾ [القلم: 4].

غرضُ التّعبير بجملة الصّلة اسميّةً:

الإحسانُ سجيّةٌ ثابتةٌ دائمةٌ للنّبيّ ﷺ لا تُفارقه

عبّر النّظمُ الحكيمُ بجملة الصّلة اسميّةً في قوله تعالى: ﴿هِيَ أَحۡسَنُ﴾؛ للدّلالة على الثّبات والدّوام؛ فالجُملَةُ الاسميّةُ مَوْضوعَةٌ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 149.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 183.
(3) الخطيب، التّفصيل: 18/ 118.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 583.

للإخبار بِثُبوت المُسنَد للمُسنَد إلَيْهِ بلا دلالَة على تجدُّدٍ أَوِ اسْتِمرار، وإذا كانَ خَبَرُها اسْمًا فقد يُقْصَد به الدَّوامُ والاستمرارُ الثّبوتيُّ بمعونة القَرائِن، وإذا كانَ خَبَرُها مُضارعًا فقد يُفيد استمرارًا تجدُّديًا، إذا لم يوجد داعٍ إلى الدَّوام[1]، فكأنّ دفعَ السّيّئةِ بالحسنة صار سجيّةً وعادةً للنّبيّ ﷺ لا تُفارقُه، وفيه من بالغ العناية بالنّبيّ ﷺ ما تَقرّ به عينُه في مواجهة الكفّار وأكاذيبهم وافتراءاتهم.

دلالة التّعبير بخبر المبتدأ (أفعل) تفضيل:

خُـلُـقُ النّـبـيّ ﷺ جـديـرٌ بأقصى درجات الإحسان

في قوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾ جاء بصيغة التفضيل ﴿أَحۡسَنُ﴾، والمعنى: (ادفعِ السَّيِّئَةَ بما أمكَنَ من أعلى مقامات الإحسانِ من كريم الأقْوالِ وصحيح الأفْعالِ، حتَّى إذا اجتمَعَ الصَّفحُ والإحسانُ وبَذْلُ الاستِطاعة فيه؛ كانت حَسنةً مُضاعَفةً بإزاءِ سَيِّئةٍ)، والنّظمُ على هذا الوجه أبْلَغُ من (ادْفَعْ بِالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ) لِمَكان ﴿أَحۡسَنُ﴾، والمُفاضَلَةُ فيه على حَقيقَتِها، وهو وجْهٌ حَسَنٌ في الآيَةِ، وجوِّز أنْ تُعْتَبَرَ المُفاضَلَةُ بين الحسنةِ والسَّيِّئَةِ على مَعْنى أنَّ الحَسَنَةَ في بابِ الحَسَناتِ، أَزْيَدُ به مِنَ السَّيِّئَةِ في بابِ السَّيِّئاتِ[2]، وفي ذلك بلوغٌ بأخلاق النّبيّ الكريم ﷺ أقصى درجات الإحسان؛ فليس هناك مَن هو أولى منه ببلوغِ هذه الذّروةِ الشّاهقة في مجال الأخلاق[3].

موقع جملة ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ﴾ ودلالتُه:

تـسـلـيَـةُ الـلـهِ تعالى لـنـبيّه ﷺ وتخفيفُه وقعَ إفـكِ الكافرين عليه

قولُه تعالى: ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾، هذه الجملة استئنافيّةٌ مُقَرّرةٌ لمضمون ما تقدّم من علامات الهداية والإرشاد والتّوجيه؛ ليُخَفِّفَ عن النّبيّ ﷺ ما يجده في نفسه الكريمة من آثار تكذيبهم وافترائهم عليه بغير الحَقّ، ما يَجِدُ من ثِقَلِها بِقَوْلِه: ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ﴾؛

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 341.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 18/ 136.

(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 4/ 66، والآلوسيّ، روح المعاني: 18/ 136.

أيْ: أعلم من كُلِّ عالم ﴿بِمَا يَصِفُونَ﴾ في حَقِّكَ وحَقِّنا[1]، وهي كِنايةٌ عن كَونِ اللّهِ يُعامِلُ أصحابَ الإساءةِ لرَسولِه بما هم أحِقّاءُ به من العِقابِ؛ لأنَّ الَّذي هو أعلَمُ بالأحوالِ يَجْري عمَلُه على مُناسِبِ تلك الأحوالِ بالعَدْلِ، وفي هذا تَطمينٌ لِنفْسِ الرَّسولِ ﷺ ووَعيدٌ لهم بالجَزاءِ والعُقوبةِ، وتَسليةٌ لرسولِ اللّهِ ﷺ، وإرشادٌ لتَفويضِ أمرِه إليه تعالى[2].

بلاغة التّذييل ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾:

بالِغُ عِلْمِ الله في معرفة دواخل النّفوس

جملة ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ واقعةٌ موقِعَ التّذييل؛ إذ معناها مغايرٌ لما سبق في الآية الكريمة، ومن فائدة وقوعها هذا الموقع: الإشارةُ إلى بالغ الأذى المُتحقِّق بسبب السّيِّئة، وأنّ اللّه سبحانه أعلمُ بمَدى سوء وصفِهم وفِعالِهم؛ فجاءتِ الجملةُ بزيادةٍ جديدةٍ لم تتضمّنْها الجملةُ الأولى.

دلالة التّعبير بالمُسنَد إليه وهو ضمير التّعظيم:

توكيدُ تَفَرّدِ الله ﷻ بالعِلْم الحقيقيّ

بدأتِ الجملةُ الكريمة بضمير التّعظيم ﴿نَحۡنُ﴾، وذلك تنويهًا بعَظَمة عِلْم اللّه ﷻ وإحاطته بكلّ شيء في السّماوات والأرض وقُدرتِه المُطلقة، وكلّها من صفات أفعاله ﷻ، ومن نَهْجِ القرآن الكريم وخصائصِه أنّ الحقّ تعالى حينما يتحدَّثُ عن ذاته؛ يتحدَّثُ بضمير المُفرد، وحينما يتحدّث عن فِعْلِه؛ يتحدّث بصيغة الجمع؛ وذلك لأنّ الفعل يحتاج إلى صفاتٍ مُتعدِّدَة وإمكاناتٍ شتَّى، يحتاج إلى إرادة تُريده وقدرةٍ على تنفيذه، وإمكاناتٍ وعِلْم وحِكْمة؛ لذا تتكاتف كلُّ صفات الحَقّ في الفعل؛ لذلك جاء الحديثُ عنه بصيغة الجمع[3]، ومن فوائده: إيناسُ قلبِ النّبيّ ﷺ، بأنّ اللّه ﷻ الموصوفَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 183.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 149، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 119.

(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 15/ 9230.

بالعَظَمةِ والعِزّة والكبرياء أعلمُ العالمين بكَذب هؤلاء وعِنادهم، فتطمئنُّ نفسُه، ويرتاح قلبُه بأنّ اللّه تعالى ناصرُه ومُؤيِّدُه ومُعينُه.

سِرّ التّعبير بالخبرِ اسمَ تفضيل:

إحاطةُ عِلْم اللّه تعالى بكَذب الكافرين وإفْكِهم

في قوله تعالى: ﴿أَعۡلَمُ﴾ وجهان؛ الأوّل: أنّه (أفعل) تفضيل، والآخر: أنّه وصفٌ على وزن (أفعل)، فأمّا إن كان اسمَ تفضيل؛ فليست المفاضلة بين أصل عِلْم اللّه تعالى وعِلْم البشر، وإنّما هي من باب عِلْمه ﷻ بما خفيَ على خَلْقه، فهو سبحانه أعلمُ بدقائق الحاضر وخفايا الغيب، أو أنّه اسمُ تفضيل لم يَجْرِ على بابه، إذ لا مقارنةَ بين عِلْم اللّه تعالى وعِلْم غيره، وأمّا على الوجه الآخَر، فليس هو باسم للتّفضيل، وإنّما هو وصفٌ جاء على وزن (أفعل)، بمعنى: عليم أو عالم، ولعلّ الأنسبَ للسّياق هاهنا أن يكون ﴿أَعۡلَمُ﴾ اسمَ تفضيلٍ لم يَجرِ على بابه، وذلك أنّ الكافرين من شِدّة عِنادهم وكَذِبهم يظنّون بظنّهمُ السّقيم، وفهمهمُ الكليل، أنّهم قادرون على إخفاء بعضِ كفرهم عن اللّه، أو أنّهم يعلمون من الأوصاف ما لا يعلمه اللّه؛ فكان التّعبير باسم التّفضيل أبلغَ في تقريع آذانهم، وتعنيف عقولهم عن هذا الظّنّ القاصر.

معنى الباء ودلالتُها في ﴿بِمَا﴾:

تأكيد نسبة العِلْم للّه وقَصْره عليه دونَ غيره

الباء هنا للتّعدية، كالباء في قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ [الإسراء: 47]، فهي لِتَعْدِيَة اسْم التَّفْضيلِ إلى مُتَعَلِّقِه؛ لِأنَّهُ قاصِرٌ عن التَّعْدِيَةِ إلى المَفْعولِ، واسْمُ التَّفْضيلِ المُشْتَقُّ من العِلْم ومن الجَهْلِ يُعَدّى بِالباءِ، وفي سِوى ذَيْنِكَ يُعَدّى بِاللّامِ، يُقالُ: (هو أعْطى لِلدَّراهِم)، وقد أفاد استخدامُ الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا يَصِفُونَ﴾ نسبةَ العِلْم للّه.

معنى (ما) ودلالتُها في ﴿بِمَا يَصِفُونَ﴾:

آثَرَ النّظمُ الحكيمُ استعمالَ (ما) لسعة دلالتها؛ فهي إمّا اسمُ

شمولُ عِلْمِ اللهِ لكلِّ وصفٍ تَخَرّصَه المعاندون

موصول؛ ومن ثَمّ فالمعنى: إحاطة عِلْم اللّه تعالى بكلّ الذي يصفونه به ويصفون به نبيّه، وإمّا مصدريّة؛ ومن ثَمّ فالمعنى: إحاطة عِلْم اللّه تعالى بكلّ ما يُطلقونه من أوصاف لا تليق بالأُلوهيّة والنّبوّة[1]، فأفاد التّقديران: شمولَ عِلْم اللّه تعالى لكلّ أكاذيبِهم وافتراءاتِهم، ولعلّ التّقدير بالمصدريّة أبلغُ من التّقدير بالاسم الموصول؛ ليُفيدَ كلّ وصفٍ أظهروه أو أبطنوه.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَصِفُونَ﴾:

إحاطة عِلْم الله بكلّ وصفٍ يُنافي الأُلوهيّة والنّبوّة في الماضي والحاضر والمستقبل

آثَرَ النّظمُ الحكيم التّعبيرَ بالفعل المضارع ﴿يَصِفُونَ﴾؛ للدّلالة على إحاطة عِلْم اللّه ﷻ بكلّ وصفٍ أظهروه أو أبطنوه في الحال والاستقبال، كما هو محيط بها في الماضي، كما جاء هذا الاستعمالُ الدّقيق للفعل المضارع ﴿يَصِفُونَ﴾ إشارةً إلى أنّ إشراكَ الكفّار المعاندين لن يتوقّف عند زمنٍ بعينه طالما استمرّ الكُفّار المُعاندون في إفكهم وضلالهم.

دلالةُ إسناد الفعل ﴿يَصِفُونَ﴾:

كثرةُ المُعاندين والمُكذّبين لا تَحول دونَ إحاطةِ اللهِ بافترائِهم

عبّرَ النّظمُ الحكيمُ بالفعل المضارع ﴿يَصِفُونَ﴾ مُسنَدًا إلى واو الجماعة؛ للدّلالة على كثرة المُكذّبين والمعاندين، الذين يجابهون الدّعوة الإسلاميّة بكلّ ما يستطيعون من حيلٍ وأكاذيبَ، ولكنّ هذه الكثرة لن تُغنيَ عنهم من اللّه شيئًا؛ فهو سبحانه أعلمُ بهم منهم؛ فُرادى أو مُجتمعين؛ وذلك لأنّ عِلْمه سبحانه قد أحاط بكلّ شيء، وفي ذلك تسليةٌ لخاطر النّبيّ ﷺ بأنّ هؤلاء مهما تعاظم جمعُهم فإنّ اللّه محيطٌ بهم، وبما يُدَبّرونه ويُخَطّطونه له، فيَقْوَى عَزْمُه ﷺ على أداء رسالةِ ربّه.

غرض حذف مُتعلّق الفعل ﴿يَصِفُونَ﴾:

إفادةُ عمومِ عِلْمِ اللهِ ﷻ بكلّ أوصافِهم

جاء ختام الآية بالفعل ﴿يَصِفُونَ﴾، فحُذِف المفعولُ به، إذِ الأصلُ:

(1) الخطيب، التّفسير: 18/ 121.

(يصفوننا)؛ وذلك لإرادة العموم والدّلالة على إحاطة عِلْم اللّه تعالى بكلّ وصف، فلم تُحَدّد الآيةُ مناطًا مُعيَّنًا لأوصافهم، فشَمِلت كلّ مظاهرِ الشّرك والاستهزاء والسّخرية التي أشارت إليها الآياتُ السّابقة، وتتّسِعُ كذلك لتشملَ كلَّ ما لم يُذْكَر فيها، وإذا كان المحذوفُ هو كافُ الخطابِ المُرادُ بها النّبيُّ ﷺ؛ أي: بما يَصِفونَكَ؛ أيْ: مِمّا يَضيقُ به صَدْرُكَ؛ ففي ذَلِكَ تَعَهُّدٌ بِأنَّهُ يُجازيهِم على ما يَعْلَمُ مِنهم، فرُبَّ أحدٍ يَبْدو مِنهُ السّوءُ يَنْطَوي ضَميرُهُ على بعض الخيْرِ؛ فقَدْ كانَ فيهِم مَن يَحْدُبُ عَلى النَّبيّ في نَفْسِهِ، ورُبَّ أحدٍ هو بِعَكْسِهِ كَما قالَ تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤﴾ [البقرة: 204][1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 120.

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨﴾ [المؤمنون: 97 - 98]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

إلهامٌ منَ الله تعالى لنبيّه ﷺ لما يُعينه على دفع السّيّئة بالتي هي أحسن

في اتّصال هاتيْن الآيتيْن بما قبلهما وجهان؛ **الأوّل**: أنّ اللّه ﷻ لمّا أدَّب رسولَه ﷺ بقوله: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾ [المؤمنون: 96]؛ أتبعه بما يُقوّيه على الامتثال لهذا الهدي الإلهيّ، فأمره أن يلجأ إليه، وأرشده إلى الاستعاذة به، وخصَّص هذه الاستعاذة بأمريْن؛ الأوّل: أن يستعيذ به من وساوس الشّياطين، والآخَر: أن يستعيذ باللّه من حضورهم لأيّ أمر من أموره، أو أيّ حالٍ من أحواله حتّى لا تحول الشَّياطينُ دونَ الدَّفعِ بِالَّتي هي أَحْسَنُ؛ أي: التَّعَوُّذُ مِن تَحْرِيكِ الشَّيْطانِ داعيَةَ الغَضَبِ والِانْتِقامِ في نَفْسِ النَّبيِ ﷺ، **والثّاني**: يَجوزُ أنْ تكونَ جُملَةُ ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ عَطْفًا على جُملَةِ ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾، بِأنْ أمَرَهُ اللّه بِأنْ يَلْجَأ إلَيْهِ بِطَلَبِ الوِقايَةِ من المُشْرِكينَ وأذاهم، فيَكونَ المُرادُ من الشَّياطِينِ المُشْرِكِينَ، فإنَّهم شَياطِينُ الإنْسِ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ [الأنعام: 112]، والمُرادُ بالآيَة: أعوذُ بِكَ من هَمَزاتِ القَوْمِ الظّالِمِينَ، أوْ من هَمَزاتِ الشَّياطِينِ منهم(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعُوذُ﴾: (عوذ) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على معنًى واحِدٍ؛ وهو الالتجاءُ إلى الشَّيْءِ، ثُمَّ يُحمَلُ عليه كُلُّ شَيْءٍ لَصِقَ بِشَيْءٍ أَوْ لازَمَهُ، والعوَّذُ من اللّحم: ما عاذ بالعَظْمِ ولَزِمه، ومنَ الكَلَأ: ما لم يرتفع

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 12/ 16، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 118 - 119.

إلى الأغصان ومَنَعه الشّجرُ من أن يُرْعَى، وهو ما نبت في أصلِ هَدَفٍ أو شَجَرة أو حجر يستره، تَقولُ: أَعوذُ بِاللّه؛ أَيْ: أَلْجَأُ إِلَيْه، عَوْذًا أَوْ عياذًا، وفُلانٌ عياذٌ لَكَ؛ أَيْ: مَلْجَأٌ، والعوْذَةُ والمَعاذَةُ: الَّتي يُعَوَّذُ بها الإنْسانُ منْ فزَعٍ أَوْ جُنون، ومنه قيل للتّميمة والرّقية: عوذةٌ، وعَوَّذَهُ: وقاه، وقَوْلُهُم: مَعاذَ الله، مَعْنَاهُ: أَعوذُ بِاللّه؛ فالمعنى المحوريّ: التصاقُ الشّيء الغضّ بصُلْبٍ يمنَعُ أو يعوقُ تناولَه، والمُراد بقوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف:200]؛ أي: التَجِئْ إليه ولُذْ بجنابه القويّ، وحقيقته: اسألِ العَوْذَ؛ وهو الالتحاقُ والتّعلّق بالشّيء ثقةً به[1].

2) ﴿هَمَزَٰتِ﴾: (همز) أصلٌ يدلُّ على ضَغْطٍ وعَصْرٍ، وهَمَزْتُ الشَّيْءَ في كَفّي، ومِنْهُ الهَمزُ في الكَلام، كَأَنَّهُ يَضْغَطُ الحَرْفَ، ويَقولونَ: هَمَزَ به الأَرْضَ، وقَوْسٌ هَمزَى: شَديدَةُ الدَّفْعِ لِلسَّهْم، والهَمّازُ: العَيّابُ بالغَيْبِ يَأْكُل لُحومَ النّاس، وقيل: الذي يَغْمِزُ بأَخيه في المَجْلِس، وكَذا الهُمَزَةُ، كأنّما ينخُسُهم بلسانه، والمعنى المحوريّ: دفعٌ بقوّةٍ ودقّةٍ لما ينفذ في شيءٍ، كالسّهم عن القوس، ومنه قيل لما يَغور في ظاهر جزم الشّيء: مِهْمَز ومِهْماز، ومِنْهُ مِهْمازُ الرّائِضِ لِحَديدَةٍ تُرْبَطُ على مُؤَخّرِ رِجْلِه، يَنْخُسُ به الدّابَّةَ لِتُسْرِعَ أَوْ لِتَثِبَ، وإِطْلاقُ ذَلِكَ عَلى الوَسْوَسَةِ والحَثِّ عَلى المَعاصي لِما بَيْنَهُما من الشَّبَهِ الظّاهِرِ، وهَمزُ الشَّيْطانِ كالموتَةِ تَغْلِبُ على قَلْبِ الإِنْسانِ تَذْهَبُ به، والمُرادُ بـ ﴿هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾: نزغاتُهم وما يوَسْوِسون به، أو خَطَراتها التي تُخْطِرُها بقَلْب الإنسان، أو تَصَرُّفاتهم بتَحْريكِ القوى الَّتي في نَفْسِ الإنْسانِ ليَنتصفَ لنفسه، أو لتَصْرِفَهُ عن وجهٍ من وجوه الخير، أو لِتُلْحِقَ به الأذى[2].

3) ﴿يَحْضُرُونِ﴾: (حضر) أصلٌ يدلُّ على إيراد الشَّيْءِ ووُروده ومُشاهَدَته، وقد يَجيءُ ما يَبْعُدُ عَنْ هَذا، وإِنْ كانَ الأَصْلُ واحِدًا؛ فالحَضَرُ خِلافُ البَدْوِ، والحَضارة والحِضارَة: السُّكْنَى بالحضر، وأمّا قَوْلُ العَرَبِ: اللَّبَنُ مَحْضورٌ؛ فمَعْناهُ: كَثيرُ الآفَة، ويَقولونَ: الكُنُفُ مَحْضورَةٌ، وتَأَوَّلَ ناسٌ قَوْلَهُ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾؛ والمعنى المُراد في الآية: أعوذ بك أَنَّ يُصيبوني بسوءٍ، وذَلِكَ أَنَّهُم يَحْضُرونَهُ بِسوءٍ، وقال بعضهم: أو أَنْ يَحْضُرَني الجِنُّ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عوذ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (همز).

❁ المَعنى الإِجْماليُّ:

الاستعاذةُ من وساوسِ الشّياطين سبيلُ النّجاة في الدُّنيا والآخرة

يأمر اللّه تعالى نبيَّه بأن يلجأ إليه ويَعوذَ به من همزات الشّياطين أن يَحْضُروه في معالجة الدّعوة الخالصة للّه تعالى، وتبليغِ الرّسالة الإلَهيّة إلى خَلْقه، وهو أمرٌ له ﷺ بأن يَتريّث، ويدعوَ بالحِكمة، كما أرشدَه ﷻ أن يلجأ إليه عائذًا لائذًا أن يَحْضُر الشّياطينُ أيَّ أمرٍ من أُموره، أو أيَّ حالٍ من أحواله الدّينيّة أو الدّنيويّة، والأمور الدّعويّة والعباديّة من بابٍ أولى؛ حتّى لا يخرجَ عن جادَّة الدّعوة بالتي هي أحسن، وإنّ هذا وما سبقه تحريضٌ للنّبيّ ﷺ بألطف عبارةٍ وأبلغِ إشارة، بأن يأخذ قومَه بالرّفق والأناةِ والمواتاةِ؛ حتّى لا يَنفِروا، وكذلك الشّأنُ في كلّ داعٍ لأمرٍ، أو لجديدٍ منَ الحَقّ لم يألفه النّاسُ، لا يغاضبُهم ولا ينافرُهم، بل يتألّفهم، ويَقْرُبُ منهم، ولا يباعدُهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في ﴿وَقُل﴾:

دفعُ السّيّئة بالحسنة لا يمكن دونَ الاستعاذةِ باللّه من كيد الشّياطين

الواو في قوله: ﴿وَقُل﴾ إمّا أن تكون عاطفةً أو للاستئناف والابتداء، فأمّا إن كانت عاطفةً - وهو الأظهر - فإنّها تدلُّ على أنّ دفعَ السّيّئة بالحسنة أمرٌ على جانب عظيم منَ الإرهاق للنّفس، وأنّه مَظِنّةُ حضورِ الشّياطين؛ ليُغروا الإنسانَ بالحَميّةِ والانتصارِ لنفسه، ومن ثَمَّ عُطِفَت الآيةُ في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ على الآية السّابقة؛ ليكونَ النّبيّ ﷺ على جَليَّةٍ من هذه الوساوس؛ فيدعو ربَّه أن يُعيذه منها، وفي ذلك إشارةٌ لرعاية اللّه تباركت آلاؤه لنبيّه ﷺ، وتَعَهُّدِه بالإرشاد والنُّصح؛ كي يُعينَه على أداء ما كلّفَه به من أُمورِ الدّعوة إلى اللّه.

وأمّا إن كانتِ الواوُ في ﴿وَقُل﴾ للاستئناف والابتداء؛ فهي تُشير

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5116.

إلى ابتداء إرشاد اللّه لنبيّه لأحد سُبل النّجاة عامّة، وهو الالتجاء إلى اللّه أن يعصمَه من نزغات الشّياطين.

غرضُ التّعبير بالأمر ﴿وَقُل﴾:

النّجاة من وساوس الشّيطان لا تكون إلّا بصِدق الالتجاء إلى الله

ابتدأ النّظمُ الحكيم بعد الواو بفعل الأمر ﴿وَقُل﴾ فأرشد اللّهُ نبيَّه ﷺ لسبيل النّجاة من وساوس الشّياطين وهَمَزاتهم، وأمره بالالتجاء إلى الدّعاء، وصدّر هذا الإرشاد بفعل الأمر ﴿وَقُل﴾؛ وفي ذلك دلالةٌ على بالغ الرّعاية، وتمام الإرشاد، ومقام القُرْب من اللّه ﷻ، وفيه دلالةٌ - كذلك - على أنّ النّجاة من هذه الوساوسِ والهَمَزات الشّيطانيّة لا طاقةَ للإنسان بها وحْدَه دونَ صدقِ التّضرّع والالتجاءِ إلى اللّه، العليم بمَبْلَغ أثرها في نفوس عباده، كما يُستفاد من فعل الأمر ﴿وَقُل﴾ إعلانُ امتثالِ النّبيّ ﷺ لأمر ربّه بإيمانه بما أُرْسِل به، والتّأكيد على صِدق نُبوّتِه واستمراريّة عطاءِ اللّه له في كلّ حينٍ.

غرضُ التّعبير بالنّداء، ودلالةُ حذْفِ حَرْف النّداء:

الــرّبُّ ﷻ هو الملَجأُ والملاذُ لكلّ مؤمنٍ

عبّر النّظمُ الحكيمُ بلَفْظُ ﴿رَّبِّ﴾؛ وذلك لِما فيه مِنَ الإيذانِ بِأنَّهُ سُبْحانَهُ المالِكُ النّاظِرُ في مَصالِحِ العَبْدِ، ففي هذا المقام كان من المناسب غايةَ المناسبة ذِكْرُ اللّه ﷻ بهذا الاسم الجليل؛ لما فيه من معاني الحماية والعطف والرّعاية والتّربية، وفي ذلك تأكيدٌ لمعونة النّبيّ ﷺ على أداء ما كُلِّفَ به من خُلُق راقٍ لا يمكن بلوغُه دونَ عصمةٍ من اللّه تعالى، وقد حُذِفت أداةُ النّداء (يا) للدّلالة على قُرْبه ﷺ من الرّحمة الإلَهيّة؛ فحَذْفُ الأداةِ دليلٌ على قُرْب إجابةِ اللّه تعالى له في هذا اللّجوء وتلك الاستعاذة، كما تضمّن ذِكْر ﴿رَّبِّ﴾ إشعارًا بخالص عبوديّته ﷺ للّه ربّ العالَمين، وتقريعًا لأولئك المُعانِدين المُكَذّبين من شياطين الجِنّ والإنس.

دلالة التّعبير بالمضارع:

آثَرَ النّظمُ الجليلُ استعمالَ الفعلِ المضارع في قوله تعالى:

﴿أَعُوذُ﴾؛ للدّلالة على التّجدُّد والاستمرار، وفي ذلك دلالةٌ على إرشاد اللّه ﷻ لنبيّه ﷺ أن يستعيذ به في كلّ أوقاته، وعامّةِ أحوالِه، فليستِ الاستعاذةُ مقصورةً على الاستعانة به لدفع السّيّئة بالحسنة فحسب، بل في استعمال المضارع إشارةٌ لكون الاستعاذة مطلوبةً في كلّ حال من أحواله، وهو كذلك تلقينٌ للمسلمين جميعًا أن يستعيذوا باللّه على الدّوام من هَمَزات الشّياطين في كلّ أحوالهم، فمَعْلومٌ أنَّ مَن يَنْقَطِعُ إلى اللّه تعالى ويَسْأَلُهُ أنْ يُعيذَهُ مِنَ الشَّيْطانِ، فإنَّهُ يَجِبُ أنْ يَكونَ مُتَذَكِّرًا مُتَيَقِّظًا فيما يَأْتي ويَذَرُ، فيَكون نَفْسُ هذا الانْقِطاع إلى اللّه تَعالى داعيَةً إلى التَّمَسُّكِ بِالطّاعَةِ وزاجِرًا عَنِ المَعْصيَةِ[1]، فعن عَبْدِ اللّه بْنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبيِّ ﷺ: «أنَّهُ كانَ يَتَعَوَّذُ مِنَ الشَّيْطانِ؛ مِنْ هَمزِهِ ونَفْثِهِ ونَفْخِهِ، قالَ: وهَمزُهُ المُوْتَةُ، ونَفْثُهُ الشِّعْرُ، ونَفْخُهُ الكِبْرياءُ»[2].

استمراريّةُ الاستعاذةِ وتجدُّدُها من سبل حفظِ الله لنبيّه ﷺ

معنى حرف الجَرّ ﴿بِكَ﴾:

أفادتِ الباءُ في قوله: ﴿بِكَ﴾ معنى الاستعانة؛ أيْ: صِدقَ الالتجاءِ إلى اللّه تعالى، فلا نجاةَ من حبائل الشّيطان إلّا بمعونة اللّه وقُدرته، كما أنّه لا استعانةَ دونَ الالتصاق بجَناب الرّحمة الإلَهيّة واستشعارها في كلّ قولٍ وفعلٍ.

الاستعاذةُ من الشيطان إنّما تكون بالاستعانة بالله وحْدَه

دلالةُ التّعبيرِ بضمير الخطاب ﴿أَعُوذُ بِكَ﴾:

جاء التّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿أَعُوذُ بِكَ﴾، بضمير الخطاب (الكاف)، والمُراد اللّهُ ﷻ، وقد آثَرَ النّظمُ الحكيم الكافَ هاهنا للدّلالة على القُرب من المَعيّة الإلهيّة، وعدَلَ عن قول: (أعوذُ بعظمتك)؛ وذلك لأنّ ذِكر كلمةِ ﴿رَبِّ﴾ قد تضمَّنت - من بين ما تضمَّنت - معانيَ العَظَمة؛ فناسبَ السّياقَ التّعبيرُ بالكاف؛ للدّلالة على القُرب.

استعمالُ ضمير الخطاب دليلٌ على القُرب والمَعيّة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 12/ 117.

(2) أخرجه أحمد في المسند، مسند عبد الله بن مسعود، برقم: (3905).

معنى حرف الجرّ ﴿مِنۡ﴾ ودلالتُه:

وسوسة الشّياطين من أسباب المعاصي والبُعد عن منهج الله

أفادت ﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ معنى التّعليل[1]؛ فالالتجاء إلى الله، واللّياذُ بعَظَمته إنّما هو احتماءٌ من أَثَر الوساوسِ الخَبيثة التي تَبُثّها الشّياطينُ في النّفوس، وما تُسَبِّبُه من بُعْدٍ عن منهج الله ﷻ، ولمّا كان دَفْعُ السّيّئةِ بالحسنة مَظِنّة وساوسِ الشّياطين وهَمَزاتِهم؛ جاءت ﴿مِنۡ﴾ مُعَلِّلةً لسبب الاستعاذة منهم.

سِرّ الإضافة ودلالةُ الجمعِ في ﴿هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾:

كثرةُ الشّياطين وكثرةُ هَمَزاتِهم من دواعي المُداومةِ على الاستعاذة

عبّر النّظمُ الحكيم عن أَثَر الشّياطين في النّفوس بصيغة الجمع: ﴿هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾؛ وذلك بسبب تَعَدُّد المَرّات التي يوَسوسون فيها للإنسان، أَوْ لِتَنَوُّعِ الوَساوِسِ في كلّ مجالٍ من مجالات الحياة الدُّنيويّة أو الأُخرويّة، أَوْ لِتَعَدُّدِ الشَّياطينَ وكثرتهم، حتّى إنّ منهم لفريقًا يختصُّ بعملٍ مُعَيّن؛ كشيطان الصّلاة وغيرها؛ ففي التّعبير بالجمع تنبيهٌ على وجوب المداومة على الاستعاذة من كثرة الهَمَزات الشّيطانيّة، وقد أُضيفت الهمزاتُ للشّياطين تشبيهًا لأثرها بما يُحْدِثه النَّخْسُ بالمِهْماز في الدّابّة لِتَثِبَ، فيَثِبُ الإنسانُ من حالة الإيمان والهدوء والدّعة إلى حالةٍ منَ المعصية والغضب والانتقام لنفسه.

دلالةُ العطف بالواو في ﴿وَأَعُوذُ بِكَ﴾:

المبالغة في التّعوُّذ من حضور الشّياطين من الهَدْي الرّبانيّ

ربط النّظمُ الحكيم بينَ الآية السّابقة وهذه الآية بواو العطف؛ للدّلالة على أمرٍ مُغايرٍ للأمر الأوّل، وهو التّعوّذ من حضور الشّياطين، فلا يكفي التّعوّذ من الهَمز وحْدَه؛ بل لا بُدّ كذلك من التّعوّذ من حضورهم؛ فقد أُمِرَ ﷺ بأنْ يَعوذَ به تَعالى من حُضورِهم، بعد ما أُمِرَ بالعَوْذِ من هَمَزاتِهم؛ لِلْمُبالَغَةِ في التَّحْذير من مُلابَسَتِهم، وإعادَةُ الفِعْلِ مع تَكْريرِ النِّداءِ؛ لإظْهارِ كَمالِ الاعْتِناءِ بالمَأْمور

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 1/ 9.

به، وعَرْضِ نِهايَةِ الاِبْتِهالِ في الاِسْتِدْعاءِ، أيْ: أعوذُ بِكَ من أنْ يَحْضُروني ويَحوموا حَوْلي في حالٍ من الأحْوالِ[1]، قال رسول اللّه ﷺ: «إنَّ الشَّيْطانَ يَجْرِي مِنَ الإنْسانِ مَجْرَى الدَّمِ»[2]؛ فذلك دليلٌ على حضور أَثَرِ الشّيطان في نفس الإنسان على الدّوام، لذا كان من دِقّة القرآن الكريم أن نستعين باللّه في التّخلُّص من هذا الحضورِ الذي قد يَغْفُل الإنسانُ عن أثره، فيُزيّن له المعاصيَ والشّهوات، وفي الأمرِ بِالتَّعَوُّذِ من الحُضورِ بعد الأمرِ بالتَّعَوُّذِ من هَمَزاتِهِم مُبالَغَةٌ في التَّحْذيرِ من مُلابَسَتِهِم، وإعادَةُ الفِعْلِ مع تَكْريرِ النِّداءِ لإِظْهارِ كَمالِ الاِعْتِناءِ بِالمَأْمورِ به، وعرض نِهايَةِ الاِبْتِهالِ في الاِسْتِدْعاءِ[3].

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿أَعُوذُ﴾:

استمراريّةُ الاستعاذةِ وتجدُّدُها من سُبُل حفظ الله لنبيّه ﷺ

كرَّر النَّظْمُ الجليلُ في قوله تعالى: ﴿أَعُوذُ﴾ فعلَ الاستعاذة باستعمال الفعل المضارع مرّةً أخرى، وهو يدلُّ على التّجدُّد والاستمرار، وفي ذلك دلالةٌ على إرشاد اللّه تبارك وتعالى لنبيه ﷺ أن يستعيذ به في كلِّ أوقاته وعامَّة أحواله؛ فليست الاستعاذة مقصورةً على الاستعاذة من همزات الشياطين؛ بل هي كذلك مطلوبةٌ في الاستعاذة من حضورهم، وهو كذلك تلقينٌ للمسلمين جميعًا أن يستعيذوا باللّه على الدَّوام من همزات الشياطين في كل أحوالهم[4].

غرضُ التّعبير بالنّداءِ المحذوفِ الأداة:

قربُ اللهِ من عباده المُخلَصين يقتضي منهم التّعظيمَ وإخلاصَ العبوديّة

حُذِفت أداةُ النّداء (يا) في قوله تعالى: ﴿رَّبِّ أَعُوذُ﴾؛ للدّلالة على قُرْبه ﷺ من الرّحمة الإلَهيّة، فحَذْفُ الأداةِ دليلٌ على قُرْب إجابةِ اللّه تعالى له في هذا اللّجوء وتلك الاستعاذةِ، فمنَ المعلوم أنّ حذفَ أداةِ النّداء قد يكون لقُرْب المُنادَى من المنادي، سواءٌ كان

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 150.
(2) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (2077).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 150، والآلوسيّ، روح المعاني: 18/ 137.
(4) أخرجه التّرمذيّ في سننه، برقم: (3872)، وينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 12/ 117.

القُرْبُ حقيقيًّا مادّيًّا أم معنويًّا، فكأنّ المُنادَى لقُرْبه لا يحتاج إلى واسطة لندائه، نحو قوله تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ [هود: 73]، فهذا للقُرْب المعنويّ، بخلاف قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: 65][1]، وفي حَذْفِ حرف النّداء تعظيمٌ للمنادَى وتنزيهٌ له، قال مَكّي: "ونِداء الرّبِّ قد كَثُر حَذْفُ (يا) منه في القرآن، وعِلّةُ ذلك أنّ في حذف (يا) من نِداء الرّبّ معنى التّعظيم والتّنزيه، وذلك أنَّ النّداءَ فيه طَرَفٌ من معنى الأمر؛ لأنّك إذا قلتَ: يا زيد؛ فمعناه: تعالَ يا زيد، أدعوكَ يا زيد، فحُذِفت (يا) من نداء الرّبّ ليَزولَ معنى الأمر وينقص؛ لأنَّ (يا) تُؤَكِّده وتُظهر معناه؛ فكان في حذف (يا) الإجلالُ والتّعظيم والتّنزيه[2]، وأمّا ذِكْرُ لفظ ﴿رَّبِّ﴾ ففيه إشعارٌ بخالص عبوديّته ﷺ لله ربِّ العالَمين، وتقريعٌ لأولئك المُعانِدين المُكذِّبين من شياطين الجِنِّ والإنس.

دلالةُ حَذْفِ حرفِ الجَرّ:

قُــرْبُ الـلـهِ ﷻ من عباده حالَ الدّعاء والتّضرّع

آثَرَ النّظمُ الحكيمُ حَذْفَ حَرْفِ الجَرّ (من) من المصدر المُؤوّل ﴿أَن يَحۡضُرُونِ﴾؛ للدّلالة على قُرْب الله ﷻ من عباده حالَ الدّعاء والتّضرّع، إذ يَطّرِدُ حَذْفُ حرفِ الجَرّ مع (أنّ) و(أن) إذا أُمِنَ اللّبْسُ، والحذفُ البلاغيّ من دقيق أساليب القرآن الكريم، وقد حَسُنَ الحَذْفُ في السّياق لمقام الدّعاء والتّضرّع الذي يقتضي الإيجازَ، فليس المقامُ مقامَ بسطٍ وإسهاب، وكذلك للدّلالة على القُرْب والمَعيَّة.

دلالةُ التّعبير بالمصدر المؤوّل ﴿أَن يَحۡضُرُونِ﴾:

تَـجـدّدُ حضورِ الـشّـيـاطـين واستمراريّتُه يقتضي المُداومةَ على الاستعاذة

آثَرَ النّظمُ الحكيمُ استعمالَ الفعل المضارع ﴿يَحۡضُرُونِ﴾ مسبوقًا بـ﴿أَن﴾ المصدريّة؛ للدّلالة على كثرة حضور الشّياطين، وكثرةِ هَمَزاتهم ووساوِسهم؛ فجاء استعمالُ النّظم البليغ لـ﴿أَن﴾

---

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 325.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/ 286.

المصدريّة مع الفعل المضارع ليَدُلّ على التّجدّد والحدوث[1]؛ وهو ما يُرشد إلى أهميّة المداومة على الاستعاذة في كلِّ وقتٍ وحين؛ دفعًا لحضور الشّياطين الذين لا يحضرون إلّا بالأذى وتزيين الباطل.

دلالة إسناد الفعل المضارع لواو الجماعة:

كثرةُ الشّياطين وكثرةُ وساوسِهم تقتضي كثرة الاستعاذة

عبّرَ النّظمُ الحكيمُ بالفعل المضارع ﴿يَحۡضُرُونِ﴾ مُسنَدًا إلى واو الجماعة؛ للدّلالة على كثرة الشّياطين الذين يحضرون المسلمَ بوساوسهم؛ لإفساد عبادته خاصّةً وحياتِه عامّةً، ولكنّ هذه الكثرة لن تُغنيَ عنهم من الله شيئًا، فهو سبحانه أعلم بهم فُرادى أو مُجتمعين، وفي الاستعاذة به سبحانه ما يدفع أثَرَ هذه الوساوس، وإن كَثُرت وتعدَّدت، وقد ورد في الأثر ما يُفيد أنّ التّعوّذ هنا من حضورهم حالَ الصّلاة وقراءةِ القرآن، وعند النّوم، وعند الموت، وتَخْصيصُ هذه الأحوالِ لأنَّها أحْرى الأحْوالِ بِالاِسْتِعاذَةِ منها، لا سيَّما الحالُ الأخيرَةُ[2]، وذهب بعضُ العلماء إلى القول بعموم الاستعاذة، وهو الأليَق بالمقام.

غرضُ حذف مُتعلّق الفعل:

إفادةُ عموم عِلم الله ﷻ بكلّ أوصافِهم

حُذِفَ مفعولُ الفعل ﴿يَحۡضُرُونِ﴾، إذِ الأصلُ: (يحضروني)، وذلك للعِلْم به من خلال سياق الآية، والمقصود به النّبيّ ﷺ أصلًا، وأُمَّتُه مُرادةٌ تبعًا له، وهو منَ الحذف البلاغي في القرآن الكريم، قال ابن الشّجريّ: "وحَذْفُ المفعولِ يَكثر للعِلْم به، وذلك لاقتضاء الفعل له، كقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣﴾ [الضحى: 3]؛ أراد: وما قلاكَ"[3]، كما أنّ في حذف المفعول مزيدَ عنايةٍ بتَحقّق الاستعاذةِ وثُبوتِها؛ للاهتمام بالفعل وهو الاستعاذة، والفاعل وهو دفعُ أذى الشّياطين في المقام الأوّل.

---

(1) السّهيليّ، نتائج الفكر، ص: 97.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 18/ 137.

(3) ابن الشّجريّ، الأماليّ: 2/ 67.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾ [المؤمنون: 99 - 100]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الاستعاذة من الشّياطين سبيلُ النّجاة ساعة الاحتضار

للمُفسّرين في ارتباط هاتيْن الآيتيْن بما قبلهما عدةُ آراء؛ **الأوّل**: أنَّهما مُرتبطتان بحضور الشّياطين ساعةَ الموتِ؛ لأنّ أضرّ أوْقاتِ حُضورِهِم إنّما يكون ساعةَ المَوْتِ، وحالَةَ الفَوْتِ، فإنَّهُ وقْتُ كَشْفِ الغِطاءِ عَمّا كُتِبَ مِنَ القَضاءِ، فقد آنَ اللِّقاءُ، وتَحَتَّمَ السُّفولُ أوِ الارْتِقاءُ، فعَقَّبَ ذَلِك بِذِكْرِهِ؛ تَنْبيهًا عَلى بَذْلِ الجُهْدِ في الدُّعاءِ والتَّضَرُّعِ لِلْعِصْمَةِ فيهِ، فقالَ مُعَلِّقًا بِقَوْلِهِ تَعالى: ﴿بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾ [المؤمنون: 56]، أوْ بـ﴿مُبۡلِسُونَ ٧٧﴾ [المؤمنون: 77][(1)].

والثّاني: أنّهما متعلّقتان بقوله تعالى: ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾؛ أيْ إنّ هؤلاء الكفّار المعاندين لا يَزالونَ عَلى سوءِ الذِّكْرِ إلى هَذا الوَقْتِ، والآيَتان الفاصلتان بَيْنَهُما عَلى وجْهِ الاعْتِراضِ، والتَّأْكيدُ لِلْإِغْضاءِ عَنْهم مُسْتَعينًا بِاللهِ عَلى الشَّيْطانِ أنْ يَسْتَزِلَّهُ عَنِ الحِلْمِ، ويُغريه على الانتصار منهم، أو على قوله تعالى: ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾[(2)]، بينما ذهب ابنُ عاشور إلى أنّهما متّصلتان بقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ﴾، وعلّل ذلك بأنّه انْتِقالٌ إلى وصْفِ ما يَلْقَوْنَ من العَذابِ في الآخِرَةِ، بَعْدَ أنْ ذُكِرَ عَذابُهم في الدُّنْيا، فيَكونُ قَوْلُهُ هُنا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ وصْفًا أُنُفًا لِعَذابهم في الآخِرَةِ، وبذلك يترجّح أنْ يَكونَ ما سَبَقَ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 13/ 184.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 249، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 12/ 117.

ذِكْرُهُ من العَذابِ ثَلاثَ مَرّاتٍ عَذابًا في الدُّنْيا لا في الآخِرَةِ، فإنْ حَمَلْتَ العَذابَ السّابِقَ الذِّكْرِ عَلى عَذابِ الآخِرَةِ؛ كانَ ذَلِكَ إجْمالًا، وكانَ قَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ إلى آخِرِهِ تَفْصيلًا لَه، وضَمائِرُ الغَيْبَةِ عائِدَةٌ إلى ما عادَتْ عليه الضَّمائِرُ السّابِقَةُ مِن قَوْلِه: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ٨٢﴾ [المؤمنون: 82] إلى ما هُنا، ولَيْسَتْ عائِدَةً إلى الشَّياطينِ، ولِقَصْدِ إدْماجِ التَّهْديدِ بِما سَيُشاهِدونَ مِن عَذابٍ أُعِدَّ لَهم، فيَنْدَمونَ على تَفْريطِهِم في مُدَّةِ حَياتِهِم[1].

والحَقّ أنّه لا تنافي بين هذه التّقديرات كلِّها؛ فكلُّها عائدةٌ على أوصاف الكافرين المعاندين الذين شَرعتِ السّورةُ الكريمة كلُّها في مخاطبتهم وتفنيد أكاذيبهم وتُرهاتهم، التي تقوّلوها على اللّه سبحانه وعلى نبيّه ﷺ، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤﴾ [المؤمنون: 54] إلى ختام السّورة.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱرْجِعُونِ﴾: (رجع) أَصْلٌ كَبيرٌ مُطَّرِدٌ مُنْقاسٌ يَدُلُّ على رَدٍّ وتَكْرارٍ، والمعنى المحوريّ: تحوّلٌ عن الاتّجاه أو الحال إلى عكسه، كما يَتردّد الماءُ في الغدير؛ لأنّه مُحتبسٌ فيه لا يسترسِل بعيدًا، وكما يتحوّل الماءُ الصّافي العذبُ إلى عَرَقٍ كَريه الرّيح، والطّعامُ إلى نَجْوٍ، فهاتان صورتان للمعنى، والرُّجْعَى: الرُّجوعُ، والتَّرْجيعُ في الصَّوْتِ: تَرْديدُهُ، فمِنَ الرّجوع قولُه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ١٦٨﴾ [الأعراف: 168]؛ أيْ: يرجعون عن الذّنب، وقولُه جلّ اسمُه: ﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ٣٥﴾ [النّمل: 35] فمِنَ الرّجوع، أو من رَجْعِ الجواب، وأمّا قولُه: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ٢٨﴾ [النّمل: 28] فمِن رَجْعِ الجوابِ لا غير، والرَّجْعُ في قَوْلِهِ جَلَّ وعَزَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ١١﴾ [الطّارق: 11]؛ أي: الغَيْثُ؛ وهوَ المَطَرُ، وذَلِكَ أَنَّها تَغيثُ وتَصُبُّ، ثُمَّ تَرْجِعُ فتَغيثُ[2]، والمُراد هنا: العودة إلى الحياة الدّنيا؛ لاستئناف العمل الصّالح بعدما شاهد من سوء مقامِه في الآخرة عند الاحتضار.

2) ﴿تَرَكْتُ﴾: (ترك) التَّرْكُ التَّخْلِيَةُ عن الشَّيْءِ، والمعنى المحوريّ: هو مُفارقة الشّيء ما كان يَعْلَق به، كالفرخ من البيضة، ثمّ أُطلق في التّخلّي عنِ الشّيء وعدمِ التّعلّق به، وعلى

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 12/ 16، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 118 - 119.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (رجع).

مُجرّد إبقائه على حاله دونَ مساسٍ به، كأنّه لا عُلْقَةَ له بما يملك أمرَه، فتَرِكَةُ المَيِّتِ: ما يَتْرُكُهُ مِنْ تُراثِهِ، ومنَ المفارقة قولُه تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النّساء: 7]؛ أيْ: ما خلّفوه منَ المال وذهبوا، وقولُه تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ [الدّخان: 24]؛ أي: اخرُجْ من جوفه وفارِقْهُ وهو على تلك الحال، وأمّا المُرادُ بـ: ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ هنا فهو (فيما خَلَّفْتُ من المالِ) أو (فيما قَصَّرْتُ)[1].

3) ﴿كَلِمَةٌ﴾: (كلم) أَصْلانِ؛ أَحَدُهُما: يَدُلُّ على نُطْقٍ مُفْهِمٍ، والآخَرُ: على جِراحٍ، والكَلْمُ: التّأثير المُدْرَك بإحدى الحاسّتيْن، فالكَلامُ: مُدْرَك بحاسّة السّمع، والكَلْمُ: بحاسّة البصر، ومنَ الاتّصال والتّداخل المادّييْن استُعمل التّركيبُ في الاتّصال والتّداخل بالصّوت؛ أي: الكلام الذي هو القولُ، فكَلَّمته حقيقتُها: أَوصلتَ إليه ما في نفسك بالصّوت، تَقولُ: كَلَّمْتُهُ أُكَلِّمُهُ تَكْلِيمًا، ثُمَّ يَتَّسِعون فيُسَمّونَ اللَّفْظَةَ الواحِدَةَ المُفْهِمَةَ كَلِمَةً، والقِصَّةَ كَلِمَةً، والقَصيدَةَ بِطولِها كَلِمَةً، ويَجْمَعونَ الكَلِمَةَ كَلِماتٍ وكَلِمًا، والمُراد بالكلمة هاهنا قولُه: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾[2].

4) ﴿وَرَآئِهِم﴾: الوراء: الخَلْفُ، والوراء: القُدّام، وهو كلّ ما استتر عنك وتوارى[3]، وأوراه غيره، ووَرّاه توريةً: أخفاه، ووَرَّى الخبرَ توريةً: ستره، وتوارى: استتر، ووراء: يَكونُ مِنْ خَلْفٍ، ويَكونُ مِنْ قُدّامٍ، قالَ اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: 79]؛ أَيْ: أَمامَهُم، والوَرَى: الخَلْق، ويُقالُ الوَراءُ: ولَدُ الوَلَدِ، أَرادوا بِذَلِكَ تَفْسيرَ قَوْلِه تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١﴾ [هود: 71]، وقولُه: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: 94]؛ أَيْ: خلّفتُموه بعد موتكم، وقولُه: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ [المؤمنون:7]؛ أَيْ: مَن ابتغى أكثرَ ممّا بيّنّاه وشرعناه، فمَن تعرّضَ لمَن يَحْرُم التّعرُّضُ له فقد تَعَدّى طورَه[4]، والمُراد بـ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾؛ أَيْ: من قُدّامِه وبَيْنَ يَدَيْه، واسْتِعْمالُ وراءَ في هَذا وذاكَ بِناءً عَلى أَنّها مِنَ الأَضْدادِ عِنْدَ بعضهم، وقالَ جَماعَةٌ: إِنَّها مِنَ المُشْتَرَكاتِ المَعْنَوِيَّةِ، فهي مَوْضوعَةٌ لِأمرٍ عامٍّ صادِقٍ عَلى القُدّامِ والخَلْفِ، وهو ما تَوارى عَنْكَ[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ترك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كلم).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ورأ).
(4) الرّاغب، المُفردات: (ورى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (ورى)، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 248.

5) ﴿بَرۡزَخٌ﴾: البَرْزَخُ: الحائلُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ كَأَنَّ بَيْنَهُما بَرازًا، أَيْ: مُتَّسَعًا من الأَرْضِ، والمعنى المحوريّ: مَعْبَرٌ باطنيٌّ جوفيٌّ من خلال حاجزٍ بين أشياء، والبرزخ في القيامة: الحائلُ بينَ الإنسان وبين بلوغ المنازل الرّفيعة في الآخرة، وقيل في الوسوسة: هي بَرازِخُ الإيمان؛ أي: ما بَيْنَ الشَّكِّ واليَقينِ؛ وقيلَ: هوَ ما بَيْنَ أَولِ الإيمان وآخِرِهِ، والبرزخ ما بين الدّنيا والآخرة قبل الحشر؛ أيْ: من الموت إلى البعث، وهو المُراد في قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[1].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

ساعة الاحتضار ساعةٌ جليلةٌ تكشف الأستارَ عن مقامات المتّقين والفُجّار

بعد أن بيّنتِ السّورةُ الكريمة أهميّةَ الاستعاذةِ من هَمَزات شياطينِ الإنس والجنّ وحضورِهم؛ شرعت في بيان مآل هؤلاءِ المُكذّبين المُعاندين عندَ الاحتضار، فإذا حضر أحدَهم الموتُ ورأى رهبتَه، وأدرك معانيَ الآياتِ الكونيّة والقرآنيّة والدّعوةِ المُحمّديّة، وعلم أنّه كان في ضلالٍ - تمنّى أن يعود إلى الدّنيا؛ رجاءَ أن يعمل صالحًا فيما ترك من مال وقوّة وسلطان، أو فيما أعرض عنه وفارقَه من الحَقّ؛ ليَتداركَ بعضَ ما فات، فيتَّجِهَ بالخطاب للّٰه أو لملائكة الاحتضار، بالضّراعة والرّجاء، فكأنّما المشهدُ معروضٌ في هذه اللَّحظة للأنظار مشهودٌ كالعيان، ورغمَ هولِ الموقف وشِدّته يصيبُه بعضُ التّردّد؛ لأنّه لا يضمن توفيقَ اللّٰهِ له، ولكنّه يرجو لأنّ الرّجاء هو ما تقتضيه الكياسَةُ في هذا المقام، فهو يطلبه راجيًا، وقد رَدّ اللّٰه تعالى رجاءَه، مُكَذبًا له في عزمته على تدارك ما فاته، وإنّما هي أمنيةٌ يتمنّاها ويُخالفها، كما كان يَعِدُ في الدّنيا أنّه إذا ذهبَ الكَرْبُ عاد إلى ربّه مؤمنًا، فإذا كَشَفَ اللّٰه عنه الضُّرّ عاد كافرًا، فهذا الرّجاءُ مُجَرّدُ كلمةٍ نطق بها، لا تصادِفُ عقيدةً في قلبه، ولا تجاوزَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (ورى)، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 248.

النّطقَ بها، ولا معنى لها في القلب، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨﴾ [الأنعام: 28]، إنّها كلمةُ الموقفِ الرّهيب، لا كلمةُ الإخلاصِ المُنيب، ولكن كيف يعود للدّنيا، وقد انتهى زمنُ التّكليف، وحان زمنُ الحساب، وقُضيَ الأمرُ، وانقطعتِ الصّلاتُ، وأُغلقتِ الأبوابُ، وأُسدلتِ الأستار، ودخل هؤلاء الكفّار في مرحلة البرزخ ينتظرون يومَ البعث والحساب العظيم، وحيل بَيْنَهم وبين ما يشتهون من استئنافٍ للعمل في غير دار التّكليف(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ودلالتُها:

ظهورُ الحقّ ساعةَ الموت مُبينٌ عن حقيقة سَعي الإنسان في الدّنيا ومآلِه في الآخرة

ربط النّظمُ الحكيمُ بين هذه الآيةِ وما قبلَها بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾، وقد تعدّدت أقوالُ المُعْربين والمُفسّرين؛ فالجمهورُ على أنّها حرفُ ابتداءٍ دخل على الجملة الشّرطيّة، وهي مع الجملة الشّرطيّة غايةٌ لما قبلها، وهو الوجه الأقوى، وجوّز ابنُ عطيّة مع معنى الابتداء أن تكون غايةً مجرّدةً، بتقدير كلام محذوف(2)، واختلفوا في بيان مُتعلّقها - كما سبقتِ الإشارةُ عند بيان مناسبة الآيتَيْن لما قبلهما - على أقوال؛ فمنهم من رأى أنّها متعلّقة بقوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾، والآيَتان الفاصلتان بَيْنَهُما عَلى وجْهِ الِاعْتِراضِ، والتَّأْكيدُ لِلْإغْضاءِ عَنْهم، أو أنّها راجعة على قوله تعالى: ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾(3).

وذهب بعضُهم: إلى أنّها مُتعلّقة بـ﴿بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾ [المؤمنون: 56]، أوْ بِـ﴿مُبۡلِسُونَ ٧٧﴾ [المؤمنون: 77](4)، ورأى غيرُهم أنّها متعلّقة بِقَوْلِهِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5117، وقد ورد هذا المعنى في القرآن في عدد من المواضع، منها: (الأَنْعام: 27 - 28، والأَعْرافِ: 53، وإِبْراهيمَ: 44، والسّجدة: 12، وفاطِرٍ: 37، وغافِرٍ: 11، 12، والشّورَى: 44، والمُنافِقونَ: 10 - 11).

(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 6/ 320، وأبو حيّان البحر المحيط: 15/ 484، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/ 896.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 249، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 12/ 117.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 184.

تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ﴾، وضَمائرُ الغَيْبَةِ عائِدَةٌ إلى ما عادَتْ عليه الضَّمائرُ السّابِقَةُ من قَوْلِه: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٨٢﴾ [المؤمنون: 82][1].

وذهب فريقٌ إلى أنّها غاية لكلام محذوفٍ يدلُّ عليه ما قبله، قدّروه بـ"فَلا أكونُ كالكُفّارِ الَّذينَ تَهْمِزُهُمُ الشَّياطينُ ويَحْضُرونَهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾[2].

والحَقّ أنّه لا تنافي بين هذه التّقديرات كلّها؛ فكلُّها عائدة على أوصاف الكافرين المُعاندين، الذين شرعتِ السّورةُ الكريمة كلّها في مخاطبتهم، وتفنيد أكاذيبهم وتُرّهاتِهم التي تَقَوَّلوها على اللّه سبحانه، وعلى نبيّه ﷺ ابتداءً من قوله تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤﴾ [المؤمنون: 54] إلى ختام السّورة.

وقد أفادت ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في هذا السّياق بيانَ سوءِ عاقبة الكافرين الذين تمادَوا في عصيانهم وكُفرهم وتكذيبِهم، وأنّهم سيُلاقون جزاءَ كلّ ما فعلوه وقالوه في حَقّ اللّه ﷻ، وفي حَقّ نبيّه ﷺ.

غرضُ التّعبير بأسلوب الشّرط والأداة:

وُرودُ حياض الموت أمرٌ مُحَقَّقٌ مُؤَكّدٌ لا بُدّ منه لكلّ مخلوق

عبّر النّظمُ الحكيمُ عن مجيءِ الموت بأسلوب الشّرط، مستخدِمًا الأداة ﴿إِذَا﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾، وهي موضوعةٌ في الأصل للمقطوع بحصوله، وللكثير الواقع، وعلى هذا سار النّظمُ القرآنيّ[3]، ومَجيءِ الموتِ منَ الأمور المقطوعة الثّابتة، وإن غابت عن أذهان كثيرٍ منَ البشر، والكافرون المُعاندون، وإن كانوا يوقنون بالمَوت عقلًا، إلّا أنّهم من أكثر النّاس بُعْدًا عن تَيَقّن وقوعِه فِعْلًا وحِسًّا، وهم أكثرُهم غفلةً عنِ العمل لما بعدَه، ومِن ثَمَّ جاء النّصُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 122، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5117.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 15/ 484، والخطيب، التّفصيل: 18/ 123 - 124.
(3) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 71.

الكريمُ بأداة الشّرط ﴿إِذَا﴾ ليُؤكّد هذه الحقيقةَ القارّةَ التي لا مَفَرّ منها، وليُنبّه العقولَ والنّفوسَ إلى ضرورة الإيمان والعمل الصّالح؛ استعدادًا لهذه اللّحظة الفاصلة.

دلالةُ التّعبير بالماضي ﴿جَآءَ﴾:

زيادةُ التّأكيد على مجيء الموت لتقرير هذه الحقيقةِ في النّفوس

استعمل النّظمُ القرآنيُّ الفعلَ الماضي ﴿جَآءَ﴾؛ وذلك لأنّ ﴿إِذَا﴾ تُفيد الجزمَ بالوقوع، وقد غلب معها استعمالُ لفظِ الماضي[1]، كما أفاد مجيءُ الفعل في صيغة الماضي تأكيدَ أمرِ الموت بوصفه حقيقةً قارّةً لا مَفرّ منها.

غرض تقديم المفعول على الفاعل:

ترهيبُ النّفوس بأمر الموت لتَتَّعِظَ وتعملَ لما بعدَه

جاء النّظمُ الحكيمُ بتقديم المفعول به على فاعله في قوله تعالى: ﴿جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾، وذلك على خلاف الأصل؛ ليَذْهَبَ الوَهْمُ في فاعِلِه كُلَّ مَذْهَبٍ، حتّى إذا جاء لفظ ﴿ٱلْمَوْتُ﴾ فكَشَفَ لَهُ الغِطاءَ، وظَهَرَ لَهُ الحَقُّ، ولاحَتْ لَهُ بَوارِقُ العَذابِ، ولَم يَبْقَ في شَيْءٍ من ذَلِكَ ارْتيابٌ[2]؛ فينشغلُ الذّهنُ بتَخيُّل فاعلِ ﴿جَآءَ﴾ فيتفكّرُ فيه ويعتبر، فإذا قرعَ سمعَهُ لفظُ ﴿ٱلْمَوْتُ﴾ بما له من وقْعٍ في النّفوس وسَطْوَةٍ على القلوب؛ أخذتهُ رهبتُه؛ فيعملُ له ويستعِدُّ للحساب، ولا يَغْتَرّ بعقله وجَدَلِه وحِجاجِه، كما فعل هؤلاء المُكذّبون المعاندون.

ويمكن القولُ إنَّ تقديم المفعول به ﴿أَحَدَهُمُ﴾ على فاعله ﴿ٱلْمَوْتُ﴾ لمعنًى يُشبه معنى التّخصيص، وما ذاكَ إلّا لأنّ الموت أمرٌ ذاتيٌّ بحتٌ له خصوصيتُه وفَرديتُه، ولا يشترك المرءُ في معاناته مع غيره من باقي البشر مهما أخبرَه المُخبِرون، ومهما شاهد من وقائع الموت وفظائِعه، ومنَ الأدلّة على ذلك أنّ كلّ المواضع التي جاء فيها لفظُ (الموت) في القرآن الكريم فاعلًا وكان المفعولُ به اسمًا ظاهرًا؛

---

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 77.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 184.

جاءت بتقديم المفعول به على الفاعل، كما في قوله تعالى: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [البقرة: 133] وغيره، ففي كلّ هذه المواضع جاء النّظمُ القرآنيّ بتقديم المفعول به الذي يقع عليه الموتُ، على الفاعل، وهو الموت؛ لإرادة التّخصيص.

سِرّ تعريفِ المُسنَد إليه:

الموتُ حقيقةٌ عامّةٌ ثابتةٌ جازمةٌ لا تختلف من فرْدٍ لآخر

جاء النّظمُ الحكيمُ بتعريف المُسنَد إليه، وهو قوله: ﴿ٱلۡمَوۡتُ﴾، و(أل) هنا هي الجنسيّةُ التي تكون لتعريف الحقيقة؛ أيْ: جنسِ الموت على حقيقته؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ [الأنبياء: 30][1]، ولمّا كان الموتُ حقيقةً عامّةً راسخةً؛ فقد عبّر النّظمُ عنها بهذه الأداة العامّة الشّاملة، وعدلَ عن تعبيرات أُخرى، كأن يقول: (حتّى إذا جاءَ أحدَهم موتُه)؛ ليُفيدَ تقريرَ الحقيقةِ الجازمةِ التي لا مَفَرّ منها، ولا تختلف من إنسانٍ لآخر.

بلاغةُ الاستعارة ﴿جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾:

لكلّ إنسانٍ أجلٌ محتوم لا بُدّ من مجيئه، فليَجتهدْ في العمل لما بعدَه

ذكرَ النّظمُ الحكيمُ في قوله تعالى: ﴿جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ مجيءَ الموتِ على طريقة الاستعارة المَكنيّة؛ إذ شبّه الموتَ بشخصٍ يأتي للإنسان في مكانه الذي هو فيه، ثمّ حَذَف المُشبّه به؛ فأفادتِ التّرهيبَ من مجيء الموتِ لهؤلاء المُكذّبين المعاندين الذين افترَوا الأكاذيبَ والضّلالاتِ على الله تعالى ورسوله ﷺ.

بلاغة المجاز العقليّ ﴿جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾:

مجيءُ أماراتِ الموت أو ملائكتِه أمرٌ ينبغي الاعتبارُ به

يمكن النّظر إلى الفعل ﴿جَآءَ﴾ على أنّه مجاز بالحذف، إذِ المرادُ مجيءُ أماراتِه وظهورُ أحوالِه وعلاماته؛ والمعنى: حتّى إذا ظهرت أماراتُ الموت لأحدهم وبدت له أحوالُ الآخرة، ويجوز اعتبارُ ﴿جَآءَ﴾ على حقيقته؛ ويكون التّعبير مجازًا عقليًا؛ لأنّ الذي يأتي هو مَلَكُ

---

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 77.

الموتِ الذي وُكِّلَ بهم؛ فإسناد المجيء إلى الموت مجازٌ عقليٌّ علاقته السّببيّة؛ إذِ الموتُ هو سبب مجيءِ المَلَكِ الموكَّل بقبض الأرواح عند انتهاء الآجال(1).

الكافر بين الاضطراب والرّهبةِ والتّعلُّق بأهداب الأمل

غرضُ التّعبير بأسلوب النّداء المحذوفِ الأداة:

في قوله تعالى: ﴿رَبِّ﴾ حُذِفَت أداةُ النّداءِ (يا)، وقد يكونُ هذا الحذف راجعًا لأحد وجوه حذف أداة النّداء، ومنها: العَجَلةُ والإسراعُ بقصد الفراغ منَ الكلام بسرعة، وقد يكون الحذفُ للإيجاز؛ وذلك لأنّ المقام قد يكون مقامَ إيجاز واختصار(2)، وقد يكون لضيق المقام(3)، ويحتمل أن يكون للتّعظيم والإجلال والتّأدّب؛ لأنَّ النّداءَ فيه طَرَفٌ من معنى الأمر؛ فحُذِفت (يا) من نداء الرّبّ ليزولَ معنى الأمر وينقص؛ لأنَّ (يا) تُؤَكِّده وتُظهر معناه، فكان في حذف (يا) الإجلالُ والتّعظيم والتّنزيه(4).

ندمُ الكافر وحسرته عند الاحتضار

غرضُ التّعبير بالأمر ﴿ٱرۡجِعُونِ﴾:

عبّرَ النّظمُ الحكيم عن موقف الكافر المُعاند بفعل الأمر ﴿ٱرۡجِعُونِ﴾ الذي يُفيد الضّراعة والرّجاء والتّذلّل أمامَ العَظَمة الإلَهيّة، وما ذاك إلّا من أثر ما أبصره من هول ما أعدّه الله تعالى للمُكذّبين المعاندين، كما جاء في الحديث الطّويل عن البَراءِ بْنِ عازِبٍ ﵁ قالَ: خَرَجْنا مَعَ النَّبيِّ ﷺ، ومنه: «وَإنَّ العَبْدَ الكافِرَ إذا كانَ في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنْيا، وإقْبالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إلَيْهِ مِنَ السَّماءِ مَلائِكَةٌ سودُ الوُجوهِ، مَعَهُمُ المُسوحُ، فيَجْلِسونَ مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فيَقولُ: أَيَّتُها النَّفْسُ الخَبيثَةُ اخْرُجي إلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وغَضَبٍ، قالَ: فتَفَرَّقُ في جَسَدِهِ،

(1) فيود، تفسير بلاغي لسورة المؤمنون، ص: 142.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 322 - 323.
(3) فيود، تفسير بلاغي لسورة المؤمنون، ص: 142.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/ 286.

فيَنْتَزِعُها كَما يُنْتَزَعُ السَّفّودُ مِنَ الصّوفِ المَبْلولِ ... »[1]، فإنّ هذا المشهدَ المُفْزِعَ يأخذُ بلُبِّ الكافرِ، فيصيحُ في ضراعةٍ وقد أصابه الذّلُّ والقُنوطُ: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ بعد أن أبصر مقعدَه من النّار، وتيقّن أنّه خالدٌ فيها إلى يوم يبعثون كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول اللّه ﷺ قال: «وإنْ كانَ مِنْ أَهْلِ النّارِ فمِنْ أَهْلِ النّارِ؛ فيُقالُ: هَذا مَقْعَدُكَ، حَتَّى يَبْعَثَكَ اللّه يَوْمَ القيامَةِ»[2].

نُكتَةُ العدولِ إلى ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾:

ذهابُ نفسِ الكافرِ كلَّ مذهبٍ عند مشاهدة مقعدِه من النّار

تعدّدت آراءُ العلماء في تعليل العدولِ عن التّعبير بالمُفرد إلى التّعبير بالجمع في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾، على أقوال:

الأوّل (وهو أرجحها): أنّه على إرادة التّعظيم، ممّا جرى على ما وصف بِه اللّهُ نفسَه، وأنكره ابنُ مالك، فقال: لم نعلم أحدًا أجاز للدّاعي أن يقول: (ربِّ ارحمون)؛ قال: لئَلّا يوهِمَ خلافَ التّوحيد، ورَدَّ عليه إنكارَه غيرُ واحد منَ اللّغويّين والمُفسّرين، قالوا: الواوُ لِتَعَظُّمِ المُخاطَبِ، وهو اللّه تَعالى، كَما في قَوْلِ الشّاعر:

أَلا فارْحَموني يا إلَهَ مُحَمَّدٍ *** فإنْ لَم أكُنْ أَهْلًا فأنْتَ لَهُ أَهْلُ

وقَوْلِ العَرْجي:

وإنْ شِئْتِ حَرَّمَتُ النِّساءَ سِواكُمُ *** وإنْ شِئْتِ لَمْ أُطْعِمْ نُقاخًا ولا بَرَدًا[3]

فالتَّعْظيمَ يَكونُ في ضَميرِ المُتَكَلِّمِ والمُخاطَبِ، بَلْ والغائِبِ والاِسْمِ الظّاهِرِ، وإنْكارُ ذَلكَ غَيْرُ رَضيٍّ، والإيهامُ الَّذي يَدَّعيهِ ابْنُ مالِكٍ هُنا لا يُلْتَفَتُ إلَيْهِ[4]، وقد بالغ الشّهابُ في ترجيح هذا الوجه على الوَجهَيْنِ الآخرَيْن، فقال: ومن فرّ منه فجعله خطابًا للملائكة بعد

(1) أخرجه أحمد في المُسنَد، أول مُسنَد الكوفيّين، برقم: (18832).

(2) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (1395).

(3) النقاخ: الماء البارد، والبرد: النوم، يُنظر: الجوهريّ، الصّحاح: (نقخ)، (برد).

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 15/ 484، والآلوسيّ، روح المعاني: 18/ 139، والخطيب، التّفصيل: 18/ 124 - 125.

الاستغاثة بالله، فقد تعسّف، وأقربُ منه تقدير المضاف؛ أيْ: ملائكة ربي، وأمّا اعتراض ابنِ مالك بأنّه لا يَعْرِف أحدًا يقول: (رب ارحمون) ونحوَه؛ لما فيه من إيهام التّعدّد فمدفوعٌ بأنّه لا يلزم من عدم صدوره عنّا كذلك أن لا يُطلقَهُ اللّهُ تعالى على نفسه كما في ضمير المُتكلّم[1]، وعلى هذا الوجه يكون العدول لمقام الرّهبة والتّعظيم بعد أن تبيّن له صدقُ ما أمضى حياتَه مُكذِّبًا له من الحقّ وآياته، فقد آن وقتُ الإقرار قهرًا بعد أن رفضَه عِنادًا وكِبرًا بعَظَمة اللّه وجَبَروته، والتّصديق بأنّه سبحانه ما اتّخذ ولدًا، ولم يكن له شريك في المُلك.

والثّاني: أنّ الخِطاب للرّبّ أوّلًا، ثمّ تحوّل إلى ملائكة العذاب، ويجوز على هذا الوجهِ أَنْ يكونَ على حَذْفِ مضافٍ؛ أيْ: يا ملائكةَ ربّي، فحَذَف المضافَ ثمّ التفتَ إليه عَوْدُ الضّميرِ كقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ [الأعراف: 4]، ثمّ قال: ﴿أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ۝٤﴾ [الأعراف: 4] التفاتًا لـ (أهل) المحذوف[2]، وأشار بعضُهم إلى وجهٍ آخر في كلمة ﴿رَبِّ﴾ وهي أنّها مُقسَمٌ به، فكَأَنَّهُ عِنْدَ المُعايَنَةِ قالَ: (بِحَقِّ الرَّبِّ ارْجِعون)، وذهبَ الآلوسيُّ إلى قريبٍ من هذا؛ وهو أن تكونَ كلمةُ ﴿رَبِّ﴾ اسْتِغاثَةً به تَعالى، و﴿ٱرۡجِعُونِ﴾ خِطابٌ لِلْمَلائِكَة عليهم السلام، قال: ورُبَّما يُسْتَأْنَسُ لِذَلِكَ بِما رواه ابْنُ جُرَيْجٍ قالَ: زَعَموا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ لِعائِشَةَ رَضيَ اللّه تَعالى عَنْها: «إنَّ المُؤْمِنَ إذا عايَنَ المَلائِكَةَ، قالوا: نُرْجِعُكَ إلى دارِ الدُّنْيا؟ قالَ: إلى دارِ الهُمومِ والأَحْزانِ، بَلْ قُدُمًا إلى اللّه تَعالى، وأمّا الكافِرُ فيَقولونَ لَهُ: نُرْجِعُكَ؟ فيَقولُ: رَبِّ ارْجِعوني: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾»[3]، وعلى هذا الوجه فإنّ العدول عنِ الجَمع إلى المُفرد يُشير إلى ما أصاب نفسَ الكافرِ من هَولٍ وفَزَع، فتراه يتخبّط في القول؛ بحثًا عنِ النّجاة والمَلاذ، فينادي الرّبّ ﷻ كي يصلَه بأسباب الرّحمة، ثمّ يلتفتُ إلى الملائكةِ يطلبُ منهم الشّفاعة قائلًا: ﴿ٱرۡجِعُونِ﴾.

والثّالث: أنّ جَمْعَ الضَّميرَ دلالةٌ على تكرير الفعل؛ فكَأَنَّهُ قالَ: رَبِّ ارْجِعْني ارْجِعْني ارْجِعْني، وهو يُشْبِهُ ما قالوه في قوله: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ [ق: 24] أنه بمعنى: أَلْقِ أَلْقِ، ثَنّي

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 345.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المَصون: 8/ 367.

(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 367، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 12/ 118، والآلوسيّ، روح المعاني: 18/ 139، والخطيب، التّفصيل: 18/ 124 - 125.

الفعلُ للدّلالةِ على ذلك[1]، وعلى هذا الوجه فإنّ العدول عن ضمير الجمع يدلُّ كذلك على ما أصاب الكافرَ من فزَعٍ ورُعْبٍ حتّى ذهب يكرِّرُ الرّجاء والضّراعة لعلّ اللّهَ يستجيب له، وما له من محيصٍ عن عذاب الآخرة.

موقع جملة التّمنّي ممّا قبلَها ودلالتُه:

تمنّي الكافرِ وقتَ لا ينفع التّمنّي من أبلغ الأدلّة على بالغ ما أصابه من الحسرة

جاءت هذه الجُملَةُ الكريمة: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ لتُفيدَ معنى التَّرجّي في مَوْضِعِ العِلَّةِ لِمَضْمونِ ﴿ٱرۡجِعُونِ﴾[2]، وذلك بعد أن بالغَ الكافرُ في الضّراعة والتّذلُّل والرّجاء؛ كي يَرجعَ إلى الحياة مَرّة أُخرى، على تقدير الخطاب للّه تبارك اسمُه، أو لملائكة الموتِ، أو لتكرير الفعل، قال: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾؛ فهو ما رغبَ في الرّجوع إلّا رجاءَ أن يستأنف منَ العمل الصّالح ما لم يعمله في الدّنيا بعد أن انشغل بالحِجاج والجَدل في ذات اللّه وذاتِ نبيّه ﷺ بغير عِلْمٍ.

غرضُ التّعبير بأسلوب التّرجّي ﴿لَعَلِّيٓ﴾:

ضراعةُ الكافر رغمَ انقطاع الأمل في الرجوع للدُّنيا

جاء النّظمُ الحكيم هاهنا باستعمال ﴿لَعَلِّيٓ﴾ في معنى التّمنّي، إذِ الكافرُ لا يتوقّع الرّجوعَ إلى الدّنيا، ولكنّه من فرْط فزَعِه وإشفاقِه تعلّق بتمنّي الرّجوع، وإن كان على يقين باستحالة هذا الرّجوع، ولكنّه ما تَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ وعَشيرَتِه، ولا ليَجْمَعَ الدُّنْيا ويَقْضيَ الشَّهَواتِ، ولَكِنْ تَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ فيَعْمَلَ بِطاعَةِ اللّه، فرَحِمَ اللّهُ امرءًا عَمِلَ فيما يَتَمَنّاهُ الكافِرُ إذا رَأَى العَذابَ[3].

من قصّرَ تحسَّرَ

وقد استشكل بعضُ المُفسّرين هذه الرّغبةَ، إذ كَيْفَ يَسْأَلونَ الرَّجْعَةَ، وقَدْ عَلِموا صِحَّةَ الدّينِ بِالضَّرورَةِ؟! ومِنَ الدّينِ أنْ لا رَجْعَةَ،

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 367، والآلوسيّ، روح المعاني: 18/ 139، والخطيب، التّفصيل: 18/ 124 - 125.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 123.

(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 428.

والجَوابُ: أنَّهُ وإنْ كانَ كَذَلِكَ فلا يَمتَنِعُ أنْ يَسْأَلُوهُ؛ لِأَنَّ الاسْتِعانَةَ بِهَذا الجِنْسِ مِنَ المسألة تَحْسُنُ وإنْ عَلِمَ أنَّهُ لا يَقَعُ، فأمّا إرادَتُهُ لِلرَّجْعَةِ فلا يَمتَنِعُ أيْضًا عَلى سَبِيلِ ما يَفْعَلُهُ المُتَمَنّي[1]، وذهب بعضُهم إلى أنّ (لعلّ) هنا تُفيد الشّكّ، وقيل: كيف يجوز أن يسأل الرّجعَةَ مع الشّكّ؟

والأرجح أنّ (لعلّ) هنا للتّمنّي؛ فإنَّه في هذا الوقت باذلٌ للجهد في العَزْم على الطّاعة إن أُعطيَ ما سأل، فهو مِثْلُ مَن قَصّر في حَقّ نفسه، وعَرفَ سوءَ عاقبةِ ذلك التّقصير، فيقول: مَكّنوني منَ التّدارك لعلّي أتدارك؛ فيقول هذه الكلمةَ مع كونه جازمًا بأنّه سيتدارَك[2].

سِرُّ التّعبير بياء التّكلّم اسمًا لـ (لعل):

شِدّة هولِ المقام أنست الكافر أهلَه وعشيرتَه؛ فانشغل بذاته وحْدَه لعلّه ينجو

جاء النّظمُ الحكيم بياء التّكلّم المُفرد اسمًا لـ (لعلّ) في قوله: ﴿لَعَلِّيٓ﴾ رغمَ أنّ الغالب على السّورة أنّها تعبّر عنِ الكافرين بالجمع لا بالمُفرد؛ وذلك للدّلالة على أنّ هولَ مقامِ الاحتضار ورؤيةِ ما أعدّه اللّهُ منَ العذاب المُقيم قد أخذ بجميع نفسه فأنساه أهلَه وعشيرتَه والمُترَفين الذين كان يتبعُهم بغير حقٍّ؛ فعبّر هنا برغبته الفرديّة في النّجاة، وهو مصداق قول اللّه تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذِۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ٦٧﴾ [الزّخرف: 67].

غرض التّعبير بخبر ﴿لَعَلِّيٓ﴾ جملةً فعليّة:

الـرّغـبـةُ في استمرار العمل الصّالح حالَ الرّجوع دليلٌ على شِدّة ندمِ الكافرين

الغالبُ على لغة القرآن أن يجيءَ خبرُ (لعل) جملةً فعليّةً فِعْلُها مضارع ﴿أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾؛ فقد ورد هذا الأسلوب في مائة وأربعة وعشرين موضعًا في حين جاء الخبر اسمًا مُفردًا في خمسة مواضعَ فحسبُ[3]، وقد آثَرَ النّظمُ الحكيم التّعبيرَ هنا بالجملة الفعليّة؛ لأنّها تدلُّ على التّجدّد والاستمرار الكاشفِ عن عظيم أمانيه المستحيلات.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 12/ 117.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 14/ 256.
(3) عُضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/ 605.

الصّلاحُ هو سبيلُ النّجاة في الآخرة

غرض حذف المفعول به وإقامةِ صفتِه مقامَه:

حذفَ النّظمُ الحكيم هنا المفعولَ به (عملًا) وأقام صفتَه مقامَه في قوله: ﴿أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا﴾؛ وذلك للعِلْم به وللاهتمام بصفة هذا العمل، فقد كان الكافرُ يعمل في الدّنيا كثيرًا من الأعمال، ولكنّها كانت أعمالًا باطلة خبيثة؛ فأقام هنا صفةَ الصّلاح مقامَ العمل؛ لأنّها هي المُرادةُ في المقام الأوّل، كما أنّ المقام مقامُ إيجاز واختصار، فلحظَةُ الاحتضارِ ومعاينةِ الموت لحظةٌ خاطفةٌ لا يتّسِعُ فيها المقامُ للتّفصيل.

شهادةُ الكافر على نفسه بالتّقصير في الدّنيا

سِرّ تقييدِ الفعل بشِبه الجملة:

قُيّدَ الفعلُ في هذه الجملة الكريمة ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا﴾ بشِبه الجملة، وهي قوله: ﴿فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾؛ وذلك لتقوية الدّلالة على ما أصاب الكافرَ من بالغ النّدم على تقصيره في الدّنيا، إذ لو خلتِ الجملةُ من هذا القيد لسَبَقَ إلى وهْم بعضِهم أنّه لم يأخذ فرصتَه كاملةً في الدّنيا، ولكنّ هذا القيدَ أذهبَ الوهمَ باعتراف الكافر بأنّه قد قصّر فيما ترك من العمل الصّالح في الدّنيا.

الأعمال الصّالحة الكثيرة الّتي تركها الكافرُ مُؤكّدة على تقصيره وعِنادِه

غرض التّعبير باسم الموصول:

عبّر النّظمُ الحكيم بـ (ما) الموصولة التي تُفيد العمومَ في قوله: ﴿فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾؛ فاتّسعَ مدلولُها ليَشملَ تقديراتٍ كثيرةً في تفسيرها؛ فقيل: أيْ: فيما ضيعتُ من العمل وتركتُه منَ الطّاعات، أو فيما مضى منَ العمر، أو في الإيمان الذي تركتُه، وقيل: المعنى: بدلًا عمّا تركتُ[1].

غرض حذف المفعول به:

جاء النّظمُ الكريم بحذف المفعول به في قوله تعالى: ﴿فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾، وكان مقتضى النّظم أن يقول: (تركته)؛ فعدلَ السّياقُ الكريم عن ذِكْر المفعولِ به إلى حذفه؛ لأنّ في الحذف تكثيرًا

(1) الخطيب، التّفصيل: 18/ 126.

في حذف المفعول به تكثيرٌ للمعاني

للمعاني؛ إذ يتأتّى مِن احتمالات المعاني بالحذف هنا ما لا يتأتّى بالذِّكر، فهو إمّا راجعٌ لِلْعَمَلِ والإيمانِ؛ لِعِلْمِه بِعَدَمِ الرُّجوعِ، أَوْ لِلْعَمَلِ فقَطْ لِتَحْقيقِ إيمانِهِ إنْ رَجَعَ، فهو كَما في قَوْلِكَ: لَعَلّي أَرْبَحُ في هَذا المالِ، أَوْ كَقَوْلِكَ: لِعَليّ أَبْني عَلى أَسٍّ؛ أَيْ: أؤَسِّس ثُمَّ أَبْني، وقيلَ: فيما تَرَكْتُ من المالِ أَوْ من الدُّنْيا، جَعَلَ مُفارَقَةَ ذَلِك تَرْكًا لَهُ[1].

بلاغة التّعبير بالفعل (ترك):

ندمُ الكافرِ على ما فرّط في حياته الدّنيا

آثَرَ النَّظْمُ القرآنيّ التّعبيرَ بـ (التّرك)، في قوله: ﴿فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾، وقد ذهب بعضُهم إلى أنّ التّرك هُنا مُسْتَعْمَلٌ في حَقيقَتِهِ، وهو مَعْنى التَّخْلِيَةِ والمُفارَقَةِ، وما صَدقَ ﴿فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ هو عالمُ الدّنيا، ويَجوزُ أَنْ يُرادَ بِـ (التَّرْك) مَعْناهُ المَجازيُّ وهو الإعْراضُ والرَّفْضُ، عَلى أَنْ يَكونَ ما صَدَقَ المَوْصولُ الإيمانَ بِاللهِ وتَصْديقَ رَسولِه، فذَلِكَ هو الَّذي رَفَضَهُ كُلُّ مَن يَموتُ عَلى الكُفْرِ؛ فالمَعْنى: لَعَلّي أُسْلِمُ وأَعْمَلُ صالِحًا في حالَةِ إسْلامي الَّذي كُنْتُ رَفَضْتُهُ؛ فاشْتَمَلَ هذا المَعْنى عَلى وعْدٍ بِالامْتِثالِ واعْتِرافٍ بِالخَطَأِ فيما سَلَفَ، ورُكِّبَ بِهَذا النَّظْمِ الموجَزِ قَضاءً لِحَقِّ البَلاغَةِ[2]، وهناك مَنْ ذهب إلى أنّ (التّرك) يُطلق على المفارقة من طريق الاستعارة، إذِ استُعير التّرك للمفارقة بجامع الابتعاد في كلٍّ، ثمّ اشتُقّ مِنَ التّرك (ترك) بمعنى (فارق) على سبيل الاستعارة التّبعيّة في الأفعال[3].

غرضُ التّعبيرِ بأسلوبِ الزّجر:

مَـنْ لم يَزجره الإيمانُ عن المعاصي زُجِرَ بعدم الرّجعة إلى يوم يُبعثون

قرعت ﴿كَلَّآۚ﴾ سمعَ الكافر فورَ تمنّيه هذه الأُمنيَةَ الباطلة البعيدة، وهي حرف ردّ وزجْرٍ وردعٍ عن طلب الرّجعة، وقيل: هو حرف نفيٍ؛ بمعنى أنّ الرّجعة لا تكون، وفيه معنى الزّجر والرّدع[4]، والمُراد بها

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 18/ 139.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 125.

(3) فيود، تفسير بلاغي لسورة المؤمنون، ص: 143.

(4) الخطيب، التّفصيل: 18/ 126.

فيهِ قوْلانِ؛ أحَدُهُما: أنَّهُ كالجَوابِ لَهم في المَنعِ مِمّا طَلَبوا، كَما يُقالُ لِطالِبِ الأمرِ المُستَبْعَدِ: هَيْهاتَ، ويُحْتَمَلُ أنْ يَكونَ على وجْهِ الإخْبارِ بِأنَّهم يَقولونَ ذَلِكَ، وأنَّ هَذا الخَبَرَ حَقٌّ، فكَأنَّهُ قالَ: حَقًّا إنَّها كَلِمَةٌ هو قائِلُها، والأقْرَبُ الأوَّلُ، وفيها وجهٌ ثالثٌ: وهي أنّها رَدْعٌ لِلسّامِعِ؛ لِيَعْلَمَ إبْطالَ طِلْبَةِ الكافِرِ[1]، والغرضُ مِن استعمال هذا الأسلوب هو بيانُ مدى هوانِ الكافر، فرغمَ التّذلُّلِ والاستعطاف والتّرجّي ساعةَ الاحتضارِ؛ فهو مردودٌ عن الرّجوع، ومستَبْعَدٌ من حياض الرّحمة إلى يوم يُبعثون؛ لتكذيبه وعِناده وجُحوده.

غرضُ تعليل الزّجر بجملةٍ اسميّة مُؤكّدة:

تأكيد عِلْم اللهِ تعالى بسرائر النّفوس

جاءت جملة ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ عقبَ قوله تعالى: ﴿كَلَّآۚ﴾؛ لتُعَلّل سببَ هذا الرّفضِ القاطعِ والرّدِّ الجازمِ للرّجوع إلى الدّنيا، وهي جملةٌ اسميّة مُؤكَّدةٌ بحرف التّوكيد (إنّ)، والغرضُ من هذا التّوكيد أن يوقِنَ السّامع أنّ الله الذي أحاط بكلّ شيء علمًا قد أحاط بما في نفس الكافر ساعةَ الاحتضار من أقوالٍ لا يقصِد بها حقيقةَ الإيمانِ به سبحانَه.

سِرّ تقييد خبر (إن) بجملةٍ صفةٍ اسميّة:

كذبُ الكفّار وإفكُهم ساعة الاحتضار

قوله تعالى: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ تَرْكيبٌ يَجْري مَجْرى المَثَلِ؛ وهو مِن مُبْتَكَراتِ القُرْآنِ، وحاصِلُ مَعْناهُ أنَّ قَوْلَ المُشْرِكِ ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ لا يَتَجاوَزُ أنْ يَكونَ كَلامًا صَدَرَ مِن لِسانِهِ لا جَدْوى لَهُ فيهِ؛ أيْ: لا يُسْتَجابُ طَلَبُهُ بهِ[2]، وقد آثَرَ النّظمُ الكريم في قوله تعالى: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾ أن يُقيّد لفظَ ﴿كَلِمَةٌ﴾ بجملةِ صفةٍ اسميّةٍ؛ وهي قولُه تعالى: ﴿هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾؛ فأفادَ هذا التّقييدُ إيضاحَ حالِ الكافرِ حالَ نُطقه بجملة ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ أنّه إنّما يقول كلمةً لا معنى لها

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 12/ 119، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 125.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 124.

في قلبه؛ بل هي كلمةٌ يدرأ بها عن نفسه سوءَ المصير؛ أي: هي مجرّدُ كلمةٍ نطقَ بها لا يتجاوزُ النّطقُ بها شفتيه، وقَدْ عُرِفَ منه الخِداعُ والكَذِبُ، فهي كَما عُهِدَ مِنهُ لا حَقيقَةَ لَها[1]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ٢٨﴾ [الأنعام: 28]، فجُملَةُ: ﴿هُوَ قَآئِلُهَا﴾ وصفٌ لـ ﴿كَلِمَةٌ﴾؛ أيْ: هي كَلِمَةٌ هَذا وصفُها، وإذْ كانَ من المُحَقَّقِ أنَّهُ قائِلُها لَم يَكُنْ في وصْفِ ﴿كَلِمَةٌ﴾ به فائِدَةٌ جَديدَةٌ؛ فتَعَيَّنَ أنْ يَكونَ الخَبَرُ مُسْتَعْمَلًا في مَعْنى أنَّهُ لا وصْفَ لِكَلِمَتِهِ غَيْرُ كَوْنِها صَدَرَتْ من في صاحِبِها، وبِذَلِكَ يُعْلَمُ أنَّ التَّأْكيدَ بِحَرْفِ (إنَّ) لِتَحْقيقِ المَعْنى الَّذي اسْتُعْمِلَ لَهُ الوَصْفُ[2].

سِرّ إيثار التّعبير باسم الفاعل:

استيلاءُ اليأسِ والقنوط على نفس الكافر

جاء النّظم الكريم باستعمال اسم الفاعل ﴿قَآئِلُهَا﴾ للدّلالة على أمرين؛ الأوّل: مُضيُّ هذا القول بالنّسبة للكافر؛ فقد مضى هذا القول كأنّه لم يكن؛ فلا عبرةَ به، ولو كان التّعبير بدلًا من ذلك: (كلّا إنّها كلمةٌ هو يقولُها) لدَلَّ ذلك على التّجدُّد والاستمرار والإلحاح، ولكنّ النّظمَ الحكيم لمّا جاء باسم الفاعل، دلَّ على أنّ اليأس والقنوط سُرعانَ ما تَسَرّب إلى نفس الكافر بعدما رأى من هول الاحتضار ما رأى، والآخَر: تأكيدُ نسبةِ هذا القول للكافر؛ أيّ: هو قائلُها لا محالةَ؛ فلا يُخليها ولا يَسكت عنها؛ وذلك لتَسَلّط النّدم واستيلاءِ الحَسْرة عليه، وإمّا للاختصاص؛ أيّ: هو قائلُها وحدَه، إذ لا يُجابُ إليها، ولا تُسْمَع منه، وذلك بتنزيل الإجابة والاعتداد منزلةَ القولِ حتّى كأنّ المُعْتَدّ بها شريكٌ لقائلها[3].

دلالةُ العطفِ في قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾:

الكافرون بينَ الصّدود وسوءِ الخاتمة

عُطِفت جملةُ ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ على الجملة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 185.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 125.
(3) فيود، تفسير بلاغي لسورة المؤمنون، ص: 143.

السّابقة بالواو، ويجوز في الواو هنا العطفُ والحاليّة[1]، فأمّا على معنى العطفِ؛ فالتقدير: فهو لا يُجابُ إلَيْها عَطَفَ عليه قَوْلَهُ جامِعًا مَعَهُ كُلَّ مَن ماثَلَهُ؛ لِأنَّ عَجْزَ الجَمعِ يَلْزَمُ مِنهُ عَجْزُ الواحِد[2]، وأمّا على الحاليّة فهي تُشير إلى حالٍ عظيمةٍ مَهولةٍ تنتظرُهم بسبب إفكهم وافترائهم على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ، وذلك بعد أن بيّنت الجملةُ السّابقةُ حالَهم ساعةَ الاحتضارِ؛ فشَرعت في بيان حالهم في البرزخ.

سِرُّ إيثار التّعبير بـ ﴿وَرَآئِهِم﴾ على (أمامهم):

لا مَفرّ للكافر من عذاب البرزخ

آثَرَ النّظمُ الحكيمُ التّعبيرَ بشِبه الجملة ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾؛ أيْ: أمامهم بعد الموت، وقد ذَكَر العلماءُ في تقدير معنى (الوراء) ثلاثةَ آراء؛ **الأوّل**: أنّ (الوراء) في مثل هذا الموضع مأخوذٌ من تَوارَى؛ أيِ: اسْتَتَرَ، فلَيْسَ من الأَضْدادِ[3]؛ لأنّ البرزخَ مُتوارٍ لا يظْهَرُ، فعَبّر النّظمُ بـ(الوراء) لاستتار البرزخِ والبعثِ عن العيون؛ حتّى تذهبَ نفسُ الكافر في تَصوُّرِهما كلّ مذهب، **والرّأي الثّاني**: أنّ الوراء بِمَعْنَى خَلْفَ وأَمامَ؛ فهوَ مِنَ الأَضْداد، **والثّالث**: أنّه مجازٌ؛ أي: تكون كما يُقالُ: هَذا الأَمرُ مِنْ ورائِكَ؛ أَيْ: سوفَ يأتيك، وفيه كنايةٌ ترصد الحياة البَرزخيّةِ لهؤلاء المُكذّبين يُعَذّبون فيها بعدَ أن رَأَوا مقاعدَهم من النّار ساعةَ الاحتضار، وقد أفاد استعمالُ (وراء) على هذا التّقدير نُكْتَةً دقيقة، وهي شِدّةُ ملاحقةِ العذابِ لهؤلاء الكفّار، فـ(الوَراء) يُسْتَعارُ لِحالِ تَعَقُّبِ شَيْءٍ شَيْئًا، وحالِ مُلازمةِ طَلَبِ شَيْءٍ شَيْئًا بِحَقٍّ، وحالِ الشَّيْءِ الَّذي سَيَأْتي قريبًا، كُلُّ ذَلِكَ تَشْبيهٌ بِالكائِنِ خَلْفَ شَيْءٍ، لا يَلْبَثُ أَنْ يَتَّصِلَ به؛ كَقَوْلِهِ تعالَى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ [الجاثية: 10][4].

(1) الخطيب، التّفصيل: 18/ 126.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 185.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 120.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 18/ 124.

غرضُ الكناية ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ﴾:

عــذابُ الــبرزخ مــآلُ المُـكـذّبين المُعاندين

في قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ﴾ كنايةٌ عن تطلُّبِ عذابِ البرزخِ لهؤلاء الكفّار، وتَرصُّده لهم؛ فهو مُدركُهم لا محالةَ، والغرضُ منها: تهديدُ هؤلاء المُعاندين المُكذّبين بما هو مُستَتِرٌ عنهم، وبما هم قادمون عليه لا محالةَ، وفيه كسرٌ لكبريائهم، وحَطٌّ من أكاذيبهم؛ فكأنّهم بين يَدَي عذابِ البرزخِ يطلبُهم؛ فلا يستطيعون منه فِرارًا.

معنى (من) ودلالتُها في: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ﴾:

أشدُّ العذاب ما يكون عن مُباغتة ومُفاجأة

عبّر النّظمُ الحكيم بـ(من) الابتدائيّةِ في قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ﴾، وهي تُشير إلى تحقيق معنى أنّ أشدّ العذابِ مبتَدِئٌ من ورائهم، ومتَّجِهٌ نحوَهم، والعادة أن يكون الإنسانُ في غفلةٍ عمّا وراءَه، وهذا سببُ تخصيصِ جهةِ الوراء.

غرضُ تقديم شِبه الجملة:

الاهتمامُ بالوراء لـكـونـه جـهـةَ الغفلةِ

في تقديم شِبه الجملة ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ على المبتدأ ﴿بَرۡزَخٌ﴾ اهتمامٌ بهذه الجهةِ بوصفها جهةَ الغفلةِ في الإنسان عمومًا، وفي هؤلاء المُكذّبين المُعاندين خصوصًا، فقُدِّمت هذه الجهةُ هنا ليُعلموا أنّهم قد أُحيطَ بهم من كلّ جهة، وجاء بالوراء لتأكيد هذه الإحاطةِ؛ لأنّها جهةُ الهروبِ؛ فيُباغَتون بإحاطة عذابِ البرزخ؛ فلا مهربَ ولا مَنجَى.

الغرضُ من تنكير ﴿بَرۡزَخٌ﴾:

هـولُ مـا ينتظر الـكـافـريـن المُكذّبين

جاءت كلمة ﴿بَرۡزَخٌ﴾ نكرةً في هذا الموضع، وهو الموضعُ الوحيدُ الذي جاءت فيه في سياق الآخرة، وقد أفاد التّنكيرُ الدّلالةَ على هول ما ينتظر هؤلاء المُكذّبين في الحياة البَرزخيّة، بينَ الاحتضارِ ويوم البعث؛ وذلك لتَذهبَ نفوسُهم كلَّ مذهبٍ في تَصَوّر حالِ هذا البرزخِ وما يكون فيه.

سِرُّ التّقييد بشِبه الجملة ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾:

جاءت جملةُ ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ﴾ مُقيّدةً بشِبه الجملة ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ

﴿يُبْعَثُونَ﴾، وقد أفاد هذا التّقييدُ بيانَ الغايةِ في مُدّة البَرزخ، فليست مُدّةُ اللّبثِ في البرزخ مُطلقةً؛ بل مُقيّدةٌ بيوم البعث، ومن فوائد هذا التّقييد: إعلامُ الكفّار بأنّهم سينتقلون من عذاب البرزخ إلى لونٍ أشدّ من ألوان العذاب، فإذا كان عذابُ الكافرِ في البرزخ فرديًّا لا يراه أحدٌ، ولا يسمع به أحدٌ، فإنّ العذاب سيتحوّل يومَ البعثِ إلى عذابٍ على رؤوس الأشهاد، وهو أشدُّ إيلامًا لنفوس هؤلاء المُكذّبين المُعاندين.

تأكيدُ البعثِ يوم القيامة وبيانُ حتميّته

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يُبْعَثُونَ﴾:

جاء النّظمُ الكريم بالفعل المضارع ﴿يُبْعَثُونَ﴾؛ ليُشيرَ إلى استحضار الصّورة في أذهانهم، فكأنّهم يُشاهدونها حاضرةً مُتجدِّدةً فيَبْقَون في انتظار البعث رجاءَ أن يصيروا إلى حالٍ غيرِ تلك الحال، ولكنّهم في حقيقة الأمر صائِرونَ إلى حالَةٍ مانِعَةٍ مِنَ التَّلاقي، حاجِزَةٍ عَنِ الاجْتِماعِ، وذَلِكَ هو المَوْتُ، ولَيْسَ المَعْنى أنَّهم يَرْجِعونَ يَوْمَ البَعْثِ، إنَّما هو إقْناطٌ كُلّيٌّ لِما عُلِمَ أنَّهُ لا رَجْعَةَ يَوْمَ البَعْثِ إلّا إلى الآخِرَةِ[1].

تأكيدُ قنوطِ الكافرين من الرّجوع إلى الدّنيا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 124.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾

[المؤمنون: 101]

سوءُ مصيرِ الكافر بين أهوال البرزخ وفقدان النّاصر والمُعين يومَ القيامة

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ أحوالَ الكافر عند الاحتضار وما ينتابُه من هَلَعٍ وخَوْفٍ وترجٍ للعودة، ثمّ أعقبت بالإشارة إلى البَعْثِ؛ تطلّعتِ النّفوسُ إلى ما يَكونُ بَعْدَهُ من أحوال الحساب في الآخرة، فكان مِنَ المناسب أن تُبتدأ الآيةُ ببيان أحوالِهم ساعةَ النّفخ في الصّور، وكانَ قَدْ تَقَدَّمَ أنَّ النّاسَ - بَعْدَ أنْ كانوا أُمَّةً واحِدَةً في الاجْتِماعِ عَلى رَبِّهِم - تَقَطَّعوا قِطَعًا، وتَحَزَّبوا أحْزابًا، وتَعاضَدوا بِحُكْمِ ذَلِكَ وتَناصَروا، وكان التّناصر بالأنساب أعْظَمَ الأسْبابِ عندهم، يَذْكُرونَها ويَتَفاخَرونَ بها؛ ولكن لمّا دَهَمَهم مِنَ الأمرِ، وشَغَلَهم مِنَ البَأْسِ، ولَحِقَهم مِنَ الدَّهَشِ، ورَعَبَهم مِنَ الهَوْلِ، وعَلِموا مِن عَدَمِ نَفْعِها إلّا ما أذِنَ اللهُ فيه، فانْكَشَفَ لَهم أنْ لا حَكَمَ إلّا اللهُ، وأنَّهُ لا تُغْني نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا، فتَسَبَّبَ عَنْ ذَلِكَ أنَّهُ لا نُصْرَةَ إلّا بِالأعْمالِ الصّالحة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلصُّورِ﴾: (صور) كَلِماتٌ كَثيرَةٌ مُتَبايِنَةُ الأُصولِ، ومِنْهُ قَوْلُهُم: صَوِرَ يَصْوَرُ، إذا مالَ، وصُرْتُ الشَّيْءَ أصورُهُ، وأَصَرْتُهُ، إذا أَمَلْتَهُ إلَيْكَ، والمعنى المحوريُّ: أنّها حدودٌ تُبيِّنُ هيئةَ الشّيء بالانعطاف عليه وضَمّه وتمييزه، ومن ذَلِكَ صورَةُ كُلِّ مَخْلوقٍ، والجَمْعُ: صُوَرٌ، وهيَ هَيْئَةُ خِلْقَتِهِ، ويُقالُ: رَجُلٌ صَيِّرٌ إذا كانَ جَميلَ الصّورَةِ، والمُراد بالصّور في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ على ثَلاثةِ أقْوالٍ؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 186.

أحَدُها: أنَّ الصّورَ آلَةٌ إذا نُفِخَ فيها يَظْهَرُ صَوْتٌ عَظيمٌ، جَعَلَهُ اللّه تعالى عَلامَةً لِخَرابِ الدُّنيا ولِإعادَةِ الأمواتِ، روِيَ عن رَسولِ اللّه ﷺ أنَّهُ: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فيهِ»[1]، **وثانيها**: أنَّ المُرادَ من الصّورِ مَجْموعُ الصّوَرِ، والمَعْنى: فإذا نُفِخَ في الصّوَرِ أرْواحُها، **وثالِثُها**: أنَّ النَّفْخَ في الصّورِ اسْتِعارَةٌ، والمُرادُ مِنهُ البَعْثُ والحَشْرُ، والأوَّلُ أوْلى لِلْخَبَرِ[2].

2) ﴿أَنسَابَ﴾: (نسب) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، قياسُها اتِّصالُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ؛ ومِنْهُ النَّسَبُ؛ لِاتِّصالِهِ ولِلِاتِّصالِ به، والنَّسيبُ: الطَّريقُ المُسْتَقيمُ؛ لِاتِّصالِ بَعْضِهِ من بَعْضٍ، ومِنْهُ النَّسيبُ في الشِّعْرِ إلى المَرْأةِ، كَأنَّهُ ذِكْرٌ يَتَّصِلُ بها، والمعنى المحوريّ للنّسب: اتّصالٌ بلُطْفٍ وامتدادٍ؛ كسِرب النّمل، وكالطّريق بين ما حولَه من أرض، والأصل في النّسب: الاشتراكُ في أبٍ أو دينٍ أو صناعةٍ أو حَيٍّ أو قبيلةٍ، والمُراد بالنّسب الإنسانيّ: اشتراكٌ من جهة أحدِ الأبويْن، وذلك ضربان: نَسَبٌ بالطّول؛ كالاشتراك من الآباء والأبناء، ونَسَبٌ بالعَرْض كالنِّسْبة بينَ بني الإِخْوة وبني الأَعْمام، قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهۡرًاۗ﴾ [الفرقان: 54]، وقيل: فلانٌ نَسيبُ فلان؛ أيْ: قريبُه، وأمّا النّسبةُ فتُستعمَل في مقدارَيْنِ مُتجانِسَيْنِ بَعْضَ التَّجانُسِ، يختصُّ كلّ واحدٍ منهما بالآخر، والمُراد بقوله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ﴾؛ أيْ: ثَمَّ ينقطع التّفاخر بينَهم بالأنساب التي كانوا يَعْتَدّون بها مفاخرةً في الدُّنيا على غيرهم[3].

3) ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾: (سأل) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، يُقالُ: سَأَلَ، يَسْأَلُ، سُؤالًا ومَسْأَلَةً، والمعنى المحوريّ: استخراج ما في حَوْزةٍ أخرى؛ أيْ: طَلَبُ تحصيله بَدفعٍ أو حَثٍّ، كما تَخرُجُ الصّدقةُ والدِّرْهَمُ من المسؤول، وما السّؤالُ إلّا حَثٌّ ودَفْعٌ من أجل هذا؛ أي: استخراجٌ واستنفاذ، فالسُّؤالُ: استدعاءُ معرفةٍ، أو ما يُؤدّي إلى المعرفة، واستدعاءُ مالٍ، أو ما يُؤدّي إلى المال، فاستدعاءُ المعرفة جوابُه على اللّسان، واليدُ خليفةٌ له بالكتابة أو الإشارة، واستدعاءُ المال جوابُه على اليد، واللّسان خليفةٌ لها إمّا بوعدٍ أو بِرَدّ، والسُّؤالُ للمعرفة يكون تارةً للاستعلام، وتارةً للتّبكيت؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ٨﴾ [التّكوير: 8]،

---

(1) أخرجه أبو داود في سُنَنِه، برقم: (4742)، والتّرمذيّ في سننه، برقم: (2430) وحسَّنه، والحاكِم في المُستدرَك، برقم: (3631) وصحّحه، ووافقه الذّهبيّ.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صور)، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 12/ 120.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نسب).

و﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ أيْ: يسأل بعضُهم بعضًا، والمُراد هنا: ولا يَتَساءَلونَ في الآخرة عن أحسابهم وأنسابهم كَما يَتَساءَلونَ في الدُّنْيا: مِنْ أيِّ قَبيلَةٍ أَنْتَ؟ ولا مِنْ أيِّ نَسَبٍ؟ ولا يَتَعارَفونَ لِهَوْلِ ما أَذْهَلَهُم[1].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا نسبَ ينفعُ يومَ القيامةِ إلّا العملُ الصّالح

بعد أن ذكرتِ الآيةُ السّابقة هولَ ما يُعاينُه الكافرُ من أهوال الاحتضار، وأنّه يرى مقعدَه منَ النّار، ويلبث فيه إلى يوم يُبعثون؛ ذَكرت هذه الآية طرفًا من أحوال الآخرة، وذلك عند النّفخ في الصّور، فإذا أُلْحِقَت كلّ روحٍ بجسدها عند قيام السّاعة، وحُشِروا من قبورهم إلى ساحة القضاء الإلهي؛ ليَقضيَ لهم أو عليهم تبعًا لعقائدهم وأَعمالهم، فلا تنفعُهم قراباتُهم حينَئِذٍ كما كانت تنفعُهم في دُنياهم، ولا يُفْتَخر يومَئِذٍ بالأنساب كما يُفْتَخر بها في الدُّنيا، وإنّما يُفتَخَرُ هناك بالأَعمال والنّجاة من الأهوال، وكما أنّهم لا تنفعُهم أنسابُهم ولا يفتخرون بها، فكذلك هم لا يتساءَلون عن أَحوالهم على طريق التّعارف والمُؤانسة، فلا ترى أَحدًا منهم يهتمُّ بغيره فيسأَله عن حاله؛ لأَنّ حال كلٍّ منهم واضحٌ لغيره، ولأَنّ الخَطْبَ جسيمٌ، يَشْغَلُ كلّ امرئٍ عن سواه، فهم لا يتساءَلون في هذا الموضع من أوّل مراحل البعث والحشر، ثمّ يتساءَلون في بعض المواضع الأُخرى، ولعلّه عند جهنّم، وقد يُقال: إنّ المنفيّ هنا هو سؤالُ التّعارف ونحوه ممّا عليه دفعٌ.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

الآخرةُ للحساب وحْدَه، فلا رجاءَ للعودة لِتَداركِ ما فات

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَإِذَا نُفِخَ﴾:

ربطَ النّظمُ الحكيم بين هذه الآية ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ وسابقتها

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سأل).

بحرف الفاء، وهي استئنافيّةٌ تُفيد التّفريع، والتّقْديرُ: (فَإذا جاءَ يَوْمُ يُبْعَثونَ نفخ في الصّوْر)، ولَكِنْ عُدِلَ عن ذلك إلى قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ تَصْويرٌ لِحالَةِ يَوْمِ البَعْثِ[1]، فدلّتِ الفاءُ هنا على التّرابط الوثيق بين البعث والنّفخ في الصّور، وإعادةِ الأرواح لأجسادها كي يُجازَى كلٌّ بما عمل في الدّنيا، وفيها قطعٌ لرجاءِ الكفّار المذكورِ في الآية السّابقة في سؤالهمُ العودةَ إلى الدّنيا ليعملوا صالحًا.

سِرُّ إيثارِ التّعبيرِ بـ (إذا):

عودةُ الأرواحِ لأجسادِها حقيقةٌ ثابتةٌ لا مَفرّ منها

عبّر النّظمُ الحكيمُ عنِ النّفخ في الصّور بأسلوب الشّرط مُستخدِمًا الأداةَ (إذا) في قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾، وهي موضوعة في الأصل للمقطوع بحصوله، وللكثير الواقع، وعلى هذا سار النّظمُ القرآنيّ[2]، فالنّفخُ في الصّور من الأُمور المقطوعة الثّابتة شرعًا في نفوس المؤمنين، أكّدها القرآنُ الكريم ونصوصُ السُّنَّة في عدد وافر من المواضع، ولكن لمّا كان الكافرون المُكذّبون في شَكٍّ منه؛ جاء النّصُّ الكريم بأداة الشّرط (إذا) التي تُفيد تَحَقُّقَ الوقوع؛ ليُؤَكِّدَ هذه الحقيقةَ الإيمانيّةَ التي لا مَفرّ منها قطعًا لأمل الكفّار في العودة إلى الدّنيا، وتوبيخًا لهم على عنادهم واستكبارهم.

دلالةُ التّعبير بالفعل المبني للمفعول ﴿نُفِخَ﴾:

عِظَمُ هولِ النّفخِ في الصّور استعدادًا للحساب

أَسنَدَ النَّظمُ الحكيم الفعلَ ﴿نُفِخَ﴾ لغير الفاعل؛ وذلك لِأَنَّ المُعْتَنى به هو حُدوثُ النَّفْخ لا تَعْيينُ النّافِخ، وإنَّما يُنْفَخُ فيه بِأمرِ تَكْوينٍ من الله تَعالى، أَوْ يَنْفُخُ فيه أحَدُ المَلائِكَة، وقَدْ ورَدَ أنَّهُ المَلَكُ إسْرافيلُ[3]، ومنَ الملاحظ أن هذا أسلوبٌ قرآنيٌّ ثابتٌ لا يتغيّر، فقد ورد في عدة مواضع بالقرآن كلّها ببناء الفعل للمفعول؛ للاعتناء بتقرير هذه الحقيقة الأُخرويّة في القلوب والعقول.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 125.

(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 71.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 125.

سِرُّ تقييدِ الفعلِ بشِبه الجملة ﴿فِي ٱلصُّورِ﴾، وبيانُ معنى (أل) في ﴿ٱلصُّورِ﴾:

توكيد أمر البعث والنّشور أمرٌ لازمٌ في مقابل إنكار الكافرين وعنادهم

قيَّدتِ الآيةُ الكريمة النّفخَ بشِبه الجملة ﴿فِي ٱلصُّورِ﴾؛ وذلك لتأكيد قضيّة البعثِ وعودةِ الأرواح إلى أجسادها في عقول المؤمنين، وتبكيت الكفّار لإنكارِهم هذه القضيّة التي كانت محلّ جدلٍ كبيرٍ وإنكارٍ عنيف من المشركين؛ فجاء التّقييد بشِبه الجملة ليُبْرِزَها ويُؤكّدَها؛ تقريعًا لهم، وأمّا الألف واللّام في تعريف ﴿ٱلصُّورِ﴾ فهي جنسيّة؛ لتعريف حقيقة الصّور الذي دلّت عليه الآياتُ الكثيرةُ والأحاديثُ المستفيضة، ولمّا كانت قضيةُ البعثِ نفسُها منَ القضايا التي كثيرًا ما دَنْدَن المشركون حولَ إنكارِها، فقد عبّر النظمُ عنها بهذه الأداة؛ لتأكيد هذه الحقيقة.

غرضُ مجيء جملةِ الجوابِ اسميّةً:

تأكيدُ انتفاءِ نفعِ الأنساب والأحساب في الآخرة

آثَرَ النّظم الجليل مجيء جوابِ الشّرط جملةً اسميّة مقترنةً بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ﴾؛ لما تُفيدُه الجملة الاسميّة منَ الثّبات والدّوام، فهؤلاء الكفّار لا ينتفعون بأنسابهم ولا بأحسابهم في الآخرة طرفةَ عين، أو أقلّ من ذلك، فقدِ انتفت كلُّ الأسباب والأحساب؛ فلا ينفع إلّا الإيمانُ والعملُ الصّالح.

دلالةُ التّعبير بـ (لا) النّافية للجنس:

النّفيُ العامُّ لنفع أيّ نَسَبٍ في الآخرة

آثَرَ النّظمُ الحكيم التّعبيرَ عنِ النّفي باستعمال لا النّافية للجنس ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ﴾؛ لما في (لا) النّافية للجنس من قوّة الدّلالة على النّفي العامّ، فأفادتِ النّفيَ العامّ التّامّ لنفع الأنساب في الآخرة[1]، ومَعْنَى نَفْيِ الأَنْسابِ: نَفْيُ آثارِها من النَّجْدَةِ والنَّصْرِ والشَّفاعَةِ؛ لِأنَّ تِلْكَ في عُرْفِهِم من لَوازِمِ القَرابَةِ[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 15/ 487.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 125.

دلالة التّعبير بالظّرف ﴿بَيْنَهُمْ﴾:

عبّر النّظمُ الحكيم عن الوشائج الرّابطة بينَ هؤلاءِ الكفّار بالظّرف ﴿بَيْنَهُمْ﴾؛ للدّلالة على مبلغ افتخارِهم وركونِهم في الدّنيا إلى هذه الرّوابط الزّائلة، ولكنّهم لسوءِ اعتقادهم وفسادِ دينِهم كانوا يظنّون أنّها نافعةٌ لهم في الآخرة، كما هي نافعةٌ لهم في الدّنيا؛ فجاء النّصُّ القرآنيّ لينفيَ نفعَ هذه الرّابطة، ويُثبتَ أنّه لا ينفع يومَ القيامة إلّا الإيمان والعملُ الصّالح، فهم لا يتناسَبون في ذلك الوقتِ ليَعْرفَ بعضُهم بعضًا؛ لاشتغال كلِّ أحدٍ بنفسه عن غيره، ولا يسأل بعضُهم بعضًا عن حاله، أو لا يتعاطفون بالأنساب، ولا بدّ من تقدير محذوف في الآية على تأويل: فلا أنسابَ يومئذٍ يتفاخرون بها ويتعاطفون بها؛ لأنّ الأنساب لا تنقطع يومَئذ؛ إنّما يرتفع التّواصل والتّعاطف والتّفاخر بها والتّساؤل[1].

مهما توطّدت وشائجُ النّسب في الدّنيا، فلا قيمةَ لها عند النّفخ في الصّور

سِرُّ التّقييد بالظّرف المُضاف ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾:

جاء تقييد الجملة الاسميّة ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ﴾ بالظّرف المُضاف ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾؛ لتحديد وقوعِ الحدث الذي اشتملت عليه الجملة بوقت الآخرة تحديدًا دون غيرها، مع ضرورةِ التّفطّنِ إلى أنّ الأنسابَ قائمةٌ في الآخرة كما هيَ في الدُّنيا، ولكنّ المُرادَ نفيُ نفعِها في ذلك اليوم على وجه التّحديد؛ تقريعًا لهم على اعتدادهم بها في الدّنيا دونَ اعتبارٍ للإيمان والعملِ الصّالح.

نفيُ الأنسابِ في الآخرة لا يعني نفيَ أصلِها؛ وإنّما يعني نفيَ نفعِها في الآخرة

غرض الحذف المُعوَّض عنه بالتّنوين في ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾:

التّنوين في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ عوضٌ عن الجملة المحذوفة؛ أيّ: يومَ إذ يُنفخُ في الصّور، والغرضُ منَ الحذف هنا الإيجازُ، وذلك حتّى لا يتكرّرَ الكلامُ مَرّةً أُخرى بما يخالف نهجَ القرآنِ في الإيجاز والاختصار.

الإيجازُ سِمَةٌ بارزة من سمات القرآن الكريم

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 16/ 68.

تأكيدُ نفي التّساؤل بعد نفي نفعِ الأنساب

دلالةُ العطفِ في ﴿وَلَا﴾:

عطفتِ الآيةُ الكريمةُ جملةَ ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ على قوله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٍ﴾ بالواو، ثمّ كرَّرَت (لا) النّافية؛ وذلك لتوكيد المعنى وتقريره في الأذهان، فبعد أن قَرَّرَتِ الآيةُ الكريمةُ نفيَ نفعِ الأنساب في الآخرة، نفت وقوعَ التّساؤلِ بمعنى التّفاخر فيما بينَهم، أو بمعنى مؤانسةِ بعضِهم لبعض.

شِدّةُ التّنافر والتّدابُر بينَ الكفّار يومَ القيامة

دلالة التّعبيرِ بالمضارع ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾:

جاء النّظمُ الكريم بالفعل المضارع ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ للدّلالة على أحد أمريْن؛ الأوّل: استحضارُ صورةِ الكفّار في الآخرة وقدِ انتفت بينَهم الأنسابُ فلم تنفعهم بشيء، ووقعت بينَهم الوحشةُ والتّدابُر فلا يسأل بعضُهم بعضًا المَعونَةَ والنَّجْدَةَ؛ كَقَوْلِه تَعالى: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ١٠﴾ [المعارج: 10]، وأمّا المعنى الآخر؛ فهو الدّلالة على تَجدُّد هذا التّنافر واستمراريّته؛ فهم في خصام دائم وجدالٍ مرير، كما في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٧ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ٢٨ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ٣٠ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ٣١ فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ٣٢ فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٣﴾ [الصّافات: 27 - 33]؛ فلِذَلِكَ بَعُدَ يَأْسُهم من وُجودِ نَصيرٍ أَوْ شَفيعٍ[1].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 126.

﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ
مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣
تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤﴾ [المؤمنون: 102 - 104]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

بعد انتفاءِ نفعِ الأسباب والمفاخرةِ، يتحدّد مصيرُ المؤمنين والفُجّار

لمّا ابتدأتِ الآيةُ السّابقة في بيان أوّل مراحلِ اليوم الآخر - وهو النّفخُ في الصّور - وبيّنتِ انتفاءَ الأنسابِ بينَ الكفّار وتدابرَهُم وتباغضَهَم وذهابَ فخرِهم وفخارِهم؛ ناسب أن تُبيّن هذه الآياتُ الكريماتُ معيارَ الحسابِ في الآخرة، فشرحت أحْوالَ السُّعَداءِ والأشْقياءِ، وبيّنت مصيرَ كلّ فريقٍ منَ الفريقيْن، وبيّنت هوانَ ما يَلْقَونَه من عذابٍ في جهنّم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ثَقُلَتۡ﴾: (ثقل) أَصْلٌ واحِدٌ تتفرَّع منه كَلِماتٌ مُتَقارِبَةٌ، وهوَ ضِدُّ الخِفَّةِ، والمعنى المحوريّ: هو انجذابُ الشّيءِ المحمول إلى الأرض أو إلى أسفل، بقدر وزنِ مادَّته، كما هو شائعٌ في استعمال التّركيب، وقدِ استُعملت مُفرداتُ التّركيب في القرآن لعِدّة مستويات من الثّقل؛ منها الثّقَلُ الماديُّ المُعتادُ؛ كقوله تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ [النّحل: 7]، وثِقَلُ الموازين، وإن كانت الكيفيّة غير معروفةٍ كقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾؛ أيْ: بالأعمال الصّالحة؛ فكلّ ما يترجَّح على ما يوزَن به أو يُقدّر به، يُقال: هو ثقيل، وأصلُه في الأجسام، ثمّ يُقال في المعاني؛ نحو: أَثْقَلَه الغُرْمُ والوِزْرُ، قال تعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٤٠﴾ [الطّور: 40][2].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 12/ 120.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ثقل).

2) ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾: (وزن) بناءٌ يَدُلُّ على تَعْديلٍ واسْتِقامَةٍ، ووَزَنْتُ الشَّيْءَ وزْنًا، والزِّنَةُ: قَدْرُ وزْنِ الشَّيْءِ؛ والأَصْلُ وزْنَةٌ، ويُقالُ: قامَ ميزانُ النَّهارِ، إذا انْتَصَفَ النَّهارُ، وهَذا يوازِنُ ذَلِكَ؛ أيْ: هوَ مُحاذيه، ووَزِينُ الرَّأْيِ: مُعْتَدِلُه، وهوَ راجِحُ الوَزْنِ، إذا نَسَبوهُ إلَى رَجاحَةِ الرَّأْيِ وشِدَّةِ العَقْلِ، وقولُه: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ﴾ [الأعراف: 8] إشارةٌ إلى العدل في محاسبة، وقد ذُكِر الميزانُ في مواضع من القرآن بلفظ الواحد اعتبارًا بالمحاسَب، وفي مواضعَ بالجَمع اعتبارًا بالمحاسَبين، ويُمكِنُ أَنْ يَكونَ ذَلِكَ ميزانًا واحِدًا، عُبِّرَ عَنْهُ بِلَفْظِ الجَمعِ، والأَظْهَرُ: إثْباتُ مَوازينَ في يَوْمِ القيامَةِ لا ميزانٍ واحِدٍ؛ والدَّليلُ عليه قَوْلُهُ: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: 47][1].

3) ﴿خَفَّتۡ﴾: (خفّ) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ شَيْءٌ يُخالِفُ الثِّقَلَ والرَّزانَةَ؛ والمعنى المِحوريّ: قِلّةُ كثافةِ الشّيءِ في نفسِه، أو قِلّةُ كثافتِه وتَرَكُّزِه على حامله، يُقالُ: خَفَّ الشَّيْءُ يَخِفُّ خِفَّةً، وهوَ خَفيفٌ وخُفافٌ، وخَفَّ القَوْمُ: ارْتَحَلوا، والخفيف يُقال تارةً باعتبار المُضايفة بالوزن، وقياس شيئَيْن أحدهما بالآخر؛ نحو: درهمٌ خفيفٌ وآخَر ثقيلٌ، وتارةً باعتبار مضايفة الزّمانِ، نحو: فرَس خفيفٌ، وفرس ثقيلٌ، وتارةً يُقال خفيفٌ فيما يستحليه النّاسُ، وثقيلٌ فيما يستوخِمُه، فيكون الخفيفُ مدحًا والثّقيلُ ذمًّا، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ﴾ [الأنفال: 66]، وعليه قولُه تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، وقوله: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، فينعكس الحال فيكون الثّقلُ مدحًا والخِفّة ذمًّا[2].

4) ﴿تَلۡفَحُ﴾: (لفح) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، يُقالُ: لَفَحَتْهُ النّارُ بِحَرِّها والسَّمومُ، إذا أَصابَهُ حَرُّها فتَغَيَّرَ وجْهُهُ، والمعنى المِحوريّ: حِدّةٌ تندفع من شيءٍ؛ فتُصيبُ ظاهرَ ما يَعرِض لها، كلفح النّار في الوجه، وقولُه تعالى: ﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ أيْ: تضرب وتُصيب، يُقال: لفحتْهُ النّارُ والسّمومُ ونفحتْهُ؛ أيْ: أصابته، إلّا أنّ اللّفْحَ أشدُّ من النَّفح، ولذلك أُتيَ به هنا دونَ النّفح؛ لأنّ المقام مقامُ تهويلٍ[3].

5) ﴿كَٰلِحُونَ﴾: (كلح) أَصْلٌ يَدُلُّ على عُبوسٍ وشَتامَةٍ في الوَجْهِ، مِنْ ذَلِكَ الكُلوحُ،

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وزن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خفف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (لفح).

وهوَ العُبوسُ، يُقالُ: كَلَحَ الرَّجُلُ، ودَهْرٌ كالِحٌ، ورُبَّما قالوا لِلسَّنَةِ المُجْدِبَةِ: كَلاحِ، وما أَقْبَحَ كَلحَتَهُ؛ أَيْ: إذا كَلَحَ فقبُحَ فمُهُ وما حَوالَيْه، فالكالِحُ: الَّذي به الكُلوحُ، وهو تَقَلُّصُ الشَّفَتَيْنِ وظُهورُ الأَسْنانِ من أَثَرِ تَقَطُّبِ أعْصابِ الوَجْهِ عِنْدَ شِدَّةِ الألَمِ، وقولُه تعالى: ﴿وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾؛ أيْ: تتقلّصُ شفاهُهم، فعَنْ أَبي سَعيدٍ الخُدْريّ ﷺ، عَنِ النَّبيّ ﷺ قالَ: ﴿وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ قالَ: «تَشْويهِ النّارُ فتَقَلَّصُ شَفَتُهُ العُلْيا حَتَّى تَبْلُغَ وسَطَ رَأْسِه، وتَسْتَرْخي شَفَتُهُ السُّفْلَى حَتَّى تَضْرِبَ سُرَّتَهُ»(1).

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ نعيمِ المُؤمنينَ وفلاحِهم وعذابِ الكافرين وخُسرانِهم

شرعتِ الآياتُ الكريمة في بيان حساب كلّ فريق في الآخرة؛ فمَن رجحت أعمالُه القلبيّةُ والظّاهرة، وكان لها وزنٌ وقَدْر عند اللّه تعالى بأن كانت عقيدتُه صالحةً وأَعمالُه مستقيمةً؛ فأولئك هم الفائزون بكلِّ مطلوبٍ، النّاجون من كلّ مرهوبٍ، ومَنْ لم يكن لعقائده وأَعمالِه وزنٌ منَ الكفّار؛ فهؤلاء هم الذين خسروا أنفسَهم وضيّعوها بكفرهم، فهم بسبب ذلك خالدون في جهنّم لا يبرحونها أَبدًا، وقد صَوّر اللّه الأعمالَ بأنّها كالمحسوساتِ توزن، وهو تصويرٌ دقيق للعدالة الرّبّانيّة التي لا تبخس النّاسَ أشياءَهم، ثمّ أشارت إلى هؤلاء المؤمنين بأنّهم الفائزون بالجنّة ونعيمها وبرضوانِ اللّه تعالى، ثمّ ذَكرت الآيةُ التّالية عقابَ المُكذّبين المُعاندين، وهو مُكوّن من ثلاثة ألوان منَ العقاب؛ أوّلها: أنّهم خسروا أنفسَهم، فقد خسروا المعانيَ الرّوحيّةَ التي كانت ترفعُهم من دَرَكة الحيوانيّة إلى مرتبة الإنسانيّة، وخسروا العزاءَ النّفسيّ الذي كان يكشف عنهم ضراءَ الحياةِ ويجعلُهم يحتَملونها، وخسروا الإيمانَ الصّادق باللّه،

(1) أخرجه التّرمذيّ في سُنَنِه، برقم: (2587)، وقال: حسنٌ غريبٌ.

فهو نعمةٌ لا يُحسّ بها إلّا المؤمنون، وثانيها: العذابُ الشّديد الذي ينزل بهم، وهو الدّخول في جهنّم، وثالثُها: التّفصيل في العذاب البدنيّ المُهين الذي سيصيبُهم يومَ القيامة ببالغ الأذى؛ فتحرِقُ النّارُ وجوهَهم وهم فيها مُتَقلِّصو الشّفاهِ من أثر احتراق الوجوه(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ﴾:

ثِـقَـلُ المـوازيـن علامةُ النّجاة في يوم الحساب

ربط النّظمُ الحكيم بين قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ والآيةِ التي قبلها بالفاء وهي هاهنا للتّفريع، وتفيدُ بيانَ النّتيجةِ المُترتّبةِ على ما تقدّم(2) من بيان أحوال الحساب في الآخرة، وهو مَناطُ بَيانِ الرَّدِّ عَلى قَوْلِ قائِلِهِم: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ المَرْدودِ إجْمالًا بِقَوْلِه تَعالى: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾؛ فقُدِّمَ عليه ما هو كالتَّمهيدِ لَهُ وهو قَوْلُهُ: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ﴾ إلى آخِرِه؛ مُبادَرَةً بِتَأْييسِهم من أنْ تَنْفَعَهم أنْسابُهم أوِ اسْتِنْجادُهم، والأظْهَرُ أنَّ جوابَ (إذا) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ هو قَوْلُهُ الآتي: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢﴾ [المؤمنون: 112]، وما بَيْنَهُما كُلُّه اعْتِراضٌ نَشَأ بَعْضُهُ عَنْ بَعْضٍ، وذِكْرُ مَن ﴿ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ في هَذِهِ الآيَةِ إدْماجٌ؛ لِلتَّنْويهِ بِالمُؤْمِنينَ وتَهْديدِ المُشْرِكينَ؛ لِأنَّ المُشْرِكينَ لا يَجِدونَ في مَوازِينِ الأعْمالِ الصّالِحَةِ شَيْئًا(3).

دلالة التّعبير بـ (مَن):

مـن دلالات معنى الشّرط العدلُ الإلهيُّ المُطلَقُ في الحساب

عبّر النّظمُ الجليل في قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بـ(مَن)، وهي اسمُ شرط جازم تربط جوابَها بفعلها، وهي مختصّة بالعقلاء في الغالب، أو بمَن هم في معناهم؛ والمعنى: أنّ مَن رجحت

(1) مجموعة من علماء مجمع البحوث الإسلامية، التّفسير الوسيط: 6/ 1335، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5121.

(2) الخطيب، التّفصيل: 18/ 128.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 126.

أعمالُه الموزونة التي لها وزنٌ وقدرٌ، وهي الحسنات، فقد نجا منَ العذاب، فكُلُّ مَن تَحَقَّقَ فيهِ مَضْمونُ جُملَةِ الشَّرْطِ فهو منَ النّاجين، فهو عامٌّ صَحَّ اعْتِبارُهُ جَماعَةً في الإشارَةِ والضَّميرَيْنِ مِن قَوْلِهِ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]، ويمكن القولُ: إنّ في استعمال هذا الاسم المستعمل للعقلاء دون غيره إشارةً إلى أنّه ينبغي على مَن تَحَلّى بالعقل الرّشيد أن يُثقِّل ميزانَه بالعمل الصّالح.

دلالة التّعبير بالفعل ﴿ثَقُلَتْ﴾:

الـثّـقـلُ المـاديّ والمـعـنـويّ فـي الأعـمـال الصّالحة

آثَرَ النّظمُ الجليل التّعبيرَ بالفعل ﴿ثَقُلَتْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾؛ وذلك لما في الثّقل من دلالات لا تشتمل عليها مُفردةٌ أخرى مثل: (رجح)؛ فالثّقل يُفيد اتّصاف الشّيء في ذاته بهذه الصّفة؛ فكأنّ الأعمالَ الصّالحة ثقيلةٌ بذاتها؛ لما لها عند اللّه من فضيلةٍ.

دلالةُ استعمالِ الجمعِ ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾:

تـعـدّدُ معاني المـوازيـن آكَـدُ في الدّلالة على مـطـلـق الـعـدل الإلهيّ ودِقّته

جاءت كلمة: ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾ في الآية الكريمة جمعًا مضافًا إلى ضمير المفرد، وقد تكرّر هذا التّركيبُ في القرآن ستَّ مرّات، وجاءت الموازين مُعرَّفةً بالألف واللّام مَرّةً واحدةً، وقد ذُكِرَ الميزانُ بلفظ المُفرد في القرآن في تسعة مواضع، وللعلماء آراء في توجيه قضيّة الجمع والإفراد؛ **الرّأي الأوّل**: أن الإفراد جاء في بعض المواضع اعتبارًا بالمحاسَب، وفي مواضع بالجمع اعتبارًا بالمحاسَبين، ولا يدلُّ السّياقُ القرآنيّ على وجاهة هذا الرّأي، **والثّاني**: أنّه يُمكِنُ أَنْ يَكونَ ذَلِكَ ميزانًا واحدًا عُبِّرَ عَنْهُ بِلَفْظِ الجَمعِ، وهو جائز في العربيّة، **والثّالث** - وهو الأَظْهَرُ -: إِثْباتُ مَوازينَ في يَوْمِ القيامَةِ لا ميزانٍ واحِدٍ، فلا يَبْعُدُ أَنْ يَكونَ لِأَفْعالِ القُلوبِ ميزانٌ، ولِأَفْعالِ الجَوارِحِ ميزانٌ، ولِما يَتَعَلَّقُ بِالقَوْلِ ميزانٌ آخَرُ[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 126.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 12/ 121.

دلالةُ إسناد ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾ لضميرِ المفرد (الهاء):

فرديّةُ الحساب في الآخرة، وكلٌّ يُجازى على عمله

أُضيفت الموازين في قوله تعالى: ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾ إلى ضمير (الهاء)؛ للدّلالة على فرديّة الحساب في الآخرة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا ٨٠﴾ [مريم: 80]، وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ٩٥﴾ [مريم: 95]، وعلى هذا المِنوال جاء النّظمُ في سائر المواضع السّتّ الأُخرى.

سِرّ التّعبير بالموازين بدلَ الموزونات:

من بلاغة القرآن اكتنازُ اللّفظِ الواحدِ بمعانٍ متعدّدة

عبّر النّظمُ الحكيم بلفظ: ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بدل (موزوناته)؛ وذلك لاتّساع كلمة ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾ للدّلالة على معنييْن؛ **الأوّل**: أنّها جمعُ (ميزان)، وهو الآلة يوزَن بها، و**الثّاني**: أنّها جمع (موزون) وهي الأعمال؛ فاشتملتْ لفظة ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾ على المعنييْن كليهما، وهذا من بلاغة القرآن في اكتناز اللّفظة الواحدة بمعانٍ متعدّدة.

بلاغة التّعبير بالاستعارة ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾:

جمالُ تجسيد الأعمال الصّالحة كأنّها ماديّةٌ مُشاهدَةٌ

جاء قَوْلِه: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ للتّعبير عن رُجحان الأعمال الصّالحة باستعمال الفعل ﴿ثَقُلَتۡ﴾، وثِقَلُ الميزانِ في المَعْنى الحَقيقيِّ رُجْحانُه بالشَّيْءِ المَوْزونِ، وهو هُنا مُسْتَعارٌ لِاعْتِبارِ الأعْمالِ الصّالِحَةِ غالِبَةً ووافِرَةً؛ أيْ: مَن ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ الصّالِحاتُ، وإنَّما لَم يَذْكُرْ ما ثَقُلَتْ به المَوازِينُ؛ لِأنَّهُ مَعْلومٌ مِنِ اعْتِبارِ الوَزْنِ؛ لِأنَّ مُتَعارَفَ النّاسِ أنَّهم يَزِنونَ الأشْياءَ المَرْغوبَ في شِرائِها، المُتَنافَسَ في ضَبْطِ مَقادِيرِها، والَّتي يَتَغابَنُ النّاسُ فيها، والثِّقَلُ مَعَ تِلْكَ الِاسْتِعارَةِ هو أيْضًا تَرْشِيحٌ لِاسْتِعارَةِ الوَزْنِ لِلْجَزاءِ(1).

دلالة الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾:

تَرتُّبُ الجزاءِ على الشّرط من سِماتِ العدل الإلهيّ

وقعت الفاءُ في هذا الجملة في جواب الشّرط، وقد أفادت تحقُّق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 31.

مضمونِ صلته في حال الفلاح، وهو الفوز بالجنّة، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّ من سمات العدل الإلهيّ تَرتُّبَ الجزاء على الشّرط.

دلالة التّعبير بالجملة الاسميّة وضمير الفصل:

الفلاح في الآخرة مقصورٌ على أصحاب الأعمال الصّالحة دونَ سواهم

جاءت جملة جواب الشّرط ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ اسميّةً مُعَرّفَةَ الطّرفيْن؛ وذلك لإرادة القَصْر؛ أيْ: قَصْر معنى الخبرِ على المبتدأ وحدَه دونَ غيره، وبذلك يكون أولئك الذين ثَقُلَت موازينُهم هم الفائزون وحدَهم، ولو كانوا في الدّنيا ضعفاءَ وأرقّاءَ ومساكين، وكان غيرُهم عُتاةً مُستكبرين، وقد تأكّد القَصْرُ بضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ في جملة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾؛ فأكّد قَصرَ الفلاح على مَن ثَقُلَت موازينُهم دونَ غيرهم؛ أيْ: هُمُ الَّذينَ انْحَصَرَ فيهم تَحَقُّقُ المُفْلِحينَ؛ أيْ: إنْ عَلِمتَ جَماعَةً تُعْرَفُ بالمُفْلِحينَ فهم هم[1].

سِرُّ التّعبيرِ باسم الإشارة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

عِظَمُ مكانةِ الفائزين بالجنّةِ عند الله

عُبِّر في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ باسم الإشارة الموضوع للبُعْد ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ تعظيمًا لِمَنْ ثَقُلت موازينُهم، وذلك بتنزيل البُعْد المعنويّ منزلةَ البُعْد الحِسيّ، فبُعْدُ مَن ثَقُلت موازينُهم بُعْدُ تعظيم، وسُموّ منزلةٍ عند الله تعالى، وما فيه من مَعْنَى البُعْدِ لِلْإيذانِ بِعُلُوِّ طَبَقَتِهِم، وبُعْدِ مَنزِلَتِهِم في الفَضْلِ والشَّرَفِ[2].

غرضُ تعريفِ المُسنَد ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾:

لا ينال الفلاحَ يومَ الحساب إلّا مَن ثَقُلَت موازينُه

التّعريف بالألف واللّام في كلمة: ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ من قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ للجنس أو للعهد، وهي للجنس أظهر؛ فالمقصود: إفادةُ أنّ هؤلاء مفلحون، وكذلك كلّ مَن تَحقَّقت فيهم صفةُ المُفلحين، وتحقّقوا بما يوصلهم إلى صفتها، ولفظ ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ مرتبطٌ بثِقَل الموازين، و﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ هم النّاجون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 31، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5121.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/ 323، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 31.

الفائزون، والسّعداءُ المُكَرّمون، وهم المؤمنون الذين يَؤولون إلى حُسْن المصير، كما أنّ في هذا التّعريف إشارةً إلى ما يعرفُه كلُّ أحدٍ من حقيقة المُفلحين وخصائصهم؛ فهم أولئك القومُ الذين بلغنا أنّهم تثقل موازينُ صحائفِ أعمالِهم الصّالحة يومَ القيامة[1].

دلالةُ العطف بالواو ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾:

ضخامة الفارقِ بين حال المُفلحين وحالِ الخاسرين

عطف النّظمُ الكريم جملةَ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ على جملة ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، والعطفُ يقتضي المُغايرة، ولأنَّه بضدِّها تتميّزُ الأشياءُ؛ فقد أظهر العطفُ هنا شِدّةَ المُغايرةِ بين حال المؤمنين الطّائعين، وحالِ الكافرين المُعاندين.

غرضُ التّعبير بأسلوب المُقابلة:

انتقالُ الذّهن من تصوُّر الفلاح إلى تصوُّر الخُسران يوضّح المعنى بجلاءٍ

جاءت المقابلة بين قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، والآية التي تليها وهي: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾، مشتملةً على طِباقَيْن، فقد طابقتِ الآيةُ بينَ الثّقَل والخِفّة من ناحيةٍ، والفلاح والخُسران من ناحيةٍ أُخرى، وأفادت هذه المقابلةُ تبكيتَ الكفّار على حالهم، وتقريعَهم على عصيانهم وعِنادهم، وسُخريتهم منَ المؤمنين الذين ارتقت أحوالُهم فصاروا مُفلحين، في حين انحدرت أحوالُ الكفّار بسبب عصيانهم وعِنادهم فأصبحوا خاسرين، وقد تضمّنت هذه المقابلةُ - كذلك - ترشيحَ الاستعارة السّابقة، فالثِّقَلُ مَعَ تِلْكَ الِاسْتِعارَةِ هو أيْضًا تَرْشيحٌ لِاسْتِعارَةِ الوَزْنِ لِلْجَزاءِ، ثُمَّ الخِفَّةُ مُسْتَعارَةٌ لِعَدَمِ الأعْمالِ الصّالِحَةِ، أخْذًا بِغايَةِ الخِفَّةِ عَلى وِزانٍ عَكْسِ الثِّقَلِ، وهي أيْضًا تَرْشيحٌ ثانٍ لِاسْتِعارَةِ الميزانِ، والمُرادُ هُنا الخِفَّةُ الشَّديدَةُ، وهي انْعِدامُ الأعْمالِ الصّالِحَةِ، فقد شالت كِفَّة موازينِهم وطاشت[2].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/ 323، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 31.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 31.

سِرُّ التّعبير بالمُسنَد إليه بـ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

بُعْدُ الكافرين عن رحمة الله تعالى

في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ عبّر باسم الإشارة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموضوعِ للبعيد؛ إشارةً إلى بُعْدِهم من رحمة اللّه تعالى، وبُعْدِ مقامِهم عن رضا اللّه ﷻ(1)، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧﴾ [آل عمران: 77].

نُكْتَةُ التّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾:

بيانُ خسارة المُشركين وخِفّة موازينِهم يومَ القيامة

جاء الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ تعبيرًا عن المشركين الذين سوّلت لهم نفوسُهم أعمالًا كانت سببَ خِفّة موازينِ أعمالهم، وقد جاء استعمال الموصول لما فيه منَ الإبهام حتَى تتشوّف النّفسُ إلى معرفة أولئك الذين خَفّت موازينُهم، فتحذرَ من أن تكون منهم أو على شاكلتهم.

سِرُّ العدولِ عنِ اسم الفاعل إلى الاسم الموصول وصلته:

تجَدُّدُ خسارة المشركين المُعانِدين في كلّ وقتٍ من أوقات الآخِرة

عدل النّظمُ الحكيم في الآية الثّانية عنِ استعمال اسمِ الفاعل؛ فلم يَقُلْ: (فأولئك هم الخاسرون) كما استعمله في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ إلى التّعبير باسم الموصول وصلته ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾؛ وسِرّ ذلك العدولِ أنّه استعمل في الحديث عنِ المؤمنين الجملةَ الاسميّة التي تُفيد الثّبات والدّوام في وصفهم بالفلاح، وهو تعبير عن ثباتهم في الدّنيا، واستمرارهم على الإيمان والاستقامة؛ فكان الإيمانُ والاستقامة صفةً دائمةً ملازمةً لهم لا ينفكّون عنها، فكذلك صار الفلاحُ والفوزُ صفةً دائمةً لهم في الآخرة، وأمّا الذين خَفّت موازينُهم، فقد عُبّر عنهم بالجملة الفعليّة المشتملة على الاسم الموصول لوجود معنى الحَدَث والتّجدّد؛ فهم الذين

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/ 323.

خسروا أنفسهم في ماضي حياتهم الدّنيا، فلم يُقدّموا لأنفسهم من الأعمال الصّالحات شيئًا يُثَقِّل موازينَهم؛ فصاروا إلى الخُسران في الآخرة، فيتَجَدَّدُ لهم النّدمُ على تفريطهم وعِنادهم كلّ يوم؛ بل كلّ لحظةٍ، وتتجدَّدُ خسارتُهم كلّ حين، كما أنّ المؤمنين لا يحتاجون إلى الوصف بربح أنفسِهم في مقابل خسارة الكافرين لأنفسهم؛ وذلك لأنّ التّعبير بالمُفلحين قدِ اشتمل على هذا الرّبح وزيادة.

غرضُ التّعبير بالمجاز في ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾:

النّـفـسُ رأسُ مـالِ الإنسـان؛ فـإذا خَسِـرَها خَسِرَ كلَّ شيءٍ

استعار النّظمُ الحكيم الفعلَ ﴿خَسِرُوٓاْ﴾ للتّعبير عن فقدان نفعِ ما يُرجَى منَ النّفع، والخُسْرانُ حَقيقَتُهُ ضِدُّ الرِّبْح، وهو عَدَمُ تَحْصيلِ التّاجِرِ عَلى ما يَسْتَفْضِلُهُ من بَيْعِه، ويُسْتَعارُ لِفُقْدانِ نَفْعِ ما يُرْجى منهُ النَّفْعُ؛ فمَعْنى ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾: فقَدوا فوائِدَها، فإنَّ كُلَّ أحَدٍ يَرْجو من مَواهِبه - وهي مَجْموعُ نَفْسِه - أنْ تَجْلِبَ لَهُ النَّفْعَ وتَدْفَعَ عَنْهُ الضُّرَّ بِالرَّأْيِ السَّديد، وابْتِكارِ العَمَلِ المُفيد، ونُفوسُ المُشْرِكينَ قَدْ سَوَّلَتْ لَهم أعْمالًا كانَتْ سَبَبَ خِفَّةِ مَوازينِ أعْمالِهم؛ أيْ: سَبَبَ فقْدِ الأعْمالِ الصّالِحَةِ مِنهم[1].

غرض تقديم شِبه الجملة:

جـهـنّـم مـأوى الـكـافـرين؛ فلا مأوى لهم غيرُها

قُدّم شِبهُ الجملة ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ على الخبر ﴿خَٰلِدُونَ﴾؛ لتخصيص جهنّم للكافرين المُعاندين؛ فهي مأواهم لا مأوى لهم غيرُها، فبعد أنِ انقطعَ ما بينَهم من التّفاخر بالأنساب والتّناصرِ بها، وانقطع التّعارفُ وأُنسُ بعضِهم ببعض لم يَعُدْ لهم مستقَرٌّ في الآخرة سوى جهنّم يخلدون فيها إلى أجلٍ غيرِ مُسمّى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦﴾ [الفرقان: 66].

معنى حرفِ الجَرّ ودلالتُه:

استعمل النّظمُ الحكيمُ حرفَ الجَرّ ﴿فِي﴾ المُفيدِ للظّرفيّة مكانيّةً

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 32.

أو زمانيّة[1] في قوله: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾؛ للدّلالة على إحاطة جهنّم بهم من كلّ جانبٍ، فقد أصبحت جهنّمُ ظرفًا مكانيًّا استوعبَتهم في جوفها، فلا مخرجَ لهم منها، وفيه دلالةٌ على استقرارهم فيها وطولِ لُبْثِهم؛ فلا مكانَ لهم غيرُها.

إحاطةُ جهنّم بالكافرين لا مخرجَ لهم منها

موقع جملة ﴿تَلۡفَحُ﴾ ممّا قبلها ودلالته:

في موقع جملة ﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ عِدّة آراء؛ الأوّل: أنّها استئنافٌ بيانيّ، والثّاني: أنّها في محلّ نصبٍ على الحال، والعامل فيها ﴿خَٰلِدُونَ﴾، والثّالث: أنّها في محلّ رفعٍ خبر عن ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾[2]، والأظهر أنّها في موضع الحال؛ فقد بيّنت الجملةُ حالَ أولئك الكافرين بعدَ أن أُلقيَ بهم في قعر جهنّم، فبيّنتِ الآيةُ أوّل ما يُصيب وجوهَهم من ألوان العذاب.

بيانُ سوء حالِ الكافرين ومهانتِهم في جهنّم

دلالة التّعبير بالمضارع:

عبّر النّظمُ الحكيم عن أوّل ما يُصيب الكافرين من عذابٍ في جهنّم بالفعل المضارع ﴿تَلۡفَحُ﴾؛ وذلك للدّلالة على تجدّد لَفْحِهم بلهيب النّار واستمراره، جزاءً وفاقًا لِكَذِبهم وعِنادهم، فتلفَحُ النّارُ وجوهَهم المَرّةَ تِلْوَ المَرّة، كما عبّر بالفعل المضارع للدّلالة على استحضار حال أولئكَ الكفّار؛ ليكونوا عبرةً تَتّعِظُ بها قلوبُ الذين يخشون ربّهم.

استمرارُ عذابِ الكافرين في جهنّم على الدّوام

غرض تقديم المفعول به ﴿وُجُوهَهُمُ﴾ وسِرُّ إضافته:

جاء النّظمُ الكريم بتقديم المفعول به ﴿وُجُوهَهُمُ﴾ على الفاعل ﴿ٱلنَّارُ﴾؛ لإفادة التّخصيص؛ لِأَنَّ الوجوه أشْرَفُ الأعْضاءِ الظّاهرة، فبَيانُ حالِها أزْجَرُ عَنِ المَعاصي المُؤَدّيَةِ إلى النّارِ؛ وهو السِّرُّ في تَقْديمِها على الفاعِلِ؛ فالوجهُ أعزُّ موضعٍ في ظاهر البدن وأشرفه؛

أشرف الوجوه التي تنجو من لهيب النّار لا التي تتبجّحُ بالكفر والعِصيان

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 107.
(2) الخطيب، التّفصيل: 18/ 131.

كالفؤاد في باطنه؛ فلهذا السّبب خصّ اللّهُ تعالى هَذَيْن العضويْن بظُهور آثار العقاب فيهما؛ فقال في القَلْب: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾ [الهمزة: 6 - 7][1].

نكتة التّعبير بالمجاز المُرسل ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ﴾:

لفتُ الانتباه لمَبلَغِ هوانِ الكافرين وذُلّهم

آثَرَ النّظمُ الحكيم ذِكْرَ ﴿وُجُوهَهُمُ﴾، ولم يُعبّر بالضّمير (هم)، كأن يقول: (تلفحهم) أو (تلفح أبدانهم)؛ وذلك على طريق المجاز المُرسل بإطلاق الجُزء وإرادةِ الكلّ، فالعلاقةُ هنا الجُزئيّة، فذُكِرَ الجُزءُ؛ وهو الوجوه، وأُريدَ به الكلُّ؛ أيّ: عموم البدن؛ لأنّ الحاصل أنّ النّار تغشى جميعَ أبدانِهم، ولكن في ذِكْرِ الوجوه وتقديمِها لفتٌ للانتباه لما يلحَقُهم منَ المهانة والذُّلّ، وهم الذين أرادوا الوجاهةَ والمنزلةَ في أقوامهم.

سِرّ تعريفِ المُسنَد إليه:

كثرةُ أوصافِ النّار وشِدّة لهيبِها وعذابِها

جاءت كلمةُ ﴿ٱلنَّارُ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ مُعَرّفَةً بلام الجنسيّة التي تُفيد الاستغراقَ؛ فهي النّارُ التي استغرقت صفاتِ النّارِ كلّها من شِدّة لهيبِها وعذابِها كما في القرآن الكريم والحديث النّبويّ، وهي النّارُ أعدّها اللّهُ للكافرين به، المُتمرّدين على شَرْعه، المُكَذّبين بِرُسله، وهي عذابُهُ الذي يُعَذّب فيه أعداءَه، وسِجْنُه الذي يَسْجِنُ فيه المُجرمين، وهي الخِزيُ الأكبر والخُسران العظيم، الذي لا خزيَ فوقَه، ولا خُسرانَ أعظم منه[2].

سِرُّ التّقييد بالجملة الحاليّة الاسميّة ﴿وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾:

حالُ الكافرين في جهنّم حالٌ مُنَفِّرةٌ تَحُثّ العاقلَ على الخشية

قُيّدت جملة ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ بقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾، والواو فيها حاليّةٌ أو عاطفة، والحال فيها أظهر، وقد أفاد تقييد الجملةِ بالحال مزيدَ فائدةٍ في بيان حالِ الكافرين بعد

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 13/ 219، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 151.

(2) عمر الأشقر، الجنّة والنّار، ص: 11.

إلقائهم في قَعْر جهنّم، فجملةُ ﴿وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ أضافت من المعاني ما لم تتضمَنْه الجملةُ الأولى؛ فأضافتِ العبوسَ وانكشافَ الأسنانِ بفعل النّار، فأكّدت المعنى مزيدًا منَ التّوكيد.

نُكْتَةُ التّعبير بالجملة الحاليّة اسميّة:

عبّر النّظمُ الحكيم بالجملة الاسميّة في قوله: ﴿وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾؛ للدّلالة على الدّوام والثّبات، وفي ذلك إشارةٌ إلى طول مُدّةِ لُبْثِهم في العذاب المهين جراءَ كَذِبهم وإنكارهم.

غرضُ تقديم شِبه الجملة:

بيانُ شِدّة العذابِ تهويلًا من الوقوع في الكفر

قُدّمَ شِبهُ الجملة ﴿فِيهَا﴾ على الخبر ﴿كَٰلِحُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾؛ وذلك لبيان هولِ العذاب في نار جهنّم وشِدّته، فهؤلاء المُكذّبون المُعاندون وقد كلَحَت وجوهُهم، لابثون في جهنّم لا في مكانٍ آخر، وليس لهم محيصٌ منَ الخلود في عذابها.

دلالة التّعبير بالخبرِ اسم فاعلٍ مجموعًا:

استحضارُ شِدّة الكَلَحِ ودوامِه للتّنفير من هذا المصير

جاء النّظمُ الحكيم بوصف الكفّار بعد أن لفَحتْهم النّارُ بأنّهم ﴿كَٰلِحُونَ﴾؛ وذلك لأنّ من سمات اسم الفاعل الدّلالةَ على الحال، ودوام هذا الحال للكفّار إلى الأبد، وأمّا مجيءُ اسم الفاعل مجموعًا فلمُناسبتِه للضّمير ﴿وَهُمۡ﴾ وبقيّة نظم الآية، وذلك لأنّهم إذا أبصرَ بعضُهم بعضًا على هذه الحال المُنفّرة المُنكَرة، زاد عذابُهم وبُؤسُهم في جهنّم، وتيقّنوا من سوء صنيعِهم في الدّنيا.

الفروقُ المُعْجَميَّة:

الفَلاح والفَوز:

الفَلاح نيل الخَيْر والنّفعِ الباقي أَثَره، وهو أعمّ منَ الفَوز

الفَلاح نيلُ الخَيْرِ والنّفعِ الباقي أَثَرُه، وسُمّي الشَّيْء المتبقّي الأَثرِ فلْحًا، ويُقال للأكّار[1] فلّاح؛ لِأَنَّهُ يشق الأَرْض شقًا باقيًا في الأَرْض،

(1) أي: الزّرّاع أو الحرّاث، يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: (أكر).

كما أنّ الفَلاح في لغة العرب يُطْلَق على مَعنيَيْن؛ الأوّل: الفوزُ بالمطلوب الأكبر، والثّاني: هو إطلاق الفَلاحِ على البقاء السّرمديّ في النّعيم، ولا شَكّ أن هذا القَدْرَ منَ المعاني لا يوجد في بقية الألفاظ(1)، ولذا جاء النّظمُ الكريم في الآية باستعمال لفظ (المُفلِحونَ) دونَ غيرِه منَ الألفاظ؛ مثل: (الفائزون) و(السعداء)؛ رغم تقارب الدّلالات والمعاني العامّة فيها جميعًا.

اللّفح والكَيّ:

اللّـفْـحُ ينشأ عـن ريـح النّـار وسـمـومـهـا، والـكَيّ إحــراقُ الجِلْدِ بحَديدَةٍ ونَحْوِها

اللّفْحُ، يُقال: لَفَحَتْهُ النّارُ بِحَرِّها والسَّمومُ، إذا أَصابَهُ حَرُّها فتَغَيَّرَ وجْهُهُ، ويُقال: لفَحَتْهُ النّارُ والسَّمومُ ونَفَحَتْهُ؛ أيْ: أصابته، إلّا أنّ اللّفْحَ أشدُّ منَ النّفْح، ولذلك أُتيَ به هنا دونَ النّفحِ؛ لأنّ المقامَ مقامُ تهويلٍ.

والكَيّ إحراقُ الجِلْدِ بِحَديدَةٍ ونَحْوِها، كَواهُ كَيًّا، وكوَى البَيْطارُ وغَيْرُهُ الدّابَّةَ وغيْرَها بالمِكْواة، يَكْوي كَيًّا وكَيَّةً، وقَدْ كَوَيْتُه فاكْتَوَى، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾ [التّوبة: 35]، يُقال: كويتُه بالنّار، إذا ألصقتَها بجسده حتّى تَصِلَ إليه حرارتُها وتُؤثّر فيه.

فالفرقُ بينَ اللّفْحِ والكَيّ: أنّ اللّفْحَ إنّما ينشأ عن ريح النّار وسَمومِها، وأمّا الكَيّ ففيه إلصاقُ لحديدةٍ بالجسد؛ تعذيبًا لهم في الآخرة(2).

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 211، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/ 827.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (لفح) و(كوى).

﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥﴾

[المؤمنون: 105]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

لا مؤاخذةَ دونَ إنذارٍ مُسبّقٍ

بعد أن ذَكَر اللّه ﷻ مآلَ هؤلاء الذين خفّت موازينهم؛ بيّن سبحانه أنّ هؤلاء لم يُؤاخذوا دونَ إنذار؛ فقد جاءتهم رُسُلُهم بالآيات؛ فخاطبهم المولى تعالى خطابَ استفسارٍ، وأجابوا جوابَ اعترافٍ وإقرار[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُتۡلَىٰ﴾: أصلُ كلمة التّلاوة هو الاتّباع، يُقال: تَلَوْتُه إذا تَبِعْتَه، ومنه تلاوةُ القُرآن[2]، سواءٌ أكان بمتابعة آيات القرآن آيةً بعدَ آيةٍ، أو اتّباعِ التّالي للقرآن، فنُكرّر ما يقرؤه كما يقرؤه دون فصلٍ، وتختصّ التّلاوةُ باتّباع كتبِ اللّه المُنزّلة بالقراءة، وباتّباع ما فيها من أمرٍ ونهيٍ وترغيبٍ وترهيبٍ، وهي أخصُّ من القراءة، فكلُّ تلاوة قراءةٌ؛ وليس كلُّ قراءة تلاوة[3]، وإذا عُدّي (تلا) بحرف (على) فلا بدّ فيهما من إلقاءٍ[4]، ومعنى ﴿تُتۡلَىٰ﴾ هنا أنّ آيات الوحي قد قرأها عليكم رُسلي، وتعرَّفتُم أنّها منّي.

2) ﴿ءَايَٰتِي﴾: الآية هي العَلامة الظّاهرة؛ وهي من الجَذْر: (أيي)؛ أيّ: ظهر وثَبت[5]، وغالبًا ما يكون لها جانبان؛ جانبٌ ظاهرٌ، وآخَر تدلّ عليه؛ مثال ذلك: كتابةُ عبارة بليغة آية على أنّ كاتبها

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 10165.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تلو).
(3) الرّاغب، المُفردات: (تلو).
(4) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تلو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (أيي).

أديب[1]، وتُطلَق الآيةُ على الأمارة، وتُطلَق على العِبرة أيضًا[2]، والآيات أنواع؛ آياتُ الوحي، وآياتُ الآفاق من خَلْق وتدبير، وآياتُ الأنفس من أحوال الأُمم السّابقة مع رسلهم، ومعنى ﴿ءَايَٰتِي﴾؛ أيْ: آيات الوحي الذي بلّغَه إليكم رسولي.

المَعْنى الإجْماليُّ:

التّوبيخُ على تكذيبِ الآياتِ

بعد أن وصف اللّهُ عذابَ مَن خفّت موازينهم؛ خاطبهم خطابَ تقريعٍ وتوبيخ: ألم تأتكم آياتي يقرؤها عليكم رُسلي؛ تدلّ على وحدانيّتي وما أريدُه منكم، وتُبيّن جزاءكم، فكان موقفُكم التّكذيبَ بها؟!

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرّ فصلِ صدرِ الجملة عمّا قبلها:

في حـوارِ أهل النّـار عظيمُ بيـانٍ لعظيمِ خُسرانهم

جاءت جملةُ ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ مفصولة عمّا سبق؛ لأنّها من تمام معناها، فوَصْفُ عذابِهم في نار جهنّم يستدعي سؤالًا مفادُه: (أكان هذا الجزاءُ بعد إعلامهم وإقامة الحُجّة عليهم؟) فتأتي هذه الآية موضِّحَةً ذلك باعترافهم في صيغة سؤال وجواب، واستئنافٍ بيانيٍّ بإضمار القول؛ أي: يُقال لهم: ألم تكن؟![3].

بلاغةُ حذفِ القول في هذه الجملة:

في الإيجازِ كلُّ إهانةٍ لهم

لفظ (القول) في الآية: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ﴾ محذوف؛ فانتقلت الآيةُ مباشرةً إلى المَقول؛ اهتمامًا بما هو المطلوب وما سيكون الجواب[4]، وفي الحذفِ إبلاغٌ في تصوير التّعنيف والتّأنيب والتّوبيخ، مِمَّا يدلُّ عليه خطابُهم بما في حيِّز الاستفهام؛ بما في الحَذْف من عدم الاعتداد بخطابهم، ومن الحَسْمِ والشِّدَّةِ.

(1) الرّاغب، المُفردات: (أبي).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (أبي).
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 157.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 96.

بلاغة الاستفهام في صدر الآية:

الاستفهامُ توبيخٌ لسوءِ الفعل، وبيانٌ لسببِ استحقاقِ العذاب

حملتِ الآيةُ ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ سؤالًا لأصحاب النّار بهمزة الاستفهام ﴿أَلَمۡ﴾، والاستفهام ليس على ظاهره؛ إذِ اللّهُ بكلّ شيءٍ عليمٌ، ولكنّه بقصد التّوبيخ والتّذكير بجرائمهم وجحودِهم للحَقّ، ممّا استحقّوا به ذلك العذابَ[1]، فلم يُفاجِئْهم ربُّهم بعقوبةٍ على شيءٍ لم يُبَصِّرهم به[2].

دلالة الفعل ﴿تَكُنۡ﴾ مادّةً وصيغةً:

في آياتِ اللهِ تعالى كلُّ فلاحٍ

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، وكان يُمكن أن يُقال: (ألم تتلى عليكم آياتي)؛ ففي ذِكر مادة الكَون معنى الدّوام والاستمرار؛ أيْ: (مِن شأنها وديدنها أن تُتلى عليكم)، وتُضيف صيغةُ المضارع إلى هذا معنى التّجدُّد، وهذا مُستَفاد من: ﴿تَكُنۡ﴾ مادّةً وصيغةَ مُضارعةٍ معًا؛ وفي ذلك إقامةٌ للحُجّة عليهم؛ فقد تهيَّأ لهم سبيلُ الفلاحِ، ولكنّهم رفضوه، وأبَوْا إلّا سبيل الخُسران.

المُراد بالآيات وسِرّ جمعِها:

آياتُ القرآن دالّةٌ على الحقّ تعالى في معناها وفي مجموعها

المقصودُ بالآيات في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ هي آياتُ القرآن المَقروءة بقرينة استعمال حرف الجَرّ (على)[3]، وتدلّ الآيةُ في أصل مادّتها على الوضوح؛ فهو أمرٌ واضحٌ بيّن الدّلالة[4]، كما تحمل الآياتُ دلالةً على غيرها؛ فهي علامةٌ ودليلٌ على وحدانيّة اللّهِ وقُدرته وصِدق رُسلِه[5]، وجاءت في صيغة جَمع لتُشيرَ إلى تتابع ورودِها على أصحاب الجحيم، وفي كلِّ مرّةٍ تُشير إلى المُراد منها، فكثرتُها تُبعِد احتمالَ الغفلةِ عنها، أو الاعتذارِ بعدم الإنذار بها مجموعة.

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 96.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 10165.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 127.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 296.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 66.

سرّ إيثارِ الفعلِ ﴿تُتۡلَىٰ﴾ مادّةً وصيغةً:

دلالة فعل (تُتلَى) على تتابع الآيات وتجدّدها، وعلى كفاية دلالتها على الله

أوثِرَ فعلُ ﴿تُتۡلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، والسِّرُّ في اختيار مادّته أنّ لفظ ﴿تُتۡلَىٰ﴾ يدلّ على التّتابع؛ فقد قُرِئت عليهم تلك الآيات آيةً تلو آيةٍ، وممّا زاد ذلك وضوحًا مجيءُ الفعل ﴿تُتۡلَىٰ﴾ بصيغة المضارع الدّالّة على التّجدّد، فكانت تلاوة الآيات مُتجدِّدةً بشكلٍ مُتتابعٍ مُتدرِّجٍ شيئًا فشيئًا، ممّا يكون سببًا للإيمان، فما كان منهم إلّا الكفران[1]، وجاء الفعل مبنيًّا لما لم يُسَمّ فاعلُه؛ للاهتمام بالآيات وكونها حجّةً واضحةً؛ فالآياتُ في حَدّ ذاتِها كافيةٌ للإيمان.

فائدةُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

آيات الله حجّة على المخاطبين بها

قيَّد النّظمُ الكريم مضمونَ الجملة بالجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾؛ وفائدة ذلك هي أنّ المخاطَبين هم المقصودُون بالخطاب وبتلاوة الآيات عليهم، فلو لم يَرِد الجارُّ والمجرور فقد يُفْهَم منه أنّها خاصّة بقوم دون قوم، أو فريق دون فريق؛ فالمقصودُ بالآيات إذًا هو أنتُم، فلِمَ كذَّبتُم بها؟!

دلالة الفاء، وفائدة (كُنتُم):

أصالةُ موقفِ التّكذيبِ؛ فما إن تُليت الآياتُ حتّى كان التّكذيب

عبّر القرآنُ بالفاء في قوله: ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، وهي فاء التّعقيب والتّرتيب، ممّا يبيّن أنّ التّكذيب كان عَقِب تلاوة الآيات؛ أيْ: فكنتُم فورَ تلاوتِها تُسارعون بالتّكذيب من غير تأمّلٍ وتَدبُّر[2]، وممّا زاد الأمرَ توضيحًا استعمالُ مادّةِ الكون (كنتم)؛ التي تدلّ على أنّ التكذيب عريقٌ فيهم وأصيلٌ، كأنّه سابقٌ لتلاوة الآيات، فموقفُهم واضحٌ - وهو الرَّفضُ - مِن قبل أن تنزّل الآياتُ وتُتلَى عليهم[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 188.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5122.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 188.

بلاغة التّعبير بالباء، وتقديم ﴿بِهَا﴾ على التّكذيب:

الآياتُ هي محلّ التّكذيب

فعلُ التّكذيب يتعدَّى بنفسه، وإنّما جيء بالباء؛ للدّلالة على أنّ هذه الآيات مِن شأنها أن لا تُكذَّب[1]؛ وإبلاغًا في تقرير ذلك قُدِّم اللّفظُ المُشتَملُ عليها؛ وهو الجارُّ والمجرور ﴿بِهَا﴾ على فعل التّكذيب، ومِمَّا حَسَّن ذلك التّقديمَ كونُ هذا الفعلِ يتعدّى إلى الآيات بنفسه، وذهب البقاعيُّ إلى أنّ في التّقديم إعلامًا بمُبالغتهم في التّكذيب[2]، فقد تجاهلوا تلك الآياتِ وما فيها من دلالةٍ على الأُلوهيّة الحَقَّة تجاهلًا عظيمًا.

سِرّ اختيار الفعل ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

شِدّةُ الإنكار وتَجدُّده دليلُ استحقاقِ العذاب

السِّرُّ في اختيار مادّة (كذب) بصيغة التّفعيل؛ هو دلالةُ التّكذيب على الإنكار والرّفض والجُحود، فلم يكونوا غافلين أو مُعرضين أو مشغولين فحسب؛ بل تعدّى ذلك إلى الجُحود والإنكار، وهو ما يُصَوِّر فظاعةَ الموقفِ[3]، وقد جاء الفعلُ ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ بصيغة المُضارع الدّالِّ على تجددّ التّكذيب كلّما تجدّدت الآيات، فكلّما تُليت عليهم آيةٌ من آيات ربّهم كذّبوها، وهو أمرٌ خطيرٌ يُنبئ عن سوء المصير، ويُؤكّد استحقاقَهم لهذا العذاب.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

التّلاوة والتّرتيل والقراءة:

حَسُنَ في آيات الله تعالى أن تُقرَأَ مكتوبةً، وتُسمَع صوتًا مُجوَّدًا، وتُتلى شيئًا فشيئًا

إذا كانتِ التّلاوة والتّرتيل هي قراءة للقرآن الكريم؛ فإنّ التّلاوةَ تتبُّعٌ للمَتلوّ، وتكون مع المسموع غالبًا[4]، فاختلفتِ التّلاوة عنِ القراءة في أنّ الأخيرة أعمُّ؛ إذ تكون من مكتوبٍ ومن غير مكتوبٍ، فكلُّ تلاوةٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 189، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5122.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 223.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 66.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تلو).

قراءة؛ وليس كلُّ قراءةٍ تلاوة[1]، وقريبٌ منَ التّلاوة التّرتيلُ؛ فهو قراءةٌ إلاّ أنّ القراءة تكون بصوتٍ وبغير صوتٍ، بينما يكون التّرتيلُ بصَوت، مع إبانةٍ وتَمَهُّل[2]، فحَسُنَ في آيات اللّه تعالى أن تُقرَأ مكتوبةً وتُسْمَع صوتًا مُجَوَّدًا، وتُتلى شيئًا فشيئًا.

(1) الرّاغب، المُفردات: (تلو).
(2) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (رتل).

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧﴾ [المؤمنون: 106 - 107]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الإجابة بالاعتذار، والتّعجيلُ بالرّجاء

بعد أنْ سُئل أصحابُ النّار توبيخًا عن تبليغ الرّسل إيّاهم رسالة ربِّهم وتكذيبِهم بها، فكأنّهم قد خُيّل إليهم أنّه قد أُذِنَ لهم في الكلام، وأنّ اعترافهم بذنوبهم قد يدفع عنهمُ العذابَ[1]، وأنّهم إن عادوا أصلحوا من أمرهم[2]؛ أجابوا بالاعتراف، وعجّلوا بالرّجاء.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿غَلَبَتۡ﴾: (غلب) أصلٌ صحيح يدلُّ على قوّةٍ وشِدّةٍ[3]، والغَلَبَةُ: القهر، وغلَبَ عليه: استولى، يقول عزّ من قائل: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ٢١﴾ [الكهف: 21]، وأصلُ (غَلَبْتَه) أن تتناول وتُصيب غَلَبَ رقبتِه[4]؛ فصارت الغلبةُ شِدّةً مع عُلوّ وعِظَم[5]، ومعنى ﴿غَلَبَتۡ﴾ في الآية: استولت علينا شِقْوَتُنا واشتدّت علينا وقَهَرَتنا.

2) ﴿شِقۡوَتُنَا﴾: (شقى) أصلٌ يدلّ على المعاناة، وهو خِلاف السّهولة[6]، والشِّقوةُ: خِلافُ السّعادة[7]، والشَّقا: الشِّدَّةُ والعُسْرُ؛ ويُطلَق على التّعب الشّديد شقاء[8]، فالشَّقاءُ تعبٌ وبَذْلُ طاقةٍ في مغالبةٍ أو مُراوِدَة[9]، وأهمّ ما يُتعب الإنسانَ في الحياة ويُنهِكُه هو

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 66.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5122.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غلب).
(4) الرّاغب، المُفردات: (غلب).
(5) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غلب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غلب).
(7) الرّاغب، المُفردات: (غلب).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (غلب).
(9) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شقو).

كثرة مطالب شهواتِه، وشِدّةُ تَحَكّم هواه في أمره، فيوردُه الشّقاءَ في الدّنيا، ويورِثُه الشّقاءَ الحقيقيَّ في الآخرة؛ فمعنى ﴿شِقۡوَتُنَا﴾ في الآية الكريمة؛ أيْ: شهواتُنا وهوى أنفسِنا[1].

3) ﴿ضَآلِّينَ﴾: ضلَّ الشّيءُ: خفيَ وغاب ولم يتميّز، والضّلالُ: الحَيرة؛ لأنّ الحائر يغيب عنه كثيرٌ من وجوه الأشياء[2]، ويَنتُج عن الضّلال العدولُ عن الطّريق، وسلوكُ طريقٍ لا يوصِل إلى المطلوب[3]، كما يُطْلَق على الضّياع، وعلى العُدول عن القَصْد[4]، سواءٌ أكان العدولُ عمدًا أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا، وضِدّ الضّلال الهداية[5]، ومعنى ﴿ضَآلِّينَ﴾ في الآية الكريمة؛ أيْ: مُنحرفين عن الصّراط المستقيم.

4) ﴿عُدۡنَا﴾: العَوْدُ: هو رجوعُ شيءٍ إلى حالٍ كان عليها[6]، كأنّه انصرف منها ثمّ رجع إليها، سواءٌ أكان الانصرافُ مادّيًّا أو معنويًّا، أو بالقصد إلى الانصراف فقط، ثمّ عاد[7]، ومعنى ﴿عُدۡنَا﴾: رجعنا إلى الحال التي كُنّا عليها.

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

اعترافُ أهلِ النّار بضلالهم وانحرافِهم وتمنّيهم الرّجوعَ لإصلاح أعمالهم

أجاب أصحابُ النّار عن سؤال ربّهم وتوبيخه: يا ربّنا تغلَّبت علينا أنفسُنا الأمّارةُ بالسّوء، ومَلذّاتُنا وشهواتُنا، وكُنّا بسبب ذلك قَوْمًا ضالّينَ عن الهُدى والرَّشاد، ربّنا اصرفنا من هذه النّارِ التي تلفح وجوهَنا؛ فإنْ رجعنا إلى ما نحن عليه من الكُفر فإنّا مُتجاوزون لكلِّ حدٍّ في الظُّلم[8].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 189، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 10166.
(2) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (ضلل).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (ضلل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلل).
(5) الرّاغب، المُفردات: (غلب).
(6) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عيد).
(7) الرّاغب، المُفردات: (عود).
(8) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 66.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصل الجملة عن سابقتها:

أيُّ جوابٍ ينفعُ في هذا المقام؟

فُصِلَت الآية ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾ عن سابقتها ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لتمام الاتّصال بينهما؛ فالأولى سؤالٌ، والثّانية جوابٌ؛ على عادة القرآن الكريم في الفصل في المحاورات[1]، ومبنى هذا الفصل على وجود سؤال مُقدَّر هو: فماذا أجابوا؟.

سِرُّ حذفِ حرفِ النّداء في ﴿رَبَّنَا﴾:

القريبُ الحاضرُ لا يُنادَى

حُذِف حرفُ النّداء (يا) في الآية: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾؛ ولعلّ السِّرَّ في ذلك هو شعورُهم بقُرْبه ﷻ؛ فهو معهم حيٌّ قيّومٌ، فلا يقتضي الأمرُ استعمالَ حرفِ النّداء، وهو أيضًا استعطافٌ للمُنادَى بإشعاره بأنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قريبٌ لا يُنادَى.

سِرُّ النِّداء ﴿رَبَّنَا﴾ وإضافته:

اعترافٌ بالله ربًّا للجميع، واستعطافٌ لمَن شأنه الرَّحمة

جاء النّداء في الآية: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾ بلفظ ﴿رَبَّنَا﴾ مُضافًا إلى المُتكلِّمين، والسِّرّ في ذلك: هو الإعلانُ عن رُبوبيّة الله تعالى لهم بعد أن كانت أعمالُهم منكِرَةً له؛ فهو الرّبُّ حقًّا، وهو ربُّنا استعطافًا[2]؛ من حيثُ إنّك ربُّنا، ومن شأن الرّبِّ الرّحمةُ والرّأفةُ، فارأف بِنا[3].

دلالةُ الفعلِ ﴿غَلَبَتۡ﴾ مادّةً وصيغةً:

لن تنفعَ المُعذَّبين يومَ القيامةِ مقاومةُ العذاب

عبّر القرآنُ بالفعل ﴿غَلَبَتۡ﴾ في قوله: ﴿غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾، ومادَّتُه تُشْعِر بمحاولاتٍ للتّغلّب على الشّقْوَة؛ لكنّها استولت وغلبت وتَحَكّمت[4]؛ فكانت هذه المادّةُ أدلَّ على قوّة الشّهوات والهوى، ومَدى تحكّمِها فيهم، وأمّا صيغةُ الماضي في ﴿غَلَبَتۡ﴾ فتُشْعِر بأنّ غلبة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 131.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5122.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 189.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 204.

الشّقوة قد وقعت واستقرّت ورسخت؛ ففي هذه الصّيغة تمكينٌ لمعنى الكلمةِ وملاءمةٌ له.

نُكْتَةُ تقديمِ مُتعلّق الجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡنَا﴾:

الاعتذار بسيّء الأعمال من شدّة الذلّ

تدلّ (على) في قولِه: ﴿عَلَيۡنَا﴾ على تمكُّن الشِّقوة منهم، وإحاطتِها بهم، وعظيم تأثيرِها فيهم؛ اعتذارًا للّه ﷻ؛ ليُخَفّف عنهمُ العذابَ بإخراجهم مِنَ النّار، وقد تقدّمَ شِبهُ الجملة ﴿عَلَيۡنَا﴾ على الفاعل في الآية: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾؛ إبلاغًا في الاعتذار بالإبلاغ في تقرير سيطرة الشِّقوة وهيمنتِها عليهم؛ فالغرضُ من ذلك هو الاهتمامُ بمتعلِّق الشّقوة، وغرضُهُم بيانُ أنّهم مغلوبون على أمرهم، وهو ما يظنّنون أنّه يستدعي التّجاوز عنهم[1].

نُكْتَةُ الإضافةِ إلى ضمير الجماعة في ﴿شِقۡوَتُنَا﴾:

اختصاص الشّقاوةِ بالمُعذّبين دون غيرهم

أُضيفَت الشِّقوة في ﴿شِقۡوَتُنَا﴾ إلى نون الجماعة، ونُكْتَةُ هذه الإضافة هي اختصاصُهم بهذه الشّقوة؛ حيثُ صارت غالبةً عليهم[2] بسوء اختيارهم[3]؛ حيث إنَّها شقاوة استولت عليهم وملكتهم، واقتضاها عليهم سوء استعدادهم وعملهم[4].

بلاغةُ اصطفاء لفظة ﴿شِقۡوَتُنَا﴾ وموقعه الإعرابيّ:

الشّقوةُ بُؤسٌ محيطٌ حتّى صار هيئةً ملازِمةً

اصطفتِ الآيةُ لفظَة ﴿شِقۡوَتُنَا﴾، وفي اصطفائها دلالاتٌ عديدة؛ أمّا من حيثُ مادَّتها فمِنَ الشّقاء؛ وهو ضِدّ السّعادةِ، ولفظةُ الشّقاءِ تحمل المعاناةَ والتّعبَ، والإنهاكَ المُحيط بالإنسان[5]؛ وذلك للدّلالة على أنّهم ما كانوا في سعادة بل بُؤس؛ فهم أهلٌ للإشفاق.

وقد وقعتِ الشّقوةُ فاعلًا؛ أيْ إنّها التي اختارت وفعلت التّغلّبَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 204.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 128.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 151.
(4) الآلوسي، روح البيان: 9/266.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 10166.

وأثّرت، وصار هؤلاء مُنفعلين مُتأثّرين لا حولَ لهم ولا طاقةَ تِجاهِها، وفي الجمع بين معنى البُؤس المحيط بأصحاب النّار، وأنّ هذا البُؤسَ هو المُؤثّر فيهم ما يُسوِّغ اعتذارَهم، ويرفعُ عنهم السّؤالَ - في تصوّرهم - ويُجَنِّبُهم الجزاء.

بلاغة المجازِ المُرسل في ﴿شِقْوَتُنَا﴾:

ذِكْرُ الشّقاء وإرادةُ سببِه من الشّهوات والأهواء

في استعمال ﴿شِقْوَتُنَا﴾ في الآية الكريمة صورةٌ بيانيّةٌ بديعةٌ؛ وهي المَجاز المُرسل بذِكْر المُسَبّب؛ وهو الشّقاء، وإرادةُ السّببِ؛ وهي الشّهوات والأهواءُ، وصار المعنى: إنّ تلك الشّهواتِ والأهواءَ قد سيطرت عليهم، وأدّت إلى ذلك الشّقاء[1]، وصار الاعتذارُ يحمل تعليلًا، إضافةً إلى ذِكْر الحال.

التّوجيهُ البلاغيُّ للقراءات في ﴿شِقْوَتُنَا﴾:

تنوع المصادر اللغوية يرشد إلى الحال النفْسية

قرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح الشين والقاف وألفٍ بعدها: ﴿شَقَاوَتُنَا﴾، وقرأ الباقون بكسر الشين، وإسكان القاف من غير ألف: ﴿شِقْوَتُنَا﴾[2]، والشِّقْوة: مصدر كالرِدّة، والفِطْنة، والشَّقَاوة: كالسَّعَادة، والقَسَاوة[3]، ومن بلاغة القراءات هنا الكشف عن مكنون الحال النفسية المتحسرة لأهل النار، فقد عبَّروا عن حالهم بكل مصدر ليطلبوا الرحمة والرجوع.

سِرُّ حذفِ المفعول في ﴿غَلَبَتْ﴾:

الانفعال بغَلَبَة الشّقاء هو محلُّ الاهتمام

حين ذكرتِ الآيةُ الشِّقوةَ في قوله: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ حذفتْ مفعولَها، فماذا غلبتِ الشِّقوةُ؟ لقد غلبتِ السَّعادةَ[4]، ولعلّ السِّرَّ في حذف المفعول هو التّركيز على الغالب، وحالِ المتأثّر بهذه الغَلَبة؛ فليس القصدُ هنا التّركيز على الشّقاوة أو السّعادة بقَدَر

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 590، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5122.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 329.
(3) الفارسي، الحجة للقراء السبعة: 5/ 302، وابن منظور، لسان العرب: 14/438.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 127.

ما هو الاعتذار لِمَن تأثّر بهذه الغلبة، وفي الحذف أيضًا تنبيهٌ على كمال غَلَبة الشّقوة، بحيث لم تُبْقِ أدنى مجالٍ لوجودِ شيءٍ مِن معنى المحذوف، وهذا من شأنه جلبُ قبولِ اعتذارهم - في ظنّهم -؛ ولكن هَيْهاتَ هَيْهات!!

دلالةُ الواو في ﴿وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ﴾:

عطفتِ الواوُ ضلالَهم على غلبة الشّقوة عليهم حتّى يتمَّ تصويرُ شِدّة الانفعال، وليَصِحَّ الاعتذارُ؛ فالشّقْوة تَقَوَّت بضلالهم فغلبت عليهم؛ فكأنّهم معها كالمأسورين، تَؤُزُّهم إليها الشّياطين[1].

عِلّة استخدامِ الكون والقوميّة في قوله: ﴿وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ﴾:

قد يُفَسِّر بلاغةَ مُفرَداتِ الجملة موقعُها ممّا قبلَها

عبّر النَّظم القرآنيُّ بالكون والقوميَّة؛ لأنّ الجملةَ المعطوفة ﴿وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ﴾ وقعت مِمَّا قبلَها موقِعَ السّببِ والعِلّة التي أعانت أهواءَهم على أن تُهيمنَ عليهم وتقهرَهم وتُسيطرَ عليهم؛ وليس أيُّ ضلالٍ يتسبّب في مِثْل ذلك؛ وإنّما هو الضّلالُ الكاملُ التّامُّ الذي رسخ فيهم واستقرَّ، وتمكَّن منهم، وصار عريقًا فيهم، وما عليه التّنزيلُ الحكيمُ هو المُؤدّي ذلك؛ فمادّةُ الكونِ تعني أنَّ الضّلال كان من ديدَنهم وشأنهم وطَبْعِهم، وصيغةُ المُضيّ تُمكِّن ذلك؛ وإن كان التّعبيرُ بها لأنّ الأمر قد كان، وكلمةُ: ﴿قَوۡمٗا﴾ تعني أنّهم كانوا جديرين بألّا يكونوا ضالّين؛ فلا يعتقدون ما هو ضالٌّ أو ما يُؤدّي إلى الضّلال؛ لأنّ لديهم قِوامةً أعطاها اللّهُ لهم؛ ليُمَيّزوا بها بين الحَقّ والباطل؛ فهم قومٌ عَرفوا الحَقّ والباطلّ؛ ولكنّهم تجاهلوا الحَقّ وتركوه، وأقبلوا على الباطل، وفي كلمة: ﴿قَوۡمٗا﴾ أيضًا: معنى أنّ الضّلال داخلٌ في جِبِلَّتهم[2]، وأنّه مُتأصّل فيهم وخاصّيّةٌ من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 189.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 189.

خصائصهم[1]؛ ما يجعلهم يتأثّرون ببعضهم البعض، ويُؤيّد بعضهم بعضًا؛ فأورثَهم الضّلالَ جميعًا[2].

سِرُّ اختيار لفظ الضَّلال مادّةً وصيغةً:

بُـعْـدُ الـهـدايـة عنهم وبقاؤهم على ذلك عُمُرًا

اختير لفظُ الضّلال في الآية ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ لأمرٍ مُتعلّق بمادّته وصيغته؛ فأمّا عن مادّة اللّفظ ﴿ضَآلِّينَ﴾؛ فالضّلالُ ضِدّ الهُدَى؛ وهو عدولٌ عن السَّواء، كأنّهم لبُعْد الهدايةِ عنهم قد ضلّوا وحادوا؛ فهذه المادَّة تدلُّ على قوّة موجِباتِ الشَّقاوة فيهم[3]، وأمّا عن صيغته فقد جاء لفظُ ﴿ضَآلِّينَ﴾ بصيغة اسم الفاعل الدّالّ على رسوخ المعنى، فقد لبثوا عُمُرًا على حال العماية حتّى ترسّخ الضّلال فيهم، وكأنّ قولَهم هذا يُضْفي على اعتذارهم قبولًا؛ فلم تأتهم آياتُ الهُدى دَهرًا؛ فضَلّوا.

سِرُّ فصلِ قوله: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا﴾ عمّا قبلَه:

في الـتّـصـريـح بالمطلوب بعد الـتـهـيـئـة لـه احتفالٌ به

غابت الواوُ العاطفةُ في جملة ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا﴾؛ لأنّ بينها وبين ما قبلَها كمالَ اتّصال؛ لأنّ الثّاني نتيجةٌ للأوّل؛ فهو لازمٌ من لوازمه في نور السّياق، وفي تصريحهم بالمطلوب بعد التّقديم له بالاعتذار بمضمون الآية السّابقة إبلاغٌ في طلب تحقيقه، وهَيْهاتَ هَيْهات!!.

فائدةُ تكرارِ لفظ ﴿رَبَّنَآ﴾:

الإبـــــــلاغ في استعطاف الرّبِّ الذي عَوّدَ خَلْقَه الرّحْمَةَ والفضل

تَكَرَّر لفظ ﴿رَبَّنَآ﴾ في الآية؛ فجاء أوّلًا في معرِض الاعتذار، ثمّ جاء ثانيًا في معرِض التماس الإخراجِ من العذاب، وفائدةُ تكرار هذا اللّفظِ الجليل هو الإبلاغُ في الاستعطاف، فتضرّعوا ابتداءً بمَن عوّد النّاسَ الإحسانَ وكَلأهم بعنايته، ثمّ ثَنَّوا بمَن عادته أن يتفضّل بالرّحمة[4]، وفي التّكرار إحداثُ تماسكٍ بين مضمون الجُملَتَين،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 128.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5122.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 586، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 189، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5122.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 189، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5122.

وفيه تصويرٌ لما اعتَمَل في نفوسهم؛ مِن أنَّ ما اعتذروا به ينبغي أن يُؤدّي إلى هذه النّتيجة لا محالةَ؛ هكذا في نفوسهم واعتقادهم.

سِرُّ اصطفاء لفظ ﴿أَخۡرِجۡنَا﴾ مادّةً وصيغةً:

دعاءُ الدَّيّان أن يُنفِذَهم من حيّز العذاب المحيط بهم

من الألفاظ التي كان لاختيارها أسرارٌ بديعة في الآية لفظُ ﴿أَخۡرِجۡنَا﴾؛ فالخروجُ في أصل مادَّتِه يدلّ على نفاذٍ من حيّز محيط إلى حيّزٍ آخر[1]، فيُشير بذلك إلى الحيّز الذي هم فيه، وهو نارُ جهنّم اللّافحة، فيَستَحضرُ القارئُ ذلك المشهد ومدى رجائِهم الشّديد في الخروج منه، وقد جاء لفظُ ﴿أَخۡرِجۡنَا﴾ في صيغة الأمر منَ الأدنى إلى الأعلى - وهو الدّعاء - ناسِبًا الإخراجَ إلى المولى ﷻ؛ فهو المَلِكُ الذي يَقْدِر على إخراجهم دونَ غيرِه، وهو يُشير إلى عدم تمكّنهم من الخروج منه، فيدعون صاحبَ العقابِ أنْ يُنقذهم منه[2].

فائدةُ حرفِ الجَرّ والعدول في ﴿مِنۡهَا﴾:

طلبُ الإخراج من عذاب النّار التي لا تُذكر ظاهرًا لسوء نُزُلها

جاء التّعبيرُ عن العذاب في الآية: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا﴾ بالضّمير الغائب دونَ ذِكرِ النّارِ صراحةً مجرورًا بحرف الجَرّ (من) المُفيد ابتداءَ الغايةِ؛ فالمقصودُ هو الإخراج من النّار، وليس أيَّ إخراجٍ؛ وذلك لِما أصابهم من نَصَبٍ وعذابٍ فيها، وقد ذُكِرَت النّارُ بصيغة الضّمير المؤنّث بدل التّصريح بها، ولعلّ فائدةَ ذلك هو زهدُهم في ذِكرِ اسمِها استعاذةً من لَفْحِها[3].

دلالةُ الفاءِ وحرفِ الشَّرط ﴿فَإِنۡ﴾ بدلًا من (إذا):

الدّعاء بالإخراج مشروطٌ بعدم العودة إلى أيّ احتمال للكفر والضّلال

عبّر النّظمُ الكريم بحرف الفاء لعطف جملة ﴿فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ على ما قبلها ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا﴾؛ ليَدُلّ العطفُ على التّرابط بين المطلوب والشّرط وجوابِه؛ فالدُّعاء بالإخراج من

(1) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خرج).

(2) الرّاغب، المُفردات: (خرج).

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 66.

النّار ليس دعاءً مطلقًا هنا؛ وإنّما هو دعاءٌ مشروطٌ بعدم العودة إلى الكفر والضّلال؛ فالقيدُ من تمام المُقيَّد، وزاد الشَّرطَ بلاغةً استعمالُ (إنْ) بدلَ (إذا)، فـ (إنْ) حرفُ شرطٍ للاحتمال والنُّدرة، بخلاف (إذا) الذي يدلّ على العادة والكثرة؛ فصار الشّرطُ واضحًا؛ أيّ: عودةٌ مهما كانت فإنّها تُثبت أنّهم ظالمون، وفي اجتماع الفاء و(إن) دلالةٌ قويّةٌ على إحكام الدّعاء، وجَعْله أدعى للإجابة؛ لضيق شروطه.

سِرُّ اصطفاءِ لفظ ﴿عُدۡنَا﴾ مادَّةً وصيغةً:

اختار القرآنُ لفظ ﴿عُدۡنَا﴾ في الآية ﴿فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾؛ لعِلّةٍ تتعلّق بمادّتها وصيغتها، فأمّا عن مادّة ﴿عُدۡنَا﴾ فتدُلّ على الرّجوع إلى نفس الحال السّابقة، وهو ما يُشْعِر بأنّ القوم واعون بحالهم السّابقة، وأنّها هي السّبب في تعذيبهم، وكأنّهم يطلبون فُرصةً أُخرى لمغالبة الشّقاوةِ وإثباتِ السّعادة، وأمّا عن صيغة ﴿عُدۡنَا﴾ فقد جاء اللّفظ بصيغة الفعل الماضي الذي يدلّ على الحدوث، فإن حدثت منهم العودةُ؛ فهو عملٌ كافٍ لوصفهم بأنّهم ظالمون.

الرّجوع إلى نفس الحال بأيّ درجةٍ من الرّجوع سيُثبت الظّلم

غرضُ حذفِ قيد الفعل ﴿عُدۡنَا﴾:

حُذِفَ متعلّق الفعل ﴿عُدۡنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾، فهل يتعلّق بالعَود إلى الحال السّابقة أو العودِ إلى النّار؟ وما غرضُ الحذفِ هنا؟ إنّ العودَ هنا يصِحّ حَملُه على حال العذاب، كما يصِحّ حملُه على حال الشّقاوة والضّلال[1]؛ لأنّ حال العذاب مُتسبِّبٌ عن حال غلبة الشّقاوة والضّلال، إلّا أنّ الحذف هنا يدلّ بوضوح على الرّجوع إلى ما كانوا عليه من الشّقاوة، وهو مربطُ الفرسِ في العقوبة، ولذلك حُذِف ذِكْره؛ ليَعُمّ وليُبيّن أهمّ عَوْد.

العَوْد إلى غلبة الشّقاوة والضّلال عَوْدٌ إلى عذاب النّار

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 297.

لزومُ الظّلم لمَن عاد إلى الضّلال واستحقاقُه للعذاب

دلالةُ الفاءِ وجوابِ الشّرطِ في ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾:

جاء التّعبيرُ في الآية ﴿فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ بأسلوب الشّرط والجزاء، والفاء هنا واقعة في جواب الشّرط، وهي تعمل على ترتيب الجوابِ على الشّرط لإظهار اللّزوم[1]؛ أيْ: إنّ الحُكمَ بالظُّلم هو نتيجةٌ منطقيّةٌ لكلِّ عائدٍ إلى الضّلال بعد الإخراج منَ العذاب، كما يحملُ جوابُ الشّرط - إضافةً إلى الحُكم بأنّ العائد ظالمٌ - معنًى آخَرَ لازمًا عنه، وهو: أنّ مَن ظلم فإنّه يستأهل العذاب[2].

ظُلمُهم تَعَدٍّ وتجاوزٌ لكلّ الحدود، ويستوجب العقابَ

سِرّ اختيار لفظِ الظُّلم مادّةً وصيغةً:

جاء وصْفُ الظّلم - لمَن عاد بعد الإخراج منَ العذاب - في موقعه البليغ؛ وذلك لأنّ مادّة الظُّلم تدور حولَ التّعدّي والتّقصير؛ فهي خلافُ العدل والوفاء، وهاهنا أصحابُ النّارِ يلتمسون إعطاءَ فرصةٍ أُخرى؛ ليُثبتوا صلاحَهم، فمَن عاد إلى ما كان عليه فقد تَعَدّى حدودَه[3]، ومَجيءُ لفظِ الظُّلم بصيغة اسم الفاعل يدلّ على رسوخ الوصف في صاحبه؛ لذلك فقد اجتمعتِ الدّلالتان لتُبيّن أنّه ظُلْمٌ على ظُلم؛ ظُلمُ التّعدّي الأوّل، وظُلْمُ مخالفةِ الشّرطِ بالعَود، وظُلْمُ التّعدّي بعدَ التّجاوز[4]، فهو ظُلْمٌ مُتَحَقّقٌ، وبشكلٍ تامٍّ، ومُستوجِبٌ لتمام العقوبة.

ظُلمُ العائدِ بعد ذلك إلى الضّلال، هو ظُلمٌ ثابتٌ دونَ شَكّ

فائدة التّعبير بالجملة الاسميّة ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾:

جاء ثبوتُ ظُلمِهم في جواب الشّرط ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ في جملة اسميّة؛ لإظهار ثبوتِ وصْفِ الظُّلم لكلّ مَن عاد إلى ضلاله بعدَ التّجاوز عنه؛ فالجملةُ الاسميّة تدلّ على ثُبوت وصْف الظُّلم[5]، وهو تأكيدٌ على أنّه ظُلمٌ دونَ شَكٍّ.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5123.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 66.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 586.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 128.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5123.

الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

الغَلَبة والسّبق والفَوز:

السّبقُ تَقدُّمٌ، والغَلَبةُ سَبْقٌ بقَهْرٍ أو بحِكْمَة، وإذا نتج عن السّبق خيرٌ صار فوزًا

من المفاهيم القريبةِ إلى مفهوم الغَلَبة مفهوما السّبق والفوز، وبينها فروقٌ دقيقةٌ؛ فالغَلَبة تقدّمٌ بقَهْرٍ أو بحِكْمَة، والسّبْقُ تقدّمٌ[1]، سواءٌ أكان بالزّمان أو في المكان، وأقربُها إلى الغَلَبة السَّبْقُ في المَنْزِلة[2]؛ إلّا أنّ السّبْق أعمُّ؛ فقد يكون لغَلَبةٍ أو لغيرها، وليس كلُّ غَلَبةٍ ولا سَبْق بفوزٍ؛ فالفَوْزُ نجاحٌ ومصلحةٌ خالصةٌ[3]، فيفترقُ الفوزُ عن السّبْق والغَلَبة في النّتيجة؛ فقد تكون نتيجةُ السّبْقِ خيرًا ومصلحةً؛ فيُعتَبَرُ فوزًا.

الشِّقْوة والشَّقاء:

الشّقوةُ حالٌ قابلٌ للتّغيير، والشّقاء مآلٌ لا يُتجاوَز

لعلّ من لطيف الملاحظة تمييزَ الشّقْوة عن الشّقاء؛ ذلك أنّ أصلَهما واحدٌ، وهو الشّدَّة والعُسر؛ إلّا أنّ الشِّقْوَةَ على زِنة (الهَيْئَة) من الشّقاء؛ كالفِطْنَة والرِّدّة؛ فصار الشّقاءُ هيئةً وحالًا تُحيط بالإنسان؛ فيَشْعُرُ بالشِّدّة[4].

بينما يُطْلَق الشّقاءُ على المآل، فيَشْعُر الإنسانُ بالشّقاء أو بالسّعادة؛ فالذي يُميّز هذه عن تلك هو أنّ الشِّقْوَة حالٌ قد تتغيّر بمغالبةٍ وجَهْدٍ، بينما الشّقاءُ كأنّه نتيجةٌ ومآلٌ، فليس بالأمر الذي يمكن تغييرُه إذا لم تتغيّر أسبابُه.

الضّلال والحَيْرة:

الحَيْرةُ حالٌ وانفعالٌ، والضّلالُ موقفٌ قد يَنتُجُ عن حَيْرَةٍ

بينَ الضّلال والحَيْرة اشتراكٌ وافتراق؛ فإذا كانتِ الحَيْرةُ تَرَدُّدًا[5] وانفعالًا وعدمَ اتخاذِ موقفٍ واعٍ؛ فإنّها ستُنتِجُ الضّلالَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبق).
(2) الكفويّ، الكُلّيّات، وأحمد مختار، معجم اللّغة العربية المعاصرة: (سبق).
(3) الرّاغب، المُفردات: (فوز).
(4) السّامرّائيّ، معاني الأبنية، ص: 34.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حير).

باعتباره عدولًا عن الصّواب، وإذا كان الضّلالُ هو مجانبةٌ للصّواب والهدى؛ فهو موقفٌ، وقد يكون بقصدٍ وقد يكون عن حَيْرةٍ؛ لذلك فالحيرةُ حالٌ، والضّلالُ موقفٌ، ومن أنواع الضّلال: الحَيْرةُ.

العَود والرُّجوع:

العَـودُ رجـوعٌ إلـى نفس الحالِ السّابقة، والرُّجوعُ تحوّلٌ من حالٍ إلى عكسِها

الرُّجوعُ: تحوّلٌ من حالٍ إلى الحال المعاكسة لها، وليس كلُّ رجوعٍ عَودًا؛ إذِ العودُ رجوعٌ إلى الحال السّابقة التي كان عليها، فثَمَّةَ حالٌ أوّلَى، وثَمّةَ تحوّلٌ منها ثُمّ عودةٌ إلى الحالِ الأوّلَى؛ ولذلك استَعمَلتِ الآيةُ ﴿عُدْنَا﴾ للدّلالة على الرّجوع إلى نفس الحال السّابقة وهو مَحَطّ الذّمّ؛ ممّا ترتّب عليه الحُكم بالظّلم واستحقاقِ العذاب.

بينما لفظ (ارجعنا) لا يحمل هذه الدّلالة، وإن ورد في آيةٍ قريبة المعنى والسّياق؛ وهي قول الحّقِ ﷻ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ﴾ [المؤمنون: 99 - 100]، والرّجوعُ هنا رجوعٌ إلى مكانٍ وحالٍ عامّةٍ هي حالُ الدّنيا، وليس الرّجوعَ إلى نفس الحال السّابقة.

﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ [المؤمنون: 108]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ترقُّبُ الإجابةِ على طلب الرّحمة

لمّا طلب أصحابُ النّارِ الإخراجَ منها بشرط عدمِ العَودِ إلى ضلالهم، وإلّا فإنّهم ظالمون؛ انتظروا الإجابةَ من الله تعالى؛ فجاءَهمُ الجوابُ: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، فهو جوابٌ على سؤال.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱخۡسَـُٔواْ﴾: الخَسْءُ هو الانقباض عن مهانة[1]؛ يُقال: خَسأ البصرُ؛ أيْ: "كَلَّ وأعيا"[2]، وأُطْلِق على الطّرد والاندحار؛ يُقال: "خَسَأْتُ الكلبَ خَسْأً: طَرَدتُه"[3]، والمعنى في الآية الكريمة: اسكُتوا وانزجِروا.

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

أجابَ اللّهُ ﷻ طلبَ أصحابِ النّار بالإخراج منها، مع ما شرطوا في ذلك على أنفسهم؛ زاجرًا مُيَئِّسًا: اسكتوا وانزجِروا انزجارَ الكِلابِ، ولا تخاطبوني بشيءٍ في النّار[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلّة فصلِ صدرِ جملة ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾ عمّا سبقها:

الجوابُ على سؤالٍ مُقدّر فماذا أجابَهم؟

فُصل صدرُ الجملة ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾ عمّا سبقها منَ الجمل؛ لتمام الاتّصال بينهما؛ فهي من باب المُحاورة التي تحمل تقابلًا في الأقوال بينَ الأطراف، كعادة القرآن في مُحاوراته[5]، وهي أقربُ إلى جوابٍ عن سُؤالٍ مُقدّرٍ: (فماذا أجابَهم؟).

(1) الرّاغب، المُفردات: (خسئ).
(2) الخليل، العين: (خسأ).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (خسأ).
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 66.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 131.

التزموا الصّمت وكونوا على عَجزٍ من الكلام ويأسٍ من الإجابة

بلاغةُ الأمر في ﴿ٱخۡسَـُٔواْ﴾:

جاء الجوابُ في الآية ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾ بأسلوب الأمر؛ وهو أمرٌ يقتضي الالتزامَ؛ لأنّه من ربّ العِزّة مالكِ يوم الدّين، كما يحمل مع الأمر دلالةَ الإقناط والتّيئيس، فلستُم في محلّ الرّجاءِ والمُطالبة؛ بل أنتُم لستُم أهلًا للطّلب؛ فاسكتوا وانزجروا[1]، ويمكن حملُه على دلالةٍ أُخرى قريبةٍ إلى نَظْم الآية؛ وهو أمرُ (كن) الإلهيّ؛ أيْ: كونوا ساكتين غير قادرين على التّكلُّم، على غرار قول الحَقّ ﷻ: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥﴾ [البقرة: 65][2].

ضرورةُ التزام الصّمتِ مع إبعادٍ وهَوانٍ وذُلّ

سِرُّ اختيارِ لفظِ ﴿ٱخۡسَـُٔواْ﴾ مادّةً وصيغةً:

اختار النَّظْمُ الكريم لفظَ ﴿ٱخۡسَـُٔواْ﴾ في قوله: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، وفي ذلك سِرٌّ بديع؛ إذ في اللّفظ دلالةٌ على معنى الانقباض، فيكون المعنى: توقّفوا عن الخطاب، كما يحمل معنى الذُّلّ والمهانة؛ أيْ: ذُلّوا في العذاب بهوانٍ[3]، ويحمل معنى الإبعاد؛ أيِ: ابعُدوا[4]؛ فجمع هذا اللّفظُ بينَ الصّمت وحالِ الصّمتِ - وهو الهوانُ والذُّلّ - وحالِ الطّرْدِ، وتدلّ صيغة ﴿ٱخۡسَـُٔواْ﴾ على الأمر يقتضي اللّزومَ، وقد جاء منَ المَلِكِ إلى عبيده المُذنبين، ممّا يجعل الصّمتَ أمرًا لازمَ التّطبيق، وكلُّ هذه الدّلالات تزيد أصحابَ النّارِ هوانًا على هوانٍ، وتُظهِر عِظَمَ جُرمِهم الذي استحقّوا لأجله هذا الموقفَ الشّديد.

للدّلالة على أنّهم مأمورون بالخَرَس والصّمت وعدم التّكلّم الآن ولاحقًا

غرضُ عطفِ جملة ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، وصيغة المضارع المنفي:

عُطفت جملة ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ على جملة ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾، وهو عطف نهي على أمرٍ، والغرضُ من ذلك هو تأكيدُ الجملة الأولى[5]؛

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 266.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 232.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 297، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 96.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5123.

(5) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 232.

إذ ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ في معنى ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾، وجاءت الواو لتُبالغ في طلب تحقيق النّهي؛ لأنّها تُشعر بالاستقلال؛ لما فيها من معنى المغايرة الذي لا يَبْرحُها، وهذا غايةُ الغضبِ عليهم، وغايةُ تعنيفهم.

وجاءت الجملة بصيغة المضارع المنفيّ؛ لتَدُلَّ على أنّهم مأمورون بعدمِ التّكلّم الآن ولاحقًا، إضافةً إلى توزيع المعنى فيُحمَل الخَسْء على الهوان والطّرد، ويُحمَل عدمُ التّكلّم على الخرس.

سِرّ تقديمِ الإخساء على عدم التّكليم:

الخاسرون في جهنّم ليسوا أهلًا للخطاب ولا للكلام في حضرة المولى

لَمَّا كان من الخطوط العامّة في السّياق توبيخُهم وزَجرُهم وتعنيفُهم وما جرى في هذا الطّريق من المعنى؛ كان ذِكْرُ الأمرِ بالخَسْء من قبل ذِكْر النّهي عن الكلام هو الأبلغُ في تقرير ذلك؛ لأنّ في الأمر بالخَسْء نهيًا ضمنيًّا عن أن يتكلّموا، ولما جاء النّهيُ عنه صراحةً؛ كان ذلك غايةَ الغضبِ عليهم، وثَمَّةَ معنًى آخَر وهو إظهار معنى الإبعاد والطّرد والإهانة؛ فليس المَقصِد هو نهيَكُم عن الكلام؛ ولكن أنتُم لستُم أهلًا للتّكلُّم في حضرة المولى.

سِرُّ اختيارِ ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ دونَ (ولا تَكَلَّموا):

النّهيُ عن التّكلّم معَ الملك الدّيّان بأيّ كلام

أوثِرَ التّعبير بـ ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ دونّ (ولا تَكَلّموا) أو (ولا تَتكلّموا)؛ ولعلّ السِّرّ في ذلك هو أنّ المقصود بالمَنع هو كلامُهم معَ المولى ﷻ اعتذارًا والتماسًا[1]؛ فاللّه ﷻ نهى أن يُكلّموه؛ لا أن يتكلّموا فيما بينَهم.

بلاغةُ حَذفِ المُتكلَّم به:

النّهيُ عن أصل الكلام؛ بل عن أيّ كلامٍ

حُذِفَ متعلّق الكلام في النّهي: ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾؛ حتّى يتّجه النّهيُ إلى أيّ كلام مع اللّه كان، كالإخراج منَ النّار[2]، أو التّخفيف منَ العذاب؛ بل يَتّجِه النّهيُ إلى كلّ كلام يستغيثون به اللّهَ تعالى[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5123.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 204، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 152.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 96.

بلاغة المَجاز في النّهي عن التّكلّم:

النّهيُ عن الالتِماس والسّؤال

نهى اللّهُ تعالى في قوله: ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ عن الكلام، والسّؤال: هل الغرضُ من ذلك هو الكلام؟ أو أنّ النّهي يحمل غرضًا آخر؟ والجواب: أنّ النّهيَ في الآية هو من باب منعِ الشّيء وإرادةِ المَنعِ من لازمه؛ مجازًا مُرسلًا؛ فلم تمنع من التّكلّم بقَدْر ما نهت عن لازمه؛ أيْ: لا تسألوا ولا تُطالِبوا بشيء[1]، فالكفّ عنِ الكلام هو كَفٌّ عن مضمونه، وهو سؤالُ الإخراج، وأهلُ النّار ليسوا في موضع الرّجاء ولا المطالبةِ بشيء.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5123.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩﴾ [المؤمنون:109]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرَّدُّ بالزَّجر على قدر جرمهم

جاء الجواب تذييلًا للمحاورة، وتقريرًا على المصطرخين جزاءَ ما اقترفوه من ضلال أوقعهم في الجحيم، فقد كانوا يشمَتون بهذا الفريق من عباد الله تعالى، ولم ينصِتوا لمنطقهم، بل أسكتوهم، فما كان منهم إلا أن لجأوا إلى الله تعالى، فغفر لهم، وأخزى الظالمين[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرِيقٌ﴾: (فرق) أصلٌ صحيحٌ يدلّ على تمييزٍ بين شيئَيْن مع فصلٍ بينهما[2]، والفِرْقُ: القِطعَةُ المنفصلة، والفِرْقة: الجماعة المُتفرّقة عن الآخرين[3]، فالتّفريقُ فصلٌ تامٌّ بينَ أمرَيْن كانا معًا[4]، والفِرْقةُ: مجموعةٌ كانت مع غيرها، ثمّ انفردت عنهم وتميّزت، يقول سبحانه: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ٢٥﴾ [المائدة: 25]، ومعنى ﴿فَرِيقٌ﴾ في الآية الكريمة: جماعةٌ تميَّزت بإيمانها بالله.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

حالُ عبادِ الله أنّهم يُؤمنون به ويدعونه بالغفران والرّحمةِ

يخبر اللهُ تعالى فيقول: لقد كان في الدّنيا جماعةٌ من عبادي المؤمنين مُتميّزةً عن الكفّار يدعون بإخلاصٍ فيقولون: مولانا لقد صدَّقنا بك، واتّبعنا رُسلَكَ؛ فاستُرنا وتفضَّل علينا برحمتك؛ أَنْتَ خَيْرُ مَن نرجوه ليَرحمَنا.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 297، البقاعي، نظم الدرر: 13/ 190.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرق).
(3) الرّاغب، المُفردات: (فرق).
(4) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرق).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلّةُ فصل صدرِ الجملة عمّا قبلها:

استئنافٌ في مقام التّعليل للآية (قال اخسؤوا فيها ولا تكلّمون)

فُصِلت جملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنّها استئنافٌ بيانيّ[1] في مقام التّعليل[2]؛ حيثُ أظهرت لماذا طَرَدَ اللّهُ أصحابَ النّارِ ومنعَ دعاءَهم، كأنّها جوابٌ عن سؤال مُقدَّر مَفادُه: لماذا مُنِع هؤلاء من الكلام؟ فيأتي الجواب: (إنّهم آذَوا عبادي)[3].

بلاغة توكيد الجملة في صدرها:

التّوكيد للتّعجيل بإرهاب أصحابِ النّار

جاء توكيد الجملة في صدرها بـ (إنّ) وضمير الشّأنِ ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ وذلك لتأكيد ما سيأتي ذِكْرُه، ولفتِ الانتباه والاهتمام إلى ما سيُذكر من موقفهم المَشين من عباد اللّه، وهو مُقدّمةٌ للجواب على طلبهم، وكالتّعجيل بإرهابهم[4].

فائدة ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾:

وجودُ الفريق الدّاعي من عباد الله مُتحقّقٌ ثابتٌ

بعد أن صَدّر تعالى جملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ﴾ بـ (إنّ) وضميرِ الشّأن، استعملَ الفعل ﴿كَانَ﴾ الدّالّ على المُضي والتّحقّق؛ لإثبات وجودِ فريق بهذه المواصفات في زمنٍ مضى؛ فهو كونٌ ثابتٌ[5]، لعلّ المخاطَبين قد نسوا ذلك وغفلوا عنه.

سِرّ اصطفاء لفظ ﴿فَرِيقٌ﴾ دون (طائفة) أو (جماعة):

الدلالة على أنّهم تَميّزوا عن أهل الضّلال بالإيمان

أوثِر لفظُ ﴿فَرِيقٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنۡ عِبَادِي﴾ دون (طائفة) أو (جماعة)، وذلك لأنّ لفظ ﴿فَرِيقٌ﴾ يُشعِر بالتّميّز، فهي جماعةٌ كانت كافرةً ثمّ تميّزت عن أهل الضّلال بالإيمان[6]،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 157.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 633.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 297، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 129.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 129.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 190.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 190.

بعد أنِ استفاقوا فالتزموا ودَعَوا ربَّهم، فما كان من هؤلاء الكفّار إلّا أن تَعَدَّوا عليهم استهزاءً وضحكًا، كما يُشْعِر لفظُ ﴿فَرِيقٞ﴾ بالضّعف؛ لأنّه مُشتَقّ من الفُرقة، والفُرقةُ ضعفٌ، ولمَّا كانوا ضعفاءَ في مجتمعهم، استضعفَهم هؤلاء الكافرون، واتّخذوهم سُخْريًّا.

معنى ﴿مِّنۡ﴾ ودخولها على لفظ ﴿عِبَادِي﴾:

الاستهزاءُ وقع على فريقٍ من المؤمنين اختاروا أن يعبدوا ربَّهم

استُعمل حرفُ الجرّ ﴿مِّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ﴾، ودخول ﴿مِّنۡ﴾ على ﴿عِبَادِي﴾ يدلّ على التّبعيض؛ فهم بعض عبادي؛ فموقفُ الاستهزاءِ وقعَ على فريقٍ منهم، وما كان لهؤلاء الكفّار أن يستهزؤوا بكلّ عبادِ اللّه ممّا يخافون جانبَه أو يرجون خيرَه، ودخولُ ﴿مِّنۡ﴾ على ﴿عِبَادِي﴾ يُشعِرُ بالخصوصيّة، فقد عرّفَتْهُمُ الآيةُ بوصف العبوديّةِ للّه؛ إظهارًا لمحلّ الاستهزاء منهم أنّهم عبدوا ربّ العالَمين، وافترقوا عن مِلّة الآباء.

سِرّ اختيارِ لفظ ﴿عِبَادِي﴾ وإضافتِه:

ميزةُ هؤلاءِ العبوديّةُ لله، ومَن كان عبدًا لله حماهُ مولاه

في اختيار لفظ ﴿عِبَادِي﴾ وإضافته إلى (يا) المتكلّم سِرٌّ بديع، إذ هو تعريف لهم بالعبوديّة للّه ﷻ؛ ليَظهرَ مَحلُّ تميّزِهم عن غيرهم؛ فهم مَن تخلّص من الهوى، باستسلامه لربّ العالَمين التزامًا ورجاءً[1]، وهو من ناحيةٍ أُخرى تشريفٌ لهم بنسبتهم إلى مولاهم ﷻ، وهذه النّسبة كما تحمل التّشريفَ تحمل معها الحماية؛ فمَن يَمَسّ عبادي أُصبّهُ بعذابي.

دلالة ﴿يَقُولُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

تجدُّدُ الالتجاءِ إلى الله، لشِدّة ما يُلاقون من المتكبّرين

استعملت الآيةُ لفظَ ﴿يَقُولُونَ﴾، وفي اختيار هذا اللّفظ دلالاتٌ عديدة؛ فلفظُ القولِ في مادَّته يُشير إلى معنًى في النّفس يُعَبَّر

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 190.

عنه بشكلٍ مضبوط[1]، فهو مِصداقُ ما في القلب[2]، وإظهارٌ لما وقرَ في القلب من الإيمان وجميلِ الالتجاءِ إلى اللّه، وهو موقفٌ حقيقٌ بالاعتبار والاحتذاء[3]، وجاء لفظ القول بصيغة المُضارِع؛ ليُشيرَ إلى دلالة التّجدُّد في القول[4]؛ فهم يدعون بهذا الدّعاء بشكلٍ مُتكرِّرٍ، ويمكن حملُه على تصوير مشهد القول اللّطيف البليغ؛ وآخرون يستهزؤون به؛ ممّا يُبيّن سماجةَ الاستهزاء.

سِرُّ استعمالِ لفظ ﴿رَبَّنَآ﴾ دونَ (إلَهنا):

لا يستوي تضرّعُ الاختيارِ وتضرّعُ الاضطرار

من بديع التّكرار في الآيات أنِ استَعمل كِلا الفريقَيْن لفظَ ﴿رَبَّنَآ﴾ في دعائه فقال أصحابُ النّار: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾، وقال فريق من عباد اللّه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾؛ وذلك يدلُّ على شعور التّضرّع المُشترَك بينَ الفريقيْن للّه ﷻ، فكلاهما يدعو بتَضرُّعٍ وتَذلّل بشعورٍ كاملٍ بأنّ اللّه هو ربّنا الذي يجيب دعاءَنا، ويَغفرُ عثراتِنا[5] مع فارقٍ عظيم بينَ تضرّع الاختيار وتضرُّع الاضطرار.

فائدةُ ذِكْر الإيمان دون غيره: ﴿ءَامَنَّا﴾:

تصديقٌ بالآيات مقابل التّكذيب بها

عند ملاحظة دعاء عباد اللّه ذُكِر الإيمان ﴿إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ وحده ودون غيره، تركيزًا على أنّ ما فاز به هذا الفريق عن غيره هو الإيمان باللّه ﷻ[6]؛ فالإيمان استجابةٌ لرسل اللّه وتصديقٌ بآيات اللّه[7] مقارنةً بإعراض الآخرين وتكذيبهم بالآيات.

دلالةُ الفاءِ ودخولُها على الطّلب بالمغفرة والرّحمة:

المغفرةُ والرّحمة يـترتّـبـان عـلى الإيمان

لّما أعلن عبادُ اللّه عن موقفهم - وهو الإيمان باللّه والتّصديق

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قول).
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 66.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 10168.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 190.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 190.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 190.
(7) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5123.

بآياته - جاءت الفاء في الآية ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾ لِتُظهرَ ترتُّبَ ما بعدَها على ما قبلَها، فالمَغفرةُ والرّحمةُ مُتَسبّبةٌ عن الإيمان، وإذ قد آمنا فيا ربِّ اغفر وارحم؛ وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّ غُفران اللّهِ لا يكون بغير إيمانٍ، وأنّ دفعَ عذابِ الآخرةِ لا يصلح دونَ إيمان في الدّنيا ﴿فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ١٣﴾ [الجنّ: 13]، ووراءَ ذلك من المعنى تعظيمُ الإيمان، وبيانُ كيف خَسِر الكفّار بخسران الإيمان شيئًا عظيمًا.

بلاغة الطّلب في ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا﴾:

دعاءُ التّضرّع والالتجاء لما يَنتَظِر المُقَصّرين من سوء المآل

طلبَ عبادُ اللّهِ المؤمنون بإعلانهم إيمانَهم أن يغفرَ اللّهُ لهم ويرحمَهم في قوله: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا﴾؛ وهذا الطّلب دعاءٌ من الأدنى وهو العبد إلى الأعلى وهو الرّبّ، فهو أمرٌ في ظاهره، ودعاءٌ يحمل معانيَ الالتجاء والتّضرُّع في باطنه، وتلك صورةٌ من صور التّعبُّد رائعةٌ، وفي التّركيز على المغفرة والرّحمة إبرازٌ لَمدى حاجة عباد اللّه إلى سَتر ربّهم وإحسانه؛ فالعبدُ يُخطِئ ويحتاج، والرّبُّ يغفر ويُحسِن، وأَعظِم بذلك طلبًا إذا استحضر القارئُ مشهدَ العذابِ السّابق وحالَ أصحابِه؛ فهو مشهد حقيقٌ بالتّعوّذ منه ورجاء النّجاة.

غرضُ الدّعاء بالمغفرة في ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾:

شعورٌ بالتّقصير يستدعي طلبَ الغفران

أوّلُ طلبٍ لعباد اللّه بعد أن قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ هو المغفرة، ولعلّ الغرض من طلب المغفرةِ هنا هو شعورُهم بتقصيرهم في الأيام الخوالي[1]، إذ كانوا على ضلال حيارَى؛ فجاءتهم آياتُ الحَقّ فآمنوا، ثمّ لاحظوا الفرقَ بينَ الإيمان والكفر في مجريات حياتِهم، أين حياةُ الكفّارِ من طَيّب حياةِ الإيمان؟! فكم فرّطوا؟ وكم فاتهم مِن الخير؟!

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 190.

سِرّ تقييد المغفرةِ بالجارِّ والمجرور ﴿لَنَا﴾:

هَـمُّ عـبـادِ الله تـقـصـيرُهـم، ومـطـلـبُـهـمُ التّجاوز عنهم

قُيِّدت المغفرةُ في قوله: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ بالجارّ والمجرور؛ والسّرُّ في ذلك هو التفاتُ هؤلاء العباد إلى أنفسِهم ابتداءً، فلم يشتغلوا بظُلم الآخرين واستهزائهم؛ ولكن كان همُّهم الأوّل كيف يُغفَر لهم، وكيف يتجاوزون القنطرةَ بإيمانهم.

سِرّ تقديمِ المغفرة على الرّحمة:

التّخْلية قبلَ التـحْـلـيـة من شأنِ أهلِ الله

يُلحظ في دعاء عباد اللّه أنّهم قدّموا طلبَ المغفرةِ على الرّحمة، ولعلّ السّرَّ في ذلك هو إحساسُهم بتقصيرهم، فبدَؤوا بحساب ذنوبِهم قبلَ ملاحظة حسناتِهم، وتقديمُهم لحقّ اللّه - وهو العبادة والطّاعة - على رجائهم - وهو الإحسان والرّحمة - دلّ على عملهم بمبدأ: التّخلية قبلَ التّحلية[1].

بلاغةُ طلبِ الرّحمة:

شعورٌ بالقصور يستدعي طلبَ الرّحمةِ

بعد أن طلب عبادُ اللّه غفرانَ ذنوبهم بقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ زادوا فقالوا: ﴿وَٱرۡحَمۡنَا﴾، وطلبُ الرّحمةِ هنا هو طلبُ الإحسان بالهداية ووراثةِ النّعيم، ويحمل أيضًا معنًى بلاغيًّا آخَر، وهو شعورُ القُصور فيهم؛ لأنّهم يشعرون بأنّ اللّه إن جازاهم بشيءٍ فهو تفضّلٌ منه، ولا يحسبون أنّهم عملوا ما يستحقّون عليه جزاءً[2].

نوع التّذييل ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ بعد سؤال الرّحمة:

تلهيبٌ للإجابة وتـــضــرّع في الدّعاء

ذُيّلت الآية بعبارة: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، وهو تذييلٌ وتلهيبٌ للإجابة؛ في بصائرِ المُتَحَدَّث عنهم، فأنتَ خيرُ الرّاحمين لذلك رجوناكَ أن تغفر لنا وترحَمَنا، وهو أسلوبٌ يُستعمل للحَثّ على الإجابة والتّضرّع في الدّعاء[3].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5124.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5124.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 190.

تلوين الخطاب بعد الإخبار عنهم بالخطاب:

تصوير مشهدِ عبادِ الله أدعى للتّأثر والاقتناع بسماجة موقفِ الكفّار منهم

من بديع أسلوب الآيات هنا تلوينُ الخِطاب؛ فقد جاء الحديثُ عن فريق من عباد الله بطريقة الغَيبة في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي﴾، ثمّ تحوّل إلى ذِكْر خطابِهم مع الله؛ وهو دعاؤُهم الخالِصُ: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، وهذا التّلوينُ بديعٌ؛ إذ ترك المُخبَر عنه يتحدّث مباشرةً؛ ليَتِمّ استحضارُ تلك الصّورة مع صورة الاستهزاء بعدَها، وفي تصوير المشهد من الإقناع والتّأثير ما فيه.

سِرّ التّعبير بـ ﴿خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾:

رحمة الله هي خيرُ الرّحمات، ولا مانعَ لها إلّا حكمةٌ بالغة

جاء التّعبير عن ربّ العالمين بعد طلب المغفرة والرحمة بأنّه سبحانه ﴿خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، والسِّرُّ في التّعبير بذلك هو استحضارُ أنّ الرّحمة التي تأتينا منه هي خير رحمة، وأنّ مَن أخرس أصحابَ النّارِ هو خيرُ الرّاحمين؛ فرحمتُه هي خير الرّحمات[1]، فإن مَنَعَ فلِحِكمَةٍ بالغة.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الفَريق والجماعة:

الفريق جماعةٌ تـمـيّزت بـمـيزةِ وانـفـصـلـت لأجلها

تتّفق الفِرْقَةُ والجماعة في أصل المعنى؛ وهو العدد من الأفراد بينهم جوانبُ مشتركةٌ، فإن جَمَعَهُم جامِعٌ صارت جماعةً[2]، إلّا أنّ معنى الفريقِ له خصوصيّة؛ فالفريقُ جماعةٌ كانت مع آخرين، ثمّ افترقت وتميَّزت عنهم حتّى انفصلت، فسببُ الانفصالِ هو ما يُميّزها؛ وهو قِوامُ جماعتِها.

العِباد والعبيد:

العبادُ والعَبيد مفهومان مشترِكان في الدّلالة، مختلفان في بعض

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5124.
(2) الرّاغب، المُفردات: (جمع).

العبيدُ عُبِّدوا اضطرارًا، والعِباد عَبَدوا اختيارًا

الفروق، فهما من ألفاظ الجُموع، ويتّفقان في أصل المعنى، وهو الانقياد والإذعان، كما يتّفقان في المُفرد وهو العبد؛ إلّا أنّ العباد لِمَن اختار أن يكون عبدًا للّه ﷻ، والعبيدُ لِمَن اضّطر للعبادة[1]؛ لذلك فالعبيد موالي عُبِّدوا اضطرارًا، والعِبادُ عَبَدوا اختيارًا.

(1) الخليل، العين: (عبد).

﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ١١١﴾ [المؤمنون: 110 - 111]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبلَهُما:

ذاك حالُ عبادِ اللهِ إيمانًا واستغفارًا، ولكنّ موقف الكفّار كان مُنكَرًا

لمّا زُجِرَ أصحابُ النّارِ ومُنِعوا عن الكلام والاعتذار؛ ناسب أن يُذكر هنا بعضُ ما لأجله عُذِّبوا وبَعُدوا من الخير، وهو ما عاملوا به المؤمنين[1]، وكان في هذا إغاظتهم بمقابلة حالهم يوم العذاب بحال الذين أنعم الله عليهم، وتحسيرهم على ما كانوا يعاملون به المسلمين[2].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ﴾: أصل كلمة (اتَّخذ) من (أخذ)، والأخذ: هو حَوز الشّيءِ وجَبْيُه وجمعُه، خِلافُ العطاء[3]، واتّخذ: افتعل الأخذ[4]، والافتعال: بذلُ جهدٍ في الأخذ[5] أو القصد إليه، والاتّخاذ يقتضي مفعولَيْن، ويجري مجرى الجَعْل[6]، ومعنى ﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾؛ أيْ: جعلتم منهم سُخرية بقوّةٍ وعُنفٍ.

2) ﴿سِخۡرِيًّا﴾: من الفعل (سَخِر) المُتعدّي، ويعني: احتقر واستذلّ[7]، ويتعدّى بحرف (من)، ومصدرُه السّخريّة، ومعنى كلمة ﴿سِخۡرِيًّا﴾ في الآية: موضع احتقارٍ ومهانة.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 298.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/129.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخذ).
(4) الرّاغب، المُفردات: (أخذ).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أخذ).
(6) الرّاغب، المُفردات: (أخذ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: 3/ 144.

3) ﴿أَنسَوْكُمْ﴾: النِّسيانُ ضِدُّ التّذَكّر، وهو عدم استحضارِ شيءٍ كان في الذِّهن، "نَسيَ فلانٌ شيئًا كان يَذْكُرُهُ"[1]، ومطلقُ النّسيانِ سهوٌ، وهو بغير قَصْد، ومنَ النِّسيان: إغفالُ الشّيءِ وإهمالُه، ومنَ النِّسيان أيضًا تركُ الشَّيء، و"النِّسْيُ: ما سَقَطَ من مَنازِلِ المُرْتَحِلينَ من رُذالِ أمتِعَتِهم"[2]، ومعنى ﴿أَنسَوْكُمْ﴾ هنا: جعلوكم تنسون ذِكْري.

4) ﴿تَضْحَكُونَ﴾: أصل كلمة (ضحك): بَرَز وانكشف[3]، فالأسنان تبرُز حين الضَّحِك، والسّحابُ العارضُ ضاحِكٌ، وضَحِكُ الإنسانِ: هو انبساطُ الوجهِ وتَكَشّر الأسنان من السُّرور[4] والفَرَح[5]، ومعنى ﴿تَضْحَكُونَ﴾ في الآية: تتفكّهون.

5) ﴿جَزَيْتُهُمُ﴾: (الجزاء) من الفعل (جزى)، وهو قيام الشّيء مَقامَ غيرِه، ومكافأتُه إيّاه، يُقال: جَزَيتُ فلانًا جزاءً، وجازيتُه مُجازاةً[6]، وجزى الشّيءُ: كفى، وجزى عنك الشَّيءَ: قضى[7]؛ فالجزاءُ ما فيه الكفاية[8]، ومعنى ﴿جَزَيْتُهُمُ﴾ في الآية الكريمة: كافأتُهم وآجَرتُهم.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

الكفّار يستهزئون من عباد الله، وما الفائزُ إلّا مَن آمن بالله

تقول الآية: فكان حالُكم أيّها الكفّار معهم أنّكم استهزأتُم بهم، وكنتم تتخذونهم محلَّ تَفَكُّهٍ وضَحِك، وكلّ ذلك شَغَلَكم عن النّظر في الحَقّ والإيمان به؛ فنسيتُم ذِكْري، فما هو حال عبادي اليوم؟ إنّهم - بتحمّلهم وثباتهم على الحقّ - هم الفائزون، ينالون الجزاءَ

(1) الخليل، العين، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (نسي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نسي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضحك).
(4) الرّاغب، المُفردات: (ضحك).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضحك).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جزي).
(7) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (جزى).
(8) الرّاغب، المُفردات: (جزى).

الأوفى، وماذا عن جزائكم أنتم بكفركم واستهزائكم؟ وأيُّ من الفريقَيْن الفائز؟!"[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاء في صدرِ الآيةِ:

الإفصاحُ عن ترتُّب إسكاتِهم في عذاب النّار على سُخريتهم من عباد الله

تصدّرت الآية ﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ بحرف الفاء، والفاء للتّرتّب والتّعليل؛ أي: اسكتوا عنِ الدّعاء بطلب الإخراج من العذاب؛ لأنّكم كنتم تستهزئون بالدّاعين بقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾[2]، وما بعد الفاء من شأنه أن لا يترتّب على ما قبلها؛ فهذا التّرتيب من باب ترتيب شيءٍ على شيءٍ لا يترتَّبُ عليه، وهذا يُصوّر عظيمَ جُرْمِ هؤلاء وضلالِهم.

سِرُّ اصطفاءِ لفظ الاتّخاذ مادّةً وصيغةً:

في اتّخاذ الكافرين المؤمنين سُخريًّا قَصْدٌ ومبالغةٌ في الكيد

عبّر القرآنُ بلفظ الاتّخاذ في قوله: ﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾؛ لسِرٍّ بديع؛ فمادَّةُ (اتّخذ) من (أخذ) ضِدّ (أعطى)[3]، وهو ما يُشير إلى معنى بَدء شيءٍ وتعاطيه أخذًا لا منحًا، فهؤلاء تعاطَوا شيئًا قبيحًا فُعِلَ بقصْدٍ، يدلُّ على ذلك الألفُ والتّاء المضافةُ إلى فعل (أخذ)، وفي استعمال فعل (اتَّخذتُموهم) مُتعدّيًا إلى مفعولَيْن، بحمل معنى الاتّخاذ على معنى الجَعْل[4]؛ أيْ: جعلتُموهم سِخريًّا، فسُلِّط الاتّخاذ على المصدر للمُبالغة في الاتّخاذ[5]، وكلّ هذا يُصوّر القصدَ السَّيّء والجهدَ المبذول في سبيل الحَطِّ من شأن عباد اللّه.

سِرّ اختيار ﴿سِخۡرِيًّا﴾ مادّةً وصيغةً:

اتّخاذُ كلِّ الأسباب لجَعْل عبادِ الله مَحلَّ احتقارٍ وخِفَّة وازدراء

عبّر القرآنُ بلفظ ﴿سِخۡرِيًّا﴾؛ للدّلالة على الخِفّة والانقياد بيسرٍ دونَ مقاومة[6]، وهو فعلٌ لازمٌ؛ فإذا تعدَّى بحرف (من)؛ صار بمعنى

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 66.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 152، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 66.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخذ).
(4) الرّاغب، المُفردات: (أخذ).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 129.
(6) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤَصَّل: (سخر).

الاستخفاف للانقياد[1]؛ أيْ: جَعْلُ الآخَرِ محلّ خِفّة؛ كأنّ رغبةَ هؤلاء الكُبراءِ هي أن يُطيعَهم عبادُ الله في كلّ شيءٍ، ويخضعوا لهم ولو في معتقدهم، أو يتّخذوهم محلّ استهزاء وازدراء، وجاء لفظ ﴿سِخۡرِيًّا﴾ في صيغة مصدرٍ منسوبٍ إلى السّخر بياء النّسبة، والنّسبة تزيد الفعل قوّة[2]، إذ قُصِدَ بها المبالغةُ في حصول السّخر[3]؛ فاجتمعت مادَّةُ ﴿سِخۡرِيًّا﴾ وصيغتُها في تعميق النّظر إلى عباد الله بكلّ صورِ الخِفّة والاحتقار، واتّخاذ الأسبابِ للاستخفاف بهم.

التّوجيه البلاغيُّ لقراءتيْ ﴿سِخۡرِيًّا﴾:

استهزاءُ أصحابِ النّار من عباد الله ورغبتُهم في ردّ هؤلاء سَخَرَةً لديهم

في كلمة: ﴿سِخۡرِيًّا﴾ قراءتان متواترتان؛ فقد قرأ نافعٌ وحمزةُ والكسائيُّ وأبو جعفرٍ وخَلَفٌ ﴿سُخۡرِيًّا﴾ بالضّمّ، وتدلّ على معنى السُّخرية، كما تدلّ على معنى التّسخير، بينما قرأ الباقون ﴿سِخۡرِيًّا﴾ بالكسر؛ وهي على معنى السُّخرية خاصّة[4]، ويُفهَم من هذا التّنوّع في القراءات أنّ أصحابَ النّار كان مطمَحُهم الاستهزاءَ من عباد الله وطلبَ انقيادِهم واستسلامِهم؛ ليَتِمَّ تسخيرُهم لما يَخْدِم مصالحَهم.

دلالةُ حرفِ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في الآية:

السّخريةُ شُغلُهم الشّاغل إلى درجة أن صار سببًا لنسيان الحقّ

عبّر القرآنُ بحرف ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي﴾؛ ليَدُلّ على نهاية محدّدة؛ فقد اتخذتموهم سخريًّا إلى هذه الغاية، وهي نسيان ذِكْر الله ﷻ[5]، كأنّ اتّخاذ هؤلاء سخريًّا استمرّ وتعاظم إلى درجة أن صار سببًا لنسيان ذِكْر الله ﷻ.

سِرّ اصطفاءِ لفظِ النّسيان مادّةً وصيغةً:

عبّر القرآنُ بلفظ النّسيان في قوله: ﴿أَنسَوۡكُمۡ﴾، وفي اختياره

(1) الرّاغب، المُفردات: (سخر).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 205.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 129، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 130.
(4) أبو عُبيدة، مجاز القرآن: 2/ 62، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 587، وابن الجزري، النشر: 2/329.
(5) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 591، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 129.

دلالاتٌ باعتبار مادّته وباعتبار صيغته، فأمّا عن مادّته فالنّسيان يُطلَق على عدم تذكُّر شيءٍ كما يُطْلَق على إهماله وتَرْكه، وكِلا المعنيَيْن مقصودٌ في الآية؛ أحدُهما مُترتِّب على الآخر؛ فهؤلاء أهملوا ذِكْر اللّه ﷻ وتركوه حتّى صاروا لا يَنظرون إليه، فهل سيذكرونه؟ وجاء لفظ النّسيان في صيغة الفعل الماضي ليُشيرَ إلى أنّه حدث بعد أن لم يكن، وأنّهم كان لهم مجال لذِكْر اللّه ﷻ، إلّا أنّهم باشتغالهم بالسّخرية من هؤلاء تباعدوا عن ذِكْر اللّه فتركوه[1].

انشغالُ أهلِ الكفرِ بالسّخريّة من أهل الإيمان أنساهم ذِكْرَ اللهِ فأهملوه وتركوه

بلاغة المجازِ العقليّ في ﴿أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾:

أُسنِد إنساءُ المُتكبّرين ذِكْرَ اللّهِ ﷻ إلى عباد اللّه المؤمنين، وفي هذا مجازٌ عقليٌّ؛ بذِكْر الشّيءِ وإرادةِ سببه[2]، وفي هذا وجهٌ بلاغيٌّ رائقٌ؛ وهو الإبلاغ في إثبات أنّ الاشتغال بالسّخرية مِن أهل الإيمان يُنسي ذِكر اللّه ﷻ، حتّى كأنّ عباد اللّه صاروا فتنةً لهم، إذ أبعدوهم عن ذِكر اللّه فتركوه، ولم يكن عبادُ اللّهِ هم السّبب في ذلك، كيف وهم يُذَكّرونهم بالحَقّ؟! ولكنّه ذنبُ المُتكبّرين إذ جعلوا ما هو سببٌ لذِكر اللّه سببًا لنسيانه.

تحوّلُ سببِ التّذكير بالله إلى سببٍ لنسيانه بالسّخرية من أهل الحقّ

فائدة إضافة الذِّكْر إلى ضمير المُتكلّم:

عبّر القرآنُ بلفظ الذِّكْر مُضافًا إلى ضمير المُتكلّم ﴿ذِكْرِى﴾، وفائدة هذه الإضافة هي الإحالة إلى صاحب العقاب؛ أيْ: ذِكْرُ مَن ترجون الآن أن يُجيبَ دعاءَكم ويُخرجَكم من العذاب، وفي تلك الإحالة تقريعٌ لهم أيضًا، إذ تركوا ذِكْرَ مَن لا يُنسى[3].

الذي ترجونه أن يخرجَكم مِنَ النّار وتنسَونه في رعاية أوليائه هو الله

بلاغةُ الكناية في ﴿أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾:

تحمل عبارة ﴿أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ مستوياتٍ مِنَ المعنى؛ فهي تدلّ

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 158.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 587، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 591، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 129.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 205.

مَن ذَكر ربَّه خاف وعيدَه، ومَن خاف وعيدَه لم يسخر من أوليائه

على نسيان ذِكْر اللّه، وتدلُّ باللّزوم على ترك خوفِ اللّه[1]؛ على سبيل الكناية؛ فإنّكم لو ذَكرتُم ربَّكم لخِفتُم وعيدَه، ولو خِفتُم وعيدَه لما تجرَّأتُم على أوليائه[2]، وهذا هو المعنى الذي يَربط السّخريَةَ من عباد اللّه بنسيان ذِكْر اللّه ﷻ.

دلالةُ الواو في ﴿وَكُنتُم﴾:

عطفُ ترقٍّ في درجات الوقاحة

جملة ﴿وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾ عُطِفت على جملة ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي﴾ بالواو؛ وذلك على جهة التّرقّي في تصوير وقاحة أهلِ الكُفر مع أهل الإيمان، فلم يقف أمرُ المُتكبّرين عند حَدّ السّخريَة؛ بل تَعَدَّوه إلى أن يضحكوا من أهل الإيمان[3].

فائدة الفعل ﴿وَكُنتُم﴾:

الهُزْء جِبِلَّةٌ في هؤلاء المُتكبرين

وظّفت الآيةُ فعلَ الكون في قوله: ﴿وَكُنتُم﴾؛ للتّعبير عن موقع فعلِ الضّحكِ فيهم ومنهم؛ وذلك لإبراز أنّ هذا التّصرّفَ كالجِبِلّة فيهم أصيلٌ[4]، فطبعُهم الهُزْء، وعادتُهم التّفكّه بغيرهم، ومَن اشتغل بغيره أهمل نفسَه، فكيف إذا كان هازئًا ساخرًا؟! لقد أضاع هؤلاء حياتهم ومآلهم بذلك.

سِرّ تقديم الجارّ والمجرور ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ على الفعل:

شأنُ أهلِ الكفرِ الضّحكُ من عباد الله خاصّة

قُدِّم الجارّ والمجرور ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ على الفعل ﴿تَضۡحَكُونَ﴾ في قوله: ﴿وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾؛ للدّلالة على تخصيص محلِّ الضَّحك[5]؛ فليس أيُّ ضحكٍ كان، وليس ضحكًا عن أيٍّ كان؛ بل الضَّحكُ من هذه الفئة المُحدَّدة: عباد اللّه؛ مِمَّا ينبِّئ عن سبب الهُزْء والضّحكِ، وهو الإيمانُ باللّه ﷻ.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 205.
(2) الشّهاب، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 348.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 10169.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 191.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 191.

إيثارُ لفظ ﴿تَضۡحَكُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

فليَضحكوا قليلًا وليَبْكوا كثيرًا

أوثِرَ لفظُ الضّحك في قوله: ﴿تَضۡحَكُونَ﴾، وفي ذلك دلالاتٌ عديدة، فباعتبار مادّة اللّفظ؛ فالضّحكُ انفراجُ الفَم وظُهورُ الأسنان سرورًا، وأيُّ سرورٍ يشعرُ به هؤلاءِ حين يستصغرون عباد اللّه؟ إنّه سرور خيبتهم في حياتهم، فإذا أُضيف إلى ذلك دلالةُ صيغة اللّفظ - أيْ صيغة المضارع - على التّجدّد والاستمرار[1]؛ فهو ضحكٌ بعد ضحكٍ، ومعلوم أنّ الضّحكَ ليس بهيئةٍ غالبة على الإنسان؛ وإنّما السُّرور أنسبُ بمقامه، فإذا غلب عليه الضّحكُ فقد انحطّت منزلتُه؛ لأنّه يضحك فيما لا يَصِحّ الضَّحِكُ فيه[2].

علّةُ فصل جملة ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ﴾ عمّا قبلها:

الفصلُ لبيان نتائج الأعمال

فُصِلت جملة ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ﴾ عن جملة ﴿وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾؛ لبيان ما نتج عنِ الموقفَين، فالجملةُ استئنافٌ لبيان حُسْنِ حالِ المتّقين من عباد اللّه[3]، وفي الاستئناف معنى التّعليل؛ لإخراس المُخاطَبين في عذاب النّار؛ فالضّحكُ منهم سببٌ في خرسكم في النّار.

بلاغة توكيد الجملة في صدرها، والتّعبير بصيغة ضمير المتُكلّم:

التّوكيد دفعًا لإنكار المتُكبّرين بأنّ إيمانَ عباد اللّه فيه رجاءٌ وجزاءٌ

صُدِّرت جملة ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ﴾ بحرف التّوكيد (إنّ)، والتّعبير بضمير المُتكلّم؛ وذلك لزيادة توكيد المُجازاة؛ دفعًا لإنكار هؤلاء المُتكبّرين أنّ دعاءَ عبادِ اللّه باطلٌ لا مجيبَ له، بل إنّ اللّه يُجازيهم لا أحدَ غيره.

سِرّ التّعبير بالجزاء مادّةً وصيغةً:

جزاءٌ مكافئٌ كافٍ وثابتٌ مُتحقّقٌ

عبّرتِ الآيةُ الكريمة بلفظ الجزاءِ في قوله: ﴿جَزَيۡتُهُمُ﴾، وفي اصطفاء هذا اللّفظ سِرٌّ بديعٌ؛ فأمّا من حيثُ مادّته فالجزاء هو ما

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 234.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5124.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 268.

يقابل الجهْد والعمل والموقف[1]، وهو مقابلٌ مكافئٌ له مناسب، فإذا آمن هؤلاء وثَبَتوا ضِدّ كلّ ذلك الهُزْء والمعارضةِ؛ فإنّ مقابلَ ذلك جزاءٌ عظيم يُكافِئ جَهْدَهم ويناسبُه، ومن حيثُ صيغة الفعل (جزى) فقد جاء بصيغة الماضي ليَدُلّ على تحقّقه؛ أيْ إنّه كائنٌ لا محالةَ[2]؛ لأنّه كلامُ الباري الذي لا ماضي له ولا مستقبل، فالكلّ عنده حاضر.

فائدة الظّرفيّة في الآية:

ذُكر الظَّرف ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾؛ وفائدةُ ذلك الإحالةُ إلى يوم الخطاب، وهو عذاب المُتكبّرين في النّار؛ أيْ في الوقت الذي تكونون فيه في الجحيم، يكون هؤلاء الذين كنتم تتخذونهم سخريًّا في نعيمٍ مقيمٍ ورضوانٍ من اللّه تعالى، ينظر إليهم، ويكلمهم، ويزكيهم[3]، وهذا مِن شأنه أن يزيد في إيلام هؤلاء الكفّار أهلِ النّار.

اليومُ الذي يُعذَّب فيه المجرمون هو يومُ جزاءِ أهلِ الإيمان بالنّعيم

دلالةُ الباء ودخولُها على الصّبر خاصّة، ومجيئُه بصيغة الماضي:

أخبر اللّهُ تعالى أنّه في يوم الفصل يُجازي أهلَ الإيمان بصبرهم فقال: ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾؛ فجاء التّعبير عن ذلك بحرف الباء، وهي الباءُ السّببيّة؛ أيْ: بسبب صبرهم نُجازيهم[4]، ففي هذا اعتدادٌ بصبرهم، وتفخيمٌ له، كما أنّ مجيء فعلِ الصّبر بصيغة الماضي؛ للدّلالة على حدوث الصّبر منهم وتحقّقه، فبتَحقُّقه يتحقّق الجزاءُ، وفي ذِكر الصّبر سببًا للجزاء إدماجٌ للتّنويه بالصّبر؛ فهو تنبيهٌ على أنّ السّخرية من عباد اللّه ولَّدت فيهم الصّبرَ الذي أكسبهم وافرَ الجزاء[5].

بسبب صبرهم نالوا الجزاء، وبتَحقُّق صبرِهم تحقّق الجزاءُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 191.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 234.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5125.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 591، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 234.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 130.

دلالةُ حذفِ متعلّق الصّبر:

جزاءُ الصّابرين للصّبر ذاتِه

وعند ذِكْر الجزاء في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ حُذِفَ متعلّق الصّبر؛ والغرضُ من حذفه أن يتعلّق الجزاءُ بالصّبر ذاته، فجوانبُ الصّبر كثيرة، كالصّبر على العبادة، وكالثّبات على الحَقّ، وكالتّحمّل لأذى الخَلْق، فالصّبر يعمُّها كلَّها[1]، وبه يكون الجزاء.

موقع جملة ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بفتح همزة ﴿أَنَّهُمْ﴾ وكسرها:

كيف هو هذا الجزاء؟ وبماذا؟

أُردِفت جملةُ ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ بجملة ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، وقد قرأ بكسر الهمزة ﴿إِنَّهُمْ﴾ حمزةُ والكسائيّ، وقرأ الباقون ﴿أَنَّهُمْ﴾ بفتحها[2]، وموقع الجملة بفتح (أنّ) المصدريّةُ والتّأكيد؛ أيْ: جزيناهم بأنّهم هم الفائزون[3]، وعلى هذه القراءة حُذفَ حرفُ الباء؛ للإشعار بقوّة تسبُّب صبرِهم في فوزهم؛ فمِثْلُ صبرِهم يُؤدّي إلى ذلك الفوز لا محالة، وأمّا على قراءة الكسر فالجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لتفخيم هذا الفوز وتعظيمه، وهذا مبنيٌّ على أنّ قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ يُحَرِّك للسّؤال عن مناط جزائهم وحقيقته، فكانت جملة: ﴿إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ جوابًا عن ذلك السّؤال[4]، وفي كِلتا القراءتَيْن يظهر تحقيقُ معنى الفوزِ؛ دفعًا لأيّ شكٍّ وريبة في ذلك، فالذي يرى حالَهم في الدّنيا قد يَريبُه أنّ مآلهم الفوزُ؛ والمُتكبِّرون في تَرفٍ ومتعَةٍ، وهؤلاء في ضيق وشِدّة، فلا ترتابوا في ذلك فهؤلاء هم الفائزون، فيكون بين الجملتين كمال الاتصال على قراءة الفتح، وشبه كمال الاتصال على قراءة الكسر.

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 96.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/329.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 130.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 298.

بلاغة ضمير الغائبين ﴿هُمُ﴾:

قَصْرُ الفوزِ على عباد الله دون هؤلاء المتكبّرين

استُعمل في بيان هذا الجزاءِ ضميرُ الغائبين ﴿هُمُ﴾، والمَقْصِد منه تخصيص عبادِ الله بالفوز، فأولئك هم الفائزون خاصّةً[1]، فالفائزون يومَ الحسابِ هم هؤلاء لا أنتم[2]، وهو من القَصْر الإضافيّ[3]؛ لأنّ حصر الفائز هنا هو في سياق خطاب المُتكبّرين هو للإغاظة لهم أيضًا.

إيثار لفظ ﴿ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

الفائزون هم النّاجون والظّافرون بمُرادهم دون غيرهم

آثَرَ النّظمُ الكريم لفظَ الفوز في قوله: ﴿ٱلۡفَآئِزُونَ﴾، وفي إيثاره دلالاتٌ عديدة؛ فمن حيثُ مادّة اللّفظ؛ فالفوز يَدُلّ على معنى النّجاة والظّفر بالمُراد[4]، فدلّ ذلك على أنّ عباد الله قد نجحوا في الخير، فحَقَّقوا مُرادَهم، والفوزُ الأعظم هو فوزُ الآخرة، كما دلَّ أيضًا على أنّهم نَجَوا ممّا حاق بالمُتكبّرين، ومن نجا من ذلِكُم العذابِ فتِلْكُمُ النّجاةُ الحقيقيّة، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ [آل عمران: 185]، وأمّا من حيثُ الصّيغةُ فقد جاء لفظ ﴿ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ بصيغة الاسم؛ ليَدُلَّ على الثّبوت؛ فهم مَن يَحِقّ لهم الفوزُ الدّائم الثّابت[5]، وهم الفائزون حقًّا وبلا منازع.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

السِّخْريّة والسُّخريّة:

الاشتراك في الدّلالة على التّسخير، وخصوصيّة السُّخريّة في الاستهزاء

تتداخل (السِّخريّة) و(السُّخريّة) في أصل المعنى، وهو الخِفّة والانقياد بيُسر دونَ مقاومة[6]، ثمّ يظهر الاختلاف في المعنى بين

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 96، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 191.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 130.

(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 235.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 192.

(5) الشّهاب، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 348.

(6) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (سخر).

الاستهزاء والازدراء، ومصدرهُ السَّخَر، وبين الخِدمة، ومنه تسخير الإنسان للحيوان، ومصدرُه السُّخْرَة، ولئِن اختلف المعنى والمصدر؛ فإنّ ما يُميِّز بينَ اللّفظيْن هو دلالة لفظ (السُّخريّة) على المَعنييْن؛ أيِ: التّسخير والاستهزاء، واختصاصُ لفظ (السِّخْريّة) بمعنى الاستهزاء وحْدَه[1].

النّسْيان والترك:

الـغـالـب في الـتّرك القصدُ، والـغـالـب في النّسيان السّهو

إذا كان التّركُ معنًى من معاني النّسيان[2]، فليس كلُّ نسيانٍ تركًا ولا كلُّ تركٍ نسيانًا، فالتّركُ قد يكون بغير قصدٍ، وقد يكون بقصدٍ مع استحضار الذّهنِ واستذكارٍ كامل، والنّسيان قد يكون لغفلةٍ وسَهْو[3]، دونَ أن ينتُج عنه أثرُه، وهو الخطأ أو التَّركُ، وقد يكون لإهمالٍ مقصود، فيكون التّركُ في الأخير؛ فالتّرك لا يَنتُج دومًا عن نسيان.

الضَّحك والابتسام:

الضَّحكُ مَظهرٌ يُعَبِّر عن المَخْبَر، والـسُّرورُ حالةٌ من حالات المَخْبَر

أُخِذَ السُّرورُ منَ السِّرّ خِلاف الجَهر؛ وهو انشراحٌ في الصَّدر يُعَبِّر عنه المَظْهَرُ[4]، ويَظهر في صور متعدّدة كالبِشْر والتَّبسُّم، والضَّحِكُ مظهرٌ من مظاهر السُّرور، إلّا أنّه قد يكون للسُّرور، وقد لا يكون ثَمَّةَ سرورٌ ويكونُ الضَّحكُ، فالضّحِكُ قد يكون للسّخرية، وقد يكون للتّعجّب المُجرّد[5]، فالضّحِكُ مظهرٌ يُعَبِّر عن المَخْبَر، والسُّرور حالةٌ من حالات المَخبَر، ويظهر في صورة التَّبسُّم.

(1) أبو عُبيدة، مجاز القرآن: 2/ 62، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 587.
(2) الرّاغب، المُفردات: (نسي).
(3) الرّاغب، المُفردات: (نسي).
(4) الرّاغب، المُفردات: (سرر).
(5) الرّاغب، المُفردات: (ضحك).

﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤﴾ [المؤمنون: 112 - 114]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبۡلَها:

لمّا بيّنتِ الآياتُ السّابقةُ مَن هم الفائزون، وكان ذلك حسرةً على الكافرين[1]؛ جاءت هذه الآياتُ فسألت الكفّارَ عن مُدّة إقامتِهم قبلَ الآخرة[2]؛ لتُؤكّد لهم أنّ ما أقاموه في الدُّنيا قليلٌ مقارنةً بما ضيّعوا من خير الآخرة.

شَرۡحُ المُفۡرَداتِ:

1) ﴿سِنِينَ﴾: السُّنون جمعُ سَنَة، وتدلّ على مُدّة زمنيّة[3]، وتُطلَق على الحَوۡل؛ لأنّه يتضمّن جدبًا وخِصۡبًا ثمّ يعود الجَدۡبُ[4]؛ فهي امتدادٌ زمنيٌّ، سواءٌ أكان بخير أم بسوء، وإن غلب استعمالها في الجَدۡب[5]، ومعنى ﴿سِنِينَ﴾ في الآية: مراحلُ زمنيّة تُقَدَّر بالأعوام، ومعنى ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾: مقدارًا من السّنين.

2) ﴿ٱلۡعَآدِّينَ﴾: العَدُّ: هو إحصاء شيءٍ ما؛ كالأفراد والآيات، ويغلب على المعدود أن يكون مضبوطًا ومتماثلًا؛ أيۡ: من الشّيء نفسِه[6]، والعَدَد: هو مقدارُ ما يُعَدّ[7]، ويُقال: إنّهم ليَتَعادّون ويتعدَّدون على عشرة آلاف؛ أيۡ: يزيدون عليها[8]، ومعنى ﴿ٱلۡعَآدِّينَ﴾ في الآية: أصحاب العَدَدِ والحساب[9].

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 67.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5126.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سنه).
(4) الرّاغب، المُفردات: (سنه).
(5) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سنه).
(6) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عدد).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدد).
(8) الرّاغب، المُفردات، وجبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عدد).
(9) الرّاغب، المُفردات: (عدد).

❁ المَعنى الإِجْماليُّ:

يقول الحَقّ ﷻ بعد أن بكّتهم وهم في العذاب وبيّن لهم الفائز مِنَ الخاسر: كم مقدارُ السّنوات التي أقمتُموها في الأرض؟ وهنا يقولون في يأسٍ: أقمنا يَوۡمًا أَوۡ أدنى من ذلك؛ لقصر تلك المُدّة بجانب ما هم فيه من عذاب، لا ندري مقدارَها الحقيقيّ؛ فاسأل العارفين بالإحصاء والعدّ، فيأتيهم الجواب: لو كنتم تعلمون حقًّا لأدركتم أنّكم ما أقمتُم فيها إلّا وقتًا قليلًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصل صدر الجملة عمّا قبلها:

جوابٌ عن سؤال تقديره ماذا قال لهم ربُّهم عن حالهم السّابقة؟

ابتدأت الآية ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالقول مفصولة عمّا سبق، والعِلّة في ذلك أن الآية على تمام الوصل بما سبق، وهي جواب عن سؤال مقدّر: فماذا قال ربُّهم عن طغيانهم وفرحهم بحالهم؟؛ ذلك أنّ المتكبّرين اشتغلوا عنِ الفوز الحقيقيّ، وتاهوا في ضَحِكهم واستهزائهم، كأنّهم في تمام العِزّة والسّعادة والتّمكّن، فيأتي السؤال: ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾؟[2]

التّوجيهُ البلاغيُّ لقراءتي ﴿قَٰلَ﴾ و﴿قُلۡ﴾:

خبر لتقرير اللَّبث القليل، وأمر للمخاطب المستهزئ بدءًا والمعتذرِ آخرًا

في قوله: ﴿قَٰلَ﴾ قراءتان؛ قرأ جمهورُ القُرّاء: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ﴾ بالفعل الماضي، ويُحمل ذلك على الإخبار، فاللّهُ أوقفهم بالسّؤال ليَتقرَّرَ حينَها الجوابُ[3]، وقرأ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿قُلۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ﴾ خطابًا للكُفّار[4]، وفي ذلك ربطٌ بين مشهد السّخرية والضّحك وهم في الدّنيا، وبين مشهد العذاب بعد انقضاء مدّتها؛ والمعنى: فقل لهؤلاء المُستكبرين: كم كان لبثُكم في الأرض؟ وذَكّرهم

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 68.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 10169.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 158.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/330، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 592.

بذلك وهم في فُسْحَة مِن أمرهم، فجمعت القراءاتان بين بلاغة الخبر في قراءة الإخبار بالفعل الماضي، وبلاغة الإنشاء في البيان بفعل الأمر، فحجّة القراءة على الخبر عمّا هُو قائل، أو من أحب من عباده أو ملائكته للمبعوثين يوم القيامة سائلًا لهُم عن لبثهم بعد وفاتهم، وهُو فعل منتظر -وجرى بمعنى المُضيّ -؛ لأنّ أخبار القيامة - وإن كانت لم تأت بعد - فهي بمنزلة ما قد مضى إذ ليس فيما مضى شكّ في كَونه ووجوبه فَجعلت أَخْبَار القِيامَة في التَّحْقِيق كمَا قد مضى، وحجَّة من قَرَأَ ﴿قُلْ﴾ أَن المَعْنى فِي ذَلِك أَن أهل النَّار قيل لَهُم قُولُوا ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ على الأمر لَهُم بِأَن يَقُولُوا ذَلِك، فَأَخْرج الكَلَام على وَجه الْأَمر بِهِ للْوَاحِد، وَالمرَاد الجمَاعَة؛ إِذ كَانَ المَعْنى مفهومًا، وَالعرب تخاطب الْوَاحِد - ومرادهم خطاب جمَاعَة - إِذا عرف المَعْنى كَقَوْلِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار: 6] والمَعْنَى مُخَاطبَة جَمِيع النَّاس[1].

بلاغة الاستفهام بـ﴿كَمْ﴾:

جاء السّؤال في الآية: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾، والسّؤال بـ ﴿كَمْ﴾ سؤالٌ عنِ العَدد، ولا يقف عند الاستفهام، وإنّما يتجاوز ذلك إلى استقصار مُدّة لَبْثِهم[2]، والتّأسيفُ على ما أضاعوا من فُرص للاهتداء[3]، والتّبكيتُ والتّوبيخ[4]، فهم قد ظنّوا دوامَ حالِهم؛ فخاب ظنّهم لمّا شهدوا الآخرةَ دارَ الحياةِ الكاملة.

استقصارُ مُدّة اللّبث، والتّأسيفُ على تفريطهم، والتّوبيخُ على سوء ظَنِّهم

إيثارُ لفظ ﴿لَبِثْتُمْ﴾ مادّةً وصيغةً:

عبّر القرآنُ بلفظ اللّبث في قوله: ﴿لَبِثْتُمْ﴾، والسِّرُّ في اختيار هذا اللّفظ هو أنّ مادّته - وهي اللبث - تدلّ على إقامةٍ ممتدّة على حالٍ

كانوا قادرين على نفع أنفسهم، لكنّهم لم يفعلوا!

(1) ابن زَنْجَلة، حجة القراءات، ص: 493.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 153.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 192.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 298.

واحدة[1]، وهو ما يُشعر الكفّارَ بأنّهم مُتمكّنون في الأرض قادرون عليها[2]، وما ذلك إلّا لتصوّرهم بأنّ حالهم مستمرّة لا تنقطع، ومن ناحية أخرى فإنّ لفظ ﴿لَبِثْتُمْ﴾ يُشعر بانتهاء تلك المُدّة مهما طالت، لذلك فهي تُعدّ، فاللّبثُ هو انتظارٌ لانتقال؛ ليُشعِرَ بأنّ الإقامة في الأرض عبور وليست قرارًا، وقد نظم اللّبث فعلًا ماضيًا؛ ليَدُلّ على حصول اللّبث في زمن مضى.

نُكْتَةُ التّقييد بالجارّ والمجرور، وتقديمِه على المعدود:

لـلـدّلالـة على أنَّ المـقـصـود بالسّؤال إقامةٌ خـاصّـة، وهـي تمكينُ اللهِ لهم في الأرض

تعلّق فِعلُ اللّبث بالجارّ والمَجرور ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾، مقدّمًا على المعدود ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾، ونُكْتَةُ التّقديم هنا: هي بيان أنّ المقصود بالسّؤال هو إقامة خاصّة، وهي التي كانت في الأرض؛ ليَستحضِرَ المخاطَبُ بالسُّؤال الأرضَ والإقامةَ فيها، فهي ليست أيّ إقامة، ثمّ بعد ذلك ليُعَدّد سنواتِ هذه الإقامة، وهذا التّقديم مؤسَّسٌ على التّقييد بنفس الجارّ والمجرور: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على خلاف الظّاهر؛ لأنّ اللّبث لا يكون إلّا في الأرض، وسِرُّ ذِكْر القيد الإبلاغُ في تمكين اللّه إيَّاهم في الأرض؛ وهم في الدّنيا، ومعنى المُكث يدلُّ على أصل هذا التّمكين، والتّمكينُ في ذاته - بغضّ النّظر عن مُدّته - كان ينبغي أن يترتَّب عليه شُكرُ اللّهِ بتوحيده وعبادته، فكيف إذا كان عددَ سنين؟! لكنّهم رتّبوا عليه عكسَ ذلكَ.

تعدُّد دلالةِ الجارِّ والمجرور ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وبلاغتُه:

في الـظّـرفـيّـة الـخـاصّـة لحرف الـجَـرّ، واتّساعِ دلالـةِ الأرض، إيجازٌ بديع

تعدّدت دلالةُ الجارّ والمجرور في الآية؛ وذلك تبعًا للظّرفيّة الخاصّة في حرف الجَرّ، واتّساع دلالةِ الأرض؛ إذ يُطلَق لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ على الحياة الدّنيا؛ لأنّ مجالها هي الأرض، فيتعلّق الجارُّ والمجرور بفعلٍ محذوفٍ تقديرُهُ: حَيِيتُم[3]، ويكون السّؤالُ عن مُدّة

(1) الرّاغب، المُفردات: (لبث).
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 193.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 82.

الحياة الدّنيا للذين يعتقدون بأنّ حياة التّرف دائمةٌ لا تَبيد أبدًا، وتُطلَق الأرضُ على البسيطة التي يحيا عليها الإنسان، ومع ملاحظة حرف ﴿فِي﴾ الذي يدلّ على الظّرفيّة والإحاطة، فيُشير الجارُّ والمجرور حينَها إلى القبر؛ أيّ: داخل الأرض، ويكون تقدير الفعل المحذوف: دُفنتُم، ويكون السّؤال لهم بعد أن قاموا من الأرض: كم لبثتُم في جوفها؟ للذين يُنكرون البعثَ، ويعتقدون أن آخرَ حياتِهم إلى تراب[1]، والآيةُ تحتمل السّؤالَين، فتتعدّد معها الدّلالات، فكم حَييتم في الدّنيا؟ وكم بقيتم فيها موتى ثمّ حَييتم؟.. وهذا ضرب من الإيجاز بديعٌ.

فائدة قوله: ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾، ودلالتُه:

المســؤول عنه هـو مِـقـدارٌ من الـسّـنـوات، لا الشّهور والأيام

جاء السّؤال بـ ﴿كَمۡ﴾ مُقترنًا بقوله: ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾؛ فصار المطلوبُ الأوّلُ من السّؤال هو العَدّ، فـ ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ تمييزٌ للسّؤال[2]، لِما في ﴿كَمۡ﴾ من الإبهام[3]، وقد جاء السّؤال عن عدد السّنين لا عن الشّهور ولا الأيام؛ لأنّ أصل المُكْث أن يُقَدّر بالمُدَد الطّويلة لا القصيرة، ممّا يكون الوعيُ بها، بخلاف المُدد القصيرة[4]، ومجاراةً لِما في اعتقاد الكفّار بِطول أَمَدهم، ودوام النّعمة فيهم، فكم هي المُدّة التي قضّيتموها حتّى تغفلوا عمّا بعدها، أو تستبعدوها، وحتّى تستهزؤوا بمَن يُعِدُّ لما بعدَها.

بلاغة الكناية في السّؤال بـ ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

السّؤال عن مُدّة اللّبث، والمقصدُ بيانُ محدوديّة الحياة وسرعةِ انقضائها

يُلْحَظ في السّؤال بـ ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أنّه في الظّاهر سؤالٌ عن المُدّة؛ أيّ عدد السنوات، بما يوافِق جوابَهم بعدَه، ولكنّه يدلّ بطريق الكناية على معنًى آخَر؛ فإذا كان السّؤال في الآية عن حياة

---

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 158.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 97.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 591.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5126.

وإقامة خاصّة هي حياةُ التّنعّم والتّرف التي أدّت بهؤلاء المُتكبّرين إلى الاستهزاء بعباد الله، فتلك الحياةُ هل كانت طويلة؟ وهل دامت؟ فكان السّؤال عن العَدّ، وكان المقصودُ هو بيان محدوديّتها وسرعةِ انقضائها، وإذا كان السّؤال عن مُدّة بقاء الإنسان ميّتًا في قبره، فهو سؤال عن مُدّة الانتظار فيها قبلَ البعث، ويتضمّن بالتّبع إلجاءَهم إلى الاعتراف بقُبح اعتقاد استحالة البعث[1].

عِلّة فصلِ صدر الجملة عمّا قبلها:

جوابٌ عن سؤال تقديرُه فماذا كان جوابُهم؟

فُصِل صدرُ الجملة ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾ عمّا سبقها؛ لأنّ السّابق هو سؤال، فتكون هذه الجملة جوابًا، ويُقَدَّر سؤالٌ محذوف هو: فماذا كان جوابُهم؟ على عادة القرآن في الفصل بينَ الأقوال في المحاورات[2].

فائدةُ تكرارِ لفظِ اللّبث:

انضباطٌ بأصل المُحاورة، وخضوعٌ تامّ لملك الملوك

جاء الجوابُ: ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾، ويُلْحَظ تكرارُ لفظِ اللّبث في: ﴿لَبِثۡنَا﴾؛ فقد ذُكر في السّؤال الموجّه إليهم من قبلُ: ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ﴾؛ وفائدةُ ذلك: تعلّق الإجابةِ بأصل السّؤال، وهو ما يُشْعِر بانضباطٍ تامٍّ، فلا كلامَ يخرج عن النّسق، وفي ذلك خضوعٌ تامٌّ للمَلك الدّيّان، يجعلُهم يُكَرّرون نفسَ اللّفظ.

دلالة حرف ﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾:

الاستدراكُ بمُدّةٍ أقلّ لضآلتِها

وقع التّردّد في جواب المُتكبرّين: ﴿يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ بحرف ﴿أَوۡ﴾، وكما يدلّ ذلك على التّردّد الحاصل لهم، يدلّ على التّدرُّج من الأعلى إلى الأدنى، فهو في معنى الاستدراك؛ أيّ: يومًا بل بعضَ يوم[3]، وهو ما يُشير إلى ضآلة المُدّة التي يشعر هؤلاء بأنّهم لبثوها،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 131.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 131.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 236.

وذلك لأنّهم كانوا فيها يتمتّعون ويرتعون في الحرام، فكانت قصيرةً في نظرهم[1].

بلاغة الإظهار بدلَ الإضمار في ﴿يَوۡمٍ﴾:

كان من الممكن أن يكون جوابُهم: (لبثنا يومًا أو بعضَه)، لكنّهم أظهروا اليوم بدل أن يُضمروه؛ وما ذلك إلّا لكمال تقرّر مقدارِ اليوم حدًّا أقصى في أذهانهم[2].

بلاغة الكناية في ﴿يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٍ﴾:

تعجيلُهم بالإجابة بقلّة الأيام إشارةٌ إلى رغبتهم في التّخلّص من العذاب

يدلّ جوابُ المُتكبّرين: ﴿يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٍ﴾ على تحديد مُدّةٍ معيّنة في جوابٍ مباشر عنِ السّؤال، ويشير أيضًا إلى المعنى اللّازم عنه، وهو قِلّةُ تلك المُدّة التي لبثوها في الأرض[3]، وفي التّعجيل بالإجابة بقِلّة الأيام إشارةٌ إلى رغبتهم في التّخلّص من العذاب، فظنّوا أنّ مُدّة لُبثِهم في النّار ستكون بمِقدار مُكثِهم في الدّنيا، ثمّ زادوا في التّقليل فقالوا: ﴿أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٍ﴾[4].

دلالة التّقابل بين الأيام والسّنين:

في الآخرة تنكشف الحقائق

كان السّؤال عن السّنين، بينما جاء الجوابُ ﴿يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٍ﴾، وبينَ السّؤال والجواب بونٌ شاسع، وتقابلٌ بين مُدّة سنةٍ ومُدّة يوم، وهو كشف عن تلك المفارقة البعيدةِ لحساب أيامِ اللّبث في الأرض، بين شعور المُتكبّر في الدُّنيا، وشُعوره بعدَ أُفولِ تلك الأيام، إنّها ليست شيئًا بعد أن طويت صفحتُها، وهكذا ما يمضي من عُمُر الإنسانِ، إنّه مهما طال وامتدّ - إذا نظر إليه الآن - كان شيئًا قليلًا[5].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير، ص: 5126.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 236.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 237.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 13/ 193.
(5) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1181.

تكرار الجواب بـ ﴿يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٍ﴾:

تشابهُ جوابِ فاقدِ الشّعور؛ لنومٍ أو فزَعٍ أو موتٍ

جاء نفسُ الجوابِ عن سؤال اللّبث في مواضع منَ القرآن الكريم، كما هو جوابُ صاحب القرية: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ﴾ [البقرة: 259]، وجوابُ أصحاب الكهف: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾ [الكهف: 19]، وهو أقربُ إلى شعور الطّاغين من أصحاب النّار: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ٤٦﴾ [النّازعات: 46]، ولعلّ الجامع المشترك بين هذه الحالات هو عدمُ الشّعور بالزّمن؛ فالنّائمُ لا يدري المُدّة التي نامها؛ إذ أقصى نوم المَرءِ أن ينام يومًا أو بعضَ يوم[1]، وقريبٌ منه الميتُ إذ لا يشعر بأيامٍ ولا يعيش أحداثًا، وينطبق الأمرُ نفسُه على أصحاب النّار؛ لأنّ أهوالَ العذاب أنستهم ما كانوا فيه من مُتَعٍ، وما انغمسوا فيه من شهوات[2]؛ بل إنّ جوابَ أصحاب النّار يُنبئُ عن حالٍ أقربَ ما تكون إلى الأموات إن لم يكونوا أمواتًا حقًّا، ألم يكن هذا جوابًا عن سؤال الموتى: ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؟ فقالوا: ﴿يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾[3]، فكان ظاهرُ الأرضِ وباطنُها لهم سواء؛ حين ضيّعوا الإعدادَ بحُسْن العمل.

دلالة الفاء، وبلاغة السّؤال في ﴿فَسۡـَٔلِ﴾:

تفريعٌ على التّردُّد، وكشفٌ عن ذُهولٍ وقِلّة وعيٍ

أحال المُتكبّرون الجوابَ على العادّين، باستعمال الفاء وسؤالِ العادّين، ويدلّ حرفُ الفاء على تفريع السّؤال عن التّردّد الحاصل في جوابهم السّابق[4]، فأحالوا ذلك على مَن يُحْسِن العَدَّ[5]؛ أيْ: فاسأل المُتمكّنين من معرفة المُدَد[6]، وهذه الإحالةُ تُنبئُ عن ذهول

---

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 10170.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 68.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 10170.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 131.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5126.
(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 68.

هؤلاء، فهم لم يَعوا كم هي مُدّة إقامتِهم في الأرض، وهو أمرٌ مَعيبٌ أن يغرق أحدُهم في يومه فلا يشعر بجوانب كثيرةٍ في يومه، بله أن يشعر بِغَدِه!.

إيثار لفظ ﴿ٱلۡعَآدِّينَ﴾ مادّةً وصيغةً:

العَدُّ يتطلّب تتبّعَ الأعمالِ والأحوالِ والأزمان، وما يطيقُه إلّا أهلُ الاختصاص

آثَرتِ الآيةُ لفظَ ﴿ٱلۡعَآدِّينَ﴾، وفي ذلك دلالاتٌ عديدة تتعلّق بمادّة اللّفظ وصيغتِه، فأمّا عن مادّة ﴿ٱلۡعَآدِّينَ﴾؛ فهي منَ العَدّ وهو الإحصاء لتحديد المِقدار، ويقتضي العَدُّ تتبّع السّنوات سَنةً سَنةً[1]، وهو ما يُنبِئ عن وعيٍ بعُمُر الإنسان وما يكون عليه حالُه، أو ما مضى على وفاته حتّى يتمّ تتبعُه، وأمّا عن صيغة ﴿ٱلۡعَآدِّينَ﴾؛ فقد جاءت بصيغة اسم الفاعل الذي يدلُّ على رسوخ الوصف، فهذا العملُ مُضنٍ ولا يقوم به هؤلاء المُتكبّرون؛ لاشتغالهم بمُتَعِهم والاستهزاء بالمتّقين، وليس مِن همّهم، وما حاجتُهم إلى العَدّ؟ وقد كَمُلَت حياتُهم! فليَقُم به أهلُ الاختصاص ممّن شأنُه العَدّ والإحصاء[2]، كما يقوم بهِ الملائكةُ الذين يُحصون أعمالَ الإنسان؛ وهو وجه من أوجه تفسير الآية.

علّة فصل صدر الجملة، ولفظ القول خاصّة:

التّشوّفُ إلى معرفة جوابِ اللّه بعدَ جوابهم

فُصِل صدرُ الجملة ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾ عن سابقه، وابتدأتِ الجملةُ بلفظ القول، وهو استئناف بيانيٌّ، فمَن سمع ذلك الجوابَ يتشوّفُ إلى معرفة جواب اللّه بعد جوابهم[3]، كأنّه جوابٌ لسؤال محذوف، تقديره: فماذا أجابَهم المَلكُ الدّيّان؟ ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾ على طريقة محاورات القرآن الكريم[4].

التّوجيهُ البلاغيُّ لقراءتي ﴿قَٰلَ﴾ و﴿قُلۡ﴾:

تنوع أزمنة الأفعال يدلُّ على الحال والمآل:

في قوله تعالى: ﴿قَٰلَ﴾ قراءتان؛ قرأ جمهورُ القُرّاء: ﴿قَٰلَ إِن

(1) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (عدد).
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5126.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 194.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 131.

﴿لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾ بالفعل الماضي، ويُحمل ذلك على الإخبار، فاللّهُ أوقفهم بالسّؤال ليَتقرَّرَ حينَها الجوابُ[1]، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿قُلۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾ خطابًا للكُفّار[2]، فجمعت القراءاتان بين بلاغة الخبر: في قراءة الإخبار بالفعل الماضي، وبلاغة الإنشاء: في البيان بفعل الأمر.

سِرّ تكرارِ لفظ اللُّبث:

تكرّر لفظُ اللُّبث ثلاثَ مرات في الآيتَيْن الأخيرتَيْن، ولعلّ السِّرَّ هنا هو مزيدُ التّقرير؛ فالتّكرارُ ترسيخٌ لمعنًى مُعيّن في أذهان الكفّار؛ وهو أنّ المقام في الأرض إنّما هو لبثٌ مؤقتٌ سرعانَ ما ينتهي، لينتقلَ المَرءُ إلى الإقامة الحقيقية، ولعلّ ممّا يُؤيّد هذه الدّلالة مجيءُ الحصرِ بـ ﴿إِن﴾ و﴿إِلَّا﴾؛ ليكونَ الكفّارُ على يقينٍ بهذا المعنى.

تكرّر لفظُ اللّبثِ ليرسّخَ في الذّهن أنّ الحياة محطةُ عبورٍ لا قرار

دلالة ﴿إِن﴾ وأداةِ الاستثناء في: ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾:

جاء ذِكْرُ معنى اللّبثِ القليلِ بأسلوبِ الحصر بـ ﴿إِن﴾ وأداةِ الاستثناء ﴿إِلَّا﴾، وأصل الجملة: (لبثتُم قليلًا)، ويدلّ الحصر هنا على ردّ أيِّ اعتقادٍ لديهم بخُلود حياتهم المُترفة في الدّنيا، أو اعتقادِ عدمِ إحياء الموتى بعد قبرهم، ويدلُّ أيضًا على التّوكيد؛ حسمًا في الموضوع، وإبعادًا للتّردُّد الحاصل لديهم، وطلبَ سؤالِ العادّين، وإذا دَلّ الأسلوبُ ﴿إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾ على قِصَر المُدّة التي لبثوها في الأرض، فإنّ ذلك يخالف الواقع، إذ لبثوا عُمُرًا في الدّنيا، وزمنًا في القبر، وهو ما يُشعر بدلالة أخرى يقتضيها القِصَر هنا، وتقديرُها: بل لبثتُم أعمارًا وقرونًا، وإن لبثتُم إلّا قليلًا عند اللّه سبحانه[3]، فإنّها مُدّة من القِلّة بحيثُ لا تُسَمّى؛ بل هي عدم[4].

الحصر والتّوكيد لردّ أيِّ اعتقادٍ لديهم بخُلود حياتهم المُترفة، أو عدمِ الإحياء بعد الموت

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 158.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/330، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 592.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 133.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 195.

القليلُ عدمٌ

إيثار لفظِ ﴿قَلِيلٗاۖ﴾ ودلالتُه:

آثَرَت الآيةُ لفظَ ﴿قَلِيلٗاۖ﴾؛ للتّعبير عن مُدّة لُبثِهم في الأرض، وللدّلالة على النّقص والانعدام؛ ممّا يزيد المُدّةَ قِصَرًا ومحدوديّةً؛ حتّى عُبِّر بالقِلّة عن العَدَم، وكأنّ الخِطاب يُشير إلى القِلّة باعتبار الآخِرة، فتَتَضاءَلُ مُدّةُ لبثِهم في الأرض، وتتناقَصُ إلى أن تؤول إلى أنّها لا شَيء.

لم يَعوا بمُدّة اللُّبث في الأرض؛ لتحقُّق امتناعِ علمهم بالآخرة

دلالةُ ﴿لَّوۡ﴾، ودخولُها على ﴿أَنَّكُمۡ﴾:

في قوله تعالى: ﴿لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، عبّر بحرف ﴿لَّوۡ﴾؛ وهو حرفُ امتناعٍ لامتناع، فامتنعَ علمُهم بالآخرة وما فيها من نعيم مقيم أو عذابٍ خالد شديد، فجَهِلوا مُدّة مقامِهم في الأرض، فإنّه مهما طال فهو قليل[1]، وزاد ذلك تأكيدًا دخولُ ﴿لَّوۡ﴾ على ﴿أَنَّكُمۡ﴾، فدلّت على ثبوت عدمِ علمهم وتحقّقه، فتحقّقَ لأجل ذلك امتناعُ وعيهم بمُدّة لُبثهم في الأرض.

جهالةٌ كالجِبِلَّة فيهم

فائدة لفظ ﴿كُنتُمۡ﴾:

جيء بصيغة الكون الماضي في قوله: ﴿لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ﴾؛ وكان من الممكن أن يُقال: (لو تعلمون)، أو: (لو علمتُم)؛ وذلك للتّأكيد على امتناع علمهم[2]، وما بالجِبلَّة لا يتخلّف، فقد دأبوا على ترك العِلْم وعدمِ الوعي بالأمور، وصار ذلك دَيْدَنًا لهم، وهو ما يُشعِر بانطماس الوعي فيهم، وانحطاطِ هِمَّتهم؛ حتّى صار ذلك كالجِبِلّة فيهم[3].

فَسْحُ المجالِ للمقارنة بينَ الحياة الدّنيا والدّار الآخِرة

بلاغةُ حذفِ جواب الشّرط:

حذفَ القرآنُ جوابَ ﴿لَّوۡ﴾؛ ثقةً بدلالة ما سبقها[4]، وتكمُن بلاغةُ الحذف هنا في فسح المجال للتّقدير؛ بناءً على المقارنة بينَ الدّنيا

---

(1) الصّاويّ، حاشية على الجلالَيْن: 3/ 105، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5127.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5127.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 195.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 153.

والآخرة[1]، متاعٌ قليلٌ ونعيمٌ دائمٌ، وشدائدُ عابرةٌ وعذابٌ مقيمٌ؛ أيِّ: (لو كنتُم تعلمون لما أخلدتُم إلى الفاني وآثَرتُموه على الباقي، ولكُنتم أقبلتُم على ما ينفعكم)[2].

إيثارُ لفظِ العِلْم مادّةً وصيغةً:

عـدمُ الـوعـي بالأُمور وتمييزِها رغـمَ الـتّـذكـرة المُتكرّرة

في قوله تعالى: ﴿لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، عبّر بلفظ العِلْم؛ فأمّا عن مادّته؛ فالعِلْم يدلّ على التّعرّف على الأشياء في ذاتها بعلاماتها، لا كما يعتقدُه النّاسُ فيها، والمقارنةِ بينَها وبين غيرِها تمييزًا لها، ويُثْمِرُ العِلْمُ حُسنَ التّعاملِ معها، وكلّ ذلك غائبٌ عند هؤلاء المُتكبّرين، فلم يعدّوا للمُكث مُدّة، ولا للحَقّ قيمة، ولا للمآل عُدّة، وأمّا صيغةُ المضارع فدالَّةٌ على التّجدّد، ففيها ما يُشْعِر بقابليتهم للتّعلّم، ومواتاة الفُرصِ لهم بالتّذكرة والوَعي، فما كان منهم إلّا الصّدود.

سِرُّ حذفِ مفعول ﴿تَعۡلَمُونَ﴾:

قَصْدُ العِلْم بكلّ ما مِن شأنه أن يعصم من سوء المآل

في حذف مفعول العلم دلالتان؛ الأولى: فسحُ المجالِ لتقدير مفاعيلَ عديدةٍ ممّا يصِحّ أن يُعْلَم؛ ليَعصِم من سوء المآل، بمعرفة إمكان البعث والحشر[3]، ومعرفة الدّار الآخرة وطولِ عذابها[4]، وحقيقةِ الدّنيا وحدودِها؛ بل إنّ كنتُم تعلمون شيئًا من العِلْم[5]، والدّلالة الثّانية: قصدُ فعلِ العِلْم نفسِه، فقد نُفيَ العِلْمُ نفسُه، فيكون المقصودُ: لو كنتُم تحاولون التّعلّم، وتقصدون إلى معرفة الأمور.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

اللّبْث والمُكْث:

المُـكْـثُ بـقـاءٌ في مـكـان، والـلّـبثُ انتظار زمانٍ

المُكْثُ واللّبثُ كلاهما يَدلّان على استقرار، ولكنّهما يختلفان من

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 589.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 195.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 299.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 10171.
(5) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 592.

حيثُ إنّ المُكْثَ استمرارٌ في مكان[1]، بينما اللّبثُ استقرارٌ لمرحلةٍ زمنية، قال تعالى: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا﴾ [يونس: 16]، إضافةً إلى أنّ المُكث غيرُ محدَّد، بينما يتحدّد اللّبث بزمنٍ مُعيّن، فالمُكثُ بقاءٌ واللّبثُ انتظارٌ.

السّنة والعام:

السّنَةُ لشِدّةٍ في الحَوْل، والعامُ لخيرٍ فيه

السُّنونَ جمعُ (سَنَة)، والأعوام جمع (عام)، وما يجمع بينَ السّنَةِ والعامِ هو أنّهما يعبّران عن مُدّة زمنيّة هي الحَوْل، فتُطلَق السّنَة على المِقدار الزّمنيّ الذي يُشير إلى الجَدْب الذي يلحَقُه رَبعٌ ويلحقه جَدْبٌ، ويظهر الفرقُ بينهما: في أنّ الغالبَ في السّنَة ذِكْر ما فيها من شِدّةٍ كالجَدْب، حتّى صحّ تسميةُ الجَدْب بالسّنَة، وأنّ الغالب في العام ذِكْر ما فيه من خير، حتّى سُمّي العامُ بحَدَثِ خيرٍ فيه كعام الفيل[2].

القَليل واليسير:

القِلّة نقصٌ، والقليلُ هيّن، فهو يسير

يقتربُ إلى مفهوم القليل مفهومُ اليسير، فيدلُّ كلُّ واحدٍ منهما على الشّيء الضّئيل، ويختصّ (القليل) بالدّلالة على النّقص إلى درجة الانعدام، بينما يدلّ اليسيرُ على السّهولة في الشّيء القليل، لذلك فالقليلُ يُشير إلى النّقص في المعدود، واليسيرُ يُشير إلى التّعامل معَ القليل[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 193.
(2) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 147.
(3) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (يسر).

﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥﴾

[المؤمنون: 115]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عدمُ عِلْم الكفّارِ بقِصَر الحياة حتّى فقدوا الحِكْمة

بعد أن بَيّن تعالى قِصَر مُدّةِ الحياة الدّنيا مقارنةً بالآخرة، وأخبر عن جَهْل هؤلاء المُتكبّرين بهذه الحقيقة حتى حَسِبوا أنّ حياتَهم عبثًا بلا حِكمةٍ ولا مساءلةٍ[1]؛ أكّد تعالى بأنّه إنّما خلق الخَلْقَ لحِكمةٍ وقصدٍ، وأنّهم سيُردّون إلى اللّه تعالى للمُساءَلة والجزاء[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَبَثٗا﴾: أصل كلمة العَبث: الخَلْط[3]؛ وهو القيام بفعل عشوائيٍّ[4] دونَ ضبطٍ[5] ولا قَصْدِ غرضٍ صحيح[6]؛ فهو فعلُ ما لا فائدةَ تُرجَى منه[7]، يقول سبحانه: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ١٢٨﴾ [الشّعراء: 128]؛ أيّ: بغير قصدِ غرضٍ صحيح، ومعنى ﴿عَبَثٗا﴾ في الآية: بلا قَصْدٍ ولا حِكمة.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الاغترارُ بالدُّنيا أفْقَدَهمُ المَقصد

لقدِ اغتررتُم بالدُّنيا رغمَ أنّ لُبْثَكم كان فيها قليلًا، فهل حسبتم أنّنا أوجدناكم في الأرض بلا حِكْمةٍ ولا قَصْدٍ؟! وهل اعتقدتُم أَنَّكُم إِلَيْنا لا تُردّون للمُساءَلة والجزاء؟![8].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5127.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 69.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبث).
(4) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (عبث).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبث).
(6) الرّاغب، المُفردات: (عبث).
(7) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 269.
(8) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 69.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاء في ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ﴾:

ترتُّب الاستفهام على الاغترار بالمُقام في الأرض رغمَ ضآلتِه

جيء بالفاء في قوله: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ﴾ وهي مؤخَّرةٌ عن تقديم؛ لأنّ أداةَ الاستفهام لها الصّدارة[1]، وتدلُّ الفاء بهذا على ترتيبِ السّؤال على ما قبلَها، ولولا الفاءُ لَما ظهرت العلاقةُ بين جملة ضآلةِ المُقام في الأرض وبين جملة الاستفهام؛ فهي للعطف على جملةٍ محذوفةٍ تُعتَبر القنطرةُ بينَ الجُملتيْن، وتقديرُها: (أَغَرَّتْكُم الحياةُ الدُّنيا فحَسِبتُم أنّما خلقناكم عبثًا)[2].

بلاغةُ الاستفهامِ في صدرِ الآيةِ:

استفهامٌ تقريرٍ وإنكارٍ وتوبيخٍ

ابتدأتِ الآيةُ بالاستفهام: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا﴾، وهو استفهامُ تقريرٍ لما يعتقِدُه هؤلاء المُتكبِّرون، إذِ اتّخذوا عبادَ اللّهِ هُزوًا، ولم يَعتنوا بالإعداد للآخرة رغمَ قِصَر الدّنيا، فكأنّ فِعالَهم تدلّ على أنَّهم يعتقدون ذلك[3]، وهو استفهامُ إنكارٍ وتوبيخٍ على هذا الاعتقاد الذي لا يقول به عاقلٌ، بله أن يكون مُبرّرًا بين يدي العذاب[4].

إيثارُ لفظِ (حسب) دون (ظنّ):

الحِسْبانُ موقفٌ دونَ تأمُّلٍ ونظرٍ

آثَرت الآية في قوله: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ﴾ لفظَ (حسِب) دونَ لفظ (ظنّ)، وذلك لأنّ (حسِب) أقربُ إلى اعتقاد شيءٍ والتزامِه، دونَ أن يكون مَبنيًّا على تأمُّلٍ ونظرٍ، بخلاف (ظنّ) الذي يغلب عليه الاعتبارُ والنَّظر في جوانب المُعْتَقَد[5]، فيُصبِحُ الحِسْبانُ أقربَ إلى الوَهم والخطأ[6]، وهو ما يُلْقي اللّائمةَ على هؤلاء؛ فهم لا يعلمون، وبَنَوا حياتَهم على وهْمٍ، وحقًّا إنّه العبثُ أن يعتقِد المَرء أنّ خَلْقَه كان عبثًا!

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5127.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 68.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 133.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5127.
(5) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (ظنن).
(6) الرّاغب، المُفردات: (حسب).

غرضُ الحَصْر بـ ﴿أَنَّمَا﴾:

يَحسبون أنّ العبثَ هو المَقصِد من الخَلْق

في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا﴾ دخلت ﴿أَنَّمَا﴾ فدلّت على الحَصْر[1]، والمعنى: أظننتُم أنّنا ما خلقناكم إلّا لأجل العَبَث؟! فأُفرغ الخَلْق من أيّ حِكمةٍ وقَصْدٍ؛ بل صار القَصْد من الخَلْق هو العَبَثُ، وهو ما يُظْهِر قُبحَ هذا الاعتقادِ السّلبيّ الذي تَمَثَّل في تَصرُّفاهم.

إيثارُ الفعلِ ﴿خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ مادّةً وصيغةً:

الحدوثُ في زمانٍ بمقدارٍ وإتقانِ صُنعٍ يستحيل أن يخلوَ من قَصْدٍ

آثَرَتِ الآيةُ فعلَ الخَلْق في قوله: ﴿خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾؛ وذلك لدلالة مادَّته وصيغته؛ فأمّا مادّتُه: فالخَلْقُ إيجادٌ وتقديرٌ على غير مثال[2]؛ فتدلّ على الإيجاد كما تدلّ على الموجد وتمام إتقان صُنعِه، وكِلا الجانبَيْن يستحيل أن يخلو من قَصْد، وأن يكونا عبثًا فارغًا بلا معنًى؛ بل بالعكس تمامًا، فمَن خَلَق شيئًا حَدَّد له بدايةً ومقصِدًا ونهايةً؛ بل هو أدرى بدواخله وكمالِه ونقصِه، وأيُّ تعامل مع المخلوق بعيدًا عن إرادة خالقه فهو خروج عن المعقول ودخولٌ في العبث، وأمّا عن صيغته: فقد جاء بصيغة الماضي مع أنّ أصلَها المصدرُ المُنسبكُ من (أن) والفعل؛ أيّ: (خلْقكُم)، فعَدَل إلى الفعل لدِلالته على حدوث الخَلْق، فهو حدثٌ سبقَه العَدَمُ.

إيثارُ لفظِ ﴿عَبَثٗا﴾ مادّةً وموقعًا:

حِسْبانُ المُتكبِّرين حَمَلَهم على جَعْل ما لا يصِحّ مَقْصِدًا مَقْصِدًا

عبّر القرآنُ بلفظ (العبث) في قوله: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا﴾؛ فأمّا مادّة اللّفظ فهو خُلو الفعلِ من قَصْدٍ وفائدةٍ، والفعلُ بلا فائدةٍ لعبٌ[3]، وهو ما قاله سبحانه في آيةٍ أُخرى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ١٦﴾ [الأنبياء: 16]، والفعل الخالي من القَصْد لغوٌ، وكِلا المَعنيَيْن لا يتّفقان أبدًا مع دلالة الخَلْق، وقد وقع قولُه:

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 133، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5127.
(2) الرّاغب، المُفردات: (خلق).
(3) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عبث).

﴿عَبَثًا﴾ موقع المفعول لأجله؛ وصار العبث مفعولًا للخَلْق، والتّقدير: أفحسبتم أنّ القصد من خلقكم العبث؟! وهو خطابٌ فاضحٌ موبِّخٌ، إذ جمعَ حسبانهم بين ما لا يصحّ جمعُه، وما لا يصِحّ مَقصدًا جعلوه مقصدًا، ومجيء لفظ ﴿عَبَثًا﴾ في هذا الموقع جعل محلَّه الإعرابيّ مُتعدِّدًا، فأُعرِب حالًا بتقدير: أنّا خلقناكم عابثين[1]؛ ولأجل ذلك تنوّع المقصودُ بالحاليّة: فقُصِد الخالق؛ ويكون حالُ الخالق حين خَلْقه لهم عابثًا وحاشاه؛ أيّ: (أفحسبتم أنّا خلقناكم حين خَلقناكم عابثين)، وهو أقربُ إلى إعراب ﴿عَبَثًا﴾ مفعولًا لأجله[2]، بتقدير: (أنّا خلقناكم للعبث)؛ فانتفى أيُّ قصدٍ في الخَلْق، وأيُّ فائدة منه، وأمكن أيضًا أن يكون المقصود بالحاليَّة هو المخلوق، فيكون المعنى: (أفحسبتم أنّا خلقناكم لتعبثوا من غير طلبٍ مطلوبٍ منكم، ولا غاية تتّجهون إليها، لتلهوا أو تلعبوا، ولا محاسب يحاسبكم)[3].

دلالةُ عطف جملة ﴿وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾:

يحسَبُ المُتكبّرون أنّهم لا يُحاسَبون كاعتقادهم بخَلْقهم عبثًا

عُطفت جملة ﴿وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ على جملة ﴿أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثًا﴾ بحرف الواو، ويدلّ العطف هنا على أنّ فعل (حسب) يتعلّق بهذه الجملة أيضًا[4]؛ أيّ: (أفحسبتم أنّكم إلينا لا تُرجعون)، فالآيةُ توبِّخ المُتكبّرين باعتقادهمُ العبثَ في الخَلْق، والعبثَ في المَهمّة، وكذلك الاعتقاد بعدم الرّجوع للمُحاسَبة.

سِرُّ تقديمِ اعتقاد العبثِ على اعتقاد عدمِ الرّجوع:

تَرتّبُ إنكارِ الرّجوع على اعتقاد الخَلْق عبثًا

عُطِفَ اعتقادُ عدم الرّجوع على اعتقاد الخَلْق عبثًا في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثًا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾، وقد قُدّمَ حِسْبانُ الخَلْق عبثًا على حِسْبان عدمِ الرّجوع، وهذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 134.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 206.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5127.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 206.

التّقديمُ يَشي بالتّرتُّب؛ لاستلزام الخَلْق عبثًا أنّهم لا يُحاسَبون[1]، فمَنِ اعتقد أنّه بلا مهمّة فإنّه سيُنكر البعث والمحاسبة؛ فصارت الواو في معنى (حتّى)؛ أيْ: (أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثًا إلى غاية أنّكم أنكرتم البعثَ والمحاسبةَ)؟![2].

فائدةُ التوكيد بـ (أنّ) والجملة الاسميّة:

جاء الإعلامُ بِحِسْبانهم عدمَ الرّجوعِ مُؤكَّدًا بـ (أنّ) والجملة الاسميّة، وفائدة ذلك تحقيقُ رجوعِهم إلى ربّهم[3]، إذِ ارتابوا فيه إلى أن أنكروه، فالرّجوع إلى المولى هو أمرٌ حتميٌّ، دلَّت عليه الدّلائل، لكنّهم اعتقدوا بطلانه، لِما راوَدَ عقولَهم من العبث في الخَلْق.

الرّجوعُ إلى المولى أمرٌ ثابتٌ مُتحقّق وإنِ ارتابَ المُرتابون

سِرُّ تقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿إِلَيۡنَا﴾ على الفعل:

قُدّمَ الجارُّ والمجرور ﴿إِلَيۡنَا﴾ على الفعل ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ في قوله: ﴿وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾؛ ويكمُن السِّرّ في ذلك في التَّركيز على الرُّجوع إلى الخالق خاصَّة[4] كما يَحمِل معنى التّهديد[5]؛ فالرّجوع إلى الخالق خاصّة، ومَنِ اعتقد عبثيّة الخَلْق فإنّه سيواجِهُ الخالقَ حينَها، حيثُ لا ينفع عنده شيءٌ.

الرُّجوعُ إلى الخالق خاصّة؛ فاحذروا واتركوا العبثَ

إيثارُ الفعلِ ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

آثَرَت الآيةُ استعمالَ الفعل ﴿تُرۡجَعُونَ﴾، وفي اختيار ذلك أسرارٌ تَرجِع إلى مادّة الفعل وإلى صيغته، أمّا عن مادّته فالرُّجوع يعني الارتدادَ إلى حيثُ المَبْدأ[6]، والمَبْدَأ هنا هو الخالقُ حيثُ لا مثالَ للخَلْق سابق؛ فدلّ ذلك على العودةِ وعلى مَن يعودون إليه، وممّا زاد هذا المعنى جلاءً صيغةُ الفعل؛ إذ جاء بصيغة المضارع الدّالّة

استحضارُ صورةِ المخلوق العابثِ، وهو يعود لزومًا إلى مُبْدِئِه الخالقِ الحكيم

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 219.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 153.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5127.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 196.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5127.
(6) الرّاغب، المُفردات: (رجع).

على تصوير مشهد الرّجوع واستحضارِه، فكيف سيكون الرُّجوع حينَها؟ كما يرجعُ العبدُ الآبقُ إلى سيّده يرجعُ المخلوقُ العابثُ إلى خالقه الذي قصد بِخَلْقِه مقاصدَ، فضيَّعها هذا المخلوقُ، إضافةً إلى أنّ فعلَ الرّجوع فعلٌ لازمٌ[1]، فكأنّ المخلوقَ العابثَ يرجعُ لُزومًا إلى مَبْدئِه ومنْتَهاهُ.

التَّوجيهُ البلاغيُّ للقراءات في ﴿تُرْجَعُونَ﴾:

الــرّجــوعُ إلى الخالق طوعًا أو كَرْهًا

قرأ الجمهور ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالمبني لما لم يُسمَّ فاعلُه، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخَلَفٌ العاشر ﴿تَرْجِعُونَ﴾ بالمبني للمعلوم[2]، ولاختلاف القراءة دلالةٌ رائعةٌ؛ إذ تدلّ قراءة غير الجمهور على أنّ الرّجوع يكون طوعًا باختيار العبد، وهو حالُ عبادِ اللّه يَرجون ربَّهم، وهذه الدّلالة مؤسسة على أنّ الخطاب بهذه الآية لكلّ مَن يتأتّى منه الخطابُ، وأمّا قراءةُ الجمهور فتَدُلُّ على أنَّ الرُّجوع يكون كَرْهًا كما هو حالُ هؤلاء المُتكبِّرين؛ إذِ الرّجوعُ في أصله أمرٌ مقضيٌّ لا محالةَ، وإن أَبَوا ذلك[3]، كأنّ شيئًا يَسوقكم رغمًا عنهم[4]، وقراءةُ المبني للمعلوم - في نورِ توجيه الخطاب إلى أهل الكفر والنّار خاصَّةً - توجَّه على معنى أنّ رجوعَهم إلى اللّه من مظاهر قَهْرِه وهيمنتِه ﷻ؛ إذ هو القاهر فوق عباده؛ فهو الذي يقدر على إماتتهم وعلى بعثهم وحشرهم وحسابهم وعقابهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحِسْبان والظّنّ:

الحِسْبانُ ترجيحٌ مع قِلّة تأمُّلٍ، والظَّنُّ ترجيحٌ مع تأمُّلٍ ونَظَرٍ

الحَسْبُ والظَّنُّ مفهومان مُتقاربان يدلُّ كلُّ واحد منهما على تصوّر شيءٍ وتقديمِه على غيره، ويفترقان في أنّ الظّنَّ ترجيحٌ

(1) السّمين الحلبيّ، الدُّرّ المَصون: 8/ 375.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/209.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 135.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 10174.

لغلبة احتمال الصّواب، وغالبًا ما يكون بتفكير وتأمّل[1]، وعليه مدارُ الكثير من جوانب حياة الإنسان، فإن كان خلافَ ما هو أقوى منه وهو الحَقُّ صار مذمومًا، بينما الحِسْبانُ قد يكون وهمًا دونَ اعتماد نظرٍ أو اعتقادٍ[2]، ممّا يجعل الحِسبان أقربَ إلى الخطأ.

الخَلْق والإنشاء:

الخَلْقُ ابتداءُ شيءٍ وتقديرُه وتصويرُه، والإنشاء خلقُ الأشياءِ ابتداءً وتنميتُها

يُطْلَق الخَلْق على الإنشاء، وبينهما فرقٌ؛ فالخَلْقُ: ابتداءُ شيء وتقديرُه وتصويرُه، بينما الإنشاء: ابتداءُ شيءٍ وتدبيرُه وتتبُّعُه وتنميَتُه؛ لذلك فالإنشاء نوعٌ من أنواع الخَلْق غير أنّه يختصّ بالبدايات والتّنمية[3]، بينما يعمّه الخَلْق مع التّقدير والتّصوير.

العَبَث واللَّعِب:

اللَّعب عبثٌ لعدم الجدوى، والعبثُ سفاهةٌ لعدم القصد

إذا كان بينَ العبث واللّعب تداخل؛ فبينَهما فروقاتٌ؛ فإذا كان العبثُ فعلَ ما لا قَصْدَ فيه ولا فائدة ولا منتهى غاية، وكان اللَّعِبُ فعلَ ما لا فائدة تُرجى منه؛ فإنّ اللَّعب نوعٌ خاصٌّ من أنواع العَبث، ويَتَميّز اللّعِبُ بعدم الجدوى[4] مقارنةً بالعبث؛ لعدم القصد، وغالبًا ما يوصَف فِعْلُ الصّبيَة باللّعب؛ لعَدَم تمييزهم بين النّافع وغيره، بينما العبثُ وصفُ مَن يُمَيّز ويَعي، فيكون مَحَلَّ ذَمٍّ؛ لأنّه دليل سفاهةٍ وقِلَّة حِكْمَةٍ.

الرُّجوع والرَّدّ:

الرُّجوعُ عودةٌ إلى المَبدأ باختيار، والرَّدّ إجبارٌ على العودة وكَفٌّ عن سبيلٍ

قد يُطلَق الرَّدّ على الرُّجوع، وبينَهما اشتراكٌ وافتراق؛ فالجامع بينهما هو العودةُ، إلّا أنّ الرَّدّ إجبارٌ على العودة وكَفّ عن سبيل[5]، بينما الرُّجوع هو عودةٌ باختيارٍ غالبًا، وتكون إلى المَبدأ والمُنطلَق[6].

(1) الرّاغب، المُفردات: (ظنن).
(2) الرّاغب، المُفردات: (حسب).
(3) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نشأ).
(4) الرّاغب، المُفردات: (لعب).
(5) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 175.
(6) الرّاغب، المُفردات: (رجع).

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦﴾

[المؤمنون: 116]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا ذَكَرَ اللهُ تعالى العبثَ في حسبان هؤلاء المُتكبِّرين؛ جاء تنزيه الباري نفسَه عن هذا العبث؛ فهو اللهُ المَلِك الحقُّ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَعَٰلَى﴾: أصل كلمة (تعالى) من العُلوّ، وهو السُّموّ والارتفاع[2] خلافُ السّفل[3]، ويُطلَق على الشّرف أيضًا، يُقال: رجلٌ عالي الكعب؛ أيْ: شريف، وتعالى: زاد عُلوًّا على عُلوٍّ، ويُذْكَر العُلوّ باعتبار ما يُعلى عليه[4]، فيَعْلو عن الضّعف والنّقص والحاجة والجهالة والعجز؛ أيْ: يَتنزّه ويَتخلّص من كلّ ذلك؛ فالتَّعالي هو الكمال، ومعنى ﴿فَتَعَٰلَى﴾ في الآية: تَنزّه وتقدّس عن العبث، وعمّا وصفَه به الكافرون.

2) ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾: تدلّ كلمة (المُلك) على قوّةٍ في شيءٍ وصحّةٍ، يُقال: أملكَ عَجينَه؛ أيْ: قَوّى عَجْنَه وشَدَّه، ومَلَّكتُ الشّيءَ إذا قوَّيتَه، ومَلكَ الشَّيءَ إذا كانت فيه يدُه قويّة[5]، ومِلاكُ الأمرِ: مُعتَمَدُه، وليس له مَلاكٌ؛ أيْ: تماسُك، ويأتي المُلك بمعنى التّصرُّف والتَّحكُّم[6]، فلا يكون للآخَرين تبعةٌ فيه ولا تَصرّفٌ[7]، ومعنى ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾ هنا: المُتحَكِّم المُتَصرِّف.

3) ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾: أُخذت كلمةُ ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾ من عَرَشَ؛ أيْ: تماسك وارتفع في بناء[8]، والعَرْشُ سريرُ المَلك وقِوام أمرِه، فإن زال حُكمُه فقد ثُلَّ عَرْشُه[9]، وكُنّيَ به عن العِزّ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 300، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 196.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علا).
(3) الرّاغب، المُفردات: (علا).
(4) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (علو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملك).
(6) الرّاغب، المُفردات: (ملك).
(7) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ملك).
(8) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عرش).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرش).

والسُّلْطان والمُلك(1)، ومعنى ﴿ٱلْعَرْشِ﴾ في الآية: كُرسيُ اللّٰهِ ومُلْكُه وسلطانُه.

4) ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾: (كرم) أصلٌ صحيحٌ يدلّ على الشَّرف في الذّات والشّرفِ في الخُلُق والفِعال(2)، منَ الإحسان إلى الآخرين بجليل الإحسان عطاءً أو صفحًا(3)، يقول سبحانه: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال: 4]، ومعنى ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ في الآية: العظيم الشّرف.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

ترفُّعُ المَلِكِ الحَقّ عن العبَث والسُّدَى

تعاظَمَ اللّٰهُ ﷻ وتقدّس عن كلّ ما لا يليق بجلاله وكمالِه؛ هو المُتَحَكِّمُ تامُّ المُلكِ المُحِقُّ، هو مَن يستحِقّ العبادةَ وحْدَه، هو صاحبُ العَرش، هو الشّريف المحمود(4)، ترفَّع عن أن يَخْلُقَ الخَلْق عبثًا، وأن تخلوَ أفعالُه عن الحِكْمة(5).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاءِ في صدرِ الجملةِ:

تفريعُ تمامِ المُلْك للهِ ﷻ على اعتقاد العَبثِ في الخَلْق مع تَنزُّهِه عن ذلك

تصدّرت الجملة ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ بالفاء؛ وهي فاءُ العطفِ، وتدلُّ على تفريع ما يأتي على ما مضى، فبعد أن ذَكَرَ تعالى اعتقادَ المُتكبِّرين أنّهم خُلِقوا عبثًا، وأنّهم لا يرجعون إلى خالقهم؛ فرَّع عليه استحالةَ ذلك، فكيف يليق بمَن هو المَلك على الإطلاق الحَقّ المُتفرِّدُ في الأُلوهيّة، ربُّ العرشِ الكريم أن يكون في فعله عبثٌ؟!

(1) الرّاغب، المُفردات: (عرش).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كرم).
(3) الرّاغب، المُفردات: (كرم).
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 69.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 63.

ترفُّعٌ عن العَبثيّة والتّفلُّتِ من قبضته، وشَرفٌ في كمال حِكمته

إيثارُ الفعل ﴿فَتَعَٰلَى﴾ مادّةً وصيغةً:

اختارت الآية الفعلَ ﴿فَتَعَٰلَى﴾ في قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ لأغراض عدّة؛ فمادّةُ العُلوّ تعني الرّفعةَ والشّرفَ، وتكون الرّفعةُ عن كلّ نقص؛ والعبثُ نقصٌ، كما تكون الرّفعةُ بمعنى الشّرف والكمال، والشّريف: هو الكامل في حِكمته وتدبيره(1)، وكِلا المعنيَيْن يتناقضان مع العبث الذي يعتقده المُتكبِّرون في الخَلْق، أو الشّرود عن قبضته بعدم الجزاء(2)، وقد جاء الفعل (تعالى) في صيغة تفاعل، والتّفاعُل تكلُّف في الفعل؛ ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ أعظمُ من (علا اللّهُ)(3)، فهو ارتفاعٌ على ارتفاعٍ، وشرفٌ على شرفٍ، وبصيغة المضارع الدّالّة على التّجدُّد يظهر تمامُ حِكمته وجميلُ تدبيره في كلّ مخلوق من خَلْقه، وكِلا الجانبَيْن في الفعل (تعالى) يزيد العبثيّةَ والتّفلّتَ بُعْدًا وإقصاءً.

عمومُ تعالي الحقّ عن كلّ نقيصة، وتَشرُّفه بكلّ كمالٍ

غرضُ حذفِ مُتعلّق ﴿فَتَعَٰلَى﴾:

حُذِف مُتعلّق الفعل ﴿فَتَعَٰلَى﴾ في الآية مع أنّ المتعلّق واضِحٌ من خلال سياق الآية؛ أيِ التّعالي عنِ العَبثيّة، وتَفَلُّت خَلْقِه من حُكْمِه ومساءلته(4)، ولعلّ الغرضَ من هذا الحَذفِ هو أن يتّسع المجالُ لكلِّ مُتعلِّقٍ ينبغي أن يتعالى عنه الحَقّ ﷻ، فتصير الآيةُ متعلّقةً بسياقها السّابق، وسياقها اللّاحِق، وهو ما يُشير إليه تَعدادُ صفاتِ الباري بعدَها(5).

كمالُ الله ﷻ بكمال حِكمتِه وإنفاذِ وعيدِه

سِرّ استخدامِ ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ هنا وفي سورة طه [114]:

وردت هذه الجملةُ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ هنا في سورة المؤمنون، وأيضًا في سورة طه [114]، والمُلاحِظ لسياق الآيتين يجدهما

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5128.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 10176.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 219.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 196.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 153.

متّفقتَين في إنفاذ اللّه لوعيده، وإحكامِه لجزائه يومَ الدّين، وهو ما يُشعِر بكمال حِكمة اللّه ﷻ، وتمامِ مُلكه وتَفَرُّده بالألوهيّة؛ فالحِكمة لإظهار تَمَيُّز المُتّقين منَ الفجّار، واللّه تعالى ما خلق السّموات والأرض وما بينهما ثمّ أفناهما إلّا لحِكْمة بالغة، وإنفاذُ جزائِه هو دليلُ تمام مُلكه، وتمامُ مُلكه وكمالُ حِكمتِه دليلُ تَفَرُّدِه سبحانه، ويبقى ما ينفردُ به كلُّ سياقٍ من وجوه علائق هذه الجملة بأخواتها في سياقها الواحدِ.

دلالة (أل) في ﴿ٱلْمَلِكُ﴾:

التّفرُّد بكمالِ المُلكِ

جاء لفظ ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ معرَّفا بـ (أل)؛ للدّلالة على كمال المُلك؛ فاللّه تعالى مُتفرّد بكمال المُلك وتمامه، ومن كان كذلك فلا يصحّ أن يحدث في مُلكه عبثٌ أو أن يبقى مَن في مُلكه دونَ محاسبة وتقويم.

فائدة الوصف بـ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ بعد ﴿ٱلْمَلِكُ﴾:

اللهُ المَلِكُ ثابتُ المُلك، ومُلْك غيره باطلٌ

جاء وصْفُ اللّهِ تعالى بـ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ بعد وصفه بـ ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ في قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾، وقد عُرِّفَ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ بـ (أل) الجنس؛ ليُفيدَ تمييزَه عن أيِّ مَلك آخر[1]، فمُلك اللّهِ ثابتٌ له، وأمّا مُلك غيرِه فباطل؛ أخذًا من مفهوم الصِّفة الذي يقتضي المخالفة؛ وذلك باعتبار كمالِ المُلك ودوامه[2]؛ وباعتبار أحقيّته سبحانه بالمُلك؛ فالمُلك يحِقّ له مطلقًا، ولا يحقّ لأحد غيره[3]؛ وباعتبار أنّه مَلِك بحقّ، فلا يتطرّق إليه الباطلُ في شيءٍ من صفاته وأفعاله[4]، وإذا كان كذلك فأنّى يأتيه العبث؟ وأنّى ينفلت من قبضته أحدٌ؟

علّةُ فصل جملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ عمّا قبلها:

الإلهُ الواحدُ كاملُ المُلك وما عداه عبيدُه

فُصِلت جملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ عمّا قبلها؛ والعِلّة في ذلك أنّها

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 635.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 135.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 97.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 196.

كالدليل على أحقيّة اللّهِ تعالى بتمام المُلك وتَفرّده، فلأنّه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فهو المَلِكُ الحقّ[1]، ومَنْ كان مُتَفرّدًا بالأُلوهيّة فكلّ ما عداه عبيده[2]، فمضمونُ هذه الجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يلزم منه مضمونُ الجملة السّابقة: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ﴾، وهذه السّابقة يلزم منها هذه الجملةُ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، غيرَ أنّ السّابقة كالنّتيجة للاحِقة، واللّاحقة كالعِلّة والمُقدّمة للأولى، فبينَهما كمالُ اتّصال؛ فلهذا غابتِ الواو.

فائدةُ وصفِه سبحانه بـ ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾:

مَنْ مَلَك العرش مَلَك ما دونَه، ولم يَشْرُد عنه أحدٌ من خَلْقه

كما وُصِف سبحانه بأنّه ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ﴾، وُصِف بأنّه ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾، وفائدة هذا الوصف مزيدُ التّعيين والتّأكيد؛ لتفرّده ﷻ، فقد وصف نفسَه بصفةٍ لا يدّعيها غيرُه، إنّه ربّ العرش الكريم[3]، فكيف بما تحته من الموجودات[4]، فمَن مَلَكَ أعظمَ المخلوقاتِ؛ فهو دليلٌ على عَظَمة قُدرته وتمامِ مُلكه[5]، ومَن مَلَكَ العرشَ العظيم فمَن الذي يخرج عن ملكه وسلطانه؟.

حكمةُ وصفِ العرش بالكرم:

كرمُ العرشِ شرفٌ في المُلك وصلاحٌ للرّعيّة

وُصِفَ العرشُ بأنّه ﴿ٱلۡكَرِيمِ﴾، والحِكْمةُ من هذا الوصف هي أنّ الرّحمة تنزل منه[6]، فليس تعالي اللّهِ على عباده إذلالًا وإهانةً، ولكن لإعلائهم وإعطائهم من فضله، فصار الكرمُ أشرفَ غاياتِ المُلْك؛ فهو مَلَكٌ لصالح الخَلْق[7]، ومَن نزلت الرّحماتُ من عرشه اتّجهت حكمتُه وتعالَى عن العَبث.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 135.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 153.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 197.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 153.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 135.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 206.
(7) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 10177.

سِرُّ ذِكْر ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ﴾ هنا وفي سورتي التّوبة والنّمل:

حُسْنَ وصْفُ الكرمِ مع الحُكمِ والتّنزّهِ عن العَبث

من المُتشابه اللَّفظيّ في القرآن الكريم ما جاء من تكرار عبارة ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ﴾ في سورة المؤمنون مع وصف ﴿ٱلۡكَرِيمِ﴾، وفي سورة التّوبة [129] والنّمل [26] مع وصف ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾، ولعلّ السِّرَّ في هذا الاختلافِ أنّ السّياق هنا هو سياقُ الحُكم بالعدل والتّنزُّه عن العَبَث، فحَسُنَ معه وصفُ ﴿ٱلۡكَرِيمِ﴾، بخلاف سياق سورتي التّوبة والنّمل، الذي كان سياقَ قَهْر، فحَسُنَ معه وصفُ ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

التَّعالي والتّعاظم:

التّعالي الرِّفعةُ عن كلِّ نقصٍ، والتّعاظُمُ الرِّفعةُ إلى كلِّ كمالٍ

التّعالي رِفعةٌ عن كلّ نقص، والتّعاظم رِفعةٌ إلى كلِّ كمالٍ، فبينَ التّعالي والتّعاظم اشتراكٌ في المعنى مع وجود بعضِ الفروق؛ فالتّعالي والتّعاظُم مشتركان في الدّلالة على الرّفعة، ويفترق التّعالي في أنّه رِفعةُ غلبةٍ وتَمكُّنٍ وقَهْرٍ[2]، فهي رِفعةٌ باعتبار ما هو ناقصٌ، بينما التّعاظم رفعةٌ تدلّ على المَنزلة والفخامة والجلال والوقار والفخار[3]؛ فهي رفعةٌ باعتبار الكمال.

المَلِك والمالِك:

المَلِكُ للحيازة، والمالِكُ للتّحَكُّم

يشترك المَلِكُ والمالكُ في أصلٍ واحد، وهو المُلْك، بما تحملُه كلمةُ المُلْكِ من التّحكّم والحيازة والتّصرُّف[4]، ويختلفان في أنّ المَلِكَ من التّملُّك، فهو الحيازةُ للشّيء، في حين أنّ المالِكَ من المِلْك وهو التّحكُّم؛ فصار المالِكُ هو المُتَحَكِّمُ وإن لم يَملِك، والمَلِكُ مُتَمَلِّكٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 197.
(2) الرّاغب، المُفردات: (علا).
(3) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عظم).
(4) الرّاغب، المُفردات: (ملك).

وإن لم يَتَحكّم[1]، ولهذه اللّطيفة جاءت آيةُ الفاتحةِ بالقراءتيْن: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: 4][2]، و(ملك يوم الدّين)[3]؛ لتدلَّ على المعنييْن معًا.

الحَقّ والثّابت:

الثّابت هو المُستقرّ دونَ اضطرابٍ، والحَقّ هو التّمكّن الدّائم

بينَ الحَقّ والثّابت اشتراكٌ وافتراقٌ؛ فالحَقّ ما وقع وثَبَتَ، فالحَقّ هو الثّابت، إلاّ أنّ الحَقّ يحمل - زيادةً على معنى الثّبات - معنى التّمكُّن والدّوام، بينما الثّابتُ ما استقرّ بعد حركةٍ واضطرابٍ[4].

(1) السّامرّائيّ، لمساتٌ بيانيّةٌ، ص: 18.
(2) وهي قراءة عاصمٍ والكسائيِّ ويعقوب وخلف.
(3) وهي قراءة نافعٍ وابن كثير وأبي عمرٍو، وابن عامر وحمزة وأبي جعفر.
(4) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (حقق)، (ثبت).

﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١١٧﴾ [المؤمنون: 117]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد الوصف بالتّعالي جاء التّوعُّد

بعد أن جاء وصفُ الرّحمن بتلك الصِّفات ليَظْهَر تعاليه عن اعتقاد الكفّار بالعبثيّة في الخَلْق وعدم الرّجوع إليه، وأنّه ﷻ المُتفرِّد في مُلكه وعَرْشِه وكَرَمِه؛ جاء التّوعُّد لِمَن يدعو غيرَه معه[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَدۡعُ﴾: يحمل هذا اللّفظُ نداءً وسؤالًا[2]، وهو في أصله إمالةُ الشَّيء إليك[3]، ويُطلَق على التّسميَة، نحو: دعوتُ ابني زيدًا؛ أيْ: سمّيته، ودعوتُه: إذا سألته، ويُطلَق على الاستغاثة، فمَن يُغيث فله دعوةٌ؛ أيْ: إجابةٌ ورِفْعَة[4]، ويُطلَق الدّعاءُ على العبادة لما فيها من التّقرّب إلى المعبود، ورجائِه والاستغاثةِ به[5]، ومعنى ﴿يَدۡعُ﴾ في الآية: يسأل ويَرجو ويَعبُد.

2) ﴿بُرۡهَٰنَ﴾: (البرهان) فُعْلان من بَرَه الشّيءُ إذا ابيضّ، وهو الحُجّة، وهو أوْكَد الأدلّة، لأنّه يقتضي الصِّدقَ لا محالة[6]، يقول رسولُ اللّهِ ﷺ: «والصّدقةُ بُرهان»[7]، وبالبُرهان قِوامُ الدّعوى وغلبَتُها، وبدونه تبقى الدّعوى فارغةً[8]، ومعنى ﴿بُرۡهَٰنَ﴾ في الآية: حُجّةٌ قاطعةٌ.

---

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 159.
(2) الرّاغب، المُفردات: (دعا).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).
(4) الرّاغب، المُفردات: (دعا).
(5) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (دعو).
(6) الرّاغب، المُفردات: (بره).
(7) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (223)، والتّرمذيّ في سُننه، برقم: (3517).
(8) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (برهن).

3) ﴿حِسَابُهُۥ﴾: أصل كلمة (حسِب) من الحساب، وهو العَدُّ والإحصاء[1]، ويختلف الغَرضُ من الحساب، فإن كان لإعطاء مقابلٍ له فهو الجزاءُ؛ ليكونَ بحسْبِه، لذلك يُستعمَل (حسب) في الكفاية، يقول تعالى: ﴿عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾ [النّبأ: 36][2]، و﴿حِسَابُهُۥ﴾ في الآية؛ أي: جَزاؤُه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الحِساب الشّديد على مَن يدعو إلهًا آخَر

ومَن يَدعُ معَ اللّه تعالى إلهًا آخَر في عبادته أو مُناجاته؛ فسيَلْقى الحسابَ الشّديدَ، والجزاءَ الرّادعَ من عند ربّه ﷻ؛ لأنّ عدالةَ اللّهِ اقتضت أنّ الكافرين به لا ينالون الفلاحَ؛ وإنّما ينالون الخِزيَ والخُسران[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في صَدرِ الآية:

عطفُ جزاءٍ على استدلال

عُطِفت جملةُ الشّرطِ وجوابه ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ بالواو على جملة تنزيه اللّه عنِ العبث واعتقاد عدم العودة إليه ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ وتفريعُ جزاء على استدلال، فلمّا بطل القولُ بعبثيّة الخَلْق وعدمِ الرّجوع، وتأكّدَ تمامُ مُلكِ اللّهِ ووحدانيّته؛ جاء ذِكْر الجزاءِ على الاعتقاد؛ وكأنّ بينَ الجُملَتيْن جملةَ الجزاءِ المستأنفةَ بالفاء، وتقديرُها: (فمَن دعا اللّهَ وحدَه فأولئكَ هم المفلحون)؛ فجاءتِ الواوُ لتَعْطِفَ حُكمًا على حُكْم[4]؛ فهذه الآية معطوفةٌ على آية: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا﴾ على جهة التّوسُّع، وعلى جملة مُقدّرةٍ معطوفةٍ على هذه الآية.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسب).
(2) الرّاغب، المُفردات: (حسب).
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 69.
(4) البقاعيّ، نَظم الدُّرر: 13/ 197.

بلاغةُ جملةِ الشّرط في الآية:

التّهديدُ والتّوعّد لِمَن يتعدّى حَقَّ المَلِكِ الحَقّ

تضمّنتِ الآيةُ جملةَ الشّرط: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وجوابَه: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ﴾[1]، ولا تدلّ الجملةُ على الشّرط بقدرِ ما تُقَرِّر حُكمًا بالشّرط، وتتوعَّد وتُهَدِّد مَن ينطبق عليه هذا الشَّرط بأشَدّ تهديد[2]، كيف وقد تبيّن لذي لُبٍّ تمامَ تَفرُّد اللّهِ بالمُلْك والأُلوهيّة، فلم يبق إلّا التّهديد والإنفاذ.

سِرُّ استخدامِ أداةِ الشّرط (مَنْ):

خِفّةُ عقولِ مَن يُشركُ بالله

عبّر القرآنُ الكريم بأداة الشّرط (مَن)، ويعود سِرُّ ذلك إلى دلالة (مَن) على العاقل، فالخِطاب للعقلاء، وتدلّ على إرادةٍ واختيارٍ، كما أنّه تلويحٌ بخِفّة عقولِهم، فالعاقلُ إنِ اعتقد أنّ حياتَه عبثٌ، وأنّ منتهاهُ إلى تراب، ثمّ دعا معَ اللّه إلهًا آخَرَ، فأيّ أثارَةٍ من عِلْم لديه؟ وأيّ منطقِ تفكيرٍ ينطلق منه؟.

إيثار الفعل ﴿يَدۡعُ﴾:

الـدّلالـة على مَـن يعبد إلهًا آخـرَ باختيـارٍ واستمرار

أوثِرَ الفعل ﴿يَدۡعُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾؛ لشيء يتعلّق بمادّته وصيغته، فأمّا عن مادّة ﴿يَدۡعُ﴾؛ فالدُّعاء نداءٌ وسؤالٌ، ويقتضي القُربَ كما يقتضي الرّجاء، فإذا لوحِظ المَدعوُّ هنا وهو الإله؛ فقد صار الدّعاءُ عبادةً؛ فمقصودُ الشّرط هو العبادة[3]، لا مطلقُ الدّعاءِ والنّداء، وأمّا عن صيغة ﴿يَدۡعُ﴾؛ فهي المضارع الدّالُّ على الاستمرار، ولا يتكَرّر فعلٌ إلّا لقصد، وهو ما يُنبئُ عن التّعبُّد لهذه الآلهة والتّضرّع إليها ومناجاتِها، وعدمِ الإصغاء لآيات اللّه ونداءِ الفطرة بكون الإله هو اللّه الواحد.

دلالةُ الظّرف ﴿مَعَ﴾ وإضافتِه إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾:

ادّعـاءُ معيَّةٍ لا تصِحّ مع الواحد المُتفرّد يدلُّ على خَبال العقل

جاء الشّرطُ بدعاء إلهٍ مع اللّه، مستعمِلًا الظّرفَ ﴿مَعَ﴾، ومضافًا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 589.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 69.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 97.

إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾، ويدلُّ ذلك على أنّ اللّهَ ﷻ حقيقٌ بالعبادة والدّعاء، وهو أمرٌ مفصولٌ فيه، فالخَللُ هو في دعاء إلهٍ معَه؛ فأيُّ مَدعوٍّ يُرجَى معَ اللّه؟ وأيُّ مَدعوٍّ يُخافُ من دون اللّه؟ لذلك فالذي يدعو إلهًا مع اللّه، فإنّه يدعو ما لا يصِحّ دعاؤُه، ويشركُ باللّه ما لا يصِحّ أن يُشرك به[1].

سِرّ تقديم ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ على ﴿إِلَٰهًا﴾:

الجزاءُ منصَبٌّ على الإشراك باللّه، مهما كان المَدْعو من دونه سبحانه

جاء قولُه: ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ مُقدَّمًا على المفعول به ﴿إِلَٰهًا﴾؛ لأنّ المقصد منَ الشّرط والجزاء هو التّركيز على المَعيّة في الدّعاء معَ اللّه تعالى، فالجزاءُ ابتداءً مُنصَبٌّ على الإشراك باللّه في الدّعاء وغيره، مهما كان المَدعوّ بعدَه.

سِرّ تنكير ﴿إِلَٰهًا﴾، ووصفُهُ بـ﴿ءَاخَرَ﴾:

الإلهُ الواحدُ هو الحقيقُ بالدُّعاء، فلا إلهَ معَهُ ولا إلهَ غيرُه

جاء ذِكْرُ المَدْعوّ مع اللّه بلفظ ﴿إِلَٰهًا﴾ ووُصِف بـ﴿ءَاخَرَ﴾، ويرجع سِرّ ذلك إلى أنّ النّكرة في ﴿إِلَٰهًا﴾ تدلّ على العموم، فليس المَقْصِدُ هو تحديدَ المَدْعوِّ هنا؛ بل وصْفُه بأنّه إلهٌ هو مَحَلّ التّركيز؛ أيْ مهما كان هذا المَدْعوّ فهل يصِحّ وصفُه بالإله؟ وهل يصلح دعاؤه معَ اللّه ﷻ؟، وأمّا وصفه بـ﴿ءَاخَرَ﴾ فيُشعِرُ بالغيريّة معَ اللّه ﷻ، فهل في الأُلوهيّة غير؟ إنّه الإلهُ الواحدُ المَلِكُ الحَقّ، فلا إلهَ معه ولا غير.

فائدة جملة ﴿لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾:

سفاهةُ عقلِ مَن يدعو إلهًا معَ الله؛ لأنّه ادعاءٌ باطلٌ بلا برهانٍ

إذا كان الإله واحدًا، ولا إلهَ معه ولا إله غيره، فما فائدة جملة ﴿لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾؟ والباطل لا برهان له! والجواب: أنّ فائدة ذِكْرِها التّأكيدُ على أنّ أيَّ ادِّعاء بوجود إلهٍ آخر معَ اللّه، هو ادِّعاء عَريٌّ عن أيّ حُجّةٍ وبرهان[2]، ولبيان أنّ التّديُّن بما لا دليلَ عليه باطلٌ،

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 97.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5129.

فكيف بما شهدت بديهةُ العقولِ بخلافه[1]، وللتّلويح بسفاهة عقل مَن يَدّعي ذلك؛ فإنّه لا يَتَّبِع إلّا الوهمَ، وهذا هو العبث، أو أنّ جملة ﴿لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ اعتراض بينَ الشَّرط والجزاء؛ لذلك جيء بها للتّأكيد وللتّشديد[2]، والحاصِلُ: أنّ هذا تَرَقٍّ وتفصيلٌ في إثبات هذا المعنى؛ وأنّ فيه إشعارًا بأنّ العقل الذي يستوعب الحُجَج والبراهين ويستدل بها، لا يقبل دعاءَ إلهٍ آخَر مع اللّه؛ لأنّه لن يستطيع أن يجلِبَ دليلًا على صِحّة ذلك؛ ففي هذه الجملة تعريضٌ بعظيم غفلةِ هذا الدّاعي وغَباوَته وقُبْحِه، وخُروجِه على الفطرة.

دلالة استخدام ﴿لَا﴾ النّافية للجنس، ولفظ ﴿بُرۡهَٰنَ﴾:

أيّ ادّعاء بوجود إلـهٍ مع الله لا دليـلَ عليه ولا برهان

عبّر النّظمُ الكريمُ بـ﴿لَا﴾ النّافيةِ للجنس، ولفظِ ﴿بُرۡهَٰنَ﴾ في قوله: ﴿لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾، و﴿لَا﴾ تدلُّ على نفي جِنس البُرهان، ويدلّ لفظُ ﴿بُرۡهَٰنَ﴾ على الحُجّة الواضحةِ التي تورِث اليقين[3]، وقد دلّ هذا التّركيب على نفي أيّ برهانٍ كان، فلا يصِحّ أيُّ برهانٍ ولا دليلٍ على وجود إلهٍ معَ اللّه سبحانه، وأنّ مَن يدعو معَ اللّه إلهًا لن يجدَ له دليلًا عليه مهما حاولَ ذلك، إلّا ما كان من ظنونٍ أو أوهامٍ يعتقدها أصحابُها، وسُرعانَ ما تتساقط لأدنى نقدٍ، كيف والبراهين ساطعةٌ على أنّه سبحانه هو اللّه الواحدُ المُتفرّد بالوجود.

سِرّ تقديم ﴿لَهُۥ﴾ على ﴿بِهِۦ﴾:

الاهتمامُ بالمدّعي وتـقـديمُـه على المدّعى

قُدِّمَ شِبهُ الجملة ﴿لَهُۥ﴾ على ﴿بِهِۦ﴾ في قوله: ﴿لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾، ويَرجع سِرّ ذلك إلى الاهتمام بالمُدّعي وتقديمُه - وهو المُشرك - على المُدَّعى - وهو الإله، وذلك لأنّ المُشكل ليس في المُدَّعَى؛ لأنّ الإنسان عَبَد الشَّمسَ والحَجَرَ والنّارَ؛ بل قد عبدَ المسيحَ مع أنّه بَشَرٌ، وتلك

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 97، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 153.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 589.
(3) الرّاغب، المُفردات: (بره).

المعبوداتُ مخلوقاتٌ للّه سبحانه، وتُقرّ بألوهيَّتِه ﷻ؛ وإنّما المُشكلُ في مُدَّعي الإلهِ الآخَر؛ إذ يحاول جاهدًا أن يجد دليلًا واضحًا على مُدّعاه فلا يجد هذا الدّليل؛ لأنّه أمرٌ باطلٌ قطعًا، فلا دليلَ عليه إذًا ولا بُرهان: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [الحجّ: 73].

دلالةُ الفاءِ والقَصْر في ﴿فَإِنَّمَا﴾:

جوابُ تهديدٍ ووعيدٍ بأنّ الله وحدَه مَن سيحاسبُهم

صُدِّرت جملة ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ بالفاء لتدُلَّ على جواب الشّرط[1] مرتِّبَةً هذا على ذاك؛ أيْ: إنّ الجزاء سيحيقُ بمَن دعا معَ اللّه إلهًا آخَر، ووظّفت الجملةُ أداةَ (إنّما) لقَصْر المحاسبةِ على اللّه ﷻ، فلا يحاسبُه إلّا ربُّه، لا يحاسبه غيرُه[2]، وهي مبالغةٌ في تخطئتِه وتهديدِه، وإنذارٌ شديد بالعقاب الأليم[3]، ويجوز أن يكون القَصْر إضافيًّا تطمينًا للنَّبيّ ﷺ بأنّ اللّه لا يؤاخذه باستمرارهم على الكفر؛ كقوله: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشّورى: 48][4].

إيثار لفظ ﴿حِسَابُهُۥ﴾ دون غيره، وإضافتِه إلى ضمير الغائب:

حسابُ جزاءٍ بمقدارٍ مُكافئٍ للجُرم معَ الإبعاد

عبّر القرآنُ بلفظ (الحساب) مع إضافته لضمير الغائب، وفي ذلك منَ الدّلالات ما فيه؛ فإنّ لفظ الحساب يدلّ على الجزاء بطريق الكناية؛ وهو المقصود الأوّل من الحساب[5]، كما يدلّ على مقدار الجزاء فهو بحساب[6]، وهو جزاءٌ مناسبٌ للعمل، ومُكافئٌ له وحسبُه، فلا تكن زيادةٌ فيه ولا نقص[7]، وفي إضافة الحساب إلى ضمير الغائب إهمالٌ للمحاسَب، فهو بما فعل من جُرم حقيقٌ بالإهمال والإبعاد والطَّرد، فعُبِّر عنه بالغائب.

(1) الصّاويّ، حاشية على الجلالَيْن: 3/ 106، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5129.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 136.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5129.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 136.
(5) الشّهاب، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 349.
(6) الرّاغب، المُفردات: (حسب).
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 198.

فائدةُ قيدِ الحساب بالظّرف ﴿عِندَ﴾:

قيّدتِ الآيةُ الحسابَ بالظّرف ﴿عِندَ﴾، وفائدةُ هذا القيد هو أنّ هذا الحساب مُدّخر له عند ربّه، سيُجازيه به يومَ يلقاه(1)، كما أنّ العِنديّةَ تعني أن لا أحدَ يُقدّر حسابَه إلّا ربُّه، لذلك فحسابه الذي يستحِقُّه هو عند ربِّه(2)، وفي ذلك مِنَ المبالغة في تخطِئَتِهم ومنَ التّهديد الشَّيء العظيم(3).

للدّلالة على أنّ هذا الحسابَ مُدَّخرٌ له عند ربِّه، سيُجازيه به يومَ يلقاه

بلاغةُ إضافةِ الظّرف إلى الرّبّ خاصّة:

أُضيفَ الظّرف إلى الرّبّ ﴿عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ خاصّةً، وتكمن بلاغةُ هذه الإضافة في أنّ ربّه هو الحقيقُ بذلك، لأنّه هو خلقَه وربّاه ودَبَّر شؤونَه، وهو أعلم بسريرته وعلانيتِه(4)، وفي هذا استحضارٌ لمشهد العبد الآبقِ يُرَدّ إلى ربّه، فكيف سيكون جزاؤه؟.

الرّبُّ هو الحقيق بحساب عباده؛ فهو خالقهم ومولاهم ومُدبِّرُ شؤونِهم

بلاغةُ التّذييل في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾:

ذُيّلت الآيةُ بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، والمقصود بالتّذييل هنا ختمُ المحاورةِ بنتيجةٍ مترتِّبة عمّا سبق، فإذا كان حساب المشركين عند ربِّهم، فإنّ أشدّ العقاب ينتظرهم(5)، وإنّ الشّأنَ عدمُ فلاحِ الكافر، فالتّذييل أقربُ إلى الجواب عن حال الكافر عند حساب ربِّه له(6)، وأقربُ إلى التّعليل له، وبهذه الجملة يُرَدُّ عَجُزُ السّورةِ وآخِرُها إلى صدرها وأوّلها، وهو قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١﴾ [المؤمنون: 1]، وهذا من البلاغة الظّاهرة، فإذا كان حالُ الكفّارِ هو الاشتغال بالسُّخرية من المتقين حتّى نَسوا ذِكْر ربِّهم، فإنّ هذا كالمقابِل لما في أوّل السّورة من خشوع المؤمنين وإعراضِهم عن اللّغو،

إنّ الشّأنَ عدمُ فلاح أهل الكفر مع ما سيلقونه مِن شديد العذاب

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 637.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 300.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 136.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 13/ 198.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5129.
(6) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 198.

وصرفِ جهدِهم في فعل الزّكاة، والإحسانِ إلى الخَلْق، والالتجاء إلى اللّه، والدُّعاء بالمغفرة والرّحمة[1]، إنّه رَدٌّ بديع لجملة الخاتمة بجملة البَدء، يختصر السّورةَ في فلاح المؤمنين وعدم فلاحِ الكافرين، وما بينهما بسطٌ وتفصيل[2].

الحسابُ فرديٌّ، والتّذييل لكلّ مَن سبق من المُعاندين

بلاغة الحَمل على المُفرد ثمّ على الجمع في الآية:

جاء ذِكْر الدّاعي لغير اللّه مُفردًا ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، ثمّ حُمِل الخطاب على المجموع في ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، وفي هذا التّنويع أثرُه البلاغيّ؛ إذِ الخطابُ بالمُفرد في جملة الشّرط وجوابِه أنسبُ؛ باعتبار أنّ الحساب فرديٌّ لكلّ واحد حسبَ اختيارِه وعمله، مع مناسبه (من) للفرد والمجموع، في حين جاء ذِكْرُ الكفّار بالجمع؛ ليتناولَ كلَّ مَن ذُكِر من أصناف المُستهزئين بالمؤمنين والمعاندين المُصِرّين في الآيات السّابقة، كون هذه الآية تذييلًا للآية الأخيرة ولكلّ ما سَبق[3].

بلاغةُ الإظهار بدلَ الإضمار:

أُظهِرَ لفظ ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ بدلَ أن يُضمَر؛ وذلك لبيان أنّ عدمَ الفلاح مُعلَّل بالكفر[4]، ولتعميم الحُكم على الدّاعي معَ اللّه إلهًا آخَر[5].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الدّليل إرشادٌ، والحُجّة غلبةٌ، والبُرهان دليلٌ بيّنٌ

البُرْهان والدّليل والحُجّة:

مِنَ المفاهيم القريبة إلى البرهان: الدّليل والحُجّة، وتشترك المفاهيمُ الثّلاثة في الدّلالة، فالحُجّة والبُرهان دليل، ويفترق في أنّ الدّليل ما يُرشِد إلى المطلوب، وقد يُفيد الظَّنَّ أو يفيدُ العِلْمَ،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 300.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 10178.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 637.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 637.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 198.

بينما البرهانُ لا يفيد إلّا العِلْمَ[1]، وأمّا الحُجّة فهي الدّليلُ مع غلبةٍ، ويقتضي طرفًا مُغالِبًا فيُغْلَب، يُقال: حاجَّهُ إذا بلغ غلبتَه، والبرهان حُجَّةٌ فاصِلَة بيّنةٌ[2].

الحِساب والجزاء:

الحساب عَدٌّ وتقويمٌ، والجزاء مكافأةٌ بعدَ مُحاسبةٍ

يُطلَق الجزاءُ على الحساب، إلّا أنّ بينَهما اختلافًا؛ فالحسابُ عَدٌّ وإحصاءٌ لشيءٍ ما[3]، كحسابِ المُمتلكات، وحسابِ الأفراد والجماعات، كما يُطلق على المحاسبة، وتعني: المساءلة؛ إذ لا محاسبةَ دونَ مساءلةٍ، وهو ما يجمع بين الحسابِ والجزاء؛ فالجزاءُ: مقابلةٌ لجَهْد وعملٍ ما، بما يُكافِئُه ويُناسِبُه، وبحسبه[4]، فلا جزاءَ دونَ حسابٍ.

(1) الرّاغب، المُفردات: (بره).
(2) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (حجج).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسب).
(4) الرّاغب، المُفردات: (جزى).

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١١٨﴾ [المؤمنون: 118]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا بيّن اللّهُ ﷻ أنّ حساب هؤلاء عند ربّهم، وأنّهم لا يفلحون؛ أَمَر بالانضواء في صِنف المُفلحين، والدّعاءِ بدعائهم بالمَغفرة والرَّحمة[1].

المَعنى الإِجماليُّ:

الدُّعاء بالمغفرة والرَّحمة

ختم اللّهُ سبحانه السّورةَ الكريمة بخطاب نبيِّه الكريم ﷺ: ادعُ مناجيًا، وقُلْ: مولاي؛ تَجاوَزْ وابسُط رحمتَكَ، وأنتَ يا مولاي خيرُ مَن يَرحم طُرًّا[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ الواو في صدرِ الآيَة:

عطفُ رجاءِ الإحسان على عدلِ الجزاء

تصدّرت جملة ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ﴾ بالواو العاطفة؛ إذ عطفت هذه الجملةَ على جملة: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، فلمّا جاء ذِكر الحسابِ في الآية السّابقة عُطف عليه طلبُ الدّعاءِ بالمغفرة والرّحمة[3]؛ فهي عطفُ رجاءِ الإحسان على عدلِ الجزاءِ، والخَتمُ بالفضل والإحسانِ أنسبُ بمَطلَع الجمال؛ منَ الإخبار بفلاحِ أهلِ الإيمان.

علّةُ التّصديرِ بفعلِ القول:

لمقامِ الرّسول عند ربّه، يدعو لخَلْق اللهِ بالتّجاوز والرّحمة

مع واو العطف تصدّرت الآيةُ بالأمر بالقول: ﴿وَقُل﴾؛ وعلّة ذلك فسْحُ الرّجاءِ بالمغفرة والرّحمة بعد ذِكر حساب كلِّ عَبْدٍ عند ربّه، وقد جُعِلَ الرّسول ﷺ الواسطةَ بين يدي ربّه بالدّعاء بالتّجاوز والرّحمة؛ وذلك لمقامه عند ربّه؛ فيكون أدعى لإجابة مولاه.

---

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 593.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 67.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 137.

سِرّ تكرار طلب المغفرة والرّحمة:

تكرّر طلبُ المغفرة والرّحمة مَرّتيْن في سياق هذه الآيات، ولعلّ السِّرَّ في تكرارها هو الاستمرار في دعاء اللّه بنفس دعاء عباد اللّه الذين وصفهم ﷻ فقال: ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ في مقابل الكافرين الذين قال فيهم ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ فمَن أراد الفلاحَ والفوزَ؛ فعليه بدعاء عباد اللّه المؤمنين.

الاستمرارُ في الدّعاء ليتحقّق الفوزُ والفلاح

غرضُ حذف مُتعلّق الفعليْن ﴿ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ﴾:

حُذِف مُتعلِّق الفعليْن ﴿ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ﴾؛ وذلك لتفويض الأمرِ إلى اللّه في تعيين ذلك[1]، فحُمِل على الشُّمول لكلِّ الذُّنوب، ولكلِّ عباد اللّه المؤمنين[2]، وصار المطلوب في الدّعاء هو فعل المغفرة والرّحمة دونَ نظرٍ إلى مُتعلِّق من متعلِّقاتها.

تفويض الأمر إلى اللّه في تعيين مُتعلّق المغفرة والرّحمة؛ ليَشْمَلَ كلَّ الذّنوب، ولكلّ المؤمنين

دلالة الواو وفائدة الجملة الحاليّة:

استعمَلت الآية حرف الواو في قوله: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، وهي واو الحاليّة[3]، ويَحمِل هذا الحالُ ثناءً واستعطافًا في مقام التَّضرُّع والدّعاء[4]، فاغفر لنا وارحمنا، وأنتَ - حين تَرْحَم - خيرُ الرّاحمين؛ استجلابًا لمزيد العَفوِ والرَّأفة واللُّطف بعباد اللّه، وأي رحمة أعظمُ من رحمة اللّه، التي يرجوها العبد.

ثناءٌ واستعطافٌ واستجلابٌ؛ لمزيد العفو والرّأفة واللّطف

إيثارُ الخيريّة في ﴿خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾:

آثَرتِ الآيةُ وصفَ الخيريّة في ﴿خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾؛ ويرجع ذلك إلى أنّ لفظ ﴿خَيۡرُ﴾ يأتي بمعنييْن؛ فيأتي بمعنى الأفضليّة، ويفْسَح المجالَ حينَها لمقارنة رحمتِه ﷻ برحمة غيره؛ فهي رحمةٌ عميمة

رحمتُه تعالى رحمةٌ لا سوءَ فيها، ولا منتهى لها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 137.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5129.
(3) الدّعّاس، إعراب القرآن: 2/ 342.
(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 14/ 273.

وتامّة ودائمة، ورحمةُ غيرِه قاصرةٌ وناقصةٌ ومؤقّتةٌ، وشتّان بين تلك الرّحمات ورحمةِ ربّك[1]، وأمّا لفظُ ﴿خَيۡرُ﴾ فيأتي بالمعنى المقابِل للشَّرِّ، وهنا يتمُّ استحضارُ صورٍ ظاهرُها الرّحمة وباطنها الشَّرُّ، وتلك هي تصرّفات أعداءِ الحَقّ، فمَن وافقَهم أنعموا عليه، وإن خالفهم نَكَّلوا به واستهزؤوا، وإن هو إلّا متاعٌ؛ فصارت الخيريّة تدلّ على رحمةٍ لا سوء فيها، ورحمة لا حدود لها[2].

بلاغةُ أسلوبِ الدّعاء:

دعاءٌ يَرْمُز إلى التّطمين وإزالةِ الغَمّ وإلى مُتارَكَة المُتكبّرين

يحمل أسلوبُ الدّعاء في قوله: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وجوهًا من البلاغة؛ فهو أمرٌ للمصطفى ﷺ بالدّعاء، ويحمل هذا الأمرُ معنى المُتاركة للمُستهزئين، فإذا كان حسابُهم عند ربّهم فلا تأسَ عليهم؛ إن عليكَ إلّا البلاغ، والتجئ إلى ربّك؛ فمنه الرّحْمَة والمغفرة[3]، وهو أيضًا تطمينٌ للنَّبيِّ ﷺ بأنّ هؤلاء لا يفلحون، والفائزُ هو مَن التزم هذا الحَقّ، فاطْمَئِنّ وأبعدْ عنك الغَمّ من مضايقات هؤلاء المُتكبّرين وقبيحِ فِعالِهم؛ فلا يكن في قلبك غَمٌّ من هؤلاء أو جفاءٌ[4]، وإذا جاء أمرُكَ من رَبِّك بالدّعاء فتحقّق بالإجابة[5].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المَغفرة والغُفران:

المغفرة أثرُ الغَفْرِ، والغُفران ترسيخُ فِعلِ الغَفْر وتكثيرُه

يجتمع لفظا المَغفرة والغُفران في أصل الغَفْر، وهو السَّتْرُ والتَّجاوُز، وبالنّظر في سياق استعمال اللّفظيْن، يظهر أنّ لفظ (الغفران) قد ورد مفعولًا مُطلقًا في موضعٍ واحدٍ من القرآن ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [البقرة:

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 159.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5129.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 638.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5129.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 137.

285]، وغرضُه تأكيد فعلِ المغفرة وترسيخه وتكثيره؛ أيِ: اغفِر غفرانًا أكيدًا[1]، أمّا المغفرة فجاءت في مواضع عديدةٍ، بصيغة المَصدرِ الميميّ الذي يُشير إلى الحَدَثِ نفسِه[2]، فالغَفْرُ: سترُ الذَّنب؛ وأثرُه المَغفرةُ، والتّأكيدُ على الفعل (الغفران).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/ 134.

(2) السّامرّائيّ، معاني الأبنية، ص: 31.

سُورَةُ النُّورِ

سُورَةُ النُّورِ

التّعريف العامّ بالسّورة:

سورة النّور كلّها مدنيّة

سورةُ النّور مَدَنيَّةٌ بِاتِّفاقِ أَهْلِ العِلْم، ولا يُعْرَفُ مُخالِفٌ في ذَلِكَ[1]، وآيُها اثْنَتانِ وسِتّونَ في العَدِّ المَدنيّ والمكيّ، وأَرْبَعٌ وسِتّونَ في عَدِّ البَقيَّةِ[2].

والمؤكَّدُ هنا أنَّها السّورة الرّابعة والعشرون في ترتيب المصحف الشّريف، تقع بين سورتيّ المؤمنون والفرقان حسب التَّرتيب التَّوقيفيِّ لسوَر القرآن الكريم، وذكر بعض المفسِّرين أنَّ ترتيبها النُّزوليَّ الثّانية والمائة، بعد سورةِ البيّنة، ونزلَ بعدها سورة المنافقون[3]، وذكر ابن عاشور أنّ ترتيبها النّزوليّ هو المائة، نزلت بعد سورة النّصر وقبل الحجّ عند من يرى أنّها مدنيّة[4].

فضائل السورة:

ورد في فضلها بضع روايات منها: ما أخرجه الحاكم في مستدركه عن عُمَرَ بْن الخَطّابِ ﵁، يَقولُ: «تَعَلَّموا سورَةَ البَقَرَةِ، وسورَةَ النِّساءِ، وسورَةَ المائِدَةِ، وسورَةَ الحَجِّ، وسورَةَ النّور، فإِنَّ فيهِنَّ الفَرائِضَ»[5].

وما ورد في حديث روته السيدة عائِشَة ﵂، من قول النّبي ﷺ: « ... وَعَلِّموهُنَّ المِغْزَلَ وسورَةَ النّور»[6].

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 160، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 158.
(2) الدّاني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 193.
(3) دَرْوَزَة، التّفسير الحديث: 8/ 352.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 140.
(5) الحاكم، المُستدرك على الصّحيحين: حديث رقم: (3493)، ثمّ علّق الذّهبيّ عليه بقوله: هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين ولم يُخرجاهُ.
(6) الحاكم، المُستدرك، حديث رقم: (3494)، وعلّق الذّهبيّ: هذا حديث صحيحُ الإسناد ولم يُخرجاهُ.

دلالة التّوقيت الزّمنيّ لنزول السّورة:

نزلت السّورة في ظروف متقاربة ومددٍ متطاولة

نزلت سورةُ النّور مُنجّمةً ومتفرِّقةً على أزمنةٍ ممتدّة، وقد ألحق بعضُها ببعضٍ على وجهٍ مترابطٍ ترابُطًا موضوعيًّا، ومن الشّواهد على تعدد أوقات نزولها ما ذُكِرَ في أسبابِ نزولِ قَولِهِ تَعالَى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ﴾ المُتعلِّق بقضيَّةِ مَرثدِ بن أبي مَرثدٍ مَعَ عَناقَ؛ حيث اسْتُشْهِدَ في صَفرٍ سَنَةَ ثَلاثٍ لِلهجرَةِ في غَزوَةِ الرَّجيع، فيَكونُ أَوائِلُ هَذِهِ السّورَةِ نَزَلَ قَبلَ سَنَةِ ثَلاثٍ، والأَقرَبُ أن يَكونَ في أَواخِرِ السَّنَةِ الأولَى أَو أَوائِلِ السَّنَةِ الثّانيَةِ أَيّامَ كانَ المُسلِمونَ يَتَلاحَقونَ للهِجرَةِ، وكانَ المُشركونَ جَعَلوهُم كالأسرَى.

وَمِن آياتِها آياتُ قِصَّةِ الإفكِ وهي نازِلَةٌ عَقِبَ غَزوَةِ بَني المُصطَلِقِ مِن خُزاعَةَ، والأَصَحُّ أَنَّ غَزوَةَ بَني المُصطَلِقِ كانَت سَنَةَ أَربَعٍ؛ فإِنَّها قَبْلَ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ، ومِنْ آياتِها ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾ الآيَةَ، نَزَلَت في شَعبانَ سَنَةَ تِسعٍ بعدَ غَزوَةِ تَبوكَ فتَكونُ تِلكَ الآياتُ مِمّا نَزَلَ بَعدَ نُزولِ أَوائِلِ هَذِهِ السّورَةِ[1].

يقول دَرْوَزَة: "فصول السّورة على تعدّدها مترابطة ترابطًا موضوعيًّا أو زمنيًّا؛ فالسّورة الكريمة عالجت عدّة مشكلات وقعت في العهد المدنيّ، وأجابت عن بعض التّساؤلات التي ثارت فيه، وكلّها قضايا متجانسة رغم تباعدها الزّمنيّ تتّصل بموضوعٍ محوريٍّ واحدٍ يهدف إلى استكمال سنن التّشريع الإلهيّ للمجتمع المسلم وتنظيم علاقات أفراده، وتطهيرهم من شهوات النّفس"[2].

أسماء السّورة الكريمة:

سورةُ (النّور) لم تُسَمَّ باسمٍ غيرِه

هَذِهِ تَسْمِيَةُ السّورَةِ في المَصاحِفِ وكُتُبِ التَّفْسيرِ والسُّنَّةِ، ولا يُعْرَفُ لَها اسْمٌ آخَرُ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 139 - 140.
(2) دَرْوَزَة، التّفسير الحديث: 8/ 352.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 139.

وقد تكرر لفظ (النّور) في السّورة الكريمة سبع مرّات؛ خمسٌ منها في آية واحدة في قوله: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [النّور: 35]، ومرّتان في قوله: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النّور: 40].

ويمكن ربط اسم السورة بمحورها وشخصيّتها المميّزة لها، وهو ما نجد له إشارة في كلام الإمام البقاعيّ حيث جعل اسم النّور مرتبطًا بمقطعٍ من مقاطع السّورة يتعلّق بتبرئة أمّ المؤمنين عائشة ﵂ ممّا نُسب إليها، فقال: "مقصودها مدلول اسمها المودَعُ قلبها، المُراد منه أنّه تعالى شامل العلم، اللّازم منه تمام القدرة، اللّازم منه إثبات الأمور على غاية الحكمة، اللّازم منه تأكيد الشرف للنّبيّ ﷺ والطّهارة لأمّ المؤمنين عائشة ﵂"(1).

وذهب الدكتور وهبة الزحيلي إلى أنّها: "سميت سورة النور لتنويرها طريق الحياة الاجتماعية للناس، ببيان الآداب والفضائل، وتشريع الأحكام والقواعد".

بيان المحور العام للسّورة:

يتعلق المحور العام بتبرئة أمّ المؤمنين عائشة ﵂ التي مات النّبيّ ﷺ وهو عنها راض، وماتت ﵂ صالحة محسنة، وهذا هو المقصود بالذّات؛ ولكنّ إثباته محتاج إلى تلك المقدّمات(2)، وقد يحيلُ المحور

تعليق مقتضيات التّمكين بالوازع الأخلاقيّ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/ 229.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 200.

الذي قامت عليه السّورة على التّربية بكلّ وسائلها لرفع المقاييس الأخلاقيّة لتتّصل بنور الله(1).

ومنهج السّورة الكريمة قائم على تربية المجتمع المسلم وتهذيبه، وهذه التّربية وجدانيَّة سلوكيّة تسعى لتبديد شهوات النّفس وظلمات القلب، بدءًا من الأسرة المسلمة التي هي اللّبنة الأولى في المجتمع، فشرّعت أحكامًا تهدف إلى تحقيق العفّة والسّتر ونشر الفضيلة التي هي أمّ الأخلاق كلّها.

موضوعات السورة وخصائصها:

جوامع السّورة يستغرق مقامات تشريعيّة وأخلاقيّة

اشتملت هذه السورة على أحكام مهمة تتعلق بالأسرة والمجتمع وعلاقته مع نفسه ومع الله تعالى، وهي على الترتيب الآتي:

الأول: تضمّنت السورة تشريعات بشأن جريمة الزّنا والقذف، في الآيات [1 - 3].

الثاني: بيان حكم اللعان عند الاتهام بالفاحشة أو نفي نسب الولد، في الآيات [4 - 10].

الثالث: ذكرت قصة الإفك المبنية على سوء الظن، والتسرع بالاتهام؛ لتبرئة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ومحاربة شيوع الفاحشة في المجتمع، في الآيات [11 - 19].

الرابع: نبهت السورة على خطوة اتباع خطوات الشيطان، مما يسبب قطع الأرحام، والدخول في أعراض الناس والابتعاد عن نور الشريعة الغراء، وذلك في الآيات [21 - 26].

الخامس: تحدثت السورة عن بعض الآداب الاجتماعية التي تنسجم مع ما قدمت ذكره من الأحكام، وهي الاستئذان عند دخول البيوت، وغض الأبصار، وحفظ الفروج، وإبداء النساء زينتهن

(1) شحاتة، أهداف كلّ سورة ومقاصدها، ص: 256.

لغير المحارم مما يدل على تحريم الاختلاط بين الرجال والنساء غير المحارم، وذلك في الآيات [27 - 31] [58 - 61].

السادس: حثت السورة على ضرورة قطع مسببات المعاصي، فأمرت بتزويج العزّاب من الرّجال والنّساء والمماليك، في الآيات [32 - 33].

السابع: بينت السورة أثر النّور الإلهيّ في تبديد ظلمات القلب ليحقّق التّمكين في الأرض؛ فتناول حال المؤمنين، وحال الكافرين الذين يعيشون في بحرٍ لجّيّ من الظّلمات، وبيّنت الآيات تسبيح الكون بحمده ﷻ في الآيات [35 - 38].

الثامن: كشفت السورة عن حال المنافقين من زاوية رفضهم الإذعان لما جاء به الله ورسوله ﷺ، وعادت الآيات لتكمل بعض الأحكام الأخلاقيّة للاستئذان الدّاخليّ ولأحكام المخالطة، مبيّنة حال المؤمنين في سرعة الاستجابة لله ورسوله ﷺ بخلاف المنافقين، وذلك في الآيات [39] [48 - 50].

التاسع: أعقبت السورة ذلك تنبيه النّاس إلى أدلّة وجود الله ووحدانيته في صفحات الكون من تقليب الليل والنهار وإنزال المطر وخلق السموات والأرض، وخضوع جميع الكائنات، وذلك في الآيات [40 - 47].

العاشر: ذكرت السورة حكم رفع الحرج عن ذوي الأعذار في الجهاد، وعن الأقارب والأصدقاء في الأكل من بيوت أقاربهم بلا إذن حالَ غيابهم عند خروجهم للجهاد، واستئذان المؤمنين الرسولَ ﷺ عند الانصراف، وتفويضه بالإذن لمن شاء، وتعظيم مجلسه ومناداته بأدب وحياء وتبجيل يليق به وبرسالته، في الآيات [62 - 63].

الخصائص الموضوعية لسورة النّور:

أوّلًا: امتازت سورة النّور بتناولها عدّة أحكام تشريعيّة مازتها عن غيرها وهي: أحكام الزنا، القذف، اللّعان، الاستئذان، غضّ البصر، حفظ الفرج، وأحكام الزّينة الخارجيّة والدّاخليّة للمرأة، وحكم نكاح الزّواني والمشركات، والمكاتبة، والبغاء، وربطت كلّ ذلك بالإيمان بالله والتّوحيد.

ثانيًا: تضمّنت سورة النّور آية فريدة وهي آية المشكاة[1]، فهي قلب هذه السّورة، والرّابط بين آياتها[2].

ثالثًا: تميّزت السّورة الكريمة بتناولها لآية التّمكين وهي قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النّور: 55] وهذا مرتبطٌ بمحور السّورة القائم على الرّبط بين الصّلاح الأخلاقيّ والشّهود الحضاريّ للأمّة المسلمة.

الخصائص الأسلوبية لسورة النّور:

لسورة النّور عدّة خصائص أسلوبيّة مميّزَة بيّنت ملامح السورة وشخصيتها؛ ومنها:

أوّلًا: تميّزت السّورة الكريمة بمطلع فريد انفردت به عن غيرها من السّور، فلم تبدأ سورة أخرى بهذا البدء القويّ الحاسم الذي يحمل في طيّاته وعيدًا لمن لا يمتثل بما سيأتي بعده: ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.

ثانيًا: امتازت سورة النّور بعدد من التّشبيهات التّمثيليّة الخاصّة، ولا شكّ أنّ هذه التّشبيهات والاستعارات إنّما جاءت مرتبطة بشخصيّة السّورة الكريمة ومحورها الذي قامت عليه، فمنها:

ما جاء في وصف تلقّي بعض النّاس لخبر الإفك: ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾ [النّور: 15].

وشبّهت نور اللّه تعالى في آية النّور تشبيهًا منتزعًا من صورٍ شتّى أوقعت أثرًا في قلوب المؤمنين لا يتأتّى زواله: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [النّور: 35].

(1) سورة النّور: آية: (35).

(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 568.

وضربت السّورة الأمثال في وصف أعمال الكافرين فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠﴾ [النّور: 39 - 40] حيث شبّه أعمال الكافرين بالسّراب، حيث لا ثواب ولا أجر له فيه؛ ووجه الشّبه هو توهّم أنّ ما يسعى له موجود[1].

وكذلك في قوله: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾ [النّور: 40] فهذا التّمثيل بيّن التّخبّط الذي يعيشه الكافر في حياته، فكان كلُّ عمله ظلمات، ثمّ بيَّن أشدّ أنواع الظلمات على الإنسان وهي ظلمات البحر المتلاطمة أمواجه للغريق فيه، ليبيّن أنّ من لم يوفّقه اللّه للإيمان فلا نور له يهتدي به في حياته فينجو[2].

ثالثًا: انفردت السورة بأبنية لأفعال وأسماء لم ترد إلا فيها، حيث انفردت بأفعال مضارعة لم تتكرّر في غيرها مثل: ﴿تُلۡهِيهِمۡ﴾ [النّور: 37]، ﴿تَمۡسَسۡهُ﴾ [النّور: 35]، ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ﴾ [النّور: 55]، ﴿يَنكِحُهَآ﴾، ﴿يَجِدۡهُ﴾ [النّور: 39]، ﴿يَضَعۡنَ﴾ [النّور: 60]، ﴿يُوقَدُ﴾ [النّور: 35]، ﴿وَيَتَّقۡهِ﴾ [النّور: 52]، ﴿تَأۡخُذۡكُم﴾، ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ﴾ [النّور: 58]، ﴿يُؤَلِّفُ﴾ [النّور: 43]، ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ﴾ [النّور: 15]، ﴿وَيَحۡفَظۡنَ﴾ [النّور: 31]، ﴿وَيَحۡفَظُواْ﴾ [النّور: 30]، ﴿يُخۡفِينَ﴾ [النّور: 31]، ﴿يُخَالِفُونَ﴾ [النّور: 63]، ﴿تَدۡخُلُوهَا﴾ [النّور: 28]، ﴿تُرۡفَعَ﴾ [النّور: 36]، ﴿يَرۡمُونَ﴾، ﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾ [النّور: 63]، ﴿وَتُسَلِّمُواْ﴾ [النّور: 27]، ﴿تَشِيعَ﴾ [النّور: 19]، ﴿وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ﴾ [النّور: 22]، ﴿وَيَصۡرِفُهُۥ﴾ [النّور: 43]، ﴿يَضۡرِبۡنَ﴾ [النّور: 31]، ﴿تُطِيعُوهُ﴾ [النّور: 54].

وكذلك انفردت بصيغ أفعال ماضية لم تتكرّر في غيرها مثل: ﴿حُمِّلَ﴾ [النّور: 54]، ﴿حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ [النّور: 54]، ﴿أَنزَلۡنَٰهَا﴾، ﴿أَرَدۡنَ﴾ [النّور: 33]، ﴿ٱرۡتَابُوٓاْ﴾ [النّور: 50]، وكذلك أفعال أمر مثل: ﴿وَأَنكِحُواْ﴾ [النّور: 32]، ﴿فَٱجۡلِدُواْ﴾، ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ﴾.

وانفردت بأبنية أسماء لم ترد في غيرها مثل: ﴿كِبۡرَهُۥ﴾ [النّور: 11]، ﴿شُهَدَآءَ﴾، ﴿إِكۡرَٰهِهِنَّ﴾

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 8/ 170.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 257.

[النّور: 33]، ﴿لِوَاذًاۚ﴾ [النّور: 63]، ﴿هَيِّنًا﴾ [النّور: 15]، ﴿ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ [النّور: 31]، ﴿مُبَرَّءُونَ﴾ [النّور: 26]، ﴿بَرْقِهِۦ﴾ [النّور: 43]، ﴿أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ [النّور: 31]، ﴿ٱلْبِغَآءِ﴾ [النّور: 33]، ﴿أَبْنَآئِهِنَّ﴾ [النّور: 31]، ﴿ثِيَابَكُم﴾ [النّور: 58]، ﴿ثِيَابَهُنَّ﴾ [النّور: 60]، ﴿تَحَصُّنًا﴾ [النّور: 33]، ﴿ٱلْحُلُمَ﴾ [النّور: 58]، ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ﴾ [النّور: 26]، ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ [النّور: 26]، ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾ [النّور: 26]، ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾، ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ [النّور: 31]، ﴿خَوْفِهِمْ﴾ [النّور: 55]، ﴿أَخْوَٰلِكُمْ﴾ [النّور: 61]، ﴿دُرِّيٌّ﴾ [النّور: 35]، ﴿أَرْبَعُ﴾ [النّور: 6]، ﴿مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [النّور: 49]، ﴿رِجْلَيْنِ﴾ [النّور: 45]، ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [النّور: 35]، ﴿مِصْبَاحٌۖ﴾ [النّور: 35]، ﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾ [النّور: 35]، ﴿زِينَتَهُنَّ﴾ [النّور: 31]، ﴿كَسَرَابٍ﴾ [النّور: 39]، ﴿سَنَا﴾ [النّور: 43]، ﴿شَأْنِهِمْ﴾ [النّور: 62]، ﴿شَرْقِيَّةٍ﴾ [النّور: 35]، ﴿بِقِيعَةٍ﴾ [النّور: 39]، ﴿صَدِيقِكُمْۚ﴾ [النّور: 61]، ﴿صَلَاتَهُۥ﴾ [النّور: 41]، ﴿طَوَّٰفُونَ﴾ [النّور: 58]، ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ﴾ [النّور: 26]، ﴿ٱلظَّمْـَٔانُ﴾ [النّور: 39]، ﴿ٱلظَّهِيرَةِ﴾ [النّور: 58].

رابعًا: امتازت السّورة بكثرة ذكر بعض الأبنية الصرفيّة فيها، وهي: ﴿بُعُولَتِهِنَّ﴾؛ وردت مرّتين من أصل ثلاث مرّات في القرآن الكريم، و﴿بُيُوتٍ﴾ [النّور: 36]؛ حيث وردت سبع مرّات وهي ثلث مرّات ورودها في القرآن كلّه، ممّا يدلّل على عناية السّورة الكريمة بإصلاح البيوت الصّغيرة توطئة لصلاح بيت الأمّة الكبير، وامتازت السّورة الكريمة كذلك بذكر أربع انفرادات لفظية وهي: ﴿ٱلْأَيَٰمَىٰ﴾ [النّور: 32]، ﴿يَحِيفَ﴾ [النّور: 50]، ﴿مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [النّور: 49]، ﴿لِوَاذًاۚ﴾ [النّور: 63]، وجلّها مرتبط بشخصية المنافقين في هذه السّورة.

خامسًا: سورة النّور جاءت معظم فواصلها منتهية بحرف النّون؛ وعددها واحد وثلاثون فاصلة، وبحرف الميم؛ وعددها ثلاث وعشرون فاصلة، أمّا الفواصل الأخرى فهي عشر انتهت سبع فواصل منها بحرف الرّاء، والباء؛ وجاءت في فاصلتين، واللّام؛ في فاصلة واحدة، وفي دلالة ألفاظ وفواصل الآيات معان تتوافق مع وحدة السّورة وهداياتها التربوية.

سادسًا: امتازت السّورة الكريمة بذكر بعض التّراكيب والتّعابير التي تكرّرت فيها، ومن أمثلته: قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ حيث ذكر هذا التّركيب أربع مرات[1]، وقصد منه تذكير المخاطبين بفضل اللّه عليهم ورحمته بهم، سواء أكان ذلك في سياق التيسير عليهم أم في الحدود التي فرضها اللّه لتنظيم حياتهم، وتطهير قلوبهم

(1) الآيات من سورة النّور: 10 - 14 - 20 - 21.

من الفواحش وتزكيتها، فضلًا عن تكرّر (لَوْلا) في هذه السّورة سبع مرّات يُذكر فيها جوابها أحيانًا أو يُحذف[1].

وكذلك تكرّر التّركيب: (يبيّن الله)، أربع مرّات في السّورة، وفي كلّ مرّة كان يبيّن علّة هذا البيان من خلال ربطه ﷻ له بأسمائه الحسنى، ففي أثناء تعقيبه على حادثة الإفك قال: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النّور: 18]، وفي نهاية الحديث عن أحكام الاستئذان الدّاخليّ في البيوت قال في آيتين متتابعتَيْن: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النّور: 58]، وبعد بيان من يحلّ الأكل معهم ومجالستهم عقّب قائلًا: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النّور: 61]، ولا شكّ أنّ هذا البيان مرتبطٌ تمامًا بمحور السّورة ومقصودها التّام الذي بدأته بوصفها لآياتها بقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

سورةُ (النّور) رغم مدنيّتها إلّا أنّها متّصلة تمام الاتّصال بالسّور المكّيّة المجاورة لها

بيان المناسبة بين السّورة وسابقتها ولاحقتها:

ذكر ابن الزّبير الغرناطيّ في سبب ارتباط سورة النّور بسورة المؤمنين أنّه لمّا قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ﴾ [المؤمنون: 5]، ثم قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: 7]، استدعى الكلامُ بيانَ حكم العادين في ذلك، ولم يُبيّن فيها، فأوضحه في سورة النّور فقال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ الآية، ثمّ أتبع ذلك بحكم اللّعان والقذف، وانجرّ مع ذلك الإخبار بقصّة الإفك تحذيرًا للمؤمنين من زلل الألسنة رجمًا بالغيب ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النّور:15]، وأتبع ذلك بوعيد محبّي شيوع الفاحشة في المؤمنين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ [النّور: 23]، ثمّ بالتّحذير من دخول البيوت دون استئذان

---

(1) الآيات: 10، 12، 13، 14، 16، 20، 21.

مشروع، ثمّ بالأمر بغضّ البصر للرّجال والنّساء، ونهي النّساء عن إبداء الزّينة إلّا لمن سمّى اللّه سبحانه في الآية، وتكرّرت هذه المقاصد في هذه السّورة[1]، وعلّق السّيوطيّ على هذا الرّبط بقوله: ولا ارتباط أحسن من هذا الارتباط، ولا تناسق أبدع من هذا النّسق[2].

وأمّا وجه ارتباطها بسورة الفرقان فيقول أبو حيّان: "إِنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ فِي النّور وُجوبَ مُبايَعَةِ المُؤْمِنينَ لِلرَّسولِ وأَنَّهُم إذا كانوا مَعَهُ في أَمرٍ مُهِمّ تَوَقَّفَ انْفِصالُ واحِدٍ مِنْهُم على إِذْنِهِ، وحَذَّرَ مَنْ يُخالِفُ أَمرَهُ، وذَكَرَ أَنَّ لَهُ مُلْكَ السموات والأَرْضِ، وأَنَّهُ تَعالَى عالِمٌ بما هُم عليه ومُجازيهم على ذَلِكَ، فكانَ ذَلِكَ غايَةً في التَّحْذيرِ والإِنْذارِ، ناسَبَ أَنْ يَفْتَتِحَ سورة الفرقان بِأَنَّهُ تَعالَى مُنَزَّهٌ في صِفاتِهِ عَنِ النَّقائِصِ كَثيرُ الخَيْرِ، ومِنْ خَيْرِهِ أَنَّهُ نَزَّلَ الفُرْقانَ على رَسولِهِ مُنْذِرًا لَهُم؛فَكانَ في ذَلِكَ إِطْماعٌ في خيره وتحذير من عقابه"[3].

وأضاف المراغيّ بعض وجوه الرّبط الأخرى بين السّورتيْن وهي:

أوّلًا: الإحالة على أنّه سبحانه اختتم سورة النّور بكونه مالكًا لما في السّماوات والأرض مصرّفًا له على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة مع النّظام البديع والوضع الأنيق، وأنّه سيحاسب عباده يوم القيامة على ما قدّموا من العمل خيرًا كان أو شرًّا، وافتتح الفرقان بما يدلّ على تعاليه في ذاته وصفاته وأفعاله وعلى حبّه لخير عباده بإنزال القرآن لهم هاديًا وسراجًا منيرًا.

ثانيًا: وأنّه اختتم سورة النّور بوجوب متابعة المؤمنين للرّسول ﷺ مع مدحهم على ذلك وتحذيرهم من مخالفة أمره خوف الفتنة والعذاب الأليم، وافتتح الفرقان بمدح الرّسول وإنزال الكتاب عليه لإرشادهم إلى سبيل الرّشاد، وذمّ الجاحدين لنبوّته بقولهم: إنّه رجل مسحور، وإنّه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق إلى آخر ما قالوا.

ثالثًا: وأنّ في كلٍّ من السّورتيْن وصفًا للسّحاب وإنزال الأمطار وإحياء الأرض الجرز.

رابعًا: وأنّه ذكر في كلٍّ منهما وصف أعمال الكافرين يوم القيامة وأنّها لا تجزيهم فتيلًا ولا قطميرًا؛ فقال في الأولى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ [النّور: 39] الآية، وقال في هذه: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان: 23].

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 259 - 260.
(2) السّيوطيّ، تناسق الدُّرر، ص: 112.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 79.

خامسًا: وأنّه وصف النّشأة الأولى للإنسان في أثنائهما، فقال في الأولى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ﴾ [النّور: 45]، وفي الثانية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ﴾ [الفرقان: 54][1].

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 145.

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ①﴾ [النّور: 1]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذكر دلائل الرحمة ووسائلها بعد الأمر بطلبها

لمّا ذَكَرَ اللّه ﷻ في آخر سورة المؤمنون المَبدَأ العامَّ في مسألة الخلق، وهو أنَّه لم يخلقنا عبثًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:115] بيَّن في سورة النّور أنَّه شرع لنا ما نستضيء به في حياتنا مِمّا فرضه علينا من الأحكام والأداء[1]، فجاء في أول سورة النّور: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وكذلك لمّا أمر رسول اللّه ﷺ في خاتمة السّورة المتقدمة بطلب المغفرة والرَّحمة، وطلبه يستلزم مطلوبه لا محالة، بدليل سَلْ تُعط، أردفه بِذِكْرِ ما هو أصل كُلِّ رحمة ومنشأ كُلِّ خير ببيان ما خُلقوا له من الأحكام لأنَّهم لم يُخلقوا سُدى، بل لتكاليف تعبدهم بها ترفع التَّنازع وتحسم مادَّة الشَّرِّ، فتوجب الرَّحمة[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُورَةٌ﴾: أَصلُ الكلمةِ مِنَ السَّوْرِ وهو العُلُوُّ والارْتِفاعُ، يُقالُ: سارَ يَسورُ سَوْرًا؛ أَيْ: عَلا وارْتَفَعَ[3]، والسّورَةُ: المَنْزِلَةُ والرِّفعَةُ[4]، تقولُ: كانَتْ لهم سورةٌ جليلَةٌ؛ أَيْ: منزلَةٌ، والجَمعُ: سوَرٌ، والسّورةُ أيضًا: مَجموعُ آياتٍ ممّا أنزل اللّهُ تعالى، معلومُ الابتداءِ والانتهاءِ، والسّورَةُ: بالهَمزِ وبتَركِه؛ فبالهَمزِ مِن السُّؤْرِ: وهو البَقيَّةُ مِمّا

(1) السّيوطيّ، الدُّرُّ المنثور: 6/ 104.
(2) النَّيسابوريّ، تفسير غرائب القرآن: 5/ 141، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/ 229.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سور).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سور).

يَشرَبُ الشّارِبُ؛ لأنَّ كُلَّ سورةٍ مِن القُرآنِ بَقيَّةٌ منه، وبغيرِ الهَمزِ: قيل: مِنَ السّورِ بمعنى الجماعةِ؛ لأنَّ السّورةَ مُشتَمِلةٌ على جماعةِ الآياتِ[1]، أو مِن السّورِ المُحيطِ بالأبنيةِ؛ لأنَّ السّورةَ مُحيطةٌ بالآياتِ[2]، وقيل غيرُ ذلك، وأمّا المُراد بها في الآيةِ: فجزءٌ من القرآنِ مُعَيَّنٌ بمبدأٍ ونهايةٍ وعددِ آياتٍ[3].

2) ﴿وَفَرَضۡنَٰهَا﴾: (فرض) أَصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تأثيرٍ في شَيءٍ مِنْ حَزٍّ أو غيره، فالفَرضُ: الحَزُّ في الشَّيءِ، يُقالُ: فرَضَ الخَشَبَةَ؛ أيْ: حزَّها أو قَطعَها[4]، ويُطلَقُ بمَعنى الإلزامِ، فيُقال: فرَضَ عليهِ الأَمرَ؛ أيْ: أوْجَبَهُ وأَلْزَمَهُ به، ويأتي بمعنى التَّقْدير، فيُقال: فرَضَ القاضي النَّفَقَةَ فرْضًا؛ أيْ: قَدَّرَها، ومن مَعانيهِ أيضًا: الثُّبوتُ والتَّوْسيعُ والتَّخْصيصُ[5]، ومعنى الفَرض في الآية: التَّقدير، والمُراد به تقدير ما فيها من الحدود والأحكام على أتمِّ وجهٍ[6].

3) ﴿ءَايَٰتِۭ﴾: أصلُ الآيةِ العلامة الثّابتة من قولك: تأَيَّيْتُ بالمكان إذا أقمتُ به وثبتُّ فيه: ومن ثم يُقالُ: لأجعلنَّك آية؛ أيْ: علامة، مُشتقَّة مِن التَّأَيّي الَّذي هو التَّثبت والإقامة على الشَّيءِ[7]، تَقولُ: خَرِبَتْ دارُ فُلانٍ وما بَقيَ فيها آيَةٌ؛ أيْ: عَلامَةٌ، ومِنْهُ سُمّيَت الآيَةُ مِن القُرْآنِ بِذلك لأنَّها عَلامَةٌ لانْقِطاعِ الكلامِ الذي قَبْلَها والذي بَعْدَها، وتُطلَقُ على المَصْنوعِ المُعْجِبِ لِأَنَّهُ يكونُ علامةً على إتقانِ صانِعِه أو عَظَمَةِ صاحِبه[8]، وكذلك تُطلَقُ على الحُجَّةِ المثبَتَةِ لأنَّها علامَةٌ على ثُبوتِ الحَقِّ، وتُطلَقُ أيضًا على العِبْرَةِ، وهي أمرٌ وقع ومضى لكن بقي ما يُتَّعَظ به منه ويُتَّخذ مثلًا[9]، والمُراد مِنَ الآياتِ المُنَزَّلَةِ في هذهِ السّورةِ جَميعُ ما اشْتَمَلَتْ عليه من الآياتِ لا آياتٌ مخصوصةٌ مِنْ بَيْنِها[10].

(1) الرّاغب، المُفردات، الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 1/ 84.
(2) الرّاغب، المُفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ: (سور).
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 120، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 142.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرض).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (فرض).
(6) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 66.
(7) الخليل، العين، والرّاغب، المُفردات: (أى).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أيَّ).
(9) الزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (إيي - إي).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 144.

4) ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾: أصلُ الكلمةِ مِن البَيْنِ، وهو بُعْدُ الشَّيءِ وانْكِشافُهُ، فالبَيْنُ الفِراقُ؛ يُقالُ بانَ يَبِينُ بَيْنًا وبَيْنونَةً، والبَيونُ البِئْرُ البَعيدَةُ القَعْرِ[1]، والبَيِّنَةُ: الأمرُ الواضح، ومنه قوله: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: 57]؛ أيْ: أنا على أمرٍ واضحٍ ظاهرٍ، والبَيِّنة أيضًا: الحُجَّة، ومنه: (البَيِّنةُ على المدَّعي)؛ لأنَّ بها ينكشف الحقّ ويتَّضح، والبَيِّنةُ كذلك: الدَّلالة الواضحة عقليَّة كانت أو حسيَّة[2]، والبيانُ: التَّوضيحُ والكَشْفُ، يُقالُ: بانَ الشَّيءُ وأَبانَ إذا اتَّضَحَ وانكَشَفَ، وفُلانٌ أَبْيَنُ مِنْ فُلانٍ؛ أيْ: أَوضَحُ كَلامًا مِنْهُ[3]، والمقصود بالبَيِّناتِ في الآية: جَمعُ بَيِّنَةٍ، وهيَ الواضحات الدَّلالة على وحدانيتنا، وقُدرتنا[4].

5) ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: أصلُ الذِّكرِ الحِفْظُ الَّذي تَذْكُرُه، وهو خِلافُ النِّسيانِ[5]، ثُمَّ حُمِلَ عليه الذِّكْرُ باللِّسانِ، فالذِّكْرُ ما ذَكَرْتَهُ بِلِسانِكَ وأَظهرته، والذُّكْرُ - بضَمِّ الذّال - بالقَلْبِ، يُقالُ: ما زالَ مِنّي على ذُكْرٍ؛ أيْ: لَم أَنْسَه[6]، والتَّذكِرَةُ: ما تُستَذْكَرُ به الحاجَةُ، واسْتَذْكَرَ الشَّيءَ: دَرَسَهَ للذِّكْرِ، والاسْتِذْكارُ: الدِّراسَةُ لِلْحِفْظِ، والتَّذَكُّر: تَذَكُّرُ ما أُنسيته[7]، والمقصود بالتَّذَكُّرِ في الآية: خُطورُ ما كانَ منسيًّا بالذّهن، وأَصلُهُ تَتَذَكَّروا، فأُدْغِمَ التّاءُ في الذّالِ لتقارُبِ مخرجيهما، وهو مِنَ الذُّكْرِ المضمومِ الذّالِ الَّذي هو ضِدُّ النِّسيانِ[8]؛ أيْ: تتذكرون وتتَّعظون.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الإرشـاد إلى النِّظام الأقوم والسُّلوك الأمثَل في الأسرة والمجتمع

يُخبِرُ الحقُّ تعالى أنَّ هذه السّورةَ أَنزَلَها، وبَيَّنَ فيها واجباتٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(2) السّمين، عُمدة الحُفّاظ: (بين).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 78.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والمحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(6) أبو عمرو الشّيبانيّ، الجيم، وابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).
(7) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عباد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 145.

ونواهيَ، وقدَّرَ فيها ما تضَمَّنَتْه من الحُدودِ والحُقوقِ، وأوجبَ العملَ بما اشتمَلَتْ عليه، وأنزَلَ فيها آيات واضحات الدّلالة على ما فيها من الأَحكام والآداب، فليس فيها مشكلات أَو مشتبهات تحتاج إِلى التَّأويل؛ وذلك لكي تَتذكَّروا بهذه الآياتِ وتَتَّعظوا بها وتَعملوا(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مقاصدُ تنكيرِ ﴿سُورَةٌ﴾:

تفخيم شأن هذه السّورة استرعاءً لـلـسّـامـعـين للأخذ بأحكامها

التَّنكير في لفظ ﴿سُورَةٌ﴾ مُفيدٌ للفخامة من حيث الذّات(2) والصِّفات(3) فهي سورة عظيمة جليلةٌ مُشتملة على قصص وأحكام وعِبَرٍ ومَواعِظَ وحدود وأمثالٍ(4)، ويكون الابتداء بكلمة سورَةٌ ثُمَّ التّثنيةُ بذكرِ الصِّفات تشويقًا إلى ما يأتي بعده(5) مِثْلَ قول النبي ﷺ «كلمتان حبيبتان إلى الرَّحمن خفيفتان على اللِّسان ثقيلتان في الميزان سُبحان اللّه وبحمده سُبحان اللّه العظيم»(6).

والسّورة حقيقة بهذه العناية؛ فقد عالجت ناحية من أخطر النَّواحي؛ ناحية الأسرة وما يحفُّها، وبخاصَّة العِرض وأثره والخوض فيه، ثُمَّ ذكرت قِصَّة الإفك وما فيها من آداب وحكم غالية، وإشارات سامية، وما يستتبع ذلك من الأمر بغضِّ النَّظر، والاستئذان وغير ذلك ممّا يُساعد على العِفَّة، وعلى العُموم ففي هذه السّورة أسس الحياة المنزليَّة وآداب الحياة الزوجيَّة الصَّحيحة، وما يتَّصل بذلك(7).

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 136، 137، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 158، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 5.
(2) البروسويّ، روح البيان: 6/ 11، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 7/ 308.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 155، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 273.
(4) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 6/ 105.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 142.
(6) الحديث مُتَّفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، البُخاريّ، صحيح البخاريّ، كِتابُ الدَّعَواتِ، بابُ فضْلِ التَّسْبيحِ، برقم: (6406)، ومُسلم، صحيح مُسلم، كتاب الذِّكْرِ والدُّعاءِ والتَّوْبَةِ والاِسْتِغْفارِ، بابُ فضْلِ التَّهْليلِ والتَّسْبيحِ والدُّعاءِ، برقم: (2694).
(7) حجازيّ، التّفسير الواضح: 2/ 649.

بلاغة استعارة لفظ السّورة للطّائفة من القرآن:

من تسوّر بسور القرآن عُصِمَ من الفتن والشَّيطان

السّورة هي الطّائفة من القرآن، التي أقلُّها ثلاث آيات، منقولة، ومستعارة من سور المدينة وهو حائطها المُشتملُ عليها[1]؛ لأنَّها محيطة بآياتها إحاطة السّور بما يكون بداخله، محتويةٌ على أنواع من العلم، احتواء سور المدينة على ما فيها، أو من السّورة، وهي الرُّتبة والمنزلة السّامية؛ لأنَّ السّوَرَ كالمراتب والمنازل يرتقي فيها القارئ، ولها مَراتب في الطّول، والقصر، والفضل، والشَّرف، وثواب القراءة[2]؛ والسّورة القرآنية سميت بذلك لرفعتها وعلوّ شأنها؛ فالسّورة أصلُها الرِّفعة، قال النّابغة للنُّعمان بن المُنذر:

أَلَم تَرَ أَنَّ اللّه أَعْطاكَ سورةً *** تَرى كُلَّ مُلْكٍ دونَها يَتَذَبْذَبُ[3]

فَخَصَّ السّورة من القرآن بهذا الاسم لِشَرَفِها وعُلوِّ منزلتها ولما فيها من الأحكام الشَّريفة العالية وارتفاعها بذكر الأحكام العظام[4]؛ وعلى كِلا المَعْنَيَيْن ففي التَّعبير بالسّورة استعارةٌ تصريحيَّة أصليَّة حيث شُبِّهت السّورة بالسّورِ في احاطتها بما تحويه أو بالمراتب العالية في الشَّرف والرِّفعة وكلا المعنَيَيْنِ لائقٌ بسور القرآن.

غرض حذف المبتدأ:

اعتِبارُ كَونِها في شَرَفِ الذِّكرِ في حُكْمِ الحاضِرِ المُشاهَدِ

قَولُه تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَـٰهَا﴾ خبرُ مبتدَأٍ مَحذوفٍ[5]؛ أيْ: هذه سورةٌ، وإنَّما أُشيرَ إليها مع عَدمِ سَبْقِ ذِكرِها؛ لأنَّها باعتِبارِ كَونِها في شَرَفِ الذِّكرِ في حُكْمِ الحاضِرِ المُشاهَدِ[6]، فاسم الإشارة

(1) البروسويّ، روح البيان: 6/ 113.
(2) الدُّرة، تفسير القرآن الكريم: 6/ 316.
(3) ابن سلام، الأمثال، ص: 186.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 158، والسَّمرقنديّ، تفسير السّمرقنديّ: 2/ 494، والسّيواسيّ، عيون التّفاسير: 3/ 158.
(5) ويجوز أن تكون ﴿سُورَةٌ﴾ مبتدأ ويكون قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ [النّور: 2] إلى آخر السورة خبرًا عن ﴿سُورَةٌ﴾ وساغ الابتداء بالنكرة، لأنّها وُصفت بجملة ﴿أَنزَلۡنَـٰهَا﴾، يُنظر: الدَّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 6/ 557.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 155، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 273.

المُقَدَّر يُشيرُ إلى حاضر في السَّمع وهو الكلام المُتتالي، فكلُّ ما ينزل من هذه السّورة وأُلحِقَ بها من الآيات فهو من المُشار إليه باسم الإشارة المقدَّر[1].

نُكتة إسناد فعل الإنزال إلى ضمير العظمة والكبرياء:

التَّنويه بالسّورة ببيان عظمتها وعظمة أحكامها

قَوله تعالى: ﴿أَنزَلۡنَٰهَا﴾؛ أيْ: بما لنا من العظمة وتمام العلم والقُدرة[2]، بَيَّنَ تعالى أنَّه هو الذي أَنزلها، مُعَبِّرًا عن نفْسِه بصيغةِ الجَمعِ التي تدُلُّ على عَظَمتِه تعالى، وذلك يتضمَّنُ عَظَمةَ هذه السّورةِ؛ ويدلُّ على وجوبِ امتِثالِ أوامرِها، وما فيها مِن حدودٍ وأحكامٍ وآدابٍ؛ ففي هذا الإسناد تنويه بالسّورة بما يدل عليه ضمير الجلالةً الدّالٌّ على العناية بها وتشريفها[3].

دلالة التَّعبير بصيغة الماضي ﴿أَنزَلۡنَٰهَا﴾:

تحقيق وقوع الإنزال اعتناء بشأنه وحرصًا عليه

عَبَّرَ النّظم الكريم عن إنزالِها بصيغَةِ المُضيِّ - وإنَّما هو واقِعٌ في الحالِ - باعتِبارِ إرادةِ إنزالِها، فكأنَّه قيل: (أرَدْنا إنزالَها وإبلاغَها)، فجَعَل ذلكَ الاعتِناءَ كالماضي؛ حِرصًا عليه، وهذا مِن استِعمالِ الفِعلِ في معنى إرادةِ وُقوعِه، كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [المائدة: 6] الآية[4].

دلالة العطف بجمع الفَرْضِ مع الإنزال وسِرُّ تقديم الإنزال عليه:

بيان أنَّ الغَرَض من الإنزال الطّاعة والامتثال

عَطَفَ النَّظم الكريم الفرضيَّة على الإنزال في قوله تعالى: ﴿أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا﴾ لبيان أنَّ الغرض منها ليس مُجرَّد الإنزال وإنَّما الإنزال المصحوب بوجوب تنفيذ الأحكام والآداب التي اشتملت عليها، والتي أنزلت من أجلها[5]؛ فالفرض مُتَفرع على الإنزال تابع له.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 141.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/ 229.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 142.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 142.
(5) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 10/ 77.

سِرُّ إيثار التّعبير بـ (فرض) دون غيره:

الإشارة إلى أغلبيَّة الأحكام والحُدود في السّورة الكريمة

قَولُه: ﴿وَفَرَضۡنَٰهَا﴾؛ أيّ: فرَضْنا ما بُيّن فيها، وإنَّما قال ذلكَ؛ لأنَّ أكثَرَ ما في هذه السّورةِ مِن بابِ الأَحكامِ والحُدودِ[1]؛ فقولُه: وفرَضْناها بمَنزلةِ بَراعةِ الاستِهلالِ لما بعدها أيضًا؛ لأنَّ قولَه: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ﴾ ... إلى آخِرِ السّورةِ مِنَ الأحكامِ كالتَّفصيلِ[2].

سِرُّ إسناد فعل الفَرْضِ إلى ضمير العظمة والكبرياء:

قولِه: ﴿وَفَرَضۡنَٰهَا﴾؛ أيّ: بما لنا من العظمة وفي هذه النِّسبة مِنَ الإيذانِ بغايةِ وِكادةِ الفَرْضيَّةِ ما لا يَخفَى[3] مع تفخيم شأنها بنون العظمة[4].

وجه القراءات في لفظة ﴿وَفَرَضۡنَٰهَا﴾:

إفادة المُبالغة والتَّكثير في قراءة التَّشديد، وإفادة الإلزام والإحكام في قراءة التَّخفيف

قَرَأَ ابْنُ كَثيرٍ وأَبو عَمرٍو بِتَشْديدِ الرّاءِ ﴿وَفَرَّضۡنَٰهَا﴾، وقَرَأَ الباقونَ بِتَخْفيفِها[5]، قِراءة ﴿وَفَرَّضۡنَٰهَا﴾ بتَشديدِ الرّاءِ؛ أيّ: فرضْنا فرائضَها، فحُذف المضافُ، وقيل: معناها: أَنزَلْنا فيها الأحكامَ الكَثيرةَ فرْضًا بَعدَ فرْضٍ، وقيل: بَيَّنّا وفصَّلْنا ما فيها مِن أمرٍ ونَهيٍ، وتَوقيفٍ وحَدٍّ[6]، وقِراءة ﴿وَفَرَضۡنَٰهَا﴾ بتَخفيفِ الرّاءِ؛ معناها: (أَلْزَمناكُم العملَ بما فرَضْنا فيها وبَيَّنّا من الواجباتِ والحُقوقِ)[7].

فقراءة التَّشديد لِلمُبالَغةِ في الإيجابِ وتَوكيدِه، أو لأنَّ فيها فرائضَ شتَّى، أو لكثرةِ المفروضِ عليهم[8]، والمُبالغة، فمن حيث إنَّها حدود وأحكام فلا بُدَّ من المُبالغة في إيجابها ليحصل

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 301، والطّيبي، حاشيته على تفسير الكشّاف: 11/ 6.

(2) الطّيبي، حاشيته على تفسير الكشّاف: 11/ 6.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 155.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 244.

(5) الدّانيّ، التَّيسير، ص: 161، وابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 330.

(6) الأزهريّ، معاني القراءات: 2/ 201، وابن خالويه، الحُجَّة، ص: 259، 260، وابن زنجلة، حجَّة القراءات، ص: 494.

(7) ابن خالويه، الحُجَّة، ص: 259، وابن زنجلة، حُجَّة القراءات، ص: 494.

(8) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 208، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 98، وأبو حيّان: 8/ 6.

الانقياد لقبولها، وأمّا التَّكثير فلوجهيْن: **أحدهما**: أنَّ اللّه تعالى بيَّن فيها أحكامًا مُختلفة، و**الثّاني**: أنَّه ﷻ أوجبها على كُلِّ المُكلَّفين إلى آخر الدَّهر[1].

دلالة الواو والتَّعبير بالإنزال مرَّةً أُخرى:

إظهار مزيد العناية بإنزال الآيات البَيِّنات إبانةً لخَطَرِها، ورَفعًا لمَحلِّها

قولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾: أُعيد فِعْلُ الإنزال مع إغناء حرف العطف عنه لإظهار مزيد العناية بها[2] فإنْ أُريدَ بها الآياتُ الَّتي نيطَتْ بها الأَحكامُ المَفروضةُ، فتَكريرُ (أَنْزَلْنا) مع استِلزام إنزالِ السّورةِ لإنزالِها؛ لإبرازِ كَمالِ العِنايةِ بشأْنِها كما هو الحال في ذكر الخاصّ بعد العامِّ، وإنْ أُريدَ جَميعُ الآياتِ، فتَكريرُ (أَنْزَلْنا) مع أنَّ جميعَ الآياتِ عَيْنُ السّورةِ، وإنزالَها عَيْنُ إنزالِها؛ لاستِقلالِها بعُنوانٍ رائقٍ داعٍ إلى تَخصيصِ إنزالِها بالذِّكرِ؛ إبانةً لخَطَرِها، ورَفعًا لمَحلِّها[3].

إسناد الإنزال إلى ضمير المُعَظِّمِ نَفْسَه:

قولُه تعالى: ﴿أَنزَلۡنَٰهَا﴾؛ أيْ: بعظمتنا وهذا تَنْويهٌ بالسّورةِ بما يَدُلُّ عليه (أَنزَلْنا) مِنَ الإسنادِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ الدّالِّ على العِنايةِ بها وتَشريفِها، فالمَقصودُ مِن إسنادِ إنزالِها إلى اللّهِ تعالى: التَّنْويهُ بها[4].

بلاغة جمع لفظ ﴿ءَايَٰتِۭ﴾ وتنكيره:

الدَّلالة على كثرة الآيات وتَنَوُّعِها

الآيات جمع آية، وهذا تكثير للعطاءات الرّبانية للأمة المحمدية؛ فهي آيات شرعيَّة وأحكام مرعيَّة، وفي هذه السّورة أيضًا طائفة من الآيات الكونيَّة، والظَّواهر الطبيعية، فيها دلالات واضحة، وحجج قاطعة، على توحيد اللّه وكمال قدرته: مثل النّور والظلمة، والتَّأليف بين السَّحاب، وإنزال المطر من خلاله، ووميض البرق

(1) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 3/ 1324، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 301.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 144.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 6، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 155.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 18/ 144.

ولمعانه، وتقليب اللَّيل والنَّهار، واختلاف الحيوانات في أشكالها وهيئاتها وطبائعها، مع اتحاد المادَّة التي منها خلقت، إلى غير ذلك من حجج التَّوحيد وشواهد القدرة، فإطلاق الآيات على كُلٍّ من المعنييْن مُراد[1]، والتَّنكير دالٌّ على التَّعظيم والتَّفخيم لأنَّ فيها حججًا وتوحيدًا، وفيها دلائل الأحكام، والكلّ آياتٌ بينات: حجج العقول تُرشد إلى مسائل التَّوحيد، ودلائل الأحكام ترشد إلى وجه الحَقِّ، وترفع غمّة الجهل، وهذا هو شرف السّورة، وهو أقلُّ ما وقع التَّحدي به في سبيل المُعجزة، فيكون شرفًا للنَّبيِّ في الولاية، وشرفًا لنا في الهداية[2].

سرُّ وصف الآيات بـ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾:

التَّنويه بتلك الآيات وتعظيم شأنها

قوله تعالى: ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أيْ: واضحات الدَّلالة على ما فيها من الأحكام[3] والمقصود التَّنويه بآياتها بإجراء وصف بَيِّناتٍ عليها[4] فهي بينات في نفسها فليس فيها مُشْكِلٌ من حيث إنَّ تأويلها موافق لظاهرها[5]؛ فمعنى كونها بيناتٍ وضوح دلالتها على أحكامها لا على معانيها مُطلقًا لأنَّها أسوة لأكثر الآيات في ذلك[6].

بلاغة وصف السّورة بعدَّة صفات:

الامتِنانُ على الأُمَّةِ بتَحديدِ أحكامِ سيرتِها في أحوالِها

قَولُه: ﴿أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ صِفاتٌ لـ ﴿سُورَةٌ﴾، والمقصودُ مِن تلكَ الأوصافِ: التَّنْويهُ بهذه السّورةِ؛ ليُقْبِلَ المُسلِمونَ بشراشرهم على تَلقّي ما فيها؛ وفي ذلكَ امتِنانٌ على الأُمَّةِ بتَحديدِ أحكامِ سيرتِها في أحوالِها[7] وهذا الجمع الفريد لهذه

(1) السّايس، تفسير آيات الأحكام، ص: 529.
(2) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 3/ 1324.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 66.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 144.
(5) ابن عطيَّة الأندلسيّ، المُحرَّر الوجيز: 4/ 160، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 6.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 155.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 142.

الأوصاف يُستدلُّ به لما يُصَدّر بِه المُؤلفون أمام كُتبهم والشُّروع في مقاصدهم من الخطب والدّيباجات[1].

غرض التَّعبير بأسلوبِ التَّرجّي بـ(لعلَّ):

الأمـر بالتَّفكُّر والتَّدبُّر في دلائل الحَقِّ وعلاماته والعظة بها

جُملةُ: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ مُرتبطةٌ بجُملةِ: ﴿وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾؛ لأنَّ الآياتِ دلائل وهي مَظِنَّةُ التَّذكُّر، فالمعنى: دلائلُ، مَظِنَّةُ لحُصولِ تَذكُّركُم؛ فحَصَلَ بهذا الرَّجاءِ وصفٌ آخَرُ للسّورةِ، هو: أنَّها مَبعَثُ تَذكُّرٍ وعِظَةٍ[2]، والتَّرجي في هذه الآية وأمثالها إنَّما هو بحسب عقول البشر؛ لأنَّ اللّه تعالى لا يحصل منه ترجّ ورجاء لعباده، تعالى اللّه عن ذلك عُلوًّا كبيرًا[3]؛ فحاصله الأمر بالتَّذكر لأنَّ صورة التَّرجي من الملك القويّ في قوَّة الأمر الجليّ[4].

سرّ اصطفاء فعل التذكّر:

في قَولِه تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ فيه إيذانٌ بأنَّ حَقَّها أنْ تَكونَ على ذُكْرٍ منهُم، بحيثُ متى مَسَّتِ الحاجةُ إليها استَحضَروها[5].

التَّوجيهُ البلاغيُّ لقراءات في ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

فـي التَّـشـديـد مزيدُ تأكيد

قَرَأَ حَمزَةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ وحَفْصٌ بتَخْفيفِ الذّالِ حَيْثُ جاءَ، وقَرَأَ الباقونَ بالتَّشْديدِ، ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾؛ أيْ: (تتذكّرون ولو نوعا من التَّذَكُّر) كما أشار إليه الإدغام (بما ترون فيها من الحكم، أنَّ الذي نصبها لكم وفصلها إلى ما ترون لا يترككم سُدى، فتعملون بموجبها عند وقوع الحوادث الدّاعية إلى إجراء أحكامه فتقبلوا على جميع أوامره، وتنتهوا عن زواجره)[6]، فمَن خفَّف حذف إِحْدَى التَّاءَيْنِ - وَهِي الثَّانِيَة - وهما زائدتان، إِلَّا أن الأُولى تدل على معنى

(1) السُّيوطيّ، الإكليل في استنباط التّنزيل، ص: 188.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 144.
(3) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 316.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 247.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 155.
(6) ابن الجزري، النشر: 2/ 266، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 155.

الاِسْتِقْبَال، والثَّانِيَة إِنَّمَا دخلت على معنى: (فعلت الشَّيْء على تمهل)، نَحْو قَوْلك: (تفهَّمت الشَّيْء) أَي: أخذت على مهل، وَمَن شَدّد أدغم التَّاء فِي الذَّال لقرب مَكَان هَذِه من مَكَان هَذِه[1].

الفروقُ المُعْجَميَّة:

الإنزال والتَّنزيل:

الإنزال دَفْعيٌّ، والتَّنزيلُ تدريجيٌّ

الإنزالَ على ما يكون دفعةً واحدة[2]، ويطلق التَّنزيل على ما يكون مُفرَّقًا أو تدريجيًا، فالإنزال دَفْعيٌّ، والتَّنزيلُ تدريجيٌّ.قال اللّه تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ [آل عمران:3]؛ وهذا لأن حُكْمَ القرآن الكريم مؤبَّدٌ، وهو مناسبٌ لـ (نزَّل)؛ فإنَّه بناءٌ لِلمبالغة، ولِما في التَّنزيل مِن معنَى التَّدريج، فبينَ الإنزالِ والتَّنزيل عمومٌ وخصوصٌ، والإنزالُ أَعَمُّ مِنْهُ؛ لأنّه قد يدلُّ على معنى التَّدْريج وقد لا يدلُّ[3].

ولا يُشكِلُ على هذا الفَرْقِ وقوع التَّعبير عَنِ نزول القُرآن الكريم بالفِعْلَيْنِ معًا؛ وذلك لأنَّ لِلْقُرْآنِ الكريم نُزولَيْنِ، دَفْعيٌّ إلى السَّماءِ الدُّنيا وتدريجيٌّ بحسب الوقائع والأحداث[4].

الكَتْبُ والفَرْضُ:

في الكَتْبِ مَزيدُ إلزامٍ وتأكيد

تأتي كلمة (كُتِبَ) في كتاب اللّه تعالى على عِدَّة معانٍ فتأتي بمعنى شَرع لكم، وبمعنى فرض وقَدَّر وحَكَم، وقَضى وأَوجب وأَثبت[5].فتكون في موضع (الفَرْضِ) كقوله تَعالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ﴾ [البَقَرَة: 178]، وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البَقَرَة: 183]،

---

(1) ابن زَنْجلة، حجة القراءات، ص: 279.

(2) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (نزل)، والعسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 79، والجُرجاني، التَّعريفات، ص: 68.

(3) الرّاغب، المُفرداتُ: (نزل).

(4) المقدسيُّ، المُرشِد الوَجيزُ، ص: 17، والسّيوطيّ، الإتقان: 1/ 146.

(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب الأصفهانيّ: 4/ 314، والكفويُّ، الكُلّيَّاتُ، ص: 766.

وتكون بِمَعْنى الحُكْمِ[1]، وبمعنى القضاء والتَّقدير، كقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التَّوبة: 51]؛ أيْ: ما قضاه وقدَّره وأَبْرَمَهُ[2].

أمّا الفرض فإنَّه يأتي بمعنى الإيجاب؛ أيْ: ما أوجبه اللّه تعالى، بِقَطْعِ الحكم فيه[3] وتأتي كلمة فُرض في كتاب اللّه تعالى على عدَّة معان: فيأتي الفرض بمعنى التَّقدير كقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[4]، [الأحزاب:38] ويأتي بمعنى أنزل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾، [القصص:85]؛ أيْ: أنزل عليك القرآن[5].ويأتي فرض بمعنى بيَّن كما في قول اللّه - ﷻ: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ﴾ [التحريم:2]؛ أيْ: بَيَّن لكم كَفّارَة اليَمين[6]، فمع اشتراك اللَّفظتين في الدَّلالة على بعض المعاني واختلافهما في بعضه الآخر، إلّا أنَّ في مادَّة الكَتْبِ مَزيد تأكيد وحَتْمٍ وإلزام في باب الإيجاب، وهي أعمُّ من مادَّة الفَرْضِ وأوسعُ منها في المعنى.

(1) مُرتضى الزّبيديُّ، تاجُ العروسِ: (كتب).
(2) السّمينُ، عُمدةُ الحُفّاظِ: (كتب).
(3) الرّاغِبُ، المُفرداتُ: (فرض).
(4) البيضاويُّ، أنوارُ التّنزيل: 3/ 233.
(5) البغويُّ، معالِمُ التّنزيل: 06/ 226.
(6) الكفويُّ، الكُلّياتُ، ص: 688.

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٖۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٢﴾ [النّور: 2]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـشُّـروع في تفصيل ما ذُكر مـن الآيـات البيِّنات وبيان أحكامها

لمّا أثنى اللّه تعالى على هذه السّورة الكريمة وبَيَّنَ شأنها وأنَّ فيها أحكامًا مفروضة وآياتٍ بيناتٍ معروضة؛ بَيَّنَ أَوَّل حُكم من هذه الأحكام وهو حَدُّ الزّانية والزّاني؛ فهو شروع في تفصيل ما ذُكِر من الآيات البيِّنات وبيان أحكامها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلزَّانِيَةُ﴾: أصلُ الزِّناء: الوطء، والزِّنا مَقْصورٌ لَغَةُ أَهْلِ الحِجازِ، والزِّناء مُمدَودٌ لَغَةنجد: الفُجورُ والفاحِشَة، يُقال: زَنا، يَزْني، زِنًا وزِناءً، فهو زانٍ، وهي زانيَةٌ: إذا فجَرَت، والجَمعُ: زُناةٌ، والمرأَة تُزاني مُزاناةً وزِناءً؛ أيْ: تُباغي[2]، والزِّنا من الرَّجل معناه: وطء المرأة من غير ملك ولا شبهة ملك، ومعناه من المرأة: أن تمكّن الرَّجل من أن يزني بها[3]، فصيغتَا الزّانيَة والزّاني في الآية صيغةُ اسم فاعلٍ، وهو مُستعملٌ في أصلِ معناه؛ وهو اتِّصافُ صاحبه بمعنى مادَّتهِ[4].

2) ﴿فَٱجْلِدُواْ﴾: (جلد) أَصلٌ واحدٌ وهو يدلُّ على قوَّةٍ وصلابةٍ، فالجِلْدُ معروفٌ، وهو أَقوى وأصلبُ ممّا تحته مِنَ اللَّحْمِ[5]، والجَلْد:

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 6، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 7/ 310.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيدَه، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب: (زنا - زنى).

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 79.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 145.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جلد).

مَصْدَرُ جَلَده بِالسَّوْطِ يَجْلِدُه جَلْدًا ضَرَبَهُ، وجَلَدَه الحَدَّ جَلْدًا؛ أيْ: ضَرَبَهُ وأصاب جِلْده، وجالَدْناهم بِالسُّيوفِ مُجالدة وجِلادًا: ضارَبْناهُم[1]، والمُراد بالجَلْدِ في الآية: إصابةُ الجِلْد بما يُؤلِمه بسَيْرٍ مِنْ جِلْدٍ[2].

3) ﴿رَأْفَةٌ﴾: أَصْلُ الرَّأْفةُ: شِدَّةُ الرَّحمةِ وعَظيمُها، يُقال: رَأَفَ به: إذا رَحِمَهُ رَحْمَةً كَبيرَةً، فهو رائِفٌ، وتَراءَفوا؛ أيْ: تَراحَموا[3]، والرَّؤوفُ: شَديدُ الرَّحْمَةِ بِالغَيْرِ، وقيل: الرَّأْفَةُ دَفْعُ السّوءِ عن الشَّخْصِ، والرَّحْمَةُ: دَفْعُ السّوءِ وجَلْبُ الخَيْرِ، ومِن معانيها أيضًا: العَطْفُ[4]، والمُراد بالرَّأْفةِ في الآيةِ: رَحْمَةٌ خاصَّةٌ تَنْشَأُ عِنْدَ مُشاهَدَةِ ضُرٍّ بالمَرْءوفِ[5].

4) ﴿دِينِ﴾: (دين) أَصْلٌ واحِدٌ إليهِ يَرجِعُ فُروعُهُ كُلُّها، وهو جِنْسٌ مِنَ الانْقيادِ، والذُّلِّ، فالدّينُ: الطّاعَةُ، يُقالُ دانَ له يَدينُ دينًا، إذا أَصْحَبَ وانقادَ وطاعَ، وقَوْمٌ دينٌ؛ أيْ: مُطيعونَ مُنْقادونَ[6]، ودانَ نَفْسَه؛ أيْ: أَذَلَّها واستعبدها، يُقال: دِنْتُ القَوْمَ أَدينُهم إذا فعلت ذَلِك بهم[7]، والدّينُ يُقالُ للطّاعة والجزاء، واستُعير للشَّريعة، والدّينُ كالمِلَّة، لكنَّه يُقال اعتبارًا بالطّاعة والانقياد للشَّريعة[8].

5) ﴿وَلْيَشْهَدْ﴾: (شهد) أصلٌ يدلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعْلامٍ[9]، لا يَخرجُ شيءٌ مِنْ فُروعِهِ عَنِ الَّذي ذَكَرْناهُ، مِنْ ذلكَ الشَّهادَةُ، يَجْمَعُ الأُصولَ الَّتي ذَكرناها من الحُضورِ، والعِلْمِ، والإعلام، يُقالُ: شَهِدَ الشَّيْءَ: إذا حَضَرَهُ وعايَنَهُ، والشاهِدُ والشَّهيدُ: الحاضِر، وهو المُؤَيِّدُ والمُصدِّقُ لدَعوى مُدَّعٍ، والمَشهَدُ: مَحْضَرُ النّاسِ[10]، والمقصودُ بالشَّهيدِ في الآية: الشّاهِدُ، وهو المُخْبِرُ بِالأَمرِ الواقِعِ كما وقَعَ، والمقصود بالشَّهادة في الآية: الحضور، ضدّ الغياب.

(1) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جلد).
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 79.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهريّ، الصّحاح، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رأف).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 150.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دين).
(7) الأزهري، تهذيب اللّغة: (دين).
(8) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (دين).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (شهد).

6) ﴿عَذَابَهُمَا﴾: أَصْلُ الكَلِمَةِ من العَذْبِ، وهو: المَنْعُ، يُقالُ: عذَّبْتُ عَنْهُ الماءَ؛ أيْ: مَنَعْتُه عَنْهُ، وسُمِّيَ العَذابُ عَذابًا؛ لأنّه يَمنَعُ الشَّخْصَ مِن الرُّجوعِ للجَريمةِ[1]، والعَذابُ: الضَّرْبُ بِعَذَبَةِ السَّوْطِ؛ أيْ: طَرَفِها[2]، والعَذابُ أيضًا: الإيلامُ والإيجاعُ الشديدُ، وقد قيل: إنَّ أَصْلَهُ الإعْذابُ، مَصْدَرُ أَعْذَبَ إذا أزالَ العُذوبَةَ؛ لأنَّ العَذابَ يُزيلُ حَلاوَةَ العَيْشِ فصيغَ مِنْهُ اسمُ مَصْدَرٍ بِحَذْفِ الهَمزَةِ[3]، والمُرادُ بِالعذابِ في الآيةِ: الإيلامُ والإيجاعُ الشَّديد.

7) ﴿طَآئِفَةٌ﴾: (طوف) أصل يدلُّ على دَوَرانِ الشَّيءِ على الشَّيْءِ، وأَنْ يُحَفَّ به ثُمَّ يُحمَلُ عليه، يُقالُ: طافَ به وبالبيتِ يَطوفُ طَوْفًا وطَوافًا، وأطّافَ به، واستطافَ، ثُمَّ يُقالُ لِما يَدورُ بالأَشياءِ ويُغَشّيها مِنَ الماءِ: طوفانٌ، وأمّا الطّائِفَةُ مِنَ النّاسِ فكأَنَّها جَماعَةٌ تُطيفُ بالواحِدِ أو بالشَّيءِ، ولا تَكادُ العَرَبُ تَحُدُّها بِعَدَدٍ مَعْلومٍ[4]، فكُلُّ جَماعَةٍ يُمكِنُ أَنْ تَحُفَّ بِشَيءٍ فهي عندهُم طائِفَةٌ، ولا يَكادُ هذا يَكونُ إلّا في اليَسيرِ، ثُمَّ يتوَسَّعونَ في ذلكَ مِنْ طريقِ المجازِ فيقولونَ: أخذتُ طائِفَةً مِنَ الثَّوبِ؛ أَيْ: قِطْعَةً منه، وهذا على معنى المَجازِ؛ لأَنَّ الطّائِفَةَ مِنَ النّاسِ كالفِرقَةِ والقِطعَةِ منهُم[5]، والمُراد بالطّائفةِ في الآيةِ: الجماعةُ مِنَ النّاسِ[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تقبيح فاحشة الـزِّنـا تقبيحًا يحمل النُّفوس عـلى الـنُّـفـور منها، وعلى نبذ مرتكبيها

يُبيِّنُ ﷻ في هذه الآيةِ حدَّ الزّاني والزّانيةِ فيأمُرُ ﷻ بجَلْدِهما مِئَةَ جَلدةٍ لكلٍّ منهما - إذا كانا حُرَّيْنِ، مُكلَّفينِ، بِكرَينِ، غيرَ مُحصَنَينِ،

(1) النوويّ، تهذيب الأسماء واللّغات: 4/ 10.
(2) الرّاغب، المُفردات: (عذب).
(3) الخليل، العين: (عذب)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 258.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (طوف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوف).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 152.

ويَنهَى المُؤمنينَ أنْ تَأخُذَهم بهما رِقَّةٌ في حُكم اللّه، تَمنعُهم من إقامةِ الحَدِّ عليهما كما أمَرَ اللّهُ سبحانه، إنْ كانوا يُؤمنونَ باللّهِ واليوم الآخِرِ، ويأمُرُ أنْ يَحضُرَ جَلْدَ الزّانيَين جماعةٌ مِن المُؤمنينَ، تَحُفُّ وتُحيطُ بهما[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف بقوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ﴾:

تفصيل ما ذُكِرَ مـن الآيـات البَـيِّـنات التي أشـار إلـيـها سُبحانه في الآية الأولى

قول اللّه تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ ابتداء كلام وهو كالعنوان والتّرجمة في التّبويب فالتّقدير: الزّانية والزّاني مِمّا أُنزلت له هذه السّورة وفُرِضَت[2]، فهي جُملة مُستأنفة مسوقة للشُّروع في تفصيل ما ذُكِرَ إجمالًا من الآيات البَيِّنات التي أشار إليها سُبحانه في الآية الأولى من هذه السّورة[3].

دلالة تقديم حُكْمِ الزِّنا على غيره من الأحكام:

عِـظَـمُ خطر الزِّنا وقُبحه وما يَنْجُم عنه من آثار ومفاسد

جاءت الآيات ابتداءً بتقرير هذا الحكم، وهذا يُشير إلى أنَّ هذا الأمر الذي جعلته السّورة في مُقدِّمتها، هو أمرٌ عظيم الخَطَرِ على المُجتمع الإنساني، وأنَّ من الحكمة الإسراع في مُحاربته والقضاء عليه، وأنَّه لهذا جدير بأن يَتَصدَّر سورة من سور القرآن الكريم[4]، فبُدِئَ بالزِّنا، مع أنَّ السّورةَ تَضمَّنَتْ أحكامًا كثيرةً فيما يَتعلَّقُ بالزِّنا ونِكاحِ الزَّواني، وقَذْفِ المُحْصَناتِ، والتَّلاعُنِ، والحِجابِ، وغَيرِ ذلكَ؛ لقُبحِ الزِّنا، وما يَحدُثُ عنه مِنَ المَفاسدِ والعارِ[5].

دلالة تقديم في قوله تعالى ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾:

الـتَّـقـديـم لـلاهـتـمـام بـالـحـكـم كـون الـزنـا من المرأة أفحش، وكونها الدّاعية إليه

قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ بدأ بالمرأة قبل الرَّجل وذلك لجُملة من الأمور:

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 145، 149، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 98، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 8، 9.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 145.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 155، والبروسويّ، روح البيان: 6/ 114.

(4) الخطيب، التَّفسير القُرآنيّ: 9/ 1201.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 7.

أوّلها: أنَّ الزِّنا في المرأة أفحَشُ وأكثَرُ عارًا، وهو لأجلِ الحَبَلِ أضَرُّ؛ فقدَّمها لأنَّ أثَرَ الزِّنا يَبدو عليها مِن الحَبَلِ وزَوالِ البَكارةِ، وحالُ النِّساءِ الحَجبَةُ والصّيانةُ؛ فقَدَّمَ ذِكرَهُنَّ تَغليظًا[1].

ثانيًا: للاهتِمام بالحُكم؛ لأنَّ المرأةَ هي الباعِثُ على زِنا الرَّجُلِ، وبمُساعفَتِها الرَّجُلَ يَحصُلُ الزِّنا، ولو مَنَعَتِ المرأةُ نفْسَها ما وجَد الرَّجُلُ إلى الزِّنا تَمكينًا؛ فتَقديمُ المرأةِ في الذِّكرِ لأنَّه أشَدُّ في تَحذيرِها، ولأنَّها أصلُ الفِتنةِ بهَتْكِ ما أُمِرَتْ به مِن حِجابِ التَّستُّرِ والتَّصوُّنِ والتَّحذُّرِ[2].

ثالثًا: لأنَّ رِقَّة القلب عليهن أكثر، فبدأ بهن لئلا يترك إقامة الحَدِّ عليها، ويكون أمرها لهم[3].

وقيل: قُدِّمتِ الزانيةُ في الآيةِ؛ لأنَّه في ذلك الزَّمانِ كان زنا النّساءِ فاشيًا، وكان لإماءِ العربِ وبغايا الوقتِ راياتٌ، وكُنَّ مُجاهِراتٍ بذلك[4].

وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ جاءَ قولُه: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ﴾ الآيةَ، فقُدِّمَتِ المرأةُ في آيةِ حَدِّ الزِّنا، وأُخِّرَتْ في آيةِ حدِّ السَّرِقةِ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة: 38]؛ أمّا وجهُ تقديمِ المرأةِ في آيةِ حَدِّ الزِّنا فقد سبَق، وأمّا وجهُ تقديمِ الرجُلِ في آيةِ حدِّ السَّرِقةِ فلأنَّ السَّرِقةَ إنَّما تَتولَّدُ مِنَ الجَسارةِ والقوَّةِ والجُرأةِ، وهي مِنَ الرَّجُلِ أقوى وأكثَرُ[5].

سِرُّ التَّعريف بـ(اللام) في المُسنَد إليه:

استغراق الجنس مع العموم والشُّمول

التّعريف في لفظي ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ تعريف الجنس، وهو يُفيد

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 160، وأبو حيّان: 8/ 7.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 98، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 204، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 156.
(3) السَّمعانيّ، تفسير السَّمعانيّ: 3/ 69.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 160.
(5) الأنصاريّ، فتح الرَّحمان، ص: 393.

الاستغراق، ومقام التَّشريع يقتضيه، وشأن (اللام) إذا دخلت على اسم الفاعل أن تُبَعِّد الوصف عن مشابهة الفعل فلذلك لا يكون اسم الفاعل معها حقيقة في الحال، ولا في غيره، وإنَّما هو تحقق الوصف في صاحبه؛ وبهذا العموم شمل الإماء والعبيد[1]، فالتَّعريف هُنا يُفيد بالإضافة إلى استغراق الجنس على العموم؛ فظاهر هذه الآية الكريمة: أنّ كلَّ زانية وكلَّ زان: يجب جلد كُلِّ واحد منهما مائة جلدة، لأنَّ الألف واللام في قوله ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ إن قُلنا: إنَّهما موصول وصلتهما الوصف الذي هو اسم الفاعل الذي هو الزّانية والزاني، فالموصولات من صيغ العموم[2].

دلالة التّعبير باسم الفاعل:

إفادة اتِّصاف صاحبه بمعنى مادَّته عند التَّلبس بهذا الفعل

صيغتا ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ صيغة اسم فاعل، وهو هُنا مُستعمل في أصل معناه، وهو اتِّصاف صاحبه بمعنى مادَّته، فلذلك يُعتبر بمنزلة الفعل المُضارع في الدَّلالة على الاتِّصاف بالحدث في زمن الحال، فكأنَّه قيل: التي تزني والذي يزني فاجلدوا كُلَّ واحد منهما إلخ، ويُؤيد ذلك الأمر بجلد كُلِّ واحدٍ منهما، فإنَّ الجَلْدَ يترتب على التَّلبس بسببه[3].

نُكتة ذِكْرِ الذَّكَر والأُنْثَى من الزُّناة:

التَّأكيد على جريان الوصف في كُلِّ منهما

ذَكَر اللهُ ﷻ الزُّناة على التَّفصيل في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ للتّأكيدِ على جريان الوصف في كلٍّ منهما، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: 38]، فذَكَرَهما هُنا لئلّا يَظُنَّ ظانٌّ أنَّ الرجُلَ لَمّا كان هو الواطئَ، والمرأة محلٌّ، ليستْ بواطئةٍ، فلا يجبُ عليها حَدٌّ[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 146.
(2) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 6/ 3.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 145.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 160.

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَٱجْلِدُواْ﴾:

التّعجيل بالدّواء بعد ذِكْر الدّاء حسمًا لمادّة هذه الآفة الخطيرة

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُواْ﴾ إما أن تكون لعطف تفصيل المُجمل على المُجمل كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: 45] فمن النَّهج المألوف في كلام العرب إذا أريد بيان معنى وتفصيله اعتناء بشأنه أن يذكر قبله ما هو عنوان وترجمة له، فإنَّ الفاء العاطفة للمُجمل تفيد كون المذكور بعدها كلامًا مُرتَّبًا على ما قبلها في الذِّكر[1].

وقد تكون الفاء واقعة فيما هو في قوة جواب الشّرط، وذلك على أنّ (أل) في: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ موصولةٌ مضمَّنة معنى الشَّرط؛ لأنَّها دخلَتْ على صفةٍ صريحةٍ، والمعنى: إذا زنَيا فاجلِدوهما[2]، فأُتيَ بعدها بالفاء المُؤذنة بأنّ ما بعدها في قوَّة الجواب، وأنَّ ما قبلها في قوَّة الشَّرط ولمّا كان هذا يستدعي استشراف السّامع كان الكلام في قوَّة: إن أردتم حُكمهما فاجلدوا كُلَّ واحد منهما مائة جلدة، وهكذا شأن هذه الفاء كلَّما جاءت بعد ما هو في صورة المُبتدأ فإنَّما يكون ذلك المبتدأ في معنى ما للسّامع رغبةٌ في استعلام حاله[3].

بلاغة الإدماج باستخدام لفظ (الجَلْدِ) مادَّةً وصيغة:

القرآن إيجاز كله، لاستخدام اللّفظ والصّيغة أكثر من دلالة

الجَلْدُ ضَرْبُ الجِلْدِ وهو قِشْرُ البدن يُقال جَلَدَهُ إذا ضرب جلده، كما يقال رأسه وبطنه، إذا ضرب رأسه وبطنه، وذكر بلفظ الجلد لئلا يبرح ولا يضرب بحيث يبلغ اللَّحم[4]؛ وفيه إشارة إلى أنَّ إقامة هذا الحدّ ينبغي أن يكون على الاعتدال بحيث لا يتجاوز الألم من الجلد إلى اللَّحم[5]، فلا يَنبَغي أنْ يَتجاوَزَ الألمُ إلى اللَّحمِ؛ فلا يُطيِّرُ

(1) زاده، حاشية زاده على البيضاويّ: 6/ 189، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 275.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 204.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 145.
(4) البغويّ، تفسير البغويّ: 3/ 379.
(5) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 141.

الجِلْدَ حتَّى يَظهَرَ اللَّحمُ؛ واختيارُ هذا اللَّفظِ دون الضَّربِ مَقصودٌ به الإشارةُ إلى هذا المعنى على طَريقةِ الإدماجِ[1].

المُراد بالضمير في: ﴿فَٱجۡلِدُواْ﴾ ودلالته:

توجيه الخطاب للأمة وتخصيص فعله بالأئمة

الخِطاب في هذه الآية للأئمة ومن قام مقامهم، كذلك خطابات الشَّرع في الحدود؛ وقيل إنَّ الخطاب هُنا للمُسلمين أجمعين لأنَّ إقامة الحدود واجبة عليهم جميعًا، والإمام ينوب عنهم إذ لا يمكنهم الاجتماع على إقامتها[2]، والتَّحقيق أنَّ الخِطاب، وإنْ كان للكُلِّ إلّا إنَّهم لا يمكنهم الاجتماع على إقامة الحُدود فينوب الإمام مَنابهم.

بلاغة التّعبير بلفظ العموم وإضافته في قوله: ﴿كُلَّ وَٰحِدٖ﴾:

تأكيدُ تأكيدُ العموم للعُموم المُستفادِ مِنَ التَّعريفِ السّابق للمُسنَد إليه

قَولُه تعالى: ﴿كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا﴾ تأكيدٌ للعُموم المُستفادِ مِنَ التَّعريفِ في ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾؛ فلم يَكتَفِ بأنْ يُقالَ: فاجلِدوهُما، كما قال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة: 38]، ولئلّا يُتَوهَّمَ أنَّ المئَةَ بيْنَهما مُناصَفةً[3].

بلاغة التّعبير بالتّغليب ﴿وَٰحِدٖ﴾:

تغليب المُذَكَّر على عادة الخطاب القُرآنيّ

تذكير لفظة ﴿وَٰحِدٖ﴾ من قوله تعالى: ﴿كُلَّ وَٰحِدٖ﴾ مع ذكر ﴿ٱلزَّانِيَةُ﴾ مع الزّاني باعتبار تغليب المُذكَّر مثل قوله تعالى: ﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ [التّحريم: 12][4] ويدلّ التّغليب على تساويهما في العقوبة لتساويهما في ارتكاب الجرم.

سرّ التّقييد بالجارّ والمجرور ﴿مِّنۡهُمَا﴾:

قولُه تعالى: ﴿كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّه ليس أحدُهما بأَولَى بالعُقوبةِ مِنَ الآخَرِ[5].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 210، والطّيبي، حاشيته على تفسير الكشّاف: 11/ 11، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 147.

(2) القنّوجيّ، نيل المرام، ص: 385، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 47.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 146، 147.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 147.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 147.

دلالة التَّخصيص بذِكْر عدد الجَلْدات:

تحقيق العدد بـأيِّ وجْـهٍ من الوجوه

قوله تعالى: ﴿مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾، مائة: نائبة عن المصدر المفعول المطلق لبيان العدد، وقد أضيف إلى المصدر الحقيقي[1] والمُراد من العدد المفروض في جلد كُلٍّ واحد منهما مائة جلدة، ما يُقال له مائة جلدة بوجه من الوجوه، وإن لم تَتَعيَّن الأولى والثّانية والثّالثة وهكذا إلى تمام المائة؛ فلو ضربه مائة رَجُلٍ بمائة سوط دفعة واحدة كفى في الحَدِّ بل قالوا: جاز أن تجمع الأسواط فيُضرب مرَّة واحدة بحيث يُصيبه كُلُّ واحدٍ منها[2].

دلالة عَطْفِ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم﴾ على ما سبق:

كون النّهي عن الرّأفة لأنّ الجلد مَظِنَّةُ الرِّقَّة على المجلود

لَمّا قال تعالى: ﴿فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا﴾، وكان الجَلْدُ موجِعًا، وكان المُباشِرُ له قد يَرِقُّ على المَجلودِ مِن وجَعِه؛ نُهِيَ المُسلِمون أنْ تأخُذَهم رَأفةٌ بالزّانيةِ والزّاني، فيَترُكوا الحدَّ أو يَنقُصوه أو يُخفِّفوه[3] عطف على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾؛ أيْ: ولا تَأخُذْكم - أيُّها المُؤمِنونَ - بالزّانيةِ والزّاني رِقَّةٌ في حُكمِ اللهِ، تَمنعُكم مِن إقامةِ الحَدِّ عليهما على الوجهِ الذي أمَرَ به اللهُ تعالى[4].

سِرُّ النهي عن الرَّأفة في هذا المقام:

تـوجُّـه الـنَّـهي إلى رأفةٍ مُعيَّنة مانعة من إقامة الحَدِّ أو نُقصانه

الرَّأفةُ والرَّحمةُ مِن الانفعالاتِ التي لا يملكُ الإنسانُ ترْكَها، والأمرُ والنهيُ إنما يتوجَّهانِ إلى الأفعالِ الاختياريَّةِ، والنَّهي في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ﴾ مُتَوَجِّهٌ إلى أن تَحْمِلَ الرَّأفةُ بهما على المُحاباةِ في ترْكِ الحَدِّ، أو تخفيفِه، أو نقصِ العددِ؛

(1) بهجت صالح، الإعراب المُفصَّل لكتاب الله المرتّل: 8/ 6.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 277.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 150.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 139، 144، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 317، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 7.

فلا يُقامُ الحَدُّ كما يَنبغي؛ فعلى المُسلم أن يُروِّض نفسَه على دفع الرَّأفة في المواضع المذمومة فيها الرَّأفة[1] أمّا رِقَّةُ القلبِ التي تقع في النَّفس بدون اختيار، ولا تَمنعُ مِن إقامةِ الحَدِّ كما يَنبغي، فلا يَتعلَّقُ بها النَّهيُ[2].

بلاغة التّعبير بالاستعارة (تأخذ):

شدَّةُ تأثير الرَّأفة

الأخذ: الأخذ أصله تناول الشيء باليد، واستُعمل مجازًا مشهورًا في الاستيلاء، وهو هُنا مُستعار لِشِدَّة تأثير الرَّأفة على المُخاطبين وامتلاكها إرادتهم بحيثِ يضعفون عن إقامة الحَدِّ بطريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة؛ فيكون كقوله: ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: 206] وهو مُستعمل في قوَّة مُلابسة الوصف للمَوْصوف[3].

دلالةُ حرفِ الجَرِّ (الباء) ومُتعلَّقها:

إفادة المُصاحبة والسَّببية

قوله تعالى: ﴿بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ يجوز أن يَتَعلَّق بـ ﴿رَأْفَةٌ﴾ فالباء للمُصاحبة لأنَّ معنى الأخذ هُنا حدوث الوصف عند مُشاهدتهما، ويجوز تعليقه بـ ﴿تَأْخُذْكُم﴾ فتكون الباء للسَّببيَّة؛ أيّ: أخذ الرَّأفة بسببهما؛ أيّ: بسبب جلدهما[4].

الغرض من تقديم الجارِّ والمجرور ﴿بِهِمَا﴾ على عامله:

في قوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ قُدِّمَ المَجرورُ بهما على عامِلِه رَأْفَةٌ؛ للاهتِمام بذِكْرِ الزّاني والزّانيةِ؛ تَنبيهًا على الاعتِناءِ بإقامةِ الحدِّ[5]، والتَّأكيد على أهميَّة تطبيق عقوبة الزِّنا.

الغرض من التّعبير بالكناية في النَّهي عن الأخذ:

المبالغة في النَّهي عن الرَّأفة وآثارها

النَّهيُ عن أنْ تأخُذَهم رَأفةٌ: كِنايةٌ عنِ النَّهيِ عن أثَرِ ذلكَ،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 150.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 205.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 148.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 150.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 150.

وهو تَرْكُ الحدِّ أو نَقْصُه أو تخفيفُه[1]، فذكر الأخذ الذي هو عبارة عن القهر والغلبة للمُبالغة؛ كقولهم لا أرينك هاهنا إذ الكناية أبلغ من التَّصريح، ولمّا كان أخذ الرَّحمة غير اختياري حُمِلَ النَّهي على غايته، وهي التَّعطيل أو المُسامحة[2]؛ وذلك لما في هذه الجريمة من عدوان على حقوق الأزواج، ومن اختلاط الأنساب، وحلِّ روابط الأسرة، وقطع ما بين الآباء والأبناء من تعاطف، وتراحم، وإيثار، وبذل يبلغ حَدَّ التضحية بالنَّفس[3].

دلالة التَّعبير بـ ﴿رَأۡفَةٞ﴾ دون(رحمة):

الإعلام بأنّه لم يَنْهَ عن مُطلَقِ الرَّحمةِ

قولُه تعالى: ﴿بِهِمَا رَأۡفَةٞ﴾؛ أيْ: لينٌ، وعَبَّر بها دون الرحمة إعلامًا بأنَّه لم يَنْهَ عن مُطلَقِ الرَّحمةِ؛ لأنَّ الرَّأفةَ أشدُّ الرَّحمةِ أو أرَقُّها، وتكونُ عن أسبابٍ مِن المرؤوفِ به، وكذا قولُه: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾؛ أيْ: الذي شَرَعَه لكم المَلِكُ المحيطُ بصِفاتِ الكَمالِ؛ إشارةً إلى أنَّ الممنوعَ منه رحمةٌ تُؤدّي إلى ترْكِ الحدِّ أو شيءٍ منه، أو التَّهاوُنِ به، أو الرِّضا عن مُنتهِكِه، لا رِقَّةُ القلبِ المطبوعُ عليها البشرُ[4].

الغرض من تنكير الفاعل ﴿رَأۡفَةٞ﴾:

لا مسوِّغ لتعدّي أحـكـام الـلـه وحدوده

الرَّأفة هي رحمة تنشأ عند مُشاهدة ضُرٍّ ما يلحق بالمرؤوف، وقد أفاد تنكيرها التَّقليل؛ فالله ﷻ نهانا عن التَّهاون في إقامة حدود الزِّنا، وألّا يدخل نفوسنا مشاعر الشَّفقة على هؤلاء الزُّناة قَلَّت أو كثُرت؛ وجَعْلُها نكرة يدلُّ أيضًا على أنّها رأفة غير محمودة لأنَّها تعطل دين الله ﷻ[5].

سرُّ التقييد بـ ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾:

عُلِّقَ بالرَّأفةِ قولُه: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾؛ لإفادةِ أنَّها رَأفةٌ غيرُ مَحمودةٍ؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 150.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 253.
(3) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1202.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 205، وابن عبد السَّلام، تفسير العزِّ بن عبد السّلام: 2/ 3.
(5) البروسويّ، روح البيان: 6/ 114.

الـــرأفـــة في الــحــدودِ غيرُ مَحمودةٍ لكونها مــانــعــة من إقامة حكم الله الرؤوف بعباده

لأنَّها تُعطِّلُ دينَ اللهِ؛ أيْ: أحكامَه، وإنَّما شَرَعَ اللهُ الحدَّ استِصلاحًا؛ فكانتِ الرَّأفةُ في إقامتِه فسادًا، وفيه تَعريضٌ بأنَّ اللهَ الَّذي شَرَعَ الحدَّ هو أرأفُ بعبادِه من بعضِهم ببَعض[1]، فتقييدُ النَّهي عنِ الرأفةِ بقولِه تعالى: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، هو أنَّ الرِّقَّةَ إذا منَعَتْ مِن إقامةِ الحَدِّ فهي واقعةٌ في دينِ اللّهِ، ودينُ اللّهِ هو الإسلامُ.

سرُّ الاعتراض بجُملة الشَّرْط ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾:

التـــلــهــيــبُ والـتـهـيـيـجُ والـغـضـبُ للهِ ولشرعه وحكمه

جُملةُ: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ جملة اعتراضية وهي شَرْطٌ مَحذوفُ الجوابِ؛ لدَلالةِ ما قَبْلَه عليه؛ أيْ: إنْ كنتُم مُؤمنينَ فلا تأخُذْكُم بهِما رَأفةٌ؛ أيْ: لا تؤَثِّرْ فيكُم رَأفةٌ بهِما؛ والمقصودُ: شِدَّةُ التَّحذيرِ مِن أنْ يَتأثَّروا بالرَّأفةِ بهِما، بحيثُ يُفرَضُ أنَّهم لا يُؤْمِنونَ[2] فالاعتراض مِن بابِ التَّلهيبِ والتَّهييجِ والغضبِ للّهِ، حتَّى يقولَ السّامعُ: كيف لا أومِنُ باللّهِ واليومِ الآخِرِ؟! فإنَّ الإيمانَ بهما يَقتضي الجِدَّ في طاعتِه تعالى، والاجتهادَ في إجراءِ أحكامِه[3].

سِرُّ استخدام ﴿إِن﴾ بدلًا من (إذا):

إفـادةُ التَّهييجِ والــحَـــثِّ على العملِ مع إفادة التَّعليل

في قَولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ جيءَ بـ﴿إِن﴾ التي تُفيدُ الشَّكَّ، ومع ذلك تأتي في الكتابِ والسُّنَّةِ في الأمورِ المُتحقِّقةِ الوقوعِ كما هُنا، وكما في قَولِه تعالى: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: 27] والكوفيّون من النُّحاة يقولون: إنَّها للتَّعليلِ؛ فهي مُطَّرِدةٌ عندَهم بهذا المعنى، وأمّا البصريّون فيقولون: إنَّ ﴿إِن﴾ في مثل هذا الموضع شرطيَّةٌ لم يُجَأْ بها لتعليقِ الجزاءِ على الشَّرطِ، بل جيءَ بها للتَّهييجِ والحَثِّ على العملِ، وهذا أسلوبٌ معروفٌ، كما يُقالُ: إنْ كنتَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 150، 151.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 151.

(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 209، وأبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 9، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 156.

ابنَ الكرامِ فافعَلْ كذا، وأنت لا تشكُّ في كونِه ابنَ الكرامِ؛ ولكنْ تَحُثُّه على العملِ[1].

اصطفاء ذكر الإيمان في هذا الموضع:

بيان أنَّ الإيمانَ موجِبٌ لانتفاءِ هذه الرَّأفةِ المانعةِ مِن إقامةِ أمرِ اللهِ

الإيمان يقتضي الجِدَّ في طاعة اللّه تعالى والاجتهاد في إقامة حدوده وأحكامه، وهو من باب التَّهييج[2] والتهاب الغضب للّه ولدينه، فإنَّ الإيمان بهما يقتضي الجِدَّ في طاعته والاجتهاد في إجراء الأحكام[3] فإنَّ الإيمانَ موجِبٌ لانتفاءِ هذه الرَّأفةِ المانعةِ مِن إقامةِ أمرِ اللّهِ؛ فرحمتُه حَقيقة بإقامةِ حدِّ اللّهِ عليه[4].

دلالة عطف الإيمان باليوم الآخر على الإيمان بالله:

التَّذكيرُ بما فيه مِن العِقابِ في مُقابلةِ المُسامحةِ والتَّعطيلِ

عَطْفُ الإيمانِ باليوم الآخِرِ على الإيمانِ باللّهِ في قولِه: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾؛ للتَّذكيرِ بأنَّ الرَّأفةَ بهما في تَعطيلِ الحدِّ أو نَقْصِه نِسيانٌ لليوم الآخِرِ؛ فذُكِرَ اليومُ الآخِرُ لتَذكيرِ ما فيه مِن العِقابِ في مُقابلةِ المُسامحةِ والتَّعطيلِ[5]، فإنَّ تلكَ الرَّأفةَ تُفْضي بهما إلى أنْ يُؤخَذَ منهما العِقابُ يومَ القيامةِ؛ فهي رَأفةٌ ضارَّةٌ، كرَأفةِ تَرْكِ الدَّواءِ للمَريضِ؛ فإنَّ الحُدودَ جَوابرُ على ما تُؤذِنُ به أدِلَّةُ الشَّريعةِ[6]، كما أنَّه ذكر بالإيمان الذي من شرطه التزام الأحكام، وكان الرَّجاء غالبًا على الإنسان، فأتبعه بما يُرهبه فقال: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ الذي يُحاسب فيه على النَّقير والقطمير والخفي والجليِّ[7].

دلالة العطف في ﴿وَلْيَشْهَدْ﴾:

اتِّباع العقاب المعنويِّ بعد ذِكْرِ العقاب الحِسّي

لمّا كان الخزي والفضيحة أعظم عند بعض النّاس من ضرب

(1) الشِّنقيطيّ، العذب النمير: 2/ 211، 212.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 98.
(3) البروسويّ، روح البيان: 6/ 115.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 561.
(5) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 209، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 98، والدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 561، 562.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 156، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 151.
(7) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 206.

السَّيف فضلًا عن ضرب السَّوط قال: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ﴾؛ أيَ: يحضر حضورًا تامًّا[1]؛ وهذا من عَطْفِ العقاب المعنويِّ بعد ذِكْرِ العقاب الحِسّي.

سرُّ اصطفاء الشَّهادة مادَّة وصيغة:

مُشاهَدَةُ أحكامِ الشَّرعِ ممّا يَقْوَى بها الزَّجر والرَّدع

الشُّهود في قَولِه تعالى: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الحضور، وهو دَليلٌ على أنَّ حَدَّ الجَلْدِ هذا يُقامُ عَلانية غيرَ سِرٍّ[2]، فأمَر تعالى أنْ يَحضُرَ عذابَ الزانيَين جماعةٌ مِن المُؤمنينَ؛ ليشتهرَ ويَحصُلَ بذلك الخزيُ، زيادةً في التَّنكيل؛ فإنَّ التَّفضيحَ قد يُنكِّلُ أكثَرَ ممّا يُنكِّلُ التَّعذيبُ[3]، ففيه تنكيلٌ للزّانيَين إذا جُلِدا بحضرةِ النّاسِ؛ فإنَّ ذلك يكونُ أبلغَ في زجرِهما، وأنجَعَ في رَدعِهما، فإنَّ في ذلك تقريعًا وتوبيخًا وفضيحةً إذا كان النّاسُ حُضورًا[4].

وليُشاهِد أهل الإيمان الحَدَّ فِعلًا؛ فإنَّ مُشاهَدَةَ أحكامِ الشَّرعِ بالفِعلِ ممّا يَقْوَى بها العِلمُ، ويَستقرُّ به الفَهمُ، ويكونُ أقربَ لإصابةِ الصَّوابِ؛ فلا يُزادُ فيه ولا يُنقَصُ[5]، وأيضًا فإنَّه أمَر بذلك؛ تحقيقًا لإقامةِ الحَدِّ، وحذرًا مِن التَّساهُلِ فيه؛ فإنَّ الإخفاءَ ذريعةٌ للإنساءِ، فإذا لم يَشْهَدْه المُؤمنون فقد يَتساءلون عن عدم إقامتِه، فإذا تبيَّنَ لهم إهمالُه فلا يُعدَمُ بيْنَهم مَن يقومُ بتغيير المنكَرِ مِن تعطيلِ الحُدودِ، وفيه فائدةٌ أخرى، وهي أنَّ مِن مقاصدِ الحدودِ مع عُقوبةِ الجاني: أنْ يَرتدِعَ غيرُه، وبحُضورِ طائفةٍ مِن المؤمنين يتَّعظُ به الحاضرونَ ويَزدَجِرون، ويَشيعُ الحديثُ فيه بنَقْلِ الحاضِرِ إلى الغائِبِ[6].

سِرُّ التَّعبير بالعذاب:

الإشارة إلى الجَلْد المنصوص عليه

في قَولِه تعالى: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا﴾ المُراد بالعذابِ هُنا: الجَلْدُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 206.
(2) القصّاب، النُّكت الدّالة على البيان: 2/ 38، والبروسويّ، روح البيان: 6/ 115.
(3) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 98، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 156.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 8.
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 561.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 151.

المنصوصُ عليه في قَولِه تعالى: ﴿فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ﴾، وهذا يدلُّ على أنَّ الجَلْدَ يُسمَّى عذابًا، وسُمِّيَ الجَلد عذابًا؛ إذْ فيه إيلامٌ وافتِضاحٌ[1]؛ لأنَّه ألمٌ مانع من المعاودة كما سُمّي نكالًا؛ أيْ: عقابًا يردع عن المُعاودة[2].

الغرض من تقديم المفعول به ﴿عَذَابَهُمَا﴾ على الفاعل ﴿طَآئِفَةٞ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ﴾ فرُتبة الفاعل التَّقديم، والمفعول التَّأخير، ومن المُؤكَّد أنَّ هذا التَّقديم لـ ﴿عَذَابَهُمَا﴾ له من الأهميَّة في التَّنبيه على العذاب والاهتمام بإيقاعه.

الغرض من تنكير الفاعل ﴿طَآئِفَةٞ﴾:

الشَّرع الحنيف يربِّي الخشية في عموم المجتمع

لم يُحدِّد لنا القرآن الكريم صفات الطّائفة التي ينبغي أن تَحْضُرَ إقامة الحدِّ على الزّاني للتَّشهير به، وذكر فقط أن تكون من المؤمنين، وترك تعريفها ونُكِّرَت، لتدلَّ فقط على مجموعة من المُؤمنين، تجمع عددًا منهم بدرجات مُختلفة يحصل بها مع الشَّهادة والعلم العظةُ والعبرةُ.

سرّ تقييد الطّائفة بـ ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

كون الفاسق بيْنَ صُلَحاءِ قَومِه أخجَل

اختِصاصُ الطائفة بكونها من المُؤمِنينَ؛ لأنَّ ذلك أفضَحُ، والفاسقُ بيْنَ صُلَحاءِ قَومِه أخجَلُ[3]، والتّعبير بالاسميّة ﴿طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: العَريقين في الإيمان[4]، إذ العراقة في الإيمان أصل في أهلية الشهود وأقوم للشاهدة وأقرب للتّذكر والاعتبار.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّة:

الرَّأفة والرَّحمة:

الرَّأفة أرقُّ الرَّحمة وألطفها

الرحمةُ والرأفةُ كلمتان متقاربتان في المعنى، إلّا أنَّ بينهما فروقًا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 9.
(2) البروسويّ، روح البيان: 6/ 115.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 211.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 206.

لطيفة، فالرأفةُ: رقَّةٌ تنشأ عند حدوث ضُرٍّ بالمرؤوف به، يُقال: (رؤوف رحيم)، والرحمةُ: رقَّةٌ تقتضي الإحسان للمرحوم[1]، ويُفَرَّق بين الرَّأفة والرَّحمة أيضًا بأنَّ الرَّأفة مُبالغة في رحمة خاصَّة، وهي دفع المكروه وإزالة الضَّرر، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾؛ أيْ: لا ترأفوا بهما فترفعوا الجَلْد عنهما، وأمّا الرحمةُ فإنَّها اسم جامع يدخل فيه ذلك المعنى، ويدخل فيه الإنعام[2].

والرأفة أيضًا هي أن يدفع عنك المضارَّ، والرَّحمة أن يوصِل إليك المسارَّ؛ فالرَّأفة من باب التَّخْلية، والرَّحمة من باب التَّزكية، والرَّأفة مبالغةٌ في رحمةٍ مخصوصة، فهي أشدُّ الرحمةِ وهي رفع المكروه وإزالة الضُّر، فذِكْرُ الرَّحمةِ بعدها في القرآن مُطَّردًا؛ لتكون أعمَّ وأشمل[3]، فبينهما عموم وخصوص مُطْلق؛ فالرّأفة خاصة في دفع المكروه عن المرحوم، بينما الرحمة تشمل هذا المعنى وغيره.

العَذاب والعِقاب:

العِقابُ يُنبِئُ عَنِ اسْتِحقاقٍ، والعَذابُ قد يكونُ مُسْتَحَقًّا وغَيْرَ مُسْتَحَقٍّ

العقاب يُنبئ عن استحقاقٍ، وسُمّي بذلك لأنَّ الفاعل يستحقُّه عُقيب فِعْلِه، ويجوز أن يكون العذاب مُستحَقًّا وغير مُستحَقٍّ؛ فالعِقاب يقتضي بظاهره الجزاء على فعلة المُعاقب عَقِبَ فعله، والعذاب ليس كذلك، فبينهما عُموم وخُصوص[4].

الطائِفَة والجماعة:

الطّائفة هي الجماعة القليلة

الطّائفة في الأصل الجماعة التي من شأنها الطَّوْفُ في البلاد للسَّفر، ويجوز أن يكون أصلها الجماعة التي تستوي بها حلقة يُطاف عليها ثُمَّ كثر ذلك حتى سُمّيت كلُّ جماعة طائفة، وقيل يجوز قبول الواحد بدلالة قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ﴾

(1) ابْنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/ 239.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 4/ 93.
(3) الكفويّ، الكُلّيّات، ص: 471.
(4) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 364.

[التوبة: 122] والجَماعَة أقلها ثَلاثَة، وأما الطّائِفَة فقالَ مُحَمَّد بن كَعْب رَحمَه اللّه: الطّائِفَة للْواحِد، وقالَ عِكْرِمَة ﵁: للْواحِد فما فوق من دون المُتَواتر[1] فالطّائفة هي الجماعة القليلة[2]، فأوجب العمل في خبر الطائفة وقد تكون الطائفة واحدًا[3]؛ ففي الطّائفة معنى القلَّة مُقارنة بالجماعة.

(1) الكفويّ، الكليّات، ص: 685.

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 210.

(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 278.

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [النّور:3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إضافة تقبيح آخر للزِّنا بعد تغليظ الحُكْمِ عليه سابقًا

لَمّا كان في الحكم المذكورِ في الآيةِ السّابقةِ مِن الغلظةِ على الزّاني لما ارتكب مِن الحرام المُتَّصِف بالعارِ ما يُفهِمُ مُجانبتَه[1]، أضاف سبحانه هنا إلى تقبيح أمر الزِّنا تقبيحًا آخر أشدَّ وأخزى فقال ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنكِحُ﴾: أَصْلُ النِّكاحِ: غَلَبَةُ الشَّيْءِ، يُقالُ: نَكَحَ النُّعاسُ عَيْنَهُ يَنْكِحُها نِكاحًا؛ أَيْ: غَلَبَها[3]، وقيل أصله للعَقْدِ، ثم استُعيرَ للجِماع[4]، والنِّكاحُ: الزَّواجُ، تَقولُ: نُكِحَتِ المَرْأَةُ إذا تَزَوَّجَتْ، ويُطْلَقُ النّكاحُ بمعنى: الجِماعِ والوَطْءِ، وناكَحَها؛ أَيْ: جامعها، ومن أسمائه البِضاعُ[5]، ويُطْلَقُ أيضًا على العَقْدِ دونَ الجِماعِ[6]، والمُراد بالنِّكاح في الآيةِ: العَقْدُ الَّذي تترتَّب عليه المُعاشرة الزَّوجيَّة[7].

2) ﴿مُشۡرِكَةٗ﴾: (شرك) أصلٌ يدُلُّ على مُقارنةٍ وخِلافِ انفرادٍ[8]، ومنه الشِّرْكُ: النَّصيبُ، ويأتي بمعنى المُشارَكَة، وهي الانضمامُ والمُخالطةُ بين الشَّريكَيْنِ، يُقالُ: شَرِكْتُهُ في الأَمرِ وشارَكْتُهُ: إذا

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 206.
(2) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 10/ 80.
(3) ابن سيدَه، المُحكَم: (نكح).
(4) الرّاغب، المُفردات: (نكح).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نكح).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكح).
(7) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 10/ 80.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرك).

انضممتُ إليهِ وخالطتُهُ، وصِرْتُ شَريكًا لهُ، ويُطلَقُ على الكُفْرِ، وهو على ضربيْن: ضربٌ يجعل للّه فيه شريكًا، وهذا - والعياذ باللّه - وصَفَه تعالى بأنَّه ظُلم عظيم، والثّاني الشِّرك الصَّغير، وهو مراعاة غير اللّه في بعض الأمور، وذلك كالرّياء والنِّفاق[1]، والمُراد بالمُشركة والمُشرِكِ في الآية: من يَدينُ بتعدُّدِ آلهةٍ مع اللّه سبحانه[2].

3) ﴿وَحُرِّمَ﴾: (حرم): أصلٌ واحدٌ، وهو المَنْعُ والتَّشديدُ[3]، يُقالُ: حَرَّمَ الشَّيءَ يُحَرِّمُهُ تَحريمًا؛ أيْ: مَنَعَ مِنه ولم يُجِزْهُ، والحَرامُ: المَمنوعُ، والتَّحريمُ: الحَظرُ، وشيءٌ مُحَرَّمٌ؛ أيْ: محظورٌ، وضِدُّه الإباحةُ والإِذْنُ والجَوازُ[4]، والمُراد بالتَّحريم في الآية: المَنْعُ؛ أيْ: طَلَبُ الشّارِعِ تَرْكَ الفِعْلِ تَرْكًا جازِمًا.

المَعْنى الإجْماليُّ:

المشاكلة في الطِّباع عِلّة للتّلاقي، والتّنافر في الطِّباع عِلّة للاختلاف

يُبيِّنُ الحقُّ تعالى في هذه الآية أنَّ الزّاني لخِسَّتِهِ وقبحه، لا يَطأُ سِفاحًا إلّا زانية تماثله في فحشه وخبثه، أو امرأة مشركة لا ترى فيه ما يشينها، فكلتاهما تطاوعه لفقد الوازع الديني والخُلقي لديهما، أمّا العفيفة المؤمنة فلا سبيل له إلى الفسق بها، لحصانتها بعفتها ودينها المتين، والزّانية لخستها وفحشها، لا يطؤها سفاحًا إلّا زانٍ يماثلها في فحشها أو مشرك يحاكيها في خبثها، وحُرِّم ذلك على المؤمنين الأطهار، الذين ينزهون أنفسهم عن الوقوع في السّوء والفحشاء؛ لأنَّه لا يليق بإيمانهم التَّلوُّث بمثله، ولو كان لدى الزُّناة إيمانٌ لبعدوا عنه[5].

(1) الجوهريّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيديّ، تاج العروس: (شرك).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 360.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرم).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن سيدَه، المُحكَم: (حرم).
(5) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 6/ 1360، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 81.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في: ﴿ٱلزَّانِي﴾:

تشنيع الزِّنا وتبشيع أمره بعد بيان حكمه وعقوبته

قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً﴾ جُملة مُستأنفة مسوقة لبيان أن الفاسق الخبيث الذي جعل الزِّنا ديدنه، لا يَرغب في نكاح الصَّوالح ذوات الصَّوْن والعفاف وكذلك شأن الفاسقة الخبيثة تأبى إلّا الارتطام في مُستَوبل الأقذار[1]، وهو خبرٌ قُصِدَ به تشنيع الزِّنا وتبشيع أمره[2] وأنَّه مُحرَّم على المؤمنين واتصال هذا المعنى بما قبله حسن بليغ[3]، إذ إنَّ مَوْقِعَ هذه الآية موقع المقصود من الكلام بعد المُقدمة، ولذلك جاءت مُستأنفة كما تقع النَّتائج بعد أدلتها، وقدَّم قبلها حكم عقوبة الزِّنا لإفادة حُكمه وما يقتضيه ذلك من تشنيع فعله[4].

الغرض من تقديم ﴿ٱلزَّانِي﴾ هُنا على ﴿زَانِيَةً﴾:

كون المقام يقتضي تقديمه لأنَّه هو الرّاغب الطّالب

في قولِه تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ قُدِّمَ الزّاني هنا على الزّانيةُ، وقُدِّمَت الزَّانية على الزّاني في الآية السَّابقة؛ وذلك لأنَّ تلك الآيةَ سيقَتْ لعُقوبَتِهما على ما جَنَيا، والمرأةُ هي المادَّةُ الَّتي منها نَشأتِ الجِنايةُ؛ لأنَّها لو لم تُطْمِعِ الرَّجُلَ، ولم تومِضْ له، ولم تُمكِّنْه: لم يَطمَعْ ولم يَتمكَّنْ؛ فلمّا كانَتْ أصْلًا وأوَّلًا في ذلك بدَأَ بذِكْرِها، وأمّا الثّانيةُ فمَسوقةٌ لذِكْرِ النِّكاحِ، والرَّجُلُ أصْلٌ فيه؛ لأنَّه هو الرّاغِبُ والخاطِبُ، ومنه يَبدأُ الطَّلبُ[5].والمرأة في هذا الباب تكون في العادة مطلوبة لا طالبة، ومرغوبة لا راغبة[6] وقيل: لأنَّ

---

(1) الدَّرويش، إعراب القرآن الكريم: 6/ 559.

(2) الثَّعالبيّ، الجواهر الحِسان: 4/ 168.

(3) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 162، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 9.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 156.

(5) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 312، 313، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 98، والأنصاريّ، فتح الرَّحمن، ص: 393، 394.

(6) البروسويّ، روح البيان: 6/ 116.

سبَبَ نُزولِ هذه الآيةِ كان رَغبةَ رَجُلٍ في تَزوُّجِ امرأةٍ تَعوَّدَتِ الزِّنا؛ فكان المَقامُ مُقتَضيًا الاهتِمامَ بما يَترتَّبُ على هذا السُّؤالِ مِن مَذمَّةِ الرَّجُلِ الَّذي يَتزوَّجُ مِثْلَ تلك المرأةِ[1].

اصطفاء الفعل ﴿لَا يَنكِحُ﴾ مادَّة وصيغة:

علاقة المؤمنين قائمة على العفاف والطُّهر

المُراد بالنِّكاح هُنا العقد الذي تترتَّب عليه المُعاشرة الزوجيَّة، لأنَّ أكثر ورود لفظ النِّكاح في القرآن، أن يكون بمعنى العقد، بل قال بعضهم إنَّه لم يرد إلّا بهذا المعنى؛ أيّ: أنَّه جرت العادة أنَّ الشَّخص الزّاني لا يتزوج إلّا زانية مثله أو مُشركة وكذلك المَرأة الزّانية لا تميل بطبعها إلّا إلى الزَّواج من رجل زان مثلها أو من رَجُلٍ مُشرك، وذلك لأنَّ المُؤمن بطبعه ينفر من الزَّواج بالمرأة الزّانية، وكذلك المرأة المؤمنة تأنف من الزَّواج بالرَّجل الزّاني، فالآية الكريمة تحكي بأسلوبٍ بديعٍ ما تقتضيه طبيعة النّاس في التَّآلف والتَّزاوج، وتُبيِّن أنَّ المُشاكلة في الطِّباع عِلَّةٌ للتَّلاقي، وأنَّ التَّنافر في الطِّباع عِلَّة للاختلاف[2]، فالدُّربة على الزِّنا يَتكوَّنُ بها خُلُقٌ يُناسِبُ أحوالَ الزُّناةِ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ؛ فلا يَرغَبُ في مُعاشرةِ الزّانيةِ إلّا مَن تَروقُه أخلاقُ أمثالِها[3].

دلالة عطف ﴿مُشۡرِكَةٗ﴾ و﴿مُشۡرِكٞۚ﴾:

زيادةُ التَّفظيع والتَّبشيع في الزَّواج بالزّانيات والزَّواني

عُطِفَ قولُه: ﴿أَوۡ مُشۡرِكَةٗ﴾ على ﴿زَانِيَةً﴾، وقولِه: ﴿أَوۡ مُشۡرِكٞۚ﴾ على ﴿إِلَّا زَانٍ﴾؛ لزيادةِ التَّفظيع، فإنَّ الزّانية غير المُسلمة قد تكون غير مُشركة مثل زواني اليهود والنَّصارى وبغاياهما، وكذلك عطف ﴿أَوۡ مُشۡرِكٞۚ﴾ على ﴿إِلَّا زَانٍ﴾ لظهور أنَّ المقام ليس بصدد التَّشريع للمُشركات والمشركين أحكام التَّزوُّج بينهم، فتمحَّض من هذا أنَّ المُؤمن الصّالح لا يتزوج الزّانية[4].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 157.
(2) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 10/ 80.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 156.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 156.

الغرض من تنكير ﴿زَانٍ﴾ و﴿مُشۡرِكٞۚ﴾:

تنكير كُلٍّ من لفظي ﴿زَانٍ﴾ و﴿مُشۡرِكٞۚ﴾ يتناول كُلًّا منهما بطريق عموم اللَّفظ[1] تنبيهًا على شمول وعموم اللَّفظ لِمَن كان هذا وصفه.

سِرُّ العُدول التَّعبير بـ: ﴿لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ﴾:

المقصود بيان أحوال الرِّجال في الرَّغبة في النِّساء وأحقّيتهم بعقد النِّكاح عليهن

قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ﴾؛ أيْ: لا يتزوَّج إنَّما يُقابله قولنا: (الزّانية لا تنكح ولا تتزوج إلّا مَن هو زان)، إلّا أنَّه لمّا كان المقصود بيان أحوال الرِّجال في الرَّغبة فيهن، وأنَّ طائفة تميل إلى العفائف وطائفة تميل إلى الفواجر لم يُراعِ حَقُّ المُقابلة[2]، فأسند النِّكاح في الموضعين إلى الرَّجل تنبيهًا إلى أنَّ النِّساء لا حقَّ لهن في مُباشرة العقد[3].

دلالة العطف في قوله: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ﴾:

تنفير المسلم أن يتزوج من اتصفت بالزِّنا بعد تنفير المسلمة من الزّواج بالزّواني

لما ذَكَرَ ربنا ﷻ أنَّ ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً﴾، وفيه تنفيرٌ للمسلمة عن نكاحِ المُتَّصف بالزِّنا حيث سوّيت بالمُشركة إن عاشرَتْه، ولو اقتصر على ذلك لم يكن منعًا من أن ينكح العفيف الزّانية، فقال تعالى مانعًا من ذلك: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ﴾؛ أيْ: والمعلوم اتِّصافها بالزِّنا مُقصور نكاحها على زانٍ أو مُشركٍ، وذلك مُحرَّمٌ؛ فهو تنفيرٌ للمسلم أن يتزوج مَنِ اتَّصفت بالزِّنا حيث سوّي في ذلك بالمُشرك[4].

سر إيثار صيغة اسمي الفاعل في ﴿ٱلزَّانِي﴾ و﴿وَٱلزَّانِيَةُ﴾:

بيان أنَّ المُراد بالزّاني هُنا من وصْفُ الزِّنا عادته

المعنى الاسمي لاسم الفاعل وهو معنى التَّلبُّس بمصدره دون معنى الحدوث، إذ يجب ألّا يغفل عن كون اسم الفاعل له شائبتان: شائبة كونه مُشتقًّا من المصدر، فهو بذلك بمنزلة الفعل المُضارع،

---

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 325.

(2) زاده، حاشية زاده على البيضاويّ: 6/ 193.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 207، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 98.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 207.

فضارب يُشبه يضرب في إفادة حصول الحدث من فاعل، وشائبة دلالته على ذاتٍ مُتلبِّسة بحدث فهو بتلك الشّائبة يقوى فيه جانب الأسماء الدّالة على الذّوات، وحمله في هذه الآية على المعنى الاسمي تقتضيه قرينة السّياق، إذ لا يُفهم أن يكون المعنى أنَّ الذي يُحدث الزّنا لا يتزوج إلّا زانية لانتفاء جدوى تشريع منع حالة من حالات النِّكاح عن الذي أتى الزنا، فالمُراد بالزّاني: من وصْفُ الزِّنا عادته، وهذا على عكس محمل قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ﴾ فإنّه بالمعنى الوصفي؛ أيَ: التَّلبُّس بإحداث الزِّنا[1].

بلاغة التَّعبير بأسلوب القصر:

التَّنبيهُ على أنَّ مَناطَ الزَّجرِ والتَّنفيرِ هو الزِّنا والتّأكيد على البعد منه

اشتمل النَّظم الجليل على حصريْن في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ﴾ حاصل الأوَّل منهما النّكاح عند الزّاني مقصور على الزّانية أو مشركة بناء على الأغلب، وحاصل الثّاني مفهوم الكون ناكحًا للزّانية مقصور على زان أو مشرك فيعم أحدهما من الآخر، وبَيْنَ الزّانية والمُشركة عموم وخصوص من وجه وكذا بين الزاني والمشرك[2].

فهو حُكْمٌ مُؤَسَّسٌ على الغالبِ المُعتادِ؛ فاللَّفظ وإن كان عامًّا لكن المُراد منه الأعم الأغلب، وذلك لأنَّ الفاسق الخبيث الذي من شأنه الزِّنا والفسق لا يرغب في نكاح الصَّوالح من النِّساء، وإنَّما يرغب في فاسقة خبيثة مثله أو في مشركة، والفاسقة الخبيثة لا يرغب في نكاحها الصُّلحاء من الرِّجال وينفرون عنها، وإنَّما يرغب فيها مَنْ هو من جنسها من الفسقة والمشركين، فهذا على الأعم الأغلب كما يقال لا يفعل الخير إلّا الرَّجل التَّقي، وقد يفعل بعض الخير من ليس بتقي فكذا هاهنا[3]، فجيءَ بهذا القصر لزَجْرِ المُؤمنينَ عن نِكاحِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 155 - 156.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 258.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 318.

الزَّواني، بَعدَ زَجْرِهم عنِ الزِّنا بهنَّ، كأنَّه قيلَ: الزّاني لا يَرغَبُ إلّا في نِكاحِ إحداهما، والزّانيةُ لا يَرغَبُ في نِكاحِها إلّا أحدُهُما، فلا تَحوموا حَولَه؛ كيْ لا تَنتَظِموا في سِلْكِهما، أو تَتَّسِموا بسِمَتِهما(1).

بلاغة التَّمهيد في الجملة السّابقة:

التَّمهيد لما بعدها وتعليل ما شُرع في آخرها

قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ هو صدر الآية وليس هو المقصود بالتَّشريع بل هو تمهيدٌ لآخرها مُشير إلى تعليل ما شرع في آخرها، وفيه ما يفسر مرجع اسم الإشارة الواقع في قوله: وحُرِّم ذلك، فينبني على هذا التَّأصيل أنَّ قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ تمهيدٌ للحكم المقصود الذي في قوله: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(2).

دلالة العطف في قوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

تَكميلُ المَقصودِ مِنَ الجُملتين قَبلَها ببيان الحكم الشَّرعي في القضية

جُملةُ: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تَكميلٌ للمَقصودِ مِنَ الجُملتينِ قَبْلَها، وهو تَصريحٌ بما أُريدَ مِن تَفظيعِ نِكاحِ الزّانيةِ، ببَيانِ الحُكْمِ الشَّرعيِّ في القَضيَّةِ، وعُطِفَتِ الجُملةُ؛ لأنَّها أفادَتْ تَكميلًا لِما قبلَها، وشأْنُ التَّكميلِ أنْ يكونَ بطَريقِ العَطفِ(3).

إيثار الفعل ﴿وَحُرِّمَ﴾ ودلالة التَّحريم:

إذا كان معنَى الآيةِ على الخَبرِ؛ يَكونُ فيه التَّعبيرُ عنِ التَّنزيهِ بالتَّحريمِ؛ مُبالَغةً في الزَّجرِ، وإذا كان مَعناها النَّهيَ؛ فقولُه: وحُرِّمَ ذَلكَ على المُؤمنينَ مؤكِّدٌ لمعنَى النَّهيِ(4).

سِرُّ بناء فعل التَّحريم للمفعول:

جيء بفعل التحريم ﴿وَحُرِّمَ﴾ مبنيًّا للمفعول؛ لأنَّ ذلك يكفي

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 156، 157.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 154.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 157.
(4) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 99، والطّيبي، حاشيته على تفسير الكشّاف: 11/ 14.

المُؤمن الذي الخطاب معه[1]، فإنَّ اللّه - سُبحانه تعالى - هو المُشرِّع لعباده تحليلًا وتحريمًا.

بلاغة التّعبير باسم الإشارة للمفرد المُذَّكَّر البعيد:

الإشارة إلى الزِّنا وإلــى الاقــتران بمن يرتكبه

اسم الإشارة في قوله - تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يعود على الزِّنا وعلى الزَّواج من الزَّواني، لما فيه من التَّشبيه بالفاسقين، ومن التَّعرض للعقوبة وسوء السّيرة؛ أيّ: وحُرم ذلك الذي نهيناكم عنه - وهو الزِّنا والاقتران بمن يرتكبه - على المؤمنين الأطهار، الذين يُنزِّهون أنفسهم عن الوقوع في السّوء والفحشاء[2].

بلاغة اصطفاء وصف الإيمان مادّة وصيغة:

بيان أنّ الإيمانَ هــو المــانــع من الـزِّنـا والاقــتران بالـزُّناة والـزّاجـر عنهما

أخْبَرَ اللّه تعالى أنَّ الزّانيَ لا يَنكِحُ إلّا زانيةً أو مُشركةً، ثم قال تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ فعُلِمَ أنَّ الإيمانَ يَمنعُ مِن الزِّنا والاقتران بالزُّناة ويَزجُرُ عنه؛ وأنَّ فاعلَ الزنا المعتاد على اقترافه إمّا مُشركٌ وإمّا زانٍ؛ فهو ليس مِن المؤمنين الذين يَمنعُهم إيمانُهم من ذلك؛ فإنَّ كمالَ الإيمانِ وحقيقتَه يمنعُ ذلك، فلا يَقعُ إلّا عندَ نوعِ ضَعفٍ في الإيمانِ، وفي الصَّحيحِ: «لا يَزني الزّاني حين يَزني وهو مُؤمِنٌ»[3] فسَلَبه حقيقةَ الإيمانِ الَّتي بها يستحِقُّ حُصولَ الثَّوابِ والنَّجاةِ مِن العقابِ؛ وإنْ كانَ معَه أصلُ الإيمانِ الَّذي يُفارِقُ به الكفّارَ، ويَخرُجُ به مِن النّارِ[4].

بلاغة التَّعبير بالاسم في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

في قَولِه تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تنبيه على أنَّ الرّاسخين في الإيمان هم أهل الامتثال فخَصَّهم بالذِّكْرِ؛ لأنَّهم هم المنتَفِعون بالأمرِ والنَّهيِ، والتَّحليلِ، والتحريمِ[5].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 207.

(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 81.

(3) الحديث مُتفقٌ عليه من حديث أبي هريرة ﵁ مرفوعًا، صحيح البخاريّ، كِتاب المَظالِمِ والغَصْبِ، برقم: (2475)، ومسلم، صحيح مسلم، كِتابُ الإيمانَ باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله برقم: (57).

(4) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 15/ 316.

(5) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 15/ 316.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النِّكاح والزَّواج:

النِّكاحُ هوَ عَقْدُ الزَّواجِ، ويُستعارُ لِلْجِماعِ، والزَّواجُ يدُلُّ على مُطْلَقِ الاقْتِرانِ

النِّكاحُ هوَ عَقْدُ الزَّواجِ[1]، ومِنْهُ: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [الأَحْزابُ: 49]؛ أَيْ: عَقَدْتُم عليهنَّ، ثُمَّ اسْتُعيرَ لِلْجِماعِ[2]، أَمّا كَلِمَةُ الزَّواجِ فتَدُلُّ على مُطْلَقِ الاقْترانِ، فكُلُّ ما قُرِنَ بِشَيْءٍ فهوَ زَوْجٌ، وهُما زَوْجانِ[3]؛ فهوَ أَشْمَلُ وأَعَمُّ مِنْ حَيْثُ اللُّغَةُ فيُقالُ: تَزَوَّجَ بامرَأةٍ؛ أَيْ: أَصْبَحَتْ زَوْجَةً لَهُ، ومِنْهُ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأَحْزابُ: 37]، وتُطْلَقُ على المُزاوَجَةِ والاقْترانِ بَيْنَ أمرَيْنِ كَقَوْلِه: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: 58]؛ أَيْ: أَلْوانٌ وأَنْواعٌ مِنَ العَذابِ[4]، فبَيْنَهُما عُمومٌ وخُصوصٌ، فالنِّكاحُ مَخْصوصٌ بِالعَقْدِ الذي يَكونُ بَيْنَ الرَّجُلِ والمَرْأةِ، والزَّواجُ عامٌّ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكح).

(2) الأَزْهَرِيُّ، تَهْذيبُ اللُّغَةِ: (حكن).

(3) السَّمينُ، عُمدَةُ الحُفّاظِ: 2/ 152.

(4) ابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَبِ: (زوج).

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾ [النّور:4 - 5]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

الشُّروع في بيان حكم من نسب الزِّنا إلى غيره بعد بيان حكم من فعله

لَمّا نهى اللّهُ تعالى عن نكاحِ مَنِ اتَّصفَ بالزِّنا مِن رجُلٍ أو امرأةٍ - عطَفَ على ذلك تَحريمَ القذْفِ بما يوجِبُ تَعظيمَ الرَّغبةِ في السَّترِ، وصيانةِ الأعراضِ، وإخفاءِ الفواحشِ[1].

وأيضًا لَمّا عظَّمَ اللّهُ تعالى أمرَ الزّاني بوُجوبِ جَلْدِه، وكذا رَجْمُه إنْ كان مُحصَنًا، وأنَّه لا تَجوزُ مُقارَنتُه، ولا مُخالَطتُه على وجْهٍ لا يَسلَمُ فيه العبدُ مِنَ الشَّرِّ - بيَّنَ تعالى تَعظيمَ الإقدامِ على الأعراضِ بالرَّمي بالزِّنا؛ فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ الآية[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَرۡمُونَ﴾: أصلُ الكلمةِ يدلُّ على نَبْذِ الشَّيءِ وطَرحٍ، يُقالُ: رَمَيْتُ الشَّيءَ، أَرْميه، رَميًا؛ أيْ: نَبَذْتُهُ وطرحتُه[3]، والرَّميُ: الإلقاءُ والقَذْفُ، يُقال: رَمَيْتُ الشَّيْءَ مِن يَدَيَّ؛ أيْ: أَلْقَيْتُهُ؛ فإن كان القَذْفُ بالحِجارةِ سُمّيَ رَجمًا، ورَمَى فُلانٌ فُلانًا بأمرٍ قَبيحٍ؛ أيْ: قَذَفَهُ بالفاحِشَةِ[4]، ويأتي الرَّميُ بمعنى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 214.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 561.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (رمي).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المُفردات: (رمي).

الدَّفْعِ بِقوَّةٍ؛ كَقوْلِك: رَماهُ في البَحْرِ: إذا دَفَعَهُ فيه بِقوَّةٍ[1]، والمُراد بالرَّمي في الآيةِ: الشَّتْمُ، والقَذْفُ بالزِّنا.

2) ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾: الإحْصانُ: على وزنِ إفْعالٍ، وهو مصدرٌ مُشتَقٌّ من أَحْصنَ، يُحْصِنُ، إحْصانًا، وأصْلُه: المَنْعُ، يُقالُ: حَصُنَ المكانُ فهو حَصينٌ: إذا صار مَنيعًا، وامرأَةٌ حَصانٌ: عَفيفَةٌ، والمرأةُ تكونُ مُحْصَنةً بالإسلام، والعَفافِ، والحُرّيَّةِ، والتَّزْويج، يُقالُ: أَحْصَنَت المرأةُ؛ فهي مُحْصَنةٌ ومُحْصِنَةٌ، وكذلك الرَّجُلُ، ويُطْلَقُ الإحْصانُ على الحِفْظِ والحِرْزِ؛ ومنه الحِصْنُ: وهو الحِرْزُ وكلُّ مَوْضِعٍ لا يوصَلُ إلى ما فيه[2]، و﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾: ذواتُ الأزواجِ، والمُحْصَناتُ أيضًا: الحرائرُ وإنْ لم يكُنَّ مُتزوِّجاتٍ[3]، وهو المُراد بالآية.

3) ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ﴾: أصلُ القَبولِ: تَلَقّي الشَّيْءِ وأَخْذُهُ عن رِضًا، يُقالُ: قَبِلْتُ الهَديَّةَ، أَقْبَلُها، قَبولًا؛ أيْ: أَخَذْتُها راضيًا بها[4]، فالقبول الَّذي يقتضي الرّضا والإثابة[5]، ويأتي بمعنى المُوافَقَةِ، تقول: قَبِلْتُ العَقْدَ؛ أيْ: وافَقْتُ عليه، القَبول أيضًا: أَن تَقبَلَ العَفْوَ والعافية وغير ذَلِك، وهوَ اسْم للمصدر وأُميت الفِعل مِنْهُ[6]، ويأتي بمعنى: التَّصْديقُ، يُقال: قَبِلْتُ الخَبَرَ: إذا صَدَّقْتُهُ، والقبول يُعدَّى بـ (عن)، لتضمُّنه معنى الإبانة والقَطع، ويُعدَّى بـ (مِن) لتضمُّنه معنى الأخذ[7]، والمُراد بها في الآية: الأخذ والتَّصديق؛ أيْ: لا تأخذوا بشهادتهم ولا تصدِّقوها.

4) ﴿أَبَدٗاۚ﴾: (أبد) أصلٌ يدلُّ على طولِ المُدَّةِ، وعلى التَّوَحُّشِ[8]، والأبد قال فيه الرّاغب: مدَّة الزَّمان المُمتد الَّذي لا يتجزَّأ، وأبد يأبد بقي أبدًا، ويُعبَّر به عمّا يبقى مُدَّة طويلة[9]، والتَّأْبيدُ: التَّخليدُ، وأَبَدَ بالمكانِ يَأْبِدُ أُبودًا؛ أيْ: أَقامَ به، وأَبَدَتِ البَهيمَةُ تَأْبُدُ وتَأْبِدُ؛ أيْ:

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيديّ، تاج العروس: (رمي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حصن).
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 123، 124، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 434.
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن سيدَه، المُحكَم: (قبل).
(5) الرّاغب، المُفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ: (قبل).
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قبل).
(7) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 13/ 24.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أبد).
(9) الرّاغب، المُفردات: (أبد).

تَوَحَّشَتْ، والتَّأْبيدُ: التَّوَحُّشُ ومنه سُمّيَت الوحوشُ بذلك؛ لأنّها طويلةُ العُمرِ لا تكادُ تَموتُ إلّا بِآفَةٍ[1]، والمُراد بالأَبَدِ في الآيةِ: الزَّمنُ المُستَقبَلُ كُلُّهُ[2].

5) ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: وأَصلُ الفِسْقِ: الخُروجُ عَنِ الطّاعةِ، ومنه قَوْلُهُم: فسَقَ الرُّطَبُ؛ أيْ: خَرَجَ عن قِشْرِهِ[3]، والفِسْقُ: العِصيانُ والخُروجُ عن الطّاعَةِ، يُقال: فسَقَ الرَّجُلُ، يَفْسُقُ، فِسْقًا؛ أيْ: عَصَى وأَذْنَبَ، الفِسْقُ: التَّرك لأمر اللّه[4]، وكَذلِكَ الميْل عَن الطاعةِ إِلَى المَعْصية كَما فسق إِبْليس عنْ أَمر ربه[5]، والفَواسِقُ من النِّساء: الفواجر[6]، والمقصود بالفاسِقين في الآية: الخارجون عن طاعة اللّه سبحانه.

6) ﴿تَابُواْ﴾: أَصْلُ التَّوبة: الرُّجوعُ والعَوْدَةُ، يُقال: تابَ اللّهُ عليه؛ أيْ: رَجَعَ عليه بِفَضْلِه وقَبولِه[7]، التَّوْبَةُ: الرُّجوعُ مِن الذَّنْبِ والإِنابَةُ، يُقال: تابَ إِلى اللّهِ، يَتوبُ، تَوْبًا وتَوْبةً ومَتاباً؛ أيْ: أَنابَ ورَجَعَ عن المَعْصيةِ إلى الطَّاعَةِ[8]، والتَّوّابُ: كَثيرُ التَّوْبَةِ والرُّجوعِ[9]، والمُراد بها في الآية: تَرْكُ المَعصيةِ، والنَّدَمُ على فِعْلِها، والعَزْمُ على عَدَمِ العَوْدَةِ إليها، وتَدارُكُ ما أَمكَنَ أن يُتَدارَكَ مِن الأَعْمالِ بِالإِعادَةِ.

7) ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾: (صلح) أصلٌ يَدُلُّ على خِلافِ الفَسادِ، يُقالُ: صَلُحَ الشَّيْءُ يَصْلُحُ صَلاحًا[10]، والإِصْلاحُ جَعْلُ الشَّيْءِ صالِحًا؛ أَيْ: ذا صَلاحٍ، يُقالُ: أَصْلَحَهُ؛ أَيْ: جَعَلَهُ صالِحًا، وأَصْلَحَ الشيءَ بَعْدَ فسادِهِ: أَقامه[11]، ورجُلٌ صالح: مُصلحٌ، والصّالح في نَفسه، والمصلح في أَعماله وأُموره[12]، والصَّلاحُ أيضًا: اسْتِقامَةُ الأَعْمالِ وطَهارَةُ النَّفْسِ، قالَ إبراهيمُ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصّافّات: 100]، والمقصود بالإصلاحِ في الآية: تَغْيير حالِ الشَّيءِ إلى الاسْتِقامَةِ.

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيديّ، تاج العروس: (أبد).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 159.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فسق).

(4) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (فسق).

(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فسق).

(6) ابن سيدَه، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب: (فسق).

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (توب).

(8) ابن سيدَه، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب، والفيوميّ، المصباح المنير: (تاب - توب).

(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (توب)، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 419.

(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلح).

(11) ابن منظور، لسان العرب، والزبيديّ، تاج العروس: (صلح).

(12) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (صلح).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

الرَّمي بالزِّنا أفحش ما تُرمى به المرأة والرَّجل، وإثباتُه أبلغُ ما يكون التَّشديد

تُبيِّنُ الآيتان الكريمتان أنَّ الَّذين يَقْذِفون المسلماتِ الحرائرَ المكلَّفاتِ العَفيفاتِ بالزِّنا، ثمَّ لم يأتوا على ذلك بأربعة شهداء عدول يشهدون بأنَّهم رأوهنَّ يفعلن ذلك فاجلِدوا كلَّ واحدٍ منهم ثمانينَ جَلدةً؛ عُقوبةً لهم على القذفِ بلا بيِّنةٍ، ولا تَقْبَلوا لهم بعدَ جَلدِهم شَهادةً في بَقيَّةِ حياتِهم؛ عُقوبةً أُخرى لهم على مَعصيَتِهم، فهم الخارجون عن طاعة اللّه، الذين قد كثر شرُّهم؛ وذلك لانتهاك ما حرَّم اللّه، وانتهاك عرض أخيه، وتسليط النّاس على الكلام بما تكلّم به، وإزالة الأخوة التي عقدها اللّه بين أهل الإيمان، ومحبَّة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وهذا دليل على أنَّ القذف من كبائر الذُّنوب، وهؤلاء القاذِفونَ هم الخارِجونَ عن طاعةِ اللّهِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة العطف بِذِكْرِ حَدِّ القذف بعد ذِكْرِ حَدِّ الزِّنا:

بيان نوعٍ آخر من حدود الزِّنا وآثار الخوض في الكلام فيه بغير تَثَبُّت

لمّا كان القضاء على جريمة الزِّنا وآثارها ودواعيها وأسبابها لا يتمُّ إلا باتِّخاذ جميع الإجراءات اللّازمة لوقاية المُجتمع من أخطارها والخوض فيها بغير تثبُّت أو رويَّة فأُتبعت تلك الآيات بما يوجب تعظيم الرَّغبة في السَّتر وصيانة الأعراض وإخفاء الفواحش، ومن ثَمَّ يجب على كُلِّ واحد أن يتجنَّب الكلام عن الجريمة واتهام رجلٍ بها إلّا إذا كان معه من يشهد له بذلك، فالذي قذف المُحصنة المؤمنة ولم يأت بأربعة شُهداء يجلد ثمانين جلدة ردعًا له عن التَّلاعب بأعراض النّاس وكذلك الأمر في خصوص الخيانات الزَّوجية لابدّ فيها من التَّثبت وأخذ الأيمان على الزَّوجيْن حال الارتياب وقذف الزَّوج لزوجته وفي هذا تطهيرٌ للمُجتمع عن الإشاعات الخبيثة[2].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 178، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 14، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 72.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 13/ 213، وابن تيمية، تفسير سورة النّور، ص: 51.

وبعد أن بيَّنت الآيتان السّابقتان حُكم الزّانية والزّاني، وما يجرى عليهما من عقاب، وما يكون لهما من مكان في المجتمع الإسلامي؛ جاءت الآيات بعد هذا تبيّن شناعة هذه الجريمة، والخطر العظيم الذي ينجم عنها، حتَّى ليكاد يُصيب كل من يقترب منها، فضلًا عن أن يكون طرفًا من أطرافها، وهذه الجريمة لا تتمُّ إلّا بشهادة شهود أربعة[1]. فالواو مَسوقة لبيان نوع آخر من حدود الزِّنا[2] شروعًا في بيان حكم من نسب الزِّنا إلى غيره بعد بيان حكم من فعله، وتنويعٌ للخِطاب من حكم إلى حكم آخر له علاقة به[3].

بلاغة التعبير بالاسم الموصول:

إفادة العموم في القاذفين

جيء بالموصول في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ﴾ لإفادة العموم في الرّامين ذُكورًا كانوا أو إناثًا، وظاهر العموم في اسم الموصول أنَّ الزَّوج وغيره في هذا الحكم سواء، وأنَّ الزَّوج إذا قذف زوجته، وعجز عن البيّنة فعليه الحدُّ، لكن آية اللِّعان قد جعلت للزَّوج مخرجًا إذا هو عجز عن البيِّنة، فشرعت له اللِّعان كما يأتي[4]، فهذه الآية بعمومها تشمل كُلَّ قاذف سواء قذف زوجته أو غيرها، وقد شُرع الحكم ابتداءً عامًّا، ثُمَّ قام الدَّليل وهو آيات اللِّعان على قصر الجلد على القاذف الذي يقذف غير زوجته.

بلاغة استعارة لفظ الرَّمي للقذف بالزِّنا ﴿يَرۡمُونَ﴾:

الإيــذان بشدة تــأثـير الـقـذف باللسان كتأثير الأذى الحسي

أصل الرَّمي القذف بالحجارة أو بشيء صلب، ثُمَّ استعير للقذف باللِّسان، لأنَّه يُشبه الأذى الحسيَّ فمعنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾؛ أيّ: يقذفون المؤمنات العفيفات، وهي استعارة تصريحيَّة تبعيَّة استعير فيها الرَّمي للشَّتم بفاحشة

---

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1219.

(2) الدَّرويش، إعراب القرآن الكريم: 6/ 559.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 286.

(4) السّايس، تفسير آيات الأحكام، ص: 551.

الزِّنا[1]، وفي التَّعبيرِ عنِ التَّفَوُّه بما قالوا في حقِّهنَّ بالرَّمي يَرْمون المُنْبِئ المُنبئَ عن صَلابةِ الآلةِ، وإيلامِ المَرْميِّ، وبُعْدِه عنِ الرّامي: إيذانٌ بشِدَّةِ تأثيرِه فيهنَّ، وكَونِه رَجْمًا بالغَيبِ[2]، وجرح اللِّسان كجرح اليد كما قيل[3].

دلالة تخصيص النِّساء بالذِّكر في لفظ ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾:

تخصيصهن بالذِّكر لشُيوعِ الرَّمي فيهنَّ ولكونه فيهنَّ أشنَع وأنكر للنُّفوسِ

في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ القاذِفُ قد يكونُ ذكرًا والمقذوفُ أُنثى، وقد يكونُ أُنثى والمقذوفُ ذكرًا، وقد يكونُ ذكرًا والمقذوفُ ذكرًا، وقد يكونُ أنثى والمقذوفُ أنثى؛ فالقِسمةُ رباعيَّةٌ؛ وقد نصَّ في الآية على قذْفِ الإناثِ، وبقيَّةُ الصوَرِ المسكوتِ عنها داخِلةٌ في حُكمِ المنصوصِ بالإلحاقِ بنفيِ الفارقِ، وإنَّما خُصَّ النِّساءُ بذلك لشُيوعِ الرَّمي فيهنَّ، ولكونه فيهنَّ أشنَع وأنكَر للنُّفوسِ، ومِن حيث هُنَّ هَوَى الرِّجالِ؛ ففيه إيذاءٌ لهُنَّ ولأزواجِهنَّ وقَراباتِهنَّ[4]، وتَخصيصُ رَميِهنَّ بهذا الحُكْم أيضًا لخُصوصِ الواقعةِ، وفيه تَنبيهٌ على عَظيمِ حَقِّ أُمِّ المُؤمنينَ عائِشةَ رضي الله عنها[5].

بلاغة استعارة لفظ ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾:

بيان فضيلَةِ العَفافِ وتنْفيرٌ مِنَ الفاحِشَةِ

المُراد بالمُحصنات هُنا في هذه الآية: النِّساء العفيفات البعيدات عن كلّ ريبة وفاحشة، وسُمّيت المرأة العفيفة بذلك لأنَّها تمنع نفسها من كُلِّ سوء[6]؛ بطريق الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة.

والإحصان في الشَّرع على ضربيْن؛ أحدُهما ما يتعلَّق به وجوب الرَّجم على الزّاني وهو أن يكون حُرًّا بالغًا عاقلًا مُسلمًا قد تزوَّج

(1) أبو حيّان، النَّهر المادّ: 2/ 534، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 324.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 157.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 286.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 12، والدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 561، 562.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 214، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 99، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 157.
(6) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 85.

امرأة نكاحًا صحيحًا ودخل بها وهي كذلك، والآخر الإحصان الذي يوجب الحدَّ على قاذفه وهو أن يكون حُرًّا بالغًا عاقلًا مُسلمًا عفيفًا[1].

بلاغة حذف المَرميِّ به:

ظهور المقصود منه بقرينة السّياق سِباقًا ولَحاقًا

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ حُذف المَرميُّ به في هذه الآيةِ لظُهورِ المَقصودِ بقَرينةِ السّياقِ وذِكْرِ المُحْصَناتِ؛ أيْ: يَرمون المُحْصَناتِ بالزِّنا؛ فالمُراد القذف بالزِّنا بما أرشد إليه السّياق سابقًا ولا حقًا[2].

توجيه القراءات في ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ وبلاغتها:

تكامل البيان بين اسم الفاعل واسم المفعول لإثراء المعنى:

قرأ الكسائي بكسر الصاد: ﴿ٱلۡمُحۡصِنَٰتِ﴾ حيث وقع معرَّفًا، ومنكَّرًا إلا الحرف الأول من سورة النساء، وهو ﴿۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: 24]، فإنه قرأه بفتح الصاد كالجماعة؛ لأنّ معناه: ذوات الأزواج، وكذلك قرأ الباقون في الجميع[3]، فالحجة لمن فتح ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾: أنه جعلهنّ مفعولًا بهنَّ؛ لأن أزواجهن أحصنوهن، والحجة لمن كسر ﴿ٱلۡمُحۡصِنَٰتِ﴾: أنه جعل الفعل لهنَّ؛ أي أحصنّ أنفسهن، فهنّ محصنات لها، أي: عفيفات، أو تكون أحصنت نفسها بالإسلام من الفجور فصارت محصنة، وكلّ ما في كلام العرب من (أفعَل) فاسم الفاعل فيه (مُفْعِل) إلا ثلاثة أحرف، فإنها جاءت بفتح العين: أحصن فهو (مُحصَن)، وأسهب في القول فهو (مُسهَب)، وألفج -إذا أفلس- فهو (مُلفَج)[4].

فائدة حرف ﴿ثُمَّ﴾ في الآية:

استبعاد الاجتراء على القذف مع ما تقرَّر من الشَّرط والحدِّ

قوله: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ﴾ كلمة ﴿ثُمَّ﴾ للاستبعاد؛ أيْ: قذفهم المُحصنات عجيب وعدم إتيان الشُّهداء أعجب، فلَمّا كان إقْدامُ المُجترِئ على

(1) الجصّاص، أحكام القرآن: 5/ 110.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/ 236، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 12، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 158.

(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 249.

(4) ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، ص: 122.

القَذْفِ - معَ ما شرَطَه فيه لدَرءِ الحدِّ إرادةَ السَّترِ - بَعيدًا؛ أشار إليه بأداةِ التَّراخي، فقال: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾[1].

دلالة النَّفي في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ﴾:

الإشـارة إلى تحقُّق العجز عن الإتيان بهم وتقرُّره

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾؛ أيّ: يشهدون عليهن بما رموهن به، وفي كلمة ﴿لَمۡ﴾ إشارة إلى تحقق العجز عن الإتيان بهم وتقرُّره؛ فالقاذف إذا عجز عن الشُّهود للحال واستأجل لإحضارهم زاعمًا أنَّهم في المِصر يؤجل مقدار قيام الحاكم من مجلسه، فإن عجز حُدَّ لأنَّ سبب وجوب الحَدِّ ظَهَرَ عند الحاكم فلا يكون له أن يُؤَخِّر الحَدَّ لتضرُّر المقذوف بتأخير دفع العار عنه[2].

سِرُّ التَّقييد بالجارِّ والمجرور ﴿بِأَرۡبَعَةِ﴾:

الرَّحمةُ بالعِبادِ والتَّشديد في السَّترِ عليهم

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ لَمّا كانت مَعصيةُ الزِّنا كبيرةً من أُمَّهاتِ الكبائرِ، وكان مُتعاطيها كثيرًا ما يَتستَّرُ بها، فقلَّما يَطَّلِعُ أحدٌ عليها شدَّدَ اللهُ تعالى على القاذفِ؛ حيثُ شرَطَ فيها أربعةَ شُهداءَ؛ رَحمةً بعِبادِه، وسَترًا لهم[3].

دلالة التَّأنيث في العدد (أربعة):

(التّاء) في قوله تعالى: ﴿بِأَرۡبَعَةِ﴾ تُفيد في ظاهرها اعتبار كون الشُّهداء من الرِّجال، ويؤكِّد ذلك أنَّه لا تعتبر شهادة النِّساء في الحُدود اتفاقًا[4].

سرُّ حذف متعلق الشَّهادة:

قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ فيه حَذْفُ مُتعلِّق الشَّهادةِ؛ لظُهورِ أنَّهم شُهداءُ على إثباتِ ما رَمى به القاذِفُ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 214.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 157، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 290.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 13.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 262.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 158.

دلالة الفاء من ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ﴾:

الفاء هنا كفاء الشّرط لتضمُّن الموصول معنى الشّرط، وفيه مع ذلك إشارة واضحة إلى أنَّ رَمي المُحصنات هو سَبَبُ هذا الحكم(1).

إيثار فعل الجلد مادّة وصيغة:

الجلد الضَّرب كما تقدَّم في الآية السّابقة والمُجالدة المضاربة في الجلود أو بالجلود، ثم استعير للضَّرب بالعَصا والسَّيْفِ وغيرهما، وقد تقدَّم بيان الجلد قريبًا، وقد شُرع هذا الجلد عقابًا للرّامي بالكذب أو بدون تثبت ولسدِّ ذريعة ذلك(2)، فهذه عقوبة بدنيَّة تصيب البدن وتؤلمه، وإذا كانت هذه عقوبة ومن قِبَلِ عُقوبة الزّانية فيها شِدَّة، فإنَّها رحمة بالجماعة المُؤمنة من أن يفشو فيها الزِّنا، ويشيع، أو تكثُر فيها الإشاعات والطَّعن في الأعراض وتذيع(3).

بيان عقوبة الرّامي بالكذب أو بدون تثبت ولسدِّ ذريعة ذلك

دلالة عطف جملة ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ﴾ على ما قبلها:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً﴾ عَطفٌ على ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ﴾، داخِلٌ في حُكْمِه تَتِمَّةً له؛ لِما فيه من معنَى الزَّجرِ؛ لأنَّه مُؤلمٌ للقلبِ، كما أنَّ الجَلدَ مُؤلمٌ للبَدنِ، وقد آذَى المَقذوفَ بِلِسانِه؛ فعوقِبَ بإهدارِ مَنافِعِه جَزاءً وِفاقًا، والمعنى: ولا تقبلوا منهم شهادة من الشَّهادات، حال كونها حاصلة لهم عند الرَّمي، أبدًا، مُدَّة حياتهم، فالرَّد من تتمة الحَدِّ، كأنَّه قيل: فاجلدوهم وردوا شهادتهم؛ أيِّ: فاجمعوا لهم بين الجلد والرَّدِّ(4).

تتمة الحُكم بإيلام القلب بعد إيلام الجلد

الغرض من تقديم الجارِّ والمجرور على المفعول والظَّرف: ﴿لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ﴾:

واللّامُ في ﴿لَهُمۡ﴾ مُتعلِّقةٌ بمَحذوفٍ هو حالٌ مِن شهادة؛ قُدِّمتْ عليها لِكَونِها نَكِرةً، ولو تَأَخَّرَتْ عنها لكانتْ صِفَةً لها،

تَخصيصُ الرَّدِّ بشَهادتِهِمُ النّاشِئةِ عن أهْليَّتِهِمُ الثّابتةِ لهم عندَ الرَّميِ

(1) الدَّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 6/ 559، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5145.
(2) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 164، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/ 553.
(3) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5145.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 157، وابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 12.

وفائدَتُها: تَخصيصُ الرَّدِّ بشَهادتِهِمُ النّاشِئةِ عن أهْلِيَّتِهِمُ الثّابتةِ لهم عندَ الرَّمي[1].

سرّ التَّقييد بالظَّرف ﴿أَبَدًاۚ﴾:

الـدَّلالـة على استـمـرار ردِّ شـهـادتـهـم والـتّـأكـيـد على ذلـك مُـدَّة أعمارهم

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ﴾: أبدًا: ظرف زمان يدلُّ على الاستمرار والتَّأكيد للمُستقبل مُتعلِّق بـ﴿تَقۡبَلُواْ﴾[2] وهذا يقتضي مُدَّة أعمارهم، فلا تقبل منهم ولهم أية شهادة كانت؛ لأنّ القاذف مفتر، ولا يتوقَّف ذلك على استيفاء الجلد[3].

دلالة التَّذييل بجُملة العطف ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾:

حـكـايـة حـال الـرّامـي عند الله تعالى بعد انقضاء الجزاء

قَولُه ﷻ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ جُملة مُقرِّرةٌ لِما قَبْلَه، وهو مُبيِّنٌ لسوءِ حالِهِم عندَ اللّهِ ﷻ[4]، ثُمَّ بيّن سوء حالهم عند ربهم بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[5]، كلام مُستأنفٌ استئنافًا نحويًّا غيرُ داخل في جزاء الشَّرطِ لأنَّه حكاية حال الرّامي عند اللّه تعالى بعد انقضاء الجزاء[6].

التَّعْبير باسم الإشارة في ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الإيـذان بِبُعد منزلتهم في الشَّرِّ والفساد

في اسم الإشارة (أولئك) معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتهم في الشِّر والفساد؛ أيْ: أولئك هُم المحكوم عليهم بالفسق، والخروج عن الطّاعة، والتَّجاوز عن الحَدِّ، فإنَّهم المُستحقّون لإطلاق اسم الفاسق عليهم، دون غيرهم؛ وفيه من الإعلان بفسقهم ليتميَّزوا في هذه الصِّفة الذَّميمة[7].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 157.
(2) بهجت، الإعراب المُفصّل لكتاب الله المرتّل: 8/ 8.
(3) الدُّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 324.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 158.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 72.
(6) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 12.
(7) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 12، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 159.

بلاغة القصر بتعريف الطّرفيْن في ﴿هُمُ﴾ و(أل):

المُـبـالَـغـةِ فــي شَـنـاعـةِ فِسْقِهم، حتَّى كأنَّ ما عَداهُم لا يُعَدُّ فاسِقًا

الحَصرُ مُستفادٌ مِن دُخولِ ضميرِ الفَصلِ ﴿هُمُ﴾ بيْن طَرَفَي الجُملةِ؛ لتَقويةِ النِّسبةِ، وكذلك دُخولُ (أل) على الخبرِ الفاسِقونَ؛ فكأنَّهمُ استَحَقّوا الوَصفَ الكاملَ مِنَ الفِسقِ، وأنَّه لا فاسِقَ إلّا هُم وفي هذا مُبالَغةٌ في شَناعةِ فِسْقِهم، حتَّى كأنَّ ما عَداهُ مِن الفُسوقِ لا يُعَدُّ فِسْقًا[1]، والحصر في قوله: وأولئك هم الفاسقون للمبالغة في شناعة فسقهم حتى كأنّ ما عداه من الفسوق لا يعد فسقًا[2].

اصطفاء مادّة الفِسْقِ وصيغتها في فاصلة الآية:

بيان شِـدَّة شَـرِّ الـقـاذف بغير بينة وخطر أمره

قولُه: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: الخّارِجونَ عن طاعةِ اللّه، الَّذين قد كثُرَ شَرُّهم؛ وذلك لانتِهاكِ ما حرَّمَ اللّهُ، وانتِهاكِ عِرْضِ أخيهِ، وتَسليطِ النّاسِ على الكلامِ بما تكلَّمَ به، وإزالةِ الأُخوَّةِ الَّتي عقَدَها اللّهُ بيْن أهْلِ الإيمانِ، ومَحبَّةِ أنْ تَشيعَ الفاحشةُ في الَّذين آمنوا، وهذا دليلٌ على أنَّ القذفَ مِن كبائرِ الذُّنوبِ، ولأنَّ اسمَ الفِسقِ لا يقَعُ إلّا على صاحِبِ كبيرةٍ[3].

دلالة الاستثناء في صدر الآية، وعلاقته بالحكم عليهم بالفسق:

رجوع الاستثناء عـلـى خـصـوص عــدم قـبـول شـهـادتـهـم وإثبات فسقهم

الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ حَقُّه أن يعود إلى جميع ما تقدَّم قبله كما هو شأن الاستثناء عند الجمهور إلا إنَّه هُنا راجع إلى خصوص عدم قبول شهادتهم وإثبات فسقهم وغير راجع إلى إقامة الحدِّ، بقرينة قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾؛ أيْ: بعد أن تحقَّقت الأحكام الثَّلاثة فالحَدُّ قد فات، على أنَّه قد عُلم من استقراء الشَّريعة أن الحدود الشَّرعيَّة لا تسقطها توبة مقترف موجبها وقال أبو حنيفة وجماعة: الاستثناء يرجع إلى الجُملة الأخيرة جريًا على أصله في

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 159.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 159 - 160.
(3) الشِّربينيّ، تفسير الشِّربينيّ: 2/ 599.

عود الاستثناء الوارد بعد جمل متعاطفة[1]، وفي هذا الاستثناء دَليلٌ على أنَّ شَهادَةَ القاذفِ بعدَ التَّوبةِ مَقبولةٌ، وذَنْبَه مَغفورٌ[2]، فإن قيل إذا قبلتم شهادته بعد التّوبة فما معنى قوله أَبَدًا، قيل: معناه لا تقبل شهادته أبدًا ما دام مُصرًّا على قذفه لأنّ أبدَ كلِّ إنسان مدته على ما يليق بحاله، كما يُقالُ: لا تقبل شهادة الكافر أبدًا[3].

دلالة حرف الجرِّ ﴿مِنۢ﴾ ودخوله على ﴿بَعۡدِ﴾:

التَّرغيب في تعجيل التوبة والمبادرة لها

من معاني حرف الجرِّ ﴿مِنۢ﴾ الابتداء وهي كذلك هُنا في قوله تعالى: ﴿تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ فإنَّها تدلُّ على المُبادرة إلى التَّوبة والمُسارعة في تحصيلها في أوَّل أزمنة البعديَّة كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ [النِّساء:17].

فائدة التَّعبير باسم الإشارة ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾:

اسم الإشارة في قَولِه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ لتَهويلِ المَتوبِ عنه؛ أيِ: مِن بَعدِ ما اقترفوا ذلك الذَّنبَ العظيمَ الهائِلَ[4].

فائدة عطف الإصلاح على التَّوبة:

التَّوبة النَّصوح لها أثر في عمل الإنسان وصلاح حاله

عُطف الإصلاح في قول الله تعالى: ﴿وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ على التَّوبة في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾؛ لأنَّ التَّوبةَ التي لا أثَرَ لها في العَمَلِ لا شأنَ لها ولا قيمةَ في نَظَرِ الدّين؛ ولذلك جرى القُرآنُ على عَطفِ العَمَلِ الصّالح عليها عندَ ذِكرِها أو وصْفِها بالنَّصوح، وترى كثيرًا مِنَ النّاسِ يُظهِرونَ التَّوبةَ بالنَّدَمِ والاستِغفارِ والرُّجوعِ عن الذَّنبِ، ثمَّ لا يَلبَثونَ أن يعودوا إلى ما كانوا تابوا عنه؛ ذلك بأنَّه لم يكُنْ للتَّوبةِ أثَرٌ في نُفوسِهم يُنَبِّهُهم إذا غَفَلوا كَيْ لا يعودوا إلى ما اقترَفوا، ويهديهم إلى اتِّخاذِ الوَسائِلِ لإصلاحِ شَأنِهم، وتقويمِ أمرِهم[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 159.
(2) القصّاب، النُّكت الدّالّة على البيان: 2/ 415.
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 382.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 158.
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 3/ 301.

الغرض من حذف مفعول (أصلحوا):

شمول إصلاحِ أنفسهم لِما نُهوا عنه من القذف ولِكُلِّ ما نُهوا عنه من المعاصي

فعل (أصلح) من قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾ ومفعولُ ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ مَحذوفٌ؛ دَلَّ عليه السّياقُ؛ أيْ: أصلَحوا أنفُسَهم باجتِنابِ ما نُهوا عنه[1]، وأصلَحوا أعمالَهم بالتَّدارُكِ، ومنه الاستِسلامُ للحَدِّ، أو الاستِحلالُ مِنَ المَقذوفِ[2] ويحتمل أن يكون الفعل المتعدي منزل منزلة اللّام، فيكون معنى ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ دخلوا في الصَّلاح وصاروا صالحين[3].

سرّ إسناد الضمائر الى جمع المذكر:

البناء على الغالب في الخطاب القرآني

أُسنِد فعل ﴿يَرۡمُونَ﴾ إلى اسم موصول المُذَكَّر وضمائر ﴿تَابُواْ﴾ و﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ وكذلك وصف ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ بصيغ التَّذكير، وعُدّيَ فِعْلُ الرَّمي إلى مفعولٍ بصيغة الإناث كُلُّ ذلك بناء على الغالب أو على مُراعاة قصَّةٍ كانت سبب نزول الآية، ولكن هذا الحكم في الجميع يشمل ضِدَّ أهل هذه الصّيغة في مواقعها كُلِّها بطريق القياس[4].

دلالة الفاء وموضعها ممّا سبق:

التَّفريع على تَعليلِ ما يُفيدُه الاستِثناءُ مِن العَفْوِ عنِ المُؤاخَذةِ بموجِب الفِسْقِ

قولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تَعليلٌ لِما يُفيدُه الاستِثناءُ مِن العَفْوِ عنِ المُؤاخَذةِ بموجِب الفِسْقِ؛ ففُرِّعَ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ على ما يَقتَضيه الاستِثناءُ مِن معنًى: فاقبَلوا شَهادَتَهم، واغفِروا لهم ما سَلَفَ؛ فإنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ؛ أيْ: فإنَّ اللّهَ أمَرَ بالمَغفرةِ لهم؛ لأنَّه غَفورٌ رَحيمٌ[5]، فلمّا كان استثناؤهم من رَدِّ الشَّهادة والفسق، فكان التَّقدير: فاقبلوا شهادتهم ولا تصفوهم بالفسق، علَّله بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾؛ أي: الذي له صفات الكمال ﴿غَفُورٞ﴾[6]، وفي المجيء بالفاء هنا أيضًا هذا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 160.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 99.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 160.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 159.
(5) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 99، وأبو السعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 158.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 216.

إقامة السَّبب مقام مُسببه، والمعنى فإنَّ اللّه يتوب عليهم لأنَّه غفور رحيم فمغفرته ورحمته سببان في قبول التَّوبة من عباده[1].

سرُّ التَّأكيدِ بالحرفِ واسميَّة الجُملةِ:

التَّأكيد على إظهار كمال مغفرة الله ورحمته ترغيبًا للعبادة في التَّوبة وتحصيل ثمارها

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أُكِّدت هذه الجُملة بـ(إنَّ) واسميَّة الجُملة إظهارًا لكمال مغفرة اللّه تعالى ورحمته وترغيبًا للعباد في التَّوبة وتشويقًا لهم في تحصيل ثمراتها من مغفرة اللّه لهم ورحمته بهم في العاجل والآجل.

سر اصطفاء التّعريف بالعلمية في الاسم الجليل:

الإيماء إلى عظمة المغفرة والرَّحمة الصّادرتين من المعبود العظيم

جاء المُسند إليه ﴿ٱللَّهَ﴾ مُعرَّفًا بالعلميَّة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ للإيماء إلى عظمة المغفرة والرَّحمة الصّادرتين من المعبود العظيم لأنَّ الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾ جامع لصفات الجلال والكمال وذلك مُشعرٌ بعظمة أوصافه وأفعاله وعظمة آثارها في عباده.

دلالة صيغتي المُبالغة في ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

الإشارة الى غاية كرم الله ورحمته على عباده

صيغة المُبالغة في الاسمَين الأحسنَين في قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أيّ: إنَّه مبالغ في المغفرة والرَّحمة، وفيه إشارة إلى غاية كرم اللّه ورحمته على عباده بأن يستر عليهم ودلالة على سعة توبة اللّه ﷻ ورحمته وشمولهما لكلِّ التّائبين، فالاسمان يدلّان على كثرة مغفرته ورحمته على عباده المُؤمنين وفي هذا من التَّرغيب في التَّوبة وتعجيل الأوبة والحثِّ عليهما ما فيه[2].

سر اصطفاء الاسميَّة بدل الفعليَّة في وصفي الرَّحمة والمغفرة:

جيء بالاسم في ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بدلًا من الفعل (يغفر ويرحم) لإفادة العموم في المَغفرة والرَّحمة لِكُلِّ من تاب من القاذفين وغيرهم ممن أذنب واجترم ثم تاب وأصلح وندم.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 330.

(2) البروسويّ، روح البيان: 6/ 119.

سِرُّ التَّذييل بِذِكْرِ المغفرة والرَّحمة:

ورد قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تذييلًا للآية الكريمة وهو تذييل جارٍ مجرى المثل للاستقلال بالفائدة دون احتياجٍ إلى ما قبله، وسِرُّ التَّذييل به التَّرغيب ببيان رحمة اللّه ومغفرته لمن تاب وأصلح من نفسه؛ فباب التَّوبة مفتوح وباب الرحمة مفسوح؛ فلا يقنط العبد من رحمة ربه، فجاء هذا التَّرغيب بعد التَّرهيب، وهي من عادة القرآن الكريم في الجمع بينهما.

التَّرغيب ببيان رحمة اللّه ومغفرته لمن تاب بعد التَّرهيب في الآية السّابقة

تقديم المغفرة على الرحمة:

نُكْتَةُ تَقْديمِ المَغْفِرَةِ على الرَّحْمَةِ:

قُدِّمت المغفرة على الرَّحمةِ في قوله تعالى: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لأنَّ المَغفرةَ سببٌ في الرَّحمةِ كما قال اللّه تعالى: ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [النَّمل:46]، والأصلُ: تقديم السَّبَبِ كما أنَّ في المغفرةِ زوالَ المرهوبِ، وفي الرَّحمةِ تحصيلَ المطلوبِ؛ فكان تقديمُ المغفرةِ من باب أنَّ التَّخليةَ قبلَ التَّحليةِ مع تعجيل المسرة بقبول توبة التّائبين.

التَّقديم بالتَّخْليَةِ قَبْلَ التَّحْلِيَةِ

توجيه المُتشابِه اللَّفظيّ بين هذه الآية وآية سورة البقرة:

جاء في آيةِ سورة البقرة: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾ [البقرة: 160]، وهنا ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾ وفي سورة البقرة أنَّ اللّه واللّاعنين يَلعنون الكاتمين النّاس ما علموا من أمر نبوة محمَّد ﷺ وصفته ونعته في الكتاب الذي أنزله اللّه وبيَّنه للناس؛ إلّا مَن أناب من كتمانه ذلك منهم؛ وراجع التَّوبة بالإيمان بمحمَّد ﷺ والإقرار به وبنبوّته، وتصديقه فيما جاء به من عند اللّه، وبيان ما أنزل اللّه في كتبه التي أنزل إلى أنبيائه، من الأمر باتباعه؛ وأصلح حالَ نفسه بالتَّقرب إلى اللّه من صالح الأعمال بما يُرضيه عنه؛ وبيَّن الذي عَلم من وحي اللّه الذي أنزله إلى أنبيائه وعهد إليهم في كتبه فلم يكتمه،

الزّيادة مُناسبة لمقام الإطناب وعدمها لمقام الاختصار

وأظهرَه فلم يُخفِه(1) فصُرِّحَ في آيةِ البقرةِ بما قُدِّرَ نَظيرُه هُنا؛ لأنَّ المَقامَ هنالك مَقامُ إطنابٍ؛ لشِدَّةِ الاهتِمام بأمرِهم؛ إذْ ثابوا إلى الإيمانِ والإصلاحِ، وبَيانِ ما أُنزِلَ إليهم مِن الهُدى بَعْدَ ما كَتَموه وكَتَمه سَلَفُهم(2).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإحصان والزَّواج:

الإحْصان أَصله المَنْع، وله في القرآن الكريم معان؛ **أحدها**: الإحْصان الموجِب رجم الزّاني، ولا ذِكْر لَهُ في القُرْآن إلّا في قَوْله تَعالَى: ﴿مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾ [النّساء: 24] قالوا: مَعْناهُ مُحصنين بالنِّكاحِ لا بِالزِّنا، و**الثّاني**: الإحْصان بمَعْنى العِفَّة وهوَ إحْصان المَقْذوف وهوَ المُراد بقوله تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾، وقَوله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ [النّور: 23]، **والثّالِث**: بِمَعْنى الحُرِّيَّة وهوَ المُراد بقوله تَعالَى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ [النّساء: 25]، وقَوله تَعالَى: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [المائدة: 5]، **والرّابِع**: بِمَعْنى التَّزْويج وهوَ المُراد بقوله تَعالَى: ﴿۞وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: 24](3).

الإحصان في البشر أعمُّ من التَّزويج، والتَّزويج نوع من الإحصان

أَمّا أصل الزَّواج فيدُلُّ على مُطلَقِ الاقْتران، فكُلُّ ما قُرِنَ بِشَيْءٍ فهوَ زَوْجٌ، وهُما زَوْجان(4)؛ يُقالُ: تَزَوَّجَ بِامرَأةٍ أَيْ: اقترن بها وأَصْبَحَتْ زَوْجةً لَهُ، ومِنْهُ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: 37]، فبَيْنَهُما عُمومٌ وخُصوصٌ مُطلَق، فالإحصان في البشر أعمُّ من التَّزويج، والتَّزويج نوع من الإحصان.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/ 259.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 160.
(3) الكفوي، الكليّات، ص: 55، والنَّوويّ، تحرير ألفاظ التَّنبيه، ص: 323، والسّيوطيّ، الإتقان: 2/ 155.
(4) السَّمينُ، عُمدَةُ الحُفّاظِ: 2/ 152.

الأبد والأمد:

الأبد هو الزّمن الممتد الذي لا يتجزّأ كما يتجزأ الزّمان، ويعبر بالأبد عن الزّمن الطّويل الذي ليس بمحدودٍ ولا يتقيَّد، لا يُقال: أبد كذا، فإن قال المتكلم: لا أكلمه أبدًا؛ فالأبد من لَدُن تكلَّم إلى آخر العمر[1].

الأبـد الـزّمـن الممتد بلا حدٍّ أو قيد، والأمد الزّمن المحدود بحدّ مجهول، والزمان عامٌّ

والأمد مدةٌ لها حدٌّ مجهول إذا أُطلق، وقد ينحصر نحو أن يُقال أمد كذا كما يقال زمان كذا، فالأمد والأبد يتقاربان، لكن الأبد عبارة عن مدّة الزّمان التي ليس لها حدّ محدود[2].

المغفرة والرَّحمة:

الفرقُ بينَهما مِن أوجهٍ:

أوَّلًا: أنَّ أصلَ الغَفرِ في اللُّغة: السَّتْرُ[3]، وأصلَ الرَّحْمَةِ: الرِّقَّة والعَطْفُ[4].

في المغفرة سَتْرٌ للذَّنب وزوال للكُروب وفي الرَّحمة عَطْفٌ وتحصيلٌ للمطلوب

ثانيًا: أنَّ أحدهما سببٌ في الآخرِ، ومال ابنُ عرفة إلى أنَّ الرَّحمة سببٌ في المغفرة؛ لأنَّ الرِّقَّة والعطفَ توجِبُ عادةً سَتْرَ الزَّلَلِ[5]، هذا في أوصاف الخالق سبحانه، أما في فعل المخلوق فإنّ الاستغفار وطلب المغفرة هو الجالب للرَّحمة والسَّبب فيها، كما قال تعالى: ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [النَّمل:46].

ثالثًا: أنَّ المغفرة والرَّحمةَ إذا جُمِعا في محلٍّ واحدٍ؛ انصرفَتِ المغفرةُ لسَتْرِ ما مضى من الذُّنوبِ، والرَّحمةُ لِلْعِصْمة مِنْها فيما يُستقبَلُ[6].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (أبد)، وابن قتيبة، غريب الحديث: 2/ 309، والفيّومي، المصباح المنير: 01/ 01.

(2) الكفوي، الكليّات، ص: 32، والراغب، المفردات: (أمد).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رحم).

(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/ 435، 2/ 258.

(6) ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول وأدلّتها، ص: 19.

رابعًا: أنَّ المغفرة فيها زَوالُ المكروه مِن آثار الذُّنوب، والرَّحمةَ فيها تحصيلُ المطلوب[1].

المغفرة والعفو:

الغفر سترٌ والعفو محوٌ

الفرقُ بينَهما من أَوْجُهٍ:

أولًا: أنَّ أصلَ الغَفْرِ في لُغة العربِ: السَّتْرُ[2]، وأصلَ العَفْوِ: المَحْوُ وتركُ الشَّيْءِ[3].

ثانيًا: أنَّ الغالبَ استعمال العفوِ في تركِ الواجباتِ، واستعمالُ المغفرةِ في فعل المحرَّماتِ[4].

ثالثًا: أنَّ أحدَهُما أبلغُ مِنَ الآخَرِ، وقد وقع خلافٌ في تعيينِ الأبلَغ منهما علَى قولَيْن:

أحدُهما: أنَّ العفوَ أبلغُ مِنَ المغفرة؛ لأنَّ المغفرة تُنْبِئُ عَنِ السَّتْرِ، بخلاف العفو فإنَّه مشعرٌ بالمَحْوِ، والمحوُ أبلغُ من السَّتْرِ[5].

والآخرُ: أنَّ المغفرةَ أبلغُ مِنَ العفوِ؛ لأنَّ المغفرةَ متضمِّنَةٌ وقايةَ المغفورِ له شرَّ ذنبه وإقبالَ الغافِرِ عليهِ ورضاهُ عنه، بخلاف العفوِ فإنَّهُ متضمِّنٌ لإسقاطِ صاحبِ الحقِّ حقَّهُ ومسامحتِهِ، فقد يَعْفو ولا يُقْبِلُ على من عفا عَنْهُ ولا يرضَى عَنْهُ، وبهذا يكون العفوُ تركًا محضًا، والمغفرةُ إحسانًا وفضلًا وجودًا[6]، والأوَّلُ أشهَرُ، والاشتقاقُ اللُّغَويُّ يدلُّ عليه.

(1) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 3/ 66.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عفو)، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (عفا).
(4) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/ 341.
(5) الصَّفّوري، نزهة المجالس ومنتخب النَّفائس: 1/ 88.
(6) ابن تيميَّة، مجموع الفتاوى: 14/ 140.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧﴾ [النّور: 6 - 7]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

تعقيب أحكام قذف الأجنبيات بأحكام قذف الزّوجات

لمّا ذكَرَ اللّه تعالى رميَ المُحصَناتِ على العموم، دخَلَ في عمومِه الزوجُ إذا رمى زوجتَه التي تحته بعقد النكاح، ولمّا كان له أحكامٌ خاصَّةٌ، والقرائنُ تدُلُّ على أنَّه لا يَرمي زوجتَه إلّا إذا كان صادقًا؛ لأنَّ زناها مُصيبةٌ وعارٌ عليه هو، والإنسانُ لا يَذْكرُ عيبًا يَعودُ عليه - جعَل اللّهُ تعالى له مَخرَجًا إذا قذَفَ زوجتَه، بتشريعِ حُكمِ اللِّعانِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَزْوَٰجَهُمْ﴾: (زوج) أصلٌ يَدُلُّ على مُقارَنَةِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ، مِن ذلكَ الزَّوْجُ زَوْجُ المَرأَةِ، والمَرأَةُ زَوْجُ بَعْلِها، وهو الفَصيحُ، قالَ اللّه جَلَّ ثَناؤُهُ: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35][2]، فالزَّوْجُ كُلُّ شَيْءٍ ثانٍ مَعَ شَيءٍ آخَرَ بَيْنَهُما تَقارُنٌ في حالٍ ما، وسُمّيَتِ الأُنْثَى القَرينَةُ لِلرَّجُلِ بِنِكاحٍ زَوْجًا لِأَنَّها اقْتَرَنَتْ به وصَيَّرَتْهُ ثانيًا، ويُسَمَّى الرَّجُلُ زَوْجًا لَها لِذَلِكَ بِلا فَرْقٍ، فمِنْ ثَمَّ لا يُقالُ للمَرأَةِ زَوْجَة بِهاءِ تَأْنيث؛ لأَنَّهُ اسْم وليسَ بوصفه[3]، والمُراد بالأَزواجِ في الآية: جَمعُ زَوْجٍ، وهو اسْمٌ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنِ اثْنَيْنِ مِنْ صِنْفٍ واحِدٍ.

2) ﴿أَنفُسُهُمْ﴾: أَصْلُ الكلمة مِن التَّنْفيسِ، وهو: الخُروجُ مِن

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 330، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 19/ 224.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (زوج).
(3) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (زوج).

الجَوْفِ[1]، وسُمّيَتِ النَّفْسُ نَفْسًا لِتَوَلُّدِ النَّفَسِ مِنْها واتّصالِهِ بِها[2]، والنَّفْسُ يعبَّر بها عَنِ الإنسان جَميعِه[3]، وأمّا قولهم: ثلاثة أَنْفُسٍ، فيذكرونه لأنَّهم يريدون به الإنسان[4]، والنَّفْس: نَفْس الإِنْسان والدّابّة وكلّ شَيْء[5]، والنَّفس في الآية: اسم جنس لنفوس البشر.

3) ﴿لَعْنَتَ﴾: أصلُ (لعن): يَدُلُّ على الطَّرْدِ والإبْعادِ، يُقال: لَعَنَهُ اللّهُ؛ أيْ: أَبْعَدَهُ وطَرَدَهُ عن الخَيْرِ[6]، واللَّعينُ: المُبْعَدُ المَنْبوذُ، واللِّعانُ: الدُّعاءُ باللَّعْنِ، وأمّا الذي يَصدُرُ مِن الخَلْقِ فهو بِمعنى السَّبِّ والشَّتْم، فيُقال: لَعَنَهُ لَعْنًا؛ أيْ: سَبَّهُ[7]، ويأتي اللَّعْنُ بمعنى التَّعْذيبِ والإِهْلاكِ، واللَّعْنَةُ: العَذابُ[8]، ومِن مَعانيه أيضًا: المَسْخُ[9]، والمقصود باللَّعنَةِ واللعنِ في الآية: الطَّردُ بِتَحقيرٍ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

شهادات الزّوج على زوجته، دارئةٌ عنه حدَّ القَذف

بعْدَ أن بيَّن اللّه تعالى حُكمَ القذفِ بصِفةٍ عامَّةٍ، يُبيِّنُ حُكمَ القذفِ إذا ما حدَث بيْنَ الزَّوجيْن، فيقولُ: والذين يَرمونَ زوجاتِهم بالزِّنا، ولم يكن لهم شهداء يشهدون لهم بصِحَّة ما قذفوهن به من الفاحشة، فعلى كلٍّ منهم أن يشهد أربع شهاداتٍ إنَّه لَمِنَ الصّادقينَ فيما رَمَى به زَوجتَه مِن الزِّنا[10]، والشهادة الخامسة بعد الأربع المتقدمة يقولُ الزوج فيها: إنَّ لَعنةَ اللّهِ عليه واجِبةٌ وحالَّةٌ إنْ كان مِنَ الكاذبينَ فيما رَمَى به زوجتَه مِنَ الزِّنا[11].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفس).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نفس).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (نفس).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المُحكم: (نفس).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (نفس).
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (لعن).
(7) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (لعن).
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (لعن).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (لعن).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 176، والسّمعانيّ، تفسير القرآن: 3/ 503، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 76.
(11) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 178، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 562.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في صدر الآية:

تقرير حُكم قذف الزَّوجات خصوصًا بعد بيان حكم القذف عمومًا

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ عاطفة على ما تقدَّم، فقد قرَّرت الآية السّابقة حُكْمَ الذين يرمون غير أزواجهم بتهمة الزِّنا، وفي هذه الآية بيان لحكم الذين تكون التُّهمة منهم موجهة إلى أزواجهم؛ فللعلاقة الزوجية شأن في هذا الأمر، غيره مع غير الزَّوج والزَّوجة وهو حكم ناسخ لعموم المُحصنات، فإذا وضع الرجل امرأته موضع التُّهمة، ورماها بهذا المُنكر، لم يكن مُطالَبًا لإثبات هذه التُّهمة بإحضار أربعة شهود يشهدون على هذا الأمر، إذ لا يقبل رجل على نفسه أن يعرض امرأته في هذا المعرض، وأن يفضحها تلك الفضيحة المُعلنة، على الملأ، وإنَّما المطلوب منه هُنا هو أن يستشهد نفسه، ويحتكم إلى دينه وضميره، فيستخرج من كيانه أربعة شهود يشهدون على لسانه أربع شهادات، وذلك بأن يشهد هو هذه الشهادة، ويحتملها ديانةً أمام اللّه، فيقول مثلًا أُشْهِدُ اللّه أنّي رأيت زوجتي هذه، فلانة، مع فلان، في حال تَلَبُّس بتلك الجريمة، وإنّي لمن الصّادقين فيما شهدت ويكرِّر هذا أربع مرّات ثُمَّ يجيء بالخامسة بعد هذا مواجها بها نفسه، فيقول: إنَّ لعنة اللّه عليه إن كان من الكاذبين[1]، فالكلام في هذه الآية لبيان حُكم الرّامين لزوجاتهم خاصَّة بعد بيان حُكم الرّامين لغيرهن[2].

بلاغة التّعبير بالاسم الموصول:

إفادة العموم في الأزواج دون غيرهم

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾؛ أيّ: والأزواج الذين يقذفون زوجاتهم بالزِّنا فالموصول هنا - مع عموم لفظه - مخصوص المعنى بالأزواج دون غيرهم، وفي هذا تخصيص للعُمومَيْن الذين

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1224، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 301.

(2) البروسويّ، روح البيان: 6/ 120.

في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ فإنَّ من المُحصنات من هن أزواج لمن يرميهن، فخصَّ هؤلاء الذين يرمون أزواجهم من حكم قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ إذ عذر الأزواج خاصَّة في إقدامهم على القول في أزواجهم بالزِّنا إذا لم يستطيعوا إثباته بأربعة شهداء، ووجه عذرهم في ذلك ما في نفوس النّاس من سجيَّة الغيرة على أزواجهم وعدم احتمال رؤية الزِّنا بهن فدفع عنهم حَدَّ القذف بما شُرِعَ لهم من المُلاعنة[1].

نكتة تقديم ذِكْر الزَّوج في الرَّمي على الزوجة:

تقديمُ الزّوجِ لأنَّه هو القاذف المُتولّي لهذه التُّهمة

بدأَ النّظم الكريم في حَدِّ اللِّعان بذِكْرِ الذُّكور قبل ذكر الإناث، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾، وهذا في غايةِ المُناسَبةِ؛ لأنَّ في اللِّعانِ الزَّوج هو الذي قذَفَها، وعرَّضَها لِلِّعانِ، وهَتَكَ عِرْضَها، ورَماها بالعَظيمةِ، وفَضحَها عندَ قَومِها وأهلِها؛ ولهذا يجبُ عليه الحَدُّ إذا لم يُلاعِنْ؛ فكانتِ البُداءةُ به في اللِّعان أَوْلى من البُداءةِ بها، وأمّا في الزِّنا فهو مِن المرأةِ أقبَحُ منه بالرَّجُل؛ لأنَّها تَزيدُ على هَتْكِ حقِّ الله: إفسادَ فِراشِ بَعلِها، وتَعليقَ نَسَبٍ مِن غيرِه عليه، وفَضيحةَ أهلِها وأقاربِها، والجِناية على مَحْضِ حقِّ الزَّوجِ، وخيانتَه فيه، وإسقاطَ حُرْمتِه عندَ الناسِ، وتَعييرَه بإمساكِ البَغيِّ، وغيرَ ذلك مِن مَفاسِدِ زِناها؛ فكانتِ البُداءةُ بها في الحَدِّ أهَمَّ[2].

سِرُّ التَّعبير بلفظ الأزواج مجموعًا مُضافًا:

الدَّلالة على العموم في الزَّوجات في عِدَّة جهات

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ عمومُ الآيةِ في قولِه: ﴿أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ يَشمَلُ ما قبْلَ الدُّخولِ وما بعدَه، فلو عقَدَ على امرأةٍ ثمَّ رماها بالزِّنا، أُجْرِيَ بيْنهما اللِّعانُ؛ لأنَّها زَوجتُه[3]، والأزواج

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 76، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 161.

(2) ابن القيِّم، زاد المعاد: 5/ 339.

(3) ابن عُثيمين، تفسير سورة النّور، ص: 33.

في هذه الآية أيضًا يعمّ المسلمات والكافرات والإماء؛ فكُلُّهنَّ يُلاعنهنَّ الزَّوج[1].

دلالة نفي الكون في قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن﴾:

قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾؛ أيْ: لم يكن لهم على تصديق قولهم من يشهد لهم به إلا أَنْفُسُهُم[2] مفهومه لو كان له بَيِّنة فلا لعان بينهما[3].

سرّ عدم التَّقييد بعددٍ في لفظ ﴿شُهَدَآءُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾ لم يُقَيَّد الشُّهداء بعَددٍ؛ اكتِفاءً بالتَّقييدِ في قَذْفِ غيرِ الزَّوجاتِ[4].

الغرض من حذف مُتعلَّق شُهداء:

حُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿شُهَدَآءُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾؛ لظُهورِه مِنَ السّياقِ؛ أيْ: شُهداءُ على ما ادَّعَوْهُ ممّا رَمَوْا به أزواجَهُم[5].

بلاغة التعبير بأسلوب القصر:

إقامة الزَّوج مقام الشُّهود لمكانته من زوجته وغيرته على عرضه

جاء القصر هُنا في الجُملة الكريمة بالنَّفي والاستثناء ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾ حيث جعل الأزواج أنفسهم شُهداء لأنَّ الاستثناء من النَّفي إثبات[6]، وهو قصر حقيقي يبين أن يمين الزَّوج يقوم مقام الشُّهداء الأربعة المذكورين في حكم القذف العامّ فكانت أيمانه بمنزلة شهادة أربعة، وعلة ذلك هو أن في نفوس الأزواج وازعًا يزعهم عن أن يرموا نساءهم بالفاحشة كذبًا وهو

(1) الثَّعالبيّ، الجواهر الحِسان: 4/ 172.
(2) النَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 3/ 198.
(3) الصّاوي، حاشية الصّاوي: 3/ 27.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 15.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 163.
(6) المُظهريّ، التّفسير المُظهريّ: 6/ 457.

وازع التّعيير من ذلك، ووازع المحبة في الأزواج غالبًا؛ فسمَّى اللّه ادعاء الأزّواج على زوجته باسم الشَّهادة بظاهر الاستثناء لما في نفوسهم من الغيرة عليهن ما لا يحتمل معه السُّكوت على ذلك، وكانوا في الجاهلية يقتلون على ذلك، وكان الرَّجل مُصدَّقًا فيما يدعيه على امرأته(1).

نوع الاستثناء وحكمه:

تغليب الشُّهداء حتَّى شملوا الزَّوج القاذف

اختلف المُفسِّرون في نوع الاستثناء من قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ بين الاتصال والانقطاع، وأولى الأقوال في هذا الاستثناء أنَّه متصل، وأنَّ فيه تغليب الشُّهداء حتَّى شملوا الزَّوج القاذف، والسرّ في هذا التّغليب الإشارة من أول الأمر إلى اعتبار قوله، وعدم إلغائه، ليوافق ما آل إليه اللِّعان في آخر الأمر من اعتبار قوله في سقوط الحد عنه بكلماته وحدها(2).

بلاغة التّعبير بالمجاز في التَّعبير عن اليمين بالشَّهادة:

تسميتها شهادةً لأنَّها نائبةٌ منابَ الشهودِ

قوله تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ﴾ سمّاها شهادةً؛ لأنَّها نائبةٌ منابَ الشهودِ، بأن يقولَ: (أشهدُ باللّهِ إنّي لَمِنَ الصادقينَ فيما رميتُها به)(3)، وسُمّيَ اليمينُ هُنا شهادة لأنَّه بدَلٌ منها فهو مجاز مرسل بعلاقة الحُلول الاعتباريِّ، وأن صيغة الشَّهادة تستعمل في الحلف كثيرًا؛ وهُنا جُعِلت بدلًا من الشَّهادة فكأنَّ المُدَّعي أخرج من نفسه أربعة شهود هي تلك الأيمان الأربع، ومعنى كون الأيمان بدلًا من الشهادة أنها قائمة مقامها للعذر الذي ذكرناه آنفًا؛ فلا تأخذ جميع أحكام الشهادة، ولا يتوهم أن لا تقبل أيمان اللعان إلّا من عدلٍ؛ فلو كان فاسقًا لم يلتعن، ولم يحدَّ حَدُّ القذف بل كل مَنْ صَحَّتْ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 164.

(2) السّايس، تفسير آيات الأحكام، ص: 559.

(3) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 562.

يَمينُهُ صَحَّ لِعانُهُ، وتسمية القرآن أيمان اللِّعان شهادة يومئ إلى أنَّها لِرَدِّ دعوى وشرط ترتب الآثار على الدَّعوى أن تكون مُحَقَّقة[1].

الموقع الإعرابي لـ﴿أَنفُسُهُمْ﴾ ودلالته:

الإيذانُ مِن أوَّلِ الأمـرِ بـعَـدَمِ إلـغـاءِ قَولِهم بالمرَّة

﴿أَنفُسُهُمْ﴾ بَدَلٌ من ﴿شُهَدَآءُ﴾، أو صِفَةٌ لها، على أنَّ ﴿إِلَّآ﴾ بمعنَى (غَير)؛ جُعِلوا مِن جُملةِ الشُّهداءِ؛ إيذانًا من أوَّلِ الأمرِ بعَدَمِ إلغاءِ قَولِهم بالمرَّةِ، ونَظْمِه في سِلْكِ الشَّهادةِ في الجُملة؛ وبذلك ازدادَ حُسْنُ إضافةِ الشَّهادةِ إليهم في قولِه تعالى: فشَهادَةُ أَحَدِهِم[2].

دلالة الفاء في ﴿فَشَهَٰدَةُ﴾:

ترتيب الجواب عـلى الاسـم الموصول المُضَمَّن معنى الشَّرط

الفاء واقعة في جواب الاسم الموصول المُضَمَّن معنى الشَّرط[3]، فلمّا تعذَّر على الأزواج إلفاء الشَّهادة في مثل هذا الحال وعذرهم اللّه في الادعاء بذلك ولم يترك الأمر فوضى، ولا ترك النِّساء مضغة في أفواه من يريدون التَّشهير بهن من أزواجهن لشقاق أو غيظ مفرط أو حماقة؛ كلف الأزواج شهادة لا تعسر عليهم إن كانوا صادقين فيما يدعون فأوجب عليهم الحلف باللّه أربع مرات لتقوم الأيمان مقام الشّهود الأربعة المفروضين للزِّنا[4]؛ فرتَّب الجواب على معنى الشّرط في صدر الجملة.

الغرض من حذف خبر الشَّهادة:

الإشـــارة إلى لـزوم شهادته عند عدم وجود الشُّهود

قوله تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ محذوفُ الخبر - على تأويلٍ - دلَّ عليه معنى الشَّرطيَّة الذي في الموصول واقتران الفاء بخبره، والتَّقدير: فشهادة أحدهم لازمة له[5]، وفيه الإشارة إلى لزوم شهادته عند عدم وجود الشُّهود وإلا حُدَّ.

(1) العزُّ بن عبد السّلام، تفسير العز بن عبد السّلام: 2/ 4، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 164.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 158.
(3) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 8/ 11.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 164.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 164، والدرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 327.

نكتة تحديد عدد الشَّهادات بالأربع:

كونُها تقوم مقام الشُّهداء الأربعة المفروضين للزِّنا

الشَّهادات الأربع التي يشهد بها الزَّوج تقوم مقام الشُّهداء الأربعة المفروضين للزِّنا في دفع الحَدِّ عنه، وتُرِكَ ذِكْرُ كونها تقوم مقام الشهداء الأربعة اكتفاء بمعرفة السّامعين بما ذُكِرَ من الكلام[1].

توجيه القراءات في ﴿أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ﴾ وبلاغتها:

تكامل الجملة الاسمية مع الجملة الفعلية لإثراء المعنى

قرأ حمزة والكسائي وخلَف وحفص برفع العين ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ﴾، وقرأ الباقون بالنصب: ﴿أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ﴾[2]، فالحجة لمن رفع: أنه جعله خبرًا لقولهم: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾، فيكون ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلقًا بـ: ﴿شَهَٰدَٰتٍ﴾، ولا يتعلق بـ: ﴿فَشَهَٰدَةُ﴾؛ لأنك كنت تفرّق بين الصلة والموصول بخبر الابتداء، والحجة لمن نصب: أنه أضمر فعلًا له معناه: (فشهادة أحدهم أن يشهد أربعَ شهادات)، ويجوز أن يكون ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ خبرًا عن ﴿فَشَهَٰدَةُ﴾، ويجوز أن يكون مفعولًا للشهادة، فتعلّق الشهادة كما تعلق العلم، ويجوز أن تنصب ﴿أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ﴾ على المصدر، كما تقول: (شهدت مائة شهادة)، و(ضربته مائة سوط)، فإن قيل: فالشهادة الأولى واحدة والثانية أربع؟ فقل: معناها معنى الجمع، وإن كانت بلفظ الواحد كما تقول: صلاتي خمس وصيامي عشر [3]، فالتعبير بالجملة الاسمية في قراءة، ثم التعبير بالجملة الفعلية في القراءة الأخرى تبين لنا خطورة هذه الشهادات الأربع وما سيترتب عليها من أحكام.

دلالة الحلف بلفظ الجلالة (الله) وتكراره:

استحضار التَّعظيم والرَّهبة في القلب من خلال تعظيم المحلوف به

قوله تعالى: ﴿بِٱللَّهِ﴾؛ أيّ: مقرونة بهذا الاسم الكريم الأعظم الموجب لاستحضار جميع صفات الجلال والجمال[4]، فتكرار ذِكْرِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 110.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 330.
(3) ابن خالويه، الحُجَّة: 260، ومكِّي، الكشف: 2/134.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 217.

اسم اللّه معها في كُلِّ مَرَّة، مِمّا يُتيح للرَّجل فُرصة في أنْ يُراجع نَفْسَهُ، أو يرجع إلى الله إن كان أمره قائمًا على ظنون، وشكوكٍ[1].

دلالة المُؤكّدات في التَّذييل الكريم:

التّأكيد على تحقيق الصّدق في الشّهادة وتحرّي اليقين قبل اليمين

في قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أصْلُه: (على أنَّه)، فحُذِفَ الجارُّ، وكُسِرَتْ (إنَّ)، وعُلِّقَ العاملُ عنها باللّامِ؛ للتَّأكيدِ[2]، والتَّعليق بها لصدارتها، وهو لا يختصُّ بأفعال القلوب، بل يكون أيضًا فيما يجري مجراها كالشَّهادة لإفادتها العلم فيشهد بصدق المبنيِّ على اليقين المُحَقَّق، ولأجل هذا أُكِّدَت الجُملة بمُؤكدات أخرى مع اللام، وهي إنَّ واسميَّة الجُملة[3].

دلالةالتَّعبير بقوله: ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

الكناية عن الرُّسوخ في الصِّدق ترغيبًا في الصِّدق ومصاحبة أهله

قوله: ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أبلغ من أن يُقال: (إنَّه صادقٌ) فإنَّ التَّعريف في الصّادقين يشمل جنسهم، فإخبار المتكلِّم عن نفسه بأنَّه من الصّادقين يُفيد أنَّه واحد من الفئة التي تعرف عند النّاس بفئة الصّادقين؛ أيْ: وليكون من زُمرة الرّاسخين في الصِّدق البالغين درجةً عالية فيه؛ فيُفيد أنَّه صادق إفادة بطريقة تشبه طريقة الاستدلال، فهو من قبيل الكناية التي هي إثبات الشَّيء بإثبات مَلزومه، وهي أبلغ من التَّصريح، فإنَّ قول القائل فلان من العلماء أبلغ من قوله: فلان عالم، لأنَّه يشهد له بكونه مَعدودًا في زمرتهم، ومعروفةٌ مُساهمته لهم في العلم[4].

دلالة عطف الشَّهادة الخامسة:

استِقلالُها بالفَحوى، ووكادَتُها في إفادةِ ما يُقصَدُ بالشَّهادةِ مِن تَحقيقِ الخَبرِ

قَولُه تعالى: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ﴾ بيانٌ لما يجب على القاذف بعد أن شهد أربع شهادات بالله إنَّه لمن الصادقين؛ أي: والشهادة الخامسة بعد

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 9/ 1225.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 99، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 158.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 274.
(4) الزَّمخشريٌّ، الكشّاف: 3/ 331.

الأربع المُتقدّمة[1] والشَّهادة الخامسة ليس لها مُقابلٌ في عدَدِ شُهودِ الزِّنا، فلعلَّ حِكْمَةَ زيادةِ هذه اليمينِ مع الأيمانِ الأربَعِ القائمةِ مَقامَ الشُّهودِ الأربعةِ: أنَّها لِتَقويةِ الأيمانِ الأربَعِ، باستِذكارِ ما يترتَّبُ على أَيْمانِه إنْ كانت غَموسًا مِن الحِرمانِ مِن رَحمةِ اللّهِ تعالى وهذا هو وجْهُ كَونِها مُخالِفةً في صيغَتِها لصيَغِ الشَّهاداتِ الأربَعِ الَّتي تقدَّمَتْها، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ الأربَعَ هي المجعولةُ بدَلًا عن الشُّهودِ، وأنَّ هذه الخامسةَ تَذييلٌ للشَّهادةِ، وتَغليظٌ لها[2].

تذييل الأيمانِ الأربَعِ باستِذكارِ ما يترتَّبُ على أَيْمانِه تغليظًا لتلك الأيمان

سِرُّ تَعلُّق اللّعن بالشَّهادة الخامِسَة:

قَولُه تعالى: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ﴾ فيه إفرادُ الشَّهادةِ الخامسةِ عنهُنَّ، مع كَونِها شَهادةً أيضًا؛ لاستِقلالِها بالفَحوى ووكادَتِها في إفادةِ ما يُقصَدُ بالشَّهادةِ مِن تَحقيقِ الخَبرِ وإظهارِ الصِّدقِ في المرة الخامسة التي تُصبُّ فيها لعنة اللّه عليه إن كان كاذبًا، وهي عمليَّة يقف بها الإنسان على حافَّة الهاوية ويُطِلُّ منها على تلك الهوَّة العميقة التي سيتردَّى فيها إذا هو مضى إلى غايته، ولم يكن مُتَّقيًا اللّه في نفسه، وفي المرأة التي يضربها الضربة القاضية بهذه الكلمة تخرج من فمه[3].

نكتة تأنيث ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ﴾:

أَنِّثَ اسم العدد ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ﴾ لأنَّه صِفَةٌ لمحذوف دلَّ عليه قوله فشهادة أحدهم والتَّقدير: والشَّهادة الخامسة[4].

التَّوجيه البلاغي لقراءة تخفيف النّون في ﴿أَنَّ﴾ ورفع ﴿لَعۡنَتَ﴾:

قراءة التَّخفيف تفسيريَّة لأنَّ الخامسة يمينٌ فيها معنى القول دون حروفه

قرأ نافع ويعقوب بتخفيف نون ﴿أَن﴾، ورفع ﴿لَّعۡنَتُ﴾، وخُرِّجت قراءتهما على جعل ﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة، مهملة العمل، واسمها

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 89.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 165.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 9/ 1225.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 165.

ضمير الشأن محذوفٌ؛ أيِّ: تهويلًا لشأن الشَّهادة الخامسة، ورُدَّ هذا الوجه الإعرابيّ بما تقرَّر من عدم خُلوِّ جملة خبر (أَنْ) المخفَّفة من أحد أربعة أشياء: (قد)، وحرف النَّفي، وحرف التَّنفيس، و(لولا)، والتَّحقيقُ أن تُجعل ﴿أَن﴾ على هذه القراءة تفسيريَّة؛ لأنَّ الخامسة يمينٌ؛ ففيها معنى القول دون حروفه فيناسبها التَّفسير، وقرأ الباقون: ﴿أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ بتشديد نون ﴿أَنَّ﴾ ونصب ﴿لَعۡنَتَ﴾، ويتعين على هذه القراءة أن تقدر باء الجرِّ داخلة على ﴿أَنَّ﴾ متعلقة بالخامسة؛ لأنها صفة لموصوف تقديره: (والشهادة الخامسة)، ليتجه فتح همزة ﴿أَنَّ﴾ فيها، والمعنى: (أن يشهد الرجل أو تشهد المرأة بأنّ لعنة الله)، أيِّ: بما يطابق هذه الجملة[1]، واتفق كل القراء على رفع ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ﴾ [النور: 7] هنا.

سر إضافة اللَّعنة إلى الاسم الجليل ﴿لَعۡنَتَ ٱللَّهِ﴾:

بيان التَّناهي في البُعد والطَّرد من رحمة الله

قوله تعالى: ﴿لَعۡنَتَ ٱللَّهِ﴾؛ أيِ: الملك الأعظم[2]؛ واللَّعن: هو الطَّرد من رحمة الله تعالى والإبْعادُ بِتَحْقيرٍ[3] فهي لعنة عظيمة، وفيها من البعد عن رحمة الله ما فيها لكونها من الله الجليل.

إيثار تعيين اللَّعنة للرّجل هُنا، والغضب للمرأة في الآية الموالية:

كونه كان مفتريًا كاذبًا فقد عَرَّضَ بامرأتِه لِلَعْنةِ النّاسِ ونَبْذِ الأزواجِ إيّاها

جُعِلَت اللَّعنة للرَّجل الكاذب؛ لأنَّه مُفتر مُباهت، فأُبْعِدَ باللَّعنة، وجُعِلَ الغضب، الذي هو أَشَدُّ على المرأة التي باشرت المعصية بالفعل ثُمَّ كَذَبَتْ وباهتت بالقول[4] فتَعيينُ خُصوصِ اللَّعنةِ له في الدُّعاءِ؛ لأنَّه إنْ كان كاذبًا فقد عَرَّضَ بامرأته لِلَعْنَةِ النّاسِ ونَبْذِ الأزواجِ إيّاها؛ فناسَبَ أنْ يكونَ جَزاؤُه اللَّعنةَ[5].

---

(1) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 330، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 166، وخواجة الأنصاريّ، كشف الأسرار: 6/ 488.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 217.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 166.
(4) الثَّعالبيّ، الجواهر الحِسان: 4/ 173.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 166.

ايثار التَّعبير بضمير الغَيبة:

التَّنبيه على بابِ التَّأدُّبِ في اللَّفظِ

في قولِه تعالى: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ الضَّميرُ هُنا ضَميرُ غَيْبةٍ؛ إلّا أنَّ الزَّوجَ يَجعَلُه ضَميرَ مُتكلِّم؛ يعني يقولُ: (أنَّ لَعنةَ اللّهِ عَلَيَّ)، ولا يقولُ: (عليه)؛ وهذا من بابِ التَّأدُّبِ في اللَّفظ: أنْ يُعَبَّرَ بضَميرِ الغَيْبةِ؛ لئَلّا يُضيفَ المُتكلِّمُ اللَّعنةَ إلى نَفْسِه[1] قال النَّوويّ: "مِن آدابِ الكلامِ أنَّه إذا عرَضَ في الحكايةِ عن الغَيرِ ما فيه سوءٌ، واقتضَتِ الحكايةُ رُجوعَ الضَّميرِ إلى المُتكلِّم؛ صرَفَ الحاكي الضميرَ عن نفْسِه؛ تَصاوُنًا عن صورةِ إضافةِ السّوءِ إلى نفْسِه[2].

الغرض من حذف جواب الشَّرط في التَّذييل:

الاستغناء عن الجواب والجزاء بما مضى

قال تعالى: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ شَرْطٌ مُستغنٍ عن الجزاء بما مضى فجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله؛ أيْ: إن كان من الكاذبين فاللَّعنة عليه[3] وفي الحذف إيجاز واختصار، وإيقاظ للذِّهن وإذكاء للتَّدبُّر.

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾:

الكناية عن الكاذب بكونه في زمرة الكاذبين تنفيرًا من الكذب وأهله

قوله: ﴿مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أبلغ من أن يُقال: (أن كان كاذبًا)؛ فإنَّ التَّعريف في الكاذبين يشمل جنسهم، والإخبار بأنّه من الكاذبين يُفيد أنَّه واحدٌ من الفئة التي تعرف عند النّاس بفئة الكاذبين؛ أيْ: وليكون من زُمرة الرّاسخين في الكاذبين البالغين الغاية فيه.

بلاغة التعبير بالطِّباق بَيْنَ لفظتي الصِّدق والكذب:

بيان المُفارقة بين أحوال أهل الصِّدق وأهل الكذب

في المُطابقة بين الصَّدق والكذب دلالة على المُفارقة بين أحوال أهل الصدق وأهل الكذب؛ فأهل الصِّدق ممدوحون بصدقهم ناجون عند ربِّهم، وأهل الكذب ملعنون بكذبهم

(1) ابن عثيمين، الشَّرح المُمتع: 13/ 290.
(2) النَّوويّ، شرح النَّوويّ: 2/ 71.
(3) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 18/ 227، وبهجت، الإعراب المُفصَّل: 8/ 12، والدّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 330.

مطرودون من رحمة ربِّهم، ولا يخفى ما بين الفريقيْن من الفرق الشّاسع والبون الواسع.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النّفْس والرّوح:

النَّفْس تُطلق على الذّات والرّوح اسمٌ للجُزء الذي به تحصل الحياة

النَّفْس أصل مادَّة نفس يَدُلُّ على خُروجِ النَّسيم كَيْفَ كانَ، مِنْ ريحٍ أَوْ غَيْرِها، وإِلَيْهِ يَرْجِعُ فُروعُهُ[1]، والنَّفْسُ: الرّوحُ الذي به حياة الجسد، ويُطلق على الذّات فتطلق على النَّفس النّاطقة وهي المُعبَّر عنها بقولك: (أنا)[2] فكلُّ إنسانٍ نَفْس حتى آدم، وكلُّ شيءٍ بعينه نَفْسٌ، وجمعها: نفوس، فالنَّفْسُ: عينُ الشَّيء وذاته، النّفسُ فيه معنى جُملة الشَّيءِ وحقيقته، تقول: قتل فلانٌ نفسه، وأهلك نفسه؛ أيْ: أوقع الإهلاك بذاته كُلِّها، والجمع من كلِّ ذلك أنفُسٌ ونفوس، أمّا الرّوح فتطلق على ما به الحياة[3] فهي اسم للجُزء الذي به تحصل الحياة والتَّحرُّك واستجلاب المَنافع واستدفاع المَضارِّ[4].

الكذب والبهتان:

الكَذِب والافتراء والبُهتان

الكَذِبُ هو عدَمُ مُطابقةِ الخبرِ للواقِع، أو لاعتقادِ المُخبَرِ لهما، على خلافٍ في ذلك، والافتراءُ أخَصُّ منه؛ لأَنَّه الكَذِبُ في حَقِّ الغيرِ بما لا يرتضيه، بخِلافِ الكَذِبِ؛ فإنَّه قد يكونُ في حَقِّ المتكَلِّم نفسِه؛ ولذا يقالُ لمن قال: فعلتُ كذا ولم أفعَلْ كذا، مع عدَم صِدقِه في ذلك: هو كاذِبٌ، ولا يقالُ: هو مُفترٍ، وكذا مَن مدَح أحدًا بما ليس فيه، يقالُ: إنَّه كاذِبٌ في وصفِه، ولا يقالُ: هو مُفترٍ؛ لأنَّ في ذلك ممّا يرتضيه المقولُ فيه غالبًا، ومنه ما ذَكَرَهُ اللّه تعالى من قول الكفّار ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: 93]؛ لزعمهم أنَّه أتاهم بما لا يرتضيه اللّهُ سُبحانَه مع نِسبتِه إليه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفس).
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 520.
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 521.
(4) المصطفويّ، التَّحقيق في كلمات القرآن: 4/ 256.

وأيضًا قد يحسُنُ الكَذِبُ على بعضِ الوجوهِ، كالكَذِبِ في الحَربِ، وإصلاحِ ذاتِ البَينِ، وعِدَةِ الزَّوجةِ بخلافِ الافتراءِ.

وأمّا البُهتانُ: فهو الكَذِبُ الذي يواجِهُ به صاحِبُه على وجهِ المكابَرةِ له بما لم يُحِبَّه[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 47، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 154.

﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٩﴾ [النّور: 8 - 9]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

ذكر دفاع المرأة عن نفسها وحُكمه بعد ذِكرِ قذف زوجها لها وحكمه

لَمّا كانت تلك الأيمانُ الصّادرة من الزَّوج مُقتضيةً صِدقَ دَعوى الزَّوجِ على المرأةِ، كان مِن أثَرِ ذلك أنْ تُعتبَرَ المرأةُ زانيةً، أو أن يكونَ حَملُها ليس منه؛ فهو مِن زِنًا؛ لأنَّها في عِصمة؛ فكان ذلك مُقْتضيًا أنْ يُقامَ عليها حَدُّ الزِّنا، فلم تُهمِلِ الشَّريعةُ حقَّ المرأةِ، ولم تَجعَلْها مأخوذةً بأيمانٍ قد يكونُ حالِفُها كاذِبًا فيها؛ لأنَّه يُتَّهمُ بالكذِبِ لِتَبْرئةِ نفْسِه، فجعَلَ للزَّوجةِ مُعارَضةَ أيمانِ زَوجِها، كما جعَلَ للمشهودِ عليه الطَّعنَ في الشَّهادةِ بالتَّجريحِ أو المُعارَضةِ؛ فقال تعالى: ﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ﴾[1].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَدۡرَؤُاْ﴾: الدَّرْءُ: الدَّفْعُ، يُقال: دَرَأَ عنه الظُّلْمَ، يَدْرَؤُه، دَرْءًا ودَرْأَةً: إذا دَفَعَهُ وأَبْعَدَهُ[2]، وتَدارَأَ القومُ؛ أيْ: تَدافعوا في الخُصومَةِ ونَحْوِها واخْتَلَفوا، وكلُّ مَن دَفَعْتَه عنك فقد دَرَأْتَه[3]، ويأتي الدَّرَأ بِمعنى المَيْلِ والعَوَجِ في العَصا والقَناةِ وفي كلِّ شَيْءٍ يَصْعُبُ إِقامَته، يُقال: أَقَمتُ دَرْءَ فُلانٍ؛ أي: اعْوِجاجَه[4]، والمُراد بالدَّرْءِ في الآية: الدَّفعُ بقوَّةٍ، واستُعيرَ به هُنا للإِبطالِ[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 167.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (درأ).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن سيدَه، المُحكم: (درأ).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (درأ).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 167.

2) ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾: أَصْلُ الكَلِمَةِ من العَذْبِ، وهو: المَنْعُ، يُقالُ: عذَّبْتُ عَنْهُ الماءَ؛ أيْ: مَنَعْتُهُ عَنْهُ، وسُمِّيَ العَذابُ عَذابًا؛ لأنّه يَمنَعُ الشَّخْصَ مِن الرُّجوعِ لِلْجَريمَةِ[1]، و﴿ٱلۡعَذَابَ﴾: الضَّرْبُ بِعَذَبَةِ السَّوْطِ؛ أيْ: طَرَفِها[2]، والعَذابُ أيضًا: الألَمُ، وقد قيل: إنَّ أَصْلَهُ الإعْذابُ، مَصْدَرُ أَعْذَبَ إذا أَزالَ العُذوبَةَ؛ لأنَّ العَذابَ يُزيلُ حَلاوَةَ العَيْشِ فصيغَ مِنْهُ اسمُ مَصْدَرٍ بِحَذْفِ الهَمزَةِ[3]، والمُراد بالعذاب في الآية: الإيلامُ والإيجاعُ الشَّديد.

3) ﴿غَضَبَ﴾: أَصلُ الغَضَبِ: القوَّةُ والشِّدَّةُ، يُقالُ: غَضِبَ المَطَرُ؛ أي: اشْتَدَّ وقَوِيَ، ومِنْهُ الغَضْبَةُ، وهي: الصَّخْرَةُ الصّلْبَةُ[4]، والغَضَبُ عند المَخْلوق: تَغَيُّرٌ يَحْصُلُ عند غَلَيانِ دَمِ القَلْبِ ليَحْصُلَ عنه طَلَبُ الانْتِقامِ، وسُمِّيَ غَضَبًا؛ لِشِدَّتِهِ على النَّفْسِ، وشِدَّةِ صاحِبِه[5]، وإذا وصف اللّه تعالى به فالمُراد به الانتقام دون غيره[6]، والغَضَبُ أيضًا: الغَيْظُ وشِدَّةُ السُّخْطِ، يُقال: غَضِبَ عليه، يَغْضَبُ: إذا سَخِطَ واغْتاظَ، وضِدُّه: الرِّضا[7]، والمقصودُ بالغَضب في الآيةِ: انتقام اللّه تعالى.

4) ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: أَصْلُ الكَلِمَةِ يَدُلُّ على قوّةٍ في الشَّيْءِ قَوْلًا وغَيْرَهُ، ومنه: الصِّدْقُ، سُمّيَ به؛ لِقوَّتِه في نَفْسِه، ولأنَّ الكَذِبَ لا قوَّة له، ومعناه: اعْتِبارُ الكلامِ صحيحًا لا كَذِبَ فيه، وهو نِسْبَةُ الصِّدْقِ إلى المُخْبِرِ بالاخْتيارِ؛ أيْ: بِالقَلْبِ واللِّسانِ، وضِدُّه: التَّكذيبُ، والصِّدّيقُ: المُلازِمُ لِلصِّدْقِ، والصَّداقُ: صَداقُ المَرْأَةِ، سُمّيَ بِذَلِكَ لِقوَّتِهِ وأَنَّهُ حَقٌّ يَلْزَمُ[8]، والمُراد بالصادق في الآية: وصفُ المُخبر عنه بما يُطابق الواقع.

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

يقولُ اللّهُ تعالى: ويَدفَعُ حَدَّ الزِّنا عن الزَّوجةِ أنْ تَشهَدَ أربَعَ شَهاداتٍ، تَحلِفُ فيها باللّهِ

---

(1) النّوويّ، تهذيب الأسماء واللّغات: 4/ 10.
(2) الرّاغب، المُفردات: (عذب).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 258.
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عضب).
(5) الجُرجانيّ، التّعريفات، ص: 162.
(6) الرّاغب، المُفردات: (غضب).
(7) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (غضب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق)، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (صدق).

فتقولُ: إنَّ زوجَها لَمِنَ الكاذبينَ فيما رَماها به مِنَ الزِّنا[1]، وتَشهَدُ المرأةُ الشَّهادةَ الخامِسةَ، فتقولُ فيها: إنَّ غضَبَ اللّهِ عليها إنْ كان زَوجُها مِنَ الصّادقينَ فيما رماها به مِنَ الزِّنا[2].

لم تُهمِلِ الشَّريعةُ حق المرأةِ في الدفاع عن نفسها

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في صدر الآية:

جُملةُ ﴿وَيَدۡرَؤُاْ﴾ عَطْفٌ على ما سبق[3]، فبعد أن بين اللّه - تعالى حكم الزّوج إن هو رمى زوجته بَيَّن سبحانه ما يجب على المَرأة لكي تُبرئَ نفسها ممّا رماها به زوجها[4].

بلاغة التّعبير بالاستعارة في لفظ الدَّرء:

تصوير المعقول في صورة المحسوس دفعًا للتُّهمة وحسمًا لمادَّتها

في قوله تعالى: ﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ﴾ الدَّرء: الدَّفع بقوَّة، يُقال: درأ فلان التُّهمة عن نفسه، إذا دفعها عن نفسه، وتبرأ منها[5] واستعير هُنا للإبطال وإزالة أثر الشَّيء[6] من قبيل الاستعارة التَّصريحية التَّبعيَّة والمعنى يسقط عن المرأة حَدَّ الزِّنا بعد أَنْ تَشْهَدَ أيضًا أَرْبَعَ شَهاداتٍ مُؤكدات بالقسم باللّه أن زوجها من الكاذبين[7]؛ فأبرزت هذه الاستعارة المعنى المعقول في صورة المحسوس دفعًا للتُّهمة وحسمًا لمادَّتها.

الغرض من تقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَنۡهَا﴾ على المفعول:

الاهتمام بشأن هذه الزَّوجة المقذوفة والتَّشويق للمُؤَخَّر

قوله تعالى: ﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ﴾؛ أيْ: يدفع عن الزَّوجة الحَدَّ[8]، وفي تقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَنۡهَا﴾ هُنا اهتمام بشأن

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 187، 188، والسعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 562.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 188، والواحديّ، الوسيط: 3/ 307.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 6/ 566.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 89.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 89.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 18/ 167.
(7) علوان، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 2/ 4.
(8) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 7/ 68.

هذه الزَّوجة المقذوفة لمدار الحُكم عليها وتشويق للمُؤَخَّر وهو الحدّ المدروء عند ثبوت براءتها.

دلالة الألف واللّام التَّعريفيَّة في ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ المذكور هُنا:

إفادة معنى الحَدِّ المعهود من سياق الآيات

قوله تعالى: ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾؛ أيِ: المعهود، وهو الحَدُّ الذي أوجبه عليها ما تقدَّم من شهادة الزَّوج[1]، والألف واللّام الدّاخلان على العذاب لا يُفيدان العموم لأنَّه لم يجب عليها جميع أنواع العذاب فوجب صرفهما إلى المعهود السّابق، والمعهود السّابق هو الحَدُّ لأنَّه تعالى ذكر في أوَّل السّورة ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ والمُراد منه الحَدُّ، وإذا ثبت أنَّ المُراد من العذاب في قوله: ﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ﴾ هو الحد ثبت أنَّها لو لم تلاعن لحُدَّت، وأنَّها باللِّعان دفعت الحدَّ[2]، ولا يَصِحُّ أن يُراد منها عذاب الآخرة، لأنَّ الزَّوجة إن كانت كاذبة في لِعانها لم يزدها اللِّعان إلّا عذابًا في الآخرة، وإن كانت صادقة فلا عذاب عليها في الآخرة حتَّى يدرأه اللِّعان، فتعيَّن أن يُراد به عذاب الدُّنيا، ولا يصحّ أن تكون اللّام فيه للجنس، لأنَّ لعانها لا يدرأ عنها جميع أنواع العذاب في الدنيا، فتعيَّن أن تكون اللّام للعهد[3].

والدَّليل على أنَّ المُراد بالعذاب في قوله: ﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ﴾، الحَدُّ من وجهين:

الأوَّل منهما: سياق الآية، فهو يدلُّ على أنَّ العذاب الذي تدرؤه عنها شهاداتها هو الحَدُّ.

والثّاني: أنَّه أطلق اسم العذاب في مواضع أخر، على الحدِّ مع دلالة السّياق فيها على أنَّ المُراد بالعذاب فيها الحَدُّ كقوله تعالى

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 218.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 332.
(3) السّايس، تفسير آيات الأحكام، ص: 565.

في هذه السورة الكريمة: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فقوله: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا﴾؛ أيّ: حدّهما بلا نزاع، وكذلك قوله تعالى في الإماء: ﴿فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ﴾ [النِّساء: 25]؛ أيّ: نصف ما على الحرائر من الجلد[1].

نُكتة تسمية أيمان المرأة شهادة:

بيان أنَّ أيمانها بمنزلة الشَّهادة المُعارِضة التي تُبطل دعوى الرَّجل

قَولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ﴾ لَمّا كانت أَيْمانُ المرأةِ لِرَدِّ أيمانِ الرَّجلِ، وكانت أيمانُ الرَّجلِ بدَلًا مِنَ الشَّهادةِ وسُمّيت شَهادةً؛ كانت أيمانُ المرأةِ - لِرَدِّها - يُناسِبُ أنْ تُسمَّى شَهادةً، ولأنّها كالشَّهادةِ المُعارِضةِ، ولكَونها بمَنزلةِ المُعارِضةِ؛ كانت أيمانُ المرأةِ كلُّها على إبطالِ دَعواهُ، لا على إثباتِ بَراءتِها أو صِدْقِها[2].

فائدة قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾ دون صفة أُخْرَى من صفاته العَليّة:

استحضار التَّعظيم والرَّهبة في القلب من خلال تعظيم المحلوف به

قوله تعالى: ﴿بِٱللَّهِ﴾؛ أيّ: مقرونة بهذا الاسم الكريم الأعظم الموجب لاستحضار جميع صفات الجلال والجمال[3]، وتكرار ذِكْرِ اسم اللّه معها في كُلِّ مَرَّة، مِمّا يُتيح للمرأة فُرصة في أنْ تراجع نَفْسَها.

دلالة عطف الشَّهادة الخامسة:

تقوية الأيمانِ الأربَعِ باستِذكارِ ما يترتَّبُ على أيمانِها تغليظًا لتلك الأيمان

قَولُه تعالى: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةَ﴾ بيانٌ لما يجب على الزَّوجة بعد أن شَهِدَت أربع شهادات باللّه إنَّه لمن الكاذبين؛ أيّ: الشهادة الخامسة بعد الأربعة المُتقدِّمة أنَّ غضب اللّه عليها إن كان زوجها صادقًا فيما اتهمها به[4]، والشَّهادة الخامسة ليس لها مُقابِلٌ في عدَدِ شُهودِ الزِّنا، فلعلَّ حِكْمَةَ زيادةِ هذه اليمينِ مع الأيمانِ الأربَعِ القائمة مَقامَ الشُّهودِ الأربعةِ: أنَّها لِتقويةِ الأيمانِ الأربَعِ، باستِذكارِ ما يترتَّبُ على

(1) الشِّنقيطي، أضواء البيان: 6/ 89.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 167.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 13/ 218.
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 76، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 333.

أَيْمانِها إنْ كانت غَموسًا مِن غضب اللّه عليها فخصّت المُلاعنة بأن تُخَمَّس بغضب اللّه عليها تغليظًا عليها[1].

سِرُّ تَعلُّق اللَّعن بالشَّهادة الخامِسَة:

قَولُه تعالى: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةَ﴾ فيه إفرادُ الشَّهادةِ الخامسةِ عنهُنَّ، مع كَونِها شَهادةً أيضًا؛ لاستِقلالِها بالفَحوى، ووِكادَتِها في إفادةِ ما يُقصَدُ بالشَّهادةِ مِن تَحقيقِ الخَبرِ[2].

نكتة تأنيث ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةَ﴾:

أُنِّثَ اسم العدد ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةَ﴾ لأنَّه صِفَةٌ لمحذوف دلَّ عليه قوله فشهادة أحدهم، والتَّقدير: والشَّهادة الخامسة[3]، فتزيد في الخامسة، مُؤكِّدة لذلك، أن تدعو على نفسها بالغضب[4].

توجيه القراءات الواردة في ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةَ﴾ وبلاغتها:

تنوع الأوجه الإعرابية يثري الأحكام الشرعية

قرأ حفصٌ وحده بالنصب، وقرأ الباقون بالرفع[5]، وحجّة مَن نَصبه أنّه نَصَبَهُ على إضمار فعل دلّ عليه الكلام تقديره: (ويشهد الخامسةَ)، أي الشهادة الخامسة؛ لأن الـ(شهادة) تدل على (يشهد)، ونصبه على أنه موضوعٌ موضعَ المصدر، ويجوز نصب ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةَ﴾ في قراءة من نصب ﴿أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ﴾ على العطف على ﴿أَرۡبَعَ﴾، ويجوز نصب ﴿أَرۡبَعَ﴾، ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةَ﴾ على أنهما موضوعان موضعَ المصدر، وحجة مَن رفع أنه عطفه على ﴿أَرۡبَعُ﴾ إن كان ممن يقرأ ﴿أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ﴾ بالرفع، وإن كان يقرأ ﴿أَرۡبَعَ﴾ بالنصب رفع (الخامسة) على خبر ابتداء محذوف، تقديره: (وشهادةُ أحدهم الخامسةُ)، ويجوز أن يحمله على المعنى؛ لأنّ ﴿أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ﴾ وإن

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 76.
(2) الخطيب، التفسير القرآنيّ: 9/ 1225.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 165.
(4) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 665.
(5) ابن الجزري، النشر: 2/ 331.

نصبتَه فمعناه الرفع؛ فترتفع (الخامسة) على العطف على معنى ﴿أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ﴾[1]، فوصل هذه الجملة سواء أكانت اسمية معطوفة على المرفوع قبلها في قراءة الرفع، أم فِعْلية بفعل مقدَّر في قراءة النصب يظهر المناسبة التامة بينهما.

سِرُّ اصطفاء الغضب للمرأة بدلًا من اللَّعنة:

التَّخويف من غضب الجبَّار ﷻ

قولُه ﷻ: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ﴾ عُيِّنَ لها في الخامسةِ الدُّعاءُ بغضَبِ اللهِ عليها إنْ صَدَقَ زَوْجُها؛ لأنَّها أغضبَتْ زَوْجَها بفِعلِها؛ فناسَبَ أنْ يكونَ جَزاؤُها على ذلك غَضَبَ ربِّها عليها كما أغضبَتْ بَعْلَها[2]، وسبَبُ التَّغليظِ عليها: الحَثُّ على اعترافِها بالحقِّ؛ لِمَا يُصدِّقُ الزَّوجَ مِنَ القَرينةِ وهي تَعلمُ صِدقَه فيما رماها به؛ والمغضوبُ عليه هو الذي يَعلَمُ الحقَّ ثم يَحيدُ عنه[3]؛ وكذلك خُصَّتِ المرأةُ بلفْظِ الغَضَبِ؛ لِعِظَمِ الذَّنْبِ بالنِّسبةِ إليها؛ لأنَّ الرجُلَ إذا كان كاذبًا لم يَصِلْ ذنْبُه إلى أكثرَ مِن القذْفِ، وإنْ كانت هي كاذبةً فذنْبُها أعظَمُ؛ لأجْلِ ما في الزِّنا من التحريمِ ولما فيه مِن تلويثِ الفِراشِ، والتَّعرُّضِ لإلحاقِ مَن ليس من الزَّوجِ به؛ فتَنتشِرُ المَحْرميَّةُ، وتثبُتُ الوَلايةُ والميراثُ لِمَن لا يَستحِقُّهما[4].

ولهذا كان للزَّوجِ إذا قذَفَ امرأتَه ولم يأتِ بأربعةِ شُهداءَ أن يلاعِنَها؛ لِمَا له في ذلك مِن الحَقِّ، ولأنَّه مظلومٌ إذا كان صادقًا، وعليه في زناها من الضَّررِ ما يحتاجُ إلى دفعِه بما شرَعَه اللهُ، كالمقذوفِ الذي له أن يستوفيَ حَدَّ القذفِ مِن القاذِفِ الذي ظلَمَه في عِرضِه، فكذلك الزوجُ له أن يستوفيَ حَدَّ الفاحشةِ من البَغيِّ الظّالمةِ له، المُعتَديةِ عليه؛ فلهذا كان له أن يَقذِفَها ابتِداءً، وقذفُها إمّا

(1) مكّي، الكشف: 2/ 135.

(2) تقدَّم تفصيل هذا النّوع من العطف في الآية السّابقة.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 15.

(4) ابن حجر، فتح الباري: 9/ 440.

مباحٌ له، وإمّا واجِبٌ عليه إذا احتاج إليه لنفي النَّسَبِ، ويَضطرُّها بذلك إلى أحدِ أمرين: إمّا أن تعترَفَ فيُقامَ عليها الحَدُّ، فيَكونَ قد استوفى حَقَّه، وتطهَّرت هي أيضًا من الجزاءِ لها والنَّكالِ في الآخرةِ بما حصَل، وإمّا أن تبوءَ بغضَبِ اللّهِ عليها وعقابِه في الآخرةِ الذي هو أعظَمُ مِن عقابِ الدُّنيا؛ فإنَّ الزَّوجَ مظلومٌ معها، والمظلومُ له استيفاءُ حَقِّه؛ إمّا في الدنيا، وإمّا في الآخرةِ، قال اللّه تعالى: ﴿۞لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ [النِّساء: 148][1].

واختير لفظ الغضب دون اللَّعن أيضًا لأنَّ النِّساءَ كثيرًا ما يَستَعمِلْنَ اللَّعنَ، فربَّما يَجتَرِئْنَ على التَّفوُّهِ به؛ لسُقوطِ وقْعِه عن قُلوبِهنَّ، بخِلافِ غضَبِه تعالى[2].

القراءات الواردة في ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ﴾ وبلاغتها:

التـنـوع بين الأسـمـاء والأفعال يثري ظلال المعاني

قرأ نافع بتخفيف نون ﴿أَنْ﴾، وبكسر الضاد ﴿غَضِبَ﴾: فعل ماضٍ، وبرفع الهاء من الاسم الأجل: ﴿ٱللَّهُ﴾ على أنه فاعل، وخرِّجت قراءته على جعل ﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة، والتَّحقيق أن تُجعل ﴿أَنْ﴾ على هذه القراءة تفسيريَّةً؛ لأنَّ الخامسة يمينٌ: ففيها معنى القول دون حروفه فيناسبها التَّفسير، ووجه قراءة نافع: أن ذلك قد جاء في الدّعاء، ولفظه لفظ الخبر.

وقرأ يعقوب بتخفيف نون ﴿أَنْ﴾، وبفتح الضاد وضم الباء ﴿غَضَبُ﴾ وبخفض الهاء من الاسم الأجل: ﴿ٱللَّهِ﴾، و﴿غَضَبُ﴾ اسمٌ وليس فعلًا على هذه القراءة، وهو مضاف، والاسم الأجل: ﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، على معنَى: (أنَّه غَضَبُ اللّه عليها)، فـ: ﴿أَنْ﴾ هي المخفّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن واجب الحذف، و﴿غَضَبُ﴾ مبتدأ مرفوع، وقرأ الباقون: ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ﴾

(1) ابن تيميَّة، جامع الرّسائل: 2/ 387 - 389.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 159.

بتشديد نون ﴿أَنَّ﴾ ونصب ﴿غَضَبَ﴾، ويتعين على هذه القراءة أن تقدّر باء الجرِّ داخلة على ﴿أَنَّ﴾ متعلقة بالخامسة؛ لأنها صفة لموصوف تقديره: (والشهادة الخامسة)، ليتجه فتح همزة ﴿أَنَّ﴾ فيهما، والمعنى: (أن يشهد الرجل أو تشهد المرأة بأن غضب اللّه)، أيْ: بما يطابق هذه الجملة(1)، وهذا التنوع البديع في التراكيب النحوية لهذه القراءات أثرى المعاني إثراء بالغًا، لا سيما أنها تناولت حكمًا شرعيًا عظيمًا من أحكام الميثاق الغليظ: الزواج.

سِرُّ تكرار حذف جواب جملة الشّرط:

الاستغناء عن الجواب والجزاء بما مضى

قال تعالى: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ شَرْطٌ مُستغنٍ عن الجزاء بما مضى؛ فجواب الشّرط محذوف دلّ عليه ما قبله؛ أيْ: فالغضب عليها إن كان من الصّادقين(2)، وحُذف إيجازًا واختصارًا، والإيجاز باب من أبواب البلاغة.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العَذاب والعِقاب:

العَذابُ يدل على الضرب والعِقابُ يُنْبِئُ عَنِ الشِّدة

العِقابُ والعذابُ يَردانِ مرادًا بهما النَّكالُ، ومجازاةُ الذَّنْبِ بمِثْلِه، ويفترِقانِ مِن وجهَيْن:

أحدها: أنَّ الأصلَ الدِّلاليَّ لـ (العذاب) يدلُّ على الضَّرْبِ، والأصلَ الدِّلاليَّ لـ (العقابِ) دالٌّ على الشدَّةِ، وتأخُّر شيءٍ وإتيانِه بعدَ غيرِه.

ثانيها: أنَّ العقابَ يُنبئُ عَنِ الاستحقاقِ؛ لأنَّه لا يكونُ إلّا عَقِبَ ذنْبٍ، بخلافِ العَذاب؛ فإنَّه أعَمُّ، فقد يقَعُ على مَن يَسْتَحِقُّهُ ومَن لا يَسْتَحِقُّهُ(3).

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 330، ومكّي، الكشف: 2/134، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 166، وخواجة الأنصاريّ، كشف الأسرار: 6/ 488.

(2) الخراط، المُجتَبَى: 2/ 789.

(3) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 239 - 240، ومحمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 341 - 343.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾

[النّور:10]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ عِظَمِ نعمه تعالى على عباده فيما بَيَّنه من تلك الأحكام

لّمّا بَيَّن ربُّنا ﷻ حُكْمَ الرّامي للمحصنات والأزواج، وكان في ذلك من الرَّحمة والنِّعمة ما لا خفاء فيه، لأنَّه تعالى جعل باللِّعان للمرء سبيلًا إلى مُراده، ولها سبيلًا إلى دفع العذاب عن نفسها، ولهُما السَّبيل إلى التَّوبة والإنابة، فلأجل هذا بَيَّنَ تعالى بقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ عِظَمَ نعمه فيما بينه من هذه الأحكام، وفيما أمهل وأبقى ومَكَّن من التَّوبة(1).

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَضْلُ﴾: (فضل) أَصْلٌ يَدُلُّ على زيادَةٍ في شَيْءٍ، مِنْ ذلكَ الفَضْلُ: الزِّيادَةُ في الشَّيْءِ(2)، سَواءً كان مَحْمودًا أو مَذْمومًا، واسْتِعْمالُهُ في المَحْمودِ أَكْثَرُ، يُقالُ: فضَلَ الشَّيْءُ فضْلًا؛ أيْ: زادَ، وضِدُّه: النَّقْصُ(3)، والفَضْلُ: الشَّرَفُ والخَيْرُ والرِّزْقُ، ورَجُلٌ فاضِلٌ: ذو شَرَفٍ وخَيْرٍ، والإِفْضالُ: الإِحْسانُ، والفَضائِلُ: خِصالُ الخَيْرِ، ويأْتي الفَضْلُ بِمعنى بَقيَّةِ الشَّيْءِ، والجَمْعُ: أَفْضالٌ(4)، والمُراد بفضل اللّه في الآية: كرمه، وجوده، وإحسانه(5).

2) ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾: (رحم) أصلٌ يَدُلُّ على الرِّقَّةِ والعَطْفِ والرَّأْفَةِ، يُقالُ: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ، إذا رَقَّ له وتَعطَّفَ عليه(6)، والرَّحْمَةُ رِقَّة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 337، والمغراويّ، التَّدبر والبيان في تفسير القرآن: 23/ 97.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (فضل).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (فضل).
(5) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 334.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رحم).

تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تُستعمل تارة في الرِّقَّة المُجرَّدة، وتارة في الإحسان المُجرَّد عن الرِّقَّة، نحو: رَحِمَ الله فلانًا، وإذا وُصِف به الباري فليس يراد به إلّا الإحسان المجرَّد دون الرِّقَّة، وعلى هذا روي أنَّ الرَّحْمَةَ مِنَ الله إنعامٌ وإفضالٌ، ومن الآدميّين رِقَّةٌ وتعطُّفٌ[1]، والرَّحْمَةُ أيضًا: المَغفِرةُ؛ وقوله تعالى في وصْفِ القُرآنِ: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:52][2]، والرَّحْمَةُ كذلك: النُّبوَّة[3]، والمُراد بالرَّحمة في الآية: ما به رِفْقٌ بالغَيْرِ وإحسانٌ إليه[4].

3) ﴿تَوَّابٌ﴾: أَصْلُ التَّوبة: الرُّجوعُ والعَوْدَةُ، يُقال: تابَ اللهُ عليه؛ أيْ: رَجَعَ عليه بِفَضْلِهِ وقَبولِهِ[5]، التَّوْبَةُ: الرُّجوعُ مِن الذَّنْبِ والإنابَةُ[6]، والتَّوّابُ: كَثيرُ التَّوْبَةِ والرُّجوعِ[7]، والتَّوّاب أيضًا: التّائب على التّائبين بعد توبتهم قبولًا لها، وعفوًا عن خطاياهم[8]، والمُراد بها في الآية: وصفٌ لله تعالى، من تاب؛ أيْ: قَبِل التَّوبة، وأنَّه سبحانه كثير القبول للتَّوبة من عباده.

4) ﴿حَكِيمٌ﴾: (حكم) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو المَنْعُ، وأَوَّلُ ذلكَ الحُكْمُ، وهو المَنْعُ مِنَ الظُّلْمِ، وكُلُّ شَيْءٍ مَنَعْتَهُ مِن الفَسادِ فقد حَكَمْتَهُ وأَحْكَمْتَهُ[9]، والإحْكامُ: الحُسْنُ والإتْقانُ، يُقال: أَحْكَمتُ صُنْعَ الشَّيءِ؛ أيْ: أَتْقَنْتُهُ، والحَكيمُ: المُتْقِنُ للأُمورِ[10]، والحِكْمَةُ: إصابةُ الحقِّ بالعِلْمِ والعَقْلِ، فالحكمة من الله تعالى: معرفةُ الأشياء وإيجادُها على غاية الإحكام، ومن الإنسان: معرفةُ الموجودات وفِعل الخيرات[11]؛ وسُمّيت بذلكَ لِأَنَّها تَمنَعُ صاحِبَها مِنَ الوُقوعِ في الغَلَطِ والضَّلالِ، قالَ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: 1]، والمقصودُ بالحكيم في الآية: أَنَّهُ تعالى ذو حِكْمَةٍ في استصلاح عباده[12].

(1) الرّاغب، المُفردات: (رحم).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (رحم).
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 5/ 90، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 173.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 216.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (توب).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والفيوميّ، المصباح المنير، والزّبيديّ، تاج العروس: (تاب - توب).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (توب)، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 419.
(8) ابن القيم، مدارج السّالكين: 1/ 339.
(9) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).
(10) ابن منظور، لسان العرب، والزبيديّ، تاج العروس: (حكم).
(11) الرّاغب، المُفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ: (حكم).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 18/ 169.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

بَيانُ فضْلِ اللهِ ورَحمتِه على عِبادِه بالشَّرعِ والقدَرِ

يقول الحقُّ سبحانه: ولولا فضْلُ اللهِ عليكم - أيُّها النّاسُ - ورَحمَتُه بكم، وأنَّ اللهَ يجودُ على خَلْقِه بنِعَمِه، ويُنزِلُ رَحمتَه على مَن تابَ مِن عِبادِه، حَكيمٌ في قدَرِه وشَرْعِه وتَدبيرِ خلْقِه، ومِن ذلك ما شرَعَ لعِبادِه مِن حُكْم اللِّعانِ - لَعاجَلَكم بالعُقوبةِ على مَعاصيكم، ولفَضَحَ المُذْنِبينَ منكم، فاشْكُروا اللهَ واتَّقوهُ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ في صَدْرِ الآيةِ الكريمةِ:

التَّذييلُ ببيانِ النِّعمةِ والحِكْمَةِ بعدَ بيانِ الأحكامِ الكريمةِ

قَولُه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ تذييلٌ لِما مَرَّ مِن تلك الأحكامِ العظيمةِ المُشتمِلةِ على التَّفضُّلِ مِن اللهِ والرَّحمةِ منه، والمُؤْذِنةِ بأنَّه توّابٌ على مَن تابَ مِن عِبادِه، والمُنْبِئةِ بكَمالِ حِكْمَتِه تعالى، فلمّا دخَلَتْ تلك الأحكامُ تحتَ كُلِّيِّ هذه الصِّفاتِ، كان ذِكْرُ الصِّفاتِ تَذييلًا[2].

دلالة حرف (لولا) وأثره:

بيانُ السَّببِ والمانعِ بأنَّ امتناعَ الجزاءِ المحذوفِ لوجودِ فضلِ اللهِ ورحمتِه

(لَوْلا) شرطيَّة، ويُسميها النُّحاة حرف امتناع لوجود، يعني أنَّها مَنعت شيئًا لوجود شيء، وهُنا سُؤال ما الذي امتنع لوجود الشَّيء؟ والجواب: أنَّ الذي امتنع هو الجواب المحذوف؛ أيْ: جواب ﴿وَلَوۡلَآ﴾ وهو ما قدَّره بعضهم بقوله: ليُبيِّن الحَقَّ في ذلك، وعاجل بالعقوبة من يستحقُّها[3]، هذا هو الذي امتنع، لوجود فضْلِ اللّه، فالحاصل: أنَّ الذي مَنَعَ جواب ﴿وَلَوۡلَآ﴾ في هذه الآية هو فضل اللّه ورحمته[4] وفي هذا إثباتُ الأسبابِ والموانعِ؛ لأنَّ هذه الآيَةَ فيها مانِعٌ وفيها

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 188، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 15، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 13.

(2) الطّيبي، حاشيته على تفسير الكشّاف: 11/ 31، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 168.

(3) الجمل، حاشية الجمل على الجلالَيْن: 5/ 270.

(4) ابن عثيمين، تفسير سورة النّور، ص: 47.

سببٌ؛ فالسَّببُ ذُنوبُنا وما نحنُ عليه مِنَ الأخطاءِ، والمانعُ الَّذي يَمنَعُ مِن العُقوبةِ هو فضْلُ اللهِ ورَحمتُه[1].

الغرض من حذف جواب ﴿وَلَوْلَا﴾:

قصْدُ تَهويلِ مَضمونِه وتَعظيمِه

جواب ﴿وَلَوْلَا﴾ محذوفٌ لتهويله والإشعار بضيق العبارة عن حصره، كأنَّه قيل: لولا تفضله تعالى عليكم ورحمته وأنَّه تعالى مبالغ في قبول التَّوبة، حكيم في جميع أفعاله وأحكامه، التي من جملتها: ما شرع لكم من حكم اللِّعان، لكان ما كان، مِمّا لا يحيط به نطاق العبارة[2]، ومن تقديره: لهلكتم أو لفضحكم أو لعاجلكم بالعقوبة أو لتبين الكاذب ولَكَشَفَ الزناة بأيسر من هذا أو لأخذهم بعقاب من عنده، ونحو هذا من المعاني التي يوجب تقديرها إبهام الجواب من حَدِّ الزَّوج مع الفضيحة، أو قتل المرأة، أو غير ذلك من العقوبة، ولبقيتم في هذه المُعضلة ولم تهتدوا إلى الخروج من هذه الحالة المُشكلة[3]؛ فالمحذوف عظيم لا يُكتنه كنهه[4]، فهذا الحذف لقَصْدِ تَهويلِ مَضمونِه وتَعظيمِه؛ ويَدُلُّ تَهويلُه على تَفخيمِ مَضمونِ الشَّرطِ الَّذي كان سببًا في امتِناعِ حُصولِه، وأيضًا لِتَذهَبَ النَّفْسُ كلَّ مَذهبٍ مُمكِنٍ في تَقديرِه بحسَبِ المَقامِ[5]، فهو كما قالوا: رُبَّ مسكوت عنه أبلغ من منطوق به[6].

إيثار لفظ الفضل ومعناه:

الإشارة إلى فضل الله الشَّرعيِّ والقدريِّ

الفضل بمعنى التفضل بأنواع النّعم التي من جملتها عدم تفضيحكم، وعدم التَّعجيل بالعُقوبة لعلكم تتوبون، ورحمته في

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة النّور، ص: 53.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 159، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 54.
(3) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 168، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 19.
(4) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5152.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 185.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 220.

الآخرة بالعفو والغفران[1]، وفي التّعبير به بَيانُ فضْلِ اللهِ ورَحمتِه على عِبادِه بالشَّرعِ والقدَرِ؛ أمّا بالشَّرعِ فلولا أنَّ اللهَ تفضَّلَ علينا ورَحِمَنا، وشرَعَ للأزواجِ ما شرَعَ مِن اللِّعانِ، لَكان الزَّوجُ يقَعُ في حرَجٍ عظيمٍ؛ لأنَّه إنْ تكلَّمَ يُقامُ عليه حَدُّ القذْفِ، وإنْ سكَتَ سكَتَ عن أمرٍ عظيمٍ، لكنْ مِن فضل الله أنَّه شرَعَ اللِّعانَ، وكذلك في القدَرِ في قضيَّةٍ المُتلاعنَين: أنَّه لولا أنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ السَّتْرَ، لَفضحَ المرأةَ، وأظهَرَ آيةً تدُلُّ على صِدْقِ الزَّوجِ، أو بالعكْسِ إذا كان الزَّوجُ كاذبًا، لكنْ مِن فضل الله أنَّه ﷻ يَستُرُ على عِبادِه في الدُّنيا مِثْلَ هذه الأمورِ، ثمَّ يُجازيهم عليها في الآخرة[2].

سرُّ إضافة الفضل إلى اسم الجلالة ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾:

بيان عظمة هذا الفضل وكماله

قوله تعالى: ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾؛ أيْ: بما له من الكرم والجمال، والاتصاف بصفات الكمال[3] وإضافة الفضل إلى الله يُشير إلى كمال هذا الفضل على عباده بأن أجلهم بالعقوبة إلى الآخرة لعلَّهم يتوبون في الدُّنيا فغفر لهم وستر عليهم عاجلًا، ودفع عنهم الحدَّ باللعان حكمة منه، والحكمة في ذلك أنّه كما ستر في الدّنيا ولم يفضحهم بإظهار صدقهم وكذبهم أجَّلهم بالعقوبة لدرك التّوبة كذلك جعل سنة اللعان باقية بين المسلمين ليكون حكمة باقية بينهم[4].

بديع طريق الالتفات في ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾:

العناية بشأن مقام الفضل على المُخاطَبين وتسجيل المِنَّة عليهم

في قوله: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ على طريق الالتِفات؛ فقد التُفِتَ مِن خِطابِ الرّامينَ والمَرميّاتِ؛ للعناية بشأن مقام الفضل وتسجيل المِنَّة من الله تعالى عليهم بتشريع هذه الأحكام؛ أيْ: ولولا أنَّ الله تعالى تَفَضَّل عليكم ورحمكم - أيُّها

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 277.
(2) ابن عثيمين، تفسير سورة النّور، ص: 53.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 220.
(4) نجم الدِّين الكبرى، التَّأويلات النَّجميَّة، ص: 309.

المؤمنون - بسبب ما شرعه لكم في حكم الذين يرمون أزواجهم بالفاحشة؛ لولا ذلك لحصل لكم من الفضيحة ومن الحرج ما لا يُحيط به الوصف، ولكنّه سبحانه شرع هذه الأحكام سَترًا للزَّوجين، وتخفيفًا عليهما، وحضًّا لهما على التَّوبة الصّادقة النَّصوح[1]، فلا تَبقَى لدَيْهم أعذارٌ واهيةٌ يَتشبَّثون بها إذا هُم تَجاوَزوا حُدودَ ما بَيَّنه لهم[2].

دلالة عطف الرَّحمة على الفضل وسِرُّ تقديمه عليها:

عطف العامِّ على الخاصِّ زيادة في الامتنان

الفضل من آثار الرَّحمة في الحقيقة، لكنَّ الرَّحمة تكون فيما يضطر إليه العبد، وتكون في الزّيادة أيضا، والفضل في الزّيادة فقط، فيكون عطف الرّحمة هنا على الفضل من باب عطف العامّ على الخاصّ؛ لأنَّ الفضل من آثار الرَّحمة، لكنّه أخص منها؛ إذ إنّه زائد على ما يحتاج إليه العبد ويضطر إليه، وأمّا الرَّحمة فتكون فيما يحتاج إليه العبد وفيما زاد على ذلك[3].

سرّ إضافة الرَّحمة إلى الضمير الدّال على الجلالة:

في ذكر الرّحمة مضافة إلى الجليل ﷻ إظهار لمزيد إحسانه الذي منشؤه الرَّحمة التي هي صفة ذاتيَّة للّٰه التي كتبها على نفسه[4].

سِرُّ اصطفاء الاسم الجليل التَّوّاب ودلالته:

الـدَّلالـة على كثرة التَّوبة على المُذنبين والإخبار بأنَّه لا يتعاظمه غُفران ما جَنوْه

وصف اللّٰه ﷻ نفسه بأنَّه توّابٌ؛ أيَ: كثير التَّوبة للمُذنبين من عباده رحمة بهم، وتهذيبًا لنفوسهم[5] ففي ذكر اسم اللّٰه التّوّاب تعريض بتوبة الكاذب منهما - أيِ: الزَّوجيْن - وإخبارٌ أنَّه لا يتعاظمه غُفران ما جناه الجاني منهما[6].

---

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 90.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 159، والدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 567.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة النّور، ص: 53.
(4) الحجازيّ، تفسير الواضح: 2/ 657.
(5) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5152.
(6) الرَّسعنيّ، رموز الكنوز: 5/ 201.

الإشارةُ إلى فائدةِ مَشروعيَّةِ اللِّعانِ وحِكمتِه، وهي السَّترُ عن هذه الفاحِشةِ العَظيمةِ

سِرُّ جمع التَّوبة مع الحكمة:

قوله تعالى: ﴿تَوَّابٌ﴾؛ أيْ: يقبل العاصين منكم، ويردُّهم إلى حظيرة المؤمنين الصالحين، إذا هم تابوا وأصلحوا، وهو سبحانه: ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما حدّد من حدود ورصد من عقوبات، للمعتدين على حدوده[1] عبَّر النَّظم الكريم في نهاية الآية بكلمة ﴿حَكِيمٌ﴾ وليس بكلمة (رحيم) مع أنّ الرَّحمة تناسب التّوبة وقبولها؛ إشارةً إلى فائدةِ مَشروعيَّةِ اللِّعانِ وحِكمتِه، وهي السَّترُ عن هذه الفاحِشةِ العَظيمةِ فإنَّ اللّه أراد السّتر على عباده بتشريع اللعان بين الزَّوجيْن[2] ففصلت هذه الآية بـ ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ إثر بيان الحكم، جمعًا بين التّوبة المرجوة من صاحب المعصية، وبَيْنَ الحكمة في سترها على تلك الصّورة[3] وفي ذِكْرِ وصْفِ (الحكيم) هنا مع وصْفِ ﴿تَوَّابٌ﴾: إشارةٌ إلى أنَّ في هذه التَّوبةِ حِكْمةً، وهي استِصلاحُ النّاسِ[4].

توجيه المُتشابه اللَّفظي في الآية الكريمة ونظيراتها في السّورة الكريمة:

تَكرَّرَ قولُه: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ أربعَ مَرّاتٍ في سورة النّور في الآيات [10، 14، 20، 21]؛ وتكَرُّرُه لاختلافِ الأجوبةِ فيه؛ إذ جَوابُ الأوَّلِ مَحذوفٌ تَقديرُه: لَفَضَحَكُم، وجوابُ الثّاني قولُه: ﴿لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٤﴾ [النّور: 14]، وجوابُ الثّالثِ مَحذوفٌ تَقديرُه: لَعَجَّلَ لكمُ العَذابَ، وجوابُ الرّابعِ: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النّور: 21][5].

وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ جاءَ قولُه هُنا في آخِرِ العَشْرِ الأولى مِنَ السّورةِ: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾، وقال في آخرِ العِشرينَ من أوَّلِ السّورةِ: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 9/ 1226.
(2) السُّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 3/ 352.
(3) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 7/ 335.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 169.
(5) الأنصاريّ، فتح الرَّحمان، ص: 394.

﴿عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [النّور: 20]؛ فاختَلَفَتْ خاتِمَتا الآيتَين، وحُذِفَ جَوابُ (لَوْلا) منهُما؛ ووَجْهُه: أنَّه ذُكِرَ هُنا وصْفُ اللّهِ بأنَّه تَوّابٌ حَكيمٌ؛ لِما مرَّ مِن الأحكامِ العظيمةِ المُشتملةِ على التفضُّلِ من اللّهِ والرَّحمةِ منه، والمُؤْذِنةِ بأنَّه توّابٌ على مَن تاب مِن عبادِه، والمُنبِئةِ بكمالِ حكمتِه تعالى؛ إذ وضَعَ الشِّدَّةَ مَوضعَها، والرفقَ مَوضعَه، وكفَّ بعضَ الناسِ عن بعضٍ، وذُكِرَ بعد ذلك وصْفُه بأنَّه رَءوفٌ رَحيمٌ؛ لأنَّ هذا التَّنبيهَ الَّذي تَضمَّنَه التَّذييلُ فيه انتشالٌ للأُمَّةِ من اضْطِرابٍ عظيمٍ في أخلاقِها وآدابِها، وانفِصامِ عُرَى وحْدَتِها، فأنقَذَها من ذلك رَأفةً ورَحمةً لآحادِها وجَماعتِها، وحِفْظًا لأواصِرِها، وذَكَر وصْفَ الرَّأفةِ والرَّحمةِ؛ لأنَّه قد تَقدَّمَه إنقاذُه إيّاهُم مِن سوءِ مَحبَّةِ أنْ تَشيعَ الفاحشةُ في الَّذين آمَنوا، تلك المَحبَّةُ الَّتي انطَوَتْ عليها ضَمائرُ المُنافِقينَ، كان إنقاذُ المُؤمنينَ من التَّخلُّقِ بها رأفةً بهم مِن العذابِ، ورَحمةً لهم بثَوابِ المَتابِ(1).

❁ الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرّحمة والرّأفة:

الرّأفة أبلغُ من الرّحمَة؛ لأنّها أشدُّ الرّحمةِ، وهي أَرَقُّ مِنَ الرَّحمَةِ

الرَّحمةُ والرَّأفةُ كلمتان مُتقاربتان في المعنى، إلّا أنَّ بينهما فروقًا لطيفة، فالرَّأفةُ: رِقَّةٌ تنشأ عند حدوث ضُرٍّ بالمرؤوف به، يُقال: (رؤوف رحيم)، والرَّحمةُ: رِقَّةٌ تقتضي الإحسان للمرحوم(2). ويُفَرَّق بين الرَّأفة والرَّحمة أيضًا بأنَّ الرَّأفة مُبالغة في رحمة خاصَّة، وهي دفع المكروه وإزالة الضَّرر، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾؛ أيْ: لا ترأفوا بهما فترفعوا الجَلْد عنهما، وأمّا الرحمةُ فإنَّها اسم جامع يدخل فيه ذلك المعنى، ويدخل فيه الإنعام(3).

---

(1) الإسكافيّ، دُرَّة التَّنزيل، ص: 950، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 185، 186.

(2) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 239.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 4/ 93.

والرَّأفة أيضًا هي أن يدفع عنك المضارَّ والرَّحمة أن يوصِل إليك المسارَّ، فالرَّأفة من باب التَّخْلية، والرَّحمة من باب التَّزكية، والرَّأفة مُبالغةٌ في رحمةٍ مخصوصة، فهي أشدُّ الرّحمةِ وهي رفع المكروه وإزالة الضُّر، فذِكْرُ الرَّحمةِ بعدها في القرآن مُطَّردًا؛ لتكون أعمَّ وأشمل[1] فبينهما عموم وخصوص مُطْلق، فالرَّأفة خاصَّة في دفع المكروه عن المرحوم، بينما الرَّحمة تشمل هذا المعنى وغيره.

(1) أبو البقاء الكَفويّ، الكُليّات، ص: 471.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾ [النّور: 11]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ابـتـلاءُ الأئـمَّـةِ أنوارٌ للأُمَّةِ

هذه الآياتُ العشر - التي نزلَتْ في براءة أمِّ المؤمنين عائشةَ رضي الله عنها - مرتبطةٌ تمامًا بالسّياقَيْن العامِّ والخاصِّ اللَّذَيْن جاءت فيهما، فمِن حيثُ ارتباطُها بالسّياق العامِّ، فإنَّ السّورةَ الكريمة تناولتْ أثرَ البناء الأخلاقيِّ والتَّربية الإيمانيَّة، القائمَين على الفضيلة في تحقيق التَّمكينِ للمجتمع المسلم في الأرض، من خلال التَّركيزِ على الفضائل التي تحفظ المجتمعَ المسلم من التَّفرُّق والانقسام، وإنَّ أهمَّ ما يُشوِّه هذه الفضيلةَ هو ما يتعلَّق بجريمة الزِّنى، وما تستجرُّه من مصائبَ وويلاتٍ؛ فجاءتْ هذه الآياتُ العشر لتُقدِّم أنموذجًا لمعالجة صدمةٍ أخلاقيَّةٍ عظيمة أصابت المجتمع المسلم، وكادت تُمزِّق وحدته، وأن تشوِّهَ ركن الفضيلة فيه، من خلال بيت النُّبوَّة الأوَّل وما لحقَ به من أذًى.

ارتـبـاطُ الآيـاتِ بالسّياقِ الخاصِّ

وأمّا ارتباطُها بالسّياق الخاصِّ؛ فقد جاءت بعد أحكام الزُّناة والقاذفين والمُلاعِنين؛ لأنَّ الأمر فيها متَّصلٌ تمامَ الاتِّصال بهذه الأحكام، من خلال تقديم أنموذجٍ عمليٍّ يعرفونه جيِّدًا لأثر هذا الطَّعن والرَّمي في الأعراض في بيت القائدِ والأسوة لهم جميعًا[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡإِفۡكِ﴾: (أفك) أَصْلٌ واحِدٌ، يَدُلُّ على قَلْبِ الشَّيْءِ وصَرْفِه

(1) انظر الحديث في البخاريّ، الجامع الصّحيح: كتاب الشّهادات، باب تعديل النِّساء بعضهنّ بعضًا، حديث رقم: (2518).

عَنْ جِهَتِهِ، يُقالُ: أُفِكَ الشَّيْءُ، وأَفِكَ الرَّجُلُ: كَذَبَ، والإِفْكُ الكَذِبُ، وأَفَكْتُ الرَّجُلَ عَنِ الشَّيْءِ: إذا صَرَفْتَهُ عَنْهُ[1]، والمعنى المحوريُّ لهذه المادَّة اللُّغويَّة هو تغيُّرُ حالِ الشَّيء جملةً من وجهٍ إلى وجهٍ: كالرّياح المذكورة، والأرضُ الموصوفة تغيِّرُ حالها؛ إذ لم يُصِبها المطرُ بعد اعتياد إصابتها أو توقُّع ذلك مثل غيرها، وكانقلاب البلدة، ومنه أَفَكَهَ عن الشَّيء: صَرَفه: قلَبَهُ، وغيَّر اتجاهه إليه ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات: 9]، والإِفْكُ: الكذبُ والباطل؛ إذ هو كلامٌ قُلِب عن وجهه[2]، والمُرادُ بالإفك في الآية: ما افتراه المنافقون على أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

2) ﴿عُصْبَةٌ﴾: (عصب) أصلٌ يَدُلُّ على رَبْطِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ، مُسْتَطيلًا أَوْ مُسْتَديرًا، ثُمَّ يُفَرَّعُ ذَلِكَ فُروعًا، وكُلُّه راجِعٌ إِلَى قِياسٍ واحِدٍ، مِنْ ذَلِكَ العَصَبُ، وهِيَ أَطْنابُ المَفاصِلِ الَّتي تُلائِمُ بَيْنَها، ولَيْسَ بِالعَقَبِ، ولَحْمٌ عَصِبٌ: صُلْبٌ مُكْتَنِزٌ كَثيرُ العَصَبِ، والعَصْبُ: الطَّيُّ الشَّديدُ، ورَجُلٌ مَعْصوبُ الخَلْقِ، كَأَنَّما لوِيَ لَيًّا[3]، والعُصْبَةُ: جماعةٌ مُتَعَصِّبَةٌ مُتعاضدة، قال تعالى: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ [القصص: 76]، ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: 14]، أي: جماعةٌ مجتمعةُ الكلام متعاضدة[4]، وهو ذاتُهُ المعنى المُراد في الآية الكريمة.

3) ﴿ٱمْرِيٍٕ﴾: (مرأ)، يُقالُ: امرُؤٌ وامرَآنِ، وقَوْمُ امرِئٍ، وامرَأَةٌ تَأْنيثُ امرِئٍ، والمُروَّةُ: كَمالُ الرُّجوليَّةِ، وهِيَ مَهْموزَةٌ مُشَدَّدَةٌ، ولا يُبْنَى مِنْهُ فِعْلٌ[5]، ومنه المَرْءُ بالفتح: الإنسانُ؛ إذ هو نسل له تصرُّفٌ ونفع وتعاون، وأُنثاه مرأة، وهو أيضًا امرُؤ، وهي امرَأة، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤﴾ [عبس: 34][6].

4) ﴿ٱلْإِثْمِ﴾: (أثم) أصلٌ يَدُلُّ على أَصْلٍ واحِدٍ، وهوَ البُطْءُ والتَّأَخُّرُ، ناقَةٌ آثِمَةٌ: مُتَأَخِّرَةٌ، والإِثْمُ مُشْتَقٌّ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ ذا الإِثْمِ بَطيءٌ عَنِ الخَيْرِ مُتَأَخِّرٌ عَنْهُ، وأَثِمَ فُلانٌ: وقَعَ في الإِثْمِ، فإِذا تَحَرَّجَ وكَفَّ؛ قيلَ: تَأَثَّمَ[7]، والإثم والآثامُ: اسم للأفعال المبطِّئة عن الثواب، وجمعه: آثامٌ، ولتضمُّنه لمعنى البطء[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أفك).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أفك).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عصب).
(4) الراغب، المفردات: (عصب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرء).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مرأ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أثم).
(8) الراغب، المفردات: (أثم).

5) ﴿كِبۡرَهُۥ﴾: (كبر) أَصلٌ يَدُلُّ على خِلافِ الصِّغرِ، يُقالُ: هوَ كَبيرٌ، وكُبارٌ، وكُبّارٌ، والكِبْرُ: مُعْظَمُ الأمرِ، ويَقولونَ: كِبْرُ سياسَةِ القَوْمِ في المالِ، فأمّا الكُبْرُ بِضَمِّ الكافِ؛ فهوَ القُعْدُدُ، يُقالُ: الوَلاءُ لِلْكُبْرِ، يُرادُ به أَقْعَدُ القَوْمِ في النَّسَبِ، وهوَ الأَقْرَبُ إِلَى الأَبِ الأَكْبَرِ، والكِبَرُ: الهَرَمُ، والكِبْرُ: العَظَمَةُ، وكَذَلِكَ الكِبْرِياءُ، وعَلَتْ فُلانًا كَبْرَةٌ؛ إذا كَبِرَ، ويُقالُ: أَكْبَرْتُ الشَّيْءَ: اسْتَعْظَمتهُ[1]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ﴾ إشارةٌ إلى مَنْ أوقع حديثَ الإفك، وتنبيهٌ على أنَّ كل مَنْ سنَّ سُنَّة قبيحةً يصير مُقتدًى به، فذنبهُ أكبر[2].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

في ظاهر الإفكِ مصيبةٌ، وفي داخله خيرٌ للمؤمنين

إنَّ الذين اختلقوا البهتانَ في حقِّ عائشةَ أمِّ المؤمنين، وأذاعوه، هم جماعةٌ وشرذمةٌ ينتسبون إليكم بأُخوَّة الإسلام، فكيف رضوا بإذاعته؟ لا تظنّوا هذا الافتراءَ شرًّا لكم، بل هو خيرٌ عظيمٌ لكم، لنيلِكم الثَّواب الجزيلَ بالصَّبر عليه، وظهورِ كرامتكم وكرامة زوجكم المصون على ربِّكم، بإنزال ما فيه تعظيمُ شأْنِكم، وتشديد الوعيد لِمَنْ تكلَّمَ بما أَحْزَنكم، لكلِّ امرئٍ من الذين جاؤوا بالإفك جزاءَ ما اكتسب من الإثم بقدر ما خاض فيه، سواءٌ أكان ذلك اختلاقًا ورضًا أَم تَرْديدًا وإِذاعة، والذي تحمَّل معظمه، فقام بأكبر حظٍّ من إِعلانه؛ له عذاب عظيمٌ في الدُّنيا والآخرة[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ آياتِ الإفكِ بتركِ العطفِ:

بيانُ أثرِ رمي المؤمنين بالزِّنى دونَ دليلٍ

فُصِلَت آياتُ الإفكِ عمّا قبلها من الآيات دون عطفٍ عليها، "وهذا استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ فإنَّ هذه الآياتِ العشرَ إلى قوله تعالى:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(2) الراغب، المُفردات: (كبر).
(3) مجموعة من المؤلّفين، التَّفسير الوسيط: 6/ 1376.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢١﴾ [النور: 21] نزلت في زمنٍ بعيد عن زمن نزول الآيات التي من أوّل هذه السّورة"[1].

نكتةُ تتابعِ المؤكّداتِ في صدرِ الآيةِ:

من شأنِ كثرة المؤكّداتِ في الآيةِ أن تتوافقَ مع مُقتضَى الحالِ

استُهِلّت هذه الآيةُ بعددٍ من المؤكّدات، وهي: ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسميَّة، وذُكر المُسنَد إليه مرَّتَين: مرَّةً على أنَّه اسم ﴿إِنَّ﴾، ومرَّة بكونه الضَّميرَ الفاعل في جملة صلة الموصول ﴿جَآءُو﴾، ولتزاحُم هذه المؤكّدات أثرٌ في محو آثار هذه الفتنة التي ألمَّت ببيت الأمَّة الصَّغير والكبير على حدٍّ سواء، وأيًّا كان خبر ﴿إِنَّ﴾؛ فإنّها تُؤكّد لهم بألّا يقلقوا، ولا يغتمّوا بما حصل، فإنَّ اللّه تعالى يتولَّى الأمر كلَّه.

إنزالُ غيرِ المُنكِر منزلةَ المُنكِر

ويمكن أن يُقال: إنَّه إذا كان خبر ﴿إِنَّ﴾ قوله: ﴿عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾؛ فإنَّ التَّأكيد يكون قد خرج عن الظّاهر بإنزال غيرِ المنكر منزلةَ المنكر؛ لأنَّهم يعلمون حقيقة أنَّهم عصبةٌ منهم، ولكنَّ هذا الخبر المؤكَّد يحمل في طيّاته عتابًا ضمنيًّا لهم، بأنَّه كان الأحرى بهم ألّا يخوضوا فيما خاضوا فيه.

التَّعجيبُ مِن أن يجيءَ الإفكُ مِن عصبةٍ منهم

ووراءَ التَّأكيد أيضًا معنى التَّعجيب مِن أن يجيء الإفكُ مِن عصبة منهم، فالألصقُ به أن يجيء مِن غيرهم، لا منهم، وظلمُ ذوي القُربى لا يكاد يُصدَّقُ؛ ولهذا يكون محتاجًا خبرُهُ إلى تحقيقٍ وتوكيدٍ، وهو أشدُّ مضاضةً على النَّفس مِن وقْعِ الحُسامِ المُهنَّدِ.

دلالةُ الاسمِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾ وصلتِهِ:

تركُ التَّعريفِ بالمتكلِّمين بالإفك جاء سترًا وزجرًا لهم

الاسمُ الموصول مُبهمٌ يفتقر إلى جملة صلةِ الموصول تزيل إبهامَهُ، كما يفتقر إلى ضميرٍ عائدٍ ظاهرٍ أو مُضمرٍ يعود عليه في جملة صلة الموصول، فالتَّعبيرُ بالاسم الموصول هنا أفادَ وقوعَ التَّعريف على مرحلتَيْن، وذلك تشويقٌ لما يأتي بعده ممّا يُزيل إبهامَه، فضلًا عن إفادته

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 169.

معانيَ الذَّمِّ والتَّقريع للمُتكلِّمين به والنّاقلين له من غير تثبُّتٍ ورَويَّة، فذِكْرُ الاسم الموصول أعطى إبهامًا للآفكين، فلم يذكرهم بوصفٍ أو تعريفٍ لهم؛ لأنَّ إبهامهم هو الأصل هنا، وجاءت جملةُ صلة الموصول فعلًا ماضيًا للدَّلالة على أنَّهم نقلوه بمجرَّد أن سمعوه دون تفكُّر.

معنى الباءِ في: ﴿بِٱلۡإِفۡكِ﴾:

البَاءُ لا تنفكُّ عن معنى الإلصاقِ

الباء: إمّا أن تكون للتَّعدية والنَّقل للفعل (جاء)، وإمّا أن تكون للملابسة والملاصقة، فإنَّ مجيئهم كان ملتبسًا بهذا الإفك وملاصقًا لهم، ويمكن أن يكون قد ضمَّن الفعل ﴿جَآءُو﴾ الفعل (خاضوا)، أو (تكلّموا) بالإفك، فيفيد التَّضمين حينئذٍ قوَّة الفعليْن معًا، على معنى أنَّهم خاضوا بالحديث حتّى جاؤوا به إلى بيت النُّبوَّة.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿بِٱلۡإِفۡكِ﴾ مادَّةً وصيغةً:

التَّعبيرُ بالإفكِ تناسَبَ مع قلْبِهم حقائقَ الأمورِ

تدور معاني (الإفك) على تحوُّل الشَّيء من حالٍ إلى حال، والإفكُ هو كلامٌ قُلِب عن وجههِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾، ولعلَّ ما يختصُّ باسم الإفك هو ما تكون فيه فرصةٌ أو ظرف يمكن للمنافق أو المبطل أن يستغلَّهُ في قلب الأمر إلى ما يريدُهُ، وغرضُ مجيءِ هذه المادَّة اللُّغويَّة بيانُ أنَّهم حوَّلوا الأمور عن ظواهرها، وقلبوا الحقَّ باطلًا، وأنَّهم بذلك كأنَّهم جاؤوا بالإفك كلِّه، وهو أشدُّ الكذب، ولم يتركوا منه شيئًا، وأنَّ مَن رمَى أمَّ المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - بسوءٍ، فقد قلب الأمرَ على أحسن وجوهه إلى أقبح أقفائهِ؛ كنايةً عن عظمَةِ مقامِها الشَّريف[1].

معنى (أل) في ﴿بِٱلۡإِفۡكِ﴾:

الإساءةُ إلى القدوةِ ليس بعدها إساءةٌ

الظّاهرُ أنَّ تعريفَ الإفك هنا أفاد العهديَّة الذِّهنيَّة، أي: ما جرى مع أمِّ المؤمنين رضي الله عنها من اتِّهامها بصفوانَ، ولكن يمكن حملُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/ 239.

التَّعريف على الجنسيَّة الاستغراقيَّة على معنى: أنَّهم جاؤوا بكلِّ صنوف الإفك حين نقلوا هذه الإشاعاتِ، وفي ذلك مزيدٌ من التَّوبيخ لهم، يقول الآلوسيُّ: والمُراد به ما أفكت به الصَّديقةُ أنَّ اللّام فيه للعهد، وجوِّز حمله على الجنسِ، فقيل: يُفيد القصرَ، كأنَّه لا إفكَ إلّا ذلك الإفك[1]، فيكون في ذلك زيادةُ تبشيعٍ للإفك؛ لأنَّه في حق أمِّ المؤمنين، وهي مِن أحقِّ الناسِ بالمدحة؛ لِما كانت عليه مِن الحصانة والشَّرف والعفَّة والكرم[2].

بلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾:

في إسنادِ المجيءِ إلى الإفكِ تجوُّزٌ عقليٌّ أو لغويٌّ

في إسنادِ المجيءِ إلى الإفكِ - والإفكُ لا يُجاء به - مجازٌ عقليٌّ حُكميٌّ، علاقته اللُّزوميَّةُ، فإنَّ الإخبارَ به يلزمه المجيءُ، ويمكن إجراءُ المجاز اللُّغويِّ على طريقة الاستعارة المكنيَّة، بأن شبَّهَ الخبر الكاذب بالمسافر الغائب الذي من شأنه أن يجيءَ، فحذف المشبَّه به، وترك شيئًا من لوازمه، وهو المجيءُ، وأسنده إلى المُشبَّه، وهو الإفكُ على سبيل الاستعارة المكنيَّة التَّخييليَّة[3].

نكتةُ تنكير ﴿عُصۡبَةٞ﴾:

مِن عظمته تعالى سترُ العاصينَ من عبادِهِ

التَّنكيرُ في أصله يدلُّ على غير محدَّدٍ في جنسه، فمعنى التَّعميم مرادٌ هنا؛ لأنَّ القرآن الكريم أعرضَ عن تعيين مَنْ تكلَّم منهم به، حفظًا لوحدة المجتمع المسلم من أن تتقطَّع أواصره بسبب هذا الخبر الكاذب، ويمكن أن يندرجَ مع هذا الغرض غرضٌ آخر، وهو التَّحقير والتَّقليل من شأن هذه العصبةِ التي خاضت في عِرض أمِّ المؤمنين، وزوج النَّبيِّ ﷺ، وابنة الصِّديق في آنٍ واحدٍ.

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿عُصۡبَةٞ﴾:

تنوُّعُ الإعراباتِ بحسب تنوُّعِ المعاني

قال ابن عطيَّة: "وقوله: ﴿عُصۡبَةٞ﴾ رفعٌ على البدل من الضَّمير

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 308.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/ 239.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 170.

في ﴿جَآءُو﴾، وخبر إنَّ في قوله: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ﴾، وهذا أنسق في المعنى وأكثرُ فائدةً من أن يكون ﴿عُصۡبَةٌ﴾ خبر إنَّ"[1]، وعقَّب الآلوسيُّ على هذا الرَّأي بقوله: ولا يخفى أنَّه تكلَّف، والفائدةُ في الإخبار: التَّسليةُ بأنَّ الجائين بذلك الإفك فرقةٌ متعصِّبة متعاونة، وذلك من أمارات كونه إفكًا لا أصل له[2]، لذا فالأَوْلى أن تكون ﴿عُصۡبَةٌ﴾ خبرًا لـ ﴿إِنَّ﴾، ويكون الخبرُ مفيدًا للتَّعجيب من فعلهم مع أنَّهم عُصبةٌ من القوم، وهذا أشدُّ في الإنكار كما قال طَرَفَة:

وظُلمُ ذوي القُرْبى أشَدُّ مَضاضَةً *** على المرءِ من وقْعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ[3]

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿عُصۡبَةٌ﴾:

مجيءُ عصبةٍ بالإفكِ ليس كمثْلِهِ مجيءُ غيرِهم به

في ذِكْر لفظة ﴿عُصۡبَةٌ﴾ تحقيرٌ لهم ولقولهم، أي: لا يَعْبَأُ بقولهم في جانب تزكيةِ جميعِ الأمَّةِ لِمَن رموها بالإفك[4]، فالمجيءُ بهذه اللَّفظة التي تحمل في طيّاتها إشارةً إلى أنَّ هذه الفئةَ تربطهم وشائجُ ومصالحُ عصبيَّة خاصَّة، تلتقي على إعلان الحرب على بيت النُّبوَّة الأوَّل، وتحمل معاني التَّفرقة المجتمعيَّة، وأشارت لفظةُ العصبة إلى ما في نفوس الآفكين من عصبيَّة جاهليَّة، وتلفت هذه المادةُ إلى ما نتج عن الإفك مِن شدَّة إيلامِ السيدة عائشةَ ومَن يتبعها، فالذين جاؤوا بالإفك؛ لكونهم عصبةً يحمي بعضُهم بعضًا، فيشتدُّ أمرُهم؛ لأنَّ مدارَ مادة: (عصب) على الشدَّة، ثمَّ مع ذلك منكم.

معنى (من) ونكتةُ وصفِ العُصبةِ بأنَّها ﴿مِّنكُمۡ﴾:

الأصلُ أنَّ الشَّرَّ مِنَ القريبِ مُستبعَدٌ

نعت الآية على المسلمين كون العصبةِ فئةً منهم، فـ(من) هنا تبعيضيَّة، والمعنى: أنَّهم بعضٌ منكم لا من غيركم لا من الكفّار،

(1) ابن عطيَّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 169.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 310.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 171، وطرفة بن العبد، ديوان طرفة بن العبد، ص: 27.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 171.

يقول ابن عاشور: "ووصفُ العصبةِ بكونهم منهم يدلُّ على أنَّهم من المسلمين، وفي ذلك تعريضٌ بهم بأنَّهم حادوا عن خُلق الإسلام، حيث تصدّوا لأذى المسلمين"[1].

نكتةُ فصل قولِه: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ﴾:

فُصِلَت هذه الجملةُ عن سابقتها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾؛ إمّا لكمال انقطاعها عنها بسبب اختلافِهما في الخبر والإنشاء؛ لأنَّ هذه الجملةَ طلبيَّةٌ والسّابقة خبريَّةٌ، وإمّا أن يكون سببُ الفصل بينهما أنَّ هذه الجملةَ جاءتِ استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: فما موقفنا من هذه العصبةِ؟ أو ما ردُّ اللّه عليهم؟ والحملُ على الاستئناف البياني هو الأَوْلى؛ لدلالته على عنايته تعالى بشأن أولئك الكُمَّلِ.

إنَّما يعتني اللهُ بالمتقين المُحسنين من عبادِهِ

غرضُ النَّهي في قولِه: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ﴾:

تعتمدُ دلالة النَّهي في قوله: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ﴾ على حسب المُخاطَب بهذا النَّهي، فإن كان الخطاب فيها للمؤمنين عامَّةً كما هو الظّاهر؛ فإنَّ النَّهي هو للتَّوجيه والإرشاد، وقد ذَكر الرّازيُّ أنَّ الخطاب هو للمقذوفين على وجه الخصوصِ، ويكون النَّهي عندئذٍ للتَّسرية عليهم، وذَكر لهذه الخيريَّة وجوهًا، منها: استوجابُهم ثوابَ الصَّبرِ، وظهورُ الإفك بدلًا من كمونه، وبيانُ فضلهم حيث نزل القرآن ببراءتهم، وكذلك "صَيْرورَتُها بِحال تَعَلُّقِ الكفرِ والإيمانِ بقَدْحِها ومَدْحِها، فإنَّ اللّه تعالَى لَمّا نَصَّ على كون تلك الواقِعَةِ إفْكًا، وبالغ في شرْحه، فكلُّ مَنْ يشكُّ فيه كان كافرًا قَطْعًا"[2].

خطابُ اللهِ تعالى للمظلومين من شأنِهِ التخفيفُ عنهم

نكتةُ تنكيرِ ﴿شَرّٗا﴾:

جاء تنكيرُ لفظ ﴿شَرّٗا﴾ في قوله: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ﴾، فأفاد

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 171.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 338.

التَّعظيمَ على معنى: لا تحسبوه شرًّا عظيمًا، ووراء هذا مِن المعنى أنَّه شرٌّ حقير، يؤول إلى لا شيءٍ.

معنى اللّام في ﴿لَّكُمۖ﴾:

أفادت اللّام في قوله تعالى: ﴿شَرّٗا لَّكُمۖ﴾ معنى التَّخصيص على معنى: (شرًّا خاصًّا بكم)، ويمكن مع ذلك إفادتُها معنى العاقبة؛ أيْ: شرًّا يحصل لكم بعد ذلك، ويمكن أن تكونَ للتَّعليل على معنى: (شرًّا لأجلكم).

إنْ أصابَ المؤمنَ شرٌّ؛ صبَر

نكتةُ وصفِ الشَّرِّ بأنَّه ﴿لَّكُمۖ﴾:

في قوله تعالى: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ﴾ جاءت شبهُ الجملة ﴿لَّكُمۖ﴾ من الجارِّ والمجرور متعلِّقةً بـ﴿شَرّٗا﴾، أي: شرًّا كائنًا لكم، وهي في محلِّ نصبِ نعتٌ للشَّرِّ، وفائدةُ تخصيصِه ووصفه بأنَّه لهم أنَّ الأمر ابتداءً متعلِّقٌ بهم من أجل جبر خواطِرهم والتَّسرية عنهم.

جبرُ خواطرِ المُضارّين والتَّسرية عنهم

فائدةُ الإضرابِ بقوله: ﴿بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾:

من المعلوم أنَّ نفيه ﷻ للإفك بأن يكون شرًّا لهم يتضمَّن أنَّ فيه الخيرَ لهم، لكنَّه تعالى جاء بـ ﴿بَلۡ﴾ التي أفادت الإضرابَ ليؤكِّد هذه الخيريَّة؛ ليزيل ما علقَ في النُّفوس من شوائب هذه الحادثة، "وحَقيقَةُ الخَيْرِ ما زادَ نَفْعُهُ على ضُرِّهِ، وحَقيقَةُ الشَّرِّ ما زادَ ضُرُّهُ على نَفْعِهِ، وأَنَّ خَيْرًا لا شَرَّ فيه هوَ الجَنَّةُ، وشَرًّا لا خَيْرَ فيه هوَ جَهَنَّمُ، ولِهَذا صارَ البَلاءُ النّازِلُ على الأَوْلياءِ خَيْرًا؛ لِأَنَّ ضَرَرَهُ مِنَ الأَلَمِ قَليلٌ في الدُّنْيا، وخَيْرُهُ - وهوَ الثَّوابُ - كَثيرٌ في الآخِرَةِ، فنَبَّهَ اللّه تَعالَى عائِشَةَ ومَنْ ماثَلَها - مِمَّنْ نالَهُ هَمٌّ مِنْ هَذا الحَديثِ - أَنَّهُ ما أَصابَهُم مِنْهُ شَرٌّ، بَلْ هوَ خَيْرٌ"(1)، فأفاد الإضراب التَّأكيدَ على إبطال أنَّه شرٌّ لهم، بل على العكس فيه منافع كثيرة.

في طيّات المحنةِ العظيمة تحصلُ المنحةُ العظيمة

(1) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 3/ 363.

نكتةُ العدولِ في: ﴿بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾:

في المغايرة لفتٌ إلى أنَّ الخيرَ الكامنَ في الشَّرِّ عظيمٌ

يقول ابن عاشور: "وعدل عن أنْ يَعْطِفَ (خَيْرًا) على ﴿شَرّٗا﴾ بِحَرْفِ ﴿بَلۡ﴾، فيُقالُ: بَلْ خَيْرًا لَكُم؛ إيثارًا لِلْجُملَةِ الِاسْمِيَّةِ الدّالَّةِ على الثَّباتِ والدَّوام"(1)، وفي المغايرة بينهما إشارةٌ إلى أنَّ الخيرَ الذي يكمُن في الشَّرِّ عظيمٌ جدًّا، حتى كأنَّهم لا يُدركون كُنْهَهُ ولا نِهايته؛ لأنَّ القرآن لو عطفَ فقال: (بل خيرًا لكم)؛ لكان المعنى: بل احسبوه خيرًا لكم، ثم أيُّ فوزٍ في خير يكون دائمًا مستمرًّا؟ كأنَّ في الاسميَّة إشعارًا بديمومة الخير إلى يوم القيامة، فيكون لهم في هذا اليوم خيرٌ عظيمٌ بسبب رميهم بهذا الإفك.

نكتةُ تنكير ﴿خَيۡرٞ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ أفاد تنكيرُ ﴿خَيۡرٞ﴾ التَّعظيمَ، على معنى: لا تحسبوه شرًّا عظيمًا، بل هو خيرٌ عظيمٌ، والقرينةُ أنَّ الذين قُذِفوا بتهمة الإفك خيرُ هذه الأمَّة وأعظمها.

معنى اللّام في ﴿لَّكُمۡۚ﴾:

لكلِّ بلاءٍ أهلُهُ، فيكونُ ثوابُهُ خاصًّا بهم وحدهم

في قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ أفادت اللّام في ﴿لَّكُمۡۚ﴾ معنى التَّخصيصِ على معنى: (خيرٌ خاصٌّ بكم)، ويمكن مع ذلك إفادتُها معنى العاقبةِ، أيْ: (خيرٌ يحصل لكم بعد ذلك)، ويمكن أن تكونَ للتَّعليل على معنى: (خيرٌ حاصلٌ لأجلكم).

نكتةُ وصفِ الخيرِ بأنَّه ﴿لَّكُمۡۚ﴾:

كلُّ ثوابٍ يُراعَى فيه حالُ المُثابِ

شبهُ الجملة من الجارِّ والمجرور ﴿لَّكُمۡۚ﴾ هنا مُتعلِّقة بـ﴿خَيۡرٞ﴾، وهي في محلِّ رفعٍ نعتُ الخير، أيْ: بل هو خيرٌ دائمٌ أو كائنٌ لكم، وفائدة تخصيصِهِ ووصفه بأنَّه لهم أنَّ الأمرَ ابتداءً متعلِّقٌ بهم من أجل جبر خواطرِهِم والتَّسرية عنهم، ولذلك تكرَّرت ﴿لَّكُمۡۚ﴾ مع الخير، بعد أن جاءت مع الشَّرِّ، لتدفع عن النُّفوس ظنَّها بأنَّه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 172.

كان شرًّا لهم، بل على عكس ذلك، فهو خيرٌ لهم، فهي إشارة إلى استوائهما في علم الله.

بلاغةُ الطِّباقِ بين الشَّرِّ والخير:

في التَّقابُلِ دعوةٌ قويَّةٌ إلى مزيدِ التَّدبُّرِ

في قول المولى سبحانه: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ تقابلٌ بين لفظي الخير والشَّرِّ، وهو طباقُ إيجابٍ، والجمع بينهما يُحرِّك نفسَ المتلقي، لأن يتأمَّلَ كلُّ طرف في نورِ الآخر، فيتمكَّنَ المعنى في النفس، وتفقهَ النفس ما لم تكن تفقهُهُ مِن غير ذلك التأمُّل، ففي الطباق إحسانٌ إلى المعنى والمتلقّي جميعًا، والنَّفسُ الإنسانيَّة لا تملك في مِثْل هذا المقام مقام الاتهامات والشُّبَه إلّا التَّفكيرَ.

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾:

قد يكونُ عقابُ المظلومِ شفاءً للظّالمِ

هذه الجملةُ إمّا أن تكون استئنافًا ابتدائيًّا؛ لأنَّها جاءتْ لتتناول عقوبةَ الآفكين بعد بيان حقيقة الإفك، وإمّا أن تكون استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّ سؤالًا قد نشأ في الذِّهن بعد إخباره ﷻ بأنَّ ما جرى لم يكن شرًّا لهم، بل هو خير، فيتساءل القارئ بعدها عن مصير أولئك العصبةِ الذين جاؤوا بهذا الإفك العظيم، فجاءتِ الآية لتبيِّنَ ما لحقهم، وجعلها البقاعي تعليلًا في المعنى لما قبلها؛ لأنَّه لا شفاءَ لغيظ الإنسان أعظمُ من انتصار الملك الديَّان له[1].

معنى اللّامِ في ﴿لِكُلِّ﴾:

أقبحُ ما في الإثمِ أن يكونَ عن عَمدٍ

في قول المولى سبحانه: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾ نجد أنَّ اللّامَ في ﴿لِكُلِّ﴾ هي لام الاستحقاق؛ لأنَّهم استحقّوه، ويمكن أن تفيدَ مع ذلك معنى التَّخصيص، فما سيُقرَّرُ من عقوبة هي خاصَّةٌ بهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالعمومِ في قولِهِ: ﴿لِكُلِّ﴾:

أفاد التَّعبيرُ بـ﴿لِكُلِّ﴾ هنا استغراقَهم جميعًا بهذا الحكم، وأنَّه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 240.

قد يكونُ ظلامُ المعصيةِ بقَدْرِ شيوعِها

لا يُستثنى منه أحدٌ، بحيثُ يشمل الحُكمُ المُفاد بخبر (كل) كلَّ مَنْ شارك في جريمة الإفك مطلقَ مشاركةٍ، وفي هذا مزيدٌ من التَّهديد والوعيد لهم.

نكتةُ تنكيرِ ﴿ٱمۡرِيٕ﴾:

تحقيرُ شأنِ الذين رموا أمَّ المؤمنين بالإفكِ

أفاد التَّنكيرُ للفظ ﴿ٱمۡرِيٕ﴾ في قوله سبحانه: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾ التَّعميمَ؛ ليشمل كلَّ واحدٍ منهم، فضلًا عن إفادتها معنى التَّحقير، وفي ذلك حطٌّ من شأن هؤلاء الذين رموا أمَّ المؤمنين بالإفك.

معنى (من) في قوله: ﴿مِّنۡهُم﴾:

في قوله ﷻ: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾ أفادت (من) في قوله: ﴿مِّنۡهُم﴾ معنى الابتداء، ويمكن أن تكونَ بيانيَّةً على معنى: منهم ومن غيرِهم.

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ الخبريّةِ ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُم﴾:

أفـادَ تقديمُ المُسنَدِ التَّخصيصَ أو تعجيل ما يسوءُ

شبهُ الجملةِ هنا في محلِّ رفعٍ خبرٌ مُقدَّمٌ لقوله: ﴿مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾، وفائدة تقديم شبه الجملة الخبريَّة على المبتدأ تخصيصُهم بهذا العقاب، أو تعجيل ما يسوؤهم سماعُهُ، وللتَّعجيب من صدور تلك التُّهمة منهم؛ لأنَّهم مِن الذين آذَوْهم بها.

معنى ﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾:

أيُّ إثمٍ ارتكبوه في حقِّ أمِّ المؤمنين ﵂؟

في قوله تعالى: ﴿مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾ نجد أنَّ ﴿مَّا﴾ هنا اسم موصول مبنيٌّ على السُّكون في محلِّ رفع مبتدأ مُؤخَّر، و﴿ٱكۡتَسَبَ﴾: صلتُهُ[1]، ويمكن أن تكونَ ﴿مَّا﴾ مصدريَّةً، والتَّعبير بـ﴿مَّا﴾ هنا يُفيد العمومَ ليستغرق كلَّ ما يُكسَبُ من إثمٍ، فضلًا عن إفادة الاسم الموصول هنا معاني الذَّمِّ والتَّشهير بهم.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 569.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿ٱكۡتَسَبَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

يُقال: (الكَسْبُ) فيما أخذَهُ الرَّجل لنفسه ولغيره، ولهذا قد يتعدَّى إلى مفعولَيْن، فيُقال: كَسَبْتُ فلانًا كذا، والِاكْتِسابُ لا يُقال إلّا فيما استفدته لنفسك، فكلُّ اكْتِسابٍ كسبٌ، وليس كلُّ كَسْبٍ اكتسابًا[1]، فالتَّعبيرُ بالاكتساب هنا دون الكسْبِ أنَّهم جلبوا ذلك لأنفسِهم بأنفسِهم، و﴿ٱكۡتَسَبَ﴾: مُسْتَعْمَلٌ في المَآثِم ونَحْوِها؛ لِأَنَّها تَدُلُّ على اعْتِمالٍ وقَصْدٍ، فهوَ أَبْلَغُ في التَّرْتيبِ، و(كَسَبَ) مُسْتَعْمَلٌ في الخَيْرِ؛ لِأَنَّ حُصولَهُ مُغْنٍ عَنِ الدَّلالَةِ على اعْتِمالٍ فيه، وقد يُسْتَعْمَلُ (كَسَبَ) في الوَجْهَيْنِ[2]، وأفاد التَّعبيرُ بالفعل الماضي أنَّ الإثمَ قد لحقَهُ ابتداءً لحظةَ أن خاضوا في حديث الإفكِ.

الزِّيادةُ في المبنى تدلُّ على الزِّيادةِ في المعنى

معنى ﴿مِنَ﴾ و(أل) في قولِهِ: ﴿مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾ هنا ابتدائيَّةٌ، ويمكن أن تكون سببيَّةً بمعنى: بسبب الإثم، وأفاد تعريفُ الإثم الاستغراقَ؛ ليعمَّ سائرَ أصناف الآثام والذُّنوب، ويمكن أن يكون التَّعريفُ للعهدِ على اعتبار أنَّهُ إثمُ الخوض في الإفك دونَ غيره.

اللهُ ﷻ هو العدلُ، وعدلُه رحمةٌ

نكتةُ المجازِ في لفظ ﴿ٱلۡإِثۡمِۚ﴾:

يمكن أن يكونَ المُرادُ من الإثمِ هنا ظاهرَهُ بما لحق كلَّ واحدٍ منهم من الوِزْر؛ لخوضهم في حديث الإفك، ويمكن أن يُراد من الإثم الإفكُ نفسه، على اعتبار أنّه سببٌ مُفضٍ إليه، فأطلقَ المُسبِّبَ، وأراد السَّببَ، والحملُ على المجاز المُرسل أَوْلى؛ لقوله تعالى في لحاقه: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾؛ فالسّياق لتقريرِ العقاب والعذاب، وما عليه التَّنزيل أبلغُ في إيلامِهم وإهانتِهم؛ وشفاء صدورِ القوم المؤمنين.

الذَّنبُ العظيمُ يَصْحَبُ عقابَهُ مفاجأةٌ

(1) الرّاغب، المُفردات: (كسب).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 20.

بلاغةُ المجازِ بالحذفِ في قولهِ: ﴿مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾:

استحضارُ الإثمِ في سياقِ العقابِ إهانةٌ

هناك كلامٌ محذوفٌ في الجملة دلَّ عليه نظمها، يقول الرّازي: "وَمَعْلومٌ أَنَّ نَفْسَ ما اكْتَسَبوهُ لا يَكونُ عُقوبَةً، فالْمُرادُ لَهُم جَزاءُ ما اكْتَسَبوهُ مِنَ العِقابِ في الآخِرَةِ والمَذَمَّةِ في الدُّنْيا، والمَعْنَى: أَنَّ قَدْرَ العِقابِ يَكونُ مِثْلَ قَدْرِ الخَوْضِ"[1]، ومَن أدرك حقيقةَ السّياق، واستحضر جلالتَهُ؛ ذاقَ كيف تتفادَى النَّفسُ مِن إظهار هذا المحذوف، وكيف تأنَسُ إلى إضمارِه، وعرَف كيف تذهبُ الملاحة إن هو رامَ التكلُّم به.

بلاغةُ الاستعارةِ ﴿مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾:

شبَّهتِ الآيةُ الوقوعَ في الإثمِ بالكسبِ

في قولهِ تعالى: ﴿مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾ يمكن أن يكونَ تقديرُ الكلام في الآية أنّها شبَّهتِ الإثمَ بالشَّيء الذي من شأنه أن يُكتسبَ كالمال وغيره، بجامع تحقُّق آثار كلٍّ منهما، فحذف المُشبَّهَ به، وترك شيئًا من لوازمه، وهو الاكتساب، وأسندَهُ إلى الإثم على سبيل الاستعارة المكنيَّةِ التَّخييليَّة.

معنى الواو في: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ﴾:

لا يستوي الأصلُ في الجريمةِ والفرعُ فيها

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ﴾ عاطفةٌ على قوله: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾؛ وهو من عطف الخاصِّ على العامِّ للإشادة به، فمَنْ تولَّى أعظمَ هذا الإفك؛ استحقَّ أن يُفردَ بذِكْر عقابه مع أنَّه داخلٌ في عموم قوله: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٖ مِّنۡهُم﴾؛ فهذا العطفُ يقتضي تنزيل تشبيه التَّغاير العنوانيِّ في الصِّفات منزلة التَّغاير الذّاتيِّ، ويمكن أن تكون الواو استئنافيَّةً شرعت في الإخبار عن حالة مستقلَّةٍ بالإثم[2].

عقابُ العظيمِ عظيمٌ، والتَّوبةُ عنِ العظيمِ عظيمةٌ

الظّاهرُ أن يتقدَّم معنى قوله: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ﴾، على معنى

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 338.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 569.

قوله: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾؛ للتَّهويل والتَّفخيم مِن شأنِ الإثم الَّذي ارتكبوه جميعًا، فما ارتكبه الأدنى عظيمٌ في بابه في حقِّ أُمِّ المؤمنين، وقد قرَّر القرآنُ عقابه بصورة ذاتِ جلالٍ وفخامةٍ، فجعلت العقابَ نفْسَ الإثم؛ للدَّلالة على أنَّه إثمٌ مِن شأنه ألّا يُنْسَى؛ لأنَّه عظيمٌ، وعقابُ العظيم عظيمٌ، وأنَّ التَّوبة عن العظيم عظيمةٌ، فكيف يكون ما ارتكبه الأعلى رئيسهم؟ وقد صوَّر ذلك ترتيبُ المعنيَيْن في التنزيل الكريم، ولو حدث عكسُ الترتيب؛ لكان فيه استهانةٌ ما بما اكتسبه غيرُ الرئيس الذي تولّى كِبْرَهُ منهم مِن الإثم، وذلك لا يتوافق وشأنَ أمِّ المؤمنين ﵂ وقدرَها.

غرضُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصلتِهِ:

في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾، جاء التَّعبيرُ بالاسم الموصول لمزيدٍ من الذَّمِّ والتَّشهير بزعيم المنافقين الذي تولّى إشعالَ فتيلِ الفتنة، وجاء الفعلُ الماضي في حيِّز الصِّلة للإشارة إلى أنَّه تولّى هذا الأمرَ فور سماعِهِ، أو فور وصول عائشةَ وصفوان ﵄ إلى المدينة.

من عقاب كبارِ المجرمين فضحُهُم على كلِّ ملأٍ

بلاغةُ توجيهِ القراءات في ﴿كِبۡرَهُۥ﴾:

قرأ الجمهورُ ﴿كِبۡرَهُۥ﴾ بكسر الكاف، وقرأ يعقوبُ بضمِّ الكاف ﴿كُبۡرَهُۥ﴾[1]، وهُما مَصْدَرانِ لِـ: كَبُرَ الشَّيْءُ، أَيْ: عَظُمَ، لَكِنَّ المُسْتَعْمَلَ في السِّنِّ: الضَّمُّ، وقيلَ: بِالضَّمِّ: مُعْظَمُهُ، وبِالكَسْرِ: البَداءَةُ بِالإِفْكِ، وقيلَ: الإِثْمُ[2]، ولا تعارضَ حقيقيًّا بين القراءتَيْن المتواترتَيْن، فإنَّ من تولّى معظمَهُ حريٌّ به أن يتولّى إثمَهُ.

على كبير الأفّاكين مِثْلُ أوزارِهم جميعًا

عودُ الضَّميرِ في ﴿كِبۡرَهُۥ﴾:

على كلتا القراءتَيْن فإنَّ الضَّمير المضاف إليه إنَّما يعودُ إلى

(1) قمحاوي، آل نصر، طلائع البِشْر، ص: 351.
(2) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 331.

مِثْلُ هذا الإفكِ ما كان ينبغي في مِثْلِ أمِّ المؤمنين عائشة

الإفك، وربَّما لو عبَّر عنه بلفظِه؛ لبُعد المسافة بين موضعه ثانيًا وموضعِه في صدر السورة؛ لأفهمَ عِظَمَهُ، وعِظَمَ جزائِه، ولكنَّ القرآنَ عبَّر عنه بالضَّميرِ على الأصل؛ إشعارًا بأنَّه في مِثْلِ أمِّ المؤمنين عائشةَ - رضي الله عنها - ما كان ينبغي أن يكونَ.

معنى (من) في ﴿مِنۡهُمۡ﴾، وعودُ الضَّمير:

جميعُ مَن خاضوا في أمِّ المؤمنين متساوون في أصلِ الإثم

في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ جاءت (من) تبعيضيَّةً، يقولُ ابن عاشور: "وضَميرُ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ عائِدٌ إِلَى الَّذينَ جاؤوا بِالإِفْكِ، وقيلَ: الَّذي تَوَلَّى كِبْرَهُ حَسّانُ بن ثابِتٍ، والوَعيدُ بِأَنَّ لَهُ عَذابًا عَظيمًا يَقْتَضي أَنَّهُ عَبْدُ اللّه بْنُ أُبَيٍّ بن سَلولٍ، وفيه إِنْباءٌ بِأَنَّهُ يَموتُ على الكُفْرِ، فيُعَذَّبُ العَذابَ العَظيمَ في الآخِرَةِ، وهوَ عَذابُ الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النّارِ، وأَمّا بَقيَّةُ العُصْبَةِ؛ فلَهُم مِنَ الإِثْمِ بِمِقْدارِ ذَنْبِهِم، وفيه إيماءٌ بِأَنَّ اللّه يَتوبُ عليهم إِنْ تابوا، كَما هوَ الشَّأْنُ في هَذا الدِّين[1].

معنى اللّام في ﴿لَهُۥ﴾:

إفادةُ استحقاقِه للعذابِ أو تخصيصه له

في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ أفادت اللّام في ﴿لَهُۥ﴾ معنى الاستحقاق؛ لأنَّه يستحقُّ هذا العذابَ العظيم، ويمكن أن تكون للتَّخصيص على معنى أنَّ هذا العذابَ العظيم مخصَّصٌ له، ووراء هذا من المعنى التعمُّدُ والإصرارُ والإقبالُ بالكليَّة على الإثم، فقولُه: ﴿لَهُۥ﴾ أبلغُ من (ذو)؛ لأنَّه أعلى منه معنًى، وذلك اللّائقُ بحال كبير القاذفين.

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة الخبريَّةِ ﴿لَهُۥ﴾:

أفادَ تقديمُ شبه الجملة الخبريَّة ﴿لَهُۥ﴾ في قوله: ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ معنى تعجيلِ المضرَّةِ لهذا المتوعِّد، ويمكن أن يكونَ سببُ تقديمها التَّخصيصَ، والمعنيان لا يتعاندان، وهما في السّياق مقصودان.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 173.

نكتةُ تنكيرِ ﴿عَذَابٌ﴾:

قد لا يُدرَك الشَّيءُ مِن شدَّةِ عَظَمَتِه

تنكيرُ المبتدأ المؤخَّر ﴿عَذَابٌ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أفاد التَّعظيم، أي: عذابٌ لا يُدرَك كُنْهُهُ، ويمكن أن يكونَ التَّنكيرُ للنَّوعية، على معنى أنَّه ليس كأيِّ عذابٍ تعرفونه، ومآلُ هذا الوجهِ معنى التعظيم أيضًا، يقول ابن عاشور: "وَصْفُ العَذابِ بِالعَظيمِ دَليلٌ على أَنَّ تَنْكيرَ عَذابٍ لِلنَّوْعيَّة، وذَلِكَ اهْتِمامٌ بِالتَّنْصيصِ على عِظَمِهِ؛ لِأَنَّ التَّنْكيرَ وإِنْ كانَ صالِحًا لِلدَّلالَةِ على التَّعْظيمِ إِلّا أَنَّهُ لَيْسَ بِنَصٍّ فيه"(1).

فائدةُ وصفِ العذاب بالعِظَم:

الجزاءُ مرآةٌ صادقةٌ للعملِ

في وصف العذاب المُنكَّر بالعِظَم في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مزيدٌ من التَّفخيم والتَّعظيم لشأنه؛ ليتناسبَ مع هذا الإثم الذي تولّاه صاحبه، وفي هذا مزيدُ وعيدٍ له، والعذابُ العظيم هو عذابُ الآخرة، وممّا لا يخفى أنَّ بناء ﴿عَظِيمٌ﴾ على زنة (فعيل) يدلُّ على ثبوت هذه الصِّفة وملازمتها للعذاب، ولا يجوز أنْ يكون ﴿عَظِيمٌ﴾ تأكيدًا لِما يُفيدُه التَّنكير من التَّعظيم؛ لأنَّ دلالةَ التَّنْكير على التَّعْظيم غيرُ وضعيَّةٍ، والمَدلولات غيرُ الوضعيَّة يُستغنَى عنها؛ إذا ورَدَ ما يدلُّ عليها وضعًا، فلا يُعدُّ تأكيدًا(2)، وعظمُ العذابِ يُفْهِم عِظَمَ العمل الذي استوجبَ ذلك العذابَ، فالجزاءاتُ صورٌ صادقة للأعمال.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

كلُّ لفظةٍ من هذه الألفاظ تشترك مع أختها بمعانٍ وتختصُّ بمعانٍ أخرى

الكذب والافتراء والبهتان والإفك:

الكذبُ هو عدمُ مطابقة الخبر للواقع، أو لاعتقاد المُخبر لهما على خلافٍ في ذلك، والافتراءُ: أخصُّ منه؛ لأنَّه الكذبُ في حقِّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 258.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 258.

الآخر بما لا يرتضيه، بخلاف الكذب، فإنَّه قد يكون في حقِّ المتكلِّم نفسه، ولذا يُقال لِمَنْ قال: فعلتُ كذا، ولم أفعل كذا مع عدم صدقه في ذلك: هو كاذبٌ، ولا يُقال: هو مُفترٍ، وأيضًا قد يحسُن الكذب على بعض الوجوه، كالكذب في الحرب، وإصلاح ذات البَيْن، وعدَّة الزوجة، كما وردت به الرِّواية، بخلاف الافتراء.

وأمّا البهتانُ؛ فهو الكذبُ الذي يواجَهُ به صاحبُهُ على وجه المكابرةِ له، وأمّا الفرقُ بين الكذب والإفك؛ فهو أنَّ الكذبَ: اسمٌ موضوعٌ للخبر الذي لا مُخبِر له على ما هو به، وسواء أكان الكذب فاحشَ القبحِ أم غير فاحشِ القبحِ، والإفك: هو الكذبُ الفاحش القبح مثل الكذب على اللّه ورسوله أو على القرآن، ومثل قذف المحصنة، وغير ذلك مما يُفحش قُبحُهُ، وأمّا البهتانُ؛ فهو مواجهةُ الإنسان بما لم يحبَّهُ، وقد بهته[1].

الإثم والذَّنب والكلمات المقاربة:

الــفــروقُ قد تكون من ناحية قوَّة دلالتِها، أو امتزاج دلالاتها مع معانٍ أخرى

سَمَّى القرآنُ الكريم هذه الذنوبَ والمعاصي بأسماءَ عديدةٍ في مواضع مختلفة، ممّا يؤكِّد أنَّ لكلِّ لفظةٍ منها خصوصيَّتها الَّتي تميّزها عن اللَّفظة الأخرى الَّتي تشاركها في بعض السِّمات، فقد استعمل القرآن ألفاظ: الإثم، والسيّئة، والجُرم، والخطيئة، والوزر...، وغيرها من الألفاظ، وإنَّ تتبُّع هذه الألفاظِ ودراسة الفروق المعجميَّة والسّياقيَّة بينها يكشف عن رافدٍ مهمٍّ من روافد الإعجاز.

فالذَّنبُ في أصل اللُّغة: هو الجُرم[2]، وأُخذ من ذَنَب الدّابَّةِ، فالذَّنَب هو الأخذ بذَنَب الشَّيء، ويُستعمل في كلِّ فعلٍ يُستَوخمُ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: فروق رقم: (1063) و(1806).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، ص: 389.

عقباه اعتبارًا بذَنَب الشَّيء، ولما يحصلُ من عاقبته[1]، فالمعصية إذًا تُسمّى ذَنْبًا؛ تبعًا لما تجرُّه أذنابها على العاصي، ولأنَّ البحثَ في دلالة كلِّ لفظةٍ من الألفاظ السابقة يطول، فنشيرُ إلى بعض محاولات صاحب كتاب (الفروق اللُّغويَّة)، وهو يُفرِّق بين بعض هذه الألفاظ:

فالفرق عنده بين الإثم والخطيئة: أنَّ الخطيئةَ قد تكون من غير تعمُّدٍ، ولا يكون الإثم إلّا تعمُّدًا، والفرق بين الإثم والذَّنب: أنَّ الإثمَ في أصل اللُّغة: التَّقصير[2]، والذَّنب فيها وفي غيرها، والفرق بين الذَّنب والجُرم: أنَّ الذَّنب ما يتبعه الذَّمُّ، وهو القبيح من الفعل، والجُرْم ما ينقطع به عن الواجب، والفرق بين الوِزْر والذَّنب: أنَّ الوِزْرَ يُفيد إثقال صاحبه[3]، والإثم يُفيد المؤاخذة والعقوبة.

ليس ما قدَّمه العسكريُّ في هذه الفروقِ قطعيًّا

بناءً على ما تقدَّم فإنَّ صاحب (الفروق)، قد حاول جاهدًا أن يفرِّق بين هذه الألفاظ الَّتي يُظنُّ ترادفها من خلال استقراء المعجمات ومواردها في القرآن، وليس ما قدَّمه قطعيًّا في نتائجه، ولكنَّه يتقدَّم خطوةً إلى الأمام في هذا الاتجاه، فالفروقُ بين هذه الألفاظ قد تكون من ناحية قوَّتها في الدّلالة، أو من حيثُ امتزاجُ دلالاتها مع معانٍ أخرى.

الطّائفة والعصبة:

العُصْبَةُ قد تكون أكبرَ، فضلًا عن أنَّ أفرادَها تجمعُهم عصبيَّةٌ ما

الطّائفة في الأصل: الجماعةُ التي من شأنها الطَّوف في البلاد للسَّفر، ويجوز أن يكون أصلُها الجماعةَ التي تستوي بها حلقة يُطاف عليها، ثمَّ كثر ذلك حتى سُمّيت كلُّ جماعةٍ طائفةً[4]، وأمّا

(1) الرّاغب، المُفردات، ص: 137.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 261.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 261 - 262.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 334.

العُصبة؛ فالعَشَرَة وما فوقها، وقيل: من العشرة إلى الأربعين، وهي في العربية: الجماعةُ من الفرسان[1]، وعلى هذا فالعُصبة قد تكون أكبرَ من الطّائفة، فضلًا عن أنَّ أفرادها تجمعهم عصبيَّةٌ ما، أو لُحمةٌ قويَّةٌ يتعاضدون لأجلها؛ لذلك جاءت في موضعَيْن في القرآن من أصل أربعة على لسان إخوة يوسف، منها: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: 8].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 107.

﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢﴾ [النور: 12]

حَـمَـلـتُ آيـاتُ الإفـكِ الـتَّـوجـيـهـاتِ الـوقـائـيَّـةَ والـعـلاجـيَّـةَ للإشاعاتِ

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

لَمّا أخبر ﷻ بعقاب مَنْ تكلَّم بالإفك، وكان من المؤمنين مَنْ سمعه، فسكت، وفيهم مَنْ سمعه، فتحدَّث به مُتعجِّبًا من قائله، أو مُستثبتًا في أمره، ومنهم مَنْ كذَّبه؛ أتبعه سبحانه بعتابهم في أسلوب خطابه لهم، مثنيًا على مَنْ كذَّبه، وأنكره[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ظَنَّ﴾: (ظنّ) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على مَعْنَيَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ: يَقين وشَكّ، فأمّا اليَقينُ؛ فقَوْلُ القائِلِ: ظَنَنْتُ ظَنًّا: أَيْقَنْتُ، قالَ اللّٰه تَعالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 249]، أَرادَ: يوقِنون، والأَصْلُ الآخَرُ: الشَّكُّ، يُقالُ: ظَنَنْتُ الشَّيْءَ؛ إذا لَم تَتَيَقَّنْهُ، ومِنْ ذَلِك الظِّنَّةُ: التُّهَمَةُ، والظَّنينُ: المُتَّهَمُ[2]، ومنه في القرآن الكريم: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ [الأنبياء: 87][3]، والأقربُ في نور السّياق أن يُحمَل الظَّنُّ على ظاهرِه مِن الحقيقة، فالأبرُّ والأَوْلى والأصلح للعبد في مِثْل هذا المقام أن يظنَّ في أهل الإسلام والإيمان خيرًا.

2) ﴿مُّبِينٞ﴾: (بون) أصلٌ يدلُّ على البُعد[4]، والمعنى المحوريُّ: امتدادٌ بين طرفَيْن أو جانبَيْن مع فصلٍ كبيرٍ أو اتِّساع، والبَيِّن ممتدٌّ كالفارغ؛ لأنَّ النَّظر ينصبُّ على نهايته البعيدة، والبائنةُ: البئرُ البعيدةُ القَعْرِ، والبَون (بالفتح والضم): مسافةٌ ما بين الشَّيئَيْن، فهذه المسافة

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 13/ 228.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظن).
(3) الراغب، المفردات: (ظنّ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بون).

مساحة فاصلة، وبان الشَّيء: اتَّضح فهو بَيِّن، والبَيان: ما بُيِّن به الشَّيءُ من الدَّلالة[1]، وسمّي الكلام بيانًا؛ لكشفه عن المعنى المقصودِ إظهارُهُ، نحو: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 138][2]، ومعنى: ﴿مُّبِينٌ﴾ في الآية الكريمة: كاملُ الإبانة؛ فهو واضحٌ في نفسِه، موضِّحٌ لغيره.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

في الآية تحضيضٌ على حُسنِ الظَّنِّ بالمؤمنين

هلّا حين سمعتم - أيُّها المؤمنون والمؤمنات - هذا الإفك ممَّن أذاعوه؛ ظننتم بأهل مِلَّتكم: عائشة وصفوان رضي الله عنهما خيرًا وطُهرًا، وقلتم بلا تردُّدٍ ولا ريبٍ: هذا افتراءٌ واضحٌ مكشوفٌ لا نرضاه لِمَنْ هم كأنفسنا، ولا نوافق على نسبته إليهما[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

حُسنُ الظَّنِّ بأهلِ الإيمانِ نورٌ عظيمٌ

لم تُعطف هذه الآيةُ على سابقتها؛ لأنَّها جاءتِ استئنافًا ابتدائيًّا لتوبيخ عصبةِ الإفك من المؤمنين، وتعنيفهم[4]، قال الفخر الرّازيُّ: "واعْلَم أَنَّهُ سبحانه وتعالى لَمّا ذَكَرَ القِصَّةَ، وذَكَرَ حالَ المَقْذوفَيْنِ والقاذِفينَ؛ عَقَّبَها بِما يَليقُ بها من الآداب والزَّواجر، وهي أنواع؛ منها: كان الواجب على المؤمنين - إذا سَمِعوا قَوْلَ القاذِفِ - أَنْ يُكَذِّبوهُ، ويَشْتَغِلوا بِإِحْسانِ الظَّنِّ، ولا يُسْرِعوا إِلَى التُّهْمَةِ فيمَنْ عَرَفوا فيه الطَّهارَةَ"[5]، وعلى هذا فإنَّ هذه الآيةَ إنَّما جاءت مفصولةً عن سابقتها؛ لأنَّها تُمثِّل الإجراءَ الاحترازيَّ الأوَّل إزاء مكافحة الإشاعاتِ، وهذا الإجراءُ يتعلَّق بالإجراءات الدّاخليَّة القائمة على إحسانِ الظَّنِّ بمَنْ جاءَ النَّقل عنه من الأخبارِ الكاذبةِ.

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (بون).
(2) الرّاغب، المُفردات: (بين).
(3) مجموعةٌ من المؤلّفين، التّفسير الوسيط: 6/ 1377.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 173.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 340 - 341.

مِثْلُ تلك العُصبةِ جديرٌ بالذَّمِّ والزَّجرِ

معنى ﴿لَّوۡلَآ﴾:

﴿لَّوۡلَآ﴾ هنا حرف بمعنى (هلَّا) معناه الزَّجر والتَّوبيخ كما هو شأنها إذا وليها الفعل الماضي، وهو هنا ﴿ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[1]، وفيه عتاب للمؤمنين؛ لأنَّ منهم من سمع بالإفك فسكت، وفيهم من سمعه فتحدث به متعجباً من قائله، أو مستثبتاً في أمره، ومنهم من كذبه[2]، فأرشدهم اللّه تعالى إلى ما كان ينبغي أن يكون من المؤمن في مثل هذه الأحوال، من التَّثبُّت، وظنِّ الخير بإخوانه، وكفِّ لسانه عن أعراضهم.

معنى ﴿إِذۡ﴾:

﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ﴾ ظرفيَّةٌ زمانيَّةٌ بمعنى (حين)، والمعنى: هلّا حين سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيرًا.

غرضُ تقديمِ الظَّرفِ ﴿إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ﴾ على عامِلِه:

إنَّما حُسنُ الظَّنِّ بالمؤمنين عند سماعِ الخبرِ

ذهب ابن عاشور إلى أنَّ "تَقْديمَ الظَّرْفِ - وهوَ ﴿إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ﴾ - على عامِلِه، وهوَ - ﴿ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾ - جاء لِلاهْتِمامِ بِمَدْلولِ ذَلِكَ الظَّرْفِ تَنْبيهًا على أنَّهُم كانَ مِنْ واجِبهم أَنْ يَطْرُقَ ظَنُّ الخَيْرِ قُلوبَهُم بِمُجَرَّدِ سَماعِ الخبر، وأَن يتبرَّؤوا مِنَ الخَوْضِ فيه بِفَوْرِ سَماعِهِ"[3]، وفي تقديمه تنبيهٌ على ما يجبُ على العبد عند سماع الأخبار عمومًا، وعند سماع مِثْلِ خبر الإفكِ خصوصًا، مِنَ التَّريُّث والتَّثبُّت والتَّبيُّن؛ حتى لا تشيعَ الأخبارُ الكاذبةُ بين النّاس، فتهدمَ حيواتهم ومجتمعهم.

نكتةُ العدولِ في قولِه: ﴿ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾:

مِثْلُ هذه الافتراءاتِ ينبغي التَّشكُّكُ فيها ابتداءً

في الآية الكريمة التفاتٌ لطيف، فبدلًا من القول: (لولا إذ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 174.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 13/228.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 174.

سمعتموه؛ ظننتم بأنفسكم خيرًا، وقلتم)، اختار السّياق القرآني ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ﴾، وفي ذلك مبالغةٌ في التوبيخ بطريقة الالتفات، وتصريحٌ بلفظ الإيمان، دلالة على أنَّ الاشتراك فيه مُقتضٍ ألّا يُصدِّق مؤمنٌ على أخيه، ولا مؤمنةٌ على أختها قولَ غائبٍ، ولا طاعن، وفيه تنبيهٌ على أنَّ حقَّ المؤمن - إذا سمع قالةً في أخيه - أن يُبني الأمرُ على الظَّنِّ لا على اليقين، وأن يقول بملْءِ فيه بناءً على ظنِّهِ بالمؤمن الخير: هذا إِفْكٌ مُبينٌ[1].

نكتةُ إسنادِ السَّماعِ إلى الجميعِ:

في إسنادِ التَّحضيضِ إلى الجميعِ عنايةٌ بالأمرِ المُحضَّضِ عليه

أَسْنَدَ الخطابُ القرآنيُّ الحكيمُ السَّماعَ إلى جَميعِ المُخاطَبينَ، وخَصَّ بالتَّوْبيخِ مَنْ سَمِعوا، ولَم يُكَذِّبوا الخَبَرَ، وجَرَى الكَلامُ على الإبْهامِ في التَّوْبيخِ بطَريقَةِ التَّعْبيرِ بصيغَةِ الجَمعِ، وإنْ كانَ المَقْصودُ دونَ عَدَدِ الجَمعِ، فإنَّ مَنْ لَم يَظُنَّ خَيْرًا رَجُلانِ؛ فعَبَّرَ عَنْهُما بالمُؤْمنينَ، وقَوْلُهُ: ﴿بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا﴾ وقَعَ في مُقابَلَةِ ﴿ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾، فيَقْتَضي التَّوْزيعَ؛ أَيْ: ظَنَّ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُم بالآخَرينَ ممَّنْ رَمَوْا بالإفْكِ خَيْرًا؛ إذْ لا يَظُنُّ المَرْءُ بنَفْسِه، وهذا كقَوْلِه تعالَى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحُجُرات: 11]، أَيْ: يَلْمِزْ بَعْضُكُم بَعْضًا، وقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النّور: 61][2].

معنى(أل) في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾:

التَّعريفُ للعهدِ الذِّهنيِّ أو الاستغراقِ

أفاد التَّعريفُ في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾ العهدَ الذِّهنيَّ على معنى: ظنَّ المُتكلِّمون بالإفك في أمِّ المؤمنين ﵂ وصفوان خيرًا، والأفضل حملُها على الجنسيَّة الاستغراقيَّة؛ لتعمَّ المؤمنين والمؤمنات جميعًا؛ حيث إنَّ الأصل أن يُحسنوا الظَّنَّ بأنفسهم في كلِّ الأحوال.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 218.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 174.

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِأَنفُسِهِمۡ﴾:

إفادةُ تعديةِ فعلِ الظَّنِّ، والدّلالةُ غالبًا على الإلصاقِ

الباءُ في قوله: ﴿ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ﴾ لتعدية فعل الظَّنِّ إلى المفعول الثّاني؛ لأنَّه متعدٍّ هنا إلى واحدٍ هو في معنى الاتِّهام(1)، فضلًا عن دلالتها في غالب أحوالها على الملابسة والإلصاق، على معنى: (ظنّوا ظنًّا مُلابسًا لهم لا يُفارقهم خيرًا).

دلالةُ قوله: ﴿بِأَنفُسِهِمۡ﴾:

في سوءِ الظَّنِّ بأهلِ الإيمانِ هدمٌ لأواصرِ المجتمع

الأنفس هنا تُحتمل أن تكون أنفس الظّانّين حقيقةً؛ لأنَّ الإنسانَ لا يظنُّ بالنّاس إلّا بما هو متَّصفٌ به أو بإخوانه؛ لأنَّ المؤمنين كالجسد الواحد، أو ما يُظَنُّ بالرَّجل لو خلا بأمِّهِ، وبالمرأة إذا خلت بابنها، فإنَّ نساءَ النَّبي ﷺ أمَّهات المؤمنين، ويُحتمل أن تكون أنفس المظنون بهم على سبيل تنزيل أبناء جنسِ المؤمنينَ والمؤمنات في الآية منزلةَ أنفسِهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحجرات: 11]، فإذا جَرَى على أَحَدِهِم مَكْروهٌ؛ فكَأَنَّهُ جَرَى على جَميعِهِم(2).

نكتةُ تقديم شبه الجملة ﴿بِأَنفُسِهِمۡ﴾:

في حُسْنِ الظَّنِّ كلُّ خيرٍ للنَّفس

أصلُ التَّرتيب للجملة: (ظنَّ المؤمنون والمؤمنات خيرًا بأنفسهم)، ولكنَّ النَّظمَ الكريم جاء على خلاف ذلك، فتقدَّمت شبه الجملة على المفعول؛ لأنَّ المقام يتعلَّق بحفظ هذه النُّفوس من الظَّنِّ السَّيِّئ، وأنَّه ينبغي ألّا يظنَّ الواحدُ منهم بغيره، إلّا كما يُحبُّ ألّا يظنَّ بنفسه إلّا خيرًا، فمِن حقِّ نفوس الظّانّين أن يحفظَها أصحابُها مِن الوقوعِ في هذه المهالك، وكذلك مِن حقوق نفوس المظنون بهم عليهم أيضًا.

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾:

رُبَّ قولٍ يُهلكُ قائلَهُ أو يُفلحه

الواو في قوله: ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ عاطفةٌ، وهي لعطف توجيهٍ جديدٍ على التَّوجيه السّابق، يقول ابن عاشور: وعَطْفُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 174.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 341، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 5/ 243.

﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٌ مُّبِينٌ﴾ تَشْرِيعٌ لِوُجوبِ المُبادَرَةِ بإِنْكارِ ما يَسْمَعُهُ المُسْلِمُ مِنَ الطَّعْنِ في المُسْلِمِ بالقَوْلِ، كَما يُنْكِرُهُ بالظَّنِّ، وكَذَلِكَ تَغْيِيرُ المُنْكَرِ بالقَلْبِ واللِّسانِ[1]، وعطفُ هذا القول على جملة الظَّنِّ إرشادٌ إلى ضرورة وجود هذا القولِ، وأنَّه كأنَّه أمارةٌ على هذا الظَّنِّ.

غرضُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة:

حسن الظَّنِّ بالمؤمنين أمرٌ واجبٌ أبدًا

في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٌ مُّبِينٌ﴾ نُظمت جملةُ مقول قولهم: ﴿هَٰذَآ إِفۡكٌ مُّبِينٌ﴾ في صورة الاسميَّة الدّالَّةِ على الثُّبوت والاستقرار، على معنى أنَّ حسنَ الظَّنِّ بالمؤمنين وتكذيب الأخبار السَّيِّئة عنهم ينبغي أن يكون ديدنَكم وشأنَكم أبدَ الدَّهر، وفي الاسميَّة إشعارٌ بمطابقة القول للظَّنِّ، والظّاهر للباطن.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ القريبِ:

عبَّرتِ الآيةُ عن الإفك باسم الإشارة المُستعمل للقريب ﴿هَٰذَآ﴾؛ وذلك لقُرْبِه منهم وتداولهم إيّاه، فضلًا عن دلالة اسم الإشارةِ هنا على التَّحقيرِ والتَّقليل لشأن هذا الخبر الكاذب.

نكتةُ تنكيرِ ﴿إِفۡكٌ﴾:

أفاد تنكيرُ الإفكِ في قوله تعالى: ﴿هَٰذَآ إِفۡكٌ مُّبِينٌ﴾ التَّحقيرَ والنَّيل من شأنه، وأنَّه حريٌّ به ألّا يُنقل على الألسنة.

نكتةُ وصفِ الإفك بأنَّه ﴿مُّبِينٌ﴾:

كلُّ إفكٍ ينادي على نفسِه بأنَّه إفكٌ مبينٌ

في معنى ﴿إِفۡكٌ مُّبِينٌ﴾ يرى الفخر الرّازيُّ أن ذلك من وجهَيْن: "**الأَوَّلُ**: كَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَقولَ، لَكِنَّهُ يُخْبِرُ بِذَلِكَ عَنْ قَوْلِ القاذِفِ الَّذي لا يَسْتَنِدُ إِلَى أَمارَةٍ، ولا عَنْ حَقيقَةِ الشَّيْءِ الَّذي لا يَعْلَمُهُ، **والثّاني**: أَنَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 175.

ذَلِكَ واجِبٌ في أَمرِ عائِشَةَ؛ لِأَنَّ كَوْنَها زَوْجَةَ الرَّسولِ ﷺ المَعْصومِ عَنْ جَميعِ المُنَفِّراتِ كالدَّليلِ القاطِعِ في كَوْنِ ذَلِكَ كَذِبًا[1]، ومَعْنَى المُبِينِ الظّاهِرُ الوضوح مِنْ (أَبانَ) الَّذي هوَ بِمَعْنَى: بانَ، ولَيْسَ مِنْ أَبانَ الَّذي هَمزَتُهُ لِلتَّعْدِيَةِ".

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 341.

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ١٣﴾ [النور: 13]

التَّأكيدُ على ضرورةِ التَّثبُّتِ بالإشهادِ

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

هذا تحضيضٌ آخر، ولومٌ ظاهرٌ للمُتكلِّمين بالإفكِ على عدم تثبُّتهم ممّا تداولوه، ونقلوه بينهم، فالتَّأنيبُ الأوَّل مُتعلِّقٌ بأعمال القلوب في وجوب إحسان الظَّنِّ بأمِّ المؤمنين وبالمؤمنين عمومًا، وهذا متعلِّقٌ بوجوب التَّثبُّت والإشهاد.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شُهَدَآءَۚ﴾: (شهد) أَصلٌ يَدُلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإِعْلام، من ذَلِكَ الشَّهادَةُ، تجْمَعُ الأُصولَ الَّتي ذَكَرْناها من الحُضورِ والعِلْمِ والإعْلامِ، يُقالُ: شَهِدَ يَشْهَدُ شَهادَةً، والمَشْهَدُ: مَحْضَرُ النّاسِ[1]، والشُّهودُ والشَّهادَةُ: الحضور مع المشاهدة، إمّا بالبصر، أو بالبصيرة، والشَّهادَةُ: قولٌ صادرٌ عن علم حصلَ بمشاهدة بصيرة أو بصر[2]، والشَّهيد: مَن قُتِل مجاهدًا في سبيل الله؛ لأنَّ ملائكته شهودٌ له بالجنَّة، وقيل: لأنَّه حيٌّ لم يمُت كأنَّه شاهدٌ حاضرٌ ....، وقيل غير ذلك، فهو (فعيل) بمعنى (فاعل) أو (مفعول) على اختلاف التأويل[3].

اشترطتِ الآيةُ في الإفكِ ما اشترطَتْه في القذفِ؛ لأنَّ المؤدَّى واحدٌ

❁ المَعنى الإجماليُّ:

هلّا جاءَ أصحاب الإفك بأَربعة شهداءَ عدول يشهدون على ما زعموه في شأن عائشة رضي الله عنها، فحيث لم يأْتوا بالشهداءِ، فهم عند الله

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(2) الراغب، المفردات: (شهد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شهد).

وفي حُكْمه كاذبون، فكيف تُصدِّقونهم، وهم مخالفون لشريعة اللّه ومنافقون؟ ويجوز أن تكون الآيةُ ابتداءَ كلامٍ من اللّه تقريرًا لكون ذلك إفكًا، وليس حكايةً لما ينبغي أَن يقوله السامعون[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

التّـــدرُّجُ في الإرشـادِ مُحفِّزٌ لهدايةِ العبادِ

لم تُعطف الآية ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ﴾ على سابقتها؛ لأنَّها جاءتِ استئنافًا ثانيًا لتوبيخ عصبة الإفك من المؤمنين، وتعنيفهم[2]، وعلى هذا تمَّ فصلُها؛ لأنَّها تمثِّل الإجراء الاحترازيَّ الثّاني إزاء مكافحة الإشاعات، وهذا الإجراءُ يتعلَّق بالإجراءات الخارجيَّة القائمة على التَّثبُّت ممَّن جاء النَّقل عنه من الأخبار الكاذبة، يقول الزّمخشريّ: "وهذا توبيخٌ وتعنيف للذين سمعوا الإفك، فلم يجدوا في دَفْعه وإنكاره، والاحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوفٌ في الشَّرع، من وجوب تكذيب القاذف بغير بيِّنة، والتَّنكيل به؛ إذا قذف امرأة مُحصنة، فكيف بأمِّ المؤمنين زوجةِ رسول اللّه ﷺ؟"[3].

معنى ﴿لَّوۡلَا﴾:

تـضمَّـنَ معنى الزَّجرِ والتَّوبيخ

﴿لَّوۡلَا﴾: حرف حرفُ تحضيضٍ مُتضمِّن معنى الزَّجر والتَّوبيخ، مَعْناهُ: هَلّا؛ وذَلِكَ كَثيرٌ في اللُّغَةِ إِذا كانَ يَليه الفِعْل الماضي[4]، وفيه بيان كذب الآفكين، وتوبيخهم بما اختلقوه وأذاعوه من الإفك وأنَّهم لو كانوا صادقين لجاءوا بدليل صدقهم من الأربعة شهداء، كما تقدَّم أنَّ القذف لا يباح إلا بها[5].

(1) مجموعة من المؤلّفين، التّفسير الوسيط: 6/ 1377.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 173.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 219.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 341.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 13/230.

نكتةُ إسنادِ المجيءِ إلى الجميعِ:

أَسْنَدَ الذِّكرُ الحكيمُ المجيءَ إلى جَميعِ المُخاطَبين ﴿لَّوْلَا جَآءُو﴾، وخَصَّ بِالتَّوْبيخِ مَنْ نقلوا الخَبَرَ، وجَرَى الكَلامُ على الإبْهام في التَّوْبيخِ بِطَريقَةِ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ الجَمعِ، وإنْ كانَ المَقْصودُ دونَ عَدَدِ الجَمعِ، فإنَّ مَنْ تكلَّمَ بالخبر، أو نقله نفرٌ معدود؛ فعَبَّرَ عَنْهُم بضمير الجمعِ، وفي عموم الإسناد بيانُ أنَّ الذَّمَّ يعمُّ الجميعَ؛ لأنَّ الرِّضا بالشَّيء أو عن الشَّيء كقولِه وعملِه، وفي هذا كلُّ تنفيرٍ من مجرَّدِ الاقترابِ من الآثام.

كمالُ السُّكوتِ عنِ الحقِّ هو الرِّضا بالباطلِ

فائدةُ تعديةِ الجَعْل بـ(على):

يمكنُ أن يكون الفعلُ ﴿جَآءُو﴾ هنا مُضمَّنًا للفعل (استدلّوا)، أو (أشهدوا)، وحرفُ الاستعلاء مفيدٌ لإثبات شدَّة تمكُّن الشُّهداء من الخبر، وأنَّهم واقفون عليه، ومُحيطون به، ففي: (على) إرشاد إلى شدَّة الاحتياط وكماله في مثل هذا المقام، بأن يكونَ هذا الإفك قد ظهر ظهورًا بيِّنًا كاملًا تامًّا لأربعة شهداء.

من صفاتِ المُستقيمين الحَذَرُ والاحتياطُ

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة ﴿عَلَيْهِ﴾:

أفادَ تقديمُ شبهِ الجملة هنا العنايةَ بهذا الخبر، فالضَّمير عائدٌ إلى الإفكِ؛ إذ هو مناطُ الأمر، والحديثُ هنا قائمٌ عليه ومُتعلِّقٌ بالإجراءات التي كان يجب اتِّخاذها للحيلولة دون انتشارهِ، وفي تقديمه بيانُ أنَّه في نفسه شيءٌ خطيرٌ عظيمٌ يستحقُّ هذا الاحتياطَ الحاصل بمجيء أربعةِ شهداء مُتمكِّنين من رؤيته.

إفادةُ العنايةِ بهذا الخبرِ لخطَرِهِ وعِظَمِهِ

معنى الباءِ في قولِه: ﴿بِأَرْبَعَةِ﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ للتَّعدية والنَّقل، فضلًا عن إفادتها لغرض الملابسة والمصاحبة الذي لا يكادُ يفارقها في كلِّ أحوالها، والمعنى: أن تترافقَ الدَّعوى المقدَّمة مع دليلها، وإلّا كانت إفكًا وقذفًا يستوجب الحدَّ.

كلُّ دعوى بلا دليلٍ هي إفكٌ خالصٌ

نكتةُ التَّعيينِ للشُّهداءِ بهذا العددِ:

اشتراطُ الشُّهودِ إمعانٌ في حفظِ الأعراضِ

تحديدُ عدد الشَّهداءِ بأربعة إنَّما هو لما تقرَّر في بداية السّورة في أثناء الحديثِ عن حكم القذفِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤﴾ [النور: 4]، ونقلُ خبر الإفكِ ما هو إلّا صريحُ هذا القذف، وأقبحُ وجوهه؛ لأنَّه مُتعلِّقٌ بأمِّ المؤمنين، وزوج النَّبيِّ ﷺ وابنة الصِّدّيق.

نكتةُ حذفِ متعلّق الشَّهادة:

تـأدُّبُ الخطابِ الـقـرآنيِّ مع الـنَّبيِّ وزوجِـهِ وأبيها الصِّدّيق

يقول ابن عاشور: "وحُذِفَ مُتَعَلِّقُ الشَّهادَةِ لِظُهورِ أَنَّهُم شهداءُ على إِثْباتِ ما رَمَى به القاذِفُ، أَيْ: إِثْباتُ وُقوعِ الزِّنى بِحَقيقَتِهِ المُعْتَدِّ بها شَرْعًا، ومِنَ البَيِّنِ أَنَّ الشُّهَداءَ الأَرْبَعَةَ هُم غَيْرُ القاذِفِ؛ لِأَنَّ مَعْنَى: ﴿يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور: 4] لا يَتَحَقَّقُ فيما إِذا كانَ القاذِفُ مِنْ جُملَةِ الشُّهَداءِ"[(1)]، وفي الحذفِ تأدُّبٌ ولُطْفٌ مع السيدة عائشة رضي الله عنها، ومع زوجِها ﷺ، ومع أبيها أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

غرضُ تنكيرِ ﴿شُهَدَآءَ﴾:

الـشَّـهـادةُ في الـحـدودِ مقامٌ عظيمٌ

في الآية الكريمة أفاد تنكيرُ لفظ ﴿شُهَدَآءَ﴾ التَّعميمَ، ليشمل كلَّ مَنْ كان يصلح للشَّهادة ممَّن تُقبل شهادته، ويمكن على هذا المعنى أن يكون تنكيرُ الشُّهداء للتَّفخيم من شأنهم، أي: شهودٌ عُدولٌ ثقاتٌ.

بلاغةُ حذف جواب الشَّرط:

قد يكونُ الحذفُ أبلغَ من الذِّكْرِ

حُذِفَ جوابُ الشَّرط هنا؛ لأنَّه مُقدَّرٌ من السّياق، والتَّقدير: لدرؤوا عن أنفسهم عقوبةَ القذف، أو لنجَوا من الوعيد، وحُذِفَ جوابُ الشَّرط؛ لتذهبَ النَّفس في تقديره كلَّ مذهبٍ، ويمكن أن يكون في الحذف معنى العموم، فالمحذوفُ فيه معنى الصِّدق، ومعنى

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 158 - 159.

النَّجاة مِن العقاب، ومعنى الاستقامة، ومعنى الأمانة، ومعنى كمال الإيمان، إلى آخر ما يُمتدَحُ به الإنسان في مثل هذا المقام، وما أكثرَه!

معنى الفاءِ في قولِه: ﴿فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ عاطفةٌ، وهي في نفس الوقتِ تُفصح عن كلامٍ محذوفٍ قد يكون تقديره: وقد بحثوا عن هؤلاء الشُّهداء، فلم يجدوهم.

معنى (إذْ):

(إذْ) في قوله تعالى: ﴿فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ ظرفيَّة زمانيَّةٌ بمعنى (حين)، والمعنى: فهلّا جاؤوا عليه بأربعة شهداءَ حين سمعوه، فحين لم يأتوا بالشُّهداء، فهم كاذبون.

نكتةُ العدولِ من المجيءِ إلى الإتيان مع الشُّهداء:

مـنـاطُ الـحُـكـم غيابُ الشهداء مطلقًا

في قوله: ﴿فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾: عدولٌ عن فعل المجيء إلى الإيتاء؛ لأنَّ المجيء في الآية الأولى كان للدَّلالة على ضرورة حصولِ المجيء وتحقُّقه، وفيها إشارة إلى تحقُّق إرادة الشُّهود ورغبتهم بتقديم الشَّهادة دون إكراهٍ، واستعمالُ الإيتاء في الثّانية للدَّلالة على عدم تمكُّنهم من إحضار الشُّهود المتطوِّعين أو المُكرهين على تقديم الشَّهادة، فضلًا عن كون الإيتاءِ أعمَّ من المجيء في كونه لا يتوقَّف على قَبولِ أحدٍ، ولأنَّه يقتضي حصول الثَّبات والقرار، وهذا غير مُتعيِّنٍ في هذه الحالة.

الإتيانُ يُعبِّر عن الكاذبين؛ لأنَّه مجيءٌ بسهولةٍ

ثم هذا الحكم: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾: ثابتٌ لهم؛ إذا لم يوجد شهداء يأتون بهم أصلًا، وهذا ظاهرٌ، أو وُجد شهداء، ولكنَّهم سكتوا عنهم، وغطّوا عليهم، ومعنى الإتيانِ يُعبِّر عن ذلك؛ لأنَّه مجيءٌ بسهولة، فقد يكون هناك شهداءُ من السَّهل أن يأتيَ بهم هؤلاء المُدَّعون الإفكَ، فإذ لم يأتوا بهم؛ فأولئك عند الله هم الكاذبون.

نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلشُّهَدَآءِ﴾:

أفاد التَّعريفُ للفظ الشُّهداء هنا العهدَ الصَّريح؛ لتقدُّم ذِكرِهم، فهم الشُّهداء الأربعة الذين اشترطت وجودَهم السّورةُ الكريمة في أكثر من موضع.

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الفاءُ رابطةٌ لجواب الشَّرط المحذوفِ، وتقديرُ الكلام: فحين لم يأتوا بالشُّهداء، فحكمُهم حينئذٍ أنَّهم عند اللّه الكاذبون.

غرضُ التَّعبيرِ باسم الإشارة البعيد:

القائلون بمِثْل هـذا الإفـك مِن أشـدِّ الـنـاس بُعدًا عن الله

التَّعبيرُ باسم الإشارة المستعمل للبعيد (أولئك) إنَّما هو من باب إنزال البُعد في الدَّركة منزلةَ البُعد الحِسّيِّ؛ فالإشارة لهم بذلك لتماديهم وبُعدهم في الغَيِّ والباطل، فاسْمُ الإشارَةِ لِزيادَةِ تَمييزِهِم بهذه الصِّفَةِ لِيَحْذَرَ النّاسُ أمثالَهُم[1].

بلاغةُ القصرِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾:

من كمالِ الكذبِ القولُ بمِثْلِ هذا الإفكِ

اجتمعَتْ طريقتانِ من طُرُقِ القصر في فاصلة الآيةِ، وهما: تعريفُ طرفَيِ الإسناد، والمجيء بضمير الفصلِ بين المُسند والمُسند إليه، وهو من قصر الموصوفِ على الصِّفةِ، وهو قصر ادِّعائيٌّ، والغرض منه التَّأكيد على أنَّهم هم وحدهم دون غيرهم من يتَّصف بالكذب، فهم أكذبُ من كلِّ كاذبٍ، يقول ابن عاشور: وصيغَةُ الحَصْرِ في قَوْلِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ لِلْمُبالَغَةِ؛ كأنَّ كذبَهم لقوَّته وشناعته لا يُعَدُّ غيرُهم من الكاذبين كاذبًا، فكأنَّهم انحصرَتْ فيهم ماهيَّةُ الموصوفين بالكذب[2].

نكتةُ وصفِهم بالكذبِ مع احتمالِ صدقِهم:

في وصفِهم بالكذب مع احتمال صِدق الشُّهود في غير حالة أمِّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 176.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 176.

في الآيـةِ توجيهٌ لـلـمـؤمـنـين بـتـكـذيـبِ هـذا النَّوعِ من الأخبارِ

المؤمنين ههنا، تعليمٌ للمؤمنين بأنَّ الأصلَ في مثل هذه الأخبار أن تكونَ كيديَّةً كاذبةً، كما قال تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحُجُرات: 6]، فسَمَّى النّاقل فاسقًا ابتداءً، ولوصفهم بالكذب مع احتمال صدقهم في الآية الكريمة عند الرّازيِّ وجهان: "**الأَوَّلُ**: أَنَّ المُرادَ بِذَلِكَ الَّذينَ رَمَوْا عائِشَةَ خاصَّةً، وهُم كانوا عِنْدَ اللّه كاذِبينَ، **والثّاني**: المُرادُ فأولَئِكَ عِنْدَ اللّه في حُكْمِ الكاذِبينَ، فإنَّ الكاذِبَ يَجِبُ زَجْرُهُ عَنِ الكَذِبِ، والقاذِفُ إنْ لَم يَأْتِ بِالشُّهودِ؛ فإنَّهُ يَجِبُ زَجْرُهُ، فلَمّا كانَ شَأْنُهُ شَأْنَ الكاذِبِ في الزَّجْرِ؛ لا جَرَمَ أُطْلِقَ عليه لفظُ الكاذب مجازًا"(1).

فائدةُ التَّقديم والتَّقييد ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾:

ميزانُ اللهِ هو وحده الميزانُ الذي يُقاسُ عليه

أفاد تقديمُ شبهِ الجملة هنا التَّخصيصَ على معنى: عند اللّه لا عند غيره، وفي هذا وعيدٌ لهم على كذبهم، ويمكنُ ألّا يكونَ غرضُ التَّقديم هو التَّخصيص؛ لأنَّ هذا الكذب منبوذٌ عند اللّه وعند المؤمنين، فيكون غرضُ التَّقديم تعجيلَ ما يسوؤهم، يقول ابن عاشور: "والتَّقْييدُ بِقَوْلِه: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لِزيادَةِ تَحْقيقِ كَذِبهم، أَيْ: هوَ كَذِبٌ في عِلْمِ اللّه، فإنَّ عِلْمَ اللّه لا يَكونُ إلّا موافِقًا لِنَفْسِ الأَمرِ، ولَيْسَ المُرادُ ما ذَكَرَهُ كَثيرٌ مِنَ المُفَسِّرينَ أَنَّ مَعْنَى ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: في شَرْعِه؛ لأَنَّ ذَلِكَ يُصَيِّرُهُ قَيْدًا لِلاحْتِرازِ، فيَصيرُ المَعْنَى: هُمُ الكاذِبونَ في إِجْراءِ أَحْكامِ الشَّريعَةِ، وهَذا يُنافي غَرَضَ الكَلامِ، ويُجافي ما اقْتَرَنَ به مِنْ تَأْكيدِ وَصْفِهِم بِالكَذِبِ"(2).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المجيء والإيتاء:

أصلُ الإيتاءِ يدلُّ على مَجيءِ الشَّيْءِ وإِصْحابه وطاعَتِه، والأَتْوُ:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 342.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 176.

المجيءُ أعمُّ من الإتيانِ؛ لأنَّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولةٍ

الاستقامةُ في السَّير والسُّرْعةِ، والإيتاءُ: الإِعْطاءُ[1]، واشتهرَ الإيتاءُ في معنى الإعطاءِ، وأصلهُ الإحْضارُ[2]، والإيتاءُ قد يكونُ واجبًا، وقد يكونُ تَفَضُّلًا[3]، يقول الرّاغب: "والمجيء كالإتيان، لكنَّ المجيء أعمُّ؛ لأنَّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولة، والإتيان قد يُقال باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصولُ، والمجيءُ يُقال اعتبارًا بالحصول، ويُقال: جاءَ في الأعيان والمعاني، ولِما يكون مجيئُهُ بذاته وبأمره، ولِمَن قصد مكانًا أو عملًا أو زمانًا، قال الله ﷻ: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [يس: 20]"[4].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أتو).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أتى).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (عطو).
(4) الرّاغب، المُفردات: (جاء).

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٤﴾ [النور: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

يمتنُّ الله تعالى على المؤمنين بتوبتِه عليهم ممّا خاضوا فيه من حديثِ الإفكِ

جاءت هذه الآيةُ بعد أن تقدَّمها عرضُ الوسائل الوقائيَّةِ الَّتي من شأنها أن تُقلِّل من شأن هذه الإشاعات، والتَّكلُّم بأعراض المؤمنين، وهي امتنانٌ من اللّه عليهم، بأنَّه لولا فضلُهُ ورحمتُهُ لهم؛ للحقهم العذابُ العاجل فضلًا عن الآجل، جرّاء ما وقعوا فيه، ومثلُ هذا التَّعقيبِ والمنِّ عليهم تكرَّر في السّورة الكريمةِ، يقول البقاعيُّ: "ولمّا بيَّن لهم بإقامة الدَّليل على كذب الخائضين في هذا الكلام أنَّهم استحقّوا الملام، وكان ذلك مُرغِّبًا لأهل التَّقوى؛ بيَّن أنَّهم استحقّوا بالتَّقصير في الإنكار عمومَ الانتقام في سياقٍ مبشِّرٍ بالعفو"(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾: (فضل) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على زيادَةٍ في شَيْءٍ، مِنْ ذَلِكَ الفَضْلُ: الزِّيادَةُ والخَيْرُ، والإِفْضالُ: الإِحْسانُ، ورَجُلٌ مُفْضِلٌ، ويُقالُ: فضَلَ الشَّيْءُ يَفْضُلُ، وأمّا المُتَفَضِّلُ؛ فالمُدَّعي لِلْفَضْلِ على أَضْرابه وأَقْرانِه، ويُقالُ: المُتَفَضِّلُ: المُتَوَشِّحُ بِثَوْبه، ويَقولونَ: الفُضُلُ: الَّذي عليه قَميصٌ ورِداءٌ، ولَيْسَ عليه إِزارٌ ولا سَراويلُ(2)، والفضل المقصود في الآية هو الإحسانُ.

2) ﴿أَفَضۡتُمۡ﴾: (فيض) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيْءِ بِسُهولَةٍ، ثُمَّ يُقاسُ عليه، مِنْ ذَلِكَ: فاضَ الماءُ يَفيضُ، وأَفاضَ إِناءَهُ: مَلَأَهُ حَتَّى فاضَ، وأَفاضَ دُموعَهُ، وأَفاضَ القَوْمُ في الحَديثِ:

(1) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 13/ 230.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).

انْدَفَعوا فيه، قالَ سُبْحانَهُ: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [يونس: 61][1]، ورجل فيّاضٌ: سخيٌّ، ومنه استُعير: أَفاضوا في الحديث؛ إذا خاضوا فيه، وهو المعنى المُرادُ في الآية الكريمة[2].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

يخاطب اللّهُ تعالى مَن خاضوا في هذا الحديثِ المُحرَّم، بأنَّه لولا فضلُهُ عليهم ورحمته بهم في الدُّنيا بإعطائهم فرصةً للتَّوبة، وفي الآخرة بقبول توبتهم، لولا ذلك؛ لنزل بهم بسبب ما أفاضوا فيه من حديث الإفك عذابٌ عظيمٌ، لا يعلم مقدار ألمه وشدَّته إلّا اللّهُ ﷻ[3].

يدُ الفضلِ والرَّحمةِ هي النّورُ في مثل هذا المقامِ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى تصديرِ الآية بالواو:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ عاطفةٌ ما بعدها على قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾[4]، و(لولا) هنا حرفُ امتناع لوجود، بيَّنت أنَّهم استحقُّوا العقاب بفعلهم، لكنَّ اللّه تفضَّل عليهم بقبول توبة من تاب، والعفو عمّن أخطأ.

تفضل الله تعالى على عباده حتى بعد وقوعهم في ما نهي عنه

نكتةُ التَّعبيرِ بحرف الاستعلاء (على):

في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾، أفاد التَّعبيرُ بتعدية الفضل والرَّحمة بحرف الجرِّ (على) تسلُّطَ هذا الفضل والرَّحمة عليهم من كلِّ مكان بحيث غطَّتهم وغمرتهم من فوقهم.

نكتةُ تقديمِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وتوسيطها:

أفادَ تقديمُ شبه الجملة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ تخصيصَ المقصودين في الآية بهذا الفضل، والعنايةَ بهم بهذه الرَّحمة.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فيض).
(2) الرّاغب، المُفرَدات: (فيض).
(3) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 10/ 97.
(4) البقاعيّ، نظم الدرر: 5/ 243.

نكتةُ الإضافةِ ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾:

رفْـعٌ لشأنِ هذا الـفـضـلِ وهـذه الرَّحمةِ

في قوله ﷻ: ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ جاءتْ إضافةُ الفضل إلى لفظ الجلالة، وإضافةُ الرَّحمةِ إلى الضَّمير العائدِ إلى لفظ الجلالة، والذي جيء به إيجازًا لتقدُّم ذِكْر لفظ الجلالة في ذلك كلِّه رفْعًا لشأن هذا الفضل وهذه الرَّحمة، وأنَّهما ليسا كأيِّ فضلٍ ورحمة.

نكتةُ ذِكْر ظرفيَّةِ الفضل والرَّحمة:

الإفكُ يستوجبُ العذابَ الدُّنيويَّ والأُخرويَّ

في ذِكْر لفظَي الدُّنيا والآخرة إشارة إلى أنَّ هذا الإفكَ يستوجب نوعَيْن من العذاب، "والفَضْلُ في الدُّنْيا يَتَعَيَّنُ أنَّهُ إسْقاطُ عُقوبَةِ الحَدِّ عَنْهُم بِعَفْوِ عائِشَةَ وصَفْوانَ عَنْهُم، وفي الآخِرَةِ إسْقاطُ العِقابِ عَنْهُم بالتَّوْبَةِ، والخِطابُ لِلْمُؤْمِنينَ دونَ رَأْسِ المُنافِقينَ، وهَذِهِ الآيَةُ تُؤَيِّدُ ما عليه الأكْثَرُ أنَّ النبيَّ ﷺ لَم يَحُدَّ حَدَّ القَذْفِ أحَدًا مِنَ الَّذينَ تَكَلَّموا في الإفْكِ، إمّا لِعَفْوِ عائِشَةَ وصَفْوانَ، وإمّا لِأنَّ كَلامَهُم في الإفْكِ كانَ تَخافُتًا وسِرارًا، ولَم يَجْهَروا به، ولَكِنَّهُم أشاعوهُ في أوْساطِهِم ومَجالِسِهِم"[1]، ففي التَّقييد بالمذكورِ كنايةٌ عن عِظَم هذا الإفْك، وعِظَم العقاب عليه، وعِظَم التَّوبة عنه.

معنى(أل) في ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

أفاد التَّعريفُ في ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ العهدَ الذِّهنيَّ، فهي الدُّنيا التي نحياها، والآخرة التي نرجوها.

نكتةُ التقديمِ في ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

في تقديم الجزاء الدُّنيويِّ على الأخرويِّ إشارةٌ إلى ضرورة تطبيق الحدود في الدُّنيا؛ لأنَّ في تطبيقها إظهارًا لشعائر اللَّه، فضلًا عن أنَّ فيها تخفيفًا أو إعفاءً من عذاب الآخرة لِمَنْ أُقيم عليه الحَدُّ في الدُّنيا.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 176 - 177.

بلاغةُ الطِّباق في ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

في ذِكْرِ الدُّنيا والآخرةِ طباقُ إيجابٍ، حيث إنَّ اللَّفظتَيْن متقابلتان، وفي القَرْن بينهما تحريكٌ للنَّفس للتَّفكُّر في كلٍّ منهما في نور الآخر، فيتمكَّن التَّرهيب في النَّفس، والتَّرغيبُ أيضًا، ففي الطِّباق إحسانٌ إلى المعنى القرآنيِّ والمتلقي جميعًا.

عموم الفضل سارٍ في جميع الأطوار

معنى قوله تعالى: ﴿لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ﴾ للتَّوكيد، وهي اللّام الواقعة في جواب ﴿وَلَوۡلَا﴾[1]، وأفاد حرف ﴿فِي﴾ التَّعليلَ في قوله: ﴿فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ﴾، أيْ: بسبب ما خُضتم فيه من حديث الإفك، وفي التَّعبير بـ ﴿فِي﴾ إشعارٌ بعِظَم تسبُّب ما خاضوا فيه في أن يَمَسَّهُم عذابٌ عظيمٌ، فقد استغرقوا في هذا السَّبب، وتمكَّن هو فيهم، وأحاط بهم، وأقبلوا هم بكليَّاتهم عليه، فلهذا كان عذابهم عظيمًا، و﴿مَآ﴾ اسم موصول، وهو عبارةٌ عن حديث الإفك، ويصحُّ أن تكون ﴿مَآ﴾ مصدريَّةً على معنى: لَمَسَّكم بسبب إفاضتكم وخوضِكم في الإفك[2]، والإبهام في ﴿مَآ﴾ لتهويل أمره واستهجانِ ذِكْره[3].

ما تناقلَهُ الأفّاكون عظيمٌ يستوجبُ عقوبةً عُظمى

بلاغةُ الاستعارة ﴿أَفَضۡتُمۡ فِيهِ﴾:

شبَّهتِ الآيةُ الكريمةُ الخوضَ في حديث الإفكِ والإسراف فيه بالإفاضةِ التي تكون من صفات الماء؛ إذا فاض، وذلك بجامع تجاوُزِ الحَدِّ على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، وفي هذه الاستعارةِ كلُّ ذمٍّ وتوبيخٍ وتقبيحٍ للمُحدَّث عنهم؛ لأنَّها تعني عدم حصولِ التَّفكير والتَّأنّي منهم، وأنَّ أنفسهم رضيت بالإقبال على

مَن رضيَ بالمخالفةِ أقبَلَ عليها بقوّةٍ

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 577.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 577.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 315.

تلك الشَّهوة والجريمة، فاندفعت إليها، ولاكتها بألسنتها، وما كان لها أن يكون منها ذلك.

نكتةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيَّة المجازيَّة ﴿فِيهِ﴾:

لـلظَّـلامِ بُنيانٌ سرعان ما ينهدمُ

شبَّهتِ الآيةُ الكريمةُ حديثَ الإفكِ بالظَّرف الذي يضمُّ أشياء بداخلِه، بجامع أنَّ كلًّا منهما له حيِّزٌ وحدودٌ، فحذَفَ المُشبَّهَ، وأبقى على شيءٍ من لوازمهِ على سبيل الاستعارة المكنيَّة، وهذا أبلغُ في تصوير حديث الإفك على أنَّه بنيانٌ كاملٌ، يقوم على بنائهِ وتهيئته نفرٌ من المنافقين الذين يتربَّصون بالأُمَّة، والذين يسعون في عمارتهِ، كما سعَوا في إقامة مسجد الضِّرار.

غرضُ تقديم ﴿فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ﴾:

أوَّلُ مـراحـلِ العـلاجِ معرفةُ الدّاءِ وقَدْرِه

أصلُ الجملة في الآية: لمسَّكم عذابٌ عظيمٌ فيما أفضتم فيه، ولكنَّ تقديم شبه الجملة الظَّرفيَّة أفاد تقديمَ السَّبب على النَّتيجة، والعلَّة على المعلول، وفي هذا التَّقديم نعيٌ على هذا الإفكِ وعلى القائمين عليه، وفيه التَّهويلُ والتَّفخيم مِن شأنه، وأنَّ مِن شأن مثله أن يستوجب عذابًا عظيمًا.

نكتةُ تنكير ﴿عَذَابٌ﴾:

أيُّ عـذابٍ يكونُ إذا لم يكن فضلُ اللهِ ورحمتُه؟

تنكيرُ الفاعل المُؤخَّر ﴿عَذَابٌ﴾ هنا أفاد التَّعظيمَ، أيْ: عذابٌ لا يُدرك كنهُهُ، ويمكن أن يكون التَّنكيرُ للنَّوعية، على معنى: أنَّه ليس كأيِّ عذابٍ تعرفونه، يقول ابن عاشور: "وَصْفُ العَذابِ بِالعَظِيمِ دَلِيلٌ على أَنَّ تَنْكِيرَ ﴿عَذَابٌ﴾ لِلنَّوْعِيَّةِ، وذَلِكَ اهْتِمامٌ بِالتَّنْصِيص على عِظَمِهِ؛ لِأَنَّ التَّنْكِيرَ، وإِنْ كانَ صالِحًا لِلدَّلالَةِ على التَّعْظِيمِ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ بِنَصٍّ فيه، ولا يَجوزُ أَنْ يَكونَ ﴿عَظِيمٌ﴾ تَأْكِيدًا؛ لِما يُفِيدُهُ التَّنْكِيرُ مِنَ التَّعْظِيم؛ لِأَنَّ دَلالَةَ التَّنْكِيرِ على التَّعْظِيم غَيْرُ وضْعيَّة، والمَدْلولاتُ غَيْرُ الوَضْعيَّةِ يُسْتَغْنَى عَنْها إِذا ورَدَ ما يَدُلُّ عليها وضْعًا، فلا يُعَدُّ تَأْكِيدًا"[1].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 258.

فائدةُ وصف العذاب بالعِظَمِ:

في وصفِ العذابِ المُنكَّرِ بالعِظَم مزيدٌ من التَّفخيم والتَّعظيم لشأنه؛ ليتناسبَ مع هذا الإثم الذي تولّاه صاحبه، وفي هذا مزيدٌ من الوعيد له، والعذابُ العظيمُ هو عذابُ الآخرة، وممّا لا يخفى أنَّ بناء ﴿عَظِيمٌ﴾ على زنة (فعيل) يدلُّ على ثبوت هذه الصِّفة وملازمتها للعذاب، والوصفُ ساكن في تنكير ﴿عَذَابٌ﴾ وأفصح به؛ لمواجهة الغفلةِ العظيمة التي قام فيها المخاطَبون، ويقوم فيها أمثالُهم.

أيَّةُ غفلةٍ أحاطت بِمَن جاؤوا بالإفكِ؟

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المَسُّ والإصابةُ:

ثمَّةَ فروقٌ بين المَسِّ والإصابة، فالمسُّ يكون الإدراك معه بحاسَّة اللَّمس، ويكنّى به أحيانًا عن النِّكاح والجنون والأذى[1].

الاشتراكُ في المباشرة والملامسةِ، و(الإصابة) أبلغُ في تغلغُلِها من (المسِّ)

أمّا الإصابة؛ فأصلُ جذرها (صوب)، ويدلُّ على نزول شيء واستقراره[2]، و(الصَّواب) عند الرّاغب على وجهَيْن، **أحدهما**: باعتبار الشَّيء في نفسه، فيُقال: هذا صوابٌ، إذا كان في نفسه محمودًا بحسب مقتضى الشَّرع والعقل، و**الثّاني**: يُقال باعتبار القاصد؛ إذا أدرك المقصود بحسب ما يقصده، فيُقال: أصاب كذا؛ إذا وجد ما طلب[3].

وقد دلَّ الاستعمال اللُّغوي والقرآنيُّ لهاتَيْن اللَّفظتَيْن على اشتراكهما في المباشرة والملامسة لِمَنْ وقع فعلهما عليه، مع تمكُّن (الإصابة) وتغلغلها على وجهٍ أبلغَ من (المسِّ)؛ لذا فإنَّ في استعمال إبراهيمَ عليه السلام للمسِّ في حواره مع أبيه نوعًا من المؤانسة والترغيبِ في دعوة أبيهِ لدينه، لا يسدُّ مسدَّها أن يقول له: (يصيبك عذاب من

(1) الراغب، المفردات، ص: 354.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، ص: 579.
(3) الراغب، المفردات، ص: 216.

الرحمن)، والتَّعبيرُ بالمَسِّ في آية النّور فيه تهديدٌ شديدٌ ولطف بهم أيضًا، فإنَّ القرآن ذكَر أدنى صور الجزاء، وهو أن يمسَّهم عذابٌ عظيم؛ تناسبًا مع ذِكْر رحمة اللّه وفضله في السّياق.

أفضتم وخضتم:

الكلمتان مُستعارتان للتَّعبيرِ عن الحديث فيما لا ينبغي الحديث فيه

الخَوْضُ: هو الشُّروع في الماء والمرور فيه، ويُستعار في الأمور، وأكثرُ ما ورد في القرآن ورد فيما يُذمُّ الشُّروع فيه، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ﴾ [التوبة: 65]، فكثيرًا ما كان يأتي الخوضُ مقترنًا مع اللَّعب في الحديث عن المنافقين والكافرين، وهم يخوضون في آياتِ اللّه، وأمّا الإفاضةُ؛ فقد تقدَّم أنَّه استُعير لفظُ الإفاضة للخوضِ في الحديث، فالكلمتان مُستعارتان للتَّعبير عن الحديث فيما لا ينبغي الحديث فيه، ولكنَّ الخوضَ هو مُجرَّد الشُّروع في الحديث، والإفاضة أبلغُ في الشُّروع؛ لذا جاء في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [الأحقاف: 8][1].

(1) الرّاغب، المُفردات: (خوض).

﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥﴾ [النور: 15]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تبيينٌ لما سبق عن الإفاضةِ في حديثِ الإفك

هذه الآية مُتَّصلةٌ تمامَ الاتِّصال بالآية السّابقة؛ إذ إنَّها تُبيِّن هذه الإفاضةَ التي جرت منهم في شأن حديث الإفكِ، حيث كانوا كأنَّهم يتلقَّون الخبرَ بألسنتهم بدلًا من آذانهم، وفي هذا دلالةٌ على سرعة تناقلِهم بالخبر قبل أن يستقرَّ في آذانهم، وأن يُعرض على قلوبهم دون أن يُدركوا مدى خطورة هذا الكلام الذي يتناقلونه، وأثره على المجتمع المسلم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَلَقَّوۡنَهُۥ﴾: (لقو، لقي) أُصولٌ ثَلاثَةٌ: أَحَدُها يَدُلُّ على عِوَجٍ، والثاني يدلُّ على تَوافي شَيْئَيْنِ، والثالث يدلُّ على طَرْحِ شَيْءٍ، ولَقيتُه لَقْوَةً، والجَمعُ: لُقًى، والأَصْلُ الآخَرُ: أَلْقَيْتُهُ: نَبَذْتُهُ إِلْقاءً، والشَّيْءُ الطَّريحُ: لَقًى[1]، واللِّقاءُ: مقابلةُ الشَّيء ومصادفته معًا، وقد يُعبَّر به عن كلِّ واحدٍ منهما، يُقال: لَقيَهُ يَلْقاهُ لِقاءً ولُقيًّا ولُقْيَةً، ويُقال ذلك في الإدراك بالحسِّ، وبالبصر، وبالبصيرة، والإِلْقاءُ: طرحُ الشَّيء حيث تلقاه، أيِّ: تراه، ثم صار في التَّعارف اسمًا لكلِّ طرحٍ[2]، والمُراد هنا: تطرحونه بألسنتِكم.

2) ﴿بِأَلۡسِنَتِكُمۡ﴾: (لسن) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ، يَدُلُّ على طولٍ لَطيفٍ غَيْرِ بائِنٍ، في عُضْوٍ أَوْ غَيْرِهِ، مِنْ ذَلِكَ اللِّسانُ مَعْروفٌ، وهوَ مُذَكَّرٌ، والجَمعُ: أَلْسُنٌ، فإِذا كَثُرَ؛ فهيَ الأَلْسِنَةُ، ولَسَنْتُهُ: أَخَذْتَهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(2) الراغب، المفردات: (لقي).

بِلِسانِكَ(1)، والمعنى المحوريُّ لهذه المادَّة: سَحْبُ الشَّيء إلى الدّاخل بلُطفٍ وقوَّةٍ: كما يَسحب اللِّسانُ الطَّعامَ، وأُطلق اللِّسان على اللُّغة؛ لأنَّه أبرز آلاتها، كاللِسن بالكسر ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 4](2).

3) ﴿بِأَفۡوَاهِكُم﴾: (فوه) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على تَفَتُّح في شَيْءٍ، مِنْ ذَلِكَ الفَوَهُ: سَعَةُ الفَم، رَجُلٌ أَفْوَهُ وامرَأَةٌ فوهاءُ، ويَقول أَهْلُ العَرَبيَّة: إنَّ أَصْلَ الفَم فوَهٌ، وفاهَ الرَّجُلُ بالكَلام يَفوهُ به: لَفَظَ به، والمُفَوَّهُ: القادِرُ على الكَلام(3)، وقيل: إنَّ كلَّ موضع علَّق اللّه تعالى حكمَ القول فيه بالفَم؛ فإشارةٌ إلى الكذب، وتنبيهٌ على أنَّ الاعتقاد لا يُطابقه، نحو: ﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾ [الأحزاب: 4]، ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾ [التَّوبة: 8](4)، وعليه هذه الآية الكريمة.

4) ﴿هَيِّنًا﴾: (هون) أصلٌ يَدُلُّ على سُكونٍ أَوْ سَكينَةٍ أَوْ ذُلٍّ، مِنْ ذَلِكَ الهَوْنُ: السَّكينَةُ والوَقارُ، والهونُ: الهَوانُ، والهاوونُ لِلَّذي يُدَقُّ به عَرَبيٌّ صَحيحٌ، كَأَنَّهُ فاعولٌ مِنَ الهَوْنِ(5)، والهَوانُ على وجهَيْن: أحدهما: تذلُّل الإنسان في نفسِه لما لا تلحق بهِ غضاضةٌ، فيُمدح به نحو: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنًا﴾ [الفرقان: 63]، والثّاني: أن يكون من جهة مُتسلِّطٍ مستخفٍّ به، فيُذمُّ به، وعلى الثاني قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ [الأنعام: 93](6)، وقوله هنا: ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ يعني: سهلًا لا عقوبة في ترديده(7).

المَعْنى الإِجْماليُّ:

خاطب اللّه تعالى مَنْ خاضوا في حديث الإفك قائلًا: ولولا فضل اللّه ورحمته؛ لمسَّكم عذاب عظيم حين تتلقَّون هذا الإفك من ناقليه، بعد طلبكم بألسنتكم سماعَهُ، وتَرْوون بأفواهكم ما ليس لكم به علم، وإنَّما جاءَكم عن طريق السَّماع عن الآفكين، وتحسبون ترويجَ الكذب على أمِّ المؤمنين أمرًا سهلَ العاقبةِ، والحالُ أنَّهُ عند اللّه أمرٌ عظيم في إثمِه وسوء عاقبته، فالقدح

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لسن).
(2) جبل، المعجمُ الاشتقاقيّ المؤصّل: (لسن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فوه).
(4) الراغب، المفردات: (فوه).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هون).
(6) الراغب، المفردات: (هون).
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 162.

الخوضُ في الأَعراضِ إثمٌ كبيرٌ ليس بالهيِّن، والإثمُ أكبرُ لتعلُّقِه ببيتِ النُّبوَّة

في الأَعراض إثمٌ كبير، والإثم أكبر لتعلُّقه ببيت النبوَّة، ويصحُّ أَن يكون المعنى: "إِذ يتلقّاه بعضكم بألسنة بعضٍ آخر منكم، وتروون بأَفواهكم عنهم ما ليس لكم بصحَّته علمٌ، وكلا المَعنيَيْن جيدٌ"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصل الآيةِ عن سابقتها:

هذه الآيةُ مُتَّصلةٌ تمامَ الاتِّصال بالآية السّابقة؛ لذا لم تُعطف عليها، فقد جاءت مُفسِّرة لما ورد في قوله: ﴿أَفَضۡتُمۡ فِيهِ﴾، لذا قال ابن عاشور: ﴿إِذۡ﴾ ظرفٌ مُتعلِّقٌ بـ﴿أَفَضۡتُمۡ﴾؛ والمقصودُ منه ومن الجملة المضاف إليها استحضارُ صورة حديثهم في الإفك وبتفظيعها[2].

معنى ﴿إِذۡ﴾:

سريانُ حالٍ شنيعٍ استوجبَ زجرًا

بيَّنت كُتُبُ حروف المعاني أنَّ ﴿إِذۡ﴾ تأتي على أربعة أوجهٍ: فقد تكون اسمًا للزَّمن الماضي، وهنا يمكن أن تكون ظرفًا أو مفعولًا به أو بدلًا أو مضافًا إليه لاسم زمان، وقد تقع اسمًا للزَّمان المُستقبَل، ويمكن أن تأتيَ للتَّعليل أو المفاجأة[3]، ولا شكَّ أنَّها جاءتْ في الآية هنا إمّا ظرفًا للزَّمن الماضي على البدليَّة من ﴿أَفَضۡتُمۡ﴾، أو على المفعوليَّة لفعل محذوفٍ، تقديره: (اذكروا حين تلقّونه).

نكتةُ التَّعبير بالتَّلقّي مادَّةً وصيغةً:

قد يُزَيَّن القبيحُ للعبدِ حَسَنًا؛ فيُقبِل عليه بشدَّةٍ

في التَّعبير بالتَّلقّي دلالةٌ على التَّكَلُّفِ لِحُصولِه وتَطَلُّبه، وإنَّما يُتَكَلَّفُ، ويُتَطَلَّبُ لِقاءُ الأَمرِ المَحْبوبِ بِخِلافِ لاقَى، فلا يَدُلُّ على كَوْنِ المُلاقَى مَحْبوبًا، بَلْ تَقولُ: لاقى العدوَّ، واللِّقاءُ هو الحُضورُ نَحْوَ الآخر بِقَصْدٍ أَو بِغَيْرِ قَصْدٍ، وفي خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ[4]، فأفاد هذا التَّكَلُّف في

(1) مجموعة من المؤلِّفين، التَّفسير الوسيط: 6/ 1379.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 177.
(3) ابن هشام، مُغني اللَّبيب: 1/ 94 - 98.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 437.

الفعل شدَّة حرصِ بعضهم على تلقّي هذا الخبر لنقلهِ بين النّاس، والتَّعبيرُ بالفعل المضارع هنا مفيدٌ في استحضار صورةِ هذا التَّلقّي كأنَّه رأيُ عين أمام القارئ.

فائدة حذف التاء من (تتلقونه):

إشارةٌ إلى سرعةِ حصولِ معنى الفعلِ منهم

أَصْلُ ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾: (تَتَلَقَّوْنَهُ) بِتاءَيْنِ حُذِفَتْ إِحْداهُما، وفي حذف إحدى التّاءَيْنِ إشارةٌ إلى سرعة حصول معنى الفعل منهم، وهذا المعنى مؤسَّسٌ على معنى الفعل الذي يُستعمل في لقاء المحبوبِ، فهم لم يقبلوا هذا الكلام الفاحشَ الذي هو الإفكُ بحبٍّ ورضًا فقط؛ بل أسرعوا إليه إسراعًا، ويجوز أن يكون في حذف التّاء تعقيبٌ على معنى الفعل، أي: إنَّه مِن دواعي نقصِهم المعنويِّ الإيمانيِّ والنَّفسيِّ.

معنى الباءِ في ﴿بِأَلۡسِنَتِكُمۡ﴾ و﴿بِأَفۡوَاهِكُم﴾:

الباء هنا مُفيدةٌ للتَّعدية، فضلًا عن عدم انفكاكها عن معاني الملابسة والملازمة والإلصاق، فهذا الخبرُ لم يبرح ألسنتهم قيدَ أُنملة، وفي هذا كلُّ ذمٍّ وتقبيح لهم، وتشهير بهم.

بلاغةُ المجازِ ﴿تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ﴾:

كأنَّ العُصبة كانت في كمال استعدادٍ لما سيحدث

يقول ابن عاشور: في قَوْلِه: ﴿بِأَلۡسِنَتِكُمۡ﴾ "تَشْبيهُ الخبَرِ بشَخْص، وتَشْبيهُ الرّاوي لِلْخَبَرِ بِمَنْ يَتَهَيَّأُ، ويَسْتَعِدُّ لِلِقائِه، اسْتِعارَةٌ مَكْنِيَّةٌ، فجُعِلَتِ الأَلْسُنُ آلَةً لِلتَّلَقّي على طَرِيقَةٍ تَخْيِيلِيَّةٍ بِتَشْبيه الأَلْسُنِ في رِوايَةِ الخَبَرِ بالأَيْدي في تَناوُلِ الشَّيْءِ، وإنَّما جُعِلَتِ الأَلْسُنُ آلَةً لِلتَّلَقّي مَعَ أَنَّ تَلَقّيَ الأَخْبارِ بالأَسْماعِ؛ لِأَنَّهُ لَمّا كانَ هَذا التَّلَقّي غايَتُه التَّحَدُّثُ بالخَبَرِ؛ جُعِلَتِ الأَلْسُنُ مَكانَ الأَسْماعِ مَجازًا بِعَلاقَةِ الأَيْلولَةِ، وفيه تَعْرِيضٌ بِحِرْصِهم على تَلَقّي هَذا الخَبَرِ، فَهُم حينَ يَتَلَقَّوْنَهُ يُبادِرونَ بالإِخْبارِ به بِلا تَرَوٍّ ولا تَرَيُّثٍ، وهَذا تَعْرِيضٌ بِالتَّوْبِيخِ أَيْضًا"(1).

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 178.

نكتةُ إسناد التَّلقّي إلى الجميع:

أَسْنَدَ الذِّكرُ الحكيمُ التَّلقّي إلَى جَميعِ المُخاطَبينَ، وخَصَّ بِالتَّوْبيخ مَنْ نقلوا الخَبَرَ، وجَرَى الكَلامُ على الإِبْهامِ في التَّوْبيخِ بِطَريقةِ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ الجَمعِ، وإنْ كانَ المَقْصودُ دونَ عَدَدِ الجَمعِ؛ فإنَّ مَن تكلَّم بالخبر، أو نقله نفرٌ معدودٌ، فعَبَّرَ عَنْهُم بضمير الجمع[1].

بيانُ أنَّ مَن تكلَّم بالخبرِ أو نَقَلَه نفرٌ معدودٌ

دلالةُ عطفِ قولِه: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم﴾:

عطفَتِ الواو مضمونَ هذه الجملةِ على مضمون ما قبلها: ﴿تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ﴾؛ تكملةً لصورة حالهم مع خبر الإفكِ، فبين الجُملتَيْن توسُّطٌ بين الكمالَيْن، فهما خبريَّتان، والفاعل فيهما واحد، والتَّلقّي والألسنة والقول والأفواه مِن بابٍ واحد، فبينهنَّ شِبْهُ مراعاةٍ للنظير، فلهذا الخبر مع هؤلاء قصَّة، وهذه الجملة أحدُ أطرافها وأحداثها.

لم يكتفوا بالتَّلقّي، وإنَّما شاركوا بالقول أيضًا

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته:

قوله ﷻ: ﴿مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٌ﴾ وقعَ مفعولًا به لفعل القول[2]، وأفاد الاسمُ الموصول هنا معنى التَّعميم والتَّفظيع لما تناولوه بألسنتهم وأفواههم، وجاءت جملةُ صلة الموصول جملةً اسميَّة ﴿لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٌ﴾؛ للدَّلالة على ثبوت معناها، وأنَّهم لا يملكون أدنى علمٍ فيما يخوضونَ فيه، وهذا أدلُّ على ذمِّهم وتشويه صورتهم.

الدَّلالةُ على ذمِّهم وتشويه صورتهم

معنى اللّام في ﴿لَكُم﴾:

أفادتِ اللّام هنا معنى الاختصاص، أي: لا يوجد لكم أنتم على وجه الخصوصِ أدنى علمٍ فيما تتكلَّمون فيه، وأنَّ علمَ ذلك عند اللّٰه ﷻ، وليس عند غيره.

نكتةُ تقديم ﴿لَكُم﴾ و﴿بِهِۦ﴾ على اسم (ليس):

تقدَّم قولُه تعالى: ﴿لَكُم بِهِۦ﴾ على اسم ليس؛ لأنَّ الحديث إنَّما

لمّا وُجِّه الحديثُ إليهم؛ كان الأحرى أن يتقدَّموا بالذِّكرِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 178.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 577.

كان موجَّهًا لهم، وفيه زجرٌ وتنبيهٌ لهم، فكان الأحرى أن يتقدَّموا بالذِّكر، وتقديمُ شبه الجملة التي حوت ضميرًا عائدًا إلى الإفك ﴿بِهِۦ﴾؛ لأنَّ مدارَ الحديث عن الأحكام والتَّوجيهات المُتعلِّقة به.

لإفادةِ التَّقليلِ والتَّحقيرِ، أو للتَّعظيمِ

نكتةُ تنكيرِ ﴿عِلۡمٞ﴾:

أفاد تنكيرُ ﴿عِلۡمٞ﴾ هنا التَّقليلَ والتَّحقيرَ، على معنى: لا يوجد لديكم أدنى علمٍ مهما كان قليلًا، ويمكن أن يفيدَ التَّنكيرُ هنا معنى التَّعظيم على معنًى: أنَّه لا يوجد لديكم علمٌ عظيمٌ ناشئٌ عن دليلٍ قويٍّ يُؤهِّلكم للحديث فيما تتحدَّثون به.

تقديرُ الأشياء هو الحاكم في موقف العبد منها

معنى الواو في: ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا﴾:

الواو عاطفةٌ في قوله تعالى: ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا﴾ على ما تقدَّمها، يقول الآلوسي: "والجملتان الفعليَّتان ﴿وَتَقُولُونَ﴾ و﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ﴾ معطوفتان على جملة ﴿تَلَقَّوۡنَهُۥ﴾، داخلتان معها في حيّز ﴿إِذۡ﴾، فيكون قد علَّقَ مسَّ العذابِ العظيم بتلقّي الإفكِ بألسنتهم، والتحدُّث به من غير رويَّةٍ وفكرٍ، وحسبانُهم ذلك ممّا لا يُعبأ به، وهو عند اللّه ﷻ عظيمٌ"[1].

بيان مفعولَي (حسب):

يتعدّى الفعلُ (حسب) إلى مفعولَيْن، وهما: الضَّميرُ المُتَّصل في قوله: ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ﴾ والعائد إلى الإفك، والثّاني قوله: ﴿هَيِّنٗا﴾[2]؛ وهو صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، والتَّقدير: (شيئًا هيِّنًا).

معنى الواو في: ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾:

الواوُ هنا حاليَّةٌ، والجملةُ الاسميَّة بعدها في محلِّ نصبِ حالٌ، على معنى: وتحسبونه هيّنًا، والحالُ أنَّه أمرٌ عظيمٌ عند اللّه[3].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 316.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 577.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 577.

نكتةُ التَّقييدِ بقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾:

ميزانُ اللهِ لا يختلُّ أبدًا

لَمَّا كان قولُهُ: ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ قسيمًا في المعنى لقوله: ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا﴾: كان مِن البلاغة والتَّناسُب ذكرُ هذا القيدِ: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه الميزانُ المقابلُ لميزان العصبة في قوله: ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا﴾؛ فلمَّا كان هذا الحسبانُ خطأً محضًا؛ وجبَ تصحيحُهُ، والمصحِّحُ له هو الميزانُ الإلهيُّ؛ فلهذا ذُكِر هذا القيد، ولما كان هذا القيدُ هو جوهر جملتِهِ ومعقد معناه، فقد قُدِّم على ما بعدَهُ، وقد أفاد تقديمُ شبه الجملة ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ التَّخصيصَ على معنى: عند الله لا عند غيرِهِ، وفي هذا وعيدٌ لهم على كذبِهم، ويمكن أن يكونَ غرضُ التَّقديم تعجيلَ ما يسوؤهم.

فائدةُ وصفِ الحديث بالإفك بالعِظَم:

في وصف الإفكِ بالعِظَم مزيدٌ من التَّفخيم لشأنِهِ

في وصف الإفكِ بالعِظَم مزيدٌ من التَّفخيم والتَّعظيم لشأنه، ليتناسبَ مع هذا الإثم الذي تولّاه صاحبه، يقول ابن عاشور: "تَحۡسَبونَ الحَديثَ بِالقَذۡفِ أَمرًا هَيِّنًا، وإنَّما حَسِبوهُ هَيِّنًا؛ لِأَنَّهُمُ اسۡتَخَفّوا الغيبَةَ والطَّعۡنَ في النّاسِ؛ اسۡتِصۡحابًا لِما كانوا عليه في مُدَّةِ الجاهِلِيَّةِ؛ إذۡ لَم يَكُنۡ لَهُم وازِعٌ من الدّين يردعهم، فلِذَلِكَ هُم يَحۡذَرونَ النّاسَ، فلا يَعۡتَدونَ عليهم باليَدِ وبالسَّبِّ خَشۡيَةً مِنۡهُم، فإذا خَلَوۡا؛ أَمِنوا مِنۡ ذَلِكَ، فهَذا سَبَبُ حُسۡبانِهِمُ الحَديثَ في الإفۡكِ شَيۡئًا هَيِّنًا"[1].

في زنةِ (فعيل) دلالةٌ على ثبوت الصِّفة وملازمتها للإفك

وممّا لا يخفى أنَّ بناءَ ﴿عَظِيمٌ﴾ على زنة (فعيل) يدلُّ على ثبوتِ هذه الصِّفةِ وملازمتها للإفك، فـ﴿عَظِيمٌ﴾ هي صفةٌ لمحذوفٍ، تقديره: وهو عند الله أمرٌ عظيمٌ، ولا يخفى أثرُ التَّقابل بين ﴿هَيِّنٗا﴾ و﴿عَظِيمٌ﴾ في تمكُّن المعنى في النَّفس، عن طريق تحريك النَّفس لتأمُّل كلٍّ منهما في نورِ الآخر.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 178 - 179.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّلقّي والتَّلقُّف:

في التَّلقّي معنى الاستقبالِ، وفي التَّلقُّفِ معنى السُّرعةِ

يفرِّق الآلوسيُّ بين الفعلَيْن على هذا النَّحو، فيقول: "التَّلقّي والتَّلقُّف متقاربان في المعنى، إلّا أنَّ في التَّلقّي معنى الاستقبال، وفي التَّلقُّف معنى الخطف والأخذ بسرعة"[1]، ولذلك جاءت عدَّة مرّات في وصف عصا موسى عليه السلام: ﴿۞وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ١١٧﴾ [الأعراف: 117].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 315.

﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦﴾ [النور: 16]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد بيانِ فُحْشِ التَّناقُلِ لحديثِ الإفكِ؛ عطفَ على التَّأديبِ الأوَّلِ تأديبًا آخرَ

لمّا بيَّن ﷻ فُحْشَ التَّناقُل لحديث الإفك وفظاعتِهِ؛ عطف على التَّأديب الأوَّل في قوله: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ﴾ تأديبًا آخر، فقال: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ﴾، أيْ: وهلّا حين ﴿سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم﴾، أيْ: حين السَّماع من غير توقُّف ولا تلعثُم، وفصل بين آلة التَّحضيضِ والقول المُحضَّض عليه بالظَّرف؛ لأنَّ الظُّروف تنزلُ من الشَّيء منزلةَ نفسهِ لوقوعه فيها، وأنَّها لا انفكاك لها عنه، ولأنَّ ذِكْرَه مُنبِّهٌ على الاهتمام به لوجوب المبادرةِ إلى المُحضَّض عليه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بُهۡتَٰنٌ﴾: (بهت) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ كالدَّهَشِ والحَيْرَةِ، يُقالُ: بُهِتَ الرَّجُلُ يُبْهَتُ بَهْتًا، والبَهْتَةُ: الحَيْرَةُ، فأَمّا البُهْتانُ؛ فالكَذِب[2]، ومن هذا البُهْتان: الافتراءُ الباطلُ الذي يُتَحَيَّر من بطلانهِ، فهو الادِّعاء الذي يسبِّب ذلك الأثرَ، لزيادة الفُحش فيه مع كونه باطلًا لخلوِّه من الحقيقة[3]، ومعنى البهتانِ في الآية الكريمة: الكذبُ الذي يُبهِت سامعه لفظاعته[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كان حريًّا بمَن سمعوا حديثَ الإفكِ أن ينأوا بأنفسِهم عن هذا البهتانِ

هلّا حين سمعتم ما لا يليق في شأنِ الخيرَة؛ قلتم مع الظَّنِّ بهم خيرًا: لا ينبغي لنا، ولا يصحُّ أن نتكلَّم بهذا عن الأطهار البررة،

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 13/ 232.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بهت).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بهت).
(4) الراغب، المفردات: (بهت).

بدلًا من ترديدكم له بالرِّواية عن مُخترعيه، هلّا قلتم مُتعجِّبين ومُستكبرين لما يقولون: ﴿سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾، وكذبٌ مُحيِّرٌ خطيرٌ، لا يصحُّ أن يُقال في عرض كرام المؤمنين؟[1]

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ عطفِ الآية على سابقتها:

أيُّ نـورٍ وفضلٍ ورحمةٍ في عَرْضِ الدّاءِ ودوائِه؟!

عُطِفت هذه الآية على سابقتها: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ﴾؛ لأنَّها شاركتها في التَّوجيه والزَّجر لما بدر منهم، يقول البقاعيُّ: "ولمّا بيَّن فُحشَهُ وشناعته، وقُبحه وفظاعته؛ عطفَ على التَّأديب الأوَّل في قوله: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ﴾ تأديبًا ثانيًا، فقال: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ﴾، أيْ: وهلّا حين ﴿سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم﴾، أيْ: حين السَّماع من غير توقُّفٍ ولا تلعثم"[2].

في الآيةِ قصٌّ ما كان مِن العُصبةِ تجاه خبرِ الإفك

ويجوزُ أن تكون هذه الآيةُ معطوفةً على الآية التي قبلها: ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ﴾؛ لأنَّها تقُصُّ ما كان مِن العُصبةِ تجاه خبرِ الإفك بعدَ سماعِه، وكان القولُ بالأفواه لما ليس لهم به علمٌ وسطًا بين شيئَيْن: بينَ تمهيدٍ له: ﴿تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ﴾، وتعليقٍ عليه: ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾، وأمّا هذه الآية؛ فهي تُبيِّن ما كان ينبغي أن يُقالَ عند سماعِ خبرِ الإفكِ، فهي تصحيحٌ لما سبق في الآية التي قبلها، فبينَهما تقابلٌ وتضادٌّ.

غرضُ تقديم ﴿إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ﴾:

الاهْـتِـمـامُ بِـمَـدْلـولِ ذَلِـكَ الـظَّـرْفِ، وبيانُ قـبـحِ ذلـك وشناعتِه

جاء تَقْديمُ الظَّرْفِ - وهوَ ﴿إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ﴾ - على عاملِه وهوَ ﴿قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾؛ لِلاهْتِمامِ بِمَدْلولِ ذَلِكَ الظَّرْفِ؛ تَنْبيهًا على أَنَّهُم كانَ مِنْ واجِبهِم أَنْ يَطْرُقَ ظَنُّ الخَيْرِ قُلوبَهُم بِمُجَرَّدِ سَماعِ الخَبَرِ، وأَن يتبرَّؤوا من الخَوْضِ فيه بِفَوْرِ سَماعِهِ[3]، يقول الآلوسيُّ:

(1) مجموعة من المؤلّفين، التّفسير الوسيط: 6/ 1380.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 13/ 231.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 174.

"والنُّكتة في توسيط معمول الفعل المحضَّض عليه بينه وبين أداة التَّحضيض - وإن جاز ذلك مطلقًا، أيْ: سواءٌ كان المعمول الوسط ظرفًا أم غيره - تخصيصُ التَّحضيض بأوَّل وقت السَّماع، وقصرُ التَّوبيخ واللَّوم على تأخير الإتيان بالمحضَّض عليه عن ذلك الآن، والتَّردُّد فيه، ليفيد أنَّ عدم الإتيانِ به رأسًا في غاية ما يكون من القباحةِ والشَّناعة"[1]، وفيه أيضًا ما سبَق ذكرُه في نظيرِه.

نكتةُ إسنادِ السَّماعِ إلى الجميعِ:

جريانُ الكَلامِ على الإبْهامِ في التَّوْبيخِ

في قوله تعالى: ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ "أَسْنَدَ (الخطابُ القرآنيُّ الحكيم) السَّماعَ إلى جَميعِ المُخاطَبينَ، وخَصَّ بالتَّوبيخِ مَنْ سَمِعوا، ولَم يُكَذِّبوا الخَبَرَ، وجَرَى الكَلامُ على الإبْهام في التَّوْبيخِ بِطَريقَةِ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ الجَمعِ، وإنْ كانَ المَقْصودُ دونَ عَدَدِ الجَمعِ، فإنَّ مَنْ لَم يَظُنَّ خَيْرًا رَجُلانِ؛ فعَبَّرَ عَنْهُما بِالمُؤْمِنينَ"[2].

عودُ الضَّمير في ﴿سَمِعْتُمُوهُ﴾:

الضَّمير في قوله ﷻ: ﴿سَمِعْتُمُوهُ﴾ يعودُ إلى حديث الإفك الذي تكرَّر ذِكْرُه مُضمَرًا في الآيات التي تناولتِ الحديثَ عنه[3].

نكتةُ إعادةِ (لولا) وشرطها وجوابها:

زيـادةُ الاهتمامِ بـمـا تضمّنته الآيةُ من الأحكامِ

جاءت إعادةُ (لولا) وجوابها وشرطها لزيادة الاهتمام بمضمون الآية في التَّأكيد على ضرورة الاهتمام بالأحكام التي جاءتْ بها، وأنَّ الأمرَ برُمَّته كان يمكن تجنُّبُه ووقف سريانه لو أنَّه عولج عند أوَّل سماعِه.

نكتةُ حذفِ متعلِّق ﴿قُلْتُم﴾:

تقديرُ الكلامِ في الآية: (قلتم للَّذين أخبروكم هذا الخبر)،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 314.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 174.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 180.

للإيجازِ للعلمِ بـالمـحـذوفِ، أو للتَّعميمِ ليشملَ مَنْ نقلوا لهم الخبرَ

فالحذفُ للإيجازِ للعلم بالمحذوف، ويمكن أن يكونَ من أغراضِ الحذف هنا التَّعميمُ ليشمل مَنْ نقلوا لهم الخبر، ومَنْ كان حاضرًا عند نقله، وليشملهم هم أنفسهم بأن يقولوا لأنفسِهم أيضًا: (ما يكونُ لنا أن نتكلَّم بهذا).

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الكونِ المنفيِّ:

إنَّ اللهَ يُحِبُّ لعبادِه عظيمَ الطاعاتِ

التَّعبيرُ بفعل الكونِ المضارع المَنفيِّ في قوله: ﴿مَّا يَكُونُ﴾ يدلُّ على معنى: أنَّه ما كان ينبغي من أوَّلِ الأمر ولا في أيِّ وقتٍ أن نتكلَّم بهذا الإفك، فدخولُ فعلِ الكون أفاد أنَّ هذا الأمرَ ينبغي أن يكونَ شأنُه وديدنُه كذلك في كلِّ زمان، دون قصرِه على وقتٍ مُحدَّدٍ، يقول ابن عاشور: "وإنَّما قالَ: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾، دونَ أَنْ يَقولَ: (لَيْسَ لنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذا)؛ لِلتَّنْبيه على أَنَّ الكَلامَ في هَذا وكَيْنونَةَ الخَوْضِ فيه حَقيقٌ بِالِانْتِفاءِ، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالَى حِكايَةً عَنْ عيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: 116]"[1].

الموقعُ الإعرابيُّ لقوله: ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾:

المصدر المُؤوَّلُ من ﴿أَن﴾ والفعل في قوله سبحانه: ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ في محلِّ رفع فاعل (كان)؛ إن كانت تامَّةً، وفي محلِّ رفع اسمها؛ إن كانت ناقصةً، ويكون خبرها: ﴿لَنَآ﴾[2].

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِهَٰذَا﴾:

في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ جاءتِ الباءُ لتفيدَ الإلصاقَ والملابسة الذي لا يكاد ينفكُّ عن معنى الباء، فضلًا عن إفادتها تعديةَ الفعل هنا.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 180.

(2) صافي، الجدول في الإعراب: 9/ 240، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 581.

غرضُ التَّعبيرِ باسم الإشارةِ القريب:

التَّعبيرُ باسم الإشارة القريب في قوله تعالى: ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ دون التَّصريحِ بذِكْر الإفك أفاد التَّحقيرَ لشأن هذا الخبر الكاذب المُتعلِّق بأمِّ المؤمنين، والمشار به للقريب، فإنَّما هو لقرب التَّداول به وتناقله بينهم، فهذا الموضوع حاضرٌ بينهم، لا يغيب بسبب تعلُّقه بالبيت الأوَّل للمسلمين، وفي أخصِّ الأمور التي من شأنها أن تهدمَ كيانَهُ.

انتشارُ الخبرِ قد ينظر إلى غرابته

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لقوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾:

يقول ابن عاشور: "و﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ جُملَةُ إِنْشاءٍ وقَعَتْ مُعْتَرِضَةً بَيْنَ جُملَةِ: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾، وجُملَةِ: ﴿هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾، و﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ مَصْدَرٌ وقَعَ بَدَلًا مِنْ فِعْلِه، أَيْ: نُسَبِّحُ سُبْحانًا لَكَ، وهوَ هُنا مُسْتَعارٌ لِلتَّعَجُّبِ؛ لأنَّ التَّعَجُّب مُسْتَحيلَةٌ حَقيقَتُهُ على اللّه مِثْلَ ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾ [الصافات: 180]، يَتَعَيَّنُ أَنْ تكونَ مُسْتَعْمَلَةً في أكثر من التَّنْزيه، وذَلِكَ هوَ التَّعْجيبُ مِنَ الخَبَرِ المُتَحَدَّث به"(1)، فتكون الجملة ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ تقريرًا لما قبلها، وتمهيدًا لما بعدها(2)، وفي هذه الجملةِ أيضًا دلالةٌ على شدَّة نُفْرةِ النفس من هذا الإفك(3).

النَّفسُ السَّويَّةُ يشتدُّ نفورها من هذا الإفك

نكتةُ إضافةِ التَّسبيحِ إلى ضميرِ العَظَمَة:

وإِضافَةُ التَّسبيح إِلَى ضَميرِ الخِطاب مِنْ إِضافَةِ المَصْدَرِ إِلَى مَفْعولِه، وتَوْجيهُ الخِطابِ إِلَى اللّه في قَوْلِه: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ لِلْإِشْعارِ بِأَنَّ اللّه غاضِبٌ على مَنْ يَخوضُ في ذَلِكَ، فعليهم أَنْ يَتَوَجَّهوا للّه بالتَّوْبَةِ مِنْهُ لِمَنْ خاضوا فيه وبالِاحْتِرازِ مِنَ المُشارَكَةِ فيه لِمَنْ لَم يَخوضوا فيه(4)، وفي الإضافة تسليم الأمر وتفويضُه للّه ﷻ ومناجاة له بأن يدافع عن البريء، وينتقم من الظالم.

قد يكونُ المعنى الواحد قصَّةً من المعاني

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 10.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 99.

(3) البقاعي، نَظْم الدُّرر: 5/ 244.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/ 181.

نكتةُ فصل: ﴿هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾:

في الإفصاح كمالُ التبرئةِ

يمكنُ أن يكون سببُ فصلِ هذه الجملة كمالَ اتِّصالها بما سبقها؛ إذْ إنَّها جملةٌ تعليليَّة لقوله: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾، ويمكنُ أن يكونَ سببُ فصلها عنها الاستئنافَ البيانيَّ، وهو ما يُسمَّى بشِبْه كمال الاتِّصال؛ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ، فُهِم بعد قوله تعالى: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾، وتقديرُه: (لِمَ لا يكون لنا أن نتكلَّم به؟) وكونُه بهتانًا عظيمًا يلزم منه معنى قولِه: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ﴾، وهذه الجملة المنفيَّة - وكذلك الجملة المعترضة - تُنْتِج هذه الجملة: ﴿هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾، فبينها وبين ما قبلها كمالُ اتصالٍ، مِن نوع التَّوكيد المعنويِّ الخفيِّ، فلهذا غابت الواوُ.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ القريبِ:

كيف يُقذَفُ الشَّريفُ كاملُ ظهورِ الشَّرَفِ؟

التَّعبيرُ عن خبر الإفك بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ هو من قبيل التَّحقيرِ له، والتَّقليل من شأنه، وأنَّه لا يليق به أن يُذكر، وإنَّما يُشارُ إليه إشارةً، وفيه تنبيهٌ على أنَّ كون خبر الإفك بهتانًا عظيمًا واضحٌ قريبٌ إدراكُه كالمحسوسات؛ إذ إنَّه يتعلَّق بالصِّدّيقة بنت الصِّدّيق رضي الله عنهما زوجة خير المرسلين ﷺ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالبهتان مادَّةً وصيغةً:

الإنكارُ بصيغةِ المصدرِ إنكارٌ له بكلِّ صيغِهِ واشتقاقاته

عُبِّر بالبهتان؛ لبيان أنَّ خبرَ الإفك كذبٌ يُبْهِتُ مَن يواجَهُ به، ويُحيِّرُه؛ لشدَّةِ ما يَفعل في القوَى الباطِنَةِ؛ لأنَّه في غاية الغفلةِ عنه؛ لكونه أبعدَ الناسِ منه[1]، وأفاد التَّعبير بالمصدر هنا المبالغةَ في تكذيب هذا الخبر جملةً وتفصيلًا، والتَّصريحَ بكونه إفكًا مُفترًى لا أصل له، وأنَّ إنكاره بصيغة المصدر هو إنكارٌ له بكلِّ صيغِهِ واشتقاقاته، ولعلَّ هذا السَّببَ هو وراء مجيء (الإفك) بالمصدر في هذه السّورة على وجه الخصوص.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 244.

نكتةُ تنكيرِ ﴿بُهۡتَٰنٌ﴾:

إفادةُ التَّعظيم أو التَّحقير، أو الغرضيْن معًا

أفاد التَّنكيرُ هنا عدَّة معانٍ بحسب التَّوجيه لها، فقد يكون التَّنكيرُ هنا مفيدًا للتَّعظيم على اعتبار أنَّ الآيةَ وصفت هذا البهتانَ بالعِظم، ويمكن أن يكون غرض التَّنكيرِ هنا التَّحقيرَ لشأنه، والتَّقليل من أمره، ولا مانعَ يمنعُ من الجمع بين هذَيْن الغرضَيْن، فهو بهتانٌ عظيمٌ في دناءَتِهِ وغرضه الذي سيق لأجله.

فائدةُ وصفِ البهتان بالعِظَم:

بيانُ عَظَمةِ المبهوتِ عليه واستحالةِ صدقِ البُهتانِ، أو لتهويلِه وتفخيمِه

في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ وُصِفَ البهتان بالعظَم؛ لعظمة المبهوتِ عليه، واستحالة صدقِ البُهتان، فإنَّ حقارةَ الذُّنوب وعظمها باعتبار مُتعلِّقاتها، وفي وصفه به أيضًا تهويلُه وتفخيمُهُ؛ إبلاغًا في طرده من النَّفس[1]، وممّا لا يخفى أنَّ بناءَ ﴿عَظِيمٌ﴾ على زنةِ (فعيل) يدلُّ على ثبوت هذه الصِّفَةِ وملازمتها للبُهتان.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/ 244.

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٧ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٨﴾ [النور: 17 - 18]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

إرساء قاعدة مثلى في إغلاق باب الافتتان

بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ اللّٰه تَعالَى ما في خَبَرِ الإِفْكِ مِنْ تَبِعاتٍ لَحِقَ بِسَبَبِها - لِلَّذينِ جاؤوا به، والَّذينَ تَقَبَّلوهُ - عَديدُ التَّوْبيخِ والتَّهْديدِ، وافْتِضاحُ لِلَّذينِ رَوَّجوهُ، وخَيْبَةٌ مُخْتَلَقَةٌ بِنَقيضِ قَصْدِهِم، وانْتِفاعُ لِلْمُؤْمنينَ بذلك؛ أَعْقَبَ ذَلِكَ كُلَّهُ بِتَحْذيرِ المُؤْمنينَ من العَوْدِ إِلَى مِثْلِهِ مِنَ المُجازَفَةِ في التَّلَقّي، ومِنَ الانْدِفاعِ وراءَ كُلِّ ساعٍ دونَ تثبُّتٍ في مواطئ الأَقْدامِ، ودونَ تَبَصُّرٍ في عَواقِبِ الإِقْدامِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعِظُكُمُ﴾: العِظَةُ: الموعظة، وعَظْتُ الرَّجلَ أَعِظُهُ عِظَةً وموعظة، واتَّعَظَ: تقبَّل العِظَةَ، وهو تذكيرُك إيّاه الخيرَ ونحوَه ممّا يرقّ له قلبُه، والوعظُ عند الرّاغب الأصفهاني: زجرٌ مقترنٌ بتخويف[2]، ومعنى: ﴿يَعِظُكُمُ﴾: ينصحكم، ويُرقِّق قلوبكم[3]، والمعنى المحوريُّ لمادَّة (وعظ): كلامٌ أو عملٌ يُنَبِّه به الإنسانُ إلى عواقب ما يفعله، أو ما هو مُقْدِم عليه ليتوقَّفَ عنه، كما هو واضحٌ في معنى الوعظ، والوعظُ: الإذكار بالخير بما يرقُّ له القلب، وكلُّ ما جاء في القرآن من التَّركيب؛ فهو بمعنى هذا الإذكار والتَّنبيه[4].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

تحذيرُ المؤمنين من العودةِ إلى مثلِ هذا الإفكِ الذي يهدمُ المجتمعَ

يُذكِّركم اللّٰهُ، ويحذِّركم من أَن تعودوا طول حياتكم لمثل هذا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/ 181 - 182.
(2) الرّاغب، المُفردات: (وعظ).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 245، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 99.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وعظ).

الإفك في عائشة، أو سائر أزواجه ﷺ؛ لسوءِ عاقبته وعظيم عقوبته، وإن كنتم مؤمنين بالله؛ فامتثلوا تحذيره، واعملوا بنصيحته؛ لتأمنوا عذابَهُ وسوءَ حسابه، ويُفهم من الآية الكريمة أنَّ مَنْ سبَّ عائشةَ بعد هذا التَّحذير لا يكون من المؤمنين، فالله ينزِّلُ عليكم آياتِهِ مبيَّنةً واضحة الدَّلالة على الأحكام الشَّرعيَّة، والأخلاق الكريمة والآداب الجديرة بخير أُمَّةٍ، أُخرجت للنّاس، والله مُحيطٌ علمُهُ بأحوال مخلوقاتِهِ، وما ينبغي لهم من شرائعَ، حكيمٌ في جميع أفعاله وأحكامه، فالتزموا ما بيَّنه لكم من شرائعه وآدابه(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ التَّعبيرِ بـ: ﴿يَعِظُكُمُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

سبحانَ المُتفضِّلِ علـى العاصين الرحيمِ بهم

إنَّ لفظةَ ﴿يَعِظُكُمُ﴾ هي الأليقُ في هذا المقام من الألفاظ المقاربةِ كالنُّصح ونحوه؛ لأنَّها ناظرةٌ إلى فضلِ الله ورحمته، فهي ألطفُ وأخفُّ مِن غيرها ممّا في أُسرتها، وقد جاءت بنيتُها على بناء الفعل المضارع للدَّلالة على تجدُّد هذا الزَّجر الإلهيِّ، كلَّما دعت الحاجة إليه، وللدَّلالة أيضًا على استحضار صورة هذا الوعظِ أمام القارئِ بعد أن تقدَّم بيانُ خطر هذا الإفك، وللدَّلالة على ضرورة أن يُجدِّدَ الواحدُ من العُصبة خصوصًا ومِن غيرِهم عمومًا المعانيَ التي نزلت في شأن الإفك على نفسه وقلبه وعقله؛ حتى يتشبَّعَ بها، فيطرد مِن نفسه ما يوقِعُه في المهالك.

بلاغةُ الإيجازِ بالحذف في قوله: ﴿يَعِظُكُمُ﴾:

مِثْلُ وعظِهِ ﷻ يُسْتَجابُ له

يقولُ ابن عاشور: "وفِعْلُ (يَعِظُ) لا يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعولٍ ثانٍ بِنَفْسِه، فالمَصْدَرُ المَأْخوذُ مِنْ ﴿أَن تَعُودُواْ﴾، لا يَكونُ مَعْمولًا لِفِعْلِ ﴿يَعِظُكُمُ﴾ إِلّا بِتَقْديرِ شَيْءٍ مَحْذوفٍ، أَوْ بِتَضْمينِ فِعْلِ الوَعْظِ مَعْنَى فِعْلٍ مُتَعَدٍّ،

(1) مجموعة من المؤلّفين، التّفسير الوسيط: 6/ 1381 - 1380.

أَوْ بِتَقْدِيرِ حَرْفِ جَرٍّ مَحْذُوفٍ، فالتَّقْدِيرُ: يُحَذِّرُكُم مِنَ العَوْدِ لِمِثْلِه، أَوْ يُقَدَّرُ: يَعِظُكُمُ اللّه في العَوْدِ لِمِثْلِه، أَوْ يُقَدَّرُ حَرْفُ نَفْيٍ، أَيْ: أَلَّا تَعودوا لِمِثْلِه، وحَذْفُ حَرْفِ النَّفْيِ كَثيرٌ؛ إِذا دَلَّ عليه السّياقُ، وعلى كُلِّ الوُجوهِ يَكونُ في الكَلامِ إيجازٌ"[1]، وقيل: لا تضمين في معنى ﴿يَعِظُكُمُ﴾، وأنَّ وما بعدها مفعولٌ لأجله على حذف مضافٍ، أي: كراهةَ أن تعودوا"[2].

وعلى القول بتقديرِ شيءٍ محذوفٍ يكون في حذفه تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ نُصحَهُ ووعظه ﷻ بالآيات التي أنزلها في تلك الحادثة مِن شأنه أن يترتَّبَ عليه بسهولة وسرعة وقوة عدمُ العود لمثله أبدًا؛ لما نزل من قوة الحُجَّة، وكمال الإقناع، وتمام ظهور المُراد.

معنى اللّام في ﴿لِمِثْلِهِۦٓ﴾:

اللّام هنا للتَّعدية، ويمكن أن تكون للتَّخصيص على معنى: أن تعودوا لمثل حديثِ الإفك على وجه الخصوص، والضَّمير في ﴿لِمِثْلِهِۦٓ﴾ عائدٌ على الإفك.

علَّةُ النَّهي عن العود لمثله دون عينه:

التعبير بالأسلوبِ الكنائيِّ أبلغُ وأزجرُ في النَّهي

نهتِ الآيةُ الكريمةُ المؤمنين أن يعودوا لمثل حديث الإفك دون النَّهي عن العود إلى الإفك نفسِه؛ لأنَّ هذا الأسلوبَ الكنائيَّ أبلغ وأزجر في النَّهي؛ لأنَّه نهيٌ عن الشَّيء مع إقامة دليل عليه؛ احتفالًا به، واعتناءً بشأنه، فهو نهيٌ ضمنيٌّ عن العودة للإفك نفسه، وقد يكون المقصودُ أن تكون العظةُ في أن يعودوا لما يشبهُ هذا الإفكَ، ولو بوجهٍ من الوجوه، لا ما يُماثله هذه المماثلة التّامَّة؛ إذ لا توجد مثلُ هذه المماثلة بين الإفك وبين أمرٍ آخر؛ كنايةً عن عِظَم هذا الإفك، بحيث كأنَّه لا نظيرَ له أبدًا.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 182.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 581.

نكتةُ التَّأكيدِ بالظَّرف ﴿أَبَدًا﴾:

في قوله تعالى: ﴿أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أفاد دخولُ ظرفِ التَّأبيد ﴿أَبَدًا﴾ المبالغةَ في توكيد وعظهم وزجرهم من أن يعودوا لمثل هذا الحديثِ أبدَ الدَّهر؛ نظرًا لخطورتهِ وشدَّة تأثيره في تمزيق أواصر المجتمع المسلم.

المبالغةُ في توكيدِ وعظِهم وزجرِهم من العودةِ لمثل هذا الحديث أبدًا

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملة الشَّرطيَّة ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾:

قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ جملةٌ شرطيَّةٌ؛ لتأكيد الإلزام وتشديد التَّهويل، وجواب الشَّرط محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه، أي: إِنۡ كُنۡتُم مُؤۡمنينَ؛ فلا تعودوا لمثله، وقيل: إنَّ المذكورَ قبلُ جوابٌ لهذا الشَّرط بناء على جواز تقديمه، وهو رأي الكوفيّين وبعض العلماء[1]، وعلى كلا التَّقديرَيۡن فإنَّ المُرادَ من هذه الجملة الشَّرطيَّةِ هو التَّلهيب والتَّحفيز لهم حتّى لا يعودوا لمثله أبدًا.

زيادةُ الإيمانِ ونقصانه هي القضية العظمى

نكتةُ عطفِ قوله: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ﴾ عاطفةٌ، عطفَتۡ بيانَ الآياتِ على قوله: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾، وهي من عطف الزَّواجرِ والتَّحذيراتِ على بعضِها في آيات الإفكِ، ثمَّ معنى هذه الجملة مِمَّا يلزم معنى الجملة التي قبلَها، وهو مِمَّا يتأسَّسُ عليه الوعظُ المذكورُ، فبينهما كمالُ اتِّصال من نوع التَّوكيد المعنويِّ الخفيِّ، فكان الظّاهرُ غيابَ العاطفِ الواوِ، ولكنَّ سياق الامتنانِ بفضل اللّٰه ورحمته هو الذي استدعاها، فإنَّ المُمتَنَّ به جليلٌ، فناسبه الواوُ المُشعِرة باستقلال ما بعدها؛ لما فيها من معنى المغايَرَة الذي لا يبرحُها.

لا أجلَّ منَّةً من فضل الله ورحمته

دلالةُ التَّعبير بـ﴿وَيُبَيِّنُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

البَيانُ: الكشفُ عن الشَّيء، وهو أعمُّ من النُّطق؛ لأنَّ النُّطقَ مُختصٌّ بالإنسان، ويُسمَّى ما بيَّن به بيانًا، قال بعضهم: البيانُ إمّا

كلامُهُ جَلَّ شأنُه هو الأعلى في باب الإبانةِ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/ 324 - 325.

بالتَّسخير، وهو الأشياء التي تدلُّ على حالٍ من الأحوال من آثار الصَّنعةِ، وإمّا بالاختبار؛ وذلك يكون نطقًا، أو كتابة، أو إشارة، وسُمّي الكلام بيانًا؛ لكشفه عن المعنى المقصود إظهارُهُ[1].

في إيثارِ التَّبيينِ إشارةٌ إلى كمال الظُّهور

لم يَقُل ﷻ: (ويظهر)؛ وإنَّما قال: ﴿وَيُبَيِّنُ﴾؛ للدَّلالة على كمال ظهوره، وذلك الألصقُ بكلامه سبحانه، والتَّعبيرُ ببناء الفعل المضارع للدَّلالة على تجدُّد هذا البيان الإلهيِّ؛ كلّما دعت الحاجةُ إليه، وللدَّلالة أيضًا على استحضار صورةِ هذا البيان أمام القارئ بعد أن تقدَّم بيانُ خطر هذا الإفك، وفي المضارع إشارةٌ إلى تصريف القول فيه.

نكتةُ إظهارِ لفظ الجلالة:

تفخيمُ شأنِ البيان، وتحريك نفوس المُتلقّين للاستجابة لربِّهم

في قوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ إظهارٌ للفظ الجلالة في موضع إضمارِهِ لتقدُّم ذِكره هو لتفخيم شأن البيان[2]، ولبيان استحقاقِ كلٍّ من العظةِ والبيان أن تكونَ كلُّ واحدةٍ منهما جملةً مستقلَّةً؛ نظرًا لما فيها من عِبَرٍ وعظاتٍ، وفيه أنَّ هذا البيانَ والتَّبيينَ فيه سيما جلالِ اللّه تعالى وجماله، فمِن شأنه أن يُحرِّك نفوسَ المُتلقّين للاستجابة والتَّنفيذ لمُرادات اللّه ﷻ.

معنى اللّامِ في ﴿لَكُمُ﴾:

جاءتْ لامُ ﴿لَكُمُ﴾ في قوله: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ﴾ للتَّعدية، فضلًا عن إفادتها التَّعليل؛ أيْ: لأجلكم، ويمكن أن تكونَ أيضًا للتَّخصيص على معنى أنَّ هذا البيانَ لكم دون غيرِكم للعناية بهم.

نكتةُ تقديمِ شبه الجملةِ ﴿لَكُمُ﴾:

العناية بالمخاطَبين، وتعظيم الامتنان عليهم

في قوله سبحانه: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ﴾ أفادَ تقديمُ شبهِ الجملة هنا العنايةَ والرِّعايةَ بالمخاطَبين، فهذه الأحكامُ ما شُرِعت إلّا لأجلكم

(1) الراغب، المفردات: (بين).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 318.

ابتداءً، ففيها صلاحُ حياتكم وانتظامها، كما أنَّ تقديمَ ذكرهم أبلغُ في إفادة عظيم الامتنان عليهم.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأٓيَٰتِۚ﴾:

قد تكونُ هنا للعهديَّة أو الاستغراق

يمكن أن يكونَ تعريفُ لفظ ﴿ٱلۡأٓيَٰتِۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ﴾ للعهدِ على معنى الآياتِ الَّتي تقدَّمتِ الإشارةُ إليها في الآية الأولى من السّورة الكريمةِ، ويمكن أن تكونَ للاستغراق على معنى أنَّ اللّه تعالى يُبيِّن لهم سائرَ الآيات الكونيَّةِ النّاطقة والدّالَّة على وجوده ﷻ.

معنى الواو في ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

الأظهرُ أن تكونَ الواو في قول المولى ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ للحال على معنى: أنَّه يعظكم أن تعودوا لمثله، والحال أنَّه مُتَّصفٌ بالعِلْم والحِكْمَة.

غرضُ الإظهارِ في موضع الإضمار: ﴿وَٱللَّهُ﴾:

تأكيدُ استقلالِ الاعتراضِ التَّذييليّ، والإشعارُ بعلّيَّة الألوهيَّةِ للعلمِ والحكمةِ

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ إظهارٌ للفظِ الجلالة، وكان يمكن أن يأتيَ في غير القرآنِ: (وهو عليمٌ حكيمٌ)، يقول الآلوسيُّ: "وإظهارُ الاسم الجليلِ هاهنا لتأكيد استقلالِ الاعتراض التَّذييلي، والإشعارِ بعلّيَّة الألوهيَّةِ للعلم والحكمة"[1].

نكتةُ التَّذييلِ ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

مِن شأنِ الأحداث أن تَزيدَ في المعرفة بالله

ناسبَ التَّذييلُ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ علمَهُ ﷻ بما يُصلح شأن عباده، وعلمَهُ بما يلمز به المنافقون في شأن الإفك، وما يتناجى به ضعافُ الإيمان فيما بينهم، وأمّا صفةُ الحكمة؛ فهي الأليقُ بما قرَّرتهُ الآياتُ من وسائلَ وقائيَّةٍ وعلاجيَّة من أجل مكافحة انتشار الأخبار الكاذبة، لاسيَّما المُتعلِّقة بالأعراض.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 318.

نكتةُ الترتيبِ في ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

تتقدَّمُ صفة العلم على صفة الحكمةِ في أغلب مواضعِ اقترانِهما في القرآن الكريم؛ لأنَّ العلمَ يسبق الحكمةَ، ويتقدَّم عليها، والحكمة لا تكون إلّا وفقَ علمِ اللّه الأزليِّ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الموعظة والنَّصيحة:

هدفهُما إصلاحُ النّاسِ، وتختصُّ النَّصيحةُ بالأمورِ العظيمةِ من الدَّعوةِ إلى الله والإيمانِ به

الوَعْظُ هو زَجْرٌ مُقترنٌ بتخويفٍ[1]، ويبدو من استعمالات القرآنِ الكريم أنَّ الوعظَ يأتي في سياق الحديث عن المتَّقين وغيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٦٦﴾ [البقرة: 66]، وفي سياق الحديثِ عن المنافقين: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾ [النِّساء: 63].

أمّا النُّصْحُ؛ فهو تَحَرّي فِعْلٍ أو قَوْلٍ فيه صلاحُ صاحبه[2]، ويأتي في القرآن في سياق نصح الأنبياء لأقوامِهم الكافرين، كما جاء على لسان نوح: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ﴾ [هود: 34]، وعلى هذا فيبدو من الاستعمال القرآنيِّ، لكلتا الكلمتَيْن أنَّهما تلتقيان في الهدف منهما في إصلاحِ النّاس، وتختصُّ النَّصيحةُ بكونها تتعلَّق بالأمور العظيمةِ من الدَّعوة إلى اللّه والإيمان به ونبذ الشِّرك به.

(1) الرّاغب، المُفردات: (وعظ).

(2) الرّاغب، المُفردات: (نصح).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ١٩﴾ [النور: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تـأديـبٌ ثـالـثٌ للـخـائـضين في الإفكِ

يقول البقاعيُّ: "لمّا كان من أعظم الوعظِ بيانُ ما يستحقُّ على الذَّنب من العقاب؛ أدَّبهم تأديبًا ثالثًا أشدَّ من الأوَّلين، فقال واعظًا ومُقبِّحًا لحال الخائضين في الإفك ومُحذِّرًا ومُهدِّدًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَشِيعَ﴾: (شيع) أَصْلانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُما على مُعاضَدَةٍ ومُساعَفَةٍ، والآخَرُ على بَثٍّ وإشادَةٍ، فالأَوَّلُ: قَوْلُهُم: شَيَّعَ فُلانٌ فُلانًا عِنْدَ شُخوصِه، ويُقالُ: آتيكَ غَدًا أَوْ شَيْعَهُ، أَيِ: اليَوْمَ الَّذي بَعْدَهُ، كَأَنَّ الثّاني مُشَيِّعٌ لِلأَوَّلِ في المُضيِّ، وأَمّا الآخَرُ؛ فقَوْلُهُم: شاعَ الحَديثُ؛ إذا ذاعَ، وانْتَشَرَ، ويُقالُ: شَيَّعَ الرّاعي إبِلَهُ؛ إذا صاحَ فيها، والاسْمُ الشّياعُ: القَصَبَةُ الَّتي يَنْفُخُ فيها الرّاعي[2]، والمُرادُ هنا بقوله: ﴿أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ﴾، أيْ: يُحبّون شُيوعَها، ويتصدّون مع ذلكَ لإشاعتِها[3].

2) ﴿ٱلۡفَٰحِشَةُ﴾: (فحش) أصلٌ يدُلُّ على قُبْحٍ في شَيْءٍ وشَناعَةٍ، مِنْ ذَلِكَ الفُحْشُ والفَحْشاءُ والفاحِشَةُ، يَقولونَ: كُلُّ شَيْءٍ جاوَزَ قَدْرَهُ؛ فهوَ فاحِشٌ، ولا يَكونُ ذَلِكَ إلّا فيما يُتَكَرَّهُ، وأَفْحَشَ الرَّجُلُ، قالَ: الفُحْشَ، وفَحَشَ، وهو فحّاشٌ، ويَقولونَ: الفاحِشُ: البَخيلُ، وهَذا على الاتِّساعِ[4]، والفَحْشاءُ والفاحِشَةُ: ما عَظُمَ قُبحُهُ من الأفعال

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 13/ 233.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شيع).
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 163.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فحش).

والأقوال[1]، والفاحشة هنا: الفِعْلةُ الكبيرةُ القُبحِ، ويصير لها شيعةٌ يُحامون عليها، وهي الفرية والرَّمي بالزِّنى، أو نفسُ الزِّنى[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

ينتظرُ الخائضين في الأعراضِ عذابٌ أليمٌ في الدُّنيا والآخرة

إنَّ الذين يريدون، ويختارون أن تُنشرَ تهمةَ الزِّنى في عِرض المُحصَنين والمحصَنات من الذين آمنوا، ويقومون بنشرها؛ لهم عذابٌ أليمٌ على إذاعتها في الدُّنيا والآخرة؛ لشدَّة قُبحِ هذه الفرية في حقِّ مَنِ افتُرِيَتْ عليه، أمّا عذابُهم في الدُّنيا؛ فبحدِّ القذف، وأمّا عذابهم في الآخرة؛ فبنار جهنَّم، إن لم يُقَمِ الحدُّ عليهم في الدُّنيا، أو أُقيم عليهم، وكانوا منافقين أو كافرين، فإنَّ الحدودَ لا تكون جوابر، ولا تحمي من النّار إلّا عصاة المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النِّساء: 116][3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

الدّلالةُ على كمالِ الاعتناءِ بمضمونِها

لم تُعطفِ الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ﴾ على الآيات السّابقة، وإنَّما جاءت مُستأنَفَةً استئنافًا ابتدائيًّا جديدًا؛ دلالةً على كمال الاعتناءِ بمضمونها، مِن حيثُ إشعارُهُ بأنَّه عمدة في بابه، فإنَّه تعالى لمّا حذَّر المؤمنين من العود إلى مثل ما خاضوا به من الإفكِ على جميع أزمنةِ المستقبلِ؛ أعقبَ ذلك بتحذيرِهم بالوعيد على ما عسى أن يصدرَ منهم في المستقبل[4].

غرضُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصلتِه:

نماذجُ السّوءِ يجب أن تُفْضَحَ؛ لعظيمِ الاعتبارِ بها

أفادَ التَّعبيرُ بالاسم الموصول في ﴿ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ الذَّمَّ والتَّعريضَ

(1) الرّاغب، المُفردات: (فحش).
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/ 245، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 99.
(3) مجموعة من المؤلّفين، التَّفسير الوسيط: 6/ 1381 - 1382.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 184.

بالسّاعين بنشر خبرِ الإفكِ؛ وذلك لأنَّ الاسمَ الموصول يأتي مُبهمًا، فيحتاجُ إلى جملة صلةِ الموصول التي تُزيل عنه الإبهام، فالتَّعريفُ بالاسم الموصول يأتي على مرحلتَيْن؛ لذلك يكثر مجيئُهُ في مواقف المدح والذَّمِّ، والأصل في الاسم الموصول أن يُفيد العمومَ، وأفادتْ جملةُ صلة الموصول ﴿يُحِبُّونَ﴾ هنا: التَّجدُّد الاستمراريَّ، فضلًا عن استحضار صورتِهم، وهم يسعون في نشر الرَّذائل[1]، وعبَّر سبحانه بالحُبِّ؛ إشارةً إلى أنَّه لا يرتكب هذا مع شناعته إلا محبٌّ له، ولا يُحِبُّه إلّا بعيدٌ عن الاستقامة[2].

نكتةُ تعليقِ الوعيدِ على المَحبَّة على سبيل الكناية:

مَحَبَّةُ شيوعِ الفاحشة دالَّةٌ على خُبْثِ النّيَّةِ نَحْوَ المُؤْمنينَ

يقول ابن عاشور: "وجَعَلَ الوَعيدَ على المَحبَّةِ لِشُيوعِ الفاحِشَةِ في المُؤْمنينَ؛ تَنْبيهًا على أَنَّ مَحَبَّةَ ذَلكَ تَسْتَحِقُّ العُقوبَةَ؛ لِأَنَّ مَحَبَّةَ ذَلكَ دالَّةٌ على خُبْثِ النّيَّةِ نَحْوَ المُؤْمنينَ، ومِنْ شَأْنِ تِلْكَ الطَّويَّةِ أَلّا يَلْبَثَ صاحِبُها إلّا يَسيرًا حَتَّى يَصْدُرَ عَنْهُ ما هوَ محبٌّ لَهُ، أَوْ يُسَرَّ بِصُدورِ ذَلكَ مِنْ غَيْرِه، فالمَحَبَّةُ هُنا كِنايَةٌ عَنِ التَّهَيُّؤِ لِإِبْرازِ ما يُحِبُّ وُقوعَهُ، وأَصْلُ الكِنايَةِ أَنْ تَجْمَعَ بَيْنَ المَعْنَى الصَّريحِ ولازِمِه، فلا جَرَمَ أَنْ يَنْشَأَ عَنْ تِلْكَ المَحَبَّةِ عَذابُ الدُّنْيا، وهوَ حَدُّ القَذْفِ، وعَذابُ الآخِرَةِ، وهوَ أَظْهَرُ؛ لِأَنَّهُ مِمّا تَسْتَحِقُّهُ النّياتُ الخَبيثَةُ"[3].

الموقع النَّحويُّ لقوله: ﴿أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ﴾:

حبُّ شيوعِ الفاحشةِ ينطوي على حُبِّ الفاحشةِ

﴿أَن﴾ وما في حيّزها في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ﴾ مفعولُ ﴿يُحِبُّونَ﴾، والفاحشة فاعل: ﴿تَشِيعَ﴾[4]، وتقديرُ الكلام: إنَّ الذين يُحبّون الفاحشةَ أن تشيعَ، فحبُّ شيوع الفاحشة ينطوي على حبِّ الفاحشة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 184.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/ 245.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 245.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 581.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡفَٰحِشَةُ﴾:

يمكنُ حملُ تعريفِ كلمة ﴿ٱلۡفَٰحِشَةُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ﴾ على العهديَّة الصَّريحةِ، أو الكنائيَّةِ على اعتبارِ تقدُّم حديثِ الإفكِ، الذي هو من فواحشِ الذُّنوبِ، ويمكن أن يكون التَّعريفُ للاستغراقِ؛ ليعمَّ كلَّ ما من شأنه أن يكون فاحشةً؛ سواء أكان زنًى أم إفكًا أم غيره، وهذا المعنى أفضلُ من الأوَّل؛ لأنَّ نقلَ الأخبار الفاحشةِ من شأنه أن يُؤدّي إلى نشر سائر الرَّذائل.

نقلُ الأخبارِ الفاحشةِ يُؤدّي إلى نشرِ سائرِ الرَّذائلِ

بلاغةُ الحذفِ في ﴿أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ﴾:

يمكنُ أن يكونَ تقديرُ الكلام هنا: إنَّ الذين يحبّون انتشارَ خبرِ الفاحشة، فيكون هنالك حذفٌ للخبر المُضاف إلى الفاحشة؛ لأنَّ الشُّيوعَ من صفات الأخبار والأحاديث، فيتعيَّن تقدير مضاف محذوف[1]، ويمكنُ أن يكونَ المُرادُ من الفاحشة: الزِّنى، كما هو الأغلبُ في استعمالاتها، فيكون في الكلام تجوُّزٌ؛ لأنَّهم لا يحبّون أن يشيع الزِّنى، وإنَّما الأخبار الكاذبة، ولكن لمّا كانت هذه الأخبارُ الكاذبة ممّا يُفضي إلى التَّشجيع على الزِّنى؛ فإنَّه أسندَ الشُّيوع إليها تجوُّزًا حُكميًّا لعلاقة السَّببيَّة، فكأنَّ مَن يُحبُّ شيوعَ خبرِ الفاحشة مُحبٌّ لشيوع الفاحشة نفسِها؛ لأنَّ شيوعَ خبرها يؤدّي إلى شيوعها ذاتها.

أيُّ خرابٍ يحِلُّ بالناسِ بشيوعِ خبرِ الفاحشةِ؟

دلالةُ الظَّرفيَّة ﴿فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

بنَى القرآنُ هذه العبارةَ على حذف مُضافٍ يُفْهَم مِن سياقِ الكلام، والتَّقديرُ: يُحبّون أن تشيع الفاحشةَ في حقِّ المؤمنين وشأنهم، والقرينةُ أنَّ شيوعَ الفاحشة لا يتعلَّق بالذّات، وإنَّما بشيءٍ يتعلّق بالذّات، ويقوم به، ويجوز أن تكون: ﴿فِي﴾ نائبةً عن: (بين)، وعلى كلٍّ فهو تنبيهٌ على عظيم الضَّرر الذي يلحق مَن يُقْذَفُ بالفاحشةِ،

إشارةٌ إلى عظيم بُغضِ القاذفين للمقذوفين

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 184.

كأنَّه يتَّصل بذاتِهِ مِن قبل التَّعلُّق بصفاته، وإشارةٌ إلى عظيم بُغض القاذِفين للمقذوفين حقيقةً أو تنزيلًا.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته:

الإيمانُ شريفٌ في ذاته

عبَّرَ السياقُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالاسم الموصولِ في وصف المؤمنينَ، وفي ذلك تفخيمٌ وتعظيمٌ لشأنهم؛ وذلك لما في الاسم الموصول من إبهام يتبعهُ إعلامٌ، لا سيَّما وقد جاءت جملةُ صلةِ الموصولِ مَعَهُ جملةً فعليَّةً، أفادت وقوعَ الإيمان في قلوبِهم منذُ اللَّحظةِ التي عرفوه فيها، فجاءت بالفعل الماضي للدَّلالةِ على تمكُّن الإيمانِ في نفوسِهم حتّى باتَ خبرًا يُتَحدَّث عنه، وفي جعل الصِّلة وصفًا لإيمانهم إنكارٌ خفيٌّ لمحبَّة شيوعِ الفاحشة في أهل الإيمانِ؛ لأنَّ الإيمانَ شريفٌ في ذاته مِن شأنه أن يكونَ وازعًا للعُصْبةِ وأمثالهم عن هذا العملِ الرَّخيص الخسيس.

نكتةُ مجيءِ الخبرِ جملةً اسميَّةً:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ جاء خبرُ ﴿إِنَّ﴾ جملةً اسميَّةً؛ ليدلَّ على ثبوت هذا الحكمِ لهم واستقرارهم فيه.

معنى اللّام في ﴿لَهُمْ﴾:

يحتملُ أن تكونَ للاستحقاقِ أو للتَّخصيصِ

في قوله ﷻ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ اللّام في ﴿لَهُمْ﴾ هي لامُ الاستحقاقِ؛ لأنَّهم استحقّوا إقامةَ الحدِّ عليهم في الدُّنيا، والعذابَ في الآخرة، ويمكن حملُها على معنًى آخر، وهو أن تكونَ للتَّخصيص؛ لاختصاصهِم بهذا النَّوعِ مِنَ العذابَيْن: الدُّنيويِّ والأخرويِّ.

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿لَهُمْ﴾:

أفادُ تقديمُ شبهِ الجملة الخبريَّةِ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ التَّخصيصَ وتعجيل مضرَّتهم بوقوع العذاب عليهم دون غيرهم.

نكتةُ تنكيرِ العذاب ووصفهِ بالأليم:

تعظيمُ شأنِ العذابِ، والمبالغة في بيان عاقبته

الغرضُ من تنكيرِ العذابِ في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: إمّا التَّنويعُ على أنَّه ليس كأيِّ عذابٍ، فضلًا عن إفادة التَّنكير معنى التَّعظيم لشأنِ هذا العذاب، ووُصِفَ العذاب هنا بأنَّه أليمٌ على زنة (فعيل) الدّالِّ على المبالغة، والمعدول عن اسم الفاعل (مؤلم)؛ لأنَّهم استحقّوا ألَمَهُ في الدُّنيا والآخرة؛ لما سبَّبوه من ألم نفسيٍّ لأمِّ المؤمنين عائشةَ رضي الله عنها ولآل بيت النَّبيِّ ﷺ، ولما تسبِّبه نقلُ الإشاعات في قلوب المؤمنين مِن أذًى نفسيٍّ وبدنيٍّ.

نكتةُ ذِكْرِ ظرفيَّةِ الفضل والرَّحمة:

تعظيمُ إثمِ محبَّةِ شيوعِ الفاحشة في الذين آمنوا

في ذكر لفظَي ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ في الآية الكريمة إشارةٌ إلى أنَّ هذا الإفكَ ونقل الإشاعات يستوجب نوعَيْن من العذاب الأليم، ففي الحياة الدُّنيا بإقامة الحدِّ عليهم، أو محاسبتهم، وفي الآخرة عذابُ النّار الذي ينتظرُهم، ووراء هذا القيدِ من المعنى تعظيمُ إثمِ محبَّة شيوع الفاحشةِ في الذين آمنوا.

معنى (أل) في ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾:

في قول المولى تباركَتْ أسماؤه: ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ أفاد التَّعريفُ لكلمتَي ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ العهدَ الذِّهنيَّ، فهي الدُّنيا التي نحياها، والآخرة التي نرجوها.

نكتةُ ترتيبِ ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾:

الإشارةُ إلى ضرورة تطبيق الحدودِ في الدُّنيا

في تقديم الجزاء الدُّنيويِّ على الأُخرويِّ إشارةٌ إلى ضرورة تطبيق الحدودِ في الدُّنيا؛ لأنَّ في تطبيقها إظهارًا لشعائر اللّه، فضلًا عن أنَّ فيها تخفيفًا أو إعفاءً من عذاب الآخرة لِمَنْ أُقيم عليه الحَدُّ في الدُّنيا.

بلاغةُ الطِّباق في ذِكْر الدُّنيا والآخرة:

في ذِكْر الدُّنيا والآخرة طباقُ إيجابٍ، حيث إنَّ اللَّفظتَيْن

متقابلتان، وهذا مِن شأنهِ أن يُحرِّك النَّفس للتفكير في كلٍّ منهما في نور الآخر، فيقوى التَّرهيب في نفسه، فيرتدعَ، وينزجرَ، ويتوبَ عن عمله؛ إذا صدر منه، أو يحجمَ عنه؛ إذا كان مُقْدِمًا عليه، ففي الطِّباق إحسانٌ إلى المعنى القرآنيِّ والمتلقي جميعًا.

في الطِّباق إحسانٌ إلى المعنى القرآنيِّ والمتلقّي جميعًا

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾:

الواو الأولى في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ حاليَّةٌ على معنى: والحالُ أنَّ الله يعلمُ، ويمكن أن تكونَ معترضةً، أو استئنافيَّةً، والثّانية عاطفة.

دلالةُ التقديم في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾:

إفادةُ تقوية الحُكمِ، كما يُفيد التَّخصيصَ

في تقديم المُسند إليه - في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ - على الخبر الفعليِّ معنى التَّخصيص، فالأصل في هذا التَّقديم أنَّه يفيدُ تقويةَ الحكم؛ لتكرار ذِكر المُسنَد إليه في الجُملتَيْن: مرَّةً بكونه مبتدأ، ومرَّةً بكونه فاعلًا مُستترًا، كما أشار إلى ذلك شيخُ البلاغة العربيَّة عبد القاهر الجُرجانيُّ[1]، ولكن السّياق يُرشد إلى إرادة التَّخصيص أيضًا، ولا شقاق بين المعنَيَيْن، وقوله: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ قرينةٌ على أنَّ التَّقديم في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ للتَّخصيص، وكذلك العكسُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يَعۡلَمُ﴾ و﴿تَعۡلَمُونَ﴾:

تجدُّدُ صفةِ العلمِ المُطلقِ بحقِّهِ سبحانه

تدلُّ المضارعة في ﴿يَعۡلَمُ﴾ و﴿تَعۡلَمُونَ﴾ على تجدُّد صفة العلم المُطلق بحقِّه سبحانه، على معنى أنَّ علمَهُ يتعلَّق دائمًا بالممكن والواجب والمستحيل، وعلى عكس ذلك فإنَّ العلمَ البشريَّ يبقى قاصرًا مُتجدِّدًا.

نكتةُ حذف مُتعلِّقِ العِلْمِ:

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ حُذِفَ متعلِّقُ العِلْم

(1) الجُرجانيّ، دلائل الإعجاز: 1/ 128 - 129.

الله تعالى عليمٌ بكل الأمور عظُمت أو دقَّت

في الجملتَيْن؛ ليعمَّ كلَّ علم، فأُنزل العِلمُ منزلةَ الفعل اللّازم، مع أنَّه يتعدّى إلى أكثرَ مِن مفعولٍ للتَّعميم، فيشمل خبرَ الإِفكِ وغيره ممّا يمكن إضمارُهُ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفاحشة والمنكر:

المُنكرُ أعمُّ من الفاحشة التي تختصُّ بالمُنكرات العظيمة

الفُحْشُ والفَحْشاءُ والفاحِشَةُ ما عظم قبحُهُ من الأفعال والأقوال[1]، وأكثرُ استعمالاتها القرآنيَّة في سياق الحديث عن الزِّنى واللِّواط، وإن استُعملت أيضًا في الحديث عن كبائِر الذُّنوب، وقد اقترنَت مع المنكر في سياق النَّهي عن كليهما في ثلاثةِ مواضع، منها آيةُ سورة النّورِ: ﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [النّور: 21]، والمُنكرُ في الاستعمال القرآنيِّ هو كلُّ فِعْلٍ تحكُم العقولُ الصحيحةُ بقُبْحِه، أو تتوقَّفُ في استقباحِهِ واستحسانه العقولُ، فتحكم بقبحِهِ الشَّريعة[2]، وعلى هذا فهو أعمُّ من الفاحشة؛ لاختصاصها بالمُنكرات العظيمة، ويأتي عطفُهُ عليها في القرآن من عطف العامِّ على الخاصِّ.

(1) الراغب، المفردات: (فحش).
(2) الراغب، المفردات: (نكر).

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٢٠﴾

[النّور: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

بعد الحُكمِ بالجهلِ يأتي التَّذكيرُ بالمِنَّة بتركِ المعاجَلةِ في العقابِ

لَمّا ختم بالحكُم عليهم بالجهلِ، وكان التَّقدير - كما أرشد إليه ما يأتي من العطفِ على غير معطوفٍ - (فلولا فضلُ اللّٰه عليكم ورحمتُهُ بكم؛ لعجَّلَ هلاكَ المُحبّين) لشيوع ذلك بعذاب الدُّنيا ليكون موصولًا بعذاب الآخرةِ؛ عطف عليه قولَهُ مُكرِّرًا التَّذكيرَ بالمِنَّة بترك المعاجلة حاذفًا الجواب، مُنبِّهًا بالتَّكرير والحذف على قوَّة المبالغة وشدَّة التَّهويل: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾، أي: الحائزُ جميعَ الجلال والإكرام[1].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿رَءُوفٞ﴾: (رأف) أصلٌ واحِدٌ يدُلُّ على رِقَّةٍ ورَحمَةٍ، وهي الرَّأفَةُ، يُقالُ: رَؤُفَ يَرْؤُفُ رَأْفَةً ورَآفَةً، على (فَعْلَة) و(فَعالَة)، قالَ اللّٰه ﷻ: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النّور: 2][2]، والرَّؤوفُ: الرَّحيمُ العاطِفُ برَأفتِه على عِبادِه، وقالَ بَعْضُهُم: الرَّأفَةُ أبلَغُ الرَّحْمَةِ وأرَقُّها، ويُقالُ: إنَّ الرَّأفَةَ أخَصُّ، والرَّحْمَةَ أعَمُّ، وقد تَكونُ الرَّحْمَةُ في الكَراهةِ لِلْمَصْلَحَة، ولا تَكادُ الرَّأفةُ تَكونُ في الكَراهَة، فهَذا مَوْضِعُ الفَرْقِ بَيْنَهُما[3].

المَعنى الإجماليُّ:

لولا فضلُ اللهِ تعالى لعجَّلَ للأفّاكين عذابَهم لقاءَ ما اقترفوه

ولولا تفضُّلُ اللّٰهِ ورحمته عليكم - أيُّها الآفكون - وأنَّه تعالى دائمُ الرَّأفةِ والرَّحمةِ لعباده؛ لمسَّكم فيما أذعتموهُ مِنَ الإفك عذابٌ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 13/ 234.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأف).
(3) الخطّابي، شأن الدعاء: 1/ 91.

عظيمٌ، لا يُقادرُ قَدرُهُ، ولكنَّهُ تعالى أمهلكم بموجب رأْفَتِهِ ورحمته ليميِّزَ الخبيثَ من الطَّيِّب، ثمَّ أنزلَ براءتَها ممّا نُسب إليها، فتاب مَنِ استيقظَ ضميرُهُ، وعرفَ حقَّ اللّهِ ورسولِهِ، فتابَ اللّه عليه، وأقام الحدَّ على مَن ثبت عليه التَّشهير بذلك، فطَهر منهم مَن كان من المؤمنين، وبَقي في رجسِهِ وسوءِ عاقبته مَنْ كان من المنافقين[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾:

قد تكونَ عاطفةً أو استئنافيَّةً

هذه الواوُ يمكنُ أن تكونَ عاطفةً، والآيةُ عُطفت على سابقتِها لاشتراكِها معها في وصفِ اللّه تعالى، فهو يعلمُ كلَّ شيءٍ، وهو صاحبُ الفضلِ علينا والرَّحمة، ويمكن أن تكونَ استئنافيَّةً شرعت في ذِكْر توجيهٍ آخرَ من التَّوجيهاتِ التي ذكرتها آياتُ الإفك.

نكتةُ تَكرارِ (لولا) في الآيات:

في التَّنبيهِ الإلهيِّ رَحْـمَـةٌ بـآحـادِ الأمَّة وجَماعَتِها

يقول ابن عاشور: "هَذِهِ ثالِثُ مَرَّةٍ كَرَّرَ فيها ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾، وحَذَفَ في الأوَّلِ والثّالِثِ جَوابَ (لَوْلا)؛ لِتَذْهَبَ النَّفْسُ كُلَّ مَذْهَبٍ مُمكِنٍ في تَقْديرِهِ بِحَسَبِ المَقام، وقد ذَكَرَ في المَرَّةِ الأولَى وصْفَ اللّه بِأنَّهُ ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ ١٠﴾ [النور: 10] لِلْمُناسَبَةِ المُتَقَدِّمَة، وذَكَرَ هُنا بِأنَّهُ ﴿رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾؛ لِأنَّ هَذا التَّنْبِيهَ الَّذي تَضَمَّنَهُ التَّذْيِيلُ فيه انْتِشالٌ لِلْأُمَّةِ مِن اضْطِرابٍ عَظِيمٍ في أَخْلاقِها وآدابِها وانْفِصامِ عُرَى وحْدَتِها، فَأَنْقَذَها مِنْ ذَلِكَ رَأْفَةً ورَحْمَةً لِآحادِها وجَماعَتِها وحِفْظًا لِأَواصِرِها"[2].

معنى ﴿وَلَوۡلَآ﴾ في أوَّلِ الآية:

اللّـهُ تـعـالى هو العاصمُ لعباده من المعاصي

(لولا) حرفُ امتناعٍ لوجود - كما هو معلومٌ - والممتنع مَعَ (لَوْلا) هوَ الثّاني قطعًا[3]، وفي هذا تذكير لهم مرَّةً بعد مرَّة بعظم فضل

(1) مجموعة من المؤلّفين، التّفسير الوسيط: 6/ 1382.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 185 - 186.
(3) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 346.

اللّه عليهم ورحمته بعد عظيم فعلهم، وأنَّه تعالى لو عاملهم بما يستحقُّون لعذَّبهم عذابًا شديدا في الدُّنيا والآخرة، ولكنَّ رحمة اللّه الواسعة قد سبقت عذابه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملة الشَّرطيَّةِ:

امتناعُ عذابِ المستحقّين هو من تفضُّل الله

التَّعبيرُ بالجملة الشَّرطيَّة أقوى في ربْطِ جواب الشَّرط بفعله، والنَّتيجة بالسَّبب، وهنا ربطتِ الآية بين فضل اللّه تعالى عليهم، وبين مسِّ العذاب لهم، فامتناعُ العذاب عنهم إنَّما هو لوجود فضل اللّه عليهم، فيعظمُ بذلك الترغيبُ والترهيبُ، "وفي المَعْنَى وجْهانِ: **الأَوَّلُ**: (ولَوْلا أنّي قَضَيْتُ أنْ أتَفَضَّلَ عَلَيْكُم في الدُّنْيا بِضُروبِ النِّعَمِ الَّتي مِنْ جُمْلَتِها الإمهالُ لِلتَّوْبَةِ، وأنْ أتَرَحَّمَ عَلَيْكُم في الآخِرَةِ بالعَفْوِ والمَغْفِرَةِ؛ لَعاجَلْتُكُم بالعِقابِ على ما خُضْتُم فيه مِنْ حَديثِ الإفْكِ)، **والثّاني**: (ولَوْلا فضْلُ اللّه عَلَيْكُم ورَحْمَتُهُ؛ لَمَسَّكُم فيما أفَضْتُم فيه عَذابٌ عَظيمٌ في الدُّنيا والآخرة معًا)، فيكون فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، والخطابُ لِلْقَذَفَةِ"[1].

نكتةُ إضافةِ الفَضْلِ والرَّحمةِ للفظِ الجلالةِ:

لا غنى للإنسان عن رحمة الله تعالى وفضله

في إضافةِ الفضل إلى لفظِ الجلالة، وإضافةِ الرَّحمة إلى الضَّمير العائدِ إلى لفظ الجلالةِ رفْعٌ لشأن هذا الفضل والرَّحمة، وأنَّهما ليسا كأيِّ فضلٍ ورحمةٍ، فاسمُ الجلالة أكسبَهما معنى الكمالِ؛ إبلاغًا في امتنانه ﷻ عليهم.

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾:

الواوُ هنا عاطفةٌ، عطفت صفتَي الرَّأفةِ والرَّحمةِ على الفضل والرَّحمة بنا، فما بعد الواوِ معطوفٌ على: ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾.

غرضُ تتابعِ المُؤكِّداتِ في فاصلةِ الآيةِ:

إقرارُ آثارِ الصِّفات الجليلةِ في نفوس المؤمنين

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ أُكِّدت هذه الصِّفات الإلهيَّةُ الجليلة في فاصلة الآية الكريمة بـ(أنَّ) والجملةِ الاسميَّة؛

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 342.

وذلك حتَّى تستقرَّ آثارُها في نفوس المؤمنين، فإنزالُ غير المُنكِر منزلةَ المُنكِر؛ لما بدر منهم من أفعالٍ تتنافى مع حقيقة هذا الإيمانِ، فخرج التَّوكيد عن الظّاهر، لكنّه لم يخرج عن مقتضى الحال.

نكتةُ تذييلِ الآية بـ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾:

التَّمكينُ والائتلافُ في الفاصلةِ تأكيدٌ على مناسبتها لآيتها

في خَتْمِ الآية بهذَيْن الاسمَيْن الجليلَيْن النّازعَيْن إلى رحمة اللّه بعبادهِ وتيسيرهِ عليهم بخَلْقِ ما ينفعهم، ويُساعدهم على بلوغ مقاصدِهم وقضاء حوائِجهم، فيه ما لا يخفى من التَّناسُبِ المُحتفي بالإنعام والامتنان على العباد؛ فضلًا من اللّه ونعمةً منه ورحمةً، والعادةُ أن يُذكرَ اسمُ اللّه الرؤوف سابقًا للرَّحيم، فعلى هذا يكون الجمعُ بين اللَّفظَيْن في قوله: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تأكيدًا، وحسَّن ذلك اختلافُ اللَّفظين، وقيل: الرَّأفةُ أرقُّ من الرَّحمةِ، فهي أخصُّ، وعلى هذا فلا تَكرارَ ولا تأكيد[1].

نكتةُ الترتيبِ ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾:

اجتماعُ جمالِ النَّظم وكمال المعنى

قيل: إنَّ (الرؤوف) أبلغُ من (الرحيم)، كما أنَّ من دواعي التَّقديم مراعاةَ الفاصلة[2]، فيكون الختمُ بالصِّفتَيْن الجليلتَيْن وبهذا الترتيبِ، اجتمع فيه جمالُ النَّظم مع كمال المعنى، ويمكن أن يكون ترتيبُهما ناظرًا إلى كون (الرؤوف)، كأنَّها أصلُ (الرحيم)، وكأنَّ الثّانية مِن تمامها، قال البقاعيُّ: "﴿رَءُوفٌ﴾ بكم في نصْبِ ما يُزيل جهلَكم بما يحفظُ مِن سرائركم بإرسال الرُّسل وإنزالِ الكتب، ونصبِ الحدود الزاجرة عن الجهل الحاملةِ على التَّقوى التي هي ثمرةُ العلم، فإنَّ الرَّأفةَ تُقيم المرؤوف به؛ لأنَّها ألطفُ الرَّحمةِ، وأبلغُها على أقوم سنن... ﴿رَّحِيمٌ﴾ بما يُثبت لكم من الدرجات على ما مَنَحَكُم به من ثمرات ذلك الحفظ مِن الأعمال المُرْضية"[3].

(1) السَّمين عُمدة الحُفّاظ: (رأف).
(2) الشّهاب، حاشية على البيضاويّ: 6/ 311.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/ 246.

﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢١﴾ [النور:21]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تحذيرُ القرآنِ مِنْ وساوِسِ الشَّيطانِ

لمّا كان خَوضُ الناسِ في حادثةِ الإفكِ؛ استجابةً لنزَغاتِ الشيطانِ الذي يريد إيقاعَ العداوةِ والبغضاءِ بينَ المؤمنين، ويُحبُّ أن تَشيعَ الفاحشةُ بينَهم؛ جاءتْ هذهِ الآيةُ مُحَذِّرَةً مِنِ اتِّباع خُطواتِه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَتَّبِعُواْ﴾: (تبع) "أصلٌ واحدٌ لا يشُذُّ عنه منَ الباب شيءٌ، وهو التُّلُوُّ والقُفوُّ"[2]، والاتِّباعُ: اقتفاءُ الأثرِ تارةً بالجسم، وتارةً بالارتِسام والائتِمار، والاتِّباع: اللَّحاق[3] بالقوم، والمشيُ خلفَهم[4]، متقدِّمين كانوا أو متأخِّرين بلا فصل، ويغدو هذا الاقتفاءُ والسيرُ في الأثر كأنَّما لحاقٌ بالشيء أو التِصاقٌ به[5]، وهذا المعنى هو المرادُ في الآية، أي: (لا تَسلُكوا سَبيلَ الشيطانِ وطُرُقَهُ، ولا تقتَفوا آثارَه)[6]، مُلتَصِقين به، مُتَطَلِّبين له، مُتابِعين إيّاه، مُقتَدين به.

2) ﴿خُطُوَٰتِ﴾: (خطو) أصلٌ يدُلُّ على تعَدّي الشيءِ والذهابِ به[7]، و﴿خُطُوَٰتِ﴾ جمعُ قلَّة لكلمةِ (خُطوة) بضمِّ الطاء وفتحها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 186.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(3) الراغب الأصفهاني، المفردات: (تبع).
(4) الجوهري، الصحاح: (تبع).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (تبع).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 221.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خطو).

وسكونها، يعني بها: المسافَةَ بَين القَدَمَيْنِ في المَشْي، والخُطا: الآثارُ، والخَطوة بفتح الخاء: المَرَّة الواحدة، وجمعُ الكثرَة (خُطًا)[1]، والمراد بالخطوة في الآية: طريقةُ الشيطان وآثارُه ومسالِكُه[2].

3) ﴿بِٱلْفَحْشَآءِ﴾: "الفاء والحاء والشين كلمةٌ تدُلُّ على قُبحٍ في شيءٍ وشَناعةٍ"[3]، وكلُّ شيءٍ جاوز حدَّه وقدرَهُ، فهو فاحِش، ولا يكون ذلك إلّا فيما يُكره كالزِّنى، وما جاوز الحدَّ في البُخل[4]، وكلِّ أمرٍ لم يوافقِ الحَقَّ ممّا عظُمَ قبحُه، وأفرَط من الأفعال والأقوال[5]، والمراد به في الآية: القبائحُ من الأَفْعال والأقوال[6].

4) ﴿وَٱلْمُنكَرِۚ﴾: (نكر) أصلٌ يدلُّ على خلافِ المعرفة الّتي يسكُن إليها القلب، ونَكِر الشيءَ، وأَنكرَه: لم يقبلْهُ قلبُه، ولم يعترِفْ به لِسانُه، والباب كلُّه راجعٌ إلى هذا[7]، و"المُنْكَرُ: كلُّ فِعْلٍ تحكُم العقولُ الصحيحةُ بقُبْحِه، أو تتوقَّفُ في استقباحِهِ واستحسانه العقولُ، فتحكُم بقبحه الشَّريعة"[8]، والمراد به هنا: كلُّ ما يُنكِرُه الشَّرع، ونفوسُ أهلِ الخير ممّا يكرهُهُ اللّه تعالى، فتنفِر عنه، ولا ترتضيه[9].

5) ﴿زَكَىٰ﴾: "الزاي والكاف والحرف المعتلُّ أصلٌ يدلُّ على نماءٍ وزيادة"[10]، ومن هذا الأصلِ اشتُقَّت كلُّ معاني الزَّكاة: كالتَّطهير، والصلاح، والبَرَكة، والمدح، والتنمية في وجوهِ الخيرِ والبرِّ[11]، والمُتضَمِّنة جُلُّها في معنى ﴿مَا زَكَىٰ﴾ في الآية، فالمراد بها: "ما تطهَّر منكم مِنْ أحدٍ أبدًا من دَنَسِ ذُنوبِه وشِركِه"[12]، وما صلُح، وما اهتدى، ولا أسلَمَ، ولا عرفَ رشدًا[13].

---

(1) الفراهيدي، العين، وابن دريد، الجمهرة، والجوهري، الصحاح، والراغب الأصفهاني، المفردات: (خطو).
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 347.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فحش).
(4) الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فحش).
(5) الفراهيدي، العين، والراغب الأصفهاني، المفردات: (فحش).
(6) السمعاني، تفسير القرآن: 3/ 513، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/ 187.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكر).
(8) الجوهري، الصحاح، والراغب الأصفهاني، المفردات: (نكر).
(9) الزمخشري، الكشاف: 3/ 222، والسمعاني، تفسير القرآن: 3/ 513، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 102، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/ 187.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زكى).
(11) الفراهيدي، العين: (زكو)، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (زكا)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (زكو).
(12) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 221.
(13) السمعاني، تفسير القرآن: 3/ 513، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 172.

المَعنى الإِجْماليُّ:

اللهُ يطهِّر عبادَه من دنس الشياطين، ويحذِّرهم من وساوسه

الآيةُ خطابٌ للَّذين صدَّقوا اللّه ورسوله، ألّا تسلُكوا سبيلَ الشيطان وطُرُقَه، ولا تقتَفوا آثارَه، بإشاعتكم الفاحشةَ في الذين آمنوا، فإنَّ الشيطان يأمر بالفحشاءِ - وهي الزنى - والمنكرِ من القول والفعل، ولولا فضلُ اللّه عليكم أيُّها الناس ورحمتُه لكم، ما تَطَهَّر منكم من أحدٍ أبدًا من دنسِ ذنوبه وشِركِه، ولكنَّ اللّهَ يُطهِّرُ مَن يشاء مِن خلقه[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ النِّداء في ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

غفلةُ النّاس عن وساوسِ الشَّيطان، مع عِظَمِها وخُطورَتِها

الأصلُ في ياء النِّداء في مثل قول اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أن تكونَ لنداءِ البعيد[2]، لكنَّ اللّه ﷻ لا يبعُد عنه شيءٌ، ولا يعزُب عنه أمرٌ، فاعتبارُ معنى البعد في ياء النِّداء يُشيرُ إلى عِظَم الشَّيء الذي يَنهى اللّه عنه وخطورته: وهو اتِّباع الشَّيطان، والاغترارُ بوساوِسه، والخضوعُ لهواجسه؛ فـ(ياء) النِّداءِ "إذا نوديَ به القريبُ المُفاطِن؛ فذلك للتَّأكيد المؤْذِنِ بأنَّ الخطابَ الَّذي يتلوه مَعنيٌّ به جدًّا"[3]، ويشير أيضًا النِّداءُ بالياء إلى غفلة المنادَى عن مكائدِ الشَّيطان، وسهوِه عن الاحتراز منه والاستعاذةِ من شروره.

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصول وصلتِه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

الإغراءُ بنعمةِ الإيمان

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصلتِه ﴿ءَامَنُواْ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ ليَكشِفَا الإبهامَ في (أيّ)، حيث توجَّه النِّداء إلى قوم مُعَيَّنين - وهم المؤمنون - ممّا يبعث في قلوبهم حُسنَ الإصغاء، فالنِّداء متوجِّهٌ إليهم.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 134، 135.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/ 89.

(3) الزمخشري، الكشاف: 1/ 89.

وآثر السّياقُ التَّعبيرَ بالموصول دونَ أن يقولَ مثلًا: (يا أَيُّها المؤمنون)؛ للتَّشويق إلى صلة الموصول ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ ليستثيرَ في نفوسهم معانيَ الإيمانِ، ويُحَفِّزَها على العمل بمقتضاه.

دلالةُ التَّعبيرِ عن الإيمان بالفعل الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾:

تحقَّقَ الإيمانُ في القلوب، ورسخَ فيها، فكانتْ أسرعَ لاستجابَةِ النِّداء

جاء فعلُ الإيمانِ بصيغةِ الماضي في قول اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ ليدُلَّ على أنَّ الإيمان صدر منهم، وتلبّس بهم تلبُّسًا يجعلهم أهلًا للاستجابة لتحذير اللّه لهم، ويجعلهم يعملون بمقتضى هذا الإيمان، فالقلوب الخَصبَةُ بالإيمان أسرع في تلقّي الإرشاد.

سرُّ تخصيصِ المؤمنين بالنِّداء:

خُصَّ المؤمنون بالنِّداء في قول اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأنَّهم أكثرُ النّاس استجابةً لأوامر اللّه ومنهيّاته، وأسرع النّاس امتثالًا لتوجيهاته وإرشاداته، فالمؤمنون من عناية اللّه في المحلِّ الأرفع.

بلاغةُ النَّهيِ بـ ﴿لَا﴾:

حُبُّ الله عبادَه المؤمنين اقتضى توجيهَهُم وإرشادَهم

النَّهي بـ﴿لَا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ توجيهٌ وإرشادٌ منَ اللّه ﷻ لعباده المؤمنين، فهو يحذِّرهم من الاستجابة لنزَغات الشَّيطان، الَّتي تسُدُّ عليهم بابَ الطاعاتِ، وتفتَحُ لهم أبوابَ المُنكرات.

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغة الافتِعال ﴿تَتَّبِعُواْ﴾:

الشيطانُ يجُرُّ أتباعَه إلى مهاوي الضَّلالة

أشارتْ صيغةُ الافتعالِ في الفعل ﴿تَتَّبِعُواْ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ إلى التَّكلُّف الشَّديد في الإصغاء لوساوس الشَّيطان، وهو تكلُّفٌ مُنافٍ للفطرة النَّقيَّة الَّتي فطرَ اللّه النّاسَ عليها، أي: لا "تكلِّفوا أنفُسَكم من أمر الضَّلال ضدَّ ما فطرها اللّه تعالى عليه، وسهَّله لها من الهدى"[1]، وفي اقتصارِ النَّفيِ على ما

---
(1) البقاعي، نظم الدرر: 3/ 180.

يقع بتكلُّفٍ وعزمٍ ثابتٍ: إشارةٌ إلى تجاوُزِ اللّهِ عن الخطأ والنِّسيان، وعفوِه للزَّلّاتِ والهفَوات[1]، والتَّضعيف يشير أيضًا إلى المبالغة في النَّهي عن اتِّباعِ خُطوات الشيطان.

سرُّ التَّعبير بـ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾:

للشَّيطان طرائقُ متعدِّدةٌ في الوسوسة

نهى اللّه تعالى عنِ اتِّباع خطواتِ الشَّيطان في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، ولم يتعلَّقِ الاتِّباع المَنهيُّ عنه بالشَّيطان مباشرةً، كما لو قيل: (لا تتَّبِعوا الشَّيطانَ)؛ لما في التَّعبير القرآنيِّ بالخطوات من عِظَم التَّخويف، ومزيدِ التَّرويع للمؤمنين، فالخطواتُ لفظٌ ثريٌّ بمعانٍ كثيرةٍ، لا يحملها التَّعبير بالنَّهي عن اتِّباع الشَّيطان مباشرةً، فالخطواتُ تعني الطُّرقَ والمسالك، وقد تعني العملَ، وقد يراد بالخطوات نزَغاتُ الشَّيطان، وقد يراد بها كلُّ معصيةٍ، فجاء التَّعبيرُ بأفصحِ العبارة وأوجزِها وأبلغِها وأحسنِها[2]، فكلُّ ما عدا السُّنن والشَّرائعِ من البدع والمعاصي والطُّرُق المُضلِّة، والأفعالِ الخبيثة: هي خطواتٌ للشَّيطان[3]، ولو عُبِّر بالشَّيطان مباشرةً؛ لَما أعطى هذه المعاني.

دلالةُ ﴿خُطُوَٰتِ﴾ معنًى وصيغةً:

طُرُق الشَّيطان وسُبُلُه إلى الضَّلالةِ والغواية كثيرة ومتعدِّدة

كشفتْ صيغةُ جمعِ الخطوات في قول اللّه تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ عن كثرة حبائل الشَّيطان التي يوقِع بها الإنسانَ في شِرْكِه وشَرَكِه، والخُطوة اسم مكانٍ يُطلق على المكان المتخطّى، وهو ما بين القدمين، كالغُرفة لما يُغترف بالكفِّ، فيكون المعنى: لا تتَّبعوا سبيلَهُ، ولا تسلكوا طريقه[4].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 236.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 30.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/ 237، 2/ 354، 4/ 172.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 5/ 186.

تبشيعُ وساوسِ الشَّيطان وطُرقِ غوايته لشدَّة التَّحذير منها

سرُّ إضافةِ ﴿خُطُوَٰتِ﴾ إلى ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾:

إضافةُ الخطوات إلى الشَّيطان في قول اللّه تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ إضافةٌ تحقيريَّة، فاستمدَّ المضافُ من المضاف إليه تحقيرًا شديدًا، وتهجينًا أكيدًا، وهذا فيه من التَّنفير ما يجعل الإنسانَ يُقيم بينه وبين وساوسه حاجزًا قويًّا، وحصنًا منيعًا، من تقوى اللّه ﷻ والاستعاذة الدائمة من شروره.

الشَّياطينُ في وساوسهم وطُرُقِ إضلالهم ملَّةٌ واحدة، ورأسُهم في الغواية إبليسُ

دلالةُ تعريف ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾:

اللّام في ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ للجنس، أي: لجنس الشياطين، ويجوز أن تكونَ للعهد، فيكون المرادُ إبليسَ، وهو أصل الشَّياطين وآمِرُهم، فكلُّ ما ينشأ من وسوسة الشَّياطين، فهو راجعٌ إليه؛ لأنَّه هو الَّذي خطا الخطوات الأولى[1].

التَّحذيرُ البالغ من الوقوع في شَرَكِ الشيطان

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾:

في التَّعبير بخطوات الشيطانِ من قول اللّه تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ استعارةٌ تمثيليَّة لاتِّباعِ الشَّيطان بامتثال وساوسه[2]، والاقتداءِ به، واتِّباعِ ما سنَّ من المعاصي[3]، فهو "مِن مجاز التَّمثيل، فإنَّه ليس المرادُ النَّهيَ عن اتِّباع خطواته حقيقةً؛ إذ لا نراه نحن، بل الخطوات معنويَّة"[4]، وعلى هذا، يكون قد شُبِّهَ حالُ من أثَّرت فيهم وساوس الشَّيطان، وفعلوا ما أمرهم من المنكراتِ بحال السّائرين في طريقٍ على غير هدًى، فلا يصلون إلى مطلوب، ولا يحصلون على مرغوب.

ويجوز أن تكونَ وسوسةُ الشَّيطان للَّذين جاؤوا بالإفك مشبَّهةً

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 103.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 320.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 2/ 101.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/ 489.

بالمشي[1]، وعلى هذا تكون استعارةً تصريحيَّةً في لفظ ﴿خُطُوَٰتِ﴾، شبَّه فيها الوسوسة بالخطوات في أنَّ كُلًّا منهما وسيلةٌ توصل إلى شيء مرادٍ، وعلى كلٍّ من نوعَي الاستعارة - سواءٌ كانت تمثيليَّةً أم تصريحيَّةً - فإنَّ التَّعبيرَ بها أكشفُ لِحِيَل الشَّيطان وخداعه، وفيه تحذيرٌ شديد للمؤمنين من شِراكهِ المنصوبة، وفخاخه المضروبة، المعبَّرِ عنها بالخطوات.

بلاغةُ إظهارِ ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ مكانَ الإضمار:

الإمــعــانُ في التَّـحـذيـر من وســـاوسِ الشَّيطان

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بإعادة ذكر ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، بعد سَبْقِ ذكرِها في أوَّل الآية، في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، وكان مقتضى هذا التَّكرارِ إضمارَ مفعولِ الاتِّباع في الجملة الثانية، بأنْ يُقال مثلًا: (ومَنْ يَتَّبِعْها)، أو إضمارَ ما أُضيف إليه المفعولُ: (ومَنْ يَتَّبِعْ خُطواتِه)، لكن جاء التَّعبيرُ الأبلغُ بالإظهار في مقام الإضمار: ﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾؛ للتَّأكيد على خطورة تلك الخطوات، ولإبلاغ البيان لها، ولفتِ الانتباه لها؛ لتقوية الحذَرِ من اقتفاء أثرِه، والتَّخويفِ من الخضوع لوساوسِه، ففي الإظهار والتَّكرير "مبالغةٌ في التنفير والتَّحذير"[2]، مع كمال التقرُّر في الذهن، وتمام استقلال الجُملَة[3].

معنى فاءِ ﴿فَإِنَّهُۥ﴾:

مَــنْ يـتَّـبـعِ الشَّيطانَ؛ يقعْ في الـفـحـشـاء والمنكرِ

الفاءُ في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ تعليليَّةٌ، والجملة "علَّةٌ للنَّهي عن الاتِّباع"[4]، وهي جملةٌ حلَّت محلَّ جوابِ (من) الشَّرطية؛ فهذه الجملة "علَّةٌ للجزاءِ، وُضِعَتْ موضعَه، كأنَّه قيل:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 187.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 164.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 13/ 300.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 102.

فقد ارتكب الفحشاء والمنكر؛ لأنَّ دأبَهُ المستمِرَّ أن يأمرَ بهما، فمَن اتَّبع خطواتِهِ، فقدِ امتثل بأمره قطعًا"[1].

لطيفةُ التَّعليلِ عَقِب النَّهي:

الـشَّيءُ المعلَّلُ تُسرِع النَّفس إلى قبوله

من لُطف اللّه ﷻ بعباده، أنْ علَّل جملةَ النَّهي ﴿لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ بقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، واللّه ﷻ ليس في حاجةٍ إلى التَّعليل، فإنَّه سبحانه إذا أمر، أو نهى؛ ما لنا إلّا الإذعانُ والخضوع، فإنَّه - تقدَّست أسماؤهُ - يأمر بالخير، وينهى عن الشَّرِّ؛ لكنَّ هذا التَّعليلَ منه سبحانه تلطُّفٌ بالعباد، ورِفقٌ بهم، وتودُّدٌ إليهم، وهذا التَّعليلُ يجعل النُّفوس تُقبِل على مضمون النَّهي بأريَحيَّةٍ واقتناع، فالشَّيءُ إذا بدا علَّتُهُ؛ كانت النُّفوس إلى قَبوله أسرعَ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ﴾:

الحرصُ الدّائم من الشَّيطان على الإيقاعِ بالإنسان

التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّةِ ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ أبلغُ مِنَ التَّعبير بالفعليَّة الَّتي وقعتْ جوابًا لـ(مَنْ) الشَّرطية، والتَّقدير: (فقد ارتكب الفحشاء والمنكر)؛ لأنَّ مَنِ اتَّبعَ خطواتِ الشيطان فقدِ امتثل أمرَه[2]، وحُذِفَ هذا الجوابُ لدلالةِ الجملة الاسميَّة عليه، ولأنَّ الاسميَّة أقوى في إثبات الأمر بالفحشاء والمنكر من الفعليَّة، ففيها تحذيرٌ أشدُّ، وتخويفٌ أقوى.

بلاغةُ التوكيد بـ(إنَّ):

الإبــلاغُ في التَّحذيـر من إغواء الشَّيطان، والتَّشنيع على من يتَّبع خطواته

التوكيدُ بـ(إنَّ) في قول اللّه تعالى ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ للاهتمام بالخبر وتأكيده، ويجوزُ أيضًا أن يكونَ التَّأكيدُ لتنزيل غيرِ المتردِّد في الحكم منزلةَ المتردِّد؛ لأنَّهم باتِّباعهم وساوِسَ الشَّيطانِ، كأنَّهم يُنكرون إغواءَهُ وإضلالَهُ إيّاهم، وأمرَه بالفحشاء والمنكر[3].

(1) أبوالسعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 164.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 164.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 104.

عودُ الضَّمير مِنْ ﴿فَإِنَّهُۥ﴾:

الضمير في ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ من قول اللّه تعالى ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ عائدٌ على الشَّيطان؛ لأنَّه الأصل، وقيل: عائدٌ على (منْ) الشَّرطيَّة، أَي: فإِنَّ مُتَّبِع خطوات الشَّيطان يأْمر بالفحشاء[1]، وقيل: الضَّمير للشَّأن[2].

الشَّيطان رأسُ كلِّ شر

إيثار فعل ﴿يَأۡمُرُ﴾ مضارعًا:

مجيءُ فعلِ الأمر مضارعًا في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾، يدلُّ على التجدُّد، أي: إنَّ الشَّيطان لا يسأم من إغواء البشر وإضلالهم، بل دأْبه المعاودة والمراودة، وهذا شأْنُه ما بقي الناس، وتردَّدت فيهم الأنفاس، وهذا ما يوجب الحذرَ منه، دفعًا لمكايدِه، وإبطالًا لمصايدِه.

الشَّيطانُ لا يملُّ من تنفيذ غرضه

معنى باء ﴿بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾:

السياق هنا يرجِّحُ أن تكون الباء للإلصاق، وهذا يَكشف عن أنَّ الشَّيطان لا يأتي إلّا بِشَرٍّ، فالإغواء شِعارُه، والإضلال دِثارُه، لا يَني، ولا يمَلُّ، فالمنكرات به ملصقةٌ، والفحشاء به معلَّقة، تلكم الأمورُ لا تنفكُّ عنه، ولا ينفكُّ هو عنها.

كشفَ القرآنُ حقيقةَ الشَّيطان

دلالةُ التعبير بالفحشاء:

آثر التَّعبيرُ القرآنيُّ لفظَ الفحشاء؛ للدَّلالة على أنَّ الشَّيطان يريد للإنسان أشدَّ المهالكِ، وأوْخَمَ المسالكِ؛ لأنَّ معنى الفحشاء "ما عظُم قبحُهُ من الأفعال والأقوال"[3]، فهو يريد للإنسان عظيمَ الأخطار، وبشاعةَ الأضرار، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠﴾ [النساء: 60].

لا يبغي الشَّيطانُ للإنسان إلّا الشَّرَّ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 24.
(2) أبوالسعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 164.
(3) الراغب، المفردات: (فحش).

بلاغةُ الاستعارةِ في أمرِ الشَّيطان:

شـدَّةُ وقـع الـوسـوسـة عـلى الإنـسـان، وتـسـفـيـهُ من يغترُّ بوسوسته

الأمرُ بالفاحشة ليس على حقيقته، فالمرادُ به الوسوسة والتزيين، وعليه يكون شبَّه النظمُ الحكيم التزيينَ والوسوسة بالأمر، والجامع بين الطرفين شدَّةُ الوقع وقوَّة التأثير، فالوسوسةُ وقعُها على القلوب شديدٌ، وتأثيرها على بني آدم أكيد، إلّا من عصمه اللّه ﷻ، فالضَّعف البشريُّ مجال لتنفيذ وسوسة الشَّيطان، كما أنَّ الأمرَ وقعُه على المأمور قويٌّ؛ لأنَّ الأصلَ في الأمر صدورُه مِنَ الأعلى إلى الأدنى، وإذا كان كذلك؛ كان تنفيذُ الأمر محقَّقًا، وفي التَّعبير بالأمر تسفيهٌ أيضًا لمن يغترُّ بهذا التزيين، وينقاد له، وفيه تحقيرٌ لشأنهم، والاستعارة إمّا أن تكون تمثيليَّةً أو تبعيَّةً[1].

فهذه الاستعارة تكشف عن خطورة الوسوسة في خرق القلوب، وتحثُّ الإنسان على الاستعاذة بقيّوم السموات والأرض، فهو وحدَهُ القادرُ على حماية الإنسان من مكائد الشَّيطان.

بلاغةُ حذفِ المضافِ إلى الفحشاء والمنكر:

حـذْفُ المضافِ للتَّعجيل ببيانِ قُبحِ وساوسِ الشَّيطان

في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ مضافٌ محذوف، والتَّقدير: (يأمرُ بفعل الفحشاءِ وفعل المنكر)، لكنَّ النظمَ القرآنيَّ حذَفَ المضاف لدلالة السياق عليه، وللتَّعجيل بالدُّخول إلى ذِكر القبائح والمنكرات الَّتي يأمر بها الشَّيطان، لتتبيَّن للنّاس بشاعةُ قصده، وشناعة غرَضه، فيحذروا منه.

دلالةُ عطفِ المنكرِ بالواو:

الـشَّـيـطـانُ يـأمـرُ الإنـسـان بجميع القبائحِ مِـنَ الأقـوال والأفعال

عطفَتِ الواو المنكر على الفحشاء في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾، وهذا مِن عطف المفرداتِ بعضِها على بعض، والعطف بالواو يقتضي المغايَرة، فدلالةُ المنكر غيرُ دلالة الفاحشة، وإن كان يجمعُهما معنى القبحِ، فالفاحشةُ "ما عظُمَ قُبحُهُ من الأقوال

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 300.

والأفعال"[1]، والمُنْكَرُ: كلُّ فِعْلٍ تحكُم الشَّريعةُ والعقولُ الصحيحةُ بقُبْحِهِ[2]، وكان السّياق القرآنيُّ بليغًا في اقتضاء تلك المغايرة، ترهيبًا للإنسان من الشَّيطان وتحذيرًا، وتنفيرًا من اتِّباع خطواته.

عُطِفَ العامُّ على الخاصِّ لتبشيعِ الفاحشة، والتَّشنيعِ على من يقومُ بها

يتبيَّن من دلالة كلٍّ من الفحشاء والمنكر أنَّ لفظ الفحشاء أخصُّ؛ لأنَّها تصدق على عظيم القبح والفعل؛ أمّا المنكر؛ فهو كلُّ ما يُنكره الشَّرع والعقل السليم، عظُم هذا المنكرُ أو حقُر، فعُطِفَ العامُّ على الخاص في قول الله تعالى: ﴿يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾، والمغزى هو بيان بَشاعةِ الفحشاء وشناعتِها، وهذا التَّبشيعُ والتَّشنيع جاء مِن ذكر الفحشاء مرَّتين: مرَّةً وحدَها، ومرَّةً سيقت في العموم عند دخولِها تحت المنكرِ، وهذا فيه ما فيه من شدَّةِ التَّحذير من اتِّباع خطوات الشيطان.

سرُّ تقديمِ الفحشاء على المنكر:

تقديمُ الأخوفِ أبلغُ في التَّرهيب

قُدِّمت الفحشاءُ على المنكر في قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ للتَّهويل منها، فهي من المنكر أشدُّ، وأمرها أحدُّ، وخطرها أفظعُ، وعاقبتها أوجعُ، فقدَّم النظم القرآنيُّ الأخطرَ على الأقلِّ خطورة.

نكتةُ الشَّرطِ بـ(لولا):

تزكيةُ القلوب مِن فضل الله ورحمتِه بالعباد

التَّعبيرُ بـ(لولا) في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾، يشير إلى واسعِ رحمةِ الله ﷻ بعباده، وكريمِ فضلِه عليهم، فلولا وجودُ فضلِه ورحمته، ما حصلت لهم تزكيةٌ، وهذا بناءً على لفظة (لولا)، فهي حرفُ امتناعٍ لوجود غيره[3]، أي: امتنع وقوع جملة النَّفي: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾؛

(1) الراغب، المفردات: (فحش).
(2) الراغب، المفردات: (نكر).
(3) الزجاجي، حروف المعاني والصفات، ص: 4.

لوجود: ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾، وخبر: ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ هنا محذوفٌ، والتقديرُ: (ولولا فضلُ اللّه عليكم ورحمتُه موجودان؛ ما زكَى منكم من أحدٍ أبدًا).

دلالةُ التَّعبيرِ بالفضلِ:

هدايةُ اللهِ وتزكيتُه عبادَهُ محضُ تفضُّلٍ وإحسان

إيثارُ النَّظمِ الكريم لفظَ الفضلِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ للإشارة إلى أنَّ اللّه ﷻ بَرٌّ كريم بعباده المؤمنين؛ فلولا أنَّه سبحانه تفضَّل عليهم بالهداية والإرشاد، والتوبة والمغفرة؛ لأهلكَتْهم وساوسُ الشَّياطين.

سرُّ إضافةِ الفضل إلى الاسم الأعظم:

طاعاتُ العباد مِن نتائجِ الفضل الإلهيِّ

إضافةُ الفضلِ إلى الاسم الأعظم في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ تكشِف عن أنَّ أعمالَ الطاعات إنَّما هي بفضل اللّه وتوفيقه، ولولاه ما طهُر من دنَس الذُّنوب أحدٌ، ولكنَّ اللّه يُزَكّي، ويُطهِّر مَنْ يَشاءُ من عباده، بإفاضة آثار فضلهِ ورحمته عليه، وحَمله على التَّوبة، ثم قبولها منه"[1]، ولم يقلْ: ولولا فضلُ عبادتكم وصلاتكم وجهادكم وحسنِ قيامكم بأمر اللّه؛ ما زَكى مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا؛ لنعلمَ أنَّ العباداتِ - وإن كثُرت - فإنَّها من نتائج الفضل[2].

سرُّ تقديمِ الفضل على الرَّحمةِ:

طاعاتُ العبادِ مِن جميل مِنَنِ الله عليهم

فضلُ اللّه ﷻ نابعٌ من رحمته بعباده، وعلى هذا يكون تقديم الفضل على الرَّحمة في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾، من تقديم المسبَّب على السَّبب، وهذا التَّقديم أدخَل في باب الامتنان على العباد، ليعلموا أنَّ عباداتهم وطاعاتهم ليستْ من جهدِهم، وإنَّما هي من توفيق اللّه لهم، وإعانتهم عليها، فطاعتهم تحتاج إلى شكر تِلوَ شكر.

(1) الخلوتي، روح البيان: 6/ 131.
(2) الخلوتي، روح البيان: 6/ 122.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ معنًى وتركيبًا:

جاء المبتدأُ ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ مقيَّدًا بحرف (على) المفيدِ في أصل دلالته معنى الاستعلاء، وهذا يفيد شُمولَ فضل اللّه لعباده المؤمنين، وأنَّ هذا الفضلَ استعلى عليهم، وأظلَّهم، ومنع عنهم نزغاتِ الشَّيطان، ودخولُ حرفِ الاستعلاء على ضمير الخطاب العائد على المؤمنين في قوله جلَّ شأنه: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ فيه زيادةُ امتنانٍ من اللّه ﷻ، وفي وقوع (على) بين الفضل والرَّحمة إسراعٌ بالتَّنبيه إلى هذا الامتنان؛ إذ كان يجوز أن يأتيَ التَّعبيرُ بحذف متعلِّق الفضل، والاكتفاءِ بمتعلِّق الرحمة: (ولولا فضلُ اللّه ورحمتُه بكم؛ ما زكا منكم من أحدٍ أبدًا)، وحُذِفَ القيدُ من الرَّحمة - والتَّقديرُ: (ورحمتُه بكم) - اعتمادًا على ذِكره مع الفضل: ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾.

شمولُ فضلِ اللهِ لعباده المؤمنين

توجيهُ النَّفيِ بـ﴿مَا﴾:

النَّفيُ بـ﴿مَا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدًا﴾، فيه تحقيقٌ وتقرير لعدم وقوع الفعل عند انتفاءِ فضل اللّه ورحمتهِ، وهذا التَّحقيقُ جاء بدلالة ﴿مَا﴾، فإنَّ النَّفيَ بها يقابل في الإثباتِ التَّقريرَ والتَّوكيدَ بـ(لقد)؛ "لأنَّه كأنَّه قال: واللّهِ لقد فعل، فقال: واللّه ما فعل"[1]، فالنَّفيُ بـ﴿مَا﴾ أبلغُ في إثباتِ التَّزكية والتَّطهير بوجود فضل اللّه ورحمتِه، فلولا فضل اللّه على النّاس ورحمتُه بهم؛ ما حدَثتِ التَّزكية أبدًا، والمبالغة جاءت من نفي فعلٍ مؤكَّدِ الثُّبوت (لقد زكا)، فكان النَّفيُ بـ﴿مَا﴾ تأكيدًا وتحقيقًا لعدم وقوع الفعل من غير فضلِ اللّه ورحمته.

لا تتحقَّق تزكيةُ الإنسان إلّا برحمة الرَّحمن

دلالةُ صيغةِ الماضي في ﴿زَكَىٰ﴾:

دلَّتْ صيغةُ الماضي لِفِعلِ التَّزكية في قول اللّه تعالى: ﴿مَا زَكَىٰ

لا رادَّ لقضاء الله، ولا مُعَقِّبَ لحكمِهِ، ولا غالبَ لأمرِهِ

(1) سيبويه، الكتاب: 3/ 117.

مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾، على أنَّ إرادةَ اللّه إذا التبست بنفي شيءٍ؛ انتفى الشَّيءُ انتِفاءً مُحَقَّقًا، واستحال حدوثُه، فتزكيةُ العبدِ وتطهيره ما كانا ليَحدُثا إلّا بمرادِ اللّه وفضله ورحمته.

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة ﴿مِنكُم﴾:

تطهيرُ العباد من دنَسِ المعاصي فضلٌ من الله ورحمة

في قول اللّه تعالى: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾، يجوز أن يكونَ ﴿أَحَدٍ﴾ فاعلًا على قراءة التَّخفيف في ﴿زَكَىٰ﴾، ويكونُ المعنى: (ما طهُر) بالفعل اللازم، ويجوز أن يكونَ مفعولًا على قراءة التَّشديد (زَكَّى)، ويكون المعنى: (ما طَهَّر) بالفعل المتعدّي، وعلى كلٍّ من الإعرابَين، فإنَّ شِبهَ الجملة ﴿مِنكُم﴾ مُقدَّمٌ عليهما، وسِرُّ التَّقديم أنَّ الخطابَ موَجَّهٌ إلى عباده المؤمنين، فهُمُ المعنيّون به؛ لذلك كان تقديمُهم أولى؛ تحديدًا لهم، وتركيزًا عليهم، وفي هذا لفتٌ لهم، وبعثٌ ليَقظَتِهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿مِّنْ﴾:

استغرَقَ النَّفيُ الآحادَ والجماعاتِ

في قول اللّه تعالى: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أكَّد النَّظمُ القرآنيُّ جوابَ الشَّرط وعمومَه بـ﴿مِّنْ﴾، الدالَّةِ على استغراق النَّفي للآحادِ والجماعة، ولم يقلْ: (ما زكا منكم أحدٌ)، أو: (ما زكّى منكم أحدًا)، فالتَّعبيرُ بـ﴿مِّنْ﴾ أبلغُ في تأكيد الاستغراق الَّذي يفيده ﴿أَحَدٍ﴾[1] وأقوى في ترسيخ العموم.

سرُّ تنكير ﴿أَحَدٍ﴾:

اللّهُ وحده هو المزكّي للعباد

جاء النَّظمُ الحكيم بتنكير ﴿أَحَدٍ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾؛ لإفادة العموم والشُّمول، فإنَّ أكثرَ أحوالِ استعمال (أحد): تعميمُه في النَّفي، نحو قوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: 47]، وقولِ العرب: (أحدٌ لا يقول ذلك)،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 147، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 1567.

فهذا الاستعمالُ يفيد العمومَ، كشأن النَّكرات كُلِّها في حالة النَّفي[1]، ومعنى الآيةِ بتنكير ﴿أَحَدٍ﴾: أنَّه لا يوجد أحدٌ - مهما كان زمانُهُ أو مكانُهُ - زاكٍ بنفسِهِ أو مُزَكًّى من اللّه إلّا بفضل اللّهِ وتوفيقه.

فائدةُ التَّعبير بالظَّرف ﴿أَبَدًا﴾:

تزكيةُ النُّفوس من محض رحمة الله وفضله

جاءُ التَّعبيرُ بظرفِ الزَّمانِ ﴿أَبَدًا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ لتأكيد النَّفي[2]، ولإفادةِ تعميم الزَّمان[3]، وتلك الأبديَّة تكشِف عن عِظَم فضل اللّه ﷻ في تزكية نفوس العبادِ، وأنَّها ليست من محض اجتهادِهم، بل توفيقُ اللّهِ هو الذي حداهم إليها، وأعانهم عليها.

بلاغةُ العطفِ والاستدراك بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

تزكيةُ النُّفوس خاضعةٌ لمشيئةِ الله ﷻ

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ عاطفةٌ، عطفتْ جملةَ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي﴾ على جملةِ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ﴾، وهذا العطف يبيِّن أنَّه لا يستطيع إنسانٌ أن يزكّيَ نفسَهُ إلّا بمشيئةِ اللّه ﷻ وتوفيقِه، وهذا هو سرُّ المجيء بحرف الاستدراك (لكنَّ)؛ لِما في الكلام المنفيِّ من توهُّم إمكانِ تزكية أنفسِهم، فمصبُّ الاستدراك هو الصِّلة ﴿مَن يَشَآءُ﴾، أي: لا تزكيةَ لمن لم يَشَأِ اللّهُ تزكيتَهُ[4].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يُزَكِّي﴾:

تـزكـيـةُ الـلـهِ للعباد متجدِّدة بتجدُّد توبتهم

التَّعبيرُ بالمضارع في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ يفيد التجدُّدَ، أي: إنَّ تطهير اللّهِ قلوبَ عباده، وتزكيةَ نفوسِهم، يتجدَّدُ بتجدُّدِ توبتهم، ويحصل بحصول أوبتِهم، وفي صيغة المضارع أيضًا تصويرٌ لمشهد التَّزكية، مع أنَّ التَّزكيةَ والتَّطهير أمرٌ معنويٌّ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 740.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 1567.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 247.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/ 72.

فالمضارعةُ تضفي نوعًا من الحسّيَّة الَّتي تحُضُّ العبادَ إلى اللُّجوء إلى ساحة اللّه ربِّ العالمين ندمًا واستغفارًا.

إيثارُ التَّعبيرِ بالموصول ﴿مَن﴾:

خضوعُ الأفعالِ لمشيئةِ ذي الجلالِ

يُتيحُ التَّعبيرُ بالاسم الموصول ﴿مَن﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ﴾ ذِكرَ الصِّلة الَّتي ترفعُ الإبهامَ عن الموصول، والصِّلة هنا جملة ﴿يَشَآءُۗ﴾، ومن ثَمَّ، فإنَّ التَّعبير بـ﴿مَن﴾ الموصولة تفتح باب المشيئة، وأنَّه لا تكون تزكيةٌ إلّا وفْقَ مشيئةِ اللّه ﷻ، ثُمَّ إنَّ في إيثار التَّعبير بالموصول ﴿مَن﴾ معنى العموم الدالَّ على أنَّ تزكيةَ اللّه ليست منحصرةً في شخص أو زمن، بل تكون لكُلِّ إنسان هيَّأَ نفسَهُ لمغفرة اللّه ورضوانه.

نكتةُ التَّعبيرِ بالصِّلة ﴿يَشَآءُۗ﴾:

الهدايةُ متوقِّفةٌ على مشيئة اللّه، وهو يَجزي بها المهتدي

في مجيء الجملةِ الفعليَّة ﴿يَشَآءُۗ﴾ صلةً لـ﴿مَن﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ﴾ إثراءٌ معنويٌّ لا يوجد عند التَّعبيرِ بغيرها، ففاعل ﴿يَشَآءُۗ﴾ المُضمَرُ راجعٌ إلى اللّه ﷻ، ويجوز أن يكون الضَّميرُ عائدًا على الإنسانِ، ويكون المعنى: ولكنَّ اللّه يزكّي من يشاء أن يتزكّى، يُسوِّغ القولَ بهذا أنَّ التَّزكيةَ في القرآن أُسندت إلى الإنسان في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ﴾ [فاطر: 18] لكن الأرجح عودُ الضَّمير إلى اللّه ﷻ.

دلالةُ فعلِ المشيئة مضارعًا:

لله ﷻ المشيئةُ المُطلَقةُ

جاء فعلُ المشيئةِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ﴾ مضارعًا؛ للدّلالة على تجدُّدِ مشيئة اللّه ﷻ وفْقَ إرادته وحكمته، فمن وجد فيه خيرًا؛ زكّاه، ومن زاغ؛ أزاغ اللّهُ قلبَهُ، وهذا فيه تحفيزٌ للعباد في أن يَسْعَوا إلى تطهير أنفسِهم بالتَّوبة والأوبة.

سرُّ إظهارِ اسمِه الأعظم:

إظهارُ الاسمِ الجليل في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛

للإيذان باستدعاء الأُلوهيَّةِ للسَّمعِ والعلم، مع ما فيه من تأكيدِ استقلال الاعتراض التذييليِّ[1]، وليكونَ التَّذييلُ جاريًا مجْرى المثل[2]، إذ كان من الجائز أن يحُلَّ الضَّمير محلَّ لفظ الجلالة، فيقال مثلًا: (وهو سميع عليم)، لتقدُّم ذكرِ لفظِ الجلالة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ﴾، لكنَّ النظمَ أعاد لفظ الجلالة؛ تربيةً للمهابة في النُّفوس، حتّى لا يخوض النّاس فيما لا يجوز الخوضُ فيه، من إشاعة الفاحشةِ وغير ذلك.

تربيةُ المهابةِ في نفوس النّاس

سرُّ تنكيرِ ﴿سَمِيعٌ﴾ و﴿عَلِيمٌ﴾:

السرُّ في تنكير صفتَيِ السَّمع والبصر في قول اللّه تعالى ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ هو تعظيمُ تلك الصِّفتين تعظيمًا يستوجب سَعةَ سمعِهِ ﷻ، وسعة علمِهِ لجميع المخلوقين، فلا يغيب عن سمعِهِ وعلمه شيءٌ، فهو الَّذي أحاط بكلِّ شيءٍ علمًا، ووسِع سمعُهُ كُلَّ شيءٍ، وهذا تهديدٌ شديد للعباد، فإنَّ أفعالَهم وأقوالهم تحت سمعِ اللّهِ وبصره، وهذا يجعلُهم لا يُقدِمون على معصيةٍ.

سَعَةُ علمِ الله وسمعه تهديدًا للعباد

دلالةُ صيغةِ (فعيل):

صيغ وصفُ اللّه بالسَّمع والبصر صيغةَ اسم الفاعل على وزن (فَعيل) في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وتلك الصيغةُ للمبالغة في سمعِ الأقوالِ، الَّتي من جملتها ما أظهروه من التَّوبة، وللمبالغة في علم جميع المعلومات، التي من جملتها نيّاتهم[3]، فالمرادُ أنَّه يسمع أقوالكم في القذف، وأقوالَكم في إثبات البراء، وهو عليم بما في قلوبكم من محبَّة إشاعة الفاحشة، أو من كراهيَّتها، وإذا كان كذلك؛ وجبَ الاحتراز عن معصيته[4].

وجوبُ الحذَرِ ممَّن يسمع جميعَ المسموعاتِ، ويعلم جميعَ المعلوماتِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 165.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 188.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 165.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 348.

غرضُ الخبرِ ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

وجوبُ الحذرِ من موجِبات غضب الله سبحانه

غرضُ الخبرَين ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ - أو الخبر ونعته - من قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ هو التَّهديد؛ لأنَّ الإنسان إذا ما عَلِمَ سَعة علمه ﷻ وسعة سمعه؛ انزجر - لا محالةَ - وارْعَوَى عن موجِبات غضبه، "وفيها أيضًا حثٌّ لهم على الإخلاص في التوبة"[1].

بلاغةُ التَّذييل بقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

التَّذييلُ تأكيدٌ للمعاني السّابقة

ذُيِّلَتِ الآياتُ بقول الحقِّ تعالى ذكرُه: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، والتَّذييل له "في الكلام موقِعٌ جليل، ومكانٌ شريفٌ خطير؛ لأنَّ المعنى يزداد به انشراحًا والمقصد اتِّضاحًا"[2]، وهذا التَّذييل ناسَب المعانيَ السّابقة مناسبةً تامَّة، فجاء مؤكِّدًا لها، ومُظهِرًا خطَرها، ووجه التَّأكيد أنَّ الَّذي يخضع لوساوسِ الشَّيطان، ويفعل ما يزيِّنه له من الفحشاء والمنكر، ويَقذِف البريئاتِ العفيفاتِ، فإنَّ اللّه ﷻ سميعٌ لأقوالهم في القذف، عليمٌ بما في قلوبهم من محبَّة إشاعة الفحشاء بين المسلمين، فالتَّذييل بالغٌ في شدَّة التَّحذير، وقوَّة التَّنفير.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاتِّباع والاحتذاء والاقتداء والامتثال والانقياد:

الاتِّباعُ موالاةٌ، ونظرٌ في دقائق الأمور، مع ملاحظة معنى الشَّرِّ

جاء النَّظمُ القرآنيُّ دقيقًا جدًّا في اختياره لفظةَ الاتِّباع في قول اللّه تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ دون ما سواه من نظيراتها المذكورة؛ لأنَّها تفترق عنها بما يأتي، فالاتِّباع مناسِبٌ لخطوات الشَّيطان دون ما سواه؛ لأنَّ الخطوةَ تتبع أختها في المشي، فالموالاةُ فيها مرعيَّة، كذلك الاتِّباع يُراعَى في معناه معنى الموالاة بِلا مُهلة[3]، ومعنى الموالاة ليس موجودًا في النَّظائر السّابقةِ ذكرُها.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 165.
(2) العسكري، الصناعتين، ص: 373.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (تبع).

وفي بعض دلالات الاتِّباع معنى الشَّرِّ - الَّذي هو من غرض الشيطان وقصدهِ - فجاء الاتِّباع مشيرًا إلى هذا، يقال: "أَتْبَعَ فُلانٌ فلانًا؛ إذا تَبِعَه يُريدُ به شَرًّا"[1]، ومعنى الشَّرِّ هذا ليس موجودًا في المترادفات السّابقة، وفي الاتِّباع أيضًا مراعاةٌ للمعاني الدَّقيقة، يقال: "فلانٌ يَتتبَّع مَداقَّ الأُمورِ"[2]، ومداقُّ الأمور من مداخل الشَّيطان للإنسانِ، ففي الاتِّباع نوعُ استبصارٍ ومعرفة، تومِئ بقصديَّة الموالاة عن علم.

أمّا الاحتذاءُ؛ فمأخوذٌ من مادَّة (حذا)، يقال: فُلانٌ يَحْتَذي على مِثالِ فُلانٍ؛ إذا اقتَدى به في أَموره، وحاذَيْتُه: صِرْتُ بحِذائه[3]، أي: بإزائه، وهذا المعنى غيرُ مرادٍ في الانقياد للشيطان.

والاقتداءُ: الاتِّباع، ومنه الاقتداءُ بإمام الصَّلاة، وذلك أن يتبع أفعالَهُ، فلا يتقدَّم عليه، ولا يتأخَّر عنه، ولا يزيد عليه، ولا ينقص عنه[4]، والقِدوة: الأُسْوة[5].

والتأسّي يتعلَّق بما تكرهه النَّفسُ، وهو إمّا بلاء أو فتنة أو امتحان، وخطواتُ الشَّيطان أوسعُ من ذلك.

والامتثالُ: الاحتذاءُ، يُقال: امتثلْتُ مِثال فلانٍ، أَي: احتذيْتُ حَذْوَهُ، وسَلَكْتُ طَريقَتَهُ[6]، ويُلمح في الامتثال معنى المشابهة، فالمُمَثَّلُ: المصوَّر على مثال غيره[7]، وهو معنًى غير مرادٍ في سياق الآية.

والانقيادُ: الخضوعُ، تقول: قُدْتُهُ، فانْقادَ لي؛ إذا أعطاك مَقادَتَهُ[8]، وفي الانقياد معنى التَّقييدِ المنافي للاتِّباع بمعرفة وعلم واستبصار.

فترى أنَّ تلك النَّظائرَ لا تصلُح واحدةٌ منها في هذا السّياق؛ لأنَّها لا تحمِل المعانيَ الموجودةَ في الاتِّباع، الَّتي هي من أغراض الشَّيطان، فالاتِّباع يفترق عن غيره بمعاني

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (حذا).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (تبع).
(3) الفراهيدي، العين: (حذو)، والأزهري، تهذيب اللغة: (حذا).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (قدا).
(5) الجوهري، الصحاح: (قدا).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (مثل).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (مثل).
(8) الجوهري، الصحاح: (قود).

الموالاة المناسِبة للخطوات، ومعنى الشَّرِّ، ودقائق الأمور، والاتِّباع عن معرفةٍ وعلم، فكانت أنسبَ لسياق التَّحذيرِ من وساوس الشَّيطان ونزَغاته.

التزكيةُ جماعٌ لمعاني الصَّلاح، والطُّهر، والنموِّ، والبركة، والطَّهارة

التَّزكية والتَّطهير والتَّنقية والإصلاح:

كان السّياق القرآنيُّ دقيقًا في اختيار مادَّة التَّزكية في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾، دون النَّظائرِ الأخرى، من التَّطهير والإصلاح وغيرِها؛ لأنَّ التَّزكيةَ تحمِل كُلَّ هذه المعاني، فمادَّةُ الزَّكاة في اللُّغة - سواء جاء فعلها بتخفيف الكاف ﴿زَكَىٰ﴾ أم بتشديدها (زَكَّى) - تحمل معانيَ متعدِّدة، لا توجد في نظائرها: ففيها معنى الصَّلاح والطُّهر، وفيها معنى النُّموِّ والبركة والطَّهارة، فـ"أَصل الزَّكاةِ في اللُّغَة: الطَّهارَةُ والنَّماء والبَركةُ والمَدْح"[1].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (زكى).

﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢﴾ [النور:22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

قطْعُ الإحسانِ عنِ المستحِقّين مِن خطوات الشَّيطان

هذه الآيةُ معطوفةٌ على جملة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، فقد يخفى على الإنسان أنَّ قطْعَ النَّفقة عن الَّذي خاض في عِرض عائشة من خطوات الشَّيطان، فإنَّ من كيد الشَّيطان أن يأتيَ بوسوسةٍ في صورةِ خواطر الخير؛ إذا علم أنَّ الموسوَس إليه من الَّذين يتوخّون البرَّ والطّاعة، وأنَّه ممَّن يتعذَّر عليه ترويجُ وسوسته؛ إذا كانت مكشوفةً، فيلجأ الشَّيطان إلى الإيهام بأنَّ قطع النَّفقة عن الخائض في عِرض عائشة طاعةٌ لله ولرسوله، فقطَعَ أبو بكر النَّفقةَ عن مِسطَح، فجاءت تلك الآيةُ تحثُّه على عدم قطع النَّفقة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَأۡتَلِ﴾: الهمزة واللّام وما بعدهما في المعتلِّ أصلان أحدهما: التَّقصيرُ[2]، وأحد وجوه تفسير الفعل ﴿يَأۡتَلِ﴾: أنَّ صيغتَهُ (يفتعل) من أَلَوْتُ في الأمر، أي: قصَّرتُ فيه[3]، والوجه الآخَر هو من: آليتُ، أو من (الأَلْوة) أو (الأَلية) وهي: اليمين والحلف، فآلَى وائْتلى وتألَّى: أَقْسَمَ[4]، ومن هنا يمكنُ القول: إنَّ حقيقة الفعل هو الحلف المقتضي لتقصيرٍ في الأمر الذي يُحلفُ عليه[5]؛ "لأنَّ أكثر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 188.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ألوى).
(3) الراغب، المفردات: (ألى).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب الأصفهاني، المفردات: (ألى)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ألو).
(5) الراغب الأصفهاني، المفردات: (ألى).

استعمال الألية في الحلف على امتناع"[1]، ويكون المعنى على الوجه الأوّل: لا يقصروا في أن يُحسنوا إليهم، وإن كانت بينهم شحناءُ لذنبٍ اقترفوه، وعلى الوجه الآخر: لا يحلفوا على ألّا يحسنوا إلى المستحقّين للإحسان[2]، وعليه فالمراد بـ﴿وَلَا يَأۡتَلِ﴾ في الآية: لا يُقسِم، والخطاب موجَّهٌ لسَيِّدنا أبي بكر رضي الله عنه، فيكون حَلِفُهُ تقصيرًا في حقِّ قريبه بمنعه الصَّدقة.

2) ﴿ٱلۡفَضۡلِ﴾: "الفاء والضّاد واللّام أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على زيادةٍ في شيء"[3] عن الاقتصاد، وذلك ضربان: أحدهما المحمود، كفضل العلم والحلم[4]، ومن هذا الأصل اشتُقَّتْ كلُّ معاني الفضل: كالزّيادة في الخير، والكمال الدينيِّ، والإحسان، والتَطَوُّل، وعلوِّ القَدْر والمنزلة، ومنه الفضيلة: الدَّرجة والرِّفعة في الفضلِ[5]، والفواضل: الأيادي الجميلة[6] والمِنَّة والنِّعْمَة[7]، ووجَّه المفسِّرون معنى ﴿أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ﴾ بأنَّه الطَّولُ والصَّدَقَةُ والإِحْسانُ والدّين[8]، بَيدَ أنَّ حشد المعاني المستنبَطةِ من أصل لفظ الفضل تصدُق كلُّها على سيِّدنا أبي بكر، كالزّيادة في العلم، والخير، والحِلم عمَّن خاض في حادثة الإفك، والإحسان، والكمال الدينيِّ، والدَّرجة الرَّفيعة قدرًا ومكانةً ومنزلة، وأيادٍ جميلة، ومنَّة، ونعمة رضي الله عنه "فثبت له الفضلُ على الإطلاق"[9].

3) ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾: (وسع) أصل يدلُّ على خلاف الضّيق والعسرِ، والوُسْعُ: جِدةُ الرَّجلِ، وغناه، وقدرةُ ذاتِ يده، وطاقته، وخيره الكثير من المال[10]، وكلُّ هذه المعاني مرادةٌ في قول الله تعالى: ﴿أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ﴾.

4) ﴿ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾: (قرب) أصلٌ يدلُّ على خلاف البُعد، وقَرُب الشَّيء بالضمِّ يَقرُب قُربًا: أي دنا، والقريب من يقرُب منك رحمًا، والقرابة والقربى: الدُّنوُّ في النَّسب، والقُربى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 189.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 20، والقاسمي، محاسن التأويل: 7/ 340.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(4) الراغب، المفردات: (فضل).
(5) الفراهيدي، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 189.
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة: (فضل).
(7) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 472.
(8) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 31، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 102.
(9) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 171.
(10) الفراهيدي، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والسّمين، عمدة الحفاظ: (وسع)، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5169.

في الرَّحِم، وأقارب الرجل، وأقربوه: عشيرته الأدنَون[1]، فالمعنى المحوريُّ للقرب: وجود الشَّيء في الحيّز متاحًا مُهَيَّأً للتَّناول أو الوصول إليه، ومن ذلك القرابةُ النَّسبية للاتِّصال، كأنَّهما في نَفْس الحيِّز؛ ولعلَّه أصلًا من المشاركة في البطن[2]، والقرب في الرَّحم والنَّسب هو المراد في الآية في قول الله تعالى: ﴿أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾.

5) ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينَ﴾: (سكن) أصلٌ واحدٌ مطَّرد، يدلُّ على خلاف الاضطراب والحركة[3]، ومنه السُّكون، والمسكينُ هو الفقيرُ الَّذي لا شَيْء لَهُ[4]، وكأنَّ انعدام حاله؛ إذ لا شيءَ عنده: مدعاةٌ لخمودِهِ وانعدام حركتِهِ، والمسكين هو الذي يُراعَى فيه معنى الذلَّة والضَّعف، فهو أشدُّ حالًا من الفقير؛ لأَنَّ الفقير هو الَّذي لَهُ شَيْء، وإن كانَ قَليلًا، والمسكين الَّذي لا شَيْء لَهُ[5]، وفي الحديث: «لَيۡسَ المِسۡكِينُ الَّذي يَطوفُ على النّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقۡمَةُ واللُّقۡمَتانِ والتَّمۡرَةُ والتَّمۡرَتانِ، ولَكِنِ المِسۡكِينُ الَّذي لا يَجِدُ غِنًى يُغۡنِيهِ، ولا يُفۡطَنُ به، فيُتَصَدَّقُ عليه، ولا يَقومُ، فيَسۡأَلُ النّاسَ»[6]، وفي قول النَّبي ﷺ تعليل للتَّوجيه الإلهيِّ بعدم قطع النَّفقة عن مِسۡطح بن خالة سيِّدنا أبي بكر رضي الله عنه في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ﴾.

6) ﴿وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾: الهَجۡرُ والهِجۡران: مفارقةُ الإنسان غيرَهُ، إمّا بالبدن، أو باللِّسان، أو بالقلب[7]، فالهاء والجيم والراء أصلان يدلُّ أحدهما على قطيعة وقطع، والهجر: ضدُّ الوصل، وهاجر القومُ من دار إلى دار: تركوا الأولى للثّانية، كما فعل المهاجرون حين هاجروا من مكَّة إلى المدينة؛ ولذلك سُمّوا بالمُهاجِرينَ، لمهاجرتهم أهلَهم وأرضَهم[8]، وهو معنى اللَّفظة في الآية الكريمة ﴿أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾.

7) ﴿وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ﴾: أصلُ الصَّفۡحِ: الجَنۡبُ من كلِّ شيءٍ، والصَّفح: العفو، يقال: صَفَح

---

(1) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، والزبيدي، تاج العروس: (قرب).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قرب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سكن).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (سكن).
(5) ابن دريد، الجمهرة، والجوهري، الصحاح: (سكن).
(6) البخاري، الجامع المسند الصحيح: 2/ 125.
(7) الراغب، المفردات: (هجر).
(8) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (هجر).

عنه، أي: عَفا عنه[1]، وأعرضَ عن ذنبه، كأنَّه قد ولّاه صَفْحَتَهُ وصُفْحَهُ بالضَّمِّ، أي: عرضُه وجانبُه[2]، "والصَّفْحُ: ترْكُ التَّثريب، وهو أبلغ من العفو"[3]؛ لأنَّه محوٌ لآثار الإساءة من النَّفس، وهو خاصٌّ بالمتعمَّدِ الخطأَ[4]، ومن هنا فمعنى الصَّفح في قول اللّه تعالى: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ﴾: هو الإغضاء عن الجاني، والإغماض عن جنايته، والإعراض عن لومه[5].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

التـعـوُّد على الإحـسـان لا يقطعه الغضبُ والهجران

الآيةُ تنهى عن الحلف بقطع النَّفقة على ذوي القرابات والمساكين والمهاجرين، والكلام وإن كان عامًّا، فالمقصود به أبو بكر ﷺ حين قطع النَّفقة عن مسطح لما خاض في عرض عائشة ﷺ، فلمّا تاب مسطح؛ نزلت تلك الآية، فقال أبو بكر: أحبُّ أن يغفرَ اللّه لي، واللّه لا أنزعُ نفقتي عن مسطح أبدًا[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطف بالواو:

دفـعُ اللـهِ وسـاوسَ الـشَّيـطـان عن عبادِهِ

عطفَ النَّظمُ الكريم جملة: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ على جملة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، وهو من عطف الخاصِّ على العامِّ.

والمقصودُ بالنَّهي في الآية أبو بكر الصِّديق، الذي أغضبه مسطح حين خاض في عرض عائشةَ، وهذا مسلكٌ من مسالك الشَّيطان في

(1) الفراهيدي، العين: (صفح).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صفح).
(3) الراغب، المفردات: (صفح).
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 228، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5169.
(5) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 20، والصاوي، حاشية على الجلالين، ص: 1283.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 31.

أن يوسوسَ بإيقاع الغضب من أبي بكر لينفِّذ مرادَهُ مِن قطع النَّفقة عن مسطح، وهذا أمرٌ يطير به الشيطان فرحًا.

وتلك الوسوسةُ هي التي عُبِّرَ عنها بالخطوات في الآية السابقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، وقطْعُ النَّفقةِ بعضٌ من تلك الخطوات، وهي داخلة فيها، فذُكِرَت فيها على سبيل العموم، ثم ذُكِرَت مرَّة أخرى على سبيل الخصوص، في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾؛ اهتمامًا بهذا الأمر، وأنَّه لا ينبغي أن يحدُث.

ثمَّ إنَّ في العطف توسُّطًا بين الكمالين: النَّهي عن اتِّباع خطوات الشيطان، والقسم على حرمان المستحقّين للعطاء[1].

بلاغةُ النَّهي بـ(لا):

توجيهُ اللهِ عبادَهُ المؤمنين إلى أحسن الأخلاق

جاء النَّهيُ بـ(لا) في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾، وهذا النَّهي، وإن كان فيه طلبُ الكفِّ على وجه الإلزام - وهو تعريف النَّهي الحقيقيِّ - إلّا أنَّه يحمل معنى التَّوجيه والإرشاد، فاللهُ ﷻ يوجِّه عباده المؤمنين إلى أقومِ السُّبل، وأحسن الصفات، التي بها تزكو النُّفوس، وتصفو القلوب، والتي بها يكون المسلمون قلبًا واحدًا، لا تشوبه شائبةٌ، ولا تعيبهُ عائبةٌ.

إيثارُ الفعل ﴿يَأۡتَلِ﴾ مضارعًا:

الصَّفحُ والعفو متجدِّدٌ في كلِّ زمانٍ بتجدُّدِ الأخطاء والزلّات

جاء الفعلُ ﴿يَأۡتَلِ﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ مضارعًا؛ ليدلَّ على أنَّ هذا الفعل - وهو الحلِف على قطع النَّفقة عن المسكين لشيءٍ بدَر منه - لا ينبغي أن يقِف عند مخاطب

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 35.

معيَّن، أو ينحصِرَ في زمن معيَّن، بل ينبغي ألّا يقع متجدِّدًا في كلِّ زمان، وهذا التجدُّد مفهومٌ من طبيعة المضارع.

سرُّ اختيار الإيلاء:

تخصيص النَّهي بالحلف المذموم؛ للحضّ على دوام الإحسان

جاء النظمُ القرآنيُّ بفعل الإيلاء في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾، ولم يقل مثلًا: (ولا يَحْلِفْ)؛ لأنَّ الإيلاءَ أَكْثَرُ اسْتِعْمالِهِ في الحَلِفِ على امتناعٍ[1]، ويَكونُ في الضِّرار والغَضَبِ لا في النَّفْعِ والرِّضا، ففي حَديثِ مُنْكَرٍ ونَكيرٍ: «لا دَرَيْتَ، ولا ائْتَلَيْتَ»، والمُحَدِّثونَ يَرْوونَهُ: «لا دَرَيْتَ، ولا تَلَيْتَ»[2]، وعلى هذا الفرقِ يكون الإيلاءُ هو الأنسب للنظم؛ لأنَّ أبا بكر الصديق حلف على الامتناع من الإنفاق على مسطح بن أثاثة.

القراءات الواردة في ﴿يَأۡتَلِ﴾ وبلاغتها:

الحلِف على أمر قد يؤدي إلى التقصير في الحقوق

قرأ أبو جعفر ﴿يَتَأَلَّ﴾ بهمزة مفتُوحة بين التّاء واللّام مع تشديد اللّام مفتُوحةً، وهي من الأليّة على وزن (فعيلة) من (الألوة) بفتح الهمزة وضمّها وكسرها، وهُو الحلفُ، أي: ولا يتكلّفُ الحلف، أو: لا يحلفُ أُولُو الفضل أن لا يُؤْتوا، ودلّ على حذف (لا) خُلُوُّ الفعل من النُّون الثّقيلة؛ فإنّها تلزمُ في الإيجاب.

وقرأ الباقُون بهمزة ساكنة بين الياء والتّاء وكسر اللّام خفيفةً، إمّا من (ألوتُ)، أي: قصُرتُ، أي: ولا تقصُر، أو من (آليتُ) أي: حلفتُ يُقالُ: (آلى وأتلى وتألّى) بمعنًى، فتكُونُ القراءتان بمعنًى[3]، فمن بلاغة القراءات هنا جمعها بين الأمر ومآلاته؛ أي: ما بين نهي عن الحلِف ونهي عن التقصير في الحقوق. فلا يحلفِ المسلم على أمر تكون مآلات حلِفه التقصير في حقوق الآخرين التي أوجبه اللّه.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 189.

(2) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (1374)، وابن منظور، لسان العرب: (آلى).

(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 331.

سرُّ إيثارِ لفظ ﴿أُوْلُواْ﴾:

الفضلُ شأنُ أبي بكرٍ لملازمته إيّاه، وتخلُّقه به

أوثر التعبيرُ بـ﴿أُوْلُواْ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾، دون غيرها كـ(ذَوو) و(أصحاب)؛ لأنَّ (أولي) تختصُّ بإضافة الأشياء المعنويَّة إليها: كالألباب، والعلم، والقربى، والأرحام، والنُّهَى، وليست المادّية، بخلاف كلمة (ذوو) فإنَّها أعمُّ استعمالًا، أمّا المُضافُ إلى (أصحاب)؛ فأشياءُ مادّيَّة، مثل: أصحاب مدين، والحِجر، والكهف، والسفينة، ونحوها.

وتُصطفى (أصحاب) حين يكون المضافُ إليه منفصلًا عن المضاف: كأصحاب الأخدود، وأصحاب القرية، أمّا ﴿أُوْلُواْ﴾؛ فتدلُّ على شدَّة المصاحبة، ولا تُستعمل إلّا فيما كان متعلِّقها متَّصلًا كُلًّا، أو جزءًا، أو كالجزء، أو كان عملًا لازمًا، أو شأنًا من شؤون الشَّخص[1]، فـ﴿أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ﴾، أي: من كان شأنه الفضل، لملازمته إيّاه؛ وحقيقٌ بأبي بكرٍ رضي الله عنه أنْ يكون من أهل الفضل.

دلالةُ تعريف ﴿ٱلۡفَضۡلِ﴾:

بيانُ فضلِ أبي بكرٍ الصديق واستدعاء فضلهِ في هذا المقام

الألفُ واللام في كلمة ﴿ٱلۡفَضۡلِ﴾ - من قول اللّه تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ - يفيدان العمومَ، وعلى هذا يكون كلُّ الفضل لأبي بكرٍ رضي الله عنه، وأنَّه بلغ فيه مبلغًا كبيرًا، لدرجة أنَّه صار محتويًا كلَّ معاني الفضل، وأنَّ ما سواه في حكم العدم[2]، وهذا التعريفُ فيه ثناءٌ جمٌّ على أبي بكر رضي الله عنه، وهو أقدر على استنزال صوب الكرم منه، وتوجيهه إلى عدم قطْعِ إحسانه.

---

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 35.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 350.

دوامُ العطاءِ من صفات الكرماء

سرُّ تقديمِ الفضل على السَّعة:

لمّا كان من معاني الفضل الطَّول والجود والإحسان؛ كان تقديمُهُ في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ﴾ أولى من تقديم السَّعة الَّتي تعني الغنى، والغنى شيءٌ حسّيٌّ ماديٌّ، والفضل بمعانيه صفاتٌ نفسيَّةٌ، فالبدءُ بتلك الصفات فيها استجاشةٌ لمشاعر المنفقين، وتحريكٌ لقلوبِهم بتلك الصِّفات المعنويَّة الخُلُقيَّة، التي تجعل الإنسان يطيلُ رِشاء الإحسان، ويمدُّ حبل الجود، ويبسط كفَّ الكرم.

"فإنَّه لمّا أمر أبا بكر بذلك؛ لقَّبه بأولي الفضل وأولي السَّعة ... فلا يليق بفضلك وسعَة قلبك أن تقطع بِرَّك عنه بسبب ما صدر منه من الإساءة، ومعلوم أن هذا الخطاب يدلُّ على نهاية الفضلِ والعلوِّ في الدين"[1].

استنهاضُ هِمَمِ أولي الفضل

نكتةُ وقوعِ ﴿مِنكُمۡ﴾ بين المتعاطفَين:

في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ﴾ تقدَّم الجارُّ والمجرور ﴿مِنكُمۡ﴾ على المعطوف ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾؛ إذ كان يجوز أن يكون التَّعبير القرآنيُّ (ولا يأتلِ أولو الفضل والسَّعة منكم)؛ إلّا أنَّ النَّظم الكريم آثر تقديم شبه الجملة، وهذا التقديم فيه تحديدٌ للمعنيِّ بالخطاب؛ لفتًا له، وإثارةً لمشاعره، واستنهاضًا لهمَّته، واستجلابًا لكرمه، وبعثًا لجوده، وهذه المعاني ملموحةٌ أيضًا من تقديم ﴿أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ﴾ على ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾، فوُضِعَ الجار والمجرور بين صفة نفسيَّة تجيش المشاعر، وبين صفة مادّية تثير البذل.

الحثُّ على دوام البذل والإنفاق شكرًا لله على آلائه الجمَّة

وجهُ عطفِ السَّعة على الفضل:

عُطِفَ لفظُ السَّعَةِ على لفظ الفضل في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ﴾؛ للتَّذكير بنعمة الله على المخاطَبين؛ لأنَّ الفضل والسَّعة نعمتان تستوجبانِ شكر مَن أولاهما ﷻ، ومن

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 350.

مظاهرِ شكرهما: الإنفاقُ الَّذي يدور عليه مِحوَر الآية الكريمة[1]، وهذا فيه حضٌّ شديد على دوام البذل للفقراء والمساكين.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمصدر المؤوَّل: ﴿أَن يُؤۡتُوٓاْ﴾:

حسنُ البذلِ تجدُّده لا انقطاعه

كان النَّظمُ حكيمًا حين آثرَ التَّعبيرَ بالمضارع الواقع بعد ﴿أَن﴾ المصدريَّة في قول اللّه تعالى: ﴿أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، وهما في تأويل المصدر (الإيتاء)، آثرهما على التَّعبير بالمصدر دلالةً على صلاحيَّة التَّوجيه لكلِّ زمان ومكان، فالمضارع فيه معنى التجدُّد الَّذي يناسب البذلَ والإنفاق، اللَّذين تُراعَى فيهما صفةُ التجدُّد؛ أمّا صفةُ الدَّيمومةِ والثَّبات؛ فلا تتناسبُ مع طبيعة البذل.

ثمَّ إنَّ المقصودَ هنا هو التَّركيز على الحدث، وهو حدوثُ العطاء ووقوعه من صاحبه، وهذا يؤدّيه التَّعبيرُ بالفعل بالمضارع ﴿يُؤۡتُوٓاْ﴾؛ وليس المقصودُ التَّركيزَ على معنى الحدث، وهو المصدر (الإيتاء).

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿يُؤۡتُوٓاْ﴾:

من صفات الجوادِ المبذال أن يُعطيَ قبل أن يُسأل

في قول اللّه تعالى: ﴿أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ كنايةٌ عن الكرم الشَّديد، والسَّخاء، والبذل، فإنَّهم لا ينتظرون قدومَ أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل اللّه؛ ليُؤْتوهم من فضله، وإنَّما يبادرونهم بالذهاب إليهم، ليُزيلوا كَرْبَهُم قبل سؤالهم بالعطاء[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالإيتاء دون الإعطاء:

المالُ مِلكُ اللهِ، والإنسانُ إنَّما هو مستَخلَفٌ فيه

آثر التعبيرُ القرآنيُّ فِعْلَ الإيتاء على فعل الإعطاء في قول اللّه تعالى: ﴿أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، وذلك أنَّ في الإعطاء دليلَ التَّملُّك دون الإيتاء[3]، وهذا يعطي دلالة على أنَّ المال المبذول للفقراء هو مالُ اللّه الذي يملكه، قال تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ [النور 33]،

(1) المطعني، خصائص التعبير القرآني، ص: 274.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 35.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 86.

أمّا الإنسان؛ فهو فيه مستخلَفٌ، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد: 7]؛ لذا كان الإيتاء في هذا المقام أنسبَ.

إيثارُ ﴿أُوْلِي﴾ دون (ذَوي):

النَّفقةُ أَوْلى بالأقربين، الأقرب فالأقرب

الغالبُ في لفظة الجمع ﴿أُوْلِي﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أن تستعملَ في القرابة المباشِرة، أي: القرابة القريبة جدًّا من الشَّخص، ومنه ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النساء: 8]، ولعلَّه مشتقٌّ من الأوْلِ، وهو الرُّجوع إلى الأصل(1)، أمّا (ذَوو)؛ فإنَّما تُستعمل في القرابة غير المباشرة، أي: القرابة البعيدة.

فكان النَّظمُ هنا دقيقًا حين استعمل لفظَ ﴿أُوْلُواْ﴾؛ لأنَّ مسطحَ بن أثاثةَ كان قريبًا جدًّا من أبي بكر، قيل: إنَّه كان ابنَ خالته، وقيل: كان ابنَ أخته.

بلاغةُ التَّرتيبِ بين المعطوفات:

استدرارُ قلوبِ المنفِقين للبذل والعطاء

قدَّمَ النَّظمُ الحكيم موجباتِ العطف وأسبابَها في الآية الكريمة: ﴿أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾، فبدأَ بالقرابة التي تعطِّف قلب الباذل المنفق، ثم ثنّى بصفة المسكنة التي تثير معانيَ الشَّفقة في قلوب المنفقين، ثم ختم بصفة الهجرةِ التي تثير الوازع الدينيَّ في النُّفوس، فجاء الترتيب الحكيم على نمطٍ عجيب، يتناسب مع الفكرةِ المقصودة التي يدعو إليها.

وهذه "صفاتٌ لموصوفٍ واحد، جيئَ بها بطريقِ العطفِ؛ تنبيهًا على أنَّ كلًّا منها علَّةٌ مستقلَّةٌ لاستحقاقهِ الإيتاءَ، وقيل لموصوفاتٍ أُقيمتْ هي مقامَها"(2).

بلاغةُ التعريف في ﴿ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾:

استدرارُ القلوب للإنفاق بذكر موجِباته

يُلمح من كلام المفسرين أنَّ التعريفَ باللام في قول اللّه تعالى:

(1) الراغب، المفردات: (أول).

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 165.

﴿أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ قد يكونُ للعهد، وتكون تلك الصِّفات راجعةً إلى مِسطَح بن أَثاثة، الذي خاض في عرض عائشة ، فقد كان قريبًا لأبي بكر، وكان مسكينًا، وكان مهاجرًا ممَّن شهد بدرًا، فكلُّ تلك الصفات تنطبق عليه، ويجوز أن يكون التَّعريفُ للجنس، فهو يشمل عموم ذوي القربى والمساكين والمهاجرين، والثاني: أرجحُ توسيعًا للمعنى، ليتناول الحكمُ جميعَ الأزمنة والأمكنة.

إيثارُ الوصف بالهجرة في سبيل الله:

الجهادُ في سبيل الله ذروةُ سنام الإيمان

علَّةُ ذكرِ المهاجرين في سياق قول اللّه تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ مِسطَحَ بن أثاثة الذي خاض في حادثة الإفك كان من المهاجرين في سبيل اللّه، أي: المجاهدين أعداءَ اللّه، فكان من البدريّين الذين شهدوا بدرًا مع رسول اللّه ﷺ، وهذا فيه تحفيزٌ لأبي بكر إلى العفو عنهُ، وفيه أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ الجهاد في سبيل اللّه من أعظم القربات، المقتضيةِ للتَّجاوُز عن السيّئات، وما قول الرَّسول ﷺ عنّا ببعيدٍ: «لعلَّ اللّه قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم»[1].

فإذا كان اللّه ﷻ قد غفر لأهل بدر، أفلا يجدُر بأبي بكر، ومن كان على مثل حالهِ أن يعفو ويصفح؟

سرُّ التَّعبير بـ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ وعلّةُ إضافتِه:

الجهادُ في سبيل الله من أعظم أبواب الدين

آثر النَّظمُ الكريم السَّبيلَ دون الطَّريق في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾؛ لأنَّه ليس كلُّ طريقٍ سبيلًا، فالسَّبيل يُطلق على ما وضَح من الطريق، أو الطَّريق الذي فيه سهولة[2]،

(1) مسلم بن حجاج، صحيح مسلم: 4/ 1941.
(2) الراغب، المفردات: (سبل).

"واستعمال السَّبيل في الجهاد أكثر؛ لأنَّه السَّبيلُ الذي يُقاتَل فيه على عَقْدِ الدين"[1].

فالسَّبيل بهذا المعنى يمتاز عن الطَّريق، وضوعف امتيازُهُ بإضافته إلى اسم اللّه ﷻ، فحَظي بتعظيمٍ وتكريم.

من بلاغةِ الكلامِ العـالي إسقاطُ مـا يـدلُّ عليه السياق

بلاغةُ حذفِ مفعولِ ﴿يُؤۡتُوٓاْ﴾ الثّاني:

حُذِفَ المفعول الثَّاني لفعل الإيتاء في قول اللّه تعالى: ﴿أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ لغاية ظهوره، أي: على ألّا يؤتوهم شيئًا[2]، ولأنَّه لا يتعلَّق بذكره غرضٌ، فهو لا يزيد المعنى شيئًا، فليس من ضمن السّياق بيانُ نوعِ المعطَى، وإنَّما المقصودُ الإيتاءُ نفسُه، مهما كان نوعُه؛ ومن بلاغةِ القرآنِ إسقاطُ ما يكون عبئًا على النَّظم.

الإرشـادُ إلى ما يُـؤمَّـلُ بـه عفوُ اللهِ ومغفرتُه

دلالةُ اللّامِ في: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ﴾:

اللّام في فِعلَي العفو والصفح من قول اللّه تعالى: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ﴾ هي لام الأمر، وهو أمرٌ إرشاديٌّ لا وجوبيٌّ، "والجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن الُمذنب إليك؛ نغفر لك، وكما تصفح؛ نصفح عنك"[3]، فالتَّعبيرُ إرشادٌ للعباد إلى التَّخلُّق بهاتيك الصِّفات السامية؛ لإشاعتها بين الناس؛ جلبًا للمودَّة والوئام.

صفـاءُ النَّـفسِ بعدَ المسامحةِ منتهى الـخُـلُقِ الحسن

بلاغةُ عطفِ ﴿وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ﴾:

عُطِفتْ جملةُ ﴿وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ﴾ على ما جملة ﴿وَلۡيَعۡفُواْ﴾ للتَّوسُّط بين كمال الاتِّصال، وكمال الانقطاع، حيث اتَّفقت الجملتان في الإنشائيَّة لفظًا ومعنًى، فالجملتان فعلان مضارعان مجزومان بلام الأمر.

وعُطِفَ الصَّفحُ على العفو؛ لأنَّ في الجمع بينهما مراعاةً للنظير.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سبل).

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 165.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 31.

فالعفو ترْكُ المؤاخذة، والصَّفحُ صفاءُ النَّفس من آثار الإساءة والمخاصمة[1]، فالصَّفح خُلقٌ أعلى من العفو، ففيه تصفيةُ النَّفس تمامًا ممّا يشوب، وتنقيتها من الإحَنِ.

بلاغةُ ذِكرِ الصَّفحِ بعدَ العفو:

العـفـوُ عـن المسيءِ لا يتمُّ إلّا بجميل الصَّفح

الصَّفْحُ الَّذي ورَدَ فعلُهُ بعد فعل العفو في قول اللّه تعالى: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ﴾ هو ترك التَّثريب، وهو أبلغُ من العفو، ولذلك قال تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [البقرة: 109]، فقد يعفو الإنسان، ولا يَصْفَحُ، وقد خصَّ اللّه تعالى الصَّفحَ بالأمر به، فقال: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾ [الزخرف: 89]، وقال سبحانه: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥﴾ [الحجر: 85][2]، أمّا العفو؛ فهو قصدُ إزالة الذَّنب[3] والتَّجاوُزُ عَنه، وتَرْكُ العِقابِ عليه، وأَصلُه المَحْوُ والطَّمس[4].

"ولمّا كان المحو لا ينفي التذكُّر؛ قال: ﴿وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ﴾، أي: يعرضوا عنه أصلًا ورأسًا، فلا يُخطِروه لهم على بالٍ، ليُثمِرَ ذلك الإحسانَ"[5]، فكان النَّظم دقيقًا في اختيار الصفح، حتّى لا تنعقد مطاوي القلوب على أدنى ريب.

إيثارُ فعلَيِ العفو والصفح مضارِعَين:

العفوُ والصَّفح يجب ألّا يخلوَ منهما مكانٌ أو زمان

الأصلُ في التَّعبير بالمضارع إفادةُ التَّجدُّد؛ ومن ثَمَّ، فإنَّ المضارع في قول اللّه تعالى: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ﴾ ينادي بالتجدُّد الاستمراريِّ، وهذا يعني: أن يكون العفو والصَّفح متجدِّدَين باقيَين ما بقيت الدُّنيا.

بلاغةُ الاستفهامِ بالهمزة: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾:

الاستفهامُ بالهمزةِ في قول اللّه تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ

---

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 35.

(2) الراغب، المفردات: (صفح).

(3) الراغب، المفردات: (عفا).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (عفا).

(5) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 248.

وعْدُ الله العافين عن الناس بمغفرته

﴿ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ إنكاريٌّ، مستعملٌ في معنى التَّحضيض على العفو والصفح[1]، ويجوز أن يكون الاستفهامُ في معنى الأمرِ، أي: أحبّوا[2]؛ إلّا أنَّ عَرضَ الأمرِ بتلك الصورة، والبعدَ عن جلَبة الأمرِ الصَّريح، فيه رُقيٌّ يُهَدهِد النفس البشريَّة، فيجعلها أذعَنَ للعفو والصفح؛ طمعًا في مغفرة اللّه ﷻ.

فالمتأمِّل في الاستفهام بـ﴿أَلَا﴾ في الآية: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾، يجد هدوءًا في الأسلوب، وسهولةً في العبارة، ودماثة في التركيب، مع ما فيه من الإغراء المشوِّق، والوعد بالمغفرة، الذي يستنزل العفو من حنايا النفس، وهذا التَّناسب يليق بالنُّفوس المؤمنة الخصبة، التي تُنبت كل معاني الخير بتوجيه رقيق، ولفظ أنيق.

وجهُ اصطفاءِ التَّحضيضِ بـ﴿أَلَا﴾:

لـذَّةُ الخطاب تُنسي العتاب

"ولمّا كانت لذَّةُ الخطابِ تُنسي كلَّ عتاب؛ أقبل سبحانه بفضله ومنِّهِ وطوله على أولي الفضل، مرغِّبًا في أن يفعلوا بغيرِهم ما يحبّون أن يُفعَلَ بهم، مرهِّبًا من أن يشدِّد عليهم؛ إن شدَّدوا، فقال: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ يا أولي الفضل، ﴿أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ﴾، أي: الملك الأعظم ﴿لَكُمۡۚ﴾، أي: ما قصَّرتم في حقِّه"[3].

فـ﴿أَلَا﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾: أداةُ عرْضٍ وتحضيض، هدفها تهيئةُ الشعور للترغيب والعرض الجميل، ومَن الذي يغفر؟ اللّه ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾، وإنَّ السامع لهذه الكلمات يشعُر بالأمن يملأ جوانِبَ نفسه، وبالمغفرة تمحو كلَّ خطاياه، فينطلق منفقًا في السرِّ والعلانية[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 189.
(2) ابن الشجري، الآمالي: 1/ 403.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 248.
(4) المطعني، خصائص التعبير القرآني، ص: 274.

بلاغةُ الالتفات في ﴿تُحِبُّونَ﴾:

التَفتَ النَّظمُ الكريم من أسلوب الغيبة في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ﴾، وقوله: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ﴾ إلى أسلوب الخطاب في قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾، والعلّةُ من وراء هذا الالتفاتِ هي حضُّ أبي بكر الصديق رضي الله عنه وإغراؤه على جميل العفو والصفح عن مِسطَح، ولا يخفى على العاقل بُعدُ ما بين الإغراء الخاصّ والإغراء العامِّ، فتخصيصُ الكلام للمخاطَبين في الظاهر أبلغُ في إنجاز الوعدِ.

التّنبيهُ على شمول العفو والصفح بالغيبة، وتقويَةِ الوعد بالخطاب

وأوثِر التَّعبير في الإيتاء والعفو والصفح بأسلوب الغائب ﴿أَن يُؤۡتُوٓاْ﴾ ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ﴾؛ لتحقيق العمومِ؛ ليتناول كلَّ فردٍ، مهما كان مكانه أو زمانه، وذلك لتوسيع معنى النُّصح والإرشاد للحاضر والغائب.

ولو جاء الأسلوبُ ابتداءً بالخطاب، فقيل: (ولا تأتَلوا أن تؤتوا) (ولتعفوا ولتصفحوا)؛ لانحصرَ الخطابُ في الحاضرين فقط، أو في أبي بكر الصديق، فلدفع توهُّم ذلك؛ لجأ النَّظمُ الحكيم إلى الغيبة في إسداء النُّصح والإرشاد، ليتناول جميع العباد، ثمَّ عند مجيء الوعد بالمغفرة آثرَ النَّظم الخطاب: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾.

دلالةُ الجمعِ في ﴿تُحِبُّونَ﴾ و﴿لَكُمۡۚ﴾:

ذَكَرَ اللّه سبحانه وتعالى أبا بكر - في قَوْله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ - بكناية الجمع على سبيل التَّعظيم[1]، وهذا يجعل أبا بكر يُسارِع في صفحه وعفوه عن مسطح، ولذلك لمّا سمع هذا التحضيضَ المغلَّف بالتعظيم؛ قال مجيبًا الاستفهامَ الإنكاريَّ: (بلى يا رب)، وفي الخطاب بالجمع إشارةٌ أيضًا إلى أنَّه - وإن كان أبو بكر المقصودَ

الصَّديقُ ومن على نهجِهِ يُسارعون لتنفيذ أمر ربِّهم، ليكونوا أهلًا للمغفرة وعلوِّ المنزلة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 351.

الأوَّل من الخطاب - يعمُّ الناسَ جميعًا، فالعبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

إيثارُ فعلِ الغفران مضارعًا:

إبراز مناقبِ الصدّيق رضي الله عنه وحضُّ مَن بعدَهُ على الاقتداء به

يُستنبط من دلالة المضارع في قول الله تعالى: ﴿أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾ أنَّ الله ﷻ ضَمِن لأبي بكر رضي الله عنه - ولكلٍّ من عفا وصفح مثلُه - محوَ ذنوبه في مستقبل أيّامه[1]، وهذا تكريمٌ ما بعده تكريم.

دلالةُ عطف ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بالواو:

التّرغيبُ في العفو

عُطِفَت جملةُ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ على جملة: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾؛ زيادةً في التّرغيب في العفو والصفح، وتطميناً لنفس أبي بكر في حِنْثِه، وتنبيهًا على الأمر بالتخلُّق بصفات الله تعالى[2].

نكتةُ الاتِّصاف بـ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

الجزاءُ من جنس العمل

لمّا كان السّياق توجيهًا لأبي بكر إلى العفو عن مسطح، الذي خاض في عِرض عائشةَ رضوان الله عليهم، كان الأنسبُ اختيارَ تلك الصِّفتين ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، لأنَّ أصلَ الغفر التغطية والسَّتر، يقال: غفر الله ذنوبَه، أي: سترها[3]؛ فكأنَّ دلالةَ الكلمة تستحثُّ أبا بكر ومن كان على صفته، على سَتر عيوب المسيء وتغطيتها، والتَّجاوز عنها، وأمّا الرحمةُ؛ فهي مقتَضيةٌ للإحسان إلى المرحوم، وللإنعام عليه والإفضال[4]، فكأنَّ تلك الصِّفةَ هي الأخرى تنادي بالإحسان إلى المذنب والرحمة به؛ ليستحقَّ إحسان الله إليه ورحمته.

ومجيءُ الصفتين على صيغتَي (فَعول) و(فَعيل) للمبالغة في المغفرةِ والرحمةِ من الله ﷻ، وتلكم المبالغةُ تكون دافعةً للإنسان نحوَ الصفح، وفيها ترغيبٌ عظيم في العفو، ووعد الكريم بمقابلتِه.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 351.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 18.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (غفر).
(4) الراغب، المفردات: (رحم).

بلاغةُ التَّذييلِ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

العفوُّ الغفور يوجِّه عبادَهُ إلى العفو والصفح

من بلاغة التذييل بقول اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أنَّه جاء مرغِّبًا لفكرة العفو والصفح من قوله سبحانه: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾، فعرض الفِكرة ابتداءً، ثمَّ جاء التذييل ليزيِّنها في النُّفوس، ويستميلَ القلوب نحوها، والتَّذييل يكون بعرْضِ الأفكار المقصودة بالذّات أوَّلًا، وإتباعها بما يزيِّنُها، ويجعلها مقبولةً.

بلاغةُ ردِّ العجز على الصَّدر:

النَّظمُ القرآنيُّ متماسكٌ في مبانيه، بليغٌ في معانيه

في قول اللّه تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بديعُ رَدِّ العجز على الصَّدر[1]، حيث وافقَ قولُه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قولَه: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾، فكانت هذه الجملةُ تصديرًا للتذييل، ومهمازًا إليه، ودالَّة عليه، وهذا اللون البديعيُّ يُعطي للكلام قوَّة وتوكيدًا وتماسكًا، حيث يمسك أوَّلُه بآخره، وآخرُه بأوَّله، ويُعطي للمعنى قَبولًا في النُّفوس، فيجعلها تقبل على ما يُنالُ به مغفرة اللّه ورحمته.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّة:

السبيل والطريق:

السَّبيلُ أسهلُ سلوكًا من الطَّريق، وأغلبُ استعمالًا في الخير

السَّبيلُ هو الطريق، إلّا أنَّ السَّبيلَ أغلب وقوعًا في الخير، ولا يكاد اسمُ الطَّريق يُراد به الخيرُ، إلّا مقرونًا بوصف أو إضافة تخلِّصه لذلك، كَقَوْلِه: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ [الأحقاف 30][2]، وأيضًا فإنَّ السَّبيل هو "الطَّريق الَّتي فيها سهولَة، فهو أَخصُّ"[3]، فلمّا كان السَّبيل كذلك؛ كان الأولى بالاختيار في سياق

(1) هو موافقة آخر الكلام لأوَّله، أو لكلمة في أي موضع، يُنظر: ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ص: 116.
(2) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 2/ 364.
(3) الراغب الأصفهاني، المفردات: (طرق).

قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾؛ لأنَّه يُطلق على الجهاد في سبيل اللّه، واستمدَّ خيريَّته من إضافته إلى اللّه ﷻ.

العفو والصفح والغفران:

إزالـةُ أثرِ الذَّنب من النَّفس قمَّة التَّسامح

العَفْوُ التَّجافي عن الذَّنب[1]، فكلُّ مَنِ اسْتحقَّ عُقوبَةً، فتركْتَها؛ فقد عفوتَ عَنهُ، وهو مَأْخوذ من قَوْلهم: عفتِ الرّياحُ الآثارَ؛ إِذا درسَتْها ومحَتْها[2].

والصَّفْحُ: العرْضُ والجَنْبُ من كلِّ شيءٍ[3]، والصَّفْحُ: ترْكُ التَّثريب، فهو أبلغ من العفو، ولذلك قال تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [البقرة: 109]، وقد يعفو الإنسانُ، ولا يَصْفَحُ[4].

ومن الفروق بينهما: أنَّ "العفو عمَّن قصد الجناية عمدًا كان أو خطأً، والصَّفحُ بالمتعمَّد، بدليل قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التوبة:43]، فإذا شككت في تعدّي رجلٍ عليك، ثم تركْتَه؛ فهذا عفو، وإذا تحقَّقت ذلك، ثم تركته؛ فهذا صفحٌ"[5].

ومن الفروق بين العفو والصفح أيضًا: أنَّ العفوَ هو عدم جزاء السيئة بمثلها، ودفعُ السيئة بالحسنة، والصَّفح هو محو آثار الإساءة من النفس[6].

والغَفْرُ: التَّغْطيَةُ والسَّتْرُ، يُقال: غَفَرَ اللّه ذُنوبَهُ، أَي: سَتَرَها[7].

فمن خلال هذا التَّتَبُّع يظهر تقارب معاني هذه النظائر، إلّا أنَّ الغفر أبلغُ من العفو، ففيهِ ما في العفو من سترٍ وإزالة ومحو، إلّا

(1) الراغب، المفردات: (عفا).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (عفا).
(3) الفراهيدي، العين: (صفح).
(4) الراغب، المفردات: (صفح).
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 228.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5169.
(7) الراغب المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (غفر).

أنَّ فيه معنى الصيانة والغسل من الدنس، وهذا ليس موجودًا في مادة العفوِ، والصَّفحُ أبلغ منهما، إذ فيه نسيان الذنب والإعراض عنه، كأنَّه أعطاه صفحةَ وجهه، أو صفحة جنبه، وعلى هذا يكون العفوُ ترْكَ المؤاخذةِ بالذَّنب، والغفرُ سَترًا، والصَّفحُ إزالةَ أثرهِ من النَّفس[1]، فالجمعُ بين اللَّفظين في سياق الآيةِ مقصودٌ ليجمع معنيَي: تركِ المؤاخذة، ومحوِ آثار الإساءة من النَّفس، سواء وقعت عن غير قصد أم تعمُّدًا.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/ 71.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ [النور: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

رحمةُ اللهِ ربَّما جرَّأتِ المستهتِرين على المعصية

خُتِمَت الآية السّابقة بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾، والختْمُ بهذين الوصفين بَعدَ الأمر بالعفو في قوله: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ﴾ ربَّما جرَّأ على مثل هذه الإساءة، وهي رَميُ المحصنات بالفاحشة، فجاء التَّرهيب في هذه الآية، تعميمًا للحكم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَرۡمُونَ﴾: "الراءُ والميم والحرف المعتلُّ أصلٌ واحد، وهو نبذ الشَّيء، ثمَّ يُحمل عليه اشتقاقًا واستعارة"[2]، وكلُّ شَيْءٍ رميتَه من يدك من حجر أَو سهم؛ فهوَ رَميٌّ، ويقال في الأعيان، وفي المقال كنايةٌ عن الشَّتم كالقذف[3]، وهو رميُ المرأة بالفاحشةِ، يقال: رَمَى فُلانٌ فُلانًا بأمرٍ قبيحٍ، أَي: قَذَفَهُ[4].

2) ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾: "الحاء والصاد والنّون أصلٌ واحدٌ منقاسٌ: وهو الحفظُ والحياطةُ والحِرز"[5]، وذُكِرَ أَنَّ أَصْلَ الإحْصان: المَنْعُ، ومنه الحِصْنُ: كلُّ مَوضِعٍ حَصين لا يوصَلُ إِلَى ما في جَوْفه؛ لأَنَّه يمتنع به، فالمُحصنات ممتنعاتٌ بأزواجِهنَّ، وبعفَّتهنَّ، وابتعادِهنَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 249.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رمى).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة، والراغب الأصفهاني، المفردات: (رمى).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (رمى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حصن).

عن الرّيبة، وامرأةٌ مُحصَنةٌ: أَحصَنَها زَوْجُها، ومُحْصِنةٌ: أحْصَنَتْ زَوْجَها وفرْجَها[1].

3) ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾: الغفلةُ: سهْوٌ يعتري الإنسان من قلَّةِ التحفُّظ والتيقُّظ[2]، فالغَيْنُ والفاء واللام أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على ترك الشَّيء سهوًا، وربَّما كان عن عمدٍ، أي: تركته غُفْلًا وأنت له ذاكر[3]، والمقصود بالغافلات هنا: السَّليماتُ الصدورِ، النقيّاتُ القلوب، اللّاتي ليس فيهنَّ دهاء ولا مكر؛ لأنَّهنَّ لم يجرِّبنَ الأمور، فلا يَفطِنَّ لما تَفطِن له المجرِّباتُ العرّافات[4]، أو تركنَ ذلك مع علمهنَّ به، حتى لكأنهنَّ ساهياتٌ عنه؛ وذلك لأنَّهنَّ مستوراتٌ عنه، من غَفَلَتِ الشَّيءَ تغفيلًا؛ إذا كَتمَتْهُ، وسَترَتْهُ[5].

4) ﴿لُعِنُواْ﴾: (لعن) أصلٌ صحيح يدلُّ على إبعاد وإطْراد، واللَّعْنَةُ في القرآن: العذابُ، والمُلَعَّنُ: المعذَّب، واللَّعينُ المشتوم المسبوب الممسوخ، المُبَعَّدُ المطرودُ من الخير، ولَعَنَ اللّٰه الشَّيطان: أبعدَهُ عن الخيرِ والجنَّة[6]، فهو طردٌ وإبعادٌ على سبيل السُّخط، وذلك من اللّٰه تعالى في الآخرة عقوبة، وفي الدُّنيا انقطاعٌ من قَبول رحمتِهِ وتوفيقه، ومن الإنسان دعاءٌ على غيره بلعنة اللّٰه[7].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الوعيدُ الشَّديدُ لِمَـن يَـقـذِف المحصنات

بيَّنتِ الآيةُ أنَّ جزاءَ الذين يرمون المسلِماتِ العفيفاتِ بالفاحشة إنَّما هو الطَّرد والإبعاد عن رحمة اللّٰه تعالى، وغضبه الشَّديد، وعذابه الأليم.

---

(1) الفراهيدي، العين، والرغب، المفردات، وابن الأثير، النهاية، والسمين، عمدة الحفاظ: (حصن).
(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (غفل).
(3) الفراهيدي، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (غفل).
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 223.
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن سيده، المحكم: (غفل).
(6) الفراهيدي، العين، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (لعن).
(7) الراغب الأصفهاني، المفردات: (لعن).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ التَّوكيد بـ﴿إِنَّ﴾:

توكيدُ الوعيدِ رادِعٌ عن ارتكاب الكبائر

لمّا كان سياق قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ وعيدًا لقذف المحصنات؛ ناسب الإتيان بـ﴿إِنَّ﴾ المؤكِّدة؛ تحقيقًا وتأكيدًا على اللَّعنة الدنيويَّة، والعذاب الأخرويِّ الذي أوعِدوا به، وهذا يجعل الإنسان بمنأًى عن هذا القذف الكَذوب، حتّى يكون بمنجًى من هذا العذاب المرهوب.

والمتأمِّل في سياقات القرآن الكريم يتبيَّن له أنَّ التوكيداتِ تكثُر في سياقات الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؛ ليكون في قلوب الناس أكثرَ وقعًا، وأعظمَ تأثيرًا.

سرُّ التَّعبيرِ بالاسم الموصول: ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

فاعلُ الشّرِّ لا يُجازَى إلّا بالشَّرِّ

إذا عُبِّر بالاسم الموصول؛ فلا بدَّ من ذكر صلته، لتُزيل عنه الإبهامَ، فبلاغةُ التَّعبير بالاسم الموصول في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ إيماءٌ إلى وجه بناء الخبر، أي: إنَّ الموصولَ وصلتَه يكشفانِ، ويُشيران قبل مجيء الخبر عن الجزاء المستحَقِّ، والجزاء من جنس العمل، ولا يَجني الشَّوكَ إلّا مَن زرعَهُ، وهذا فيه تنفيرٌ شديدٌ، وترهيب بالغٌ من رمي المحصنات.

إيثارُ فعلِ الرَّمي مضارِعًا:

قذفُ المحصنات من الكبائر الموبِقة

التَّعبيرُ بالمضارع في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾؛ لاستحضار الصّورة الّتي هي من أغرب الغرائب، أو للإشارة إلى أنَّ شأنَهم الرَّميُ، وأنَّه يتجدَّد منهم آنًا فآنًا[1]، ويجوز أيضًا أن تكون إفادةُ التجدُّد للإشارة إلى أنَّ "ذلك حكمُ كلِّ من رمى محصنةً، لم تقارف سوءًا"[2]، وهو حكم اللّه عليهم باللَّعن في الدُّنيا، والعذاب العظيم في الآخرة.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 18/ 127.
(2) ابن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن: 19/ 139.

بلاغةُ المجازِ في لفظ الرَّمي:

الأَلمُ المعنويُّ أنكى من الألم الحسيِّ

الرَّمي في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ مستعمَلٌ في قذف المحصَنات، وعليه يكون في لفظ الرمي استعارةٌ تصريحيَّةٌ، شُبِّه فيها القذفُ بالرَّمي بالحجر، والجامع بين الطَّرفين مطلَقُ الإيلام، ولا يُضعِّف من هذا الجامع كونُ الإيلام حِسّيًّا في الرمي بالحجر، ومعنويًّا في القذف.

وبلاغةُ التَّعبيرِ بالاستعارة: الكشفُ عن وقْعِ الألَم، وعِظَم الإيجاع في قلوب المقذوفات، فالتَّعبيرُ بها أشدُّ تحذيرًا، وأبلغ تنفيرًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾:

تبشيعُ الخوضِ في أعراض المحصَنات لشدَّة عفَّتهنَّ

﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ جمع مُحصَنة، وهي المرأة العفيفة، ودلالةُ التَّعبير بها للإشارة إلى كمال عِفَّتهنَّ، كأنَّهنَّ من شدَّة عفافهنَّ "جَعَلْنَ أنفُسَهُنَّ في مثل الحصن"[1]، "وخُصَّ الإناثُ - وإن كان الحكم عامًّا للرِّجال - تنبيهًا على عظيم حقِّ أمِّ المؤمنين عائشة ﵂، ولأنَّ الكلامَ في حقِّهنَّ أشنعُ"[2].

سرُّ جمعِ ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ وتعريفِها:

عمومُ اللَّفظ يُجري الحُكمَ على سائر المؤمنات العفيفات

الصّيغةُ في سياق قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ عامَّةٌ، ولا مانعَ من إجرائها على ظاهرها، فوجب حملُ جمع ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ في الآية على العموم، فيدخلُ فيه قَذَفَةُ عائشةَ، وقَذَفَةُ غيرها"[3] من نساء النبيِّ ﷺ، أو من نساء الأمَّة العفيفات، فالأولى أن يتناول الجمعُ كلَّ محصنة، في كلِّ زمان ومكانٍ، فالآيةُ وإن كانت نزلت في شأن عائشةَ، إلّا أنَّ "الحُكمَ بها عامٌّ في كلِّ مَن كان بالصِّفة التي وصفه الله بها فيها"[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 241.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 241.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 353.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/ 140.

تغليظُ قذفِ عائشة، والتَّحذير من الوقوع في سائر المحصنات الغافلات المؤمنات

بلاغةُ العمومِ في وعيد الآية:

جاء الوعيدُ من قذف المحصنات في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ عامًّا يشمل جميع المحصنات، "وإن كان الحديث مَسوقًا عن عائشة، والمقصود بذكرهنَّ على العموم وعيدُ من وقع في عائشةَ على أبلغِ الوجوه؛ لأنَّه إذا كان هذا وعيدُ قاذِفِ آحاد المؤمنات، فما الظنُّ بوعيد من وقع في قذف سيدتهنَّ؟ على أنَّ تعميمَ الوعد أبلغُ وأفظع من تخصيصه، ولهذا عَمَّمت زَليخا حين قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾ [يوسف: 25]، فعمَّمت، وأرادت يوسف؛ تهويلًا عليه وإرجافًا"[(1)]،

ثمَّ إنَّ الأَولى حملُ الآية على العموم، "فكلُّ رام محصَنةً بالصِّفة التي ذكر اللّه جلَّ ثناؤه في هذه الآية؛ فملعونٌ في الدنيا والآخرة، وله عذاب عظيم، إلّا أن يتوب من ذنبه ذلك قبل وفاته"[(2)].

الغفلةُ عن الرِّيبةِ من صفات المسلمات

بلاغةُ التَّعبيرِ باسم الفاعل: ﴿ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾:

من دلالة اسم الفاعل إفادةُ ثبوت المعنى ودوامِه، فاستعمالُ صيغتِه لِوَصفِ غفلةِ المحصَنات في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أدلُّ على براءة المحصنات، وعِظَم نزاهتهنَّ، وكمالِ غفلتهنَّ عن اقتراف الريبةِ، قال أبو السُّعود: "فيها من الدِّلالةِ عَلى كمالِ النَّزاهةِ ما ليس في المحصناتِ"[(3)]، وفي هذا التَّعبيرِ ما لا يخفى مِنَ الوعيد الشَّديد لمن قذف مؤمنة بتلك الصِّفة، وهي في غفلة تامَّة عمّا يُثير دواعيَ الريب.

الغافلاتُ من النِّساء أبعدُ النَّاس عن الرِّيبة

بلاغةُ الكناية بلفظ ﴿ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾:

التَّعبيرُ بـ﴿ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ كناية عن عدم وقوعهنَّ في

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 588، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن، ص: 247.
(2) ابن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن: 19/ 140.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 165.

الفاحشة؛ لأنَّ الَّذي يفعل الفاحشة لا يكون غافلًا عنها أبدًا[1]، فهنَّ لم يَهْمُمنَ بالرَّيب قطُّ، ولا خطر على قلوبهنَّ؛ لأنهنَّ في غفلة عنه، وهذا أبلغُ ما يكون من الوصف بالعفاف[2].

وعدمُ خطورِ الشرِّ على قلوبهنَّ؛ "لكونهنَّ مطبوعاتٍ على الخير، مخلوقاتٍ من عنصرِ الطهارة، ففي هذا الوصف من الدلالة على كمال النَّزاهة ما ليس في المحصنات المؤمنات"[3]، وهذا تهديد أيضًا لمن حام بالرّيبة حول عفافهنَّ.

نكتةُ تأكيدِ الوصف بـ﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾:

الإيــمــانُ هو جِماعُ الخير كلِّهِ

جاء الوصفُ بـ﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾؛ لبيان أنَّ الذي حمل النساء على الإحصان والغفلة عن الرّيبة إنَّما هو الإيمان والتقوى؛ "لأنَّ وصفَ الإيمان حاملٌ على كلِّ خير، ومانعٌ من كل سوء"[4]، وأنَّ هذا الوصفَ دلَّ على أنَّ المتَّصفاتِ بالإيمان آمنَّ بكلِّ ما يجب أنْ يؤمَنَ به، من الواجبات والمحظورات وغيرها، إيمانًا حقيقيًّا تفصيليًّا[5]، وفي وصف ﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ تشنيعٌ على القاذفين الكاذبين؛ لأنَّ وصفَ الإيمان يمنعهنَّ من الوقوع في الفاحشة[6].

سرُّ ترتيبِ ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾:

الإيمانُ مَناطُ كلِّ فضيلة، والبعد عن كلِّ رذيلة

ترتيبُ الصِّفات الثلاث من قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ روعيَ فيها الترقّي إلى الأعلى؛ لأنَّ الوصف بالإيمان جالِبٌ لكلِّ خير، مانِعٌ من كلِّ شرٍّ، فلولاه ما وقع

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 191.
(2) السهيلي، الروض الأنف: 7/ 47.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 18/ 126.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 241.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 165.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 191.

الإحصان والغفلة، ويجوز أن يكون الترتيب مبنيًّا على تقديم المسبَّب على السبب؛ لأنَّ الإيمانَ سبب للعفَّة والغفلة، وهما مسبَّبان عنه.

وينبغي أن يُعلم أنَّ القيد بالغفلة والإيمان لا يُبيح رميَ العفيفة غير الغافلة، أو العفيفة الكافرة، وإنَّما جيئَ بهذه الأوصاف "لتغليظ الذنب، وليس قيدًا للاحتراز، يبيح قذف غير الغافلات"(1).

دلالةُ بناءِ الفعل ﴿لُعِنُواْ﴾:

قاذِفُ المحصَناتِ مطرودٌ من رحمة الله تعالى

آثر السّياقُ التَّعبيرَ ببناء فعل اللَّعنة ﴿لُعِنُواْ﴾، لِما لم يُسمَّ فاعله في قول اللّه تعالى: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ وذلك لتوسيع دائرة اللَّعن والطَّرد من رحمة اللّه تعالى، فمجيء الفعلِ بلا فاعل يسوِّغ أن يأتيَ اللَّعن والدُّعاء بالطَّرد من اللّه، وملائكته، ورسله، والناس أجمعين، ومن الكون كلِّهِ، من عرشه إلى فرشه؛ لأنَّ الكونَ كلَّهُ يحبُّ المتَّقين، ويكره العاصين، فلو جاء الفعلُ معلومًا، وذُكر فاعله؛ لكان اللّاعن واحدًا، وهذا تضييقٌ للوعيد، وتحديدٌ للّاعن؛ ففي الصيغة التي جاء عليها القرآن زيادةُ تشنيعٍ، وشدَّة تبشيع، لمن يتورَّط في حمأة القذفِ.

معنى ﴿فِي﴾:

القاذفون المحصَناتِ لا يفارقهم اللَّعن في الدُّنيا والآخرة

في الظَّرفيَّةِ من قول اللّه تعالى: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ تفخُّمُ اللَّعن وتهويلٌ من شأنه، أي: إنَّ الدُّنيا والآخرة صارتا وعاءً للَّعن، وهذا يدلُّ على أنَّ اللَّعن مُلِئَت به الداران، الأولى والآخرة، وهذا تخويفٌ ما بعده تخويفٌ، يجعل الإنسان يفرُّ من تلك الكبيرة، حتى لا ينالَه هذا الجزاء المهول.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ و﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وتعريفِهما:

الشَّقاءُ الدنيويُّ والأخرويُّ ملازمٌ للقاذفين

في التَّعبير بالدُّنيا والآخرة في قول اللّه تعالى: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ حُسن تقسيم، واستيفاءٌ لأقسام الشَّيء، فحياة الإنسان لا

(1) لاشين، المنهل الحديث في شرح الحديث: 3/ 77.

تخرج عن هذَين الزَّمنين، وهذا يوحي بالشَّقاء الأبديِّ للقاذف إن لم يتب، ممّا فيه تهويلٌ وتفخيم من جزاء القذف.

والتَّعريف في ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ تعريفُ عهدٍ، فالدُّنيا للنّاس معهودةٌ؛ لأنَّهم يعيشون فيها، والآخرة أيضًا معهودةٌ؛ لأنَّها تأتي بعد الأولى، فحياتها إمّا نعيمٌ مقيم، أو عذاب أليم، نسأل اللّه العافية.

سرُّ تقديم الدُّنيا على الآخرة:

العذابُ الحاضر أخــوَفُ مـن العذاب الغائب

راعى النَّظمُ الحكيم في تقديم الدُّنيا على الآخرة - من قول اللّه تعالى: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ - معنى اعتبارِ الزمن، أي: إنَّ زمنَ الدُّنيا قبل زمن الآخرة، ويُلمَح أيضًا أنَّ تقديم الدُّنيا أخوفُ للقاذفين، وأنكى لقلوبهم، وآلم لنفوسهم، لأنَّ جزاء القذف سُرْعان ما يحلُّ بهم، أمّا الآخرة؛ فقد يعتري النَّفسَ استخفافٌ بأمرِ القذف لعدم وقوعها بعدُ، والعذاب العاجل أرهبُ للنَّفس من العذاب الآجل.

بلاغةُ الطِّباق:

قذْفُ المحصَناتِ شقاءٌ في الدُّنيا والآخرة

جمع النَّظمُ القرآنيُّ بين الدُّنيا والآخرة، في قول اللّه تعالى: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾، وهذا ما يسمّى عند أهل البديع بالطِّباق، الذي يُجمع فيه بين المعنى وضدِّه، وكان لهذا الطِّباق أثرٌ كبير في إظهار الفكرة، وإبراز العبرة، وهو أنَّه صعَّد معنى التخويف، حيث جعل اللَّعن والطَّرد من اللّه المُطْلَقين شاملين للحياتين اللَّتين لا يخرج عنهما الإنسان، وهي الحياةُ الأولى والحياة الآخرة، فهو شقاءٌ دائم فيهما، وهذا يجعل الإنسان يفرُّ من حمأة هذا المَرتَع الوخيم، فلا يقذف بريئةً عفيفة، ولا يشيع في الذين آمنوا فاحشةً مختلَقة.

معنى واو ﴿وَلَهُمۡ﴾:

تنويعُ العذاب أوجلُ للنُّفوس

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ عاطفةٌ، عطفت عذابًا على عذاب، فالعذابُ المعطوف عذابٌ حسّيٌّ، والعذاب المعطوف عليه ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ عذابٌ معنويٌّ، فجَمعت الواو بين العذابَين زيادةً في التَّحذير والتَّخويف.

دلالةُ شبهِ الجملة ﴿وَلَهُمۡ﴾ وسِرُّ تقديمِهِ:

قذْفُ المحصناتِ طريقٌ إلى العذاب العظيم

شِبهُ الجملة في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ حدَّدَ القاذفين المحصنات، وميَّزهم، ودلَّ على شدَّة استحقاقهم لهذا العذاب جرّاء ما فعلوا، وكان تقديم شبه الجملة - وهو الخبر أو متعلِّقُ الخبر - على المبتدأ ﴿عَذَابٌ﴾: للاهتمام بشأن القاذِفين، وللاعتناء بتسليط حكم العذاب عليهم، فهم المعنيّون بهذا الأمر.

إيثارُ لفظِ العذاب دون غيره:

القذفُ يَسلُب من القاذف مُتَعَ الدُّنيا والآخرة

كان النَّظمُ في غاية الدقَّةِ حين اختار لفظ العذاب، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ دون غيره؛ لأنَّ لفظَ العذاب فيه من دلالات لغويَّة مُخيفة تُرهِب الناس، وتخوِّفهم من أمر القذف، فالعَذابُ: هو الإيجاعُ الشَّديد، من قولهم: عَذَبَ الرَّجلُ؛ إذا ترك المأكل والنَّوم، فهو عاذِبٌ وعَذوبٌ، ويجوز أن يكون أصلُهُ من العَذْبِ، فعَذَّبْتُه، أي: أزلت عَذْبَ حياته، وأصل التَّعْذيبِ إكثارُ الضَّرب بِعَذَبَةِ السّوطِ، أي: طرفها، وقد قال بعضُ أهل اللُّغة: التَّعْذيبُ هو الضَّربُ، وقيل: هو من قولهم: ماءٌ عَذَبٌ؛ إذا كان فيه قذًى وكدَرٌ، فيكون عَذَّبْتُهُ، كقولك: كدَّرت عيشَهُ، وزلَّقت حياتَهُ"[1].

ومن ثَمَّ كان اختيارُ لفظ العذاب أرهبَ من غيره؛ لأنَّه سَلَبَ من القاذف كلَّ مُتَعِ الحياة، وأيُّ متعةٍ مع الإيجاع والتسهير والتعذيب والتكدير والضرب؟

دلالةُ تنكيرِ ﴿عَذَابٌ﴾:

لكلِّ فعلٍ جزاءٌ يناسبه

دلَّ السياقُ على أنَّ تنكيرَ لفظ العذاب في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إنَّما هو تنكيرُ تفخيم وتهويل من شأنه، أو أنَّ التَّنكير يدلُّ على النوعيَّة، أي: إنَّ هناك عذابًا من نوعٍ خاصٍّ يناسب هؤلاء القاذفين، ففي التَّنكير تحذيرٌ وتنفيرٌ للإنسان من أن يلتاث بتلك القذفةِ.

(1) الراغب، المفردات: (عذب).

سرُّ وصفِ العذاب بالعظيم:

الوعيدُ الشَّديد بالعقاب مِن أسباب رحمة الله ﷻ

ومعَ الدلالات اللغويَّة المُخيفة التي سبق ذكرها في العذاب، يأتي العذاب موصوفًا بالعظم في قول الله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، تهويلًا فوق تهويل، وتخويفًا فوق تخويف، فهو ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أي: "هائلٌ لا يُقادَرُ قدرُهُ لغاية عظم ما اقترفوه من الجنايةِ"[1]، فالوصفُ بالعظيم يُقيم بين الإنسان والقذف سَدًّا منيعًا وحاجزًا حصينًا.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرّمي والاتِّهام:

في لفظ الرَّمي سعةُ دلالة، وغنًى وإثراءٌ، لجَمعِهِ بين المعنى الحقيقيِّ والمجازيِّ

الرَّمي أوسعُ معنًى من الاتِّهام؛ لأنَّ الرَّمي يُستعمل في الأعيان، كالسَّهم والحجر، نحو: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17]، ويُستَعمل في المقال كنايةً عن الشَّتم، كالقذف، نحو: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [النور: 6][2].

أمّا الاتِّهام؛ فيكون في المعنويّات، كالاتِّهام بالسَّرقة أو القتل أو الزنى، وهي أمور معنويَّةٌ، أمّا فعلها؛ فيكون محسوسًا.

فلمّا كان الأمرُ كذلك؛ كان الأنسبُ في هذا السياق استعمالَ الرَّمي دون الاتِّهام؛ تحقيقًا للمعنيَينِ الحقيقيِّ والمجازيِّ، فالمعنى المجازيُّ اتِّهامٌ بالزِّنى، والمعنى الحقيقيُّ الرَّمي بالحجارة، وهما مرادان هنا تبشيعًا وتشنيعًا على أمر القذف، والاتِّهام لا يؤدّي إلّا معنًى واحدًا، وهو الاتِّهام بالفاحشة.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 166.

(2) الراغب، المفردات: (رمى).

﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ [النور:24]

يـومُ القيامةِ هو اليومُ الذي يقع فيه الوعيد السّابقُ ذكرُه

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الآيةُ السّابقةُ ذكرتِ الوعيد المنتظَر لهؤلاء القاذفين: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ ثم جاءت هذه الآيةُ تكشِف عن اليوم الذي سيقع فيه هذا الوعيد: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

فعلى هذا، تكون الآيةُ التي نحن بصددها متَّصلةً بما قبلَها اتِّصالًا وثيقًا، "ومَسوقةً لتقرير العذاب المذكور، بتعيين وقت حلوله، وتهويلِه ببيان ظهور جناياتهم الموجِبة له"(1).

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَشۡهَدُ﴾: الشَّهادةُ: خبَرٌ قاطعٌ، والمشاهدة: المعاينة(2)، فـ"الشين والهاء والدال أصلٌ يدلُّ على حضورٍ وعلم وإعلام، لا يخرج شيء من فروعه - من ذلك الشَّهادة - يجمع الأصول التي ذكرناها من الحضور، والعلم، والإعلام"(3)، ولذلك قيل: إنَّ الشهادة: قولٌ صادر عن علمٍ حصل بمشاهدةِ بصيرة أو بصر(4)، فالجوارحُ المذكورة في قول اللّه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم﴾ ستشهد على صاحبها يومَ القيامة شهادةَ العلمِ البصيرِ الحاضر المُطَّلع على الحقائق.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 166.
(2) الجوهري، الصحاح: (شهد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(4) الراغب، المفردات: (شهد).

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الآية تبيِّن أنَّ الجوارحَ تشهَد على أصحابها يوم القيامة، بأعمالهم الَّتي عملوها في الدُّنيا.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

إيثارُ ظرف الزَّمان ﴿يَوۡمَ﴾:

في يوم القيامة تُكشف فيه الأسرار، ويُفتضَح فيه الفجّار

آثر النَّظمُ الحكيم ظرفَ الزمان ﴿يَوۡمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ﴾؛ ليدلَّ على "أنَّ ذلك العذاب العظيم يكون في يومٍ لا يخفى فيه آثمٌ، ويكون كلُّ شيءٍ شاهدًا على ما أجرموا"[1].

إيثارُ فعلِ الشَّهادة ﴿تَشۡهَدُ﴾ مضارعًا:

وجوبُ الاستعدادِ ليوم التَّنادِ

جاءَ فعلُ الشَّهادة ﴿تَشۡهَدُ﴾ مضارِعًا في قول اللّٰه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ﴾؛ لاستحضار الصورة الغائبة، لتكونَ نصبَ العيون، فيكونَ الاعتبارُ أوقعَ، والخوفُ أفزعَ، فيجعل الناس يستعدّون ليوم الميعاد بخير الزاد.

توجيهُ القراءةِ في ﴿تَشۡهَدُ﴾ وبلاغتها:

شهادةُ الجوارِح تكشِف الفضائِح

اختلف القرّاءُ في فعل الشهادة من قول اللّٰه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ﴾، فقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ العاشِرُ ﴿يَشۡهَدُ﴾ بالياء على التَّذكير، وقرأ الباقون ﴿تَشۡهَدُ﴾ بالتاء على التَّأنيث[2].

وتوجيهُ قراءة الياء ﴿يَشۡهَدُ﴾ بأنَّ الفاعل وما عُطف عليه ﴿أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم﴾ مؤنَّثٌ مجازيٌّ، وقد وقع الفَصْلُ بين الفعل وفاعله بالجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾[3]، ويجوز أن يكون روعيَ في التَّذكير معنى النُّطق من هذه الجوارح، فيكون التَّأنيثُ لظاهر الجوارح، ويكون التَّذكير لنطقها، فيكون الإنسان مشهودًا عليه من

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5171.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 331.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 26.

الجهتين تخويفًا وتحذيرًا، وملمح آخر لقراءة التذكير وهو النظر إلى المفرد، وهو أن اللّسان مذكّر، فذكرت الفعل كما أقول: (يقوم الرجال)، "والحجة لمن قرأ بالتاء: أنه أتى به على لفظ الجماعة: واللسان يذكَّر فيجمع (ألسنة)، ويؤنث فيجمع (ألسن)"[1].

دلالةُ شِبهِ الجملة ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، وسرُّ تقديمِها:

شهادةُ الأعضاء حجَّةٌ على أصحابها

الضَّمير في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ من قول الله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ﴾ يعود على القَذَفَة للأعراض، ويُلمَح من دلالة (على) الاستعلائيَّة أنَّ شهادة الأعضاء متمكِّنة منهم تمكُّنَ المستعلي من المستعلَى عليه، فلا يستطيعون الفرار أو الإنكار.

وتقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على الفاعل وما عُطف عليه ﴿أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم﴾ أرهبُ للقاذفين، فهمُ المقصودون بإيقاع الشَّهادة عليهم، والمعنيّون بأمرها، وفيه أيضًا اعتناءٌ شديدٌ بالقذَفَة للمحصنات، ليس اعتناءَ تكريم، بل اعتناء إهانة، وفضحٍ لأمرهم، وكشفٍ لأسرارهم.

وتأخيرُ الفاعل يجعل النَّفس تشرئِبُّ لمعرفة أحوال الشاهدين، فإذا ما وقفتِ النَّفس على الجوارح الشاهدة تمكَّنت في النفس خيرَ تمكُّنٍ، يهيِّئ للإنسان الاعتبار والادِّكار، وهذا تخويفٌ شديد يجعلهم بمنجًى من ارتكاب تلك الكبيرة،

فالتَّقديم فيه "مسارعةٌ إلى بيان كون الشَّهادةِ ضارَّةً لهم، مع ما فيه من التشويق إلى المؤخَّرِ"[2].

علَّةُ إيثار الألسنة والأيدي والأرجل:

الجوارحُ تَشهَدُ على صاحبها بالحقِّ

ذكرَ النَّظمُ الكريم ثلاثةً من الجوارح تشهد يوم القيامة على أصحابها، وهي الألسنة والأيدي والأرجل: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ

(1) ابن خالويه، الحجة، ص: 261.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 166.

﴿أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وتخصيص هذه الأعضاء بالذِّكر - مع أنَّ الشهادةَ تكون من جميع الجسد، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ﴾ [فصلت: 21] - لأنَّ لهذه الأعضاء عملًا في رمي المحصنات، فاللِّسان ينطِقُ، والأيدي تُشير إلى المقذوف، والرِّجل تمشي للإبلاغ والإشاعة(1).

نكتةُ التَّرتيبِ في ذكر الجوارح:

مِلاكُ الأمرِ كلِّهِ اللِّسانُ

بدأ النَّظمُ الكريم بذكر اللِّسان أوَّلًا في الآية: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ لأنَّ اللِّسانَ هو آلةُ القذف، فهو الأداة الفاعلة في حادثة الإفك، فكان تقديمُهُ مناسِبًا للسياق، ثمَّ قُدِّمتِ الأيدي على الأرجُل؛ لأنَّ اليدَ هي وسيلةُ الكسب، بها يكون الضَّرب والسَّلب، والاختلاس والنهب، فهي في الشرِّ أفعلُ من الرِّجل، لذلك كان تقديمها أولى منه.

ولعلَّ البدءَ باللِّسان أوَّلًا؛ لأنَّه أوَّل من يشهد، فإذا أنكر، أو قال كَذِبًا وزورًا؛ خُتِم عليه، ثم تنطق الأيدي والأرجل، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥﴾ [يس: 65].

معنى شهادةِ الأيدي والأرجل:

شهادةُ جوارحِ الإنسانِ على نفْسِهِ من كمال العدل

شهادةُ الأيدي والأرجل على الإنسان شهادةٌ حقيقية، بنطقٍ حقيقيٍّ يسمعه صاحبُهُ، وليس هناك مُسَوِّغٌ إلى الذَّهاب إلى القول بالمجاز، فتلك أمور غيبيَّة يُحمَل فيها الكلام على ظاهره، فلا يبعُد أن يُخلَق العقلُ والحياة والنطق في هذه الأعضاء، ثمَّ أنَّها تُسأل(2).

"ومعنى شهادةِ الجوارحِ المذكورةِ، أنَّه تعالى يُنطقها بقدرته،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 191.
(2) ابن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب: 12/ 286.

فتخبر كلُّ جارحةٍ منها بما صدرَ عنها من أفاعيل صاحبِها"[1]، وهذا يَبعث الخوف في نفس الإنسان، فيكون دافعًا إلى استعمال تلك الجوارح في مرضاة اللّه عزَّ وعلا.

توجيهُ استعمالِ (ما):

يومُ القيامة يومٌ تُبلى فيه السّرائر

(ما) في قول اللّه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ يجوز أن تكونَ موصوليَّةً، أي: تشهدُ بالذي كانوا يعملونه، ويجوز أن تكونَ مصدريَّة، أي: تشهد بأعمالهم.

وسواء كانت (ما) هذا أو ذاك، فإنَّها اختزلت أعمالًا كثيرة عُمِلت في الدُّنيا، لا يُستساغ التَّعبير عنها إلّا بـ(ما)، فكان الأسلوبُ معها موجزًا غاية الإيجاز، فضلًا عمّا تحمِلُهُ من معاني التهويل المستكنِّ فيها، فالأعمالُ التي عبَّرت عنها (ما) امتلأ بها الزمانُ والمكان، تُفصِح عنها الجوارحُ في هذا اليوم المشهود، وهذا الأسلوبُ الخبريُّ يُفهم منه معنى التَّهديد الذي يجعل الإنسان يُقيم لهذا اليوم وزنًا.

ومن مظاهر الإيجازِ أيضًا حذفُ مفعول ﴿يَعۡمَلُونَ﴾، وقد أضفى هذا الحذفُ أيضًا جوًّا مِنَ التَّرهيب من مَغَبَّةِ الأعمال الموبِقة، فلا يحوم العاقلُ حولَها، ولا يقترب من حِماها.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعل ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ مضارِعًا:

استحضارُ صورةِ الأعمال للتَّخويف والتَّحذير

التَّعبيرُ عن عملِ أصحابِ الوعيد بصيغة المضارع في قول اللّه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ فيه ميزَةٌ عجيبة في استحضار الصورة الماضيَة، فهو هنا يجعل أعمال العباد الَّتي عملوها في الدُّنيا ماثلةً لهم، منصوبةً أمامَهم، لا يستطيعون إنكارها ولا التنصُّلَ منها، حتى تقومَ عليهم الحجَّة، فيَجزيهمُ اللّه الجزاءَ المستحَقَّ، وهذا أمرٌ جدًّا مَخوف، يَجعل الإنسان مُكِبًّا على الطاعات، تاركًا المنكرات.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 166.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العمل والفعل والصُّنْع والكسب:

تتَّضح دقَّةُ الأسلوب القرآنيِّ في قول اللّه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ في إيثار اللفظ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ دون (يفعلون)، ذلك أنَّ العمل يكون مقصودًا من فاعله، والنَّفسُ متوفِّرة على فعله، أمّا الفعل في الغالب؛ فلا يكون مقصودًا متعمَّدًا، فـ"العَمَلُ: كلُّ فعل يكون من الحيوان بقصد، فهو أخصُّ من الفعل؛ لأنَّ الفعل قد يُنسَب إلى الحيوانات الَّتي يقع منها فعلٌ بغير قصد، وقد يُنسب إلى الجمادات، والعَمَلُ قلَّما يُنسب إلى ذلك"(1)، ومن ثَمَّ فإنَّ الإنسان يومَ القيامة لا يُسأل إلّا عن الأفعال التي انعقد على فعلها قلبُهُ، وذهب إليها قصدُهُ، وتوجَّهت إليه همَّتُه.

لا يُسألُ المرءُ إلّا عمّا عمِلَ بقصدٍ ودِرايةٍ وكان له أثرٌ

"والعمل إيجاد الأثر في الفعل، يُقال: فلان يعْمل الطّين خزَفًا، ويعْمل الخوصَ زنبيلًا، والأَديمَ سقاءً، ولا يُقال يفعل ذَلِك"(2)؛ لأنَّ الفعل ليس فيه الأثرُ الموجود في العمل.

أما الصُّنع؛ فيمتازُ عن العمل بأنَّ فيه علمًا سابقًا على الصنع، فالصانع يعلمُ طريقةَ ما يصنعُهُ، ويصِل بعلمه إلى ما يريد، بعكس العمل الَّذي قد يخلو من هذا العلم، والصنع فيه حِرفة ومهارة يتكسَّب الصانع منها، وليس ذلك في العمل، والصنع مضمَّن معنى الجودة بخلاف العمل.

"والكَسْب: الفعل العائد على فاعلِه بنفع أو ضرٍّ، وقالَ بَعضهم: الكسب ما وقع بمراسٍ وعلاجٍ، وقال آخرون: الكَسْب ما فُعل بجارحة، وهو الجرْح، وبِه سُمّيتْ جوارح الإِنْسان جوارِحَ، وسُمّي ما يُصاد به

(1) الراغب، المفردات: (عمل).
(2) العسكري، الفروق اللغوية: 1/ 134.

جوارحَ وكواسبَ، ولهذا لا يوصَف الله بأنَّهُ مكتسب"[1]، فالكسب إذا روعيَ فيه النَّفع أو الضرُّ الذي يعود على صاحبه، فإنَّه يتَّفق مع العمل في هذا، فالعمل قد يضرُّ، وينفع، وإذا روعي في الكسب معنى التعمُّل والتكلُّف والمِراس والمعالجة؛ فإنَّه يفترق في هذا عن العمل؛ لأنَّ كثيرًا من الأعمال قد لا تحتاج إلى هذا.

ومن ثَمَّ كان لفظُ العمل هو الأنسبَ للسياق؛ لِما يَحمِله منه تعمُّدُ الفعل، واستبقاء الأثر، بعكس لفظ الفعل، والصُّنع فيه مهارةٌ مرعيَّةٌ لا تتناسب مع السياق، والكسب فيه مراسٌ ومعالجة ومران، وهي أيضًا لا يقتضيها المقامُ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية: 1/ 137.

﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ٢٥﴾ [النور:25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الحقُّ ﷻ يُجازي كلَّ نفس بما كسبت

هذه الآيةُ لها صلةٌ واضحة بالآية السابقة ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ إذ إنَّه في هذا اليوم الذي تشهدُ فيه تلك الجوارح يوفّيهم اللّه ﷻ حسابهم وجزاءهم الحقَّ على أعمالهم[1].

فـ"الآيةُ السابقة كانت مشتملةً على الإثبات يوم القيامة، وأنَّه كان من جوارحِهم التي تشهد عليهم، وهي شهادةٌ صادقةٌ، وهذه الآية تبيِّن الحُكمَ، وهو العقاب الشَّديد"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُوَفِّيهِمُ﴾: (وفى) أصلٌ يدلُّ على إكمال وإتمام، ومنه الوفاء: إتمامُ العهد وإكمال الشرط، والتَّوفيَة: التَّتميم، والإيفاء بالشَّيء: قضاؤه وافيًا، وتوفَّيت الشيءَ، واستوفيتُهُ؛ إذا أخذتهُ كلَّهُ حتّى لم تترك منه شيئًا، ومنه يقال للميّت: توفّاه اللّه[3]، ومعنى التوفية في قول اللّه تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾، أي: يُكمل اللّه حِسابَهُم، ويتمِّم جَزاءَهُمُ الحَقَّ على أَعْمالِهِم[4].

2) ﴿دِينَهُمُ﴾: (دين) أصلٌ واحد إليه ترجع فروعه كلُّها، وهو جنسٌ من الانقياد والذُّلِّ، فالدّين: الطاعة والانقياد، ومنه الحسابُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 141.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5172.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب الأصفهاني، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (وفّى).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 231.

والجزاء؛ لكونه أمرًا يُنقادُ له[1]، فهو يُقال، ويُراد به: الجَزاء، فدِنْته بِما صنعَ، أي: جازيته، وفي المَثَلِ: (كَما تَدينُ تُدان)، أَي: كَما تُجازي تُجازَى، وبحسب ما عملت[2]، والدّين: الشَّريعة والملَّة، لكنَّه يُقالُ اعتبارًا بالطاعة والانقياد للشريعة، فمعنى الدّين في قول اللّه تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ جزاءَهم أو حسابَهم، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ [التوبة: 36]، أَيِ: الحِسابُ الصَّحيحُ[3].

3) ﴿ٱلۡحَقَّ﴾: (حقّ) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على إحكام الشَّيء وصحَّته[4]، وأصلُه: المطابقة والموافقة[5]، والحقُّ نقيضُ الباطل، وهو: إيجابُ الحكم[6]، وصدق الحديث، واليقين بعد الشَّكِّ، والإحكام، والتصحيحُ[7]، والإثبات[8].

4) ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾: (بين) أصلٌ واحدٌ، وهو بُعد الشيء وانكشافُه[9]، وأَبَنْتُ الأمرَ وبيَّنته: أظهرتُه بيانًا، ووضَّحتُه[10]، وبانَ الشَّيء: انفصلَ، وظهرَ ما كان مستترًا منه، ولمّا اعتُبر فيه معنى الانفصال والظهور؛ استُعمل في كلِّ واحدٍ منفردًا[11]، ومن ذلك الفصلُ والتَّمييز جاء معنى الوضوح والظهور؛ لأنَّ المفصولَ المتميِّز عن غيره يُلفِت النظر، وهو المعنى الذي جاءت به كلُّ مفردات التركيب القرآنيَّة عدا الظَّرفِ (بَينَ)[12]، فاللَّفظُ في سياق قول اللّه تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ يدور حولَ الإظهار والإيضاح والإبانة.

المَعْنى الإجْماليُّ:

في اليوم الذي تشهدُ فيه الجوارحُ على أصحابها، يُجازي اللّه ﷻ الناسَ بأعمالهم،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دين).
(2) الجوهري، الصحاح: 5/ 2118، وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 296.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 354، والسّمين، عمدة الحفاظ: 2/ 35.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(5) الراغب، المفردات: (حق).
(6) الخليل، العين: (حق).
(7) الأزهري، التهذيب: (حق).
(8) ابن سيده، المحكم: (حق).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(10) السمين، عمدة الحفاظ: (بين).
(11) الراغب، المفردات: (بين).
(12) جبل، المعجم الاشتقاقي: (بين).

تنكشفُ الحقائقُ يومَ القيامةِ عن أهلِ الغفلة

جزاءً عادلًا لا ظلمَ فيه، وقتَها يَعلَم الناس، ويعلم الشاكّون أنَّ اللّه حقٌّ، وأنَّ ما وعد به حقٌّ لا ريب فيه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فصلِ الآية:

في يوم القيامة يُجازى فيه كلُّ إنسان بعمله

فصل بين قول اللّه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ وبين قوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾؛ وسببُ الفصل هو الاستئناف البيانيُّ، الذي عبَّر عنه البلاغيّون المتأخِّرون بشِبه كمال الاتِّصال، فذِكْرُ شهادةِ الأعضاء تُثير في النَّفس سؤالًا عن آثارِ تلك الشَّهادة، فيكون الجواب هو مجازاةُ اللّه على ما شهدت به جوارحُهم[2].

ويجوز أن يكون سببُ الفصل هو كمال الاتِّصال، حيث وقعت جملة ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ بدلًا من جملة: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[3]، وجائزٌ أن تكون عطفَ بيانٍ منها[4].

دلالةُ ظرفَي الزَّمان ﴿يَوۡمَ﴾ و﴿يَوۡمَئِذٖ﴾:

يومُ القيامة مليءٌ بالأهوال الجسام

ظرفا الزمان ﴿يَوۡمَ﴾ من قول اللّهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، و﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ من قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ كشفا عن عظمة ذلك اليومِ، وشدَّة هوله.

فالظَّرفُ الأوَّلُ ﴿يَوۡمَ﴾ هو استحضارٌ لهذا اليوم العظيم الذي ﴿تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ﴾ فيه ﴿أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم﴾، ثم زاد في التَّهويل

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 141.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 192.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 325.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5272.

بقوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾، أي: إذْ تشهد عليهم هذه الجوارحُ ﴿يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ﴾ جزاءَهم و﴿دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾، وهو ﷻ محيطٌ بكلِّ شيء علمًا وقدرةً، وله الكمال كلُّه(1).

بلاغةُ الإيجازِ في ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾:

يحاسَبُ الإنسانُ يوم القيامة على النَّقير والقطمير

في التَّعبير بـ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ من قول الله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ إشارةٌ إلى جملة محذوفة، يدلُّ عليها ما قبلَها، ووُضِعَ التَّنوينُ عوضًا عنها، والتقدير: (يَوۡمَ إِذۡ تَشۡهَدُ عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون)، والحذف نوعٌ من أنواع الإيجاز، الذي يجعل التَّعبيرَ مُكثَّفًا، بحيث تُحذَفُ جملةٌ سبقَ التعبيرُ عنها في الآية السابقة، ليُعجَّل بالدخول إلى المجازاة الحقَّة، التي لا يُظلم الناس فيها شيئًا، وفي هذا التَّعجيل ترغيبٌ لفعل الطاعات، وترهيبٌ من المعاصي والمنكرات.

من دلالة التَّعبيرِ بالظَّرف: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾:

يــومُ القيــامة هــو يــومُ توفيَة الأعمال بلا مراءٍ

اختارَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ عن يوم القيامة بقوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾؛ لأنَّ ظرفَ الزَّمانِ (يوم) جيء به مضافًا إلى (إذْ) المخصَّصةِ للزَّمن الماضي، والتَّنوين هو تنوين عِوَضٍ، دالٌّ على الجملة السّابقة، فيكون تقدير الكلام: (يومَ تشهد عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجلُهم بما كانوا يعملون، يوفّيهم الله دينَهم الحقَّ وحسابَهم المستحقَّ)، هذا المعنى هو المدلول عليه بتنوين العوضِ الذي صحِب كلمة الظرفيَّة ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾، وهو من أغراض العدول من ذكر يومِ القيامة باسمهِ الصَّريح إلى ما جاء عليه النَّظمُ الجليل.

سرُّ إيثارِ لفظ التَّوفية:

لا يُظلم النّاسُ يــوم القيــامة مثقالَ ذرَّةٍ

كان النَّظمُ القرآنيُّ مِن الدقَّة بمكان حين اختار لفظَ التوفية في الآية: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ دون ما يرادفها من المجازاة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 242.

والإثابة؛ لأنَّ التوفيَة - وإن كانت تدلُّ على المجازاة والإثابة - إلّا أنَّها تزيد عليهما بمعنى المجازاة التامَّة المستوفاة، التي لا تترك شيئًا إلّا وفّته حقَّهُ، فهي مأخوذةٌ من تَوْفيَةِ الشَّيءِ، أي: بذلِه وافيًا، واسْتيفاؤُهُ: تناولُهُ وافيًا[1]، فالمجازاة وإن كانت كذلك، إلّا أنَّ اللَّفظ لا يوحي بهذا الاستيفاء، ثمَّ إنَّ في المجازاة معنى المكافأة، وهي المقابلة من كلِّ واحد من الطرفين[2]، وهذا غير مراد هنا.

ومعنى الاستيفاءِ التامِّ أيضًا لا يوجد في لفظ الإثابةِ، فالإثابةُ من الفعل ثاب يثوب، أي: رجع، والثَّواب: ما يرجع إلى الإنسان من جزاءِ أعمالهِ، والثَّواب يقال في الخير والشَّرِّ، لكنَّ الأكثرَ المتعارف أن يكونَ في الخير[3]، فكلٌّ من هذين اللَّفظين لا يؤدّيان ما أدّاهُ لفظُ التوفيةِ في هذا السياق، إنَّها بلاغة القرآن العالية.

عَودُ الضَّميرِ مِن ﴿يُوَفِّيهِمُ﴾، وسرُّ تقديمه:

حسابُ اللهِ يومَ القيامة لا يَظلم الناس شعيرةً

الضَّميرُ المتَّصِل بفعل التوفية في قول الله تعالى: ﴿يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ جائزٌ أن يعودَ على المؤمنين الذين لَغَوا في عِرض عائشةَ رضي الله عنها[4]، وجائزٌ أن يعودَ على عبدالله بن أُبَيٍّ ومن معَهُ من المنافقين والمشركين[5]، وقُدِّم في ترتيب الجملة المفعولُ - وهو الضَّمير من ﴿يُوَفِّيهِمُ﴾ - على الفاعل، وهو اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لاتِّصالهِ بالفعل أوَّلًا، وللتَّركيز على المحاسَبين ثانيًا، فهم المعنيّون بالجزاء والتوفية.

سرُّ إظهارِ الاسم الأعظم ﴿ٱللَّهُ﴾:

الاسمُ الأعظمُ يملأُ القلوبَ خشيةً ومهابةً

أفاد إظهارُ اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ معنى المجازاة التامَّة العادلة التي لا تبخس الناس

(1) الراغب، المفردات: (وفّى).
(2) الراغب، المفردات: (جزى).
(3) السابق: (ثوب).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 193.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 27.

شعيرةً، فتزِن عليهم الفتيل والنَّقير والقطمير؛ ذلك لأنَّ اللّه بكلِّ شيء محيطٌ، وبكلِّ ذرَّةٍ عليم، لا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السَّماء، فهذه المعاني مستفادة من اسم اللّه الأعظم ﴿ٱللَّهُ﴾.

ويفيدُ إظهارُهُ كذلك ملْءَ القلوبِ هيبةً تمتلك أقطارها، وملْءَ النُّفوس خشيةً تحول بينها وبين المعاصي، وقد زاد تكرارُ اسم الجلالة بعد ذلك ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ هَيبَةً فوقَ هيبةٍ، تجعل الناس له مُذعِنين.

بلاغةُ اختيارِ لفظِ الدّين:

كما تَدينُ تُدانُ

آثرَ السياقُ القرآنيُّ لفظَ الدّين في قول اللّه تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾؛ لأنَّ الدّين من معانيه المجازاة، ومنه: كما تدين تدان، ومن ثمَّ، فإنَّ لفظ الدين أخوَفُ للنُّفوس؛ لأنَّها تعلم يقينًا أنَّ ما تفعله في الدُّنيا ستُجازَى عليه يوم القيامة.

بلاغةُ إضافةِ الدّين إلى الضَّمير:

تسليطُ ضمير الحساب على المعنيّين بالتحذير والوعيد

علَّةُ إضافةِ الدين إلى المنافقين والمشركين - باعتبار عَود الضَّمير إليهم - في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ كامنةٌ في تحديدهم، وتسليطِ الضَّمير عليهم، فيوفّيهم جزاءهم الحقَّ الذي استحقّوه بأقوالهم الآثمة[1]، وهذا يبعث في القلوب وجَلًا، يجعلهم يبادِرون إلى التبرُّؤ من الشِّرك والنفاق والقذف.

سرُّ وصفِ الدين بالحقِّ:

جزاءُ اللهِ قائمٌ على الحقِّ

لمّا وصف اللّه سبحانه الدّين بالحقِّ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾؛ كان معناه: الجزاءَ العادل، الذي لا ظلمَ فيه، فوُصف بالمصدر للمبالغة[2]، فمن معاني الحقِّ: الثُّبوت، يقال: حَقَّ الأَمرُ يَحِقّ ويَحُقُّ حَقًّا وحُقوقًا: صارَ حَقًّا، وثَبت، وحَقَّ عليه

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5172.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 192.

القولُ، وأحْقَقْتُهُ أنا[1]، فالمصدريَّة مرعيَّةٌ في هذا الوصف؛ لأنَّ الحقَّ قد يُراعى فيه معنى الاسميَّة، فهو معدودٌ من أسماء اللّه الحسنى.

نكتةُ وصلِ ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾:

العلمُ المتأخِّر عن وقته لا ينفع

الواو العاطفة في قول اللّه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ عَطفت هذه الجملةَ على الجملة السابقة: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾، وسرُّ هذا الوصل هو ما عبَّر عنه البلاغيّون بالتوسُّط بين الكمالَين، حيثُ اتَّفقت الجملتان في الخبريَّة لفظًا ومعنًى.

فالوصل يدلُّ على أنَّ الوقت الذي يحاسِبهم اللّه تعالى فيه على أعمالهم، فيه أيضًا يعلمون أنَّ اللّه هو الحقُّ المبين، لكنَّ هذا العلمَ لا ينفعهم، فقد فات الأوان، وانصرم الزَّمان، ولم يبقَ إلّا (كما تدين تدان)، فالوصلُ داعي الناسِ إلى التزوُّد بالتَّقوى، لينجوا من هول يوم القيامة.

دلالةُ ضميرِ الفصل ﴿هُوَ﴾:

العدلُ الإلهيُّ يُطَمئِن القلوبَ المؤمنة

ضميرُ الفصلِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ أفاد معنى الحصر، أي: يعلمون أنَّ اللّه وحدَه الحقُّ، الثابتُ أمرُه، فلا أمرَ لأحد سواه[2]، فإذا روعي في لفظ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ معنى المصدريَّةِ؛ كان الحصرُ غيرَ حقيقيٍّ، لعدم الاعتداد بالحقِّ الذي يصدر عن غيرهِ من الحاكمين؛ لأنَّهم معرَّضون للخطأ والتقصير، وإن روعي في لفظ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ معنى الاسميَّة؛ كان الحصر حقيقيًّا؛ لأنَّه لا يُسمّى بلفظ الحقِّ غيره تعالى[3].

وهذا الحصرُ يجعل الإنسانَ يستعدُّ ليوم القيامة بالأعمال الصالحة؛ لأنَّ أعماله ستُعرَض على الحقِّ العادل الذي لا يُظلَمُ عنده أحدٌ.

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (حقق).

(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 249.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 193.

سرُّ تَكرارِ لفظ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾:

كُرِّر الحقُّ مرَّتين، مرَّةً في قول اللّه: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾، ومرَّةً أخرى في قوله: ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾، وهذا التَّكرار فيه تقريرٌ وزيادةُ تأكيد على أنَّ اللّه هو الحقُّ المطلق، الثابت الوجود، العادل الذي لا يضيع عنده إحسانُ المحسن، أو إساءةُ المسيء.

الحقُّ سبحانه وتعالى لا تَضيع عنده الحقوق

دلالةُ مجيء ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ مصدرًا معرَّفًا:

في قول اللّه تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ "وصفُ اللّه بأنَّه الحَقُّ، وهو وصفٌ بالمصدر؛ لإفادة تحقُّق اتِّصافه بالحق"[1].

وعُرِّفَ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾؛ لإفادة القصر، وقد صرَّح الآلوسيُّ بمعنى الحصر المأخوذِ من تعريف الطَّرفين وضميرِ الفصل[2]، وقصْرُ صفةِ الحقِّ على اللّه تعالى يُطَمئِن القلوبَ، فمِن صفات الحقِّ سبحانه العدلُ، الذي لا تضيع عنده مثقالُ حبَّةٍ من خردل.

الحقُّ سبحانه يحاسِب النّاسَ بالعدل

علَّةُ وصفِ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ بـ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾:

جاء وصفُ الحقِّ بالمُبين في قول اللّه تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾؛ ليدُلَّ على أنَّ اللّهَ وحدَهُ هو الحقُّ، وأنَّ أمره حقٌّ لا شكَّ فيه، وأنَّ ألوهيَّته وعلمه وقدرته وتفرُّدَهُ بجميع صفات الكمال، وتنزُّهَه عن جميع سِمات النقص، من الوضوح بحيث لا يُنكره إلّا جاهلٌ أو جاحد، وهذا يجعل المفرِّطين يندمون على ما فعلوا في الدُّنيا من تقصيرهم في أمر المراقبة جرّاء غفلتهم[3].

إثباتُ الكمال المطلَقِ لله جلَّ جلاله

سرُّ التَّوكيدات في جملة الفاصلة:

قول اللّه تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ تذييلٌ

الحقُّ العادل يُجازي المحسنَ بإحسانِه، والمسيءَ بإساءته

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 198.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 326.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 243.

محتشدٌ بأساليب التَّأكيد، أوَّلها: ﴿أَنَّ﴾ المؤكِّدة، وغرضها هنا تنزيل علمهم الحاصلِ قبلُ منزلةَ غير الحاصل، لعدم ترتُّب ما يقتضيه من الكفِّ عن الرمي عليه[1].

فهو تنزيل العالِم بالخبَر منزلةَ غيرِ العالم[2]؛ لأنَّهم لم يعملوا بمقتضى عِلمهم، ولم يتورَّعوا عن الخوض في عِرض عائشة رضي الله عنها، فالمؤمنون الذين خاضوا في الإِفك - وإن كانوا يعلمون أنَّ اللّه هو الحقُّ المبين - لم يتورَّعوا عن القذف، فنزَّلهم اللّه منزلةَ من لا يعلم، وجاء الخبرُ مؤكَّدًا.

وجائزٌ أن يكون العلم هنا راجعًا إلى المنافقين والمشركين، فهم يعلمون أنَّ اللّه هو الحقُّ المبين وقت أن يجازيَهم اللّهُ على أعمالهم، ويوفّيَهم إيّاها.

ومن أساليب التوكيد في الآية كذلك: ضميرُ الفصل ﴿هُوَ﴾، والإخبار عن اللّه بالمصدر ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ - إذا اعتبرنا فيه معنى المصدريَّة لا معنى الاسميَّة - والتأكيدُ بالصِّفة ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾، كلُّ هذه التأكيدات فضلًا عن اسميَّة الجملة الدالَّة على الثبوت تبيِّن "أنَّ من كان هذا شأنه؛ فإنَّه ينتقم من الظّالم لا محالة"[3]، ولا تسقط عنده إساءةُ مسيءٍ، ولا إحسانُ محسن، فحُقَّ مثلُه أن يُتَّقى، وتُجتنب محارمُه[4].

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

التوفية والمُجازاة والإثابة:

التوفيةُ استيفاءٌ للأجر كاملًا غير منقوص

فعلُ التَّوفية في قول اللّه تعالى: ﴿يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ﴾ من تَوْفِيَة الشَّيءِ، أي: بذله وافيًا، واسْتيفاؤُهُ: تناوله وافيًا[5]، وأمّا المجازاةُ؛

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 326.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 193.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 103.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 224.
(5) الراغب، المفردات: (وفّى).

ففيها معنى المكافأةِ، وهي المقابلة من كلٍّ واحدٍ من الطَّرفين[1]، والإثابة من الفعل ثاب يثوب، أي: رجع، والثَّواب: ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعمالهِ، والثواب يقال في الخير والشرِّ، لكن الأكثر المتعارف في الخير[2].

فالتوفيةُ تشتمل على معنى المجازاة على التَّمام، بعيدًا عن معنى المبادلة الموجود في المجازاة، وتشتمل أيضًا على معنى الإثابةِ، وهما لا يشتملان على معنى التوفية؛ لأنَّ فيها معنى الاستيفاء الكامل غير المنقوص، وهذا المعنى، وإن كان موجودًا في المجازاة والإثابة، إلّا أنَّ صيغةَ اللَّفظين لا تومئ إليه.

(1) الراغب، المفردات: (جزى).
(2) الراغب، المفردات: (ثوب).

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٢٦﴾ [النور: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إظهارُ براءةِ عائشةَ رضوانُ الله عليها

بعد أن برَّأَ اللّٰهُ عائشةَ ﵂، ممّا قاله أصحابُ الإفك، وهدَّدهم وتوعَّدهم، ثم تاب على الذين تابوا؛ أظهر بعد ذلك براءة النَّبي ﷺ من أن تكونَ له أزواجٌ خبيثات؛ لأنَّ عصمته وكرامته على اللّٰه تأبى عليه ذلك، فمكانةُ الرسول ﷺ كافيةٌ في الدلالة على براءة زوجه، وطهارة أزواجه كلِّهنَّ، وهذا من الاستدلال على حال الشَّيء بحال مقارنه ومماثله[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾: "الخاءُ والباء والثاء أصلٌ واحد يدلُّ على خلاف الطيِّب"[2]، وأَصْلُ الخَبيثِ في كَلامِ العَرَبِ: المَكْروهُ والرديء، ونعت كلِّ شيء فاسد، فإنْ كانَ من الكلام؛ فهوَ الشَّتْمُ، وإن كانَ مِنَ الطَّعام؛ فهوَ الحَرام، وإنْ كانَ مِنَ الشَّراب؛ فهوَ الضّارُّ[3]، فهو على العموم ما يُكره رداءةً وخساسةً، ويكون في المعقولات، كما يكون في المحسوسات، وبذلك يتناول الباطلَ في الاعتقاد، والكذِبَ في المقال، والقبيح في الفعال، ثم فسَّره المفسِّرون بحسب خصوص الأماكن[4]، وذكروا أَنَّ الخَبيث والطَّيب في القُرْآن على ثَلاثَة أوجهٍ، أَحدها: الحَرام، والحَلال، والثّاني: الكافِر، والمُؤمن، والثّالِث: كلمة الكُفْر، وكلمة الإِسْلام[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 194.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خبث).
(3) الفراهيدي، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (خبث).
(4) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفّاظ: (خبث).
(5) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر: 270 - 271.

وزاد بعضُهم أنَّ المعنى في هذه الآية: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ﴾: لا يَتَكلَّمُ بالخبيثاتِ من الكلمات إلّا الخَبيثُ من الرِّجال والنِّساء، أو أنَّ الكلماتِ الخَبيثاتِ تَلْصَقُ بالخَبيثاتِ والخُبَثاءِ من الرِّجال والنِّساء، فأمّا الطّاهرونَ والطّاهِراتُ؛ فلا يَلْصَقُ بِهِمُ السَّبُّ، فالحديث يدور على الخبيثات من الأقوال، ويجوز أن يكون المعنى: أنَّ الخبيثاتِ من النِّساء يَكُنَّ للخبيثين من الرِّجال[1]، وأنَّهم يكونون لهنَّ.

2) ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾: "الطاء والياء والباء أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلُّ على خلاف الخبيث"[2]، والطَّيِّبُ من الإنسان: مَن تعرّى مِن نجاسة الجهل والفسق وقبائح الأعمال، وتحلّى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال[3]؛ ولذلك يُقال لكلِّ ما يلذُّ للنَّفس ممّا لا إثمَ فيه: طيّبٌ، من طعام، وريح، وأرض، وكلمة، وكسب حلال[4]، وامرأةٌ طَيِّبة؛ إذا كانَتْ حَصانًا عَفيفَةً، وهي المرادة في هذه الآية: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾، فالطَّيِّباتُ مِنَ النِّساءِ لِلطَّيِّبينَ مِنَ الرِّجالِ[5]، وهم لهنَّ، أو أنَّ الأعمال الطَّيِّبَةَ تكون من الطَّيِّبينَ[6].

3) ﴿مُبَرَّءُونَ﴾: البُرْءُ والتَّبرّي: الانفصالُ من الشَّيء المكروهِ مجاورتُه، والتَّفصّي منه[7]، فأحد أصْلَيِ الباء والرّاء والهمزة: التَّباعد من الشَّيء ومُزايَلَتُه، ومنه البُرْءُ: السَّلامةُ من السَّقم، ومن العَيب والمكروه[8]، ومعنى ﴿مُبَرَّءُونَ﴾ في هذه الآية يعود على عائشةَ رضوان الله عليها، وصفوان بن المعطل الذي رُميتْ به[9]، أو يعود على الطَّيّبين والطَّيّبات، ويكون المرادُ أنَّهم منزَّهون ممّا يُرمَون به[10].

4) ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾: أصلُ الغَفْرِ: السَّترُ والتَّغطية، وهو عِظَمُ بابِه، وغفر الله ذنوبَهُ، أَي: سَترها، ولم يَفْضَحْهُ بها على رُؤوس المَلأ، وكلُّ شَيْء سترتَهُ؛ فقد غفرتَهُ، ومنه قولهم:

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (خبث)، والزمخشري، الكشاف: 3/ 225.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طيب).
(3) الراغب، المفردات: (طيب).
(4) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 417، وابن منظور، لسان العرب: (طيب).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (طيب).
(6) الراغب، المفردات: (طيب).
(7) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (برأ).
(8) الفراهيدي، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (برأ).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 238.
(10) ابن عادل، اللباب: 14/ 340.

اصبُغْ ثوبَكَ بِالسَّوادِ، فإنَّهُ أَغْفَرُ للوسخ، أَي: أَغْطَى لَهُ[1]، والغَفْرُ: إلباسُ ما يصونه عن الدَّنَسِ، والغُفْرانُ والمَغْفِرَةُ من اللّهِ هو أن يصون العبد مِن أن يمَسَّه العذابُ[2]، وكلُّ ما جاء في القرآن من التركيب؛ فهو من مغفرة الذُّنوب[3]، كما في هذه الآية، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾.

5) ﴿وَرِزْقٌ﴾: "الراء والزاي والقاف أصلٌ واحد يدلُّ على عطاءٍ لوقت، ثم يُحمل عليه غير الموقوت، فالرِّزق: عطاءُ اللّه جلَّ ثناؤه"[4]، وهو: ما يُنْتَفَعُ به، وكلُّ من أجريتَ عليه جِرايةً؛ فقد رزقته رَزْقًا[5]، فهو يطلق تارَّة على العطاء الجاري نحو: رَزَقَ السلطانُ جندَهُ - ويكون دنيويًّا وأخرويًّا - وتارَّة على النَّصيب، وتارةً على ما يصل إلى الجوف، ويُتغذّى به، ويطلق على كل خيرٍ وصل إلى صاحبه من: العلم، والأموال، والجاه[6]، فالمراد بالرزق في الآية: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾: هو العيش الهنيء في الجنَّة[7].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

الطباعُ تحنُّ إلى ما يُشاكِلها

الخُبَثاءُ من الرِّجال والنِّساء لهم ألفاظٌ تناسبهم، وتتَّفق مع طباعهم، وأمّا الطيِّبون منهم؛ فلا يصدر منهم إلّا ما يوافقُ طبعَهم المستقيم، وذوقهم السليم، فكلُّ إناءٍ يَنضَح بما فيه، وهؤلاء لا يتزوَّجون إلّا مَن كان على شاكلتهم من النِّساء، فالطّيورُ على أشكالِها تقعُ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فصلِ الآية:

الطّيورُ على أشكالها تقع

قولُ اللّه تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ "كلامٌ مستأنَفٌ سيقَ

(1) الفراهيدي، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).
(2) الراغب، المفردات: (غفر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: 3/ 1595.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رزق).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح: (رزق).
(6) الراغب، المفردات: (رزق).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 211.

لتأكيد البراءة لعائشة، وتقبيحًا على من تكلَّم فيها، والمعنى: أنَّ المجانسة من دواعي الانضمام، فالخبيث لا يكاد يألفُ غيرَ جنسه، والطيِّب كذلك، وهو بمعنى قولهم: وكلُّ إناء بالذي فيه ينضح"[1]، فالكلام المستأنف هنا مَسوقٌ لبيان سنَّة اللّه في خلقه، في أن يسوق كلَّ صنف إلى صنفه، وأن يقع كلُّ طير على شكله"[2]، فـ"التَّناسب شرطٌ في التضامِّ والتعاون، لا سيَّما في الازدواج بالنِّكاح"[3].

سرُّ الوصفِ بالخُبث صفةً مشبَّهةً:

الخبيثُ لا يصدرُ منه إلّا كلُّ قبيح

جاء الوصفُ بمعنى الخبث في قول الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ﴾ على وزن فعيل: (خَبيث)، وهو من أوزان الصِّفة المشبَّهة، التي تدلُّ على الثُّبوت واللُّزوم، فإنَّ صفة الخبث لاصقةٌ بأصحابها لصوقًا يجعل كلَّ ما يصدر عنهم من فعل أو قولٍ قبيحًا خبيثًا.

فالكلماتُ والفِعلات ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ﴾ لا يقولُها، ولا يرضاها إلّا الخبيثونَ من الناس، فهي لهم، وهم لها، أو الكلمات والفِعلات ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ﴾ لا تليق، ولا تلصق عند رمي الرامي وقذف القاذف إلّا بـ(الخبيثين) من الناس، فهي لهم، وهم لها، أو ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ﴾ من النِّساء لا تكون إلّا ﴿لِلۡخَبِيثِينَ﴾ من الرجال، والعكس كذلك[4]، فهنَّ لهم، وهم لهنَّ؛ ضربةَ لازبٍ ثبوتًا ودوامًا، وهذا مفهومٌ من طبيعة الصفة المشبَّهة على وزن فعيل (خبيث).

دلالةُ جمعِ الوصف بالخبث وتعريفِه:

الأرواحُ المتعارفةُ يأتَلِف بعضها مع بعض

جاء وصفُ الخَبيثين والخبيثاتِ مجموعًا في قول اللّه تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ﴾؛ ليَشمَل الحكمُ كلَّ من

(1) الصاوي، حاشية الصاوي: 3/ 111.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 587.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 312.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 175.

كان بتلك الصِّفةِ، والتَّعريف يجوز أن يكون تعريفَ عهد، أي: إنَّ هناك نوعًا من الخبيثات والخبيثين معهودون بتلك الصِّفة، فيحِنُّ كلٌّ إلى ما يشاكله؛ لأنَّ شبيهَ الشَّيء منجذِبٌ إليه.

سرُّ تقديمِ ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ﴾ على ﴿لِلۡخَبِيثِينَ﴾:

مُراعاةُ مَقامِ تبرئةِ الصِّدّيقة وسائر المحصنات

حين يقدِّم القرآنُ كلمةً على أخرى، يُراعي الفكرةَ المقصودة من السياق الذي استدعى هذا التقديم، ولمّا كان المقصودُ براءةَ الصِّدّيقة بنت الصِّدّيق رضي الله عنهما؛ كان تقديمُ صفة الإناث ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ﴾ في قول الله تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ﴾ أولى من تقديمِ صفةِ الذُّكور ﴿وَٱلۡخَبِيثُونَ﴾؛ لأنَّ غرضَ الكلام الاستدلالُ على براءة عائشةَ وبقيَّة أمَّهات المؤمنين، وسائر المؤمنات العفيفات[1].

توجيهُ الوصفِ بالخُبث:

الخبثُ صفةٌ يوصف بها الأشخاص والأفعال

يجوز في قول الله تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ﴾ أن يرادَ بالخبيثات الكلمات التي صيغ منها الإفكُ، فيكون الكلامُ مجازًا بالاستعارة التصريحيَّة[2]، أي: إنَّ السياق استعار خُبْثَ الأشخاص لخبث الكلمات، والجامع بينهما: الإيذاءُ المترتِّب على كلٍّ من الطرفين.

لكنَّ الرّاجح أن يُراد بالخبيثات النِّساءُ، وبالخبيثين الرِّجالُ، فالخبيثةُ من النِّساء تنزع إلى الخبيث من الرِّجال والعكس كذلك، فيكون قريبًا من قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ﴾ [النور: 3][3]، وعلى هذا تكونُ صفة الخُبث على حقيقتها.

والظاهر أنَّ الأسلوبَ حقيقيٌّ في الاعتبارين، سواءٌ كان المرادُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 194.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 588.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 27.

بالخبيثات النِّساءَ أم الكلمات؛ لأنَّ اللُّغةَ تسوِّغ وصف الأشياء غير العاقلة بالخبث، فيجوز أن يوصفَ القولُ أو الكلمة بالخبث والرداءة، يُقال: "قَدْ خَبُثَ الشَّيْءُ خَباثَةً، فهو خبيثٌ، والخَبيثُ: نعتُ كلِّ شيءٍ فاسدٍ"[1].

بلاغةُ التَّعريضِ:

الـخُـبـثُ قريـنُ النِّفاق

في قول الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ تعريضٌ بالمنافقين المختلِقين للإفك، وأنَّ ما أفِكوه لا يليق مثلُه إلّا بأزواجهم[2]، وفي هذا التَّعبير إشارةٌ إلى براءة عائشةَ ﵂، فيُلاحَظ أنَّ الأسلوبَ التعريضيَّ أدَّى معنيَين: معنًى ظاهرًا أدَّته العبارة، ومعنًى خفيًّا فُهِم بطريق الإشارةِ، فجملة التعريض مكثَّفة موجَزة.

بلاغةُ الإطنابِ بعطف: ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِۖ﴾:

لا ينبغي للأخيار مُعاشرة الأشرار

في عَطْف ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِۖ﴾ على قول الحقِّ جلَّ شأنه: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ نوعُ إطنابٍ، والغرض منه: "مزيدُ العناية بتقرير هذا الحكم، ولتكونَ الجملة بمنزلةِ المَثَل مستقلَّةً بدلالتها على الحكم، وليكونَ الاستدلالُ على حال القرين بحال مقارنه، حاصلًا من أيِّ جانبٍ ابتدأه السامع"[3].

علَّةُ تقديم وصف الخُبثِ على وصف الطيّب:

تأخيرُ الفاضل لمصلَحةٍ عارضة

قُدِّمَ وصفُ الخُبثِ على الطيِّب في قول الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾؛ لأنَّ الخُبْثَ مناسِبٌ للفعلة الخبيثة التي اتُّهِمت بها الحَصانُ الرَّزان عائشةُ ﵂.

ويجوز أن يكون تأخيرُ وصفِ الطّيب من أجل أن يتأتّى عَقِبَ

(1) أبو بكر الرازي، مختار الصحاح: (خبث).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 194.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 195.

الوصف الإشارةُ بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾، ولو قدَّمَ وصف الطَّيّب، وأخَّر وصف الخبثِ؛ لم يكن للإشارة موقعٌ بعدها، أو تفصِل جملة الإشارة وتوابعِها بين الوصفين - الطَّيّب والخبث - فيبهت معها معنى المقابلة البديعة، التي ميَّزت تمييزًا واضحًا بين الصِّنفين، فيذهب رواء الفكرة، وتختفي العبرة.

الأرواحُ جنودٌ مجنَّدة

بلاغةُ الإطنابِ بعطف ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾:

في عَطْف ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ على قول الله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ إطنابٌ، والغرضُ منه زيادةُ العناية بتقرير هذا الحكم، وبهذا التَّكرار أيضًا تكون الجملةُ بمنزلةِ المَثَلِ تستقلُّ بدلالتها على الحكم، ويكون الاستدلالُ على حال الصّاحب بحال مُصاحِبه حاصلًا من أيِّ الطَّرفين ابتدأه المتأمِّل[1].

بلاغةُ القصرِ في الآية:

الشَّيء يحنُّ إلى ما يشاكله

في جملتَي الوصف بالخبث والوصف بالطَّيّب من قول الله تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ قصرٌ مفهوم من تعريف طرَفَي كلِّ جملة، والقصرُ - كما عند البلاغيّين - حصرُ الصِّفةِ في موصوفها، لا تتعدّاه إلى غيره، حقيقةً أو ادِّعاءً، ففي قوله تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ﴾ قصرُ النِّساء الخبيثات على الرجال الخبيثين؛ إذا عَدَدنا أنَّ المقصود من الخبيثات النِّساء لا الكلمات، ويكون المعنى أنَّه "لا يمكن أن يكنَّ أزواجًا إلّا للخبيث من الرِّجال، إذا لا يَقدُم عليهنَّ إلّا مثلُهنَّ، وكذلك كان القصر في الجملة الثانية ﴿وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ﴾، أي: انحصر زواجُ الخبيثين في الخبيثات من النساء، أي: لا ترضى بواحد منهم زوجًا لها، تجتاز معه مرحلة الحياة إلّا الخبيثاتُ من النِّساء، فلا ترضى شريفةٌ طيّبة برجل خبيثٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 195.

النَّفسِ والقول والعمل"[1]، وإذا اعتبرنا أنَّ المراد بالخبيثات الكلماتُ الخبيثة، يكون قصرُ الكلمات الخبيثة على الرجال الخبيثين.

وعكسُ الموصوفين بالخبث كذلك، أي: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ "هو أيضًا فيه قصرٌ بتعريف الطَّرفين، أي: إنَّ الطيّبات من النِّساء لا يقبلنَ إلّا زواج الطَّيّبين؛ لأنَّ الطَّيّبة الكريمة لا ترضى أن تكون فِراشًا إلّا للطَّيّب الكريم، ولا يرضى ذووها إلّا بكريم طيّب ذي خلق ودين"، والطَّيّبون ذوو الأخلاقِ الذين لا يختارون إلّا كريمةً ذات خُلقٍ ودين"[2].

وهذا ما يسمّى في غير القرآن بالقصر الادِّعائيِّ، وتأدُّبًا مع كلام اللّه ﷻ يسمّى في القرآن قصرًا غيرَ حقيقيٍّ؛ لأنَّ المرأةَ الخبيثة قد تتزوَّج من الطَّيّب والعكس كذلك، والكلمة الخبيثة قد تصدر من الطَّيّب بغير قصد، أو عن غفلة عارضة، والكلمة الطيّبة قد ينطِق بها الخبيث ...، فخرج القصر عن كونه حقيقيًّا، لكن إذا حدث هذا، فإنَّه يكون من النّوادر التي لا يُقام لها وزن، فلا يعتدُّ بها؛ فينبغي أن يقع الزواج بين الأكْفاء، فالطيور على أشكالها تقع، وشبيه الشيء منجذب إليه.

بلاغةُ الحذفِ في الآية:

المَنوطُ بالحكم أولى بتعجيل ذكرِه

أوصافُ الخبثِ وأوصاف الطّيب في قول اللّه تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾ جرت على موصوفاتٍ محذوفة يدلُّ عليها السياق، والتَّقدير في الجميع: الأزواج[3].

وبلاغةُ حذفِ الموصوفات تكمُن في التَّعجيل إلى دخول الصفة، فهي المقصودةُ من السياق، وأنَّ الأحكامَ قائمة على تلك الصِّفات،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5173.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5173.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 194.

فذِكْرُ الموصوفِ معها لا يزيدُ المعنى شيئًا، فيصيرُ عِبئًا ثقيلًا على الكلام، فترتخي العبارة ارتخاءً يذهب برونقها، ومن طبيعة البلاغة العربيَّة أن تحذف ما يدلُّ عليه الكلام، ويشير إليه النظام، ثمَّ إنَّ هذا الحذفَ لا يترك في الكلام غموضًا، فكان حذفُ الموصوف أولى من ذكره.

سرُّ التَّعبيرِ باسم الإشارة للبعيدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

أهلُ الفضلِ أولى بالتَّمييز والتكريم

اسمُ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ فيه معنى البُعد، للإيذان بعلوِّ رتبة المُشار إليهم، وبُعد منزلتِهم في الفضل، أي: أولئك الموصوفون بعلوِّ الشَّأن مبرَّؤون ممّا يقوله أهلُ الإفك في حقِّهم من الأكاذيب الباطلة"[1]، فهم بعيدون كلَّ البعدِ من اقتراف السوءِ، وجوَّز الزمخشريُّ أن تكون الإشارةُ إلى الطيّبين، وأنَّهم مبرَّؤون ممّا يقول الخبيثون من خبيثات الكلم، ويجوز أن تكون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةً إلى أهل البيت، وأنَّهم مبرَّؤون ممّا يقول أهل الإفك[2].

ويجوز أن يكون الغرضُ من الإشارة هو تمييز المشار إليه أكملَ تمييزٍ، لتحديده والتركيز عليه، ليكون الحكمُ عليه بالبراءة أظهرَ.

سرُّ إيثارِ الوصف ﴿مُبَرَّءُونَ﴾:

إنَّ اللهَ يُدافِع عنِ الَّذين آمنوا

جاء لفظُ ﴿مُبَرَّءُونَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ على أحسن صيغة، وأتمِّ هيئة، وأدقِّ دلالة، فصيغتُه اسم مفعول من الفعل (برَّأ)، والبراءة تعني التَّنزيهَ والبعد من ارتكاب الفعل، فاسم المفعول يدلُّ على عظم البراءة؛ لأنَّهم لم يقوموا بتبرئة أنفسهم، بل الذي برَّأهم المطَّلعُ على خفيّات الأمور ﷻ، فالتَّبرئةُ منه أجلى، ثمَّ إنَّ الصيغةَ جاءت للتذكير، والمراد تبرئةُ عائشة رضي الله عنها

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 167.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 225.

وصفوان، أو زوجات النبيِّ ﷺ، وهذا من باب تغليب جماعةِ الذُّكور على جماعة الإناث(1).

دلالةُ (مِن):

تجليةُ البراءةِ تُناسب المُبَرَّأةَ

(من) في قول الله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ بيانيَّةٌ، فهي تبيِّن نوعَ القول والفعل الذي اتُّهموا به، لتكون البراءةُ من هذا الأمر جليَّةً واضحة، فلا تترك ثغرةً تدخل منها الظُّنونُ، أو مَجالًا تسرح فيه الأوهامُ، وهذه هي البلاغة القرآنيَّةُ التي تجعل الاحتراس سبيلًا لدحض مزاعم الزاعمين.

دلالةُ (ما):

لا اعتدادَ بقذفِ المنافقين وكذِب الأفّاكين

في قول الله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ يجوز في (ما) أن تكون موصولةً، بمعنى الذي، وصلتها الفعل المضارع ﴿يَقُولُونَۖ﴾، ويكون المعنى: أولئك مبرَّؤون مِنَ الَّذي يقوله الأفّاكون، ويجوز أن تكون مصدريَّة، أي: أولئك مبرَّؤون من قولهمُ الإفكَ، و(ما) في الحالين تكشِف عن عدم الاعتداد بقولهم، وأنَّه لا يستحقُّ أن يُذكر صراحة؛ لأنَّه من مجرَّد قولٍ قذَفَ به لسانُ الخرّاصين، وليس له أدنى صحَّة.

دلالةُ المضارع ﴿يَقُولُونَۖ﴾:

أمُّ المؤمنين منزَّهةٌ إلى يوم الدّين

جاء التَّعبيرُ بالمضارع ﴿يَقُولُونَۖ﴾ في قول الله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾؛ استحضارًا لقولهم وإفكهم العجيب، وزيادةً في التبشيع والتشنيع عليهم، وقد يُراعى في المضارع معنى التجدُّدِ؛ لذا أُسنِدَ المضارع إلى ضمير الجمع، ليشمل كلَّ خائضٍ ينال من أمِّ المؤمنين، بَلْهَ المحصناتِ المؤمنات، حتّى قيامِ الساعة، فيكون فيه تنزيهٌ لكلِّ طيِّب وطيّبة، تقدَّم زمانهم أو تأخَّر.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 195.

بلاغةُ العدولِ في قوله: ﴿مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾:

القولُ الكاذبُ يُبطِلُهُ البيانُ الناصع

ولمّا كان الحديث المبَرَّأُ منه مجرَّدَ حديثِ لسان، دون أن ينعقدَ عليه الجَنان؛ عدلَ التَّعبيرُ عن ذكره صراحةً، ليبيِّنَ أنَّه كان مجرَّدَ أقوالٍ تناقلته الأفواه الكاذبة، فقال اللّه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾؛ إشارةً "إلى أنَّه لا يعدو كونَه قولًا، أي: إنَّه غيرُ مطابِقٍ للواقع"[1].

بلاغةُ تقديم شِبهِ الجملة ﴿لَهُم﴾:

التّأكيدُ على براءة الحَصان الرَّزان

تقديمُ شِبه الجملة ﴿لَهُم﴾ على المبتدأ ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ يسلِّطُ الضوءَ على من تكون لهم المغفرةُ والرزق الكريم، اهتمامًا بهم، واعتناءً بحالهم، فالتَّركيز عليهم بتقديم ضميرهم، يتوافق تمامًا مع التركيز عليهم بالإشارة إليهم في الجملة السابقة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾، لتتأكَّد في النُّفوس نزاهتهم.

وفي التقديم تشويقٌ إلى المؤخَّر - المغفرةِ والرزق الكريم - لتقرَّ للطَّيّبين أعينُهم، ويتبدَّد للخائضين اتِّهامُهم، فمن كان له هذا الفضل؛ فأنّى تأتيه الفاحشة؟

دلالةُ المغفرةِ وإيثارُها في السياق:

مكافأةُ الله سبحانه للطَّيّبين والطَّيّبات

اللّافتُ في سياق قول اللّه تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ أنَّ اللّه وعدَ عائشة رضوان اللّه عليها - والطَّيّبين - بالمغفرة، مع أنَّه لم يتعلَّق بذيلها أدنى ريبةٍ، والمغفرة توحي بأنَّ هناك ذنبًا وقع، ولذلك فُسِّرت المغفرة في هذه الآية بالبراءة، أي: لهم براءةٌ من اللّه ورسوله، ورزقٌ كريم في الآخرة[2]، فعلى هذا، يكون في اللَّفظ مجازٌ، حيث استُعيرت المغفرة للبراءة، والجامعُ بينهما معنى التَّغطية، فالمغفرةُ مشتقَّةٌ من الغفْر، وهو التغطية، فغفَرْتُ المتاع: جعلته في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 195.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 355.

الوعاء[1]، والبراءة فيها معنى تغطيةِ اللّه عائشةَ والطَّيِّبين من أن ينالهم ما يريب، فعلى هذا يُسوَّغ القولُ بالاستعارة.

ويجوز أن يكون اللَّفظُ على حقيقته، وتكون المغفرةُ "بسبب ما قيل فيهم من الكذب"[2]، فعلى هذا، تكون المغفرةُ في الآية تفضُّلًا من اللّه ﷻ، لا لذنب ارتُكب، وإنَّما بسببِ ما نالهم من تكديرٍ، "فاللّه تعالى يغفر لهم مِنَ اللَّمم وبعضِ السيئات بسبب القذفِ الآثِم لهم، فإنَّه ينتقص من سيئات المظلوم بمقدار اعتداء الظّالمين"[3].

ولفظُ المغفرة قد يوجَّه إلى قول الخُبث، وعليه تُحمل المغفرة على حقيقتها، وتكون مبنيَّةً على وقوع الشَّرط، ويكون المعنى: "الطيّبون من الناس مبرَّؤون من خبيثات القول؛ إن قالوها، فإنَّ اللّه يصفح لهم عنها، ويغفرها لهم، ولهؤلاءِ الطَّيّبين من الناس مغفرةٌ من اللّه لذنوبهم والخبيثِ من القول؛ إن كان منهم"[4].

بلاغةُ الفصلِ والوصل في الآية:

الفصلُ والوصلُ مرتبِطٌ بالمعاني القرآنيَّةِ

الجملُ المتعدِّدةُ في الآية عُطِفَ بعضُها على بعض: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾، وسرُّ الوصل بين تلك الجملِ هو التوسُّط بين الكمالين، حيث اتَّفقتِ الجمل الموصولة في الخبريَّة لفظًا ومعنى،

أمّا جملة ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾؛ ففُصِلَت عمّا قبلها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾، وسرُّ الفصل هو شِبه كمال الاتِّصال، المسمّى بالاستئناف البيانيِّ، حيث أثارت جملة الإشارة المثبِتةُ للتبرئة سؤالًا: وما جزاؤهم حين برَّأهم اللّه؟ فجاءت الجملةُ جوابًا على هذا السُّؤال: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾.

---

(1) الجوهري، الصحاح: (غفر).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 35.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5174.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 238 - 239.

إيثارُ لفظِ الرِّزق:

وعدُ اللهِ عائشةَ بالفضل الممتدِّ غيرِ المنقطع يوم القيامةِ

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ الرِّزقِ دون غيرِهِ في قول اللّه تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾؛ لِما فيه من الثراء المعنويِّ، والدلالات المتعدِّدة التي تتناسب مع جزاء أولئك المبرَّئين، فالرِّزق يُطلَق في اللغة على العطاء الجاري تارةً - دنيويًّا كان أم أخرويًّا - ويُطلق على النَّصيب تارةً، يقال: أعطى السُّلطان رِزْقَ الجندِ، أي: نصيبهم(1)، ويطلق على الشُّكر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢﴾ [الواقعة: 82]، أي: وتجعلون شكرَ اللّه على رزقِهِ إيّاكم التَّكذيب(2)، أو يرجع في هذه الآية إلى معنى النَّصيب، أي: تجعلون حظَّكم التَّكذيب.

فلمّا كان الرزقُ يُطلق على العطاء الأخرويِّ الممتدِّ الذي لا ينقطع، ويطلق على النَّصيب والحظِّ، ويطلق على الشُّكر؛ كان إيثارُ السياق له أولى من النَّظائر التي لا تحمل هذا الثراء، فلفظةُ الرِّزقِ توحي بكرم اللّه الواسع الذي يُغدِقهُ على عائشةَ؛ نتيجةَ صبرها وصبرِ زوجها المعصوم ﷺ على هذا الإيذاء.

بلاغةُ وصف الرِّزق بالكريم:

رزقُ الكريم لأمِّ المؤمنين جزيلٌ عَميم

وصْفُ الرِّزقِ بالكرَم في قول اللّه تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ زاد الرِّزقَ تعظيمًا، فهو "بمعنى النَّفيس، فهو وصف حقيقيٌّ للرزق، وفعله كَرُمَ بضمِّ العين، والكرم في كلِّ شيءٍ الصفات المحموديَّة في صنفه أو نوعه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ٢٩﴾ [النَّمل: 29]، ومنه إطلاقُ الكرم على السَّخاء والجود، والوصف منه كريم.

وتصحُّ إرادتُه هنا على أنَّ وصف الرزق به مجازٌ عقليٌّ، أي: كريم رازقُهُ، فإنَّ الكريم يرزق بوفرة وبغير حساب"(3)، فالكريمُ

(1) الراغب، المفردات: (رزق).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 22/ 368.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 263.

"من صفات اللّه وأسمائه، وهو الكثيرُ الخيرِ الجواد المُعطي، الذي لا ينفَد عطاؤه، وهو الكريم المطلَق، الجامع لأنواع الخيرِ والشَّرف والفضائل، والكريم اسمٌ جامع لكلِّ ما يُحمد، فاللّه ﷻ كريمٌ حميدُ الفعال، وربُّ العرش الكريم العظيم"[1].

سرُّ تنكيرِ اللّفظين ﴿مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ﴾:

عطاءُ اللهِ للمؤمنين غيرُ مَجذوذٍ

كان لتنكير المبتدأ وما عُطف عليه في قول اللّه تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ أثرٌ بالغ في تأدية معنى الوعد والبشارة، فقد أضفى على الكلام تعظيمًا فوق تعظيم الدلالة اللغويَّة، فهي مغفرةٌ عظيمة لا تُدرك صفتها، وكرم بالغ، ورزق رابغ، لا يُكتنه كنهه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التبرئة والتنزيه:

أحرى بأمِّ المؤمنين أنْ يُنفى عنها التُّهمة التي رُميَت بها

الأصلُ في التَّبرئة أن تكون تنزيهًا من شيء علِق بصاحبه، تقول: برِئْتُ منك، ومن الديون والعيوب براءةً، وبرِئْتُ من المرض بُرْءًا، وأبرأَهُ اللّه من المرض، وبرَّأْتُه تبرئةً[2]، أمّا التَّنزيهُ؛ فلا يُشترط فيه أن يكون المنزَّهُ قد علِق به شيء، يقال: نَزُهَ نَزاهةً، وتَنَزَّهَ تنزُّهًا؛ إذا بَعُدَ، ورَجُلٌ نَزْهُ الخُلُق ونَزِهُهُ ونازِهُ النَّفْس: عَفيفٌ متكرِّم، ونَزَّهَ نفْسَهُ عَنِ القبيح: نَحّاها، ونزَّه الرجل: باعَدَه عن القبيح، ورَجلٌ نزيهُ الخُلُق: بعيدٌ عن المطامع الدَّنيَّة، فالنَّزاهة: البُعدُ عن السّوء[3].

فلمّا كانت التَّبرئةُ في نفي العيب والتُّهمةِ؛ كانت أليقَ بهذا السياق الذي يبرِّئ عائشة رضي الله عنها.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (كرم).
(2) الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية: (برأ).
(3) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (نزه)، وابن منظور، لسان العرب: (نزه).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧﴾ [النور:27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الاستئذانُ صَونٌ لِلْأَعراضِ

جاءتْ آيةُ الاستئذان إثرَ ما فُصِّل عن الزِّنى وعن رمي العفائِفِ عنه، ليشرعَ في تفصيل الزَّواجر عمّا عسى يُؤدّي إلى أحدهما، من مخالطة الرِّجال والنِّساء ودخولِهم عليهنَّ في أوقات الخَلوات[1]، وهذا فيه تنزيهٌ "عن مواقع التُّهَم، وتلبُّسٌ بما يحسِم الفساد"[2]، فجاء النَّصُّ الكريم باحترام حرمةِ البيوت، فشُرِّع الاستئذانُ دفعًا لهذه التُّهَم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَدۡخُلُواْ﴾: "الدّالُ والخاء واللام: أصلٌ مطَّردٌ منقاس، وهو الولوجُ"[3]، فالدُّخول: نقيضُ الخروج وضدُّه، ويُستعمل في المكان والزمان والأعمال[4]، ووُلوج الشيءِ، أي: تَغَلْغُلُه في أثناء شيءٍ، وجلَّ ما في القرآن من التركيب هو من الدخول بهذا المعنى[5]، ومنه قول اللّه تعالى: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾.

2) ﴿بُيُوتًا﴾: (بيت) أصلٌ واحدٌ، وهو المأوى والمَآبُ ومجمع الشَّمل[6]، وأصل البيت: مأوى الإنسانِ باللَّيل، لاشتقاقهِ من البيتوتة، يقال: باتَ، أي: أقام باللَّيل، كما يُقال: ظلَّ بالنَّهار، ثمَّ قد يُقال

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 168.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 255.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دخل).
(4) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفّاظ: (دخل).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (خرج).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بيت).

للمسكن: بيتٌ من غير اعتبار اللَّيل فيه، فيُطلق على كلِّ منزلٍ، وإن لم يكن باللَّيل، وجمعُه أَبْيَاتٌ وبُيُوت، لكنَّ البيوت بالمسكن أخصُّ، والأبيات بالشِّعر[1]، والبيت عند العرب ما يُعرف عندنا بالحُجرة؛ ولأنَّ الكعبةَ شَرَّفها اللّهُ تعالى إنَّما هي على صورةِ الحُجرة؛ سُمّيت بيتًا، فالبيت بِلحاظ ما مرَّ ذكرُه: حَيِّزٌ محيطٌ يُسكَنُ فيه، أي: يُستَقَرُّ[2]، هو معنى اللَّفظ في قول اللّه تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾.

3) ﴿تَسْتَأْنِسُواْ﴾: (أنس) أصل واحد، وهو ظهور الشَّيء، وكلُّ شيء خالف طريقةَ التوحُّش، سواء كان بالرؤية أم بالسمع[3]، والاستئناس: الاستئذان[4]، وهو في كَلام العَرَب: النَّظرُ، والاستعلام، واليَقينُ، يُقال: اذهبْ، فاستأنسْ، هَل تَرَى أحدًا؟ فيكون مَعْناهُ: انظُرْ مَن تَرَى في الدّار[5]، وإلى هذا يرجع معنى الاستئناس في قول اللّه تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ﴾، أي: حتّى تُعْلِموا من في الدار بوجودكم خارجها، أو تستعلموا إن كان صاحب الدار موجودًا[6]، ولم تخرج كُتُبُ التَّفسيرِ عن دائرة هذه المعاني، فمعنى ﴿تَسْتَأْنِسُواْ﴾ فيها "تؤنسوا أهلَ البيت بالتَّنَحنُح والتنخُّم وما أشبهه، حتى يَعلموا أنَّكم تريدون الدخول عليهم"[7]، و"تستعلموا، وتنظروا، وتتعرَّفوا"[8]، فإنَّ المستأنِس مستعلمٌ للحال، مستكشفٌ هل يؤذن له؟ أو لأنَّ المستأذنَ مستوحِشٌ خائفٌ ألّا يؤذنَ له، فإذا أُذِنَ له؛ استأنس[9]، أو لأنَّ صاحبَ البيتِ مستوحِش بالداخل الذي لم يستأذن، ولم يُعلِم وجودَه، فأُنْسُ صاحب البيت بانتفاء الوحشة والكراهية، وطلبُ الأنس له بالإعلام والاستئذان[10].

4) ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: (ذكر) أصلان، أحدهما: ذَكَرْتُ الشَّيء، خلاف نسيتُهُ، فالذِّكْرُ: الحفظُ للشَّيء وتَذكُّرُهُ، ثمَّ حُمِلَ عليهِ الذِّكر باللِّسان، أي: جَرْيُ الشَّيء على لسانك[11]،

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (بيت).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (بيت).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (أنس).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (أنس).
(5) ابن سيده، المحكم: (أنس).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أنس).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 147.
(8) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 315.
(9) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 168.
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 197.
(11) الفراهيدي، العين، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس: (ذكر).

فالذِّكْرُ: ما ذكرْتَه بلسانك وأظهرْتَه، والصَّلاة للّه تَعالَى، والدُّعاء، والثَّناءُ، وقِراءَة القُرْآن، والتَّسبيحُ، والشُّكْرُ، والطّاعَة[1]، كلُّها ذِكرٌ، ويأتي الذِّكرُ لمعنى الوعظ؛ لأنَّهُ إذا تذكَّر؛ قد يزدجر[2]، ومعنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ في الآية: لعلَّكم تتَّعظون، أي: قيل لكم هذا؛ لكي تذكَّروا، وتتَّعظوا، وتعملوا ما أُمرتم به في باب الاستئذان"[3]، فتعرفوا المصلحةَ، وتتحرَّوا الاحتشام[4].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

في الاستئذان خيرٌ عظيم

هذه الآيةُ تُشَرِّع الاستئذانَ للمؤمنين، وتنهاهم عن دخول بيوت غيرهم إلّا بإذنِهم، فإذا ما دخلوا؛ ألقوا السَّلامَ عليهم، حتّى يأنَسَ بهم أهلُ البيت، ويأنَسَ الداخل أيضًا بدخوله حين يسمعُ ردَّ السَّلام[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فصلِ الآية:

الاستئذانُ يَحفظُ الحُرُماتِ ويُبعدُ الشُّبهاتِ

قولُ اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾، كلامٌ مستأنَف مَسوقٌ لبيان ما يترتَّب على مخالطة الرجال بالنِّساء، ودخولِهم عليهنَّ في أوقات خَلَواتهنَّ[6]، فهذه الآيةُ وما بعدها من الآيات استئنافٌ لبيان أحكام التَّزاور، وتعليم آداب الاستئذانِ، وتحديدِ ما يحصل المقصود منه؛ كيلا يكونَ الناسُ مختلفين في كيفيَّته على تفاوت اختلاف مداركهم في المقصود منه[7].

(1) الأزهري، التهذيب: (ذكر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ذكر).
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 227.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5177.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 36، 46.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 589.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 196.

نكتةُ نداءِ النَّكرة المقصودة (أيّ):

الوصفُ بالإيمان يوجب حُسْنَ الإصغاء

كلمةُ (أيّ) في قول اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ نكرةٌ مقصودة، لكنَّها مُعَرَّفةٌ بالنِّداء، وزادَتْها جملةُ الموصول تعريفًا، وتلكم الجملةُ - التي وقعت بدلًا منه - قد كشف فيها الموصول وصلته الإبهامَ الملموح في لفظ (أيّ)، حيث نودي قومٌ مُعيَّنون، وهم المؤمنون، وهذا يجعلهم أكثرَ إيقاظًا، وأحسن إصغاء، فالنِّداء متوجِّه إليهم، "وفي ذلك إشارةٌ إلى ما يطلبه سبحانه من خواصِّ أهلِ الإيمان، وهو من الأدب الذي يناسب إيمانكم، وهو عدم التَّهجُّم على الأُسَر، وتكشُّفِ أستارها، وتحاشي إزعاجِها"[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالموصول والفعل الماضي ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

تمكُّنُ الإيمانِ في القلب علَّةُ استثارة معانيه والعملِ بمقتضاه

آثر السياقُ التَّعبيرَ بالموصول في الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، دون أن يُقالَ مثلًا: (يا أيُّها المؤمنون)؛ ليستثيرَ في نفوسهم معانيَ الإيمان، ويَبعثَها في قلوبهم، وذلك من خلال جملة الصِّلة ﴿ءَامَنُواْ﴾، وجاءتِ الصِّلةُ ماضيةً؛ لتدُلَّ على أنَّ الإيمان قد وقع في قلوبهم، فالواجبُ عليهم أن يعملوا بمقتضاه.

بلاغةُ النَّهي بـ﴿لَا﴾:

الاستئذانُ يُغلِق بابَ التُّهَم

النَّهيُ له صيغةٌ واحدة، وهو دخول ﴿لَا﴾ الناهية على المضارع، ومعنى النَّهي: طلبُ الكفِّ عن الفعل على وجه الوجوب، والنَّهي في قول اللّه تعالى: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾ في سياق ذكر جملةٍ من الآداب الَّتي ينبغي أن تتأدَّب بها الطائفةُ المؤمنة؛ كي تُغلِقَ أبوابَ الشُّبُهات، فهو نهيٌ يَحمِل في طيّاته نُصحًا وإرشادًا للمؤمنين.

دلالةُ المضارعِ ﴿تَدۡخُلُواْ﴾:

حرمةُ البيوتِ يجب أن تُصانَ دائمًا

كان يجوز أن يأتيَ التَّعبيرُ بغير المضارع في قول اللّه تعالى: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾، بأن يُقالَ مثلًا: (إذا دخلتم بيوتًا غير

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5175.

بيوتكم؛ فادخلوها بعد أن تستأنسوا)، لكنَّ النَّظمَ القرآنيَّ عبَّر بالنَّهي الذي يستلزم وقوعَ المضارع بعده، والمضارع بطبيعته يدلُّ على التَّجدُّد، فهذا الأدب، وذاك التَّوجيه، لا يُقيَّد بزمن معيَّن، بل يكون شاملًا للأزمنة والأمكنة؛ ليتأدَّبَ به الناس ما بقوا في تلك الحياة، صونًا لأعراضِهم وحرماتهم.

سرُّ التَّعبيرِ بالدخول ﴿لَا تَدۡخُلُواْ﴾:

وجوبُ إتيانِ البيوت مِن أبوابها

جاء النَّظمُ الكريم بإرشاد الإنسان - إذا أراد دخولَ البيوت بعد استئذانه - أن يدخُلَها من الأبواب المعدَّة لذلك، ولا يدخلَ من الأبواب الخلفيَّة، التي تثير الرَّيب والشُّكوك، وهذه اللَّمحةُ فُهِمَتْ من إيثار التعبير بالدخول دون الولوج في قول اللّه تعالى: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾؛ لأنَّ الولوج - وإن كان في معنى الدُّخول - إلّا أنَّ الغالب عليه الدُّخولُ من مَضيق، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤٠﴾ [الأعراف: 40].

سرُّ تنكيرِ البيوتِ وجمعِها ﴿بُيُوتًا﴾:

وجوبُ الاستئذانِ حكمٌ عامٌّ في كلِّ البيوت

جاء لفظُ البيوت منكَّرًا في قول اللّه تعالى: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا﴾؛ دلالةً على الشمول لكلِّ البيوت المسكونة، فكلُّ بيتٍ من البيوتات التي يسكنها أهلُها من ذوي الرَّحِم وغيرهم[1] - غيرَ بيتِ الداخل نفسِه - لا يجوز دخولُها إلّا بعد الاستئناس والسَّلام، وليس هذا الأدب مقصورًا على بيتٍ دون بيتٍ، ولو جاء النَّهيُ مسلَّطًا على المعرفة، فقيل مثلًا: (لا تدخلوا البيوت التي ليست لكم)؛ لَما أدَّتِ المعرفةُ معنى الشمول الذي أدَّته النَّكرةُ.

وصيغةُ الجمع تآزرت مع النَّكرة؛ لتؤكِّدَ معنى الشُّمول، ولو عُبّر

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 31.

بالمفرد؛ فقد يُتوهَّم أنَّ التَّعبير لا يقصد الشمول، فرفع الجمعُ هذا الوهمَ.

دلالةُ الوصف بـ﴿غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾:

عدمُ وجوبِ الاستئناس لصاحب البيت

جاء استثناءٌ من البيوت التي هي مَناط حكم وجوب الاستئذان، بالوصف في قول اللّه تعالى: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾، ممّا يدلُّ على أنَّه لا يدخل البيوت بغير استئذان إلّا من يمتلكها لحقِّ هذه الإضافة[1]، ويدلُّ على جواز دخول الرَّجل بيتَه بغير إذن؛ إذ إنَّه يجوز للإنسان أن يدخل بيتَ نفسِه من غير استئذان ولا سلام، لقوله تعالى: ﴿غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾[2].

لكن يُستحَبُّ له التَّنحنُحُ قبل الدخول، أو فعلُ أيِّ شيء يُعْلِم أهلَه وأولاده بدخوله؛ حتّى لا تقعَ عينُه على شيءٍ، لا يحبُّ أن يراه منهم، قالت زينبُ امرأة ابنِ مسعود: كان ابنُ مسعود إذا جاء منزِلَه؛ تنحنحَ مخافةَ أن يهجُمَ على ما يكره[3].

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾:

حِرصُ الإسلامِ على إزالةِ الوحشة عن أصحابِ البيوت

جاءت ﴿حَتَّىٰ﴾ غائيَّةً بمعنى (إلى) في قول اللّه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾، والمضارع بعدها منصوبٌ بـ(أنْ) المضمرةِ وجوبًا، فـ﴿حَتَّىٰ﴾ هنا تشير إلى أنَّه متى تحقَّقت الغاية - وهي الاستئناس - فلا حرجَ بعد ذلك في الدخول.

إيثارُ لفظِ الاستئناس دون الاستئذان:

توجيهُ القرآنِ إلى محاسِنِ الآداب

لفظُ الاستئناس في قول اللّه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ أدقُّ في التعريف، وأدلُّ على الاستعلام من الاستئذان؛ لأنَّ الاستئذان هو الإذن المجرَّد، وتتحقَّق الإجابة بالإذن، أمّا الاستئناسُ؛ فطلبُ الأُنسِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 419.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 30.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 175.

وإزالة الوحشة، وذلك لا يتحقَّق بمجرَّد الإذن، بل لا بدَّ لتحقُّقه من إيجاد الألفة[1].

وجهُ التَّعبيرِ عن الاستئناس بالمضارع:

البـيـوتُ مـأوى الاستتار من كلِّ شيء يـــؤذي، وشـرطُ دخولها تجدُّدُ الأنس

التَّعبيرُ عن الاستئناسِ بالمضارع في قول اللّه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ يدلُّ على التَّجدُّد، فالداخل المأذون له في الدخول لا ينبغي له أن يهجُمَ سريعًا في الدُّخول حتّى يتجدَّدَ له الأنسُ من صاحب البيت؛ كلَّما تجدَّدت إرادتُه للدُّخول، وتجدُّد الأنس بأن يُزيلَ صاحبُ البيت استيحاشه بعبارات الترحيب كـ(حلَلْتَ أهلًا، ونزَلتَ سهلًا)، و(أهلًا وسهلًا)، و(مرحبًا بك)، إلى غيرها من العبارات التي تُؤنِس الداخل.

بل قد يُلمَحُ من صيغة المضارع أيضًا أنَّ تجدُّدَ الاستئناس لا ينتهي بالدخول، بل يظلُّ باقيًا بقاءَ مُكث الداخل، بحيث إذا شعُر الزّائرُ أنَّ صاحب البيت قد بهتت عنده حرارةُ الترحيب، فينبغي الإسراعُ في الخروج، وعدم المكث الطويل؛ دفعًا للإثقال والملَل، وهذا من الأدب القرآنيِّ الكامل، الذي تُراعى فيه مشاعرُ الناس وأحاسيسهم.

دلالةُ صيغة الاستفعال ﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾:

التَّـشـديـدُ على عـــدم دخـــول الــبــيــوت إلّا بتحقُّق الأنـس بين الجانبين

الأصلُ في صيغة الاستفعال دلالتُها على الطَّلب، فكأنَّ المعنى في الاستئناس من قول اللّه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾، أي: تطلبوا ما يُؤنِسكم، ويؤنس أهل البيت منكم، وإذا طلب الإنسان أن يَعلم أمر البيت الذي يريد دخوله؛ فذلك يكون بالاستئذان على مَن فيه، أو بأن يتنحنَحَ، ويستشعر بنفسه بأيِّ وجه أمكنه، ويتأنّى قدر ما يتحفَّظ، ويدخل إثرَ ذلك[2]. ففي ﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ معنى: حتّى تؤنِسوا أهل البيت بالتَّنحنح والتَّنحُّم وما أشبهه، حتّى يَعلَموا أنَّكم تريدون الدخول عليهم[3].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5175.

(2) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 4/ 175.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 242.

بلاغةُ الكناية في ﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾:

حرصُ الإسلامِ على إشاعةِ الأمانِ بين الناس

أومأَ النَّظمُ الكريم إلى الإذن المسوِّغ للدخول بلفظ الاستئناس في الآية: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾؛ وذلك لأنَّ الاستئناس رديفُ الإذن، فوُضع موضعَ الإذن[1]، وعبَّر باللازم - وهو الاستئناس - وأراد الملزوم، وهو الإذن.

واختار النَّظمُ التَّعبيرَ باللازم - وهو الاستئناس - للإشارة إلى وجوب توفُّر الأنس عند الطَّرفَين قبل الدخول، فإنَّ الدخول بغير أُنس يجعل صاحب البيت مرتابًا، كما أنَّ القادم عليه مرتاب؛ "لأنَّ الاستئناسَ ضدُّ الاستيحاش، والذي يطرُق باب غيره لا يدري أيُؤذَن له أم لا؟ فهو متردِّد مستطارُ القلب مستوحِش، أو كالمستوحش من خفاء الحال عليه، فإذا أُذن له بالدخول؛ استأنس، وزايله تردُّده واستطارة قلبه[2].

دلالةُ العطفِ بالواو ﴿وَتُسَلِّمُواْ﴾:

وجوبُ الحِفاظِ على حُرمةِ البيوت

جمعتِ الآيةُ الاستئذان والسَّلامَ بواو العطف في قول اللّٰه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾، التي تفيدُ مشاركة المعطوفين في الحكم بلا ترتيبٍ، فجائزٌ أن يُقدَّمَ السَّلام على الاستئذان أو العكس، فيحصلَ المطلوب بتقديم أيٍّ واحدة منهما، لكن لابدَّ من الإتيان بهما معًا[3]، وعُطِفَ النِّداء بالسَّلام على الإذن؛ لما في السَّلام من التفاؤل بالسَّلامة[4].

واختلفوا في السَّلام والاستئذان، أيُّهما يُستحبُّ تقديمُه؟ والصحيح الذي جاءت به السنَّة، وعليه المحقّقون: أنَّه يقدِّم السَّلام، فيقول: السَّلام عليكم، أأدخل؟ والقول الثاني: يقدِّم الاستئذان،

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 226.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 316، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 590.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 199.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 31.

والثالث، التفصيل: إن وقعت عينُ المستأذِن على صاحب المنزل قبل دخوله؛ قدَّم السَّلام، وإلّا قدَّم الاستئذان(1).

فائدةُ ذِكرِ السَّلام بعد الاستئناس:

عدمُ الاستغناءِ بالاستئذانِ عن السَّلام

كان النَّظمُ دقيقًا حين ذَكر السَّلام مع الاستئناسِ في قول اللّه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾، وذلك للمحافظة عليه، حتّى لا ينشغلَ الطارِق بالاستئذان، فينسى السَّلام، أو يظنَّ أنَّ الاستئذان كافٍ في الدخول(2)، فدفع ذكرُ السلام هذا الظنَّ، وبيَّن وجوب السَّلام عند الدخول؛ لِما فيه من تقوية معنى الأُلفة التي تدفع مخايلَ الشُّكوك والخوف.

سرُّ اختيار ﴿وَتُسَلِّمُواْ﴾ معنًى وصيغةً:

إشاعةُ الأمانِ في القلوب مطلَبٌ شرعيٌّ

جاء فعلُ السَّلام بصيغة المضارع في قول اللّه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾؛ للإشارة إلى تجدُّدِ السَّلام بتجدُّدِ الدخول، وآثر السياقُ السَّلامَ دون التحيَّة؛ لِما في السَّلام من معنى الأمان الذي يؤنِس صاحبَ البيت، ويُزيل عنه ما يعلَق بنفسهِ من رَيبٍ مظنون.

سرُّ تقديمِ الاستئناس على السَّلام:

التَّحريجُ الشَّديدُ في دخول البيوتِ بلا استئذان صونًا للأعراض

قدَّم النَّظمُ الكريم الاستئناسَ على التسليم في قول اللّه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾، وذكر العلماء وجوهًا لهذا التَّقديم(3)، فيجوز أن يكون في الكلام تقديمٌ وتأخير، والمعنى: حتّى تسلِّموا على أهلها، وتستأنسوا؛ وذلك لأنَّ السلام مقدَّمٌ على الاستئناس(4).

ويجوز أن يكون التَّرتيب على ظاهره، ويكون المعنى: حتى تستأنسوا بالإذن، ثمَّ تسلِّموا، ويجوز أن يكون الاستئناس بمعنى

(1) النووي، شرح صحيح مسلم: 14/ 131.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 198.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 226، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 357.
(4) فقد وردت أحاديثُ كثيرة بتقديم السَّلام على الاستئذان يرجع إليها في مظانها.

الاستعلام والاستكشاف، فهو استفعال من آنسَ الشيءَ؛ إذا أبصره ظاهرًا مكشوفًا، والمعنى: حتّى تستعلموا وتستكشفوا الحالَ، هل يُراد دخولُكم؟ ويجوز اشتقاق الاستئناس من الإِنْس، وهو أن يتعرَّف هل ثَمَّ إنسان؟ ولا شكَّ أنَّ هذا مقدَّم على السلام.

ولو سلَّمنا بأنَّ الاستئناس إنَّما يقع بعد السَّلام، ولكنَّ الواوَ لا توجب الترتيب، فتقديمُ الاستئناسِ على السَّلام في اللَّفظ لا يوجب تقديمَهُ عليه في العمل، ومن ثَمَّ فإنَّ تقديمَ الاستئذان هنا مع أنَّ الأصلَ تأخيره، هو الاهتمام بشأنه اهتمامًا بالغًا، والتحريج الشَّديد في دخول البيوت بلا استئذان؛ صونًا لحرُمات البيوت.

إشاعةُ الإيناسِ في قلوب أهل البيت بإسماعِهِمُ السَّلامَ

معنى ﴿عَلَىٰٓ﴾:

﴿عَلَىٰٓ﴾ في أصل معناها تدلُّ على الاستعلاءِ، والاستعلاءُ تمكُّنٌ من الشَّيء المستَعْلَى عليه، ومن ثَمَّ، فإنَّ التَّعبير بـ﴿عَلَىٰٓ﴾ في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾ يعطي دلالة التَّمكُّن، بمعنى أنَّ السَّلام يكون متمكِّنًا من أهل البيت تمكُّنًا جليًّا، بحيثُ يسمعونه، فيأذنون، أو يرفُضون.

لأهل البيت حرمتُهم الَّتي يجب أن تُصان

إيثارُ لفظِ ﴿أَهۡلِهَاۚ﴾ دون ساكنيها:

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بالأهل في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾، وأهلُ البيت هم سكّانُهُ، إلّا أنَّ هناك معنى في الأهل لا تدلُّ عليه لفظةُ السكّان، وهو معنى التَّعمير، فأهلُ البيت هم أصحابه الذين عمَّروه، وباتوا فيه، فصار لهم مكانًا، يقال: "مَنْزِلٌ آهِلٌ، أي: به أَهْلُهُ، ومكان آهِلٌ: لَه أَهْلٌ"(1)، ومَكانٌ آهِلٌ: مَأْهولٌ، قالَ الشّاعر:

وَقِدْمًا كانَ مَأْهولًا *** فأَمسَى مَرْتَعَ العُفُرِ(2)

فالسكّان - وإن حلّوا بالمكان، ونزلوا فيه - إلّا أنَّ لفظَهُ لا

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أهل).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أهل).

يُعطي دلالةَ التعمير والتأهيل الذي يعطيها لفظُ الأهل، فكانت هي الأولى بالسياق.

بلاغةُ التَّعبير باسم الإشارة المجموعِ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾:

الاستئذانُ شأنُهُ عند اللهِ عظيمٌ

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ إشارةٌ إلى المصدر المفهوم من ﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ﴾، أي: ذلكم الاستئناسُ والتسليمُ خيرٌ لكم من تحيَّة الجاهليَّة[1].

وجاء الخطابُ بلفظ الجمع ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾؛ لأنَّه موجَّهٌ إلى المؤمنين المنادَى عليهم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾، وقد آثر السّياق اسمَ الإشارة للبعيد لتعظيم المُشار إليه، وهو الاستئذانُ قبل دخول البيوتِ، فتلك آدابٌ عظيمة؛ إذا طُبِّقت عاش الناس في أمنٍ واستقرار.

وجاء الخطاب بالإشارة لأمرين: "أوَّلهما: أنَّه ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾؛ لِكَيْ تُصانَ الأعراضُ، وتُسترَ العورات، ولا يكونَ نطاقَ اتِّهام، ونفورٍ بالاستيحاش، وحيث كُشفتِ الأستار؛ كانت الفِتنُ، وكان ظنُّ السّوء، فتسودُ القطيعة والتفاحش ورمي الأبرياء، ثانيهما: رجاءَ التَّذكُّرِ وتعرُّفِ المصلحةِ وتحرّي الاحتشام، حتّى من الآباء والأمَّهات"[2].

دلالةُ تنكيرِ الخير وإيثار لفظِه:

الاستئذانُ يَحملُ كلَّ معاني الخير للجماعة المسلمة

جاء لفظُ الخير نكرةً في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾؛ دلالةً على تعظيم هذا الخير، فالحفاظُ على حرمةِ البيوت من أعظمِ أنواع الخير، وأوثِر دون لفظ الفضل لِما في الخير من معانٍ ودلالات ثريَّة لا توجد في الفضل، إذِ الخيرُ اسمٌ جامعٌ يشمَل الفضلَ وغيرَه، وهو ما يرغب فيه الكلُّ، كالعقل مثلًا، والعدل، والفضل، والشَّيء النافع[3].

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 38.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5176، 5177.

(3) الراغب، المفردات: (خير).

دلالةُ شبه الجملة ﴿لَّكُمۡ﴾:

الاستئذانُ جالبٌ للنَّفع مانعٌ للضرِّ

دلَّ شبهُ الجملة ﴿لَّكُمۡ﴾ في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ على استحقاق الخيريَّةِ لمن يتأدَّب بآداب الاستئذان، ففي تسليط الخيريَّةِ عليهم وخطابِهم بها: إغراءٌ شديد، وتحفيزٌ أكيدٌ للاستئذان.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(لعلّ) وعَود الضَّمير فيه:

إرادةُ اللهِ الخيرَ لعبادهِ من مقتضَياتِ رحمته سبحانه

تُستعملُ (لعلَّ) في الرجاء، والرجاءُ يكون للأمور قريبةِ الحصول، بعكس التَّمنّي، وعليه فإنَّ مجيءَ حرفِ التَّرجّي في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ يحرِّك قلوبَ المؤمنين، ويرغِّبهم في أن يتذكَّروا تلك الآداب، ويعملوا بها، لتَعودَ عليهم بالنَّفع العميم، والاستقرار المُقيم، فمعنى ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، أي: لتكونَ حالُكم حالَ من يُرجى أن يتذكَّر برجوعه إلى نفسه عند سماع هذا النَّهي، فيعرفَ أنَّ ما يسوْؤُهُ من غيرهِ يسوءُ غيرَه منه، فيَفعلَ ما يحبُّ أن يُفعَل معه خوفًا من المقابلة؛ لأنَّ الجزاءَ من جنس العمل[1]، والخطاب لجماعة المؤمنين المُنادَى عليهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعل ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ دلالةً وصيغةً:

حثُّ الجماعة المؤمنة على التَّناصُحِ فيما بينهم

الفعلُ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أصلُه (تتذَكّرون)، أُدغمت إحدى التّائين في الأخرى إرادةَ التَّخفيف، وهو من الذِّكر ضدَّ النسيان، وصيغ من الفعل الثلاثيِّ المضعَّفِ العينِ المَزيدِ فيه (تذكَّر)، وكان يمكن صياغتُه من الثلاثيِّ المجرَّد (ذكَرَ)، بأن يُقال: (لعلَّكم تَذْكُرون)، أو منَ المَزيدِ فيه المخفَّف، فيقال: (لعلكم تَدَّكِرون)؛ لكنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادةٍ في المعنى، فالفعل ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ المَصوغُ من (تذكَّر)

(1) البقاعي، نظم الدرر: 3/ 250.

المَزيدِ المثقَّلِ يدلُّ على مجاهدة هوى النَّفس، ومقاومةِ دواعي العجَلة الراسخة في الإنسان، الَّتي قد تدعوه إلى الهجوم على البيوت بلا استئذان؛ هروبًا من مَلَل الانتظار والترقُّب لإذنِ صاحبِ البيت، فجاء الفعلُ بالزيادة في المبنى، ليناسب تلك المعانيَ النفسيَّةَ التي قد تعرِض لبعض الناس.

ويُلمَح من دلالة الفعل ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ الجماعة المؤمِنةَ لا بدَّ أن يشيعَ بينهم هذا الخُلُق، وأن يُذَكِّرَ بعضُهم بعضًا عند النِّسيان، الذي يكون الشَّيطانُ سببًا فيه، وهذا الفعل بصيغتِه ودلالته يُعالِج تلك المواقفَ التي يعرض فيها النِّسيان، كما جاء بيانُه في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف: 201].

التَّوجيهُ البلاغيُّ لقراءة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

في التَّشديد مزيدُ تأكيد

قَرَأَ حَمزَةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ وحَفْصٌ بِتَخْفيفِ الذّالِ حَيْثُ جاءَ، وقَرَأَ الباقونَ بِالتَّشْديدِ، ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾؛ أيَ: (تتذكّرون ولو نوعا من التَّذَكُّر)، كما أشار إليه الإدغام (بما ترون فيها من الحكم)[1]، فمَن خفَّف حذف إِحْدَى التَّاءَيْنِ - وَهِي الثَّانِيَة - وهما زائدتان، إِلَّا أَن الأُولى تدل على معنى الِاسْتِقْبَال، وَالثَّانيَة إِنَّمَا دخلت على معنى: (فعلت الشَّيْء على تمهل)، نَحْو قَوْلك: (تفهَّمت الشَّيْء) أَي: أخذت على مهل، وَمن شدد أدغم التَّاء فِي الذَّال لقرب مَكَان هَذِه من مَكَان هَذِه[2].

❁ الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

البيت والمَنزِل والمَسكَن:

البيتُ محلُّ اعتياد المَبيت ليلًا، فهو أنسبُ لمَقام إيجاب الاستئذان

البَيْت مأوى الإنسان باللَّيل؛ لأنَّه يُقال: بات، أقام باللَّيل، كما

(1) ابن الجزري، النشر: 2/266، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 155.
(2) ابن زَنْجلة، حجة القراءات، ص: 279.

يُقال: ظلَّ بالنَّهار؛ ثمَّ قد يقال للمسكن: بيتٌ، من غير اعتبارِ اللَّيل فيه[1]، فلمّا كان البيتُ هو المكان الذي يعتاد الإنسانُ أن يَبيتَ فيه - أي: يَقضي اللَّيل فيه - واللَّيلُ مظنَّةُ التكشُّف والابتذال؛ كان هو الأولى بالذِّكر في سياق الاستئذان والاستئناس.

أما المَسْكَن فهو مكانُ سكن الإنسان، سواء كان بيتًا أم خلاءً، وسمّيَ البيت مسكنًا؛ لأنَّ الإنسان تسكُنُ فيه نفسُه، ويطمئنُّ فيه قلبُه؛ لأنَّه مشتقٌّ من السُّكون[2]، فمعنى السُّكون والارتياح مراعًى في المسكن، لذلك لا يناسب المسكنُ سياقَ الاستئذان، فالاستئذان واجبٌ لدخول جميع بيوتِ الآخرين، بغضِّ النَّظر عن توفُّر عامل السكون فيها.

والمَنْزِل اسمُ مكانٍ للنُّزول، يقال: نزل في مكان كذا: حطَّ رَحلَهُ فيه، وأنزله غيرُهُ، قال الله تعالى حكايةً عن دعاء نوح عليه السلام: ﴿أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ٢٩﴾ [المؤمنون:29][3]، والنُّزول في المنزل قد يكون مؤقَّتًا، لغرَض الاستراحة، وسُرْعانَ ما يَبرَح، فليس فيه ما في البيت من بَياتٍ ونوم وتخفُّفٍ من الثياب، شأنَ الإنسان المتبذِّلِ في بيته، وعليه فلا يصلُح هذا اللَّفظُ أن يحلَّ محلَّ لفظ (البيت) الواردِ في سياق الآية.

الاستئناس والاستعلام والاستكشاف والاستئذان والرُّخصة:

من كرَمِ الأخلاقِ أن يأنَسَ المضيفُ بضيفه، ويفرحَ به

الاستئناسُ يفترق عن (الاستعلام) و(الاستكشاف) و(الاستئذان) و(الرُّخصة) بأنَّه يجمع كلَّ هاتيك المعاني: فالاستئناس استعلامٌ واستكشافٌ، فهو "اسْتِفعالٌ مِنْ آنَسَ الشَّيْءَ: إِذا أَبْصَرَهُ ظاهِرًا مَكْشوفًا"[4]، وهو رديفُ الاستئذان، لكنَّ فيه معنى الأُنس، وهو ليس موجودًا في المترادفات المذكورةِ، يُقال: استأنستُ بفلانٍ، وتَأَنَّسْتُ به

(1) الراغب، المفردات: (بيت).
(2) الراغب، المفردات: (سكن).
(3) الراغب، المفردات: (نزل).
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 356.

بمعنًى، واسْتَأْنَسَ الوحشيُّ؛ إذا أحسَّ إنْسيًّا، والأنيسُ: المُؤانِسُ، وكلُّ ما يُؤْنَسُ به، والإيناس: خلافُ الإيحاشِ، وكذلك التأْنيسُ[1]، والإيناس يحمِل معنى الفرحة، يُقال: أَنِسْتُ بِفُلانٍ، أَي: فرِحْتُ به[2]، والاستعلام: طلبُ العلم بالشيء، والاستكشاف: طلب الكشف، والاستئذان: طلبُ الإذنِ "والرُّخْصَةِ في الأمر، خِلافُ التَّشديد فيه"[3].

فجميعُ هذه الألفاظِ لا يحمل واحدٌ منها ما يحمِله الاستئناس من انعقاد النَّفس على الأُنس والارتياح، والسكون والاسترواح، فكان اختيارُهُ في هذه السّياق أولى.

السلام والتحيَّة:

في السلام براءةٌ وسلامةٌ وعافيةٌ ونـجـاةٌ ودعـاءٌ تـنـاسب حُـسْـنَ أخلاق الضَّيف

السلامةُ: هي التَّعرّي من الآفات الظاهرة والباطنة، قال اللّٰه تعالى: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: 89] أي: متعرٍّ من الدَّغَل، فهذا في الباطن، وقال تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ [البقرة: 71]، فهذا في الظاهر[4]، والسَّلامُ والسَّلامَةُ: البَراءَةُ، والسَّلامة: العافيَةُ، والسَّلامة: النَّجاة، والسَّلامة: الدُّعاء[5].

أمّا التحيَّةُ؛ فأصلها من الحياة، ثم جُعِل ذلك دعاءً، فيقال: حيّاك اللّٰه، أي: جعل لك حياةً[6]، والتَّحيَّة: السَّلامُ، والبقاءُ، والمُلْك[7].

ومِن ثَمَّ فإنَّ مدلولاتِ السَّلام السابقةَ - وهي البراءة والسلامة والعافية والنجاة والدعاء - تصلح كلُّها لأنْ تكونَ دعاءً لِمَن يُراد دخولُ بيتِه، بعكس التَّحيَّة، ففيها معانٍ لا ترادُ لصاحب البيتِ، كالملك والبقاءِ، ومِن ثَمَّ كان السَّلامُ هو الأنسب في سياق الاستئذانِ.

(1) الجوهري، الصحاح: (أنس).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (أنس).
(3) الجوهري، الصحاح: (رخص).
(4) الراغب، المفردات: (سلم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (سلم).
(6) الراغب، المفردات: (حيي).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (حيي).

﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨﴾ [النّور: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربْطُ كلامِ آدابِ دخولِ البُيوتِ المسكونةِ بأهلِها بالبيوتِ المسكونةِ الخاليةِ

بعد أن ذَكَرَ السّياق الحكيمُ في الآية السّابقة البُيوتَ المسكونة التي فيها أهلها وحُكم دخولِها؛ ناسب في هذه الآية أنْ يذكرَ البيوتَ المَسكونَةَ التي خلت عن أهلها، وحُكمَ دخولها، فقد جاءت الآية السّابقة لبيان حُكْم دخولِ البيوتِ التي فيها أهلها، وهذه لبيان حُكم دخولِ البيوتِ الخاليةِ عن أهلِها، فارتبطت هذه الآيةُ بما قبلها، والمعنى: لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم حتّى تستأذنوا من أهلها، فإن أُذِنَ لكم فادخلوا؛ وإنْ لم تجدوا فيها أحدًا يأذن لكُم؛ فلا تدخلوها حتّى تجدوا الإذن بالدُّخول[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَجِدُواْ﴾: (وجد) أصلٌ يدلُّ على الشَّيء يلفيه، ووَجَدتُ الضّالَّةَ وجدانًا[2]، كما يُعبِّر عن التَّمكُّن من الشَّيء بالوجود، نحو: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التّوبة: 5]، أيْ: حيث رأيتموهُم[3]، وأوجده اللّه مطلوبَهُ، أيْ: أظفره به، وأوجده، أيْ: أغناه، يُقال: الحمدُ للّه الَّذي أوجدني بعد فقرٍ، وآجدني بعد ضعفٍ، أيْ: قوّاني، ووجد الشَّيء عن عدمٍ فهو موجودٌ[4]، والمعنى في الآية: تلقوا مَنْ يأذن لكُم بالدُّخول من أهل البيت.

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 220.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وجد).
(3) الرّاغب، المُفردات: (وجد).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: 2/ 176.

2) ﴿أَزۡكَىٰ﴾: جذرُ الكلمة هو (زكي)، و(زكو)؛ وسُمّيت زكاة المال بذلك؛ لأنَّها ممّا تُرجى به زيادة المال ونماؤُه، وسُمّيت زكاةً؛ لأنَّها طُهرةٌ، واحتجّوا بقول الله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: 103][1]، ويُقال: وهذا أزكى من ذاك، أيّ: أزيدُ فضلًا منه، وقد زكّى القاضي العُدولَ؛ إذا بيَّن زيادتهم في الفضل، قال الله جلَّ اسمه: ﴿أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ﴾ [الكهف:74]، أراد: زائدة الخير، لم تذنب، ولم تكن منها خطيئة[2]، وقوله: ﴿هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾، أيّ: أطهر لكم ولنفوسكم، وبِزَكاءِ النَّفس وطهارتها يصير الإنسان بحيث يستحقُّ في الدُّنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجرَ والمَثوبةَ، وهو أن يتحرَّى الإنسانُ ما فيه تطهيره[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

استئذانُ أهلِ البيوتِ المسكونةِ مراعاةٌ لآدابِ الدُّخولِ والانصرافِ

بيَّن ﷻ في هذه الآية حالةً أخرى توجب الاستئذانَ، فقال: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ﴾، أيّ: فإن لم تجدوا في هذه البيوت أحدًا بأنْ كانت خاليةً من سُكّانها لظرفٍ من الظُّروف؛ فلا يصحُّ دخولها حتّى يُؤذنَ لكم في دخولها ممّن يملك الإذن بذلك، فالبيت بمحتوياته حِرزٌ لصاحبه، وليس لأحدٍ أن يدخله بلا إذنٍ، هذا فضلًا عن أن يكون لربِّ البيت فيه ما لا يُحبُّ أن يطَّلع عليه[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الفاءِ) العاطفةِ في السّياقِ:

بيانُ القاعدةِ في أدبِ الاستئذانِ ودخولِ البُيوتِ عمومًا

جملة ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿لَا تَدۡخُلُواْ﴾ [النور: 27]،

(1) ابن فارس، مُجمل اللّغة: (زكو).
(2) الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: (زكو).
(3) الرّاغب، المُفردات: (زكا).
(4) مجاهد، تفسير مجاهد، ص: 491.

وهي هنا تُفيد عطف حُكم على حُكم، وحالةٍ على حالةٍ، وحرفُ الفاء يُفيد التَّرتيبَ والتَّعقيبَ، فالتَّرتيبُ بمعنى أنَّ المعطوفَ بها لاحقٌ لما قبلها، والفاءُ أشركت بينهما في أحكام حالتي الاستئذان، وجعلت الأوَّل مبدوءًا به[1]، وهي هُنا **أوَّلًا:** طلبُ المُستأذِنِ الدُّخولَ من صاحب البيت في حالِ وجوده، ثمَّ يأتي **ثانيًا**، وهو: إن لم يجد فيها أحدًا؛ فلا يدخلها حتى يُؤذن له، وأمّا التَّعقيب؛ فمعناه أنَّ المعطوف وقع بعد المعطوف عليه بغير مهلةٍ، فلا ينتظرْ عند باب الدّار طويلًا، وإنَّما هي محاولة عَجْلى ووقفةٌ قصيرةٌ، فإن لم يجد مَن يُجيز له الدُّخول؛ فلا يدخل، وينصرف، يقول سيبويه: "والفاء تضمُّ الشَّيء إلى الشَّيء - كما فعلت الواو - غير أنَّها تجعل ذلك مُتَّسقًا بعضُه في إثرِ بعضٍ"[2]، وهي توجب أنَّ الثّاني بعد الأوَّل، وأنَّ الأمر بينهما قريب[3]، وهو ما ينطبقُ على جزأي العطف المُنوَّه بهما.

دلالةُ الشَّرطِ في جملةِ ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ﴾:

الاستئناسُ ذو أثرٍ إيجابيٍّ على أصحابِ الدّار

الشرط في قولِه تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا﴾ يُشبه الشَّرطَ الوصليَّ؛ لأنَّه مُرادٌ به المبالغة في تحقيق ما قبله، وهو قوله: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾ [النّور: 27]؛ ولذلك ليس له مفهوم مخالفة[4]، فجعل الاستئناس محطَّ اهتمام المُخاطَبين؛ كونُه أمرًا لابدَّ من تحقيقه، وإلّا فلا حقَّ في الدُّخول قطعًا، والاستئناسُ أمرٌ نفسيٌّ يظهر في كلام المُستَقبِلِ وبملامح وجهه، فمطلوبٌ هُنا ممَّن يريد دخول بيوتِ النّاس أن يتصرَّف بحسٍّ مُرهفٍ وذوقٍ عالٍ؛ لأنَّ العلَّة في ذلك هي مراعاة المألوف من طباع النّاس في حرصهم على ستر خصوصيّاتهم وإظهار الجزع والضّيق من انكشافِها

(1) سيبويه، الكتاب: 1/ 218.
(2) سيبويه، الكتاب: 2/ 304.
(3) المُبرِّد، المقتضب: 1/ 10.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 201.

للآخرين، وكيما يعلمَ الطّارقُ الطّارئ على الدّار أنَّها، وإن لم يكن أحدٌ فيها، فإنَّها لا تخرج عن قاعدة الاستئذان المشروعة، غاب أهل الدّار أم حضروا.

نكتةُ استعمال (إنْ) دون (إذا):

اختيار الأداة المعبِّرة عن احتمال الوقوع، من بلاغة الاستعمال

لا تستعمل (إنْ) إلّا في المعاني القليلة الوقوع والأمور المشكوك في حصولها والموهومة والنّادرة(1)، وما تناولته الآية في قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْۖ﴾ هو أمرٌ نادرٌ وقوعه أن يأتي أحدٌ بيتًا مسكونًا فيه، فلا يجد أحدًا فيه يأذنُ له بالدُّخول، أمّا (إذا)؛ فتكون للمقطوع بحصوله وللكثير الوقوع، فمِن ذلك قولُه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [البقرة: 180]، فكلُّ واحدٍ من المُخاطَبين سيحضره الموت حتمًا، ففي قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا﴾ ذِكْر حالة نادرة الوقوع؛ لذلك فلا يناسب استعمال (إذا) هُنا.

احتمالُ وجدان أحدٍ في البيت لا يعتدُّ بإذنه:

تقييدُ عدمِ وجدان أحدٍ في البيتِ بمَنْ يُعتدُّ بإذنِهِ مفيدٌ في الإيضاح

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْۖ﴾، أيْ: إن لم تجدوا فيها أحدًا يأذن لكم(2)، ويحتمل هذا القيد المُقدَّر احتمالَيْن، أوَّلهما: احتمال ألّا يكون في الدّار أحدٌ أصلًا، فلا يجوز دخولُها لحاجةٍ إلّا بإذنٍ من أهلها على أن يكون النَّفي للقيد والمُقيَّد معًا، وثانيهما: أن يكون فيها مَن لا يُعتدُّ بإذنه كصبيٍّ وعبدٍ، وللطّارق فيها حاجةٌ، فلا يجوز دخولها إلّا بإذن أهلها مِمَّنْ يُعتدُّ بإذنه، على أنَّ المنفيَّ هو القيد فقط، وذلك أنَّ الاستئذان أمرٌ خُلقيٌّ واجتماعيٌّ راقٍ، وهو لم يشرع مخافة أن تسبق عين الطّارق الدّاخل إلى ما لا يحلُّ النَّظر إليه فقط، وإنَّما كان تشريعُهُ لحجب الأحوال الَّتي يطويها النّاس في العادة، ولا يريدون أن يراها غيرهم(3).

(1) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 9/ 4.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 104.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 228، والشّهاب، حاشية الخفاجيّ على البيضاويّ: 6/ 370.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المقرونِ بـ ﴿لَّمۡ﴾:

تقريرُ الاستئذانِ بالسَّلامِ المتاحِ دون تكرارٍ أو إلحاحٍ

في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ﴾ دلَّ استعمال الفعل المضارع على الماضي؛ لاقترانه بـ(لم)[1]، فجاء بالفعل المضارع المنفيِّ بـ﴿لَّمۡ﴾؛ ليدلَّ على المحاولة بلا إلحاحٍ أو تكرارٍ، ولا شكَّ أنَّ عدم الوجدان لِمَنْ بيده الإذنُ مانعٌ من الدُّخول، علاوةً على أنَّ مدلول النَّصِّ الكريم هو النَّهي عن دُخول البيوتِ الخاليةِ لما فيه من الاطِّلاع على ما يعتادُ النّاسُ إخفاءَه، مع أنَّ التَّصرُّفَ في مِلْكِ الآخرين محظورٌ مطلقًا[2].

بلاغةُ الاحتراسِ:

البيتُ بمحتوياته حرزٌ لساكنيه، وملاذٌ لذويه

قوله تعالى: "﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا﴾... الآية؛ للاحتراس مِن أن يَظُنَّ ظانٌّ أنَّ المَنازِلَ غيرَ المَسْكونَةِ يَدْخُلُها النّاسُ في غيبَةِ أَصْحابِها بدونِ إِذْنٍ مِنهُم تَوَهُّمًا بِأَنَّ عِلَّةَ شَرعِ الاسْتِئذانِ ما يَكرَهُ أَهلُ المَنازِلِ مِن رُؤيَتِهِم على غَيرِ تَأَهُّبٍ، بَلِ العِلَّةُ هي كَراهَتُهُم رُؤيَةَ ما يُحِبّونَ ستره من شؤونهم، فالشَّرطُ هُنا يُشبِهُ الشَّرطَ الوَصليَّ؛ لِأَنَّهُ مُرادٌ به المُبالَغَةُ في تَحقيقِ ما قَبلَهُ، ولِذَلِكَ لَيسَ لَهُ مَفهومُ مُخالَفَةٍ"[3].

بلاغةُ اختيارِ لفظ ﴿أَحَدٗا﴾:

مَنْ في الدّارِ يشملُ الذُّكرانَ والإناثَ من الصِّغارِ والكبارِ

في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا﴾، اختار لفظ ﴿أَحَدٗا﴾، وذلك لفائدة البحث عن كلِّ واحدٍ أوكِلَ إليه شأنُ البيتِ أو المكوث فيه، ثمَّ إنَّه عمَّم بلفظ ﴿أَحَدٗا﴾، فلم يقلْ: أهلَها أو سكّانَها؛ ليشملَ بذلك الموصوفين جميعًا، من الذُّكور والإناث، ومن الصِّغار والكبار[4].

دلالةُ (الفاء) في جملة: ﴿فَلَا تَدۡخُلُوهَا﴾:

وجدانُ الآذنِ بالدُّخولِ مرتبطٌ بضرورةِ قَبولِه الإذنَ أو عدمه

جاءت جملةُ ﴿فَلَا تَدۡخُلُوهَا﴾ جوابًا للشَّرط مقترنةً بالفاء، والفاءُ رابطةٌ للجوابِ تُشير إلى أنَّ ما قبلها سببٌ لما بعدها، فقد ثبت

(1) الرّضي، شرح الرّضيّ: 2/ 257.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 168.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 201.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 220.

بذلك الرَّبط موقفٌ آنيٌّ واحدٌ، والمعنى: مَن أتى بيتًا طالبًا الدُّخول؛ فإن لم يجد أحدًا في البيت؛ فلا يدخله حتّى يستأذنَ، فإن لم يجد أحدًا يستأذن منه؛ فلا يدخل، بل عليه أن ينصرفَ عنه، فجعلَ عدمَ وجود أحدٍ في البيتِ سببًا للرُّجوع وعدم الدُّخول، وجعلَ وجدانَ أحدٍ يأذن بالدُّخول هو المُحدِّد لإمكان دخول البيت أو عدم دخوله، وهذا من قبيل احترام الحقوقِ الفرديَّة والعلاقات الأُسريَّة، والرَّوابط الاجتماعيَّة في الإسلام.

سِرُّ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدۡخُلُوهَا﴾ دون (تَقْرَبوها):

قـد يـكـونُ في الاقـترابِ من البـيتِ ضـرورةٌ للاستئذانِ على أهلِه

لعلَّ القُرْبَ من البيتِ ضرورةٌ لِمَن أراد الاستئذانَ للدُّخول؛ لذلك قد لا يستطيع المُستأذِنُ من طلب الإذن بالدُّخول، إلّا أن يكونَ قريبًا من الدّار، ثمَّ إنَّ القُرب من الدّار لحاجةٍ غير محظورٍ على النّاس من عابري السَّبيلِ، على خلاف دخول تلك البيوتِ بلا استئذانٍ، فأُمِرَ بالاستئذان لغرضِ الدُّخولِ فيها.

غرضُ النَّهيِ في جملةِ ﴿فَلَا تَدۡخُلُوهَا﴾:

مـضـمـونُ الآيـةِ من قبيلِ الإعجازِ المرتبط بالأخلاقِ والمجتمعِ

في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدۡخُلُوهَا﴾؛ دلَّ النَّهي هُنا على التَّحريم، فيحرم دخول تلك البيوت، سواءٌ كان البابُ مغلقًا أم مفتوحًا؛ لأنَّ الشَّرع قد أغلقه بالتَّحريم للدُّخول، حتّى يفتحَهُ الإذنُ من أهلها، بل يجب عليه أن يأتي الباب، ويحاول الإذن على صفةٍ لا يطَّلع على البيت، لا في إقباله ولا في رجوعه[1]، وهذا من عظيم أخلاق الإسلام؛ لتدومَ العلاقات الاجتماعيَّة، ويبقى التَّواصل الأسريُّ، وتنمو الرَّوابط نموًّا صحيحًا.

نكتةُ استعمالِ ﴿حَتَّىٰ﴾ في السّياقِ:

الدُّخولُ للبيوتِ مباحٌ بعدَ الإذنِ بالقبول لا قبله

كلمة ﴿حَتَّىٰ﴾ - في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ﴾ - تجيء للغاية، "والغايَةُ في قَوْلِهِ: ﴿حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ﴾ لِتَأْكيدِ النَّهْيِ بِقَوْلِهِ:

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 220.

فلا تَدْخُلوها، أيْ: حَتّى يَأْتيَ أَهْلُها، فيَأْذَنوا لَكم"[1]، "والحُكْم بعد الغاية يكون بخلاف ما قبلها، فقوله: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ [النور: 27] يقتضي جوازَ الدُّخولِ بعد الاستئذانِ، وإن لم يكن من صاحب البيت[2].

فائدةُ الغايةِ في السّياقِ:

المبالغةُ في الاستئذانِ جبرٌ لخواطرِ أهلِ الإيمانِ

جاء قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ﴾ لتأكيد النَّهي بقوله: ﴿فَلَا تَدۡخُلُوهَا﴾، أيْ: حتّى يأتي أهلها، فيأذنوا لكم[3]، وفي ذلك مبالغةٌ في النَّهي عن دخول البيوت المسكونة؛ حتى يحصلَ الآذنُ على الإذن من أهلها، وفي هذا حفظٌ لأمر اللّه، وحفظٌ لحُرْمة صاحب الدّار؛ لأنَّ مَنْ دخلها بغير إذنِ صاحِبها، ربَّما تكون فيها عورةٌ منكشفةٌ، وربَّما يكون لصاحب الدّار أمرٌ لا يريد أن يطَّلع عليه غيرُه، فلا ينبغي أن يدخل عليه من غير استئذانٍ"[4]، ومن هنا جاء النَّهي صريحًا؛ ليسدَّ الباب على احتمالات السّوء الَّتي تُفسِد العلائق وتُمزِّقها.

نكتةُ بناءِ فعلِ ﴿يُؤۡذَنَ﴾ للمفعولِ:

الإذنُ بالدُّخولِ مفتوحٌ على كلِّ مَن منه يكون الإذنُ

بناءُ الفعلِ المضارعِ للمفعولِ في قولِهِ: ﴿حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ﴾؛ لفائدةِ التَّعميم ممَّن تأخذون عنه الإذن في الدُّخول؛ إذْ لم تُذكر صفةُ المُؤذِن أو الآذِن، وظاهرُ الآيةِ يقتضي قَبولَ الإذنِ مُطلقًا، سواءٌ أكان الآذِنُ صبيًّا أم امرأةً أم عبدًا أم ذمّيًّا؛ فإنَّه لا يعتبر في هذا الإذن صفات الشَّهادة[5].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿يُؤۡذَنَ﴾:

انتظارُ الإذنِ للدُّخولِ أو الرُّجوعِ من شيَمِ النُّفوسِ النَّبيلةِ

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ﴾، دلَّ الفعل المضارع على

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 220.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 358.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 201.
(4) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 605.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 359.

التَّجدُّد لوجود محاولات الحصول على الإذن ممَّن هو ساكنٌ في البيت، أو مَنْ أوكلَ إليه أمره، فالانتظار لطلبِ الإذنِ أمرٌ ضروريٌّ، ودلَّ الفعل المضارع على حدث مستقبل بالنِّسبة إلى حدث مستقبل قبله، وهو: ﴿تَدۡخُلُوهَا﴾.

دلالةُ (اللّام) في شِبهِ الجملةِ ﴿لَكُمۡۖ﴾:

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لَكُمۡۖ﴾ للاختصاص: فيكون الإذنُ خاصَّةً لكم؛ لأنَّكم الَّذين طلبتم الإذن لا غيركم، فإنِ استأذنْتُم، ثمَّ أتى الإذنُ لغيركم؛ فلا تدخلوها حتّى يُؤذنَ لكم خاصَّةً.

بلاغةُ الحذفِ في الآيةِ وما قبلها:

ارتكازُ معنى الآيةِ على استحصالِ الإذنِ بالدُّخولِ

قولُه تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ﴾ مُرتبطٌ بما قبله بأسلوب الحذف، والتَّقدير: (يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تَدْخُلوا بُيوتًا غَيْرَ بُيوتِكُم؛ حَتَّى تَسْتَأْنِسوا، وتُسَلِّموا على أَهْلِها، فإن لم يُؤذن لكم من أهلها بالدُّخول، فقيل لكم: ارجعوا؛ فارجعوا، فإنْ لَم تَجِدوا فيها أَحَدًا؛ فلا تَدْخُلوها حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُم ممّن أوكِلَ له أمرُها، وإن قيل لكم: ارجعوا؛ فارجعوا)، ويمكن أن يكونَ في الآية بمفردها - دون سابقتها - معنى الاحتباك؛ إذ المعنى: (فإنْ لم تجدوا فيها أحدًا - يأذن لكم من داخلها - فلا تدخلوها حتى يُؤذنَ لكم من خارجها، ممَّنْ هو موكَّل بذلك).

دلالةُ (الواو) في جملةِ ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ﴾:

استواءُ الاحتمالَيْن أن يُؤذن لكم أو لا يُؤذَن

جملة ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ﴾[1]، ومعنى حرف العطف الواو: للجمع، فإمّا أن يُؤذَنَ لكم؛ فتدخلوا، أو ألّا يُؤذن لكم؛ فلا دخول، وتفصيل عدم الإذن لكم: إمّا لأنَّكم لم تجدوا أحدًا، فلم تحصلوا على الإذن؛ فلا تدخلوها، وإمّا أن يُقال لكم: ارجعوا؛ فارجعوا، ولا تدخلوها.

(1) الخرّاط، المُجتبى: 2/ 794.

احتمالُ الإذنِ بالدُّخولِ أو عدمُهُ واردٌ في السّياقِ

نكتةُ استعمالِ (إنْ) دون (إذا):

كما ذَكَرْنا في استعمال (إنْ) في قوله: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا﴾، فإنَّه: لا تُستعمل (إنْ) إلّا في المعاني مُحتملة الوقوع، وفي المواضع المشكوك في حصولها والموهومة والنّادرة[1]، وما تناولته الآية، في قوله: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ﴾، من المحتمل وقوعه، ومثاله: أن يأتي أحدهم بيتًا، فيستأذن، فيُقال له: ارجع، ولا يُعطى إذنًا بالدُّخول، وأمّا الأداة (إذا)؛ فتكون للمقطوع بحصوله وللكثير الوقوع، وعليه فالأصل في (إنْ) أن تُستعمل للمشكوك فيه والقليل الوقوع، وقد استُعمِلت في هذه الآية؛ لأنَّ التصريحَ بعدم الإذن ومجابهة الزائر المستأذِن بالأمر بالرجوع وصريح المنع أمرٌ نادرُ الوقوعِ؛ ولذلك قال أحدُ المهاجرين: "لقد طلبتُ عمري كلَّهُ هذه الآية فما أدركتها: أن أستأذن على بعض إخواني، فيقول لي: ارجع، فأرجع، وأنا مغتبطٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾"[2].

اشتراكُ فِعْلَي الإيذانِ والقيل بطلب الرُّجوع في البناء للمفعول للدلالة على التَّعميم

نكتةُ بناءِ ﴿قِيلَ﴾ للمفعولِ:

أفاد البناءُ للمفعولِ هنا التَّعميمَ، فمن أيِّ شخصٍ سمعتم قول: ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾؛ فعليكم أن ترجعوا، مثلما أنَّ الإيذان جاء بأسلوب البناء للمفعول، بقوله: ﴿حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ﴾؛ فكان غير مُحدَّدٍ من ذِكَرٍ أو أُنثى، أو من صغيرٍ أو كبيرٍ، فكذلك هنا إنْ جاءكم الأمر بالرُّجوع من أيٍّ كان من أهلِ البيتِ، سواءٌ كان مالكًا للأمر بالدُّخول، أم غير مالكٍ له؛ فلا مندوحةَ لكم من الرُّجوع، ولا مَدعاة للإصرار والإلحاح، فإنَّ ذلك مَجْلَبَةٌ للكراهة في القلوب، وهو معدودٌ من قوادحِ المروءة[3].

(1) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 9/ 4.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 248.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 169.

سرُّ العدولِ عن المقابلةِ بين عدمِ الإذنِ والإرجاعِ:

الرُّجوعُ مُلزِمٌ لا محالةَ في حالِ قيل (ارْجِعوا)

في قوله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ﴾ عدلَ السّياق الحكيم عن المقابلة بما قبله، فلم يقلْ: (وإن لم يُؤذن لكم؛ فارجعوا)، وسرُّ ذلك أنَّ عدمَ الإذنِ فيه احتمالان، **الأوّل**: أنَّهم لم يجدوا أحدًا أصلًا، وهذا ما ذكرته الآية: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا﴾، فقال سبحانه: ﴿فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ﴾، ولم يقلْ: (فارجعوا)، **والثّاني**: أنّهم وجدوا فيها أحدًا، فقال لهم: ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾، فهنا عليهم أن يرجعوا، فاختُصَّ قوله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ﴾، بالشَّطر الثّاني من عدم الإذن في الدُّخول، فأُلزم المُستأذِنُ في الثّانية بالرُّجوعِ، ولم يُلزم في الأولى.

دلالةُ الفاءِ في جملةِ ﴿فَٱرۡجِعُواْۖ﴾:

مــن أخــلاقِ المؤمنين قَبولُ الرُّجوعِ وسرعةُ الإجابةِ للآمرِ الأعلى

(الفاء) رابطةٌ لجوابِ الشَّرط، ففي قوله: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ﴾ نجد أنَّ جواب الشَّرطِ طلبيٌّ، فجوابُ الشَّرطِ وجزاؤه فعل ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾، والفاء تُرتِّب ما بعدها على ما قبلها وتُسبِّب منه، فحال أن يُقال لهم: ارجعوا، فعليهم أن يرجعوا دون سؤالٍ أو استفسارٍ عن السَّببِ، فدلَّتِ الفاءُ على سرعة الاستجابةِ.

سرُّ اختيارِ لفظِ (الرُّجوع) دون سِواه:

طلبُ الرُّجوعِ أشدُّ من طلبِ الانصرافِ ونحوِه

(الرُّجوعُ) هو العودُ إلى ما كان منه البدء، أو تقدير البدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، والرَّجْعُ: الإعادة، والرَّجْعَةُ في الطَّلاق[1]، ولعل سرَّ اختيار مُفردة ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾ دون (انصرفو) أو (عودوا) ونحوهما هو كونُ تصريحِ المنعِ فيه أوضح، ووقعُهُ على النُّفوس أشدُّ؛ لأنَّه يراه غضاضةً عليه، فيكون فيه دلالة على المبالغةِ في الأمرِ بامتثالِ الرَّدِّ، وترك الاستنكافِ منه مهما كان شديدًا على النَّفس، علاوةً على اختيار صيغة الأمر (افعل) (ارجعوا) دون صيغة العرض ونحوها،

(1) الرّاغب، المُفردات، ص: 342.

كأن يُقال: (هل لكم أن ترجعوا)؟ أو (ألا ترجعون)؟ ولشدَّة الموقف وشعور المُستأذِن بالحَرَج؛ تفضَّل الله تعالى عليه بما يجبر خاطره، فقال ﷻ: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ﴾، أي: الله يجازيكم على امتثال أمره.

فنُّ الجناسِ في قولِه تعالى: ﴿ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ﴾:

مــن بــديــع السّياقِ توافقُ لفظِ الرُّجوعِ في اللّفظَيْن مع اختلافِ المَعنَيَيْن

تكرَّر الفعل ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ﴾ مع اختلاف المَعنيَيْن، ويعني الأوَّل: لا نسمح بدخولكم، بينما يعني الثّاني هي: العود أو الانصراف بعيدًا عن البيت، ولا تقعدوا، ولا تقوموا على أبواب النّاس، فإنَّ لهم حوائج[1]، والمعنى: أنَّه كما يكون الدُّخول مَدعاةً لكراهية صاحب الدّار، فكذلك الوقوف على الباب قد يكون سببًا في الكراهية، وعليه فلا جرم أن كان الأَوْلى له أن يرجع ائتمارًا بقول صاحب الشَّأن: ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾؛ فذلك أسلمُ وأحكمُ[2].

علَّةُ فصلِ جملةِ ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ﴾:

طــلــبُ تــزكــيــةِ الــنَّــفــسِ مـن صغائرِ الآثـامِ وكبائِرِها مسلكٌ نبيلٌ للهداية

بعد أن قال تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ﴾، استأنف بقوله: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ﴾؛ إذ إنَّ الجملة الثّانية بمنزلة جوابٍ عن سؤالٍ افتراضيٍّ يُفهم من الجملة الأولى، ومِن ثَمَّ كان الفصل بينهما، كما يُفصل الجواب عن السُّؤال، فعندما قال: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ﴾ يأتي سؤالٌ: لماذا الرُّجوع المباشر بعد سماع كلمة ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾؟ فيأتي البيان الإلهيُّ: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ﴾ جوابًا عليه للتَّأكيد أنَّ الرُّجوع فيه تزكية للنَّفس.

بلاغةُ اسميَّةِ جملةِ ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ﴾:

جميلُ الأخلاقِ وحُسْنُ التَّربيةِ هــو جـوهـرُ التَّزكيةِ

أفادت الاسميَّةُ في قوله: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ﴾ الثَّبات، فرجوعكم أثبتُ في تزكيَةِ أنفسكم، والرُّجوع أطهرُ لكم وأنمى خيرًا، لما فيه من سلامة الصَّدر والبُعد عن الرّيبة[3]، فالرُّجوع عن مراجعة

---

(1) مُقاتل، تفسير مُقاتل بن سليمان: 3/ 195.

(2) ابنُ عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 4/ 347.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 32.

النّاس في طلب الدُّخول، مُؤشِّر مُهمٌّ في حُسْنِ التَّربية وزكاة النَّفس وجميل الأخلاق.

طلبُ تزكيَةِ النَّفسِ على أكملِ الأخلاقِ والأفعالِ من جليلِ الخِلالِ

نكتةُ بناءِ ﴿أَزۡكَىٰ﴾ بصيغةِ أفعل التَّفضيل:

في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾ بصيغة التَّفضيل دلالةٌ على المبالغة في تزكيَةِ النَّفس، وطلب تلك التَّزكية في الرُّجوع عن الإلحاح في السُّؤال، أو طلب الدُّخول بعد أن قيل: ارجعوا، ومعنى ﴿هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾، أيْ: "أفضلُ وأطهرُ من التَّدنُّس بالمشاحَّة على الدُّخول، ومن اللَّج والعناد والوقوف على الأبواب، لما في ذلك من سلامة الصَّدر والبُعد عن الرّيبة، والفرار من الدَّناءة والرَّذالة"[1]، وهذا التَّشريع من عظيم فضل اللّه على عباده المؤمنين.

الأمرُ بالتزامِ أعظمِ الخلالِ في المطالبِ وردودِ الأفعالِ

نكتةُ توالي (لَكُم) ثلاث مرّات:

دلَّ تكرُّرُ ورود (لَكُم) ثلاث مرّاتٍ في الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ﴾ و﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ﴾ و﴿هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾ على تخصيص المُخاطَبين بالأمر، وبلاغة هذا التَّوجيه والوعيد لمَنْ يخالفُ ويشطُّ عن تلك الأخلاق الاجتماعيَّة العظيمة.

ذِكْرُ اللهِ في جميعِ الأحوالِ من خيرِ الزّادِ ليومِ المعادِ

نكتةُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ ﴿وَٱللَّهُ﴾:

أظهرَ قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ لفظَ الجلالة؛ لتكونَ الصّورة مُستحضَرَةً كاملةَ المعاني في ذهنِ المُخاطَب، فهو سبحانه عليمٌ بذاتِ الصُّدور، ومُطَّلع على الظّاهر والمستور، "فيُجازي كلَّ عاملٍ بعمله من كثرةٍ وقلَّةٍ وحَسَنٍ وعدمِهِ"[2].

قُدسيَّةُ التَّشريعاتِ الأخلاقيَّةِ مبسوطةٌ في السّياقِ ببيانٍ

نكتةُ التَّعبيرِ بالأُلوهيَّةِ دونَ الرُّبوبيَّةِ:

آثرَ الذِّكرُ الحكيم في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ التَّعبيرَ بالأُلوهيَّة، مع أنَّ السّياق سياقُ تربيَةٍ وربوبيَّةٍ، إذْ إنَّه تعالى

(1) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان: 9/ 199.

(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 565.

هو المُربّي للمخاطَبين، ونكتةُ التَّعبير بالألوهيَّة أنَّ المقام مقامُ تشريعٍ، فيناسبه التَّرهيبُ وإدخال المهابة في ضمير السامعين، بخلاف ذِكر الرَّبِّ فإنَّه مناسبٌ لمقام التَّرغيب، ولتعظيم شأن هذا الأمر، وما أضفى اللّه عليه من القدسيَّة لحفظ أعراض النّاس وخصوصيّاتهم، وللتَّذكير بما يحتوي عليه الاسمُ العظيم من معنى الأُلوهيَّة والوحدانيَّة، فذِكْرُ اللّهِ يُذكِّرُ بالمعبود سبحانه، فمَنْ كان يعبد اللّه صادقًا في عبادته، فليعلم أنَّه سبحانه عليمٌ بأفعاله، فليلتزم بأمره، وليرجع إن لم يُؤذن له بالدُّخول، فإنَّ بيوتَ النّاس عوراتٌ.

دلالةُ ذكرِ عِلمِه بما يعملُ البشرُ على الوعيدِ والتَّهديدِ:

توعُّدُ الَّذين يتجسَّسون على البيوت بأنَّه عليمٌ بما يعملون

في قوله تعالى: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أخبر اللّه ﷻ بإحاطة علمه بكلِّ شيءٍ، فقوله: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، أيْ: بما تأتون وما تذرون ممّا خوطبتم به، فيجازيكم عليه، وفي ذلك توعُّدٌ لأهل التَّجسُّس على البيوت وطلب الدُّخول على الآخرين والنَّظر لما لا يحلُّ[1].

دلالة (الباء) في ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ جاءت الباء للإلصاق، فعِلمُ اللّه ملتصقٌ بأعمالكم، فلا يعزب عن علمه مثقالُ ذرَّة من أعمالكم، ولا يخفى عليه شيءٌ من ذلك.

دلالةُ (ما) وبلاغةُ استعمالها:

سعة علمِ اللهِ لجميعِ أفعالِ البشرِ في هذا الكونِ عبر العصورِ

(ما) قوله تعالى: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، اسم موصول بمعنى (الَّذي)، وتأتي لصفات مَنْ يعقل، والأسماء الموصولة من صيغ العموم، فأفادتِ الدَّلالة على عموم أعمالِ النّاس، فاللّه تعالى عالمٌ بجميعِ أعمالِ النّاسِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 32.

بلاغةُ اختيارِ مُفردةِ (العملِ) دون (الفعل):

علمُ اللهِ بأعمالِ عبادهِ المؤثِّرةِ في الحياة

اختيارُ مفردة (العمل) في قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾، فـ(العَمَل) إيجادُ الأثرِ في الشَّيْء، يُقال: فلان يعْملُ الطّين خزفًا، ويعْمل الخوص زنبيلًا، والأديم سقاءً، ولا يُقال: يفعل ذَلِك؛ لِأَنَّ فعل ذَلِك الشَّيْء هوَ إيجاده على ما ذكر هنا، وقالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [الصّافّات: 96]، أَيْ: خَلقكُم، وخلق ما تؤثرون فيهِ بنحتكم إيّاه ...، ومن الأَفْعال ما يَقع في علاجٍ وتعبٍ واحتيالٍ[1]، فما تُحدثونه من أثرٍ في هذه الحياة، فاللّه عليمٌ به وعليمٌ بآثاره.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ دلَّ الفعل المضارع على التَّجدُّد مع الزَّمن، فاللّه عليمٌ بكلِّ ما تعملون، وما يتجدَّد من أعمالكم في كلِّ وقتٍ، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [الصّافّات: 96].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة المبالغة ﴿عَلِيمٞ﴾:

عِلْمُ اللهِ مُحيطٌ بما عَمِلَ النّاسُ وما سيعملون

أفادَ التَّعبيرُ بصيغة المبالغة ﴿عَلِيمٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ أنَّ علمه ﷻ قد شمل كلَّ شيءٍ، بل سبق كلَّ شيءٍ على وجه الوجود، فعَلِم أنَّه سيحدث، بل هو الَّذي قدَّر حدوثه، وأنَّه لا شَيء يحدث بلا علمه وتقديره، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [الصّافّات: 96]، فقد أحاط علمه بتلك الأعمال التي تقومون بها قبل خلقكم ووجودكم.

نكتةُ تقديم ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على ﴿عَلِيمٞ﴾:

تـوعُّـدُ أهـلِ التَّجسُّس بما يستحقّون من الجزاء الوِفاق

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ أفاد تقديم ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ استدعاءَ أن يستحضر الإنسانُ أنَّ أعمالَه كلَّها صغيرها وكبيرها لا يخفى على اللّه منها شيءٌ، كما أنَّ فيها إشعارًا بالوعيد

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 135.

لأهل التَّجسُّس على البيوت وطلب الدُّخول على غفلةٍ للمعاصي، والنَّظر إلى ما لا يحلُّ، ولا يجوز، ولغيرهم ممَّن يقع في محظور[1].

بلاغةُ التَّذييلِ في آخرِ السّياقِ الجليلِ:

الزَّجرُ بالوعيدِ للمُثقلين المُلِحّين في الأذى والتَّنصُّت على المؤمنين

أتى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ تذييلًا لما سبق من الوصايا التي أشارت إليها الآية الكريمة، بتذكيرهم بأنَّ اللّهَ عليم بأعمالهم، ليزدجرَ أهل الإلحاح عن إلحاحهم بالتَّثقيل، وليزدجر أهلُ الحيَلِ والتَّجسُّس بالتَّطلُّع من الشُّقوق ونحوها[2]، أو بالتَّنصُّت من خارج البيوت على أهلها، كما أفاد هذا التَّعبيرُ أيضًا شمولَ حالات التَّجسُّس على البيوت الذي يُتيحه العصر الحديث من وسائلَ وتقنيّاتٍ مختلفة.

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 220.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 201.

﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩﴾ [النّور: 29]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين البيوتِ المسكونةِ والبيوتِ غيرِ المسكونةِ

لمّا ذَكَرَ اللّهُ تعالى حُكْمَ البيوتِ المسكونةِ؛ ناسب أنْ يذكرَ بعدها حُكمَ البيوت غيرِ المسكونةِ، فقال عزَّ من قائلٍ: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ﴾؛ وذلك لأنَّ المانعَ من الدُّخول إلّا بإذنٍ، زائلٌ عنها[1]، وليكون الحُكمُ شاملًا للأحوال كلِّها، فتكون بينهما مُقابلةٌ.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُبۡدُونَ﴾: (بدو) أصلٌ يدلُّ على ظهور الشَّيءِ، يُقال: بدا الشَّيءُ يبدو؛ إذا ظهر، فهو بادٍ، وسُمّي خلاف الحضر بدوًا من هذا؛ لأنَّهم في بَراز من الأرض، وليسوا في قرًى تسترهم أبنيتها[2]، وبَدا الشَّيءُ: ظهر ظهورًا بيِّنًا، قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ٤٧﴾ [الزُّمر: 47]، وقال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ [الزُّمر: 48][3]، وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾؛ وهو ما يظهر من أفعال الإنسان وأقوالِه، وهو عكس ما يُخفيه الإنسانُ وما يُسِرُّه.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

في الآية الكريمة تخصيصٌ بمنزلةِ الاستثناءِ من الأحكام، الَّتي اشتملت عليها الآيتانِ السّابقتان، والخطاب للمؤمنين، فليس ثمَّةَ حرجٌ أو إثمٌ في أن تدخلوا بغير استئذانٍ بيوتًا غير مُعدَّةٍ للسُّكنى؛ إذ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 359.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدو).
(3) الرّاغب، المُفردات: (بدا).

يرتادها النّاس طلبًا للانتفاع، واللّه تعالى وحده يعلم ما تُظهرونه، وما تُخفونه من أقوالٍ وأعمالٍ، وسيُحاسبكم عليها، فاحذروا أن تسلكوا مَسلَكًا لا يَرضاهُ خالقكم[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ التَّخصيصِ للعمومِ في الخطابِ:

تميُّزُ البُيوتِ المُعدَّةِ للسُّكنى عن غيرِها بما تتطلَّبه من حصانةٍ وحُرمةٍ

قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ﴾، هذا تخصيصٌ لعموم قوله: ﴿بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾ [النّور: 27] بالبيوت المُعدَّة للسُّكنى[2]، يخرج مخرجَ الاستثناء، والبُيوتُ المُعدَّة للسُّكنى معروفةٌ من طراز بنائها ومواقعها في الأحياء المسكونة، على خلاف البيوت غير المسكونة المُعدَّة لعموم النّاسِ.

دلالةُ لفظِ ﴿مَتَٰعٞ﴾ في: ﴿فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ﴾:

ما يُحقِّقُ الفائدةَ والرّاحةَ للإنسانِ؛ فهو المتاعُ المُنتَفعُ به

المتاع هو المنفعة كالاستكنان، أيِ: الاستتار من الحرِّ والبرد، وإيواء الرِّحال والسِّلع، والشِّراء والبيع[3]، ممّا يُحقِّق نفعًا، أو يدفع مكروهًا عن الإنسان، "وقوله: ﴿فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ﴾، أيْ: فيها حقُّ تمتُّعٍ وانتفاعٍ لكم، كالوقاية من الحرِّ والبرد، وكتبادل المنافع فيما بينكم بالبيع أو الشِّراء، وغير ذلك ممّا يتناسب مع وظيفة هذه البيوتِ غير المسكونة"[4].

غرضُ تقديمِ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ على ﴿جُنَاحٌ﴾:

رفعُ الحرجِ عن المُخاطَبين من مقاصدِ النَّصِّ المُبين

تقدّمت شبه الجملة ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ﴾ للاهتمام، ولفائدة عموم المخاطَبين، فقد رفعَ الحرجَ عن المُخاطَبين جميعًا، فلا يقع عليهم عتابٌ أو ملامةٌ أو إثمٌ؛ إن دخلوا

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 111 - 112.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 201 - 202.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 32.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 111.

تلك المواضع الَّتي لا تصلح للسَّكن، ولو قُدِّم لفظ ﴿جُنَاحٌ﴾؛ لاحتاج إلى النَّفي بـ (لا)، فأفاد هذا التَّركيبُ التَّأكيدَ على رفع الحَرَجِ عن المُخاطَبين في دخول مثل تلك المواضع.

سرُّ تنكيرِ لفظِ ﴿جُنَاحٌ﴾ في السّياق:

التَّهوينُ من شأنِ الفعلِ الموصوفِ بأنَّه لا جُناحَ على فاعِلِه

دلَّ قوله: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ﴾ على أهون الإثم أو العتب، فإنَّ ذلك من المُباحات للنّاس لما فيه من قضاء ضروراتهم، وما فيه متاعهم، فالتَّنكير في قوله: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ﴾؛ للتَّهوين من شأن ذلك العمل، كما أفاد أيضًا نفي الجناح بجميع أشكاله وأنواعه عنهم؛ لأنَّه نكرةٌ في سياق النَّفي فتفيد العموم.

نكتةُ إيثارِ لفظ (البيوت) على (المساكن):

بيانُ أنَّ المساكنَ ما كان فيها استقرارُ الأُسَرِ والعوائلِ

آثر الذِّكْرُ الحكيمُ استخدامَ لفظ (البيوت) على (المساكن)، في قوله تعالى: ﴿غَيۡرَ مَسۡكُونَةٍ﴾؛ لأنَّ البيوت الَّتي تستقرُّ فيها العوائلُ تُسمَّى (مساكن)، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنًا﴾ [النّحل: 80]، فالسَّكنُ فيه الاستقرار والطُّمأنينة للنّاس، أمّا (البيت)؛ فيُطلَق على البُنيان الَّذي قد يُتَّخذ للسُّكنى أو لشيءٍ آخر، ومثَّل العلماء لهذه البيوت أمثلةً، فقال بعضهم: هي الفنادق الَّتي في طرق المسافرين لا يسكنها أحدٌ، بل هي موقوفةٌ يأوي إليها كلُّ ابن سبيل، وفيها متاعٌ لهم، أيِ: استمتاع بمنفعتها، وقيل: هي حوانيت القيساريَّة والسّوق[1].

نكتةُ تنكيرِ ﴿بُيُوتًا﴾:

البُيوت العامَّة غير المُعدَّة للسُّكنى مُعدَّةٌ للانتفاع لا للاستقرار

بُيوتاتُ العَرَب: أحياؤها[2]، وفي قوله تعالى: ﴿بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٍ﴾، أفاد تنكير ﴿بُيُوتًا﴾ تهوينَ شأنِ تلك البُيوتِ الَّتي وُصفت بأنَّها غيرُ مسكونةٍ، أيْ: لم تُعدَّ للسَّكن أصلًا، مثل المحلّات والأسواق

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 32.
(2) الخليل، العين: (بيت): 8/ 138.

وما ذُكِرَ آنفًا، فهذه أُطلق عليها البُيوت، أمّا التَّنكير في قوله: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾ [النّور: 36]؛ فهو للتَّعظيم، قال الزَّجّاج: أراد المساجد، وقيل: يعني به بيتَ المقدسِ، قال أبو الحسن: وجمعه تعظيمًا وتفخيمًا[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿مَسۡكُونَةٍ﴾ دون (خالية):

الأبنيةُ العامَّة لا تكون خاليةً من النّاس؛ ولكنَّها غيرُ مسكونةٍ

قال تعالى: ﴿بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٍ﴾، ولم يقلْ: (بيوتًا خالية)، والرّاجح في علَّة ذلك أنَّ الخلوَّ هنا غير مُرادٍ؛ إذ أُريد بها المناطقُ والأبنية الَّتي لا تصلح بحدِّ ذاتها للسُّكنى، ولم توضع له، وإنَّما أُريد بها المناطقُ العامَّة الَّتي يجد النّاسُ لهم فيها متاعًا، فقد لا تكون خاليةً من النّاس، وهي غير مسكونةٍ أيضًا، فهي كالخانات وحوانيت البيّاعين والمرافق العامَّة المعهودة.

بلاغةُ الإطنابِ بجملةِ ﴿فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ﴾:

بيـانُ داعي دخولِ المساكنِ وأنَّ سعيَ المؤمنِ قصدٌ لا عبثٌ

جملة ﴿فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ﴾ إطنابٌ من قبيل الإيضاح بعد الإبهام، وذلك لبيان سبب دخولِكم إليها وتوضيحهِ، وهو أنَّ لكم فيها متاعًا، وإلّا فلا داعي للدُّخول، "وقد سأل الصِّدّيق أبو بكر ﵁ رسولَ اللّه ﷺ: يا رسول اللّه نحن قومٌ أهل تجارة، نذهب إلى بلادٍ ليس لنا فيها بيوتٌ ولا أهل، ونضطرُّ لأن ننزل في أماكن نضع فيها متاعنا، ونبيت بها، فنزلت هذه الآية"[2].

معنى (في) في قوله: ﴿فِيهَا﴾:

حرفُ الجرِّ (في) في قوله: ﴿فِيهَا مَتَٰعٞ﴾ للوعاء، فيكون في داخل هذه البيوت المتاعُ الَّذي تطلبون، وكلُّ مطلبٍ من مطالب الحياة يحتاجه النّاسُ هو متاعٌ لهم.

---

(1) ابن سيدَه، المُحكَم: (بيت): 9/ 524.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 169، والشّعراويّ، تفسير الشَّعراوي: 16/ 10247.

غرضُ تنكيرِ ﴿مَتَٰعٌ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿مَتَٰعٌ﴾ للتَّعميم بشمول أنواع ما يحتاج إليه النّاس في تلك الأماكن، وهي الأسواق والخانات والفنادق وغيرها، فيكون لهم فيها ما يستهوون من البيع والشّراء، والرّاحة والاستظلال، والطَّعام والشَّراب، وقضاء الحاجات وغير ذلك ممَّا يطلق عليه متاع.

عمومُ ما يحتاجُهُ النّاسُ في سفرٍ أو حَضَرٍ؛ فهو متاعٌ يُؤثر

دلالةُ (الواوِ) في ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ للاستئناف البيانيِّ، والجملةُ مُستأنفةٌ، في بيان حال من دخل تلك البيوتَ دون التزام بالقيود الشرعيَّة، فيأتي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ للتحذير من تجاوز القيود المذكورة، وهي كون البيوت غير مسكونة وكون الدَّاخل محتاجًا إلى دخولها، فمن دخلها بقصد سوء كقصد التَّجسُّس على قطَّانها أو بقصد أذاهم أو سرقة متاعهم[1]؛ فاللّه مطَّلع عليه مجازيه على عمله.

التَّنبيهُ إلى استحضارِ مراقبةِ اللهِ وعلمِهِ بخَلْقِهِ

بلاغةُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ (الله):

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ وُضِع الظّاهرُ موضع المُضمَر؛ إذ قد سبق اسمه في الآية السابقة، ولقصد إحضار اسمِهِ العَلَم في الأذهان؛ ليكون حاضرًا في القلوب دائمًا، ولتقوية داعي المأمور به؛ إذ المقام مقامُ تشريعٍ، فيناسبه التَّحذيرُ والتَّرهيب، قال ابن عاشور: "وجملة: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ مُستعملةٌ في التَّحذير من تجاوُزِ ما أشارت إليه الآيةُ من القيود، وهي كون البيوت غيرَ مسكونةٍ، وكون الدّاخل مُحتاجًا إلى دخولها، بله أن يدخلها بقصدِ التَّجسُّس على قُطّانها، أو بقصد أذاهم، أو سرقة متاعهم"[2].

التَّذكيرُ باللهِ وبعلمِهِ وبمراقبتِهِ بحيث لا تخفى عنه خافيةٌ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/203.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 203.

سَعَةُ علمِ اللهِ لا حدودَ لها، ولا نهايةَ لكَمالِها

نوعُ ﴿مَا﴾ ودلالتُها في ﴿مَا تُبۡدُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿مَا تُبۡدُونَ﴾، جاءت ﴿مَا﴾ اسمَ موصولٍ بمعنى (الَّذي)، وهي تقع على ذوات ما لا يعقل، وعلى صفات مَنْ يعقل، كما هي في هذه الآية، والموصولات عمومًا من صيغ العموم، ولأنَّ بناءَ (ما) يوافق استعمالها المُتَّسع، فإنَّ ألفها المتَّسعة تشاكل الاتِّساع في المعنى الَّذي تُفيده، فأفادت ﴿مَا﴾ هنا اتِّساعَ عِلمِ اللّهِ تعالى لما يبدون وما يكتمون.

الإبــداءُ إظـهـارُ الــشَّيءِ بـغـيرِ قصدٍ

بلاغةُ اختيارِ (الإبداء) دونَ (الإظهار):

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾ أوثرت لفظةُ الإبداء دون ما يناظرها مثل الإظهار؛ لأنَّ الإبداء من البُدوِّ، وهو ظهور الشَّيء، وسُمّي خلاف الحَضَر بَدوًا من هذا؛ لأنَّهم في بَراز من الأرض، وليسوا في قرًى تسترهم أبنيتها، والباديةُ خلاف الحاضرة[1]، والفرقُ بينهما في المعنى: أنَّ الظَّهور يكون بقصدٍ وبغير قصدٍ، تقول: استترَ فلانٌ، ثمَّ ظهر، ويدلُّ هذا على قصده للظُّهور، ويُقالُ: ظهر أمرُ فلانٍ، وإنْ لم يقصد لذلك، والبُدُوُّ ما يكون بغير قصدٍ، تقول: بدا البرقُ، وبدا الصُّبحُ، وبدت الشَّمسُ، وبدا لي في الشَّيءِ؛ لأنَّك لم تقصد للبُدوِّ[2]، فدلَّ قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾ يعلم ما تُظهرون بغير قصد، أمّا لو قال: (يعلم ما تُظهرون)؛ لاحتمل ذلك أن يكون الظّاهر بقصدٍ منكم وبغير قصدٍ، فدلَّ ﴿مَا تُبۡدُونَ﴾ على عدم وجود نيَّة الإظهار، فدلَّ ذلك على علمه تعالى بما ظهر منكم بوجود النّيَّة والقصد بطريق الفحوى، والتَّنبيه بالأدنى على الأعلى.

استـغـراقُ علمِ اللهِ كـلَّ أفعالِ الإبداءِ والكتمانِ

نكتةُ تكرارِ (ما) في السّياق المُحكَم:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ تكرَّر الاسم الموصول (ما)،

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدو).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 287.

الَّذي يدلُّ على العموم والاتِّساع، فيعكس سَعةَ علم اللهِ بما تكتُمون، كما هو علْمٌ واسعٌ بما تُبدون سواء بسواء؛ ليدلَّ ذلك على التَّوازن بين المَعنيَيْن؛ فهو يعلم كلَّ ما تُبدون، وكلَّ ما تكتُمون، وعلمه شاملٌ لكلِّ أنواعِ الأعمالِ الظّاهرةِ والباطنةِ على حدٍّ سواءٍ.

بلاغةُ اختيارِ مُفردةِ (الكتمان) دونَ (الإخفاء):

يـدلُّ الـكـتـمانُ عــلى إغــلاقِ الـنَّـفـسِ على الـسِّـرِّ وإخـفـاءِ المعاني

والكِتْمانُ: نقيضُ الإعلان[1]، وكتمتُ السِّرَّ كَتْمًا وكِتمانًا[2]، فيدلُّ الكِتْمان على حالة إغلاق النَّفس على السِّرِّ وإخفاء المعاني، وأمّا الإخفاء؛ فهو أعمُّ من الكتمانِ؛ إذ الفرق بين الكتمان والإخفاء: أنَّ الكِتْمانَ يختصُّ بالمعاني، كالأسرار والأخبار والأحاديث، والإخفاء يكون في ذلك وفي غيره، والشّاهد أنَّك تقول: أخفيتُ الدِّرْهم في الثَّوب، ولا تقولُ: كتمتُ ذلك[3]، ولما كان المقامُ مقامَ التَّحذير من كتمان الأسرار الخبيثة في الأنفس الشِّرِّيرة من اطِّلاع العورات، والتَّجسُّس على أهل الأبيات ونحو ذلك؛ استعمل اللَّفظ الخاصَّ به الذي لا يحتمل إلّا المعنى المقصود؛ لكونه أدلَّ على المُراد.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَكۡتُمُونَ﴾:

تحرصُ الأنفسُ عــلى كــتــمــانِ أفعالِها حرصًا عـلى مظهرِها وسُمعتِها

في قوله تعالى: ﴿تَكۡتُمُونَ﴾ يدلُّ الفعل المضارع على التَّجدُّد مع الزَّمن؛ لأنَّ النَّفس مجبولةٌ على كتمانِ كثيرٍ من أعمالِها، وخاصَّة تلك الَّتي تُصنَّف على أنَّها من الخطايا والآثام، وما لا ينبغي أن يطَّلع عليها النّاس، فما يكتمه الإنسان في نفسه قد يفوق ما يُبديه، وأفعال الكتمان تتجدَّد في نفس الإنسانِ مع مُجرياتِ الأحداثِ.

بلاغةُ الطِّباقِ بين (الإبداء) و(الكتمان):

شمولُ علمِ اللهِ تـعـالى وأنَّــه لا يشذُّ عن علمِهِ شيءٌ

الإبداء والكتمانُ ضدّان، وفي قوله تعالى: ﴿مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ دلَّ وصفُهُ تعالى بعلم هذَيْن الأمرَيْن المُتضادَّيْن على

(1) الخليل، العين: (كتم).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (كتم).
(3) الرّاغب، المُفردات، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة: (كتم).

إحاطة علمهِ بكلِّ الحالاتِ البشريَّةِ الظاهرةِ والباطنةِ، وأنَّه لا يعزبُ عنه شيءٌ ممّا يُظهره النّاس، وممّا يُخفونه، ويكتمونه في أنفسهم، وفي هذا وعيد عظيم، وتوجيه للعبد أن يكون ظاهره وباطنه سواء في الصلاح والإخلاص.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإبداء والإظهار:

الإبداءُ إظهارٌ بلا قصدٍ وبلا تحفُّظٍ، ويكون أكثرَ في الأفعالِ والأقوالِ

الإبداءُ يدلُّ على ظهور الشَّيء[1]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾، هو ما يظهر من أفعال الإنسان وأقواله دون تحرُّزٍ أو تحفُّظ، وهو عكس ما يخفيه الإنسان، وما يسرُّه، أمّا الإظهار؛ فـ (ظهر)، يدلُّ على قوَّةٍ وبروزٍ، من ذلك: ظهر الشَّيءُ يظهرُ ظهورًا، فهو ظاهرٌ؛ إذا انكشفَ، وبرزَ، ولذلك سُمّي وقتُ الظُّهر والظَّهيرة، وهو أظهرُ أوقات النَّهار وأضوؤها، والأصل فيه كلُّه ظَهْرُ الإنسان، وهو خلاف بطنِه[2]، فالظَّهر الجارحة، وجمعه: ظُهورٌ، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ١٠﴾ [الانشقاق: 10][3]، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [الرّوم: 41] والظُّهور: الغلبة، قال تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾ [الصَّفّ: 14].

والظِّهري كلُّ شيءٍ تجعله بظَهرٍ، أيْ: تنساه، كأنَّك قد جعلته خلف ظهرك إعراضًا عنه وتركًا له، قال اللّه سبحانه: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ [هود: 92]، وقد جعل فلانٌ حاجتي بظهرٍ؛ إذا لم يقبل عليها، بل جعلها وراءه، وحكى ابن دُرَيْد: تظاهرَ القومُ؛ إذا تدابروا، فهو من الأضداد[4].

الكتمان والإخفاء:

الكِتْمانُ والإخفاءُ يدلّان على السَّترِ والتَّغطيةِ

(كتم): يدلُّ على إخفاءٍ وسترٍ، من ذلك: كتمتُ الحديثَ كَتْمًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدو).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظهر).

(3) الرّاغب، المُفردات: (ظهر).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظهر).

وكِتْمانًا[1]، قال تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النِّساء: 42]، وسحاب مُكتتَمٌ: لا رعد فيه[2]، و(خفي) الخاء والفاء والياء أصلان متباينان متضادّان، فالأوَّلُ: السَّتر، والثّاني: الإظهار، فالأوَّلُ: خفي الشَّيء يخفى، وأخفيتُه؛ إذا سترتَهُ، ويقولون: برح الخفاءُ، أيْ: وضح السِّرُّ، وبدا، والأصل الآخر: خفا البرق خفوًا؛ إذا لمع، ويكون ذلك في أدنى ضعف، ويُقال: خفيتُ الشَّيء (بغير ألف)؛ إذا أظهرته، ويُقرأ على هذا التَّأويل: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: 15]، أيْ: أظهرها[3]، وعليه فالإخفاءُ من الأضداد، وفيه معنى الظُّهور والخفاء.

البيت والمسكن:

البيتُ مكانُ اجتماعِ الشَّملِ والتقاء ذوي القُربى

(بيت) أصلُ البيتِ مأوى الإنسان باللَّيل[4]، وهو المأوى والمآب، ومجمع الشَّمل، وملتقى الأحباب، يُقال: بيتٌ وبيوتٌ وأبياتٌ، ومنه يُقالُ لبيت الشِّعْرِ: بيتٌ على التَّشبيه؛ لأنَّه مجمع الألفاظ والحروف والمعاني على شرطٍ مخصوصٍ وهو الوزنُ، قال تعالى: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النِّساء: 108]، أيْ: حين يجتمعون في بيوتهم، غير أنَّ ذلك خاصٌّ باللَّيل[5].

أمّا الأصل (سكن)؛ فيدلُّ على خلاف الاضطراب والحركة، وهو سكون الشَّيء بعد تحرُّكٍ[6]، يُقال: سكن الشَّيءُ، والسَّكن: الأهل الَّذين يسكنون الدّار، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النَّحل: 80]، والسَّكن: كلُّ ما سكنتَ إليه من محبوبٍ، والسَّكينة، وهو الوقار، وسُكّانُ السَّفينة سُمّي؛ لأنَّه يُسكنُها عن الاضطرابِ[7].

(1) الرّاغب، المُفردات: (كتم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كتم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خفي).
(4) الرّاغب، المُفردات: (كتم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بيت).
(6) الرّاغب، المُفردات: (سكن).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سكن).

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠﴾ [النّور: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين استئذانِ النّاسِ وبين غضِّ البصرِ وحفظِ الفروجِ

أتى قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ بذِكْر السَّتر ما يتعلَّق به من أمر النَّظر(1)، فبعد أنْ نَهَى سبحانه عن دخولِ البيوت المسكونة إلّا بعد استئذانٍ واستئناسٍ من أهلها، وما ذاك إلّا لحفظ أعراض النّاس لخصوصيّاتهم وأمتعتهم؛ ناسبَ هُنا أن يأمر المؤمنين بغضِّ البَصَرِ وحفظِ الفَرْج عمّا حرَّم اللّهُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَغُضُّوا۟﴾: (غضّ) أصلانِ صحيحانِ، يدلُّ أحدُهما على كفٍّ ونَقْص، والآخرُ على طراوةٍ، فالأوَّل الغَضُّ: غضُّ البصر، وكلُّ شيءٍ كففتَهُ؛ فقد غَضَضْتَهُ، والأصلُ الآخر: الغَضُّ: الطَّريُّ من كلِّ شيءٍ، ويُقال للطَّلْع حين يطلُعُ: غَضيض(2)، والغَضُّ والغَضاضة: الفتور في الطَّرف، وأَغْضَى إغضاءً، أيْ: دانى بين جَفنَيْه ولم يُلاقِ، وفي الآية: ﴿يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾، دلَّ على كفِّ البصر عمّا حرَّم اللّه تعالى، وتدلُّ كذلك على الفتور في الطَّرْف والمداناة بين الجفنَيْن(3).

2) ﴿وَيَحْفَظُوا۟﴾: (حفظ) أصلٌ يدلُّ على مراعاةِ الشَّيء، يُقال: حَفِظْتُ الشَّيءَ حِفْظًا، والغَضَبُ: الحفيظة، وذلك أنَّ تلك الحالَ تدعو إلى مراعاة الشَّيء، والتَّحفُّظ: قلَّة الغفلة، والحِفاظ: المحافَظة على الأمور(4)، وقوله تعالى: ﴿وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ عمّا حرَّم اللّه من الزِّنى.

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 222.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غض).
(3) الخليل، العين: (غضّ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حفظ).

3) ﴿أَزۡكَىٰ﴾: (زكي) و(زكو): الزَّكاة للمال، وسُمّيت بذلك إذْ تُرجى بها زيادة المال ونماؤُه، وسُمّيت زكاةً؛ لأنَّها طُهْرَةٌ[1]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ﴾، أيْ: أطهر لكم ولنفوسكم، ولا شكَّ أنَّ غضَّ البصرِ وحفظ الفَرْجِ، ممّا تتزكّى به النَّفس، وبزَكاءِ النَّفس وطهارتها يصير الإنسان مُستحقًّا في الدُّنيا الأوصافَ المحمودةَ، وفي الآخرة الأجرَ والمثوبةَ، وهو أن يتحرّى الإنسان ما فيه تطهيره[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

شمولُ الآيةِ ما يحفظُ الإنسانَ مــن غــضٍّ للأبصارِ وحفظِ للفُروجِ

في الآية بيانٌ لأحكامٍ كليَّةٍ شاملةٍ للمؤمنين كافَّةً يندرج فيها حُكمُ المستأذنين عند دخول البيوت اندراجًا أوّليًّا، وهي قضيَّة غضِّ البصر وحفظ الفَرْج، فقوله تعالى: ﴿يَغُضُّواْ﴾ من الغضِّ بمعنى الخفض، ومنع البصر من التَّطلُّع إلى ما لا يحلُّ النَّظر إليه، والمعنى: قل أيُّها الرَّسول الكريم للمؤمنين بأن يغضّوا من أبصارهم عمّا يَحرُم أو يُكرهُ النَّظر إليه، وبأنْ يحفظوا فروجهم عمّا لا يحلُّ لهم، فإنَّ ذلك دليلٌ على كمال الإيمان، وعلى حُسن المراقبة وشدَّة الخوف من اللّه تعالى[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصلِ الجملةِ عن سابقتِها:

الـجـامـعُ بين الجملتَيْن مراعاةُ آدابِ التَّعاملِ الإسلاميِّ

فصلت هذه الجملة: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ عن سابقتها، لأنَّها استئناف يتضمَّن أحكامًا أخرى، وآدابًا جديدة من الآداب اللّازمة حين المخالطة والمجالسة، فبعد أن ذكر سبحانه آداب الدخول؛ ذكر هنا ما ينبغي أن يكون بعد الدخول وهو أن لا يكون الداخل إلى البيت محدِّقًا بصره إلى امرأة فيه، بل إذا جالسته

---

(1) ابن فارس، مجمل اللّغة: (زكو).
(2) الرّاغب، المُفردات: (زكا).
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 115 - 116.

المرأة غضَّ بصره، واقتصر على الكلام، ولا ينظر إليها إلَّا النَّظر الذي يعسر صرفه[1].

دلالةُ فعل الأمرِ ﴿قُل﴾ في السّياق:

من شأنِ المؤمن المُلتزم الحياءُ والعفَّةُ عن كلِّ ما حرَّم

أفاد أمره تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ وجوبَ امتثال ما جاء بعد الأمر بالقول، فغضُّ البَصَرِ وحفظُ الفَرْجِ من الأمورِ الواجبةِ على المؤمنين وعلى النّاس جميعًا، وهو من قبيل الأخلاق الاجتماعيَّة، لكنَّها هنا أفادت الإرشادَ التَّربويَّ وما تقتضيه تربيةُ النَّفس وتزكيَتُها، وجاء التَّعبيرُ بـ ﴿قُل﴾ للإشعار بأنَّ المؤمنين الصّادقين من شأنهم، إذا ما أمرهم الرَّسول ﷺ بأمر، فإنَّهم سَرَعان ما يمتثلون، ويُطيعون؛ لأنَّه ﷺ مُبلِّغٌ عن الله تعالى الَّذي يجبُ الامتثال لأمره ونهيه[2].

دلالةُ تعيينِ المخاطَبِ في: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

ديدنُ المؤمنين عند الخطابِ الانصياعُ وسرعةُ الجوابِ

في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، خصَّ المؤمنين بهذا الأمر؛ لأنَّهم أَوْلى النّاس بالمخاطبة وبالإرشاد إلى ما يرفع الدَّرجات، وفي خطابهم بصفة الإيمان تذكير لهم بما ينبغي أن يكون عليه المؤمن الحقُّ من أخلاق حسنة كاملة، فإن كنتم من أهل الإيمان فالتزموا بأوامر الله تعالى وآدابه.

دلالةُ (اللّام) في شبهِ الجملةِ: ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

اختصاصُ المؤمنين بالتَّبليغِ تحديدٌ للجهةِ المخاطَبةِ بالبلاغِ

اللّام في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ للتَّبليغ، وهي الجارَّة لاسم السّامع لقولٍ أو ما في معناه، نحو: قلتُ له[3]، وللاختصاص؛ فجاءت لتخصيص المؤمنين بالتَّبليغ بما يُزكّي أنفسهم، ويحفظ سريرتهم وعلانيَّتهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/203.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 115 - 116.
(3) ابن هشام، المُغني: 1/ 213.

نكتةُ إيثارِ ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دونَ (للمسلمين):

الإسلامُ الكلمةُ، والإيمانُ العملُ

آثر السّياقُ الحكيم في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ التعبيرَ بـ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ولم يقلْ: (قل للمسلمين)؛ ولعلَّ السِّرَّ في ذلك أنَّ الإيمان مرتبةٌ فوق مرتبةِ الإسلام كما هو معلوم، فمَنْ لم يغضَّ بصره، ويحفظ فرْجَهُ؛ فليس بمؤمنٍ، إذْ لم يمتثل بمقْتضى الإيمان، فيكون بذلك فاسقًا مُتوعَّدًا بالعقاب، ولو جاء النَّظْم الكريم: (قل للمسلمين)؛ للزمَ ألّا يكونَ مَنِ ارتكب هذه المُحرَّمات مسلمًا، بل يخرج إلى دائرة الكفر؛ لإخلاله لمقتضى الإسلام الذي هو أدنى مراتب الإيمان، وليس ذلك مُرادًا.

بلاغةُ التَّعبير بمُفردة (الغضّ):

يحتملُ الغضُّ معنى فتورِ الطَّرفِ وتحويلِ الوِجْهة

من بلاغة استعمال فعل الغضِّ - في قوله: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ﴾ - أنَّها استُعمِلت لأكثر من معنًى، **الأوّل**: الفتور في الطَّرف، وما يدلُّ على المداناة بين الجفنَيْن، وعدم ملاحقةِ النَّظر، **والثّاني**: تحويل النَّظر إلى وجهةٍ أخرى، فيكون الغضُّ كنايةً عن تحويلِ الوجهةِ، ويُؤكِّده ما ورد في البخاريِّ: وقال سعيد بن أبي الحسن للحسن: إنَّ نساء العجم يكشفن صدورهنَّ ورؤوسهنَّ؟ قال: اصرف بصرك، يقول الله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾، وقال قتادة: عمّا لا يحلُّ لهم[1].

دلالةُ ﴿مِنۡ﴾ في شبهِ الجملة: ﴿مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾:

تعدُّدُ معاني حرفِ المعنى مُفيدٌ في البيانِ

قولُه تعالى: ﴿مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾؛ ﴿مِنۡ﴾ زائدة[2] للتَّوكيد، والمعنى: يغضّوا أبصارهم عمّا يَحْرُمُ، أو هي للتَّبعيض؛ لأنَّ من النَّظر ما يُباح، والمُراد غضُّ البصر عمّا يَحرُم، والاقتصار على ما يحلُّ[3]،

(1) البخاريّ، صحيح البخاري، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النور: 27]، 5/ 2299، والحديث ترجمة للباب.

(2) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 13/ 726.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 360.

وذلك أنَّ أوَّل نظرةٍ لا يملكها الإنسان، وإنَّما يغضّ فيما بعد ذلك[1]، ويُؤيِّده الحديث: «لا تُتبعِ النَّظرةَ النَّظرةَ، فإنَّ الأولى لك، وليست لك الثّانية»[2]، وقال ابن عطيَّةَ: يصحُّ أن تكون ﴿مِنۡ﴾ لبيان الجنس، ويصحُّ أن تكون لابتداء الغاية[3].

سِرُّ تخصيصِ غضِّ البصر:

العلاقةُ طرديَّةٌ بين غضِّ البصرِ وزيادةِ الإيمانِ

البصرُ هو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمَرُ طرق الحواسِّ إليه، وبحسب ذلك كثر السُّقوط من جهته، ووجب التَّحذير منه، وغضُّه واجبٌ عن جميع المحرَّمات، وكلِّ ما تُخشى الفتنةُ من أجله[4]، واستدعاءُ الإيمانِ مع الأمرِ بغضِّ البصر لما بينهما من علاقةٍ وثيقةٍ، يقول القاسميُّ: "وإذا استنار القلب؛ أقبلت وفودُ الخيرات إليه من كلِّ جانبٍ، كما أنَّه إذا أظلم؛ أقبلت سحائبُ البلاء والشَّرِّ عليه من كلِّ مكانٍ ...، فإذا فُقد ذلك النّور؛ بقي صاحبه كالأعمى الَّذي يجوس في حنادس الظَّلام"[5].

غرضُ جمعِ لفظِ ﴿أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾:

مناسبةُ الخطابِ لجماعةِ المؤمنين مفيدٌ في إيجازِ الكلامِ

في قوله تعالى: ﴿يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ جُمعت (الأبصار)، ولم يقلِ السّياق الحكيم: (من بصرهم) أو (من البصر)؛ وذلك أنَّه إذا تقابل جمعان في كلام العرب؛ احتمل أن يكونَ من مقابلة كلِّ فردٍ من أفراد الجمع بكلِّ فردٍ من أفراد الجمعِ الآخر على التَّوزيع، وهي طريقةٌ شائعة في الإخبار عن الجماعات، ومنه قولهم: ركب القومُ دوابَّهم، أيْ: ركبَ كلٌّ واحدٍ دابَّته، ومنه قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [التّحريم: 6]، واحتمل أن يكونَ كذلك لكن على معنى أنَّ كلَّ فردٍ يُقابل

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 32.
(2) أبو داود، سنن أبي داود، حديث رقم: (2149).
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 177.
(4) الحاكم، المُستدرك، كتاب الرّقائق، رقم الحديث: 7875: 4/ 349، هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 372.

بفرد غيره لا بفرد نفسه، نحو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النّور: 61]، واحتمل أن يكون من مقابلة كلِّ فردٍ بجميع الأفرادِ نحو قوله: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [غافر: 9]، والتَّعويل في ذلك على القرائن[1]، والجمعان هنا من النَّوع الأول، بأنَّ المُرادَ بالأبصار: أبصارُ المؤمنين، باعتبار التَّوزيع بين أفرادِ ضمير الجماعة في قوله: ﴿أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ وبين أفراد المؤمنين، وقل مثله في الجمع في قوله تعالى: ﴿فُرُوجَهُمۡۚ﴾، وفائدة تقابُلِ الجمعين بيانُ أنَّ الخطاب للجميع، فلا يقلْ أحدٌ: إنّي في منأًى عن الفتنة، فالأمر بغضِّ الأبصار وحفظ الفروج موجَّهٌ إلى جميع المؤمنين.

دلالةُ إضافةِ ﴿أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ و﴿فُرُوجَهُمۡۚ﴾ لضمير الجمع:

بيانُ قدرة الإنسانِ على التَّحكُّمِ ببصرِه وفَرْجِهِ

إضافةُ الأبصار والفروج لضمير الجمع هي بمعنى اللّام، فالأبصارُ والفروج هي ملك للمُخاطَبين، وذلك للدَّلالة على قدرة الإنسان، وأنَّ له مشيئةً في اختيار الفعل وتركه، وقدرةً على التَّحكُّم بتوجيه نظره، وصرف بصره، وحفظ فرجه، كما يدلُّ ذلك أيضًا على تنبيه المخاطَبين على المسؤولية في حفظ أبصارهم وفروجهم ممّا يغضب اللّه تعالى، وعدم الانجرار وراء شهواتهم.

دلالةُ عطفِ حفظِ الفروجِ على غضِّ الأبصارِ:

العلاقةُ بين النَّظرِ الحرامِ والفاحشةِ علاقةُ السَّببِ بالمسبَّبِ

في قوله تعالى: ﴿يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾ عُطِفَ حفظُ الفروج على غضِّ الأبصار، وجُمع بينهما بحرف الجمع (الواو)؛ للدَّلالة على ارتباط قضيَّة غضِّ البصر بحفظ الفَرْج، وكأنَّهما شيءٌ واحدٌ، وذلك فيه مبالغةٌ في إفهامِ المُخاطَبين أنَّ النَّظر الحرام سريعًا ما يُؤدّي إلى ارتكاب المحرَّمات، كالزِّنى وما يجرُّ للزِّنى.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 189.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿وَيَحۡفَظُواْ﴾:

الحِرصُ على حفظِ النَّفس من الزِّنى منهجٌ في العفَّةِ جليلٌ

جاء قوله تعالى: ﴿وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾ بصيغة المضارع لفائدة تجدُّد الاهتمام بحفظ الفروج؛ خشية الوقوع في المحظور، وأنَّ وساوس الشَّيطان مُستمرَّةٌ مُتناوبةٌ على بني آدم يُريد إيقاعه في المُحرَّمات والزِّنى، فاقتضى ذلك تجدُّد حرصِ المؤمن على حفظ فرْجِه من مراتع الزِّنى.

غرضُ جمعِ لفظِ ﴿فُرُوجَهُمۡۚ﴾:

الاحتشامُ صفةُ المجتمعِ المؤمنِ الحَيِيِّ

جُمعت (الفروج) في قوله: ﴿وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾ انسجامًا وتناسبًا مع خطاب جماعة المؤمنين، ولبيان أنَّ الخطاب عامٌّ للجميع، فلا يقلْ أحدٌ: إنّي في منأًى عن الفتنة، فجميعُ المؤمنين موجَّهٌ الأمرُ إليهم في حفظ الفُروج، كما هو في حفظ الأبصار، ثمَّ ما في حفظ الفُروج من دلالة الاستتار والاحتشام باعتبارهِ صفةً من صفات المجتمع المؤمن باللّٰه تعالى.

فائدةُ دخولِ ﴿مِنۡ﴾ على (الأبصار) دون (الفروج):

أمرُ غضِّ البصرِ أوسعُ من حفظِ الفَرْجِ

في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾، من الأسرار الَّتي تَدُقُّ على الأفهام، دخول ﴿مِنۡ﴾ الجارَّة على غضِّ الأبصار دون حفظ الفروج[1]، والسِّرُّ في ذلك أنَّ أمر النَّظر أوسع لأنَّ منه المباح ومنه المحرَّم، فالمحارمُ لا بأس بالنَّظر إلى شعورهن وصدورهن، وكذا الجواري المُستعرَضات، ويَنظرُ من الأجنبيَّة إلى وجهها وكفَّيْها، وأمّا أمر الفَرْجِ؛ فمُضَيَّقٌ.

بلاغةُ تقديمِ غضِّ الأبصارِ على حفظِ الفروجِ:

النَّظرُ بريدُ الزِّنى، ومن متابعةِ النَّظرِ يكونُ الخطرُ

قُدِّم غضُّ الأبصارِ على حفظِ الفروجِ؛ لأنَّ النَّظر بريدُ الزِّنى ورائد الفجور[2]، وإنَّما بداية الشَّهوة عمومًا تكون بإتباع النَّظرةِ

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 18/ 256.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 363.

النَّظرةَ، فيعتاد النّاظر على ذلك، ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه، وهو الباب الأكبرُ إلى القلب، وأعمرُ طُرُقِ الحواس إليه[1]، فلمّا كان النَّظرُ ذريعةً للزِّنى؛ قصَدَ المتذرَّعَ إليه بالحفظ تنبيهًا على المبالغة في غضِّ الأبصار في محاسن النِّساء، فالمُراد بحفظ الفروج حفظُها من أن تُباشِرَ غير ما أباحه الدّين[2]، وبلاغة التَّقديم والتَّأخير - في الأمر بحفظ الفَرْجِ عقب الأمر بغضِّ البصر - جاءت على طريقة التَّرقّي.

نكتةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

تعظيمُ شأنِ المُشارِ إليه، وهو تزكيةُ النَّفسِ المعلومةِ لديه

اسم الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ يرجع إلى المذكور، أيْ: ذلك المذكور من غضِّ الأبصار وحفظ الفروج[3]، والأصلُ في اسم الاشارةِ أن يُشارَ به إلى الأشياء المشاهدةِ المحسوسة، واستعماله في غير ما يُدركُهُ الحسُّ مجازٌ لتنزيله منزلةَ المحسوس[4]، فنكتةُ استعمال اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ - في قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۚ﴾ - تمييز الشَّيء المقصود أكملَ تمييزٍ بالإشارة المحسوسة إليه، وتنزيل الأشياء المعقولة منزلةَ المحسوسة المشاهدة، وفائدة ذلك هو تعظيمُ شأن المُشار إليه باعتباره الأصل في هذا الخطاب، فمَنْ غضَّ البصرَ، وحفظَ الفَرْجَ؛ فقد زكَّى نفسه.

بلاغةُ النَّشْرِ المُجملِ:

بيانُ أهمِّ العناصرِ في تزكيةِ النَّفسِ وصيانتِها

الآيةُ من قبيل اللَّف والنَّشر، إذْ ذُكرت عناصر تزكيَةِ النَّفس، وهي غضُّ البصر وحفظ الفَرْجِ، ثمَّ نشرها مُجملةً في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ فأفاد ذلك أنَّ النَّفس لا ترقى إلى التَّزكية إلّا بشيئَيْن رئيسَيْن، هما: غضُّ البصر وحفظُ الفَرْجِ مجتمعَيْن، ثمَّ تأتي الأمور الأخرى تباعًا.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 33.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 204.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 204.

(4) الرّضيّ، الرّضي على الكافية: 2/ 30.

بلاغةُ الجملةِ الاسميَّة ﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ﴾:

الـثَّـبـاتُ على الاسـتـقـامـة ضـمـانٌ لصون النَّفسِ إلى يوم القيامة

تدلُّ الجملة الاسميَّة على القوَّة والثَّبات، فقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ﴾ دالٌّ على أنَّ الالتزام بما أمر اللّه به من غضِّ البصر وحفظ الفرج في قوله تعالى: ﴿يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾، سببٌ عظيم من أسباب تزكية النَّفس وتطهيرها، وهكذا هو الالتزام بشرع اللّه تعالى وحفظ حدوده، فإنَّه كلّه طهر وتزكية؛ ويكون في تزكيَةِ النَّفس ثباتًا لها على الاستقامة والصُّمود، أمام مُغريات الحياة ممّا يعترض الإنسان من شهوات وملذّات؛ فيكون بحسب هذا التَّوجيه القرآنيِّ قد حاز الثَّبات والاستقرار أمامها، وحصَّن النَّفس بتزكيتِها، فدلَّ قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ﴾ على تمسُّكِهم بالتَّزكية والطُّهر، وهو ما يستحقّون به الثَّناءَ والمدحَ، ويُمكن أن يُقال: إنَّه تعالى خصَّ في الخطاب المؤمنين؛ لِما أراده من تزكيَتِهم بذلك، ولا يليق ذلك بالكافر.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ ﴿أَزۡكَىٰ﴾:

بـيـانُ مـلامـح الكرامةِ والتَّزكيةِ الشّاملةِ للأمَّةِ

قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ﴾ عبَّر بصيغة أفعل التَّفضيل لقصد المبالغةِ في التَّنويه بشأن هذا الفعل، وأثره في المجتمع، فإنَّ المُفاضلةَ في الحال الكليِّ، أي: الحال الَّذي يصله المؤمنون مع هذا الفعل، أزكى من أيِّ حال يصله مجتمعٌ آخرُ بدون هذه التَّوصيات، فغضُّ البصر وحفظُ الفَرْج أطهرُ في الدّين، وأبعدُ من دنس الأنام[1]، وهو الأمر الَّذي تميَّزت به المجتمعاتُ الإسلاميَّة عن سائر المجتمعات الأخرى، ممّا أورثها الكرامةَ والتَّزكية الشّاملة والطُّهر العامَّ، وذكر ابن عاشور أن اسمَ التَّفضيلِ في قوله: ﴿أَزۡكَىٰ﴾ مسلوبُ المفاضلة، والمُراد تقويةُ تلك التَّزكية؛ لأنَّ ذلك جُنَّةٌ من ارتكاب ذنوب عظيمةٍ[2].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 226.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 204.

نوعُ اللّامِ في ﴿لَهُمۡۚ﴾ ومعناها:

تحقيقُ مكاسبِ الإيمانِ والتَّزكيةِ

أراد قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ﴾ تحقيقَ كسبٍ لهم ناتج عن تلك الطّاعات في التَّزكية، وهي غضُّ البصر وحفظ الفَرْجِ، وفائدةً تتحقَّق لهم بسُموِّ الحياة وصيانة النَّفس عن ارتكاب الأخطاء، الَّتي قد تُؤدّي إلى ارتكاب الفواحش والكبائر، ومفادُ ﴿أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ﴾ أنَّ الغضَّ عمّا حرَّم اللّه تعالى النَّظر إليه وحفظ فُروجِهم عن الإفضاء بها إلى مُحرَّم، أو عن الإبداء والكشف هو غضٌّ وحفظٌ أطهر للنُّفوس، وأتقى لدين اللّه القدّوس[1].

غرضُ التَّوكيدِ في جملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾:

توعُّد غيرِ الملتزمِ بسوءِ المصيرِ وأخذه من العليم الخبير

خُتِمت الآيةُ بما ظاهرُهُ التَّوعُّد[2]، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾؛ لأنَّ التَّوكيد يأتي في خطاب مَنْ يكون في نفسِه شكٌّ، فأكَّد بمؤكِّدات، ودلَّ على توعُّد مَن لا يلتزم بهذه الأخلاق، بصرف النَّفس عن كرامة التَّزكية، وجرِّها إلى المُحرَّمات والموبقات، وهذا ما استحقَّ توعُّد المُخاطَبين.

غرضُ تقديمِ المُسنَدِ إليه على المُسنَد:

تحذيرُ المؤمنين من الوقوعِ في الموبقاتِ المُهلكاتِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾، أفاد التَّقديمُ هنا تقويةَ المعنى وتوكيده؛ إذ أفاد تقديم المُسنَد إليه ﴿ٱللَّهَ﴾ على المُسنَد: ﴿خَبِيرُۢ﴾ تقويةَ هذا المعنى، وهو عِلم اللّه وإحاطته بما تصنعه أيديهم من السّيئات، وفي العبارة تعريضٌ بالَّذين لا يحفظون أبصارهم وفروجهم، وينغمسون في شهوات الحياةِ، فاللّه تعالى خبيرٌ بما يصنع هؤلاء، فعلى المؤمنين أن يحذروا من عقاب اللّه تعالى.

بلاغةُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

التَّلذُّذُ بذِكرِ اللهِ تعالى من أرقى اللّذائذِ وأشرفِها

وإظهارُ لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 370.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 178.

- مع أنَّ مقتضى الظّاهر الإضمار - لإدخال الرَّوع في ضمير السّامع وتربية المهابة عند سماعه؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تشريع يناسبه إيثار المهابةِ والتَّعظيم في هذا الحكم، ولتكون الجملةُ مُستقلَّةً بنفسها؛ لأنَّها بمنزلة الحِكمة والمَثَل، ثمَّ ما في ذِكْر اسم اللّه تعالى من التَّلذُّذ والانشراح.

سرُّ التَّعبيرِ بالأُلوهيَّةِ دون الرُّبوبيَّةِ:

تزكيَةُ النَّفس ركنٌ في صلاحِ العبادةِ للهِ وحسنِ أدائها

أمّا سبب ذِكْرِ الألوهيَّة دون الرُّبوبيَّة؛ فلبيان عظيم شأن هذا الخطاب، وأنَّ غضَّ البصر وحفظ الفرج يؤثِّران تأثيرًا مباشرًا في تزكية النَّفس أوَّلًا، ولصلاح العبادة للّه تعالى وحسن أدائها وجودتها والخشوع فيها ثانيًا؛ لأنَّه كما ورد في الحديث الشَّريف: «النَّظْرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهامِ إبْليسَ مَسْمومَةٌ، فمَنْ تَرَكَها مِنْ خَوْفِ اللّهِ؛ أثابَهُ جَلَّ وعَزَّ إيمانًا يَجِدُ حلاوَتَهُ في قَلْبه»[1]؛ ولأنَّ المقام مقامُ ترهيبٍ، فيناسبهُ ذِكرُ اسمِهِ العَلم دون الرَّبِّ الذي يناسب في مقام التَّرغيب.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ ﴿خَبِيرٌ﴾:

إحاطةُ اللهِ بأفعالِ عبادِهِ دليلٌ على قدرتهِ وواسعِ معرفتِهِ

جاء اسم ﴿خَبِيرٌ﴾ على صيغة الصِّفة المُشبَّهة؛ للدَّلالة على ثبوت صفة الخِبرة للّه تعالى، وهو مأخوذٌ من: خبُر فلانٌ الأمرَ؛ إذا علمه علمًا لا شكَّ فيه، وصارت الخِبرة صفةً ذاتيَّةً له، فدلَّ على أنَّه تعالى عظيمُ خبرة بعباده، وبما يصنعونه في حياتهم اليوميَّة، فقد أحاط بهم تمام الإحاطة، وخبُرَ ما يفعلونه، ويصنعونه تمام الخبرة.

دلالةُ (ما) في السّياقِ المُحكَم:

إحاطةُ خبرةِ اللهِ بجميعِ أفعالِ العبادِ إحاطةً تامَّةً مُطلقةً

في قوله تعالى: ﴿بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ نجد أنَّ (ما) اسمٌ موصولٌ لذوات ما لا يعقل، ولصفات مَن يعقل، وأسماءُ الموصولات من صيغ العموم، فتفيد (ما) شمولَ خبرة اللّه تعالى جميع ما يصنعونه، وهو

(1) الحاكم، المُستدرَك، كتاب الرّقائق، رقم الحديث: (7875).

معنًى متّسعٌ للغاية، لا يكاد يُحصيه بَشَرٌ، لكنَّهُ عند اللّهِ أمرٌ ميسورٌ مُحاطٌ به، واللّهُ خبيرٌ بِهِ سبحانه.

وجهُ اختيارِ مفردةِ ﴿يَصۡنَعُونَ﴾ دون مرادفاتها:

اخــتــصــاصُ الصِّناعةِ ببني آدم مَلمَحٌ جديرٌ بالتَّنويه

الصُّنْعُ: إجادةُ الفعل، فكلُّ صُنْعٍ فِعْلٌ، وليس كلُّ فعلٍ صُنْعًا، ولا ينسب إلى الحيوانات والجمادات، كما ينسب إليها الفعل[1]؛ لذلك فقد اختُصَّت الصِّناعة ببني آدم، واختُصَّت في الآية بالمُكلَّفين منهم، واقتضت الصِّناعة خبرة، فناسب قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَصۡنَعُونَ﴾:

تـجـدُّدُ أفـعـالِ الـعـبـادِ مع استمرارِ حياتِهم في الـنّـجـادِ والوهادِ

دلَّ الفعلُ المضارع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ على الحال والاستقبال، لأنَّ المضارع "يشترك فيه الحاضر والمستقبل"[2]، ومن ثَمَّ تكون فائدة المضارع في قوله: ﴿يَصۡنَعُونَ﴾ هي شمول علم اللّه تعالى لما يتجدَّد ممّا يصنعون مع الزَّمن، فما دامت الحياة مستمرَّةً؛ فإنَّ أفعال العباد تتجدَّد، واللّه يعلمها جميعًا، لا يخفى عليه شيء منها.

غرضُ حذفِ مفعولِ ﴿يَصۡنَعُونَ﴾:

دعـوةُ الـنّـاسِ إلى إعادةِ النَّظرِ فيما يصنعون إرشـادٌ إلى لُـبِّ الحقائقِ

حُذِفَ مفعولُ ﴿يَصۡنَعُونَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾، وفيه تنشيطٌ لخيالِ المتلقّي، ودعوى غير مباشرةٍ له للبحث والتَّفكُّر والتأمُّل بما يصنعه هو أو غيره، فتكون فرصةً للمراجعة الذّاتيَّة بما يخفيه في نفسه ممّا لا يرغب أن يطَّلع عليه النّاس، وعن ذلك يصف عبد القاهر الجُرجانيُّ الحذفَ، بقوله: "هو بابٌ دقيقُ المَسلكِ لطيفُ المأخذ، عجيب الأمر، شبيهٌ بالسِّحر"[3]، فيأخذ المتلقّي بإيحاء مناسبٍ إلى تأمُّل فيما غاب عنه، فيرقى إلى تحقيق غاية الخطاب، وهو العَود عن كثيرٍ ممّا نصنع، ممّا لا يرضاه اللّه تعالى، ولبيان

(1) الرّاغب، المُفردات، ص: 493.
(2) الزّمخشريّ، المُفصّل: 2/ 137.
(3) الجُرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 111.

عظيم ما قد أحاط اللّه به، ممّا يصنع النّاس من الأفعال الظّاهرة والباطنة على سبيل التَّعميم، مع ما في الحذف من رِعاية الفاصلة.

بلاغةُ التَّذييلِ:

استحقاقُ النّاسِ الجزاءَ على صنيعهم عدلٌ من اللهِ وإنصافٌ

ذُيِّلتِ الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾، وهي كنايةٌ عن جزاء ما يتضمَّنه الأمر من الغضِّ والحفظ؛ لأنَّ المقصد من الأمر الامتثال[1]، والطّاعة للّه سبحانه، فاستحقَّ مَنْ يُعرض أن يُجازى على أعماله وصنيعه، وفيه مراعاةٌ للفاصلة في الآية السّابقة ﴿وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ واللّاحقة ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البَصَر والنَّظَر:

أصلُ البَصَرِ والبَصيرَةِ هو الوُضوحِ في الشَّيءِ

(بصر) الباء والصّاد والرّاء أصلان، أحدُهما العلم بالشَّيء، يُقال: هو بصيرٌ به، ومن هذه البصيرة والبرهان، وأصل ذلك كلِّه وضوحُ الشَّيء، ويُقال: رأيته لمحًا باصرًا، أيّ: ناظرًا بتحديقٍ شديدٍ، ويُقال: بصُرتُ بالشَّيء؛ إذا صرتَ به بصيرًا عالمًا.

وأمّا الأصل الآخر؛ فبُصْر الشَّيء غِلظه، ومنه البَصْرُ، وهو أن يُضمَّ أديمٌ إلى أديمٍ، يخاطان كما تُخاط حاشيةُ الثَّوب، والبصيرة: ما بين شُقَّتي البيت، وهو إلى الأصلِ الأوّل أقربُ، فأمّا البَصْرةُ؛ فالحجارةُ الرِّخوة، فإذا سقطتِ الهاء؛ قلت: (بِصْر) بكَسْرِ الباء، وهو من هذا الأصل الثّاني[2]،

(نظر) النّون والظّاء والرّاء أصلٌ صحيحٌ يرجع فروعه إلى معنًى واحدٍ، وهو تأمُّل الشَّيء ومعاينته، ثمّ يُستعار، ويتَّسع فيه، فيُقال: نظرتُ إلى الشَّيء، أنظر إليه؛ إذا عاينتَهُ، ويقولون: نظرتُه، أي: انتظرتَه، وهو ذلك القياس، كأنَّه ينظر إلى الوقت الَّذي يأتي فيه[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 204.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نظر).

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النّور: 31]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبة بين وصيَّةِ المؤمنات وبين ما وصَّى به المؤمنين قبلها

بعد أن أمر المؤمنين في الآية السّابقة بغضِّ البصرِ وحفظِ الفَرْج؛ ناسب أن يُذكِّر المؤمنات بالأمر نفسه مُضيفًا إلى ذلك أمرًا خاصًّا بالنِّساء هو الحرصُ على عدم إبداء الزِّينة إلّا للمحارم من رجال أو نساء المؤمنين، أو غير أولي الإربة من الرِّجال أو الأطفال الَّذين لم يظهروا على عورات النِّساء.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زِينَتَهُنَّ﴾: (زين) أصلٌ يدلُّ على حُسن الشَّيء وتحسينه، فالزَّيْن نَقيضُ الشَّيْن، يُقال: زيَّنْتُ الشَّيء تزيينًا، وأزْيَنَتِ الأرضُ وازَّيَّنَتْ وازدانت؛ إذا حَسَّنَها عُشْبُها[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ﴾، قال الزَّجاج: كانت المرأة ربَّما اجتازت، وفي رجلها الخَلْخال، وربَّما كان فيه الجلاجل، فإذا ضربت برجلها؛ عُلِمَ أنَّها ذات خَلْخال وزينة، فنهى عنه؛ لما فيه من

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زين).

تحريك الشَّهوة[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾، معناه: لا يُبدين الزّينة الباطنة والخَلْخال والدَّملج والسّوار، والَّذي يظهر هو الثّياب والوجه[2].

2) ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾: (ضرب) أصلٌ واحدٌ، من ذلك: ضَرَبتُ ضربًا؛ إذا أوقعت بغيرك ضربًا[3]، والضَّرْبُ يَقَع على جميع الأعمال، ضَرْب في التِّجارةِ وفي الأرض وفي سبيل اللّهِ، يصِفُ ذَهابَهم وأَخْذَهم فيه، وضَرَبَ يَدَهُ إلى كذا، وضَرَبَ فلانٌ على يَدِ فلانٍ: حَبَسَ عليه أمرًا أَخَذَ فيه، وأراده، ومعناه: حَجَرَ عليه[4]، ومن المُجاز قوله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾؛ طلبًا في الإحاطةِ والسِّتْر بالخُمُرِ على الصُّدور.

3) ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾: (خمر) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على التَّغطية، والمخالطةِ في سَتْر[5]، وخَمَّرْتُ الإناء: غطّيته، قال ﷺ: «خَمِّروا الآنيةَ»[6]، واختَمَرَتِ المرأة بالخِمار، وفي حديث عائشة أنَّها قالت: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، انقلب رجال الأنصار إلى نسائهم، فتلوها عليهنَّ، فقامت كلُّ امرأة إلى مِرْطِها المُرحَّل، فصدعت منه صدعة، فاختمرن بها، فأصبحن في الصُّبح كأنَّ على رؤوسهنَّ الغِربان[7].

4) ﴿جُيُوبِهِنَّ﴾: (جيب) أصلٌ يجوز أن يكون من باب الإبدال، فالجَيْبُ جَيبُ القميصِ، يُقال: جِبْتُ القميصَ: قوَّرت جَيْبَهُ، وجَيَّبْتُهُ: جعلْتَ له جَيبًا[8]، و(جُيوب) بضمِّ الجيم جمع (جيب)، ويجوز كسرها، وقد جاءت الكلمة بكسر الجيم في بعض القراءات في قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، وبذلك يجوز ضمُّ الجيم وكسرها، وقد تطوَّر معنى (الجيب) الآن، واختلف قليلًا عن معناه القرآنيِّ[9]، قال تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، أيّ: موضع الجَيْب، وهو الصَّدر جَيْب القميص ما ينفتح على النَّحر[10].

---

(1) ابن سيدَه، المُحكَم: (رجل).
(2) ابن سيدَه، المُحكَم: (زين).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضرب).
(4) الخليل، العين: (ضرب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خمر).
(6) البخاريّ، صحيح البخاريّ، باب لا تترك النّار في البيت عند النّوم، رقم الحديث: (5937).
(7) ابن قتيبة، غريب الحديث: 2/ 453.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جيب).
(9) عمر، معجم الصّواب اللّغويّ: (جيب).
(10) أبو العبّاس، المصباح المُنير: (جيب).

5) ﴿ٱلۡإِرۡبَةِ﴾: (أرب) لها أربعة أصولٍ إليها ترجعُ الفروع، منها: الحاجة، والعقل، فأمّا الحاجةُ؛ فقال الخليل: الأربُ: الحاجة، وما أربك إلى هذا؟ أيْ: ما حاجتك، قال اللّه تعالى: ﴿غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾، أيْ: ليسوا ممَّن يطلب نكاح النِّساء، والإرب: العقلُ، قال ابنُ الأعرابيِّ: يُقال للعقل أيضًا: إرْبٌ وإرْبَةٌ[1]، فاشتمل قوله: ﴿غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ﴾، على الحاجة والعقل، فدخل المعتوهُ في غير أولي الإربةِ.

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الآيــة جامعةٌ لأنواعٍ من الأدب والسَّتْرِ وعدم إبــداءِ الزّيـنةِ وأحكامِ المحارمِ

بعد أن أرشدَ المؤمنين إلى غضِّ البصر وحفظ الفرج، التفت البيان القرآنيُّ الحكيم إلى المؤمنات، فأرشدهنَّ إلى ما أرشد إليه الرِّجال، وأكَّد عليهنَّ أنَّ الواجبَ أن يكفُفن أبصارهن عن النَّظر إلى ما لا يحلُّ لهنَّ، وأن يحفظن فروجهنَّ عن كلِّ ما نهى اللّه عنه، ولا يُظهرن شيئًا ممّا يُتزيَّن به، إلّا ما جرت العادة بإظهاره، كالخاتم في الإصبع، والكحل في العين، وما يشبه ذلك من الأمور الَّتي لا غنى للمرأة عن إظهارها، ثمَّ بيَّن أنَّ على النِّساء المؤمنات أن يستُرن رؤوسهن وأعناقهنَّ وصدورهنَّ بخمرهنَّ؛ حتّى لا يطَّلع أحدٌ من الأجانب على شيءٍ من ذلك[2]، ونهى اللّه تعالى النِّساء المؤمنات عن إبداء مواضع الزّينة الخفيَّة لكلِّ أحدٍ إلّا مَنِ استثناهم سبحانه بعد ذلك، كالأصول وإن علوا، والفُروع وإن سفلوا من المحارم، الَّذين لا يحلُّ للمرأة الزَّواج بواحدٍ منهم، وختم الآية بدعوة المؤمنين إلى التَّوبة الصّادقة النَّصوح الَّتي تجعلهم يخشونه سبحانه في السِّرِّ والعلن؛ لكي ينالوا الفلاح والنَّجاح في دنياهم وأخراهم[3].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أرب).
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 116.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 118.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الواو) وأثرُها في السّياقِ:

الجمعُ بين فئتي المؤمنين والمؤمنات في أمرٍ واحدٍ مشتركٍ

جملة ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وفائدتُها الجمع بين فئتي المؤمنين والمؤمنات في أمرٍ واحدٍ، هو غضُّ البصر عمّا حرَّم اللّه، وحفظ الفرج، فهاتان الفئتان تمثيلٌ شاملٌ للمجتمع البالغ كلِّهِ، وزاد على المؤمنات قضيَّة الحجاب وعدم إظهار الزّينة.

غرضُ الأمرِ بالفعلِ ﴿وَقُل﴾:

أفاد الأمرُ في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ ما أفاده الأمر السّابق: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ - وهو وجوبرالمأمور به بعد فعل القول - فغضُّ البصر وحفظُ الفَرْج من الأمور الواجبة على المؤمنين والمؤمنات.

نوعُ اللّامِ في شِبْهِ الجملةِ ﴿لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾:

خطابُ المؤمناتِ بما خوطبَ به المؤمنون عدلٌ وإنصافٌ

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ للتَّخصيص، حيث خصَّ اللّهُ سبحانه الإناثَ هنا بالخطابِ على طريقِ التَّأكيد، فإنَّ قوله: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يكفي؛ لأنَّه قولٌ عامٌّ يتناول الذَّكر والأُنْثى من المؤمنين حسب كلِّ خطابٍ عامٍّ في القرآن الكريم[1].

الإطنابُ في خطابِ المؤمناتِ بعد المؤمنين:

المساواةُ بين الرَّجلِ والمرأةِ في غضِّ البصرِ وحفظِ الفَرْجِ

ومع أنَّ النِّساء يدخلن في خطاب الرِّجال على سبيل التَّغليب؛ إلّا أنَّ اللّه تعالى قد خصَّ المؤمنات بالخطاب هنا بعد المؤمنين، لتأكيد الأمر بغضِّ البصرِ وحفظِ الفَرْجِ، ولبيان أنَّه كما لا يحلُّ للرَّجل أن ينظر إلى المرأة - إلّا في حدود ما شرعه اللّه - فإنَّه لا يحلُّ للمرأة كذلك أن تنظر إلى الرَّجل؛ لأنَّ علاقتها به ومقصده منها

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 226.

كمقصدها منه، ونظرة أحدهما للآخر - على سبيل الفتنة وسوء القصد - يؤدّي إلى ما لا تُحمد عقباه[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بصياغةِ ﴿يَغۡضُضۡنَ﴾:

الحرصُ على غضِّ البصر سمةٌ إيمانيَّةٌ راقية

في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ﴾ أفاد الفعل المضارع التَّجدُّدَ مع الزَّمن؛ إذْ دلَّ ذلك على الحثِّ على غضِّ البصر والحرص عليه باعتباره ركنًا رئيسًا من أركان الأخلاق الإسلاميَّة الَّتي تؤدّي إلى حفظ الفرد والمجتمع.

دلالةُ حرفِ ﴿مِنۡ﴾ في السّياقِ:

تعدُّدُ معاني حرف المعنى وأثرُها في البيانِ

﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ﴾ زائدةٌ للتَّوكيد، والمعنى: يغضّوا أبصارهنَّ عما يَحْرُمُ، أو هي للتَّبعيض؛ لأنَّ المُرادَ غضُّ البصر عمّا يحرم، والاقتصار به على ما يحلُّ[2]، وذلك أنَّ أوَّل نظرة لا يملكها الإنسان، وإنَّما يغضُّ فيما بعد ذلك[3]، والغضُّ كذلك بمعنى النُّقصان، يُقالُ: غضَّ فلانٌ من فلانٍ، أيْ: وضع منه، فتكون ﴿مِنۡ﴾ صلةً للغضِّ، وليست للتَّبعيض ولا للزّيادة[4]، ويصحُّ أن تكونَ لابتداء الغاية[5].

دلالةُ إضافةِ الأبصارِ إلى الضَّميرِ:

أفادتْ إضافةُ الأبصارِ إلى ضمير الجمع ﴿أَبۡصَٰرِهِنَّ﴾ معنى التَّملُّك، فالأبصار هي ملك المُخاطبات من المؤمنات، وذلك للدَّلالة على قدرتهنَّ على التَّحكُّم بتوجيه أنظارهنَّ وغضِّها عمَّا أمر اللّٰه أن تُغضَّ عنه من المحرَّمات.

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 116.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 360.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 32.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 222.
(5) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 177.

حذفُ مُتعلّق غضّ البصرِ:

في قوله تعالى: ﴿يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ﴾ ذُكِر غضُّ البصر دون ذِكْرِ متعلّقه، كما فعل في أمر المؤمنين؛ ليعمَّ ذلك كلَّ ما يُكره من جهة الشَّرع النَّظر إليه.

فائدةُ عطفِ حفظِ الفروجِ على الأمرِ بغضّ الأبصارِ:

تأثيرُ غضّ النَّظرِ أو عدمِهِ في حفظِ الفَرْجِ

في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾ عطْفُ حفظِ الفروجِ على غضّ الأبصارِ، والجمع بينهما بحرفِ الجمعِ (الواو)، وما لذلك من الدَّلالة على التَّداخل بين القضيَّتَيْن، وتأثير إحداهما في الأخرى تأثيرًا بيِّنًا؛ فكأنَّهما قضيَّةٌ واحدةٌ، وما في ذلك من المبالغة في إفهام المخاطَبين أنَّ النَّظر الحرامَ سريعًا ما يُؤدّي إلى ارتكاب المُحرَّمات كالزِّنى.

دلالةُ وصفِ عدمِ إبداءِ الزّينةِ خاصًّا بالمرأةِ:

بيانُ أمرِ المؤمنين والمؤمناتِ بغضّ البصرِ وحفظِ الفرْجِ

ذَكَرَ اللهُ تعالى حُكمَ المؤمنات في تساويهنَّ مع الرِّجال في الغَضِّ من الأبصار وفي الحفظ للفروج، ثمَّ زاد عليهنَّ بقوله: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ فتنةَ النِّساء للرِّجال أشدُّ خطرًا من فتنة الرِّجال للنِّساء.

سرُّ المسامحةِ في الزّينةِ الظّاهرةِ:

لا عَنَتَ في الأحكامِ الشَّرعيَّةِ ولا يُكلِّفُ اللهُ نفسًا إلّا وسعها

سومح في الزّينة الظّاهرة؛ لأنَّ سترها فيه حرجٌ، فإنَّ المرأة لا تجد بُدًّا من مزاولة الأشياء بيدها، ومن الحاجة إلى كشف وجهها خصوصًا في الشَّهادة والمُحاكمة والنِّكاح، وتضطرُّ إلى المشي في الطُّرقات وظهور قدميها خاصة الفقيرات منهنَّ، وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ﴾، يعني إلّا ما جرت العادة والجبلَّة على ظهوره، والأصل فيه الظُّهور، وسومح في الزّينة الخفيفة[1].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 33.

نكتةُ إضافةِ الفروجِ إلى الضَّميرِ:

الإضافةُ في قوله ﷻ: ﴿وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ هي بمعنى اللّام، فيدلُّ ذلك على مسؤوليَّة المخاطبات عن ستر فروجهنَّ، والانصرافِ عمّا يغضب اللّه تعالى، وتنبيهِ المُخاطَبات على قُدرتهنَّ في التَّحكُّم بأنفسهنَّ وعدم الانجرارِ إلى شهواتهنَّ، وأنَّ الخطأ في عدم حفظِ الفَرْجِ قد يؤدّي إلى المهالكِ.

التَّنبيهُ على قُدرةِ التَّحكُّم بالأنفسِ في حفظِ الفُروجِ

بلاغةُ عطفِ إبداءِ الزّينةِ على حفظِ الفروجِ:

جملة ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾؛ للدَّلالة على العلاقة الوثيقة بين إبداء الزّينة للأجانب من الرِّجال وبين حفظ الفروج؛ وذلك أنَّ إبداء الزّينة ذريعةٌ إلى الفتنة والإغراء بها من جانب الرِّجال؛ فعلى المرأة أن تسدَّ هذه الذَّرائع، وتُغلقَ هذه النَّوافذ الَّتي تُطلُّ منها الفتنة على الرِّجال، فتكون بذلك داعيةَ فتنةٍ ومُغريةً بالفتنة، سواءٌ قصدت إلى هذا أم لم تقصدْهُ.

العلاقةُ بين إبداءِ الزّينةِ وحفظِ الفرْجِ

نكتةُ التَّعبيرِ بالإبداءِ دونَ الإظهارِ في الآيةِ:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ اختار الذِّكْر الحكيم لفظة الإبداء دون الإظهار؛ لأنَّ الإبداء من البدوِّ، والباء والدّال والواو أصلٌ واحدٌ يدلُّ على ظهور الشَّيء، وسُمّي خلاف الحضر بَدوًا من هذا؛ لأنَّهم في بَرازٍ من الأرض، وليسوا في قرًى تسترهم أبنيتُها[1]، فدلَّ قوله: ﴿يُبۡدِينَ﴾ على انكشاف الزّينة لعدم وجود ساترٍ يستر تلك الزّينة، أمّا لو قال: (يُظهرن)؛ لاحتمل ذلك أن يكون ساترًا، ولكنَّ المرأة كشفت عن زينتها، في وقت معيَّن، فدلَّ الثّاني على وجود ما يحتاط أحيانًا، ودلَّ الأوَّل على عدم الاحتياط للسَّتر؛ فهي كاشفةٌ زينتها على كلِّ حال، وهذا الإبداء مناسبٌ لمجموعة من الرِّجال من محارم المرأة هم الَّذين ذُكِروا في هذه الآية الكريمة.

بيانُ أنَّ ظهورَ الزّينةِ بعد الاحتياطِ في سترِها معفوٌّ عنه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدو).

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿يُبۡدِينَ﴾:

عدمُ إبداءِ الزّينةِ دومًا تزكيَةٌ لهُنَّ وللمجتمعِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ دَلَّ الفعل المضارع ﴿يُبۡدِينَ﴾ على الحاضر والمستقبل، وعبَّر البيان القرآنيُّ الحكيم بالمضارع لقصد الدَّلالة على التَّجدُّد والاستمرار؛ كنايةً عن كون عدم إبداء زينتهن خُلُقًا لهن، وأنَّ هذا من شأنهنَّ دومًا، وأنَّه أمرٌ مُتجدِّدٌ فيهنَّ، مستمرٌّ على تعاقب السِّنين.

دلالةُ استعمالِ مُفردةِ الزّينةِ:

الغايةُ من زينةِ المـــرأةِ زيـــادةُ جمالِها ولفتُ الأنظارِ إليها

الزّينةُ اسمٌ يقع على محاسن الخَلْقِ الَّتي خلقها اللّه تعالى، وعلى سائر ما يتزيَّن به الإنسان من فضل لباسٍ أو حُليٍّ وغير ذلك[1]، والزّينة: ما يحصل به الزَّين، وهو الحُسْن، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران: 14]، وقال: ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦﴾ [الحِجْر: 16]، والزّينة قسمان: خَلقيَّة ومكتسبة، فالخَلقيَّة: الوجه، فإنَّه أصل الزّينة وجمال الخِلقة، وأمّا الزّينة المكتسبة، فهي ما تحاوله المرأة في تحسين خِلقتها، كالثّياب والحليّ والكحل والخضاب[2]، وقد أُطلِقَ اسم الزّينة على اللِّباس في قوله تعالى: ﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: 31]، والتَّزيُّن يزيد المرأة حسنًا، ويلفت إليها الأنظار؛ لأنَّها من الأحوال الَّتي لا تقصد إلّا لأجل التَّظاهر بالحُسْن، فكانت لافتةً لأنظار الرِّجال؛ فلذلك نهى النِّساء عن إظهار زينتهن إلّا للزَّوج باعتباره الأحقَّ في زينتها، ثمَّ للرِّجال الَّذين ليس من شأنهم أن تتحرَّك منهم شهوةٌ نحوها، لحُرْمة قرابةٍ أو مصاهرةٍ[3].

دلالةُ ما ظهرَ من الزّينةِ في السّياقِ:

اختلافُ العلماءِ فيما ظهر من الـزّينـة من البحثِ المفيدِ بيانُه

من الزّينة ظاهرٌ وباطنٌ، فما ظهر فمباحٌ مُطلقًا لكلِّ النّاس من المحارم والأجانب، وأمّا ما بطن: فلا يحلُّ إبداؤه إلّا لِمَنْ سمّاهم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 363.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 229.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 206.

اللّه تعالى في هذه الآية، أو حلَّ محلَّهم(1)، وقال ابن مسعودٍ: ما ظهر منها هو الثّياب، وقيل: الزّينةُ الظّاهرة: الثّيابُ، وقال تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: 31]، وفُسِّرت الزّينةُ بالثّياب(2)، وقال ابن عاشور: وفسَّر جَمعٌ من المُفسِّرين الزّينةَ بالجَسَدِ كلِّه، وفسَّر ﴿مَا ظَهَرَ﴾ بالوجه والكفَّيْن، قيل: والقَدَمَيْن والشَّعْر، وعلى هذا التَّفسير فالزّينةُ الظّاهرة هي التي جعلها اللّه بحُكم الفطرة بادية، يكون سترُها مُعَطِّلًا الانتفاع بها، أو مُدخِلًا حرَجًا على صاحبتها، وذلك الوجهُ والكفّان، وأمّا القدمان؛ فحالهُما في السِّتر لا يعطِّل الانتفاع، ولكنَّه يُعسِّره؛ لأنَّ الحَفاء غالبُ حال نساءِ البادية، فمن أجل ذلك اختلف في سترهما الفقهاء، ففي مذهب مالك قولان أشهرهما أنَّها يجب عليها سترُ قدميها، وقيل: لا يجب، وقال أبو حنيفة: لا يجب سترُ قدميها، أمّا ما كان من محاسن المرأة، ولم يكن عليها مشقَّةٌ في ستره؛ فليس ممّا ظهر من الزينة، مثل: النَّحْر، والثَّدي، والعضد، والمِعصَم، وأعلى السّاقيْن، وكذلك ما له صورةٌ حسنةٌ في المرأة، وإن كان غير مُعَرًّى كالعجيزة والأعكان (ما انطوى، وتَثنَّى من لحم البطن سِمَنًا) والفخذيْن، ولم يكن ممّا في إرخاء الثّوب عليه حرج عليها(3).

دلالةُ إضافةِ الزّينةِ إلى ضميرِ الإناثِ:

الأُنثى قد جُبِلَتْ على العيشِ في الزينةِ

دلَّتْ إضافةُ الزّينةِ ثلاث مراتٍ إلى ضمير الإناثِ ﴿زِينَتَهُنَّ﴾ على أنَّ من شأن النِّساء غالبًا النَّشأة في الحلية والدّعة والنُّعومة، وأنَّ هذا مما جُبلن عليه، قال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾ [الزّخرف: 18]، كما دلَّت أيضًا على أنَّ التزيُّن بالحُليِّ من وصف ربّات الحِجال، لا من وصف فحولِ الرِّجال.

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 229.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 33.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 207.

المبالغةُ في الأمرِ بالتَّصوُّن والتَّستُّر من البيان المفيد

بلاغةُ المجازِ في ذِكْرِ الزّينةِ دونَ مواضِعِها:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ذِكْرُ الزّينة دون مواقعها للمبالغة في الأمر بالتَّستُّر؛ لأنَّ هذه الزّينة واقعةٌ على مواضع من الجسد، لا يحلُّ النَّظر إليها[1]، وهي: السّاق، والعَضُد، والعنق، والرَّأس، والصَّدر، والآذان، فنهى عن إبداء الزّينة نفسها، ليعلم أنَّ النَّظر لا يحلُّ إليها؛ لملابستها تلك المواقع، بدليل جواز النَّظرِ إليها غير ملابسة لها[2]، فيكون قد ذَكَرَ الزّينةَ، وأراد مواضعَ الزّينة والأعضاء الَّتي توضع عليها الزّينة، وهذا من المَجاز المُرسل بعلاقة الحاليَّة من باب إطلاق اسم الحالِّ على المحلِّ، ثمَّ إنَّه ذَكَرَ الزّينة الَّتي تظهر على جزءٍ من العضو، وأراد مجازًا العضوَ كلَّهُ، بعلاقة الجزئيَّة من باب إطلاق الجزء وإرادة الكلِّ، يقول الزَّمخشريُّ: "أمّا المُرادُ بموقع الزّينة فذلك العضو كلّه، وليس المُقلَّد الَّذي تلابسه الزّينة منه فحسب"[3].

ما جعل ديننا حرجًا على أي عبد

بلاغةُ كنايةِ ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ عن الوجهِ والكفَّيْن:

معنى ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ما كان موضعه ممّا لا تستره المرأة، وهو الوجه والكفّان والقدمان[4]، وجمهور الأئمة على أنَّ استثناء إبداء الوجه والكفَّين من عموم منع إبداء زينتهنَّ يقتضي إباحة إبداء الوجه والكفَّيْن في جميع الأحوال في الصّلاة وفي خارجها[5]، فيكون قوله تعالى: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ كنايةً عن الوجه والكفَّيْن، فسومح مُطلقًا في الزّينة الظّاهرة؛ لأنَّ سترها فيه حرجٌ، فإنَّ المرأة لا تجد بُدًّا من مزاولة الأشياء بيديها، ومن الحاجة إلى كشف وجهها، خصوصًا

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 18/ 257.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 33.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 236.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 207.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 207.

في الشَّهادة والمحاكمة والنِّكاح، وتضطرُّ إلى المشي في الطُّرقات وظهور قدميها، وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ﴾، يعني: إلّا ما جرت العادة والجِبلَّة على ظهوره، والأصل فيه الظُّهور(1).

نكتةُ إيثارِ ﴿ظَهَرَ﴾ دون (أظهَرْنَ منها):

لا تقصدُ المؤمنةُ إلى إظهارِ مفاتنها للحياءِ والعفَّة

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ﴾ دلالةٌ على أنَّ ظهورَ الزّينة يكون على غير قصد إظهار المفاتن والزّينة، بل ينبغي أن تكونَ المرأةُ قد أعدَّت نفسها لسترها، بحيث يكون ما يظهر قد شقَّ التحرُّز في إخفائه فبدا من غير قصد؛ كالسِّوار والخاتم والكحل فإنَّها لا بدَّ لها من مزاولة حاجتها بيدها، ومن كشف وجهها في الشهادة ونحوها(2).

معنى حرفِ (مِنْ) في السّياقِ:

في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ﴾ جاء حرف (من) للتَّبعيض، أيّ: إلّا ما ظهر من بعض تلك الزّينة الَّتي سمح بها الشَّرع الحكيم.

معنى الواو ودلالتها في جملة ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ﴾:

النّيَّةُ الصّادقةُ على سترِ الجسدِ وإخفاءِ زينتِه مقصدٌ ملحوظٌ

جاءت (الواو) عاطفةً في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾(3)؛ إذ عُطِفت جملة (لَيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ) على جملة ﴿وَلَا يُبۡدِينَ﴾، فجمعت بين عدمِ إبداءِ الزّينةِ من جانبٍ، وبين الضَّربِ على الجيوبِ بالخُمُر من جانبٍ آخرَ، فتكون قد اجتمعتِ النّيَّة الصّادقة، بقصدِ إخفاءِ الزّينةِ، والممارسةِ الفعليَّةِ في ستر الجسدِ والاحتياطِ لذلك.

نوعُ اللّام ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ﴾ لامُ الأمر، فقد جاء الأمر هنا بتخصيص الضَّرب على الصُّدور، بذِكْرِ الجيوب، وذلك لما فيها من المواجهة وموضع النَّظر.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 236.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 13/259.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 18/ 254.

التأكيدُ والمُبالغةُ على سَـتْرِ صَـدْرِ المرأةِ

فائدةُ استعمالِ مُفرَدَةِ ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ﴾:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بقوله: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ﴾، ولم يقلْ: (وليضعن) ونحوه، لما في لفظ الضَّرب مبالغة في الإلقاء، قال المُفسِّرون: إنَّ نساء الجاهليَّة كُنَّ يشدُدن خمرهنَّ من خلفهنَّ، وإنَّ جيوبهنَّ كانت من قدّام، فكانت تنكشف نحورُهنَّ وقلائدهُنَّ، فأمرن أن يضربن مقانعهنَّ على الجيوب؛ لتتغطَّى بذلك أعناقهنَّ ونحورهنَّ، وما يحيط به من شَعرٍ وزينةٍ، من الحُليِّ في الأُذُنِ والنَّحرِ وموضعِ العقدةِ منها، فدلَّ الأمر بالضَّرب على المبالغة في الأمر بتغطيَةِ الصَّدر بغطاء لا يشفُّ، ولا يصفُ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾، دلَّ المضارع على الحال والاستقبال، وفائدته التَّجدُّد مع الزَّمن، فيكون ذلك دأبهنَّ، في ستر مواضع الزّينة والعورة من أجسادهنَّ.

إحــكــامُ ستر موضعِ الجيب، لـمـا فـيـه من دواعـي الإغـراءِ والفتنة

نوعُ الباءِ ودلالتها ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾:

الباءُ في قوله ﷻ: ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ للإلصاقِ، لتأكيد إحكام وضع الخِمارِ على الجيب زيادةً على المبالغة المُستفادَةِ من فعل ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ﴾[2]، والتأكُّد من سَتْرِ موضعِ الصَّدر لما فيه من المواجهةِ والإغراءِ ودواعي الفتنة.

جــوازُ تـنـوُّعِ الخُمُرِ مع تحقُّقِ شرطِ السَّترِ

غرضُ الجمعِ في قوله تعالى: ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾:

جمَعَ الذِّكْرُ الحكيم ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾؛ ليتناسب مع جَمعِ النِّساء قبله في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ﴾ مقابلةَ الجمع بالجمع التي تقتضي التَّوزيع على الآحادِ، أيِّ: لتضربَ كلُّ واحدةٍ بخمارها على جيبها على طريقة: ركب القومُ دوابَّهم، أيِّ: ركب كلُّ واحدٍ دابَّتَهُ، فالأمر

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 364.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 208.

جماعيٌّ لنساء المسلمين، لا تُستثنى واحدةٌ منهنَّ، ولعلَّ فيه دلالة كذلك على تنوُّع حالات الخُمُر صيفًا وشتاءً، ومن بلدٍ إلى آخر بحسب التَّقاليد المعروفة عند كلِّ بلدٍ أو مجتمعٍ أو قومٍ، فمهما اختلفت الخُمُر؛ فالواجب أن تُؤدّي ما هو مُرادٌ منها، وهو سترُ الجيوبِ وتغطيتُها.

فائدةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ:

الإحــكــامُ في تغطيةِ موضعِ الجيبِ بالخِمارِ مفيدٌ في السَّترِ

قولُه تعالى: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ ضمَّن معنى (وليُلقين)، و(وليضعن)؛ فلذلك عدّاه بـ ﴿عَلَىٰ﴾، كما تقول: ضربتُ بيديَّ على الحائطِ؛ إذا وضعتَها عليه[1]، فلا يكون شيءٌ من الصَّدرِ إلّا وقد استعلى عليه الخمارُ، وأحاط به تغطيةً وسترًا.

بلاغةُ استعمالِ مُفردةِ الجيوبِ:

تغطيةُ عموم مواجهةِ المرأةِ إلّا وجهها

الجيبُ هو طوقُ القميص ممّا يلي الرَّقبة، ومعنى قوله: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾، أيْ: ليضعن خُمُرَهنَّ على جيوبِ الأقمصةِ، بحيث لا يبقى بين منتهى الخمار ومبدأ الجَيب ما يظهر منه الجيدُ[2]، فلا يظهر من مواجهة المرأة إلّا وجهُها.

التَّرقّي في ترتيبِ النَّواهي:

البدءُ بالعمومِ والانــتــهــاءُ بــالــخــصــوصِ مُفصِحٌ عن المُرادِ

تدرَّج الشَّرعُ في ترتيب النَّواهي، فبدأ بالنَّهي عن إبداء الزّينة إلّا ما ظهر منها، وهذا تشريعٌ عامٌّ في منعِ إبداءِ الزّينة أمام الرِّجال جميعًا، ثمَّ أتى على ضربِ الخُمُر على الجيوب باعتباره جزءًا مهمًّا من ستر بدن المرأةِ، ثمَّ انتقل إلى إبداء الزّينة بلا تحرُّزٍ، فبدأ بالبعول ثمَّ بجميع المحارم، وأتى هذا على سبيل التَّرقّي؛ لأنَّه بدأ بالعموم، وانتهى بالخصوص.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 34.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 208.

توكيدُ الأمرِ بإخفاءِ الزّينةِ في السّياقِ

بلاغةُ التّكرارِ في قولِه: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أُعيد لفظ ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾؛ تأكيدًا لقوله: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ﴾ المتقدِّم، وليُبنى عليه الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ الآية... الَّذي مقتضى ظاهره أن يُعطف على ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ لبُعدِ ما بين الأوَّل والثّاني، أيْ: ولا يُبدين زينتَهنَّ غيرَ الظّاهرة إلّا لِمَنْ ذُكِروا بعد حرفِ الاستثناءِ؛ لشدَّة الحرج في إخفاء الزّينة غير الظّاهرة في أوقاتٍ كثيرةٍ، فإنَّ الملابسةَ بين المرأةِ وبين أقربائها وأصهارها المُستثنَيْن ملابسةٌ متكرِّرة، فلو وجب عليها سَترُ زينتها في أوقاتها؛ كان ذلك حرجًا عليها[1].

مكانةُ الزَّوجِ الرفيعةُ عند الزَّوجةِ ضمانٌ لاستقرارِ البيتِ

بلاغةُ استعمالِ لفظِ البعولِ دون الأزواجِ:

البعولةُ: جمع بَعْلٍ، وهو الزَّوج، وسيّد الأَمَة، وأصل البَعْل: الرَّبُّ والمالك، وسُمّي الصَّنمُ الأكبرُ عند أهلِ العراقِ القدماءِ بعْلًا، وجاء ذِكْرُه في القرآن في قصَّة أهل نينَوَى ورسولهم إلياس عليه السلام، قال تعالى على لسانِ إلياس: ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٢٥﴾ [الصّافّات: 125]، فأُطلق على الزَّوج؛ لأنَّ أصلَ الزّواج مِلْكٌ، وقد بقي من آثار المِلْك فيه الصِّداق؛ لأنَّه كالثَّمن[2]، وإطلاقُ لفظ البعل هنا للتَّذكير بسلطته على بيته ومكانته الرَّفيعة عند زوجته، ومُلكه في بيته، وبأحقيَّة البعل بزوجته، وبإبداء الزّينة له.

فنُّ التَّعدادِ في بيانِ مَنْ سُمِحَ أن تظهرَ المرأةُ عندهم بزينتِها

بلاغةُ التَّدلّي في التَّرتيب من البعول إلى الأطفال:

سَلَكَ النَّظْمُ الكريم في ترتيب ذِكْرِ الَّذين سُمِحَ بإبداء الزّينة أمامهُم، بدءًا بالبعول وانتهاءً بالأطفال الَّذين لم يظهروا على عورات النِّساء، ورتَّب أصناف صلة الصِّهر والقرابة على طريقة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 208.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 209.

التَّدلّي من الأقرب إلى مَن دونَهُ، فابتدأ بالزَّوج؛ لأنَّ دائرةَ إبداء الزّينة له أوسع حتى إنَّه يُسمح له بالنَّظر إلى جميع جسدها، ثم تدلّى ذِكْرُ أصنافهم حسب قُربهم في النَّسب والصِّهر، وهذا تدلٍّ بديعٌ في درجات النّاس في القُرْب.

دلالةُ البدءِ بالأزواجِ والتَّثنيةِ بالمحارمِ:

ترتيبُ المحارمِ حسبَ الأولويَّةِ من بديعِ التَّشريعِ

بدأ الخطاب القرآنيُّ في ذِكْرِ الَّذين سُمِح للنِّساء بإبداء الزّينة أمامهُم بأزواجهنَّ؛ لأنَّ اطِّلاعَهم يقع على أعظم من هذا، ثمَّ ثنّى بالمحارم، وسوَّى بينهم في إبداءِ الزّينةِ، ولكنَّهم تختلف مراتبهم في الحُرْمة بحسب ما في نفوس البشرِ، فلا مرية أنَّ كشفَ الأب والأخ على المرأة أحوطُ من كشف ولدِ زوجِها، وتختلف مراتبُ ما يُبدى لهم، فيُبدى للأب ما لا يجوز إبداؤه لولد الزَّوج[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾:

إبداءُ الزِّينةِ للنِّساءِ المسلماتِ دونَ غيرِهِنَّ

قوله تعالى: ﴿أَوۡ نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني: المُسْلِماتِ، ويدخل في هذا الإماء المؤمنات، ويخرج منه نساء المشركين من أهل الذِّمَّة وغيرهم، فلا يحلُّ لامرأةٍ مؤمنةٍ أن تكشف شيئًا من بدنها بين يدي امرأةٍ مُشركةٍ إلّا أن تكونَ أَمَةً لها، فذلك قوله تعالى: ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾[2]، والظّاهر أنَّه عُني بنسائهنَّ، وما ملكت أيمانهنَّ: مَن في صحبتهنَّ وخدمتهنَّ من الحرائر والإماء، والنِّساء كلِّهنَّ سواء في حِلِّ نظر بعضهنَّ إلى بعضٍ[3].

دلالةُ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا مَلَكَتۡ﴾:

الاتِّساعُ في اعتبارِ العبيدِ والإماءِ جميعًا، أو الاقتصار على الإماءِ فحسب

﴿مَا﴾ - في قوله تعالى: ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ - اسم موصول بمعنى (الَّذي)، وتدلُّ على الاتِّساع، ولا تخلو من الإبهام، فدلَّت في الآية على أنَّ الكلام يشمل العبيدَ والإماء، واختلفوا: فمنهم

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 179.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 233.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 236.

مَنْ أجرى الآية على ظاهرها، وأنَّه لا بأس عليهنَّ في أن يُظهِرن لعبيدهنَّ من زينتهنَّ ما يُظهرن لذوي محارمهنَّ، وهو مرويٌّ عن عائشةَ وأمِّ سلمةَ ، واحتجّوا بهذه الآية، وهو ظاهرٌ[1]، وقال سعيد بن المسيّب: "لا تغرنَّكم هذه الآية: ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾، إنَّما عُني بها الإماء، ولم يُعنَ بها العبيد"، وكان الشَّعبيُّ وغيره يكرهون أن ينظر المملوكُ إلى شَعرِ مولاتِه[2]، وعلى هذا القول يكون قد ذكَرَ الكُلَّ، وأرادَ بعضه، فيكون من قبيل المجاز المرسل؛ والعلاقةُ كُلّيَّةٌ.

فائدةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ﴾:

مراعاةُ كثرةِ تردُّدِ هذه الفئةِ من الرِّجالِ على بيتِ المرأةِ

في قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ ذَكَرَ البيانُ القرآنيُّ الحكيمُ ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ﴾، وأرادَ مجموعةً من الرِّجال الَّذين يدخلون على النِّساء، وهم تَبَعٌ للعائلة يكونون في العادة معهم، فالتَّبعيَّة هي كونهم من أتباع بيت المرأة، وليسوا مِلْك يمينِها، ولكنَّهم يتردَّدون على بيتها لأخذ الصَّدقة أو للخدمة[3]، ولكن اشترط ألّا يكونوا من أولي الإربة، أيْ: لا تُحرِّكهم دواعي الشَّهوة؛ إذا نظروا إلى المرأة، فذَكَرَ التّابعين لبيانِ كثرةِ التَّردُّد على بيتها للخدمة أو للحاجة.

فائدةُ الوصفِ بقوله: ﴿غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ﴾:

علَّةُ التَّشريعِ للتّابعين كالأحمقِ والأَبْلَهِ وما شاكَلَهما

في قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ ذَكَرَ السّياق القرآنيُّ صفة ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ﴾ الَّتي شملت كثيرًا من الحالات، واختُلف في المُراد بهؤلاء التّابعين، فقيل: الأحمقُ الَّذي لا حاجةَ به إلى النِّساء، والأبله هو الرَّجل يتبع القومَ، فيأكل معهم، ويرتفق بهم، وهو ضعيفٌ لا يكترث للنِّساء، ولا يشتهيهنَّ، والعِنّين، والخَصيّ،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 365، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 233.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 234.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 211.

والمُخَنَّث، والشَّيخ الكبير، والصَّبي الَّذي لم يُدرِك، وهذا الاختلاف كلُّه متقاربُ المعنى، ويجتمع فيمَنْ لا فهم له ولا همَّة، ينتبه بها إلى أمر النِّساء، ووصف التّابعين بـ ﴿غَيۡرِ﴾؛ لأنَّ التّابعين غيرُ مقصودين بأعيانهم، فصار اللَّفظ كالنَّكرة، و﴿غَيۡرِ﴾ لا يتمحَّضُ نكرة، فجاز أن يجري وصفًا على المعرفة[1].

توجيه القراءات في ﴿غَيۡرِ أُوْلِي﴾ وبلاغتها:

تغاير وجوه الإعراب يثري ألوان الخطاب

قرأ أبو جعفر وابن عامر وشعبة بِنَصْبِ الرَّاءِ ﴿غَيۡرَ أُوْلِي﴾، وقرأ الباقون بالخفض: ﴿غَيۡرِ أُوْلِي﴾[2]، والنصب على الاستثناء، ويجوز نصبه على الحال من المضمر المرفوع في ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ﴾، تقديره على الاستثناء: (لا يبدين زينتهن إلا للتابعين إلا ذا الإربة منهم)، وتقديره على الحال: (ولا يبدين زينتهن إلا للتابعين عاجزين عن الإربة)، و﴿ٱلۡإِرۡبَةِ﴾ في هذا الموضع الحاجة إلى النساء، و﴿ٱلتَّٰبِعِينَ﴾: هم من لا حاجة لهم في النساء، وقرأ الباقون بالخفض على الصفة لـ: ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ﴾، وحسن أن يكون ﴿غَيۡرِ﴾ صفة لـ: ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ﴾؛ لأنهم غير مقصود بهم قصد قوم بأعيانهم، إنما هم جنس، فهم نكرة في المعنى، فحسن أن تكون ﴿غَيۡرِ﴾ صفة لهم، وأيضًا فإنه لـمّا اختصت ﴿غَيۡرِ﴾ بمعنى ﴿غَيۡرِ أُوْلِي﴾ دون غيرهم قربت من المعرفة، فحسن أن يوصف بها ما لفظه لفظ المعرفة كما أن ﴿غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ [النساء: 95] لـمّا اختصت بغير الزمن قربت من المعرفة، فحسن أن يكون نعتا لـمّا قرب من المعرفة، وهذا كما قال: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: 7] فأتت ﴿غَيۡرِ﴾ صفة لـ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ [الفاتحة: 7]؛ إذ لا يراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ قوم بأعيانهم، إنما هم اسم لكل من أنعم عليه بالإيمان والإسلام[3]، ومن بلاغة القراءات هنا أنه تجلى فيها تنوع أسلوب القصر عن

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 234 و236.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 332.
(3) مكِّي، الكشف: 2/ 136.

طريق المغايرة الإعرابية في حرف واحد من كلمة واحدة؛ فطافت المعاني بين الاستثناء والحالية والنعتية.

بلاغةُ الإيغالِ في توجيهِ قيدِ ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾:

السَّماحُ بالنِّساءِ دونَ الـرِّجـالِ أولي الإربةِ

في قوله ﷻ: ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ قيدٌ، فقد تحدَّد جنس الرِّجال؛ لأنَّه ذَكرَ ﴿غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ﴾، وأولو الإربة هم مَنْ يطلب النِّكاح، أو مَن له حاجة فيه، وهذا من قبيل الإيغال، فلا يحرم دخول النِّساء منهنَّ؛ لأنَّهُنَّ قد سُمح بدخولهنَّ بقوله: ﴿أَوۡ نِسَآئِهِنَّ﴾، ثمَّ إنَّه ذَكرَ الرِّجال، لما في هذه الكلمة من ملك النَّفس، والقدرة على النِّكاح ودواعيه وشهواته، على خلاف العبيد منهم، فلا يُذكرون بصفة الرِّجال.

نكتةُ ذِكرِ الرِّجالِ دونَ الذُّكورِ:

آثر البيان القرآنيُّ التَّعبيرَ بلفظ ﴿ٱلرِّجَالِ﴾ بدلًا من (الذُّكور)؛ لأنَّه قصدَ البالغين منهم، أيْ: أولي الحاجةِ إلى النِّساء، ثمَّ أتى بعدهم بذِكرِ الطِّفل؛ ليشمل كلَّ الحالاتِ المحتمل وُقوعها.

الطِّباقُ بين لفظي ﴿ٱلطِّفۡلِ﴾ و﴿ٱلرِّجَالِ﴾:

دلالـةُ الشُّمولِ في الطِّبـاقِ من بديعِ السّياقِ

في قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ﴾ قسَّم الذِّكر الحكيم التّابعين غير أولي الحاجة للنِّساء إلى قسمَيْن: الرِّجال والأطفال[1]، وبينهما طباقٌ، وفائدةُ هذا الطِّباق شمولُ حالاتِ التّابعين غير أولي الإربة، وبيان أنَّ هؤلاء التّابعين جميعهم من الذُّكورِ، فمنهم رجالٌ، ومنهم أطفالٌ.

إيجازُ الحذفِ في عدمِ ذِكرِ بعضِ القرابةِ:

قد يُذكرُ البعضُ لـلـتَّـنـبـيـه على الجملةِ ومراعاةِ المعلومِ عرفًا

لم يُذكر العمُّ والخالُ في الآية ضمن الَّذين سُمح للمرأة بإبداء الزِّينة أمامهُم، ولم يذكر كذلك المحارم من الرَّضاع، فاختلف العلماء في مساواة العمِّ والخال في ذلك، في تَعداد المحارم الَّذين

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 35.

يحلُّ إبداء الزّينة عندهم، والظّاهر أن سكوت الآيةِ عن العمِّ والخال ليس لمخالفة حكمهما حكم بقيَّة المحارم، ولكنَّه اقتصارٌ على الَّذين تكثر مزاولتهم بيت المرأة، فالتَّعداد جرى على الغالب[1]؛ لذلك فإنَّ القول الظّاهر أنَّهما كسائر المحارم في جواز النَّظر، وهو قول الحسن البصري؛ لأنَّ الآية لم يُذكر فيها الرَّضاع، وهو كالنَّسب، وفي سورة الأحزاب ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ [الأحزاب: 55] الآية، ولم يُذكر فيها البعولة ولا أبناؤهم، وقد ذُكروا هاهنا، وقد يُذكر البعض في موضع إيجازًا؛ ليُنبَّه على الجملة[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ المُفرد ﴿ٱلطِّفۡلِ﴾ دونَ الجمعِ:

لكلِّ طفلٍ حالةٌ خاصَّةٌ تُراعى في الأحكامِ

في قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ﴾ ذُكِرَ الطِّفل بلفظ المُفرد مع أنَّه قد سَبَقَ ذِكْر الرِّجال بلفظ الجمع؛ وذلك لاختصاص كلِّ طفلٍ بحالةٍ حسب الفروق الفرديَّة، فليس كلُّ طفلٍ هو غير مُطَّلعٍ على عورات النِّساء، فالَّذي قد اطَّلع على عوراتهنَّ، يُعامل معاملة البالغين من الرِّجال الأجانب.

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلطِّفۡلِ﴾:

الطِّفلُ هو الذَّكَر الَّذي لم يُراهق الحُلُم

﴿ٱلطِّفۡلِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ﴾ اسمُ جنسٍ بمعنى الجمع، ويُقال: طفلٌ ما لم يُراهق الحُلُم[3]، وأُجري عليه الجمع في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ﴾، وذلك مثل قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ [الحجّ: 5]، أيْ: أطفالًا[4]، ووَضْعُ المُفرد موضِعَ الجَمعِ لا ينقاسُ عند سيبويه، وإنَّما قوله: ﴿ٱلطِّفۡلِ﴾ من باب المفرد المعرَّف بلام الجنس، فيعمُّ.

بلاغةُ الوصفِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

إنـزالُ الأطفالِ منـزلةَ العقلاءِ مُبينٌ عن المُرادِ

في قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ﴾ الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 213.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 365، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 34.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 179.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 367، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 212.

لجماعة الذُّكور، ويختصُّ بالعُقلاء، في حين أنَّ مفرده (الَّذي) يكون للعاقل وغيره، ولكنَّ سياقَ الآية يقتضي إنزال الأطفال منزلة العقلاء، وذلك تنبيهٌ للمخاطَبين خشيةَ أن يكونوا من الَّذين قد اطَّلعوا على عورات النِّساء.

دلالة: ﴿لَمۡ يَظۡهَرُواْ﴾:

الطِّفلُ البريءُ الَّذي لا يعرفُ ما العورة يُراعى حالُهُ في الحُكم

المقصود بقوله تعالى: ﴿لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾: لم يطَّلعوا عليها، وهذا كناية عن خلو بالهم من شهوة النساء وذلك ما قبل سن المراهقة[1]، وذلك لعدم تمييزهم فيكون من الظُّهور بمعنى الاطِّلاع، أو لعدم بلوغهم حدَّ الشَّهوةِ فيكون من الظُّهور بمعنى الغَلَبة[2].

مفهومُ المخالفةِ في الطِّفلِ الظّاهرِ على عوراتِ النِّساءِ:

لا عورةَ للنِّساءِ مع الطِّفلِ الَّذي لم يتنبَّه إليها

المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾، هو الصَّغير الَّذي لم يتنبَّهْ لصغره على عورات النِّساء، فلا عورة للنِّساء معه، وإن تنبَّهَ لصغره ولمراهقته؛ لزم أن تَستر عنه المرأةُ ما بين سُرَّتها ورُكبتِها، وفي لزوم سترِ ما سواه وجهان: **أحدهما**: لا يلزم؛ لأنَّ القلمَ غير جارٍ عليه، **والثّاني**: يلزم كالرُّجل؛ لأنَّه يشتهي، والمرأة قد تشتهيه، واسم الطِّفل شاملٌ له إلى أن يحتلم[3].

دلالةُ العطفِ في قوله: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ﴾:

بيانُ أنَّ إظهارَ زينةِ المرأةِ مثيرٌ للرَّجلِ

جاءتِ الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ﴾ لمطلق الجمع، فعطفَ بين محاولةِ إظهارِ جانبٍ من جوانبِ الزّينةِ والتَّأثير على الرِّجال، بإظهار صوت الخلخال الَّذي تلبسُهُ المرأةُ في رجلها، فلا يظهر إلّا صوتُهُ، فذكرَهُ احتراسًا بعد أن أضافَهُ إلى جواز ما ظهر من الزّينة بغير قصدِ الإظهارِ، فجعل إظهار الصَّوت كإظهار الزّينة نفسها؛ لأنَّ العينَ ترى، والأُذُنَ تسمعُ، وكلاهما يؤثّران في إثارة شهوة الرَّجل.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 212.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/171.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 367.

علَّةُ نهيِ النِّساءِ عن الضَّربِ بالأرجلِ:

النَّهيُ عن الضَّربِ بالأرجُلِ مثالٌ يُحتَذَى به

الضَّربُ بالأرجل هو إيقاعُ المشي بشدَّةٍ، كقوله: يضرب في الأرض[1]، والمعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ﴾: لا تضرب المرأة برجلها؛ إذا مشتْ ليُسمع صوت خَلْخالها؛ إذ كانت المرأةُ تمرُّ بالنّاس، ومعلوم أنَّ الرَّجل الَّذي تغلب عليه شهوةُ النِّساء إذا سمع صوتَ الخَلْخال؛ يصير ذلك داعيةً له زائدة في مشاهدتهنَّ، وقد علَّل ﷻ ذلك بأنْ قال: ﴿لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾، فنبَّه به على أنَّ الذي لأجله نهى عنه أنْ تُعلم زينتُهنَّ من الحُليِّ وغيره[2]، فإسماعُ صوت الزّينة كإبداء الزّينة وأشد[3]، وسماع هذه الزّينة أشدُّ تحريكًا للشَّهوة من إبدائها، كما قال الزَّجّاج[4]، وهذا يقتضي النَّهيَ عن كلِّ ما من شأنه أن يُذَكِّرَ الرَّجلَ بلهو النِّساء، ويثير منه إليهنَّ من كلِّ ما يُرى أو يسمع من زينةٍ أو حركة، كالتَّثنّي، والغِناء، وكلام الغَزَلِ، ومن ذلك رقصُ النِّساء في مجالسِ الرِّجالِ، ومن ذلك التَّلطُّخُ بالطّيب الَّذي يغلب عبيره، وقد أومأ إلى علَّة ذلك قوله ﷻ: ﴿لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾؛ وذلك لِما تقرَّر في الأصول من أنَّ العلَّة تُعمِّم معلَولها[5].

بلاغةُ إيهامِ طباقِ السَّلبِ بين ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ﴾ و﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ﴾:

الضِّدُّ يخطُرُ بالبالِ عند ذِكرِ ضِدِّهِ

نجدُ بين أمره تعالى: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾، وبين نهيه: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ﴾ إيهامَ طباق السَّلب؛ لأنَّ حقيقة معنى ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ﴾ ضدُّ حقيقة معنى ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ﴾، غير أنَّ ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ﴾ هنا من جهة المعنى ليس بضدٍّ ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ﴾؛ لأنَّه كنايةٌ عن الإلقاء والوضع - كما سبق - ولكنَّه من جهة اللَّفظ يوهم المطابقة، فالتَّضادُّ هنا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 213.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 367.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 237.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 238.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 213 - 214، والشّنقيطيّ، نثر الورود: 2/ 448.

تضادٌّ ظاهريٌّ فحسب، والطِّباق لا يقوم على التَّضادِّ في ظاهر الألفاظ، وإنَّما يقوم على التَّضادِّ في المعاني، وفيه لطفٌ لا يخفى، فالطِّباق من الأمور الفطريَّة المركوزة في الطِّباع، وله علاقةٌ وثيقة ببلاغة الكلام مع الصّورة الجماليَّة الرائعة بين ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ﴾ و﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ﴾، وفيه وضعُ منهجٍ لكلِّ مسلمٍ بحيث يسير في حياته اليومية بين (افعلْ) و(لا تفعلْ).

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارِعِ: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ﴾:

تـأثـيرُ صـوتِ الـخَـلْـخـالِ مع تتابعِ المَـشْيِ في الإثارة

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ﴾ يدلُّ المضارع على الحاضر والاستقبال، ويدلُّ على التَّجدُّد مع الزَّمن، والضَّرب هنا مُتتالٍ ومستمرٌّ مع كلِّ خطوةٍ تخطوها المرأة، فيُحدث ذلك التَّكرارُ والتّوالي في سماع رنين خَلْخالها تأثيرًا في نفس الرَّجل، قد يكون أعظم من تأثير إظهار الزّينة نفسها، أو مواضع الزّينة من المرأةِ الَّتي لا يحلُّ إظهارها إلّا للمحارم، فالحركات المتوالية المنسجمة مع صوت متكرِّرٍ تكون فيها دعوةٌ إلى الانجذاب والإنصات والنَّظر إلى المصدر، فنهى اللّه تعالى عن ذلك.

النَّهيُ عن إظهارِ الزّينةِ أَوْلى من النَّهي عن إسماع صوتها:

دقَّـةُ التَّشريعِ الـقـرآنيِّ في الـحـفـاظ على المؤمنين

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾ يدلُّ النَّهيُ - عن إسماع الصَّوت الدّالِّ على وجود الزّينة - على أنَّ المنع من إظهار الزّينة أَوْلَى، وأنَّ المرأةَ منهيَّةٌ عن رفع صوتِها بالكلام أمام الأجانب، ولذلك كرهوا أذانَ النِّساء؛ لأنَّه يحتاج فيه إلى رفع الصَّوت، والمرأة منهيَّةٌ عن ذلك[1]، وإذا نُهين عن إظهار صوت الحُليِّ بعد ما نُهين عن إظهار الحُليِّ؛ عُلِمَ بذلك أنَّ النَّهي عن إظهار مواضع الحُليِّ أبلغُ[2]، وتظهر من ذلك دقَّة التَّشريعات

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 367.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 238.

القرآنيَّة وحرصها على تناول المسائل الخفيَّة الَّتي يظهر تأثيرها على الفرد والمجتمع، وهذا من عجائب الإعجاز التَّشريعيِّ في القرآن.

دلالةُ الباء في قولِه: ﴿بِأَرْجُلِهِنَّ﴾:

علَّةُ النَّهي عن التَّقصُّد في إظهارِ صوتِ الزِّينةِ

الباء في قوله تعالى: ﴿بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ للإلصاق في عموم أحوالها، فيكون ضرب رِجْلٍ برِجْلٍ، أو يضربن الأرض بأرجلهنَّ، فتكون إرادةُ إظهار الصَّوت بهذا الضَّرب ملتصقًا بالأرجل وحركاتها وقوَّتها.

دلالةُ استعمالِ الأرجلِ دون الأقدامِ:

الرِّجلُ تشتملُ على القَدَمِ والسّاقِ

آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بقوله: ﴿بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ دون: (بأقدامهنَّ)؛ لأنَّ الرِّجْلَ تشمل القدمَ والسّاق، وليست القدم وحدها، فيكون مع مشيهنَّ بأرجلهنَّ إحداثُ تلك الضَّربات أو الحركات؛ لتُظهرن تلك الأصوات، فتكون الرِّجل كلُّها سبب تلك الحركة، وإظهار الصَّوت، وليس القدم وحدَهُ، وقيل: كانت المرأةُ تضرب بإحدى رجلَيْها الأخرى؛ ليُعلم أنَّها ذاتُ خلخالَيْن[1].

دلالةُ اللّامِ في جملةِ: ﴿لِيُعْلَمَ﴾:

بيانُ أنَّ قصدهنَّ من الضَّربِ الإعلامُ بما يُخفين من الزِّينةِ

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ﴾ لام التَّعليل؛ فعلَّل سبب ضربهنَّ بأرجلهنَّ، وهو الإعلام بما يُخفين من زينتهنَّ، فهُنَّ لا يضربن بأرجلهنَّ إلّا لهذا الغرضِ فحسب، فيُستدَلُّ بمفهوم هذا التَّعليل على أنَّهنَّ إذا ضربن بأرجلهن لغرضٍ آخر؛ جاز لهنَّ ذلك، إلّا أن يُقال: إنَّ التَّعليل خرج مخرَجَ الغالب أو جاء موافقًا للواقع، فلا مفهوم له، كما تحتمل اللّام أن تكونَ لام العاقبة والصيرورة.

نكتةُ بناءِ فعلِ ﴿لِيُعْلَمَ﴾ للمفعولِ:

بيانُ قصدِ التَّبرُّجِ والإعلامِ بالتَّزيُّنِ في السّياقِ

في قوله تعالى: ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ﴾ أفاد البناءُ للمفعول العمومَ، فكلُّ مَنْ يسمع تلك الأصوات؛ سيعلم أنَّها تلبس الزِّينة الخفيَّة عن

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 238.

أنظار النّاس، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ المرأة قد قصدت التَّبرُّج بهذا الصَّوت وإسماع كلِّ مَنْ أراد أن يسمعَ، وهذه الحالة لا يؤمَنُ النّاس فيها من الوقوع في شَرَكِ الشَّهوةِ أو الحرامِ، فجاءَ النَّهيُ عنها.

بلاغةُ الكنايةِ في فعلِ ﴿لِيُعۡلَمَ﴾:

الغـايـةُ من الإعـلامِ هو جـذبُ النَّظر إليهنَّ

العِلم في قوله تعالى: ﴿لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ﴾ كنايةٌ عن جذبِ النَّظر إليهنَّ، وتحريك الشَّهوة عن السّامعين من الرِّجال أولي الإربة، وإشغالهم بأصواتٍ تأتي بتتابع تُدرك من خلالها خُطا المرأة وحركتها على الأرض، وإن لم ينظروا إليها، ويُخيَّل إليهم جسدُ المرأة وجمالُهُ ممّا يدعو إلى الزّنى.

نكتةُ التَّعبيرِ بالإخفاءِ ﴿يُخۡفِينَ﴾ دون الكتمانِ:

إحـلالُ العلمِ بالمسامعِ دون الأبصـارِ مبينٌ عن المُراد

اختار البيان القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿يُخۡفِينَ﴾، ولم يقلْ: (ما يكتمن)، وربَّما السِّرُّ في ذلك أنَّ الإخفاءَ أعمُّ من الكتمان، فالكتمانُ هو السُّكوت عن المعاني، والأسرار الَّتي تُكتم في الصُّدور، والإخفاء يكون في المعاني وفي غيرها، والشّاهد أنَّك تقول: أخفيتُ الدِّرهمَ في الثَّوب، ولا تقول: كتمتُ ذلك، وتقول: كتمتُ العِلم وأخفيتُه[1]، ولهذا ناسب الإخفاء في الآية ﴿لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ﴾؛ لتدلَّ على إخفاء الزّينة عن الأعين، بقرينة قوله: ﴿لِيُعۡلَمَ﴾، أيْ: بالصَّوت، فحلَّ العلم بالمسامعِ دون الأبصار، فيستدلُّ السّامع لأصوات الخَلْخال - الصّادر عن حركة المرأة - على وجود تلك الزّينة في رجليها.

دلالةُ حرفِ ﴿مِن﴾ في السّياقِ:

أصـواتُ الزّينـةِ الخفيَّةِ تُخيِّل للرَّجل جمالَ المرأةِ وإغواءَها

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾ بيانيَّة لوقوعها بعد مبهم وهو الموصول ﴿مَا﴾، لأنَّ المقصودَ بالنَّهي هو الصَّوت الدَّالُّ على الزينة، والذي قد يورث الرجال ميلًا إليهنَّ، ويوهم أنَّ لهنَّ ميلًا إليهم[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 287.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/171.

دلالةُ الزّيادةِ في أوامرِ النِّساءِ على الرِّجالِ:

الحـرصُ على المـرأةِ المؤمنةِ بزيادةِ الأوامرِ وتحريمِ التَّبرُّجِ

أمرَ اللّهُ تعالى الرِّجال بغضِّ البصر وحفظ الفرج، وأمر النِّساءَ بمثل ما أمر به الرِّجال، وزادَ في أمرهنَّ ألّا يُبدين زينتهنَّ إلّا لأقوام مخصوصين[1]، ودلالة ذلك أنَّ مبدأَ الشَّهوةِ هو بعضٌ من أفعال المرأةِ من إبداء الزّينةِ والتَّبرُّج.

معنى الواو في جملة ﴿وَتُوبُوٓاْ﴾:

الأمرُ بالتَّوبةِ بعد ذِكْرِ ما يوقعُ في الآثامِ والمهالكِ مسلكٌ في الوعظِ أثيرٌ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ حرفُ عطف، عطفت ما بعدها على قوله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾، فقد أُعقِبت الأوامر والنواهي الموجهة إلى المؤمنين والمؤمنات بأمر جميعهم بالتوبة إلى الله إيماءً إلى أنَّ فيما أمروا به ونهوا عنه دفاعًا لداعٍ تدعو إليه الجبلَّة البشريَّة من الاستحسان والشهوة، فيصدر ذلك عن الإنسان عن غفلة ثمَّ يتغلغل هو فيه، فأمروا بالتوبة ليحاسبوا أنفسهم على ما يفلت منهم من ذلك اللمم المؤدِّي إلى ما هو أعظم[2].

توجيهُ تخصيصِ التَّوبةِ بالذِّكرِ دونَ الاستغفارِ:

التَّوبةُ هي الرُّجوعُ والنَّدمُ عن المعاصي والآثامِ

لمّا سبقت أوامرُ اللّه ونواهيه في أمور حفظ النَّفس من أهوائها، ولا يكاد العبدُ الضَّعيف يقدر على مراعاتها دائمًا، وإن ضبط نفسَهُ، واجتهد، فلا بدَّ من تقصيرٍ يقع منه؛ أمرَ اللّهُ تعالى المُقصِّرين بالتَّوبة وبترجّي الفلاح؛ إذا تابوا، فقال جَلَّ من قائلٍ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[3]، فقال ﷺ: ﴿وَتُوبُوٓاْ﴾، ولم يقلْ: (واستغفروا)؛ لأنَّ التَّوبة تقتضي الرُّجوع عن المعصيَة، والنَّدم والتَّحسُّر على ما فات، ويتبع ذلك الاستغفار من تلك الآثام.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 360.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 214.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 238، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 37.

بلاغةُ الالتفاتِ في سياق الآية الكريمة:

خطابُ الأمَّةِ بالتَّوبةِ منهجٌ قرآنيٌّ في البلاغ

جملة ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وقد وقع التفاتٌ من خطاب الرَّسول ﷺ إلى خطاب الأمَّة؛ لأنَّ هذا تذكيرٌ بواجبِ التَّوبةِ المُقرَّرة من قبلُ، وليس استئنافَ تشريعٍ[1]، فخاطب الأمَّةَ لشمول الأمر بالتَّوبة إلى الله والإنابة إليه، والنَّدم عمّا بدَرَ من آثامِ كلِّ واحدٍ منهم.

نكتةُ الإطنابِ بالتَّنبيهِ في قولِه: ﴿جَمِيعًا﴾:

بيانُ شموليَّةِ التَّشريعِ لكلٍّ مِنَ المؤمنين والمؤمنات

نبَّه بقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ - إبلاغًا في طلب التَّوبة من الجميع - على أنَّ المخاطَبين هم المؤمنون والمؤمنات، وإن كان الخطابُ وردَ بضمير التَّذكير على التَّغليب -، وأن يؤمِّلوا الفلاح إن هم تابوا، وأنابوا[2]، فأطنبَ بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾؛ احتراسًا من أن يخطرَ بالبال أنَّ الخطاب لا يشمل المؤمنات؛ إذ قد فصل بينهما في الآيتَيْن، وخاطب المؤمنين والمؤمنات كلًّا على انفرادٍ.

دلالةُ حرفِ انتهاءِ الغاية ﴿إِلَى﴾:

بيانُ أنَّ المُنْتَهى يكون بصدق التَّوبة إلى الله

الأصلُ في (إلى) أنَّها للمُنْتَهى[3]، قال سيبويه: "وأمّا (إلى)؛ فمُنْتهى لابتداء الغاية"[4]، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّـهِ﴾: أن يكون مُنْتهى أمركم ونيّاتكم ورجائكم وتوبتكم إلى الله الذي يغفر الذُّنوب بقَبول توبتكم.

بلاغةُ ذِكْرِ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

الالتزامُ بالأخلاقِ الإسلاميَّةِ لهُ أثرٌ على الإيمانِ ورسوخِهِ

ذُكِرَ لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لما فيها من دلالة التَّذكير بالعبادة لله، فعلى المؤمن أن يتوبَ إلى الله من كلِّ ما اقترفَهُ، فقال ﷻ: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: (إِلَى ربِّكُم)؛ فجعل مجموع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 214.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 214.

(3) المُبرّد، المُقتضب: 4/ 139.

(4) سيبويه، الكتاب: 2/ 310.

ما ذُكِرَ من الآداب والتّعاملات الاجتماعية والأخلاقيّة مرتبطةً بالأُلوهيَّة، وجعل الالتزام بها كالعبادة لله؛ لما لهذه الأفعال من أثرٍ على الإيمانِ صعودًا أو نزولًا، فاستدعى الإيمانَ بقوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

غرضُ نداءِ المؤمنين في السّياقِ:

استدعاءُ طاقةِ الإيمانِ وإحياؤها في النُّفوس منهجٌ في البلاغِ

في قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ تظهر أهميَّةُ نداء الإيمان في نفوس المؤمنين بعد ما أصابهم من لوثة الآثام في الحياة والمُعاملات والاختلاط، فيأتي نداءُ الإيمان؛ ليُحيي تلك النُّفوس بطاقة الإيمان الَّتي هي أعظم طاقةٍ عرفها الإنسان، وهي الطّاقة المُستدامة الَّتي يرعاها الله فيهم، فتمحو ما علق في النُّفوس من شوائب الشَّهوة والإثم.

والإيمانُ هو النّور في القلب، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشّورى: 52]، فيكون استدعاء الإيمان في هذه الآية لغرض الهداية وتطمين القلوب بذِكْرِ الله.

بلاغةُ حرفِ التَّرجّي ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾:

رجاءُ الفلاحِ بالتَّوبةِ الآيلة للفوزِ والنَّجاحِ

ثمَّةَ نكتةٌ بلاغيَّة في إيراد (لعلَّ)، في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾، وهي الموضوعة للترجّي، فالإشعار بأنَّ المُتمنَّى قريبُ الحصول، وإظهاره في صورة المرجوِّ حصولُهُ لشدَّة الرَّغبة فيه؛ إذ لا أحد من المؤمنين إلّا ويرجو أن يكونَ عند الله من المفلحين، فبلوغُ الفلاح مع الأهواء والشَّهوات والانغماس فيهما أمرٌ لا يكون، ولا يُرتجى، فجاءت التَّوبة باستدعاء الإيمان والصِّدق فيها؛ لتحيل البعيد قريبًا يُرتجى حدوثه.

غرضُ حذف مُتعلِّق الفعل ﴿تُفۡلِحُونَ﴾:

حُذِف متعلِّقُ الفلاح في قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾، فلم يذكر

الفلاح: أهو في الدُّنيا أم في الآخرة؟ فدلَّ الحذف على عموم الفلاح، فهو فلاحٌ في الدّارَيْن: الدُّنيا والآخرة[1]، وهو ترك أثرٍ في الدُّنيا ممّا يُقدِّمه الفردُ من صالح الأعمال، وهو الفوز في الآخرة كحصيلةٍ للإيمان والتَّوبةِ والأعمالِ الصّالحة.

بيانُ أنَّ فلاحَ الدُّنيا والآخرة هو غايةُ الالتزام بالأحكام

دلالةُ كثرةِ مجيءِ ضمائرِ الإناثِ في هذه الآيةِ:

قولهُ تعالى: ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أكثرُ آيةٍ في القرآن الكريم، وردت فيها ضمائر للإناث، قال مكّي بن أبي طالب: "وهذه الآية تضمَّنت خمسةً وعشرين ضميرًا - بين مرفوعٍ ومخفوضٍ - كلّها تعود إلى المؤمنات: أوَّلُها: الضمير المرفوع في ﴿يَغۡضُضۡنَ﴾، وآخرها: الضمير المخفوض في قوله تعالى: ﴿مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾، ولا أعلم لهذه الآية نظيرًا في القرآن في كثرة ضمائرها"[2]، وقد اعتنت الآية بضمائر الإناث لما تحويه من حساسيَّة التَّشريع حول زينة النِّساء، وما يكون منهنَّ إنْ تساهَلْنَ بها من الفتنة، فكان لكلِّ ضميرٍ تنبيهٌ على أنَّ الأنثى ذاتُ مكانة مرموقة، وعليهن أن يعتنين بأنفسهن أتمَّ العناية وأكمل الرِّعاية بما يسدُّ الخَلَلَ، ويمنع الخطر، ويدلُّ ذلك على الاهتمام بقضيَّة ستر المرأة وعدم إظهار زينتها إلّا للمحارم.

دلَّتِ الضَّمائرُ الكثيرةُ على مكانةِ المرأةِ والعنايةِ بها

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البَعْل والزَّوج:

يُقال للزَّوج: بعلٌ، والبعالُ ملاعبةُ الرَّجُل أهلَهُ[3]، والبَعْلُ: الزَّوجُ، وامرأةٌ مُستبعلٌ؛ إذا كانت تحظَى عند زوجها، والرَّجل يتعرَّس لامرأته يطلب الحُظْوَة عندها: والمرأة تتبعَّل لزوجها؛ إذا كانت مُطيعةً له[4]، فالبَعْل مُرادٌ به الزَّوجُ الَّذي يطلب زينة زوجته، ويريدها أن تتبعَّل له.

البَعْلُ الرَّجل يتعرَّس لامرأته يطلب الحُظْوَة عندها، والزَّوجُ القرين

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 4/ 450.
(2) مكّيّ، الهداية: 8/ 5068.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعل).
(4) الخليل، العين: (بعل).

أمّا لفظُ (الزَّوج)؛ فيدلُّ على مقارنة شيءٍ لشيءٍ، من ذلك الزَّوج: زوج المرأة، والمرأة زوجُ بعلها، وهو الفصيح، قال تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35][1]، والزَّوْجُ: البعل، والزَّوج أيضًا: المرأة، ويُقال لها: زَوْجَةٌ أيضًا، وقوله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤﴾ [الدُّخان: 54]، أيّ: قرنّاهم بهنَّ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿۞ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصّافّات: 22]، أيّ: وقرناءَهم، والزَّوْجُ ضدُّ الفرد، وكلُّ واحدٍ منهما يُسمّى زوجًا أيضًا، يُقال للاثنَيْن: هما زوجان، وهما زوجٌ[2]، ويُقال: لفلان زوجان من الحمام، يعني: ذكرٌ وأنثى، فأمّا قوله تعالى في ذِكْرِ النَّبات: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحجّ: 5]؛ فيُقال: أراد به اللَّونَ، كأنَّه قال: من كلِّ لونٍ بهيجٍ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زوج).
(2) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (زوج).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زوج).

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٣٢﴾ [النور: 32]

النِّكاحُ معونةٌ على سلامةِ النَّفْسِ واستقامةِ الجوارح

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكَرَتِ الآياتُ السّابقةُ ما يصون الأسرة في كيانها، وما فيه صيانةُ النِّساء من قولِ السّوء، وأن تُمسَّ عِفَّتهن بالأنظار الجارحة، فأمر الرِّجال بغضِّ البصر، وأمر بأن تكون نظراتُ النساءِ غيرَ مُغْرِيةٍ لأهل السّوء، وألّا يكونَ إبداءُ الزّينة مُغْرِيًا لأهل الدَّعارة والفساد، وذلك لحماية النُّفوس من الشَّرِّ؛ بيَّن بعد ذلك الأمرَ الإيجابي الذي يصون المرأةَ والرَّجلَ عن تطلُّعاتِ الشَّهواتِ المُحرَّمة، وهو سبيل العِفَّة، والطريقُ الصَّحيحُ لبَذْلِ الغريزةِ والرَّغْبة، وهو النِّكاح، فقال سبحانه: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَيَٰمَىٰ﴾: جمع أَيِّم، وهي المرأة التي لا زَوْج لها[2]، ثيّبًا كانت أو بِكرًا[3]، وقد قيل: (أيِّم) - أيضًا - للرَّجل الَّذي لا امرأةَ له، وذلك على طريق التَّشبيه بالمرأةِ، فيمن لا غِناء عنه، لا على التَّحقيق[4]، ووزن (أيِّم): (فَيْعِل) مأخوذٌ من: آمَ يَئِيمُ، كباع يبيع، وقياس جمعه: أيائِم، ووزن (أيامى): فعالى، وقيل: فيه قلْبٌ، أصله: أيايِم[5]، فقُلِبَتِ الياءُ، وجُعِلَتْ بعد الميم[6].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5186.
(2) ابن فارس، المقاييس: (أيم).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (أيم).
(4) الراغب، المفردات: (أيم).
(5) صافي، الجدول: 18/ 260.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (أيم).

2) ﴿عِبَادِكُمۡ﴾: العَبْدُ: خلاف الحُرِّ، والجَمعُ أَعْبُد وعَبيد، مِثْلُ كَلْبٍ وكَليبٍ - وهوَ جَمع عَزيزٌ - وعِبادٌ وعُبُدٌ مِثْلُ: سَقْف وسُقُف[1]، والعَبْدُ: الإِنسان، حُرًّا كانَ أَو رَقيقًا؛ لِأَنَّهُ مَرْبوبٌ لِباريهِ - جَلَّ وعَزَّ - مملوكٌ له[2]، ومنه العُبوديَّةُ: إظهار التَّذلُّل، والعِبادَةُ أبلغُ منها؛ لأنَّها غاية التَّذلُّل، ولا يستحقُّها إلّا مَن له غاية الإفضال، وهو اللّه تعالى، والمراد بالعباد في الآية: الرَّقيقُ المملوك، وهو الإنسان الذي يصحُّ بيعه وابتياعه، نحو: ﴿وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ﴾ [البقرة: 178]، و﴿عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ [النحل: 75]، وغلبَ استعمالُ العبيدِ في الرِّقِّ للنّاس، واستعمال جمع العبادِ في عبوديَّة اللّه سبحانه[3].

3) ﴿وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾: (أما) أصلٌ واحد، وهو عبوديَّة المملوكة، والأَمَةُ: المَرْأَةُ ذاتُ عُبوديَّةٍ، تَقولُ: أَقَرَّتْ بِالأُموَّةِ، أي: بكونها صارت أمَةً، أي: عبْدَة، والإماء: جمع أَمَة، وهنَّ النِّساء المملوكات[4].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

النّاسُ بعضُهم أولياءُ بعضٍ

يقول الحقُّ سبحانه: زوِّجوا - أيُّها الأولياء والسّادة - من كان أهلًا للزَّواج، وصالحًا له وراغبًا فيه، مَن لا زوج له مِن الأحرار والحرائر والصّالحين مِن عبيدكم وجواريكم[5]، ولا يمنعكم فقرُهم من إتمامهِ، فإنَّهم إن يكونوا فقراءَ اليوم؛ فاللّه تعالى قادرٌ على أن يُغنيَهم في الحال أو في المستقبل متى شاء ذلك، فإنَّ قدرته ﷻ لا يُعجزها شيءٌ، وكم من أناسٍ كانوا فقراءَ قبل الزواج، ثمَّ صاروا أغنياء بعده؛ لأنَّهم قصدوا بزواجهم حِفْظَ فروجِهم، وتنفيذ ما أمرتهم به شريعةُ الإسلام[6].

(1) الجوهري، الصحاح: (عبد).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (عبد).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (عبد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أموى)، وابن منظور، لسان العرب: (أما).
(5) مجموعة من العلماء، التفسير الميسّر، مجمع الملك فهد.
(6) طنطاوي، الوسيط: 10/ 122.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟﴾:

النِّكاحُ من أسبابِ العفاف واستدامةِ التوبة وتحصيل الاستقامة

الواو للاستئناف، وجملة ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ﴾ استئنافٌ نحويٌّ؛ للشُّروع في توجيهٍ يُعينُ على مضمون التوجيهات السّابقة في غضِّ البصر، وحِفظ الفرج، وعدم إبداء الزِّينة من المؤمنات أمامَ غير المحارم المنصوص عليهم، والتوبةِ العامَّة من اختلاس ما لا يَحلُّ من الشَّهوات، فانتقل بقوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ﴾ إلى ما يُقرِّر هذه المضامين، ويُعين عليها، وهو من باب الاستعانة على تفادي الشَّيء السّالب بفعل ضدِّه الموجَب، والأشياء تُدفَع بأضدادها، وكذلك النِّكاحُ يدفع أضدادَهُ السّالبة النّاقصة، من إطلاق البصرِ والانشغال بالشَّهوة، إلى المعنى الموجَب الكامل من الإحصان والعفاف وسكون النَّفسِ عن تشهّي المحرَّمات، ويصحُّ أن تكون الواو في: ﴿وَأَنكِحُوا۟﴾؛ لِعطفِ مدخولِها على جملة: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [النور: 31]؛ للجَمع بين التوبة والنِّكاح، ومناسبةُ الجمع بينهما: أنَّ النِّكاح هو مَظِنَّةُ استدامةِ التوبة المأمور بها، وهو من أقوى الأسباب على مُدافَعةِ عوارضها ونواقضها[1].

دلالةُ الأمر في قوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟﴾:

صيغةُ الأمر المجرَّدة عن القرائن تقتضي الوجوب

ظاهرُ الأمر في قوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟﴾ للوجوب؛ لأنَّ صيغةَ الأمر المجرَّدة عن القرائن تقتضي الوجوبَ، وفيه: أنَّ الخاليَة من زَوّجٍ إذا خطبها كفءٌ ورضيَتْهُ؛ وجب على وليّها تزويجُها إيّاه، وأنَّه ليس للسيِّد مَنْعُ عبدِه وأمَتِه من التزويج مطلقًا؛ لمخالفته نصَّ القرآن في هذه الآية الكريمة[2]، ويصحُّ حملُ الأمر على الندب؛ لأنَّ النِّكاح مندوبٌ عليه في الجملة، فكذلك إنفاذُهُ والسَّماح به من الأولياء[3]،

(1) صافي، الجدول: 9/ 258.
(2) الشنقيطي، أضواء البيان: 5/ 530.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 502.

والظّاهرُ أنَّ صيغةَ الأمر في قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ مُجْمَلَةٌ تحتمل الوجوب والندب بحسب ما يَعرِض من حال المأمور بإنكاحهم، فإن كانوا مَظِنَّةَ الوقوع في مضارِّ الدّين أو الدُّنيا كان إنكاحهم واجبًا، وإن لم يكونوا كذلك؛ كان غيرَ واجبٍ(1).

عودُ الضَّميرِ في ﴿وَأَنكِحُواْ﴾:

دلالة الآية على اشتراط الولي لصحة النكاح

مرجعُ ضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ للأولياء والسّادة والحكّام، أمرهم اللّهُ بتزويج الأيامى من الأحرار والحرائر، ومن العبيد والإماء، وإنكاح الرَّجل الحرِّ يكون بموافقة أولياء المرأة على تزويجه منها، وليس معنى إنكاحهِ بأنَّهم أولياءُ له(2).

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأَيَٰمَىٰ﴾:

حث الأولياء على تيسير أمر الزواج صيانةً للأعراض ولتكوين الأسرة الصالحة

(أل) في ﴿ٱلۡأَيَٰمَىٰ﴾ للعهد، بقرينة قوله: ﴿مِنكُمۡ﴾، أي: بتزويج من لا زوج له، ومن لا زوج لها من المسلمين والمسلمات، فيُفْهَمُ من دليل الخطاب - أي: مفهوم المخالفة - في قوله: ﴿مِنكُمۡ﴾ أنَّ الأيامى من (غيركم)، أي: من غير المسلمين، وهم الكفار ليسوا كذلك، وهذا المفهوم - الذي فُهِمَ من هذه الآية - جاء مصرَّحًا به في آياتٍ أُخَر، كقوله تعالى في أيامى الكفار الذُّكور: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ﴾ [البقرة: 221]، وقوله في أياماهم الإناث: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ﴾ [البقرة: 221]، وقوله فيهما جميعًا: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾ [الممتحنة: 11]، فهذه النصوص القرآنيَّةُ الصريحة الموضِّحةُ لمفهوم هذه الآية، تدلُّ على أنَّه لا يجوز تزويج المسلمة للكافر مطلقًا، وأنَّه لا يجوز تزويج المسلم للكافرة، إلّا أنَّ عموم هذه الآيات

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 217.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 105، وابن جزي، التسهيل في علوم التنزيل: 2/ 68، وابن عثيمين، تفسير سورة النّور، ص: 200.

خصَّصته آية [المائدة: 5]، فأبانت أنَّ المسلم يجوز له تزوُّج المحصنة الكتابية خاصَّةً[1].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿ٱلۡأَيَـٰمَىٰ﴾ مادَّةً وصيغةً:

﴿ٱلۡأَيَـٰمَىٰ﴾، جمع الأيّم: اسمٌ لِمَن ليس له زوجٌ - أنثى كان أم ذكرًا - وزنه (فَيْعِل) مأخوذ من (آمَ يَئِيم)، كباع يبيع، وقياس جمعِه: (أيائِم)، ووزن (أيامى): فعالَى، وهو جمعٌ لـ(فَيْعِل) على غير القياس، ودلالة (فَعالَى) صيغة منتهى الجموع لما اشتمل على التنوّع في الأيامى من نقصٍ أو آفة أو بلايا وأوجاع، كـ(يتامى)، فلمّا اشتمل التأيُّم على البليَّة والوجع بفقدان الزَّوج؛ أتى على هذا الجمع؛ للدَّلالة على ذلك، وجاءتِ الآية موافقةً له.

معنى (من) في: ﴿مِنكُمۡ﴾:

(مِن) في: ﴿ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ ابتدائيَّة، أي: من جهتكم في الدّين، ويصحُّ أن تكونَ اسمًا بمعنى (بعض)، أي: أنكحوهم بعضَكم من الأحرار لا من الأرقّاء.

موقع جملة: ﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ ممّا قبله:

قوله: ﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ﴾ معطوفٌ على ﴿ٱلۡأَيَـٰمَىٰ﴾؛ لإشراكهم معهم في حكم العامل، كأنَّه قيل: وأنكِحوا الصالحين من عبادكم كذلك، فجمع بين الأحرار والعبيد في حقِّ تزويج الولاة لهم.

حق الزواج مكفول لكل مسلم حرًّا كان أو عبدا

معنى (أل) في: ﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾:

(أل) في الصالحين للعهد، وهو الصلاحُ بمعناه الشرعيِّ، واعتبار الصلاح في الأرقّاء دون الأحرار؛ لأنَّ من لا صلاح له من العبيد، لا يتمُّ له ضمانُ سيّده له، فربَّما وقع الضرر بتزويجه، ولأنَّ سيّدَهُ غارمٌ له في تزويجه، فيكون غُرمًا عليه وعِبئًا بلا مصلحة، فاستبقاؤه عنده - بلا زواج - خيرٌ من تزويجه.

الجاهزيَّة النَّفسيَّة المستقيمة هي مِفتاح الصَّلاح والإصلاح

---

(1) الشنقيطي، أضواء البيان: 5/ 530.

ولمّا لم يكن مَن لا صلاح له من الأحرار والحرائر بهذه المنزلة؛ لم يعتدَّ بصلاحهم، ولم يقيَّد تزويجهم به[1].

ويصحُّ أن يكون التعريف في الصالحين للجنس، أي: الصَّلاح بمعناه اللغويِّ، أي: الصّالحين للنّكاح والقيام بحقوقه، والصلاح اللغويُّ أعمُّ من الشرعيِّ، فيدخل فيه صلاحُ الدّين أيضًا؛ لأنَّ من لا دين له لا يُسمّى صالحًا للنّكاح؛ لاشتراط الدّيانة في الآية هنا بقوله: ﴿مِنكُمْ﴾، ووجود الدّيانة يستلزم قدرًا ضروريًّا من الصَّلاح الشرعيِّ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

الزوج الصالح من مقومات الزواج الناجح

التَّعبيرُ بوصف الصَّلاح في قوله: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ للدَّلالة على سلامة الحال حِسًّا ومعنًى، وموافقة الهيئة النفسيَّة والجسديَّة التي جُعِلَتْ لازمةً لصيانة عقْد النِّكاح وما يترتَّب عليه من آثار، ولذا فالصَّلاح هنا يشمل عموم السَّواء في الحال، والخلوِّ من ظاهر القوادح.

نكتةُ العدولِ عن التَّعبير بـ(العبيد) إلى التَّعبير بـ (العباد):

تكريمُ العبيدِ بالعدول إلى التَّعبيرِ عنهم بالعباد حثٌّ على تزويجهم ومكاتبتهم

نكتةُ مجيء الرِّقِّ في الآية هنا على جمع العباد دون العبيد؛ لأنَّه في محلِّ التكريم لهم، بالأمر بتزويجهم، وللتمهيد بهذا الجمعِ إلى تحريرهم بالمُكاتبَةِ على الإعتاق، والمذكورة في الآية التّالية؛ إشارةً إلى أنَّه ينبغي أن يكون اتِّصاف هؤلاء بالعبوديَّة والمملوكيَّة خالصًا لله سبحانه، دون أحدٍ من الخَلْقِ، ولذا أمر بمكاتبتهم بعد الأمر بإنكاحهم، تقصُّدًا إلى تخليصهم، ولذا وصفهم بالعباد، دون العبيد، تحرّيًا لتلك الغاية.

نكتةُ فصل قوله: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ﴾:

الفقرُ ليس سببًا لمنعِ التزويج مع توافر الصَّلاح

جملةُ: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ عمومَ الأيامى والعبيد والإماء في صيغة الأمر يُثير سؤالَ الأولياء والسّاداتِ أن يكونَ الراغبُ في تزوُّج المرأة الأيِّم فقيرًا، فهل يردُّه الوليُّ؟ وأن

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 342.

يكون سيّد العبدِ فقيرًا لا يجِد ما ينفِقُه على زوجِ عبْدِه، وكذلك سيّد الأمَةِ يخطبها رجلٌ فقيرٌ حرٌّ أو عبْدٌ، فجاء هذا الاشتراطُ؛ لبيان إرادة العموم في الأحوال(1).

فائدةُ التَّعبيرِ بالشَّرطيَّة:

يبدّل الله تعالى أحوال عباده من حال إلى حال، بحكمته وعدله

الغرضُ من أسلوب الشرط - في قوله: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ - إجراءُ الكلام مجرى الوعدِ المُعلَّق بشرطه، فالأسلوب فيه مبالغةٌ في الترغيب في النِّكاح بجعلِ حصول الإغناء مشروطًا ومُعلَّقًا على وجود الفقر، وهذا إعجازٌ في المعنى بديع لا يكون إلّا من إلهٍ قادر، كأنَّه سبحانه يولِّد الغِنَى من تلافيف الفقر، كما يخرِج الحيَّ من الميِّت، وكما يجعل من الشَّجر الأخضر نارًا، فإجراءُ النَّظم على أسلوب الشرطِ والجزاء، وجعْلُ الجزاء مترتِّبًا على ضِدِّه، وهو الجزاء بالغِنى على الفقر؛ غايةٌ في الضمانةِ وإراحةِ النَّفس من عناء التدبير وتفويض الأمرِ كلِّه لله، وشبيهٌ بهذه الآية في مضمون الوعد والجزاء والتزام العِفَّة ومُجانَبَة الفحشاء، قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨﴾ [البقرة: 268]، ولمّا كانت في معناها، فقد خُتِمَتْ خِتامها.

غرضُ مجيءِ الشَّرط بـ﴿إِن﴾، دون (إذا):

تحقيق الغنى بالزواج مرهون بمشيئة الله وموقوف عليها

مجيء الشرط بـ﴿إِن﴾ في قوله: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ﴾ لوقوع الاحتمال في مدخولها، فقد يقع أن يكونوا فقراء، وقد لا يقع، وأيضًا قد يتحقَّق ذلك الغنى بالزَّواج، وقد لا يتحقَّق، حسبما تقتضي مشيئته تعالى، ولا معقِّب لحكمه؛ إذ لو اعتقدنا أنَّ اللّه تعالى يغني كلَّ متزوِّج على الإطلاق مع أنا نشاهد كثيرًا ممَّن استمرَّ به الفقر بعد النِّكاح، بل زاد، للزم خُلف الوعد - تقدَّس اللّه وتعالى عن ذلك

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 217.

- فقد ثبت الاضطرار إلى تقدير شرطٍ للجمع بين الوعد والواقع، وهو المشيئة[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارع في قوله: ﴿يَكُونُواْ﴾:

دوامُ الحال من المُحال

التَّعبيرُ بفعل الكون المضارع؛ للدَّلالة على إمكان تغيُّر حال الفقرِ فيما بعد، وللدَّلالة على أنَّ الفقر عرَضٌ يزول، فلا يُستغرَب تعقيبُه بالغِنى والسَّعَة، والتعبير المضارع للدَّلالة على الحال، ويُشْعِر بأنَّه قد يقع في النِّكاح ضيِّقٌ وسَعة[2]، وهذا ليس مستفادًا من المضارع وحدَهُ، بل من تركيب: ﴿إِن يَكُونُواْ﴾ بالشكِّ في المضارع، والشكُّ يوجب الاحتمال في المُتقابِلَين.

عودُ الضَّمير في ﴿يَكُونُواْ﴾:

لا يُــرَدّ ذو صـلاح بسبب فـقـره، فالفقر والغنى بيد الله وهـو قـادر على إغنائهم

ضميرُ الجمع في قوله: ﴿يَكُونُواْ﴾ إمّا أن يعودَ إلى الأحرار في قوله: ﴿ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾، ولا يرجع إلى العبيد والإماء؛ لأنَّهم لا يملكون شيئًا، وهم أنفسهم مملوكون لسيّدهم، ومن لا مِلْك له لا غِنى له، فهو فقيرٌ شرعًا وقدرًا، ويصحُّ أن يعودَ الضَّمير على جميع من ذُكِر، أي: إن يكن هؤلاء الذين أَمرتم بإنكاحهِم ذوي فاقةٍ وفقرٍ؛ يغنِهم اللّه من فضلِه، فلا يمنعكم فقرُهم من إنكاحهم[3]، وعلى هذا العموم في مرجِع الضَّمير، يكون المرادُ من إغناء العبيد إغناءهم بإنفاق ساداتِهم عليهم، أو بإغناء ساداتهم، فغِنَى السيّد غِنًى لعبده، أو المرادُ إغناؤهم بتكسُّبهم، وإنْ كان كسبُ العبد لسيّده؛ فإنَّه ينتفع به، ويعود إليه في إنفاق سيّدِهِ عليه، والقولُ بالعموم في مرجع الضَّمير أحسن؛ لأنَّه لا التباس في إجرائه على من سبقوا جميعًا، مع إمكان التأويل السّائغ عند إيهام الالتباس في المرجِع.

(1) ابن المنير، الانتصاف: 3/ 235.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 266.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 274.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإغناء في قوله: ﴿يُغۡنِهِمُ﴾:

أسبابُ الغِنى أوسعُ من المال

التعبيرُ بالإغناء في جملة الجواب: ﴿يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾، يدلُّ على الوعد بالكفاية وعدم الحاجة، وهذا المفهوم أوسعُ من حصول المال، فإنَّ الكفاية قد تقع لمن لا وفْرةَ له، وقد يوصَفُ بعدم الحاجة مَنِ استغنى عن المُقتنيات، فمَن لم يكن ذا حاجة إلى شيءٍ ما؛ فهو الغنيُّ عنه، فأسبابُ الغِنى أوسعُ من المال، والمالُ سببٌ منها.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾:

منشأُ الغنى من فضل الله، لا من المال، وفضلُ الله أوسعُ من المال

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ ابتدائيَّةٌ، أي: من جهة فضلِه ينشأ الغِنى، ومعناه: أنَّ الإغناء هو في فضل اللّه، لا في السَّبب الظاهر، وهو المال وحده، كأنَّه قيل: يستغنون بفضل اللّه الذي قد يكون المال منه، ولا ينتفي ذلك الفضل عنهم بقلَّة المال، بل الفضل سببٌ في غِناهم، ولو حصل لهم من غير السبب الماليِّ الظّاهر، وهذا مبنيٌّ على أنَّ منشأ الغِنَى من الفضل لا من المال، وهذا هو المفهومُ مِن ابتدائيَّة ﴿مِن﴾، ويشتمل معنى ﴿مِن﴾ هنا على السببيَّة، أي: يستغنون بسبب فضل اللّه الواسع، ولم يقل: (يغنهم اللّه بفضله) بالباء السببيَّة؛ لأنَّ استعمال الباء يكون شائعًا فيما يرجع إلى الفاعل، كمن يقول: استغنيت باللّه، واستعمال ﴿مِن﴾ فيما يرجع إلى المادَّة والآلة - كما في الآية - فالفضل هنا بمنزلة الآلةِ والمادَّة والأثر[1].

معنى الواو في قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾:

الوسعُ حاصلٌ مضمون؛ لكنَّه بالعِلم يَقعُ في مواقِعِه المُقدَّرة

جملة: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ استئنافٌ تعليليٌّ مقرِّرٌ لمضمون الجملة قبله، كأنَّه قيل: (يغنِهم اللّهُ من فضله؛ لأنَّه واسعٌ عليم)، فلا يتأثَّر إفضاله عليهم بقلَّةٍ أو نقص، ولا يقع إغناؤه لهم عبثًا في غير محلِّه،

(1) القونوي، حاشية القونوي: 13/ 341.

بل يقع على عِلْم منه بمن يستحقُّهُ، وبمن صدَّق الوعد، وأحسن الظنَّ، وامتثل الأمر، فكان بما عند الله أوثَقَ منه بالأسباب الظاهرة والأحوال النّاقصة من العوزِ والحاجة، وقدَّم الوسع على العِلْم؛ ليُخبِرَ أنَّ الوسعَ حاصلٌ مضمون، لكنَّه بالعِلم يَقَع في مواقِعِه المُقَدَّرة(1).

(1) صافي، الجدول: 9/ 258، والقنوجي، فتح البيان: 9/ 215.

﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٣﴾ [النور: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّشريعُ يُراعي جميعَ الأعراف والأحوال

لمّا ذَكَر في الآية السابقة تزويجَ الحرائر والإماء؛ ذكَرَ حالَ من يعجَز عن ذلك[1]، فأمرَ في الآية السّابقة بالنُّهوض بمسألةِ الأيامى، وأن يُعانوا على الزّواج، وبيَّن في هذه الآية أنَّه إن لم يَقُمِ المجتمع بدوره، ولم تكن لهؤلاء الأيامى قدرةٌ ذاتيَّةٌ على الزَّواج؛ فليستعفف كلٌّ منهم حتى يغنيَهم الله، ممّا يدلُّ على أنَّ التَّشريع يبني أحكامه، ويراعي كلَّ الأحوال، سواء أطاعوا جميعًا، أم عَصَوا جميعًا[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ﴾: أصل (عفَّ): الكَفُّ عن القبيح[3]، والعِفَّةُ: حصول حالةٍ للنَّفس، تمتنع بها عن غلبةِ الشَّهوة، والمُتَعَفِّفُ: المتعاطي لذلك بضرْبٍ من الممارسةِ والقهْر، وأصله: الاقتصارُ على تناول الشَّيءِ القليل الجاري مجرى العُفافَةِ والعُفَّة، وهيَ بَقيَّةُ اللَّبَنِ

(1) الرازي، التفسير الكبير: 23/ 372.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 10264.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عف).

في الضَّرْعِ بَعْدَ أَن يُحْلَبَ أكثر ما فيه[1]، ثم تقال للبقيَّة من الشَّيءِ عمومًا، والاستعفاف: طلب العفَّة[2]، وهو المراد في الآية.

2) ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: (كتب) أصلٌ يدُلُّ على جمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[3]، والمكاتَبة، وكتابةُ العبدِ: ابتياعُ نفْسِه من سَيِّدِه بما يؤدّيهِ من كَسْبه، فيَعْقِدُ معَه عقدًا على مالٍ بشرطِ أنَّه إذا أدّاه؛ يُعتَق، وأصلُه من الكتابِ، يُرادُ بذلك الشَّرطُ الَّذي يُكْتَبُ بيْنَهما[4].

3) ﴿فَتَيَٰتِكُمْ﴾: (فتى) أصلٌ يَدُلُّ على طَراوَةٍ وجِدَّةٍ[5]، والفَتَى: هو الطَّريُّ من الشَّباب، والأنثى فتاةٌ، والمصدر فتاءٌ، ويُكنّى بهما عن العبد والأَمَة، والمراد بـ﴿فَتَيَٰتِكُمْ﴾ في الآية، أي: إمائكم[6].

4) ﴿ٱلْبِغَآءِ﴾: البِغاء مِنْ (بغي): وهو أَصْلانِ: أَحَدُهُما: طَلَبُ الشَّيْءِ، والثّاني: جِنْسٌ مِنَ الفَسادِ[7]، وأكثر استعمال (البغي) في الأشياء المذمومة، لاسيّما؛ إذا أُطْلِق، نحو: زيد بَغَى، وقد بغى زيد على عمرو[8]، يقال: بغَيْت وابتغيت، أي: طلبت أكثر ممّا يجب، وكلُّ موضعٍ ذُكِرَ فيه البَغْي؛ فلابدَّ من معنى المجاوزة فيه، كقولهم: بَغَتِ المرأة، أي: تجاوزت في الفجور الحدَّ، وقوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾، أي: على الفجور؛ لأنهنَّ جاوزن ما ليس لهنَّ[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بعد أن بيَّنَ اللّه سبحانه حال القادرين على النِّكاح ووسائله؛ بيَّن حالَ العاجزين عن تلك الوسائل، فقال: وليجتهد في العِفَّة وصون

الإصلاحُ الدّينيُّ الصحيح هو الذي يضع الوقايات، ويوجد العِلاجات

(1) ابن منظور، اللسان: (عفف).
(2) الراغب، المفردات: (عف).
(3) ابن فارس، المقاييس: (كتب).
(4) السمعاني، تفسير القرآن: 3/ 527، والراغب، المفردات: (كتب)، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 257.
(5) ابن فارس، المقاييس: (فتى).
(6) الراغب، المفردات: (فتى).
(7) ابن فارس، المقاييس: (بغي).
(8) السمين، عمدة الحفاظ: (بغي).
(9) الراغب، المفردات: (بغي).

النَّفس مَن لا يتمكَّن من المال الَّذي به يتمُّ النِّكاح، ولينتظر أنْ يُغنيَهُ اللّٰه من فضله حتّى يصلَ إلى بُغيته من النِّكاح[1]، والَّذين يريدون أن يتحرّروا من العبيد والإماء بمكاتبة أسيادِهم على بعض المال يؤدّونه إليهم؛ فعلى مالكيهم أن يكاتبوهم على ذلك إن علموا فيهم خيرًا مِن رشْدٍ وقدرةٍ على الكسْب، وعليهم وعلى غيرهم أن يساعدوهم بالمال في ذلك، ولا يجوز لكم إكراه جواريكم على الزّنى طلبًا للمال، وكيف يقع منكم ذلك، وهنَّ يُرِدْن العِفَّة، وأنتم تأبونها؟ وفي هذا غاية التَّشنيع لفعلهم القبيح، ومن يُكرههنَّ على الزِّنى؛ فإنَّ اللّٰه تعالى من بعد إكراههن غفورٌ لهنَّ رحيمٌ بهنَّ، والإثمُ على مَن أكْرههنَّ[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ﴾:

جملة ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿وَأَنكِحُواْ﴾؛ ليجمع في الأمرِ والتكليف بين خطاب القادرين، وخطاب العاجزين، كلٌّ بما يُناسبه[3]، فيكون تشريع اللّٰه تعالى شاملًا للأحوال كلِّها، مراعيًا لجميع خلقه.

كلُّ ميسَّرٌ لما خُلِقَ له، والعبد يتكلَّف ما لم يتيسَّر له، فيعجَز

معنى اللّام في ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ﴾:

اللام في: ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ﴾ لام الأمر، أي: فليبالغ في طلب العفة وإيجادها، وليُلازموا العفاف في مدَّة انتظارهم تيسير النكاح لهم بأنفسهم أو بإذن أوليائهم ومواليهم[4]، وفي هذا إرشاد للعاجزين عن مبادي النكاح وأسبابها إلى ما هو أولى لهم وأحرى بهم بعد بيان جواز مناكحة الفقراء، وهو الاستعفاف وقمع الشهوة[5].

ضَمِنَ اللهُ الغِنى في أمرين النِّكاح والاستعفاف

(1) المراغي، تفسير القرآن: 18/ 104.
(2) مجموعة من العلماء، التفسير الميسر، مجمع الملك فهد.
(3) صافي، الجدول: 9/ 259.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/218.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/172.

نكتةُ المبالغةِ بالفعل بزيادة السّين والتّاء:

العِفَّة خلق دينيّ قويم يجتهد في طلبه كل أبيٍّ كريم

السين والتاء في قوله: ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ﴾ للطلب والمبالغة في الفعل، والطَّلب نفسُه معناه المبالغة في الاجتهاد في الاتِّصاف بالعِفَّة، كأنَّ المستعِفَّ طالبٌ من نفْسِه العفافَ وحامِلُها عليه(1)، فاستلزم معنى الطَّلب إفادةَ التأكيد والمبالغة، وفي قوله: ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ﴾ استعارةٌ تمثيليَّةٌ، حيث جعل العفيف عن الخَنا في اجتهاده واستقامته، بمنزلة من جرَّد من نفسِه شخصًا يطلب منه ذلك، فالتمثيل حاصلٌ بتشبيه حال العفيف في محاولة الاستقامة، بحال من يحرص على شيءٍ صعبٍ، فيطلبُهُ من غيره؛ ليُنْفِذَه له، بجامع الحِرص في كُلٍّ(2).

دلالةُ النَّفي بـ﴿لَا﴾:

الخطابُ الشَّرعيّ يُناط بالحال الحاضرة لا الغائبة، ومجيئه للاستقبال، يكون على إرادة الحال

أوثرَ النفيُّ بـ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾؛ للدَّلالة على الحال، أي: إنَّ الخطاب بالتعفُّف باعتبار الحال، أي: ليتعفَّف الآن من لا يجد نكاحًا، وأمّا الاستقبال والاستمرار؛ فغيْبٌ لا يُناطُ الخطاب الشرعيُّ به، بالنسبة للمخاطَب؛ لأنَّه غيرُ معلوم لديه، فالمعلوم لدى المخاطَب بالاستعفاف أنَّه لا يجد النِّكاح في الحال، وأمّا استقبال ذلك واستمراره؛ فغير معلومٍ عنده؛ لهذا كان النفي في: ﴿لَا يَجِدُونَ﴾ للحال.

دلالةُ فِعل الوجود في: ﴿لَا يَجِدُونَ﴾:

النِّكاحُ لا بدَّ معه من استطاعةٍ ماديَّة ومعنويَّة

الوجودُ في قوله: ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ يعمُّ الوجود الحسّي، بمعنى التحقُّق المادّي، والوجود المعنويِّ، بمعنى: التحقُّق النفسيِّ، بمعنى العِلم بالشيء حالًا وصِفةً، لا ذاتًا، فنفي الفعل ﴿يَجِدُونَ﴾ يدلُّ على نفي تحصيل أسباب النِّكاح الماديَّة، وعدم العثور عليها في حيازة العادم للنِّكاح، كمن لا يملك المال، ولا يملك سلامةَ البدن، وهذا

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 237.

(2) القونوي، حاشية القونوي: 13/ 343.

وجدانٌ ماديٌّ، وكذلك الوجودُ المعنوي، كمن يملك المال، والجِسْم السَّليم، لكنَّه يجد من نفسه عدم الرَّغبة والإقبال لآفةٍ نفسيَّة،، فدلَّ فِعل (وجَد) في الآية على الإمكان المادِّيِّ والمعنويِّ.

نكتةُ حذفِ متعلِّق الاستعفافِ:

التعفُّفُ هو صَونُ الشَّيء عمّا يعقبُهُ الأذى والضَّرر

حُذِفَ متعلِّقُ الاستعفاف - في قوله: ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ﴾، فلم يقل: يستعفِف عن أيِّ شيء - لوضوحِه، بقرينةِ صلة الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾، فإنَّ التَّعفُّف إذا ذُكِر بإزاء عدم النِّكاح؛ فإنَّه لا يكون إلّا تعفُّفًا عن الشَّهوات المحرَّمة وذرائعها.

غرضُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته:

الاستعفافُ أولى بمَن لم يجد نكاحًا، وهو زينةٌ واجبةٌ لواجِدِه

عبَّر بالموصول وصلته - في قوله: ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ - لتمييزهم أكمل تمييز، ويكأنَّهم لِعرفانهم بأنفسهم، وعِرفان غيرهم بهم، صاروا في حيِّز الاشتهارِ والعِلم لدى المُخاطَب، وهكذا شأنُ كلِّ من لم ينكِح، فإنَّه يُعرَف، ولا يَخفَى، لا سيّما غير الواجدين لإمكاناته، والمراد من الموصول الخاصِّ: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾: العمومُ، أي: وجب الاستعفافُ على كلِّ من لا يجد نكاحًا من المكلَّفين، ذكرًا أو أنثى، حرًّا أو مملوكًا.

بلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾:

الوسائلُ تتكشَّف بها الحقائقُ المجرَّدة للأشياء

المراد بقوله: ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾، أي: المنكوح به، وهو المال، أو كلُّ سببٍ يتحصَّل النِّكاح به، أو منكوحًا، وهو المرأة، أي: لا يجد امرأةً لأجل النِّكاح، كمن يكون غنيًّا، ولا يجد امرأةً تقبل به، فأطلق المصدر، وأراد الموصوف المفعول، وهو مجازٌ مرسل، علاقته التعلُّق الاشتقاقي، أو أطلق النِّكاح، وأراد سببَهُ على حذف المضاف، فأسند ما هو للمضاف إلى المضاف إليه، وهو مجازٌ عقلي، أو مجازٌ مرسل بتسمية الشَّيء وإرادة سببه، والعلاقة سببيَّة[1].

(1) القونوي، حاشية القونوي: 13/ 343، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 218، وابن عثيمين، تفسير سورة النور، ص: 207.

بلاغةُ الكنايةِ في تركيب: ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾:

قوله: ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ كنايةٌ عن لازمِهِ، من عدم التمكُّن من فِعل النِّكاح نفسه؛ لانعدام سببه الموصِّل له[1].

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾:

بالصَّبر تُنال الوعودُ ويحصل المقصود

﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ حرف غايةٍ أو تعليل، والمعنيان حاصلان في جواب الأمر، أي: ليتعفَّفوا إلى أن يُغنيهم اللّه، فينكحوا، أو ليتعفَّفوا لأجل أن يُغنيهم اللّه بتيسير أسباب النِّكاح وزوال موانعه عنهم.

فائدةُ جعلِ الإغناء غايةً للأمر بالاستعفاف:

ليس للإحسان جزاء إلا الإحسان

في قوله: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ جعل الإغناء من فضله غايةً للاستعفاف، فأشار بذلك إلى أنَّ العِفَّة سببُ الغِنى، وفائدة تلك الغاية من وجوه:

الأوَّل: أن يتوقَّع المتعفِّفُ، ويُؤمِّل باستعفافه موعود اللّه له بالإغناء والإفضال عليه من حيث لا يُحتسب، فيكون ذلك أثْبَتَ لِعِفَّتِهِ وأربط على قلبه.

الثاني: ألّا يستعجلَ المتعفِّف بالنِّكاح قبل إغنائه.

الثالث: التَّنبيه على أنَّ أهلَ العِفَّة أولى وأقرب إلى فضل اللّه من غيرهم، فإنَّ ترتيب الإغناء على الاستعفاف مؤذِنٌ بجعله عِلَّةً له[2].

موقعُ جملة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾:

بذل الجهود لاكتساب الحرية وتحطيم القيود

جملة ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ استئنافيَّةٌ؛ لبيان حكم المُكاتَبين من العبيد والإماء، إذا أرادوا الاكتتاب لتحرير أنفسِهم من الرِّقّ؛ ليتصرَّفوا في أنفسهم، فلا يكونوا عالةً على أسيادهم في تزويجهم

---

(1) القونوي، حاشية القونوي: 13/ 343.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 238، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 39، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 172.

والإنفاق عليهم، ويصحُّ أن تكونَ الواو للعطف، عطفَ جملةٍ على جملةٍ وحالٍ على حال، كأنَّه قيل: (وأنكحوا الصالحين من عبادكم وإمائكم، وكاتِبوا الذين يبتغون الكتاب منهم؛ إذا طلبوا الحريَّة والانعتاق من الرِّقِّ)[1].

غرضُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته:

مَن ابتغى المعالي؛ ألحق نفسَهُ بالفئة المُمَيَّزة

تعريفُ المكاتَبين بالصِّلة - في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ - للاهتمام بشأنهم، وللبَعث لمواليهم أن يلتفتوا إليهم، ويُعنَوا بمسألتهم وحاجتهم، فالتَّعبير عنهم بالموصول وصلته ميَّزهم أكمل تمييز، ودلَّ على اشتهارهم بمضمون تلك الصِّلة عند المُخاطَب، فلم يتبقَّ لمواليهم إلّا أن يستجيبوا لهم في ابتغائهم، وينهضوا، ويُسارعوا في ذلك.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿يَبۡتَغُونَ﴾:

الحريَّةُ أعزُّ ما يُطلَب، وأجلُّ ما يوضَع لأجله الفِداء

التَّعبيرُ بقوله: ﴿يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ للدَّلالة على حرص هؤلاء الأرِقّاء على فداء أنفسهم من العبوديَّة، فهم لا يطلبون ذلك فحسب، بل يطلبونه أكثر ممّا يجب، فالتَّعبيرُ بالابتغاء لتصوير أنَّ ذلك مطلَبٌ مُلِحٌّ، فصار ممّا يُجتَهَدُ في تحصيله[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

الكتابُ هو العقدُ المكتوب بين طرفين على اتِّفاقٍ مخصوص

(أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ للعهد، أي: كتاب العِتْق، سواء كان الكتاب مصدرَ: كاتَبَ كالمكاتَبَة، يقال: كاتَبَ يُكاتِب كِتابًا، ومُكاتَبة، كما يقال: قاتَل يُقاتِل قِتالًا، ومُقاتَلة، أم كان الكتاب - هاهنا - اسمَ عيْنٍ للكتاب الذي يُكتَب فيه الشَّيء، وذلك لأنَّهم كانوا إذا كاتَبوا العبدَ؛ كتبوا عليه وعلى أنفسِهم بذلك كتابًا، فيكون المعنى: الذين يطلبون كتابَ المُكاتبة.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 39، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 219.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 268، والسمين، عمدة الحفاظ: (بغي).

بلاغةُ المجازِ في التَّعبيرِ عن الخلوص من الرِّقِّ بالكتاب:

المكاتبة وسيلة شريفة لتحقيق غاية منيفة

قوله: ﴿يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ - أي: يطلبون الحريَّة، فأطلق الكتاب، وأراد الحريَّة - مجازٌ مرسل علاقته الملزوميَّة؛ لأنَّه إذا وجدت المكاتبة؛ وجِد الخلاص من الرِّقِّ، ويصحُّ أن تكون العلاقة سببيَّة؛ لأنَّ الكتابة سببٌ للعِتْق.

معنى (مِن) و(ما) في قوله: ﴿مِمَّا﴾:

(ما) تدلُّ على عموم الجنسَين العبْدِ والأمَةِ

(مِن) في قوله: ﴿مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ بيانيَّةٌ؛ لبيان الإبهام في مفهوم الموصول والضمير في: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ﴾، و(ما) في قوله: ﴿مِمَّا مَلَكَتۡ﴾ موصولٌ لصفات العقلاء، وهو الرِّقُّ، واستُعملت (ما) دون (مَنْ)؛ لخلوِّهم من الاختيار، وهم مُسترَقّون مملوكون، فتشابهوا بذلك مع ذواتِ من لا يعقل في انتزاع الإرادةِ وقابليَّة التسخيرِ، ولذا عبَّر عنهم بالموصول الخاص بذوات العقلاء في مقام ما يدلُّ على الإرادة والكمال، وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ﴾[1].

بلاغةُ التعبيرِ بقوله: ﴿مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾:

أسندَ المِلك إلى اليمين لعوْدِهِ بالنَّفْع واليُمنِ على صاحبه

التَّعبيرُ بالمِلك - وإسناده إلى أيمان المُخاطَبين - كنايةٌ عن لازِمه من إثبات المِلك للبشر، والتَّعبير باليمين دون غيره تغليبٌ للجزء على الكلِّ؛ لأنَّ اليد اليمنى هي الآلة الغالِبة في الأخذ والإعطاء وتناول ما يُملَك، وإلّا فقد يحصل التناول بالشِّمال أيضًا، مع ما في إسناد المِلكيَّة إلى اليمين من مُباركَة المِلْك، والإشارة إلى أنَّه لمّا كان المِلك خالصَ النَّفع لصاحبه؛ كان عائدًا باليُمنِ والفأل عليه، فاستحقَّ أنْ يُنسَبَ إلى اليمين، ففي التَّعبير بالأيمان مجازٌ مرسل علاقته الجزئيَّة، أطلق الجزء (اليمين) وأراد الكلَّ؛ لأنَّ الإنسان يملِك بكُلِّه وكامِله، ويحوز ممتلكاته بكاملِ ما يقع به الحَوْزُ، وليس باليمين فقط[2].

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 106، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 268.

(2) ابن عثيمين، تفسير سورة النور، ص: 210.

عِلَّةُ اقترانِ الفاء بقوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ﴾:

إقالة العثرات بالمسارعة في الخيرات

اقترنتِ الفاء بخبر الموصول في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ﴾ لتضمين الموصولِ: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معنى الشرط، والفاء للتَّسبيب والتسريع، كأنَّه جعل الخبرَ مُترتِّبًا على مضمون جملة الصِّلة بمجرَّد تحقُّقِها؛ إيذانًا بتسريع استجابتهم بمكاتَبَتِهم فوْرَ ابتغائهم، كما يعقُبُ المشروط الشَّرط، ويترتَّب عليه(1).

دلالةُ الأمر في قوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ﴾:

الإقبال على فعل الخير مع الإعانة عليه من سمات أهل الفضل

وفي إلحاق الفاء بالخبر إشارةٌ إلى استحقاق العبيد في إنجاز تلك المُكاتَبة، بما يؤذِنُ بإيجاب ذلك الإنجازِ على أسيادِهم، ويحتمل أن يكون الأمر في: ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ﴾ للندب؛ لأنَّ المُكاتَبَة كالبيع، فهي بمنزلة أن يبيعَ السيِّدُ عبدَهُ إلى العبدِ نفْسِه، وبيع المِلْك ليس واجبًا، فكذلك المُكاتَبَة(2).

نكتةُ الاشتراط بـ﴿إِنۡ﴾ دون (إذا):

من الفضل إعانة المكاتبين على كل حال، ولو بُني توسم الخير فيهم على مجرّد الاحتمال

الاشتراط بـ﴿إِنۡ﴾ دون (إذا) في قوله: ﴿إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ الشرط لا مفهوم له، لتكون المكاتَبةُ مُعلَّقةً على مُحتَمَل غير مقطوعٍ به، وغير لازم أن يَطَّرِد في عِلْمِهم أنَّ في المُكاتَبين خيرًا، فقد يخفى الخير، ويَلتَبِس الظّاهر، ويتعذَّر التثبُّت والاطِّلاع(3)، فاشترط بـ﴿إِنۡ﴾ لاحتمال أن يتعذَّر عِلمُهم، فلا يمنعهم ذلك عن إنجاز المعروف والفضل بمكاتبتهم، فعدمُ الشَّرط هنا لا يمنع تحصيل المكاتبة، لكنَّه ينفي وجوبها أو استحبابها(4).

فائدةُ تقييد المكاتبةِ بالشَّرط:

تقييدُ الأمر بالمكاتبةِ بالشَّرط في قوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 219، والخطيب، التفصيل في الإعراب: 18/ 210.
(2) ابن جزي، التسهيل في علوم التنزيل: 2/ 68.
(3) فاضل السامرائي، معاني النحو: 2/ 7.
(4) القونوي، حاشية القونوي: 31/ 348.

﴿خَيۡرٗاۖ﴾؛ للدَّلالة على نفي الحكمِ عند ثبوت مفهومهِ المُضاد، يعني: لو عَلِمَ أنَّ في مكاتبته شرًّا ومفسدة؛ لكانت مكاتبته له غيرَ جائزة، وأمّا عدم العلم بالخير من غير ثبوت ضدِّه، وهو العلم بتحقُّق الشرِّ؛ فليس يصلح مفهومًا تنتفي به المكاتبة، بل هو مفهومٌ ينفي وجوبها أو استحبابها، ولا ينفي الجواز[1].

من موانع المكاتبة تحقق حصول الشر بسببها

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيَّة في قوله: ﴿فِيهِمۡ﴾ وعود الضَّمير:

الضَّمير في قوله: ﴿فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ﴾ للذين يبتغون الكتاب من الأرقّاء، وعبَّر بالظرفيَّة، ولم يقل: (إن علمتم لهم خيرًا، أو منهم خيرًا)؛ للدَّلالة على أنَّ المرادَ بالخير هو ما تعلَّق بالحال، لا بالمال، والمراد: إنْ ثبت لديكم أهليَّتهم وصلاحيَّتهم على عقد المكاتبة والوفاء به[2].

الخيرُ هنا ما تعلَّق بالحال قبل المال

نكتةُ تقديم شبه الجملةِ ﴿فِيهِمۡ﴾ على المفعول:

قدَّمَ الجار والمجرور على المفعول في قوله: ﴿إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ﴾؛ للاهتمام والعناية بالمكاتبين؛ لأنَّهم موضوعُ العِلم في قوله: ﴿عَلِمۡتُمۡ﴾.

نكتةُ تنكيرِ ﴿خَيۡرٗاۖ﴾:

تنكير ﴿خَيۡرٗاۖ﴾ في قوله: ﴿إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ﴾ للعموم، أي: خيرًا في عموم حالِهم من الصَّلاح الدّيني، والصلاح المادّي للكسب، والصَّلاح النَّفسي للأهليَّة والسّواء الطَّبْعيِّ، ويصحُّ أن يكون التَّنكير للتقليل، أي: إن علمتم فيهم شيئًا من خيرٍ يصلُح معه أن يُكاتَبوا من غير مفسدةٍ تتعارض مع إنفاذ مصلحتهم في العِتْق.

الخيرُ في العبد ما يسَّره إلى صلاحه في عموم شؤونه

المُخاطَبُ في قوله: ﴿وَءَاتُوهُم﴾:

المخاطَب في قوله سبحانه: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾، يحتمل أن يكون خطابًا للناس أجمعين، وقيل للولاة، ويحتمل أن يكونَ خِطابًا لسادات

فئاتُ المجتمع كافَّة مُخاطبة بكفالة المَلِيء لِخالي الوِفاض

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة النور، ص: 211.

(2) الجصاص، أحكام القرآن: 5/ 181، وابن جزي، التسهيل في علوم التنزيل: 2/ 69.

المكاتَبين، فإن كان الأمرُ للنّاس؛ فالمعنى: أن يعطوهم صدقاتٍ من أموالهم، ليستعينوا بها على أداء المكاتبةِ وإنجاز العِتْق، ويؤيِّد ذلك أنَّ معاونة المُكاتَب على العِتْق من مصارف الزَّكاة، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 60]، والمُكاتَب يندرج تحت هذه الثلاثة، وإن كان الخطاب للولاة، فالمعنى: أن يعطوهم من الزَّكاة؛ لأنَّها تحت أيديهم، وإن كان الخطاب للسّادات؛ فالمراد: أن يحطّوا عنهم من كتابتِهم، أي: يتسامحوا معهم في ثَمَنِ العِتْق، كلِّه أو بعضِه، وقيل: يعطوهم من أموالهم من غير الكتابةِ؛ ليكونَ هذا المالُ إعانةً من السيِّد إلى عتيقِهِ، يستعين به على مطالب الحياة[1].

دلالةُ الأمر في قوله: ﴿وَءَاتُوهُم﴾:

الأصلُ في الإنسان الحريَّةُ، والرِّقُّ طارئٌ عليه

الأمر في قوله سبحانه: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾، إن كان لعموم النّاس؛ فهو للندب، وإن كان لسادات المُكاتَبين؛ فيدور بين الندب والوجوب، والوجوب أظهرُ؛ لتطلُّع التشريع إلى العِتْق وإزالة الرِّقِّ؛ ولأنَّ العِتقَ هو إعادةُ الإنسان إلى الأصل، فالأصلُ في الإنسان أن يكون حرًّا، والرِّقُّ طارئٌ على حقيقته، فتجب إزالتُهُ، فكان كلُّ ما أدّى إلى تلك الإزالة واجبًا كذلك.

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾ للتَّبعيض، أي: وآتوهم بعضَ مالِ الله الذي آتاكم؛ لأنَّ الإيتاءَ منوطٌ ببعض المال، لا كلِّهِ.

نكتةُ إضافةِ المال إلى لفظ الجلالةِ:

رازقُ المالِ أولَى بتحديد مَصارِفِه

إضافةُ المالِ إلى اسم الذّات الجليلِ، في قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾: تنشيطًا لهم على إنفاقه، بتذكيرهم أنَّ المال في حقيقته هو لله، لا لهم، إنَّما هم - فقط - مستخلَفون عليه، فكان حقًّا عليهم

(1) ابن جزي، التسهيل في علوم التنزيل: 2/ 69.

بمقتضى هذا الاستخلاف أن يعطوه لعيالِ اللّه تعالى، وهم الفقراءُ الأرقّاء الذين يستعينون به على فكِّ رقابهم، وفي إضافة المالِ إلى اللّه في مقام الأمرِ بإنفاقه تسجيلٌ على المخاطَبين بأنَّهم إذا لم يؤتوه باختيارهم في مواضع الفضل؛ فاللّه قادرٌ على استرداد ماله منهم بالقهر والإفقار لهم؛ إذا أمسكوا، وفي الإضافة أيضًا تحفيزٌ إلى الإيتاء وترغيبٌ فيما هو أوسع من إيتائهم؛ لأنَّه إذا كان مال اللّه - وهو الذي أعطاهم كلَّه تفضُّلًا منه ابتداء - فكيف إذا سألهم بعضَه؛ فآتَوا منه شيئًا لإعتاق عبيده؟ فكما تفضَّل به عليهم ابتداءً، فسيتفضَّل عليهم بأضعاف ما آتوه ثوابًا وجزاءً، وفي إضافة المال إليه سبحانه - أيضًا - إشارةٌ إلى أنَّه لا منَّة لهم على العبيد في إعتاقهم أو إعانتهم؛ لأنَّ المال الذي بأيديهم هو مالُ اللّه، فالمنَّةُ له سبحانه وحده، وفيه - أيضًا - إيماءٌ إلى أنَّ الإعطاء من ذلك المال شُكْر، والإمساك جحْد للنِّعمة، قد يتعرَّض به المُمسِك لِتُسْلَبَ النِّعمة عنه(1).

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته ﴿ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾:

اللهُ يَبتلي بالمال بعضَ خلْقِه بخلْقِه

جملة: ﴿ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ صفةٌ لاسم الجلالة، أو صفة للمال المُعرَّف بالإضافة في قوله: ﴿مَّالِ ٱللَّهِ﴾، وفائدة الموصول: التوسُّلُ به إلى وصف المعرفة بالجملة، وفيه تعظيم مضمون الصِّلة، وفائدة التَّقييد به: التنبيهُ على أنَّهم متمكِّنون من المال؛ لأنَّه داخِلٌ في حيازتهم وملكيَّتهم بإيتاء اللّه لهم إيّاه، ولو قال: (وآتوهم من مال اللّه)؛ لم يدلَّ على تمكُّنهم من هذا المال من عدمه(2).

دلالةُ التَّعبيرِ بالإيتاء دون (الحطِّ):

من احتمالات التفسير في قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 221، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5190، وابن عثيمين، تفسير سورة النور، ص: 218.
(2) الخطيب، التفصيل في الإعراب: 18/ 211.

ما أُطلِقَ عليه الإعطاء؛ كان سبيلُهُ الصَّدقة

﴿ءَاتَىٰكُمْۚ﴾ - على اعتبار أنَّ الخطاب للسّادات - أنَّ المراد بالإيتاء: أنْ يحطَّ السيّد عن عبده جزْءًا من قيمة المُكاتبة، فيتسامح معه في مُقابِلها من المال، فلا يستوفيه منه، وهذا المعنى جارٍ على جهة المجاز لا الحقيقة، بجعْلِ الإيتاء لهم كناية عن تسامح الأسياد معهم بإعفائهم في قَدْرٍ من مال المُكاتَبَة، وأمّا المعنى على الحقيقة؛ فهو أن يعطي السَّيِّدُ عبدَه مالا يقبِضُه منه، كإعانةٍ خارج اتِّفاق المُكاتبة، حتّى لو استعان العبدُ به بعد قبضه على إتمام مُكاتَبَتِهِ، ولو كان المرادُ بالإيتاء الحطَّ والإعفاء حقيقةً؛ لوجب أن تكون العبارة: (ضَعوا عنهم، أو اعفوهم)، فلمّا قال: ﴿وَءَاتُوهُم﴾؛ دلَّ على أنَّه من الزكاة أو التطوُّع؛ إذ هما مناولة وإعطاء، ويؤكِّده أنَّه أمَرَ بإعطاء، وما أُطْلِق عليه الإعطاء؛ كان سبيله الصَّدَقة[1].

موقعُ جملة: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ﴾:

الـتَّرغـيـبُ في إعانة الموالي على الإنفاق والإعتاق وحِفْظ الأعراض

جملة ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾ استئنافيَّةٌ، والواو للاستئناف؛ وذلك للانتقال إلى تشريعٍ جديد يخصُّ صيانة الإماء من الإناث، وحِفظ أعراضهنَّ من آفات الفواحش والخنا، بعد أن شرَّع للأرقّاء من الذُّكور ما يرفع عنهم حرج العبوديَّة ونقْصَ العرضِ والحال،

ويجوز كون الواو عاطفةً لهذه الجملة على جملة ﴿وَأَنكِحُواْ﴾؛ بقصد الجمع بينهما في التكليف.

دلالةُ النَّهي بقوله: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ﴾:

الإكـراهُ على الحرام حرامٌ

النَّهي في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾؛ للتحريم لِتعلُّقِهِ بمحرَّمٍ، وهو الزِّنى، فكان الإكراه عليه محرَّمًا كذلك.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 40.

دلالةُ الخطابِ في قوله: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ﴾:

الخطابُ في قوله: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ﴾ للسّادات مع إمائِهم من النِّساء، ووجِّهَ إلى السادات الخطابُ بهذا؛ للتَّشديد على عدم استخدامهنَّ في البغاء، وللإنكار على واقعٍ كان موجودًا في الجاهليَّة.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿فَتَيَٰتِكُمۡ﴾:

تنزيل الفتيات المملوكات منزلة البنات الصلبيات في وجوب المحافظة على أعراضهن

التَّعبيرُ عن الإماء بالفتوَّة في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾، ولم يقل: (إمائكم)؛ لمناسبة اللفظِ لمقام البِغاء المذكور، فإنَّ المرأةَ الفتيَّةَ الشّابَّةَ هي التي تُطلَب في هذا الغرض، وهي أعلى كسْبًا فيه من غيرها، وأيضًا التَّعبير عنهنَّ بوصف الفتوَّة تخجيلٌ لسادتهنَّ من أن يُهْدِروا زَهَراتِ بناتهم وأعراضهم في مسْلكِ السّوء، فالأمَةُ لسيّدها عِرضُهُ وأمانَتُهُ، كالبنتِ لأبيها؛ ولذا أضاف الفتياتِ إلى ضميرهم، في قوله: ﴿فَتَيَٰتِكُمۡ﴾؛ لاستنهاضِهم على ما هو أولى بهم في حقِّهنَّ، وهو وِقايتهم لأعراضهنَّ، وليس التفريط فيهنَّ[1].

نكتةُ تعديةِ الإكراه بـ﴿عَلَى﴾:

الإكراهُ هو استعلاءٌ على الإرادةِ المُختارة بالقَيْد والحجْب

تعديةُ الإكراه بحرف الاستعلاء، في قوله: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾؛ لكونهِ إجبارًا وتسلُّطًا من قِبَل من يملك، وهذا هو محضُ الاستعلاء، فحُقَّ أن يتعدّى بـ﴿عَلَى﴾، والاستعلاء مجازيٌّ.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡبِغَآءِ﴾:

البغاء مخصوصٌ بابتغاء التكسُّب

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡبِغَآءِ﴾ لتعريف حقيقة الجنس وماهيَّته، والمراد: (الزِّنى)، ويصحُّ أن تكون للعهد باستحضار الانتقال الدلاليِّ؛ إذِ البِغاءُ في أصله هو طلبُ الشَّيء، ثمَّ استُعمِل في الطَّلب المذموم، ثم سُمّي به الزِّنى والفاحشة، فانتقل اللَّفظ من العموم إلى الخصوص، فبهذا الاعتبار تكون (أل) فيه عهديَّة.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 173، والبقاعي، نظم الدّرر: 13/ 269.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿ٱلۡبِغَآءِ﴾ مادَّة وصيغة:

البغاء وصف خاص بزنى المرأة الفاجرة المتاجرة بعرضها

﴿ٱلۡبِغَآءِ﴾ مصدرُ (بَغَتِ المرأةُ تَبْغي بِغاءً؛ إذا زنَتْ، وفجَرَتْ)، ووزنه (فِعال) يدلُّ على قُربِ شيءٍ من شيء، كما هو حاصلٌ في البِغاء[1]، وهذا اللَّقب مختصٌّ بزنى النِّساء، فلا يُقال: للرَّجل إذا زنى: إنَّه بَغيٌّ[2]، والعِلَّة في ذلك: أنَّ عادة الرَّجل أن يطلب هو النِّساء، فإذا زنى؛ فيقال له: زانٍ، وأمّا المرأة الفاجرةُ إذا اعتادت الزِّنى، وتكسَّبتْ منه؛ صارتْ بذلك طالبةً للخنا والرِّجال؛ لأنَّها جعلتِ الرِّجال مطلبها وتِجارتَها، فقيل لها: باغيَةٌ وبَغيٌّ، تعريضًا بأنَّها من الانتكاسةِ بحيث صارتْ هي الطّالبة، لا المطلوبة، وصارت تجتهد في هذا الطَّلب، وتحترِفُه حتّى وصلت إلى حدِّ ابتغائه والحرص على تحصيلِه، ولم ينحتوا للرَّجل الزّاني هذا الوصف؛ لكونه ليس منتكِسًا بطلبِه، وإن انتكس بفُحشِه، ولكون الرَّجل الزّاني - عادةً - لا يبتغي بِزِناه الأُجْرَة، بخلاف المرأة البغيِّ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡبِغَآءِ﴾ دون لفظ (الزِّنى):

البِغاءُ هو زِنًى تُبتَغى فيه الأُجْرة

سلَّط الإكراهَ في قوله: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾ على لفظ البِغاء، دون لفظ الزِّنى؛ لأنَّه إكراهٌ على زنًى مخصوص، وهو الذي تُبتغَى فيه الأجرة، ويُتكسَّبُ منه، ولفظه في الاستعمال المعاصر: (الدَّعارة).

إجراءُ التركيبِ على مجاز الحذف:

عارٌ على الحر أن يطلب المال بأعراض النساء

في قوله: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾، الإكراهُ لا يقع على نفس البِغاء، أي: الفِعل، فلا يُفْعَل بها الزِّنى بلا فِعلٍ منها، بل المراد: الإكراهُ على التَّكسُّب من البغاء وامتهانه، فالكلامُ على حذف مضاف، فهي تُكْرَهُ على اقتحام هذا السَّبيل من سيِّدها، حتّى

(1) فاضل السامرائي، معاني الأبنية، ص: 26.
(2) السمين، الدر المصون: 8/ 401.

تقصِد ذلك، وتفعله، ولهذا سمّاه بِغاءً؛ لِتحقُّق الطَّلب والقصد منها بعد إكراهها على امتهانه، فالابتغاءُ على هذا الاعتبارِ قد يحصل منها في الفِعل عند مُلابسة السّوء، وإن لم يحصل منها في ابتغاءِ الكسْبِ، وإنشاءِ الشُّروعِ في سبيل الفاحشة(1).

دلالةُ الشَّرطِ بقوله: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾:

المرأة تُعانُ على الإحصان، ولا تُسْلَمُ أو تُخْذَل

تقييد النَّهي عن الإكراه بشرط إرادة التحصُّن في قوله: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ هو شرطٌ خرج مخرج الغالب، فلا مفهوم له؛ لأنَّ إرادة التحصُّن هي غالب أحوال الإماء البغايا المؤمنات؛ إذ كنَّ يُحبِبْنَ التعفُّف(2)، أو تعبيرًا عن الواقع، كما تشهد بذلك أسبابُ النُّزول، فالشَّرط هنا، كقوله تعالى: ﴿لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾ [آل عمران: 130] على حكاية غالب أحوالهم في أكل الرِّبا، مع ثبوت حرمة الرِّبا ولو كان ضعفًا واحدًا، كذلك هنا، فالإكراهُ على البِغاء حرام سواء أردن تحصُّنًا أم لم يردن ذلك؛ لأنَّ الحرمةَ ثابتةٌ في فِعلِ الإكراه نفسه على البِغاء المحرَّم، بل الحرمة ثابتةٌ في مجرَّد أمرِ الآخر بالبِغاء، ولو لم يكن إكراهًا، فهنا الحرمة تتعلَّق بفعل الفاعل، وهم المخاطَبون بالنَّهي عن الإكراه، وأمّا القيدُ المذكور، وهو قوله: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾؛ فهو لتحقيق معنى الإكراه؛ لأنَّ كلَّ إكراهٍ على فعل، لابدَّ أنْ يتزامن مع إرادةٍ مُضادَّةٍ لهذا الفعل، فلا يُقال: فلانٌ أُكرِه على الأكل، إلّا وهو لحظةَ إكراهه مُتَأبٍّ عن الطَّعام، ولا عِبرة لما بعد زمن الإكراه، هل هو يريد الأكل فعلًا أو لا، فالأَمَةُ قد لا تريد التحصُّن في عموم أحوالها، ولكن مع ذلك يقع إكراهها على البغاء؛ لأنَّها تتأبّى في زمن الإكراه، وتأبّيها في زمن الإكراه هو إرادةٌ لضدِّ الفعل، وهو إرادة التحصُّن في ذلك الوقت، ولذا فهي مُكْرَهةٌ على

(1) ابن تيمية، الاستقامة: 2/ 343.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 226.

ضدِّ إرادتها، وإرادتها في ذلك الوقت هي التحصُّن في الحال عن الزِّنى، فالعبرة إذًا في أن يتزامنَ الإكراهُ في الحصول مع ضِدِّه في إرادة المُكْرَه، ولا عِبرة لما بعد هذا الزَّمن.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿إِنْ﴾ دون (إذا):

إرادةُ التَّحصُّنِ والتَّحفُّظ سِمَةٌ تُشْعِر بخصوصيَّة الإنسان

إيثار ﴿إِنْ﴾ على (إذا) في قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنَا﴾؛ للإيذان بوجوب الانتهاء عن الإكراه، عند كون إرادة التحصُّن في حيِّز التردُّد والشَّكِّ، فكيف إذا كانت محقَّقةَ الوقوعِ، كما هو الواقع؟ فكان الإتيانُ بحرف الشَّكِّ زيادةَ توبيخٍ لهم، ولايقال: إنَّ الإتيان بحرف الشَّكِّ دون أداة التحقُّق؛ لأنَّ إرادة التحصُّن من الإماء كالشاذِّ النادر، فهذا مردودٌ هنا؛ لتحقُّق الإرادة في مَوردِ النصِّ حتْمًا، بقوله: ﴿أَرَدْنَ﴾، مع ما في الحكم بِنُدرةِ التحصُّن في الإماء من الرَّجْم المتعسِّف الذي لا ضابِط له.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿تَحَصُّنَا﴾:

المُكْرَهُ مُطاوِعٌ في الفِعل الظَّاهر بالإجبار دون القصد الباطِن بالاختيار

التَّعبيرُ بصيغة (التفعُّل) في قوله: ﴿تَحَصُّنَا﴾ لوصف قوَّة الفعل، والتكلُّف فيه، والمُجاهدة منهنَّ في تحصيله إزاءَ الإكراه المُمارَس عليهنَّ من أسيادهنَّ، فلمناسبة الإكراهِ اقتضى التَّعبير بما يُجابِهه في قوَّةِ دفْعِه، بتكلُّفِ ضِدِّه، فقوَّة الإكراه في فِعلِ المُكْرِه (الفاعل)، لا بدَّ أن يكون معها شِدَّةٌ في فِعل المُكْرَهِ (المفعول)؛ إذْ لولا أنَّ المُجْبَرَ متشبِّثٌ في فِعله؛ لما حصل الإكراه أصلًا على ضدِّ فِعله، فالإكراهُ حاصلٌ لشخصٍ لا يُطاوِع، وعدم المطاوعة تستلزم شِدَّةً في فِعل المُمتنِع عن المُطاوَعة، كذلك في صيغة (التفعُّل) في قوله: ﴿تَحَصُّنَا﴾ إيماءٌ إلى مَدحِ الإماء؛ لأنَّه يُنْبِئ به عن عفَّةٍ بالغةٍ منهنَّ، كأنَّهنَّ لا يُرِدْنَ إحصانًا عاديًا، بل يردن تحصُّنًا مخصوصًا، فالتحصُّن درجةٌ عالية حريصة في الإحصان.

غرضُ تنكير: ﴿تَحَصُّنًا﴾:

التَّنكيرُ في: ﴿تَحَصُّنًا﴾ للمبالغة والتعظيم والتكثير، أي: عِفَّةً بالغةَ التحفُّظ والاحتراز من السّوء والفُحش، أو لتعظيم قدر التحصُّن نفسه وتفخيم أمره، ولعلَّه للتقليل لإفادة أنَّ المقصودَ إبداء أيِّ إرادة للتحصُّن.

التَّحصُّن هو احتجابٌ في حِصن العِفَّة واحتماءٌ بجلاليب الاحتشام

معنى اللّامِ في قوله: ﴿لِّتَبۡتَغُواْ﴾:

(اللام) في قوله: ﴿لِّتَبۡتَغُواْ﴾ للتَّعليل، و(تبتغوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام، والمصدر المؤوَّل من (أنْ) والفعل، في محلِّ جرٍّ باللام متعلِّق بـ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ﴾[1]، أي: لا تكرهوهنَّ لهذه العلَّة، والقيد بهذه العِلَّة، كالقيْد في قوله: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنًا﴾، فليستْ هذه العِلَّة هي باعث النَّهي على الإكراه، بل هي مذكورةٌ باعتبار أنَّها الغرضُ الغالِب فيما بينهم؛ إذا استأجروا فتياتهم في البِغاء، ومذكورةٌ تشنيعًا لهم فيما هم عليه من احتمال الوِزْر الكبير، لأجل النَّزْر الحقيرِ[2].

التعريض بالوليِّ في عدم إرادته إحصانَ حَرمِهِ، فضْلًا عن إرادتِه إخراجَهم عن الإحصان

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿عَرَضَ﴾:

العَرَض: هو ما لا يكون له ثبات، ومنه استُعير العَرَض لما لا ثبات له إلّا بالجوهر كاللون والطَّعم، وقيل: الدُّنيا عَرَضٌ حاضر؛ تنبيهًا على أَنَّه لا ثبات لها، والعرَض: طمَع الدنيا، قليلًا كان أو كثيرًا، وسمّي بذلك؛ لأنَّه يَعرِض، أي: يلوح، ويظهر، ثُمَّ يُعرِض، أي: يزول، ويتلاشى، ثمَّ يَعرِضُ غيرُه، وهكذا دواليك، فهو عارضٌ يُريك عُرْضَهُ، أي: تظهر الدنيا بجانبٍ منها حَسَن، ثمَّ تظهر بجانبٍ منها قبيح، فجميع أحوالها عارِضةٌ، تتوالى عليك جوانبها، فلا يستقرُّ جانبٌ منها لك، ومن هذا أُخِذَ معنى سُرعة زوالها، وقُرب

تتوالى جوانبُ الدُّنيا عليك، فلا يستقرُّ منها جانبٌ لك

(1) الجدول، صافي: 9/ 259.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 173، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 227.

اضمحلالها، فإسنادُ العَرَضِ إلى الدُّنيا في قوله: ﴿لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ تهوينٌ منهم وقدْحٌ في مُروءتهم أن يبيعوا عِرضَهم من الإماء، اللّاتي هنَّ موضِع مدحهم ووعاء كرامتهم، بِعَرَض الدنيا الدنيئة بأثمانها الزّائلة، ومتاعها السَّريع في انقضائه واضمحلاله، فالشَّريف لا يبيع عِرضَهُ وحَريمَهُ بِعَرَضِ دنياه[1].

فائدةُ إضافةِ العرض إلى الحياة الدُّنيا:

العَرَضُ منقوصٌ وهــو مبــاح، فكيف إذا كان حرامًا؟

إضافةُ العرضِ إلى الحياة - في قوله سبحانه: ﴿عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ - للتَّحقير من شأنه، فهو عرض زائل كزوال ما تعلَّق به، وهو الحياة الدنيا كلُّها.

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَن يُكۡرِههُّنَّ﴾:

المُـكْـرَه بـريءٌ، والـــبراءةُ تثبت بالقصد

جملة: ﴿وَمَن يُكۡرِههُّنَّ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ سيقتْ لتقرير النَّهي، وتأكيدِ وجوبِ العملِ به، ببيانِ إبراء الفتيات المُكْرَهات من عقوبة المُكْرَهِ عليه - وهو البِغاء - بنصِّ العِبارة، ورجوع غائلةِ الإكراهِ ووِزْرِه على المُكْرِهِيْنَ، بطريق الإشارة[2].

معنى (مَن):

(مَنْ) اسمُ شرطٍ جازم دالٌّ على ذوات العقلاءِ من عموم المُخاطَبين من السّادات، والمراد مَنْ يقع الإكراه منه في الفعل المحرَّم، أيًّا كان اسمه أو رسمُهُ، فالمراد بالشرط العمومُ والإبهام.

دلالة المضارع في: ﴿يُكۡرِههُّنَّ﴾:

الـفِـعـلُ يفيد الاســتــقــبــالَ، وهــو متضمِّنٌ مع ذلك معنى الوعيد

فِعلُ الإكراه في قوله: ﴿وَمَن يُكۡرِههُّنَّ﴾، مضارعٌ في حيِّز الشَّرط، فيدلُّ على الاستقبال، أي: ومن يكرههنَّ بعد هذا البيانِ الذي قامت

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عرض)، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 269، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 173.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 174.

به الحجَّة، وانقطعت به الأعذار(1)، فالعصيانُ بعد البيان لا عذْرَ لصاحبه فيه.

نكتةُ حذف متعلّق الإكراه:

الإعــــراضُ عن تــكــريــرِ لـفـظ (البغاء) اكتفاء بموضعه الأوَّل

حُذِفَ متعلِّق الإكراه؛ لِلْعلم به، بِسَبْقِ الدَّلالة عليه بقوله: ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾، فالتقدير: ومن يكرههنَّ على البِغاء، ولأنَّه من الألفاظ الَّتي لا يحسن ذكرها؛ إذا أمكن الاستغناء عنها، أو التكنية عن التصريح بها.

بلاغةُ حذفِ جواب الشَّرط:

الإكـراهُ لا ينفي الـطّــواعــيــة المطلقة

حُذِفَ جوابُ الشرط من قوله: ﴿وَمَن يُكۡرِههُّنَّ﴾؛ إيجازًا واكتفاءً بدليل الجواب عليه، ودليل جواب الشرط، هو قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، والتقدير: (فلا إثم عليهنَّ فإنَّ الله غفور رحيم)، ودليلُ الجواب هنا أوفى من الجواب، ولذا اكتُفي به عنه؛ لأنَّ ذِكرَ المغفرة والرحمة هو الذي أزالَ الإثمَ بعد حصوله، فبمقتضى المغفرة والرَّحمة لم يُحتَسبِ الإثم عليهنَّ، ومن غير المغفرة والرحمة، فالإثم حاصلٌ باقٍ، فإن قيل: وهل عليهنَّ إثمٌ بعد إكراههن؟ فيُجاب: بأنَّ تقرير ذلك هو الغرض من الختم بدليل الجواب؛ ليدلَّ به على أنَّ الإكراه عذرٌ يمنع المؤاخذَةَ على الإثم، ولا يمنع وجودَ الإثم، فالمُكَرَهُ قد لا يخلو من قصدٍ وطواعية بعد تلبُّسه بالفعلِ الذي أُكْرِهَ عليه، بدافع الطبيعة البشريَّة، فهنا يقع منه إثمٌ معفوٌّ بقوَّة الغفور الرحيم، كذلك الأمة المُكْرَهة هنا على البِغاء، فهي وإن كانت مكرَهَةً، فربَّما لا تخلو في تضاعيف الزِّنى عن شائبةِ مطاوَعة، إمّا بحكم الجِبِلَّة البشريَّة، أو لأنَّ الإكراه في حقيقته قاصِرٌ عن حدِّ الإلجاء المزيل للاختيار بالكليَّة(2).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 227.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 174.

دلالةُ الخَتْمِ بصفتَي المغفرة والرحمة:

إعذار المكرَه وتهديد المكرِه

خَتْمُ الفاصلة بجَعلِ المغفرة والرحمة مُقابل الإكراه الواقع بهنَّ، فيه تهويلٌ لأمر الزِّنى، واستنهاضٌ للمُكْرَهات على الثَّبات والتشدُّد في التَّجافي عن الفاحشة، استبقاءً منهنَّ لمغفرة اللّه ورحمته التي وُعِدْنَ بها، مع ما في الخَتْم من التشديد في تحذير المكرِهين من السّادات، بالإلماح إلى أنَّ المُكْرَهات كُنَّ عُرضَةً للعقوبة، لولا أنْ تداركَتْهُنَّ المغفرةُ والرحمة مع قيام العذر في حقِّهن، فكيف حال مَنْ يُكْرِهُهنَّ في استحقاق العقاب؟ ففي الختْم تعريضٌ بالسّادات بأنَّهم في محلِّ المؤاخَذَةِ وعدم الإفلات من عاقبة الانفلات[1].

معنى الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾:

يلزم لانعقاد الشرطيَّة كون الأوَّل سببًا للثاني

الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ رابطةٌ لجواب الشرط، واقترانها بالجواب هنا واجبٌ؛ لكون الجواب جملة اسميَّة لا تصلح أن تكون شرطًا، واختير الرَّبط بالفاء في الشَّرط؛ لِما فيها من الدَّلالة على معنى السببيَّة؛ إذْ يلزم لانعقاد الشرطيَّة كون الأوَّل سببًا للثاني، فالإكراه سببٌ لحصول المغفرة والرحمة، ولذا كان عائد الجواب مُقدَّرًا بضمير المُكرهات، لا بضمير المُكرِهين، أي: (غفورٌ ورحيمٌ لهنَّ)؛ لأنَّ الإكراهَ عذرٌ للمفعول، وذنبٌ عظيمٌ للفاعل، فكان المفعول هو المستحقَّ للمعذِرةِ بالمغفرة، والفاعل (المُكْرِه) هو المستحقُّ للتعزير والمؤاخذة[2].

فائدةُ حرفِ التوكيد في جملة الجواب:

إغناءُ حرف التوكيدِ عن حرف التَّعليل

جملةُ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تعليلٌ للجواب المقدَّر بعد الفاء، فهي دليل الجواب، والتَّقدير: (ومن يكرههنَّ؛ فالإثم عليه، ولا إثم عليهنَّ؛ لأنَّ اللّه غفور رحيم)، فحرف (إنَّ)

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 174.

(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 377.

في هذا السياق يفيد التعليلَ، ويُغني عن لام التعليل، ويصحُّ أن تكون الجملةُ الاسميَّة هي الجواب، والوجهان قريبان[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسم الأعظم الجليل:

الاسم الجليل يربي المهابة والخوف في قلوب المخطئين للادرعواء وتصحيح المسار

التَّعبيرُ باسم الألوهيَّة الأعظم في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ﴾، إعلامٌ للإماء المستضعَفاتِ المُكْرَهات، بأنَّه ناصرهنَّ ومُخلِفٌ عليهنَّ بالعِوَضِ رحمةً بهنَّ ومغفرةً لهنَّ، وفي هذا إشعارٌ بغلَبَتِهِ على أسيادهم القوّادين، وأنَّه ذو المهابةِ والجلال، فيستحقُّ منهنَّ ألّا ييأسوا من رحمته، ويستحقُّ من ساداتهم ألّا يأمنوا من انتقامه.

معنى ﴿مِنۢ﴾ في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾:

اللهُ مع المنكسرة قلوبهِم يجبرهم برحمتِهِ، ويسترهم بمغفرتِهِ

﴿مِنۢ﴾ في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ﴾ ابتدائيَّةٌ، وسيقتْ قبل الظَّرف؛ لِتسريع إنشاء المغفرة والرحمة لهنَّ فورَ حصولِ الإكراه لهنَّ، كأنَّه قيل: تُدرِكُهنَّ رحمةُ اللّه ومغفرته بعد إكراههنَّ فورًا، فسُرعان ما تزول عنهنَّ وحْشَةُ الإكراهِ ولوْثة آثار البغاء، بستر المغفرة، وأُنْسِ الرَّحمة.

غرضُ تقديمِ شبه الجملة ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ﴾:

توسيطُ شبه الجملة: ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ﴾ بين اسم (إنّ) وخبرها: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؛ للإيذان بأنَّ ذلك الإكراه هو السَّببُ للمغفرة والرَّحمة أن تُدرِكَهنَّ[2].

نكتةُ الإظهارِ في موضع الإضمارِ في شبه الجملة:

الإفساحُ للمظلوم بما يُحسِّر الظّالم

لم يقل في السياق الكريم: (ومن يكرههنَّ؛ فإنَّ اللّه من بعد ذلك غفور رحيم)؛ للتَّنبيه على أنَّ المغفرة والرحمة حاصلةٌ لهنَّ بسبب إكراههن، ولو قال: (من بعد ذلك)؛ لأوهم أنَّها حاصلةٌ للسّادات بسبب إكراههم، فيكون فيه إفساحٌ للظّالم بما يُحسِّر المظلوم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 228، وصافي، الجدول: 9/ 260.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 174.

﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٣٤﴾ [النور: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

حُسْنُ العَنْوَنَة، وبراعةُ الختْمِ، وإنتاجُ الخُلاصات من أماراتِ الكمالِ في البيان

لمّا فرغَ في الآياتِ السّابقة من استتمامِ الأحكامِ والتشريعات الحكيمة، والتوجيهات السَّديدة[1]؛ شرع هنا في وصف القرآن بصفاتٍ ثلاثٍ[2]، هي بمنزلةِ الخَتْم الجامع، والعنوان الكامل على تفاصيلِ الأحكام المبيَّنة آنفًا في هذه السّورة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَمَثَلٗا﴾: (مثل) أصلٌ يَدُلُّ على مُناظرَةِ الشَّيءِ لِلشَّيءِ، وهَذا مِثْلُ هَذا، أَيْ: نَظيرُهُ، والمِثْلُ والمِثالُ في مَعْنًى واحِدٍ، ورُبَّما قالوا: مَثيلٌ كَشَبيهٍ[3]، والمراد هنا: النَّظيرُ والمُشابِهُ، أو الحالُ العَجيبَةُ، وهَذا المَثَلُ هو قِصَّةُ الإفْكِ النَّظيرَةُ لِقِصَّةِ يوسُفَ وقِصَّةِ مَرْيَمَ في تَقَوُّلِ البُهْتانِ عَلى الصّالِحينَ البُرَآءِ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مكوِّنات الخطابِ القرآني ترجع إلى البيِّنات، والأمثال، والمواعظ

ولقد أنزلنا آيات القرآن مبيِّناتٍ لما أنتم في حاجة إليه من الأحكام والآداب، كما أنزلنا قصصًا من أخبار الأمم السالفة، كقصة يوسف وقصة مريم، وفيها شَبَهٌ بقصص عائشة، وفيها عِظَةٌ لمن اتَّقى اللّهَ، وخاف عقابَهُ، وخشيَ عذابَهُ[5].

(1) طنطاوي، الوسيط: 10/ 125.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 36.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مثل).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 230.
(5) المراغي، تفسير القرآن: 18/ 106.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ عطف قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ﴾:

إلحاقُ التشريع بخُلاصتِهِ وبيانه

جملة ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ﴾ استئنافٌ تذييليٌّ خُتِمَتْ به التشريعات والأحكام السّابقة، فهو كالخَتْم عليها، والخلاصةِ المقصودةِ منها، كما تُعَقَّبُ تفاصيلُ البيانِ بِخُلاصتِه وغايَتِه، وكان مقتضى الظاهر ألّا توصَل بالواو؛ لأنَّ شأنَ التَّذييل والاستئنافِ الفصلُ، كما فُصِلَتْ أختُها الآتيةُ قريبًا بقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ﴾ [النور: 46]، وإنَّما عدل عن الفصل إلى الوصل؛ لأنَّ هذا ختامُ التَّشريعات والأحكام التي نزلت السورةُ لأجلها، فحُقَّ أن توصَل بها بالرّابط اللفظيِّ، تأكيدًا على ارتباطها المعنويِّ(1).

معنى اللّام و(قد):

سَوْقُ التقريرات المُهمَّة مُحقَّقةً مُراعاةٌ لِضِعاف الإيمان وتثبيتٌ لهم

صُدِّرت الجملة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ﴾ بلام القسم، وحرف التحقيق: (قد)؛ للاهتمام وكمالِ العنايةِ بمضمون الجملة؛ ليتحقَّق المُخاطَب بها لفظًا ومَعنًى، وعِلمًا وعمَلًا، أي: (وباللّه لقد أنزلنا إليكم..)(2).

فائدةُ تعدية فعل الإنزالِ بـ(إلى):

لأجل النّاس نزلَ البيان وقايةً لهم وتشريفًا وحجّةً على من أعرض منهم

تعديةُ الإنزالِ بـ(إلى) في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ المُنَزَّل وصَلَهم، وبلَغهم، واستقرَّ عِلْمُه عندهم، وفي جعلِهم غايةً للإنزال، بالتعدّي بحرف الانتهاء، تشريفٌ لهم وعنايةٌ بهم، ولا يخفى ما فيه أيضًا من التَّكليف به، والتَّعريض بعدم مُخالفتهِ.

غرضُ تقديم شبه الجملة ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ على المفعول:

يعمُّ الخطابُ الإلهيُّ الثَّقلين كافَّةَ الجنَّ والإنسَ

تقديمُ شبه الجملة على المفعول، في قوله سبحانه: ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ﴾؛ للاعتناء ومزيد التكريم بالتقديم الذي يستتبع

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 228.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 175، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 229.

المسؤوليَّة والاعتناء بما نزل؛ تحقيقًا له بالعلم والإيمان والعمل، ولو حُمِل الخطاب على العموم للثّقَلَيْن - الإنس والجنِّ - فيفيدُ التقديم الحصر كذلك، أي: إليكم خاصَّة قصرًا عليكم، لا إلى غيركم من الموجودات.

نكتةُ جمع ﴿ءَايَٰتٍ﴾ وتنكيرها:

جمع ﴿ءَايَٰتٍ﴾ للتعديد، والإيذان بأنَّها ليستْ آيةً واحدة، بل هي مجموعاتٌ من الآيات، وفائدة الجمع: الدَّلالة على أنَّهم اسْتَوْفَوا البيان والتَّفصيل، فلا عذر لهم، ولهم من التنزيل آياتٌ تتآخى، وتتظاهر جميعُها على إفهامهم وإزالة الجهالة والخفاء عنهم، وتنكير ﴿ءَايَٰتٍ﴾ للتكثير والتفخيم.

يُنزل الله البيانَ، وعلى النّاس أن يفقهوه وينفِّذوه

نكتةُ وصفِ الآيات بـ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾:

وصف الآيات بقوله: ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ لتحديد وظيفة الآيات، وتعيين أثرِها، ومدحها بوصف التَّبيين، والإخبار عنها بأنَّها لا يشوبها خفاءٌ أو نقْصٌ أو سَلْبٌ، وفي وصفها بالتبيين إشارةٌ إلى أنَّه روعي معها تبايُنُ أحوال المُخاطَبين في العِلم والفَهْم، فهي صالحةٌ لإفهام الجميع والإبانة لهم، فهي بيِّنةٌ في نفسها، مُبيِّنَةٌ لمن لا يستقلُّ بالاستبيان، ومُبيِّنَةٌ بغيرها من أخواتها، وشواهِدها في الكتب المتقدِّمة، وشواهدها في الكون والخَلْق، ومُصادقاتِ ذوي العقول المستقيمة عليها، ومبيَّنَةٌ كذلك بغيرها من حكمةِ النبيِّ ﷺ، وحكمةِ ورَثَتِه من العلماء الرّاشدين.

يدخلُ في البيانِ مـراعـاةُ تبايـن أحوال المخاطَبين

بلاغةُ توجيهِ القراءات القرآنيَّةِ المتواترة في ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾:

قرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي وخلف ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ بتضعيف الياء المكسورة، على أنَّها اسمُ فاعل، فتكون الآياتُ هي المُبيِّنة، أي: أبانت عن مضامينها ومقاصدها في أحكامها، من (أبان) المتعدّي، وإسنادُ البيان إلى الآيات على الفاعليَّة مجازٌ عقليٌّ؛

بيانُ اللهِ كاملٌ لا يغادر صغيرةً ولا كـبـيرة إلّا أحصاها

لأنَّها سببُ البيان، فنُزِّلَتْ كأنَّها الفاعل له، وأمّا على معنى أنَّها بيِّنةٌ في نفسها، فهذا من (بان - فهو بيِّنٌ) اللازم - أي: ظهر - ولا مجاز، وقرأ الباقون بفتح الياء المضعَّفة، على المفعول: ﴿مُّبَيَّنَٰتٖ﴾، أي: أبانها اللّهُ سبحانه وفصَّلها[1]، وعلى قراءة الكسر حُذِف المفعول به، والتقدير: (أنزلنا إليكم آيات تُبيِّن كل شيء لكم).

فائدةُ عطفِ ﴿وَمَثَلٗا﴾، و﴿وَمَوۡعِظَةٗ﴾ على ﴿ءَايَٰتٖ﴾:

كثرةُ العناوين على الموضوع الواحدِ إشارةٌ إلى كمالِه في الجامعيَّة والاستيفاء

العطف بين ﴿ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾، و﴿وَمَثَلٗا﴾، و﴿وَمَوۡعِظَةٗ﴾؛ للمغايرة في الصِّفات، لا في الذّات؛ لأنَّ التبيين والمثل والموعظة صفاتٌ متوارِدة على شيءٍ واحد، وهو القرآن، وأمّا الموعظة؛ فهي صفةُ الصِّفة؛ لأنَّ الآيات والمثَل كلاهما نشأ عنهما الموعظة، فالآياتُ موصوفة بكونها بيِّناتٍ، وبكونها موعظةً، والمثَل موصوفٌ بكونه موعظةً، إلّا أنَّه أفرد الموعظة بالعطف؛ للتَّنبيه على التغاير الاسمي العنواني، فهي عنوانٌ مستقِلٌّ على آيات القرآن وأمثاله، فاستحقَّ التَّنبيه عليه؛ لاستخلاصه واستفادته منهما، وكذلك المثَل معطوفٌ على الآيات البيِّنات، وهو منها، فالمثلُ من الآيات، ولكن عطف عليها؛ لتميُّزه بنوعٍ مخصوصٍ من الآيات، فهو من باب عطف الخاصِّ على العام؛ للاهتمام والعناية[2].

نكتةُ تنكير قوله: ﴿وَمَثَلٗا﴾:

أمثالُ القرآنِ كاملةٌ في مَضْرِبِها ومَوْرِدِها، لا تنشأ عن تجربةٍ كأمثال النّاس

تنكيرُ ﴿وَمَثَلٗا﴾ في قوله: ﴿وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾؛ للتفخيم والتَّعظيم، بما يشير إلى عِظَم مضمونِه، وجلال مقصوده، وأحقّيَّتِهِ بالنَّظَر فيه، والامتثال له، والعمل به.

معنى ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾ ودلالتها على المحذوف:

﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾، ابتدائيَّةٌ، أي: مَثَلًا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 41، وابن الجزري، النشر: 2/247، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 174، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 229.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 42.

النَّظرُ في تجارب الآخرين يورث الوقايةَ من الزَّلل وعواقبه

ينشأ، ويَرِدُ من جهةِ الَّذين خلوا، والمراد نشأةُ المشابهة بين النَّظير الحالي والنَّظير الفائت في عجَيبِ القصَّة وغريبِها في كُلٍّ، وفي الكلام حذفُ مضاف يدلُّ عليه السّياق، تقديره: من أمثال صالحي الذين خلوا من قبلكم، أي: من جنس قصصِهم العجيبةِ، والمراد قصَّة براءة عائشة رضي الله عنها في هذه السّورة هي مَثَلٌ يُحاكي نظيرها الحاصل في الأمم السّابقة كقصَّة براءة يوسف، وبراءة مريم عليهما السلام، أو المراد: نشأةُ المشابهة بين الأحكام في هذه السّورة، والأحكام السّابقة في التَّوراة والإنجيل من إقامة الحدود، وتحريم الزِّنى، فصار استقرارُ تلك الأحكام سابقًا ولاحقًا، كاستقرار المَثَلِ السّائر في التَّواتر والاحتجاج، وكما صار المُكذِّبون بها في السّابق مَثَلًا يُحكى وقِصَّةً تُرْوَى في إحلال العذاب بهم جزاءً لهم، فاعتبروا بهذا المَثَل، ولا تتشبَّهوا بهم في التكذيب، فتكونوا أمثالَهم في الجزاء(1).

فائدةُ وصف المثلِ بقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾:

الانتفاعُ بالأمثال يستلزم جاهزيَّةً واستعدادًا في العقل والفطرة

وصف المثل بقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾؛ لوقوع المَثَل بين نظيرين، بينهما تشابهٌ في القصَّة والحال، ولذا علَّقه بالنَّظير هنا وهم الأمم الماضية ذَووا القصص والأحوال العجيبة في دروسها وحِكَمِها.

غرضُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾:

تجاربُ الصالحين معيارٌ لمن لا خبرة له ولا تجربة

التَّعريفُ بالصِّلة في قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾؛ لتمييزهم أكملَ تمييزٍ، وتعيينهم بمضمون الصِّلة؛ للدَّلالة على أنَّهم معلومون عند المُخاطَبين مشتهرون لديهم، لا يَخْفَون عليهم، وهما يوسفُ ومريمُ عليهما السلام في براءتهما، أو الأحكام والحدود في التَّوراة والإنجيل عند الذين خلوا.

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 42، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 230، والشنقيطي، أضواء البيان: 5/ 534.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾:

القُرب والمحدوديَّة وعدم التوسُّع في مُدَّة الظرف

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ ابتدائيَّةٌ، وتفيد هنا عدم استغراق زمان القبْليَّة، فهي تُعنَى بزمنٍ مُحدَّد في القَبْليَّة المذكورة، وهي القبْليَّة القريبة من زمن المخاطَبين، في زمن يوسف ومريم، أو زمن التوراة والإنجيل، ولو قال: (الذين خلوا قبلكم) بإسقاط الجارِّ؛ لأوهم عموم الأزمان قبلهم.

نكتةُ تنكيرِ ﴿وَمَوۡعِظَةٗ﴾:

تنكيرُ ﴿وَمَوۡعِظَةٗ﴾ للتفخيم والتعظيم والإجلال، أي: موعظةً حكيمةً مُستقيمةً مُنْجيَةً، فغايةُ المواعظ العِصمةُ والوقاية من مغارِم السّوء.

نكتةُ تخصيصِ المتَّقين بالموعظة:

الدعوةُ للانتظام في سِلْكِ المتّقين

خصَّ المُتَّقين بالموعظة، في قوله: ﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ - فلام الجرِّ في: ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ تدلُّ على الاختصاص - لأنَّهم المنتفعون بها دون غيرهم؛ لأنَّ المتَّقين هم خُلاصةُ النّاس، كما كانت الموعظةُ هي خُلاصة المَثَلِ والآيات، فاصطفى للخُلاصةِ مَن هو أحقُّ بها من الخُلَّص، و(أل) في (المتَّقين)؛ لاستغراق جنس المتَّقين عددًا وحقيقة، و(أل) الدّاخلة على الوصف المشتقِّ: (المتَّقين) تفيد الكمال، أي: المتحقِّقون بالتَّقوى.

توجيهُ المتشابه اللَّفظيِّ:

في كلِّ زيادةٍ تلحق النَّصَّ ليست في نظائرها نورٌ ينضافُ إلى نور

بين هذه الآية وقوله في الآية الأولى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١﴾ [النور: 1]، وقوله: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٨﴾ [النور: 18] تشابهٌ لفظيٌّ، فقوله سبحانه هنا: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾ يطابق قوله في أوّل السّورة: ﴿وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ [النور: 1]، وقوله: ﴿وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ يقابل قوله في أوّل السّورة: ﴿وَفَرَضۡنَٰهَا﴾

[النور: 1] على اعتبار أنَّ الفرضَ معناه: التَّعيين والتقدير؛ لأنَّ في التَّمثيل - الوارد في قوله: ﴿وَمَثَلًا﴾ - تقديرًا وتصويرًا للمعاني بنظائرها، وفي ذلك كشْفٌ للحقائق، وقوله: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يقابل قوله في أوَّلها: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ①﴾ [النور: 1][1]، ويتشابه قوله في أوَّل السّورة: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ [النور: 1] مع قوله بعدها: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ [النور: 18]، مع قوله هنا: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾، في أنَّ كلَّ آيةٍ منها تذييلٌ بعد تشريعٍ وحُكْم، وكلَّ آيةٍ منها اقترنت بحرف الوصل (الواو)؛ لأنَّها كالمعطوفِ على سَبَبِه، فهي كالأختام والخُلاصات بعد التَّنبيه على أسبابها من الحدود والفروض والأحكام، واختلفت كلُّ آيةٍ منها عن أختها، بأنَّ كلَّ واحدةٍ اشتملَتْ على زيادة ليست في نظيرتها، فقوله: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ [النور: 18] زاد بالخطاب على الآية الأولى: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ [النور: 1]، فزاد أنَّ بيان الآيات لإفادة الأمَّة، وزاد هنا بقوله: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بما ليس في: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ [النور: 18]؛ لأنَّ هذه الآيةَ هي الخاتمة بعد استيفاءِ الأحكام جميعًا، فاقتضتْ زيادةً في البيان، ويكأنَّ هؤلاءِ الآيات الثّلاث هي خُلاصاتٌ جامعة بعد كلِّ بيان، وهي جميعًا بمنزلة المعطوف على نظيره، كأنَّه قيل: أنزلنا آياتٍ بيِّنات في نفسها مُحكمَة، وبيَّنها الله لكم؛ لتنظروا فوائدها ومقاصدها، وجعل الله في إنزالها إليكم تبيانًا ومثلًا وموعظة[2].

التَّشابه اللفظيُّ في الآيات له وظيفتان تأكيدُ الفِكْرة، واستيفاءُ العِبْرة

السِّرُّ في زيادة الواو دون غيرها في الآيتين المتشابهتين في السورة نفسها:

بين قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾، وقوله: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ [النور: 46]، تشابهٌ لفظيٌّ حيث جاء الأوَّل بزيادة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 229.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 229.

الواو وزيادة ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾، وجاء الموضع الثّاني بحذفهما، ووجه ذلك: أنَّ اتِّصال الموضع هنا بقبله أشدُّ؛ إذ قولُهُ في ختام الآية هنا: ﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ مصروفٌ إلى الجُمَلِ السّابقةِ مِن قولِه: ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ إلى آخره، وفيه معطوفانِ بالواوِ في: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ﴾، و﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ﴾؛ فناسب التَّذييلُ عليها هنا بالعطف، وذكر قوله: ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾؛ ليفيدَ أنَّ الآياتِ المبيّنات نزلت في شأن المُخاطَبين في الجُمَل السّابقة، وما ذُكِر بعدُ في الموضع الثاني خالٍ عن ذلك، فناسبه الاستئنافُ والحذف[1].

(1) الكرماني، أسرار التكرار، ص: 187، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/ 338، وزكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 396.

﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٣٥﴾

[النور: 35]

نورُ الوحي يُجلّي ظلمةَ العقل، كما يُجلّي نورُ الكون ظلمةَ الوجود

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكر اللّه في الآية السّابقةِ إنزالَهُ لأوعيةِ نورِ الهدى ودينِ الحقِّ الظّاهِرِ على الدّين كلِّهِ بالبيِّناتِ والأمثال والموعظةِ النّاجزة؛ ذكَر هنا في هذه الآية أنَّ هذا الدِّين الذي ظهرَ بنورِه على ما سواه من الأديان، فبدَّد بنورِه ظُلُماتِها، هو عند التقريب كنورِ السماوات والأرض الذي عمَّ كلَّ شيءٍ في الوجود، من الذرَّةِ إلى المجرَّة، فكذلك مثلُ نورِ الحقِّ الذي غطّى ظلمات الباطل ودمغَها، وعمَّ بآثارِ إشراقاتِه قلوبَ المؤمنين.

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ﴾: اسم للتجويف (الكوَّةُ) في الحائط، غير المثقوبِ ولا النّافذ، مِثْلُ الكوَّةِ لَكِنَّها غَيْرُ نافِذَةٍ، فإنْ كانَتْ نافِذَةً؛ فهي الكوَّةُ[1]، أو هي الأنبوبة وسط القنديل، وهي الحديدةُ أو الرَّصاصة التي يوضع فيه الذُّبال وهو الفتيل، وتكون في جَوْفِ الزجاجة[2]، ووزنه (مِفْعَلَة) بكسر الميم على وزن اسم الآلة من (شَكا)، فيه إعلالٌ؛ لأنَّ أصله (مِشْكَوَةٌ)، تحرَّكت الواو بعد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 235.
(2) السمين، الدر المصون: 8/ 404.

فتحٍ، فقلِبت ألِفًا، وفي المشكاة أقوالٌ كثيرة في معناها[1]، وهل هي عربيَّة أم حبشيَّة مُعَرَّبة؟ خلافٌ[2].

2) ﴿مِصۡبَاحٌۖ﴾: اسم آلةٍ لِلْإناءِ الَّذي يوقَدُ فيهِ بِالزَّيْتِ لِلْإنارَةِ، جاء من الثلاثيِّ اللازم (صَبَح) على غير قياس، وزنه (مِفعال) بكسر الميم[3]، وهو مُشْتَقٌّ مِنِ اسْمِ الصُّبْحِ، أي: ابْتِداءُ ضَوْءِ النَّهارِ، فالمِصْباحُ آلَةُ الإصْباحِ، أي: الإضاءَة، ويقال للسّراج: مِصْباحٌ، والمِصْباحُ: مقرُّ السِّراجِ[4]، والمصباح: السِّراجُ الضَّخمُ[5]، وإذا كانَت المِشْكاةُ اسْمًا لِلْقَصيبَةِ الَّتي توضَعُ في جَوْفِ القِنْديلِ؛ كانَ المِصْباحُ مُرادًا به الفَتيلَةُ الَّتي توضَعُ في تِلْكَ القَصيبَةِ[6].

3) ﴿زُجَاجَةٍۖ﴾: واحدة الزُّجاج، اسم جمعٍ للجنس، والزُّجاج معروف، وزنه فُعالَةٌ بضمِّ الفاء، قيل: يجوز في الفاء الكسر والفتح، ومثل ذلك الزُّجاج[7]، وقد كانوا يَتَّخِذونَ مِنَ الزُّجاجِ آنيَةً لِلْخَمرِ وقَناديلَ لِلْإسْراجِ بِمَصابيحِ الزَّيْتِ؛ لِأَنَّ الزُّجاجَ شَفّافٌ لا يَحْجِبُ نورَ السِّراجِ، ولا يَحْجُبُ لَوْنَ الخمرِ وصَفاءَها؛ لِيَعْلَمَهُ الشّارِبُ[8].

4) ﴿دُرِّيٌّ﴾: (درّ) أصلٌ يدلُّ على اضْطِرابٍ في شيءٍ، وسُمّي الدرُّ بذلك؛ لاضطرابِ يُرَى فيه لِصَفائه، كأنَّه ماءٌ يَضْطَرِبُ، وقوله: ﴿كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾، أي: مضيءٌ، منسوبٌ إلى الدُّرِّ، وهو كِبارُ اللُّؤْلُؤِ؛ تَشْبيهًا بصفائه، والدريُّ: الشَّديدُ الإنارة[9].

5) ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾: مؤنَّث شرقيٍّ وغربيٍّ، و﴿شَرۡقِيَّةٖ﴾ اسمٌ منسوبٌ إلى الشَّرْق، و﴿غَرۡبِيَّةٖ﴾ اسْمٌ مَنْسوبٌ إلى الغَرْب، وزنهما فعليَّة بفتح الفاء[10]، والمرادُ: لَيْسَتْ مَنسوبَةً إلى الشَّرْقِ وحْدَهُ، ولَيْسَتْ مَنسوبَةً إلى الغَرْبِ وحْدَهُ، بَلْ هي بارِزَةٌ لِلشَّمسِ مِن حينِ الشُّروقِ إلى وقْتِ الغُروبِ؛ لِيَكونَ ثَمَرُها أَنْضَجَ، فيَكونَ زَيْتُهُ أَصفى[11].

(1) صافي، الجدول: 18/ 264.
(2) السمين، الدر المصون: 8/ 404.
(3) صافي، الجدول: 18/ 264، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 236.
(4) الراغب، المفردات: (صبح).
(5) السمين، الدر المصون: 8/ 405.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 236.
(7) صافي، الجدول: 18/ 264.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 237.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (در)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 305، وابن جرير، جامع البيان: 17/ 302.
(10) صافي، الجدول: 18/ 264.
(11) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 275.

6) ﴿زَيْتُهَا﴾: الزَّيْتُ: عصارة الزَّيتون[1]، والزَّيتون: اسم جنسٍ، واحدُهُ زيتونةٌ، كقمحٍ وقمحةٍ[2]، يقال: زاتَ طعامَهُ ورأسَهُ؛ إذا دَهَنَهُما بِالزَّيْتِ[3]، والزَّيْت: اسمٌ للسائل الذي يؤتَدَمُ به، ويخرج من الزَّيتون وغيره[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إدراكُ النّـورِ هـو غـاية نـزول القرآن

اللّه سبحانه هو مصدرُ النّورِ في السماوات والأرض، فهو مُنَوِّرهما بكلِّ نورٍ حسّيٍّ نراه، ونسير فيه، وبكلِّ نورٍ معنويٍّ، كنورِ الحقِّ والعدل، والعِلم والفضيلة، والهدى والإيمان، وبالشواهد والآثار التي أودعها مخلوقاته، وبكلِّ ما يدلُّ على وجود اللّه، ويدعو إلي الإيمان به سبحانه[5]، فلولا نورُهُ تعالى؛ لتراكمت الظُّلمات، بعضُها فوق بعضٍ، مثل نوره الذي يهدي إليه، وهو الإيمان، والقرآن في قلب المؤمن كمشكاة، وهي الكوَّة في الحائط غير النافذة، فيها مصباح، حيث تجمع الكوَّة نورَ المصباح، فلا يتفرَّق، وذلك المصباح في زجاجة، كأنَّها - لصفائها - كوكبٌ مضيء كالدُّر، يوقَد المصباح من زيت شجرة مباركة، وهي شجرة الزيتون، لا شرقيَّةٌ فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار، ولا غربيَّةٌ فقط، فلا تصيبها الشمسُ أوَّلَ النَّهار، بل هي متوسِّطة في مكان من الأرض لا إلى الشرق ولا إلى الغرب، يكاد زيتها - لصفائه - يضيء من نفسه قبل أن تمسَّه النار، فإذا مَسَّتْهُ النار؛ أضاء إضاءة بليغة، نور على نور، فهو نور من إشراق الزيت على نور من إشعال النار، فذلك مثل الهدى يضيء في قلب المؤمن، واللّه يهدي، ويوفِّق لاتباع القرآن مَن يشاء، ويضرب

---

(1) الراغب، المفردات: (زيت).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: 155/ 2.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زيت).
(4) صافي، الجدول: 18/ 264.
(5) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن، ص: 524.

الأمثال للناس؛ ليعقلوا عنه أمثاله وحكمه، واللّه بكلِّ شيء عليم، لا يخفى عليه شيءٌ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملةِ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

الله تعالى منوّر السموات والأرض حسًّا بالخلق والإيجاد، ومعنًى بهداية أهلهما

جملة ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ مستأنفةٌ مُعلِّلةٌ ومقرِّرة لمضمون ما قبلَها، كأنَّه قيل: فعلنا ذلك الإنزالَ للبيِّنات وأمثال الهدى، ومواعظ النّور؛ لأنَّ اللّهَ أوجد نورَ السموات والأرض، وأوجد جميع الأشياء، ونوَّرها، منه ابتداؤها، وعنه صدورها، فأنوار البصيرة كلُّها منه، وأنوار البصر كلُّها منه[2]، ويصحُّ أن تكون الجملة المباركَة استئنافًا بيانيًّا؛ جوابًا عن سؤالٍ قد ينشأ في نَفْس السّامع، كأنَّه لمّا عرف قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾، سأل قائلًا: (كيف يستقِلُّ الكتاب العزيز باحتواء ذلك الفُرقان النّورانيِّ من البيِّنات والمواعظ والأمثال فيه، فمَن يجعل ذلك مُمكِنًا، وأنّى ذلك؟) فيُجاب بأنَّ هذا حاصلٌ؛ لأنَّ اللّه هو نورُ السَّماوات والأرض.

المجازُ في إطلاق المصدرِ على اسم الفاعل:

الـلـهُ مـوجِـدُ أنوارِ السماوات والأرض

في قوله سبحان: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ عبَّر بالمصدر (نور)، وأراد اسم الفاعل: (مُنَوِّر)، على سبيل المجاز المرسل علاقته التعلُّق الاشتقاقي؛ والغرضُ المبالغة، كأنَّه عيْنُ نورِه، وعبَّر عن المُنَوِّر بنفس النّور تنبيهًا على قوَّة التنوير، وشدَّة التأثير، وإيذانًا بأنَّه تعالى ظاهرٌ بذاته، وكلُّ ما سواه ظاهرٌ بإظهاره[3].

يُـمدَحُ المخلوقُ بكونهِ نفْحَةً من آثار صنعةِ الله

ويصحُّ أن يجري التركيب في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على تقدير مضاف محذوفٍ، أي: اللّه ذو نور، وصاحب نور السماوات

---

(1) مجموعة من العلماء، التفسير الميسر، مجمع الملك فهد.

(2) طنطاوي، الوسيط: 10/ 127.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 175.

والأرض، كقولهم: زيدٌ كَرَمٌ، أي: ذو كَرَم، وأخبر عن اللّه بالنّور؛ لأنَّه أثرٌ من آثاره عظيم، فأُسْنِد إليه دون المضاف المقدَّر؛ تعظيمًا للنّور ومدحًا له؛ إذْ به يقع الانكشاف، ويتحقّق الظُّهور في الموجودات، فالنّور هنا ممدوحٌ باللّه سبحانه(1).

التَّشبيهُ البليغ في: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

الثَّناءُ على الله سبحانه بأعاظِم خلقهِ

ويصحُّ أن يكون الإخبارُ عن اللّه بالنّور تشبيهًا بليغًا حُذِفت منه الأداةُ، كأنَّه سبحانه لكثرةِ آثاره من الأنوار الحسيَّة والمعنويَّة التي عمَّتِ الخلائق، وكان بها قوامهم ومعاشهم، فلهذه الكثرة والسَّعة في إيجاد النّور؛ جُعِل سبحانه هو النّور مبالغةً في الثَّناء عليه سبحانه بأعاظِم خلْقهِ، وهو النّور، فخرج التركيب مخرجَ المدحِ والمبالغة، فالتشبيه هنا حاصلٌ لا في الكيفيَّة - تعالى اللّه عن مُماثلته شيئًا من خلقه - بل حاصلٌ في التسميةِ وفي معنى الكمال والسَّعة والبينونة التامَّة الذي يؤذن به لفظُ (النّور)، وهو من باب الإخبارِ عن الذّات الجليلةِ بالمصدر؛ لقصد المبالغة والمدحِ، كأنَّهُ لكثرة تنويره سبحانه الوجود، صِرْتَ ترى اللّه نورًا على معنى الجلال والكمال، فالتشبيهُ جارٍ على التقريب الذِّهنيِّ، لا التَّحصيل المِثْليّ(2).

الاستعارةُ التصريحيَّة في: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

اللهُ هادي النّاس، وهدايته لهم نور

يصحُّ أن يجري قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على معنى: (اللّه هادي أهل السماوات والأرض)، على تقدير المضاف، وتشبيه الهُدَى والحقِّ بالنّور، بجامع الظُّهور والانكشاف في كلٍّ، فالمراد النّورُ المعنويُّ، وهو الحقُّ والعدل الذي قامت عليه السماوات والأرض، ففي اللفظ استعارةٌ تصريحيَّة، وهي تبعيَّة؛ لأنَّها جاريةٌ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 90، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 190.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 43، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 175، ودرويش، إعراب القرآن: 6/ 608، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 190.

بعد تأويل المصدر باسم الفاعل في منوِّر من النّور، وهادٍ من الهُدى، أو الاستعارة أصليَّة، كأنَّه قال: دينُ اللّهِ نور السماوات والأرض، فشبَّه دين الحقِّ بنور السماوات والأرض(1).

المجازُ المرسل والاستعارة في (النّور):

النّورُ يكشف الأشياءَ الموجودة، والإيجاد يُظهِر الأشياء المعدومة

يجوزُ أن يكون قولُه: ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ محمولًا على معنى: (موجِد أهل السماوات والأرض) على حذف المضاف، والمجاز المرسل بإطلاق الملزوم (النّور)، وإرادة لازم معنى النّور، وهو (الظّاهر بنفسه والمُظهر لما سواه، وهذا هو معنى واجب الوجود، الموجِد لما عداه)، ويصحُّ أن يكون: (موجِد أهل السماوات) استعارةً تصريحيَّةً، حيثُ شبَّهَ واجب الوجود ﷻ الموجِد لغيره، بالنّور بجامع إظهار الأشياء في كلٍّ، فالنّور يظهرها من الخفاء، والإيجاد يُظهرها من العدم(2).

نكتةُ إضافةِ النور للسماوات والأرض خاصَّة:

القرآنُ يُضيءُ القلوبَ، كما أنَّ النّورَ يُضيء الوجود

أضيفَ النّورُ إلى السماوات والأرض خاصَّة، في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ للدَّلالة على سَعة إشراقهِ وفُشوِّ إضاءته، حتّى استغرق ذلك السماوات والأرض، فأضاف إلى أوسع ما في الوجود؛ ليدلَّ على سَعةِ المُضاف الذي هو النّور الذي عمَّهما(3)، ولأنَّ السموات والأرض هما المقرُّ المعروف للمكلَّفين، وهما منتهى ما تصل إليه مدارك البشريَّة من المعرفة، فالحِسُّ مقصورٌ عليهما، لا يُجاوزهما(4)، وعلى اعتبار النّور مستعارًا للبيان الحقِّ، الآيات أو القرآن، فإضافته للسَّماوات والأرض؛ للدَّلالة على كمالِ شيوع (البيان) المستعار له، وغايةِ شموله لكلِّ ما يليق به من الأمور الَّتي لها مدخلٌ في إرشاد الناس وهدايتهم، بوساطةِ بيان شمولِ

(1) ابن عطية: 4/ 183، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 357.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 107، والآلوسي روح المعاني: 9/ 357.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 43.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 358.

المستعار منه (النّور) لجميع ما يقبله، ويستحقُّه من الأجرام العلوية والسفليَّة في السماوات والأرض[1].

المجازُ المرسل في: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

العالَم أوسعُ من مجرَّد السَّماوات والأرض

في قوله: ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ عبَّر عن جميع الوجود والعالَم بالسَّماوات والأرض، فأطلق الجزءَ، وأراد الكلَّ، والمعنى: (اللّه نور العالَم كلِّه)[2].

إطلاقُ المحلِّ وإرادة الحالِّ فيه

ويجوزُ أن يُرادَ بالسَّماواتِ والأرضِ مَن فيهما مِن بابِ قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: 82]، أي: (نور أهل السماوات والأرض)، وذلك أبلغُ من ذِكْر المضاف المحذوف؛ لأنَّ في هذا الحذف إيهامًا أنَّ السَّماوات والأرض قابلةٌ لهذا النّور، كما أنَّ القريةَ نفسَها تشهد بما يُسأل منها، وذلك أبلغُ في الدَّلالة على الإحاطة بالمقصودِ وألطف دلالة، وهذا التوجيهُ جارٍ على المجاز المرسل، بإطلاق المحلِّ، وإرادة الحالِّ[3].

نكتةُ اختيارِ النّور دون الضَّوء:

النّورُ مبدأُ الضوء، فهو أصل الكشفِ

لم يأتِ السياق الكريم بلفظ (الضّوء)، دون (النّور) على معنى: أنَّ اللّهَ مُضيء السَّماوات والأرض، مع أنَّ الضَّوء أشدُّ إشراقًا وإفراطًا في الإنارة، ونكتة ذلك: أنَّ النّور أعمُّ من الضّوء، فكلُّ محلٍّ تحقَّق فيه الضَّوءُ؛ تحقَّق فيه النّور، وليس العكس، فلمّا كان النّور أعمَّ؛ اختير النّور على الضّوء؛ لاستجماع الأعمِّ خصائص الجنس واستغراقه صفات الماهية دون الأخصِّ، وأيضًا: النّور هو مبدأ الضّوء، وعنه يتشعَّب، ويتفرَّع، فهو الأصل والمصدر، كما أنَّ اللّهَ سبحانه هو مبدأ الموجودات، ومصدر الكائنات، وأصلُ كلِّ ذرَّةٍ ومَجَرَّةٍ، ولهذا السِّرِّ البديع واللطف الرَّفيع كان النّور من أسمائه

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 107، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 175.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 358.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 233.

تعالى دون الضَّوء والضّياء، ولذا كان النّور أثْبَت، وأقرَّ؛ لأنَّه الأصل والمبدأ، وأمّا الضَّوءُ؛ فهو زائدٌ على الأصل، والزّائدُ لا ثبات له بدون أصله، فكان النّورُ أفضلَ وأحقَّ هنا بالاصطفاء[1].

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾:

تُضرَبُ الأمثالُ لتقريب ما يَقصُر اللفظُ عن موافاةِ حقيقتِه

جملة ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه لمّا قال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، سأل سائلٌ: (وما معنى هذا النّور، وما المراد به؟) فأُجيب: بالمَثَلِ للتّقريب: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾، وعليه: فجملة: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ إيضاحٌ وتفسير لما قبلها[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمَثَل:

تُضربُ الأمثالُ لإظهار عجائب الأحوال

التَّعبيرُ بالمثل في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ يدلُّ على فرادة ما في حيِّزه من مضمون؛ لأنَّ المراد: صِفةُ نورِه كذا، لكنَّ المَثَل لا يُقال في أيِّ صفة، بل في الصِّفة المشتملة على غرابةٍ تستدعي عجَبًا[3]، والمراد: صفةُ نورِه العجيبة الشَّأن في الإضاءة[4].

مرجعُ الضَّميرِ في: ﴿نُورِهِۦ﴾:

نورُ الإيمانِ من اللهِ، منه بدأ وإليه يعود

الظّاهر عوْدُ الضَّمير إلى الله سبحانه في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾؛ لِقرب ذكره سبحانه في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والمعنى: (مثل نوره الذي يقذفُهُ في قلب المؤمن، ويهديه به)[5]، والقول بأنَّ الضَّميرَ عائدٌ إلى المؤمن، على تأويل: (مثل نورِ المؤمن)، فمعناه صحيحٌ، لكنَّ إجراء الضَّمير على المؤمن، ليس كذلك؛ لعود الضمير حينئذٍ على ما لا ذِكْر له في النَّظم، وهذا على خلاف الأصل، وأمّا المعنى فصحيحٌ؛ لأنَّه من باب التفسير باللازم؛ لأنَّ نور الله هو الحقُّ الذي

---

(1) القونوي، حاشية القونوي: 13/ 358.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 183، وأبوحيان، البحر المحيط: 8/ 44، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 107، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 272.
(3) القونوي، حاشية القونوي: 13/ 364.
(4) طنطاوي، الوسيط: 10/ 128.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 183، والسمين، الدر المصون: 8/ 404.

يُنير به قلبَ المؤمن، ويهديه، فيصير ذلك نورًا للمؤمن ونورًا منه، فنور المؤمن هو من هذا النّور المضاف إلى ضمير الجلالة، ويؤيِّد هذا التفسيرَ إسنادُ هذا النور إلى المؤمنين في قوله: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: 28].

دلالةُ إضافةِ النور إلى ضمير الجليل سبحانه:

النّورُ في التّمثيل مخلوقٌ، فلا ينسحب على المولى سبحانه

ضَرْبُ المَثَلِ للنّور، وإضافته إلى ضميره سبحانه، في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾، يدلُّ على أنَّ الإخبارَ عنه سبحانه بالنّور في الجملة التي قبلها: ﴿ٱللَّهُ نُورُ﴾ مجازٌ، فليس على ظاهره؛ لأنَّه لو كان النّور عيْنَهُ سبحانه؛ لزم من ذلك إضافة الشَّيء إلى نفسِه، فثبتت المغايرة بين المضاف والمضاف إليه في: ﴿نُورِهِۦ﴾(1).

إجراءُ التركيبِ على حذف المضاف في: ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ﴾:

ما ذُكِرَ في المشبَّه يجري على المشبَّهِ به، وما يُقَدَّر في المشبَّه يقدَّر في الثّاني كذلك

قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ﴾ جارٍ على حذف مضاف، أي: (مثل نوره كمَثَل نور مشكاة) والحذف؛ للإيجاز لدلالة المَثَل في صدر الكلام عليه، وتقدير المضاف في النَّظم؛ لأنَّ المَثَل في المشبَّه، لا بدَّ أن يَرِد كذلك في المُشبَّه به؛ لجريان التمثيل على الطرفين، وتقدير النور مضافًا إلى المشكاة في: (كمثل نور مشكاة أو كصفة نور مشكاة)؛ لاقتضاء ذِكْر المصباح بعده تقدير النّور(2).

نكتةُ تقديمِ المشكاة على المصباح:

تقديمُ المشكاة؛ لأنَّها المقصودة بالإنارة

لم يقل في السّياق الكريم: (مثل نوره كمصباحٍ في مِشكاة)، بل قال: ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾؛ لأنَّ المِشكاة هي حاويةُ المصباح ووعاؤه، وموضع قراره، فالمصباحُ موضوعٌ في المشكاة - التي هي تجويفٌ في الحائط مسدود، غير نافذٍ ولا مثقوبٍ ولا مفتوح - فقدَّمها ليدلَّ بها على سلامة المصباح، وحيثيَّتِه المتمكِّنةِ في الموضع،

(1) القونوي، حاشية القونوي: 13/ 364.
(2) السمين، الدر المصون: 8/ 404، والقونوي: حاشية القونوي: 13/ 364.

وطلبًا من السّامع أن يستحضر المِشكاة أوّلًا؛ ليستدلَّ بها على نَفاذة ضوء المصباح في قُطْرِها، وانحصار أشعَّته فيها إيذانًا بشدَّة التوهُّج وفرط الإنارة، وقد يكون تقديمُ المِشكاة تقديمَ وجود؛ لأنَّ المِشكاة تكون أوّلًا، ثمَّ يُجعَلُ المصباحُ فيها، كما يُشعِر تقديم المِشكاة بأنَّها مجعولةٌ للمصباح خاصَّةً، فلا يُزاحمه فيها شيءٌ آخر، وكما أنَّ القَلْب هو وعاء نور القرآن، وهو المحلُّ المقصود بإنارة الهداية، فكذلك المِشكاة هي المحلُّ المقصود بإنارة المصباح، فقُدِّمَتْ؛ لإرادة تمييزها بالمصباح، كأنَّه يقول: هي ليستْ مشكاةً كأيِّ مِشكاة، بل هي مِشكاة مستنيرة، لا يبرحها الضَّوء؛ ولأنَّ المقصودَ من المثل هو عمومُ هيئة المشكاة المُضيئة بالمصباح، وإنَّما قُدِّمت (المشكاة) في الذِّكر؛ لأنَّ المشبَّه به هو مجموع الهيئة، فاللفظ الدّالُّ على المشبَّه به هو مجموع المركَّب المبتدئ بقوله: ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ﴾، والمنتهي بقوله: ﴿وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾، فلذلك كان دخول كاف الشَّبَه على كلمة ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ﴾ دون لفظ ﴿مِصۡبَاحٌۖ﴾ لا يقتضي أصالة لفظ مشكاة في الهيئة المشبَّه بها دون لفظ ﴿مِصۡبَاحٌۖ﴾[1].

نكتةُ تخصيصِ المشكاة بالذِّكر دون غيرها:

تخصيصُ المشكاة بالذِّكر في ضرب المثلِ بها، في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ﴾؛ لأنَّها أجمع للضَّوء الذي يكون من مصباحٍ أو غيره[2].

الإظهارُ في مقام الإضمار:

ثبوتُ المضمون بطريق الإخبار أكثرُ تحقيقًا من ثبوته بطريق الوصف

أعادَ لفظُ المصباح في قوله: ﴿ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ﴾، ثمَّ أعاد الزُّجاجة في: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾؛ لكمال تقرُّرهما في الذِّهن، وفائدة ذلك: ثبوتُ استحضار سببِ قوَّة النّورِ في كلٍّ؛ ليبقى الذِّهنُ في حالة استطراد مع مشهد النّور الصّافي بصفاء وعائهِ، وفي الإعادة تأكيدٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 235.
(2) القنوجي، فتح البيان: 9/ 424.

على أوعيةِ الضّوء، وأنَّه ما صفا إلّا بها، ففي الإعادة تفسيرٌ بعد إبهام، وتفصيلٌ بعد إجمال، بإعادة اللفظتين معرَّفتين بعد تنكير، وحكاية المضمون بعدهما بطريق الإخبار المستقلِّ عنهما؛ تنويهًا بشأنهما، وتنبيهًا على أنَّهما حريّان بالقصد والعناية، ولذا لم يقل: (فيها مصباح في زجاجةٍ كأنَّها كوكب)؛ لِكَوْنِ ثبوتِ المضمون في النَّظم بطريق الإخبار أكثر تحقيقًا من ثبوته بطريق الوصف، ثمَّ إنَّ جملة الخبر في: ﴿ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ﴾، و﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾، كلاهما في موقع الصِّفة للمصباح الأوَّل والزُّجاجة الأولى، فتحقَّق في الجملتين بإعادة اللفظتين الخبريَّة والوصفيَّة، وهو من كمال تحقيق المعنى[1].

فنُّ تشابهِ الأطراف:

في الإعادة تأكيدٌ وزيادةُ إفادة

إعادة المصباح، ثمَّ إعادة الزُّجاجة كذلك، ومن قبلهما إعادة لفظ النّور، فيه إجراءٌ لفنٍّ بديع هو (تشابه الأطراف)، وهو أن ينظر المتكلم إلى لفظةٍ وقعتْ في آخر جملةٍ من الفقرةِ في النَّثر، أو آخر لفظةٍ وقعتْ في آخر المِصراع الأوَّل في النظم فيبتدِئ بها، كما هو حاصلٌ في تشابه أطراف هذه الجمل المتلاحقة، في قوله: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾[2].

نوعُ (أل) ودلالتها البلاغيَّة في: (المصباح والزُّجاجة):

كمالُ العناية أليقُ بالإظهار لا بالإضمار

(أل) في كلمتي ﴿ٱلۡمِصۡبَاحُ﴾ والـ﴿زُجَاجَةٍۖ﴾ - في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ﴾، وقوله: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ﴾ - للعهد الذِّكري، و(أل) هذه هي الرّابطة النّائبة عن الضمير، فمَرجِعها عائدٌ إلى لفظ ﴿مِصۡبَاحٌۖ﴾ و﴿زُجَاجَةٍۖ﴾ النَّكرتين قبلهما، فنابَتْ منابَ الضمير دون أن يتغيَّر المعنى في النَّظم، والتقدير: (فيها

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 176، والقونوي، حاشية القونوي: 13/ 365.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 236، ودرويش، إعراب القرآن: 6/ 611.

مصباح هو في زجاجةٍ هي كأنَّها كوكب دريٌّ)، وإنَّما آثر هنا التعبير بـ(أل) التعريف، دون الضَّمير؛ لغرض التفسير المنطوي على معنى التفخيم وكمال العناية بشأن المصباح والزُّجاجة(1).

نكتةُ التَّعبير عن صفاء الزُّجاجة بطريق التشبيهِ المرسل:

أسلوب التشبيه أوجزُ لفظًا وأبْيَن وصفًا

اختير طريقُ التشبيه في التعبير عن شدَّةِ صفاء الزُّجاجة؛ لأنَّه أوجزُ لفظًا وأبْيَن وصفًا، فقُصِد إنجازُ المعنى به بالأسلوب الصَّريح الواضح؛ لا سيَّما أنَّه تشبيهٌ مفرد في تلافيف التَّمثيل المركَّب في الآية، فهو تَبَعٌ غير مقصودٍ أصالةً في النَّظم، فجاء مُرسلًا، ليرتفع عنه التكلُّف في استيضاحه، ليلتقِطه الذِّهنُ ظاهرًا من غير تداخُلٍ أو تعسُّر؛ تفرُّغًا لإدراك التشبيه الكلّي في الآية، والذي يتعلَّق به الغرض، دون التشبيهات الجزئيَّة المنطوية فيه(2).

توجيهُ التشبيهِ في: ﴿كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾:

اجـتـمـاع الـصـفـاءيـن: صـفـاء الـلـبـاب وصفاء الإهاب

في قوله: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ شبَّه الزجاجة في إنارتها بكوكبٍ دريٍّ، وذلك يحتمل معنيين: إمّا أن يريد أنَّها تضيء بالمصباح الذي فيها، وإمّا أن يريد أنَّها في نفسها شديدةُ الضَّوء لصفائها ورقَّة جوهرها، وهذا الأخير أبلغُ؛ لاجتماع نورِها مع نور المصباح، فيقع نورٌ على نور(3).

نكتةُ تخصيصِ الكوكب بالذِّكر دون النَّيِّرَيْن الشَّمس والقمر:

الـكـسـوفُ والـخـسـوف نـقـصٌ يحجب الإنارة

شبَّه الزُّجاجة بالكوكب، ولم يشبّهها بأحد النيّرين: الشمس أو القمر؛ لنكتتَين: الأولى: لأنَّ الشمسَ والقمر يلحقهما الخسوف والكسوف بخلاف الكواكب، وما لا يلحقه الكسوفُ والخسوف، فهو أكملُ من تلك الجهة؛ لعارِض الحجْبِ في ضوئهما.

---

(1) ابن هشام، مغني اللبيب: 2/ 577، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 176، وبوضياف رمضان، الربط بـ(أل) التعريف في القرآن، مجلة المعيار، العدد (15)، ص: 73.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 239.

(3) ابن جزي، التسهيل في علوم التنزيل: 2/ 70.

الثانية: أنَّ ﴿ٱلۡمِصۡبَاحُ﴾ في قوله: ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ﴾ يُشبَّه بالشمس، حيث قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦﴾ [نوح: 16]، فكان المصباحُ بالشمس أليقَ، ولذا شبَّه الزُّجاجةَ بالكوكب؛ ليدلَّ على انحطاطِ رتبةِ الزُّجاجة من رتبة المصباح، ولو قيل: (كأنَّها شمس)؛ لزِم منه فضلُ الزُّجاجة على المصباح، وهو مُخِلٌّ بالمقصود، وأيضًا: لمّا كان الكوكب يدور حول الشمس، والقمر يدور حول الكوكب، كان الكوكب أجْوَرَ للشمس، فجعل للزُّجاجة هنا بجوار ما يشبه الشمس، وهو المصباح[1].

دلالةُ نِسبة الكوكب إلى الدُّرِّ:

علـة النسبة التشبيهية جامع الصفاء والضياء في كلٍّ

الياء في قوله: ﴿كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ هي ياء النَّسب، والمقصود بها المُشابهةُ، أي: كوكبٌ كالدُّرِّ، ومنه قولهم: ورديُّ اللّون، أي: كَلَوْن الوردِ، والنَّسَب يدلُّ على المُبالغة في التشبيه، كأنَّه قال: كوكبٌ مِنَ الدُّرِّ، وغرض هذه النِّسْبَة: الاستدلال بصفاء الكوكب وشدَّة شفافيته وجودة نقاوته وإشراقه، على جودة المشبَّه ﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾ وصفاء مادَّتها، وقوَّة إشراقها بالنّور النّافذ فيها من المصباح، فهي لذلك تستجمع الضَّوء كلَّه وتستخلِصه، فلا يعبُر منها نورٌ شائب، ولا ضوءٌ ناقِص؛ لأنَّه زجاجٌ خالص كالدُّرِّ متلألِئٌ في نفسه، وعاكسٌ الضَّوءَ إلى غيره، فقوله: ﴿كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ كنايةٌ عن ازدياد نور المصباح وتركيزه؛ لإحاطته بما يختزلُه، ويحفظه من الزجاجةِ الدُّريَّة، كما أنَّ شعاع الشَّمس إذا وقع على ماءٍ أو زجاجةٍ صافيةٍ؛ تضاعفَ النّور حتّى إنَّه يَظْهر فيما يقابلُه مِثْل ذلك النّور، فيكون نورًا على نور، ولذا كان تشبيهُ الزُّجاجة بالكوكب الدريِّ مدْحًا لنور المصباح وتنويهًا بشأنه، والدُّرُّ نوعٌ معروف من جنس اللؤلؤ، وقيل: الكوكب الدريُّ عَلَمٌ بالغَلَبَة على كوكبِ الزُّهرَة، والظّاهر أنَّه ليس

(1) ثناء الله، التفسير المظهري: 6/ 523.

كذلك؛ لتنكيرِ ﴿دُرِّيٌّ﴾ الذي يفيد العموم في الوصف، ولم يقل: (الدّرّي) حتّى يُرادَ به كوكبًا بعينه، والتعميم أولى وأحسن من التَّخصيص بالعَلَميَّة[1].

بلاغةُ الكناية في المشبَّه به:

الكناية معبِّرة عن شدة الإضاءة

وصفُ الكوكبِ ونسبته إلى الدُّرِّ - في قوله: ﴿كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ - كنايةٌ عن أنَّه أضْوَأُ وأحسن من سائر الكواكب، كما أنَّ الدُّرَّ أضوأُ وأحسن من سائر اللَّآلئ[2].

توجيهُ القراءاتِ في: ﴿دُرِّيٌّ﴾:

الكوكبُ الدُّرِّيُّ دفّاعٌ للظُّلمة جمّاعٌ للنّور

قرأ أبو عمرو والكسائي ﴿دِرِّيٓءٌ﴾[3] بكسر الدّال، ومدِّ الرّاء، على وزن (صِدّيق - فِعّيل) من (الدَّرْء)، وهو (الدَّفْع)؛ لأنَّه يدفع الظَّلام بضوئه، كأنَّه ينقضُّ عليه بإشراقه، حتّى يُزيحَهُ، فيتضاعفَ نورُه، ويَخْلُصَ، أو لأنَّ الرّائي له يُخيَّل إليه أنَّ أجزاء شعاعه تتدارَأُ من فرط الوهَج[4]، وشبَّه الكوكب بحالة الدَّفْع؛ لأنّه يكون في تلك الحالة أضوأَ وأنورَ، ووزن فِعّيل في ﴿دِرِّيٓءٌ﴾ يدلُّ على الانهماك والوَلَع بالفعل حتّى يكون عادةً وديمومة، وهو بناء مبالغة، وكأنَّ الكوكب دفّاعٌ للظلمة جلّابٌ للنّور[5]، وقرأ بها حمزة وشعبة ﴿دُرِّيٓءٌ﴾ بضم الدّال والمدِّ والهمز[6]، على زنة (فُعّيل)، وهو وزنٌ نادرٌ في كلام العرب، وهو من الدَّرء أيضًا بمعنى الدَّفْع كذلك، وقُرِئَ: ﴿دُرِّيٌّ﴾[7] نسبةً إلى الدُّرِّ، وهو جنسٌ من اللؤلؤ معروف، ويجوز أن يكون غير

(1) القنوجي، فتح البيان: 9/ 225، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 238، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 10272.
(2) ثناء الله، التفسير المظهري: 6/ 523.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 332.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 239.
(5) السامرائي، معاني الأبنية، ص: 103.
(6) ابن الجزري، النشر: 2/ 332.
(7) قرأ بها الباقون، ابن الجزري، النشر: 2/ 332.

منسوب، على وزن (فُعّيل) من الدَّرْء: وهو الدَّفْع، فخفِّفت الهمزة، فانقلبت ياء، ثمَّ أدغمت الياءُ في الياء، فهي والقراءاتان السّابقتان سواءٌ، فالتفنن في إيراد صِيَغ المبالغة هنا في القراءات أثرى المعاني؛ فهذا الكوكب بالغُ الضياء في نفسه، ويدفع الظلام من حوله، وقد يرد على البال أنه قد يؤذي العين بضيائه، فأتت القراءة الأخرى لتوضح أنه لطيف في نوره مثل الدُّرة المتلألئة المكنونة الصافية.

موقعُ جملة: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾ ممّا قبلَها:

الجملة إما صفة وإما خبر ثان

جملة: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾ في موقع الصِّفة للمصباح الأوَّل النَّكرة في قوله: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، أو الجملة خبرٌ ثانٍ لمصباح الثانية المعرفة في قوله: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾، فالضَّمير بعد ﴿يُوقَدُ﴾ الذي هو نائب الفاعل يعود على المصباح[1].

توجيهُ القراءاتِ في: ﴿يُوقَدُ﴾ وبلاغتها:

بركة الأصل تسري في الفرع

قرأ نافع وابنُ عامر وحفص بياء مضمومة، وإسكان الواو وتخفيف القاف ورفع الدّال ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾ بالتَّذكير، على البناء لما لم يسمَّ فاعله، أي: (يُوقَدُ المصباحُ من موقِده)، والجملة صفة لـ: ﴿مِصْبَاحٌ﴾، وقد سبق الكلام عليها، وقرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلَف ﴿تُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾ بالتَّأنيث، على البناء لما لم يسمَّ فاعله، وكان فاعله الزجاجة، والمعنى على مصباح الزجاجة، فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه، فيقول: ﴿تُوقَدُ﴾ على لفظ الزجاجة، وإن كان يريد القنديل.

وقرأ ابنُ كثير، والبصريّان، وأبو جعفر بتاء مفتوحة وفتح الواو والدّال وتشديد القاف: ﴿تَوَقَّدَ مِن شَجَرَةٍ﴾ بالبناء على الفتح، على أنَّه فعل ماضٍ، والجملة صفة لـ: ﴿مِصْبَاحٌ﴾، على البناء للمعلوم، والقراءة بصيغة المضارع: ﴿يُوقَدُ﴾، و﴿تُوقَدُ﴾ أفاد تجدُّد الإيقاد،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 239، وصافي، الجدول: 9/ 263.

أي: لا يخبو، ولا يُطفأ، ولا يخفى ما في المضارع مع التَّضعيف في القاف من تكثير الوقود وحكاية شِدَّته، وعلى قراءة ﴿تَوَقَّدَ﴾ بصيغة المضي، فتفيد أنَّ وقوده ثبَت، وتحقَّق[1].

معنى ﴿مِن﴾ في: ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾ ابتدائيَّة، أي: يوقَد وقودًا صادرًا من شجرة، أو يبتدِئُ إيقاد المصباح من شجرة[2].

إجراءُ النَّظم على الحذف في: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾:

قوله سبحانه: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾ جارٍ على حذف مضافٍ، أي: يوقَد فتيلُ المصباحِ مِنْ زَيْتِ شجرة[3].

الكنايةُ في جملة: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾:

في قوله سبحانه: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾ إيماءٌ إلى الحاجة إلى اجتهاد علماء الدّين في استخراج إرشاد الإسلام على مرور الأزمنة؛ لأنَّ استخراج الزَّيت من ثَمَر الشَّجرة يتوقَّف على اعتصار الثَّمرة، وهو الاستنباط، فثبت بذلك أنَّ مادَّة التنزيلِ والوحي غَضَّةٌ لا تجِفُّ، فاستنباط الهِدايةِ منها قائمٌ إلى يوم الدّين[4].

تحصل الخُلاصاتُ النّافعة من الاستنباط والإشارات، لا من الظّواهر والعِبارات

نكتةُ تخصيصِ الشَّجرةِ بالبركة:

الوصف بالبركة راجع إلى كثرة منافعها وطيب منبتها

الشَّجرة المباركة في قوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ هي شجرةُ الزّيتون، ووصِفت بالبركة لكثرة خيرها وثُبوتِه، وسهولة الانتفاع بها، وتعدُّد منافعها، فهي تستخدم في الوقود، والغِذاء، والدَّواء، والادِّهان، وحينما تتشرَّب فتيلةُ المصباح بزيتها، تُنْتِج نارًا مُنيرَةً صافية؛ لصفاء مصدرِها وجودته، فخصَّها بالذِّكر؛ لأنَّ زيتها أضوأُ وأصفى؛ لجودة مادَّته الدُّهنيَّة، القابلة للاشتعال، القليلة الدُّخان،

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 332، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 239.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 176.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 274.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 244.

أو هي مباركة؛ لِنِسْبتها إلى أصل مَنْبِتِها في الأرض المباركة، وهي أرضُ الشّام[1].

نوعُ الوصف بقوله: ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾:

الصفة هنا إما كاشفة وإما مخصِّصة

وصف ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾ في قوله: ﴿شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ إن أُريد بها عمومُ شجر الزَّيتون؛ فالصِّفة هنا صفة كاشفة، تحكي الواقع، والمعنى: أنَّ كلَّ زيتونةٍ هي مستودَعٌ للبركة والخير، وإن أُريد نِسبة الزَّيتونة - بوصفها مباركةً - إلى أرض الشّام؛ فهي صفةٌ مُخصِّصةٌ تفيد التَّمايز في البركة على سائر شجر الزَّيتون في الأماكن الأخرى، والمعنى: أنَّ اللّهَ بارك في زيتون الشّام، فهو أبْرك من غيره، أي: شجرةٌ ذات بركةٍ ووفرة من بين سائر شجر الزَّيتون، فيكون ذكرُ هذا الوصف لتحسين المشبَّه به؛ ليَنْجرَّ منه تحسينٌ للمشبَّه[2].

موقعُ قوله: ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ وفائدته:

ذِكَر الخاص بعد العام اهتماما بالخاص وتفخيما لشأنه

لفظ ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ في قوله سبحانه: ﴿شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ بدلٌ من ﴿شَجَرَةٍ﴾، فذكر اسم الجنس: ﴿شَجَرَةٍ﴾، ثم أبدل منه ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ وهو اسمُ نوعها؛ للبيان بعد الإبهام، اهتمامًا بالشَّجرةِ وتعريفِها؛ لتقريرها في الذِّهن، وتفخيمًا لشأنها[3].

موقعُ جملة: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾:

من أسباب بركة الشجرة الموصوفة بها اعتدال موقعها من الشمس فتفيد كل جهاتها منها

قولُه تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ صفةٌ لشجرة، والمراد بنفي الشرقيَّة والغربيَّة عنها، نفي الجهة، والمعنى: مَنْبَتُ الشجرة لا في جهة الشَّرق، ولا في جهةِ الغرب[4]، والياء فيهما للنَّسب، أي: ليست منسوبةً إلى جهة الشَّرق وحده، فلا تَلْفَحُها الشَّمسُ إلّا عند الشُّروق

---

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 296، والطيبي، فتوح الغيب: 11/ 95، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 44.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 104، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 240.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 107، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 176، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 240.
(4) صافي، الجدول: 9/ 263.

فقط، وليست منسوبةً إلى جهة الغرب، بحيث لا تعترضها الشمس إلّا عند الغروب فقط، بل هي بارزةٌ للشَّمس من حين الشُّروق إلى وقت الغروب(1).

دلالةُ تَكرار حرف النفي:

تكرارُ النَّفي تأكيدٌ له ومبالغةٌ فيه

أُعيد حرف النَّفي في قوله: ﴿وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ لتأكيد النَّفي، فـ (لا) في الموضع الثاني في قوله: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ صلةٌ زيدت للتأكيد والمبالغة في النَّفي؛ لإفادة الاتِّصاف بنفي كل وصفٍ استقلالًا(2).

قيمةُ الطِّباق في قوله: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾:

الوسطُ هو المَسْلَكُ الأعدَلُ غالبًا

في قوله: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ طباقٌ بالإيجاب، صرَّح فيه بإظهار الضِّدَّين منفيَّين، والمقصود بنفي الضِّدَّين: إرادة الاتِّصاف بوصفٍ وسطٍ بين الوصفين المنفيَّين؛ لأنَّ الوصفين ضِدّان على طريقة قولهم: الرّمان حلوٌ حامض، أي: وسطٌ بين الجهتين، فهي في جهةٍ وسطٍ بين الشَّرق والغرب، وهذا المعنى ظاهرٌ جدًّا على اعتبار أنَّ الشجرة هي الزَّيتونة في أرض الشّام المباركة، يعني: أنَّها بالشّام، فليست من شرق الأرض ولا من غربها، وأجود الزيتون زيتون الشامِ، ويحتمل أن يكون المعنى: أنَّ جهة تلك الشجرة في موقعٍ غير شرق الشَّمس وغربها، وهو أن تكون متَّجهة إلى الجنوب، أي: لا يحجبها عن جهة الجنوب حاجب، وذلك أنفعُ لحياة الشَّجرة وطيب ثمرتها، فبذلك يكون زيتُها أجودَ زيتٍ(3).

دلالةُ العطف في: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾:

خيرُ النَّصيب ما تعدَّدَتْ موارد النَّفْع فيه

العطفُ في قوله: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ من باب عطف الصِّفات، كقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ [النساء: 143]، فتقتضي وصفًا ثالثًا على الوصفين، وأمّا إذا لم يكن الأمران

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 275.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 241.

(3) ابن جزي، التسهيل في علوم التنزيل: 2/ 71، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 241.

المنفيّان متضادَّين؛ فإنَّ نفيهما لا يقتضي أكثرَ من نفي وقوعِهما، كقوله تعالى: ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ۝٤٣ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤﴾ [الواقعة: 43 - 44]، ولكنْ يُحتمل أنْ يكون نفي الضدَّين، يُرادُ منه إثباتُ المفهوم الموجَب للوصفين، أي: هي شرقيَّةٌ وغربيَّة، فتصيبها الشَّمس عند طلوعها وعند غروبها، فتكون شرقيَّةً وغربيَّة تأخذ حظَّها من الأمرين، فيكون زيتها أضوأ[1].

بلاغةُ الكناية في تركيب: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾:

في نفي الضدَّين في قوله: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾، كنايةٌ عن لازم معناه، من ثبوت المفهوم الموجَب، أو إثبات جهةٍ وسيطة[2].

موقعُ جملة: ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا﴾:

جملة ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ﴾ حال من ﴿شَجَرَةٖ﴾، وجملة: ﴿وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾ حال من فاعل ﴿يُضِيٓءُ﴾، وهو الضَّمير العائد على الزَّيت.

دلالةُ فعلِ الكيدودة في: ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا﴾:

المبالغة في وصف صفاء زيت الشجرة المباركة

(كاد) يدلُّ على قُرب حصول الفعل في الحال، إلا أنَّه لم يقع بعدُ، فهي تثبت المقاربة، ولا تُثبِت الفعل، فتقال لما هو على حَدِّ الفعل، كالدّاخل فيه لا زمان، بينه وبين دخوله، فمعنى ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ﴾، أي: تحقَّقتْ مُقاربَتُهُ - أي: الزَّيت - من أن يضيء[3].

بلاغةُ الكناية في: ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ﴾:

المبالغة في وصف صفاء زيت الشجرة المباركة

في قوله سبحانه: ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾ كنايةٌ عن المبالغة في صفاء الزَّيت، وأنَّه - لإشراقه وجودته - يكاد يضيء من غير نار، وأحد دلالات هذه المبالغة مجيءُ ﴿يَكَادُ﴾ بالمضارعة، فهو متجدِّد الصَّفاء والإشراق، كأنَّما طُبِعَ اللهَبُ فيه[4].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 176، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 241.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 241.

(3) ابن يعيش، المفصل: 2/ 164، والسامرائي، معاني النحو: 1/ 276.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 46.

دلالةُ (لو) في: ﴿وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾:

(لو تفيدُ تحقيقَ ما قبلَها، واستقصاء الأحوال)

(لو) الشرطيَّةُ في قوله: ﴿وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾ جوابُها محذوفٌ؛ لدلالة ما قبلَهُ عليه، أي: ولو لم تمسسه نارٌ يكاد زيتها يضيء، و(لو) هنا تفيد استقصاء الأحوال واستقصاء غايةِ ما يُتوقَّع معه انتفاءُ حُكْمِ ما قبلها، فيذكره المتكلِّم لِقصدِ تَحقُّق الحكم في جميع الأحوال التي تعترضه، أو تطرأ عليه، أي: يكاد زيتها يضيء في كلِّ حالٍ من وجود الشَّرط وعدمه، لو مسَّتْه نارٌ، ولو لم تمسَّه نار، فـ(لو) أفادت الوصلَ والربط بين ما قبلها وما بعدها؛ لتحقيق مضمون الحكم الموجَب قبلها في قوله: ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ﴾[1].

التَّشبيهُ المرسل في الآية:

قلوبُ الأصفياء أوعيةٌ لتلقّي أنوار السّماء

في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ إلى قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ﴾، فقد جاء التشبيه هنا بواسطة الأداة وهي الكاف، والمراد أنَّ النّورَ الذي شُبِّه به الحقُّ نورٌ متضاعِف لِصُدورِه من أوعية النّور المتَّحِدَة على استجماعه واستخلاصه وزُبْدَتِه، وهي المشكاةُ والزجاجةُ والمصباحُ والزَّيت، وهذا التَّشبيهُ يصحُّ إجراؤه على طريقة التَّمثيل المركَّب، الذي قُصِد فيه تشبيه جملةٍ بجملةٍ من غير نظرٍ إلى مقابلة جزءٍ بجزء، بل قُصِد تشبيه هُداه وإتقانِه صنعتَهُ في كلِّ مخلوقٍ على الجُملة، بهذه الجُملة من النّور الذي تتَّخذونه، وهو أبلغ صفات النّور عندكم، ويصحُّ إجراؤه على التشبيه المفرد غير المركَّب، والذي قُصِد فيه مقابلة جزءٍ بجزءٍ[2].

إجراءُ النَّظم على التشبيه التمثيليِّ المركَّب:

المعرفة تضيء في قلب العارف بنور التَّوفيق

طريقةُ التشبيه المركَّب، هي الأقرب مأْخَذًا؛ لسلامتها من التكلُّف، وهي أن تُشبَّهَ الجملة برمَّتها بنور المؤمن من غير تعرُّضٍ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 177، والسمين، الدر المصون: 8/ 408.

(2) درويش، إعراب القرآن: 6/ 608.

لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه، ومقابلته بجزء من المشبَّه به، وعلى هذا عامَّة أمثال القرآن الكريم، فالمشكاةُ في الحائط تختزِل الضَّوء، وتستجمِعُه، قد وُضِعَ فيها مصباحٌ، وذلك المصباح داخل زجاجة تُشبه الكوكب الدُّريَّ في صفائها وحسنها، ومادَّة إيقاده من أصفى الأدهان وأتمِّها وقودًا، مِن زيت شجرةٍ ثابتة الخير، متواترة الوَفْرَة، لا شرقيَّة ولا غربيَّة، فمن شدَّة إضاءة زيتها وصفائه وحسنه، يكاد يضيء من غير أن تمسَّه نارٌ، فهذا المجموع المركَّب هو مِثْلُ نور اللّه تعالى الذي وضعه في قلب عبده المؤمن وخصَّه به، فمَثَلُ نوره في قلب عبده المخلص كمشكاة، والمشكاة: القلب، والمصباح: النّور الذي قُذِف فيه، والمعرفة تضيء في قلب العارف بنور التَّوفيق في مصباح النّور، توقَدُ من شجرةٍ مباركة، تضيء على شخصٍ مبارك، تتبيَّن أنوار باطنِه على آداب ظاهره، وحسن معاملته، زيتونة لا شرقيَّة ولا غربيَّة، جوهرة صافية(1).

إجراءُ النَّظمِ على التَّشبيه المفرد:

قلب المؤمن إذا رقّ شابه الزجاج إذا ترقرق

والطريقةُ الأخرى: طريقةُ التشبيه المفصَّل المفرد، فالمشكاةُ صدرُ المؤمن، والزجاجة قلبه، وشبَّه قلبَه بالزُّجاجة؛ لرقّتها وصفائها وصلابتها، وكذلك قلب المؤمن فإنَّه قد جمع الأوصاف الثلاثة، فهو يرحمُ، ويحسِن، ويتحنَّن، ويُشفِق على الخلق برقَّته، وبسبب صفائه تتجلّى فيه صورُ الحقائق والعلوم على ما هي عليه، ويجفو عن الكدر والدَّرَن والوسَخ بحسب ما فيه من الصَّفاء، وبسبب صلابته يشتدُّ في أمر اللّه تعالى، ويتصلَّب في ذات اللّه تعالى، ويغلُظ على أعداء اللّه تعالى، ويقوم بالحقِّ للّه تعالى، والمصباح هو نور الإيمان في قلبه، والشَّجرةُ المباركة هي شجرة الوحي المتضمِّنة للهُدى ودين الحق، وهي مادَّة المصباح التي يتَّقِد منها، والنّور على النّور: نورُ الفطرة

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 95، وابن القيم، التفسير القيم، ص: 396.

الصَّحيحة والإدراك الصَّحيح، ونور الوحي والكتاب، فينضمُّ أحد النّورَين إلى الآخر، فيزداد العبد نورًا على نور[1].

وقيل: هذا مثلٌ ضربَهُ اللّهُ لنبيه ﷺ: المشكاة: صدره، والزُّجاجة: قلبُهُ، والمصباح فيه: النُّبوَّة، والمصباح: ما في قلبه من الدين، وقيل: المشكاة: جوفُ محمَّد ﷺ، والزجاجة: قلبه، والمصباح: النور الذي فيه[2].

موقعُ جملة: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾ ممّا قبلَها:

الجملة فذلكة ونتيجة لمضمون المثل قبلها

قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مسوقة لتقرير مضمون ما قبلَها من المَثَلِ المذكور في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾، وهي فذْلَكةٌ بعد المَثَل، أي: إجمالٌ لتفصيلِه، وإيجازٌ لإطنابه، وخُلاصةٌ لاستطراده، والفذلكة منحوتةٌ كالبسملة، وأصلها من عبارة: (فذلك كذا) أي: (فذلك المَثَلُ المضروب من المشكاة والمصباح والزُّجاجة والزَّيتونة المباركة، والزَّيت المضيء، ذلك كلُّه خلاصتُه وغاية أمره: نورٌ على نور)، أي: ذلك النّورُ الكامل في المشبَّه، كذلك كمالُ نورِ المشبَّه به في الهدى الحقِّ والعِلم والإيمان[3].

بلاغةُ الاستعارة في: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾:

تشبيه اللطيف بالكثيف لتصوير ارتقاء النور فوق النور بواسطة الاستعارة المكنية

في قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾ شبَّه النّورَ فوق النّور، بشيءٍ كثيفٍ يتضاعف بجعلِ شيءٍ عليه، على جهة الاستعارة المكنيَّة؛ إذ حقيقةُ الفوقيَّة تقع في الأشياء الكثيفة، وأمّا في اللطيفة كالنّور؛ فيختلط بعضها ببعض، فلا تظهر الفوقيَّة والاستعلاء في: ﴿عَلَىٰ نُورٍۚ﴾ مجازي[4].

(1) ابن القيم، التفسير القيم، ص: 396، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 44.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 95.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 177.
(4) القونوي، حاشية القونوي: 13/ 371.

دلالةُ التَّنكير في: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾:

أجناس الأنوار إذا اتَّحدت، تضاعفَت واكتملَت

التَّنكيرُ في قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾؛ للعموم والكمال، والمبالغة والتفخيم، كأنَّ أجناس الأنوار اتَّحدت حتّى تضاعفَت، واكتملَت، فالتنكير يفيد كمال الأنوار المدلول عليها بمضمون المَثَل، مع تعظيم ذلك النّور والإلفات إلى فرادَتِهِ في صِفته[1].

الموقعُ البيانيُّ لقوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾:

مَن استنار بوحي الله، تظاهرَتْ أنواره عليه، فكان الوحي ظهيرًا له

جملة ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾ تشير إلى أنَّ المقصودَ من مجموع أجزاء المركَّب التمثيليِّ في المَثَل المذكور من أوَّل قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ ... الآية، هو تحصيلُ خُلاصةِ مفادُها: أنَّ هيئة المُشبَّهِ به، المُعبَّر عنه بأوعية النّور في المَثَل، من المشكاة والمصباح والزُّجاجة إلى آخره ... قد بلغَتْ تلك الهيئة حدَّ المضاعفةِ لوسائل الإنارة؛ إذْ تظاهرت فيها المشكاةُ والمصباحُ والزجاجُ الخالصُ، والزَّيت الصافي، فالمصباح إذا كان في مشكاة؛ كان شعاعُهُ منحصِرًا فيها غير منتشِرٍ، فكان أشدَّ إضاءةً لها ممّا لو كان في بيتٍ أو مكانٍ مفتوح، وإذا كان موضوعًا في زجاجةٍ صافيةٍ زاد نورُه، وتَضاعَف، وإذا كان زَيْتُه نقيًّا صافيًا؛ كان أشدَّ إسراجًا، فحصل تمثيل حال الدّين أو الكتاب المنزَّل من اللّه في بيانه، وسرعةِ فُشوِّه في النّاس، بحال انبثاق نور المصباح وانتشارِهِ فيما حفَّ به من أسباب قوَّةِ شعاعه وانتشاره في الجهة المضاءة به[2].

موقعُ جملة: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾:

مرجعُ الأحوال في الهداية أو عَدَمِها إلى مشيئة الله سبحانه

جملةُ: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ تذييلٌ بعد التمثيل بالنّور وكمالِه، قُصِدَ به دفْعُ التعجُّبِ من عدم اهتداء كثيرٍ من النّاس بذلك النّورِ الَّذي أنزلَهُ اللّهُ رغم كمالِهِ وقوَّة شعاعِ برهانِهِ، وهو القرآنُ

(1) درويش، إعراب القرآن: 6/ 611.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 241، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 243.

والإسلام، فدرأَ بهذا التَّذييل ذلك الاستعجاب، بتقرير أنَّ مرجِع الأحوال في الهداية وعدمها إلى مشيئته، بمقتضى عِلْمِهِ وحكمتِه.

الإظهارُ في مقامِ الإضمار:

الفخامةُ الذّاتيَّة تـزدانُ وتتجلّى بفخامة النِّسبةِ والإضـافـةِ إلـى الجِـهـات الشَّريفة

لم يقل في السياق الكريم: (نورٌ على نور يهدي اللّه إليه من يشاء)، بل أظهر النّور، فقال: ﴿يَهۡدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾؛ لزيادة تقريرِ النّور، وتأكيد فخامته الذاتيَّة بفخامته الإضافيَّة الناشئة من إضافته إلى ضميرِهِ ﷻ، فتوسَّل بهذا الإظهار إلى إضافته إلى اسم الجليل سبحانه، تفخيمًا لحقيقة النّور بواسطة الإضافة الشريفة[1].

دلالةُ ﴿مَن﴾ في: ﴿مَن يَشَآءُۚ﴾:

تُـنـاطُ الـهـدايـةُ بمن يستأهلها من النّاس

أفاد التَّعبيرُ بالموصول المشترك العام في قوله: ﴿يَهۡدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ الدَّلالةَ على عموم المكلَّفين رجالًا ونساءً، لإناطة الهداية المذكورة بكلِّ من استأهل صفةَ التَّكليف.

الإظهارُ في مقام الإضمار في الاسم الجليل:

عـدمُ الـهـدايـةِ ينشأ من إعراض الـعـبـد، لا من إجبار الرَّبِّ

إظهارُ الاسم الجليلِ في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ﴾، ولم يقل: (يهدي اللّه لنوره من يشاءُ، ويضرب الأمثال)؛ لاختلاف الإسنادين، فأظهر في المقامين، إيذانًا باستقلال كلِّ غرضٍ عن نظيره، وعناية بكلِّ قِسْم منهما استقلالًا، ففي الآية الأولى: ﴿يَهۡدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ أظهر الاسم الجليل في مقام الهداية الخاصَّةِ لمن تعلَّقت بهم المشيئة بدليلِ قولِه: ﴿مَن يَشَآءُۚ﴾، ثمَّ أظهر الاسم الجليل ثانيًا في مقام ضرب الأمثال، وهي حالٌ عامَّة لا تخصيص فيها لفئةٍ دون فئة، بدليل قوله: ﴿لِلنَّاسِۗ﴾، وليدلَّ بذلك على أنَّ من لم تشمله مشيئةُ الهداية، ليس معذورًا بذلك؛ لأنَّه مُخاطَبٌ بالحُجَّة في ضرب الأمثال، فعدمُ هدايته

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 177.

ناشئٌ من إعراضه عن الاستفادة من ضرب الأمثال الذي كان لأجل أن يهتدي(1).

فائدةُ التَّذييلِ بقوله: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ﴾:

كلٌّ يفهم عن الله بقدر طاقته وجاهزيّته

التعقيبُ بقوله: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ بيانَ حقيقةِ نور الله، لا يَسَعُهُ نِطاقُ التَّحرير، والأمثال ماهي إلّا لتقريب صورته، لا لتحديد حقيقتِه، فكلٌّ يأخذ من التَّمثيل له بقدر استعداده وطاقته، حتّى يكون النّاسُ على رُتَبٍ ومنازَل متفاوته في استيعاب هذا التَّقريب بحسب تفاوت مراتبهم وأقدارهم في صلاح الأحوال وسلامة العقول، لكنَّ الله بعلمِه الواسع يعلم حقيقتَهُ، والله بكلِّ شيءٍ عليم(2).

الموقعُ البيانيُّ لجملة: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾:

عِلْمُ الله بما كان وما يكونُ لا ينفي اختيار العبدِ فيما يعمل

قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ تذييلٌ مُقرِّر لمضمون الجملتَين قبلَهُ، في قوله: ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾، وقوله: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ﴾، ووجْهُ التَّقريرِ: أنَّه باستغراق علمِه للكلّيّات والجزئيّات، يعلم من هو قابلٌ للهدى، ومن هو مُصِرٌّ على غيِّه، فيوكِلُ كُلَّ واحدٍ إلى استحقاقهِ، ولأجْل شمول علمِه وسَعَتِه، فإنَّه أعلمُ بقوالب الأمثال التي يستودعها حقائقَ أنوارهِ وأسرارهِ، وأعلم بقابليَّتها لنفع النّاس وإصلاحهم، بتوطينِ حُجَّتِه الدّامغة فيه، فحصل بذلك أنَّه ضربَ المثلَ بالنّور، ثمَّ جعل المثَلَ نفسَهُ نورًا في الحجَّة وكمالًا في البيان، فحصل في المشبَّه والمشبَّه به أنَّهما نورٌ على نور، ولا يقدر على تلك الحكمة في البيان والبرهان إلّا ذو الإحاطة التامّة في العِلم بكلِّ شيءٍ في المحسوسات والمعقولات، والظّواهر والكيفيّات(3).

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 178.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 99.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 108، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 178، وابن عاشور، التحرير: 18/ 244.

بلاغةُ الكنايةِ في جملة الفاصلة:

قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٌ﴾ كنايةٌ عن لازِمِهِ، من الإيماء بالوعيد لمن جفا عن الاعتبار بالأمثال، والوعدِ لمن استذكرها، وعمل بمقتضى مقاصدِها وأحكامها[1].

مَن آمن بكمال عِلْم الله، لم يَعصِهِ

نكتةُ إظهارِ الاسم الجليلِ في جملة الفاصلة:

أظهر الاسمَ الجليل في جملة الفاصلة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٌ﴾ - رغم تقدُّم ذِكْرِهِ - لتأكيد استقلال الجملة، والإشعار بعلَّة الحكم قبلَهُ، من تعليق الهداية على المشيئة، وضرب الأمثال للناس، كأنَّه قيل: فعلنا ذلك، وصحَّ تحقُّقُهُ وثبوته؛ لأنَّ اللّه بكلِّ شيءٍ عليم، فلكي يتقرَّر معنى العلّيَّة، لا بدَّ من إظهار الاسم الجليل، كما اقتضى اختلافُ المَناطَين - في مضمون الجملتين قبلها - التَّصريحَ بالاسم الجليل؛ لتعليق الحُكْمَيْن فيهما على اتِّصاف اللّه بالعلم الكامل، ولو أضمر؛ لتوهَّم أنَّ التذييلَ بكمال العلم منوطٌ بأحد الجملتَين دون الثانية[2].

بالعِلمِ يحصل النّور وتُسْتَبْصَرُ موارِدُهُ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 108.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 178.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النور: 36]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مساجِدُ اللهِ بيوتُ النّور

لمّا ضربَ اللّهُ المثل لهذا النّور في الآية السّابقة، جعل هنا أحسنَ البِقاع، وهي بيوت اللّه سبحانه، ظرفًا له[1]، ولمّا كان نورُ الإيمان والقرآن أكثرَ وقوعِ أسبابِه في المساجد، ذكرها اللّه تعالى منوِّهًا بها في هذه الآية[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُرْفَعَ﴾: (رفع) أصلٌ يَدُلُّ على خِلافِ الوَضْعِ، تَقولُ: رَفَعْتُ الشَّيْءَ رَفْعًا؛ وهوَ خِلافُ الخَفْضِ[3]، والرَّفْعُ يقال تارة في الأجسام الموضوعة؛ إذا أعليتها عن مقرِّها، نحو: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: 93]، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: 2]، وتارةً في البناء؛ إذا طوَّلته، نحو قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ [البقرة: 127]، وتارة في الذِّكر؛ إذا نوَّهته نحو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح: 4]، وتارة في المنزلة؛ إذا شرَّفتها، نحو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: 32][4]، والمراد بقوله هنا: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾، الرَّفْعُ الماديُّ والمعنويُّ، فيدخل فيه تشييدها وبناؤها، وتعظيمها، وتطهيرها وتعطيرها وتَحليَتُها.

۞ المَعْنى الإجماليُّ:

يبدأ التنويرُ الحقيقيُّ من المساجد

بيَّن للّه سبحانه في هذه الآية أكثرَ الأماكنِ والأشخاصِ انتفاعًا

(1) الشنقيطي، تفسير سورة النور، ص: 141.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 568.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رفع).
(4) الراغب، المفردات: (رفع).

بنورِهِ[1]، فقال: هذا النور الذي سبق الحديثُ عنه[2]، موجودٌ في مساجدَ أَمَرَ اللّٰهُ أن يُرْفع شأنُها وبناؤها، ويُذْكر فيها اسمه بتلاوة كتابه والتسبيح والتهليل، وغير ذلك من أنواع الذكر، يُصلّي فيها للّٰه في الصباح والمساء[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملة: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ ممّا قبله:

تقديمُ بيوتِ الله في النَّظْمِ، إشارةٌ على تقديمها بالتَّعظيم والإجلال

قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ إمّا أنْ يكون من تمام التَّمثيل، فتتعلَّق شبه الجملة بشيءٍ ممّا قبلها، فيجوز أن تتعلَّق بقوله: ﴿يُوقَدُ﴾، أي: (يوقَد المصباحُ في بيوتٍ)، ويصحُّ أن تتعلَّق بمحذوف صفة (لمشكاة)، أي: (مشكاةٌ كائنةٌ في بيوت)، وما بين الصِّفة والموصوف اعتراضٌ، والتَّعلُّق من موجبات الفصل على الاحتمالين، وإنَّما جاء ﴿بُيُوتٍ﴾ بصيغة الجمع مع أنَّ (مشكاة) و﴿مِصۡبَاحٌۖ﴾ مفردان؛ لأنَّ المرادَ بهما الجنسُ، فتساوى الإفراد والجمع، والمقصد من ذكر هذا القيد: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ زيادةُ إيضاحِ المشبَّه به وتحسينه؛ ليُؤدّي ذلك إلى تحسين المُشبَّه؛ لأنَّ ما ذُكِرَ من وصف البيوت وما يجري فيها ممّا يُكسِبُها حُسْنًا في نفوس المؤمنين، فيؤثِّر هذا التَّحسين في إيقاعِ التمثيلِ كلِّه[4].

ويجوز أن يكونَ قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ منفصلًا عن التَّمثيل، ويكون في موقع الاستئنافِ الابتدائيِّ، والجار والمجرور متعلِّقان بقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾، ويكون تقديم الجار والمجرور للاهتمام بتلك البيوتِ، وللتشويق إلى متعلِّق المجرور، وهو التسبيح وأصحابهُ، ويجوز أن يكون ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ خبرًا مقدَّمًا، و﴿رِجَالٌ﴾ [النور: 37] مبتدأً، والجملةُ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا ناشِئًا عن قوله: ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ

---

(1) طنطاوي، الوسيط: 10/ 130.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10275.

(3) مجموعة من العلماء، التفسير الميسر، مجمع الملك فهد، ص: 604.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 246.

﴿مَن يَشَآءُۚ﴾، كأنَّه سأل سائلٌ عن تعيين بعضِ مِمَّن هداه اللّه لنوره، فيقال له: (رجالٌ في بيوت)، وقيل: كلمة ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ متعلّقة بقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾، وقوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ تكريرٌ لها؛ للتَّأكيد والتَّذكير؛ لِما بينهما من الفاصلة، وللإيذان بأنَّ التَّقديم للاهتمام، لا لِقَصرِ التَّسبيح على الوقوع في البيوت فقط، وفي ذلك تنويهٌ بالمساجد، وبإيقاعِ الصلاةِ والذِّكْر فيها[1].

دلالةُ تنكيرِ ﴿بُيُوتٍ﴾:

كلُّ بيوتِ الله مُعظَّمَةٌ، ولو كان مسجدًا كَمِفْحَصِ قَطاة

تنكير ﴿بُيُوتٍ﴾ في قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾ للتَّكثير والتعظيم والعموم، أي: كلُّ المساجد على كثْرتها، ويؤيِّد إرادةَ التَّكثير مجيءُ البيوت على وِزانِ جمع الكثرة[2].

دلالةُ التعبيرِ بالبيوت:

سمّيتِ المساجد بيوت الله؛ لأنَّها محلُّ الإيواء إليه والتعبُّد له

عبَّر عن المساجدِ بالبيوت في قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ المساجد مأوًى، له خصوصيَّةٌ وحُرمَة، كما هو شأن البيت الذي يَبِيْتُ، ويأوي فيه الإنسان، وأنَّ المساجد موضع الرّاحة والسَّكينة والانزواء عن المخلوق إلى الإيواء إلى الخالق، وأصل البيت: المكان المتَّخَذ للمبيتِ ليلًا، ثمَّ أُطلق على مأوى الإنسان في كلِّ وقتٍ، ثمَّ أطلق على كلِّ مقرٍّ مُتَّخَذٍ لغرضٍ وإنْ لم يكن لغرض المأوى والمبيت، بجامع أنَّه صار مأوًى لحصول هذا الغرض الخاص، فكذلك بيوتُ اللّه المساجد صار مأوًى للصَّلاة والذِّكْر والتعبُّد، وهذه الإطلاقات، مجازٌ مرسل، علاقته الإطلاق والتقييد.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإذْنِ دون الأمر:

الإذنُ يدلُّ على تشريع الحكم، لا على وصف الحكم

عبَّرَ بالإذنِ في قوله: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾، ولم يقل: (أمَرَ أن

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 178، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 248.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 108، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 178، والشربيني، السراج المنير: 2/ 625.

تُرفع)؛ للدَّلالة على الإعلام بحكم الرَّفع والتَّرخيص فيه والتَّمكين منه، بحسب ما يقتضيه واقِعُ كلِّ بيْتٍ، أهو مأذونٌ فيه على جهة الإباحةِ أم النَّدب أم الوجوب؟ فلم يقل: (أمر)؛ لأنَّ الإذنَ تشريعٌ لأصل الحكم، فدلَّ به على المشروعيَّة التي تدور بين الأحكام الثلاثةِ، كأنَّه قال: أذِنَ اللّه بمشروعيَّة أن ترفع، فالإذنُ أعمُّ من الأمر، ولا يخفى ما في التَّعبير بالإذن من الدَّلالة على المشيئة للفِعل والرِّضا به من الآذِن[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالرَّفع:

الرَّفْعُ تبوُّؤٌ للمكانات والأماكن حِسًّا ومعنًى

الرَّفْعُ في قوله: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾ يعني: شَرَعَ إعلاءها على جهةِ التعبُّد والتَّعظيم، والرَّفع هنا: إعلاءٌ في المكان بالبناء والتَّشييد، فهو رفعٌ حسّيٌّ، وإعلاء في المكانة بتعظيمها تعبُّدًا، وصيانتها تطهيرًا من القذر واللغو، فهو رفْعٌ معنويٌّ حسّيٌّ، وحقيقة الرَّفْع[2]: أن يُناء بها حجْبًا وتجنيبًا عن شأنٍ خفيض، أو حالٍ وضيعة، واختار الرّازي: أنَّ رفْعَها بمعنى تعظيمها وتطهيرها، لا بمعنى بنائها، وعلَّل ذلك: بأنَّ قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾ ظاهرُهُ أنَّها كانت بيوتًا قبل الرَّفْع فأذِنَ اللّهُ أن تُرفَع، فيكون بناؤها تحصيلًا لحاصل[3]، وليس كذلك؛ لأنَّ ﴿أَذِنَ﴾ جاء بصيغة المُضيِّ، أي: هي بيوتٌ بعد تحقُّق مقتضى الإذن برفعها، لا قبل ذلك، وعليه: فالرَّفع عامٌّ في المعاني الثلاثة[4].

دلالةُ وقوعِ اسمِهِ تعالى معمولًا للذِّكْر:

الأصلُ في الذِّكر إعمالُ آلةِ اللِّسان

جَعْلُ اسم اللّهِ سبحانه معمولًا للذِّكر في قوله: ﴿وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ يدلُّ على إيقاع الذِّكر باللسان، لا بالقلب فقط؛ لأنَّ ذِكْرَ الاسم، معناه ترديدُهُ باللِّسان، وفيه دليلٌ على أنَّ اللّه يُذكَر

(1) الراغب، المفردات: (أذن)، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 277.

(2) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات: (رفع).

(3) الرازي، التفسير الكبير: 24/ 396.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 186.

بأسمائه، وهو كنايةٌ عن لازِمِه من ذِكْر المُسمَّى؛ لأنَّه إذا ذُكر الاسمُ؛ ذُكِرَ المسمَّى[1].

الذِّكرُ تحليةٌ بالكمال، والتسبيح تخليةٌ عن النَّقص

نكتةُ تقديمِ الذِّكر على التَّسبيح:

قدَّم الذِّكْرَ على التسبيح في قوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾؛ لأنَّ ذِكْر الاسم إثباتٌ للكمال، والتسبيح نفيٌ للنَّقص، وإثبات الكمال تحلية، ونفي النقص تخلية، وأولى بالعبد - إذا استُضيف في بيتِ المَلِك - أن يُقدِّمَ بين يديه بتحلية الإثبات والكمال، قبل تخلية السَّلب والنَّفي، فهذا من كمال الأدب ومن تعظيم بيوت الله، كما أنَّ ذِكر رفْع البيوت بتعظيمها، وتجنيبها ما يضع منها، فكان الأولى أن يعطفَ عليه ما هو أنسبُ به من التَّعظيم والإجلال لصاحب البيوت، ولا شكَّ أنَّ إثباتَ الكمال أمكَنُ في باب الإجلال والرِّفْعة، ولذا عطف قوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ على قوله: ﴿أَن تُرْفَعَ﴾؛ ليكون ذِكْرُ اسم الله داخلًا مع رفْع البيوتِ في حيِّز الإذْنِ في قوله: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ﴾، وهذا الاشتراكُ في الحيِّز يقوّي أنْ يكون قوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ مُرادًا به الصَّلاة[2]، أي: أذِنَ اللهُ أنْ تُرفَعَ، وأنْ يُصلَّى فيها، أو أن تُرفَع بالصَّلاة فيها، ويكون ذلك من تسمية الخاصِّ باسم العام؛ لأنَّ الذِّكر أعمُّ من الصَّلاة؛ لوقوعه خارجَها وداخلها، أو من باب تسمية الكلِّ بالجزء، والذِّكرُ أهمُّ ما في الصَّلاة، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ١٤﴾ [طه: 14]، وقال: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: 9]، أي: صَلّوا الجمعةَ طلبًا لأعزِّ ما فيها، وهو ذكر الله، ففي الكلام مجازٌ مرسل.

في كل قراءة إجابة عن القراءة الأخرى

توجيه القراءات في ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ وبلاغتها:

قرأ ابن عامر وشعبة بفتح الباء على البناء للمفعول: ﴿يُسَبَّحُ لَهُۥ

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة النور، ص: 266.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 186.

﴿فِيهَا﴾، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾[1]، فالحجة لمن فتح: أنه جعله فِعْلًا لما لم يسمّ فاعله، ورفع (الرجال) بالابتداء، والخبر ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾، والحجة لمن كسر: أنه جعله فِعْلًا لـ: (الرجال)، فرفعهم به، وجعل ما بعدهم وصفا لحالهم[2]، فقراءة الكسر أجابت عن السؤال المحذوف في قراءة الفتح: فكأن المعنى على أنه لما قال: ﴿يُسَبَّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾، كأنه قيل: مَن يسبِّح اللّٰه؟ فقيل: ﴿يُسَبِّحُ﴾ ﴿رِجَالٌ﴾[3].

موقعُ جملة ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾:

التَّسبيحُ من أفراد الذِّكْرِ

يكونُ قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ مفصولًا غيرَ معطوفٍ؛ لوقوعه استئنافًا بيانيًّا بعد قوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، كأنَّ سائلًا سأل عن كيفيَّة الذِّكر وأجود طرائقه وأوصاف المتحقِّقين به، فقيل: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ﴾، أو يتِمُّ الوقفُ على ﴿وَٱلْآصَالِ﴾ على القراءة المتواترة بالبناء للمفعول: (يُسَبَّحُ له فيها بالغدوّ والآصال)، فيكون التسبيح بيانًا وتفسيرًا للذِّكر، وهو من باب تبيين العام بالخاصِّ؛ لأنَّ التَّسبيحَ من أفراد الذِّكر، ولا يخفى أنَّ اعتبار جملة ﴿يُسَبِّحُ﴾ استئنافًا بيانيًّا هو جارٍ على عدم تعليق التسبيح بالجار والمجرور في قوله: ﴿فِى بُيُوتٍ﴾، فيكون قوله: ﴿فِى بُيُوتٍ﴾ متعلِّقًا بعاملٍ مضمر، على تقدير: (اذكروهُ في بيوتٍ أذِنَ اللّٰه أن تُرفع، ويُذكر فيها اسمه)، ثمَّ يُستبانُ عن ذلك الذِّكر؟ فيُجاب: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾، وهو وجهٌ ينفي الكثير من مُشكِلات الإعراب والتأويل، والفواصل الطويلة بين شِبه الجملة ﴿فِى بُيُوتٍ﴾ ومتعلِّقاتها المُختلَف عليها، وأيضًا: الفعل المحذوف لا بدَّ أن يُقَدَّر: (اذكروه في بيوت)؛ ليصحَّ الاستئناف البياني في جملة التسبيح، ولو قدِّر (سبِّحوه في بيوت)؛ لحصل إلباسٌ في الاستئناف على البيان[4].

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 332.

(2) ابن خالويه، الحجة، ص: 262.

(3) الأزهري، معاني القراءات: 2/ 209.

(4) صافي، الجدول: 9/ 268.

تُسَمّى الصلاة بالتسبيح؛ لكونه جزءًا منها

المجازُ في التَّسبيح:

يصحُّ حملُ قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ على معنى التسبيح الخاصِّ، وهو الصَّلاة[1]، بقرينة ذِكْر المساجد في قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾، وذِكْرُ الغدوِّ والآصال، وهما أوقات الصَّلاةِ، وإطلاق التسبيح بمعنى التنزيهِ، وإرادة الصَّلاة، مجازٌ مرسل علاقتُه العمومُ، بإطلاق العام، وإرادة الخاص، فإن قيل: سبق وأنْ حُمِل قوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ على معنى الصَّلاة، بطريق المجاز المرسل كذلك، فكيف يُحمل الموضعان على الشَّيء نفسه؟ والجواب: أنَّه لا مانع من إرادة الشَّيء نفْسِهِ بتعديد أوصافه، اهتمامًا بشأنه، ومدحًا له، وتفصيلًا في بيانه، وهذا من باب المغايرة بين الصِّفات، فأراد أوّلًا أنَّ الصلاة عِمادُها وغايتها ذِكْرُ الله، ثمَّ أراد ثانيًا أنَّ أغلب أركانها مشمولٌ بذِكْرِ التَّسبيح فيها كما في الرُّكوع والسُّجود وهو عبارةٌ عن أغلب أركانها، ولمّا كانت الصَّلاة تُسمّى بهذين الركنين الركوع والسُّجود، وكانا هما محلَّ التَّسبيح؛ فلا جرم أن تُسمّى الصَّلاة تسبيحًا، كما سُمّيت ركوعًا وسجودًا، على أنَّ تسميةَ الصَّلاةِ ذِكْرًا في: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، ثمَّ تسميتها تسبيحًا في: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ كان له فائدةٌ غير تعديد الإطلاقات، وهو الزّيادة على ذلك باقترانها بأوقاتها في الموضع الثاني بقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾، وهذان الظَّرفان تقع فيهما الفرائضُ جميعًا، فتكون دلالةً على وقت الصلاة المكتوبة، فالغدوُّ: يبدأ من الصبح إلى الزَّوال، فيشمل صلاة الفجر، والآصال: من الزَّوال إلى الصُّبح، فيشمل الظُّهر والعصر والمغرب والعشاء، بخلاف قوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، فإنَّه عامٌّ في الصلوات جميعًا؛ لأنَّه لم يقرن بوقتٍ كالتسبيح، ولأنَّ الذِّكر عامٌّ في الصلوات فرضًا ونفلًا، ويكأنَّ قوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ مجازٌ عن الصلوات

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 186.

كافَّةً فرضًا ونفلًا، وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ مجازٌ عن الصَّلوات المفروضة، فيكون من باب إلحاقِ الخاصِّ بعد العام، ويكون هذا من التَّوظيف الحسَن للمجاز في حملِ الذِّكْر والتسبيح في الآية على معنًى واحدٍ في كُلٍّ.

فائدةُ تقديم شبه ﴿لَهُۥ﴾:

التَّقديمُ على المعمول في قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ للاعتناء والإجلال، وإفادة الحصر، أي: التَّسبيحُ له وحده سبحانه، لا لغيرِه، واللام في: ﴿لَهُۥ﴾ للاختصاص، أي: له خاصَّة.

معنى الباء في: ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾:

اغتنام أشرف الأوقات لتسبيح رب الأرض والسموات

الباءُ في قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ للملابسة والإلصاق، أي: يقع التَّسبيح منهم ملتبِسًا بوقت الغدوِّ وأوقات الآصالِ، فالكلامُ على حذفِ مضافٍ.

نكتةُ جمعِ الآصال:

(الآصالُ) جملةُ أوقاتٍ مُجْتَمِعة

أفردَ الغدوَّ، وجمعَ الآصالَ في قوله: ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾؛ لأنَّ الغدوَّ يتعلَّق به وقت الصبح، فهو الإبكارُ بصلاة الصُّبح، ووقته من أوَّل النَّهار إلى الزَّوال، وأمّا الآصالُ (جمعُ أصيلٍ)؛ فهي من الزَّوال إلى الصَّباح، فتشتمل على جملةٍ من الأوقات، ولذلك جُمِعَتْ؛ ليتحقَّق أنَّ المرادَ منها صلواتُ الظُّهر والعصرِ والمغرب والعشاء[1].

نكتةُ إفرادِ الغدوِّ والآصال بالذِّكْر:

الأوقاتُ أوعيةُ الأعمال والأحوال

إفرادُ الغدوِّ والآصال بالذِّكر، في قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾؛ لشرفهما، وكونهما أشهَرَ ما يقع فيه المباشَرة للأعمال، والاشتغال بالأشغال[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 278.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 369.

﴿رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧﴾

[النور: 37]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

صفات عمّارِ المساجد التي استحقّوا بها أحسنَ الجزاء

لَمّا تقدّم الحديثُ عن بيوت اللّه وما يتعلّق بها من أحكام مادّيّة ومعنويّة، وما يكون فيها من ذِكْرٍ وتسبيح؛ جاءت هذه الآيةُ لبيان صفات عُمّار هذه المساجد التي استحقّوا بها أحسنَ الجزاء؛ فقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

ومنها؛ لَمّا كان تَرْكُ الدُّنيا شديدًا على أكثَرِ النُّفوسِ، وحُبُّ المكاسِبِ بأنواعِ التِّجاراتِ مَحبوبًا لها، ويشُقُّ عليها تَركُه في الغالبِ، وتتكَلَّفُ من تقديمِ حَقِّ اللّه على ذلك؛ ذَكَرَ ما يدعوها إلى ذلك ترغيبًا وترهيبًا؛ فقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٌ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رِجَالٌ﴾: الرَّجُلُ: خِلافُ المَرْأَةِ، وهو الذَّكَرُ مِن نَوْعِ الإنسانِ، وقيل: إنَّما يكون رَجُلًا إذا احْتَلَمَ وبَلَغَ، ويُطلَق الرَّجُلُ أيضًا بِمعنى الرّاجِلِ؛ أيِ: الماشي على رِجْلَيْه[2]، ويُقال: رَجِلَة للمرأة إذا كانت مُتشبّهة بالرّجل في بعض أحوالها، والمقصود بالرِّجالِ في الآية: جَمعُ رَجُلٍ، وهو الذَّكَرُ البالِغُ منَ الآدَميّينَ خاصَّةً، والمُراد بهم هنا: أَصحابُ رسول اللّه ﷺ ومَنْ كانَ مثْلَهُم في التَّعلُّقِ بالمَساجدِ، وتَخصيصُ التَّسبيحِ بالرِّجالِ على هذا؛ لأَنَّهم الغالبُ على روّاد المساجدِ[3].

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 569.
(2) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (رجل).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 248.

2) ﴿تُلۡهِيهِمۡ﴾: (لهو) أصلٌ يَدُلُّ على شُغْلٍ عن شَيءٍ بِشَيءٍ، واللّهو: ما ألهاكَ، وهو كُلُّ شَيءٍ شَغَلَكَ عمّا يعنيك ويهمُّك، ولَهَوْتُ مِنَ اللّهو، ولَهيتُ عنِ الشَّيءِ، إذا تَركتَهُ لغَيرِه، والقياسُ واحِدٌ وإنْ تَغيَّرَ اللَّفظُ أَدنَى تَغيُّرٍ[1]، ويُعبَّر به عن كلِّ ما بِهِ استمتاع، ويُقالُ: أَلهاهُ كذا؛ أيّ: شغلَهُ عمّا هو أهمّ إليه[2]، ويراد به أيضًا: ما يُقصَدُ منهُ تشغيلُ البالِ وتَقصيرُ طولِ وقتِ البطالةِ دونَ نَفْعٍ[3]، والمُراد باللّهو في الآية: اشتغالُ الإنسان بما لا يعنيه ولا يهمه[4].

3) ﴿تِجَٰرَةٞ﴾: (تجر) أصلٌ يدلُّ على التَّصرُّف في رأس المال طلبًا للرِّبح[5]، وتَجَرَ يَتْجُرُ تَجْرًا وتِجارَةً: باعَ وشَرَى، وكذلكَ اتَّجَرَ وهو (افْتَعَل)[6]، وليس في كلامهم تاءٌ بعدَها جيم غير هذا اللّفظ[7]، قال ابنُ الأعرابيِّ: فلانٌ تاجر بكذا؛ أيّ: حاذِقٌ به، عارفٌ الوجهَ المُكتسَبَ منه[8]، والمُراد بالتِّجارة في الآية: تقليبُ المالِ بالبَيع والشِّراء لغَرض الرِّبح.

4) ﴿بَيۡعٌ﴾: (بيع) أَصلٌ واحِدٌ، وهو بَيْعُ الشَّيءِ[9]، وبِعْتُه في معنى بِعْتُه واشتريتُه جميعًا، فانباعَ؛ أيّ: نَفَقَ، وابتاعَ؛ أي: اشْتَرى[10]، وذلك بحسب ما يُتصوَّر مِنَ الثَّمن والمُثمَّن[11]، وهو مِنَ الأضداد[12]، والبَيْع: إعطاء المُثمَّن وأخذُ الثَّمن، والشِّراء: إعطاءُ الثَّمن وأخذ المُثمَّن[13]، وعلى ما سبق؛ فالتِّجارةُ: جَلْبُ السِّلَعِ للرِّبْحِ في بيعها، والبَيعُ أَعَمُّ: هو أَنْ يَبيعَ أحدٌ ما يحتاجُ إلى ثَمَنِهِ[14]؛ والمعنى في الآية واضحٌ.

5) ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾: (قوم) أصلٌ يدلُّ على انْتِصابٍ أَوْ عَزْمٍ، يُقالُ: قامَ، يَقومُ، قَوْمًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لهو).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (لهو).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 142.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 56.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات: (تجر).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (تجر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تجر).
(8) الرّاغب، المُفردات: (تجر).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بيع).
(10) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (بيع).
(11) الرّاغب، المُفردات: (بيع).
(12) الجوهريّ، الصّحاح: (بيع).
(13) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (بيع).
(14) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 249.

وقيامًا؛ أيْ: وقفَ وانْتَصب، والقَومَةُ المَرَّةُ الواحِدَةُ، إذا انْتَصَب[1]، والإقامَةُ: الثَّباتُ والاِسْتِقْرارُ، يُقالُ: أَقامَ بالمَكانِ؛ أيْ: ثَبَتَ واسْتَقَرَّ فيهِ، وتُطْلَقُ بمعنى الدَّوامِ على الشَّيْءِ؛ كَقَوْلِهِم: أَقامَ الشَّيءَ؛ بمعنى: أدامَهُ[2]، ومِن مَعانيها: القيامُ بالشَّيءِ، مِن أَقامَ الشَّيْءَ: إذا قَوَّمَهُ وسَوّاهُ، كَما تُطْلَقُ الإقامَةُ أيضًا ويُرادُ بها: جَعْلُ القاعِدِ قائمًا[3]، والمُراد بـ ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾: إدامتُها؛ أيْ: عَدَمُ الغفلةِ عنها[4].

6) ﴿تَتَقَلَّبُ﴾: (قلب) أصلٌ يَدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِنْ جِهَةٍ إلى جِهَةٍ، وقَلَبْتُ الثَّوبَ قَلْبًا، وقَلَبْتُ الشَّيْءَ: كَبَبْتُهُ، وقَلَّبتُهُ بيدي تَقْليبًا[5]، والقَلْبُ: صَرْفُكَ إنسانًا تَقلِبُه عن وجهِ الَّذي يُريده، وقَلَّبَ الأُمورَ: بَحَثَها، ونَظَر في عَواقبِها[6]، والتَّقَلُّبُ: التَّصرُّف، قال تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩﴾ [الشّعراء: 219]، وتَقَلُّبُ القلوبِ والأَبصارِ: اضطرابُها عن مواضِعها مِنَ الخوفِ والوَجَلِ كما يتقلَّبُ المَرْءُ في مكانِه، وهذا هو المُراد به في الآية[7].

❁ المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

المؤمن لا تُلهيه الحياةُ عن ذِكْر الله

بيَّنت هذه الآيةُ صفاتِ عُمّار المساجد المُسبِّحين لله، بأنّهم رجالٌ لا تشغَلُهم الدّنيا وزُخرُفها عنِ الآخرة، ولا بيوعُهم وتجاراتُهم عن ذِكْر ربّهم، وهو خالقهم ورازقهم، إذ يعلمون أنّ ما عنده خيرٌ لهم وأنفعُ ممّا بأيديهم، فما عندَهم ينفد، وما عند الله باق؛ لذلك فهم يؤدّون الصّلاةَ في مواقيتها على الوجه الذي رَسَمه الدّين، ويُؤتون الزّكاةَ المفروضة عليهم؛ تطهيرًا لأنفسهم مِنَ الأرجاس، ويخافونَ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن سيدَه، المُحكَم، والزّبيديّ، تاج العروس: (قوم).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 200.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلب).
(6) ابن سيدَه، المُحكَم، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قلب).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 249.

يومَ القيامةِ الذي تتحَرَّكُ وتَضْطَرِبُ فيه قلوبُ النّاسِ وأبصارُهم مِن شِدَّةِ الأهوالِ والفَزَعِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

تعيينُ صفةِ مَن هداه الله لنورِهِ وتسبيحِهِ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ﴾ عمّا سبق؛ لأنّها جُملةٌ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن قوله: ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [النّور: 35]، فيَسألُ السّائلُ في نفسه عن تعيين بعضٍ مِمَّن هداه اللّه لنوره، فقيل: رجالٌ في بيوت[1]، أو تكون جوابًا لسؤال مُقدَّر، كأنّه قيل: مَن يُسبِّح له؟ فقال: يُسبِّح له رجالٌ[2].

دلالةُ التَّعبير بقوله: ﴿رِجَالٌ﴾:

إشعارٌ بهِمَمِهم العاليةِ وعَزائِمِهم القويّة

عبّر القرآنُ الكريم بلفظ ﴿رِجَالٌ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٌ﴾؛ للدّلالة على هِمّتهم السّاميةِ، ونيّاتِهم وعَزائِمهم العاليةِ، التي بها صاروا عُمّارًا للمَساجِدِ التي هي بُيوتُ اللّهِ في أرضِه، ومواطِنُ عِبادتِه وشُكرِه، وتَوحيدِه وتَنزيهِه، وممّا يؤكّد ذلك أنَّ القرآن الكريم يُعبّر بلفظ ﴿رِجَالٌ﴾ في كلّ موطنٍ تظهر فيه الرّجولةُ الإيمانيّة، وقد ورد ذلك في القرآن في ثلاثة مواضع؛ أوّلها: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ [التّوبة: 108]، وثانيها: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٌ﴾[3]، وثالثُها: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ [الأحزاب: 23]؛ فكلمةُ ﴿رِجَالٌ﴾ تدلُّ على المَدحِ والثَّناء، كما يُقال: فلانٌ رجل؛ أيّ: اتَّصف بصفة الرُّجولة[4]؛ وهي البُطولة، والشَّهامة[5]؛ ففي هذا الوصف مدحٌ وتكريمٌ لهؤلاء الرِّجال[6].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 248.
(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 321، والمظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 6/ 540.
(3) النَّسفيّ، مدارك التَّأويل: 11/ 147.
(4) ابن عثيمين، تفسير سورة النّور، ص: 251.
(5) الدُّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 393.
(6) الطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 131.

كما أنّ لفظ (الرّجال) مُستلزمٌ لأوصاف صالحة لإناطة الحُكم به، والفرقُ بيِّنٌ في الأحكام التي تترتّب على وصف الرّجولة، كما في أمر القِوامة في قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النّساء: 34]، وكما هنا في أمر المساجد، فإنّه يدلُّ بمفهومه على أنّ النّساء يُسَبِّحنَ اللّهَ في بيوتهن لا في المساجد، وهذا هو الأصل، وإن كان الإسلام رخّصَ لهُنّ الذّهاب إلى المسجد، كما صَرّحت بذلك الأحاديثُ النّبويّة الشّريفة[1]، وممّا يُؤكّد ذلك أنّ القرآن لم يُعبّر بلفظ (المُسبِّحون) أو نحو ذلك؛ لأنّ هذا الوصفَ عامٌّ يشترك فيه الرّجالُ والنِّساء على حَدٍّ سواءٍ، وعند ذلك قد يتوهَّم البعضُ وجوبَ ذهابِ النّساء إلى المسجد للذِّكْر والتَّسبيح، وهذا غيرُ مُراد.

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظ ﴿رِجَالٌ﴾ مع التّنوين:

تفخيمُ مقامِ هؤلاء الرِّجالِ، وتعظيمُ منزلتِهم

في تنكيرِ لفظة ﴿رِجَالٌ﴾ مِنَ الفخامةِ ما فيه؛ لأنَّ الثّناء على هؤلاء الرِّجال ثناءٌ جَمٌّ[2]؛ ففيه دلالةٌ على مزيد قوّةٍ في العزيمة، ورفعةٍ في الشّأن؛ لأنّهم قومٌ لا تشغلهم الدُّنيا عنِ الآخرة؛ بل يذكرون اللّه، ويُديمون ذِكْرَهُ صباحَ مساءَ؛ ابتغاءَ خيره، ويُقيمون الصّلاةَ ويُؤتون الزّكاة، فهم ليسوا ممَّن يُؤثِرُ على ربِّه دُنيا ذاتَ لَذّاتٍ، ولا تجارةً ومكاسبَ مُشغلةً عنه، فقد جعلوا طاعةَ اللّه وعبادتَه غايةَ مُرادِهم، وهم مع هذا الاجتهاد يخافون يومًا تتقلَّب فيه القُلوبُ والأبصار[3].

دلالةُ مُتعلَّق لفظ ﴿رِجَالٌ﴾ ومَوْضِعُه:

بيانُ ما أُجمِلَ في الآية السّابقة وتفسيرُه

قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ﴾ راجعٌ في تَعَلُّقه بالمعنى من خلال القراءات الواردة في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦﴾ [النّور: 36] الآية، فقد قرأ الجمهور: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ [النّور: 36] بكسر الباء الموحّدة المُشدَّدة، مبنيًّا للفاعل، وفاعلُه ﴿رِجَالٌ﴾، والمعنى

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/ 228.

(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 80، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 179.

(3) الحجازيّ، التّفسير الواضح: 2/ 685، وملّا حويش، بيان المعاني: 3/ 141.

واضحٌ على هذه القراءة؛ حيثُ وقع لفظ ﴿رِجَالٌ﴾ فاعلًا للفعل ﴿يُسَبِّحُ﴾ [النور: 36]، وأمّا على القراءة الثّانية، وهي قراءة ابن عامر وشُعبة عن عاصم: (يُسَبَّحُ لَهُ فيها) بفتح الباء الموحَّدة المُشدَّدة، مبنيًّا للمفعول[1]، فالفاعلُ المحذوفُ ونائبُه تفسيرٌ للفعل المبنيِّ للمفعول في الآية السّابقة (يُسَبَّح)[2].

دلالةُ تأخير لفظ ﴿رِجَالٌ﴾ عنِ الظَّرف في الآية السّابقة:

العنايةُ بأماكن الذِّكْر والعبادة والحِفاظ عليها

جاء لفظُ ﴿رِجَالٌ﴾ متأخِّرًا في الذِّكر عن ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ من قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٌ﴾ [النور: 36 - 37]؛ فالمُلاحَظ تقديمُ البيوتِ في الذِّكْر على الذّاكرين والعابدين مِن باب العناية بمَحلّ الذِّكْر، ولفتِ أنظارِ العُمّار إلى أهمّيَّته للحفاظ عليه.

دلالةُ تقديمِ الجارّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾:

التَّشويقُ لِذِكْر خبرِ المُسبِّحين من عباد الله الصّالحين

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ [النور: 36] في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦﴾ [النور: 36] على فاعل ﴿يُسَبِّحُ﴾ [النور: 36] وهو ﴿رِجَالٌ﴾؛ للاعتناءِ بالمُقدَّم، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، ولأنَّ في وصْفه نوعَ طولٍ، فيُخِلُّ تَقديمُه بحُسنِ الانتِظام[3].

سِرُّ تخصيص الرِّجال بالذِّكْر:

صلاةُ النّساءِ في بيوتهِنّ أفضلُ

خَصَّ النَّظمُ الكريمُ الرِّجالَ بالذِّكْرِ مع أنّ حضور النّساءِ المساجدَ سُنّةٌ شهيرة؛ إشارةً إلى أنّ صلاتَهن في بيوتهِنّ أفضلُ[4]، فليس على النِّساء جُمُعةٌ ولا جماعةٌ في المساجد[5]؛ ولأنَّ النّساءَ أيضًا لَسْنَ من أهلِ التِّجارات[6].

(1) ابن الجَزَريّ، النَّشر: 2/ 332.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 253، وأبو زرعة، الحُجَّة في القراءات، ص: 501.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 179.
(4) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 279.
(5) الثَّعلبيّ، الكشف والبيان: 7/ 107.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 397.

دلالةُ ما وصفَ اللهُ تعالى به الرِّجالَ:

كمالُ تبتُّلهم لله، وعدمُ الانشغال عنه

جاء قولُه تعالى: ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ صِفَةً لـ ﴿رِجَالٞ﴾؛ مُؤكِّدةً لِما أفادَهُ التَّنكيرُ مِن الفخامةِ، ومُفيدةً لكَمالِ تَبتُّلِهم إلى اللّهِ تعالى، واستغراقِهم فيما حُكيَ عنهم مِنَ التَّسبيحِ، مِن غيرِ صارفٍ يَلْويهم، ولا عاطفٍ يثْنيهم(1)، وفيه إشارةٌ إلى تعلُّق هؤلاء الرّجال ببيوت اللّه تعالى مع ما يعتريهم في الظّاهر من صوارف الحياة وانشغالاتها مِن تجارةٍ وبيعٍ، إلّا أنّهم مع ذلك يصدُق فيهم قولُ النّبيّ ﷺ: «ورجل قلبُه مُعلَّقٌ بالمساجد»(2).

دلالةُ نَفْي لَهْوِهم بالتّجارةِ والبيعِ:

المُبالغةُ في الثَّناءِ عليهم في تقديمِهم حقَّ اللهِ على حقوقِهم ومصالحِ دُنياهم

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بالثّناء على هؤلاء الرّجال في قوله: ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ﴾؛ أي: إنّهم لا تشغلُهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن الصَّلوات وأوقاتِها في المساجد(3)؛ وفيه دلالةٌ على أنَّهم تُجّارٌ وباعَة، ومعَ ذلك لا يشغلُهم عنِ الذِّكر والصَّلوات وإيتاء الزَّكاة شاغلٌ مِن ضروبِ منافع التِّجارات، قال الحسنُ البصريّ: "أَما - واللّه - إنْ كانوا لَيَتَّجرون، ولكن إذا جاءت فرائضُ اللّه لم يُلههم عنها شيءٌ، فقاموا بالصَّلاة والزَّكاة"(4)؛ لأنَّه لا يُقال: إنَّ فلانًا لا تُلهيه التِّجارةُ عن كيت وكيت إلّا وهو تاجرٌ، وإنِ احتمل كونه غيرَ تاجرٍ أيضًا(5).

دلالةُ التّعبير بقوله: ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ﴾:

انشغالُ القلبِ بالله دونَ سواه

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ مادحًا لهم بقوله: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ﴾، ولم يَقُلْ: لا يبيعون ولا يشترون؛ لأنّ الّذي لا يبيع ولا يشتري قد يأتي إلى المسجد ليَسُدَّ الفراغَ، فهؤلاء الرّجالُ لو كانوا لا يَعرفونَ التِّجارة

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 80، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 179.
(2) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (629)، ومسلم في صحيحه، برقم: (1031).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 248.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 397.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 397.

ولا يستطيعونَها لقيل: إنَّ لجوءَهم إلى بيوتِ اللّهِ مِن بابِ الضَّرورة؛ يعني: لأَجْلِ أنْ يقضوا الوقتَ عن أنفُسِهم، ويتسَلَّوا بذلك؛ لكنَّهم قومٌ لهم تِجارةٌ، فالصّارِفُ عن ذِكْرِ اللّهِ في المساجدِ موجودٌ، وهو التِّجارةُ، لكنَّهم مع ذلك لا تُلهيهم، وكُلَّما قَويَ الصّارِفُ ولم ينصَرِفِ الإنسانُ، فهو أكمَلُ ممَّن لا صارفَ له، فكونُهم يبيعون ويشترون، وهذا البيعُ والشِّراءُ لا يُلهيهم عن ذِكْرِ اللّه، هو أبلَغُ في الثَّناء[1].

دلالةُ تخصيصِ التِّجارة بالذِّكْرِ:

التِّجارةُ من أقوى الصَّوارف عن ذِكْرِ اللهِ

تَخصيصُ التِّجارةِ بالذِّكْرِ في قوله تعالى: ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ﴾؛ لكونِها أقوى الصَّوارِفِ عندَهم وأشهَرَها[2]؛ فهي أعظَمُ ما يشتَغِلُ بهِ الإنسانُ عنِ الصَّلاة[3]، وأيضًا لأنّ التّجارةَ الغالبُ عليها المعاملةُ الرّابحة؛ لأنّ الغرضَ منها عمومًا طلبُ الرّبح، وكلّ ذلك ممّا يشغَل الإنسانَ عنِ الذِّكر، وهذا مدخلُ الشّيطانِ للإنسان، فيوَسْوِس له بأنّك إذا انصرفتَ عن تتميم هذه الصَّفقةِ إلى الصّلاة في المسجد ضاعت فرصتُكَ هذه، ولأنّ التّجارة تأتي بمعنى الجَلْب، يُقال: تَجَر في كذا، إذا جَلَبَه، ومثلُ هذه الحالةِ تشغَل عن ذِكْرِ اللّهِ؛ لتَعلُّقها بالسَّفَر.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿تِجَٰرَةٞ﴾ و﴿بَيۡعٌ﴾:

تعميمُ أنواعِ ومقاديرِ التِّجارةِ والبيعِ

دلَّ التّنكيرُ لِلَفظي ﴿تِجَٰرَةٞ﴾ و﴿بَيۡعٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ﴾ على العموم؛ أيَ: لا يشغلهم أيُّ نوعٍ من أنواع التِّجارة، ولا أيُّ فردٍ من أفراد البيوع، وإن كان في غاية الرِّبح[4].

نُكْتَةُ عطفِ البيع على التِّجارة:

عُطِفَ البَيۡعُ على التِّجارةِ في قولِه تعالى: ﴿تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾؛ لِمُغايَرةِ التِّجارةِ والبَيعِ؛ فاحتمَلَ أنْ تكونَ ﴿تِجَٰرَةٞ﴾ مِن

(1) ابن عُثيمين، تفسير سورة النّور، ص: 267.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 179، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 80.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 279.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 80.

المبالغةُ في التَّعميم بعطف ذِكْر ما يُحتاج إلى ثمنه بعد ذِكْرِ ما يُقصد لطلبِ الرِّبح

إطلاقِ العامِّ، ويُرادُ به الخاصُّ، فأرادَ بالتِّجارةِ الشِّراءَ، ولذلك قابلَه بالبيعِ، أو يُرادُ تِجارةُ الجَلَبِ، ويُقال: تَجَرَ فُلانٌ في كذا، إذا جلَبَهُ، وبالبيعِ: البيعُ بالأسواقِ، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَلَا بَيۡعٌ﴾ مِنَ الخاصِّ بعدَ العامِّ؛ لأنَّ التِّجارةَ هي البيعُ والشِّراءُ طلبًا للرِّبْحِ[1]، ويَحتمِلُ أنَّه عطَفَه عليها؛ لئلّا يُتَوهَّمَ القصورُ على بيعِ التِّجارةِ[2]؛ فالإنسانُ قد يُضطَرُّ إلى الخروجِ بالبَيعِ عن بَعضِ ما يَملِكُ؛ للاقتياتِ بثَمَنِه، أو التَّبلُّغِ به إلى بَعضِ المُهِمّاتِ التي لا وصولَ له إليها إلّا به، أو بتحصيلِ ما لا يملِكُ كذلك؛ لذا قال: ﴿وَلَا بَيۡعٌ﴾؛ أيْ: وإن لم يكُنْ على وجهِ التِّجارةِ[3]، فالتّاجرُ مَن يَجعلُ البيعَ والشِّراءَ حِرفةً له يستفيدُ منهما، والبائِعُ قد يَبيعُ السِّلعةَ مرَّةً واحدةً لحاجةٍ، ولا يُريدُ مِنَ البَيعِ التِّجارةَ، فالتِّجارةُ أعَمُّ مِنَ البَيعِ[4]، وهي جَلْبُ السِّلعِ للرّبحِ في بيعِها، والبيعِ أعمُّ، وهو أن يبيعَ أحدٌ ما يحتاجُ إلى ثمنِه، فعطفُه في الآيةِ مُبالغةٌ بالتَّعميمِ بعدَ التَّخصيصِ[5].

دلالةُ الجَمعِ بينَ التّجارةِ والبيعِ:

للمبالغةِ في أنّهم لا يشغلهم أيُّ شيءٍ عن ذِكْرِ اللهِ

جمعتِ الآيةُ القرآنيّة في وصف عُمّار المساجد بينَ التّجارة والبيع، في قوله تعالى: ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ﴾؛ للمبالغة في انشغالهم بذِكْرِ اللّه ﷻ عنِ العوارض من تجارةٍ وبيعٍ، فكلُّ واحدٍ منهما كافٍ في الإشغال عن اللّه تعالى، ولمّا كان المقامُ مقامَ مدحٍ وثناء لهذه الرّجولة الإيمانيّة؛ أُكِّد ذلك بالجمع في عدم انشغالهم بالتّجارة والبيع في الحَضَر والسَّفَر؛ لأنّ التّجارة أغلب أمرِها يكون مع السّفر، والبيعُ أغلبُ أمرِه يكون في الحَضَر، وممّا يُذْكَر في سِرّ

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 243، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 397، وأبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 49.
(2) الأنصاريّ، فتح الرَّحمن، ص: 398، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 179.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 278.
(4) ابن عُثيمين، تفسير سورة النّور، ص: 267.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 249.

الجمع بينهما أنَّ اسم التّجارةِ يجمع كلّ أنواع التّقلّب، واسم البيعِ يقع على الخاصّ، وكذلك يُقال للذي يجمع أنواعَ التّقلّب: تاجر، والذي يبيع شيئًا خاصًّا: بائع، ولمّا كان الأمرُ كذلك - أخبر بدفع التّوهُّم في أنّهم قد يشتغلون بالتّجارة دونَ البيع، أو بالبيع دون التّجارة؛ فجمع بينهما للمبالغة في أنّهم لا يشغلهم أيُّ شيءٍ عن ذِكْر اللّه مُطلقًا[1].

سِرُّ إفرادِ البيعِ بالذِّكْرِ دونَ الشِّراءِ:

البـيـعُ ألْـهـى مـنَ الاشـتراء، وقسيمُ التّجارة

أُفْرِدَ البيعُ بالذّكر في قوله تعالى: ﴿وَلَا بَيۡعٌ﴾ مع شمول لفظ التِّجارة إيّاه؛ لأنَّه أهمُّ قِسْمي التِّجارة، فإنَّ الرِّبح يُتَوَقَّع بالاشتراء ويَتَحقَّق بالبيع[2]، والشِّراءُ مَفهومٌ مِنَ البيعِ؛ لأنَّهم إذا اشتَرَوا فقد باع عليهم غيرُهم، وإذا باعوا فقد اشتَرى منهم غيرُهم[3]، وإفرادُ البيع بالذِّكْر مع اندراجه تحتَ التِّجارة؛ لأنّه ألهى؛ ولأنَّ ربحَه مُتيقَّنٌ ناجزٌ في الغالب، وأمّا الشّراء فربْحُه مظنونٌ، واليقين الدّنيويّ أكثرُ إلهاءً منَ المظنون، وما عداه مُتوقَّع في ثاني الحال[4].

فائدةُ إضافةِ الذّكر إلى لفظ الجلالة:

فضيلة الذِّكر وعظمتُه لجلال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

أُضيف الذِّكْرُ إلى لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾؛ للدّلالة على عَظَمة هذا الذِّكر في تمجيد وتعظيم الذي له الجلالُ والإكرام مُطلقًا، بصلاةٍ وغيرها، فهم كُلَّ وقتٍ في شهودٍ ومُراقبةٍ لِمَن تعرَّف إليهم بِصفات الكمال[5].

دلالةُ تكرارِ ﴿لَّا﴾ النّافيةِ في الجُملةِ الكريمةِ:

المُبالغةُ في تأكيد النَّفي

جاء التّعبير القرآنيُّ بتكرار ﴿لَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ

(1) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 574.
(2) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 6/ 540.
(3) ابن عُثيمين، تفسير سورة النّور، ص: 267.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 80، والمنصوريّ، المُقتطف من عيون التَّفاسير، ص: 520.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 278.

﴿تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ﴾؛ لإفراد البيع بالذِّكرِ مع اندراجِه تحتَ التِّجارةِ؛ وللدّلالة على شِدَّة أثرِه في الإلهاء؛ ولكون ربْحِه مُتيقَّنًا ناجزًا؛ ولتَذكيرِ النَّفيِ وتأْكيدِه مُبالغةً في الثَّناء[1].

سِرّ ذِكْر الصّلاة تصريحًا بعدَ ذِكْرِها في التّسبيح:

للتّأكيد عليها والحثِّ على حفظ جميع مقوّماتها

أعاد القرآنُ الكريم ذِكْر الصّلاة تصريحًا في قوله: ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، بعد ذِكْرها مُضمَّنةً في التّسبيح في قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۝٣٦﴾ [النور: 36]؛ تأكيدًا عليها، وحثًّا على حفظ وقتها؛ لأنّ ذلك من جملة مُقوّماتها، وكذا جميع حدودها، ولو بأوجز ما يكون للبلوغ إلى الكمال[2]، وهذا على القول بأنَّ التسبيح أُريد به الصلاة كما تقدَّم.

سِرُّ التّعبير بـ ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، وحذفِ التّاء من ﴿وَإِقَامِ﴾:

الإشارةُ إلى إقامةِ الصّلاة في مواقيتِها من غيرِ تأخيرٍ

جاء التّعبير القرآنيُّ بالثّناء على الرّجال بإقامة الصّلاة في قوله تعالى: ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ دون (والصلاة)؛ للدّلالة على أنّهم يُقيمونها لمواقيتها من غير تأخير، وأصله: (وإقامة)، فأُسقِطَت التّاءُ المُعوّضة عنِ العين السّاقطة بالإعلال، وعوِّضَ عنها بالإضافة، فأُقيمت الإضافةُ مقامَ التّاء[3]، وفي حذف التّاءِ في ﴿وَإِقَامِ﴾ إشارةٌ إلى إقامة الصَّلاة ولو بأوجَزِ ما يكونُ مِن أدنى الكَمالِ، وفيه إشعارٌ بأنَّ هذا المَدحَ لا يتوقَّفُ على أنهى الكَمالِ[4].

سِرُّ التّعبيرِ بالإقامةِ للصّلاةِ دونَ الأداءِ:

الإقامةُ للصّلاةِ إتيانٌ بها على وجهها الأكمل مع مراعاةِ شروطِها وأركانِها وآدابِها

النّاظرُ في آيات القرآن الكريم التي تحدَّثت عن إقامة الصّلاة، يجد ملازمة مادّةِ الإقامةِ مع اختلاف صيغ التّعبير بها، فمن التّعبير

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 243، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 397، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 108.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 279.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 80.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 323، والرَّسعنيّ، رموز الكنوز: 5/ 261، وقيل: حَذْفُ هاءِ (إقامة) تخفيفٌ، يُنظر: تفسير الجلالَيْن، ص: 464.

بالماضي ﴿أَقَامُواْ﴾ [الحج: 41]، ومنَ التّعبير بالمضارع ﴿يُقِيمُونَ﴾ [المائدة: 55]، والأمر ﴿أَقِمِ﴾ [الإسراء: 78]، والمصدر ﴿وَإِقَامِ﴾، واسم الفاعل ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ﴾ [النساء: 162]؛ وذلك للدّلالة على معنًى روحيٍّ يقصدُه القرآنُ الكريم في إقامة الصّلاة، وهو التّبتّل والخشوع؛ لذلك كان التّعبير بالإقامة يؤدّي معنًى لا يوجد في مادّة (الأداء)؛ لأنّه يتضمّن الإتيانَ بالصّلاة على وجهها الأكمل؛ شروطًا وأركانًا، مع التزام الخشوع والخضوع، وهذه المعاني مفقودة لو جاء التّعبير (يُؤدّون الصّلاة)؛ لأنّه يُطلَق على أداء مظاهرِ الصّلاة من حركاتٍ وأقوالٍ وأفعالٍ، ولو من غير خشوعٍ، وهذا هو الفرق بينَ الإقامة والأداء، وممّا يُؤكّد ذلك أنّ المَدح جاء مع مادّة الإقامةِ، ورتّب الجزاءَ عليها، قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾ [النّساء: 162]، فجمع لهم بينَ المَدح والأجر العظيم.

سِرُّ التّعبير بالمصدريّة دونَ الفعليّة:

تأكيدُ تعلُّق قلوبِ هؤلاءِ الرّجالِ بإقامةِ الصّلاةِ وتمكُّنها من أرواحهم في كلِّ وقتٍ

أثنى اللّهُ تعالى على المسبِّحين بإقامة الصّلاة بصفة المصدريّة فقال: ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ دون الفعليَّة (يقيمون) مع أنّ تركيب الآية السّابقة واللّاحقة يغلب عليه صفةُ الفعليَّة، ومع ذلك جاء التّعبير بالمصدريّة التي تدلُّ على تأكيد الحَدث ولزومِه؛ فهؤلاء الرّجال تعلّقت قلوبُهم بإقامة الصّلاة، وتمكَّنت من أرواحهم حتّى في غير أوقات الصّلاة المعروفة، فلم تنشغل قلوبُهم عنِ التّعلّق بإقامة الصّلاة والإعداد لها، وهذا المعنى يشرحُه قولُ رسول اللّه ﷺ: «ورجلٌ قلبُه معلّقٌ بالمساجد»[1]؛ حيث جاء التّعبير بالاسميّة (معلّقٌ)، أمّا التّعبير بالفعليّة فهو يدلُّ على تَجدُّد الحدث، وهو إقامة الصّلاة في مواقيتها؛ فكلّما جاء وقتٌ من مواقيت الصّلاة أقاموها، والأكمل منه التّعلّق بالصّلاة، سواءٌ كان في وقتها أو في غير وقتها.

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (629)، ومسلمٌ في صحيحه، برقم: (1031).

عِلَّةُ إيرادِ إيتاءِ الزَّكاةِ مع ما يُفعل في المساجدِ منَ الأعمالِ غالبًا:

مَحاسِنُ الرّجولةِ الإيمانيّةِ غيرُ مُنْحصرةٍ فيما يقعُ في المساجدِ

أورد القرآنُ الكريم قولَه: ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ في هذه الآية وإنْ لم يكُنْ ممّا يُفعَلُ في المساجد؛ لكونِه قَرينةً لا تُفارِقُ إقامةَ الصَّلاةِ في عامَّةِ المواضعِ مع ما فيه مِنَ التَّنبيهِ على أنَّ مَحاسنَ أعمالِهم غيرُ مُنْحصرةٍ فيما يقعُ في المساجدِ[1]؛ وللدّلالة على أنّ إيتاءَ الزّكاة أعظمُ العبادات الماليّة، كما أنّ الصّلاة أعظمُ العبادات البدنيّة؛ ولأنّ المقامَ مقامُ مدحٍ، فأثبت لهم أداءَ حَقّ اللّه في إقامة الصّلاة وأداء حَقّ العِباد في إيتاء الزكاة، وهذا يؤكّد عدمَ انشغالهم بالتّجارة والبيع عن أداء الحقوق.

سِرُّ التّعبير بالإيتاء مع الزّكاة:

المُزكّي يدفع زكاتَه عن طيب نفسٍ وسلامة صدرٍ

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالإيتاء معَ الزّكاة دونَ غيره؛ لما يحملُه هذا اللّفظ من معانٍ تتناسب مع فرْضيّة الزّكاة، ذلك أنّه يدلُّ على طيب النّفسِ وسلامة الصّدرِ في إيتاء الزّكاة دونَ بُغضٍ أو كراهيَة لإخراج هذا الحَقّ المعلوم للسّائلِ والمَحروم.

نُكْتَةُ فصل قوله: ﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا﴾:

ذِكْرُ عِلّة أفعالِهم الكريمةِ زيادةٌ في مدحهم

فُصل قولِه تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا﴾؛ لأنّها جملةٌ استئنافيّة مسوقة للتّعليل؛ لأنّ النَّظم الكريم لمّا وصف الرِّجالَ المذكورين بما وصفهم به، ذَكَرَ عِلَّةَ فعلِهم لذلك زيادةً في مدحهم فقال: ﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا﴾ وهو يوم القيامة[2]، وأيضًا: لأنّ هذه الجملة جاءت لبيان صفات قلوبِهم وخواطرِ نفوسِهم بعدَ بيانِ أعمالِهم وحركاتِ جوارحِهم، وكأنّها جوابٌ لسؤالٍ يَرِد في الخاطر؛ ماذا عن صفات قلوبهم بعد أعمالهم وحركات جوارحهم؟ فجاء الجوابُ: إنّهم يفعلون هذه الأعمالَ اتّقاءً ليومٍ تتردَّد فيه النّفوسُ بينَ الخوفِ والرّجاء، ذلك

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 179.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 280.

اليوم الذي تذهَل فيه كلُّ مُرضِعَة عمّا أرضعت، ويكون الوِلدانُ فيه شيبًا.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا﴾:

خوف الله تعالى عبادة وقربة

يُخبِر اللّهُ تعالى عن هؤلاء الرِّجال - وإن بالغوا في ذِكْر اللّه وطاعته - بأنَّهم خائفون من لقاء اللّه تعالى، في قوله: ﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا﴾، للإشارة بأنَّ مَن تَعَبَّدَ للّهِ خَوفًا فهو محمودٌ؛ وقد أثنى اللّهُ تعالى على مَن تَعبَّدَ خوفًا مِن عذابه فقال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ٧﴾ [الإنسان: 7]، وهُنا قال: ﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾، وأثنى اللّهُ تعالى على مَن تَعَبَّدَ طلبًا لفضله ورضوانه، قال تعالى: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ [الفتح: 29]، وفي هذا ردٌّ على مَن ذَهَبَ إلى أنَّ الأفضلَ في التَّعبُّد ألّا يَقصِدَ الإنسانُ حظًّا لنَفْسِه؛ وإنّما يَعْبُدُ اللّهَ لِذاته فقط، لا قصدًا لفضلِه، ولا حَذَرًا مِن عقابه! وهذا نبيُّ اللّه ﷺ، وهؤلاء أصحابُه - وهم أكملُ حالًا - قد ذَكَر اللّهُ عنهم أنَّهم كانوا يَبْتَغون فضْلًا مِنَ اللّه ورِضْوانًا، وكذلك فإنَّ مَن يَعْبُدُ اللّهَ سبحانَه لينالَ فضْلَه وينجوَ مِن عقابِه هو يريدُ الوصولَ إلى رِضوانِ اللّهِ، وإلى رؤيةِ اللّهِ ﷻ التي هي مِن جملةِ النَّعيمِ في الجنَّةِ(1)، وفي ذِكْر الخوفِ في هذه الآية تَعريضٌ بالمُنافقين(2).

سِرُّ التّعبيرِ بالخوفِ دونَ الخشيةِ:

الخوفُ مِنَ مَخوفٍ مُستقبليٍّ، ويدلّ على ضعفِ الخائف

آثَر القرآنُ الكريم التّعبير بالخوف دونَ الخشية في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا﴾ مع اشتراكهما في الدّلالة على الخوف؛ إلّا أنّ الخشية تزيد على الخوف، ولذلك تُسنَد الخشيةُ دومًا إلى اللّه تعالى، نحو قوله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ

(1) ابن عُثيمين، تفسير سورة النّور، ص: 268.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 249.

﴿أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ [الأحزاب: 37]؛ بخلاف الخوف فإنّه يدلّ على ضعف الخائف ولو كان المَخوف أمرًا يسيرًا، وآياتُ القرآن توضّح سِرَّ الاختلاف في التّعبير بهما، وهذا ظاهرٌ من خلال السّياق القرآنيّ، قال تعالى: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرّعد: 21]؛ حيثُ جاءت الخشيةُ مع ربّ العالَمين، والخوفُ من سوء العذاب، وممّا يُذكَر في سِرّ التّعبير بالخوف في هذه الآية أنّه يتعلّق بالمستقبل، وهذا هو المناسبُ لسياق الآية؛ حيثُ إنّها تتحدّث عن اليوم الآخر الذي لا يعلم كُنهَهُ على الحقيقة إلّا اللّه، فلا يعلم الإنسانُ إلى أيّ مصيرٍ يكون.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿يَوۡمٗا﴾:

تهويلُ أمرِ ذلك اليومِ وتعظيمُ شأنِه

دلَّ التّنكير في لفظ ﴿يَوۡمٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا﴾ على هول ذلك اليوم؛ لتذهبَ النّفس في تصويره كلَّ مذهب؛ والمعنى: يخافون أهوالَ ذلك اليوم[1]، وهو يوم القيامة؛ لذا كان تنكير لفظ ﴿يَوۡمٗا﴾ لبيان شِدَّة أهوالِه، وما دلَّ عليه هذا التّنكير من عِظَم هولِ ذلك اليوم وتأثيره في القلوب والأبصار، وقد جاء وصفُ ذلك اليوم في آيات كثيرة من كتاب اللّه العظيم؛ كقوله تعالى: ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩﴾ [النّازعات: 8 - 9]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢﴾ [إبراهيم: 42]، وقوله: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ﴾ [غافر: 18][2].

سِرّ التّعبير بالتّقلّب دونَ التّغيّر:

التّقلّب أخصّ منَ التّغير، وهو المناسب للسّياق

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالتّقلُّب مع القلوب دون التّغير في قوله تعالى: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾؛ لأنّ التّقلّب هو المناسب لهذا السّياق، حيثُ يُطلَق على صرف الشّيء عن وجهه إلى وجهٍ آخر؛ فالقلوبُ تتقلّب في ذلك اليوم بينَ الخوف والرّجاء، والسّرور

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 249.

(2) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/ 548.

والغَمّ، وبين توقّع النّجاة وخوفِ الهلاك، إشفاقًا مِنَ العقاب ورجاءً للثّواب، والأولى صفةُ أعداء الله، والأُخرى صفةُ أولياء الله، وأمّا تقلّب الأبصار: فالمُراد به تكريرُ لَحْظِ المؤمنين إلى مطالع الثّواب، وتكريرُ لَحْظ الكافرين إلى مطالع العقاب[1] بخلاف التّغيير؛ لأنّه يُقال لوجهَيْن؛ **أحدهما**: لتغيير صورة الشّيء دونَ ذاته، يُقال: غيّرتُ داري، إذا بنيتَها بناءً غيرَ الذي كان، و**الثّاني:** لتبديله بغيره، نحو: غيّرتُ دابّتي، ومنه قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ﴾ [الرّعد: 11]، وعلى هذا فالتّغيير أعمُّ مِنَ التّقليب[2].

بلاغة التَّعبير بالتَّقلُّب للقلوب والأبصار بينَ الحقيقةِ والمجاز:

المُبالغةُ في تصويرِ الكَرْبِ وشِدَّةِ الهولِ والفزعِ في ذلك اليومِ العظيم

تعدّدت الأقوالُ في المُراد بتقلُّب القلوب والأبصار في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾؛ فمنهم مَنْ قال: إنّ القلوب تضطرب فيه هولًا وفَزَعًا، وتزيغ فيه الأبصارُ كربًا وجزَعًا؛ فتتقلّب فيه القلوبُ والأبصارُ من حالٍ إلى حالٍ على حسب جلال الموقف ورهبته فيه، مُضطربةً قَلِقةً مُتقلبةً من طمعٍ في النَّجاة إلى طمعٍ، ومن حَذَرِ هلاكٍ إلى حَذَرٍ، ومن نَظَرٍ في هولٍ إلى النَّظر في الآخر، والعرب تستعمل هذا المعنى في الحروب ونحوها[3]، ومنهم مَنْ قال: إنّ القلوبَ تتقلَّبُ إلى الإيمان بعد الكفر، والأبصارَ إلى العيان بعد الإنكار في الدُّنيا[4]؛ فالكلامُ على هذا المعنى مجازٌ عقليٌّ؛ حيثُ أُسنِد إلى القلوب والأبصار التَّقلُّبُ والاضطراب مِن شدَّة الهول والفَزَع[5].

ومنهم مَنْ قال: إنّ التّقلّب قد يكون على الحقيقة، والمُراد بتَقَلُّب

---

(1) الشّريف الرّضيّ، تلخيص البيان: 2/ 244، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 179.

(2) الرّاغب، المُفردات: (غير).

(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 186.

(4) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 16/ 296، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 249، والخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1289.

(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 614.

القلوب والأبصار: اضطرابُها عن مواضعها منَ الخوف والوَجَل، كما يتقلّب المَرءُ في مكانه، ففي يوم القيامة تَتَقَلَّبُ فيهِ ٱلْقُلُوبُ ببلوغها الحناجر، وَٱلْأَبْصَارُ بالشُّخوص والزُّرقة[1]، وتتقلّب الأبصارُ من أيّ ناحيةٍ يُؤمَر بهم، أَمِن ناحية اليمين أم من ناحية الشّمال؟ ومِن أيّ ناحية يُعطَون كتابَهم، أَمِن قِبَل الأيمان أم من قِبَل الشَّمائل؟[2].

نُكْتَةُ التَّعبير بالتَّقلُّب دونَ القَلْبِ:

بيانُ شِدَّة ظهورِ تقلُّبِها واضطرابِها

عبَّر النَّظمُ الكريم عنِ اضطراب القلوبِ والأبصار بالتّقلُّب دون القَلْب في قوله: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾؛ لكونه تقلُّبًا ظاهرًا، فأشار إليه بإثبات التّاءَيْن[3]، وهذا من باب الإظهار الذي يدلُّ على الوضوح والظُّهور لحالة التّقلُّب؛ لأنّه قد يُتوهّم عدمُ ظهورها؛ لما يعتري القلبَ والبصرَ منَ الخفاء الذي جعل بعضَ المُفسِّرين يقولون: إنَّ المُراد بتقلُّب القلوبِ والأبصار هو تقلُّب أحوالِهما من باب المَجاز المرسل مع أنّه ورد في القرآن الكريم ما يُدلّل على أنّ الأمر ظاهرٌ مع القلوب بأن تزولَ عن أماكنها فتبلغَ الحناجر، ومع الأبصار بأن تصير زُرقًا، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10][4].

دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّقلُّب فِعْلًا مُضارعًا:

إفادةُ تجدُّد التَّقلُّب واستمراره منهم بتغيُّر الأحوال عليهم

جيء بفعل التّقلّب مُضارعًا لإفادة التَّجدُّد والاستمرار، فتَقَلُّبُ القلوبِ والأبصار مُتكرِّرٌ مُتجدِّدٌ منهم بتغيُّر الأحوال والأهوال عليهم في ذلك اليوم العصيب، فهي في اضطراب لا تثبت من شِدَّة الهول والفزع[5].

(1) النّيسابوريّ، باهر البرهان، ص: 1003.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 398.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 280.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 293.
(5) الطَّنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 131.

غرضُ تقديمِ شِبْهِ الجملةِ الظّرفيّةِ ﴿فِيهِ﴾ على الفاعل:

الاهتمامُ بشأن هذا اليوم، والتَّشويقُ لما سيحصل فيه

في تقديم الجارِّ والمجرور ﴿فِيهِ﴾ اهتمامٌ بشأن هذا اليوم العظيم، وما يقع فيه من أهوالٍ تُبرِز حالةَ الخوف فيه، وهو حالُ النّاس عند معايَنة شِدَّته وهولِه.

بلاغةُ جناسِ الاشتقاقِ المُغايِرِ في قولِهِ: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ﴾:

المُناسبةُ بين روعةِ المعنى وسِحْرِ الجَرْس

سُمّي القلبُ بهذا الاسم لكثرة تقلُّبه[1]، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «إنَّما سُمّي القلبُ من تقلّبه، إنَّما مثلُ القَلْب مثلُ ريشة بالفَلاة، تعلَّقت في أصل شجرةٍ يُقلِّبها الرّيح ظهرًا لبطنٍ»[2]، ومنه قول الشّاعر[3]:

قد سُمِّي القَلْبُ قَلْبًا مِنْ تَقَلُّبه *** فاحْذَرْ على القَلْبِ مِنْ قَلبٍ وتَحْويل

وقد وقع بينَ الفعل ﴿تَتَقَلَّبُ﴾، والاسم ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ جناس، ونجدُ في هاتيْن اللَّفْظَتيْن - فوقَ روعة المعنى وسِحْر الجَرْس - مُناسبةً بين رُكني الجِناس رائعة، وهذه المناسبةُ لو لم يكن للجناس وظيفةٌ سواها، لكانت كفيلةً بأصالته وحُسْنه، وهكذا في كُلِّ جناس نلمس خَلابةً وسِحْرًا، وأَسْرًا للسَّمع والفكر معًا.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ و﴿وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾:

إفادةُ العهدِ بتقلُّبِ قلوبِ المُجرمين وأبصارِ الغافلين

قولُه تعالى: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾؛ أيْ: تتقلَّب قُلوبُ الكُفّار عمّا كانت عليه في الدُّنيا منَ الكفر والشَّكِّ، وتنفتح أبصارُهم منَ الأغطية فتُبصِرُ ما لم تكن تُبصر ولم تحتسب[4]، واللّام في المَوضعيْن للعهد؛ أيْ: قلوبُ المُجرمين وأبصارُ الغافلين؛ لأنَّ ﴿أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٦٢﴾ [يونس: 62][5]، ويجوز أن تكون (أل) للاستغراق والشّمول؛ فتشمل كلّ القلوبِ، ولا يستثنى منها إلّا مَن اصطفاه اللّه وأمَّنَه في ذلك اليوم.

---

(1) المُناويّ، فيض القدير: 3/ 2.

(2) أخرجه أحمد في المُسند، برقم: (19661)، والبيهقيّ في شُعَب الإيمان، برقم: (737).

(3) البيت من البسيط، ولم أقف على نسبته.

(4) المَظهريّ، التَّفسير المَظهريّ: 6/ 540.

(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 389.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإيتاء والإعْطاء:

الإيتاءُ أَقْوى مِنَ الإعْطاءِ

لا يكاد أهلُ اللُّغة يفرِّقون بينَ الإيتاء والإعطاء، لكن نجد في الاستعمال القرآنيِّ بعض الفروق الدَّقيقة التي توحي ببلاغة القرآن وعَظَمتِه، وذلك من حيثُ إنَّ الإيتاء أقوى منَ الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنَّ الإعطاء له فعلٌ مطاوع، تقول: أعطاني فعَطَوْتُ، ولا يُقال في الإيتاء: آتاني فأتيت، وإنَّما يُقال: آتاني فأخذتُ، والفعل الذي له فعل مطاوع أضعفُ في إثبات مفعوله منَ الذي لا مطاوع له(1)، فالإيتاءُ أقوى منَ الإعطاء، قال تعالى: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]؛ لأنَّ المُلك شيءٌ عظيم لا يُعطاه إلّا مَنْ له قوّة، وكذا: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: 269]، والحكمة شيءٌ عظيمٌ أيضًا، وقال تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ [الحِجر: 87]؛ لِعظَم القرآنِ وشأنِه(2).

في الإيتاءِ وُجوبٌ والـتِـزام، وفي الإعْطاءِ تَفَضُّلٌ وإكْرامٌ

فالإتيان فيه معنى الوجوب والالتزام، أمّا الإعطاء ففيه معنى التَّفضُّلِ والإكرام؛ فمثلًا: بعد أن أسعد اللّهُ المؤمنين بدخول الجنَّة قال تعالى: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ [هود: 108]، وقال: ﴿عَطَآءً حِسَابٗا ٣٦﴾ [النّبأ: 36]، والعطاء يكون في الأشياء الماديَّة ويُفيد التَّكرار، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]؛ أيْ: سيتكرر شُرْبُك يا محمَّد كثيرًا من نهر الكوثر، وقال: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ [الضُّحى: 5]؛ أيْ: سيكون عطاءُ اللّه لكَ مُكرَّرًا حتَّى تبلغَ درجة الرِّضا(3)، أمّا الإتيان ففي الأشياء الماديَّة والمعنويَّة، قال سُبحانه: ﴿۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾ [الأنبياء: 51]، وقال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ٢٠﴾ [ص: 20](4).

(1) السُّيوطيّ، الإتقان: 2/ 367 - 368، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.
(2) السُّيوطيُّ، الإتْقان: 2/ 367، والكَفَويُّ، الكُلّيات، ص: 212.
(3) الكَفَويّ، الكلّيّات، ص: 212، والسُّيوطيّ، الإتقان: 2/ 367.
(4) صلاح لاشين، من أسرار التَّعبير في القرآن الكريم، ص: 71 - 77.

الإعْـطـاءُ دَلـيلُ التَّمَلُّكِ، وليس كـذلـك الإيـتـاء مُطلقًا

ومنَ الفروق أيضًا: أنّ الإعطاء دليلُ التّملُّك دونَ الإيتاء[1]؛ لأنّ الإعطاء إيصالُ الشَّيء إلى الآخذ له، وقد كَثُرَ استعمالُه حتَّى صار لا يُطلَق إلّا على التَّمليك؛ فيُقال: أعطاه مالًا، إذا ملَّكَهُ إيّاه، وأمّا الإيتاء فيشملُه النَّزع؛ بمعنى: أنّه ليس بالضَّرورة تمليكًا، كما أنّ الإيتاء يكون عن طيب خاطرٍ ورضا نفسٍ، بخلاف العطاء؛ فقد يكون على غير ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التّوبة: 29].

الخوف والخشية:

الخشيةُ خوفٌ خـاصٌّ يَـشوبُه تعظيمٌ، وهي أثـرٌ مِـن آثـارِ الخوفِ

الخوفُ: توقُّع حلولِ مكروهٍ، أو فواتِ محبوب[2]، والخشيَةُ: تألُّم القلبِ لتَوقُّع المكروه مُستقبلًا[3]، وهما متقاربان في اللُّغة؛ أمّا ما كان منهما من العبد في حقِّ ربِّه؛ فإنَّ الخوف تألُّم النَّفسِ منَ العقاب المُتوقَّعِ بسبب ارتكاب المنهيّات، والتَّقصير في الطّاعات، وهو يحصل لأكثر الخَلْق، وإن كانت مراتبُه متفاوتةً جِدًّا، والمرتبةُ العُليا منه لا تحصل إلّا للقليل[4].

والخشية: حالة تحصل عند الشُّعور بمعرفة جلال اللّه وهيبته[5]، وخوفِ الحَجبِ عنه، وهذه حالة لا تحصل إلّا لَمَن عَلِمَ وذاق لذَّةَ القُرب، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28]؛ فالخوفُ من شرط الإيمان، والخشية من شرط العِلْم[6]، فالخشيةُ: خوفٌ خاصٌّ يَشوبُه تعظيمٌ[7]، ويؤيِّد هذا قولُه تعالى واصفًا المؤمنين: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرّعد: 21]، حيثُ ذَكَر الخشية في جانبه سبحانه، والخوفَ في جانب الحساب.

(1) الكَفَويّ، الكلّيّات: 1/ 360، والعسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 86.
(2) الجُرجانيُّ، التَّعريفات، ص: 101.
(3) المُناويّ، التَّوقيف على مهمّات التَّعاريف، ص: 155.
(4) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة:، ص: 218.
(5) الجُرجانيُّ، التَّعريفات، ص: 98، والمُناويّ، التَّوقيف على مهمّات التَّعاريف، ص: 155.
(6) البعليّ، المُطْلِع على ألفاظ المُقنع، ص: 239.
(7) الرّاغب، المُفردات، والسَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (خشي).

﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٨﴾ [النّور: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من عرفَ ما يطلب منَ الله تعالى هان عليه ما يبذل في سبيله

لَمّا بَيَّنَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السّابقةِ أفعالَ هؤلاء الرِّجالِ التي أقبَلوا بها عليه وأعرَضوا عمّا سواه؛ بيَّنَ في هذه الآية غايتَهم فيها فقال ﷻ: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَضۡلِهِۦۗ﴾: (فضل): أَصْلٌ صَحيحٌ يدُلُّ على زيادةٍ في شَيءٍ؛ مِنْ ذلِكَ الفَضْلُ: الزِّيادةُ في الشَّيءِ[2]، سواء أكان مَحمودًا كفضل العلم والحِلم، أم مَذمومًا كفضل الغضب على ما يجب أن يكون عليه، واستِعمالُهُ في المَحمودِ أكثرُ، يُقالُ: فضَلَ الشَّيْءُ فضْلًا؛ أيْ: زادَ، وضِدُّه: النَّقْصُ[3]، والفَضْلُ: إذا استُعمل لزيادة أحدِ الشّيئَيْنِ على الآخر؛ فعلى ثلاثة أضرُب: فضلٌ من حيثُ الجنس؛ كفضل جنس الحيوان على النّبات، وفضلٌ من حيثُ النّوعِ؛ كفضل الإنسان على غيره مِنَ الحيوان، وفضلٌ من حيثُ الذّاتِ، كفضل رجلٍ على آخر[4]، والفضل: الشَّرَفُ والخيرُ والرِّزْقُ، ورَجُلٌ فاضِلٌ: ذو شَرَفٍ وخيرٍ، والإفْضالُ: الإحسانُ، والفَضائِلُ: خِصالُ الخَيْرِ، ويأتي الفَضْلُ بمعنى بَقيَّةِ الشَّيْءِ، والجَمْعُ: أَفْضالٌ[5]، والمُراد بالفَضلِ في الآية: الزّيادةُ في العطاء.

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 13/ 281.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(3) ابن دُرَيد، جمهرة اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (فضل).
(4) الرّاغب، المُفردات: (فضل).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (فضل).

2) ﴿حِسَابٍ﴾: أصلُ الحِساب: العَدُّ والإحْصاءُ[1]، ويأتي بِمعنى التَّحْديدِ، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾ [آل عِمران: 37]، ويأتي بمعنى التَّعيين والإعداد للاهتمام بالشَّيء؛ ومنه قوله تعالى: ﴿جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا ۝٣٦﴾ [النّبأ: 36]، والحِسابُ في الآية مُرادٌ به الحَصْرُ والتَّحديدُ؛ لأَنَّ الحِسابَ يقتضي حصرَ الشَّيءِ المَحْسوبِ، بحيثُ لا يَزيدُ ولا ينقصُ؛ فالمعنى: إِنَّ اللّه يرزُقُ مَنْ يريدُ رزقَه بما لا يُعرَفُ مقدارُهُ؛ لأَنَّهُ موكولٌ إلى فضل اللّه تعالى[2].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

عطاءُ اللهِ لا نهايةَ له

بيّنت هذه الآيةُ الكريمة أنّ اللّه سيُكافِئُ عمّارَ المساجِدِ - الذين يُسبّحون اللّهَ ويَذْكُرونه ويُقيمون الصّلاةَ ويُؤدّون الزّكاةَ ويخافون يومَ الحساب - على أعمالِهم في الدُّنيا بأحسَنِ ما عَمِلوا، ويَزيدُهم مِن فضلِه جزاءً عليها، واللّهُ يتفضَّلُ على مَن يشاءُ، فيَرزُقُه أرزاقًا كثيرةً لا حدَّ لها ولا عَدَّ[3]؛ لأنّه واسع الفضل، ولا تنفد خزائنُه.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة التّعبير باللّام في قوله: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ﴾:

حُسنُ العاقبةِ للذّاكرين

بَيَّنَ النَّظمُ الكريم مآلَ أمرِ أولئك الذّاكرين وحُسْنَ عاقبتِهم، فقال تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ فاللّام هُنا للعاقبة والصَّيرورة التي تتعلّق بمحذوفٍ تقديرُه: يفعلون ما يفعلون مِنَ التَّسبيح والذِّكر، وإقام الصّلاة، وإيتاء الزكاة؛ ليجزيَهُم اللّه سبحانَه أحسنَ ما عملوا[4]؛ لأنّهم لم يفعلوا ذلك من باب الاغترار بالعبادة؛ بل هم بينَ الخوف والرّجاء؛ لذلك جَعْلُ اللّام للعاقبة أَوْلَى[5].

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حسب).

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 250.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 69، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 110، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 569.

(4) الهَرَريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 19/ 340.

(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 293.

ويحتمل أن تكون اللَّام للتَّعليل، والمعنى: يفعلون ما ذكر من التسبيح والصلاة والزكاة وغيرها من الأعمال الصَّالحات؛ ليجزيهم الله في دار كرامته[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالجزاءِ دون غيرِه:

دلالةُ الجزاء على ما فيه الكفايةُ مِنَ المقابلة

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالجزاء في قوله: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لأنّه يدلُّ على ما فيه الكفايةُ مِنَ المقابلة، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشّورى: 40]، والسّيّئة الثّانية ليست بسيّئة؛ بل هي حسنةٌ، ولكنّ القرآن لمّا قابلها بالسّيّئة أجرى عليها اسمها، والعرب تقول: الجزاء بالجزاء، وأيضًا: لمّا كانت الحسنة تُضاعَف إلى أضعافٍ كثيرةٍ يضاعفُها اللّهُ للمؤمنين؛ عبّر بالجزاء في هذا المقامِ، قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ [سبأ: 37]، وعلى هذا؛ فالمناسبُ لهذا السّياق هو التّعبير بالجزاء؛ مناسبةً للأعمال التي ذكرها اللّهُ لأهل الذِّكر والتّسبيح؛ فكافأهم عليها بما فيه الكفاية في قوله: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾، وضاعف لهم هذا الجزاء بقوله: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ﴾.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ﴾:

استحضارُ صورة الجزاء المُعدّ لهم

جاء التّعبير بالمضارع ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ﴾ من باب مراعاة التّناسب للأفعال التي سبق ذِكْرها في التّسبيح والذِّكْر، والخوفِ من أهوال يوم القيامة، فكلُّها جاءت بالمضارع، وأيضًا: لاستحضار صورة الجزاء المُعدِّ لهم، مناسبة لاستحضار صورة العبادة المُتجدِّدة من هؤلاء الرِّجال.

فعل (يجزي) بينَ التّعدّي بحرف الجرّ وعدمه:

الفعل (يجزي) ورد في القرآن الكريم متعدّيًا بحرف الجَرّ الباء، نحو: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الإنسان: 12]، وتكون الباء هنا للسّببيّة،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 13/281.

وتعدّى بـ ﴿عَن﴾ [البقرة: 48، 123] في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: 48، 123]، وجاء هذا الفعل مُتعدّيًا بـ ﴿مِن﴾ [الرّوم: 45] في قوله: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ [الرّوم: 45]، والمُلاحَظ أنّ الفعل (يجزي) وقع في هذه الآية: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ﴾ مُتعديًا في الظّاهر بنفسه مِن غير أن يتعدّى بحرف، وإن كان بعضُ المُفسّرين يرى أنّه على حذف الجارّ؛ والمعنى: (ليجزيَهم اللّه على أحسنِ ما عملوا، أو بأحسنِ ما عملوا)، ومنهم مَنْ يرى في الكلام حذفَ مضافٍ بتقدير: (أحسنَ جزاءِ ما عملوا)؛ والمعنى على الأوّل: أنّه يجزيهم على أحسن أعمالهم ويتجاوز عن سيئاتهم، فإنّ الحسناتِ يُذهبن السّيّئاتِ، ولو شاء لحاسَبَهم حسابًا عسيرًا، فأحصى عليهم سيّئاتهم، ولكنّه فضلًا منه ورحمةً إنّما يجزيهم على أحسن الأعمال، ويعفو عنِ السّيّئات، والمعنى على الثّاني: (ليجزيهم اللّه أحسنَ جزاءِ أعمالهم)؛ وذلك بالمضاعفة، حيثُ يَجزي على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضِعف، واللّهُ يُضاعف لمَن يشاء[1].

نُكْتَةُ إسنادِ الجزاءِ إلى الجلالةِ:

دليلٌ على عِظَمِ الجزاءِ وجزيلِ العطاءِ

أُسند الجزاءُ إلى لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دونَ لفظِ الرّبوبيّةِ؛ للدّلالة على عِظَمِ الجزاء وجزيلِ العطاء المُعدِّ لهم في دار كرامته بعدَ البعث بعظمته وجلاله، وكرمه وجماله[2].

سِرُّ التّعبيرِ بصيغةِ التّفضيل ﴿أَحۡسَنَ﴾:

الدّلالةُ على مُضاعفة الجزاءِ على يسيرِ العملِ وكثيرِه

لفظ ﴿أَحۡسَنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ أفعل تفضيل؛ والمعنى: أنّهم يُجزَون أحسنَ ثوابٍ لِعمَلِهم؛ لأنَّ الحَسَنَةَ بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرة،

(1) إبراهيم الجبالي، شفاء الصّدور بتفسير سورة النّور، ص: 221، ومحمد داود، القرآن الكريم وتفاعل المعاني: 2/ 295.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 281.

والإنسانُ لو عملتَ له عملًا وأعطاكَ أجركَ مرَّتيْن يكون هذا أحسن ثوابٍ، لكنّ ثوابَ اللّه ﷻ أحسنُ وأحسنُ؛ لأنَّ اللّه يُضاعف لِمَنْ يشاء، فالأَوْلى؛ بل الواجبُ أن تبقى ﴿أَحۡسَنَ﴾ على ما هي عليه منَ التّفضيل؛ والمعنى: أحسنَ ثوابٍ لعملهم، ويكون الأحسن ليس للعمل؛ بل للثّواب[1]؛ فصيغَةُ التّفضيلِ تَدُلُّ على المُشاركةِ، والواجبُ أحسَنُ مِنَ المندوبِ، والمندوبُ أحسَنُ مِنَ المُباحِ؛ فيُجازَوْنَ بالأحسَنِ الَّذي هو الواجبُ والمندوبُ - على قولٍ في التّفسيرِ - دونَ مُشارِكِهما في الحُسْنِ، وهو المباحُ[2].

سِرُّ التّعبير بقوله: ﴿أَحۡسَنَ﴾ دون غيرِه:

التّنبيه على أنّه لا يُجازيهم على مساوئِ أعمالِهم؛ بل يغفرُها لهم

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بقوله: ﴿أَحۡسَنَ﴾ دون غيره في قوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾؛ تنبيهًا على أنّه لا يُجازيهم على مساوئ أعمالهم؛ بل يغفرها لهم، وللدّلالة على أنّه سبحانه يجزيهم جزاءَ أحسنِ ما عملوا، على الواحد عشرًا إلى سبعمئة، ويكون المُرادُ بالأحسن: الحسنات أجمع، وهي الطّاعات؛ فرضُها ونَفْلُها[3].

دلالةُ التّعبيرِ بالموصولِ ﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾:

إفادةُ عموم الأعمالِ، فرضًا كانت أو نَفْلًا

جاء التّعبير القرآنيُّ بصيغة ﴿مَا﴾ دون (الذي) لإفادة العموم، وبذلك يكون الجزاء لكلِّ الأعمال التي صدرت، سواء أكانت فرْضًا أو نَفْلًا؛ بخلاف (الذي) فإنّها تحمل معنى التّخصيص، وهذا غير مُرادٍ في هذا السّياق.

نُكْتَةُ الاقتصارِ على الجزاء عنِ الحسنات:

التّرغيب في حُسْن العملِ

اقتصر التّعبير القرآنيُّ على ذِكْر الجزاء على الحسنات دونَ السّيّئات في قوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾؛ مع أنّه

---

(1) ابن عُثيمين، تفسير سورة النور، ص: 270.

(2) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/ 549.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 12/ 254.

يُجازى عليها؛ وذلك لأمرَيْن؛ **أحَدُهما**: أنَّه تَرغيبٌ في فعل الحسنات والبُعد عن عمل السّيّئات، **والثّاني:** أنَّه يكونُ في صِفةِ قَومٍ لا تكونُ منهم الكبائِرُ؛ فكانت صَغائِرُهم مَغفورةً[1].

نُكْتَةُ عطفِ ﴿وَيَزِيدَهُم﴾ على ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾:

بيان سَعَةِ كَرَمِ الله على عباده الصّالحين

قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ جُملة فعليَّة معطوفة بالواو على ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾، والتّقدير: ويزيدَهم ثوابًا من فضله[2]، وفي هذا العطف بيانٌ لسَعَةِ كرم الله على عباده الصّالحين، حيثُ تفضّل عليهم بمضاعفة أجور أعمالهم، وزيادةِ فضلٍ من غير عملٍ منهم، وهذا ظاهرٌ من عطف قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾؛ لأنه يحتمل وجهيْن؛ **أحدهما**: ما يُضاعِفُه منَ الحسنة بعشر أمثالها، فيتقبَّلُ منهم الحَسَنَ ويُضاعفُه لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النّساء: 40]، وقال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: 160]، وقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةًۚ﴾ [البقرة: 245]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: 261]، وكما قال هاهنا: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3]، **الثّاني:** ما يتفضّل به من غير جزاءٍ، فيتفضّل عليهم بأشياءَ وعدَهم بها لم تخطر على بالٍ[4].

سِرُّ التّعبيرِ بالزّيادةِ في قوله: ﴿وَيَزِيدَهُم﴾:

الدّلالةُ على أنّ الله تعالى يُثيبُهم على أشياءَ لم يَخطرْ ببالهم أن يُثيبَهم عليها

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالزّيادة دون غيره؛ لأنّ معناها أن ينضمّ إلى ما عليه الشّيء في نفسه شيءٌ آخر، يُقال: زدتُه فازداد، وعلى هذا يكون التّعبير بها هو المناسب لهذا السّياق؛ فبعد ذِكْر

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 4/ 108.
(2) بهجت صالح، إعراب القرآن الكريم، ص: 59.
(3) ابن أبي زَمَنِين، تفسير ابن أبي زَمَنِين: 2/ 61، والمغراويّ، التّدبّر والبيان: 23/ 383.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 81.

الجزاء في قوله: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ﴾ ثوابًا مُضاعفًا ﴿وَيَزِيدَهُم﴾ على الثّواب تفضّلًا؛ لأنّ عطاء اللّه ﷻ إمّا تفضّلٌ وإمّا ثوابٌ وإمّا عِوَضٌ؛ فالتّفضّل: هو إيصالُ منفعةٍ خالصةٍ إلى الغير من غير استحقاقٍ، والثّواب: هو الجزاء على أعمال الخير، والعِوَض: هو البَدَل منَ الفائت؛ كالسّلامة بدلَ الألمِ، والنِّعَم بدلَ البلايا والمِحَن[1]، ويمكن أن يُقال إنّ التّعبير بالزّيادة يُدلّل على أنّ اللّه تعالى يُثيبُهم على أشياء لم يخطر ببالِهم أن يُثيبَهم عليها، ويكون ذلك من بابِ المضاعفة؛ لأن أصل معنى الجزاء المقابلةُ والمكافأةُ على ما يُحمَد؛ فلا جَرَم أنّ الجزاء بعشرة الأمثال زيادة على ما وعده اللّه تعالى[2].

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن فَضۡلِهِۦۗ﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن فَضۡلِهِۦۗ﴾ ابتدائيّةٌ وتبعيضيَّةٌ؛ والمعنى: هذا الثّوابُ مصدرُه ابتداءً فضلُ اللّه سبحانه، وهو بعضُ عطاءِ اللّه، وليس كلّ عطاءِ اللّه.

دلالةُ التّعبير بقوله: ﴿مِّن فَضۡلِهِۦۗ﴾:

بيانُ أنَّ فضلَ اللهِ فوقَ الجزاءِ عن أعمالِهم

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بقوله: ﴿مِّن فَضۡلِهِۦۗ﴾؛ لبيان عظيم رحمة اللّه على عباده، فلم يقصر أمرَ الثّواب على أحسن الثّواب؛ بل زادَ عليه الفضلَ في قوله: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ﴾؛ أيّ: يتفضّل عليهم فوقَ ذلك الجزاء بنوعٍ منَ النّعيم لا يخطر على بالٍ؛ فيُعطيهم ما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خَطَر على قلب بَشَرٍ[3].

وممّا يُذْكَر في سِرّ التّعبير بالفضل في قوله: ﴿مِّن فَضۡلِهِۦۗ﴾ أنّه جعلَ أمرَ الثّواب مكافأةً ومُجازاةً لهم مع أنّه صاحبُ الفضل والتّوفيق في الأولى والآخِرة، وزاد في الجزاء تلك المضاعفة العظمى، ثمّ وعدَ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 394.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 395.
(3) الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/ 694.

بالمزيد منَ الفضل، وهو الإعطاءُ بلا مقابل، كأنّ ما عملوا أصغرَ من أن يقع موقعًا ما، ممّا ينالهم من رحمة ربّهم؛ فإذا صَحّ أنّ بعض ما نالهم يُسمّى جزاءً مُستحَقًّا، فإنّ بقيّتَه أعظمُ من أن يُنسَبَ إليها ما قاموا به من عملٍ، مهما شَقّ وعَظُمَ، وهذا هو عينُ الفضل[1].

دلالةُ الإضافةِ في قوله: ﴿مِّن فَضۡلِهِۦۗ﴾:

تعظيمُ هذا الفضل الجزيل منَ الرَّبِّ الجليل

في إضافة الفضل إلى الضَّمير الدّالِّ على اللّه تعالى في قوله: ﴿مِّن فَضۡلِهِۦۗ﴾ تعظيمٌ لهذا الفضل الجزيل منَ الرَّبِّ الجليل مُقابلَ تعظيمِهم لربِّهم وخوفِهم منه، فكأنَّه تعالى لمّا وصفَهم بالجِدِّ والاجتهاد في الطّاعة وهم مع ذلك في نهاية الخوف؛ أخبر بأنّه يُعطيهم الثَّوابَ العظيم على طاعاتهم، ويزيدُهم الفضلَ الذي لا حدَّ له في مقابلة خوفهم[2].

نُكْتَةُ التّخصيصِ بتقديمِ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفعليّ:

اختصاصُ الله تعالى بأمرِ الرّزقِ

قُدِّم المُسنَدُ إليه لفظُ الجلالة (اللّه) على المُسنَد الفعليِّ ﴿يَرۡزُقُ﴾؛ للدّلالة على اختصاصه سبحانه وتعالى بأمر الرّزق، ولا يتعدّى إلى غيره، ولذلك وصفَ نفسَه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ [الذّاريات: 58]، وقد قَرّر اللّهُ هذه الحقيقةَ بأسلوبِ الاستفهام في أكثر من آيةٍ للتّأكيد على اختصاصه بها، قال تعالى: ﴿۞قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ [سبأ: 24]، وذَمّ عُبّادَ الأصنام بقوله: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا﴾ [النّحل: 73]، وفي كلّ ذلك دليلٌ على اختصاصه وانفراده تعالى بقضيةِ الرّزقِ، وفيه إشارةٌ إلى إلقاء الهيبة في نفوس عباده، بما له من صفات العَظَمة والجلال؛ فهو المَلِكُ الأعلى الذي يملك كلّ شيءٍ، فيرزقُ مَن شاء، وكيف شاء، لا مُعقّب لحُكمه سبحانه وتعالى.

(1) الجباليّ، شفاء الصّدور بتفسير سورة النّور، ص: 222.

(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 14/ 398.

الامتنانُ والتَّكرُّم مِنَ اللهِ على عباده

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿يَرۡزُقُ﴾ مادّةً وصيغةً:

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بالفعل ﴿يَرۡزُقُ﴾؛ لأنّه لفظٌ عامّ يشمل الرّزقَ المادّيَّ والمعنويّ؛ فالرّزقُ المادّيُّ ظاهرٌ في أمر الأبدان كالأقوات، والمعنويُّ ما يتعلّق بالمعارف والعلوم، ويشملُ الرّزقَ في الدّنيا والآخرة، والمُراد به في الآية: الثّوابُ الذي يزيد عنِ العمل، وهو فيضٌ من رحمته، وفضلٌ منه سبحانه[1]، والتَّعبير به امتنانًا عليهم وتفضّلًا، واَللّه هو المُكرمُ المُفضّل لخواصّ عباده[2]، وجاء بصيغة المضارع التي تدلُّ على التّجدّد والحدوث؛ لاستحضار صورةِ رزقِ اللّه وتَجَدُّدِ صوره؛ فكلّما اشتهت أنفسُهم أمرًا رزقَهم اللّهُ إيّاه.

إفادةُ العموم والإشارة إلى أولَويَّتهم بالزّيادة

معنى الاسمِ الموصول ﴿مَن﴾، وموقع الجملة بعدَها:

جيءَ بالموصول في قوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾؛ لما يُفيده مِنَ العُموم؛ أيْ: وهُم ممَّن يَشاءُ اللّهُ لهم الزّيادة[3]، فإذا كان رزقُ اللّهِ واسعًا لا حَدّ له، فهؤلاء الصّالحونَ أَحَقُّ وأولى من غيرهم به.

التَّنبيهُ بما في حيِّزِ الصِّلةِ على أنَّ مناطَ الرِّزقِ المذكورِ في مَحضِ مَشيئتِهِ تعالى

سِرّ وُضِعِ الموصولِ مَوضِعَ ضَميرِهم:

الاسمُ الموصولُ ﴿مَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾، عبارةٌ عمَّن ذُكِرَتْ صِفاتُهم الجميلةُ؛ كأنَّه قيل: واللّهُ يرزُقُهم بغيرِ حِسابٍ، ولكنْ وُضِعَ الموصولُ مَوضِعَ ضَميرِهم؛ للتَّنبيهِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ، على أنَّ مناطَ الرِّزقِ المذكورِ هو مَحضُ مَشيئتِه تعالى لا أعمالُهم المَحكيَّةُ، كما أنَّها المناطُ لِما سبَقَ مِنَ الهدايةِ لنورِه تعالى لا لظاهرِ الأسبابِ، وللإيذانِ بأنَّهم ممَّن شاءَ اللّهُ تعالى أنْ يَرزُقَهم، كما أنَّهم ممَّن شاء اللّهُ تعالى أنْ يَهديَهم لنورِه، حسْبَما يُعرِبُ عنه ما فُصِّلَ مِن أعمالِهم الحَسَنةِ؛ فإنَّ جميعَ ما ذُكِر مِن الذِّكرِ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5198.
(2) الشَّيخ علوان، الفواتح الإلهيَّة: 2/ 12.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 250.

والتَّسبيح، وإقام الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، وخوفِ اليوم الآخِرِ وأهوالِه، ورجاءِ الثَّوابِ مُقتبَسٌ مِنَ القُرآنِ الكريم الذي هو المَعْنيُّ بالنّورِ، وبه يتمُّ بَيانُ أحوالِ مَنِ اهْتَدى بهُداهُ على أوضَحِ وجْهٍ وأجلاهُ[1]، وفي هذا إشارةٌ إلى كمال قُدرته وكمالِ جودِه، وسعةِ إحسانِه.

دلالةُ حذفِ مفعول ﴿يَشَآءُ﴾:

لم يَذْكرِ التّعبيرُ القرآنيّ مفعولَ ﴿يَشَآءُ﴾؛ لدلالة السّياق عليه، وتقديره: (مَن يشاء أن يرزقه)؛ فأفاد العمومَ.

دلالةُ التّعبيرِ بالباء في قوله: ﴿بِغَيۡرِ﴾:

الباءُ للمصاحبة والحال، والجارّ والمَجرور يصلح أن يتعلّق بالفعل والفاعل والمفعول

الباءُ في قوله: ﴿بِغَيۡرِ﴾ للمُصاحبة، وهي التي يُعَبّر عنها بباء الحال، وقد تقدّمها ثلاثةُ أشياء في قوله: ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ الفعلُ، والفاعلُ، والمفعولُ، وهو صالحٌ لأن يتعلّق من جهة المعنى بكلٍّ واحدٍ منها؛ فإذا تعلّق بالفعل كان من صفات الأفعال، وتقديرُه: (يرزق رزقًا غيرَ حسابٍ)؛ أيْ: غيرَ ذي حساب، وإن تعلّق بالفاعل كان من صفات الفاعِلين، والتّقدير: يرزق غيرَ مُحاسبٍ بل مُتفضِّلًا، وإذا تعلّق بالمفعول كان من صفات المفعولين، والتّقدير: يرزق مَن يشاء غيرَ محاسِبٍ أو غيرَ محسوبٍ عليه؛ أيْ: إنّ الرِّزقَ لا يحاسبُه أحدٌ، أو لا يحسِبُ عليه أحدٌ؛ أيْ: لا يَعُدّ، أو غيرُ ذي حسابٍ؛ أيْ: محاسبة[2].

نُكْتَةُ التَّعبير بالنَّفي بـ (غَيْر):

الـدّلالـةُ على السَّعة والبشارة بنفي الحِساب في الآخرة

دلّ التّعبير بـ (غير) في قوله: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ على عدم عِلْم البَشَر بمقدار الرّزق؛ لأنّ الحساب يُفْهَم منه حَصْرُ المقدار، لذلك جاء التّعبير بـ (غير) فنفى الحسابَ؛ ليدلَّ على أنّ نفيَ الحساب نفيٌ للعِلْم بمقدار الرّزق، وقد شاعت هذه الكناية في كلام العرب عن كثرة الأرزاق؛ لكونه عطاءً منَ اللّه تعالى، وعطاءُ اللّهِ لا حَدّ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 180، والقنوجيّ، فتح البيان: 4/ 598.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 1/ 517، 518.

له[1]، وممّا يُذْكَر في سِرّ التّعبير بالنّفي: أنّه لّما كان المعنى رزقًا يفوق الحَدَّ، ويفوت العَدَّ؛ فقد عبَّر عنه بقوله: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾؛ فهو كناية عنِ السَّعة، ويجوز أن يكون مع السَّعة التَّوفيقُ، فيكون بشارةً بنفي الحساب في الآخرة أيضًا أصلًا ورأسًا؛ لأنَّ ذلك المرزوقَ لم يعمل ما فيه دَرَكٌ عليه فلا يُحاسَب، أو يُحاسَب ولا يُعاقب؛ فيكون المُراد بنفي الحساب نفيَ عُسْره وعقابِه، ويجوز أن يُزاد الرّزق كَفافًا، وقد ورد أنَّه لا حسابَ فيه[2].

غرضُ تنكيرِ لفظ ﴿حِسَابٖ﴾:

الـدّلالـةُ على الـعـمـومِ والشُّمولِ

تنكيرُ لفظِ ﴿حِسَابٖ﴾ من قوله: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ يدلُّ على العموم والشّمول، ففيه إشارةٌ إلى أنَّه عطاءٌ غيرُ مجذوذ[3]، فهو سبحانه يُعطي مَن يشاء من خلقه عطاءً واسعًا، بدون حدٍّ ولا عدٍّ، ولا كيلٍ ولا وزنٍ، وذلك لعِظَم العطاء وكثرته[4]؛ لأنَّ الحِساب من شأن المخلوقين الذين يخشون النَّفاد، لا من صفات الخالق، صاحبِ الجودِ الكامل، والإحسانِ الواسع، والفضلِ العميم الذي لا يدخل تحتَ حسابِ الحاسبين، ولا نهايةَ له[5].

سِرّ التّعبير بمادّة (حسب) في قوله: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾:

الـدّلالـةُ على طاقةِ الـقُـدرة الإلَهيّة

أوثِرَ التّعبير بلفظ ﴿حِسَابٖ﴾ دون غيره لما يحمله من معانٍ ودلالات؛ فيُطلَق على العَدّ والإحصاء، وعلى الكفاية، تقول: أحسبني الشّيءُ؛ أيْ: كفاني، ومنه قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: 64]؛ أي: يكفيك، ويُطلَق على المحاسبة، ويُطلَق على حُسْن التّدبير، ومن خلال هذه المعاني تستطيع إدراكَ سِرّ التّعبير بلفظ ﴿حِسَابٖ﴾؛

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 298.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 282.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5198.
(4) الجزائريّ، أيسرُ التّفاسير: 3/ 573.
(5) ملا حويش، بيان المعاني: 3/ 141.

لأنّه يقتضي معرفةَ ما لكَ وما عليك، ويقتضي مُحاسِبًا ومحاسَبًا عليه، واللّهُ تعالى ليس كمثله شيءٌ، فهو فعّال لما يُريد، يَرزق بغير عَدّ وإحصاء، ويرزق المؤمن ويرزق الكافر دونَ مساءلة أو محاسبة؛ لأنّه لا يُسأل عمّا يفعل؛ لذلك كان التّعبير بلفظ ﴿حِسَابٍ﴾ فيه دلالةٌ على طلاقة القُدرة الإلَهيّة، وممّا يُذْكَر في دلالة التّعبير بقوله: ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ ما يحمله من معانٍ عديدةٍ، يقول الرّاغب: "وقوله: ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ فيه أوجه؛ الأوّل: يُعطيه أكثرَ ممّا يَستحِقُّه، الثّاني: يُعطيه ولا يأخذ منه، الثّالث: يُعطيه عطاءً لا يمكن للبشر إحصاؤه، الرّابع: يُعطيه بلا مُضايقة، الخامس: يُعطيه أكثرَ ممّا يحسبه، السّادس: أن يعطيَه بحسب ما يعرفه من مصلحته، لا على حسب حسابهم، السّابع: يُعطي المؤمنَ ولا يحاسبه عليه، الثّامن: يقابل اللّهُ المؤمنين في القيامة، لا بقدر استحقاقهم؛ بل بأكثرَ منه، وعلى هذه الأوجه قولُه تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٤٠﴾ [غافر: 40]"(1).

بلاغةُ التَّذييل بـ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾:

تقرير الزّيادةِ، ووعْدٌ كريمٌ بأنَّه تعالى يُعْطيهم غيرَ أجْزيةِ أعمالِهم بلا حَدٍّ ولاعدٍّ

قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ تذييلٌ لما قبلَه، مُقرِّرٌ للزّيادةِ، ووعْدٌ كريمٌ بأنَّه تعالى يُعْطيهم غيرَ أجْزيةِ أعمالِهم مِنَ الخيراتِ ما لا يَفي به الحِسابُ، من غير حَدٍّ ولاعدٍّ(2).

(1) الرّاغب، المُفردات: (حسب).
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 109، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 180.

المحتويات

